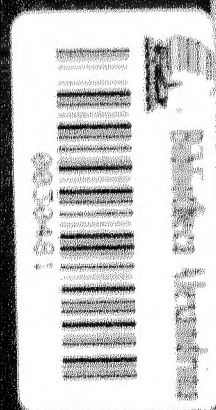


تاريخ الحضارات العالم

٣

القرن الوسيط

منشورات هوريات
بيروت - لبنان



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السربون أمانة متحف غيمه

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السربون أمانة متحف غيمه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه أرست لابروس
أستاذ في السربون أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنييرب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الثالث

تاريخ الحضارات العام القرن الوسطى

تأليف
إدوار بروي
أستاذ في السُّرْبُون

بالعَاون مع

ميشال مولات
أستاذ في السُّرْبُون

جُورج دُونِي
أستاذ في كلية الآداب
في أَيْتِكْس

كلود كاهين
أستاذ في السُّرْبُون

جانين أوبوايه
أُمينة ملف عِيمة

نقله الى العربية

فريد م. داغر

يوسف أسعد داغر

منتورات عويدات
بَيروت - بَارييس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٦

مدخل

في هذا التقسيم الاتباعي الذي لا بدّ منه لدرس تاريخ الحضارة البشرية ، ليس أوضح حدوداً ولا أبرز قسماً من حقبة الأجيال الوسطى التي تبتدىء من انهيار العالم القديم وتداعي كيانات الامبراطورية الرومانية السياسي وبنائها الحضاري ، خلال القرن الخامس للميلاد ، فهوت الى الحضيض تحت وطأة الغزوات التي قامت بها الاقوام الجرمانية وهي التي عرفت في التاريخ باسم «الغزوات الكبرى» . وقد ظهرت هذه التسمية في اخريات القرن الخامس عشر مع انطلاق عهد الانبعاث الفني الايطالي ، واكتشاف العالم الجديد والانشقاق الديني الذي قوّض أركان الوحدة المسيحية ، وهما طلوع «العصر الحديث» . باستطاعة المؤرخين ان يطيلوا النثر وان يتباحثوا ملياً حول ملاءمة او عدم ملاءمة هذه الحدود التاريخية المرسومة . هل يجب ان نردّ انهيار العالم القديم الى «أزمة» القرن الثالث ، وبذلك نضم الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية الى تاريخ الاجيال الوسطى ، أخذاً بنظرية الاستاذ فردينان لوط ، او ان نذهب ، مع نظرية هنري بيرين التي تحافظ على وحدة العالم المتوسطي الى ظهور الاسلام وامتداد فتوحاته المظفرة في أواسط القرن السابع ؟ وعهد الانبعاث الايطالي الذي ظهرت بوادر طلائعه وروائعه ، قبل عام ١٥٠٠ بكثير ، ألا يفرض علينا هو الآخر ، جعل القرن الخامس عشر بدء التاريخ الحديث ؟ ومن جهة اخرى لما كانت نتائج الاكتشافات الجغرافية الكبرى اخذت تطبع بعيداً الوضع الاقتصادي في اوروبا ، بعد عام ١٥٣٠ فهل يترتب علينا ان نلحق بالاجيال الوسطى كل الحوادث التي تقدمت هذا الانقلاب الجذري ؟ ولا يزال المؤرخون الانكليز يتباينون رأياً اليوم ويتضاربون النظر متسائلين فيما بينهم ما اذا كان «النظام الملكي» الذي يميز الانظمة السياسية الحديثة ، ظهر عندهم ، أي في انكلترا ، ابتداءً من سنة ١٤٦١ ، او بعد ذلك بنحو ثمانين سنة ، أي عام ١٥٣٩ .

فاذا كانت حدود الاجيال الوسطى الزمنية قلقة مضطربة ، فالتشويش لا يزال يلزم لليوم التسمية التقليدية لهذه الحقبة التاريخية . فالمصطلح الدارج الاستعمال يثير فينا فكرة انتقال ، او فكرة مرحلة قائمة بين ذروتين او قمتين ، او بالاحرى ، صورة فجوة او هوة قائمة بين حضارتين : حضارة قديمة وحضارة كلاسيكية . غير ان مرحلة الانتقال المديدة هذه التي تناولت ألف سنة وأكثر ، تفقد أي معنى يفيد صفة الانتقال . ومع ذلك فهذا التقسيم الذي يجرّون فيه على هذا الشكل ، لا معنى له ، حتى في حال افتراض الغلط ، إلا في ما يخص اوروبا الغربية .

فلا يمكن ان نطلقه لا على الشرق الروماني حيث بقيت التقاليد المتوارثة على حيويتها ونشاطها حتى القرن السابع للميلاد ، والتي تناسخ الاخذ بها والعمل بموجبها ، بالفعل ، قبل سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، عام ١٤٥٣ ، ولا على الشرق الادنى ايضا الذي عرف ، منذ أواسط القرن السابع ، حضارة جديدة لا تزال قائمة لليوم ، ولا بالاحرى ، على آسيا القصية التي يجب ان نستعرض هنا تاريخها منذ غزوات قبائلها الرحل ، منذ القرن الرابع حتى أواسط القرن الخامس عشر ، عندما تأخذ امبراطورية المغول بالتفكك والانحلال فالانهيار . لا يتخلل التاريخ فجوات وفراغ . ففي حقبة تاريخية ، مديدة السحابة ، تنوعت فيها اجزاء هذا العالم وتباينت وقلت فيها الاتصالات بين اجزائه المتباعدة ، كان لا بد من تراكب الازمنة وتعاطلها بعضاً على بعض ، ولو لأمد قصير . فاذا ما حافظنا ، مراعاة للسهولة ، على هذه التواريخ والمسميات المصطلح عليها ، فالطوعية التي تميز الاسانيد التاريخية ، تؤمن هذا الاستمرار الذي لا بد منه للتاريخ .

هل من داع بعد هذا ، لتبرير خطة حتمت الأحداث تناسقها وانساقها على هذا النحو ؟ . هنالك ميزتان أساسيتان تطبعان ، في نظرننا ، الحضارات التي تعاقبت بين القرنين الخامس والعاشر : اتساع الافق الجغرافي ورحابته من جهة ، ومن جهة اخرى هذا السبق او التقدم الذي سجلته على الحضارة « الغربية » التي لا تزال في القمط ، الامبراطوريات الآسيوية الكبرى ودول العالم الاسلامي وممالكه . فاذا ما فتحت الغزوات الجرمانية ثم الصقلية ، امام الاقطار الاوروبية الوسطى والشمالية والغربية ، أبواب الحضارات على مصراعها ، وهي حضارات كانت تعاني كثيراً من عوامل التأخر والانحطاط ، وتخلفت كثيراً عن الحضارة المتوسطة القديمة ، واذا ما تجاوز المد الاسلامي وتعدى بكثير ، الحدود التي عرفها الاقدمون بمحيط أوغل جنوباً ليلبغ السودان واربتريا ومدغشكر ، واذا ما استطعنا ، لأول مرة في التاريخ ان نقتفي اثر هجرات البدو الرحل في أواسط آسيا في حدود الامبراطوريات التي أسسها اهل الحضرة حتى حدود سيبيريا ، فقد كانت بيزنطية والعالم الاسلامي والامبراطوريات الاخرى التي تركزت في أواسط آسيا مركزاً لحضارات باسقة من أزهى وأزهر ما سجل التاريخ من أمثالها ، هي هذه الحضارات بالذات التي عرفت ان تحافظ وتحفظ بالتراث التليد الذي خلفته روما واليونان قديماً .

واخذ الوضع يتحول والحال يتبدل بين عام الف والقرن الحادي عشر . فاليقظة التي دب رسيبها في جنبات اوربا ، اذ ذاك ، تبلورت عن فوران اخذ يتسع وينشط ليلبغ ذروته بعد ثلاثة قرون . فقد اخذ العالم الاسلامي يتبدل في هذه الحقبة اذ اعترته عوامل ادّت به الى الانكماش والتوقف والجمود كما اعترى « دولته » وممالكه عوارض تنبى بظهور قوة جديدة تتمثل في هذه الأسر العسكرية التي برزت الى الصف الاول من العرق الطوراني ، حتى رأينا ، بعد لأي قصير ، جانباً من البلدان الاسلامية ومعظم هذه الامبراطوريات الآسيوية تفرق وتختفي تحت سيل المد المغولي الجارف . وهكذا ما كاد القرن الثالث عشر ينتصف حتى اخذنا نتبين شيئاً من التوازن

القصور الامد ، يقوم بين اوروبا الاقطاعية والاسلام التركي وآسيا المغولية . وهكذا لم يلبث ان ظهر في الاول والثاني من هذه المجالات ما اصطلعنا على تسميته بالأزمة الصعبة . ففي الحين الذي تنكشف فيه آسيا على نفسها قابضة في قوقعتها وتقطع كل اتصال لها بالقارات الاخرى ، ويشهد الاسلام صعود دولة الاتراك العثمانيين ، نرى اوروبا التي تتجه اليها انظار المؤرخين محاولين تتبع اوضاعها ونظمها ، تحاول ، وهي تعاني من فقدان التوازن في اقتصادياتها ، ومن الصراع الطبقي في مجتمعاتها ، وفي ما نشاهد من نشأة دولها ، ان تبين معالم الطريق أمامها وان تحدد ، قلقاً ، اهدافها والقوالب الفكرية التي ستستقر عليها . تحول بطيء ، عمري ، شأن كل هذه التطورات التي طبعت الحقب التاريخية قبل ان تبلغ حركتها السرعة المرجوة ، انما هو تحول استطاعت معه اوروبا الاقطاعية ان تتنقل ، وثيداً ، وتستحيل رويداً ، الى اوروبا العصرية وتتشبها لها ادوات سيطرتها الطالعة وفتوحاتها القريبة .

في هذه الحقب التاريخية التي تمتد الف سنة ، وفي عالم كمالنا هذا آخذ بالاتساع والتنوع تتراكم الحضارات او تسير جنباً الى جنب دون ان يستطيع المؤلف ان يتوقف ملياً عند كل واحدة منها . ومن الاهداف التي يترسمها هذا الكتاب ، ان يبرز للعيان ، عوامل التقارب أو التباعد التي تجمع أو تفرق ، من قريب أو بعيد ، بين المغرب الأقصى واليابان ، مثلاً ، أو بين إسlanda واندونيسيا . فقد نتج عن هذا كله بالنسبة للحلقتين الأولى والثانية اللتين صدرتا من هذا التاريخ وتلك التي هي برسم الاعداد ، حدثان رئيسيان .

فقد اصبح من المتعذر ، ان لم نقل من المستحيل ، التكلم جملة عن عالم متوسطي ، قلب المدنيات القديمة ، والحدود الذي قامت حوله ، منذ اللحظة التي نحت فيها كل من اوروبا الجرمانية - اللاتينية ، والشرق البيزنطي ، وبعدهما بقليل ، الشرق الادنى الاسلامي ، اتجاهاً مغايراً للآخر . كذلك اصبح من المتعذر ايضاً ان نضع للحضارات الاسلامية الآسيوية دراسة خاصة مستقلة بذاتها وتكون نوعاً ما ، ذيلاً أو ملحقة ، اذ ان هجرات اقوام الفيا في الآسيوية وشعوب فلواتها اخذت تمارس ضغطها في وقت واحد ، ضمن رقعة جغرافية تمتد من سهول هنغاريا حتى مشارف الصين . ولذا فقد حاولنا ان نرسم في خطوط متوازية ، صوراً مقتضبة لهذه الحضارات التي طلعت وازدهرت بين المحيط الاطلسي غرباً والمحيط الهادي شرقاً ، وبين الدائرة القطبية شمالاً ، والصحراء الكبرى جنوباً . وهكذا يستطيع القارئ الأديب ان يتتبع بتفهم ودراية ، بالرغم مما يواجهه من اختلاف البلدان وتباينها ، الروابط التي تشد تاريخ البشر بعضاً الى بعض ، هذا التاريخ الذي يرتكز اصلاً ، على وحدة الاصل والارومة ، وليس على الانقسام والتناهد .

ومن جهة اخرى ، فتنوع هذه الحضارات وتقلونها ، والتباين الكبير في معرفتنا لها وفي معلوماتنا حولها ، والمراجع والاسانيد العلمية والتاريخية التي تنهض بهذا كله يسمح لأي مؤرخ ان ينصرف لدروسها ، بالقدر الكافي من العلم والدقة . وعندما سنتكلم عن المدينة الاسلامية بعد

حين ، سنين الصعوبة التي تعترض المؤرخ في رسم صورة كاملة لهذه المدينة ، لها من الدقة والضبط والصحة ما للصورة التي نرسمها لتاريخ أوروبا ، وذلك من ناحية اختلاف المصادر وتنوعها ، وقلة الاتصالات التي نشاهدها اليوم بين « علماء المشرقيات » ، وبين « المؤرخين » ، وهي عوامل لا تساعد الا على رسم فكرة عامة ، آنية ، لا صفة نهائية لها . فما عسى ان تكون دراسة المدنات الاسلامية النائية ولم يضع لها المؤرخون بعد ، الا صوراً موجزة مقتضبة . وتاريخ أوروبا نفسها الذي ينعم بدراسات تفوق دقة كل ما يتوفر من امثاله حول هذه المدنات ، لا تستقيم فيه وسائل البحث والتقصي ، ولا هي عندم سواء ، او على نسبة واحدة ، سواء تعلق بتاريخ القرون العليا للاجيال الوسطى التي تفتقر ، كثيراً هي الأخرى ، للنصوص التاريخية ، هذه النصوص التي اخضعها النقد التاريخي للصرامة ذاتها والشدة نفسها التي اخضع لها المؤرخون نصوص التاريخ القديم ، والتي لا يزال الكثير من معطياته ، بحاجة ماسة بعد ، كما هي الحال بشأن التاريخ الكلاسيكي ، لأيد الدليل الاركيولوجي والشاهد الاثري . وحوادث القرنين الرابع عشر والخامس عشر التي تفتقر للتأصيل والتفسير والتوثيق ، دونها اكاداس مكدسة من الوثائق والمحفوظات تنتظر بصبر جليل من ينهض لدرسها ويتصدى لتوثيقها توثيقاً منهجياً بعلم واصول .

وهذه المادة المتنوعة موضوع هذا القسم من تاريخ الاجيال الوسطى تقاسمها اربعة اساتذة وراحوا يعالجونها معالجة الاختصاصي المتدبر . فقد درست الآنسة أوبواته حضارات آسيا (القسم الاول : الفصل الثالث والرابع ، والقسم الثاني : الفصل الثالث) . اما الاستاذ كاهين ، فقد اخذ على نفسه معالجة تاريخ بيزنطية والعالمين الاسلامي والصقلي (الفصل الثاني والرابع والسادس من القسم الاول ، والفصل الثاني من القسم الثاني ، والفصل الرابع من القسم الثالث) . اما تاريخ أوروبا الغربية حتى القرن الثالث عشر ، فقد تولى الكتابة فيه الاستاذ دوبي (القسم الاول : الفصل الاول والخامس ، القسم الثاني : الفصل الاول والرابع) ، بينا تصدى الاستاذ مولات للتأريخ للقرنين الرابع عشر والخامس عشر (القسم الثالث : الفصل الاول والثاني والثالث والخامس) . وهذا العمل العلمي التعاوني لا بد له من ان يتصف بالوحدة والتجانس في جميع الابحاث التي تناهد على وضعها هذا الفريق من الاساتذة . وقد جرى النظر فيها ملياً وروجعت مراراً واعيدت احياناً كتابتها من جديد ، برضى المؤلفين انفسهم ، على يد مروض خبير ، هم الاكبر ان يؤمن لهذا الكتاب ، وحدة الخطه وافراغها باتساق ، ووحدة التجانس والتناغم ، اكثر مما يهتم لتصحيح بعض الاوهام والهناك ، والمفارقات التي ائزلق اليها قلم بعض هؤلاء الكتبة ، وهي شوائب لا بد منها في عمل شارك فيه وسام مثل هذا العدد من الاساتذة ، فلا يعنيه قط ان ينتسب او يدعي التوفيق والنجاح ، ويكفيه ان يعلن هنا أمام الملأ انه من المتعذر على القارئ ان يتبين امام وحدة الموضوع والمادة ، ما هو نصيب كل واحد من هذا الفريق العلمي الكريم .

القسم الأول

تَفُوقُ الحَضَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ

(من القرن الخامس إلى القرن العاشر)

الفصل الأول

انهيار العالم الروماني: الغرب

(من القرن الخامس الى السابع)

حوالي عام ٤٠٠ ، احتفل رجال الفكر وجمهرة من كتاب اللاتين ومؤلفيهم ، بعيد عظمة روما ، هذه المدينة التي جمعت تحت مسمى واحد ، كل « الجنس البشري » ، وأتاحت للناس أجمع : « ان يعيشوا مواطنين ورعايا مدينة واحدة ، كأعضاء أسرة واحدة » ، وفتحت المجال واسعا امام الشعوب ليتعارفوا ويتزوجوا وينصهروا معا ، عن طريق الاتجار والحضارة والمصاهرة ، بينما اخذ الشعراء المسيحيون بينهم يطوبون روما ويعظمونها لأنها هيأت العالم أجمع ، بعد ان نشرت فوقه ألوية السلام ، وجمعت كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ليشاركوا معا في شراكة واحدة وإيمان واحد . وبهذه العبارات انطلقت السنة روثيلوس ثايتانوس وكلوديانوس ، وبرودانس ، معبرين عن مشاعر الارستوقراطية الرومانية بأجمعها ، بحماسة دافقة الشعور اندفعت من أغوار النفس المطمئنة . وقد آمنوا جميعهم وطيداً بأن حدود الامبراطورية لن تلبث ان تحتلط بحدود العالم المتمدن اذ ذاك ، بينما ينعم من هم ضمن هذه الحدود ، بوحدة شاملة لمت منهم الشعث . وهذه الوحدة هي مادية ، في الدرجة الاولى . فقد اختفت هذه المنازعات الاقليمية ، وزالت هذه المشادات السياسية وما جرت اليه من دفع وجذب ، وقطع ووصل ، وارتفعت الحواجز التي كانت تباعد بين الاطراف المتضادة ، ويرى أعضاء الطبقة المسيحية ، أينما وقع منهم النظر ، في أي من هذه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط إحاطة السوار بالمعصم ، أقارب لهم وأصدقاء ، ومصالح وأطياناً وأملاكاً . وكلهم ينهج النهج الواحد ، سواء أقاموا على حدود الرين ، او سكنوا دارة من هذه الدارات الشارقة التي عمرت بها بريطانيا ، وينعمون بمستوى عيش رضي رغيد . وهذه الوحدة المادية تفتحت ، من جهة اخرى ، عن وحدة ثقافية . ففي كل حواضر المقاطعات الرومانية وقواعدها ومراكز أفضيتها ، مدارس توزع نعمة العلم والمعرفة على الراغبين فيها ، حتى اذا ما صقلت نفوسهم ، عاشوا معا الابداء التاريخية الواحدة ، وتذوقوا الروائع الادبية الواحدة وهاموا بهذه الصور والمحسنات اللفظية والبيانبة التي وردت على أقلام

الخطباء ، وهاموا بروائع الفن الهليني . وهي ، الى هذا ، وحدة دينية ايضاً بعد ان تغلغلت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني العليا ، فلقت المناهج الدراسية بقوالب جديدة اتسمت بالعمق الفلسفي ، وهو العنصر الذي كانت تفتقر اليه من قبل ، كما انها اقتبست ، من هذا المجتمع ، ما كان عليه من تنظيم فكري وذهني ، بدون ان يكون في مقدور النخبة الرومانية ، ان تقبل على هذه الديانة الشرقية الجديدة . فالذين عاصروا القديس اوغسطينوس وايرونيوموس تحسوا الروابط ذاتها ، وهجست نفوسهم بالهواجس ذاتها التي أثارها فيهم مصائر الامبراطورية ، قبل ذلك بمائتي سنة ، في عهد أباطرة الاسرة الانطونية . فلم يكن ليخطر لهم على بال حتى ولا ان يتصوروا بأن حادثاً طارئاً مهما بلغ من شدته ، سيزعزع أركان النظام الامبراطوري فيحول دون مواصلة روما للرسالة السامية التي أعدتها لها التقادير الإلهية وهيات لها أسباب النهوض بها ، فتحققت على يدها وحدة العالم ، ووحدة الثقافة ، والوحدة الدينية .

أخذت هذه الوحدة تتم ، والحق يقال ، منذ أواسط القرن الثالث في ظروف قاسية كانت تزدد تعقيداً يوماً بعد يوم . فالجهد الذي بذل بسخاء للحد من غزوات البرابرة ، او بالأحرى لتحويل اتجاهها وللتخفيف من أهوالها ، بعد ان طمعوا بخيرات الامبراطورية وسال لعابهم في حلوقهم لما خبروا من نعمائها ورأوا من ازدهارها وما بذل من جهد للمحافظة على استقرار الادارة الامبراطورية في الداخل بعد اضطراب حبل الامن لكثرة الثورات العسكرية يقوم بها الطامعون في السلطة والمحاولون اغتصابها والاستئثار بها ، كل ذلك وما اليه أرقى البلاد وأهبط الادارة وعطل جانباً كبيراً من نشاطها ففي أواخر القرن الرابع ، كانت الامبراطورية لا تزال تثير الاعجاب في النفوس وتستبد بالخواطر لرحابة رقعتها ، وهيبه عظمتها ، وهو وضع لا يستطيع المؤرخ إلا ان يلاحظ فيه بعض النزعات الخطيرة . فمن جهة اخذ شطرا الامبراطورية : الشرقي والغربي ، ينزعان منذ وفاة الامبراطور قسطنطين الكبير ، عام ٣٣٧ ، أكثر فأكثر ، للاستقلال التام ، بمعزل الواحد عن الآخر ، بحيث قام في كل منها امبراطور خاص . ومن جهة اخرى ، لما كانت كل القوى الناشطة في الامبراطورية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية تتركز حول الشرق اليوناني ، اخذ الغرب اللاتيني يشاهد اثر الاعراض التي انتابته ، انحلال النظم السياسية التي ورثها من التاريخ القديم .

المخطاط الامبراطورية الرومانية
اول ما يطالعا من عوارض هذا المخطاط تدهور الروح الوطنية وتحللها . فبعد ان كانت الامبراطورية في بدء أمرها ، عبارة عن اتحاد عدد من المدن ، تنعم بالاستقلال على أنساب وأقدار متفاوتة ، اذ بها تتحول الى ملكية مطلقة من الجنس الفرعوني ، معقدة الادارة . فالاعباء التي كانت البلديات تضطلع بها من قبل او متروك أمرها للمبادرة الفردية ، أصبحت الآن من خصائص الادارة العامة ، او عبثاً على دوائرها المعقدة الكثيرة النفقات ، فأثقلت كاهل الشعب وأرزحته تحت وطأتها . وهذه الروح الوطنية الرومانية التي كانت تبعث النشاط والحماسة في قلب كلوديانوس كما أثارت حماسة القديس

ايرونيوموس ، استحالته شيئاً من التعلق الصوري او الشكلي بهذه المدينة التي رفعت روما منارها عالياً ، ولم تلبث هذه الروح ان شاها عاطفة من الزهد وعدم الاكتراث بالحكم الامبراطوري والموظفين الذين يؤمنون الادارة ويصرفون الاعمال . فأمام موظفين جشعين ، لا يهتم سوى تأمين جباية رسوم هم اول من يفيدون منها ، نرى المواطن الروماني يلتزم جانب السلبية ويحاول كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، التهرب من التزاماته المدنية والتسلص منها . فمن عضتهم الفاقة بينهم اعتصموا بالهرب او أعلنوا العصيان المكشوف . وبينما يحاول الأغنياء وسراة القوم الحصول على المزيد من الاعفاءات والاستثناءات القانونية ، تجيش نفوس الجميع بروح العصيان والتمرد . وتتمثل هذه الروح ، على أشدها ، في هذه الحركات العسكرية التي تكررت حوادثها : فالناس يتملصون من الخدمة العسكرية . فبدلاً من هذه الفرق العسكرية التي لا شأن لها ولا كبير وزن ، تفضل الدولة عوضاً عنها ويديلاً لها ، كمية من النقود ، تكبر أو تصغر ، تنقص أو تزيد ، على نسبة الفرصة السانحة والحاجة الطارئة ، تتيح لها تجنيد فرق من متطوعة البربر أقوى على الحرب وحمل السلاح . ففي اواخر القرن الرابع ، ليس الجيش الروماني ، حتى في ملاكاته العليا ، سوى فريق ليم من الاغراب المرتزقة . فهم ، في الغالب ، جنود ملء وفاضهم الحماسة ، يتجنّدون للدفاع عن الدولة التي تدفع لهم المرتبات والأعطيات ، وعن مدينة يتمنون استمرارها وامتداد سمعتها وتمثل نظمها . ومن دواعي القلق الذي يشغل البال ويقلق الخاطر هو ان المنظمة السياسية الوحيدة الناشطة ، والقوة الفعالة الوحيدة لدى هذا الشعب الروماني الذي يعاني الجلود ، هي بيد البرابرة أنفسهم .

وهذا الانحطاط الذي أصاب الجيش واوهنه ، نراه يخلخل مرافق التجارة ويذهب برواء الحياة في المدن ويشل فيها كل حركة . ففي الغرب ، ولا سيما في غالبا حيث كان للسلام الروماني اكبر الاثر في تشييط عوامل الزراعة وانهاض مرافقها ، اخذت الحركة الاقتصادية والتجارية التي قامت في القرنين الاول والثاني على قواعد اصطناعية واهية ، بالانحطاط تدريجياً واعتراها الذبول . فالطبقة الارستوقراطية كانت تموّل على الاغريق في الحصول على ما ترغب فيه من اسباب البذخ والترف يؤمن توفيرها لهم ، تجار شرقيون ، سيطروا على حركة الاستيراد ، يبيعون الرومان اكثر بكثير مما يشترون منهم ، وبذلك اخذوا يتمصون ، شيئاً فشيئاً ، ما تراكم من احتياطي المعادن الثمينة في الغرب ، خلال الفتوحات الرومانية . فقد اشتدت حاجة الناس الى الذهب ، منذ اواخر القرن الرابع ، الامر الذي أخر ، الى حد كبير وشّل حركة المقايضات التجارية ، وترك بالتالي ، اثرأ عميقاً على الحركة التجارية بين الاقطار النائية ، فأدّى الى تقهقر الحياة الاقتصادية في المدن وتردّيها . وقد انكسحت المدن الكبرى خلف اسوار اقامتها حولها على عجل لتلقي شر الاضطرابات التي نشبت خلال القرن الثالث في الامبراطورية ، واستحالته الى حصون وقلاع حصينة لم تلبث ان فارقتها معالم الحياة وغامت عنها كل مظاهر النشاط . وكان من جراء هبوط قيمة النقد الفضي ، ان تعطلت حركة المقايضات في المدن واصبحت المواد الغذائية عسيرة المثال ، الامر الذي دفع الاثرياء من سكان المدن الى مبارحتها والاعتصام بالدارات

يشيدونها لهم في الارياف، حيث كان من السهل عليهم تأمين حاجتهم من المواد الغذائية، وحاجة ذويهم. وهكذا اخذوا يتذوقون السكنى في الريف، كما يستدل من رسوم الفسيفساء التي يعود تاريخها الى القرن الرابع، فيستسلمون للآذم. وراحوا يستعوضون عن الكماليات المستوردة من الشرق بمصنوعات محلية، وان كانت دون الاولى دقة صنعة، إلا انها دونها بكثير كلفة وثنًا. وقد خضعت جميعات التجار والصناع التي ازدهرت من قبل في المدن، لمضايقات جبهة الضرائب والرسوم، بعد ان تفننوا في إبتزازها، واخذت بالانحلال، بعد الذي عانت من ركود الاعمال والاشغال اثر تناقص عدد زبائنهم من ذوي اليسار. وهكذا اتجهت البلاد نحو نظام من المعاملات الاقتصادية قضي على الزراعة، فبارت الارض واجدبت، وهكذا راحت المدن واسواقها والطرق القائمة في الريف تزول معالمها شيئاً فشيئاً، كما ضاقت فيها سبل العيش على الاهلين، بعد ان قل النقد المتداول بين الناس، كما تمطلت الطرق التجارية، الأمر الذي لم يكن ليسهل مهمة الدولة في جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المفروضة على المحاصيل الزراعية، وأصبحت لا تعمل إلا على ضريبة الخراج والأعناق التي كثيراً ما كانت تجبى عيناً، الأمر الذي كان يعقد امور الجباية ويحمل من المتعذر الانتفاع من الرسوم الجبائية. وكان من جراء اعتماد الامبراطورية المتزايد على الريف، ان اخذت الدولة الاعتماد على كبار الملاكين مباشرة، فعولت على المصادر والسخرة في تأمين أود الجيش والموظفين الاداريين والحاميات العسكرية، فهأت بذلك تفتيت السلطة وتشعبها.

وهكذا ساعدت الدولة على خلق نظام اجتماعي جديد بالرغم من الجهود التي بذلتها الامبراطورية التي رأت، تبسيطاً لمهمتها ولتأمين الاستقرار في تحصيل الضرائب، ان تربط، بصورة وراثية، كل رجل حر بوضعه الاجتماعي فيلزمه ويتقيد به ولا يحيد عنه. فانحطاط المدن واشتداد وطأة الضرائب تسببا في انهيار طبقة صغار الملاكين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال، وحملهم على طلب حماية من تتوفر لهم القوة والبأس، ليردوا عنهم غائلة المستبدن وجشع المستغلين، وبذلك قضي تماماً على الطبقة الوسطى، كما ازدادت الطبقة الارستوقراطية والطبقة المشيخية الاخرى نفوذاً على نفوذ، بعد ان اقتصرت الوظائف الحكومية عليها. وهكذا لم يلبث رب الارض الذي اتخذ من قصره حصناً حصيناً، ونصب حوله الحراس يسهرون على سلامته وامنه ان أصبح السيد المطلق على هؤلاء المممرين الذي يعملون في ارضه ويحرقون مزارعه، ويضطرم لدفع رسوم خاصة له او تأدية بعض أعمال السخرة مقابل حمايته لهم وتحمل مسؤولياتهم امام اصحاب الشأن. وهكذا لم يعم المزارعون والفلاحون الذين يعملون في جواره ان وضعوا، هم ايضاً، أنفسهم تحت حمايته، وقدموا له بكل اخلاص، ما يلزم من الخدمات. والى جانب هذه الاقطاعات التي نشأت في البلاد وكانت بمأمن من مضايقات ذوي الشأن لما تعممت به من حماية المتزعمين، اخذ المجتمع اذ ذلك، بالتفتت والتفسخ، فاقتربت المدن من سكانها بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية وأخذت المجتمعات الريفية تتمتع بالمزيد من الاستقلال

وهي على أتم استعداد للدخول تحت طاعة من يؤمن لها الرعاية والحماية ، وعاشت في طول البلاد وعرضها جماعات من المتمردين ، وانتشرت في أرجاء البلاد طوائف من الأرقاء الفارين والفلاحين الذين يرزحون تحت وطأة الضرائب والرسوم المتراكمة عليهم سنة بعد سنة .

وهذه القيم الروحية للحضارة في الغرب ، تبدو في أواخر القرن الرابع ، تداعي الحضارة وانهارا على شتى مظاهرها : الدينية والثقافية والفنية ، وكأنها أقل تأثراً بهذا الانهيار . فتحت تأثير المسيحية ، وبفضل ما للديانة الجديدة من جذور شرقية وشعبية ، أخذ الفن والفكر يبتعدان شيئاً فشيئاً ، عن مظاهرها الكلاسيكية ويتلبسان أشكالاً وصوراً جديدة ، فتحت تأثير الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي أخذ بها كل من امبروسيوس واوغسطينوس ، ارتدى الرسم على الزواج المذهب ، والتصوير على الألواح العاجية المزدوجة التي كثر استعمالها في شمالي إيطاليا ، طابعاً نمّ عما بلغه التجريد الروحي . فإذا ما رأينا الفنانين يكثر من حفر صور بشرية على جوانب النواويس ، بارزة غصونها ، ظاهرة مجاعدها ، فبحسبهم بالاحري ، عن أنماط فنية جديدة وليس عن قلة درية فنية في الصناعة ، إذ كانوا يحاولون التعبير ليس عن الجمال الصوري بل بالكثر ، عن العنصر الفائق الطبيعة الذي جاءت الديانة الجديدة تعلن للانسان عن وجوده ، وتُفَعِّم به قلبه .

ومع ذلك ، فلا بد من ان نلاحظ ظهور بعض امارات التقهقر في هذا المجال . فالهبوط عن المستوى الذي لا بد من تسجيله هنا ، جاء نتيجة لانتشار القيم الدينية والثقافية بين الطبقات الشعبية . فكما انتشرت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني الارستوقراطي ، وتغلغل بين ثنائه ، فقدت من سموها بنسبة ما حققته من سعة وانتشار . فالروح الدينية التي نلناها لدى النبيل بولان ده بيللا ، احد سعاة القوم في مقاطعة البوردولي ، هي روح دينية ميسرة ، مريحة جاءت على مقياس نهج الحياة والعيش الرخي الذي انتهجته الطبقة المشيخية ، اذ ذاك . وهبوط المستوى الثقافي يرتبط ، الى حد بعيد ، بهذا الانكماش الذي خلخل الوضع الاقتصادي وقضى على حياة المدينة ، وذهب ببها هجها . فقسلة الطلب او انعدامه لدى الطبقة الارستوقراطية التي أخذت تأتلف ، أكثر فأكثر ، مع حياة الريف وعادات أهله ، أدت بالتالي الى التقليل من الانفاق ، والى اقفال المصانع الفنية ، كما أدى هذا كله الى هبوط ملحوظ في الاساليب والمناهج الفنية نفسها ، كما يبدو ذلك واضحاً في معالم الفن الجنائزي ، في مدينة آرل ، عام ٣٩٠ . فالمدن يهجرها سكانها ، كما تخبئ فيها جذوة الحياة الفكرية ، ممثلة بالمدرسة رمز النشاط الثقافي ، اذ ان المدرسة هي مكان لمطالعة الآثار الادبية ودرسها . وعندما يهجر هؤلاء الناس المدينة ويقطعون كل صلة لهم بها ، يألون حياة الريف دون ان يقطعوا ، مع ذلك ، كل انعطاف نحو النشاط الفكري . فهم يعقدون اجتماعات لهم دورية كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، فيتعاورون الكتب ، ويتبادلون الرسائل مع بعضهم ، فتبقى المراسلة أنشط وسائل الاتصال ، ويمهدون بتربية أولادهم لمربين من الخاصة . ومع ذلك فكما استحالت التربية نشاطاً عائلياً او عملية بيتية ، وكلما ضعفت او قلت الاتصالات

مع الحاراج ، ضمرت ، بالتالي ، الاعراف الثقافية والتقاليد الحضارية ، تحت تأثير الوسط الريفي المحشوش . فالاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة ، في اخريات القرن الرابع ، أصبح وقفاً على نخبة مختارة . فطالما استطاعت هذه النخبة ان تثبت وجودها في الوسط الحضاري وفي المدينة ، استطاع بالتالي ، الفن والفكر معاً ، ان يحافظا على شعلتها مشبوبة وهاجة . اما اذا ما تفرق شمل هذه القلة المختارة وراح كل من أفرادها يقبع بين أملاكه وأقطانه الواسعة ، في عشرة موصولة مع الفلاحين ، فلا بد من ان تنقلب الحال غيرها . وهكذا بإبتعاد المثقفين عن المدينة وانقطاعهم في شبه عزلة في الريف ، لم يلبثوا ان يفقدوا كل رواء المدينة وان تحشوشن طبائعهم وتغلظ أرواحهم .

وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع تميل نحو الغروب ، حتى رأينا التحول يخيم على المدينة في الغرب دون ان يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري امامهم او يقع حولهم . ففي الوقت الذي تنعدم ، في الدولة ، كل وسائل العمل والتنفيذ ، ويتجاذب السلطة الفعلية كبار الاقطاعيين وقادة الجيش ، وجلبهم أغراب ، لا تلبث تقاليد الريف وعاداته ان تنشط وتستبد بالاذواق والاخلاق والاعراف ، فتضعف ، بالتالي مباحج حياة المدينة وهذه الحياة الراهفة التي سادت أجواء المدن وعمرت بها الحياة في ظل اقتصاد نشيط وتجارة مزدهرة . وسيحدث قريباً ما يجعل من هذا الانهيار ويسير بهذا الوضع الذي صورنا الى النهاية المحتومة التي رسمت لها في هذه الموجات المتتالية من الغزوات تشنها القبائل الجرمانية .

الموجات الجرمانية وقع وراء نهري الرين والدانوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم البربري او الهمجي ، أي هذا القسم شبه المجهول من العالم الذي لم يكتب له ان ينعم ولا قيض له ان يسهم بالحضارة الرومانية . وهؤلاء الاقوام البرابرة الذين يعيشون على حدود الامبراطورية هم الجرمان ، وهم قبائل من سكان الاريا ، ما ان يستقروا فوق ترسة ممسكة شحيحة حتى يعالجوها بأساليب بدائية . الوحدة الاجتماعية عندهم هي الاسرة ويؤلف مجموع الأسر من صلب واحد قبيلة تتوزع الى بطون وأفخاذ ، يتألف من بعضها احلاف عسكرية تعرف عندهم بأقوام او شعوب . من هذه الشعوب مثلاً : الفرنج *Franks* وهم على فرعين او شعبتين : *Saliens* و *Ripuaires* ، والألامان ، والبورغونيون *Burgondes* والفندال ، والاستروغوط والفيزيغوط ، تحت امرة رؤساء او قادة حرب ، هم على الغالب ملوكهم وأصحاب الكلمة النافذة ، والحل والربط عندهم . والحدود التي كانت تفصل بين هذه الاقوام الجرمانية والامبراطورية الرومانية ليست ، على كل حال ، صعبة النفاذ ، ولا من العسير التسرب عبرها والانسراح في المناطق الرومانية ، فقد سبق لمبشرين ان حملوا الى بعض هذه الشعوب ، النصرانية ، انما على مقالة الآريوسية *Arianisme* ، كما حدث للجرمان ان اجتازوا ، بأعداد كبيرة متراسة ، هذه الحدود ، ليعملوا مزارعين في بعض الاقاليم الرومانية ، او ليؤلفوا فرقاً مرتزقة في الجيش الروماني . وقد استطاعت روما ، منذ عام ٢٨٠ ، ان تهيمن على هذه الحدود

بنجاح وتتشدد بمراقبتها . إلا ان الضغط على هذه الفواصل اخذ يشتد ، في أواخر القرن الرابع ، بدافع من ضغوط او كابوس لا يقاوم ، من قبل هذه الشعوب التي اخذت تتململ وتتمطى وتتهاج في هذه الفيافي الشاسعة الممتدة من أواسط القارة الآسيوية . فلم تستطع الحدود الرومانية وما عليها من قلاع وحصون ، الصمود في وجه هذا الضغط ولا احتمال شدة الصدمة الدافعة ، فانهارت أمام سيل جراف من هذه الاقوام تدافعت من الثغرات التي انفتحت امامها ، فاكسحت في اندفاعها أوروبا الغربية ودكت منها المعالم .

وأول من اجتاز حدود الامبراطورية على الدانوب ، من هذه الشعوب ، قبائل الفيزيغوط ، وثاروا في وجه الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ . وقد استطاعت حكومة الامبراطور تغيير وجهة هذه الموجة البشرية وتحويلها نحو الغرب ، فلم يلبث ملكهم ألابريخ ان فتح مدينة روما ، عام ٤١٠ ، واحتلت جحافلها ، عام ٤١٢ ، غاليا الجنوبية في الوقت الذي اجتازت فيه قبائل الفندال حدود الرين تجر وراءها ليماً من القبائل الجرمانية الاخرى كالآلن *Alains* والسويف *Suèves* ، وذلك في اليوم الاخير من سنة ٤٠٦ ؛ ومن اسبانيا التي استباحتها شعوب الفندال واقامت فيها ردهاً من الزمن تستعيد عافيتها وقوتها ، راح ملكهم جنسريق يفتح لهم ، عام ٤٢٩ ، مقاطعة افريقيا . أما شمالي غاليا ، فقد راح غنيمة باردة للفرنح والألمان والبورغونيين الذين انتهى بهم مطاف الغزو ، الى مقاطعة سافوى ، عام ٤٤٣ . وبين ٤٠٠ - ٣٠٠ ، اضطرت الفيالق الرومانية لاخلاء بريطانيا وترك شؤون الجزيرة لسكانها من اقوام الكلتيين الذين لم يلبثوا ان عانوا الأمرين من غزوات السكسون ومهاجماتهم المتكررة ، محاولين من وراء ذلك ، اقتطاع الأراضي الواقعة على شواطئ بحر الشمال وخليج المانش . وتمكن الكلتيون من الصمود في وجه هؤلاء الغزاة حتى اواخر القرن الخامس . الا ان الجرمان توصلوا الى طرد سكان البلاد الاصليين ، الى الشمال والغرب منها . وجلا قسم من البريطانيين الى شبه جزيرة الارموريك ، في غاليا ، هرباً مما تعرضوا له من ضغط السكسون . ومنذ عام ٤٥١ - ٤٥٢ انطلقت موجة الهونز بقيادة أتيلا ، من سهول بانونيا تدك تحت سنبلك خيلها غاليا وسهل البو في ايطاليا الشمالية . وفي عام ٤٨٨ ، دخل ثيودوريق ملك الاوستروغوط ايطاليا ، على رأس جيش لجب . وهكذا في أقل من قرن واحد ، استباححت موجات عارمة متواصلة من اقوام الجرمان وشعوبهم ، معظم مقاطعات الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما بقي شطرها الآخر ، في الشرق ، سليماً مصوناً الى حين . والرأي المعول عليه لدى المؤرخين هو ان يعملوا من هذه الحقبة حداً ينتهي عنده التاريخ القديم ، ويبتدىء معه تاريخ الأجيال الوسطى . فما هي لعمرى ، النتائج التي ترتبت على هذا الحادث الطارىء الذي أشرعيقاً في تاريخ الحضارة ؟

فالانشاءات الرومانية الممتدة في هذه الدساكر والقرى والمزارع والحاميات المتناثرة حباتها على الحدود ، في ابعاد متفاوتة ، مما وطأه الغزاة الطارئون بأرجالهم ، زالت معالمها تماماً من الوجود دون ان يبقى منها اثر بعد عين . فتقاسمت أقوام من السكسون والبريطانيين سكان

البلاد الأصليين ، مقاطعات بريطانيا . وسيطر على مقاطعة الفلاندر واقليم رينانيا بين الدانوب وجبال الألب ، قبائل الفرنج والألمان والبغاريون المنتصرة ، وراحت تستعمر بوسائلها ، هذه المقاطعات وتستغلها ، بينما نزح عدد كبير من الرومان عن هذه الأرجاء ، واقاموا بعيداً الى الجنوب ، بينهم سلفيان التريفي *Salvien de Trèves* الذي جاء وسكن مدينة مرسيليا . ووقعت اعلات الفن وروائعه ، والمباني التي كانت تزهى بها هذه المدن ، والرياش الفاخرة التي ازدالت به صروح سراة القوم ، وداراتهم الجميلة في الارياض ، كل هذا ذهب فريسة للغزاة الفاتحين . فلم يبالوا قط بما لهذه الدرر والغرر الفنية من قيمة وشأن فاهملوا امرها ولم يلبث ان عفا الكثير من معالمها فاصبحت نسباً منسياً . وهكذا زال من الوجود ما كان قائماً فيها من مدارس وكنائس ، كما بادت فيها الجوالي والجماعات المسيحية ، وارتفع كل اثر للحدود الرومانية ، واقتسمت هذه القبائل الجرمانية الاقاليم الرومانية الواقعة اليها فوزعتها على ما عندها من بطون وافخاذ ، فانتهبتها الجماعة وحولتها الى مزارع ومراع فسادت فيها اخلاق الوثنيين وعاداتهم . وقد حدث شيء شبيه بهذا ، في مقاطعة الارموريك التي نزلت بها جاليات من بريطانيا هرباً من وطأة الغزاة السكسون ، وفي جبال كنتبريا الى الشمال الغربي من اسبانيا حيث عاد السكان الى طبائعهم البربرية في المناطق التي لم تدرج فيها اللهجات الرومانية ، انما سادت فيها لغات البشق *Basques* والكلتيين وغيرها من اللغات الجرمانية .

اما في الجنوب من هذه المنطقة فنتائج الغزوات البربرية كانت اخف وقعاً . فقد كان عدد البرابرة الذين انساحوا في بعض اطراف البحر المتوسط الغربية كاسبانيا وافريقيا ، قليلاً نسبياً ، اذ لم يعبر مضيق جبل طارق ، الى افريقيا ، بصحبة جنسريق اكثر من ٨٠ ألفاً كما لم يدخل اسبانيا تحت قيادة ثيودوريت ، سوى ٢٠ ألفاً من الاستروغوط ، حيث اخذوا يستمرثون تدريجياً ، المدنية الرومانية ، اذ اعتنق السواد الاعظم منهم النصرانية . صحيح انهم كانوا مدججين بالسلاح ، قساة القلوب جشعين وكان عبورهم خلال ايطاليا وغاليا واسبانيا في طريقهم الى افريقيا كارثة هزت اركان العالم اللاتيني وهددته بالحاق ، لما انزلوا في هذه البلدات من خراب ودمار ، ونهب وسلب ، وما اضرموها فيها من حرائق ضروس اكلت الاخضر واليابس . فهذه الكنوز التي طمرها اصحابها من الاغنياء وسراة القوم في الأرض ، لاستبقاء لها وجعلها في منجى من عبت العابثين ، لم تَرَ النور ثانية ولم يعد اليها اصحابها ، بعد ان ارتفعت الغمة وانقشعت الغمامة السوداء ، مما يدل على ان عدداً كبيراً من اغنياء الرومان لقوا حتفهم خلال النكبة ، أو جَلَسُوا عن اوطانهم دونما رجعة . وبين الذين آثروا البقاء حيث هم ، أو لم تقتلهم العاصفة ، من آل امرهم الى الخراب والدمار ، كما وقع مثلاً لبولان ده بيلا الذي جرب ان يتعاون مع الغزاة وآثر العيش بينهم محافظة منه على مقتنياته واملاكه وثورته الطائفة ، مع انه كان من الميسور له ان ينجو بنفسه مع ذويه ، الى املاكه الواسعة في الشرق . وعمت الفوضى البلاد لكثرة

الاضطرابات والانتفاضات الشعبية . فقد ثار العبيد وتمردوا على اسيادهم ، وراح البائسون من الفلاحين والمزارعين ينصرون جحافل البرابرة الغزاة ويشدون من ازرم . وعمت الفوضى مرافق البلاد الاقتصادية : اذ اختل حبل الأمن واختلت بالتالي الحركة التجارية ، وانقطعت وسائل الاتصال والانتقال كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج . وما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس وواقع ، سقوط روما عام ٤١٠ ، بيد البرابرة . فكان لهذا الحادث دوي بعيد في النفوس انزل الهلع في قلوب العالم المتمدن ، حتى ان القديس ايزوذيوس انقطع حيناً عن متابعة عمله ، في عزله في بلاد اليهودية . اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المشيخية ، فراحوا يردون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الآلهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها ، كما رأوا في هذه النكبة النكباء نتيجة وخيمة لزواج المسيحية ونواهيها . وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب ، فاحذوا يتساءلون بشيء من الحيرة : لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس ؟ وراح فريق منهم ، بعد ان وقعوا فريسة الوسوس يتقربون من الأصنام التي رذلوها من عهد بعيد ، وأطرحوها جانباً يعفرون أمامها رؤوسهم مستغفرين ، قارعين صدورهم ندماً واسفاً ، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم . واسمع ما قاله هذا الشأن بروسبير الكويتاني : « فارق السلام ارضنا هذه ، فاصبح كل ما تقع عليه العين سائراً للزوال . » ولكي يرد القديس اوغسط طينوس شماتة الشامتين ودعاة السوء والشائنين ويقوي ضعاف الايمان وضع كتابه : « مدينة الله » *Cité de Dieu* . ومع ذلك فما كادت العاصفة تمر حتى تناسى الناس ويلاتها ونتائجها المشؤومة ، كما عادت الثقة الى النفوس . وما ان اطل عام ٤١٧ حتى راح روتيليوس نقاتيانوس *Rutilius Namatianus* يشيد عالياً ويتغنى بعودة البجوحة والرفاه ، وعودة النشاط التجاري وحركة المبادلات وحياة الله . اما الكاتب اوروز *Orroze* (فعلت على الحادث قائلاً : فالغزو حادث طارئ ، وانقضى . فقد سمحت به العناية الإلهية لتتيح للبرابرة الانسراح في الامبراطورية الرومانية المظفرة ، وليفيدوا مما فيها من حضارة ومدنية ونصرانية . وقد ارتفعت في روما بين ٤٢٢ - ٤٣٠ كنيسة : الأولى باسم القديسة سابينا والثانية باسم القديسة ماريا الكبرى (ماجور) ، وفرشت جدرانها بالفسيفساء ، سيراً مع التقاليد الفنية المرعية منذ عهد قسطنطين .

التشكيلات الجديدة
لم يترك غزو القبائل الجرمانية ، للبلدان الواقعة حول البحر الابيض المتوسط ، أثراً عميقاً ، إلا في البنيان السياسي وتنظيماته . فبعد الغزو بمدة قصيرة ، راحت الحكومة الامبراطورية تحاول اعطاء صبغة شرعية لإقامة البرابرة في المقاطعات التابعة لروما . فقد اعتادت الامبراطورية ، منذ عهد بعيد ، استقبال رجال الحرب من بين البرابرة . فلم تكن جحافل الغزاة لتختلف كثيراً في الأصل عن فيالق الجيش الرسمي ، اذ ذاك . ففي توزيعهم على الأقاليم والمقاطعات ، دمج لهم في الملاكات والأطر العسكرية المعمول بها في البلاد ، بعد ربطهم والاستيثار منهم بالمواثيق . فقبل ان يطل ألابريق ايطاليا بسنابك خيله ، كان

ضابطاً كبيراً في الجيش الروماني برتبة *Magister Militum* ، كما ان احلاف الفيزيغوط أُقسطعوا ، بموجب معاهدة عُقدت معهم ، عام ٤١٥ ، مقاطعة الاكويتان . وجرت اتفاقات مماثلة مع غير هؤلاء الشعوب أضفت الشرعية على استيطان الحلفاء الجدد من الفندال ، ان لم يكن في اسبانيا ، عام ٤١١ ، أقلسه في إقليم نوميديا ، عام ٤٣٥ ، وفي افريقيا عام ٤٤٢ ، كما أضفت الشرعية على اقتطاع قبائل البورغونيين ، مقاطعة الساقوى ، عام ٤٤٣ . وثيودوريق نفسه الذي كان رئيس هؤلاء الاحلاف ، أصبح ، منذ عام ٤٨٣ ، بطريقاً وقائداً للجيش . وقد احتفظ هؤلاء الحلفاء بقوانينهم الوطنية وبما لهم من تشكيلات مستقلة اختصوا بها . فلذلكهم وحده ، حق التفاوض مع روما ، وله وحده حق ابرام المواثيق ، التي يتعهد بموجبها تقديم كل مساعدة عسكرية مقابل القيام بأوَد رجاله .

وتنفيداً لمسؤولياتها من هذا القبيل ، راحت الامبراطورية تطبق ، بعد ان تبنتها وأخذت تعمل بموجبها ، الاساليب ذاتها والمناهج نفسها التي كانت متبعة من قبل ، لتوفير السكن وأسباب الراحة لموظفيها وأفراد جيوشها . فكانت الدولة تسلمهم أذونات بالسكن ، وباستلام ما هم بحاجة اليه من المواد الغذائية ، من مستودعات التموين العامة ومخازن الإعاشة . وأمام انتشار حركة العيش في الريف التي نشطت أسبابها ، اذ ذلك ، ومواجهة ضرورة توفير مقومات السكنى الطويلة ، رأت الدولة نفسها مضطرة لتعديل قانون « الضيافة » المعمول به ، اذ طُلب الى الملاكين التخلي عن ثلث او ثلثي بعض ممتلكاتهم ، لقواد هذا الجيش الذين راحوا يوزعونها بدورهم ، بين كبار الرؤساء والضباط . والظاهر ان العملية تمت دون ان تثير صعوبات كثيرة ، فضلاً عن عدد البرابرة الذين اقتضى تدبير سكنهم ، نسبياً ؛ ومن جهة اخرى ، فقد جرت العادة ان يقيم بعض أعضاء الطبقة المشيخية حاميات عسكرية على ممتلكاتهم ، وحداتها من البرابرة . ولم يتمتع لهذا التدبير التعسفي سوى قلة من أصحاب الذوق الرفيع ، أمثال سدوان ابولينير *Sidoine Apollinaire* الذي لم يكن ليطلق او ليحتمل خشونة هؤلاء النزلاء الحشاش الطباع ومضايقاتهم . وبقيت الدوائر الادارية العامة ماضية في سيرها كالمعتاد ، لم يزعجها كثيراً ، تحمل أعباء جديدة نزلت على المدنيين من جراء تأمين أوَد جيش احتلال بصورة مستمرة ، وهو عبء جديد أضيف الى الاعباء الثقيلة الاخرى المترتبة على سكان بعض المقاطعات الرومانية ، من هذا القبيل .

كانت السلطة الفعلية ، والحق يقال ، في هذه الولايات ، في يد ملك البرابرة الذي كان الشعب يختاره رئيساً عليهم . والقوة التي له ، والسلطة التي كان يمارس صلاحياتها بتفويض رسمي من ممثلي الشعب ، اتاحت له : مراقبة الادارة والاشراف عليها عن طريق نوابه الذين كانوا يلقبون بـ - كونت - وهو لقب مصطلح عليه في مراتب الجيش ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، فيسهرتون على سلامة الأمن في الاقضية الواقعة تحت اشرافهم المباشر . وهكذا لم تلبث تشكيلات الجيش وانظمت ان حلت محل النظم الادارية ، بعد ما اعترافها من تحلل واسترخاء ، في جميع انحاء الامبراطورية . وهكذا لن تتم المقاطعة ان تصبح مملكة يخضع من

فيها من رومان وبرابرة للقائد العسكري المتولي شؤون الحرب . وكثيراً ما حاول هذا القائد الملك بسط نفوذه وسيطرته الى ما وراء حدود المنطقة التي تخضع لادارته العسكرية، الامر الذي كثيراً ما اضطر معه الامبراطور على الانكفاء نحو الشرق فتتقلص رقعة الامبراطورية وينكمش سلطانه . وقد سبق ان تم نقل مركز العاصمة في القسم الغربي من الامبراطورية من مدينة تريف ، الى مدينة ميلانو ، فالى مدينة رافينا ، عام ٤٠٣ ، وهي مرفأ معزول منقطع يقع بين الفياض والمستنقعات وينفتح على البحار اليونانية . وعندما ثار الجيش الروماني ، عام ٤٧٦ مطالباً لنفسه بذات الامتيازات والمنافع التي كان ينعم بها جيش الشعوب المتحالفة ، قام قائده ادواكر *Odoacre* يخلع الامبراطور ويحتل القصر الامبراطوري في رافينا ويسكن فيه ، ويبعث بشارات الملك الى بيزنطية . وكان من شأن هذه الحركة ان اعادت الى الامبراطورية وحدتها ، اذ لم يصبح لها من بعد العاصمة واحدة هي القسطنطينية . اما الغرب فقد بقي شرعاً وقانوناً ، مرتبطاً بالشرق يحكمه باسم الامبراطور قادة القبائل البربرية باعتبارهم ممثلي الامبراطور ومفوضين سامين في هذه المناطق . وجاء في رسالة بعث بها سيجموند ، ملك البورغونيين ، الى الامبراطور أنستاس في مطلع القرن السادس : « اني اظهر بظهر الملوك وشاراتهم ، بين رعيتي ، بينا انا جندي من جنودك » . وهكذا نرى كيف ان الشطر اللاتيني من الامبراطورية كان يتقاسمه عدد من الممالك تنعم كل واحدة منها ، بالفعل ، باستقلالها التام .

وعلى نقيض ما حدث في المقاطعات الواقعة على الحدود ، لم يتسبب الترتيب الجديد الذي سارت عليه العلاقات السياسية ، بأي انقطاع أو انقسام في استمرار سير الحضارة وتطورها . فالبرابرة لم يؤلفوا سوى اقلية ضعيفة حتى في المقاطعات التي استقلوا بامورها على ساحل البحر المتوسط ، حيث تم لهم ملء السلطة المطلقة ، كما انهم لبثوا ، مدة طويلة ، موزعين جماعات صغيرة معزولة عن سواد الرومان الأكبر . فقد احتل الاستروغوط ، في المدن الايطالية احياء معينة اختصوا بها . فالرؤساء الجرمان ، وحدهم ، اخذوا ينمون اتصالاتهم بالطبقة المشيخية ، فيشايمون النظام الجديد ويسيرون معه بنسبة ما يمكنهم من العيش على هوام ، ويستمررون في تأدية الوظائف الادارية التي يقتضيها نظام الحكم . وقد اخذ الغزاة يستمرئون حضارة سكان البلاد . فالاخلاق والعادات والاعراف والتقاليد التي حملوها معهم كانت من الانحطاط والتأخر ، ما منع الارستوقراطية اللاتينية من الاكتراث بها ، فاعرضوا عنها ورذلوها ، باستثناء بعض أشكال وصور من البذل والعطاء الشخصي التي ما لبثت ان تغفلت بين الاعراف والتقاليد المعمول بها .

وعلى خلاف ذلك ، أقبل البرابرة بشوق من يقبسون أوضاع الحياة المهذبة المصقولة وهم على يقين بان علامة النبل الوحيدة ، وسمه الشرف المثلى ، هي اقبال المرء بكليته ، على الآداب الرفيعة والععب منها ، كما يقول سدوان ابولينير . وهكذا راح الكثيرون يتعلمون على مدرسة الرومان وينهمجون نهجهم .

فبالرغم من الحروب والدمار ونهب كنوز البلاد وغير ذلك من الاستباحة والأعمال الوحشية التي رافقت غزوات البربر أو عقبتها، فقد كان من جرّاء دخول عناصر خشنة، فظة بين النخبة المثقفة، ان تدنى كثيراً المستوى الحضاري العام، فساعد هذا التقهقر على الانتقال من حضارة مدن ناعمة الى حضارة ريف غليظة، فظة، مخشوشة دون ان يحدث او يقع أي انقطاع في سير الحضارة واستمرارها. ويستدل من رسائل سدوان ابولينير الذي عاد مأخوذاً من زيارة قام بها لبلاط ملك الفيزيغوط، في مدينة تولوز، ان هذه الثقافة الحضارية لم تتأثر قط في بعض الأجواء الارستوقراطية الرفيعة، عند منتصف القرن الخامس، ولم تفقد شيئاً يذكر من نعمتها وتهذيبها ورهافتها. وبعد ذلك بمدة وجيزة، نرى قصر ملك الفندال، في افريقيا، يصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي والحضاري في تلك البلاد، كما نرى الملك ثيودوريق يحاول، في القرن السادس، ان يعيد الى سالف عزها، الحضارة الرومانية في ايطاليا، اذ أخذ يرعى معالم هذه الحضارة، ويعنى بصيانة المباني في روما وترميمها، كما شيد، في مدينة رافينا، عدداً من الكنائس والمباني وفقاً للطراز المعماري المعمول به في الامبراطورية البيزنطية، وأجرى عطاياه بسخاء على المدارس ومعاهد الفصاحة والبيان القائمة في المدن الكبرى، هذه المدارس التي لم يطرأ عليها ما غيّر من مناهجها وأساليبها، بينما أهل القلم ورجال الادب يحاصرون باب قصره، طمعاً منهم بصلاته السخية. ففي الحين الذي راح فيه الاسقف اينود *Ennod*، أسقف مدينة بافي *Pavie*، يُطيري عالياً، ويثني عاطراً، في خطبه البليغة المحبوبة على قواعد الفصاحة والبيان، ويمتدح الملك «البربري» لكونه رومانياً بقلبه وعقله وروحه، أخذ الكاتب الشاعر ورجل الدولة بوسيس *Boèce* (٤٨٠ - ٥٢٤)، يحاول ان يوسع من أذهان معاصريه ويشحذ أذواقهم لتذوق الروائع الفكرية والأدبية الكلاسيكية التي طلع بها الفكر اليوناني الخلائق، بعد ان تعذر عليهم قراءتها بلفتها الاصلية، كل ذلك ايماناً منه واعتقاداً بأن الجمهورية الرومانية باقية أبد الدهر، وانه لا بد من العمل على إحياء آدابها. وكسيودوروس *Cassiodore* نفسه، الذي ولد رومانياً وتولى رئاسة الديوان الملكي، يحاول، عندما يدعو للتساهل والتسامح المتبادل، ان يهيئ انصهار الفوط والرومان انصهاراً كلياً كاملاً.

وهذا الانصهار، هل كان وشيك الوقوع، بعد ان انثلت المدنية الرومانية عن حدودها الشمالية وانكفأت الى الجنوب حتى مشارف البحر الابيض المتوسط، فعادت بذلك وتبدأ، سيرتها الاولى، ضمن الملاكات والأطر الجديدة التي طلعت اذ ذاك، على البلاد؟ لا لمعري، وذلك لأنه لا يزال هنالك حاجز يفصل بين الزعماء الجرمان ورعاياهم يتمثل بحاجز الدين. فالشعوب البربرية كانت اعتنقت المسيحية، انما على مقالة الآريوسيين وتعليمهم، أي انهم يرسفون في الهرطقة. فقد كانت لهم كنائسهم ومعابدهم واكليروسهم، كما ان حزبيتهم الدينية هذه كانت مدعاة لتويعيتهم من الوجهة القومية. فبدلاً من ان يعودوا الى الرأي القويم، الى الارثوذكسية، أخذوا باضطهاد الكاثوليك وراحوا يطردونهم من كنائسهم ويحلوهم زرافات عن أوطانهم. وفي الواقع، فقد كانت روما في نظر جميع المسيحيين رمزاً للوحدة في

الايان الواحد ، ولهذا تولى الاساقفة الذين أصبحوا بعد هزيمة الادارة الرومانية وانحطاطها ، الناطقين الرسميين بلسان السكان والمدافعين الشرعيين عنهم وعن مصالحهم ، كما أخذوا ينظمون حركة مقاومة طابعها ديني ، راحت تلتظم وتشتد ضد الدخلاء المحتلين . وهذه المقاومة تبدو على أبرزها ، في غالبا ، بزعامة سدوان ابولينير الذي أصبح أسقفاً لمدينة كليرمونت ، فسعى جاهداً ، بعد عام ٤٧٠ ، يحاول منع اريق *Eric* ، ملك الفيزيغوت ، من ضم مقاطعة اوفيري ، الى ممتلكاته ، وهي مقاطعة معظم سكانها كاثوليك . ومقاومة مماثلة في افريقيا يجرّس عليها ويدفع اليها مواعظ الاساقفة المبعدين عن كراسي ابرشياتهم ، وأخرى في روما نفسها حيث أخذت المؤامرات والدسائس تحاك بكثرة ضد الملك ثيودوريق . واذ رأى الملك نفسه في خطر يترصده ، حزم أمره على الشدة ، والتزم موقف الدفاع العنيف . فقد قضى بوسيوس والبابا يوحنا الاول نجبتها أسيرين في بلاط ملك الـ استروغوط . واشتد الضغط وازداد أواراً بحيث اخذ يهدد ، جدياً ، الممالك التي أنشأها البرابرة ، من الاساس . ولكي يتخلص الشعب من سيطرة لا تطاق ، خارجة على الدين ، راح الكاثوليك يؤيدون ، من جهة ، الدسائس التي كان الامبراطور يحيكها في بيزنطية ، طمعاً منه باسترداد سلطته على البلاد ، ومن جهة أخرى ، كان تقدم برابرة الشمال ، وهم الفرنج الذين لا يزالون على عبادة الاوثان ، يغذي في النفوس ، الايمان بامكان اعتناقهم المسيحية على الرأي المستقيم . وهكذا ، بعد مائة سنة على بدء الفزوات ، ساعدت المعارضة الدينية التي قام بها الرومان ضد ملوكهم من الغوط والفندال ، على طلوع وضع سياسي جديد في الغرب ، يفصل سواحل البحر المتوسط المرتبطة بالدولة اليونانية ، عن القارة التي وقعت فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية ، كان شأنه ان يرسم اتجاهاً جديداً لتطور الحضارة في الغرب ويرسم خط سير جديد لتاريخها .

استطاع الامبراطور يوستينيانوس ، عام ٥٣٣ ، ان يحور بسهولة كلية بلدان البحر المتوسط افريقيا ويستخلصها بيسر من مقتصبها الفندال ، كما تمكن ، فيما بعد ، أي في سنة ٥٥٤ ، من ان يحور مقاطعة بتيك *Bétique* (الاسم الذي عرفت به مقاطعة الاندلس في عهد الرومان وهو مشتق من اسم نهر بتيك *Bétis* او نهر وادي الكبير اليوم) ، وبذلك تم له الاشراف على شطري البحر الابيض ، والسيطرة على معابرهم ومجازاته ومضايقه . غير انه لم يكن له من الوسائل الحربية ما يساعده على الايفال بعيداً داخل البلاد ، عن سيف البحر . وهكذا بقيت في المغرب مناطق شاسعة لم تخضع له ، كما بقيت في داخل اسبانيا مناطق تخضع للفيزيغوط . ولم تجر أية محاولة ضد بلاد غالبا ومقاطعة البروفانس فيها فتركت وشأنها ، لتروح فريسة بيد الفرنج . ولكي يعمدوا ايطاليا الى سيطرة الامبراطورية ، مباشرة ، اضطروا يوستينيانوس ان يخوضوا غمار حروب دامية استنزفت الكثير من الجهد المرير ، والدماء المطولة ، والتضحيات الغالية والوقت الطويل ، اذ ان حروب الفتح هذه ضد الـ استروغوطا بدأت ، عام ٥٣٥ ، واستمرت حتى عام ٥٦٣ ، فاضطر عندها العدو ان يلقي سلاحه ويستسلم ، بعد حروب ومعارك طاحنة

جرت معها الخراب والدمار .

وبالرغم من الشوائب التي اعتورت هذه الحملات العسكرية ، فقد ساعد الفتح على ضم بعض المقاطعات المطلة على البحر ، الى الامبراطورية الشرقية التي يقع معظم أقاليمها الشرقية على مقربة من البحر وتتقبل مفاعلات الشرق ومؤثراته . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النماذج الفنية تغزو هذه البلاد متغلغلة فيها عن طريق المرافئ الإيطالية الكبرى ، أمثال : رافينا ، ونابولي ، وقرطاج ، يشجع على الأخذ بها ، وعلى الترويج لها ، هذه الجاليات اليونانية التي سبقت واستقرت فيها منذ القرن السادس ، ممثلة بأفراد الجند والموظفين الإداريين وغيرهم من شذاذ الآفاق والتجار القادمين من بيزنطية ، كما انتقل اليها ، في القرن السابع ، عدد كبير من رجال الدين والرهبان الذين فروا أمام الفتح الاسلامي . وهذا التغلغل البشري الذي صاحبه تغلغل فني آخر ، يتمثل بهذه المباني التي شيدت في مدينة رافينا بعد ان تم جلاء الفوط عن البلاد يشهد عالياً على روعة هذا الفن الذي كان تأثيره عميقاً ، كما يبدو من خلال هذه الرسوم الجدارية التي تزين تلك المباني ، ولا سيما كنيسة كاستل - سبريو الصغيرة على مقربة من مدينة ميلانو ، منها الى الشمال قليلاً . وكان من جراء ذلك تلقح الفن الشعبي في البلاد بالاشكال والنماذج الفنية البيزنطية التي ، بعد ان تمازجت بالفنون المعمول بها في تلك البلاد ، كما نشاهد ذلك في فسيفساء الكنيسة الرومانية المشادة على اسم القديسين كوزموس وديميانوس ، وساعدت على انتاج روائع فنية تفرض الاعجاب ، طبعت الفن الايطالي طيلة الاجيال الوسطى .

والاتصالات الوثيقة التي ربطت هذه المقاطعات التي تم تحريرها بالمراكز الثقافية والحضارية الكبرى في الشرق الادنى ، ساعدت كثيراً على اذكاء شعلة الحضارة فيها . إلا ان محاولة الامبراطور يوستنيانوس القيام بما قام به من فتوح جرت الدمار والخراب على تلك المقاطعات ، وازرحتها تحت ما اتاخدت عليها من ارزاء فهوت الى الحضيض . وهزّ الخراب الذي نزل بها ، ما تبقى من معالم المدنية الرومانية التي حاول ثيودوريق ، من قبل ، صيانتها والحفاظ عليها . والى هذه الحقبة يعود بالفعل الانحطاط الذي أصاب روما . فقد الغيت فيها ، عام ٥٤١ ، وظيفة القنصلية ، كما ابطلت فيها ألعاب المصارعة عام ٥٤٩ ، وألعاب الظفر عام ٥٥٢ . وآخر اجتماع لمجلس الشيوخ Sénat يعود لسنة ٥٧٩ . وقد دُهمك الريف في هذه الحروب وقضي على الكثير من النخبة بين صفوف الطبقة الارستوقراطية ، كما امتلأت النفوس وأفعمت القلوب حقدًا وضمينة على البيزنطيين الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار ظفرهم الى اقصى حد . فلا عجب ان تصبح هذه المقاطعات ، بعد ان اناخ عليها الدهر بكل كلكله ، لقمة سائغة للطامعين اليها والراغبين فيها ، اذ لم يمض سوى خمس سنوات على استسلام آخر المحاربين من الاستروغوط ، حتى اجتاز ، عام ٥٦٨ ، شعب جرمانى جديد ، هم اللبارديون ، جبال الألب وانقض على شمالي ايطاليا التي كانت استنزفت كل دماها . وبعد ذلك بنحو قرن ، راحت خيول المسلمين تدك بسنابكها أرض افريقيا ، فيغمر الاسلام شمالي القارة فتفرق تحت سيله الجارف . فبدلاً من ان يعيد الفتح

البيزنطي الوحدة الى الامبراطورية الرومانية ويوطد منها الدعائم ، ساعده بعكس ذلك تماماً على عزل هذا القطاع الجغرافي الواقع بين شواطئ البحر المتوسط الشمالية وجبال الابنين ومجرى نهر البو الاسفل ، كما ساعد على فصل شبه الجزيرة الايطالية وما اليها من جزر ، عن شمالي افريقيا وامتداداتها حتى اسبانيا من الغرب والحقها بالشرق . وبذلك حيل بين القارة الاوروبية وبين هذا البحر اللاتيني وما يمثله من تراث ، قديم ، خالد ، فارقمى بين احضان البربرية الجرمانية ومهجيتها وراح ينظم نفسه تدريجياً متخذاً من استقلال غاليا الفرنجية محوره ونقطة دائرته .

احتل الفرنج الساليون *Franks Salians* المقاطعة الواقعة بين الرين ، شرقاً ، وغاليا الفرنجية ونهر السوم ، غرباً . فانشأوا ، منذ منتصف القرن الخامس علاقات تحالف مع الدولة الرومانية الصغيرة المقتصرة رقعته على مقاطعة إيل ده فرانس ، هي البقية الباقية من الامبراطورية الرومانية في غاليا ، يدفعون عنها ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، عوادي الدهر ، وتمديات الهوز والفيزيغوط وقراصنة السكسون . وحوالي عام ٤٧٠ ، حل أوفروامراء قبائل الفرنج نشاطاً ، هو الملك شلدريتي ، في مدينة تورنيه ، محل الحكم الرومانيين . وتمكن ابنه كلوفيس من التغلب ، عام ٥٨٦ ، على سياغريوس *Syagrius* ، آخر هؤلاء الحكم الرومانيين ، في معركة سواسون واستولى على كنوزه ومجوهراته ، ثم راح يصفى ، تبعاً ، ملوك القبائل السالية الاخرى ، الواحد بعد الآخر ، وتغلب على قبائل الألامان وقلتم اظاسفرم ، واخضع لسلطانه النامي ، كل المقاطعات الواقعة بين نهر الموز *Meuse* والوار *La Loire* . واستطاع في السنوات الاخيرة من القرن الخامس طرد الفيزيغوط بعيداً عن مدينة تورس ، فوقع تحت تأثير مطرانا القديس مريتنوس فاحسن وفادته ، وتأثر بالمحرقات والمعائب التي تمت على يده ، فقرر اعتناق المسيحية ، ليس على مقالة الآريوسيين كغيره من برابرة الجرمان ، بل على المذهب الكاثوليكي ، و تمت حملة تنصيره في مدينة ريمس *Reims* ، بين ٤٩٦ و ٥٠٦ ، فاصبح كلوفيس بذلك الرئيس الاوحد للدولة الكاثوليكية الوحيدة في الغرب . فكان لهذا الحادث صداه الداوي في جميع الارحاء ، تبلفه بارتياح كل اساقفة غاليا حتى ان احدهم هو المطران أفيت *Avit* ، أسقف مدينة فيينا عبّر باسم الجميع عن ارتياحه لهذا التطور العظيم ، وراح يحث الملك الجديد على ان يشرف بنفسه على أعمال الرسالات التي تتولى الكرازة والتبشير بالدين الجديد . ففي هذا دعوة صريحة لمباشرته بتطهير جنوبي غاليا من طغيان هرطقة الآريوسيين . وبالفعل أرسل كلوفيس جيشه لمهاجمة الفيزيغوط ، فكسرم وهزمهم شر هزيمة في موقعة فوييه *Fouillé* ، عام ٥٠٧ ، وقتل الملك الأريتي ، وطارد فلول جيوشه الى ما وراء جبال البيرانييس . وبعد غزوته المظفرة هذه ، ارتدى في مدينة تورس ، وشاح القنصلية الذي أرسله له الامبراطور انستاسيوس . ومنذ ذلك الحين ، كما يؤكد القديس غريغوريوس التورسي أخذوا يلقبونه بـ «قنصل واوغسطس» . ثم اخضع قبائل الفرنج المروفين بـ «*Ripuaires*» على الرين ، وجاء واستوطن باريس وفيها توفي

عام ٥١١ ، بعد ان ترأس ، في مدينة اورليانس ، أول جمع وطني عقدته كنيسة غالبا الفرنجية واكمل بنوه عمله ، واقوا الرسالة التي شرع بها ، فضموا الى ممتلكاته مملكة البورغونيين ، عام ٥٣٤ ، واخضعوا مقاطعة تورانج . والملك ثيبرت ، الذي وقف الى جانب الامبراطور يوستينيانوس وآزره في حروبه في ايطاليا ، 'يقطع مقاطعة بروفانس ، وضرب السكة الذهب ، فكان أول ملك « بربري » يضرب السكة باسمه . وهكذا ما كاد ينتصف القرن السادس حتى أصبحت بكل غالبا ، باستثناء مقاطعة بريتانيا والبشقي منها ، ومقاطعة سبتيانيا الفيزيغوطية ، مع قسم من جرمانيا ، تؤلف معاً مملكة واحدة ، هي مملكة الفرنج .

انه لنظام سياسي غريب : فالامبراطورية لم ترع تكوين هذه الدولة ولا نشأتها ، فتم هذا كله بمعزل عن الأعراف والأطر الشرعية « للتحالف » واصول « الضيافة » والإقراء ، دون ان يحصل شيء من الخراب ، وربما بدون أي مصادرة بالجملة لأملك الدولة . وليس ما يؤكد أو يثبت ان زعماء الفرنج استولوا على جانب من الأرضين التي كانت ملكاً للاستوقراطية الرومانية في غالبا ، هذا لو سلنا فرضاً انهم صادروا قسماً من الاملاك العامة . وقد سهلت وحدة الايمان المشترك عملية تمثّل الطبقات العالية في المجتمع ، اذ ذاك . ففي الربع الأخير من القرن السادس يُغنّسي غريغوريوس التورسي باعتزاز كلي ، وهو سليل الطبقة المشيخية ، المجد الأثيل الذي يملأ برديته لانتسابه الى أمة الفرنج . فلم يكن في هذه المرة ، دخول أي من البرابرة في حوزة العالم الروماني ، بل على عكس ذلك تماماً ، اذ ان جانباً من العالم الروماني دخل بين ممتلكات امة مسيحية ، لا تشدها الى بيزنطية صلة ما . من حواضرها الكبرى ومراكز الجذب والثقل فيها مدن مشهورة كباريس واورليان وريمس وسواسون ، وكلها واقع على مشارف العالم المتحضر ، كما ان قسماً من ممتلكاتها كان يمتد بعيداً ، سواء من الشرق أو من الشمال ، ليصل الى قلب البربرية الجرمانية . ففي هذا الإطار الجغرافي الاثنوغرافي نرى التقاليد الرومانية تندمج بالعادات وتتنازع بالأعراف التي حملها معهم الغزاة الطارئون ليخرج من هذا الانصهار البطيء وهذا التمازج الوئيد ، حضارة كل ما فيها أصيل .

تميز هذا المركّب ، منذ بدء أمره ، والحق يقال ، بانخفاض ملحوظ في المستوى الحياتي والثقافي والحضاري ، ثم عن هذا الفارق العظيم القائم بين القارة والقسم الجنوبي منها : ايطاليا وافريقيا الشمالية الذي نشطت فيه الحياة من جراء الاتصالات المستمرة مع الشرق . وهذا الانحطاط الذي استطال حبله حتى مطلع القرن السابع ، طبع بدوره النظم السياسية القائمة اذ ذاك ، كما ترك طابعه على الوضع الاجتماعي ، والحركة الاقتصادية والفكرية والدينية ، في المملكة .

لم يكن كلوفيس وخلفاؤه من بعده ، بعكس الممالك الاولى التي أنشأها المجتمع الميروفنجي البرابرة ، من أحلاف الامبراطورية ، ومازمن بالتالي ، مثلهم ، بالولاء للدولة الرومانية واحترام نظمها ومؤسساتها ، بعد ان أولتهم رعايتها وأدخلتهم في خدمتها ، فاتحين ، أحراراً ، متحررين من كل التزام نحوها . فقد أخذوا السلطة عنوةً وغلاباً ، بعد ان قضوا على

منافسيهم وأزالوا مزاحمتهم . فقد رأوا في السيطرة التي آلت اليهم صاغرة ، حقاً من حقوقهم الشخصية ، وجزءاً من تركه لم يكونوا ليؤدوا عن ادارتهم لها حساباً لأحد ، يتصرفون بها كيفما يشاؤون ، وينتدبون لها من يرغبون من الانصار والمحاسيب ، يتقاسمها ورثتهم وفقاً للأعراف المتبعة . وهكذا قسمت مملكة كلوفيس ، عند وفاته عام ٥١١ ، بين أولاده الاربعة . فنظر الملوك المير وفنجيون ، الى المقاطعات التي آلت اليهم ، نظرة بدائية ، واعتبروها نوعاً من الاقطاع التابع ، لهم عليها ملء السلطة ، أخذوا منهم بالتقاليد التي سار عليها أجدادهم ملوك تورنيه . فكانوا يعتبرون أنفسهم قادة حرب يقودون جيوشهم لحوض المعارك ، ويسهرن ، باسم الشعب ، على استتباب أسباب السلام والطمانينة ، وتروؤس الاجتماعات العامة ، يعقدونها لإجراء العدل وإقامة القضاء فيما بينهم ، ويحرصون على حسن تنفيذ قراراتهم وأوامرهم . فبعد ان نشروا سلطانهم على كل أطراف غاليا ، فرضوا على رعاياهم : رومانيون كانوا أم برابرة ، الخدمة العسكرية والولاء للتاج . ولم يخطر لهم على بال انه يترتب عليهم مسؤوليات او مهام أخرى ، كإتمام الرسالة التي قامت بها روما من قبل ، مثلاً ، ونشر أسباب الحضارة في أطراف البلاد ، كما تنمى ذلك وراح يحققه الملك ثيودوريق نفسه . وكان يكفيم ان ينعموا بالسلطان . فالملك أو الحكم ، في نظرهم ليس سوى وجه من وجوه الاستثمار الشخصي . للملك وحده دون سواء ، حق الاستمتاع به ، على هواه ، دونما رقيب أو حسيب . وكان يتولى الادارة باسمهم ، في المقاطعات ، نواب الملك ، فيعهد اليهم بحماية الرسوم والضرائب التي تؤمن نفقة المقر الملكي وما في المقر من حاشية عريضة . وكان جل ما يطعمون به ، توفير النقد المتداول بين الناس ، ولذا حرصوا الحريص كله ، على صيانة النظم والمحافظة على المؤسسات التي توفر لهم حاجتهم من المال . وكانت جباية الخراج وضريبة الاعناق معقدة للغاية لما كانت تقتضيه من الجهد الموصول لتأمين الدقة في سجلات المساحة والاحصاء . وكانوا يجهلون جهلاً تاماً كل ما يتصل بالضرائب المباشرة التي لم تألفها طباع القبائل الجرمانية وأعرافهم المتوارثة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان يُعْرِضَ الملوك بسهولة كلية عن هذه الرسوم والحقوق المرتفعة التي كانت تؤمن دخلاً ضئيلاً لهم ، فاستبدلوا برسوم فرضوها على التنقل والانتقال ، وعلى معارض التجار وأسواقهم ، لما في جباية رسومها من سهولة وسرعة . وهكذا أهملت تدريجياً النظم الادارية التي تعمل بها طويلاً وروعي جانبها أبان الادارة الرومانية ، فلم تلبث ان تنوسي أمرها وعفي ذكرها . اما الادارة المحلية في القضاء او الدائرة *pagus* ، فكانت من صلاحيات حاكم اداري ، من خاصة الملك يحمل لقب « كونت » تركت له أعباء السلطة الادارية والعسكرية ، هم الاكبر ان يوصل الى القصر الملكي ، المائدات التي جباهها رسوماً او مبالغات ، فيحتفظ بقسم ضئيل منها كترقب له ولرجالاه ومعاونيه .

والمعنى الجرد او الاسمي للدولة ، فتقيد كل مدلوله في الوقت الذي اتسمت فيه رقعة الدولة ورُسِبت آفاقها ، فتخلخلت العلاقات التقليدية التي شدت ، من قبل ، الاحرار من الشعب

السالي ، الى ملوكهم ، فرأى الملوك الميروفنجيون أنفسهم مضطرين ، لإبقاء على السلطة المطلقة التي وقعت في قبضة أيديهم ، ان يفوزوا بأيدي هذه الطبقة المتنفة ، ويجوزوا على نصراء لهم عن طريق اشراكهم بنافع السلطة . وفي هذا السبيل أخذوا يوزعون على من أنسوا منهم الولاء ، الذهب ، ويقطعونهم الاراضي الواسعة ، جذبا لهم ، واستدناء ، لقاء تعهد بتقديم الولاء يقطعونه لهم . وآثروا المناصرتهم والشدة من أزرهم ، هذا الفريق من الاحرار الذين تعهدوا بالولاء للملك ، فجعلوهم في عداد رجال حرسهم ، وأنعموا عليهم بقلب كونت ، وأولوهم شيئا من سلطانهم ، وأقطعوهم بعض الارضين ، وعهدوا اليهم ببعض الوظائف ، من بينهم أساقفة رأوا من حقهم وحدهم اختيارهم وترشيحهم لإدارة الابريشيات والاسقفيات . وهكذا ساعدت الهبات التي أعدها هؤلاء الملوك ، والأعطيات التي أسبلوها اصطناعا للانصار ، على إنشاء طبقة جديدة من الاشراف ، توارث أصحابها هذه المناصب خلفا عن سلف ، وهي طبقة لم تكن معروفة من قبل ، في المجتمع الفرنجي حيث لم يكن ما يميز ، اجتماعيا ، الاغنياء عن الفقراء . وهكذا لم تلبث بعض أسر الفرنج ، على أثر ما أقطعت من ارض وسلطان ، وعلى أثر المصاهرات التي تمت بينها وبين الطبقة المشيخية من الغالو - الرومانيين ، ان نعمت بامتيازات خاصة ، من بينها « فدية الدم » المترتبة للقائين على خدمة الملك ، وهي فدية كانت ثلاثة اضعاف الفدية المترتبة لغيرهم من الاحرار وأزود .

طالما عرف الميروفنجيون ان يحافظوا على قوة بأسهم ، استطاعوا ان يحتفظوا بأعنة السلطة ، عن طريق توزيع عوارفهم وإنعاماتهم ، بدقة وحكمة وتدبر ، على من يصفطونهم . فأطفأوا بالدم والنار كل محاولة عصيان أو انتفاضة على السلطان ، وبذلك عرفوا ان يؤمنوا ولاء كبار القوم ، وبواسطتهم ، السيطرة على البلاد . وعلى إثر وفاة ملكهم داغوبير *Dagobert* ، عام ٦٣٩ ، توالى على أريكة الملك ، عدد من الملوك ، مات كثيرون بينهم وهم في ميعة العمر وشرخ الشباب بعد ان انهكهم الاسترسال الباكر وراء لذائذ الحياة ومباهجها بينما تولى نفر منهم ، مخبول معتوه ، منحط ، مهام الملك ، فأناطوا امره وسياسته بغيرهم . فعاد ذلك على الطبقة الارستوقراطية بالمزيد من النفوذ والسلطان ، وراح النبلاء ، في كل من المقاطعات الثلاث التي توزعت اليها املاك التاج ، وهي نوستريا *Neustrie* واوسترازيا *Austrasie* وبورغونيا ، ينظمون أمورهم ويضبطون شؤونهم على شكل يؤمن لهم استثمار هذه الإيالات لحسابهم الخاص واستخلاص خيراتها ومواردها لانفسهم ، لهم في البلاط الملكي ممثل أو مندوب هو رئيس الخدم ، أو قيم القصر *Maire du palais* الذي كان ، أصلا ، المتصرف بخدم القصر وحشمه ، يقوم بأحط الخدمات وأخسها . وكان يشرف ، بحكم وظيفته ، على مصارفات الملك وحاشيته ، ويتولى تنظيم تنقلاته بين دارة واخرى ، ومن قصر الى قصر ، جامعا في قبضة يده موارد المملكة ويقرر وجوه إنفاقها . فهو المسؤول الأول عن الترحيب بزايري القصر من أبناء الأسر الشريفة يستجدون منه التوصية ويطمعون على يده ، بكسب العطف ونيل الرعاية للعمل في حاشية الملك ، يتدربون في المعية على الوظائف التي لا بد

من ان ينتدبوا يوماً لها . فليس من عجب ، والأمر كما ذكرنا ، ان يصبح سادس القصر *Le maire du palais* ، بعدما آلت اليه الاسرة المالكة من الخطاط ، الشخصية المرموقة الأولى ، في البلاد ، مع ان وظيفته كانت ، في الاساس ، جد متواضعة . وهكذا تقع ، في اواخر القرن السابع ، حركة واسعة في ميدان التطور السياسي والاجتماعي ، اخذت بوادرها تطل ، منذ أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد 'تنوسي' كل ما هو مصلحة عامة *Respublica* و'هم' مفهوم هذا المصطلح ، وألغيت الضرائب عن الرجال الاحرار ، واستعيض عنها بفرض خدمات شخصية ، عليهم ان يؤدوها خدمة فعلية في الجيش أو في القضاء والحاكم . فلهذا السلطة المدنية صارت الى فئة صغيرة من كبار الملاكين من النبلاء الذين يحوزون اعداداً كبيرة من الارقاء والعبيد والاجراء العاملين في الارض ، والى مقدمي الفرنج ، ممن هم دونهم ثروة وجاهاً ، يعملون تحت إشرافهم .

وفي الوقت ذاته ، انتفت من مملكة الفرنج معالم هذه النظم الاقتصادية المتوارثة عن التاريخ القديم . فقد نشطت الى هذا العهد ، الحركة التجارية ولا سيما حركة استيراد المنتوجات والمحاصيل الشرقية . فقد كان سبق للملك كلوتير الثالث ، ان أنعم ، في حدود عام ٦٦٩ ، على رهبان دير كوربي *Corbie* ، بحق الامتياز والتموين من المخازن الرسمية في دائرة المكس ، القائم في مرفأ فوس *Fos* ، من اعمال مقاطعة بروفانس ، كأعطوا الحق ان يتناولوا من المخازن المذكورة ، حاجتهم من الطيوب والأفاويه ، والتمور والتين المجفف ، وكميات كبيرة من زيت الزيتون ، اذ كان رهبان الدير المذكور يستهلكون ، يومياً ، كميات كبيرة من هذه المواد التي كان يؤتى بها من بلدان البحر المتوسط والشرق الادنى . وكان يقوم في حواضر البلاد الكبرى ، جاليات سورية من يهود ونصارى ، حذق اصحابها اليونانية ، وليس بمعجب ، واحتكروا تجارة هذه المواد الاجنبية ، وكان من وفرة النقد الذهبي العائد للملك الدولة الميروفنجية من جباية الرسوم المفروضة على بضائع التجار وسلمهم ، ما يقيم الدليل عالياً على رواج هذه التجارة وازدهارها . غير ان هذه الحركة التجارية اخذت تضعف مع الزمن ، وما عتمت ان زالت معالمها تماماً واندرس كل اثر لها ، في فجر القرن الثامن . فعلت المحاصيل الوطنية محل البضائع المستوردة من الشرق والجنوب . وفي الحقبة الواقعة بين ٦٦٠ - ٦٨٠ ، اخذ الديوان الملكي 'يهمل' استعمال ورق البردي ، المصري الاصل والصنع ، ويستعيض عنه بالرقوق ، كما حل في مقاطعات الشمال ، الشمع محل الزيت ، في ائارة الكنائس ، والمعادن الثمينة راحت تستعمل ، في الاكثر ، في صناعة الحلبي والمجوهرات التي كان يحرص الملوك على جمعها وتكوين مجموعات طائلة منها ، كما حرصت الرهبانيات وابناء الطبقات الارستوقراطية على ادخالها والإكثار منها . وتوقفوا عن سبك العملة الذهبية بينما تكاثرت سبك الفضة بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية ، مما افقدها الكثير من قيمتها الذاتية . ومن تدني قيمة النقد في عهد الدولة الميروفنجية نستطيع ان نتبين الى اي حد بلغت الحركة التجارية في الطوائف وانكاشها في هذه الحقبة بالذات .

وهذا التدهور الاقتصادي ، كان من بعض نتائج الحطاط الحضارة
 تفقر الحضارة الكلاسيكية . فقد عرفت ان تحافظ على مستواها ، مدة أطول ، في
 المقاطعات الجنوبية من المملكة الميروفنجية ، ولا سيما في مقاطعة البروفانس . فقد عين الملك ،
 في اواسط القرن السادس ، احد رجال الاكليروس ، في باريس ، اسقفاً على مدينة أفنيون ، فقد
 شعر الاسقف الجديد في صميم نفسه واعماق قلبه انه لا يليق بتولي رعي هذه الاسقفية ورعاية
 المؤمنين فيها ، لما كان عليه من خشونة الطباع وقلة البضاعة الثقافية اذا ما قارن نفسه بما بلغه
 مسيحيو منطقة الجنوب من درجة عالية في مدنيّتهم . كذلك نرى مشاغل الحفر والنقش في
 مقاطعة الاكويتان ، تصدر ، في القرن السابع ، نقوشها الفنية ومحفوراتها ، الى كل انحاء المملكة .
 ولكن هذه المقاطعات التي اغرقت فيها اصول التقاليد الرومانية ، وضربت جذورها بعيداً في
 الأرض منذ عهد سحيق ، كانت تقع على اطراف المملكة الميروفنجية ، في الجنوب ، وقعت
 بالتالي فريسة للنهب والسلب – ولا سيما مقاطعة اكويتانيا منها – من قبل جيوش الفرنج التي
 لا عمل لها . وهكذا تعطلت عندها ، على مر الزمان ، كل قدرة على الاشعاع ، الى ما يقع
 وراء نهر اللوار ، فغلبت على اهلها النزعة البربرية ، وخشنت بالتالي طباعهم وبهّمت افهامهم ،
 وندرت فيها وسائل العلم وضربت النوازع الى طلبه والسعي وراءه ، باستثناء بعض مبادئ
 بدائية ، ساذجة ، كان يتلقاها الرهبان ورجال الاكليروس ، في المدارس الاسقفية . وقد
 اختصرت الادارة الملكية واستهانت بحيث كانت تقنع بمواطنين اداريين على مستوى واطر من
 التعليم . فانهدمت القراءة ، وتضاءل جداً عدد الذين يحسنون مبادئ الخط ، وتباعدت جداً
 لغة التخاطب ، عن اللاتينية الكلاسيكية ، لتستقر منها على لهجات هي بالاحرى لفى .
 والشاعر فورنوتا Fortunat الذي تخرج على مدرسة رافينا ، وفيها نبه ذكره وعلا شأنه وامره ،
 وجد في اواسط القرن السادس ، من يتبادل معهم الرسائل من اعضاء الطبقة المسيحية القديمة
 في غالبا . وفي هذه الحقبة بالذات تقريباً ، نرى غريغوريوس التورسي يكتب بلغة لاتينية مهلهلة ،
 ويلوم زمانه الذي أصاره ليشهد ذبول الادب وأقول الثقافة . ففي القرن السابع ، يكاد الاسقف
 ديدريه الكاهوري Didier de Cahors يكون الشخص الوحيد الذي تمت له مسحة من
 الثقافة القديمة . ونرى صاحب Chronique de Frédé guire يشكو زمانه ، ويلوم دهره ،
 لكثرة ما يعتور تاريخه من شوائب ونواقص ، مسؤولة عنها هذه البربرية التي صارت
 اليها البلاد .

وهذه القهقرى العامة تظهر على انها في التنظيم البدائي الذي بدت عليه النصرانية ، اذ ذاك .
 صحيح ان غالبا حققت وحدة الايمان في عهد الدولة الميروفنجية . فلم يرتفع فيها ، خلال هذا
 العهد ، أي صوت ناشز ، ولا ارتفع فيها هذا الجدل الديني الذي يثيره ظهور المشاقين الهرطقة ،
 الامر الذي يكون ، والحق يقال ، دليلاً قاطعاً على ما بلغه الفكر اذ ذاك ، من تبلد وقهّهم
 وتحجر . صحيح ان الملك يعرّى جانب المسيحية ويكلأ بعنايته الكنائس والمعابد فيغدق عليها

عوارفه بسخاء ، ويعترف للاديار بانعامات وامتيازات كثيرة ، ويعفي املاكها من الضرائب والرسوم . وليس من شك في ان ثروة الديارات والمؤسسات الدينية والرهبانية نمت نمواً كبيراً في وقت ساد فيه الاعتقاد ان الخلاص الابدي وقف على الاحسان والتصدق . إلا ان هذه المؤسسات أصيبت قدر يحمياً ، هي الاخرى ، بالمخطا ط ذريع كغيرها من المؤسسات التي يرجع عهدها للعندنية الرومانية في العهد الامبراطوري . فقد كان الاساقفة يُنتَقون ، في القرن السادس ، من بين أعضاء الأسر الارستوقراطية الغالو - الرومانية المحافظة ، ممن تم لهم شيء من الثقافة وكانوا من ذوي السيرة الحميدة ومكارم الاخلاق . ولذا أُلِف المصنف الاسقفي ، في هذه الحقبة المعروفة بتفسيخ الاخلاق وتحلل المبادئ القويمة ، أنشط الطبقات الاجتماعية وأنقاها على الاطلاق ، في عهد الدولة الميروفنجية . إلا ان ملوك هذه الدولة بالذات ، لم يعتما ان رفعوا للمنصب الاسقفي الذي يتمتع بانعامات ومنافع عديدة ، عدداً من أنصارهم والمقرين اليهم من العلمانيين ، من لاقية خلقية او أدبية لهم ، ولا هم لهم غير استثمار مناصبهم الجديدة في ما يؤمن لهم المزيد من الربح . والجامع الكنسية القومية التي كانت تنعقد من وقت الى آخر وتضم أساقفة البلاد ، تحت رئاسة الملك ، ويتخذ انعقادها رمزاً لوحدة الكنيسة بكامل ما يتصل بالايمان والعقيدة ، أخذ انعقادها يقل ، شيئاً فشيئاً ، في القرن السابع ، الى ان انقطع تماماً بعد عام ٦٩٦ ، وبعد هذا التاريخ أصبح عدد من الابريشيات شاغراً ينتظر عبثاً من يملأه باستحقاق ، ولا سيما في الجنوب .

وفي الواقع ، ان ما اصيبت به الحبرية من وهن والمخطا ط ، وهي ما هي في النظام الكنسي ، كان شديد الخطر في نتائجه . فالوثنية كان لا يزال لها ، في الإيالات والمقاطعات الواقعة في شمالي البلاد ، عدد كبير من الانصار والاتباع . ففي كل اطراف المملكة ، تسرب الى صفوف المسيحيين كثير من أعراف الغزاة والبرابرة الفاتحين ، كما نشط الاخذ بالاساطير والحرافات الوثنية القديمة ، كما يبدو ذلك واضحاً من معالم المدافن والطقوس الجنائزية ، اذ ذاك . وهذا أدى بدوره الى تأخر الحياة الروحية ، وبالتالي الى تخلخل الاخلاق وتفسخها . وبلغ من انهيار الوازع الديني في الطبقة الارستوقراطية ما ترتعد لهوله الفرائص وتشعر له الابدان ، فانتفت الاخلاق من الحياة الزوجية ، وشاعت أيما شيوع ، عادة التسري والمعاشرة الجنسية غير المشروعة ، وأهمل العدل واستبيحت العدالة ، فصارت الكلمة للقوة ، ومقاضاة الحقوق للسيف بهمجية لا تعرف الرحمة . وتبدو على الهياكل البشرية التي نبشت من أحداثها ، آثار الكلوم والجروح التي أصابت أصحابها وجرت عليهم الشؤة او الكساح ، وكلها تنطق عالياً بارتفاع معدل الوفيات بين الاطفال والمخفاض نسبة المراهقين . وفي هذا كله ، دليل ناصع وبرهان قاطع على صحة ما تنوء به النصوص والوثائق التاريخية ، من عنف الكبار في معاملة مرؤوسيههم ، وبؤس الطبقات السفلى وما تعانيه من سوء التغذية . وظواهر هذا الوضع الزري ، تبدو على أمتها ، في كل مرافق المدينة ، اذ ذاك : فساد التقاليد القديمة المتوارثة من أقدم العصور وتفسخها ، وتغلغل العادات والذهنية الجرمانية ، والانتقال الى الهمجية المرعبة .

ومثل هذا التحول والقهرى ، حدث في اسبانيا ، في القرن الرابع ابان حكم الـاوستروغوط على البلاد . فقد اعتنقت قبائل الـاوستروغوط فيها العقيدة الكاثوليكية ، بعد ان تخلى ملكهم ريكاريد *Récarède* ، عام ٥٨٩ ، عن القول بمقالة الآريوسية ، الأمر الذي سهّل كثيراً ، حركة التقارب فانصهار البرابرة ، بالمجتمع الاسباني الروماني . فنجم عن هذا الانسحاق الـاثنوغرافي ، تحلل في المقومات الحضارية وتفسخها . وقد رسم لنا ايزيدوروس الاسبيلي الذي توفي عام ٦٣٦ ، في كتابه الموسوم : «*Etymologies*» صورة عن التراث الادبي للحضارة الرومانية التي زهد الناس في قراءة روائعها الفكرية وأعرضوا عنها أيما إعراض ، كما زهدوا بقراءة روائع الادب الكلاسيكي ، وتنوسيت اللاتينية ، وبطل استعمالها بين الناس ، كما نلاحظ انهيار السلطة الملكية وبروز الطبقة الـارستوقراطية . إلا ان العنصر الجرمانى الذي اندسّ في شبه الجزيرة الـايبيرية وانشاح في أرجائها ، كان اعجز من ان يلحقها بعوامل ومؤثرات جديدة تؤمن لها شيئاً من التجدد والانبعاث ولو كان فيه ما يؤول الى إفساد الحضارة الرومانية وتبقيها . وقد تسبب الرجوع الى الهمجية وجاهلية الجرمان ، في هذه البلاد ، عن انهيار عام امتد افقياً وعمودياً ، بحيث ان السرايا العربية الـاسلامية القليلة العدد والمعدّة التي هاجت البلاد ، عام ٧١١ ، استطاعت على ضآلتها ، فتح البلاد وتصفيتها بسرعة فائقة ، بعد معارك قليلة دون ان تلاقى فيها مقاومة كبيرة . اما الوضع في غالبا ، فقد كان على عكس ذلك تماماً ، ولا سيما في هذه المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والموز ، وبين البحر الشمالى ، نقطة الاتصال بين البلدان الرومانية القديمة وبين البلدان الجرمانية . فالتقهر التدريجى الذي اصيبت به النظم الحضارية في هذه المنطقة ، وتدهور الثقافة والاخلاق والعلوم التي تلبّستها من الاجيال القديمة ، كل ذلك أمكن تعويضه ، الى حد بعيد ، عن طريق العناصر الاصلية التي نقلها معه العالم البربري . فانصهار الشعوب والاقوام في هذه الرقعة من العالم جاء بنتائج طيبة وأعطى أشهى الثمار . ففي وسط أكبر انهيار حضارى ، وأعرق المخطاط فكري وخلقى شاهده التاريخ ، بدا من خلال القرن السابع ، مع ذلك ، رسيس حركة بشر طلعها ببدء نهضة جديدة مباركة .

وهكذا ، فالحركة التجارية التي كادت تتوقف وتنقطع تماماً بين بواذر يقظة تلوح في الافق
بلدان البحر المتوسط ، اخذت تستعيد شيئاً من نشاطها وتنظم تدريجياً في أطر جديدة ، وذلك بسلوها طرقاً تتجه شواطى غالبا الغربية والجزر البريطانية . فالملاحة نشطت أكثر فأكثر على مجاري السين واللوار وعبر الهاناش صوب بحر الشمال ، تنتقل السفن بين مرافىء المحيط الـاطلسى الـاوروبية وقد نشطت حركة التجارة والمقايضات في مرفأ روان ومرفأ كنتوفيك *Quentovic* الذي قام من عهد قريب على مجرى الكاناش *Quanche* في مقاطعة أرتوى . وبفضل تجار من قبائل الفريزون *Frison* الذين كانوا يؤمّون الاسواق التجارية في سان دنيس *St. Denis* ، وأسواق لندن ويورك التجارية ، قامت علاقات بين غالبا وريانيا الجرمانية والبلدان الواقعة على البحر البلطيقى . ففي الوقت الذي قلّت فيه

العملة الذهبية ، احدى وسائل المقايضات التجارية الكبرى ، في العهد الروماني ، درج استعمال النقد الفضي في جميع أنحاء غالبا ، وهو نقد أُلِفَ الانكلو سكسون ضربه ، كل ذلك جاء دليلا على رسيس البقطة التي دبّت في الحركة التجارية واتجاهها ، اذ ذلك .

ومن بوادر هذه الحركة التجديدية، انتشار الديانة المسيحية . فبعد ان رسخت الديانة الجديدة ، في المدن وحواضر البلاد الكبرى ، اخذت تمتد الى الريف وتنتشر فيه على نطاق واسع ، لا سيما بعد انتقال الطبقات الطافرة اليه واقامتها فيه . وأماكن العبادة التي أقامها الاساقفة في القرى والساكنات الريفية ، والكنائس الخاصة التي شيدها كبار الملاكين في ممتلكاتهم الواسعة على مقربة من الدور والصروح والفيلا التي قامت لهم فيها ، لم تلبث ان اصبحت مراكز اشعاع ديني ، وقواعد للكراسة والتبشير يتجند لها عدد كبير من الرهبان والرهبانيات ، كما اصبحت بعد قليل ، مراكز لجماعات مسيحية تألفت منها رعويا وخورانيات جديدة . واخذت هذه الحركة التطورية تسير بخطى واسعة . فأبرشية مدينة بروج مثلا ، التي لم تكن لتعد في اواخر القرن السادس سوى خمسين بيعة او كنيسة ، رأت هذا العدد يرتفع بعد خمسين سنة من تاريخه الى أكثر من مائة كنيسة . ومن جهة اخرى ، راح كبار الاساقفة الذين عاصروا الملك داغوبير ، أمثال القديس إيلوا ، والقديس أوان (Amand) والقديس سولبيس ، يقومون دورياً برحلات راعوية ، يهدمون خلالها ويتلفون ما تقع عليه عيونهم من آثار الوثنية والصنمية ، كما يصادرون مراكز عبادة الاصنام بعد ان يغبروا منها الأسماء والمسميات ، ويضعوها تحت حماية او شفاعة احد الشهداء القديسين ، او على اسم احد رؤساء الملائكة ، كما أطلقوا مسميات مسيحية ، على مراكز العبادة ومواقع الحج الوثنية ، وألبسوا صيغاً وأشكالاً مسيحية ، المراسم الطقسية التي كانت تقام في الارياض ، ناشرين على هذه الكيفية الرمز الصوري او الحرفي ، على الاقل ، المديانة المسيحية . وقسّد قام أساقفة المراكز المتقدمة في الشمال ، في لوتون وكمبري وريس ، يساعدهم مرسلون قديموا ، هم ايضا ، من مقاطعة اكويتانيا ، بينهم القديس اماند (Amand) ، بكراسة الدين الجديد في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غالبا ، بعد ان اكتسحتها موجة الفرنج وتوثنت منها الماديات والاعراف . وهكذا تم لهم ان يرفعوا راية الصليب فوق معالم نهري الموز والإسكو . وفي القرن السابع ، اخذنا نرى الرموز والشارات المسيحية تحل في مقاطعة اللورين ، محل الرموز والشارات القبرية الوثنية فيها .

وهناك رسيس حركة تجدد تبدو ، هي الاخرى ، على الفنون ، بعد ان حملت الغزوات الجرمانية معها فناً جديداً يحمل كل مقومات النشاط بحيث عمّ كل البلدان المثلثة في غربي اوربا ، وهو فن ملازم للبداءة ولأهل الظلم ، يستوحى ملهاته من هذه الحضارة الجانية ، مع ميل قوي للتركيز الصوري ونزعة شديدة لاستنطاق الأشكال الحيوانية ، هو فن مَهْرَة الحدادين في صناعة الاسلحة وشغل المعادن وتصنيعها ، أول ما اخذوا في تطبيقه ، على صناعة الحلي والهجورات الدقيقة الصنع ، أخذت مادتها من أثن العناصر وأجملها وأندرها ، كالذهب والحجارة الكريمة .

ففي زخارفه المستطيلة الأشكال التي تشبه ، الى حد بعيد ، زخارف القبور الجرمانية في الغرب التي تظهر على قبر شلدريك الميروفنجي ، المدفون في مدينة تورنيه ، عام ٤٨١ ، أو على القبور والمدافن الانكلوسكسونية أو قبور الفيزيغوط في اسبانيا . وهو فن طارئ ، جاء من الخارج ، مغاير في مقوماته الجمالية ، للجمالية الرومانية ، يتميز باحتقاره التصنع ، همه ان يرسم الأشياء كما تبدو في الطبيعة . وهذا الفن الدخيل على البلاد مغاير تماماً للمبادئ الجمالية التي التزم الرومان جانبها وعملوا بها ، فوجد في شمالي غاليا ، في القرن السابع ، مرتعاً خصباً وربة صالحة للزدهار وللتطور . فقد صنع الصاغة في بدء أمرهم مصوغات من الحجم الكبير ، اختفى تقريباً كل أثر لها اليوم ويمكن مع ذلك ان نتبين غناها من بعض فقرات من سيرة القديس إيلوا . فقد بلغت بعض وجوه الصناعة على أيديهم ، درجة عالية من الاجادة والاتقان ، كما طبقوا أساليب جديدة في افراغ الشهبان وصناعة الحديد والتفنن في شغله ، في منطقة باريس ، واستطاع الصاغة ان يحددوا من وسائل إلهامهم ، فحاولوا ، دون ان يتخلوا تماماً عن التجريد ، ان يرسموا على أشكال واطواع معينة ، صوراً بشرية . ففي الحين الذي راح فيه الفن الجرمني يوسع من أفقه في المناطق المجاورة لنهر السين ، شهد الناس نهضة حقيقية وبعثاً صحيحاً للأساليب الفنية الرومانية والحفر والنحت ونقش الحجر ، وذلك تحت تأثير المؤسسات والمباني الدينية وما رفلت به من غنى الزخارف وعناصر التعلية . وقد بلغ من شهرة بعض المهندسين والبنائين ما حمل الرهبان في انكلترا على استدعائهم ليشرفوا على زخرفة كنائسهم وتحليتها ، ولكي يبنوا لهم معابد جديدة تحلّت واجهاتها بهذه المسلات التي ميزت المباني الغالية الكلفة في هذه الحقبة . وكان من زخرفة هذه الكنائس وتحليتها ان نبض فن النقش والحفر الذي تركز اول ما تركز ، على مقربة من المهاجر والمقالع الرخامية في جبال البرانيس ، وراح يقلّد بعض الناذج الواردة من الشرق ، الهللة بالنقوش والتعاريش النباتية ، ثم لم تلبث ان انتقلت ، في اواخر القرن السابع ، الى مقاطعة إيل ده فرانس ، لتكون من ثمّة على اتصال مباشر ، بدكاكين الصاغة الذين يستوحون للفن البربري . وهنا أخذ الرسامون المعنيون برسم الصور البشرية ، يحددون ، على شاكلة الحفارين الذين نقشوا نواويس كنيسة جوير *Jouerre* الحفر الناتئ للصور البشرية ، في الحجر الكلسي الطري .

ان اقتباس الرموز المسيحية وتطبيقها على مشاهد حياة الانسان وفقاً لعقليات سكان الريف ، ورسيس الحركة التجارية الذي اخذ يظهر ويقوى ، ومهارة الرسامين الفنية ، كل هذا وما اليه ، كان بشير نهضة واضحة المعالم . ولكي تشتد هذه النهضة وتنطلق في غالبا الميروفنجية كان لا بد لها من وضع سياسي يغاير الوضع القائم يسمح بقولبة الأطر الارستوقراطية . غير ان انتشار العادات والطبائع الجرمانية ، كالولاء الشخصي ، ورفاقة السلاح ، كل ذلك هيا الأخذ بحركة تجدد النظم والاطواع السياسية في البلاد . وقد اخذنا نرى في مقاطعة اوسترازايا ، التي كانت تعتبر أشد مقاطعات الفرنج إيفالاً في الهمجية ، وأبعدها ذهاباً في البربرية ، تظهر حول قيّم القصر او سادنه *Le Maire du palais* مكونات الولاء والبذل والتضحية وكلها من ميزات نظام جديد .

وكانت غالبا بحاجة ماسة الى أطر ثقافية وفكرية ، ولا سيما لنظام منهجي لتعليم اللاتينية الكلاسيكية تساعد رجال الاكليريوس وتوفر لهم الاسباب والوسائل ، لفهم الكتب المقدسة ، وتليح في الوقت ذاته ، لإصلاح المصنف الاسقفي ، وشد أزرجال الدين في أعمالهم التبشيرية ورسالتهم ، كما تساعدهم على محاربة أباطيل الوثنية وشجب ترهاتها ورذلتها . وقد أخذنا نشاهد في اخريات القرن السابع ، يقد على مرافق الماناش الجديدة ، مبشرون انكلو سكسون الذين استطاعوا ان يحافظوا على التراث القديم كاملا ، نقياً ، وان يحتفظوا بديانة أنصع رسولية ، وأنقى تعليمياً ، وأكثر فعالية ، واثق ارتباطاً بالكرسي الرسولي .

الربان وعمل المبشرين الرسولي تلقت الكنيسة ، خارج مملكة غاليا ، التراث الروحي لروما ، بمعام جديدة طبعت الحياة الرهبانية والاسقفية والتبشيرية . وهذه الحياة الرهبانية التي كانت ظهرت ، في وقت مبكر ، في مصر ، انتقلت عادتاً الى الغرب وتركزت أسسها على شواطئ مقاطعة البروفانس ، حيث تأسس عام ٤١٠ و ٤١٨ ، ديران : أولها دير لارينس *Lerins* ، والآخر دير سانت فكتور ، في مرسيليا . ومن هناك انتشرت الحياة الرهبانية في ايرلندا ، عام ٤٢٥ ، على يد القديس باتريك وتلاميذه الغيور . ورسخت الديانة المسيحية والحياة الرهبانية في هذه الجزيرة بحيث أصبحت محور كل حياة دينية فعالة ، حية ، محيية ، ومنها شعت وانتشرت في بلدان اخرى . واستقر في خلد رهبان الجزيرة ان الاغتراب والترحال الى الخارج ، من احسن الوسائل التي تؤول الى تقديس النفس وتدينها أكثر فأكثر ، من الله سبحانه وتعالى ، وتزيدها تقرباً من الكمال المسيحي . وهكذا انتشر الرهبان المرسلون من ايرلندا في كل البلدان الكلتية الاصل واللسان : في ايكوسيا والشمال الغربي من انكلترا والارموريك . وفي اواخر القرن الخامس ، رحل الرهبان الايكوسيون ، بقيادة رئيسهم ومديرهم القديس كولبان ، الى مملكة الفرنج والى غيرهم من الشعوب الجرمانية ، فأسسوا تباعاً ، أدياراً عديدة ، منها دير لوكسويل *Luxeuil* ، عام ٦١٠ ، ودير سان غال ، عام ٦١٢ ، ودير بويو ، في لمبرديا ، عام ٦١٥ . وهكذا وضعت معالم اتجاه التيار الروحي الذي بلغ أقصاه البلدان المسيحية في الغرب ، حتى بلغ قلب جرمانيا وادخل فيها انماطاً مختلفة من الحياة الرهبانية ، ومناهج متنوعة . غير ان الحياة الرهبانية في ايرلندا لم تلبث ان عرفت صوراً وارتدت مظاهر قاسية متزمتة ، وبدائية في مظهرها ، اذ ان منطلق الحياة الرهبانية كان في الكتب المقدسة ، وعلى مجموعة من النصوص والآيات المقدسة تفرض في ملتزمها ، تعليمياً ابتدائياً ومعرفة اللغة المكتوبة بها الكتب المنزلة والطقوس الليتورجية ، وهي لغة أسسها رهبان ايكوسيا واتقنوا استعمالها ، وعرفوا ان يحافظوا على نقائها ، لا سيما وان لغة الأهلين الدارجة الاستعمال ، كانت ، بخلاف لغة المسيحيين في غاليا ، مغايرة لها تماماً ، لا يخشون البتة من افسادها . والظاهر انهم لم يكونوا ليكثرثوا كثيراً بالثقافة العلمانية او الدنيوية ،

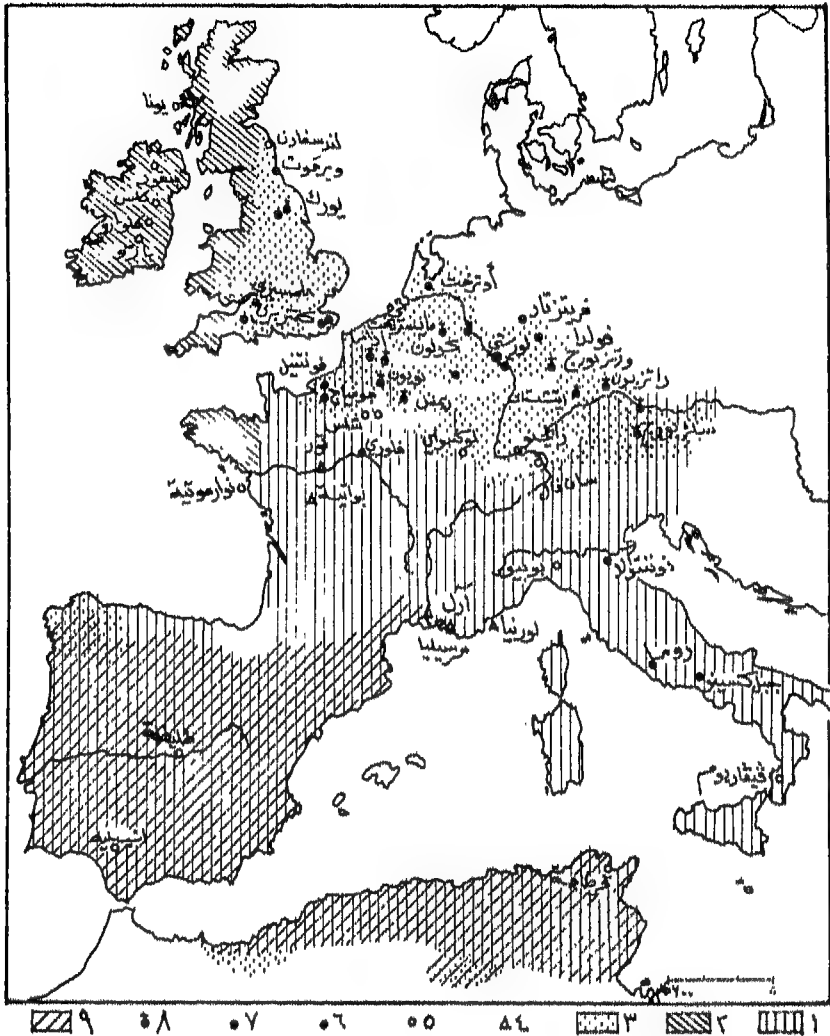
لا سيما وقد لبست الحركة الدينية مسحة من الزهد الماتزمت والتنسك المجاني لواقع الحياة . كما صوروا المغفرة وخلص النفوس على اسس منفرة ، لا تصلح ابداً ركيزة للتمدن والتحضر .

الا انه اخذ يظهر ، في الربع الثاني من القرن السادس ، صورة جديدة للحياة الرهبانية ، انتشرت في ايطاليا التي استباحتها الحروب والغزوات الغوطية . فقد نشأ في مقاطعات نورسي الايطالية راهب هو الراهب بندكتوس ، من اسرة ثرية من سكان الريف ، أُتيح له ان يتلقى في روما ، قدراً ملحوظاً من الآداب اللاتينية . فقد وضع عام ٥٢٥ للرهبان الذين تحلقوا عليه والتفوا حوله ، في دير جبل كستينو ، فرائض للحياة الرهبانية اتخذت قسطاً لها الاعتدال .

فقد رأى هذا المرشد الحكيم ان الاسرة الرهبانية التي يتولى رئاستها رئيس مسؤول ، يجب ان تبرز وكأنها ملبشياً أو جمعية لها نظام فرقة عسكرية ، يقوم أفرادها معاً ، بالصلاة الواحدة المشتركة ، أولى وصايا الله الكبرى واسماها . وعلى اعضاء هذه الاسرة ان يوقعوا علناً وخطياً تعهداً كالتعهد الذي يقطعه رجال الحرب ، بان ينهجوا ، في حياتهم اليومية ، نهجاً سوياً ، متزناً ، يقسم يومياً ، بين العمل اليدوي دونما إرهاق مضر للجسم أو تخرج ، تشبه ملابسهم ونظام عيشهم ، وطريقة إشغالهم الوقت وملء الفراغ ، نظام الجند العاملين في الريف ، اذ ذاك . فالدير هو مكان عزلة وانقطاع عن حياة العالم ، ينعم ويتصرف باملاك واسعة ، تجعل ساكنيه ، ومن فيه ، بآمن من العوز والسؤل ، ومع ذلك ، منفتح للجميع بحيث لا يبعث في الناس النفور من النظام الذي يسير عليه ، ولا يجعل غط العيش المتبع فيه ، الناس تجفل منه او ترغب عنه او تسخر به ، اذا ما عنّ لأحدهم اعتناقه والعمل به . ولم يدُر في خلد القديس بندكتوس قط ان يمهّد الى الدير برسالة الكرازة والتبشير أو العمل على نشر الحياة الروحية والمسيحية . فالدير ، في نظره ، لم يكن سوى ملاذ منكفىء على نفسه ، منطو على ذاته ، في هذا العالم المضطرب الكثير الصخب والنهار على نفسه . وكان من اختصاص البابوية المشعة ، في أواخر القرن السادس ، ان تجعل الحياة الرهبانية ، كما وضعها القديس بندكتوس وقبدها بفرائض بيتنة ، صريحة ، تكون أداة طيبة لنشر المسيحية بين الناس .

منذ فتح يوستينيانوس لايطاليا ، في القرن السادس ، كان الكرسي الرسولي ، في الامبراطورية البيزنطية ، ابرشية محورية أو دائرية تخضع لرعاية الامبراطور الضيقة . وكان تأثير نفوذ البطارقة الشرقيين ، في الكنيسة اليونانية المتصاعدة ، يهدد جديداً ، رئاسته الروحية واولويته . وكان البابا ، على عكس ذلك ، يحتل مركزاً مرموقاً في ايطاليا التي مزقتها غزوات البرابرة والحروب التي جرت فيها ، شر ممزق وارهقتها ، وتخلت الامبراطورية المهينة الجناح ، والمنهوك القوى ، عن مهمة الدفاع عنها . فقد أصبح البابا ، على إثر انهيار النظم والمؤسسات المدنية والادارية ، سيد روما ورئيسها غير المنازع . وكانت املاك السدة البطرسية ، وهي اغنى عقارات من نوعها ، في ايطاليا ، تدرّ عليه موارد طائلة . فاضطره هذا الوضع بالذات ليتولى بنفسه الدفاع عن روما ، لصد الهجمات المتتالية التي شنّها عليها اللبارديون ، كما انه رأى نفسه مسؤولاً عن تنظيم الأمن والسهر على استتبابه . واذ كان يمثل على احسن وجه الوطنية الرومانية

كانت سلطته هي السلطة الحقبة التي يتوجب عليها الدفاع عن المصلحة الرومانية العامة . فلا عجب ، والحالة هذه ، من ان ينظر اليه الحجاج والرحالة البرابرة ، نظرتهم الى الممثل الحقيقي



الشكل (١) - المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع

الوحيد لروما ولفكرة الامبراطورية التي بقيت عالقة في اذهان الناس وجمهرة السكان . وهذا لعمري شيء طبيعي وتفكير في محله ، لبعدهم عن بيزنطية والعالم اليوناني ، اذ ذاك . وهذا الوضع المتحيز على هذا الشكل ، عرف الباب غريغوريوس الكبير ٥٩٠ - ٦٠٤ اعظم بابوات الاجيال الوسطى واشهرهم على الاطلاق ، ان يستغله وينتفع منه على الوجه الامثل ، لمصلحة الكرسي

الرسولي . وهذا الروماني الذي كان يقرّ ويعترف متواضعاً ، يجمله اللغة اليونانية ، والذي كان اسس في دارقه ، على هضبة التشيلوس *Coelius* نظاماً رهبانياً ، سار على وتيرة القانون الرهباني الذي وضعه القديس بندكتوس ، ادرك جيداً انه يتحتم على البابا ، ليصبح في مأمن من القيصرية البابوية البيزنطية وطوارئها ، ان يكون رأس الغرب البربري ، وراعيه . فالكتب التي وضعها وانتشرت بسرعة ساعدت على توطيد الكرسي الرسولي وإشاعة هيئته . فقد هيئاً وأعدت اعتناق اللباردين للديانة المسيحية في ايطاليا ، وتبادل مع اساقفة غاليا واسبانيا ، عدداً من الرسائل التعليمية التنظيمية ، وراح يعمل على تشجيع الكرازة بالدين المسيحي ، بين الوثنيين في الغرب . فقد راودته بين ٥٨٦ - ٥٨٨ فكرة تبشير الانكلو سكسون بالمسيحية . وقد تم له ذلك ، عام ٥٩٦ ، عندما ارسل الى الجزيرة البريطانية ، عدداً من الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب اوغسطينوس .

وكانت انكلترا السكسونية ما تزال على الوثنية والصنمية بعد ان حنق الرهبان الايكوسيون حنقاً شديداً على الغزاة . والبعثة الدينية التي جاءت برئاسة اوغسطينوس ، اسست لها ديراً في كنتوربري ، كان اول دير تؤسسه الرهبانية البندكتية خارج ايطاليا . فقد لقيت في بادئ امرها ، نجاحاً عظيماً بحيث شهدت تنصير معظم ملوك الدول السكسونية القائمة في انكلترا ، اذ ذاك . وحدث على إثر ذلك ، ردة فعل وثنية اوشكت تؤدي بكل شيء وتذهب بالنجاحات التي حققتها البعثة الدينية ، هباءً منثوراً . واستؤنف العمل التبشيري الديني ، في البلاد ، على يد رهبان إيرلنديين استقروا ، عام ٦٣٤ ، في لندسفارن بحيث رأت انكلترا نفسها ، التي أصبحت كلها مسيحية ، على نهجين في الحياة الرهبانية ، مختلفين متباينين ، هما نهج الرهبان الايكوسيين ، والنهج الروماني .

في خدمة البابوية ، وبعد تعرفهم على النهج الرهباني المتجول الارلندي ، تحول الرهبان البندكتيون ، الى مبشرين . الا انهم لم يكونوا ليكتثروا ، وهم بعد في اواسط القرن السابع ، لأمر الفكر والثقافة . ففي الكنيسة الغربية ، كان العهد الكلاسيكي ومن يمثله من الكتب ورجال الفكر ، يقابل بالازدراء ، كما كان الناس يشعرون برهبة أو يتهببون العناية والاهتمام بالآثار الفكرية الكلاسيكية التي لا تزال تحمل اجمل ما في الوثنية من غذاء ادبي . وقد راح عامل من الزهد والتخرج يجعلهم يستنكرون كثيراً هذه المتعة الفكرية التي توفرها قراءة آثارهم العلمانية الدنيوية . أفكلم بتعرض الاسقف ديزيه ، مطران فيينا ، للشجب الشديد والتنديد العنيف ، من قبل البابا غريغوريوس الكبير لانه راح يعلم اجرومية النحو والغراماطيق . وقد ظهرت ضد هذا الوضع الشاذ المتخرج ، اول ردة فعل ، في اواسط القرن السادس . فبعد موت ثيودوريق ، راح وزيره كسيودوروس يحاول ، بالاتفاق مع البابا اغابي ، فتح مدرسة لتعليم الآداب في روما ، تكون على شاكلة مدرسة نصيبين ، واخذ في تكوين مكتبة في روما وجمع نواة طيبة لها عندما سقطت روما بيد جيوش الامبراطور يوستينيانوس ، ففضي على المشروع وهو في المهد . وكان كسيودوروس

التجأ الى ساحل كلابريا وسكن دارة له جميلة للغاية في مدينة فيفاريوم، ودخل الدير بعد ان نهج الحياة الرهبانية . وهذا النهج الجديد الذي ارتضاه في حياته ولرفاقه كان نهج قوم من السراة ذوي ثقافة عالية ، تحرروا من المهام المادية وجمعوا حولهم طائفة من الكتب . اما معلمهم الرئيسي فانصرف للاهتمام بامور الفكر والثقافة ، يقضون اوقاتهم بين استنساخ المخطوطات ومطالعة الكتب المقدسة . وخلافاً للتقاليد المتبعة من عهد إيرونيموس التي كانت تقتصر من قيم الثقافة الكلاسيكية ، رأى كسيودوروس انه لكي يتفهم الانسان الكتب المقدسة حق فهمها ، كان لا بد له من الاستعانة بالآداب الرفيعة . وراح ، في آخر ايامه ، يعد في هذا السبيل ، برنامجاً موحداً يجمع بين الدراسات الكتابية والعلوم الدنيوية ، وهو منهاج بسيط باستفاضة في الحلقنتين اللتين يتألف منها كتابه المصنوع : « النظم » وبفضله 'كتيب' للدراسة القديمة البقاء بعد ان كادت تفقد كل اثر لها وتضمحل ، لو لم تجد لها في الدير والحياة الرهبانية خير معوان لها وخير مسعف . غير ان المحيط لم يكن حليماً ولا مسمحاً . فالحالة جاءت في غير اوانها ، ولم تتخذ لها الظروف الهيئة ، كما ان الاهتمام بامور العقل والفكر لم يكن ثقل بعد الاديان البندكتية .

وهذا الموقف يقفه الاكليروس من الثقافة الكلاسيكية تبدل تماماً ، بعد هذا ، بنحو قرن من الزمن ، وذلك بتأثير من رهبان مشاركة لجأوا الى ايطاليا وافريقيا . ففي البلاد اليونانية ، راحت المسيحية بعد ان رسخت أصولها وأعربت في الارض ، تتمثل جانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، واخذ الناس يتذوقون التراث الادبي القديم . فزاد اقبال الناس على تلقف هذا الادب ، في روما أولاً ثم في انكلترا التي تنصرت منذ عهد قريب . فالبعثة الرسولية الثانية التي عهد اليها ، عام ٦٣٩ ، في استكمال تنظيم الكنيسة الانكلو سكسونية كانت تحت ادارة رجلين تشبعا من الثقافة الشرقية العالية ، هما ثيودوروس الطرسوسي الذي قد يكون من خريجي مدارس اثينا ، وهدريانوس ، وهو رجل افريقي الاصل تخرج بالآداب اليونانية واللاتينية في قرطاجة البيزنطية . ففي الوقت الذي سربلا فيه الكنيسة الانكليزية بهذه المزايا ، منحهاها تنظيماً أسفياً شديد الأسر وشدهاها الى البابوية بروابط متينة وأدخلها على المدارس الابتدائية القائمة في الاديان ، حيث كان المرتدون الى الدين المسيحي ، يتلقون مبادئ اللاتينية التي لا بد منها لتفهم الكتاب المقدس ، برنامجاً تعليمياً أقوى بكثير من البرنامج المعمول به ، الى ذلك الحين ، يضم على شاكلة البرنامج الذي سبق لكسيودوروس ان وضعه من قبل ، وكان يتوخى التعمق بأسرار اللغة اللاتينية وآدابها ، « ساكباً » ، كما جاء على لسان الطوباوي باد المحترم ، وهو أبرز من خلفها وأشهرهم على الاطلاق : « على القلوب ، العلم دِفاقاً » . فلم تغم الديارات البندكتية الجديدة ، أمثال دير وبراوث ويارو ، ان اصبحت منائر للثقافة في تلك البلاد وراح مؤسسها بندكتوس بسكوب ينشئ فيها مكاتب ، اذ جاء روما زائراً ست مرات متوالية ، وكان يعود في كل مرة منها محملاً بالمخطوطات ، ولم يلبث ان قام في مدينة يورك ، أكبر مركز للتعليم في المسيحية جمعاء . وتحت تأثير هذا الازدهار غير المتوقع على هذا الشكل الذي عرفته الثقافة الكتابية في ديارات ارلندا

وانكلترا الشرقية والغربية ، ظهرت عام ٧٠٠ ، في الجزيرة رسوم التحلية والتزاويق البديعة التي تزين روائع المخطوطات واعلاقتها ، في هذه الحقبة ، منها مثلاً كتاب مزامير دير كنتوربري الذي يحمل صوراً ورسوماً مستوحاة من نماذج قديمة جيء بها من إيطاليا ومن أفريقيا ، ومنها أيضاً المجيل لندسفارن الذي استعار رسوماً حيوانية وأشكالاً زخرفية استعملت في مجوهرات بربرية بعد ان جرى تكبير حجمها .

وفي أواخر القرن السابع ، في الوقت الذي أغرق الفتح العربي تحت سيده الجارف ، الممتلكات البيزنطية في أفريقيا وكادت أمواجه الطامية تهدد الفيضيغوط في اسبانيا ، غادر مبشرون ، الأديار الأتكلو سكسونية ليقوموا بتأسيس ارساليات تبشيرية ، في الاطراف الشرقية للمملكة الفرنجية حيث كان لا يزال يوجد بعد جماعات من المشركين . وهكذا أقاموا من جهة ، صلات وطيدة ، بين البابوية الرومانية وأقوى الدول من الوجهة السياسية اذ ذاك ، حيث كان لسدنة القصر أكبر شأن في مقاطعة أوسترازا ، ومن جهة اخرى ، بين وجوه الثقافة اللاتينية الأكثر حيوية ونشاطاً ، هي الثقافة التي وطّدت أركانها الطوباوي باد المحترم في البلاد وتعهدتها تلاميذه . من بعده ، وبين الفن الغالو - الروماني في منطقة باريس . وعن طريق هذه الاتصالات الرباعية الاطراف ، تمهد السبيل امام طلوع حضارة الاجيال الوسطى .

الفصل الثاني

انهيار العالم الروماني: الشرق

لا يتوهم أحد ان الشرق ، في الحقبة الواقعة بين القرن الخامس والسابع ، اختلف عن الغرب كثيراً ، من حيث الوضع الاساسي . ففي الوقت الذي قامت في الغرب دول جرمانية حدثت محل الامبراطورية الرومانية ، قامت في الشرق ، واستمرت قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، دولة نمتت نفسها « رومانية » ، هي الامبراطورية « البيزنطية » باسم عاصمتها بيزنطية التي عرفت في عهد قسطنطين الكبير باسم « القسطنطينية » . فلم يكن وضعها ، وهي على منتصف الطريق من الاجيال الوسطى ، ليختلف كثيراً عن الوضع الذي لابس سميتها في الغرب ، بعد ان جدد شارلمان واوتون ، شبابها ونفخا فيها دماً جديداً ، فالقطيعة جاءت اقل مفاجأة في الشرق منها في الغرب ، بينما سارت حركة التطور والتبدل لدى كليهما ، باتجاه واحد حتى في المراحل الاولى من هذا التطور .

تألفت هذه الامبراطورية من مقاطعات مختلفة كل الاختلاف .
الامبراطورية الرومانية الشرقية
فشبه الجزيرة البلقانية ، باستثناء بلاد اليونان منها ، هي اقرب شهما الى الغرب الاوربي ، من آسيا ، كما ان مصر تميزت ، هي الاخرى ، عن باقي اجزاء آسيا الرومانية ؛ اذ كثيراً ما يحلو لنا ان نطبق على كل اجزاء الامبراطورية الرومانية ، الصورة المغربية الجذابة ، التي رسمها لها الوثائق التاريخية ولا سيما البرديات منها . صحيح ان هذه الاقاليم نعمت ببيروقراطية ونظام اداري ومالي افتقر الغرب الى امثاله مع ما يستتبع من نتائج الا وهي كره الناس والسكان لشكل الدولة . فقد قام في الشرق والغرب على السواء ، اقطاعية عرفت باملاكها واقطانها الواسعة ، كاسرة آل ابيون في مصر ، بينما زالت طبقة الفلاحين الاحرار من الوجود او كادت ، اذ استحال قسم منها عبيداً او شبه عبيد علقوا بالارض وارتبطوا بها ولجأ القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب او من قسوة اسيادهم الى حيث استطاعوا سبيلاً . أما في المدن والقرى فقد راحت الدولة تحجز كذلك على اوضاع الحياة الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آباءهم ، والتمرس بالمسؤوليات العامة التي عهدت اليهم ، فأحصيت عليهم الانفاس في كل صناعة احترفوها او متجروا فتحوه ، فاحتكرت الدولة صناعة

الاسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلمت بنفسها امور تكوين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش، منها العاصمة القسطنطينية، وذلك عن طريق المصادرة او الشراء بأبخس الاسعار. والجيش نفسه يتألف، كما هو في الغرب، من «برابرة» محترفين، لم يلبث قواده ان استأثروا بالسلطة، كما استأثروا زملاؤهم بها، في غالبا وايطاليا واسبانيا وافريقيا، بينما يستقر رجالهم في أراضي الامبراطورية بشكل يشبه، من وجوه كثيرة حق «الضيافة» المعمول به في الغرب، وضرورة محاربة الغزاة الطارئين وفقاً لأساليبهم المتبعة في فرقة الحيلة، كل ذلك وما اليه، عقد جداً تنظيم الجيش وطريقة تشكيله وجعلت تكاليفه باهظة مرهقة.

فما هي، يا ترى، الاسباب التي جعلت الامبراطورية الشرقية تصمد بنجاح، للعوامل الهدامة التي هددتها، فمكنتها، أكثر مما مكنت الغرب، من المقاومة والوقوف بوجهها؟ لفترة قصيرة لعمرى، كما يجب ان نعلم، اذ ان الولايات الأوروبية لم تلبث ان اكتسحتها في القرن السابع، قبائل من «البربر» أكثر شراسة وضراوة من قبائل الجرمان، كما ان معظم القسم الآسيوي والافريقي منها سيذهب فريسة غزاة جدد لم يكونوا في الحسبان. فقد أمكن تفادي شر موجات البرابرة الاولى عن طريق تحويلهم شطراً آخر، او بادماجهم في الجيش، في حال تعذر امتصاصهم وتمثلهم. فالسر يمكن رده، والحالة هذه، لسبب خارجي، في بعض وجوهه. فالامبراطورية لم تتعرض لضغط ملموس إلا في اوروبا. فالولايات الآسيوية المعروفة بغنى مواردها بقيت سليمة، تتعرض الفينة بعد الفينة، لحروب يشنها عليها الفرس، وهي حروب لم تتسم بالخطر الذي تمثل على أشده، في تغلغل البربر وانسراهم في جميع ارجاء اوروبا، اذ ان الاخطار التي كانت تهدد الدولة الساسانية من الشمال، كانت تحول دون توغل جيوشها بعيداً، داخل الامبراطورية، مع العلم ان هذه الحروب لم تكن لتهدف إلا للسيطرة سياسياً، على بعض الولايات الشرقية وليس الى ضمها واقتطاعها نهائياً. وهنالك سبب آخر يقوم أساساً في القوة الكامنة في قلب الامبراطورية الشرقية التي حالت دون اكتساح البرابرة لمدينة القسطنطينية والاستئثار بالسلطة، اذا ما حالفهم الحظ وعبروا مضائق البوسفور والدردنيل، اذ كانوا يفضلون، لدى سنوح الفرصة الملائمة، التوطن في مقاطعات الغرب.

وتفوق الشرق على الغرب كان يتمثل، قبل كل شيء، في تفوق الشرق اقتصادياً واجتماعياً التجارة والصناعة التي أدت بدورها الى ازدهار المدن، وإلى تكشف عدد السكان في الريف. صحيح ان التجارة الدولية كانت تقتصر على بعض السلع الثمينة التي كانت تفي برغائب الطبقة الارستوقراطية، فلا تأثير لها، والحالة هذه، على الجماهير والطبقات الشعبية، بينما انحصرت حركة النقل في الداخل على محاصيل زراعية بالاكث، ذات طابع اداري محض أكثر مما هو تجاري. وبالرغم من هذا، فقد كانت لهذه الحركة التجارية أهمية كبرى، كما كان لها تأثير كبير على الطبقة البورجوازية الغنية في المدن وبالتالي، على سكان المدن، اذ كانت تؤمن لهم أسباب العمل وأود العيش. فالحركة التجارية تتجه بالاكثر شطر آسيا: الهند

وحق الصين . فقد فقدت هذه الحركة البساطة التي طبعت المعاملات المالية خلال الاجيال المنصرمة ، اذ كان التجار الرومان يبلغون بيسر المراكز والاسواق التجارية في الهند والصين . اما الآن ، وقد عرف الساسانيون ان يربطوا بقوافلهم البرية اقطار آسيا الوسطى بسواحل البحر المتوسط الشرقية ، وان يؤمنوا الاتصال بحرياً بالهند وموانئها بعد ان عزلوا البحر الاحمر لخير الخليج الفارسي ، فقد سيطروا تماماً واحتكروا حركة النقل فكان ذلك مورد ربح عظيم لهم كما سبب القلق والازعاج للامبراطورية « الرومانية » . قد يتنطح البعض للقول فيزعمون ان الشرق المتوسطي ، كان بالنسبة لآسيا القصية النائية ، في وضع يشبه ، الى حد بعيد ، وضع الغرب بالنسبة لهذا الشرق الادنى ، يعاني مريعاً كما كانت تعاني اوروبا ، من استنزاف الذهب . انه استنتاج لا يخلو لعمرى من الغلو والشطط ، مع ان هنالك حوادث ثابتة لا تدحض لتسرب كميات من الذهب « الروماني » . فالصناعة التي عثر على بعض انتاجها في الصين ، كان باستطاعتها ان تؤمن التوازن ، مع انه لا يزال سرّاً من الاسرار كيف استطاع النقد البيزنطي ان يحافظ ، اجيالا متطاولة ، على متانته وقوته على الشراء ، بحيث اصبح النقد الدولي المتعارف ، وهي متانة لا تأتلف ولا تنسجم البتة مع افتراض افتقار البلاد للنقد أو القول باختلال الميزان التجاري .

ولكن ما عسى ان تمثله ، في أعين تجار البحر المتوسط الشرقي ، هذه التجارة مع الغرب ؟ فاذا ما انعمنا النظر ملياً في احوال الغرب ، في هذه الحقبة ، كان لا بد من الاعتراف ، بالدليل القاطع والحجة المؤيدة ، باستمرار هذه العلاقات التجارية في قلب الدول « البربرية » وانحطاطها في آن واحد ، وذلك لقصور الغرب عن الشراء بعد ان ضمرت وسائله وضعفت ، وبعد ان قام اسطول الفندال باعمال القرصنة في البحر ، ولو بصورة مؤقتة . وقد يتغير الوضع تماماً اذا ما نظرنا اليه من الشرق . فقد استطاعت الحركة التجارية ان تحافظ على مسنوها وعلى اهميتها ، بالرغم مما كان عليه الغرب من ضعف في اقتصادياته ، دون ان يملق اهل الشرق كبير اهمية على هذا الوضع ، بالرغم مما اصطلمحوا اجيالاً على تأمينه من الارباح الطائلة . والشئ الثابت الذي لا يوجهه الشك هو ان الامبراطورية الشرقية ، تمكنت ، منذ اواخر القرن الخامس ، ان تنشئ لها عمارة قوية ، وان تؤمن سيطرتها على البحر في الوقت الذي بدا لنا فيه انها في سبيل التخلي للبربر ، عن سلطتها على البر . وبفضل هذا الاسطول ، ستتمكن من استرجاع اقاليمها المفتصة من قبل ، قائمة بالشواطىء البحرية ، بعد ان استرجعت افريقيا واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا ، مكنتية بما عليها من موانئ ومرافئ تنفذ منها الى الداخل دون ان تتوغل فيه كثيراً مع ذلك ، مما يؤمن لها أسباب الدفاع عنها ، نزولاً منها عند مقتضيات الدفاع . ومع ذلك من يستطيع ان يزعم ان حركة الاتجار مع اقطار « البرابرة » كانت اكثر صعوبة مع الولايات « الرومانية » فالمصنوعات البيزنطية كانت تصل ، حتى اواخر القرن السابع ، الاقطار الواقعة حول الدانوب أو في اوروبا الشرقية لتبلغ منها شواطىء البحر البلطقي ، على يد زعماء وطنيين مقابل الفراء والرقيق

يردهم عن طريق القبائل او عن طريق مسلوبات الحرب أو كانت تجدد بها هبات واعطيات الديبولوماسية البيزنطية ، استدناءً لزعماء القبائل والشعوب البربرية . وليس ما يثبت البتة أو يؤيد بشكل من الاشكال ، ان الاوساط التجارية في القسطنطينية أو في سوريا دعت الى الحروب او جذبت قيامها بغية عرقلة الحركة التجارية ، أو طمعاً باسترجاع اراضٍ طالما تعرضت للغزو ، وتآملت بما وقع عليها من نهب وسلب ، وذلك طمعاً منهم في استثمار هذه الحروب والاستفادة من الفتوحات الحربية . فاذا ما اتفق واعرض الامبراطور يوستينيانوس عن هذه وضرب بها عرض الحائط وقام بمعجلاته العسكرية المعروفة للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب والجنوب ، فنزولاً منه وامثالاً لدوافع ونوازع مالية ، ملحة ، لا ترحم . فكم من مرة تحكمت بالسياسة البيزنطية العليا ، الرغبة الملحة بفرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة ، وذلك بالرغم من معارضة كبار الملاكين وارباب الاعمال والتجارة الذين لم يكونوا ليساهموا كثيراً بهذه المنافع الحكومية . ولذا كان على الدولة ان تؤمن ، بجميع الوسائل ، مقتضيات الدفاع وما يحتاج اليه من وسائل الاغراء ، لاصطناع الانصار ، وقطع اللسنة ، وإثارة البرابرة ، وتآليبهم بعضاً على بعض ، وتوفير اسباب البذخ للبلاد وحاشيته ، وتأمين أود الفوغاء في العاصمة ، وعدم تهيجها بشيء . وهكذا ، اذ عرف الشرق ان يضحى بمقاطعاته الدائرية في الغرب ويتخلى عنها للقبائل الجرمانية ، استطاع بما لديه من موارد ، ان يؤمن أسباب وجوده وان يستمر حياً ، وان يقوم بهجوم معاكس ، ويحقق في الداخل اصلاح المنشود .

والتعبير الاجتماعي عن الحركة الاقتصادية التجارية ظهر ، على أتمه ، في ازدهار المدن . فقد نشأ في الغرب من آسيا الصغرى ، وسوريا وأعالى الجزيرة ، في ما بين النهرين ، مدن عظيمة ، كانتاكية مثلاً ، وشيء آخر له مغزاه ومدلوله الواضح ، عدد كبير من المدن الوسطى والصغرى برزت كالقطر في هذه البقاع ، أوجبت على أولي الامر ، مسؤولية تأمين أسباب العيش لسكانها وأدت بالتالي الى انشاءات هندسية ، زراعية ، لاستثمار خيرات هذه الارضين كما يستدل من الحفريات الحديثة ، واستغلال سهول سوريا الداخلية . ومن المدن الكبرى الاخرى في هذه المنطقة ، مدينة الاسكندرية التي خلافاً للمألوف من هذه المدائن ، قامت وازدهرت على سواحل بلاد ظلت ريفية في الصميم . ومن بينها ايضاً مدينة القسطنطينية العاصمة الاولى للامبراطورية ، ومرفأ جميل الموقع حصينه ، ملاذ البلقانيين يكتسبون اليها هرباً من غزوات البرابرة ونجاة بأنفسهم من المخاطر التي تهددهم باستمرار ، فالتسعت بذلك رقعتها وتضخم عدد السكان فيها متجاوزين المليون ، فارضة على أولياء الشأن مسؤوليات جساماً لتأمين أسباب المحافظة على النظام ، والمواد الأولية لتموين السكان واعاشتهم وأسباب الدفاع التي أصبحت أكثر حرجاً . ولذا كنا نرى - وهذا من بعض سمات هذا العصر المميزة - الاسوار وأعمال التحصين تقام حول هذه المدن تزيدها منعة وقوة مقاومة ، ولا سيما في عهد الامبراطور يوستينيانوس . فجبال المباني العامة وأبهة

الصروح الخاصة تشهد عالياً على ما عرفت الامبراطورية ، اذ ذاك ، من نعمة سابغة وازدهار حق ولو كان آنسياً ، موقوتاً ، وغير مستقر ، ولو قامت على أنقاض من الخرائب . وكانت أصحاب هذه العقارات يسكنون تلك المباني ، وان لم يكن دائماً في ممتلكاتهم العقارية . وقام حول المدن مباشرة ، طبقة بورجوازية متوسطة الغنى ، عدلت من شأن اصحاب الاقطاع الكبيرى الأبعد الى الوراء . والملكية القروية الصغيرة نفسها ، بدت راسخة ، في بعض الاماكن ، وتساهم بدورها في تكوين المدن الكبيرة . فالطبقة الصناعية نفسها في المدن تتوزع الى فئتين كبيرتين هما : الفئة الزرقاء والفئة الخضراء . ولقد لعبنا دوراً بارزاً في تنشيط الالعاب الرياضية ، عن طريق المباريات التي تنظمها من آن لآخر ، وهي ألعاب كانت من الحيوية وال نشاط ما نسينا معه ان نتذكر بأنها كانت تؤلف جزءاً من الحرس الوطني المسؤول عن النظام العام ، كما كانت تؤلف جماعات نهج الكثير من دقائقها تنعكس عليها الحزبيات التي انتابت الطبقات الاجتماعية ، اذ ذاك . وعلى هذه الكيفية يمكن لنا ان ندرك جيداً ان الانتماءات الشعبية التي كانت تؤول الى اسقاط الأباطرة كانت ، على الغالب ، ترتكز على احدى هذه الفئات . وقد يحدث أحياناً ان اكثر من واحد من هذه الاحزاب كان يشترك في التآمر على صاحب السلطان ، كما حدث ذلك تماماً في الفتنة التي أثارها نيكاس على الامبراطور يوستينيانوس ، ولم يتمكن من اخذها إلا بمذابح هائلة ، مريعة ، عهد بتنفيذها الى المرتزقة من جنود البرابرة .

اصطلح المؤرخون على ان يروا في عهد الامبراطور يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) يوستينيانوس العصر الذهبي للمدينة البيزنطية . وهذا خطئ في الرأي وهم لا سند له ولا دليل عليه ، يجب رده اصلاً ، الى الاثر الذي تركته فتوحاته الحربية ، والى غنى المباني التي شيدتها ، وما كانت عليه من فخامة وأبهة ، وطائفة محترمة من الأدباء والشعراء عمر بهم البلاط الامبراطوري . ومع ذلك ، فلم تحل هذه الاعتبارات كلها ، دون تخرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل كارثة ، لما حلف به من ضعف وأخطار . وعلينا ان نعترف هنا ، مع ذلك ، ان ما تم له من ارادة حازمة ، شأها لمعري ، شهوة جارفة للبدخ والاسراف ، مكنته كثيراً من حشد القوى والطاقت التي كانت له خير معاون على انجاز المآتي التي تمت على عهده وأقامت له الشهرة العالية التي يتمتع بها وحفظها له التاريخ .

كان عليه قبل كل شيء ، ان يقبض بيد من حديد ، على أداة الحكم والادارة ويهيمن على المجتمع . لننسى الآن الفشل الذريع الذي آل اليه . باشر حكمه بتوسيع محاولة بديء بها من قرن ماض ، تتمثل بالقانون الثيودوسي ، وهي موسوعة قانونية ضمت ما يمكن الانتفاع به من التشريع الروماني ، على ضوء التطور الذي لحق بالاخلاق والعادات ، وانتصار المسيحية النهائي وفوزها المبين . فالقانون اليوستينياني هو المعين الذي استقت منه كل الشعوب اللاتينية شرائعها وقوانينها . فهو الاثر الخالد الذي يعتمد عليه المؤرخون والفقهاء في تصويرهم ملامح التاريخ القديم . ويحدد هذا القانون تكاملته في المجموعة المعروفة بـ *Digeste* ، وهي مجموعة أضيفت اليه فيما

بعد ، وهيمن على وضعها الروح الذي سيطر على من قاموا بجمع الموسوعة الاولى ، تتألف من اجتهادات رجال القانون ونظرياتهم الفقهية .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت الدولة البيزنطية بعض السمات التي لازمتها ، وهي سمات كانت ، والحق يقال ، نديجة حركة تطويرية طلعت مع عهد قسطنطين ، تبدو ، قبل كل شيء ، في دمج الكنيسة بالدولة . فقد أظهرت الكنيسة ، في الغرب ، العداء ، للملوك والامراء الجرمانيين لضلوعهم بالهرطقة الآريوسية ، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة ، ومسكنة في الحضارة وعجز في الادارة ، ولذا نفرت من وصايتهم ولم ترضَ منهم بأي رعاية . اما في الشرق ، فالدولة هي تجسيم لارادة الحكومة ، قسطاسها الدين حيث تنعم الكنيسة برعاية الدولة التي لا تغل عن الكنيسة نفسها ، مسيحية . وهذه الكنيسة ، تلقت من أبنائها المؤمنين ومن الدولة نفسها ما أفاء عليها الفنى والسلطان . فبطاركتها ، ولا سيما بطريرك القسطنطينية بينهم ، هم اقطاب جذب ووزن . انما الكلمة الاخيرة للامبراطور ، حق في ما هو من امور الدين ، مهما كان رأي البابا القابع بعيداً ، في روما . وفي هذا يوم ما اصطلعوا على تسميته بالقيصرية البابوية .

فالامبراطور او الفاسيلفس هو السيد السند المطلق ، من أي اصل نشأ ، وأياً تكون السلطة العسكرية التي افترعته ، والسلطان الذي آل اليه على الأكثر ، غلباً واقتداراً ، يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما نشهد له من غنى لا يتصوره عقل ، ومراسم يجب التقيد بها والعمل بموجبها في قصر أشبه ما يكون بمدينة مغلقة على نفسها تشبهاً ، من بعض الوجوه ، بالتقاليد التي سارت عليها هذه الاسر الملكية الشرقية ، والتي جاءت وفقاً لحركة تطويرية داخلية . وقد خشي بعضهم في مطلع القرن الخامس ان يزهده الفاسيلفس بالحكم فيتغلى عن أزمته ، كما حدث في الغرب . فما هو يصبح في نهاية القرن ، ويبقى ابداً : القائد الاعلى الذي يرئس الجيوش ، ورئيساً يدير كل شيء ويشرف على كل شيء . وقد استشهد في معيته رهط كبير من المساعدين عمرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها ، او تولوا قيادة الجيوش في الولايات ، كما يشرف على المصالح العامة موظفون كبار ، لهم مكانتهم الشخصية . ومع ذلك ليس هنالك من ارادة واعية منظمة تؤمن التعاون بين هذا الشئ من الدوائر والدواوين ، غير ارادة الفاسيلفس والكل مصيره اليه وحده ، في نظام مسلسل من الالقاب والرتب ، بعضها شرفي محض يشير الى وضع خاص في المجتمع ، والبعض الآخر يتبلور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية . وكل هؤلاء الموظفين علمانيون ، سيصبحون تدريجياً ، مع الزمن موظفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والاجور ، بعد ان استبدلوا بهم الحكام المحليين الذين يحاولون دوماً التهرب من الاعمال الشاقة . وهكذا نرى ان المركزية في أبان ذروتها .

وتتمثل لنا نزعة يوستينيانوس الى الابهة والعظمة في هذه العماير التي شيدها وتأخذ الالباب بعظمتها ، رامياً منها الى تعجيد الله عز وجل واعلاء شأن الامبراطور . والمهم في هذا كله ان اطل من هذه الرغبة التي نزلت من الشعب منزلة التقدير والرضى فتبناها ، اثر في سبيلها هو من

اروع وواقع ما عرفت البشرية من امثاله ، ممثلاً بكنيسة الحكمة أو آجيا صوفيا التي يفرق اليوم في ظلها الظليلة الوارفة ، هذا الجلي من استانبول الواقع الى الغرب من مدخل القرن الذهبي ، مع ان ليس في مظهرها الخارجي من روعة الجمال ما يصدم الرائي أو يصدده . ولكن ما ان يدخل المرء الى صحن الكنيسة حتى يدهش لضخامة المبنى ولفن ما تقع عليه العين من الرخام المتعدد الألوان ، ومن هذا البذخ في الزخرف الذي لا تشوبه شائبة ، وارتفاع قبة التي تملأ القلب روعة ورهبة من هذه الجراءة التي راودت المهندسين اللذين أشرفا على هندسة هذه الكنيسة ، هما ايزيدوروس الميلي وانثيميوس التراقي . فكان عملها الفني هذا ملهماً بعد ألف سنة للمهندسين الاتراك العثمانيين والروس من بعدهم . فالمآسي البشرية التي توالى فيها بعد ، لم تترك شيئاً يستحق الذكر أو التنويه به من هذه الكنائس الأخرى ، التي زانت العاصمة بهندستها المتنوعة ، اذ كان بعضها يرسم لنا بازيليكاً مستطيلة الشكل ، كما يرسم البعض الآخر شكل صليب يوناني . ففي مدينة رافينا ، إحدى مدن ايطاليا الشمالية الغربية التي أبعد فتحها من جديد ، يستطيع المرء ان يتذوق أجمل الفسيفساء وأحفظها التي تخلد صورة الامبراطور وزوجته الامبراطورة ثيودورا يحيط بهما كبار الموظفين . صحيح ان فن الحفر والنقش كان اذ ذاك ، في ابان المخطاطه ، غير ان فن الزركشة وتزيين المباني لم يبلغ يوماً من الدقة ما بلغه اذ ذاك . فالمرء لا يزال يتذوق النقوش الفنية الجميلة التي أودعها الفنانون البيزنطيون الحشب والعاج . ولا تقل عنها جمالاً هذه المدسوجات المشرقية المتداخلة الألوان ، الشرقية الطراز ، والتراويق البديعة التي كانت تحلّي المخطوطات . وهذا الذي يبدو لنا اليوم على شيء من الجمود في الايكولوجرافيا ، قد يكون سببه المخطاط الفني ، انما يجب رده بالاكتر الى نظرية أسمى في رسالة الفن .

فالفن « البيزنطي » مدين لعوامل أخرى غير يونانية ، تتصل بسوريا وارمينيا . وهو أعجز من ان يلمخص أو يمثل كل فنون الشرق الأدنى . علينا مع ذلك ان نتجنب المغالاة لئلا نقع في الجهة المعاكسة التي وقع فيها بعض من كشفوا عن هذه الفنون . فباستطاعة عاصمة امبراطورية كبرى وحدها ان تفرغ مثل هذا العدد العديد من المؤثرات المتباينة في بوتقة واحدة . وفي مقدور دولة كبيرة قوية ان تبني وحدها كنيسة على مثال كنيسة آجيا صوفيا . وهذا الفن البيزنطي لم يقتصر في اشعاعه على الذين أسهموا في العثور على الاكتشافات التي حققوها وعلى من جاء بعدهم . فمن قبل يوستينيانوس ، استقدم أسيا رافينا وحكامها ، من بيزنطية ، مهرة الصناع الذين نقف اليوم مشدوهين امام انجازاتهم الفنية . وعلى بيزنطية عولت القرون العليا من تاريخ الاجيال الوسطى في استلهاهم أسرار الفن واستيحائه .

وقد نهجت الآداب البيزنطية ، هي الأخرى ، النهج الذي ارتضته لها مسلكتها ، وبقيت محافظة عليه ، بمسكة به . فالايحاء الفلسفي والعلمي ضاقت منه الانفاس ، لعمرى ، مع انه بقي محافظاً على تقاليده التي اعتمدتها مدرسة الاسكندرية ومن ثم « الجامعة » الجديدة التي تأسست في القسطنطينية . وفي المقابل ، ازدهر علم التاريخ الذي وجد مادة جديدة له في الاجناد

العالية التي حققها المدنية البيزنطية ، وفي هذه الحروب التي نهضت بها . في طليعتهم المؤرخ بروكوبوس (+ ٥٦٢) الذي انتقد الامبراطور يوستينيانوس بعد ان كان له المدح والثناء ، وذلك في كتبه المتعددة : « حروب الفرس » و « الفندال » ، و « الأوستروغوط » و كتابه الآخر : « رسالة في المباني » وفي كتابه : « التاريخ الخفي » (الذي اقل ما يقال فيه انه يزرع الشكوك) . فتح ما يتصف به من صفات الخلق ، فهو شديد الملاحظة ، كاتب مجيد ، زودنا بمعلومات من الطبقة الاولى حول عهده . وقد عاصر بروكوبوس جبهة من المؤرخين من علمانيين وكنسيين ، بعضهم من اصل شرقي . ومن الشرق خرج ايضا هؤلاء الفقهاء الذين عاونوا الامبراطور يوستينيانوس في موسوعته القانونية وفي *Digeste* . كل هذا وما اليه ، ادب يتجه بالطبع ، من الارستقراطية وقد افسحت الديانة الجديدة المجال ، في هذا التعاون الذي قام بين المؤمنين ورجال الاكليروس ، لظهور شعر ديني ، مقفى ، طلع له اول من طلوع رومانوس ، وعلى شعره ومدائحه تغذت تقوى الشعب اليوناني طيلة اجيال متطاولة .

هذه المدنية التي كان محورها على البوسفور ، راحت تعلق نفسها مع المطالبة والنزعات الاخلاقية ذلك بانها « رومانية » . فالفكرة التي تجسمها روما وتمثلها قيما تسمو بكثير فوق هذه الصور الزائلة التي تبلورت على شاشة المجتمع ، عاشت طويلا بعد انهيار الوحدة الرومانية وزوالها . ومن ثم ، فالاعتقاد الوطيد بان تراث روما القديمة انتقل الى القسطنطينية ، روما الجديدة ، جعلها رأس العالم المتمدين الاوحد . وهذا الايمان لم يأت يوما اقوى وأرسخ تشد عليه الدولة بالنواجز ، الا عندما ترى نفسها مرغمة للتخلي عن احدى مقاطعاتها للبرابرة . فلم يكن اقوى من هذه العاطفة يحيش بها قلب يوستينيانوس ، هذا اللاتيني الابليري الاصل والمحدث فتحمله على القيام بسلسلة من الحروب لاسترجاع الولايات المنفصلة ، فتسول له نفسه بتحقيق هذا الحلم المعسول . ومع ذلك فقد ادارت بيزنطية ظهرها لروما ، وعندما سقطت ولاية الإليريكوم بيد البرابرة واستباحوا باحتها ، لم يكن احد من رعايا الامبراطورية ، باستثناء سكان ايطاليا ، يعبر عن افكاره وخوابره باللاتينية . ولم يكن من أدب معروف رائج الا الآداب اليونانية والآداب الشرقية . ويوستينيانوس نفسه الذي عمل على جمع النصوص القانونية والتشريعية الخاصة بالحق الروماني ، باللاتينية ، اضطر ان يصدر باليونانية القوانين التشريعية التي اصدرها فيما بعد ، وتسمى عندهم بـ *Novelles* . فالانحطاط الذي أصاب في الغرب ، منذ القرن الثالث ، الطبقة الارستوقراطية نصف المتهلينة ، قضى تماما على كل انتشار للثقافة الاغريقية ، فليس من الغرابة بشيء ان تتسع الهوة في الممالك البربرية كما سنتبين ذلك عما قريب : فلم يعد الشرق والغرب يتفاهمان .

وهذه الوحدة البديعة المنظر التي كانت تبدو على الشرق في الظاهر ، اخذت هي الاخرى بالتصدع شيئا فشيئا بعد المشاكل الاجتماعية والقومية التي تحالفت عليه ، فزقتها كل ممزق . وهذه الدولة « الرومانية » التي عجزت الفينة بعد الفينة ، عن تأمين حماية مقاطعاتها الشرقية والدفاع عنها ضد تمديات اعدائها الاقوياء ورد كيدهم الى نحورهم ، والتحوط للأزمات الاخرى

التي اشتدت فيها جباية الضرائب ، وغير ذلك من الاسباب كالمركزية الادارية والدينية ، كل ذلك وما اليه ، قوى النزعات القومية ، وقد اخذت الشعوب الآسيوية ومصر على الاخص تمي ، أكثر فأكثر ، الدور العظيم الذي لعبته في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية وترسيخ حضارتها ، وهم دور زاد خطره وشأنه بعد سقوط الامبراطورية الغربية . ومن جهة اخرى ، فقد كان لهذا اللقاء التدريجي الذي تم بين الارستوقراطية القيّمة على التراث الهليني وبين المسيحية المتغلغلة بين الطبقات الشعبية الواسعة التي لم تفقد الشعور بقوميتها ، ان زاد في ازدهار الحضارات الوطنية التي غشتها مسحة دقيقة من الطلاء اليوناني . ولذا ، فقد بدت الدولة البيزنطية والنظام السياسي الذي انشأته بعيداً عن محور سوريا ومصر ، وكأنها سيطرة اجنبية دخيلة على البلاد ، ليس ما يبررها ، والانتظار البرم الطويل الذي اضطرت إلى الاعتصام به عناصر قومية متعددة كالاقباط والساميين والارمن ، اخذت من عضد الدولة ويخلخل وحدتها . فما ان جاء الاسلام وظهرت موجاته الاولى حتى راح يستثمر بنجاح ، هذا الوضع الملائم .

وهذا التفسخ بدا على اشده في هذه المشاجرات الدينية التي ادى المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي اليها اختلاف العقيدة وتباين تعاليم بعض الشيع والهرطقات التي شجرت بين المسيحيين . ويصعب على المؤرخ تصور ما بلغت هذه المشاقات من العنف والبغضاء حول القضايا اللاهوتية وما اثارته من الشقاق بين الطوائف الكثيرة التي طلعت في الاجيال الثلاثة الاولى للمسيحية . قد يكون في اهمية الادب الكنسي ما يطبع بالفلو هذه الحدة . ومع ذلك ، فالروح الدينية الشرقية تسيطر عليها ، أكثر مما تسيطر على الروح الدينية الغربية التي تهتم ، قبل كل شيء بمشكلة سلوك الانسان ، النظرية القائلة بان الخلاص يقوم ، قبل كل شيء ، في تفهم النظام الالهي بحيث يفنى فيه الانسان بصورة سلبية او يتدبر امره معه بصورة تكاد تقارب السحر . ولم يعتن ان اصبح واضحاً بان وراء علماء اللاهوت ، الجماهير التي كانت تخضع لمؤثرات اجتماعية وقومية أكثر من خضوعها لمؤثرات دينية صرفة . ومع ذلك يبدو من اللازم ان نمرض هنا بالبحار ، القضايا الدينية التي ادت الى مثل هذا الوضع الحرج ، اذ انها كانت بالفعل سبباً مباشراً لهذه الانفصالات التي لا يزال بعضها قائماً لليوم .

فالاختلاف الجوهرى يقوم اصلاً على الصعيد الديني ، ويتناول وجود طبيعتين في السيد المسيح : الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ففي نظر البعض الذين كان يهمهم في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوحدة الالهية او الجانبات الالهية في شخصية المسيح ، فظهر السيد المسيح بلحمه ودمه ، وآلامه وصلبه ، لم يكن الا تشبيهاً . وبهذا قال اتباع الطبيعة الراحدة . اما خصومهم ، فقد رأوا في هذه كلها حقائق مطلقة ووقائع لا يواجهها الشك ، تختلف عن الطبيعة الالهية بحيث ان الآلام التي تحملتها احداها لا تمس كمال الثانية بشيء . وصاحب هذه المقالة هو نسطور يوس ، بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس ، ولذا عرف اتباعه بالنساطرة او النسطوريين .

والحقيقة ان كلا التعليمين ، في جعلها الله بمنزل عن الأمم عرّضا عمل الغداء للخطر . بحيث ان ما اصبح فيما بعد الارثوذكسية اليونانية - الرومانية كان قوامه القول بالتحاد الطبيعتين ، وهذا امر عظيم لا ينفذ اليه عقل الانسان . فبعد ان حال النفوذ القوي لاصحاب العقيدة المونوفيزية في القرن الخامس ، دون انطلاق العقيدة النسطورية ، استطاع النساطرة ان يحدوا لهم منطلقاً واسعاً في الدولة الساسانية . وانتشرت مقالة القائلين بالطبيعة الواحدة بين الساميين ، بعد ان رأوا في هذه العقيدة استمراراً للتقاليد والتعاليم بوحدانية الله كما انتشرت كذلك بين الاقباط ، وبين الارمن ايضاً ، على شيء من التخفيف والتسامح . اما « الارثوذكسية » فاحتفظت باليونان الى جانب روما ، والعالم اللاتيني ، واخذ اصحاب الطبيعة الواحدة ، ينظرون اليها نظراً الى ديانة اسياد البلاد الغرباء اصلاً عنها . وقد تبني بطاركة انطاكية والاسكندرية ، ولا سيما كيرلس الاسكندري ، في القرن الخامس ، مقالة المونوفيزية . ووقفوا الى جانبها ، نكايه بزميلهم بطريك القسطنطينية ، للمركز السامي الذي كان ينعم به لدى السلطة العليا . وقد مضوا في موقفهم هذا بعد الذي نالوه من تأييد الشعب لهم ومؤازرة الرهبان لهذا الموقف المتشدد .

عرف الشرق قبل الغرب بكثير ، الحياة الرهبانية التي ازدهرت فيه وازهرت على اشكال وألوان مختلفة ، على السواء ان في اليونان أو عند الارمن والاقباط . وكانت الحياة الرهبانية تعتمد قاعدة لها القوانين التي وضعها القديس باسيليوس فاتخذها الرهبان دستوراً لهم ، سواء انقطعوا للحياة النسكية التقيسية أو لحياة التأمل والذوبان في الله . فبعضهم عاش حياة مشتركة بين جمهورهم كرهبان دير القديس سابا الذي انشأ في القرن الخامس ، على مقربة من القدس ، اما البعض الآخر فقد ارتضى لنفسه حياة نسلك وتوحد فانعزلوا عن الناس وانقطعوا للتأمل ، شأن رهبان القديس سمعان العمودي ، الذين كانوا على شاكلة معلمهم ومرشدهم ، يقضون حياتهم في التأملات وهم قابعون على رأس عمود لا يفارقونه ليلاً أو نهاراً ، ولا صيفاً أو شتاءً ، متجهمين لله في شبه المخطاف مها بلغم من حمارة القيظ او زمهرير البرد . وقد أحاطت برجال الله هؤلاء حالة من القداسة والتقديس حلت في قلوب الشعب ، فتكاثر عددهم ونما بحيث بلغوا عدة آلاف في منطقة واحدة ، بما حدا بالكثيرين الى الكفر بالعالم ، والالتحاق بهم ، ممرضين طوعاً واختياراً ، عن ملذات هذه الفانية وبهارج الحياة . فقد كانت حياتهم كما كانت اقوالهم وتعاليمهم شجبة للشر وسوء السلوك والغنى والسلطة . واذا كانوا يفتقرون الى سلطة اسقفية حازمة ، فكثيراً ما كانوا اداة طيبة لاثارة الفتنة اذ كانوا غالباً وراء كل سحس او انتفاضة شعبية تقوم بها الجماهير بمناسبة المشاجرات اللاهوتية وما تجر اليه من اعمال العنف . وكانت هذه الخصومات الدينية سبب تنفص الحياة في جميع اطراف الامبراطورية البيزنطية وتسمم العلاقات بين مختلف طبقات الشعب ، جالبة على البلاد جمعاء ادهى المخاطر ، طيلة قرنين كاملين ، حتى اذا ما جاء الفتح العربي قضى على اسباب الفتنة الكامنة تحت الرماد ، بعد ان سلخ عن السيطرة البيزنطية الولايات التي كانت معظم سكانها من المشاقة ، فوضعهم بأمن من طغيان الكنيسة اليونانية .

ويمكن إيجاز المراحل الحاسمة في هذه الحقبة على الوجه التالي ففي عام ٤٣١ انعقد مجمع أفسس وحرّم الهرطقة النسطورية ، فراح اتباعها يلجأون الى الدولة الساسانية . وفي سنة ٤٥١ ، انعقد مجمع خلقيدونيا ورّدّل هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . ومع ذلك بقيت مقالاتهم تلعب دوراً بارزاً في سوريا ومصر ، وكان تأثيرها بالغاً على الاوساط الحاكمة حتى في القسطنطينية . وتردد الاباطرة في اتخاذ سياسة ترمي الى تهدئة اصحاب البدعة المونوفيزية واشاعة السلام في طول البلاد وعرضها ، وذلك عن طريق تنازلات وامتيازات خاصة . وقد فشلت هذه السياسة ولم تأتِ اكلها المرجى كما انها خلقت للدولة صعوبات مع روما نفسها ، تلتها محاولة الاتحاد بين الكنيستين ، كما ادت من جهة ثانية الى اعتماد سياسة البطش والقسوة ضد اتباع الهرطقة المونوفيزية . وقد اصلاص الامبراطور يوستنيانوس حرباً حامية اصاب رذاذها جميع الطوائف والبيسّ المشاقّة وجميع الخارجين على الارثوذكسية : كالآريوسيين والمشرّكين ، والقائلين بالمالوية واليهود على السواء . وراح اتباع المونوفيزية من جهتهم ، ينظمون جبهتهم وصفوفهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم : كالكنيسة القبطية والنسطورية واليعقوبية ، نسبة الى مؤسسها يعقوب البرادعي ومن ثم ارمينية ، لكل منها ليتورجيتها الخاصة بلغتها القومية واساقفتها . وهكذا اصبح لكل من هذه القوميات كنيستها « الوطنية » الخاصة بها .

وعبثاً حاول الامبراطور هرقل ، في القرن السابع ، وهو يواجه ادهى الاخطار والغزوات من قبل الفرس والافار والعرب ، إيجاد مجال لاحلال التقام والسلام ، عن طريق صيغ عقائدية جديدة . وهذه المحاولات تصدر عن الامبراطور انما تلبثق عما يعتقد من حقه بالتشريع في ما يختص بالايمان . وانتهى به الامر الى تحريم الحديث عن طبيعة أو طبيعتين في السيد المسيح ، محاولاً الترويج للقول بمشيئة واحدة فقط (هرطقة القائلين بمشيئة واحدة في السيد المسيح Monothélisme) دون ان يتمكن من اقناع احد على القول بمقالته هذه . وكان من نتيجة هذه المحاولة ان ادت في عهد خلفه الامبراطور قنسطان الثاني ، الى اثاره ازمة حادة مع البابوية كان من بعض نتائجها ان اثار ضده رعاياه اليونان في ايطاليا برعامة الراهب مكسيموس المعترف ، وما عثم ان جاء الفتح العربي يسلخ عن بيزنطية رعاياها في الشرق ، فتؤول هرطقة المشيئة الواحدة في السيد المسيح الى هزيمة نكراء وفشل ذريع اضطرت معه الحكومة الامبراطورية ، في النصف الثاني من القرن السابع ، للتراجع والتشكر لهذه العقيدة .

وفي وسط هذا المصطرع العنيف اخذت حضارات جديدة تنظم نفسها على المدينيات القومية المدليات القومية أساس من الثقافات القومية كالسريانية والقبطية والارمنية والكرجية والمصرية ، وهي ثقافات معظمها نقول وترجمات واقتباسات عن اليونانية امتزجت بثراث قومي ساعدت شعوب الشرق الادنى على ترسيخ دعائم استقلالها الروحي والكنسي . ولم تلبث ارمينيا التي وقع معظمها تحت نفوذ الساسانيين ان ألّفت جزءاً من اصل هذه المجموعة من القوميات ذات

الثقافة المسيحية في آسيا الغربية فقد أدت مساعي رئيسها الديني ساهاك والكاهن مسروب ، في القرن الخامس ، الى تزويد لغة البلاد بأبجدية خاصة بها ، ساعدت على تكوين أدب قومي ارمني ، هو ، في الغالب ، ادب ديني مسيحي ، منقول ، والى وضع عدد من كتب التاريخ لتحلّد ذكر الاجاد الوطنية . ولعل أشهر هؤلاء الكتاب هرموس خورين الذي تجمله تقاليدهم من رجال القرن الخامس ، بينما يرجّح انه عاش حوالي ٧٠٠ ، والى جانب ارمينيا قامت بلاد الكرج التي ، مع بقائها على الارثوذكسية ، تأثرت كثيراً بالنفوذ الارمني واليوناني على السواء .

اما الادب القبطي ، ومعظمه ديني ، فهو قليل الشأن . والادب الحبشي الذي اشتق من الادب القبطي ، لا يزال اذ ذاك في القمط . وآم من هذه الآداب بكثير ، الادب السرياني . فالعلوم الدينية تؤلف منه السواد الأعظم ، وهو على جانب كبير من التنوع : كاللاهوت والحق القانوني الكنسي ، والليتورجيا والادب الروحي ، ولا عجب في ذلك اذ ان معظم ادب رهباني . وينقسم الادب السرياني الى قسمين تجمع بينهما حدود سياسية واحدة : الادب الغربي والشرقي ، وذلك نسبة الى مواطن الشعب الذي كان يزاوله . فالادب السرياني الغربي ازدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة ، ومركزهم العلمي هو الرها ومدرستها اللاهوتية المشهورة التي أنشئت في أواسط القرن الثالث . اما الادب الشرقي فتألف من أتباع الكنيسة النسطورية ، ومراكز العلم عندهم نصيبين من مدن الجزيرة في سوريا ، وجنديسابور ، في العراق ، وكلاهما يقعان ضمن نفوذ الدولة الساسانية . والذي يهم المؤرخ بنوع خاص هو الكتب التاريخية التي وضعها اصحاب الطبيعة الواحدة (يشوع العمودي ويوحنا الافسي ، المتوفى سنة ٥٨٧) وهي مؤلفات يشهد لها بالجوادة والبراعة اللغوية . والجدير بالذكر هنا التنويه عالياً بحركة الترجمة والنقل التي نشطت عند السريان ولا سيما النساطرة منهم ، اذ تم على يدهم نقل معظم الروائع الفكرية الفلسفية التي وضعها اليونان . وعن طريق هذه الترجمات وصل الى الاسلام ، وعنه الى اوروبا الغربية ، معظم التراث الفكري الهليني وفي مقدمتهم آثار ارسطو والافلاطونية الجديدة ، وبطليموس وهيبوقراتيس وجالينوس . وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وببيارساتها ، كما اهتمت بالهندسة (إقليدس) والكيمياء . وقد تكاثرت في هذا العهد ، الكتب المنحولة مما خلق مشكلة امام الاجيال الطالعة في التمييز بين الاصيل منها والمدخول . غير اننا لا نرى في هذا الادب ، باستثناء الادب المسيحي منه ، محلاً للتاريخ القديم ولا للادب اليوناني الدنيوي ، ولا بالاحرى للادب اللاتيني باستثناء « رواية الاسكندر » . وقد أدى السريان ، في هذا المجال ، خدمة عظيمة للعالم بعد الذي عُرف من اعراض الغرب المسيحي حتى وبزنطية عن كل ما ينضج بالوثنية ، وازدهارها له .

كذلك وقع على الحدود الفاصلة بين بزنطية والدولة الساسانية ، اليهود الذين ، بالرغم مما تعرضوا له من اضطهادات وتشريد ، عرفت آدابهم ، في هذه الحقبة التاريخية فترة من الازدهار . يرئس الطائفة ، في المنفى ، زعيم روحي ، مسؤول في نظر أولياء الامر ويمثل السلطة العليا ،

عن امور طائفته ، كالبطاركة انفسهم . ولما زهدوا في كل مطمع سياسي كان أكبر القوم في هذه الملة ، هم العلماء الذين كانوا ينصرفون لدرس الكتب المقدسة والشريعة الموسوية ، الذين ألفوا طبقة الربانية يتقدمهم المعلم الأكبر المسمى : غاوون . وقد كانوا يتحسون ، منذ عهد قديم ، بضرورة جمع الاجتهادات الدينية والاحكام والسنن الفقهية المتعلقة بالعقيدة او المنظمة لشؤون الحياة . وقد ابتدأت حركة التجميع هذه ، في القدس ، منذ القرن الثاني ، وانتهى العمل منه في المدارس المشهورة : سورا وبومبيدنا الواقعة على مقربة من مدينة طيسفون ، في القرن الخامس فتألف من ذلك ، التلمود المعروف بالتلمود البابلي . وهو يتألف من مجموعة ضخمة من النصوص والاحكام والاجتهادات التي تلتزم التقاليد اليهودية ، بعد ان انكشف هذا الشعب على نفسه وانطوى على ذاته امام ما لاقى من اضطهادات ، وبعد غلبة المسيحية وانتصارها وانتشارها . وقد كان اليهود في الغرب يعولون على اخوتهم في الشرق اجيالاً عديدة ، في كل ما يتعلق بأموالهم الدينية يستفتونهم في كل معضلة عقائدية .

وليس اقل جدارة بالاعجاب والتقدير ، اهتمام هذه الكنائس المسيحية بالفنون الجميلة . فقد اخذت ارمينيا بتشيد الكنائس العديدة بعد ان اعتمدت على عدد كبير من ابناءها المهندسين انتشروا في أنحاء الامبراطورية البيزنطية . ولعلمهم ساهموا في نقل مميزات الهندسة المعمارية الكنسية الى الغرب لما بين هذه الكنائس او البيع من تشابه ومحاكاة ، وعنها اخذ الفن المعماري الروماني اولى مفارقاته المميزة . وقد كان لكنيسة الكرج ، هي الاخرى طرازها المعماري الذي طبع مدرستها . وقد اعطى الفن المعماري الكنسي في سوريا عمارتاً بدعية لا تزال مقوماتها الجميلة بادية للعيان في خرائب هذه الكنائس والاديار في القرنين الخامس والسادس التي رادها روعة ومهابة انها قامت في بقاع اقفر اليوم واصبحت هجرًا منسياً ، منها : قلب اللوزة ، وطور مانين ، ومار سيمان العمودي . وقد ازدانت هذه الكنائس بالكثير من الوشي الزخرفي الشرقي الطابع واللون . وازدانت بأشكال متنوعة من الرسوم الهندسية التي تحاكي ضروباً متنوعة من نبات وحيوان تأتلف مع المجموع الهندسي . كذلك ازدهر في مصر فن مستقل من الهندسة المعمارية الكنسية ، امتاز بأنسجام الالوان الزخرفية ، وبإمانيته لاصول الفن الهليني بميزة بهذه الصور البشرية وبالعاج المحفور والاقشة المزركشة ، مما عاد على هذه الانجازات المعمارية بالشهرة الواسعة .

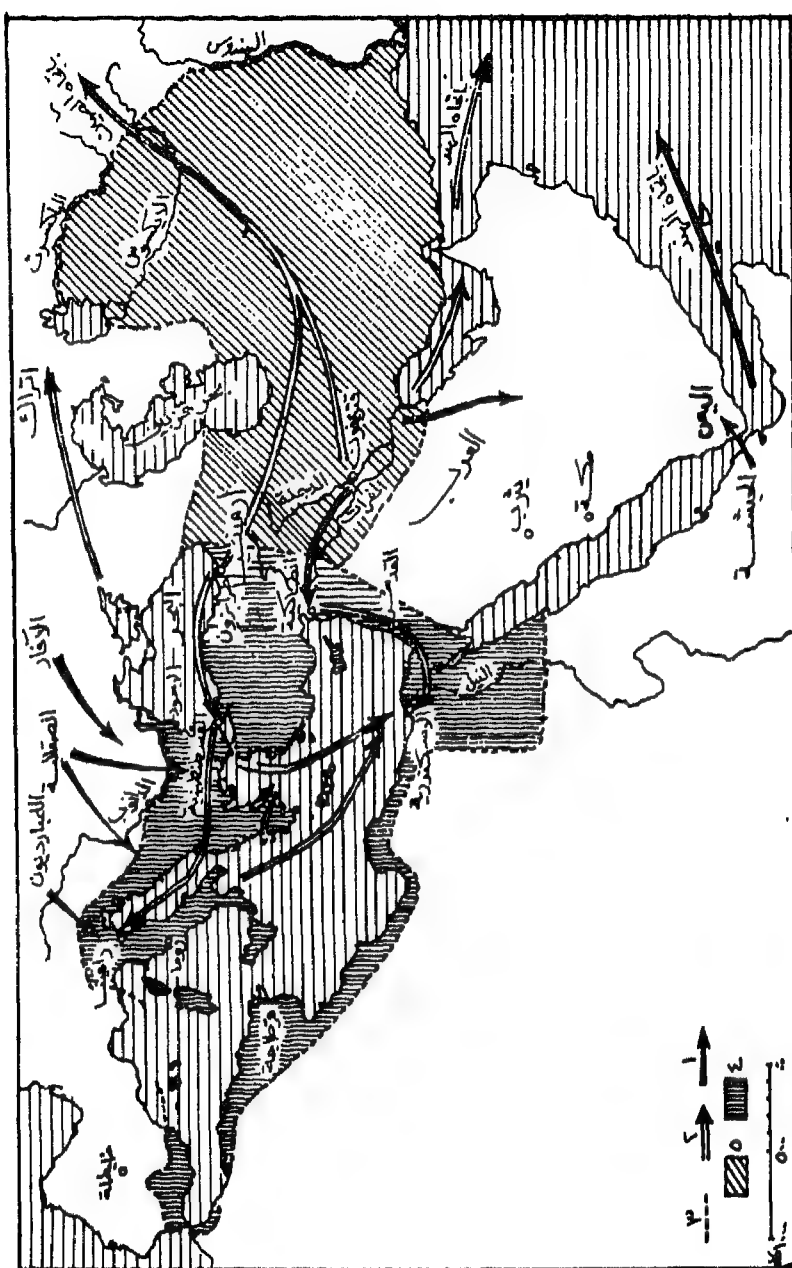
الدولة الساسانية
كم من مرة تجاوزنا ، ونحن نستعرض صورة هذا الشرق في واقعه المهيّز ، في هذه الحقبة التاريخية ، حدود الامبراطورية الساسانية ، اذ من الصعب جداً ، ان لم نقل من المستحيل ، ان نقتصر على الامبراطورية البيزنطية في درسنا لتاريخ الشرق الأدنى في مطلع الاجيال الوسطى . وهذه الدولة الساسانية التي قامت منذ القرن الثاني ، خصماً عنيداً ، ومنافساً خطيراً للامبراطورية البيزنطية ، يمكن مضارعتها ومقارنتها ببيزنطية من عدة وجوه . فقد ضمت ، فيما ضمت بين ممتلكاتها ، ايران برمتها حتى مشارف الهند ، وجانباً كبيراً من بلاد

ما بين النهرين وارمينيا ، كما ضمت ما وراء النهر من بلاد الصفد وبكتريا ، وخوارزم وخراسان (بحر آرال) والمجازات المفضية الى التركستان الصيني . ووصف هذه الدولة « بالقومية او الوطنية ، فيه تجاوز لا يسوغه مسوغ : فساكن ما بين النهرين والارمن ليسوا ايرانيين اكثر منهم بيزنطيين . ومع ذلك ، فما من شك ان هذه الدولة عرفت ان تحقق ، بالنسبة للدول التي تعاقبت على الحكم من قبل ، تمازجا اكبر ، وتلاحما اشد واقوى ، عند الاكثرية الايرانية او اقله عند الطبقة الارستقراطية فيها .

قامت هذه الدولة على توازن متأرجح بين المقومات الثلاثة التي تألفت منها : طبقة الاشراف وهي طبقة قديمة قوية في البلاد ، إقطاعية حاكمة ، وطبقة رجال الدين ، وهي طبقة غنية متدرجة المراتب ، مسلسلتها ، تنعم بعطف الدولة وسندها ، وادارة مركزية بحكمة السبك والحبك ، وفوق الجميع نظام ملكي مهيب يفرض الاحترام . وفي اسفل السلم الاجتماعي طبقة الشعب تعنى بالفلاحة وحرارة الارض ينتظمها طبقة وسطى من صفار الملاكين . وتكتظ حواضر البلاد الكبرى ولا سيما عاصمتها طيسفون الواقعة على نهر دجلة ، بطبقة من الصناعات الماهرة النشيطين . وهذه الطبقات لها ما للطبقات في الهند من تماسك ان لم نقل من تحجر وتعدد ، تتحسس الى حد بعيد ، بالروابط العائلية المتوارثة التي حاولت الدولة في روما ، النهج عليها والسج على منوالها . وقد تمكنت الدولة ، بعد ان اعترضت محاولتها صعوبات عديدة ، من بينها الاخطار التي تهدد ، كما لدى بيزنطية ، حدودها الشمالية لاستهدافها لغزوات البرابرة الطارئة ، من ابقاء سيطرتها على الطبقة الارستقراطية العليا التي كانت تصطرع مع طبقة الفلاحين . ولعل محاولة الاصلاح المالي والضرائبي التي قام بها الملك قواد وانوشروان (سنة ٥٠٠) كانت ترمي من جهة الى تأمين المزيد من الفعالية ، كما رمت من جهة اخرى ، الى تأمين المزيد من العدالة ، في توزيع ضريبة الخراج . وليس من المستبعد ولا من الخطل بشيء ان نفترض بان السياسة الحربية العدائية التي انتهجتها الدولة الساسانية كانت تخفي وراءها رغبة شديدة في كبح جماح كبار النبلاء وما عرف عنهم من جشع وقلة انقياد .

وعلى هذا الجيش الذي يؤلف النبلاء اطره وملاكاته الاساسية ، تهيمن روح الدولة الاخمينية التي عرفت بشهوتها الجارحة للفتح والتوسع . ويردف الجيش وحدات من المرتزقة ، سوادهم من الارمن . اما فرقة المشاة التي كان افرادها من بين طبقة الشعب ، فقد فقدت الشأن الذي كان لها في الماضي كما خسرت بالتالي ، الكثير من نفوذها الاجتماعي .

والملك الساساني الذي يلعب بملك الملوك ، كان يتولى بالفعل قيادة الحرب كما كان رأس الحكومة والادارة ، وله شخصية تحف بها المهابة والعظمة والقدسية ، ويعيش في جو من البذخ والغنى والاسراف لا يمكن ان يتصوره عقل ، يعود اليه الملك بحق الوراثة ، بعكس الامر في بيزنطية . وهذه الابهة والعدالة ، وحسن التدبير والادارة الرشيدة ، والاقصام في الحرب ، والثقافة الواسعة ، هي كلها من بعض قسماة الصورة التي رسمها لنا المؤرخون عن بهرام غور



الشكل (رقم - ٢) الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس

١ - التوسع الجغرافي ٢ - الطرق التجارية ٣ - الحدود الفاصلة ٤ - الدولة البيزنطية ٥ - الدولة الساسانية

وكسرى انوشروان . وعاشت في اذهان الاجيال اللاحقة ، بعد ان ضفرت حولها التقاليد ما ضفرت من وحي الخيال المجنح ، بعد زوال الدولة الساسانية بكثير ، وهي قسما لوتها لنسا بالوان أخاذة زاهية ، الفردوسي في ملحمة الخالدة «الشاهنامة» او كتاب الملوك ، التي وضما في حدود سنة الف . وفي عهد فراهمدار الكبير ، الصورة المثالية لمنصب الوزارة في الاسلام ، نعمت الادارة الملكية بكثير من الشهرة . فالادارة تبهى بما لها من قوانين ادارية دقيقة كما تفخر بما لها من خبرة عملية في تدبير شؤون الدولة ، وهي تؤلف من ذاتها طبقة خاصة ، عرفت في عهد الدولة العباسية ان تستعيد سبق وكان لها من نفوذ واسع .

وخلافاً للدولة الفارسية ، أصبحت الديانة المزدكية أو الزرادشتية ، دين الدولة الرسمي ، تشدها الى النظام الملكي اوثق الروابط . وهي ديانة تتدرج فيها الرتب وتتسلسل المراتب ، يأتي في المرتبة الأولى منها الموبدان أو الموحوس الأكبر ، تطالعك هياكل النار ابنا وقع مأتى العين . وتم في القرنين الخامس والسادس استنباط ايجدية جديدة ساعدت على وضع الأفسا وما اليه من أدب ضخم ، يعدل آداب الديانات الاخرى التي عرفت الكتابة . ومع ذلك ، جرت ، من وقت لآخر ، اضطهادات شبيهة بما كان يجري منها في الامبراطورية «الرومانية» اخذت بها الدولة من ليسوا على دين ملوكهم ، وبذلك شهادة ضمنية على ان هذه الديانة ليست قوة لا اعتراض عليها او مسلماً بها من الجميع . والسبب في ذلك ، انما يعود أصلاً : لعلاقتها بالنظام القائم ، وبالطبقة الارستوقراطية . وباعتبار هذه الديانة دين الدولة الرسمي ، لم تحاول يوماً ان تتجه في دعوتها من غير الايرانيين ، وان تعاليمها بالرغم مما تحمله من عوامل «العلم» والحق التي تقول بها بقيت ، بالنسبة للديانات المسكونية الاخرى التي تسمى للانتشار وجع المريدين والانصار ، غامضة ، مبهمه ، تعاني من الجفاف والقحط ، وتبقى اعجز من ان تحور جواباً عن القضايا والاسئلة التي يوجهها اليها ابن العصر . ولذا أطلّ على ايران في القرن الثالث ، ديانة جديدة ، كتب لها ، بالرغم مما تعرضت له من عنف واضطهاد ، ان تعرف بعض الشهرة ، هي الديانة المانوية ، التي عرفت رواجاً اكبر بين الطبقات الشعبية ، وعثت نفسها بقضية خلاص ، وتقدمت من اذهان الناس بكونها تأليفاً للديانات الاخرى ، تحمل بالذوب والانتشار وكسب الانصار . وفي القرن الخامس نرى المانويين ، اتباع الديانة الجديدة ، منتشرين ليس في الامبراطورية الساسانية فحسب ، بل أيضاً في شمالي افريقيا ، ومصر ، وروما والقسطنطينية حيث لم يستطيعوا البقاء طويلاً اذ ان هرطقة الالبيجين ستظهر بعد ذلك بزمان طويل ، ولا سيما في اواسط آسيا ، حيث اعترفت بالديانة الجديدة رسمياً احدى ممالك الاتراك ، في القرن الثامن ، وبقيت تقريباً شبه ديانة رسمية في تلك البلاد ، الى ما بعد الفتوحات الاسلامية ، في القرن الثالث عشر .

وفي الولايات الشمالية والشمالية الغربية من الامبراطورية الساسانية المفتوحة للثقافة الهندية ، بعض أتباع البوذية . كذلك نشاهد لدى الشعوب غير الايرانية التي تقطن الولايات الغربية ، النصرانية تنعم ببحرية كاملة . فقاطعة طور عابدين الواقعة الى الشمال الغربي من مدينة الموصل

تفصّل بأديار السريان، كما نرى طوائف من النسطوريين تلتجئ إلى الدولة الساسانية، إثر القطيعة النامة بينها وبين الحكومة البيزنطية، وتعمل على تنظيم نفسها ككنيسة مستقلة تحت رعاية الدولة، وتنشئ لها مقراً بطبريكياً في طيسفون، ومدارس عرفت بنشاطها وازدهار الآداب فيها، كما مرّ معنا ذلك. وتقوم الكنيسة النسطورية بدعاية واسعة لكسب الانصار والمريدين. إلا ان العراقيل التي ثارت في وجهها في المناطق التي سواد سكانها على الزردشتية، وفي الاقاليم التابعة لبيزنطية، جعلتها تنجس بأنظارها نحو آسيا الوسطى، ضمن الدولة الساسانية وخارج حدودها. وسيلعب المرسلون النسطوريون دوراً بارزاً بين الاثراك في ما وراء ممالكهم، طيلة الاجيال الوسطى. وكان لليهود جوال في الدولة الساسانية، كما رأينا ذلك في حديثنا عن «التلود البابلي».

وعند نهاية القرن الخامس، ظهرت في ايران، دعوة إلى ديانة جديدة، هي المزدكية، كانت في حقيقتها، أكثر من كل دعوة دينية سابقة، استنكاراً صارخاً للوضع الاجتماعي في البلاد. وقد امتازت الديانة الجديدة عن المانوية التي اشتقت منها وصدرت عنها، بالدعوة إلى شيء من الاشتراكية في مقاسمة خيرات هذه الارض ونعيمها بالسوية، وهي دعوة طالما تردد صداها في الاجيال الوسطى. وينسب خصوم هذه المقالة، إلى اتباعها، الشطط والمروق، ويتهمونهم بالمطالبة باشتراكية المرأة، ليس لعمري انسياقاً منهم مع شهوة الجسد بعد الذي عرفوا به من مغالاتهم باحترام الظواهر، بل احتجاجاً منهم على عادة التسري المتبعة على نطاق واسع بين عظماء البلاد الذين كانوا يحشدون في حرهم، من النساء ما يشاؤون، وتحطيماً منهم للفوارق الاجتماعية. وقد أخذ الملك قواد مدة، بتعاليم مزدك، اذ رأى فيه عوناً له على الارستوقراطية، إلا انه عاد وتحلى عنه وأسلمه للعذاب والتنكيل به. وسنستبين اثر المزدكية في بعض الحركات الدينية والاجتماعية التي ظهرت، فيما بعد، في العهد الاسلامي.

فالادب الديني ابعد من ان يمثل وحده حضارة الايرانيين. ففي بلد
الادب والفنون في عهد
الدولة الساسانية
هي نقطة التقاء الحضارات وتقاطع الطرقات التجارية - وهو امر
لا يتنافى مع الخلق الاصيل والابداع - تلتقي معاً: التقاليد القومية،
والمؤثرات الهندية، والتفاعلات اليونانية والسريانية، حتى و«الطورانية»، وتترك اثرها ظاهراً
في آداب البلاد وفنونها، على نسبة ما يسمح بتقديره وتقويمه، ما تبقى من حطام هذه المدنية
التي وصلت الينا بالرغم مما انتابها من تقلبات الدهر ودوله وصروفه. فالتاريخ الرسمي،
والحكايات على لسان الحيوان التي وصلت الينا شعراً أو نثراً، وبعضها من الهند، والقصص
الملحمي أو العاطفي، كل ذلك فيه ما يرضي الطبقة الارستوقراطية، والطبقة الوسطى، وفئة
الموظفين. فعن طريق ترجمة هذه الآثار إلى العربية أو إلى الفارسية، لغة البلاد في عهد الفتح
الاسلامي، وإلى الارمنية، واليونانية والكرجسية والسريانية، وفي الاقتباس منها والتعليق
عليها، وصلنا صدر طيب من تاريخ الدولة الساسانية الذي علق به شيء من الاسطورة، كما
وصلتنا آثار هي على كل شفة ولسان، كقصص برلام وريشافاط التي فيها استعادة حياة برذا،

وكتاب كلية ودمنة ، وهو من كتب الحكايات على لسان الحيوان مشهور ، كلاهما منقول عن الادب الهندي ، على يد احد علماء النساطرة المدعو بُرْزويه . وطالما تغنى الشغراء بحب خسرو الثاني وشيرين . ويروي لنا الرواة نكات تبين الدور الذي لعبه اثنان من رجال الطرب هما مركاك وبرباد فكانا مصدر وحي للموسيقين « العرب » فيها بعد . وقد جاء اكتشاف لعبة الشطرنج وسيلة تسلية وتحرفه نقلها الصليبيون معهم الى الغرب ، بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة ، وشاع استعمالها في الديار المسيحية . وقد برز الى جانب فضل اليونان على تقدم العلوم ، ما للهند من تأثير في هذا المجال ، ولا سيما على الطب ، وعلم الفلك والرياضيات . ولم يكن اثر الهند على الفنون الجميلة باقل من ذلك ، في الولايات الشرقية .

وقد ظهر في غربي ايران فن جديد ، ساساني الطابع والنشأة ، عرف ان يمازج بين المؤثرات الفنية من العصر الهليني والفارسي وبين تقاليد قديمة تعود لمهد الدولة الاخمينية . وفي جملة ما وصل الينا من معالم هذا الفن ، باستثناء ابراج النار ، القصور الواسعة الالهة المعقودة (ايران) ، والنقوش المحفورة حتى في قلب الصخر الاصم والتي تميد الى الازدهار ، المآتي الجميدة التي سجلها احد الملوك فيها مضى ، والفسيفساء ، والالواح الموشاة بالميثاق ، وغير ذلك من مصنوعات البلور الصخري ، وانسجة الديباج المزركش حيث يرسم الفنان ، على هواء ، صور النقوش المحفورة او الصور التي تكون صاغتها مخيلة شاعر جموح . وقد اثر هذا الفن بعيداً في جميع اقطار الشرق الادنى ، ودخلت بعض عناصره هندسة بعض الكنائس دون ان يفقه الناس لها معنى ، حتى ان بعض هذه المصنوعات الفنية بلغت اوربا الغربية على يد فنانين قدموا من الشرق .

واسس ملوك الدولة الساسانية في آسيا الوسطى وفي الغرب من ايران وبلاد ما بين النهرين ، مدناً عديدة عرفت الازدهار بفضل الحركة التجارية الناشطة التي تحولت بعض مسالكها القادمة من الهند ، عن مصر ، واتجهت الى موانئ البحر المتوسط الشرقية - ناهيك عن القوافل البرية التي كانت تؤمن الاتجار مع الصين . أما كون النقد المستعمل في هذه المملكة هو الفضة وليس الذهب ، فمردده الى افتقار الامبراطورية الساسانية لهذا المعدن ، ولا تأثير له البتة على توازن الميزان التجاري ، اذ ذاك . وكان لحركة التجارة بين الصين وموانئ البحر الابيض المتوسط من الشأن ما اثار خصومات عنيفة بين بيزنطية وايران ، فتعاول الاولى الافلات من الطوق الذي نصبته الثانية لتجارتها ، كما تحاول التخفيف من حدة الاحتكار لطرق التجارة فتتحكم بدورها بموافي البحر الابيض المتوسط للقضاء على هذه المحاولات .

كان امام بيزنطية وسيلتارت لا غير ، لتفادي الطوق الذي ضربته بيزنطية وآسيا الامبراطورية الساسانية حول تجارة الامبراطورية الرومانية ، اولها ايجاد طرق مواصلات جديدة لتجارتها الدولية مع اواسط آسيا . فاتجهت انظارها شطر البحر الاحمر ، اذ اخذت تشتهر وتُدْرَف عنده دولة جديدة اعتنقت المسيحية منذ عهد قريب عند الطرف الجنوبي لحدود مصر ، عرفت باسم ملكة اكسوم ، هي الحبشة اليوم . فبعد ان فتحت اليمن

واخضعت لسيطرتها اليمينيون الذين كان لهم فضل يذكر في تأسيس هذه المملكة ، راحت تكسر من حدة احتكار البحارة والتجار العرب للحركة التجارية في هذه المنطقة ولا سيما مع الهند ، كما ان الامبراطور يوستينيانوس اخذ يحرضهم على مزاحمة الايرانيين في هذا المجال . فلم تأت المحاولة أكلها المرتجى في هذا الباب ، الا انها تركت اثراً طيباً وخدمة علمية جلى ، اذ انها اتاحت لبحار هندي يدعى *Cosmas Indocopleustes* ان يضع جغرافية حشاشا بالمعلومات والفوائد العلمية جمعها من مصادرها الوثيقة . وقد رأى البيزنطيون في الدولة التركية التي قامت في آسيا الوسطى ، حوالي منتصف القرن السادس ، فرصة سانحة افادوا منها واستخدموها بنجاح لكسر حدة الطوق المضروب على تجارتهم . فبالاضافة الى موافقة الصداقة والتحالف التي عقدها بيسر ، بين بيزنطية والاتراك ، حاولوا في عهد الامبراطور يوستينيس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨) ان يفتحوا طريقاً جديداً امام التجارة الدولية مع آسيا قمر عبر القوقاس ، متفادية بذلك المرور بالبلاد الايرانية . لا نعلم بصورة قاطعة ما الذي ادت اليه هذه المحاولة . وما لا شك فيه البتة ، ان حركة من المقايضات التجارية انطلقت من الصين نحو الشرق ، مرت بمقاطعات روسيا الجنوبية والبحر الاسود ، على اثر سقوط المقاطعات الواقعة بين نهر الفولغا والبحر الاسود ، بيد الخزر الذين اسسوا دولة تركية الاصل ، في هذه المنطقة ، في القرن التالي .

ولكي تتحرر من ايران وتخفف من شدة قبضتها على التجارة ، راحت بيزنطية تحاول أقسّم بعض السلع والحصائل الغالية الثمن التي تستوردها من الخارج ، وذلك عن طريق توطين زراعتها في بعض الاقاليم الصالحة ضمن الامبراطورية . واستطاع رهبان من النساطرة ، في اواخر عهد يوستينيانوس ان يطلعوا ، ليس على اسرار صناعة الحرير فحسب ، بل ايضاً ان يجلبوا معهم الى القسطنطينية ، كمية من الفيالج مع ما يلزم من المعلومات والفوائد والخبرة اللازمة لتربية دودة الحرير . ولم تلبث تربية الحرير ان دخلت سوريا واليونان وكيلىكيا . صحيح ان الحرير البيزنطي لم يُغنِ قط عن استيراده عن طريق الصين وايران ، لا من حيث الكمية ولا من حيث النوع او الجودة ، فقد رأى فيه الايرانيون ، مع ذلك منافساً خطراً حسبوا له الف حساب .

وهذه المنافسة الشديدة بين بيزنطية وطيستون ، تلبست وجهاً جديداً ودخلت مجالاً جديداً هو مجال الدين . فبالرغم مما عُرف وشاع عن تجرد المبشرين وكرامتهم للدين الجديد ، فاعتناق المسيحية ، انما كان يعني ، في نظر الساسانيين ، تقدماً محسوساً لصالح بيزنطية وربحاً لها في بلاد « بربرية » والسير على نظام سياسي واجتماعي وفقاً للنهج البيزنطي ، الا اذا كان النظام الكنسي الجديد والبيعة التي ادى اليها ، كنيسة لا تمثل لنواهي الفاسيفلس واوامره . ولذا اخذ الساسانيون ينظرون شزراً ، لانتشار المسيحية بين قبائل الهونز ، في جنوبي روسيا او في الجزيرة العربية ، ما لم تكن على النسطورية ، كما هي الحال مع حلفائها اللخمين في الحيرة ، ولم يكن من الممكن محاربة المسيحية عن طريق المزدية او الاتحاد منها يداً ، في هذا المجال .

فالوضع الحربي او العسكري بين الدولتين ازداد حرجاً وحدة لاشراكها بمحدود واحدة .

والمنافسة التجارية التي احتدمت بينها ، والدسائس التي حاكها من كلا الجانبين : الأرمن والسرانيان ، والمزاج الحربي الذي عرفت به الأرستقراطية الإيرانية ، والموقف الذي وقفته منها الحكومة الساسانية ، كل ذلك وما إليه ، يفسر لنا ، حالة الحرب المزمنة التي قامت باستمرار بين بيزنطية وطيغسون أو بين « الرومان » والإيرانيين ، منذ القرن الثالث . فالضغط الذي استهدفت له إيران من قبل « البرابرة » في القرن الخامس ، أودى ، ان لم يكن الى زوال هذه العداوة الزرقاء التي اقامتها بعضاً على بعض ، فالى التخفيف ، أقله ، من حدة هذا العداء وكسر شوكرته ، تخير بيزنطية . غير ان شعور إيران بالخطر التي تتهددها ، وازدياد كلا الدولتين ، مقدرة أكبر على الحرب ، كان من شأنه ان يزيد الوضع اضطراباً ، والحرب اندلاعاً بصورة اقوى واعنف . وقد بلغ الوضع الذروة ، في مطلع القرن السابع ، اذ استحال الشرق الأدنى شعلة واحدة ، وكأنه بركان نار اندلعت حمه على آسيا الصغرى وسوريا بما فيها فلسطين . وقد شدة العالم المسيحي لهول الصدمة ، اذ سقطت هذه البلدان فريسة في يد الفرس ، واصبحت مصر نفسها في خطر ماحق ، حتى انهم أجلوا الاحباش عن اليمن وحلوا فيها علمهم . وفي عام ٦٢٦ اشتركت جيوش الساسانيين والآفار بمحاصر القسطنطينية والكل يتحسس قلبه في مكانه من احتمال سقوطها بأيدي الفرس وحلفائهم . وقد قام الامبراطور هرقل بهجوم معاكس اضطر معه العدو الى التقهقر والنكوص على اعقابهم والتراجع الى ما وراء حدوده التي اصبحت هدفاً لهجوم الروم . غير ان هذا الجهد الحربي الكبير انكسر قوى الجانبين لكثرة ما استنزف من دماء الفريقين . وراح آخر ملوك الساسانيين يحاولون عبثاً الخلاص من الورطة التي سقطوا فيها والازمة التي استهدفوا لها . اما في بيزنطية فقد كان يُعوز الحكومة لحمل الشعوب المستقلة على الاخذ بوجهة نظرها ، كثير من الذوق والمقدرة في اجتذاب الناس ، اذ ان الكنيسة اليونانية على الاخص ، كانت اكثر تصلباً واشد تعصباً من اي وقت مضى . وعلى بال من الناس خطر يوماً او تصور احد انه سيخرج من الجزيرة العربية خصم جديد سيرمي بكل ثقله على الدولتين المتخاصمتين وهما اعجز من التصدي له او الوقوف بوجهه ؟ وقبل ان تنزل بكلا الطرفين مثل هذه الكارثة الدماء ، كانت حروب الفرس سبباً لذهاب الشطر الآخر من الامبراطورية البيزنطية الا وهو شبه جزيرة البلقان ، فريسة بين البرابرة يتصرفون به على هواهم ، بعد ان عاثوا به طويلاً واستنزفوا خيراته .

يجب ان نطرح جانباً الوهم القائل ، بان التساريخ ، ولا سيما تاريخ
برابرة افريقيا واسبانيا الحضارة ، يجب ان يقف عند حدود الدول التي تعرف النظام وتتمسك
باسبابه . فالتفوق غير المنازع الذي تم لهذه الدول ، لا يعني البتة انه عم جميع الميادين ، وانه تم للجميع
على السواء وبنسبة واحدة ، وان الانحطاط الذي أبتلي به البعض او ان الرقي الذي حققه البعض
الآخر ، قد ازال الفوارق وذهب بالمسافات ، كما انه ليس من الممكن ان نتصور الواحد
دون الآخر من هذين العالمين : عالم « الروم » وعالم إيران ، او عالم « البرابرة » . فكم بالاحرى

ان يكون الوضع على مثل ما وصفنا عندما تداعت الحدود العسكرية للخراب وانهارت . فالفرق شبه المدقع الذي نعانیه لجهة المصادر والمراجع ، لا يسمح لنا بان نذكر شيئاً عن هذه الاقطار الافريقية الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى او على حدود السودان . واقل ما يمكن ان نؤكد هو ان المجتمعات الزنجية التي كانت تمور في هذه السباسب ، لم يربطها بشعوب البحر المتوسط ، روابط وثيقة بحيث تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل . فالجمل ، مركبة الصحراء ، كان يتيح للبرابرة الرحل ، التقلقل مع ما اليهم من السلع ، داخل الصحراء ليلفوا مشارف النيجر . وتمتّع الأحباش في مواطنهم الجبلية بمدينة اتصلوا معها ببسر ، مع مصر واليمن ، كما التّف من قام منهم على سواحل البحر الاحمر ، بملكة تعرف بملكة اكسوم ، اتينا على ذكرها من قبل . اما ما تبقى من اقطار افريقيا الاخرى ، فلن يدخل التاريخ العام الا بعد مجيء فاسكو ده غاما .

ومقابل ذلك ، فقد دخل في القسم الشرقي من جغرافية اوروبا الحديثة قبائل وشعوب جديدة ، او بالاحرى ، شعوب بقيت حتى هذا العهد بمعزل عن الدول « المتمدينة » . وسنروي فيما بعد بالتفصيل والتبسيط اللازمين ، قصة الشعوب التي وطئت اوروبا الشرقية او اوروبا الوسطى منذ القرن الرابع ، واستقرت بها ، بينهم شعوب من الاتراك والمغول والفنلنديين ، الذين يؤلف تاريخهم شطراً من تاريخ اوروبا ، والهونز الذين لم يبق منهم شيء يذكر في اوروبا الوسطى بعد ان توارى عنهم أتيلاً ، ومنهم ينحدر مع عروق اخرى ، البلغار (دولة الكوبرى) في مطلع القرن السابع (الذين انقسموا فيما بعد على انفسهم الى شطرين ، اقام احدهما على نهر الفولغا الارسط بينا استوطن الشطر الآخر ، مقاطعات الدانوب الاسفل ، ومن بينهم شعوب الآفار القادمين من البلدان الواقعة حول الدانوب (القرنان السادس والسابع) الذين لم يبق من عرقهم شيء يذكر ؛ والهنگاريون الذين استقروا بعد طول المطاف ، في القرن العاشر في هذه المقاطعة التي لا تزال تحمل اسمهم لليوم ؛ والاتراك بحصر المعنى ، الذين تركوا ، ما وراء آسيا الوسطى ، بين الفولغا والقرم ، بعد ان اختلطوا مع غيرهم من هذه الاقوام ، بملكة الحُزُر التي قامت ، بين القرنين السابع والعاشر ، وذلك قبل ان يبعثوا ، ابتداءً من القرن العاشر بصحبة *Petchinègues* والاوغوز ، قبائل واقواماً اقل منهم تطوراً ؛ واخيراً المغول ، ابتداءً من القرن الثالث عشر . والشيء المشترك بين هذه الممالك ويميزها عن سواها ، سواء أبلغت في تطورها درجة عالية أم لا ، هو سيطرة طبقة ارستوقراطية محاربة ، رحالة ، وتحكمها بجانب من سكان البلاد الاصليين ، يرسف معظمهم في الرق والعبودية ، يجرونهم وراءهم كنفما اتجهوا ويستقرون حيث انتهى بهم المطاف ، بعد زوال قائدهم ، بحيث ان الرواة والمؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مقامراتهم ، بل يكتفون بذكر ما في القادة والرؤساء ، ضاربين كشحاً عن بروز الصقالبة وتوسعهم في الأرض ، فلا يشمر الكتاب بوجودهم بعد ان يكون استفحل شأنهم ونبه ذكركم .

فسيطرة البدو كانت ابدأً مسترخية الحلقات ، خفيفة من الوجهة السياسية ، اذ كانوا يؤلفون أصلاً ، أحلافاً من القبائل تشد بينها أواصر القربى او قرابى ، لا يمارسون على الشعوب التي

أخضعوها ، سوى سيادة خارجية يقنعون منها بدفع الخراج وشد الازريوم الوغى ، فلا تؤثر بشيء على وضعهم الاجتماعي والنسطة التي ينجون عليها ، بقطع النظر ، طبعاً ، عن الاشخاص الذين يفشلون في حركة عصيان او تمرد فيفرضون عليهم ذل العبودية . وأقل ما يمكن ان يكونوا أدّوه لهؤلاء الاقوام الخاضعين لسيطرتهم ، ان نمّوا فيهم عادات جديدة كركوب الخيل ، او المحافظة على أسباب التجارة والنقل في اخشن مظاهرها ، وقد توارثوها جيلاً بعد جيل ، من التاريخ القديم ، وساعدوهم على احلال بعض التشكيلات السياسية محل نظمهم القبلية التي كانت تتراخى أو آصرها مع التنقل والظعن . ومع ذلك ، علينا ألاّ نغلو في الامر فنقع في النقيض ، كما جرى لبعضهم في تقييم المفهوم السياسي عند الجرمان ، بعد ان خضع فريق منهم ، كالمصقالبة مثلاً ، لنير المنصر الاصفر ، فاستتجوا من ذلك عدم عجز المصقالبة السياسي الذين عرفوا ، مع هذا ، ان يتطوروا كالجرمان انفسهم ، عندما كانت الظروف تسمح لهم بذلك .

انتشار المصقالبة وتوسعها
ان توسع المصقالبة في شرقي اوروبا وانسياحهم في أقطارها ، لا يقل أهمية في التاريخ عن انتشار الجرمان في غربي اوروبا . ولذا ترتب علينا ان نتعرض لهذه القضية باسهاب في دراستنا هذه ، اسوة بالجرمان . والواقع انه قلما يأتي الامر على هذا النحو ، حتى لدى المؤلفات التي تسهب في وصف الغزوات التي أدت الى تبديل الوضع في اوروبا ، بينما تقتصر هذه المؤلفات نفسها على التعرض بإيجاز ، للمصقالبة وتحركاتهم ، ان لم تضرب صفحاً عن ذكرهم بالكلية . يمكن ان نرد ذلك لفقر مصادرنا وندرتها . ومع ذلك ، لا بد من ايراد ما هو معروف ثابت في هذا المجال ، ليس في فصل عابر مجزوء ، بل كجزء أساسي ، اصيل من تاريخ اوروبا المشترك .

تضاربت آراء المؤرخين حول أرومة الشعوب المصقلبية واصلهم الاول . فهم يرجعون ، من حيث اللغة ، الى العرق الهند - الاوروبي ، ابناء عومة الليتوانيين ، ولو تميزوا عنهم واختلفوا . ففي بسدء النصرانية ، نراهم يسكنون البقاع الواقعة الى الشرق من نهر الفستول ، كما نراهم ، في العصور المتأخرة ، للامبراطورية الرومانية ، قد يعموا بتأثير من موجات الفوط ، بعضهم شطر جبال الكربات ، والبعض الآخر الذين عُرفوا باسم *Autes* ، شطر القسم الجنوبي من روسيا اليوم . ان انتقال الجرمان وارتحالهم غرباً اوجد فراغاً شغله المصقالبة بعد ان قاموا بحركة التفاف ، وراء الكربات فاحتلوا بقاع الدانوب الاسفل ونهر إلابل . كذلك حمل سيل غزوات الهونز والبلغار والآفار ، قسماً منهم . وكان من جراء فناء قبائل *Grépides* وارتحال اللبارديين ان حدث فراغ آخر في سهول الدانوب ، لم يكن في وسع الآفار ملأه وحدهم ؛ ولذا جاءت قبائل مصلبية عبر الكربات واحتلتها ، وبلغت في تقدمها نهر الساف ، وجبال الألب الشرقية ، كما اطلت على مشارق بافاريا ومقاطعة التورنج ، واشرفت على سواحل البحر البلطقي ، ونهري دنيبر والدونا حيث كان يسيطر ، الى الجنوب ، قبائل من الاتراك ، والى الشمال ، قبائل الفنز او الفنلنديين غير المتراسة الافراد . وقاموا ، على مثال البلغار والآفار ، بأعمال الغزو والسلب

كما قاموا بأعمال السلب والنهب في الأقاليم الواقعة عبر نهري الساف والدانوب بعد أن اجتازوهما في مطلع القرن السادس . ولا شك أن في البيزنطيين لم يعلقوا كبير أمر على هذه الغزوات والتجاوزات التي أدت إليها ، فاملأوا الدفاع عن هذه المقاطعات لما تكلفه غالباً من العزيرين المال والرجال ، وهو ثمن مرتفع لا يعد له بشيء الفناء الذي تجنيه الدولة من هذه المقاطعات ، والفوائد المالية والاقتصادية التي تؤمنها لها ، لاسيما وقد حدثت هذه الغارات يشنها البلغار والصقالبة أبان حروب الفتح التي نهضت بها بيزنطية لاستعادة ولاياتها السليبية بمثلة بإيطاليا وإسبانيا وإفريقيا ، فتمرضت لغزوم المقاطعات التي تتناوح بين تراقيا ودلماتيا . وكان الشعور العالق بالأذهان أن هذه التجاوزات لم تكن طليعة فتح منظم ، وعندما تمت الغلبة ، عام ٦٠٠ على الآفار عم الناس شعور عارم بأن حدود الدانوب صامدة ، تقوم على حراستها والدفاع عنها وحدات يمكن الوثوق بولاها . غير أن حركة العصيان التي قام بها الجيش « الروماني » المزعوم ، بعد أن عيل صبره وثار تأثره من حروب مريرة لم تعد عليه بأي نفع أو كسب ، والهجوم العنيف الذي شنه الساسانيون ، كل هذا أدّى إلى تحطيم الدفاع عن الحدود ، ودك معاقلها وحصونها . وقد سبب عبور « البرابرة » الموصول لهذه الأنهر واستباحتهم للأقاليم الواقعة وراءه جلاء قسم كبير من سكان الريف راحوا يبحثون عن ملجأ أمين يلوذون به ، يقوم في هذه المواقع الدفاعية الحصينة ، كما أدى ، من جهة ثانية ، للإبقاء على بعض مدن حصينة تحيط بها الحاميات العسكرية . كل هذا لم يكن فيه كفاء ولا بديل لما تقتضيه الحرب من ثمن ولا لما تجره من ويلات . وكم من مرة بقيت الأرض شاغرة تنتظر من يشغلها . وقام الصقالبة أذاك ، بحركة عامة حملتهم إلى سواحل بحر إيجه وشواطئ البحر الأدرياتيكي ، دونما وحدة في القيادة أو خوض معارك كبيرة ، وبدون « حوادث » تذكر . وحوالي عام ٦٤٠ ، جاءت موجة جديدة من الصقالبة ، فيها الكروات والصرب ، انطلقت من جوار نهري الأودير والفستول ، وانفضوا إلى من تقدمهم من أبناء عمومهم فاحتلوا مقاطعة اللبريكون بعد أن استعان هرقل بهم لدفع الآفار وحدهم ، مها كلفه هذا العون من تضحيات تمثلت بتخليه عن بعض المقاطعات ، وسمح لهم بالإقامة إلى الجنوب الشرقي من نهري الدراف والساف ، وعرفوا هناك باسم السلوفين . وفي الفترة الواقعة بين ٦٧٠ - ٧٨٠ ، جاء فريق من البلغار بقيادة أسبروخ ، ابن الملك كوبرات ، وأقام بموافقة السلطات البيزنطية ، في المقاطعة الواقعة بين الدانوب الأسفل والبلقان ، محيطين بالصقالبة الذين سبقوا ونزلوا في تلك الكورة ، معترفين لهم بالسيادة والصدارة .

وفي الربع الأخير من القرن السابع ، بعد أن دب الفساد والاحلال بشعوب الآفار ، تمكن أمير يدعى سامو ، من إنشاء أول مملكة صقلبية قامت حتى ذاك ، في البقعة الممتدة من جبال الألب النمساوية ، حتى مشارف البحر البلطقي ، ضمت بين العناصر التي تألفت منها : التشيك والموراف والسلوفاك . أما ما تبقى من قبائل السلاف ، في الشمال ، وهم الذين عُرفوا منذ التاريخ القديم باسم *Vendes* ، فهذا كل ما يُعرف عنهم ، مع ما تم لهم من مواقع بين الفرنج والسكسون .

ومع ذلك ، فليس بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب من مفارقات ملحوظة . فصقالبة الشرق وحدهم يعيشون في شبه عزلة او انفراد .

يمشى ضباب حالك القرنين اللذين استغرقهما انتقال البلقان «الرومانية» الى أيدي الامارات الصقلبية الاولى التي عرفها التاريخ . فالآراء تتضارب حول الاتساع الذي بلغته الموجة السلافية او الصقلبية : ففي الوقت الذي يميل فيه المؤرخون اليونان الى التقليل من شأنه ، يبالغ المؤرخون الصقلييون في أهمية الدم الصقلي الذي انصب في جسم بلاد اليونان القديمة ، مسبباً لها الانحطاط ، في نظر البعض او باعثاً فيها دِفْقاً من النشاط ، في نظر البعض الآخر . فاذا ما استطاعت اللهجات الصقلبية ان تتغلب على مقاطعة مقدونيا وترسخ فيها ، بقيت اليونانية مع ذلك اللغة المسيطرة على شبه الجزيرة البلقانية . اما مقاطعة إلبريكون ، « فتصقلت » الى حد بعيد يفوق كثيراً « جرمنة » أية مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، في الغرب . ليس من يدعي ، والحق يقال ، ان قدامى « الرومان » انقطع دابرهم تماماً او زال كل أثر لهم في هذه المقاطعات ، بالرغم مما استهدفوا له من مذابح وعمليات اجلاء وإفناء فقد بقيت جاليات منهم متمسكة ببعض سواحل دلماتيا ، او مطمئنة الى بقائها في بعض المدن الحصينة . الا ان الغزاة الفاتحين لم يلبثوا ان امتصوا تدريجياً هذه الجاليات المعزولة وسط شعب جديد دخيل ، اضطرت لمصانعته والتقرب اليه عن طريق المصاهرة والزواج . ولا بد من ان نلاحظ ، بعد ذلك بعدة قرون ، ظهور شعبين جديدين : هما الالبانيون والرومانيون الذين لا يمكن ان يكونوا طلعوا من لا شيء او هبطوا من السماء . فالشعب الاخير ذو الاسم الغني المدلول ، والذي يعرفه التاريخ قديماً باسم الفلاك او الفلاخ وهو الاسم الذي عرفهم به الصقالبة ، قد يكون ، على الأرجح ، من ذراري هؤلاء الاقوام الذين جرى نقلهم الى هذه المقاطعة بعد ان تم فتحها على يد الرومان ، في عهد الامبراطور تراجانوس ، فَتَلَكَيْكَنْتَ وَتَرَوُكَنْتَ على مر الزمن ، لتكون في مأمن من دسائس البيزنطيين ومكايدهم . فبعد ان ثقل البلقان من استقرار منهم فيه ، عرف الذين أقاموا منهم في الكربات ان يصمدوا ويحسبوا الدفاع عن انفسهم بوجه الطامعين ببلادهم .

يمجز المؤرخ ان يرسم صورة امينة ، دقيقة للمجتمع الصقلي بعد ان تم له ما تم من توسع ويقتطع في رقعته ومجاليه الحيوي . فالقبيلة او الحياة القبلية هي الاطار الذي يتحرك ضمنه . فالجمهرة الاجتماعية الصغرى تتألف من مجموعة من الأسر تستثمر معاً رقعة معينة من الارض . دون ان يتمتع أفرادها بملكية معينة . فالصقالبة هم ، اصلاً مزارعون من اهل الحضر ، يشبهون الى حد بعيد ، الجرمان ، قبل هجراتهم المعروفة ، أَلِفُوا ، بالنظر لاتساع رقعة السهول التي يقطنون بينها ، استبدال مساكنهم بصورة دورية ، دون ان يركنوا الى نظام زراعي نشيط . انصرفوا مع تمسكهم بالزراعة الى الصيد والقنص وجمع الفراء الثمين ، وجني العسل والشمع يقدمونه لزعمائهم ورؤسائهم ، رسوم طاعة وولاء ، فيتصرف به هؤلاء في متاجرمهم او مقابضاتهم او يتخذون منه هدايا وأعطيات . وتوصلوا الى صنع بعض الحاجيات الاولى يستعملونها في

معايشهم . لا نعرف شيئاً عن امورهم الدينية وان كانت معالم الديانة الطبيعية عاشت طويلا بين
تقاليدهم الشعبية . فلم تبلغهم النصرانية بعد ، ولا عرفوا شيئاً من أمرها .

وهذا التلون الاجتماعي الذي اخذ يبدو عليهم ، ظهر في هذه الفترة التي تمت خلالها مجراتهم ،
والحملات العسكرية التي قاموا بها . ونشأت تحت ظل بعض الرؤساء والزعماء جماعات او فئات
صغيرة . ولكي يؤمن الزعيم أو د جنوده اضطر ان يقتني له أملاكاً وأطياناً عبيدَ بأمر العناية بها
وحرثها الى أرقاء وعبيد وقعوا في الأسر . وأدت حركة النقل والاستيراد الى انشاء مخازن
ومتودعات لهم على بعض الانهر او على مقربة منها ؛ وهكذا نشأت مثلاً ، في روسيا واوروبا
مدن أمثال : كييف ونوفغورود . هذه صورة ذهنية تقريبية ، أكثر مما هي حقيقة لما كانت
عليه الوضع الاجتماعي عند هؤلاء الاقوام .

استهل تاريخ الشعوب الصقلية على شكل يختلف تماماً عما بدا عليه تاريخ اوروبا الغربية في
هذه الحقبة . فالجرمان الذين كانوا تفاعلوا ، بعض الشيء ، بالحضارة الرومانية قبل ان تصير
اليهم تركة روما ، استقروا بعد طول المطاف ، في ممتلكات الدولة الرومانية وعجلوا باخطاطها
والتحلها ، انما عرفوا ان يحافظوا على خط السير القديم دون احداث اي فواج او فجوة .
وهكذا فالمجتمع الذي قام في الغرب خلال الاجيال الوسطى ، هو الوريث ، من وجوه عدة ،
للتركة التي خلفها المجتمع الروماني . اما الصقلية ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فقد بقوا بالفعل ،
خارج العالم « المتمدن » . فمن انتهى بهم المطاف للاقامة في المقاطعات التي كانت يوماً ،
رومانية ، فقد ألفوا هذه المقاطعات تفقد الكثير من معالم رومانيتها ، فتَبَرَّرتْ فها ان لديهم
ان يحلوا محل الاقوام التي اكتسحوها وان يستأصلوا ، دونما عناء ، المدنية التي وجدوها منذ
قدومهم ويقتلموا منها الاعراف والعادات . فالاجيال الوسطى شهدت اذاً انتقال الصقلية من
الطور القبلي وخروجهم من الوضع الذي كانوا عليه من قبل ، دون وساطة روما .
فامام هذه الاحداث التي توالى وقوعها على ايطاليا اضطرت بيزنطية للانكفاء والتراجع ،
امام اللباردين في ايطاليا ، والبربر في افريقيا ، والفيزيغوط في اسبانيا . وما هي على قاب
قوسين وادنى لتنفذ اغنى ولاياتها ، واكثرها عطاء وسخاء في آسيا ومصر ، حيث ستقع امور
واحداث على شكل لم يعرف مثله من قبل .

الفصل الثالث

بين البدو والحضر في آسيا (من القرن الرابع حتى السابع)

هذه الاجيال المتعاقبة التي شهدت ، في العالم المتوسطي ، انحلال الحضارة اليونانية اللاتينية ، او انهيارها التام سجلت عند الدول والممالك الكبرى ، في آسيا ، عهداً بارزاً من الازدهار والتجلي والانجازات الكبيرة . وهي حقبة تميزت ، من جهة ثانية بغليان القبائل الرحل الضاربة في فلات هذه القارة وصحاريها ، وبما أحدثته فيها من اضطرابات وتحركات عمت جميع ارجائها .

ففي مطلع هذه الحقبة الجديدة التي انطلقت في القرن الرابع ، نرى المحاور الثلاثة الكبرى للعدنيات الآسيوية الضخمة : ايران والهند والصين ، تتفاوت درجة ونسبة في منسوب التطور الذي اخذت بأسبابه . فقد مر معنا كيف ان ايران ، في عهد الدولة الساسانية ، استبطرت وتطلعت الى التوسع ، محاولة ان تحل محل روما ، في ولاياتها الشرقية ، وان تستأثر لنفسها بطرق المواصلات التجارية التي تخترق قلب القارة الآسيوية ، وان تتكافأ نفوذاً ، في اواسط آسيا مع قطبي الجذب الكبيرين : الصين والهند . فقد عرفت الهند في عهد السلالة الملكية غوبتا طوراً من ابرز واشرق عهود تاريخها المديد إشعاعاً حضارياً وفكرياً قِيَصَ لها ان تحياها . فالوحدة السياسية التي حققتها في الداخل ، قابلها في الخارج ازدهار امتد إشعاعه ليلبغ اعالي آسيا والصين وكوريا واليابان ، من الشمال ، كما بلغ من الجنوب ، اقاصي مقاطعات الهند الصينية والانسولاند . فقد بلغت البوذية في هذا العهد ، اعلى ذروة عرفتها من الازدهار ، وذلك بفضل النفوذ والتقدم الذي حققته على يد فلاسفة اطلعتهم مشهورين بينهم : آرنغاوفازوبندره اللذين لم تلبث آثارهما الادبية ان دخلت الصين وانتشرت فيها ايما انتشار . وفي الوقت ذاته عرفت البراهمانية بعثاً دينياً جديداً اعتُبرت معه دين الدولة الرسمي في الهند ، كما نالت المنزلة ذاتها لدى امارات جنوبي شرقي آسيا . اما الصين ، فبعد الازمة الادبية والاجتماعية التي ادت الى سقوط دولة الهان وجدت نفسها ، في اواخر القرن السادس ، منقسمة على ذاتها ، موزعة أشتاتاً ، ولم تلبث بعد الذي اصابها من ذل وهوان ان ذهبت فريسة جحافل الهونز التي أروغلت بعيداً حتى بلغت

اقاليمها الشمالية ، جارة ورامها قبائل مغولية كثيرة ، التي عرفت بعدم استقرارها ، وهكذا انشطرت الصين من الوجهة السياسية الى شطرين : في الجنوب الحكومة الامبراطورية الشرعية بينما نشأ في الشمال عدد من الممالك التركية - المغولية ، التي لم تستقر على وضع ولا حال ، شأنها في ذلك ، شأن الدول الجرمانية التي ظهرت للوجود في الغرب اللاتيني ، خلال القرن الخامس ، كما يصورها لنا المؤرخ غروسيه ، فراحت قتلحاحن فيما بينها وتقتتل محاولة تصفية بعضها البعض الآخر . وفي سنة ٣٩٨ ، تمكن اترك تبغانش او توبا من فرض سيطرتهم التامة بتأسيسهم دولة «واي» المهيبة الجانب ، وحماها ووقفوا بوجه كل من تحدته نفسه بمهاجمتها . ولم تلبث هذه الدولة ان اعتنقت البوذية واصبح رجالها من اشد الناس استمسكاً بتعاليمها والتشدد في الحفاظ عليها ، واخذوا يطبعون بطباع الصينيين ويمثلون عاداتهم واخلاقهم ، فأنشأوا في شمالي البلاد عدداً كبيراً من المعابد الجميلة .

وكانت فيافي آسيا وسباسبها مرتعاً لعدد من القبائل التركية - المغولية تضرب في آفاقها المترامية الاطراف ، مع فريق من قبائل البدو الرحل التي اخذت هي الاخرى ، تتحرك باتجاه البلدان المحظية ، حيث يقوم بحرثها والعناية بها اقوام من الحضرة الذين ألفوا الدعة والحياة الناعمة . واخذت هذه القبائل الرحل ، تدق ، على فترات متقاربة ، في موجات متراصة متلاحقة ، حدود الهند ويران . ولم تلبث ان احتلت واستأثرت بكايول والبكتريان وغندهارا وتاريم ، بينما راحت دولتا الغوبتا (الهند) والساسانيون (ايران) تحاولان صدمهم ومنعهم من التغلغل في الداخل والعيش فيها فساداً . واستمر الصراع عنيفاً محتدماً تمكن من قبال الهونز الهفتالية من خفض شوكة ايران والنيل منها . وقد تعرضت الهند لغاراتهم بعد الضعف الذي آلت اليه اثر انهيار دولة الغوبتا عام ٤٧٠ ، بعد ان انشقت على نفسها ، فعاثوا فيها نهباً وسلباً ، والحقا بها اللذل والهوان . وقد استطاع احد امراءهم المدعو ميسيراكولا ان يتوغل مرتين داخل البلاد ، سنة ٥٠٢ و ٥٣٠ حتى بلغ سهول الغانج فاحالها خراباً يباباً وقام فيها بمقتلة ومذابح هائلة . وكان سبقاً لا تيلا ، قبل ذلك بنحو ثمانين سنة ، ان قام في الغرب ، بمثل هذه الفظائع التي تقشعر لها الابدان .

وخلال هذه الانتفاضات الدامية وبالرغم منها احياناً نشهد ازدهار البوذية التي كانت عامل تقارب وتهدة بين هذه الشعوب المتباينة ، كما اتاحت للصين المحافظة على مواصلاتها مع الهند والبلدان الاخرى الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية . فلم تعد الهند بالمحور الوحيد في هذه المنطقة . فقد طلع علينا ، في اواسط آسيا ، مراكز غاية في الاهمية ، منها : كوكا وافغانستان وغندهارا . والى هذه المراكز الجديدة الموزعة بين الهندوسيت والغر واليرانيين والطوسخاريين ، اخذ الحجاج البوذيين يفدون من الصين على الاخص ، محاولين العثور على النصوص التي كانوا بأشد الحاجة اليها ، بحيث بلغوا الهند الغانجية حتى انهم ادركوا الانسولاند . ونشطت بين هذه الاقطار حركة من التبادل الثقافي ، استهدفت على الاخص ، البحث عن النصوص البوذية

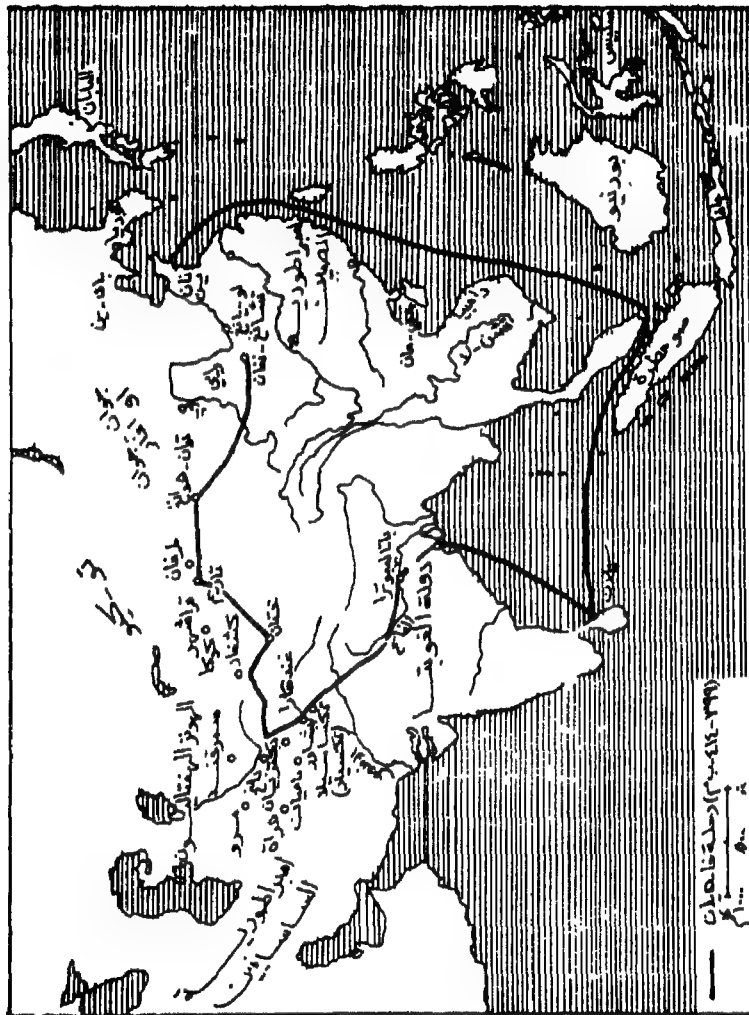
الى جانب تأمين العلاقات الدبلوماسية وهي علاقات ، كثيراً ما عهد اباطرة الصين الى الرهبان البوذيين الرحالة بتأمينها . وكانت اول وفادة غادرت الصين ، برئاسة فاهيان ، سنة ٣٩٩ ولم تعد اليها الا سنة ٤١٤ ، بعد ان جابت اقاليم تاريم وغوندهارا وسهول نهر الغانج ، واقامت مدة في سيلان وصومطرا . وقد توالى ارسال الوفود بعد ذلك ، فأرسل تشي - مونج ، من سنة ٤٠٤ الى ٤٢٤ ، وتلاه تاو - بو من ٤٢٤ الى ٤٥٣ ، ثم واي - تسي من سنة ٦٠٥ الى ٦١٦ ، وكانوا يتبعون طرقاً صعبة المسالك ، عسيرة المرتقى ، اذ كان عليهم ان يمتازوا سلسلة جبال بامير ويعرضون انفسهم للمخاطر المتعددة ويقضون بعض الوقت في الاديار السحي كانت ترحب بهم وتحسن وفادتهم ويمتعون انظارهم بمشاهد البلاد الطبيعية التي كانت تختلف كثيراً عما ألفوا مشاهدته منها في بلادهم ، ومهم ان يصفوا بدقة المؤرخ ، ما رأوا وشاهدوا من معالم ومشاهد ، في وصفها على مثل هذا النحو من الدقة ما فيه متعة المؤرخين المحدثين . وقام بدوره فريق من الرهبان البوذيين ، من اصل هندي او فرثي او كوتشي ، برحلات معاكسة بلفوا معها الصين ، بعضهم وقد اليها من مقاطعة فو - فان القصية (كبوديا) . ونحن مدينون كثيراً لهؤلاء الكهان البوذيين بهذه المعلومات الدقيقة والادوار الرائعة التي وصلتنا عن اواسط آسيا والهند والبلاد الواقعة جنوبي شرقي آسيا . فمن المشاهد التي وصفوها لنا ترتقص امام اعيننا اليوم ، ماجريات ملوك الهويز في هذه الحقبة ، وانماط معاشهم تحت المضارب واخبية اللباد التي كانوا يعيشون تحتها ، كما نستطيع معها ان نكون لنا فكرة صحيحة عن هذه الاحتفالات الدينية في الهند ، وغنى الطبيعة فيها ، وعادات السكان واعرافهم من الحمير وتشام .

ولما كانت البوذية الهندية بلغت الذروة من الازدهار في هذه الحقبة ، فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تصبح الهند قطب جذب لآسيا الشرقية برمتها . ولذا فالمنطق يدعونا لالقاء نظرة متفحصة على الحضارة الهندية في هذه الحقبة التاريخية الواقعة بين القرنين الرابع والسابع .

١ - الهند تبلغ أوجها في عهد دولة الغوبتا

بعد هذه الحقبة التي شهدت ازدهار امبراطورية كوشانا في الشمال، ومملكة اندراه في الجنوب، والتي حاولت فيها كل من ايران وروما اثبات وجودهما والعمل لترسيخ نفوذهما، عرفت الهند فترة من الدهر انقسمت فيها على نفسها وخفضت من جانبها فخبث فيها شعلة النشاط وتضاءلت فيها مظاهر الحياة الثقافية والفنية . فمنذ عام ٣٢٠ ، في هذا الوقت الذي قد يكون عاش فيه فيلسوفان هنديان من اشهر الفلاسفة الذين اطلعتهم سماء الهند هما : آرنغا وفازوبندره - مع انه ليس ما يمنع الافتراض انها ظهرا بعد ذلك بنحو قرن - ظهر في اقليم باتاليبوترا، امير من قبيلة غوبتا قام ببعض الحروب عادت عليه بفتوحات موفقة. ونقطة البدء انطلقت من مدينة ماغادها القديمة . هذه البقعة المقدسة التي رأت البوذية فيها النور ، وكان لا يزال المُشاهد يرى ، علم

٤١١ ، قصر آسوكا ، قائماً في باغليپوترا ، عاصمة الموريا . فبعد ان بعث امراء الفويتا الى الوجود ملكة ماغاهمي ، راحوا يستعون اطراف مملكتهم هذه لتشمل جانباً كبيراً من الهند ، كما



الشكل (رقم ٣) - آسيا في القرنين الرابع والخامس

ان نفوذهم امتد الى ولايات الهند الجنوبية ، واشتد على الاخص ، في اقاليم البحر الجنوبي . عمرت نفوس هؤلاء الاباطرة بروح الفتح كما عمرت بحب الآداب والاهتمام بها والاحتفاء بالعاملين لها ، فراحوا يشيدون المباني ويكلاؤن بعنايتهم ورعايتهم الديانات الكبرى في البلاد ، كل ذلك وهم يحتذون حذو ملوك الدولة الاخمينية والدولة الساسانية في ايران ، كما جاؤوا بأكثر من دليل على

أظهار بطشهم وقوتهم وسيادتهم .

وقد تعاقب على الحكم بعد شاندر اغوبتا الاول ، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة الذي لانمرغ عنه ما يطفئ غلة ، عدد من كبار الملوك ، اشهرهم سامودراغوبتا (٣٣٥-٣٨٥) وشاندر اغوبتا الثاني (٣٧٩/٣٨٥ - ٤١٤/٤١٤ ؟) وكوماراغوبتا الاول (٤١٤-٤٥٥) واسكندر اغوبتا (٤٥٥ - ٤٦٧ او ٤٧٠) . وفي عهد الاخير منهم بدت على هذه الدولة عوامل الضعف والوهن ، فانفصلت عنها بعض الإيالات التي كانت تابعة لها من قبل ، ولم تلبث ان انهارت هذه الامبراطورية تحت الضربات التي انهالت عليها من جانب الهونز الهمتاليين ، كما رفضت الدول التابعة لها النير الذي كان يرهقها وتتبرم به . ومع ذلك فقد تابعت هذه الدول المهيضة الجناح ، الحكم وقدبرت أمرها حتى القرن السابع ، الى ان انهارت وسقطت ، على أثر ظهور دولة جديدة برهنت على ما تم لها من حول وطول ، وبأس وبطش .

لأول مرة منذ عهد سحيق ، أي من القرن الثالث ق . م . استطاعت شخصية الامبراطور الهند ان تعيد وحدتها وان يتولى الحكم فيها ملوك وطنيون ، والشيء الذي له أهمية خاصة هنا ، هو ان الغوبتا ، شعوراً منهم بهاتين الميزتين ، وتقديراً منهم للمنافع التي تعود منها على البلاد ، راحوا يحاولون ربط اسررتهم الملكية بأسرة موريا ، التي تركت اسماً عالياً وشهرة واسعة تناقلتها الاجيال خلفاً عن سلف : فقد حمل عدد من ملوكهم أسماء ملوك دولة موريا ، وراحوا يزعمون انهم يتحدرون من سلالتهم وعرقهم . فالى جانب الشعور بالوطنية والعزة القومية ، اخذوا يتطلعون الى ترسيخ سيطرتهم وتركيز سؤددهم ، وفقاً للتقاليد والاعراف الهندية . فأعادوا الى الوجود وأحيوا عادة الذبيحة الفيدية بأهبي مظاهرها ، بما فيه الحصان ، وهي عادة كان سقط الاخذ بها والسير عليها ، لكلفتها الباهظة . والظاهر ان الغوبتا علموا على اعادةتها أهمية كبرى ، بحيث ان عدداً من ملوكهم تلقب : « بمجده ذبيحة الحصان » . وكان القيام بهذه الذبيحة يقتضي له عدداً كبيراً من أضياعي الحيوانات الكثيرة التكاليف ، فقد كان الاحتفال بها يستدعي استمدادات طويلة قد تمتد سنة او سنتين . كما ان الاحتفال بها كان يستغرق شهراً بكامله . وكان الملك الذي تتم في عهده هذه الذبيحة يقوم هو نفسه بمراسمها فيخلد ذكره كما تخلد أعجاده مدى الدهر . ومن الدلائل التي تشير الى رغبة الغوبتا بالظهور بمظهر السلطة المطلقة والقوة والبأس ، هذا العدد العديد من تماثيل الاصنام التي أمروا بنصبها وكانت تنصب وفقاً لمراسم عبادة خاصة وتحمل اسم الامبراطور نفسه فتجعل منه بذلك شخصاً الهياً او بالاحرى إلهاً . وليس من المستحيل البتة ان تكون الوقفة او الوضع المسمى : « بالوضع الاوروبي » ، الذي تكثر مشاهدته في الصور والرسوم (*Iconographie*) العائدة لهذا العصر ، اقتبسها ملوك الغوبتا وأخذوها من وقفة الامبراطورية لشاه ايران . لا يخلو من أهمية البتة ، ان نشير هنا الى ان هذه الوقفة ترتبط الى حد بعيد ، بعرض يحمل من التزاويق الحيوانية ما يشير ، ولو بصورة رمزية ، الى ما للشخص الجالس من صفة عامة الشمول .

فالملك الذي هو شبيه بالآلهة ، وملك الكل ، هو الامبراطور نفسه ، صانع (الزمن) (Kala) . فهو كالشمس يخضع لنظام دقيق ويضفي على النظام الكوني دقته وانتظامه .

فالمصادر التاريخية تبرزه لنا نموذجاً كاملاً للكشاشيا او الجندي النبيل . ومع ان السلطات يأتيه عادة بالوراثة ، عليه ان يستحق عرشه وصولجانه بما له من مناقب شخصية رفيعة ، أسماها وأرفعها ، على الاطلاق ، ما فيه مسرة شعبه وغبطته ، وذلك عن طريق تأمين العدالة واشاعته العدل على السواء . وهذا بعينه ما يشير اليه اللقب الذي يحمله « راجا » والذي يطلق عليه ، وهو لقب او كنية انما تعني « السار او التبرج » ثم زاده الفوبتا سمواً وتفضيلاً بنعت كلمة : مَهْرَاجاً وهو وصف لا يُطلق إلا على الاباطرة أنفسهم .

ولكي يتمكن الملك من القيام بواجباته على الوجه الاكمل والامل ، يقتضي ان تتوفر له تربية تامة . فهو يخضع ، في عهد الطفولة ، لما يخضع له أطفال الطبقات الثرية وسراة القوم ، ويُفَصَّ شره على شكل اكليل ويتم زواجه في السن القانونية . عليه ان يكون متضلعا من النصوص والآيات المقدسة وان يضعها دوماً نصب عينيه عندما يجلس للحكم والقضاء ، وان يحسن الاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على أكتافه . ويدرس الفلسفة وما وراء الوجود ، والمنطق ، وعلم السياسة ، وفن الحرب واصول الزراعة والتجارة ، وفرض الشعر والموسيقى . فالهدف الاول الذين يضمه نصب عينيه هو الاكثار من الفتوحات الحربية بحيث تبلغ أطراف مملكته « أقاصي المعمور » . وفي هذا السبيل عليه ان يعرف تماماً ما في مملكته من امكانات وطاقات كامنة ، ويتبين حقيقة وضع الدول التي يرغب في مهاجمتها وضمها الى مملكاته ، فيستعين على ذلك بالوسائل الدبلوماسية قبل كل شيء ، حتى اذا ما باءت بالفشل ولم تُؤْتِ أَكْلُهَا ، عمد الى السيف واتخذة عدة الحرب . كل شيء يتوقف على السياسة التي يضع الملك اصولها وينهض بأسبابها ، كما يتوقف بالتالي على الروح المعنوية العالية في الجيش .

وعندما يكون ولياً للعهد ، قبل ان يصبح ملكاً ، عليه ان يخضع لحفلة تكريس خاصة وفقاً للمراسم التي يتم بموجبها تكريس الملك ، انما على قدر اقل ونسبة اخف من الزهو والفنى . ينضحه الكهنة بالزيت وتم المراسم التالية ، وفقاً للتقاليد المريعة الاجراء ، بينما ينصرف الشعراء والزجالون للتغني باجماد الاسرة المالكة ، وتنتهي الحفلة بتقديم التحية لوالديه . واذ ذاك يصبح اهلاً لتحمل اعباء الحكم مع الملك ، اذ اصبح يتمتع الآن بنصف السلطة . واذ ذاك ، يعمد اليه بادارة احدى الولايات ، يُعَيِّنُ به لفيف من الموظفين وبطانة تدور في فلكه ويمور بها قصره .

وفي الوقت المقدور ، يجري تكريسه ملكاً بكل ابهة وجلال ، وفقاً لمراسم لا تتغير وُضِعَتْ منذ العهود الفيدية ، ويجري الاستعداد لحفلة التكريس وتحديد مراحلها وترتيباتها ، في قرار يتخذه الملك الخارج ، في جلسة رسمية لمجلس الوزراء . ويتولى المهندسون بناء جناح خاص يرتفع على اربع ركائز ، ثم يؤتى برئيس البراهمان فينضحه بالماء المأخوذ من انهر الهند المقدسة . ويوزع الملك بهذه المناسبة السعيدة مكارمه وهباته بسخاء ، كما يأمر بالعفو عن المساجين حتى

من كان منهم محكوماً عليه بالاعدام ، ويأمر بإطلاق سراح الحيوانات المعتقة ، ويعيد الحزينة الى المضاعف في اقفاصها . وبعد هذه المراسم ، يأخذونه الى دارة جديدة اعدت له خصيصاً ، ويجلسونه على اريكة بعد تطهيرها ويلبسونه حلة جديدة ثم ينظر الى المرأة ويمهدون اليه بشارات الحكم ، من بينها مظلة وزوج من المذبات وعرش وصولجان وحذفة ، واكليل من الذهب ، وكرسي قوائمه من الذهب الخالص . ثم يتربع الملك الجديد على اريكة العرش في هيو القصر الكبير ، تحت المظلة . وعند الانتهاء من هذه المراسم ، يطوف بمتطياً احد الفيلة ، في احياء المدينة ماراً بشوارعها الكبرى .

فالمصادر الادبية التي تعود لهذا العهد لا تنفك عن وصف الابهة والجلال الذي كانوا يحيطون به الملك ، وهذه المواكب الزاهية بالحجارة الكريمة والثياب المزركشة ، والزهو الذي كان يتلأأ به القصر الامبراطوري ، ولحان الملابس وبريقها ، ونور الحلي والمجوهرات ، وغير ذلك من مظاهر الفنى والثراء والجمال التي تتم عن ذوق رَهِيف مما نرى صورة عنه في هذه الرسوم التي تزين جدران المعابد والهياكل .

واوقات الامبراطور تعدد بانتظام ودقة ، كما في الماضي ، فيُعْمَلُ مؤذن خاص مكلف بهذه المهمة ، تعاقب الساعات ومرورها اذ ان بين الزمن وشخص الامبراطور ، علاقة مباشرة . يبتدىء النهار بتعيين المس في اماكنهم ، وفقاً لنوباتهم ، ثم يجلس الملك للنظر في امور الدولة . وبعد ان يكون الامبراطور اخذ القرارات اللازمة واصدر التعليمات التي يقتضيها تصريف شؤون الدولة سواء في المدينة ام في الريف ، يستعم ويتناول وجبة خفيفة من الطعام وينصرف للدرس والبحث . ثم يأخذ باستلام رسوم الجباية والخراج ، عيناً او نقداً ، وينظر في ترفيع المأمورين والموظفين ويحري عليهم مكافآته . وبعد ذلك يرأس مجلس الوزراء ويستمع الى التقارير الواردة على القصر من العيون والارصاد المبثوثة . ثم يأخذ قسطاً من الراحة اذ ينصرف لهوايته المحببة او ينصرف للتأمل . وبعد ذلك يذهب ليستعرض الفيلة ، وخبوله ومركباته الحربية وجيش المشاة ، وينظر برفقة قائد الجيش الاعلى ، في الخطط العسكرية التي يقتضيها النهوض بالحرب . وعند غياب الشمس يأخذ بتلاوة صلاة الغروب ، ليستقبل بعد ذلك موفديه السريين . ثم يتناول حمماً جديداً ، ووجبة ثانية وينصرف لدرس بعض القضايا العالقة ، ليتجه بعد ذلك الى جناحه الخاص على اصوات الموسيقى ، ويتناول وجبة العشاء . وهو يستيقظ باكراً عند الفجر ، على صوت الابواق الصادحة ، ويستجمع افكاره مستعرضاً في خاطره اهم الواجبات المترتبة عليه ، ويطلع على كيفية تنفيذ القرارات التي اتخذت من قبل ، ويصدر اوامره وتعليماته السرية ، الى عماله وجواسيسه ، ويتقبل بركة البراهمان وادعيتهم وتضرعات الكهنة ، ويعرض شؤونه الخاصة على طبيبه ومنجمه الرسمي ، ويعطي الطاهي الارشادات اللازمة ، ويقدم مراسم التكريم لبقرة مقدسة . وهكذا يرى نفسه على اتم استعداد للاضطلاع بالمهام والواجبات التي ستعرض له في يومه .

الدولة والادارة

فاذا كان كل شيء يتوقف على الملك او الامبراطور ، محور الدولة وركنها
الركين ، فهو لا يزال بحاجة الى مؤازرة وزرائه والجمعية التي تمثل الشعب
وكبار الموظفين الذين لا يستغنى عنهم في تصريف شؤون الحكم . فالمجلس التمثيلي هو هيئة سياسية
تعمل بها منذ العهد الفيدي ، وهو عبارة عن مجلس شورى خاص . ومع ذلك ، فهذا المجلس هو
احدى القوى الحيوية في الدولة ، ينتخب الملك ويحاكمه اذا ما بدر منه ما يحط من شأن الملك ،
ويقدم له النصيح والرشد في كل ما يتصل بأمور القضاء وشؤون الادارة . ليس عندنا أية فكرة
عن تشكيله وتأليفه ، اذ نرى بين أعضائه امرأ من العائلة المالكة ، وقادة حرب ، وكهنة
وممثلين عن الحرف والمهن ، حتى وبعض المقدمين من الطبقات الشعبية . اما القضايا السياسية
وما إليها فهي من اختصاص مجلس الوزراء الذي يتألف من ٣ وزراء ، على الاقل ، وقد يبلغ
عددهم أحياناً ثمانية او عشرة ، وربما وصل أحياناً للثلاثين والقرارات التي تؤخذ بأكثرية
الاصوات ، تأتي نتيجة المناقشات السرية وتبادل الرأي بشأنها . فاذا ما أصبحت المناصب
الوزارية وراثية ، كان لا بد مع ذلك من موافقة الملك على ممارسة صاحب الحق لها . وقد
يحدث بالطبع ، ان يختلف مجلس الوزراء رأياً مع الملك ، او انه يفرض على الملك وجهة نظره .
والملك يصدر القرارات بمراسيم او « فرمانات ملكية » يعتد بها الديوان الملكي ، لها قوة القانون
وتوجب الإلزام ما بقي الملك حياً ، الا اذا صدر أمر او قانون خاص بالغائب . وتشدد المصادر
التاريخية على ما للوزراء من أهمية ، اذ انهم يتولون الحكم في حال تغيب الملك . فالى جانب
وزراء دولة ، تذكر هذه المراجع منصب الوزير الاول ، الذي لا يقل صاحبه شأنًا وأهمية في
الامور المدنية ، عن منصب كاهن الملك الخاص او مستشاره الديني للأمور الروحية . وبين
هؤلاء الوزراء وزير الخارجية ، ووزير الشؤون المالية ، والعدلية فالوزير الاول او رئيس
الوزراء هو الوسيط بين الوزراء والملك ، او الناطق باسمه والمعبّر عن آرائه وسياسه . غير ان
القرارات التي تتعلق بسياسة الدولة وتصريفها التصريف الصحيح ، فتؤخذ في مجلس الوزراء .
من اختصاص الوزراء النظر مثلاً ، في كل ما يتعلق بهيئة الملك وأهله وجلاله : كحفلات
التتويج ، ومواكب اسفاره ، ومراسم الجنائز الملكية . فعملهم ان يسهروا على النظام وتأمين
أسبابه في حال غياب الملك او موته ، فعلى وزير الخارجية ان يؤمن حسن العلاقات الدبلوماسية
والثقافية وان يهيئ عقد الاحلاف والمعاهدات السياسية ، وان يرفع للملك تقارير مفصلة حول
الهدايا المرسلة اليه من الخارج . ويشرف وزير العدل على ايرادات الدولة ودخلها ، ويجلس الى
الملك عندما يقعد للقضاء ، ويعد التقارير لكل قضية ينظر فيها ، ويتقبل عرائض الملتسين
وشكاويهم ليرفعها بدوره للملك . ومن الادوار المهمة والمسؤولية الكبرى ، الدور الذي يترتب
على كاهن الملك ، فهو لا يقل شأنًا عن دور الوزير . فالملك يكن له احتراماً كبيراً ويستشير
في امور كثيرة ويعوّل على رأيه السديد .

وبلى الوزراء أهمية ، الحكام الاداريون فحجاء الضرائب والرسوم ، الذين يعهد اليهم بتأمين

الادارة في القطاعات التي يشرفون عليها ويضطلمون باعبائها : كالمساحة والمالية والشرطة والعدل ، وادارة مزارع الملك واملاكه الواسعة ، ومراقبة الاسواق التجارية وتقنياتها ، وادارة معامل الدولة ، واستغلال الاحراج واستثمارها ومراقبة الزراعة وتربية الماشية ، والاشراف على الصناعة ، ومراقبة تجارة المخدرات والمشروبات الروحية ، والاشراف على المسالخ والمواصلات النهرية والبحرية ، والنقل البري . وبين هؤلاء الموظفين الكبار من يعنى خصيصاً بالأمور الدينية ، بما فيها النظر في شؤون النساك والمتزهدين .

عدد كبير من الموظفين يعمل باستمرار لتأمين حسن سير الادارة في البلاد وامنها : كالسفراء الذين يتمتعون بمبدأ الحصانة ، وحكام الولايات والاقاليم والقادة وكبار الضباط في الجيش ، والقوامون على محفوظات الدولة وغيرهم من الموظفين في هذه السلسلة التي استطالت حلقاتها في عهد دولة الغوبتا ، ولكل منهم القابله الخاصة ومراقبه .

ويأتي في اسفل السلم الاداري مأمورون أقل شأنًا : كالشعراء المتجولين ، وكتبه السر ورجال الادب والكتاب ، وحملة شارات الملك والحرس الخاص بكنوز الملك أو بحريمه ، وسائقو المركبات الحربية او الفيلة ، والحراس والخدم والحشم ، والحارسات المدججات بالاسلحة المعروفة باسم *Yavani* .

وتقسم البلاد ، ادارياً الى ولايات واقضية ، يتولى الامر في الولاية حاكم عام يعرف باسم نائب الملك ، له في مركز الولاية بلاطه وحاشيته كالملك في عاصمة الدولة . وتقوم في القرى ، هيئات ادارية تعقد لدى الاقتضاء ، مقابلات مع نائب الملك ، وتتمتع بصلاحيات قضائية وتنفيذية كما تتمتع بحق الاشراف على المؤسسات الدينية . والعاصمة نفسها التي فيها يقوم الملك ووزراؤه ، تخضع ادارياً الى لجنة من اربعة اعضاء يرأسها مقدم يشرف كل عضو على قطاع يضم ربع السكان القاطنين فيها ، كما يقوم الى جانب هذه الهيئة مجلس بلدي من اعضائه يمثلون عن التجار والصيارفة والكتبة . اما في الريف ، فالهيئة الادارية المحلية يرأسها موظف قائم بالاعمال . وعلى هذه الوتيرة تسير الادارة الخاصة لدى كبار الاقطاعيين فيشرف على هذه الاملاك مدبر عام ، يتلقى اوامره وتعليماته جيش من الخدم والمأمورين . وكذلك قس الدول التابع او الدول الدائرة في فلك المملكة فهم ينهجون ، على العموم ، النهج المتبع والمعمول به في الولايات ، مع الاحتفاظ شرعياً بشيء من الاستقلال الاداري .

والجيش الذي هو الركن الركين الذي يقوم عليه استقلال الدولة وقوام هذا الاستقلال ، يؤمن اسباب سلامة البلاد والدفاع عنها . وهو يتألف عادة من فرقة المشاة ، وفرقة الخيالة وفرقة الفيلة . اما فرقة المركبات الحربية ، فقد استغني عنها في عهد دولة الغوبتا ، مع انها من عدة السلاح التقليدية في الهند . وهناك فرقة جديدة ، عمل بها منذ عهد قريب ، هي الاسطول الحربي الذي يتولى حماية الشواطىء البحرية ويسهر على سلامتها ، كما يحافظ على الملاحة النهرية . ويقوم على الحدود ، حاميات عسكرية بقيادة ضباط مجربين . وهذا الجيش يتألف من فئات عدة

والاحراج . وتتألف الكتائب في الجيش من وحدات يتوزع افرادها الى عشرات ومئات والوف . فاذا كان الملك هو ، مبدئياً ، قائد الجيش الاعلى ، فالقيادة الفعلية يتولاها قائد عام *Machâsemâpâti* وهو شخصية بارزة في الدولة تعدل ، ان لم تبز ، شخصية ولي العهد ، بتقلد مهام وظيفته السامية بعد ان يجري مسحه ، وفقاً لمراسم معينة كمراسم الملوك ، يرفرف أمامه علم مذهب .

فلا عجب ان يكون هذا الجهاز الاداري الضخم كثير التكاليف ، باهظها ، بالنظر للاعباء المرزحة التي تواجهه في توفير المرتبات لكل هذا الجيش العرّم من الموظفين على اختلاف درجاتهم .

تفتدي خزينة الدولة بموردين رئيسيين هما جباية الضرائب ، والخراج . مرافق البلاد ومصادرها
فرسوم الجباية هي التي تفرض على غلة الارض والمحاصيل الزراعية والحيوانية . فللامبراطور منها ، مبدئياً ، السدس الا ان هذا المعدل عرضة للتغير : فقد يبلغ ثلث غلة الارض او ربعها اذا كانت الارض غنية معطاء ، وقد تصل حصته الى نصف الغلة اذا كانت من المواد الثمينة كالعاج والجلود . والعادة المتبعة هي ان تدفع هذه الرسوم نقداً بعد ان توزن محاصيل الارض وزناً دقيقاً . فالرسوم تفرض على الفاكهة والخضراوات ، والمسل والحشب ، كما تفرض على القرى ، في الريف ، ضريبة مشتركة يتناهد المزارعون والاهلون على دفعها ، كل بحسب طاقته ودخله ، كما تفرض ضرائب سنوية على اصحاب الاطيان الكبيرة والصغيرة ، على السواء . وفي عهد الغوبتا ، فرضت على البلاد ضريبة خاصة اصابت مستأجري الاراضي . ولما كانت الدولة تأخذ على نفسها مهمة السهر على سلامة المراعي والحقول ، فهي تفرض عليها رسم حراسة خاصاً ، كما تفرض رسوماً اضافية على الذين يستفيدون من شبكة الري والسقاية . وهناك رسوم دخولية وتعريفات جمركية على البضائع الواردة من الريف الى المدينة . يتناوح معدلها بين ٥٤٪ وبين ٢٠٪ . ولعل أخف هذه الرسوم هي التي تفرض على الحطب والحبوب والمواد الدهنية ، بينما يرتفع معدل الرسوم المترتبة على تجارة المشروبات الروحية ، المقننة من حيث المبدأ ، ان في ايام الاعياد والتجمعات العامة . كذلك يفرض رسم خاص على تمييز الموازين والمقاييس ، وهي عملية تجري ثلاث مرات في السنة ، كما تفرض رسوم خاصة على وسائل النقل والنوعا ، حتى ما كان خاصاً منها . وتخفض للرسوم في دوائر المكس كل عمليات التصدير ، كما انه محظور تصدير بعض المواد ، تحت طائلة الجزاء والمصادرة : كالاسلحة والجلود ، والحلي والحبوب والمواشي ، ويستثنى من هذا الرسم بعض الحبوب المستوردة . ويلزم العمال والصناع بدفع ما يتراوح بين ١٠ - ٢٠ في المائة من دخلهم ، ويعفون من دفع هذا الرسم ، اذا قبلوا ان يعملوا ، بعض الوقت ، لحساب الدولة . ويدفع العاملون في تربية الماشية ، عيناً او نقداً ، حسبما يختارون . وهناك رسوم اخرى تفتدي خزينة الدولة . كرسوم التأشيرة على تذاكر السفر ، والمسالخ والمومسات والبقي وغير ذلك .

هذه الرسوم والضرائب تنال كل المواطنين مبدئياً ، الا انها عرضة للتخفيف او الاعفاءات ، في مناسبات وظروف معينة ، كالمعدنين ، والحبالى ، والمرضى والطاعنين في السن والزهاد . وكهان البراهمان ومؤلاء ينمون بحق إلهي . كذلك تعفى من الرسوم المقاطعات التي تمد الدولة برجال الحرب .

وتملك الدولة عقارات واطياناً طائلة . كما تملك احتكارات عديدة يعود دخلها للخزينة . وفي عهد الفوبتا فرضت الدولة ملكيتها على الاراضي الموات ، غير المستثمرة وحظرت على اي كان تملكها او التصرف بها تحت اشد العقوبات . ويعود لها وحدها ملكية معامل الحياكة والنسيج ومعامل تنقية فلزات الفضة والذهب ، ومناجم الحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ والملح ، وقاعات اللعب والملاهي . والى الملك او الامبراطور تعود الثروات التي لا وريث لها ، باستثناء البراهمان ، والاغراض التي يمر عليها بعد ان تفقد ، كما ان رسوماً خاصة تفرض على الحاجيات المسروقة او المفقودة ثم يُعرف صاحبها . وفي حالات الحرب او الأزمات المالية تفرض ضرائب استثنائية ، يتحملها الجميع ، على اساس تأمين التوازن بين دخل الدولة ونفقاتها العامة ، مع تأمين فائض للطوارئ . والدولة تتحمل نفقات مرزحة كاهنات التي تقفها ، والاحتفالات الدينية التي تقيمها ، وتأمين اعاشة القصر ومن فيه من رجال الحاشية والبلاد ، وتكاليف المصانع والمعامل ، والمشروعات التي تأخذها الدولة على عاتقها ، ومرقبات هذا الجيش المرم من المأمورين والموظفين ، بين مدنيين وعسكريين ، اذا ما ضربنا صفحاً واملنا جانباً المرقبات والاعطيات الملكية الاخرى . ولا بد من الملاحظة هنا ، ان هذه النفقات الباهظة لا تصيب دافعي الضرائب على السواء ؛ فهي تنال بالاكثـر ، التجار والصناع ، اذا انت البراهمان مملون من هذه الضرائب ، كما ينعم الى *Kshatrigu* بانعامات كثيرة .

الحالة الاقتصادية يستدل من المراجع العائدة لهذا العهد ان الازدهار عم جميع أطراف البلاد ، ان حكم دولة الفوبتا ، أفراداً وجماعات . فقد سيطر على البلاد جو من الطمأنينة والامن ، لا بد منه ولا ندحة عنه لنمو التجارة وانتشار مرافقها ، فكانت الطرقات تنص بقوافل التجار وما اليهم من عربات النقل ، يقود خطوطهم دليل محنك . اما المدن فتزدان بالمباني الجميلة المتناثرة على جانبي الشوارع العريضة ، كما كانت دكاكين البقالين وعربات الباعة ومخازن التجار تنص بالسلع والبضائع على أنواعها . والزراعة التي هي أهم مرافق البلاد الاقتصادية هي قوام الثروة وركنها الرئيس ، فلا غرو ان تلتشط ويتسع ميدانها يوماً بعد يوم . والمزارعون ، وعددهم لا يحصى ، يستخدمون المحارث التي تجرها الابقار ويؤمنون حاجة البلاد من الشعير والارز ، وقصب السكر والسمسم والصمغران . وبفضل نظام الري البديع ، وتسميد الارض وتخصيبها ، كان باستطاعتهم ان يستغلوا عدة مواسم في السنة الواحدة . فالمراعي تنص بالكلأ حيث تسرح وتمرح الثيران ذات السنام والثيران العادية والبقر والمعجول ، والحصان والبغل ، والماعز والجل .

وبين المهن والحرف الدارجة نذكر النجارة والحداة والصياغة، وحياسة الحرير والاصواف، والصباغة، والبناء، والهندسة المعمارية والتقطير، واستخراج الزيوت، وحفر العاج والصيد والقنص وطحن الحبوب، والطب، والضرب البيطري، والموسيقى والرقص، وألعاب الحفنة والرشاقة والتسري، والصرافة والتجارة. وأصحاب هذه الحرف يلتزمون جمعيات ونقابات بحيث كثيراً ما نرى قرية ما يحترف سكانها حرفة واحدة، لها رئيسها وكاتب سرها وجلالوتها. وإلى جانب التجارة التي تقوم على التعااطي بالحبوب والحجارة الكريمة، وملسوجات الحرير وصناعة العاج والافاويه والماشية، تزدهر الصناعة التي تمنى بالفزل والحياسة، وصناعة الحبال والسيور، ودباغة الجلود وشغل الحلي والمجوهرات، وصنع المعادن واستخراج الفلزات والحجارة الكريمة وتوضيها، واعداد المقاقير الطبية وبعض المواد الكيماوية.

أما معلوماتنا عن النقد والعملة، في هذه الحقبة، فقليلة؛ فقد درج استعمال الدينار الذهبي في عهد الغوبتا، وهو اصطلاح دخل الهند من العالم اليوناني الروماني، وكان يساري عندهم ۱۶ *Rūpka*، وهي عملة من الفضة، أي ما يوازي قيمة ۲۴ روبية، في الوقت الحاضر. وقد عرف القوم، إذ ذاك، السفنجة أو السند المالي. والمعروف ان ۱۲ ديناراً ونصف كانت تكفي لاعالة خمسة رهبان في اليوم.

كانت الهيئة الاجتماعية لا تزال منقسمة إلى طوائف. فلم يطرأ أي تغيير
الوضع الاجتماعي جذري على هذا الوضع. وقد زاد التقاطع والتباعد نظرياً بين هذه الطبقات تحت تأثير البراهمان، أما بالفعل، فإننا نلاحظ بعض التخفيف من هذه الناحية، إذ كثيراً ما تعقد عقود زواج بين أبناء طبقات متباينة، مما أدى إلى شيء من تخالط الطبقات وتمازجها بعضاً ببعض، الأمر الذي حمل الغوبتا على إصدار أوامر مشددة باحترام نظام الطبقات والتقييد بمسئزماته التي تعود إلى عهد بعيد. ففي عهد تميز بالازدهار التجاري والاقتصادي وتخزين الطبقات الدنيا، ثروات طائلة، أو تجس أولو الأمر من أن ينزع ممثلو هذه الطبقات إلى الاستئثار بالسلطة معتمدين في تحتيت ذلك، على ما تم لها من غنى وافر. والذي يبدو لنا من المراجع الأدبية التي تعود لهذا العهد، أن الثروة أو الغنى، أصبحت المعيار أو المقياس الاجتماعي الأمثل، وبالتالي الوسيلة الفضلى لتخطي نظام الطبقات، بالرغم من تشدد البراهمان وتشبثهم باصرار وعناد، بوقفهم، لا يترشحون عنه قيد أنملة، بينما بقيت طبقة كشاريا مقتصرة مبدئياً، على الملاكين ورجال الحرب، ولم يكن من النادر أن نرى بينهم من يمارس مهنة أو حرفة، أو يشترك عضواً في النقابات المهنية.

فالأسرة هي الحجر الأساس الاجتماعي الأولى. ولذا بقيت التربية تسير وفقاً للنهج المتعارف القديم الذي كان يقسم الحياة إلى أربع مراحل متميزة: الطفولة، المدرسة، الحياة الزوجية، الزهد، وهي مراحل كان للتربية فيها شأن رأي شأن، تبتدىء بفترة قصيرة عند الابتداء، ثم يمتد بها انقطاع الطالب بكليته لمعلمه (*guru*)، ويلارمه ويعيش في محيطه، فيتعلم منه كل ما يرى نفسه

بمحااجة اليه في هذه الحياة ربما فيه التمرس على استعمال السلاح . وبعد أن يُتم دائرة تحصيله يتزوج ليؤسس بدوره أسرة . وأنواع الزيجات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، الا اننا لم نعد نسمع في عهد القويوتا ، بما كان متبعاً من قبل أو مشروطاً من العاب الحقة أو العاب عسكرية أو رياضية .

والعائلة بمعناها الواسع ، لم تكن لتقتصر على الجدود والابناء من الصلب الواحد بل تضم أيضاً البطون والارحام الجانبية وذرائعهم ومن اليهم من احلاف وقوايع ، وخدم وحشم ، وعمال وارقاء . كل هذه الجموع تسكن معاً ربّما هو نزل أكثر منه ممكن خاص . ورب الأسرة هو كبيرها وسيدها وقائدها ، له حق تعدد الزوجات ، زوجته الاولى هي امرأته الشرعية ، تشرف على البيت وتهمين على الادارة المنزلية ، ومن هنا تبدو الاهمية التي يعلقونها على الأولاد الذكور . فان لم ينجب الاب ذكوراً تعقدت امور الوراثة وارتدت أشكالاً وألواناً هي أقرب الى الاعراف منها للقانون . فاذا لم يكن في الأسرة ولد ذكر احتاط الاب للأمر وراح يتلمس الحيلة فيجعل من ابنته الوحيدة « ابناً لا اخ له » . وباستطاعة الاب ان يتبنى ابناً له او يشتري له ابناً . وباستطاعة هذا الابن بالتبني ان يرث أباه الحقيقي وأباه بالتبني . وقد يحدث أيضاً ان ينقطع نسل الأسرة ، فتذهب املاكها للملك ، باستثناء البراهمان .

اما نظرة الرجل لزوجته فالنظرة الى سيدة جليلة ، محترمة مرشدة وهادية وصديقة . ولذا كان تأثيرها عظيماً في الأسرة . فهي قلما تخرج من البيت ، واذا ما خرجت فبتحفظ كلي ، بعد ان ترتدي إزاراً او ملأمة . فاذا لم تعقب فقدت الكثير من منزلتها وشأنها . فاذا ما ترملت فقدت حق رعاية الأسرة وذهب هذا الحق شرعاً لكنيتها او زوجة ابنها . فهي لا تترث ، انما يحق لها ان تأخذ صداقها والهدايا التي قدمها لها زوجها في حياته ، ولا سيما مجوهراتها وما لها من حلي تبقى لها مدى الحياة . والى هذه الحقبة بالذات يجب ان نرد ظهور تقاليد « المرأة الأمينة » التي تحرق نفسها فوق محرقة الحطب مع زوجها ، كما يستدل من نصب تذكري تاريخه سنة ٥١٠ ، اكتشف في أران . فالارامل اللواتي لا يتبعن مثل هذا التقليد ولا يمثلن له يحكمن على أنفسهن ، شئن أم أبين ، بالانزواء ، والانكاش عن المجتمع ، يتجنبن التبرج ، ويمقصن شعورهن ، ويعشن منزويات متزهديات . فزواجهن من جديد ، امر غير مرغوب فيه ، تشجبه العادات ، وتمجه ، الا اذا وقع من احد افراد الأسرة ذاتها ، أي أقرب أقارب زوجها المتوفى .

وهذا المجتمع الذي يقوم أصلاً على الطبقية ، محوره الأسرة او العائلة وينتظمه قانون الجزاء عدد من القوانين . فالسرقة هي الجرم الموصوف ، يحرقها محترفون مجربون ويستعملون لها عدة خاصة . يدخلون المنازل بعد تحطيم الابواب وكسر النوافذ ، او خرق الجدران . ويقوم على تعقب اللصوص واقتفاء اثرهم موظفون خصوصيون ، يتخذون لهم يبدأ من كل الوسائل الممكنة : كالحيلة والتجسس والترغيب والتشجيع . ولما كان الملك هو القوام على أملاك رعاياه ومقتنياتهم ، فليس بمستغرب قط ان يولي أمر تعقب المصوص اهتمامه الخاص .

وتنزل منزلة السرقة ، كل الجنح الشبيهة لها : كالغش في اللعب ، والتلاعب بالمعايير والمكايل وتزييف العملة ، وتزوير المستندات العامة او الخاصة ، والشهادة الكاذبة ، والغش في صنع الحاجيات الموصى عليها . ويدخل بين كباثر الجنائيات والجرائم الموصوفة : القتل ، والخطف والاعتصاب ، ووسائل العنف والاكرام ، والاهانات ، والحق الضرر المادي او الاذى للدولة وحدها حتى الاقتصاص من المجرمين . فالعقاب يختلف طبيعاً باختلاف نوع الجريمة او الجناية ، فيتراوح بين دفع تعويض وبين الحكم على الغريم بالتعذيب أو بالقتل أو بالنفي ، بعد السجن والاعتقال مدة من الزمن . فقد بطل تعذيب المذنب ، في عهد دولة الفويتا ، الا في حال تكرار ارتكاب الجريمة فيحكم على الجاني بقطع يده اليمنى . فاذا ما جلسوا للقضاء عُقدت المحكمة واحيطت المحاكمة بالمهابة والجلال ، سواء ترأسها الملك بالذات ، أم اخذ القضاة في الحالات الاخف . وكثيراً ما تنتقل هيئة المحكمة بكاملها في إثر حملة عسكرية ، فتشكل ، اذ ذاك ، من الملك او من احد نوابه ، ومن القضاة أو المستشارين ، ومن كاتب عدل ، ومن محلفين . أما المحاكم المكلفة النظر في قضايا النقابات المهنية فتتألف هيئاتها عادة من ذوي الخبرة المشهود لهم بالنصف لحل المشكلات العارضة . تعرض الدعوة وفقاً للقواعد والاصول القانونية في عريضة أو التماس يرفع للقاضي ، ويُعلق على لوحة ، موزع مقتضب للقضية ، بحيث يتاح للنظار والمشاهدين ان ينفوا على الوقائع ، ويؤدي شهود الإثبات ، وعدد ثلاث شهادتهم بهيئة رسمية ، وهي شهادة مفروض فيها ان تكون صادقة ، ناطقة بالحق . فاذا ما ثبت زور الشهادة وبهتانها ، عوقب الشاهد بتر احد اعضائه عقاباً له . واذا ما ظهر ان القضية مرتاب بامرها أو مشكوك بها أمر القاضي بالاحتكام الى الله ، أي تعريض الجهة المشكوك بامرها للتعذيب والتنكيل : كالكي أو السلق بالماء الحار لاستخلاص الحقيقة . ويبلغ الحكم كتابة للجهة المدعية ولا يمكن نقض الحكم الا عند ظهور بينات جديدة دامغة . ويناط بمأمور خاص هو مأمور الاجراء ، تنفيذ الحكم الصادر ؛ أما اذا نص الحكم على عقوبات جسدية أو على القتل ، عهد بتنفيذ الحكم لجلاد لا ينتمي لطبقة المحكوم عليه .

وهذا الاطار الحضاري او الريفي الذي يَلفّ المجتمع الطبقي في الهند الحياة العامة والخاصة يبدو عليه بعض التحسن دون ان يكون دخل عليه اي تغيير جذري . فالعاصمة هي المدينة المنهجية او المثلى ، يحيط بها سور ضخيم يستدير حوله خندق يطفح بالماء ، ويرقى اليها من ابواب ضخمة . ويستعملون في بناء القصر الملكي والمباني العامة والهيكل وبيوت السكن ، الحجر والطوب او الخشب . اما السقف فمسطح ، وقد يأتي مقعراً او محدودياً من جهتيه او على شكل هرم . بحيث تطل عليك كل الاشكال الهندسية . اما العواميد فتطلى او تلبس بالليك الأزرق او الاحمر ، وتحلى برسوم نباتية او حيوانية بالوان زاهية ؛ اما النوافذ ، فتلبس شعريات من الحجر او من الخشب لترد العيون الشوارد والنواظر الوَقيحة . ويعلمو العواميد : اكليستل مزر كشة تحمل رسوم حيوانات في شق المواقف او الاضافير من الزهر

الفواح واللالء الساطعة ، يتبدل بعضها من السقف او من الجدران . وتلبس الجدران احياناً الطنافس الجميلة تنهاوى منها القلائد والاضافير . اما الكيوى ، وهي من ميزات الهندسة المعمارية القديمة ، فاصبحت عنصراً زخرفياً ، وتلبست اشكالاً وصوراً شتى تحت ازميل النقاش ومرقه .

وكان الأمن يرفرف والسلام يسود الطرقات والمسالك النهرية وكلها بحراسة الشرطة ، بعد ان نشطت عليها حركة المرور والنقل ، بالرغم من الرسوم المفروضة على من يسلكها . ويمخر عباب اليم عمارات من السفن الضخمة تعمل على الاثربة العديدة ، مرتفعة المقدم والمؤخرة ، تزينا رؤوس التين وغير ذلك من الحيوانات البحرية . والملاحة النهرية تقوم على قوارب بيضاوية الشكل ، مجهزة بمجاديف مفلطحة الرأس . وتدرج على الطرقات : الفيلة المسرجة باناقة ، والاحصنة على اختلاف اسرجتها الخالية من الركابات ، وقد زين رأسها بالريش وتدلّت من عنقها قلائد الجلاجل والاجراس . اما السابلة فيمرحون ويسرحون ، يحمل المتالوت والحمالون بينهم ، سلاخاً من الاحمال على ظهورهم او على اكتافهم او رؤوسهم ، كما يحملون اولادهم على اوراقهم . اما عقيلات الاشراف والنبلاء فيسرن في هودج تجره عربة مزينة بالرياش ، او يحمله حاملون خاصة ، او يحمره زوج من البقر ، كما لا تزال هي العادة اليوم . ويقوم على جوانب الطريق ملاجىء يأوي اليها الزوار والحجاج ، فيجدون فيها ما يحتاجون اليه من اسباب الراحة ، وما يرغبون فيه من طعام ، لمدة محدودة من الوقت لا يمكن تجاوزها ، وفقاً للحالات المعارضة . ويقوم في المناطق المحظوظة ، كنطقة مفادها مثلاً ، وهي المنطقة التي خرجت منها سلالة الفوبتا الملكية ، مستشفيات ومستوصفات لمعالجة المرضى الفقراء ، والمرضى المعوزين الذين لا مورد لهم ، واليتامى والارامل والمقطوعين الذين لا عهدهم ولا سند ، فيخضعون للفحص الطبي من قبل طبيب ، ثم يصف لهم العلاج الناجع ، وتؤمن حاجتهم من الادوية والاغذية ، ولا يسمح لهم بترك المستشفى الا بعد ان يتم شفاؤهم تماماً .

والبنذخ الائم يطالمناء في القصور الملكية وصروح اهل اليسار ، من الطبقة الارستوقراطية . هنالك مقاعد واطية تقوم على قوائم جلجلية الشكل ، أو تشبه اقدم الحيوانات ؛ واخرى اعلى مقعداً ، موشاة بالطنافس ، ازدان ظهرها برسوم حيوانية ، دقيقة الصنع ، فاعمة الصنعة ، تكفل للجالس عليها الراحة التامة كأنه على اريكة الملك . وقد بطل استعمال الكراسي ذات المرافق ، كما زال ، استعمال الاستدارات المصنوعة من الخيزران وحل محلها مساند مستديرة من القماش المخطط . كذلك دخل استعمال نماذج جديدة من الصحناء واواني المطبخ ، جىء ببعضها من ايران ، كالكرافيات الطويلة العنق ، والاباريق وهنالك ما يشير الى رواج بعض الادوات الزجاجية ، وصناعة القصب والخيزران جودت كثيراً صنع الاطباق واللال التي اعتاد الناس تملئها بسواعدهم . أما غرف النوم ، فهي ، على الاجمال ضيقة يشغل السرير معظم مساحتها من الداخل ، جهز بسند او وسادة عند الرأس وباخرى ، عند الارجل . والكوة او المشكاة التي

تري احياناً في بعض الجدران تضم عادة الآلة الموسيقية المحببة لدى صاحب الدار كالقيثارة
المقببة . ويقوم في الحجرة منضدة تطرح عليها المساحيق والمعاجين التي يمكن استعمالها اثناء
الليل ، كما لِفوا ان يتركوا على الارض الشاعدين والاباريق المذهبة . اما غرفة السلاح فهي
تغص بالاسلحة على انواعها ومختلف اشكالها تتألق بياضاً ولعناً ، كالسيوف المهنددة ذات المقبض
المستدير ، والخناجر القصيرة النصل ، او طويلتها . ويوجد في قصر الملك وفي دارات الاغنياء ،
مجموعات من الاسلحة المنظمة تنظيماً خاصاً بينها الرماح والفؤوس ، والخناجر على انواعها ،
والقسي والنبال والمراوات والدبابيس . وللألعاب الرياضية محلها المرموق في باحات القصر
وحداثقه ، كالنرد الذي عم استعماله كثيراً وادخلوه حتى على حفلات تتويج الملوك الرسمية ،
والاراجيح الطقسية او التي تستعمل للتلهي ، والحضاريات ، والصبي المتراكبة . وام الملاهي
واكثرها شيوعاً هي الموسيقى والرقص ، فالملك نفسه هو من كبار هواة اللاعبين على القانون ،
وكم من قطعة نقدية تبرزه لنا ينقر على القانون .

كذلك تنوعت كثيراً الازياء والملابس ، وغلا ثنها بعدان سنا صنعها . فالشاش الناعم الصنع ،
والديباج المزركش والانسجة القطنية التي تمك في جميع اطراف الامبراطورية ، او يؤتى بها من
ايران ، هي اكثر الاقمشة رواجاً واستعمالاً . فالملك والامراء يرتدون ال *lioni* القصيرة او
الطويلة ، كما تتبدل على اردافهم ، علائق وسلاسل تنظمها الحجارة الكريمة والمجوهرات ، كما
ان كبار الموظفين ورجال الحرب والصيد يلبسون اردية فضفاضة الاكام والاردان ، قد تكون ،
كما يرجعه المعارفون ، جاءت من الغرب . كذلك ترفل عقيلات البيوتات الكبرى ووصيفاتها
بفساطين تختلف شفافيتها وطولاً ، بينها ساملات المذبات والراقصات ، وغيرهن من المرافقات
يلبسن سترات فصلت على قدودهن قصيرة الاكام . وهذا التنوع ذاته يبدو على اشكال :
فالراجا يلبس عمة مزركشة تشبه التاج ، اسلاكها من الذهب ، كما اعتادوا ان يضعوا في القرنين
الخامس والسادس ، شعراً مستعاراً مقصباً . ويقص اهل الكيف من رجال الرقص والموسيقى ،
وغيرهم من الخدم ، شعورهم قصيراً ويزينونها بزهرة . اما النساء فيعقسن شعرهن على اشكال
مختلفة بين مقبب ومخروط ، او يملصنه فوق جباههن او يضفرنه جدائل تتدل طويلاً على الظهر
او الاكتاف ، كما ترتدين بعضن الكليل من الزهر او الحجارة الكريمة . ثم يضيفن الى زينتهن
عقوداً من اللآلئ تشع نوراً وبهاءً وسناءً وتحمل على صدورهن انواعاً كريمة تتدل من اعناقهن ،
وفي معاصمهن ثروات من الاساور الكريمة . ويشد الرجال حلقوهم بسير من الجلد الناعم كما
تضع النساء الخلاسل بارجلهن ، ويلبسن اقراط الذهب او الماس ، والحواتم الكريمة في البنصر
او في غيره من اصابع اليد الواحدة .

في هذا الجو العابق بالبذخ والنفس ، بلغت الحياة الدينية في
الحياة الدينية والفكرية والفنية
الهند ، أو سجا . فالبودية المفتحة والسيطرة على عالم الروح
والمادة ، عرفت ازدهاراً كبيراً من الحياة الرهبانية التي جمعت بين التأنيق والبذخ . فالرهبان

في اديارهم ينعمون بحماية الملوك، وعطفهم فيغدقون عليهم ، ولا سياً على طبقة البراهمان ، الهبات الطائلة ، والاعطيات السخية . وفي ظل هذه الرعاية المشبعة بعطف الغويتا تزدهر الحياة الروحية سمحاء ، أثيرة ، متخيرة . فتتكاثر الاديار وتنتشر في البلاد وتصبح منائر للعلم يقصدها الرهبان الاغراب العطاش الى المعرفة والحكمة الالهية . وهكذا نرى مثلاً عاهل سيلان يأمر ببناء دير في بلدة بودغايا ، للرهبان السنغاليين ، كما ان اسرة سوماتراية تشيد لها ديراً آخر في مدينة تالاندا ، وهي مدينة بوذية رأت النور بين ٤٦٧ - ٤٧٣ ، والتي جاءها فيما بعد زائراً هيوانغتسان . ويلقى الرهبان المتجولون في كل هذه الديارات ، كل ما يحتاجون اليه من اسباب السلوى والترفيه ، كما حصل للراهب الصيني ، فا هيان اذ يأتي رئيس الدير بنفسه ليرحب بقدمهم ويتصدق عليهم بما يحتاجون اليه من لباس وماء وطاس ، ومن زيت ينضحون به اقدامهم ورحيق عصير قصب السكر الذي يمكن تناوله في غير اوقات وجبات الاكل القانونية . ثم يخصهم بغرفة فيها من الاثاث والمفروشات ما فيه راحتهم ويحيز لهم الاشتراك بالحياة الرهبانية وفروضها طيلة بقائهم في الدير . ولم يكن من النادر قط ان يتسع الدير لآكثر من ألف راهب وراهبة ومبتدئين من كلا الجنسين . وكان الزوار يدهشون لكثرة الاديار في مدينة تالاندا ، وتعدد مبانيها ، وغنى أثاثها ، ورحابة غرفها ، تجري فيها الطقوس الدينية مواسمها بكل ابهة وجلال ، في جو يتناغى بصدى الاناشيد الروحية ويعبق بالبخور المتصاعد كالغمام ، وباريح الزهر والريحان ، تتلألأ زينة الهيكل على اضواء القناديل التي لا عد لها ، والمضاء طوال الليل ، على انغام شجية من الموسيقى الناعمة المتصلة .

وتتناوح المدارس الهندسية بين مناسك بسيطة متواضعة وبين باحات وافناء شاسعة تمور بحركة الطلاب وروام العلم يتحلقون حلقات حول اساتذة ومعلمين مشهود لهم بالفضل ، فيتلقون الى جانب دروس الفلسفة والحكمة ، اصول الصرف والنحو والمنطق ، وتعليقات مستفيضه ، وشروحاً موسعة في الموسيقى وفن التمثيل ، والرقص والرسم الملون .

وهل من غرابة في هذا كله بعد ان ازدهرت الفلسفة وأينمّت الآداب الرفيعة ؟ فالشعر الوجداني والملمحي ، وفن التمثيل نفسه ، وغير هذا من النشاطات العقلية يحمل بارزاً ، أثر الشاعر الهندي الاشهر كاليداسا (القرن الاول ق . م) الذي اعطانا : الغيمة الرسول (*Meghadūta*) ومولد كومارا ، ولزول راغو *Raghuvamśa* وروايته الخالدة : «إعتراف» التي نراها مترجمة اليوم الى جميع لغات العالم ، والتي مُثِّلَت مراراً في دور عديدة للتمثيل في الغرب . وقد بلغت اللغة السنسكريتية القيدح المعلى نقاءً تحت ريشة كاليداسا . فقد رسم لنا هذا الشاعر الهندي المبدع ، صوراً اختاذة تبناها المسرح الهندي ودرج عليها منذ عهد سحيتق ، وهي صور تمور بالطبيعة والجنان السندسية الغناء ، وجلت لنا اغوار النفس البشرية بفن فيه الكثير من نوازع الادب الكلاسيكي . بعد ان ابرزت لنا مشاهد حية عن : ملك مدنف ، قيمه الحب ، ومهرج ماجن ضحوك ، ولاعب مدمن اخذ منه الهوس كل مأخذ ، والراهبة البوذية

والمملكة الحسود ، والمملكة الظلم وغير ذلك من صور النفس البشرية التي نطالها في كل زمان ومكان . كل هذه الصور ليست بالفعل سوى ركائز عرف كاليداسا ان يضيف عليها من فنه وعلمه الواسعين ، ومن الجمل المجسم ما بلغ فيه سدره المنتهى ، كل ذلك في نظم جزل ، ولغة مشرقة ، مشعشة ، وبيان مزهر وقوافي راقصة مرقصة ، حملها من المعاني ما لا تستطيع الالفاظ حملها . فالفن ، في عهد الغوبتا ، بلغ الذروة ، اذ جمالية الاسلوب ، تقوم ، قبل كل شيء ، في الايمان دون الافصاح ، وفي الاكتفاء والاكتفاء دون التعبير ، وفي الرمز ، دون المرموز اليه ، وفي الاشارة دون العبارة . هنالك شعراء لا يقلون شأنًا وشأواً عن كاليداسا ، اضأوا كالشهب ، جو الغوبتا ، وألقوا على عهدهم ، ألقاً قلما عرفت الهند مثله . منهم : شودرا كال المؤلف المقروء لـ « عربة الفخار » ، وفيدشا كادتتا ، وامارو وبهارتراهري .

ولم يكن تألق الفلسفة ، في هذا العهد ، عند البوذيين اقل منه عند الهنود . فالاشخوان ازانفا وفازوبندو من اتباع المدرسة الرمزية في الهند وضعا اذ ذاك ، مؤلفات كانت ، لغرون عديدة ، المحور بل الاساس الذي نهضت عليه التعاليم البوذية التي يمثلها احسن تمثيل ، « الوسيلة الكبرى » او *Mahayana* سواء في الهند او في البلدان الآسيوية الأخرى . ولم تلبث ان بلغت آثارها الصين ، بعد ان ظهرت في الهند ، بقليل . وهذه الصيغة التي برزت عليها البوذية على يديها ، بالرغم من ظهورها في مطلع النصرانية تقريباً ، اختلفت تماماً عن التعاليم الاساسية الممثلة « بالوسيلة الصغرى » *Hinayana* او *Theravada* . وليس من العبث ان نذكر هنا بان أزانفا وفازوبندو خرجا اصلاً ، من غندهارا ، هذا الاقليم الذي وقسح تحت تأثير المدارس السريانية الفارسية وانفعل بها ، وهي المدارس التي عقيبت مدرسة الاسكندرية وورثتها ، اي الفلسفة الاشراقية والمالوية . تقوم فلسفة اليوغا على النظرية القائلة بان الواقع او الحوادث الواقعية ، ليست سوى خيال وهم . وخلافاً للمدرسة او نظرية *Mandhyunika* التي ادت باتباعها الى القول بالعدمية ، وصل بها آزانفا ولا سيما فازوبندو الى نتائج مناقضة تماماً : فاذا كان كل شيء ومماً في وهم ، فالوصول الى هذه النتيجة والتأكد من الامر ، هو الاقرار ذاته بوجود فكر ، وهكذا ، فالفكرة المجردة او المفكرة الوعاء ، تؤلف الاسس التي تقوم عليها المثالية المطلقة ، وقد كُتِبَ لهذه النظرية ان تنتشر في جميع ارجاء آسيا وادت بالتالي الى هذه التيارات البوذية العارمة التي بلغت أفاصي الصين واليابان .

وبرهنت الفلسفة الهندية ، من جهتها ، هي ايضاً ، عن نشاط يصح مقارنته ، من قريب ، بالنشاط الذي سجلته البوذية في هذه الحقبة . ففي الوقت الذي اخذت فيه تبلور المحاولات الاخيرة لتكيز الملاحم الكبرى راححت النظم الفلسفية الهندية ، تبرز وتتطور بما تعرضت له من شروح وتماثلق وتفسيرات ، بشق الصور والاشكال التي تفتتح عنها الفكر الفلسفي الهندي ، وتبلور عنه : كالاخلاقية الديلية ، والزهد والتلسك ، والمنطق ، وعلم الطبيعة ، وعلم ما وراء الطبيعة الديني ، واللاهوت والفلسفة ، وتناسخ الارواح او التقمص ، وما للفعل من اثر ضار ،

مؤثر (Karman) والوسائل المختلفة لخلاص النفس Moksha ، وغير ذلك من الموضوعات والتجريدات العقلية التي راح العقل الهندي يغوص فيها . كل ذلك يقوم على اساس وطيد من استقلال الطبيعة الانسانية « والارواح » ، المادة والروح . وعن طريق سلسلة من النفي ، توصلوا ، هنا وهناك ، الى تحديدات وتعريفات لها من الدقة واللطافة ما في اللغة السنسكريتية من طواعية وليونة ومرونة ، او ما تتيح له من مقارنات ومقاييس تنبض بالحذى . ومن هذه النظريات الفلسفية الهندية التي طلعت اذ ذاك ، نظرية الفيدانتا التي اطلت علينا بين ٣٥٠ - ٤٠٠ ، ثم اخذت تتطور في العهد التالي .

وبالمقابل ، نرى فن الرسم يبلغ اذ ذاك قممته . فبعد ان استفاد من خبرة الماضي ، راح الفن ، في عهد الغوبتا ، يحاول التعبير عن الافكار الجديدة . فبينما نرى المثالية المطلقة تسيطر على الفلسفة البوذية وتستبد بها ، وبرز في النظريات الفلسفية الهندية عنصر الروح واحتلاله الصدارة ، فالزعة للتنبؤ عن الاشياء المحسوسة بالرمز ، واضفاء شيء من الروحانية عليها ، بلغت أوجها في فن التصوير التشكيلي . وقد وضعت ، اذ ذاك ، أبحاث تحدت فيه وتعينت الاسس التي تقوم عليها القواعد في المستقبل . فلم يسبق ان رأينا في الهند ، مثل هذه الاممية يعلقونها لنقاء الصور والأشكال وسناتها ، ولتأمين مثل هذا التوازن بين الكتلة والقيمة ، وتأمين مثل هذا التناغم والانسجام بين المقاييس والمسافات . فقد كان للنظرية الفنية في الهند ، في عهد الغوبتا ، تأثير شديد الدفع على جمالية الفن ، بحيث ان الموضوعات الفنية التي عاجلها هذا الفن ، في تلك الحقبة ، أصبحت نماذج احتذاها الفنانون وساروا على هديها ووحيا ، حتى بعد زوال هذه الدولة ، وتوارى عنها مسرح السياسة في الهند ، بحيث امتدت المبادئ التي اعتمدتها وقامت عليها ، ليس الى جميع أقطار آسيا الجنوبية الشرقية فحسب ، بل ايضا الى أقصى ما بلغته الركبان والقوافل الذاهبة الى الشمال والشرق . والهندسة المعمارية التي ترعرعت في الهواء الطلق ، اخذت اصولها تطبق على المعابد والمياكل والاماكن الصخرية المؤسّسة كالمغاور والكهوف . وهكذا أخذت الجدران ترتدي أشكالاً وصوراً ، هي اليوم من أروع ما طلع به الفن في الهند .

٢ - أقطار آسيا الجنوبية الشرقية

بعد ان خبرت أقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، في القرنين الثالث والرابع ، حركة واسعة من الاستهناد واقتباس الحضارة الهندية ، اذا بها تقع من جديد ، في الحقبة الواقعة بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن السادس ، تحت تأثير موجة جديدة من انتشار هذه الحضارة ، والاقبال على مقوماتها وتمثلها . ومع ان هذه الاقطار كانت تدور ، اذ ذاك من الوجهة السياسية ، في فلك الصين وتخضع لنفوذها ، وان مصادر تاريخها الركينة في هذه الفترة بالذات من تاريخها ، هي صينية في معظمها ، فتاريخها الحضاري والثقافي ، في هذا العهد هو مع ذلك ، امتداد لحضارة

الهندية فيها . فمن المعقول ، جداً ، والحالة هذه ، ان نلقي على هذه الاقاليم ، نظرة شاملة من هذه الناحية بالذات .

مقاطعة فو - نان
يبرز تأثير الهند على أمتّه ، في مقاطعة فو - نان ، عام ٣٥٧ ، وهي تخضع اذ ذاك ، لسيطرة دخيل طاريء معروف باسم الهندو تشان - نان الذي أرسل الى امبراطور الصين ، آنثد ، هدية تتألف من أفيال حسن ترويضها . والملك هو أمير هندي المحدث يلقب « Chandan » ، وهو لقب جاري الاستعمال عند الكوشانا ، من سلالة كانيشكا . من المعقول جداً ان تكون الفتوحات التي قام بها الغوبتا في هذه المقاطعات المتسندة الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، دفعت أمامها عدداً من الامراء والبراهمان والادباء ، جكوا عن مواطنهم واستقروا نهائياً في تلك الربوع . وبفضل هؤلاء القادمين الجدد الذين اقتلعتهم الاعمال الحربية وقذفت بهم بعيداً عن مساكنهم ، انطلقت الموجة الجديدة من النفوذ الهندي في البلاد ، عناصرها الرئيسية كانت في معظمها من شرقي الهند وجنوبها . وقد آل الامر بمعد تشان - نان الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر ، الى ملك جديد يدعى كوندينيا ، وهو من براهما الهند ، وقع عليه الاختيار ليتولى الامر في فو - نان باسم الشعب ، الذي اخذ بتغيير قواعد الحياة واسسها وفقاً لمناهج الهند ، كما جاء في تاريخ آل لوانغ . وقد أرسل احد خلفائه المدعو سري اندرافارمان او سريستافارمان عدة بعثات الى بلاط ملوك سونغ Song ، وذلك بين ٤٣٤ و ٤٣٨ ، كما أبى ان يؤازر ، عسكرياً وحربياً ، ملكة لن - لي (٤٣١ - ٤٣٢) في حروبها ضد التونكين .

ومن سلالة هؤلاء الامراء ، طلع المدعو جايا فارمان ، الذي كان أوفد بعثة من التجار الى مدينة كنتون ، غرقت سفينتهم ، لدى عودتهم فتحطمت على شواطئ لن - لي ، ونجا بينهم من نجا ، ومعهم راهب هندي اسمه ناغازينا . وفي سنة ٤٨٤ ، أرسل جايا فارمان ، الراهب المذكور بمهمة رسمية الى ملك تسي ، في الجنوب ، يلتمس مؤازرتهم عسكرياً في حملة يوجهها ضد لن - لي . وحمل هذا الموفد السياسي معه : « صورة لأريكة الملك من الذهب المنقوش المصنوعة من جلود الضباب ، وفيلاً مصنوعاً من خشب الصندال ، وصورتين لاحد المعابد مصنوعتين من العاج وإثنتين من الزجاج ، وطبقاً من فلوس السمك لتقديم التمر » . ويتبين من العريضة التي كان عليه ان يرفعها لملك تلك البلاد ، ان البوذية كانت معروفة ومنتشرة في فو - نان ، مع ان عبادة سيفا كانت هي المسيطرة عليها ، اذ ذاك . ومقابل ذلك استودع الامبراطور السفير هدية للملك جايا فارمان ، مجموعة من خمسة اقواب من الاقمشة الحريرية الفاخرة تتناوح بين البنفسجي والعقيقي ، عليها رسوم صفراء وزرقاء وخضراء ، ولكن ابى ارسال المساعدة العسكرية المرجوة . ويتابع تاريخ آل تسي الجنوبيين روايته فيقول :

« سكان فو - نان مشهود لهم بالحيلة والمكر ، فيستولون عنوة على سكان المدن التي لا تخضع لهم ويتخذون منهم أرقاء ، من مقتنياتهم الوافرة : الذهب والفضة والاقمشة الحريرية ، ويرتدي أولاد الاسر الكريمة الديباج ، كما تلبس

النساء عندهم أقنعة تشقق من الوسط وترخلها على أجسامهن بدون خياطة . أما الفقراء بينهم فيسترون عورتهم ببعض المنسوجات القليلة . ويشغل السكان في فو - نان بصنع الخواتم والأساور الذهبية ، وصنع صحائف الفضة . ويبنون مساكنهم من الخشب . أما ملكهم ، فيسكن منزلاً ذا أدوار متعددة ، ويقومون أسواراً حول منازلهم من دعام الخشب . ولبت على مقربة من البحر نوع من النبات أوراقه من ٨ الى ٩ أقدام ، يضفونها ويبدلون على أشكال متنوعة يغطون بها منازلهم . ويفضل الناس لسكنائهم الأماكن المرتفعة . ويصنعون لهم قوارب من جذوع الشجر يبلغ طول الواحد منها من ٨٠ الى ٩٠ قدماً ، ويوفونها بعرض ٦ - ٧ أقدام ، ويعملون مقدم القارب ومؤخرته على هيئة سمكة ، فإذا ما انتقل الملك ، ركب فيلاً ، وهو مطية يركن إليها النساء أيضاً . ويتلصق الناس بالفرج على مضارعة الديكة والخنازير . وهم لا سجون لديهم . فإذا شجر بينهم اختلاف ، رموا في الماء الغالي خواتم من الذهب أو بيضاً يرغب المتشاجرون على انتشالها . وبدلاً من ذلك ، فهم يحمون سلاسل معدنية حتى تحمر ، على المتشاجرين أن يحملوها في أيديهم مسافة أقدام فتحترق أصابع المذنب ، أما البريء فلا يصاب منها بأذى . أو أنهم يلقيون بهم في الماء فمن كان الحق عليه انحدر الى القعر بينما البريء منهم يطفو على وجه الماء . من فاكهة البلاء عندهم قصب السكر ، والرمان والبرتقال والتمر . أما الطيور والثدييات فهي ذاتها الموجودة في الصين .

وبعد ذلك بقليل ، أي بين ٥٠٢ و ٥٥٦ ، يزودنا تاريخ آل لانغ بمعلومات إضافية جديدة :

لا آبار لهم في الحملات التي يقطنونها . ويشترك عدد من الأسر في التزود بالماء من حوض مشترك . من عاداتهم عبادة القرى الطبيعية والجوية ويضعون لها صوراً من البرونز : فمن كان له منها وجهان صنعت له أربع أيد ، ومن كان له أربعة وجوه ، صنعت له ثمان أيد ، تمسك كل واحدة منها بشيء ما : عصفور هنا ، وولد هناك ، أو حيوان هنالك ، أو القمر والشمس . يركب الملك في تجواله وتنقلاته القيلة وكذلك سراييه ومخيماته ورجال البلاط . فإذا ما جلس الملك جثم على إحدى ركبتيه بينما يرفع الثانية ، وتفرش الأرض امامه بالطنافس والسجاجيد ، توضع عليها آنية الذهب والجمامير . في المآثم والجنائز ، تخلق الذقون ويقص الشعر . والجنائز على أربع طبقات . فالدفن في الماء وذلك بطراخ الجثة في النهر ، والدفن بالحرق تستحيل معه الجثة وماداً ، والموازية في القرى أو في قابر ، والدفن في الهواء الطلق بحيث تأتي الطيور والنسور وتلتاش جثة الميت .

توفي جايافارمان عام ٥١٤ ، بعد أن انعم عليه الامبراطور عام ٥٠٣ بلقب « قائد الجنوب وملك فو - نان » . في عهده دخل راهبان من فو - نان ، الصين ، فاستخدمها الامبراطور لمعرفة اللغة السنسكريتية معرفة جيدة ، لنقل الكتب الهندية المقدسة وترجمتها الى الصينية . وهكذا استمرت العلاقات الثقافية والدينية ناشطة بين الاقطاب الكبرى في آسيا ، وهي الهند والصين والهند الصينية .

وخلفه على العرش ابنه المدعو رودرا فارمان الذي ارسل ، الى الصين ، بين ٥١٧ و ٥٣٩ عدة وفود سياسية ، فكان بذلك آخر ملوك دولة فو - نان التي زالت من الوجود عقب حوادث مبهمة تضرست بها البلاد وأدت ، في اواسط القرن السادس ، الى انشقاقها فانقسامها على نفسها ، تاركة وراءها ذكراً لا يحصى في شبه جزيرة الهند الصينية ، بعد أن قبض لها أن تلعب دوراً بارزاً ، طوال خمسة قرون . وقام في البلاد حكم جديد تولته اسرة ملكية يعرفها الصينيون باسم تشان - لا ، احتلت عاصمة فو - نان عنوة ، واضطر الملك الى الهرب ناهياً بنفسه نحو الجنوب . وأول عاهل من هذه الاسرة الجديدة هو شيتراسينا ، واذ ذلك تألف من فو - نان ومن تشان - لا دولة جديدة ، تولى الامر فيها الملك بها فافارمان الاول ، الذي كان لا يزال يملك ، عام ٥٩٨ عند مطلع امبراطورية الخيم التي بقيت حتى اواخر القرن

الثالث عشر ، اكبر دولة ارتفع لواؤها في الهند الصينية ، اذ ذاك ، والتي خلقت لنا حضارة عريضة ، لا تزال معالمها الماثلة تحدتنا عن العظمة التي نالتها والسيادة التي حققتها .

بقيت دولة لن - بي ، في هذه الحقبة ، تتابع حملاتها العسكرية ضد جي - نان سلالة الشبا . كما ان اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها زرعت الخوف في خليج تونكين ، كما بقيت على عاداتها في ارسال الجزية وبعث الوفود الى بلاد الصين . وقد تم للملك فان - ون ان يفتح قسماً من جي - نان ، لم يلبث ان فقده فان - فو ، عام ٣٥٩ ، الذي يرى البعض انه هو نفسه الملك بهادرا فارمان الاول ، الذي ترك لنا عدداً من الرُقم والكتابات السنسكريتية وغيرها من النقائش التي تساعدها على تكوين فكرة صحيحة ، عما كان عليه الوضع الديني في تلك المملكة ، حيث نرى عبادة سيفا تسيطر على البلاد ، وتهيمن فيها على النفوس . ولاول مرة نشاهد ، على ارض الهند الصينية اللغا الملكية هذه العبادة التي اخذت رمزاً لها قضيب *Phallus* سيفاً ، وهو رمز بقاء الملك واستمراره وفي سبيله شيد الخير والشامز « الجبال الهياكل » مأوى للملك الإله الذي كان يلقب ب : بهادر سفارا . وقد اضطر حفيد الملك فان - فو او ابن حفيده ان يتنازل عن عرش جدوده (القرن الخامس) لحساب ابن اخيه ، وسافر الى الهند لتكتحل عيناه برأى نهر الغانج ، الامر الذي يجعلنا نفترض انه كان هندياً ورعاً وتقياً .

كان الشامز لا يزالون بعد ، على ما عرفوا به من خشونة الطباع وجفوة الاخلاق ، قراصنة قبل كل شيء ، يزعمون الخوف في قلوب جيرانهم من سكان مقاطعة جي - نان ، بعد ان استباحوا شواطئها ، عام ٤٣١ في حملة ضمت اكثر من مائة سفينة من سفنهم . وقد حاولت الصين تأديبهم في حملة اعترضتها عاصفة هوجاء ، فاعادت الكرة عليها ، بعد ذلك بقليل ، اي سنة ٤٤٦ ، ادت الى نهب عاصمة الشامز ، الواقعة في مقاطعة هويه ، وسلت منها اكثر من ١٠٠,٠٠٠ ليرة ذهباً . وبعد ان اعلن خضوعه ، راح ملك الشبا يوالى بعثاته ووفودها الى الصين كما فعل عام ٤٥٦ و ٤٥٨ و ٤٧٢ ، ثم بين عام ٥٠٢ و ٥٢٧ .

وبعد ان توالى على الملك اسرة جديدة ، راح ملوكها يرسلون كمادة اسلافهم بعثاتهم الى الصين . وفي عام ٥٣٠ ، تقلد الملك الجديد الولاية من الصين . الا ان خلفاءه من بعده ، حاولوا الخروج عن طاعة الصين وزحزحة نيرها عن اعناقهم الا ان حظهم العاثر جعلهم يتضرسون بئس اسرة سويه الصينية الجديدة وقوة بطشها ، فاجبرتهم على استئنان التقاليد المرعية ووصل ما انقطع منها . وسرى الشبا ، في عهد دولة تانغ ، يوسعون نطاق مملكتهم ، في الجنوب ويزرعونها بالاديار والوقوفات الدينية .

تشير المعلومات التي يمكن التعويل عليها ان شبه جزيرة الملايو شبه جزيرة الملايو والانسولاند والانسولاند بلغت في هذه الحقبة درجة قصية من الاخذ بأسباب الحضارة الهندية : فالسنسكريتية فيها هي اللغة الرسمية ، والبوذية والهندوكية بلغتا منها اعلى

مبلغ ، في وقت كانت فيه مدينة سكان البلاد الأصليين لم تكن بعد تطورت كثيراً . والملايو مقسمة الى عدة ممالك صغيرة ضالعة بالحضارة الهندية ، على درجات متفاوتة في تطورها . يرتدي الناس فيها ثياباً قطنية وشعورهم مسترسلة ، يتحلون بالحجارة الكريمة ويتزينون بعقود اللآلئ والمجوهرات ، وقد جودوا البناء ، وعرفوا إقامة الحصون والأسوار حول مدائنهم ، وبنوا لها الابواب المتحركة على مصراعين . والى هذا ، هنالك اقوام لا يزالون على محبتهم الاولى يحلون فن العمارة وبناء الاسوار واتخذوا بديلاً عنها صفاً من السياج . والمملك يحى حياة كلها بذخ واسراف يحيط به العديد من البراهمة ، وهو نصف مستلقٍ على سرير مصنوع من جلد الضب ، فاذا ما غادر قصره ، فعلى فيل غليظ الجثة تعلوه خيمة بيضاء اللون يتقدمه ضاربو الطبول وحَمَلَة الاعلام ، يحف به حرسه الذي يسمّر الخوف في القلوب لفظاظته وخشونة طباعه . وكانت جزر سومطرة وجاوا تابعتين ، آنذاك ، لملوك هذه البلاد ، تطالمناف فيها معالم الحضارة الهندية ، جاءت من جنوبي الهند متجهة نحو رأس كومورين . وبما لا شك فيه قط ان هذه البلاد تتبادل التمثيل والبعثات مع الصين ، في القرنين الخامس والسادس غير ان الاشياء الفنية التي امكن العثور عليها وجمعها تم عن تأثير الهند البالغ ، اذ نرى بينها تماثيل لبوذا من طراز مدرسة امارافاتي (جزيرة سومطرة) أو من طراز الغوبتا في جزيره بورنيو ، مؤيدة بذلك المعلومات المستمدة من النقائش الحجرية .

٣ - الامبراطورية الصينية في اعقاب أزمة القرن الثالث

في الوقت الذي كانت فيه الهند تشع بعيداً الى ما وراء حدودها ، كانت جارتها الصين تتربص الدوائر وتعاني الصعاب في الداخل . قام على الحكم ، بعد زوال دولة الهان فيها ، سلالة تسين التي اسسها ساو - ما ، على انقاض الامبراطورية السابقة . الا ان الامبراطورية الجديدة لم تتمكن من السيطرة على الصين برمتها الا لفترة عشرين سنة تقريباً (٢٨٠ - ٣٠٤) اذ اخذت غزوات البرابرة : من تتر وهونز ومغول ، تفرع ابوابها بعنف ، وتعاول بنجاح ، مراراً ، عبور حدودها من الشمال . وقد كان من جراء إقامة هؤلاء الاقوام من قبائل رحل في المقاطعات الشمالية ، ان ادت منذ عام ٣١٦ ، الى انقسام الصين دولاً وبمالك تناحرت فيما بينها ، طيلة قرنين كاملين ، جرت على البلاد الذل والهوان .

انها لحقبة سالكة مظلمة ، هذه الحقبة التي تكالب فيها الغزاة الفاتحون ، بين ٣٠٤ - ٣١٦ على اقتطاع اوصال الصين فذاقت البلاد من بطشهم وهمجيتهم ألواناً من العسف وصنوفاً من الجور والاذى . ففي عام ٣١١ ، استولى الغزاة الطارئون على العاصمة لو - يانغ ، والقوا القبض على الامبراطور ، وذبحوه ، اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ - نغان ، وساموا الامبراطور الاسير الذل والمهانة ، ثم قتلوه شر قتلة ، بعد ان استخدموه ساقياً ، لسيد البلاد الجديد ، الطاغية

العاني : هيونغ - نوليوتان ، الملقب بحق : « أتيل الصين » إمعاناً منهم بإذلاله وتحقيره . وقد تكررت المأساة ذاتها ، بعد لأي قصير من الزمن ، عندما قام الهيونغ - نوبغزوة جديدة أوصلتهم الى تشانغ - نغان واقاموا فيها . وكان مصير آخر ملوك تسن ، في الشمال ، وهو الامبراطور منتي (٣١٢ - ٣١٦) الذي وقع في قبضة ملك الهونز ، ان امسى غاسلاً للصحن والطناجر ، ثم أعديم .

فأمام هذه الاهوال التي انزلها الغزاة بالصينيين ، وما الحقوا بهم من مهانة ومذلة ، بعد ان استباحوا باحتهم وزرعوا البلاد خراباً ودماراً ، راح السكان ينزحون عن املاكهم ويفترون بانفسهم ، نحو الجنوب . وفي عام ٣١٨ ، 'تودي في نانكين بامبراطور جديد من اسرة تسن ، فكان ذلك إيذاناً بان هذه الدولة لن يكتب لها استرجاع الشمال . وكان من جراء هذه الهزات المنيعة ان زادت من الفوضى في البلاد ، وافقدتها بالتالي لذة العيش الرضي وجعلت أمن البلاد الداخلي ريشة في مهب الريح ، وزادت من شقاء الشعب المسكين وبؤسه . وعزا الابداء ورجال الفكر سقوط دولة الهان وزوالها من الوجود ، الى فساد سوء الاخلاق في المجتمع الصيني ، اذ ذلك ، بعد ان دب الفساد في كل مكان ، فأرهن الطبقات الاجتماعية وخلخلها ، فتفشت وانساحت وذهب ريحها في الارض ، وليس من يرعوي او يبالي بين الاشراف والنبلاء والطبقة البورجوازية . كل شيء كان يتوقف على اخلاق الامبراطور الذي يهديه بأتم الناس وعلى منواله يلسجون وعلى خطته ينهجون : أفكتم يكن الامبراطور التقويم المتبع وقسطاس العدل المروم ؟ فسوء سيرة الامبراطور وفساد سريره ذهب بالتوازن الذي كان يمثل وشجع الآخرين على احتذاء حذوه ، وعلى التحلل من الاخلاق الفاضلة ، والتنكر لمكارم الاخلاق والعيب بالفضائل البشرية . فلكني يعود النظام العام ويعود الناس الى الاعتصام بمكارم الاخلاق ، كان لا بد من ذهاب الدولة وزوالها . فالأزمة التي نزلت بالبلاد وكادت توردها الهلكة - كما مر معنا في المجلد السابق من هذا التاريخ ، احدثت البلبلة والفوضى في نظام البلاد الاجتماعي والاقتصادي ، واقلقت الخواطر والضائير ، واثارت الشكوك في قلوب الحكماء ودفعت المفكرين الى اليأس والقنوط ، مما حمل الحكيم الصيني تشونغ - تشانغ - تونغ (حوالي سنة ٢١٠ تقريباً) على القول : الى أين المصير يا ترى ؟

لسلالة تسن الملكية التي استرسلت في البذخ وانصرف ملوكها لأطاييب الحياة ولذائدها ، أغفلت كل مما شأنه ان يعيد النظام الى نصابه ويضبط سير المؤسسات العامة وحسن عملها . صحيح انها حاولت ، في اول عهدها ، الاهتمام بمرافق الزراعة ، محور الاقتصاد الصيني وركنه الركين ، وذلك عن طريق انشاء المزارع وتعمير الارض ، واقامة السدود للري ، وتوزيع الاراضي على الأسر الصيلية بنسبة معينة . كذلك حاولت الحد من اطماع كبار الملاكين وصدم عن توسيع املاكهم عنوة واغتصاباً ، والحوول دون منمهم افراد الشعب من الانتفاع بالاحراج ، وبحاري الانهر ، والمرافعات الجبلية . وفي هذا السبيل عينوا جيشاً من الموظفين للاشراف على حسن

تطبيق هذا الاصلاح الزراعي الذي اخذت الدولة بأسبابه . الا ان كل هذه المحاولات ذهبت سدى وصارت الى الفشل . فالملكية الكبيرة بقيت الاساس الذي قام عليه المجتمع الصيني . ولم يطمع هذا الشعب الضعيف ، المبيض الجناح ، البائس اليائس ، الذي يتأكله الاسمى والاسف ، الا ان يلود بهذه المثالية الدينية ، قائماً من امره ودينه ، بالكفاف بامور الشروق ، والقناعة بأي قسمة ضئلى ، بعد ان وقعت البلاد فريسة المحسوبة والاتجار بالنفوذ .

الصين الجنوبية
عندما رأت السلطة الامبراطورية نفسها مرغمة للتخلي عن القسم الشمالي من البلاد للفرازة من البرابرة ، اخذ الشعب ينزح زرافات ووحيدانياً ، كما اخذت أسر تجلو بقضها وقضيضها عن الاوطان متخيلة عن ارزاقها ومقننياتها ، بعد ان سدت في وجهها ابواب الرزق وانقطعت امامها سبل العيش . والطبقة الارستوقراطية التي استقر معظمها في نانكين ، اخذت تطالب ، كحق من حقوقها المكتسبة الاستئثار بالوظائف ومرافق البلاد الكبرى .

وهذا القسم من البلاد الذي تساقط عليه جيش لجب من النازحين الذين نجوا بانفسهم من الشمال ، لم يكن الصينيون استكملوا ، بعد ، تعميره وحيائه . صحيح ان إقامة العائلة المالكة في هذا الشطر من البلاد ، ساعد كثيراً عملية التصيين وحمل الاهلين على الاخذ باسباب المدنية الصينية وتقبل حضارتها ، كما ازدادت الحركة نشاطاً ، باقامة الموظفين ، واصحاب الرقب المالية في البلاط ، والادباء والمفكرين ، واصحاب المهن والحرف ، بين ظهراني الشعب ، والخلود الى الدعة والاستقرار ، بين افراده . وعلمية التطبع والتخلق بالاخلاق الصينية هذه ، لم تتم بالسهولة المرجوة . فاللايين من اللاجئين الذين اقتلعتهم العاصفة وطوحت بهم نحو الجنوب ، اقاموا فيه تراودهم الفكرة بالرجوع يوماً من حيث أتوا ، ويعاودهم الحنين الى الفردوس المفقود ، ولن يعتم ان يعود اليهم استقرارهم المنشود . ولهذا رفضوا ان يدفعوا ما يترتب عليهم من رسوم ، وأبوا ان يقوموا بالتزاماتهم الوطنية . وعشياً حاولت الحكومة اعادتهم الى الصواب وقد كيرهم بوجوب اعتماد جادة الاعتدال والرشد . وعندما ادركوا ان الوضع قد يطول أمده ، وربما امتدت سحابته اكثر من الوقت المتوقع ، قبلوا باقطاعهم بعض الأرضين في جو تلعب فيه المصالح الشخصية وتنضارب المنازع الفردية . ولم تكن سنة ٣٦٤ حق استطاعت الدولة ان تفرض عليهم ضريبة الاملاك واستيفائها . ففي الحين الذي راح فيه اللاجئون يتجاذبون المنافع ويحربون المغامم اخذت سفينة الدولة تفوص في بحر من الفوضى المخزية فتزول من الوجود مفسحة المجال لغيرها .

كان لا بد من الانتظار الى عام ٤١٠ ، حتى نرى رسيس الحياة يدب من جديد في جسم هذه الامة ، بعد ان تمكن ، اسكافي قديم فيما بعد قائداً باسم ليو - يو ، ان يسترجع ، باسم سلالة تسن ، مقاطعة نان - ين من أيدي المغول مو - جونج ، كما تمكن من استرجاع مملكة هيو - تسن في تشن - سي ويستولي على مدينتي تشانغ - نغان ولو - يانغ . لم تكن هذه النجاحات .

سوى برقي خلّيب ، اذا استطاعت قبائل هيونغ - لو من اسراد تشانغ - نغان ، كما ان ليو - يو توصل ، بعد ذلك بسنتين ، الى خلع آخر امبراطور من اسرة تسن ، وتأسيس السلالة الملكية الاولى من اسرة سونغ . واستطاعت هذه السلالة ان تجر أذيالها متمثلة حتى سنة ١٢٧٩ ، دون ان تتمكن من القضاء على اسباب الفوضى واستئصال شأفة فساد الاخلاق في البلاط وحاشيته ، ولا ان تكون أهلاً لأن تحكم بلاداً تجتاز مرحلة من الازمات الحادة . وخلافاً لما كان منتظراً ، فقد تماقبت على الحكم سلسلة من الملوك الفاسدين المفسدين ، او من الشباب الغر الذين تنقصهم الخبرة انمازت حياتهم بالاجرام السياسي او قتل امراء الاسرة المالكة ، او الاوصياء على العرش وعشيقات الامبراطور . وهو عهد ملطخ بالدماء المطلولة ، في حمرة من البدخ وفساد الاخلاق ، وقد فشا السكر والتهتك حتى بين اصحاب التيجان .

وقد خلف اسرة سونغ على الحكم ، سلالة تشي (١٢٧٩ - ١٣٠٢) فسارت على غرار سابقتها ، فكأنها من معدن واحد وطينة واحدة ، ففي جو من القتل السياسي والاجرام ، صار الامر في الدولة الى المقيمين واصحاب الخطوة من الخاصة . وقد كان عهد الامبراطور لينغ - فو - تشي (١٢٧٩ - ١٣٠٢) مرحلة قصيرة من التمهّل في اتيان الموبقات والمنكرات الشائنة . فقد كانت حياته من بساطة العيش ما قارب الزهد ، ومع ذلك فقد عرف هذا الامبراطور ان يوفق بين شجاعة الجندي الباسل والاديب الذواق . واعتنق ، عام ١٢٧٩ ، البوذية واتقطع بكليته لواجباته الدينية ، حتى انه دخل بعد ذلك بعشر سنوات طغمة الكهان ، بحيث أهمل واجباته ومسؤولياته في الحكم فانهاكت على الامبراطورية الازمات واضطرب حبل الامن فيها بعد ان اشتد ساعد الجند المرتزقة ، وراح احدهم يفتصب عام ١٢٨٩/٢٩ ، الملك ويستأثر به لمدة ثلاث سنوات ، ويحتمل من نانكين عاصمة ملكه . وفي سنة ١٣٠٦ ، صار العرش الامبراطوري في الجنوب الى سلالة جديدة تول الامر فيها اسرة تشن التي عجزت هي الاخرى ، عن ادخال أي اصلاح في الدولة ، فلم تهلها اسرة سواي فاحتلت نانكين مهددة بذلك السبيل لتوحيد الصين من جديد .

وكانت قبائل البرابرة ، في هذه الحقبة ، قد انقضت على الصين الشمالية

والصين الشمالية واقامت فيها دولاً وبمالك ناصبت بعضها العداء واخذت تلتاحر فيها بينها . من هذه الدويلات : هيونغ - لو في شانسي ، وتيفالشي في منطقة تا - لونج ، ومو - جونج في منشوريا الجنوبية . صحيح ان اسرة هيونغ - لو استطاعت ان تؤولف ، في الشمال ، مملكة قوية عاصمتها تشانغ - نغان لم تقل مساحتها عن مساحة الدولة التي نشأت في الصين الجنوبية . غير ان ما تعرضت له من المنازعات العنيفة الدامية ، في الداخل ، بين الفزاة ، جعل من المتعذر جداً قيام سيادة مركزية ، فلم تكن لتري الا مذابح لاسد لها ، وفساداً في الاخلاق وغير ذلك من الموبقات التي يندى لها الجبين خجلاً . وكان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الرابع ، اذ نهض ضابط من اصل مغولي ، كما هو الراجح ، يستقل بالامر في مدينة تشانغ - نغان ،

ويؤسس فيها دولة . وقد تمكن ابنه فو - كيان (٣٥٧ - ٣٨٥) من تدويخ مملكة مو - جونج وضماها الى املاكه وأصبح بذلك سيد الصين الشمالية ، بالرغم من تصدّي امبراطورية الصين في الجنوب له ، وقيامها لأول مرة ، بهجوم معاكس . وكذلك يشدد في هذه الحقبة ساعد اماراة تيفاتش ، التركية الاصل ، اذ استطاع زعماء اسرة توبا ان يؤسسوا لهم مملكة ويحكموها من ٣٩٦ - ٣٩٨ باسم ملوك واي *Wei* ، ثم الى سنة ٥٣٤ ، بعد ان دخل القسم الاكبر من الصين الشمالية تحت امرتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من غزوات البدو الرحل في الفيافي المجاورة لهم ، فأنشأوا بذلك وحدة عاشت مائة وخمس سنين . ويقصر القلم عن وصف العظمة التي بلغت اسرة واي في الحكم ، اذ بفضلها رسخ امر البوذية في الصين ، وتلبست باخلاق الصينيين وطبايعهم . فكانت ادارتهم من اكبر العوامل في نشر أسباب الحضارة في البلاد . فالتقوى التي عُرف بها ملوك هذه الدولة ، تركت اثرها عميقاً في النقش وفن الحفر ، اذ بلغ الفن الديني ، في هذه الحقبة الذروة من الاتقان ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه ، بحيث يمكن مقارنتها بهذه الروح التقوية التي ميزت معاصريهم من ملوك الدولة الميروفنجية ، فكان ذلك خير اداة لتأمين وحدة البلاد وصهرها في بوتقة واحدة . وهنا أيضاً نرى الديانة تتلبس عادات واعرافاً تتنوّى بالهمجية وان بقيت بعيدة ، مع ذلك ، عن المنكرات والفظائع التي اتاها التتري الملقب باللعبة الزرقاء : شا - هو (٣٣٤ - ٣٤٩) الذي لم تمنعه غيرته على البوذية ورعايته لها ، من ان يتلظ ، وهو الى مائدة الطعام ، بشواء لحم بعض محظياته الجميلات .

وتبقى ، مع ذلك ، قصة الامبراطورة هو (٥١٥ - ٥٢٨) خير مثال يُضرب على وحشية القوم ومحببتهم بالرغم من اعتناقهم البوذية والعمل بفرائضها . فقد قُيِّض لها ان تدخل حرم الامبراطور ، محظية من محظياته المحببات ، سعيّاً من احدي عماتها وهي راهبة بوذية عُرفت بالبلاغة والفصاحة وذراية اللسان وخرّجتها في تعاليم البوذية . فقد كانت الوحيدة من بين هؤلاء السرايري التي رغبت بالمحباب صبي ، وهي رغبة فجر الوبال على صاحبها لو تحققت ، اذ ان العرف المتبع عند ملوك دولة واي كان يحتم قتل ام ولية العهد ، تفادياً لقيام الامبراطورة الضرة بمحاولة اغتصاب العرش ، ومع ذلك ، ابت ان يمحروا لها اية عملية اجهاض ، ووضعت ابناً دون ان يأمرؤا بقتلها ، ولم تتم ان اصبحت بعد موت الامبراطور تشي - سونغ ، وصية على العرش ، تحكم باسم ابنها الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات . وتميز حكمها بالحزم والشدة والعزم بعد ان تسلمت زمام امور الدولة ، واشرفت على سير الادارة الحكومية ، الى ان توفي ابنها فجأة وله من العمر ١٨ سنة . وقد حامت حولها الشبهات فراخاوا يتهمونها بانها دبرت قتله بدس السم له . ولكي تخفف من غضب الشعب راحت تدعي ان ابنها ترك وريثاً للعرش اتضح فيما بعد انها ابنة . واذا زينت لها النفس الامارة بالسوء ان الامور استقرت وان ثورة الشعب هدأت ، راحت تزعم ان القضية مجرد سهو بعد ان التبس الامر على القابلة ، واقترحت ان ترفع على العرش ابن عم ابنها ، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة بعد ، تكون وصايتها عليه امتداداً

لإدارتها وحكمها . ونشبت على الاثر ثورة حمراء قام بها الشاكون المتذمرون ، يزعهم احد قواد الجيش الذي امر بمحاصرة القصر الامبراطورية ولكي تتفادى غضبة الثائرين وانتقامهم ، التجأت الى احد اديار البوذيين وقصت شعرها ، وادعت عبثاً انها سلكت الحياة الرهبانية . فبعد ان قبض عليها حكموا عليها بالموت غرقاً ، فطرحوها في نهر هوانغ - هو . كل هذا ، وقد برهنت الامبراطورة هو عن غير شديدة على البوذية والمحافظة على طقوس العبادة . فبإيماء منها سافر سونغ - يان وصاحبه هواي - شانغ قاصدين الهند ، وحلا معها ، لدى عودتها ، ١٧٠ كتاباً من كتب البوذية على مذهب الوسيلة الكبرى .

وفي سنة ٥٣٤ أنشقت مملكة واي على نفسها الى شطرين ، شطر هو - نان الذي عاش ١٦ سنة ، وشر شانشي الذي استمر سبع سنوات بعد زوال الاول . ولاسرة سواي يمود الفضل الاكبر في ضم الصين الشمالية التي رسفت طويلاً تحت حكم الغزاة الدغلاء ، الى امبراطورية الصين ، في الجنوب التي عانت ، الى عهدهم ، ما عانت من سوء الحكم وفساد الادارة .

بقيت الحضارة في الصين آخذة بأسباب التطور ، بالرغم استمرار العمل الحضاري في الصين مما رنها من شوائب وعورات في الظاهر ، وبالرغم مما تساقط عليها من ضربات وزل بها من كوارث قاصمة . فقد كان لها من الحيوية والقوة والنشاط ما صانها من الانسياع ، وأمن لها الاستمرار ، بالرغم مما تحالف عليها من ويلات . فهؤلاء الملوك البرابرة أنفسهم أدركوا جيداً ضرورة المحافظة على هذه الحضارة وصيانتها من كل ما من شأنه ان يلحق بها الاذى او ينتقص من قيمتها . فامتد سيطرها ولم ينقطع بالرغم مما دق واسترق وأمكن تقيته بفضل ما أدخل على البلاد من اصلاحات جديدة منها تبني الخط الصيني ، وانشاء نظام عقاري جديد ، واقتباس البوذية .

فالخط الصيني تمتع باستقلاله بمزول عن اللغة ، اذ هو تصور رمزي للأفكار ، لا يباي كثير ولا يهتم لما يطرأ على الالفاظ من تغيير يتعلق بالنطق . ولهذا كان الخط في الصين ، كما يقول فيه ولهم ، أشبه ما يكون بحريدة حية ناطقة للأطوار المختلفة التي مرت بها المدينة الصينية تشهد على ديمومة الأفكار واستمرارها بالرغم من طرود الغزاة للبلاد واقتطاعهم لبعض اجزائها . واذا كان على اسياد البلاد الجدد ان يستعملوا اللغة الدارجة فيها ، كان لا بد لهم من ان يتعلموها ويستعملوها فيسهل عليهم الاخذ بأسباب الحضارة الصينية .

ولم يقل نظام الاراضي المعمول به في البلاد ، فعلاً او اسماً ، أهمية في تأمين استمرار الحضارة الصينية وديمومتها . فالمشكلة كانت لعمري تختلف في شمالي الصين والسلالات الملكية التي قامت فيها ، عنها في الجنوب . فقد انصرف جل هم الحكام ، في الشمال ، الى تشغيل اكبر عدد ممكن من اليد العاملة في الارض اكثر منه الى تأمين استغلال الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ولذا راح ملوك اسرة واي يحاولون توزيع الاراضي بالسوية ، اذ ان الاملاك الصغيرة المتروكة استثمارها

للفلاحين ، تتطلب ، اذا ما تساوت مساحات ، قدرأ من اليد العاملة اكبر بما تتطلبه الاملاك الكبيرة . الا انها لم تستطع ، لوحدها اجراء اي تخفيض في مساحة الاراضي غير المزروعة ، ولا ان تؤمن المدخول العالي الذي كان من المتوقع ان يؤمنه نظام السقاية ونظام التصريف الذي عملت به الحكومة في الاملاك الزراعية الواسعة . ولذا عمل بالنظامين معاً في وقت واحد .

فغزوات البرابرة وسيطرتهم على شمالي الصين هدد البوذية بكارثة ماحقة ، اذراح الغزاة يضيقون عليها الخناق ويضطهدونها لدرجة انهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع . وعندما استفعل شان هذه الغزوات ، اخذ الرهبان البوذيون ينزحون عن لو - يانغ ، ملتجئين بالبلاط الامبراطوري الذي إنتقل الى فانكيين ، مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد والاديار بعد ان عاث فيها الغزاة واستباحوا باحتها ، وسلبوا ما فيها من كنوز ونحف فنية ، بحيث لم يبق منها سوى ٤٢١ معبدأ من اصل ١٣٧٥ . وغير اباطرة اسرة واي ، فيما بعد ، موقفهم العدائي من البوذية ، وعاملوا اتباعها ومريديها بالحسن ، فاعتنق بعضهم مقالاتها وقالوا بتعاليمها ، حتى ان احدهم وهو الامبراطور هونغ ، تنازل عن العرش ، عام ٤٧١ ليدخل احد الاديرة ويقضي ما تبقى من حياته راهباً . ان تصرفاً من هذا النوع كان يلعب ، ولا شك ، من تقوى هؤلاء المرتدين الحديثي العهد ، كما كان يرمي ، من جهة اخرى ، الى اهداف ديبلوماسية . فالبوذية ، هذه الديانة التي دخلت البلاد من الخارج ، والتي كانت تزرع في روع أتباعها الايمان بقدرتها على خلاص نفوسهم ، كانت تتسع لاقامة علاقات مع البلدان التي كانت ، بالقوة ان لم نقل بالفعل ، منطقة لانتشار الحضارة الصينية فيها . ومها يكن ، فقد بلغت البوذية في الصين ، في القرن السادس ، ما بلغت المسيحية في جبرمانيا ، خلال الحقبة ذاتها .

ومن الصين الشمالية انطلقت اولى بعثات المرسلين البوذيين الذين لم يكونوا ليقنعوا بما لديهم من الكتب البوذية ، بينما كان الرهبان البوذيون في الهند ، يحاطرون بانفسهم ويتعشمون المخاطر والمشقات ، في اتجاه الصين ، يدعون للبوذية فيها ويمعلون على انتشارها في ارجائها . وقد تكونت من هذه الرحلات ، مكتبات كاملة ومجموعات كبيرة من كتب البوذيين الدينية . فقد قام في اواخر القرن السادس ، برعاية الامبراطور فو - نيان ، دائرة للترجمة والنقل كانت تعمل بنشاط في مدينة تشانغ - نغان . وشيخ من يمثل هذه الحرية الثقافية هو الراهب البوذي كومارا جيفا ، الذي اشرف على هذا العمل فلا بأس اذا ، من الوقوف قليلا عنده ، نستجلي شخصيته البارزة ، فقد رأى النور في اسرة هندية من مقاطعة كوكا ، واخذته امه ، التي كانت ابنة ملك هذه المقاطعة بالذات ، وهو بعد في ميعان الصبا ، الى مقاطعة كشمير ليتخرج في الآداب الهندية والبوذية على علمائها ورهبانها . وقد كان ابوه بوذاً ورعاً ، راودته الرغبة من قبل ، في ان يسلك الحياة الرهبانية . وقد غادر الفتى كشمير بعد ان أتم تحصيله وتوقف في طريق عودته الى كوكا ، في مقاطعة كشمجار ، سنة واحدة ، يلزم علماء مدرستين من مدارسها كانتا قبله انظار طلاب العلم ورواد المعرفة ، كما كانت معاهدها موئل الثقافة وبهجة الرحالة الصينيين في ذلك العهد .

وفي تلك الاثناء ، هاجم نائب ملك فو - كيان مدينة كوكا . عام ٣٨٢/٣٨٣ ، واخذ اسيراً معه الراهب كومارا جيفا الذي كان لمع اسمه واشتهر امره بين علماء زمانه . وهكذا كُتِبَ لهذا الراهب الذي يحبري في عروقه الدم الهندي والكويتشي ، والذي إستبحر بعلوم البوذيين ، على يد علماء كشمير ، ان يُقدم الى الصين حيث اخذ بترجمة اهم كتب البوذية الهندية وتعاليمها ، ولا سيما الكتاب المسمى : « لوتوس الايمان القويم أو *Lotus de la bonne foi* » ، وكتاب *Sutralamkara* الذي وضعه الشاعر الهندي الاشهر اسفاغوزا بعنوان : « دليل الارض الطاهرة » وكتاب فينايا لأصحابه *Survastivadin* ، وكتاب المدرسة الناقدة أو *Mudhyamika* .

ففي الوقت الذي كان فيه الراهب فا - بيان وصحبه يفادرون الصين في اتجاه آسيا الوسطى والهند ، كان عدد كبير من الرهبان الهنود ، يصلون باستمرار الى تشانغ - نغان او الى نانكين . فبعد قدوم فا - بيان بقليل ، أي حوالي عام ٧٢٠ ، قام بوذا بهادرا بترجم الى الصينية : « اضفورة الزهر » ، وهي رسالة رمزية في وحدانية الكون ، هي بمثابة التوراة لدى القائلين بالباطلية في مقاطعة هوا - ين . ففي مطلع القرن السادس ، أقام راهب هندي آخر ، اسمه بوذيادراما من نانكين عند ملوك وايي في سونغ - تشان . وتولى رئاسة فرقة ديلية ينقطع أصحابها للتفكير والتجريد الديني والفلسفي ، هي ديانا عُرفت ، في الصين ، باسم تشان . وفي سنة ٥٤٨ ، قدم نانكين راهب هندي آخر يدعى بارامارثا وترجم فيها المجموعة الفلسفية الدينية المسماة : « الواسطة الصفرى » التي ألفها غازوباندو ، قبل ان يعتنق مقالة « الواسطة الكبرى » .

وبعد ان تم للفكر الفلسفي الصيني مثل هذه الكتب المهمة ، من قديمة وحديثة عرف الفكر الفلسفي الديني في الصين عهداً من الازدهار والتألق ، اتجه في كثير من مناحيه ليس شطر البوذية فحسب ، بل ايضاً نحو الكونفوشية والطاوية . وهكذا هيمن الفكر الهندي ، مسح ان الفلسفة الصينية ، انتهت في أواخر القرن السابع ، بعد ان رفعت من سمو هذه التعاليم ، الى تكوين فلسفة طاوية لا تقل سمواً ومثالية عن الفلسفة البوذية .

وهذه الحركة الفلسفية الجديدة التي برزت في الصين ، اذ ذاك ، وأدت الى ازدهار البوذية بحيث جعلت منها بحث ، منافساً للطاوية يحسب لها ألف حساب ، لم تلحق ، مع ذلك ، أي تغيير يذكر في صميم البوذية . فقد بقيت ديانة شعبية ، عمالية . فالى جانب العمل العظيم الذي حققه القائلون على حركة الترجمة ، اخذت اولى المعابد المنحوتة في الصخر تظهر للوجود ، عام ٤١٤/٤١٥ ، ولا سيما في مقاطعة يون - كانغ على شاكلية المعابد البوذية المنحوتة في قلب الصخور العالية في تيان - هوانغ ، احدى مقاطعات أفغانستان (ياميان وككرالك) ، الى ما وراء هذه البلاد في الهند ، حيث يكثر عددها . وكان إعداد هذه الهياكل وتوضيها ينشط او يجمد وفقاً لصروف الدهر في عهد دولة وايي ، واستمر الاهتمام بها حتى طلوع دولة تانغ ، بينما انصرفت العناية ، في الوقت ذاته ، الى حفر معابد صخرية اخرى في لونغ - من ، الواقعة الى الجنوب من

لو - يانغ ، كما كان انشيء ، عام ٥٢٣ معبد سونغ - يو - سو ، في مقاطعة هونان .
ففي الحين الذي انقطع فيه بعض الرهبان الصينيين للتأمل والتجرد واوغلوا بعيداً في حركة التجريد الفلسفي البوذي الى ان بلغوا فيها الأوج ، وقف السواد الاكبر من الشعب عند بعض الطقوس العملية البسيطة ، الكفيلة بان تفضي بصاحبها الى الولادة من الجديد ، في النماء ، مع الآلهة ، أو اقله ، الى تأمين حياة بشرية تتوفر فيها اسباب الغبطة والسعادة . فالحياة النسكية في الاديان العادية مقصورة اساساً ، على الاخذ ببعض القواعد المهمة ، كمزوف الراهب عن الزواج ، وعن اقتنائاته خيرات هذا العالم لنفسه ، وان يعيش من الصدقات التي تقدم له ، وان لا يأكل الا مرة واحدة في النهار ، قبل الظهر بقليل ، وان يقوم بفروض التأمل . وعلى مثال الطاوية انشأت البوذية في الصين ، مراسم وطقوساً غاية في الروحانيات ، مع ما فيها من تعقيد ، مخصصة لتكريم الموتى . اما العبادة نفسها ، فقد بقيت على بساطتها ، اذ كانت تقوم على فعل العبادة ، وعلى تقديم النذور والتقدم ، من زهور وبخور .

وكان تأثير البوذية ظاهراً جداً على الطاوية ، في هذه الحقبة : فالعزوبية امر مفروض على التلاميذ أو الرهبان الذين يعيشون عيشاً مشتركاً ، وانتشر القول بتقيص الارواح وتناسخها بين الناس ، وقد أصبحت الآلهة كائنات سماوية ، حرية بكل احترام ، مهمتها الاولى إرشاد الناس وتأمين خلاصهم الابدي . والى جانب الديانة الشعبية يطلع من صميم الطاوية مفكرون وفلاسفة عرفوا باستقلالهم الفكري ، أشبعوا بتعاليم المدرسة الكونفوشية ، وان كانوا خرجوا عليها لما آلت اليه من تحجر في مبادئها واطرافها العامة . من هؤلاء المفكرين ، مثلاً تانغ - يوان - منغ (٣٧٢/٣٦٣ - ٤٢٧) اكبر شاعر عرفه الشعر الغنائي ، قبل تانغ . والشيء المميز لدى هؤلاء المفكرين ، هذه الحرية الفكرية التي كثيراً ما أفضت بهم الى مواقف مستقلة ، غيرت اساساً من مجرى حياتهم الوظيفية أو المسلكية . وفي عهدهم اخذت تظهر بوادر هذا الشعر الوجداني الذي بلغ الاوج في عهد اسرة تانغ ، هذا الشعر الذي غنى جمال الطبيعة ، وبرزت فيه رهافة الحس الصيني على أتمها .

الحياة الاجتماعية
الحق دخول البرابرة الى الصين الشمالية الفوضى فيها والقلق بين الشعب . فبعد ان نزلت طبقة النبلاء باجمعها ونجت بنفسها نحو الامبراطورية الصينية في الجنوب ، راحت تعيد تنظيمها وتستولي على املاك شاسعة ، وتحيي الامتيازات التي كانت تتمتع بها ، ويختصر القول ، العمل على تنظيم الامبراطورية . اما في الشمال ، فقد وجد اسياة البلاد الجدد أنفسهم ، في بلد يحول فقره بالموارد البشرية ، دون تنظيمه على الوجه الذي يرغبون . ولذا راحوا يستعينون على نطاق واسع ، بهذا الفريق من الادباء المفكرين الذي بقي قائماً في المقاطعات الشمالية في الريف ، واتخذوا من بينهم ، الموظفين الذين يقتضي حسن سير الادارة وجودهم ، وقسموهم الى تسع طبقات ، على نسق مسلسل في علاقاتها ، تتألف منها الطبقة الارستقراطية في البلاد ، تتميز فيما بينها بالغاب خاصة كالباب القديم - الباب الجديد - والباب

الشريف ، وغير ذلك من الكنى. والالغاب . وهذه الارستقراطية الجديدة لم تكن لترضي قط بالزواج بغير الفريق الآخر او بمصاهرة من هو ادنى نسباً، ولا سيما مع الغزاة الدخلاء بعد استفحال الشعور بكره الاجنبي وكل ما هو اجنبي ، واحتدام الروح العرقية في هذه الديانات الواقعة تحت حكم وسيطرة سلطان دخيل . ومثل هذا الوضع لم يحل قط دون بعض التدابير والاجراءات المالية كما أدى بالتالي ، الى امتصاص المجتمع الصيني لهذه العناصر الدخيلة على البلاد . وهكذا تكونت في البلاد أسر وعائلات كبيرة ، ذات املاك وعقارات واسعة ، يعيش رؤساؤها في المدينة ، ويتدخلون بحسب الوظائف التي يقومون بها ، في امور الحكومة وشؤون الدولة ، وهكذا انتقلت السلطة شيئاً فشيئاً من الحكومة المركزية ، الى الارستقراطية صاحبة الاراضي الواسعة . وهذه الطبقات الاجتماعية متميزة ، تكاد تكون مغفلة على نفسها ، وتقسم الى النبلاء والبورجوازية والشعب . فالوظائف والمراكز الكبرى هي وقف على النبلاء ، اما ابن الشعب الذي يستحيل عليه ، الوصول الى اي منها ، فيترتب عليه ان يقنع بالدون منها . فالقوارق الطبقية عظيمة جداً بين دولة واي ، حيث الترابط المسلسل يتعجر ويقسو ، وبين المجتمع الصيني في عهد دولة تسن والهان ، حيث كان في مقدور شذاذ الآفاق ان يثروا ويرتفعوا اجتماعياً ، حتى يبلغوا العرش . وهذا التراكب الطبقي الاجتماعي تضاعف بشيء من الوحدة السياسية ، ازلت معها هذه الامارات والدويلات الصغيرة ، الواحدة تلو الاخرى . وكانت الامبراطورية الصينية في الجنوب لا تزال تعاني اعراض التفسخ الخلقي . وكان لا بد من انتظار مجيء دولة سوي للقضاء على هذا التفسخ الاخلاقي ، ولاعادة الوحدة الى الصين برمتها .

ولعل امر اثر تركه لنا المجتمع الصيني في هذه الحقبة ، هي هذه التماثيل او الدمي الجنائزية التي عثر عليها دون ان تمكنا الحفريات الاركيولوجية التي اجريت في هذا المجال ، من نسبة بعض منها الى الجنوب ، او ان نردها كلها الى الشمال . ومهما يكن من أثرها ، فهي تتيح لنا ان نتبين السمات التي طبعت بعض الشخصيات التاريخية في هذا العهد ، معظمهم من النبلاء كما يرجحون ، من فرسان بين نساء ورجال ، ولا عجب ، اذ ان اسلاف البلاد الجدد هم اصلاً من هؤلاء الفوارس البدو الرحل ، الطاعنين في الفيا في الرملية . ويستدل من هذه الدمي ما كانت عليه هامة الحصان من صغر وانحناء في العنق ، وارتفاع في المؤخرة ، بينما يرتدي الفارس منهم رداء فضفاضاً له قبة ، وحياناً قبة من اللباد ، بينما نرى منهم من يلبس رداء صيلياً ، ومشداً عند خصره . اما الفرسان النساء فيرتدين فساتين طويلة ضيقة تصل اردان اكمامها المتدلية ، الى الارض ، بينما نرى بعض النساء يلبسن فساتين فصلت على قدودهن ، لها ذنوب طويل جداً ، بحيث تضطر الواحدة للام اطرافه وحملها على ساعدها ، اما شعرها فمرفوع ، تغطيه قهضة مفلطحة تنزل الى الاذنين ، لها طرطور ، ينتهي طرفه بعقفة ، وهو زي يشبه الزي الذي عرفت به المرأة المغولية .

واذا صح تاريخ نسخة الرق المنسوب الى كو - كاي - تشي (٣٤٤ - ٤٠٦) صح لنا ان

نستنتج بان ما درجت النساء على لبسه في الجنوب ، كان اخف وانعم ومجمل سحائب حمائية . فامام تصلب ملوك واي في الشمال ، تطالعنا في بلاط اسرة تسن رهاقة. النوق والظرف . فالرسوم الجدارية القائمة في مغارة بن - يانغ ، في مقاطعة لينغ - من (حوالي عام ٥٣٥) حيث نرى صنفوا من ملوك دولة واي ، تبرز لنا ما هم عليه من لبس وثير وظرف كئيس صيني الطابع ، له اردية طويلة الارداق ، متدلية الاكمام ، وعمة مختلفة الاشكال والاذواق . وفي الطرف الاقصى من الصين ، نرى في كوريا مقدمات النذور ، نساء تنانيرهن مطمجة ، مكسرة ، وفساطين مزينة بالفرو . والفرسان يمتطون صهوة جياد غنية السروج ، ويلبسون قبة محلاة بالريش ، سلاحهم القوس والشاب وكنانة من الزي المغولي .

٤ - آسيا العليا وانتشار الهونز

'يفهّم من المصطلح الجغرافي : آسيا العليا ، هذه المناطق الشاسعة التي تشمل منغوليا والتركستان الصيني والتبت وتفرعاتها السياسية والعرقية واللغوية ، مما يلامس الهند او يشارف ايران : بمقاطعات كابينسا وغندهارا ، وبكتريا ، وأركوسيا ، وبلاد الصغد حتى مشارف نهر الأوكسوس ، اذا ما اقتصرنا على الأسماء القديمة . ففي هذه الغيا في الشاسعة رأينا ، منذ القرن الرابع ، بين الشعوب والقبائل والاقوام التي تقوم فيها ، حركة عارمة لشعوب تروح وتقعدو ، وقبائل تتحرك ، وأقوام تغلي بالنشاط المحموم ، وقوافل تروح وتجيء في هذه المسالك التي كان يسير عليها تجار الحرير والسلع الشرقية ، وسرايا الرهبان وكهنة البوذيين ، يقطعون هذه الصحارى ناشرين البوذية داعين الناس لاعتناقها ، وجيوشاً جراحة تسير ، هذه مظفرة منتصرة ، وتلك جارة وراءها أذيال اليأس والفشل . وتطالعك ، الفينة بعد الاخرى ، في هذه الصحارى المحرقة ، جزء من الاراضي الصالحة للحرث والزراعة ، هي واحات تطلّيع من الزرع والضرع ، ما فيها صلاح الهابطين فيها ، او القائمين عليها ، كواحات تاريخ مثلاً ، تلبها قفار لا حد لها ولا قرار يرتد عنها الطرف وهو كليـل ، تسمّر الخوف وتزرع الرعب في قلب من يشرف عليها ، فكيف بمن يجازف بالمرور فيها .

ففي هذه الحقبة التي نحن بصدها ، نرى موجات من البدو الرحل تدق أبواب المناطق الزراعية بشكل مقلق لم نأنس مثله من قبل ، طمعاً منها بما بلفتة هذه المناطق من تطور في أساليب استثمارها ، او شهوة منها بما ينعم به سكانها من خيرات وافرة ، بعد ان فقرت نفوسها من خشونة الصحراء وجفوة الطبيعة ، امام ما تقع عليه العين من غنى و ثراء بين اهل الحضـر ، في وقت غصت فيه البادية بالفائض من سكانها وأهلها ، فاندفعوا كالشهاب الساطع ، يقطعون منها ما رغبوا في اصطفائه من خيراتها ، ويستبيحون ما طمعوا به من فيء و رقاء . ومعظم هؤلاء الاقوام الذين يسرحون ويمرحون في هذه الغيا في هم من الترك والمغل ، لم يتجاوزوا ، في تطورهم ،

نطاق حياة الظمن ، بالرغم مما عرف عنهم من ذكاء وتوازنت في القوى العقلية ، وما سجلوا عليه من روح عملية ، بينا اهل الحضرة من سكان المدن والريف ، الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاملاك والارضين ، وسجلوا تطوراً لا بأس منه في زراعتهم ، قد استسلموا للدعة والسكينة ، واسترخت منهم الاخلاق .

وتقوم هذه الشعوب ، في القرن الرابع بدفع وضغط لا يقاوم اخذت معه تفلي كالقدر . ولاول مرة منذ عهد بعيد ، توصل البدو الى تأسيس ممالك لهم مستقلة ، اولها مملكة جوان - جوان التي انشأتها قبائل الآفار بين ٤٠٧ - ٥٥٣ ، كما ان قبائل من المنول تشدهم الى الآفار وشائج الدم والغربي ، تأخذ بهاجمة اوربا ويتمكن شارلمان من كبح جماحهم فيما بعد ، وبسط سيطرته عليهم . وتكاد لا تقل بأساً عن هذه المملكة ، مملكة اخرى ، اسسها اقشوام الهونز الهفتالين ، فانقضت جحافلهم ، في مطلع القرن السادس (عام ٥٥٠) على الافغانستان والهند بخلفة وراءها الخراب والدمار ثم تطالعنا مملكة اخرى هي مملكة توكيو ، اسسها اقوام من الترك اخلاوا الساحة ، فيما بعد ، في منطقة طرفان ، لقبائل الويغور *Uigurs* في اخريات القرن السادس .

ومع اختلاف عروق هذه الاقوام ، فقد جمعتهم خصائص مشتركة ، بعد ان صهرتهم ظروف البيئة القاسية ، وطبعتهم بميسما وتضرسوا بخشونتها . فلم يكونوا ، والحق يقال ، من البدو الخلتص ، اذ كان ملوكهم يقطنون في المدن .

« وكانوا يظلمون وفقاً لمقتضيات الماء والكلأ ، يبنون لهم مساكن من اللباد ، يقصدون صيفا المناطق الباردة بينما يهبطون شتاء المواقع المعتدلة . فالزوجة الواحدة هي مشتركة بين عدة اخوة ، يفصلون نساءهم في اماكن منزوية ، يتزوج بعدها عن مضارب القبيبة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ لي (قياس للساعات عند الصينيين قديماً يوازي طوله ٥٧٦ متر) . ويقوم الملك او رئيس القوم عندهم بالسفار ورحلات متنقلة ، ويفير مقره شهراً بعد شهر . يلعب في مقره خلال فصل الشتاء مدة ثلاثة اشهر . عرفوا بالعتف والشجاعة والاقدام . » (مأخوذ من *Pel'he* فصل ٩٧) .

وعندما يسافر الملك أو ينتقل :

« يصطحب معه خيمة مربعة من اللباد ، طول كل ضلع من اضلاعها ، ٤ قدماً ، جدرانها من السجاد والطنانيس الجليلة . ويرتدي ثياباً من الدباج والحرير الموشى ، ويقرب فوق سريره من الذهب يقوم على اربع قوائم من الذهب بشكل عنقاء . ويرتدي زوجته الاولى الحرير المزركش ، تجر وراءها ذيل لا يقل طوله عن ٨ اقدام لتدلى منه الألح والجمارة الكريمة بالوان مختلفة . فاذا ما خرجت الملكة خرجت في هودج تحمله عربلة . اما في المنزل ، فهي تتكسى على سرير من الذهب بشكل فيل ابيض ، له ستة انياب ، واربعة اسود (من رسله سولخ - يون بينوان : « الهولز الهبتاليون - ترجمة شافان)

ويشرف هؤلاء الاقوام الرُحل على كثير من المدن والارياف يسيل لعاب البدو لرؤيتها لما فيها من رفاه وخيرات فتحدثهم نفوسهم بالاستيلاء عليها . وكانت ملكة خوتان منها ، على الاخص ، مثلاً للشهوة ، لما كانت عليه من ثراء وغنى .

فالمملك يتمتع بقيمة يملوها حرف كحرف الديك ، ويتبدل كل رقبته من الرءاء مندبل من الحورير الختام طوله قدما وعرشه ه قرايط . فاذا ما حضم حفلات رسمية ، قرعت الطبول ، ونفخت الابواق ودقت الصنوج ، في جو يمتق بمراى القوس والشباب ، وسربتين وخمسة رماح ، ويحيط بالمملك ، حرسه الذي لا يقل عن المائة بجناجرهم . وتلبس النساء نوحا من السراويل ، وسرة مشدودة الى الحصر يزنا ويركن الخيل كلرجال (المصدر ذاته) .

وعلى مثل هذا الوضع من الازدهار المثير ، تبدو مقاطعة غندهارا .

سهول خصبة ليحاء تتوسطها مدينة شالاس غارهي بما حولها من أرياض غناء ، عامرة بالسكان الناعمين بما هم عليه من دعة وازدهار ، والبلاد كثيرة الاسراج دافقة المياه ، والتربة خصبة تطمي بسخاء (المصدر ذاته) .

وكان هؤلاء البدو الرحل يصطدمون في تنقلاتهم اما بممالك قائمة ، منظمة او يعترض سيرهم وتقدمهم جواجز طبيعية ، يحول دون وصولهم الى الصين ، سورها المنيع ، كما ان افغانستان كانت بدورها تتحكم بالمعابر والمجازات التي تفضي الى غندهارا والهند ، ويقع جزء منها تحت سيطرة ايران الساسانية ، بينما تقوم في المناطق الاخرى جبال همالايا الصعبة المرتقى ، حائلا دون الوصول الى التبت .

اما اواسط آسيا ، فسكانها من الهند الاوروبيين ، يتكلمون الطوخارية ، وهي لغة بينها وبين الارمنية والسلافية ، والايطالية والكلتية ، اكثر من آصرة ورابطة ، او يستعملون في تخاطبهم الايرانية الشرقية ومعظمهم شعر ، ولهم عيون زرقاء وهم على البوذية . وقد تأثر بعضهم بالحضارة الهلينية كما يستدل من آثارهم الفنية ، ولا سيما من قام منهم في غندهارا والبكتريا ، بينما اخذ البعض الآخر ولا سيما من سكن منهم الواحات الشرقية ، بأسباب الحضارة الصينية ، وتطبعوا بها ، فتبيلغهم متأخرة جدا ، المؤثرات الايرانية ، كما يستوحون احيانا ، مبادئ الجمالية البيزنطية . فالافغانستان جزء لا يتجزأ من هذه المجموعة التي تولى كلا جغرافيا وحضاريا . وتصدر هذه المناطق القرية التجانس ، عن طراز جديد مشترك فيما بينها ، ذي طابع ايراني بوذي ؛ يمتاز بمنصر حضاري مشترك هو حصيلة هذا الاتصال الواقع بين ايران الساسانية والعالم البوذي . وهذا المزيج الذي تتمثل معالمه ، بين القرنين الثالث والرابع في بابيان وككراك ، ثم في طرفان وقزير وكوكا (في القرن السادس والسابع) وصل الصين عن طريق اسرة وايي التي احتل ملوكها ، عام ١٣٩ ، تون - هوانغ ، وهي موقع حربي وسوق تجارية تقع عند تخوم الصين الغربية ، عند مشارف صحراء غوبي ، في نقطة تتجه اليها وتلتقي عندها ، هذه المؤثرات التي تسلك طريق تجارة الحرير .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يقوى هؤلاء الاقوام الرحل الذين يحومون في هذه الغياي ، على مقاومة الرغبة الشديدة التي تراودهم على احتلال هذه الاراضي الزراعية الخصبة ، ويتحرقون لاغتصابها من اصحابها ، والاستئثار بما فيها من مراكز حضارية جذابة ، مغرية ، وما اليها : من معابد وهياكل ، ومدارس وأديار ، قائمة بجوار القصور الملكية ، ومن اسواق تنص بالبضائع

والسلع والمواد الغذائية . فأخذوا يرون باشتاء وعُجبٍ ، الى هذه المدهشات المغرية التي عرف أهل الحضار ان يطلعوا بها ، بعد ان يقابلوها بما هم عليه من قسوة الحظ وقسمة الضئى ، أبدأ في طلب الكلاً والماء ، وقد ضمرت اجسامهم ، وخوت بطونهم ، لما أصابهم من حرمان ، وقاسوا من جذب الارض وجفوة الاقليم ، وعضة الطبيعة . ففي القرن الثالث ، نرى قبائل الهونز تتحامل بصنوف مكتظة ، على سور الصين ، تربطهم الى ملوك الصين روابط أشبه ما تكون بتلك الروابط التي شددت ، في الغرب ، القبائل الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع . وكثيراً ما كان زعماء الهونز يختلفون الى عاصمة الامبراطورية الصينية ويترددون عليها ، متكسبين من هذه الاتصالات . وكثيراً ما استعملتهم في الفرق المرتزقة من جيشها واتخذت منهم عوناً لها عندما اصبحت دولة الهان بالمعجز والوهن . وهكذا أتبع للعديد من هؤلاء البدو الرحل الخفيفين ، ان يمتازوا ، بأعداد متزايدة ، السور الكبير ، وان يعيشوا داخل الصين . وعندما انطلقت شلة الحروب الاهلية ، اثر انهيار دولة الهان ، راح الهونز يشبثون وجودهم وقد شجعتهم الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد ، فوضع المقيمون منهم في الداخل ، أيديهم على الاراضي التي كانت بتصرفهم ، تحت ستار شفاف من الشرعية ، ملوحين بأقدميتهم الصينية . اما من كان منهم في الخارج ، فقد توافدوا عملاً بسنة التضامن مع ابناء عموميتهم . وهكذا ، بفضل هذا الدفع المشترك ، اضطر ملوك تشن ان يتخلوا لهم عن شمالي الصين . وقد مر معنا كيف ان هذه الممالك التركية - المغولية ، العديدة ، التي تكونت ، اذ ذاك ، لم تلبث ان ذابت في قلب مملكة واسعة اقامها الهونز ، زالت بدورها ، هي الاخرى ، عام ٣٤٩ ، وراحت فريسة ممالك ودول أنشأها البرابرة فيما بعد ، انهارت بدورها هي ايضاً ، وزالت من الوجود ، عندما استطاع أتراك تينغتش او توبا انشاء امبراطورية وايي ، عام ٣٩٦/٣٩٨ .

وفي الوقت ذاته ، قامت ، قبائل اخرى من الهونز - يُعرفون بالهونز الهفتالين ، أي الهونز البيض ، كما يسميهم المؤرخون البيزنطيون ، وهبطت من اعالي جبال ألتاي ، واستقرهم المطاف في التركستان الروسي ، ثم اتجهوا نحو الصفديان (سمرقند) والبكتريا التي بلغوها في عهد الملك الساساني بهران غور (٤٢٠ - ٤٣٨) . وبعد ان انتصروا على خليفته الثاني : فيروز (٤٥٩ - ٤٨٤) استقروا في مدينة مرو وهرارة . الا ان ايران الساسانية كانت منبعاً وعرفت ان تدافع عن ممتلكاتها . ولذا تحول الهونز ، بقضهم وقضيضهم ، باتجاه افغانستان ، بعد ان دفعوا امامهم ، باتجاه غندهارا ، الهندو - الفيز الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة . ومن ثم ، راحوا يهاجمون الهند ، ويحاولون بسط سيطرتهم عليها ، في سلسلة من المعارك والحروب الدامية انهكت دولة الغوبتا . وامعن الهونز في مجيئهم : فساموا سكان هذه المنطقة الذين اخذوا ، منذ عهد بعيد ، باسباب الحضارة الهلينية واعتنقوا البوذية ، الوانا من العذاب واصنافاً من الآلام ، وأذاقوهم الذل والهوان ، بعد ان قاموا بمذابح هائلة بين السكان ، واضطهدوا بعنف ، الجماعات البوذية وهدموا اديارهم ، وقضوا على ما عندهم من روائع الفن الجميلة ، ودكوا

معالم الحضارة اليونانية - البوذية، كما يؤكد المؤرخ غروسيه. وعندما بدت ترسم امارات الضعف على دولة الغوبتا، هاجمها الهونز بعنف شديد، فتوالت غزواتهم الملاحقة بقيادة طورامانا وميهيراكولا، فزرت الخراب والدمار وارزحت الهند لمدة قرن. واستهدفت الديانة البوذية للاضطهاد الشديد، فهدمت الاديار، واستبيحت المحرمات، وقضي على روائع الفن، فاتفوا كل ما وصلت اليه ايديهم، وبفضل ما الحقوا بالبلاد من خراب ودمار، نرى انفسنا عاجزين عن درسي معالم فن الغوبتا، الا من خلال بعض الناذج النادرة التي وصلت الينا. وخلافا لابناء عمومته الذين استقروا في شمالي الصين واعرقوا فيها ورسخوا، نرى برايرة الهونز، في الهند، يزولون تماماً من أرجائها، منذ اواسط القرن السابع، اما لاستئصال شأفتهم، او لذوبانهم بين سكان البنجاب وغوجارات، حيث لم يلبث زعمائهم ونبلاؤهم ان انصهروا في بوتقة الارستوقراطية الهندية.

وكالاخطبوط يرسل مجساته في كل اتجاه، هكذا ارسلت قبائل البدو الرحل في اواسط آسيا، سرايا جماعفلها في كل مهب، مضيقه الخناق على العالم البوذي، دافعة امامها كل من صدمته من شعوب واقوام، تدك منهم الممالك والامبراطوريات، فقد واجهتهم ايران بدرع منيع من قوة جيشها وبأسه، تحول معه الهونز في شمالي بحر ارال، نحو اوربا ووطئوا بسنابلك خيلهم ورجلهم الامبراطورية الرومانية (٣٧٦). فالوصف الذي ترك لنا عنهم المؤرخ اميان جاء يؤيد الى حد بعيد، ما ذكره عنهم المؤرخون الصينيون :

يز الهونز مهيبة، كل ما يمكن ان يتصوره العقل ان يخطر على بال انسان. فقد جهلوا الزراعة ولم يفقهوا يوماً معنى المنزل او بيت او كوخ. فهم ابداء في دوران، ألفوا منذ الصغر، زمهرير البرد شتاء وحارة القيظ صيفاً، وانطوت بطونهم على الجوع ومسا بالوا يوماً بظلمة. تجري قطعانهم من الماشية حثيثاً في اثمهم، ويجرون وراءهم عيالهم والاولادهم بعد ان يكردسوم في عربات تسير متناقلة. يلبسون صيفاً شتاء، اودية من الكتان، ومعاطف من جلود الجوزان شبيطة بعضاً الى بعض، وقد اعتنقوا خوذاً من الجلد ولفوا افخاذهم الكثيفة الشعر بسيور من الجلد الخشن، وانتملوا في ارجلهم احذية لا شكل لها ولا قوام، ولا تساعد على السير على الاقدام. وهكذا لم يصالحوا قط لحرب المشاة، بينما اذا ما صاروا على صورة جيادهم، خلعتهم قطعة من الجلود الذي يركبون، والهونز من هذا الجيل الصبور الجليل الذي ينطلق فارسه كالسهم المعاصف او كالشهاب الخاطف. ليس من مضاهيهم برمي القسي والنبال، هن بعد فهمي لا تحصى.

والفارس منهم مجهز بقوس 'شد' وتره، وله نظر حديد يقذف شرراً من عين غارقة في محجرتها الضيق، وأنف مفلطح وجنتان بارزتان. هو من هؤلاء البرابرة الذات الذين سيطلون علينا بعد ذلك بالف سنة، اي في القرن الثالث عشر، عندما تندفع الموجة المغولية ثانية، بعد ان تبلغ قوتها الذروة.

وبعد ان سيطر الهونز على منطقة السهول المتراصة، بين جبال الاورال وجبال الكربات، أفضوا الى سهول فلاحيا، ومنها دخلوا هنغاريا. واجتاز احد زعمائهم أتيلا، نهر الدانوب، عام ٤٤١، واتجه بعد ذلك بعشر سنوات، بقضته وقضيضه، نحو غاليا، فبلغ الرين، واضرم

الحرائق في مدينة ميتز ، يوم ٧ نيسان (ابريل) ٤٥١ ، وجاء يهاجم مدينة اورليان ويضرب الحصار حولها ، ولم يلبث ان تراجع القهقري الى مدينة تروى حيث ابتليّ بابشع هزيمة ، ومنها عاد ادراجه الى الدانوب وما هو ينقض من جديد على ايطاليا ، عام ٤٥٢ ، وعاد منها ليموت ويقضي نحبه في مقاطعة بانونيا بعد ذلك بسنة . وهذا الغازي المرعب الذي لقبوه بحق «سوط الله المصلت» هو الانسان النموذجي للهونز . قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخيم الرأس ، غارق الميئين ، أفطس الأنف ، كالح الوجه ، امرد او يكاد ، سريع الاستشاطاة والغضب ، ومع ذلك فقد كان يؤثر السياسة والديبلوماسية ، وان شئت فقل الحيلة والمكر ، على عنف الحرب ، عرف عنه تكالبه على زرع الخراب والدمار ، وان حدثت الناس عن روح النصفه عنده قاضياً بين اهل وذويه ، مستسلم بكليته للخرافات . وعلى مثال الهونز في الصين الذين كانوا يتخذون مذهبين لهم من العلماء والادباء ، نراه يحيط نفسه برهط محترم من ادياء اليونان والرومان والجرمان . فهو صورة مسبقة ، ونذير بطلوع الغازي الفاتح المغولي الاشهر جنكيز خان . وكما زال كل اسم وذكر للهونز الهفتاليين في الهند ، فقد تفتت جماهير الهونز التي استاقها ايليا ، إثر ما نابها من تشعث وشتات في اعقاب موت رئيسها وقائدها . فانكلمات نحو سهول روسيا ومقاطعتي دبرودجا وميزيا . ونالت منهم بيزنطية ، عام ٤٦٨ ، عند مجرى الدانوب الاسفل ، ونالت منهم ثانية ، عام ٥٥٩ ، وفشتت مشاحناتهم الداخلية والحروب الاهلية التي نشبت بينهم ، من عضدهم فتقلص ظلمهم ، وانكش امرهم ، عندما اطلت موجة جديدة كاسحة من هؤلاء البرابرة ، هي غزوة الآفار الذين انقضوا على الامبراطورية البيزنطية ، يوم كان يوستنيانوس يلغظ الغاب الاخيرة (٥٦٥) والتجهوا الى اوروبا واسسوا لهم ملكاً امتد من الفولغا الى مشارف النمسا ، ولم يلبثوا ان دخلوا من جديد ، في هراكلميت مع القسطنطينية ، في القرن السابع .

وقد اسس « البدو » الرسل في القرن السادس ، امبراطورية اخرى ، في مغوليا والصحابري المجاورة ، كان الامر فيها لاسرة تو - كيو ، فتتحالف ملوكها مع بيزنطية ضد ايران ، واعتنقوا المزدقية ، كما يرجح المارفون ، استناداً لما ذكره ثيو فيليكس سيموكالا .

يرسلون شعورهم لتدل على اكتافهم ويسكنون مضارب من اللباد ، ويتنقلون بين مقاطعة واخرى طلباً للذاء والكلا . ينصرفون لتربية الماشية والصيد . سلاحهم السهم والفرس الصافرة والدرع ، والرمح والخنجر والسيوف . ويتنطلقون بمنطلق على حقوهم ، لغزهم الاكبر ان يموتوا في ساحة الرغز ، والمار الاكبر عندهم ان يموتوا مرضى . على أسرهم (من مؤلف لغل ، عام ٥٨١) .

ولم يحسن ملوك هذه الاسرة سياستهم ، فانقسمت دولتهم قسمين متنافسين ، لم يلبثا ان ضعف شأنهما ، فزالا من الوجود امام سيطرة اسرة سواي ، ثم اسرة تانغ ، وهذا كل امر لها .

فبالرغم من الفوارق التي باعدت بين هذه القبائل البدوية ، وبالرغم مما قام بينها من حروب اهلية داخلية اقامتها بعضاً على البعض الآخر ، فقد شدها معاً : وشائج مشتركة ، وتقاليد واعراف متقاربة ، أمنت لها شيئاً من التجانس . فقد غلبت على هذه القبائل الأمية ، وجعلوا القراءة والكتابة ، ونهبوا جميعاً نهجاً سورياً من حياة البسادة ، يقضون معظم اوقاتهم على

صهوة جيادهم ، كما يصف لنا اخبارهم كتاب القدامى ، يعيشون بين قطعانهم ومواشيهم ، ويستظلون مضارب من اللباد . طباعهم خشنة فظة وهم متوقدو الذهن والفهم ، يحيطون انفسهم برهط من الادباء ورجال الفكر والقلم ، مع ما كانوا عليه من سرعة الغضب ، وما عرف عنهم من مبعية ووحشية تزرع الارض خراباً ودماراً ، فكانوا خير سلف لهؤلاء المغول الذين طلعوا في القرن الثالث عشر واسسوا امبراطورية من اوسع ما عرف التاريخ من امثالها . وتدل آثارهم والمعامل التي تركوها وخلفوها على فن متجانس يعرف بفن الصحراء ، وهو فن قوامه تصوير الحيوان ، نجمل الكثير للآن من مقوماته ومفارقاته ، لعدم وجود حفريات اثرية منتظمة . ومع ذلك ، بالامكان الآن تمييز بعض مدارس خاصة في فن الصحراء تحمل في ثناياها الكثير من الميزات الايرانية والصينية ، حسبما تكون قامت وازدهرت على مقربة من الصين او من ايران . فاينما وقعت العين رأّت رسوماً لحيوانات مختلفة : هنا أيتل جاثم ، وهناك عراك عنيف بين حيوانات حقيقية او وهمية ، فن تكثر فيه ملامح الصيد والحياة بصحبة السائمة تظمن طلباً للغاء والمرعى ، لا يخلو من اثر ظاهر على فنون اهل الحضرة المقيمين على مقربة من البادية ، تبدو معامله أكثر فأكثر كلما اتسعت اعمال النبت والحفريات الاثرية .

٥ - الصين في عهد دولة سوي

عرفت الصين عهداً من الاضطراب والقلق ، إثر انقسام دولة واي على نفسها الى شطرين متميزين : هما دولة باي - تسي (عام ٥٥٠) ، ودولة باي - تشاو (٥٥٧) ، عرفت الاولى بتمسكها الشديد بالبوذية كما قالت الثانية بالكونفوشية . واوشك هذا الوضع ان يلحق الاذى الكثير بالبوذية . فقد عرفت الدولة الاولى ، طوال عهدها الذي استمر ٢٧ سنة ، ازدهاراً غربياً للفن البوذي ، الذي اخذ ينأى وابتعد ، اكثر فأكثر في تلك المملكة ، عن الفن الجاف الذي ساد عهد دولة واي ، واتجه نحو حركة تجديدية ناشطة ، مهاداً بذلك الطريق لظهور المدرسة الفنية التي طلعت في عهد اسرة تانغ . وقد تميزت هذه الحقبة بالاضطهاد العنيف الذي شنه ملوك دولة باي - تشاو ضد البوذية واتباعها في المملكة . وعندما تم لهم ، عام ٥٧٧ ، الاستيلاء على دولة باي - تسي ، امتدت حركة الاضطهاد التي اطلقوها بحيث عمت الصين الشمالية . ولم يدم هذا الوضع الشاذ طويلاً ، اذ استبد بالامر احد سَدَنَةِ القصر هو يانغ - كيوان ، بعد ان استولى على الحكم عام ٥٨١ ، واسس دولة جديدة هي دولة ملوك سوي . وبعد ان ملك سبع سنوات ، على الصين الشمالية وحدها ، تمكن من فتح نانكين ، عام ٥٨٩ والاستيلاء على امبراطوريتها وبذلك تم له توحيد الصين بعد ان بقيت مجزأة نحواً من مائة وسبعين سنة .

وقد عُرف الامبراطور يانغ - كيوان شخصياً برعايته للبوذية وبتملقه بالطاوية ، بينما تشكّر الكونفوشية وراح يناصرها العداء . ففي الوقت الذي راح فيه يرمم هياكل البوذيين ومعابدهم ،

ويشارك في الحج الى مقدسات الديانة الطاوية ، تقيةً منه وتقرباً ، أصدر أوامره بإقفال عدد كبير من المدارس الكونفوشية . خلفه على العرش ابنه يانغ - تي (٦٠٥ - ٦١٨) الذي انتهج له نهجاً جديداً اقل تمسكاً من ابيه بامور الدين . فصرف جهداً كبيراً في تجميل العاصمة لو - يانغ بحد ان آخرها على سن - غان - فو ، واتخذها دار سكنى له ، وفتح ترعة مائية ، بين يانغ - تشايو ويو - يانغ ، واستسلم للملذات يقضي أيامه بين الكأس والطاس . واضطرته النفقات البالغة التي اقتضتها هذه الانشاءات ان يفرض رسوماً وضرائب باهظة على رعاياه ، فأرزحها ، ونشب من جراء ذلك ثورة لاهبة أدت الى قتله . وبموته انتهت دولة سواي التي استمر حكمها تسعاً وعشرين سنة .

وبالرغم من قصر مدى هذه الاسرة في الحكم ، فقد كان تأثيرها بالغاً في سير الحضارة وتطورها في الصين . وكان من جراء تحقيق وحدة الصين ، ان نشطت حركة فكرية عارمة : أدت الى محاولة توحيد بين الاديان الكبرى الثلاث في الصين ، الا وهي البوذية والطاوية والكونفوشية . والرهبان الهنود الذين غادروا الصين على اثر موجة الاضطهاد التي هبت عليها ، استأنفوا العمل بتقليد قديم من الرحلة الى الصين : فالراهبان ناراندرياساس وجيناغوبتا اللذان فرا بنفسيهما ، عام ٥٧٤ ، عادا الى الصين في عهد دولة سواي . كذلك قام الراهب بوذيسري يكرز ويشر في هو - نان واستطاع حل الراهب الطاوي تان - لوان ، الذي توفي حوالي عام ٦٠٠ ، على اعتناق البوذية الصوفية التي عُرفت في اليابان ، باسم Amidisme . وقد بذلت الجهود السخية ، من جهة اخرى ، لربط ما انقطع ، وازالة الضعف الذي أوهن العلاقات بين البلدين المتجاورين خلال القرنين الماضيين ، عرفت خلالها البلاد عهداً من أسوأ المهود استباحة واضطراباً وخراباً . وقد وضع عام ٦١٠ ، فهرس بالكتب والاسفار الدينية التي امكن انفاذها .

فاذا ما تمكن عهد سواي القصير من اعادة الامن والنظام والوحدة الى الصين ، وأتاح للنفوس المحتاجة ان تهدأ وتمود سيرتها الاولى الى التجريد والتأمل الفلسفي ، فلم يكن هذا العهد لمعري ، بعهد مبدع خلاق . فقد بدت على الفن سمات العهد : فهو فن جامد متناقل ، جاف ، قاس ، تنقصه ، اساساً ، نبضة الحياة وهذا التألق الذي عرفت دولة تانغ ان تضيفه على هذا الفن . فالصين على شفا عهد جديد من الانبعاث والتوعية يبشر بطلع زاهر ، مجيد .

الفصل الرابع

فجر الإسلام (من القرن السابع الى القرن التاسع)

بين لوروبا الجنوبية الآخذة مدنيتهما بالقهرى ، وبين العالم الآسيوي الذي لم يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته ، مما ألمّ به من ضربات موجمة أنزلتها به جعافل برابرة البدو الرحل ، ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيتّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها .

نحن امام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغفور الذكر ، فاذا به يتحد ويتضام في بوتقة الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية . اكتسحت جيوشه ببضع سنوات ، الدولة الساسانية وهدت منها الاركان ، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وافريقيا ، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى ، ولم تلبث جيوشه ان استولت بعد قليل ، على معظم اسبانيا وصقلية ، وان تقطع ، لأمد من الزمن ، يقصر او يطول ، بعض المقاطعات الواقعة في غربي اوروبا وجنوبها ، ودفنت جيوشه بمنف شديد ، ابواب الهند والصين ، والحبشة والسودان الغربي ، وهددت غالبا والقسطنطينية بشر مستطير . وقد تهاوت الدول ، امام الدفع العربي الاسلامي ، كالأكبر ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها التنظيم ، وهذه الاديان التي سيطرت على الشعوب والاقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ، ذابت كما يذوب الشمع امام النار ، بعد ان أطل على الدنيا دين جديد له من الاتباع والمريدين ، اليوم ، ما يزيد على ثلاثمائة مليون . وانجلي غبار الفتح وصلصلة السلاح عن امبراطورية جديدة ولا اوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا اروع ، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقبه البناء ، بعد ان نفخ الاسلام في قسم موات من التراث الانساني القديم روحاً جديدة عادت معه اليه الحياة ، فنفض وشع وأسرى . ولهذا الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من ان يحتل تاريخ العالم الاسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيداً ان المدنية لا يقتصر مدلولها ، على شعب

او بلد متحيز في الزمان، وان يعرف جيداً ان قبل توما الاكوبي الذي رأى النور في ايطاليا، طليح ابن سينا المولود في احدى مقاطعات التركستان، وان مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبائها قبل كاتدرائية نوتر دام في باريس بزمان ، والا يلتقص من شأن العالم الاسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنقش بأسرع مما يظن ، وألا ينظر الى التساريخ الاسلامي من خلال مراثيات ألف ليلة وليلة ، هذا الامر المدهش ، الاجنبي النشأة ، الذي دالت أيامه وزالت ليلاليه ، والذي ما لبث العرب ينظرون اليه بشيء من الحنين الى الفردوس المفقود ، بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الانساني المتنوع بتنوع الازمنة والامكنة ، والذي لا يزال ، بالرغم من جزئياته وخصوصياته ، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجامعة الجماء .

يتحم علينا ونحن نستعرض تاريخ العرب والاسلام ، للتصريح ، بكل تواضع هنا ، انه بالنظر للظروف الماثلة في وضعها القائم ، لا نستطيع ان نحاول تاريخ الاسلام بالصورة التي جلونا بها تاريخ الغرب . فالنقص الفاضح الذي نراه في الوثائق التاريخية ، والفقر المدقع الذي عليه المحفوظات الاسلامية العربية ، لا تسده هذه الوفرة ، ولا يعوضه هذا الغنى الحافل في التراث الادبي الذي خلفه العرب من طارف وتليد . فبالرغم من الجهد الطيب الذي بذله المستشرقون في الغرب ، في مجال فقه اللغة والألسنية اكثر منه في التاريخ ، وبالرغم من الحركة العلمية الحديثة التي اخذ الشرقيون بأسبابها بعلم واصول ، فلا يزال العمل بحاجة بعد ، الى قرن واكثر ليلحق بركب المؤرخين في الغرب . فالشيء الذي سنقوله ونقرره بهذا الصدد سيكون لاقتضابه وإيجازه ، اقصر بكثير ، من الفصول التي مهدت بها لهذا البحث .

لم يكن العرب ، في القرن السابع ، حديثي العهد بالوجود . فقد الجزيرة العربية قبل الاسلام سكنوا شبه الجزيرة التي تحمل اسمهم قبل ظهور المسيحية بزمان طويل ، يعيشون فيها عيش البدو الرحل ، في وضع اشبه ما يكون باهل البادية والوبر ، اليوم ، ذراريهم الاقحاح . وكانوا منقسمين قبائل يخضعون لمشيشة الشيخ او لرئيس القبيلة ويأتمرون بأمره ويسرون بهديه ، بينما تنفرع القبيلة نفسها الى بطون وافخاذ ، لكل منها زعيمها ، يجمعها بعضاً الى بعض عصبية قبلية ، هي القاسم المشترك ايام الكر والفر ، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم . اما ديانتهم فكانت من التبسيط بحيث تتصل بالمعائد السامية المشتركة في جوهرها ، مع جميع شعوب المنطقة ، يخشون اكثر ما يخشون عمل الابالسة وكانوا يعبدون بعض الحجارة المؤلهة ، كما هي الحال في مكة ، يقيمون في اعيادها مواسم للشعر والمفاخرة . وينقسم العرب في مجموعهم الى قسمين متميزين : اليمينيون في الجنوب ، والنزاريون القيسيون في الشمال . وقد حدثت موجات بشرية انتقلت معها بعض قبائل الجنوب متخطية الى الشمال ، ابناء عمومتهم هناك . وبالرغم من هذه الانقسامات ، كان يخامر العرب شعور بشيء من الوحدة بمثابة خير تمثيل بهذه اللغة الشعرية التي قطعت شوطاً بعيداً في التكامل والاستقرار . ومن بين مشاهير الشعراء في هذه الحقبة امرؤ القيس . فقد فاخروا باجسادهم الوطنية وما تبهم الحربية ، كما فاخروا « بايامهم »

التاريخية ونظموا الحكمة فاجزوا واعجزوا .

وقام عند أطراف الجزيرة العربية في اليمن مثلاً ، مجتمعات بشرية قطعت شوطاً قصياً في تطورها . فقد قام في اليمن ، قبل طلوع المسيحية بعهد كبير ، ملكة اشتهرت بإحدى ملكاتها هي الملكة بلقيس أو ملكة سبأ . وقد قام بعد ذلك بكثير ، عدد من الممالك اشتهر أمرها في عهد الرومان ، كملكة الأنباط أو الانبساط ، في بتراء ، تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، والملكة زنوبيا التي ملكت على المنطقة الواقعة غربي الفرات ، كما قام في عهد البيزنطيين مملكتان ملوكها من النصارى ، هما مملكة آل غسان أو الفساسنة ، ومملكة اللخمين ، توازر الأولى منها ملوك بيزنطية وتدور في فلكهم ، بينما يدور اللخميون في فلك ملوك فارس ويشدون منهم الأزر . فبينما كان الفساسنة يقيمون في أذرع ، اتخذ اللخميون طيسفون (الحيرة) قاعدة لهم . والجدير بالذكر هنا هو ان قبيلة كندة استطاعت ان تؤلف في القرن الخامس ، في قلب الجزيرة العربية ، تحالفاً حقيقياً . وقد انشأت بعض القبائل ، في بعض المدن لها ، نوعاً من الحكم على اساس من النظام الارستوقراطي تولى الأمر فيه كبار التجار اصحاب القوافل التجارية كما في مكة مثلاً ، اذ كان الأمر بيد قبيلة قريش . وكانت الحركة التجارية قد نشطت في شبه الجزيرة العربية ، اما عن طريق البحر الاحمر ، او عن طريق القوافل البرية التي تحولت عن موانئ البحر المذكور تفادياً للاخطار التي كانت تهددها . وكانت هذه المنطقة قد اخذت تتأثر ، الى حد بعيد ، بنفوذ الدول القومية المجاورة ، فتتجاوب اصدائها هذه المؤثرات . فقد حاول الساسانيون ان يحققوا لمصلحتهم الخاصة ويسيطروا على الحركة التجارية في المحيط الهندي ، بينما اخذت بيزنطية تحاول ، عن طريق مصر ، تحويل هذه التجارة ، الى مرافقها بمساعدة حلفائها من الاحباش . وهكذا راح الفرس والاحباش يتجاذبون السيطرة على المراكز التجارية الكبرى . وليس من المستبعد قط ان تكون المشاحنات التي قامت بين الطرفين ، بهذا الصدد ، سبباً من الاسباب التي ادت الى انهيار سد مأرب ، وخراب نظام السقاية الذي عمل به مدة طويلة ، والى هذه الهجرات الواسعة التي عقبته انهيار السد . كما أدت الى هذه النقطة التي اخذت تتمثل بها القبائل العربية ، اذ ذاك . وقد حدث في الوقت ذاته ان تغلغلت المؤثرات الاجنبية في البلاد العربية ، اما بواسطة القبائل المقيمة على الخط الدائري ، او بواسطة الجوالي المسيحية واليهودية التي نشأت في بعض المدن ، كالجالية اليهودية في يثرب التي أصبحت المدينة بعد ان هاجر اليها النبي العربي . وهكذا نرى جيداً ان العرب لم يبقوا في عزلتهم ، كما كانوا من قبل ، بل بدت عليهم معالم يقظة عارمة زاد من أوارها وقوعهم الى أطراف المدينيات الكبيرة . صحيح ان البلاد التي جاوروها لم يتوفر لها جماعة من كبار اللاهوتيين ، ولذا تزلت عقائد سكانها الدينية ، بكل ديانات الشرق وعقائده الشعبية ، الا انها ديانات جديدة ، حديثة لمن كان مثلهم ضالماً بالشرك الاكبر ، منذ أجيال سحيقة ، في هذه الحقبة بالذات ، اذ ساعدت الظروف المادية القائمة ، اذ ذاك على ايجاد حالة من القلق والاضطراب كان يكفيها شيء بسيط جداً لاضرامها وتحويلها الى غليان دائم .

هذا هو بايجاز ، الوسط الذي رأى فيه النبي العربي النور ، وشب في جو تجاري شارك ببعض نشاطه قبل ان يتفرغ للدعوة التي قام بها .

في هذا المحيط الذي وصفنا ، ولد محمد بن عبدالله ، النبي العربي وخاتمة النبيين ، الذي جاء يبشر العرب والناس اجمعين بدين جديد ، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد ، وليكمل الوحي الذي نزل من قبل ، مجزوءاً ، على اليهود والنصارى ، وهو على يقين من امره انه يتلو آي الله في خلقه ، ولم يدع يوماً انه غير انسان مخلوق ، وهو من سلالة الانبياء ، وليس باسم يسوع الناصري ، نبيهم الكريم . كانت تعاليمه في غاية البساطة ، تذكرنا من وجوه عديدة ، بتعاليم موسى ووصاياه ، في نطاق القربى العنصرية التي تشد العرب الى العبرانيين الاقدمين . فالله الذي يدعو الى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة . يدعو الانسان الى الطاعة والتسليم المطلق ، الى الاسلام ، اذ ان الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسَلِّم امره اليه ، اي المسلم ، بالجنة ، ويبعث في قلبه الايمان والثقة بوعده الله . وهو لا ينهي المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا ، انما بالشكر تدوم النعم ، اذ ان الله هو واهب الاشياء ومقسم الارزاق . وهذا الموقف ، وهذه القناعة الداخلية لا تلزم صاحبها الا بالدعاء لله والشكر له ، والسير على تعاليمه ووصاياه ، والجهاد في سبيله حسبما يدعو اليه نبيه ورسوله ، والاعتصام بكارم الاخلاق ، والتزام حبيل الفضيلة ، والتصدق للغير ، من اي لون او جنس كانوا ، وفقاً للتقاليد العربية المرعية ، والرفق بالمرأة . هذه هي بايجاز الرسالة التي قام محمد يدعو اليها العرب في مكة ، بأسلوب جزل ، وعبارة جمعت بين الایجاز والاعجاز .

غير ان قريش خشيت على نفسها من أمر هذه الدعوة الجديدة ، ووجد أسياها فيها تهديماً لعقيدتهم وخطراً على نفوذهم . فقاموا يضطهدون النبي وصحبه ، مما حمله على الهجرة الى يثرب ، عام ٦٢٢ ، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «المدينة» او مدينة الرسول . ومن هذا التاريخ او الهجرة اخذ العرب يؤرخون ، ومنها يبتدىء الحساب الهجري . وقد تغير موقف النبي العربي في المدينة : فلم يعد ليكتفي بالدعوة ، بل راح ينظم جماعته من الانصار والصحابة . اذ كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة او الايمان ، وتتمتع مثلها بسلطة الهية ملازمة ، تضبط ليس الامور الدينية فحسب ، بل ايضاً الامور الدنيوية ، فتفرض على المسلم الزكاة ، والجهاد ضد المشركين لمحلمهم على الاسلام ونشر الدين الحنيف . وبعد مواقع عديدة مع قريش ، استطاع محمد فتح مكة فأسلم أهلها وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية . وقد فرض على كل مسلم ومسلمة الحج مرة الى بيت الله الحرام لكل من يستطيعه . ولم تلبث القبائل ان اقبلت على الدعوة تقدم خضوعها . وعندما قبض النبي العربي ، عام ٦٣٢ ، كان محمد انتهى من دعوته ، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الاسلام ، وصهرهم في وحدة قوية ، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة ، لم تعرف مثلها من قبل .

وقد اوشك موت النبي ان يقلب الوضع في الجزيرة ، رأساً على عقب ، لو لم يتدارك الامر ابو بكر خليفة الرسول ، وامير المؤمنين بعده ، في سلسلة من الحروب العنيفة تُعرف بحروب الردّة . وولي الامر ، بعد ابي بكر ، الفاروق عمر بن الخطاب ٦٣٤ - ٦٤٤ ثاني الخلفاء الراشدين ، بعد الرسول . ولكي يبقي العرب كتلة مترابطة ، كان لابد من تجنيدهم في خدمة الدين الحنيف ، وارسالهم في سرايا لفتح الاقطار المجاورة .

تم الفتح العربي بسرعة ادهشت الفاتحين انفسهم . ولم يكن الغرض من الفتوحات العربية هذه الحروب ، في الاساس سوى الغزو ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي يلتابه ، فاستحالت الفكرة الاولى ، الغزو ، الى فتح ، ساعد عليه ، وسهل امره ، الحماسة التي جاش بها الغزاة الفاتحون . وهذا الضعف يتكشف عنه العدو قام اصلاً في هذا الكره الذي حمله الاهلون لحكم الروم ، فأثروا عدم مقاومة الغزاة ، بل ان قسماً من سكان البلاد تواطأ مع الغزاة وعمل على نصرتهم . وليس بالامر اليسير قط ان نتخلص من ربة حكم الروم ، كما جاء على لسان احمد المؤرخين من النساطرة . تم فتح سوريا سنة ٦٣٦ ، بعد ان بوشر به عام ٦٣٣ ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام ٦٣٧ ، اما فتح مصر فقد تم بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ، وقد تم فتح ايران نهائياً ، باستثناء بعض المقاطعات الدائرية ، عام ٦٥١ . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفاع « الوطني » خلافاً للامر في الولايات البيزنطية ، اذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة ، ويفرون الى القسطنطينية ان لم يتواطأوا مع الغزاة الفاتحين . وقد بات من الصعب على المسلمين ، بعد ان خفّت حماسهم وخفّ اندفاعهم ، ان يفتحوا آسيا الصغرى بعد ان فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية ، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى حيث اصبح نهر السيرداريا ، منذ اواسط القرن الثامن ، الحسد الفاصل ، بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول . كذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا ، بالامر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح ، ولم يستقم الامر امامهم الا بعد ان جروهم للمساهمة بفتح اسبانيا ، ثم صقلية ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمن . اما تقدمهم في غاليسيا فامتد حتى بلغوا مدينة بواتيه حيث كتب لشارل مارتيل ان يكسر الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ .

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس ، شرقاً ، الى نهر التاج ، في اسبانيا ، غرباً ، ومن بحر أرال شمالاً الى اقليم السنغال جنوباً ، وكلها مناطق تألفت مع طبيعة العرب ، وتوافق عاداتها ومعاشها ومفهومهم للامور المعاشية من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الاصليين ، عن احتياجات العرب ومطالبهم الاساسية . وهناك مفارقات شق في الجغرافية والتاريخ ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلاد ، لا بد من التدويه عالياً هنا ، انه بعد الفتح ، جرى تنظيم هذه

البلدان في إطار وحدة فضفاضة على اساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم . بقي ان نقول انه اذا ما ادت الفتوحات الجرمانية الى تقسيم اوربوا ، فالفتح العربي ادى بدوره الى وحدة الشرق الاوسط .

وبدلاً من ان يذوب الفاتحون العرب بين اكثرية سكان البلاد الاصليين ، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والاخلاق ، نراهم ينزلون في غنيمات عسكرية خاصة بهم ، في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور ، فاذا بسكان البلاد يفدون على هذه الغنيمات التي لم تلبث ان اصبحت مدناً عامرة ، كالكوكة والبصرة مثلاً ، في جنوبي العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيزوان في المغرب ، وكلها مراكز زراعية ، عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل ، بعيدة عن البحر ومواصلاته اذ لم يكونوا قد طوعوه بعد ، ولا ألفوا ركوبه . اما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح ، فينقسم الى فرق ، تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم « جند » تجرّي عليهم الارزاق والمزقات من الاسلاب والمغانم الحربية كل بحسب مرتبته ، او من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين . وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي ، بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري ، تحت امرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابة والانصار والتابعين . وكثيراً ما ادت المصيبة القبلية الى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب ، مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا اليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي ، فمزقت شمله وفرقت شيعاً واحزاباً ادت الى اشتباكات دامية استمرت قرناً واكثر .

كان لزاماً ان تفضي الاوضاع الجديدة ، بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل ازمة خلافة النبي العربي محمد ، الى ازمة جديدة ، اطول من الاولى واكثر تعقيداً . فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة ، مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولا خطرت على البال ، منها مثلاً قضية الحكم ، انطلقت من صميم هذه الفوارق العميقة والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والاهواء الشخصية ، في الظاهر ، والتي اقامت الجماعة واقعدتها ، بعد ان زال الجيل الاول الذي صعب النبي وثأمره . ويمكن رد هذه الاختلافات الى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض ، والتي يمكن ردها اصلاً الى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينيّة الى النظام الاجتماعي . فالتكتلات السياسية التي طلعت علينا ، اذ ذاك ، لم تلبث ان اصبحت احزاباً وشيعاً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضمها السياسي والديني .

في هذا المراك السياسي العنيف الذي وقف فيه الخليفة عثمان ، ثالث الخلفاء الدولة الاموية الراشدين ، ومن بعده معاوية امير الشام ، ضد علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، ورابع الخلفاء الراشدين ، تبرز للعين والنظر ثلاث نزعات لا بد من الوقوف عندها .

لهذه البدء ، نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول ، الصعب المنال ، الذي يتبدى لكل دين

جديد ، والذي يرمي للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية الاولى واحياها ، ممثلة خير تمثيل « بقدامى المسلمين » ، والفئة الاخرى التي تتألف من هذا الفريق الجريء الذي يعمل على الافادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية ، وبعبارة اخرى ، بين من يقول بالتقية ويتمسك باهداب الدين الحنيف ، وبين هؤلاء الحكام الاداريين ، ممن يتولون تصريف الامور ، ومعظمهم من آل قريش الذين همهم في الدرجة الاولى ، ان يسترجعوا ، في الامة ، النفوذ الذي كان لقريش في مكة ، أبتان عهد الجاهلية ويعيدوا اليها ، السيادة والنفوذ اللذين تمتعت بهما من قبل . وظهر بين الفئة الاولى نزعتان . فالخوارج رأوا ان المؤمنين سواء فيما بينهم اصلاً ، فاذا كان لا بد لهم من امير يتولى الامر بينهم فأولاهم به اقرهم الى الله ، دون نظر الى الاصل او العرق ، مع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه ، من المسلمين ، باعتباره مارقاً ، خارجاً عن جادة السبيل . ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي المرعي الجانب بين العرب . اما الشيعة ، فالتمسك بالاسلام الحنيف ، انما يعني في نظرهم ، التمسك بعامة النبي ولا سيما باهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب . فالامر عندهم اكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية ، هو الرفض بالتسليم بما يذهب اليه خصومهم بان صاحب الامر : الامام ، ليس سوى مجرد حاكم ، بل اعتقدوا عن يقين ان الوحي المحمدي يجب ان يستمر وان يبقى في اهل عترته ، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في امور الدين ، وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة . فلا عجب ان يفوز ، بنهاية الامر ، السياسيون بشخص معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في دمشق (٦٦١) . وقام الخوارج بحوادث دامية وفتن في معظم أنحاء الدولة الاسلامية دون ترابط قط . اما الشيعة ، فقد رأوا اهل البيت منهم يستشهدون في كربلاء ، عام ٦٨٠ ، وينالون شرف الشهادة ، بينما انصرف بنو امية لتثبيت دعائم ملكهم وتوطيد سلطانهم .

وعندما بُويغ معاوية بالخلافة ، جعل دمشق عاصمة للملكة ، مكرساً بذلك ما كان لا بد منه ، وهو التحول عن الجزيرة العربية ، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته باعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً شاعاً الى خارج الجزيرة العربية ، ليغمرها الصمت من جديد . صحيح ان لفريضة الحج الى مكة ، واستمرار ابناء الانصار والصحابة في المدينة المنورة حفظا لهاتين المدينتين اللتين يقدسهما المسلمون ، منزلة كبيرة في القلوب ، غذت في نفوس البعض الرغبة في الثورة والانتفاضة في وجه السلطة ، الا انها محاولات باءت جميعها بالفشل . وقد اضفى انتقال مركز الخلافة الى دمشق أهمية متزايدة لعرب الشام فاصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخراها ، واصبحت الشام في المنزلة الاولى بين الاقطار الاسلامية تفضلها جميعاً ولا سيما العراق حيث كان انصار اهل البيت اقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم . واضطرت الدولة الناشئة ان تعتمد في ادارتها على اهل الشام الذين اصبحوا عماد الدولة فأمدوها بالعمال والموظفين من ابناء البلاد ، وهكذا رجعت كفة التقاليد البيزنطية على التقاليد الساسانية .

قلما عزف التاريخ والحق يقال ، فتوحات كان لها ، في المدى القريب ، على الاهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الاقطار . فمن لم يكن عربياً من الاهلين لم يشعر باي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من اهل الكتاب ، حق لهم ان يتمتعوا بالتساؤل وان لا يُضاموا . وكان لا بد من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزردشتية والمالوية والبوذية وصائبة حران ، هذه الطائفة التي كان اصحابها يعبدون النجوم والكواكب ، وغيرها من الملل والنحل الاخرى . والمطلوب من هؤلاء السكان ان يظهروا الولاء للاسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه ، وان يؤدوا له الرسوم المترتبة على اهل الذمة تأديتها ، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدى المسلمين ، وان يحافظوا على عروبة الجيش . وفي نطاق هذه التعفظات التي لم تكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية ، تمتع الذميون بكافة حرياتهم . والى هذا فقد كان من الصغيب جداً على العرب المسلمين الذين ألتفوا اقلية ضئيلة جداً في وسط هذا الخضم من الأمم والاقوام التي يستر الله لهم السيطرة عليها ، ان ينهجوا نهجاً آخر ، ويأخذوا الناس بالشدة والا لكانت الحروب افتتهم واكلتهم .

وتألفت ادارة الدولة من قطاعين ، ينتظم الاول سياسية المسلمين ، فينظم منهم شؤون الحرب والسلم وامور المبادات ، ويؤمن اقتسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الادارة ، في عاصمة الخلافة دمشق ، وفي الاقاليم موظفون عرب . اما الثاني فيعنى بشؤون سكان البلاد ولا سيما بتنظيم الضرائب وجبايتها ، يتولى القيام به الاشراف عليه عمال وموظفون من اهل البلاد ، يتولون كتابة الديوان وضرب السكة بلفة البلاد ، وبغير ذلك من امور الادارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين . ونرى في القطاع الاول ، يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين . فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحياة العامة والحياة الخاصة ، بحيث لا يمكن ادخال أي تغيير عليها أو تعديل .

وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الاصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد ، والنظام الساري المفعول ، كما هي الحال مع كل فتح جسيم . وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندها ، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام ، فرجعه الحكومة ، أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض ، فكان امره متركاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة ، مع انها هي التي تتولى امر تعيينهم وتأمين مرتباتهم ، ويسهرون على تطبيق القانون لم تكن الدولة اصدركه . ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعد ان احتفظت بيمعهم بجانب من ممارسة العدالة في الامور الخاصة ولا سيما العائلية منها . وهكذا برز البطارقة والاساقفة ، الرؤساء الاعلى لطوائفهم تملو سلطتهم سلطة الموظفين الاداريين المحليين ، حتى ان اليهود انفسهم لم يحسدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربائنتهم وبمخاضهم الاكبر .

الشريعة الاسلامية اساسها الوحي المحمدي وهو وحي وتعاليم لم تكتب في عهد محمد، فتناقله الصحابة في قلوبهم كما تناقل الرواة الشعر من قبل ومن بعد. فهل يمكن ، لعمرى ، القول او التسليم بوجود او بامكان وجود اختلاف ، او تناقض في كلام الله ؟ وامام خصومة الذين راحوا يتهمونه بعدم التدن او المروق ، راح ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان ابن عفان ، يجمع القرآن من حامله ويدونه بحرف عربي لم يبلغ بعد الطوعية اللازمة ، وهكذا ظهر القرآن بوضعه الحاضر . ولم يكن الغرض من جمع آي القرآن على هذه الصورة إعداد ترجمة مفصلة لحياة النبي العربي او ترجمة مسهبة له ، بل بالاحرى جمع وقائع حياته وتعاليمه التي حدثت او وقعت في ظروف وامكنة مختلفة ، والخروج من ذلك كله بكتاب او قرآن ، منهجي ، نهائي ، غير مربوط بزمان او مكان . ولذا جاء ترتيب آيات هذا القرآن وسوره لا يراعي التطور التاريخي لهبوط الوحي المحمدي ، اذ يحسد العلماء اليوم من الصعوبة بكان ، تحدد اماكن هذا الوحي وتحديد الظروف التي نزل فيها .

ومع ان القرآن هو اصل العقيدة الاسلامية وركنها الركين ، فهو ليس مع ذلك ، مصدر الشريعة والعقيدة الاسلامية الوحيد . فالقرآن هو كلام الله المنزل . الا ان سلوك الرسول العربي ، واقواله ، واحاديثه ، حتى ما كان منها لا يتعلق بالوحي ، لها قوة تعليمية اسمى بكثير مما للناس من امثالها . ولذا بدا من المفيد لا بل من اللازم ، الرجوع الى هذا كله والاسترشاد به والهدي بمسافيه من موعظة وحكمة وعبرة لاتمام الشريعة المحمدية ، اذ هنالك حالات وظروف واوضاع طرأت على الامبراطورية العربية ، لم يرد في القرآن ما يعرض لها او ما يسمح بمعالجتها . وهكذا راح المهتمون ، بالامر يدرسون التقليد او سنة الرسول يستخرجون منها الاحكام والقياسات المرجحة ، يستخدمونها ضد الشيعة والخوارج . وهكذا اخذوا يجمع اقوال النبي واحاديثه بالرجوع الى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ولم يلبث ان نشأ من هذه الحركة علم جديد هو علم الحديث ، كما اطلقوا على من يعنون به اسم المحدثين . وقد قام اصحاب الملل والبدع الاسلامية ، تمريزا لمقاتلتهم او لمواقفهم ، يدعون احاديث نبوية ، بعضها محرف وبعضها منحول من الاساس ، بحيث راح المحدثون يضعون حدودا صارمة لتمييزها بين الصحيح منها والزائف . ويرى مؤرخو مصر في هذه الاحاديث ، وثائق تتعلق بتطور الاسلام اكثر منها وثائق تنير جوانب غامضة ، في حياة النبي العربي .

وهكذا اخذت تتضح مبادئ العقيدة الدينية في الاسلام ، كما تحددت اركانها الخمسة او القواعد الكبرى التي ينهض عليها الدين الجديد ، الا وهي : الشهادتان ، والزكاة وصوم رمضان والجهاد او الحرب المقدسة ضد المشركين ، والحج الى بيت الله الحرام ، مرة في الحياة على الاقل ، وإقامة الصلاة خمسا في النهار . وهي تقام ، بالافضل ، في موضع معين للعبادة هو المسجد ، ولا سيما يوم الجمعة جرياً على عادة إقامتها يوم السبت ، عند اليهود ، ويوم الاحد ، عند النصارى . فالمسجد ، كالكنيسة ، هو مكان للعبادة كما هو مكان تعقد فيه الجماعة اجتماعاتها العامة للنظر

وتبادل الرأي . وقد حدث ان حوّلوا كنائس الى مساجد ، غير ان العرف المتبع هو ان يُعبد، في أكثر الحالات ، بتشييد المساجد ، الى عمال من أبناء البلاد . وهذا المسجد يتألف ، في الداخل ، من بهو فسيح الارحاء الى صحن كبير أبهاء فرعية وأروقة تقوم جميعها على صفوف من الاعمدة ، تنتهي الى حائط مستقيم الخط تقوم امامه حنية تتجه الى القبلة ، والمحراب والمنبر حيث يقف الامام مصلياً وخطيباً . ويمتد امام البهو فناء رحب أعدت فيه أماكن للوضوء تجري فيها المياه . ويعلمو المسجد عادة ، مثذنة تشبه القبة في كنائس النصارى ، يمثلها المؤذن خساً في النهار يدعو الجماعة : « حيا على الصلاة » . فالصلاة لا تستدعي ولا تتطلب ، مبدئياً ، أية رتبة دينية لترؤسها . فمن السهل على كل مسلم ان يفهم دينه ويحفظ ما فيه من حدود . وما من احد يتلقى من الله عن طريق التكريس أي مراسم اخرى ، عوناً خاصاً او نعمة ليسير بحسب هدى دينه . ومع ذلك ، فلم يلبث ان ظهر بين الجماعة طائفة من الفقهاء تخصصوا بأمور الدين وتفقّسوا بفرائضه ، كتب لأصحابها ان يلعبوا دوراً بارزاً في الاسلام ، هم طائفة العلماء .

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ، ولا على السواد الاعظم من سكان المدن ، وكلهم غير مسلم ، أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد اخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ، ينظمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينية والكنسية الخاصة بعد ان تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها . وسيدفون غالباً ، في المستقبل ، ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي ، فقد اقتصرت علاقاتهم ، مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الحاضر ، على بعض الاتصالات الانسانية ، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم . وقد راحت بيزنطية ، بالاحرى ، تشمر بالاسف المرير لفقدانها أغنى ولاياتها مادياً وروحياً . وخير من يمثل هذا الوضع ويصور هذا الواقع ، احسن تصوير ، هو يوحنا الدمشقي ، احد كبار الموظفين في البلاط الاموي ، الذي كفر بالعالم بعد حين ، وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا ، القريب من القدس ، واشهر لاهوتي الكنيسة الشرقية الملكية في هذه الحقبة ، ولعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين . وقد عرفت هذه الكنيسة الملكية ، لبقائها على الولاء « لك » ، او لامبراطور بيزنطية ، وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية ؛ كما لحقها أذى كبير من جراء فقدانها السلطة الكنسية ولشغور كراسي بطريركيته ، في المرحلة الاولى ، ثم لتوليها ، فيما بعد ، من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافة الاسلامية ، منهم بطريركية القسطنطينية . وقد بقيت ، بالرغم من هذا ، نشيطة حية ، كما نرى من سيرة القديس يوحنا الدمشقي .

والى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي اخذت اسمها من اسم راهب يدعى مارون ، الا ان ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية انطاكية ، جعلها تتردى في الهرطقة المونوثولية او القول بمشيئة واحدة في السيد المسيح ، في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها . وقد اخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع ، بين بين ،

من الانشقاق والانفصال ، تحت ادارة بطريرك خاص بها ، وبدون قصد معين . وبالرغم من هداوة اتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في اعينهم . اخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية ، بعد ان اخذوا في حرثها واستغلالها ، وبعد ان رأوها امنع جانباً وآمن لسكرانهم من تلك الهضاب والنواحي الواقعة الى الشمال من سوريا والتي سكنوها رَدْحاً من الزمن في بدء امرهم . اما اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبة واقباط وارمن ، والفساطرية ، فقد استطاعوا في اول عهد السيطرة الاسلامية ، ان يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم . وقد هب البطريرك إيشونيهب الثالث النسطوري ، الى وضع سلسلة من التشريعات الليتورجية والقانونية ، ثم انصرف الى التأليف في الامور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي مع الحرص الشديد على السير مع الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك ، ولا سيما في الطب . وقد برز عند اليعاقبة في هذه الحقبة ، ولا سيما في الحياة الرهبانية ، يعقوب الرهاوي الذي كان اوحده علماء زمانه ، بل قطبهم وعيدهم ، اديب ، شاعر ، ناقل ، مؤرخ ، مفسر ، مشترع ، وفيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة . ما ازدحم العلم في صدر احد ازدحامه في صدره ، فكان ملفان البيعة الاكبر . وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني . وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين ، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية ، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية والليتورجية لغة واحدة بالرغم من بعض الفوارق الطفيفة . فقد أثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الاقباط والارمن ، بينما تابع النساطرة جهودهم للنشر المسيحية في الاقطار الوسطى من آسيا .

وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد وُزعت الاراضي في الريف الى قسمين متميزين : الاملاك الخاصة ، والاملاك العامة ، ثم اضيفت اليها الاملاك التي فقد اصحابها ملكيتهم لها ، لفرارهم من البلاد عند الفتح او لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها اذ ذاك . فالقسم الاول من هذه الاراضي ترك لاصحابها ، شريطة ان يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل للدولة البيزنطية او الساسانية . اما القسم الثاني من هذه الاراضي ، فقد أجزأ الى مزارعين او مرابحين (إقطاع) معظمهم من العرب ، بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لمقود خاصة ، رأى فيها بعض الفقهاء من اهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا به طويلاً ، مع ان الدولة الجديدة التي لم تكن ألفت بعد مثل الفروق الدقيقة ، اعتبرتها املاكاً تشبه في ملكيتها ، هذه الاملاك التي كانت معمولاً بها في الجزيرة العربية قبل الفتح . فالإقطاع هو ملكية عقاريولى صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية ، مع ما لذلك من حدود . فعلى سيد الارض ان يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ، ويعمل بما يتصدق به 'عشر ربحه او مدخوله . فهو لا يتمتع باي من الامتيازات التي تحق قانوناً للسلطات العامة ، على المرابحين او المستأجرين ، فسلطته عليهم هي اخف من سلطة اصحاب

الاملاك على مزارعهم ، في عهد البيزنطيين والساسانيين . وعلى هؤلاء المزارعين ان يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الاملاك من الفلاحين ، وهكذا نرى ان هاتين الفئتين من الاراضي لم تخضعا لنظامين اقتصاديين يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً . وهكذا لا نرى وجهاً « للاستعمار » العربي ، الا ما جاء استثنائاً او استغلالاً للاراضي الموات غير القابلة للحرب والزراعة . وهكذا نرى ان الفتح العربي ، كان اخف وقعاً بكثير على الاهلين ، وكان شعورهم به أقل بكثير من شعور الناس ، في الغرب ، بغزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية .

ان حرب « ارباب » الاراضي البيزنطيين من البلاد ، وحلول ملاكين عرب محلهم أمقل دراية وخبرة منهم بنظم الاقطاع ، لم يجلب معه الحرية للفلاحين . وكأنت من المخطور على العرب ، مبدئياً ، ان يصادروا أو ان يختلسوا أملاك سكان البلاد . اما في الواقع ، فقد ساعد الشعور والسرور بالخلاص من المحتل المستعبد ، وفقدان الادارة والنظام الذي ران على البلاد ، في اول الفتح ، بعض قادة العرب وزعمائهم ، على اقتناء قرى وضياع ضموها الى ممتلكاتهم السابقة ، وأعفيت من ضريبة الخراج ، فلم تستفد الدولة منها غير استيفاء العُشر ، ومثل هذا الوضع لم يكن واحداً سوياً في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية . ففي ايران مثلاً ، أسقط في ايدي أسياد البلاد وكبار الملاكين ، وُسدت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا ان ينجحوا بانفسهم ، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه . واذا رأى زعماء العرب انفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية ، قاموا بعدد من التجاوزات ، حدث منها اضطرامهم للتغيب كثيراً عن املاكهم بداعي الجهاد ، وعدم خبرتهم ودرائتهم بسياسة الأرض والعناية بها . وتمسك الفلاحين بالأرض وتعلقهم بها في عهد الادارة السابقة ، لم يتأثر كثيراً مع الفتح العربي . ولذا كان لا بد من الكشف عن الهاربين لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن املاكهم في الريف ، من ضرائب ورسوم ، لانهم لا يزالون مسؤولين ، قانوناً ، عنها امام الادارة المالية . ولذا نرى الوثائق البردية في مصر ، حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على اشدها ، تأتي على ذكر هؤلاء الفارين ، لدرجة انها اصططلحت على تسمية ضريبة الاعناق او الجزية المستحقة عليهم ، بكلمة « جوالي » أي اللاجئين ، وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الاعناق أو الجزية ، بقطع النظر عن الاراضي أو العقارات التي يملكونها . وهذه الضريبة الثانية ، أي الجزية ، التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح عليهم ، اذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً ، او لم يكن حراً . وهكذا فالحية وطرق الجبهة ، كل هذا بقي على ما كان عليه قبل الفتح ، ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة . وهو أمر لم يكن ليكثر له الاهلون ، او ليهتموا له ، بقليل او كثير .

أما المؤسسات البلدية والخاصة ، في المدن ، فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالعتاد في ظل النظم التي سارت عليها الادارة الجديدة .

وهل من تمييز يطرأ على التجارة ، يا ترى ؟ فقد تم بالطبع ، إلغاء الاحتكارات الرسمية ، كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية ، على الاسواق في مصر ، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين اسباب تامين العاصمة القسطنطينية . وقد تكون خفت ، ان لم تتوقف تماماً ، الحركة التجارية في شمالي الشام ، ولا سيما تصدير الزيت والزيتون ، الى مقاطعات آسيا الصغرى . والذي نرى انه لم يحدث اي توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على ايدي بعض التجار ، كما ان الانتاج بقي على وفرته ، حتى في حال توقف حركة التصدير ، وتحولت الى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء ، جديدة كانت ام قديمة ، وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الاموية . ومن الجائز ان نفترض هنا بان الوحدة السياسية التي لفت هذه الاقطار بعضاً الى بعض ، بما وقع بين العراق وآسيا الوسطى ، والتي كانت ، الى ذلك الحين ، بين دفع وجذب ، بين امبراطوريتين متجاورتين ، متنافستين ، كان لها وقع طيب في الاوساط التجارية ، مع ان الناس لم يتبينوا فائدة هذه الوحدة ، إلا بعد حين ، والمهم ان نلاحظ هنا ، على ضوء سوء الفهم الناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة ، ستطالعنا بعد حين ، انه لم يحصل تمييز كبير في التجارة البحرية : لا في بحر الهند الذي سيطر على التجارة فيه الايرانيون ولا في البحر المتوسط ، فالعرب لم يكونوا رجال بحر كالبيزنطيين ، فلم يروا ما يمنع الا في بعض الحالات والاصطدامات المسلحة ، استمرار العلاقات التقليدية التي ربطت ، منذ اجيال ، بين البلاد المسيحية الواقعة الى الشمال من البحر المتوسط ، وبين سكان البلاد الواقعة في جنوبي هذا البحر والتي دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين . فقد يكون لحق ، بعض الاذى بالثغور السورية الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية ، أو لوجودها على مقربة من جزيرة قبرص . والظاهر ان نشاط الاسكندرية التجاري لم يتأثر بشيء يذكر من هذا كله .

وهذا الاستمرار عينه يلزم الحياة الفكرية : فحضارة سكان البلاد - منارات متقاربة - الوطنيين وحضارة العرب تسير كل منهما في خط أو اتجاه معاكس ، الا ما اتصل بمجال الفن . فالادب عند العرب ، في القرن الاول للهجرة يسيطر عليه الشعر وفقاً لعمود الشعر العربي في العصر الجاهلي ، بعد ان اخذ ينعم برعاية الامراء والخلفاء يستندون رجاله ويقطعون السنة الشعراء ، فقد تلقح بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الامراء ، استمداراً لمعطائهم ، أو كتصوير حياة الاحزاب ، وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الدعة التي اخذ العرب بأسبابها . ومن بين الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة في المدح والهجو على السواء ، ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بين امية اسماً ، واعلام شأناً وذكرأ ، الاخطل من قبائل الشام النصرانية ، والفرزدق وجريز . هنالك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتفتتوا ، في نظمهم ، بما في الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة ، كما نظموا في موضوعات شتى ، كالحاسة والموعظة والراء ، وفي العقائد وفقاً للاحزاب التي ينتمون اليها . ونرى كذلك ضروباً من اللسيب والتشبيب ، شعراً يلتهب حباً عذرياً ، كما نرى في شعر مجنون ليلى ، أو يفيض اسى ولوعة فيصف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة ، على انغام المغنين

والقيان . اما النثر ، فيبقى باستثناء القرآن ، وقفاً على التنفي بلإم العرب والحوادث المروية . كل هذا ، واللغة تزداد طواعية ومرونة ويسلس قيادهما مع المفسرين والمحدثين ، لتصبح في اواخر القرن السابع لغة الادارة والدواوين .

اما الادب القومي ، فبحال الكلام فيه قصير ، اذ لا يخرج منظمه ، عن التأليف الكنسي ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، اخذت تطالنا بواحد بحركة علمية ، تتمثل خير تمثيل في حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند الى العربية ، على يد النصارى من سريان ونساطرة . فبينما لا نرى احداً يبرز في التاريخ عند الروم ، يلتزم امام نواظرنا اسم المؤرخ الارمني سبتيوس اذ بقيت بلاده تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري ، في العهد الذي كتب فيه (القرن السابع) ، كما نرى ، عند الاقباط ، يرتفع اسم الكاتب يوحنا بن يحيى . وهذان الكاتبان عاشا الفتح العربي وتركنا شيئاً عنه . وهكذا فالحضارة المسيحية ، في الشرق الادنى ، في القرنين السابع والثامن ، تتمثل خير تمثيل في الامبراطورية العربية ، بينما لا نرى في هذه الحقبة ، شيئاً عند الروم يستاهل الذكر والتنويه ، باستثناء بعض الآثار في التاريخ والتصوف ، وذلك في هذه الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى مطلع القرن التاسع .

وقد اشتركت الحضارتان معاً في ما نرى من انتاج فني ، يمهده العرب الى المهندسين المماريين من أبناء البلاد ويستخدمون له مواداً هي ، في معظمها ، من مخلفات اليهود الماضية . فاذا ما اقتضت فروض العبادة ومناسك الدين في الاسلام ، ان يتميز بناء المسجد بالاصالة والاتساع من حيث مقاييسه ، فذهوشه وزينته من الداخل وتحليته تبقى مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد . وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الاهلية ، يبرز أكثر فأكثر ، في المباني المدنية بحيث ان نسبة قصر المشتى في الاردن ، تبقى أمراً مشكوكاً فيه جداً ، ولا يمكن بالتالي ، التسليم به بصورة مطلقة . ومن أشهر هذه الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا ، مسجد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، في القسطنطينية ، ومسجد قبة الصخرة الذي يسميه البعض غلطاً مسجد عمر ، والمسجد الأقصى ، في القدس ، وكلاهما من انجازات الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ويرجع تاريخ بنائها الى أواخر القرن السابع . وبعد ذلك بقليل المسجد الكبير في دمشق ، المعروف بالمسجد الاموي ، الذي كان ، أساساً ، كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان ، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر .

اخذ الوضع الناجم عن الفتح العربي يتغير تدريجياً ، وينقلب اقبال سكان البلاد الاصليين على اهتمام الاسلام
ظهر ألبطن ، تحت عوامل جديدة عديدة . منها في الدرجة الاولى ، إقبال الاهلين على اعتناق الاسلام اقواجاً اقواجاً . وهي حركة تثير الدهش في مظهرها ، اذ يقوم بها اصحاب اديان اوفر غنى ، مادياً وحضارياً ، وارفر عدداً . الا ان هذه الحركة لم تأتِ سواءً ، في كل مكان ، اذ بقي في بعض الاقطار اقلية دينية

متراسة العدد ، كما هي الحال مثلاً ، مع الطائفة المارونية في لبنان . وقد كان المسيحيون ، على
الاجمال ، اكثر تسكناً بعقيدتهم ودينهم من الزردشتية ، مثلاً ، وهي ظاهرة يمكن ردها
بالاخرى ، الى اسباب عديدة ، منها مثلاً القوة الادبية التي كانت للمسيحية في كثير من الاقطار
الاخرى ، ومن جهة اخرى ، تفلغل المسيحية بين الطبقات الشعبية في المجتمع القسام اذ ذاك .
ويتضح من جهة اخرى ، ان العرب ، خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل ، اخذوا يدعون
سكان البلاد لاعتناق دينهم ، بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى ، ان يقبلوا على اقتباس ديانة البلاد
التي فتحوها ، وهي في مستوى ثقافي اعلى وارفع . ومما بلغ من حدة الجدل الديني ، وغضب
الحروب التي قامت بين الاسلام والديانات الاخرى ، فقد كانت هذه وتلك ديانات من نفس
المستوى الذهني للمؤمن المتوسط ، اذ كان من العسير على المؤمن العادي ان يدرك ، او ان يفهم
كما يجب ، او ان يميز بين مفارقات رجال اللاهوت . فبعد ان ملّ النصرى وسُمّت نفوسهم
عطش المناقشات التي ادت اليه المناقشات الدينية والمذهبية ، وهذه الشروح ، والتفسير
والتمايل في الفلسفة اللاهوتية التي آلت اليها او شجرت عنها ، فقد رأوا في الاسلام تبسيطاً
معقولاً لمعتقداتهم ، غاية في الاستمرار والتكرار . وهذا الاسلام الذي اقبلوا عليه يعتنقونه
زرافات ووحداً ، كأنه لم يكن في نظرهم ، هذا الاسلام الذي خرج من بين يدي محمد : فهو
دين طرأ على اتباعه تطور كبير منذ ان اصبح في تماس شديد مع الشعوب والبلدان التي تم
إخضاعها ، بعد ان ادخل عليه معتنقوه من الاعاجم ما ادخلوا من رواسب تراثهم الروحي ،
وبعد ان لقوه بما لقوه من صور ونماذج وقوالب جديدة . ولكي نفهم ، من جهة اخرى ، حركة
اعتناق الاسلام بالجملة ، علينا ان لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والادبية والاجتماعية
التي طمع المؤمنون الجدد في قطعها من اعتناقهم الاسلام ، اذ ان اتخاذ الاسلام ديناً لهم ،
يحملهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة ، ومن أعضاء المجتمع المسيطر . وهكذا
فاعتناق الاسلام ، كان في نظر القوم اشباعاً لنهم طبقي ، ولشهوة اجتماعية ، وتحقيقاً لرغبة او
لحلم طالما راودهم بتحسين وضع اجتماعي ، وطالما اوردتهم ، وهذا وضمهم ، مورد الذل والهوان ، أكثر
بما هو ارضاء لنزعة دينية ، او لمطلب اسمي من مطالب النفس البشرية السامية . فالمرتدوث
للالسلام ، لم ينالوا حالاً ، المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية ، التي طعموا بالحصول عليها .
فالاسلام الذي اعتنقوه لم يكن دوماً هذا الاسلام المتمثل في الحكومة والادارة المركزية . فهو
كثيراً ما كان ، اسلام هذه الملل والنحل الاسلامية المعارضة . وهكذا فلكي تقوي هذه الملل
من جانبها المستضعف ، وتشد من أزرها امام الاسلام الدولة او الاسلام الرسمي ، نرى اتباعها
يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الوطنيين ، لحملهم على اعتناق الاسلام ، وفقاً لمقالتهم
او حزبيتهم الخاصة .

فالدولة الاموية كرسّت سيادة العرب وسيطرتهم . ففي نظر الفاتحين ، العربي والمسلم شيئان
او وضعتان مترادفتان . فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة ، من قبل سكان البلاد ، ميعان هذا

الترادف ، وذهاب بهذا التوافق ، اذ في مثل هذه الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر ، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الامر البتة . فالاول الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب ، أنزلوا منزلة القوم من القبيلة ، فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناء لها بالتبني ، هم الموالي ، بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم . ومع ذلك فوضع هؤلاء الموالي كان بالفعل ، دون أبناء القبيلة ، وهو وضع برّ موا منه ، وتالموا له كلما ازداد عددهم ، وكلما تباعدت عن الاذهان ذكريات الفتح ، واخذت الدولة الجديدة في تنظيم امورها بعد ان اصبحوا ذخز الدولة يرفدونها بالعنصر الاداري . وقد اقتصر وضعهم في الحروب ، على دور ثانوي ، لا يخولهم أي حق بالغنائم والاسلاب التي يصيبها العرب في فتوحاتهم . وفوق هذا ، فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مما يُرغَب فيه . فاعتناقهم الاسلام ، كان يجب ان يؤدي ، في نظرهم ، الى اعفائهم من الجزية المضروبة عليهم قبل اعتناقهم الاسلام ، كما كان يجب ان 'تحول' ضريبة الخراج المترتبة عليهم ، الى 'عشر' . فلم يحدث شيء من هذا عملياً . أفكان من المعقول ، ان تقبل الدولة بمثل هذا الرأي الخطل وقد أوشكت حروب الفتح ان تنتهي ، وان تقبل بمثل هذا الفيه المتدني من الرسوم والضرائب ؟ والحل الذي انتهبوا اليه مع الوقت ، هو الغاء الجزية ، هذا الميسم الذي يدمغ الذميين والخاضعين للاسلام ، على ان تستبدل ، فيما بعد برسوم اخرى تحمل محلها ، وان بقي تصنيف الاراضي ، من الوجهة الضرائبية ، على ما كان عليه ، منذ الفتح : فتبقى ارضاً يترتب عليها الخراج ، هذه الاراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام . وهكذا استمرت قائمة ، هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم المساواة ، بمثابة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ، هذا النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة . وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة ، قام المرتدون الى الاسلام يطالبون باجراء العدل بالسوية وتأمين المساواة بين المسلمين ، من أي جنس او عرق كانوا ، وليس بين العرب فقط . وهكذا ، فحركة التذمر التي ارتفعت ، اذ ذاك ، بين سكان البلاد ، لم تتجه ضد سيادة الاسلام وسيطرته ، ولا ضد الديانة الجديدة . فقد هدفت الى السيطرة على الاسلام من الداخل ، في هذه الأطر ذاتها التي ارتضاها الاسلام له وعمل بها . وعلى هذا الاساس ، قامت الحركة في ايران ، بلد الموالي الامثل ، وفي المغرب الاقصى ، بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً ، وبعد ذلك ، في اسبانيا ، بين طبقة المولدين ، هذه الطبقة التي تألفت من ملاطي المسلمين او من الذين اعتنقوا الاسلام ، من سكان البلاد الاصليين . وبلغت الحركة اشدها في ايران ، وقد ساء لها ان يعتمد الامويون على اهل الشام دونهم ، في تدبير امور دولتهم ، بينما رأى سكان الولايات الاخرى أنفسهم يذهبون هم أيضاً ضحية هذا النظام . والحال فقد كانت ايران ، من بين هذه الولايات ، القطر الوحيد الذي كانت له تقاليد الوطينية أو القومية .

وهكذا تلتقي في مجال النظام الضرائبي ، جنباً الى جنب ، القضية القومية والقضية الاجتماعية ، وزادتا تداخلاً وتشابكاً وتعاضلاً في نظام الملكية الذي 'عمل به في الدولة الاسلامية' . ففي ابان الفتح ، 'تركت للعرب ، الحرية في ان يقتنوا ، شراءً او غلاباً ،

الاراضي التي كان على سكان البلاد ، مبدئياً ، ان يحتفظوا بها . الا انهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التلجئة ، وهي ضرب من التوصية او من الإرتفاق ، في الغرب ، يلجأ اليه من الناس المستضعفون الجانب ، ليأمنوا شر الجباة الشرهين ، وسوء معاملاتهم ، او لعجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المؤجلة الدفع ، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد ان يجمعوا املاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية . اما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود ، فكثيراً ما عمد العرب ، في غفلة من الخليفة او الأمير ، الى اغتصاب املاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ، بعد ان يسموهم الهوان الوانا ، كما فعلوا مثلاً ، مع قبائل البربر ، في المغرب . وقد رأينا في اماكن اخرى ، كإيران مثلاً ، كبار الملاكين من سكان البلاد ، يعقدون صلحاً مع القادة من امراء الجيش ، من مندرجاته : استثمار الطبقات الشعبية السفلى ، بحيث يعارضون اعتناقها الاسلام ، لئلا يزعمهم مثل هذا الارتداد ، في طريقة تأمين المنافع التي تؤمنها لهم هذه الترتيبات الخاصة التي عقدها مع اولي الشأن . وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية ، وفي هذه المعارك التي لن تلبث ان قامت بين المسلمين ، نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه ، عرباً وغير عرب من الانصار .

اما على صعيد العواطف والمشاعر ، فالاصطدام وقع بشكل مدمش : بين اشد العرب استمسكاً بالتقاليد ، من جهة ، وبين اشد سكان البلاد ثورة ومطلباً . فبينما راح الفريق الاول منهم يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى ، وهذا يعني الوقوف في وجه الدولة الاموية النصف العلمانية ، بينا رأى الفريق الثاني ، في تطبيق الشريعة الاسلامية ، المساواة بين المسلمين ، على صعيد الأُطر والملاكات التي تنتظم الادارة العربية ، منذ الفتح . وبدون ان يوضحوا مطالبهم والاهداف التي يرمون اليها ، نرى كلا الفريقين يطالب الأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه . وهذا التحالف لم يكن قائماً على ما فيه لبس او غموض . فمن العقول جداً ان تجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع ان يطفئ بالدم الانتفاضات التي قامت هنا وهناك ، بالتحاد اوسع واشمل ، وهو اتحاد ادى ، على ما حف به من غموض ، الى النصر المرجى .

وقد اتخذت المعارضة اشكالاً شتى . فالخوارج نالوا تأييداً مؤزراً ثورة بني العباس وانقلاب الحكم في كل من ايران ومصر ، ولا سيما في المغرب حيث استفحل امرهم وعظم شأنهم بعد ان استجاب الاهلون من البربر لهذه الدعوة لتوافقها مع النزعات الفوضوية الدلالية المتأصلة بينهم ، غير ان بعد بلاد البربر من جهة ، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة اخرى ، اذ كانت طبائعهم طبائع اهل البادية الذين عرفوا بالعنف والتهور ، كل ذلك حال دون ان يحققوا فوزاً فاصلاً . وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة ، او بالاحرى ، في هذا الشمر العام الذي كان الشيعة خير من يمثله ، الا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبها من الله رأساً ، مناقب خاصة ، فكرة تستهوي معاً

اصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرّون ما في رسالة محمد من قيمة سامية ، كما تبسم للايرانيين الذين أَلِفُوا حكم الساسانيين وارتاحوا اليه . وقد اخذ البعض يضيفون الى نظرية الحكم هذه ، آراء وتعاليم تعكس أمجاد السكف والحدود عند الاعاجم . وكان الشيعة يطالبون بأن يكون الحكم في اولاد علي بن ابي طالب وذريته ، بينما راج غيرهم يتمسك بأسرة النبي دون ان يخصوا منها فرعاً معيناً ، واظهروا استعدادهم لمناصرة اية حركة ذات شأن . واستطاع احد اولاد العباس ، عم الرسول العربي ، بما تم له من دراية وحسن سياسة ، ان يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) ، هو ابو مسلم الخراساني ، وان يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس ، وان يسقطوا الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ، فؤوسوا هكذا دولة جديدة استطاعت ان تستمر في الحكم ، ولو نظرياً او مبدئياً ، على الاقل ، الى مطلع القرن السادس عشر .

حاولت الدولة الاموية ، لمعمرى ، ان تكيف نفسها حسب مقتضيات الوضع القائم ، واستطاع الخليفة عبد الملك ، ان يُوحّد ، لاسباب اقتصادية وسياسية مما اقتضتها حروب الامويين ضد البيزنطيين ، ضرب السكة والنقود في ايام حكمه ، ف ضرب نقوداً تحمل كتابة عربية ، منها الدينار الذهب ، وزنته ٤ غرامات و ٣٥٥ سلتيفراماً ، والدرهم الفضة ، وزنته ٢.٩٦ غراماً و ٧٩ سلتيفراماً ، وهي اسماء مشتقة أصلاً من الدينار والدرهم البيزنطيين ، وكانت قيمة الثاني الى الاول بنسبة ١ الى ١٠٠ على اساس الفضة ، اي بمعدل ١٠٠ من سعر الذهب . ومن الاعمال التي حققها الخليفة عبد الملك ، في عهده ، تعريب الادارة ولغة الدواوين ، اقله في مركز الخلافة . وقد حاول الخليفة 'عمر بن عبد العزيز' ، وهو الملك المثالي ، في نظر المؤرخين العرب بتقواه ، ان يطبق خلال حكمه الذي دام سلتين لا غيره ، البرنامج المالي أو الضرائبي الذي طالب به أهل المدينة . وعلى ضوء حالة الحرب مع بيزنطية التي لم تعد ، كما في الماضي ، سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات ، ندرك بعض الشيء ، سياسة الشدة والتدابير القاسية التي اتخذها الخليفة ، ولا سيما يزيد الثاني ، ضد النصارى ، في بعض المناطق ، ولا سيما ضد الملكيين ، اذ فرض عليهم ابراز جواز سفر في تنقلاتهم في اطراف مصر ، كما فرض عليهم زيتاً خاصاً من اللباس ، وتحطيم الشارات المسيحية البارزة للعيان . كل هذه التدابير ، لم تكن على شيء من الرصانة ، ولم تأت باي علاج للمشكلة المتأقية عن اعتناق الايرانيين للاسلام بالجملة ، كما انها لم تفد شيئاً ولم 'تجند فتية' في تأخير اعلان الثورة ، ولا في إنساء أجل سقوط الخلافة الاموية .

بالطبع لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي الى ما كان عليه من بساطة في عهد محمد . فلم يُدَسَّخَلْ أي تغيير على نظام الخراج . ومع ذلك ، فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة . فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون وبه استطاعوا الإطاحة بالخلافة الاموية ، انما يعود ، أصلاً ، لعرب العراق الذين ناصبوا الامويين في الشام العداء ، ولا سيما للموالي من الايرانيين ، وعلى الاخص ، للخراسانيين من بينهم ، اذ كانوا دُخِرَ الدولة العباسية وسيفها المصلت ، فأعادوا الاعراف المتبعة في عهد الدولة الساسانية . اما البدو من العرب ،

فقد أبعادوا الى الصحراء بعد ان يئسوا من تطويرهم وتكييفهم ، كما أبعادوا كذلك ، عن الجيش ، الذي تألفت صفوفه من الحرسانيين ، فاقبلوا ينخرطون في كتابته واصبحوا العنصر الفني فيه ، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكتلة لها ، تأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية ، هي بغداد ، التي قامت على مقربة من مدينة طيسفون ، عاصمة الساسانيين من قبل . وقد انتقل معظم سكانها الى العاصمة الجديدة ، ونقلوا معهم عاداتهم واعرافهم . وهكذا زالت سيادة اهل الشام وذهبت سيطرتهم مع ذهاب الدولة الاموية ، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة ، من البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي وبحر العرب .

هدف النظام العباسي الجديد الى وصل ما انقطع من التراث الساساني ، كما رمى ، من جهة اخرى ، الى إحلال التسكك باهداف الدين محل د الاحاد ، الاموي . فالنظام القائم هو نظام إسلامي ، لان صاحب الامر فيه هو من سلالة النبي ، فأتاح له ذلك ، ان يتمتع ، بوصفه الإمام ، بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار ، دون ان تكون له القوة ، بالفعل ، لغير شيئاً من الشريعة او ان يكلها . وهذه الصفة الفائقة للبشر التي تلبستها ، الامامة ، تجعلنا ندرك جيداً البذخ الذي كان عليه بلاط الخليفة ، وعزلته عن الناس ، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته ، الا في مناسبات خاصة ، كالأعياد العامة مثلاً ، وهو يرتدي باهة وجلال ، ملابسه الفخمة تحفّ به كل مظاهر المهابة والوقار ، تشبهاً بملوك الدولة الساسانية ، من قبل . إسلامي كذلك هذا النظام القائم ، لانه قضى على كل ما يشتم منه امتيازات سياسية ومالية ، وقضائية وعسكرية ، بحيث تعود فائدتها على المسلمين كافة ولا تقتصر على العرب وحدهم . إسلامية أيضاً هذه الدولة لاعتمادها كل الاعتماد على علماء الدين والفقهاء ، حتى اذا ما اجمعوا على امر كان اجماعهم هذا تبريراً له ، واعترافاً بعدم مخالفته او مغايروته للعقيدة الإسلامية ، بحيث ان جميع المؤسسات والنظم التي طلع بها الحكم قد تبدو وكأنها من مستلزمات التنظيم الاداري للدولة . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم د كتاب الخراج ، الذي ألّفه ابو يوسف الانصاري ، المتوفى ٧٩٨ ، بأمر من الخليفة هارون الرشيد .

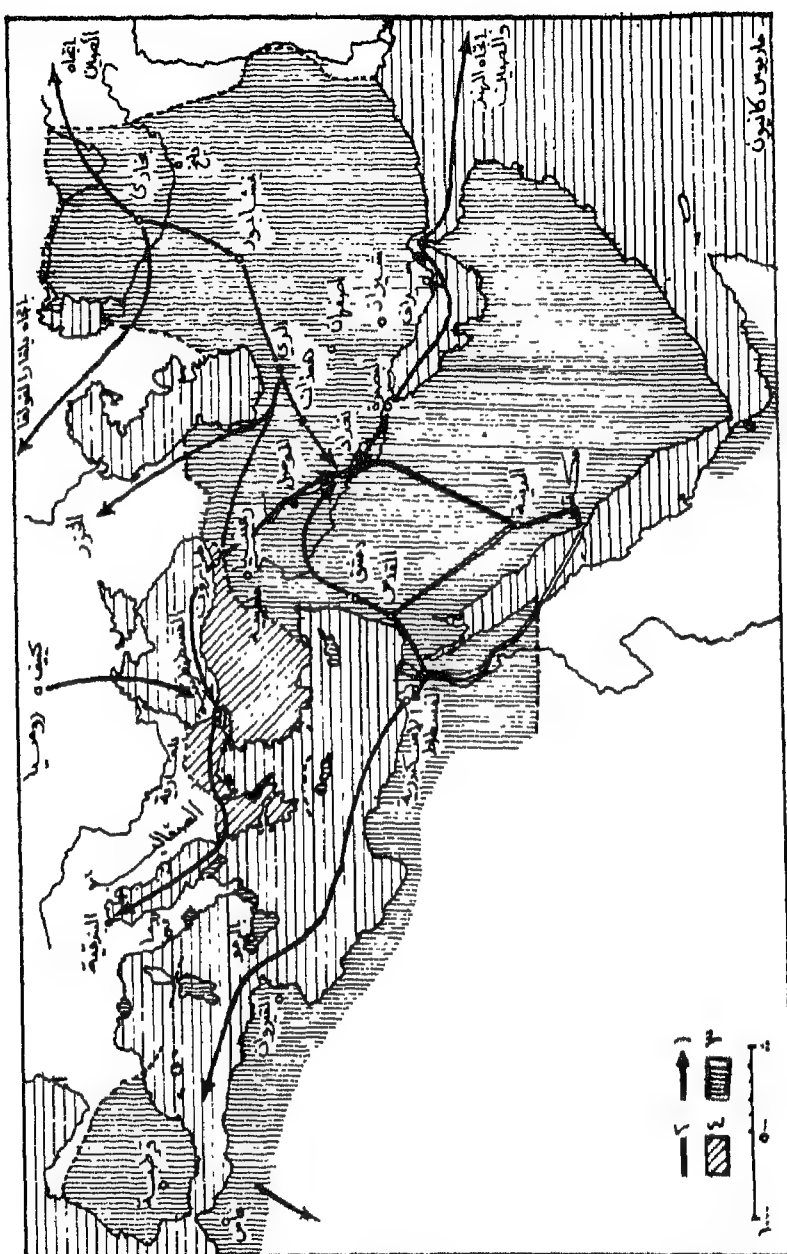
فقد اعتمدت الادارة العباسية المناهج الادارية التي عول عليها البيزنطيون والساسانيون ، من قبل ، وهي ادارة ، تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة - ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان ، هما *Divan* و *Douane* - يشرف عليها موظفون اداريون كبار ، اشبه ما يكونون ب *Sekretu* لدى البيزنطيين ، دون ان يتألف من مجموع رؤساء هذه الدواوين ، مجلس وزراء . وخلافاً لما كان يجري في بيزنطية حيث كان الامبراطور هو نفسه ، روح هذه الدواوين وهزة الوصل بينها ، كان الخليفة العباسي ، في بغداد ، يمهّد بالاشراف على الديوان ، الى وزير يشبه من بعيد ، *bozorg - fruhmudār* لدى الساسانيين ، وكان الوزير يتمهد تأمين العمل الاداري ، مستعيناً على ذلك بعدد من العمال يأتي بهم من بين انصاره ورجاله . ولذا كان يُخشى من نفوذ سلطانه ، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة ، هذه الاسرة الفارسية التي

اثارت ، بما بلغت من غنى وسؤدد وسلطان ، هواجس الخليفة هارون الرشيد ، فنكبتها شر نكبة ونكل برجالها وقضى عليهم . ومن اهم الدوائر التي يهيم الوزير انتظام العمل فيها دائرة جباية الرسوم والبريد ، وديوان الرسائل . وكان البريد يؤمن ، احياناً نقل بعض الامتعة الخاصة ، انما الغاية الكبرى منه تأمين تبليغ العمال ، في الولايات ، الاوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة ، كما يحمل الى الادارة المركزية مطالب الاهلين في الملحقات ، ومظالمهم . فالبريد كان يلعب ، في هذا المجال ، دور الامن العام ، في حكومات هذا العصر . ويقوم باعمال البريد 'سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات ، وهي على الاجال حسنة ، يقوم على ابعاد متساوية ، محطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين ، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة . أما الدواوين القائمة بمعية الوزير ، فكانت تقوم باعداد الاوامر ، وتعيين الموظفين والكتبة والعمال ، وتأمين المراسلات الدبلوماسية بعد ان يهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الادارة التي عولت اكثر ما عولت على الدواوين ، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات ، كما تكثر من السجلات الرسمية . وهي ادارة مركزية ، قائمة دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد . وهذا لا يعني قط ان الفوارق الاقليمية مثلاً ، ولا سيما ما تملق منها بجباية الرسوم والضرائب ، قد زالت واختفى كل اثر لها من الوجود . وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الادارة العامة ما تحتاج اليه من المعلومات ، كما كانت تشرف على اصدار الاوامر والتبليغات ، وتؤمن استلام رسوم الجباية ، بعد حسم تكاليف الادارة المحلية . وكانت ادارة الملحقات تتمتع ، هي ايضاً بالدقة كالادارة المركزية . وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة ، كما ان الوزير كان يتمثل فيها بحاكم مدني او عامل ، اليه امر الولاية وضبط الادارة ، يستقل الواحد عن الآخر ، يشرف الاول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج اليها الادارة .

اما العدل الذي كان امره ، ابدأ على هامش الادارة او الحكم ، فقد بقي من اختصاص القاضي . غير ان عدم كفاءة القانون احياناً ، وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة او الاعتراض ، وعجز القاضي عن تنفيذ الاحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين ، كل هذا اضطر الدولة لايحاء دائرة خاصة يشرف عليها قاضي ، هي ديوان المظالم الذي كان ينظر في امور التجاوزات على حقوق الآخرين . اما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يساعد على تطبيق احكام الشريعة . وهكذا رأينا يطل علينا قضاء دولة الى جانب قضاء شرعي يمثل القاضي . وقام في حواضر البلاد الكبرى ، دوائر للشرطة كان يعهد اليها السهر على الأمن وتأمين راحة العباد ، مستمينة في تحقيق هذا كله ، على فرقة ' الاحداث ' ، او الفتوة .

وهذا النظام او الحكم الاسلامي القائم ، كان اعجز من ان يحصل كل استمرار الاضطرابات
المشاكل العارضة ، أو ان يزيل اسباب شكوى الشاكين او الناقين ،



شكل (رقم ٥) - العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع
 ١ - الطرق التجارية ٢ - طرق الحج ٣ - اراض اسلامية ٤ - اراض بيزنطية

التي اتخذت منها الثورة العباسية "كثافة" لها . فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تلتفد شيئاً من حدتها ، اذ لم يؤخذ شيء من اصحاب الاملاك الكبيرة ، عرباً كانوا ام اعاجم ، لارضاء هذه الطبقات ، او للحد من هذه الممارسة الديلية ، عن طريق فوز حلف تألف من اشتات الاحزاب ، فكيف يرضى الشيعة مثلاً ، عن عهد ، ليس رجاله والقائمون على امره من ولد الامام علي بن ابي طالب ، وبين انصار الامويين ، فريق من الاكراد ، تشيع بالتقاليد القديمة ، وبينهم ظهرت فرقة الزيدية . كذلك بقيت راکدة تحت الرماد ، هذه الحزبيات والمصبيات التي فرقت بين المصبيات ، او انها انبعثت من جديد تحت مظاهر واشكال جديدة . فانتصار الايرانيين لم يزحزح العرب من طريقهم ، بل اضطرهم احياناً للوقوف موقف المعارض . اما المنتصرون الحقيقيون ، فقد كانوا اهل خراسان الذين تركوا جانباً ، فئات كثيرة من الايرانيين تعرضت من قبل لأذى الساسانيين ولسوء معاملتهم ، فبقوا على تشكياتهم يتذمرون بمرارة . ولعلهم قابلو بشيء من الاسف والحسرة ، بروز بعض الاعراب الذين ساعدوا انتصارهم على الظهور ، فسارعوا ، بعد ان تمت لهم الغلبة ، للتخلص من بطشهم القومي بالقضاء على ابي مسلم الخراساني الذي امن النصر للعباسيين . كل هذه الامور تبقى غامضة ، مبهمه ، مجهولة ، تصعب معرفتها بالتفصيل المرجحى ، الا انها واضحة في خطوطها الكبرى بحيث نفهم جيداً ونذكر تماماً ان هذا الغليان الفكري والاجتماعي الذي هب الثورة العباسية لم يهدأ بعد ان تمت له الغلبة وحققت النصر .

وهذا الاضطراب الذي ضرب سرادقه عالياً في كل مكان : في اسبانيا حيث استطاع احمد الامراء الامويين بعد ان نجح بنفسه من المذابح التي اعد لها لهم العباسيون ، ان يلقى له دولة مستقلة ، وفي المغرب ، مع الخوارج كما سنفصل ذلك بعد حين ، وفي مصر ، تحت ضغط عملاء الخراج الذين زاد وضعهم حرجاً ، الصعوبات الناجمة عن الاتجار مـسح بيزنطية ، وفي سوريا التي لم تغفر للعهد الجديد ، إغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها . وبما هو اوقع مدلولاً من هذا كله ، واقدح نتيجة ، الاضطرابات التي شجرت في ايران نفسها ، حيث نرى تطل علينا ، تحت مظاهر ديلية ، مطالب ادهى واكثر تمقيداً . وبجمل القول ، فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان واورميليما وما اليها من سكان ، سوادهم يعيشون على جوانب الاسلام في هذه المناطق الجبلية التي تشرف على قزوين ، تبقى ابدأ في غليان من جراء هذه الدعوات الدينية المتتالية التي ادت اليها بعض التعاليم الديلية الاسلامية المنحرفة بما يمتثل به سكان هذه المناطق من رواسب المائوية والزردشتية ، هذه القوالب الديلية التي حننت اليها دوماً نفوس الطبقات الشعبية في ايران القديمة . وهكذا كشفت هذه الاقوام عن وجود معارضة قوية ، قومية ، واجتماعية ، انتصبت في وجه هذه الاوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها ، في الجهالين الديني والسياسي ، بمصير العباسيين « الشعبيين » . ومن اعماق بعض هذه الانتفاضات انطلق عجبج المطالب الصاخبة ، فرددت اصداها طبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كبار الملاكين ،

فراحوا ينزلونهم ، وفقاً لنزعاتهم الدينية ، منزلة الغريب المقتصب . ولعل ادمى هذه الثورات طرأ ، الثورة التي قام بها الحرورية ، فانطلقت من بدعة اسلامية منحرفة قالت بمبدأ الخير والشر ، واقرت عبادة ابي مسلم الحرساني ، وقالت بالتناسخ والاباحة الجنسية ، وباستواء الاديان جميعاً ، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية . فبعد ان هُزم زعيمهم بابك الحرمي ، في مطلع القرن التاسع ، في اذربيجان ، انضمت بعض فرقهم ، فيما بعد ، الى الثورة التي قام بها مزار . واذ ذاك ، قام صعلوك الفلاحين يهاجمون كبار الملاكين من العرب ، في هذه الاقطار الجبلية الواقعة الى الجنوب من بحر قزوين ، مما اضفى على هذا المراك طابعاً قاسياً . وبعد ان سيطر الحرميون واتباع مزار على المنطقة بيطرة تامة ، حقبة من الدهر ، انهزموا شر هزيمة ، في عهد المعتصم ، على يد قائده الافشين . الا ان ابادتهم لم تؤدِ قط الى اية تهدئة في المعارضة التي اخذت تعتمد ، منذ ذاك ، على عناصر اسلامية خارجية . صحيح ان العباسيين خرجوا من المعمة ظافرين ، كاسبين ، الا ان المجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هذه التغييرات العسكرية التي ستفضي بهم الى الهاوية ، بعد حين .

وهذا التطور ليس باقل وضوحاً منه في الاخرى ، ان دخول السكاث في
الفكرة الدينية
حظيرة الاسلام واقعام الاسلام بالتالي في الحضارات القومية وتغلغل في الطبقات الشعبية كان بمثابة اقحامه في هذه المشكلات الملازمة لهذه الحضارات ، واعطاء العالم الاسلامي حضارة واحدة حلت محل الحضارتين المتجاورتين اللتين رافقتا قيام الدولة الاموية . ففي هذه المحاولة لتوحيد الحضارة ، راح اهالي البلاد الوطنيون يطالبون عالياً ، في ان يكون لهم دور بارز ليس في المجال الروحي فحسب بل ايضاً على الصعيد الاجتماعي ، ولا سيما الارانيون بينهم ، عن طريق اعتمادهم الشعبية . فالعصر العربي لم يكن ليهمل جانبه ، مع هذا فالاسلام نفسه ، منذ دعوته الاولى ، اثار ضمناً هذه المشكلات ، ووعده اتباعه بالثراء والنعمى ، فجاء الاعاجم بينهم يسهمون بتحقيق الوعود المقطوعة . في هذا الايفال عميقاً في الفكرة ، وفي هذا التوسيع في جنبات المعرفة ، ساهم عدد كبير من العرب ، كما ساهم باعداد اكبر ، الاهلوت من سكان البلاد ، لا سيما الموالي بينهم . وهذا التمييز العرقي العنصري الذي تلبسه الغموض وسيطر عليه الاهام احياناً ، لم يعد له من اهمية أو قيمة . فالكل يشاركون في نهج واحد من الحياة : فالشيء المهم الآن هو ان الثقافة الجديدة التي تطلع على البلاد ، لم يعد يعبر عنها باليونانية او السريانية ، بل بالعربية . وهكذا صح لنا ان ندعي قيام ثقافة عربية . ولغة العلم والعلماء انفسهم ، التي أُنشئت وأثرت ، فارتاضت ولانت ، لم تعد هي العربية الدارجة . صحيح ان العربية الدارجة تغلغل عميقاً بين الطبقات الشعبية ولا سيما بين الجماعات اليونانية والقبطية والسريانية ، بعد ان اصبحت اللهجات المحلية من قبل لدى هذه الطوائف ، لا يفهمها غير رجال الدين . فكان لا بد للعربية من ان تظهر وتظفر ، بعد ان اصبحت لغة القادة والزعماء والشرعية الاسلامية . وهل كانت بلغت ما وصلت اليه من سيطرة وسيادة وسؤدد ، لو لم يتم لها ماتم من

دقة البيان في التعبير ؟ الا ان الانتصار الذي حققته كان لعمرى ، ابعد من ان يكون كاملاً .
فاللغة البربرية بقيت اللغة الحكية في المغرب . والجدير بالملاحظة هنا هو ان الايرانيين الذين لم
يعدوا قط غضاضة عليهم في ان يمتنعوا دين الفاتحين ، احتفظوا في معاملاتهم بلهجاتهم الحكية ،
ولم يلبث بعضها ان اصبح لغة الفكر والادب ، بعد ان تأثرت كثيراً ، في مفرداتها تأثراً لم نر له
مثيلاً في دراسة علم اللغات وتطورها .

فان لم نستطع ان نحدد بالفعل ، هذه الفوارق بوضوح وجلاء ، فسهولة العرض تقتضي ان
نلقي تباهاً نظرة عجل على النشاط الفكري الذي تجلج باحسن مظاهره ، اذ ذاك ، في هذا
التيار الذي رمى الى تفهم اعنى وتطبيق ادق للاسلام ، او التيار الآخر الذي يتمثل في ثقافة
اغنى واوسع ، هي على الغالب ، خارجية عن الاسلام . فتفهم الاسلام يقوم اساساً على تفهم
القرآن ، فادت هذه الحركة الى هذا الفيض من التفسير والشرح والتعليق ، وتعدد مجامع الاحاديث
النبوية ، وغربلتها ونخلتها لانتقاء صحاحها ، بعد ان ارتاب كثيرون في صحة جانب كبير منها ،
مما اقتضى عدداً من الاسانيد التي ، وان لم ترضِ النقد الحديث ، تشهد ، أقله ، على هذا الاهتمام ،
وعلى هذا الحرص لتمييز الصحيح من المدخول أو المنحول أو المدسوس منها ، فكانت هذه الصحاح
التي من اثبتتها صحيح البخاري ، ومسلم (اواسط القرن التاسع) . ولكي يطمئن المرء الى انه
يفهم فهماً صحيحاً منطوق الآيات الكريمة ومدلولها ، اضطر الناس لدرس مباني اللغة من صرف
ونحو ، ومعنى المفردات واشتقاقها واصولها ، وكلها علوم قام عليها علماء اعلام ، ولا سيما بين
الاعاجم من سكان البلاد الاصليين . وقد سيطر في هذه الحقبة التي امتدت اكثر من قرنتين
مذهبان في اللغة : مذهب البصريين وزعيمهم غير المنازع سيبويه ، ومذهب الكوفيين .

وبعد ان استقرت النصوص واتضحت منها المعاني والمدلولات ، كان لا بد من لاهوت يشرح
احكام العبادة ، ويوضح الحق العام والخاص ، ويؤمن له الانسجام ويوضح معانيه . كل هذا تم في
القرن الاول من الدولة العباسية ، على يد كبار علماء الدين والفقهاء . فالذين باعد بينهم نظرياً ،
ليس اختلاف النص ، بل الروح الذي يستعملون فيه تطبيق هذه الآيات ، وغيرها من الأحاديث
الدينية . فالمذهب المالكي اعتمد النص الحرفي . اما الشروخ والتفاسير التي لا بدت منها فيتمثلها اذا
ما حازت اجماع علماء المدينة ، لأنها مدينة الرسول ومهد الاسلام . اما مذهب ابي حنيفة ، فهو
على عكس المذهب السابق الذكر ، يرتكز على الفكر الشخصي ، أي على الاجتهاد ، شرط ان
يحظى بالاجماع ، وليس بآراء فقهاء المدينة وحدهم . فأمام هذا التجاوز في الحرية الذي قلقت له
البعض ، ومع اعتقادهم انه من المستحيل ان ينص الكتاب على كل شيء ، راحوا يقولون بالقياس
جوازاً . وهو ما قال به المذهب الشافعي بالذات . وبحركة رجعية ضد المذهبين الآخرين اللذين
رحماهما بالتحديد المذموم ، وامام المشاكل التي عانت منها الجماعة كثيراً ، راح ابن حنبل يدعو
للتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب ، دون ان يبالي برأي الفقهاء وغيرهم من علماء الأمة . هذه هي
المذاهب الفقهية الاسلامية الاربعة الكبرى التي يعترف بها السنة والتي يجوز لأي مسلم ان يتبع

منها ما يريد ، وبالتالي القاضي الذي يعمد اليه النظر بأمر الناس ويقضي فيهم . وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، بينما سيطر المذهب الشافعي ، خلال الأجيال الوسطى ، على العالم الشرقي الذي نطق باللسان العربي ، قبل ان يتنكر له الأتراك ليقتصر ، فيما بعد ، على جزر الملايو . وقد كان للمذهب الحنفي مثل هذا النفوذ وسعة الانتشار ، عند العباسيين ولا سيما عند اهل خراسان فيما بعد ، وعمل الأتراك على نشره في جميع البلدان والأقطار السقي رفرق فوقها لواؤهم . اما المذهب الحنبلي الذي لم يعرف له رواجاً كبيراً الا في العصر الحديث ، عند الوهابيين ، في الجزيرة العربية ، فقد كان أثره بارزاً في عدد من الأقطار التي يتكلم أهلها العربية . وهذه المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة التي يجب ان يضاف اليها المذهب الجعفري المعمول به لدى الشيعة ، تمتاز فيما بينها باعتمادها على الاجماع ، أي اتفاق الفقهاء والعلماء رأياً في موضوع معين . وهكذا فلا نرى عند المسلمين قانوناً او تشريعاً واحداً ينبثق عن هيئة تشريعية في الدولة ، انما يوجد لديهم قوانين تأتي من خارج الدولة ، وعلى الدولة ان تأخذ بها وان تطبقها . فالقضية تقوم كلها على معرفة ما تقوم عليه دكتاتورية الفقهاء في وجه الدولة . ففي مطلع العصر العباسي نرى أنفسنا لا نزال من الاسلام الدولة في طور التنظيم .

وهكذا بعد ان اعتمد الفكر الاسلامي على اللاهوت والفلسفة ، وجد نفسه ، وجهاً لوجه أو أخذ لحسابه مواجهة هذه القضايا البشرية الخالدة التي تلازم كل الديانات الكبرى . منها مثلاً قضية الحرية والقدر . فبين قدرة الله الكلي القدرة وعدله الالهي ، وبين القدرة والحرية الشخصية ، راحت نصوص القرآن والحديث تتسع لكل التفسيرات . فالقدرة التي قال اصحابها بحرية الارادة ، في اواخر الدولة الاموية ، بدا اصحابها في نظر الأمويين عناصر تدعو للعصيان والثورة ، الامر الذي جعل العباسيين يرحبون بهم . ثم طلعت علينا قضية العقل والايمن . وهكذا ظهر علم الكلام أو القياس الفلسفي ، والمتكلمون ، أي جماعة الذين يعتمدون على الكلام لتوضيح ما غمض من الوحي المحمدي وتفسيره . وهكذا طلعت النظرية الدينية الشعبية التي أخذت ببداً التشبيه . ولما كانت هذه النظريات مجردة ، أي عقلانية ، كان يخشى ان تبدو مخالفة للدين أو مغايرة له بعض الشيء . فقد نشب ، في هذا المجال ، جدل عنيف كان له اثره العظيم على التطوير الفكري في الاسلام ، تمثل في مذهب المعتزلة ، الذي ضم ، في الاساس ، قوماً مهمهم جداً النقد الادبي ، والإتقان السياسي ، فناصروا الدعوة العباسية . فراح بعض خلفائها يؤيدون الاعتزال ويفرضون على الناس الاخذ به والدعوة له . وقد علّمت المعتزلة القول بخلق القرآن فادخلت القلق والاضطراب على القلوب والاذهان ، وانتهى الامر الى محاربة الخلفاء العباسيين الذين جاؤا بعد المأمون ، للقائلين بالاعتزال .

وهكذا بلغنا عطفة حساسة من تاريخ الثقافة في الشرق الأدنى .
الثقافة القديمة والنزعات الدينية
فقد نظر العرب الى التراث الادبي القديم نظرتهم الى عنصر دخیل
جاءهم من الخارج . فقد غني الداخلون في الاسلام حديثاً ، بدمج الديانة الجديدة في تقاليدهم

واعرافهم الفكرية . ومثل هذا الاهتمام واجبه المسيحيون في العصور السابقة . الا ان ادماج ادب دين جديد في تراث امة ما ، كان بحاجة الى عملية توضيح ، أي الى شيء من التكييف والتركيز . ومن جهة اخرى ، اتخذت هذه الثقافة ، اللغة العربية اداة تعبير لها واقتضت جهداً طيباً من الترجمة والتعريب ، والتفسير والتعليق والتلخيص . فهذا التشابك والتداخل بين التقليد والأعراف المتباينة ، الذي شهدناه في العصر العباسي ، لم يلبث ان ادى سريعاً الى وضع هذا العصر ، وجهاً لوجه مع التفاعل والانفعال المتبادل ، وبالتالي الى اغناء بعضها البعض ، والى طلوع عدد من الاكتشافات الجديدة . وهكذا ، بدون ان يحدث أي تغيير جذري على أسس الفكر ، في تلك الحقبة ، شهد العالم ، مع ذلك ، نقطة عارمة تشبه من نواح كثيرة ، الانبعاث الفني والفكري الذي شهدته أوروبا في القرن السادس عشر ، فادى الى نجاحات وتطورات مدهشة .

انصرفت الجهود ، بادىء ذي بدء ، لتأمين حركة نقل العلوم الدخيلة وترجمتها ، وهي حركة اخذت بوادرها تظهر في عهد الدولتين البيزنطية والساسانية ، على يد علماء السريان ومفكرهم ، وادباؤهم . وقد اعتمدت الترجمات الجديدة على نقول سبق وضعها بالسريانية ، الى ان عادت تعمل على النصوص اليونانية الاصلية . ولقيت حركة الترجمة والنقل تشجيعاً حاراً من الخليفة المأمون الذي اخذ تحت رعايته ، عدداً كبيراً من المترجمين في الشرق ، فنهلوا ، على نطاق واسع ، من الادب اليوناني ، كما نهلوا ، على نطاق اضيق ، من اللغة الفهلوية التي كانت اداة الاتصال ، بين الهند والبحر الابيض المتوسط . وقد اقتصررت حركة النقل هذه ، على المؤلفات العملية التي يسهل تطبيقها عملياً ، وعلى الفلسفة ، بعد ان حاولت البدع الدينية التي أطلت اذ ذاك ، ان تجد فيها سلاحاً لها في هذه الخصومات والمجادلات الدينية التي شجرت ، اذ ذاك . اما الآثار اليونانية الادبية او التاريخية الصبغة ، فقد استبعدتها النقلة العرب ، عمدتاً وقصدت ، كما استبعدتها من قبل واهمل نقلها السريان والنساطرة ، ثم ايضاً . وقد سار الغرب ، فيما بعد ، على هذا النهج ، عندما راح ينقل ، بدوره ، الآثار الادبية التي خلفها الاسلام والمسلمون . فقد نقل العرب ، عن الفهلوية او الهندية ، في عداد ما نقلوا من الآثار العلمية ، القصص والحكايات والامثال التي وصل منها قدر كبير الى عهد لافونتين فاستخدمه ، كما نقلوا غير ذلك من القصص التي لقيت رواجاً عظيماً لدى الشعب . والجدير بالملاحظة والتنويه عالياً ، هو ان ، في دولة سيطر فيها الايرانيون ، ورجحت فيها كفتهم ، استمر المسلمون ، في نقل كل ما يتصل بتاريخ ايران وتاريخ العرب القديم معاً ، بينا بقي التاريخ اليوناني الروماني مستبعداً .

فكل الملل والنحل والاعتقادات شاركت ، على اقدار متفاوتة ، بهذه الحركة . ان اعتناق عدد كبير من سكان البلاد ، الدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية في الاقطار وبين الطوائف التي بقيت على النصرانية او على اليهودية ، والاتصالات العلمية بين العلماء المتخصصين ، ولا سيما بين الاطباء ، كل هذا وما اليه هو من بعض النتائج التي اتبع لنا تسجيلها ، بحيث ان الثقافات

الاصلية وجدت نفسها منقسمة الى قسمين متباينين. دخل اولهما كعنصر مقوم، في ما اصطالحوا على تسميته بالثقافة الاسلامية، بعد ان أسقط في ايديهم ايجاد صفة اخرى اكثر ملاءمة. اما الثاني الذي يجب قصره على المجال الديني، والتسلم بتمتعه بشيء من الاستقلال الذاتي، فقد تبلور في ما بدا من آثار اللغات السريانية والقبطية والفهلوية والعربية، حتى بعد ان استعربت، فقد بقيت على هامش التيار الكبير، وظهرت مظهر المستعجات المتعجزة وهو طابع ما لبث ان زال من الوجود في اواخر الاجيال الوسطى.

وهكذا انتشرت، في الشرق، مؤلفات ارسطو الحقيقية او تلك التي انتحلها أصحاب الافلاطونية الحديثة، كما انتشرت مؤلفات ابوقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس، وبين هؤلاء النقلة الذين كلوا، في الوقت ذاته، كتاباً مشهوداً لهم بالابحاث الدينية والفلسفية، الراهب التسطوري حنين بن اسحق، والرياضي الصابي ثابت بن قرّة من حران، وكلاهما من رجال القرن التاسع، وقد كان سبق لابن المقفع، احد اعلام الكتاب العرب في ذلك العصر، ومن كتاب الرسائل المشهورين، ان ترجم عن الفهلوية كتاب كيلة ودمنة.

وتجند لهذا الغرض عدد كبير من المترجمين، كما قام للترجمة مدارس عديدة. وحدث ايضاً ان الادب المسيحي وجد طريقه الى اللغة العربية لتقريبه من اذهان المسيحيين. فاذا كان البطريرك ديونيسيوس التلمحري (+ ٨٤٥) كتب بالسريانية ما كتب في العلوم الدينية والتاريخ، فقد وضع الراهب الملكي ثيودسيوس ابو قره مصنفاته باللغة العربية. ناهجاً في ذلك، نهج القديس يوحنا الدمشقي.

فقد كان من جراء اختار الافكار، وظهور بعض الصعوبات التي اعترضت عملية الانسجام والتكيف مع الوضع الجديد، ان احدث الهيجان بين اليهود فالترحيب الذي كان يلاقيه، من حين لآخر، من يدعون انهم المسيح المنتظر القادمون من اسبانيا الى فارس، كان يسبب سجساً كبيراً بين أتباع هذه الديانة من جراء اجترارهم للتعاليم التلمودية. وكانت الولايات تشعر، في الصميم بوطأة الدكتاتورية الادبية والسيطرة الاقتصادية التي تمت لعلها الناموس في العراق. وقد حدث ان اشتد شأن شوكة فرقة القرائين التي وُجد عدد من اتباعها في بلاد القرم. فقد كانوا، وهم يحاولون الرجوع لأسفار العهد القديم، يحاولون تفسير عقائدهم الدينية، وفقاً للمبادئ التي قالت بها المعتزلة.

لا نعرف شيئاً يذكر عن طائفة الزردشتية. وجُل ما نعرف عنها ان في القرن التاسع تم جمع النصوص الدينية القديمة المعروفة بالنصوص الأفستية، كما تم وضع مؤلفات دينية جديدة لهذه الطائفة، محاولة من اصحابها المحافظة على تراثهم امام الاسلام، كما ان في هذا النشاط شهادة عالية على حيوية هذه الطائفة. وقد يكون مسلکها هذا اوحى للعباسيين الموقف الذي وقفوه من اتباع المالوية، بعد ان نعم اصحابها بالتسامح الديني الذي نعم به أتباع المذاهب الديلية،

الأخرى ، فقد اخذوا بمطاردة رجالها بعد ان رموم بالزندقة ، وهي التهمة التي ألبسوها ، بعد ثورة بابك الحارمي ؛ لكل هذه الدعوات الدينية التي خشيت السلطة جانبها وأوجست منها شرأ ، باستثناء الشيعة والخوارج . وقد رأى العباسيون أثراً للمناوئة وتعاليمها في هذه الثورات الاسلامية والحركات الهدامة التي قامت بها بعض الفرق الدينية ، في ايران ، بعد ان هدد نشوبها الدولة العباسية بأخطار شديدة .

فلازدهار الفكري والادبي ، وهذه الانتفاضات التي جرت اليها بعض المعتقدات الدينية . لم تكف لتملأ وحدها كل نشاط الاسلام . هنالك اناس ظمئت نفوسهم للكمال الانساني ، وهامت قلوبهم بمكارم الاخلاق والتقرب من الله . من المحال التساؤل ما اذا كان التصوف الاسلامي نص عليه الاسلام الاول ، ام اذا كان نشأ عن العادات والاعراف الدينية التي حملها معهم السكان الذين اعتنقوا الاسلام ، ام اذا كان نشأ عن الحياة الرهبانية عند المسيحيين والهنود . فقد كان التصوف ، في مظهره الاول ، لدى بعض الاشخاص ، نوعاً من الزهد . وقد تمثل على أتمه في عهد الدولة الأموية ، في شخص الحسن البصري . ولمسراح يستعيز عن الادعية الاسلامية بطلبات تهبي قائلها للانخراط الروحي ، راح العلماء والحكام ينظرون اليه نظرة كلها التشكك والتحسب . وقد استطاع رجال الصوفية ان يتعرفوا ، تدريجياً ، الى النظريات التي تقول بها الافلاطونية الحديثة ، مما أدى الى تجديد في الافكار الصوفية . فقد راح المتصوفة يلبسون « الصوف » مسحاً لهم ، ولعل من هذه الكلمة اشتقت ، في الاسلام ، كلمة « الصوفية » .

بعد ظهور الآثار الفلسفية والدينية ، في القرن الاول من الدولة العباسية ،
الاداب والفنون
ازدهرت حركة أدبية عارمة عادت على اللغة العربية وآدابها بالثراء والنمو ، بما اطلعت من الروائع الادبية في الشعر والنثر ، فصقلت معها العقول والادواق ، وهذبت الخيال والمعاطفة ، بقطع النظر عن القصص والحكايات الشعبية التي كان يتناقلها الناس اباً عن جد . وهكذا ظهر « الادب » الذي كان يراود ظهور الرجل الاديب ، في القرن التاسع والعصور التالية . وقد دخل الانشاء الادبي كل المؤلفات الادبية والدينية ، اذ اضى عليها عبارة رشيقة وبياناً ناصع الاسلوب ، يقبل على الاخذ به ، كل من تمشق الحرف ومال اليه . والفضل في ظهور الادب على هذا الشكل ، يعود للكاتب البصري المشهور الجاحظ (٧٧٦ - ٨٦٨) الذي عرف ان يوفق بين مذهب البصريين والكوفيين . كذلك عرف ان يوائم بين تعاليم المعتزلة وبين ما تم له من ثقافة عريضة ، متنوعة ، كل ذلك في بيان عربي ناصع ، ولغة ساخرة ، متهمكة ، كما يبدو لنا ذلك في كتابه « الحيوان » وهو كتاب في العلوم الطبيعية ، حشاه معلومات لا تثنى وأقاصيص كل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية التي هزت مشاعر جميع معاصريه . وبعد الجاحظ بقليل ظهر الكاتب الفارسي المشهور ابن قتيبة الذي شارك الجاحظ في تكييف الادب العربي .

اما الشعر فهو اكثر تمسكاً من النثر ، بالتقاليد العربية . وقد لمع في هذا العصر شاعران كبيران ، هما : ابو تمام والبحتري . وضع كل منهما « حماسه » التي بالرغم مما فيها من شعر

منحول ، وسرقات شعرية ، تبقى اثرًا لا تبلى جِدَّتُهُ . فالشعر « الحديث » يطلل علينا من شعراء ايرانيين ، شعرم عطّل من اية مسحة اسلامية ، يفتقر كلياً للترصن والاخلاق الرضية ينضج احياناً بالفجور ومجون البلاط ، ويفج منه الحب العابت الذي تمتعه السكر يسير مترنحاً في الازقة والشوارع ، انما هو شعر ينبض بالركة والاحاسيس المرفهة ، بانتظار طلوع الشعراء الناجحين الذين يأخذون بمعالجة الموضوعات السياسية والدينية ، وما لبثوا ان فضلوا على القصيدة المأمرة الابيات المبهنية ، على عمود الشعر العربي ، شعراً مفهف العاطفة ، يتمثل خير تمثيل بالرمز . ولعل اكبر هؤلاء الشعراء وأسيرهم ذكراً هو ابو نواس (+ ٨١٥) ويحب ان نذكر معه شاعراً آخر ، عُرف بالوصف الدقيق ، تولى الخلافة ليوم واحد ، هو ابن المعتز (اواسط القرن التاسع) .

وبنسبة ما نستطيع ان نتبين الامور ، نرى ان الفن العباسي اخذ يزدهر بدوره ، محاولاً ان يوحّد بين مختلف المذاهب : فالمساجد ازداد عددها ازدياداً كبيراً لاستيعاب المسلمين المتزايد عددهم باستمرار ، وذلك عن طريق بناء مساجد جديدة او بتوسيع القديم منها . فمسجد القيروان ، يعود القسم الاساسي منه الباقي لليوم ، الى مطلع القرن التاسع ، وبقي طراز بنائه منسجماً مع الطراز الهندسي للمساجد السورية التي اقيمت في العهد الاموي . وعلى عكس ذلك ، نرى قصور الخلفاء العباسيين في العراق ، تستوحى في عمارتها التقاليد الساسانية . فان لم يصلنا بالفعل شيء من المدينة « المستديرة » اي بغداد القديمة ، فقد وصلنا من الفن المعماري العباسي المدني ، بقايا حرية بكل ملاحظة ، هي كل ما تبقى من مدينة حلت يوماً ان تحل محل بغداد كمرکز للخلافة ، هي مدينة سامراء التي كان يعلوها برج عالٍ يشبه ابراج النار المعروفة لدى اتباع الزرادشتية . وهذا الفن يستفيق على نفسه وينشط ، مع ان معظم الانشاءات الباقية منه لليوم ، تعود الى تاريخ لاحق للعهد الاول من دولة العباسيين . ويجب ان نشير ، منذ الآن الى الفارق الذي يزداد اتساعاً وتبايناً بين المباني المدنية والمباني الدينية . ففي الاولى نرى رسوماً بشرية وحيوانية كثيراً ما عمد اليها الرسامون في تزيين الحاجيات العادية ، مها كان من تأثير حركة تطورية ظهرت فيما بعد ، وسيطرت على بعض المناطق دون غيرها . اما في الثانية ، فلم تلبث هذه الرسوم ان حُرِّم استعمالها ، اذ كان مرآها يبعث ، كما هي الحال في الديانة العبرية ، على الاعتقاد بشيء من عبادة الاصنام .

*

تبدو بيزنطية ، ازاء العالم الاسلامي في القرن الثامن ، مدعاة للاسف الحياة القلقة في بيزنطية
وللسخرية معاً . فقد خرجت من العاصفة التي هبت عليها في القرن الماضي ، مشخنة الجراح ، مهشمة الجناح ، فراحث ببطء وتمهل كلي ، تستجمع قواها وتسوّي من حائها وتعيد تنظيم شؤونها في الداخل . والأزمة الدينية التي اخذت تترصد بها من جديد ،

تتسجم الى حد بعيد ، مع الاحداث والافكار التي تتفاعل بها وتمتلك ، هذه الولايات التي اقتطعها منها الاسلام .

وقد أرغمت الامبراطورية على التخلى من الكثير من المقاطعات الاخرى : فقد اخذ سكان ايطاليا في الولايات التي لا يزال مصيرها مرتبطاً بمصير بيزنطية ، ينفذون عنهم تبعاً ، سيطرة اجنبية طالما برّموا منها ، ارهقتهم فارتزحتهم : تحت وطأة جباية صارمة زادت تهجماً وتجهماً بعد فقدانها الشرق ، ونفرتهم بهذه الارهاصات الدينية ولم تمنع عنهم خطر الغزو اللبشاردي . وستقلت منها صقلية في القرن التاسع . ولكن ما العمل وهذه كلها ممتلكات نأت عن قلب الامبراطورية ومركزها ، يغلب في الحفاظ عليها الغرم على الغنم . اما في البلقان ، فقد أصبح الخطر البلغارى ، بعد عام ٧٥٠ ، في المنطقة الواقعة عند الدانوب الاسفل ، سيفاً مصلتاً فوق رأسها وكبوساً يقض مضجعها . وقد استقر الصقالبة في الباقي من اطراف شبه الجزيرة البلقانية ، بعد ان أقصوا قليلاً الى الشمال . وبفضل عملية تبادل السكان الصقالبة في اسيا الصغرى ، والاسيويين في اليونان وتراقيا ، استطاعت الامبراطورية ان تعيد سيطرتها التامة على مناطق حيوية جداً لها . أما الى الشرق ، فلم يقيم بين المسلمين والبيزنطيين ، اثر الفشل الذي آل اليه حصار العرب الثاني للقسطنطينية ، عام ٧١٨ ، سوى غزوات دورية ، عرفت عند المسلمين « بالصوائف » لم تحدث تغييرات جوهرية في مناطق الحدود الدائرية بين الجانبين ، وان كانت ازلت فيها الخراب والدمار . وهكذا اقتصرت الامبراطورية بالفعل ، على المناطق المحيطة ببحر ايجه ، وهي مناطق معظم سكانها اغريق أو متأغرقون ، انتفت منها أو كادت تنتفي ، الفوارق العنصرية او العرقية .

وهذا الانكماش او التقلص الجغرافي لرقعة الامبراطورية ، تم وسط تغييرات وتطورات اجتماعية من الصعب على المؤرخ ان يتبين مداها ، وان يحدد ابعادها . فالحاجة الشديدة لليد العاملة التي عانت منها المقاطعات الصالحة للزراعة ، في القرون الماضية ، حل محلها الآن ، فيض من الشفيلة ونقص في الاراضي الصالحة للزراعة ، بقطع النظر عن الوسائل التقنية الزراعية . والذي يبدو للدقق ، مع انه من المسير جداً تحديد الكيفية ، ان الممتلكات الواسعة والاقطان الشاسعة ، انكشئت رقعتها ببعض الشيء ، بينما ازدادت الملكية الصغيرة ، وهو تطور جاء ، لسمري ، مفيداً جداً ، للتنظيم العسكري . ولعل خير دليل على ذلك ، القانون الزراعي ، هذا القانون الذي صدر في مطلع القرن السابع ، والذي ينوّه بوجود جماعات او فرق ريفية ، بدا لبعض المؤرخين ان يروا في طلوعها ، أثراً من آثار الجماعات الصقلية التي تكاثرت عددها بين طبقات الفلاحين وسكان الريف . وهذا الاثر لا يمكن تجاهله او التغاضي عنه . فهو يمثل ، خير تمثيل ، في هذه المستعمرات الريفية التي عرفت ان تندمج وتنصر في هذه الأوطر والملاكات البيزنطية ، مع ان المبالغة في تقدير هذا التفوذ وتقييمه لا تخلو من خطر ، اذ ان هذه الجماعات التي يشير اليها القانون الزراعي لا تتزامن فيما بينها الا امام جباية الرسوم وفرض الضرائب ، مع العلم ان هذه الجماعات القروية الصقلية لم تتعرف على نظام الا بعد ذلك . ومن جهة ثانية ، نرى ان نمو الملكية

الصغيرة وتوسمها لم يقص على الملكيات المملانية الكبيرة، ولا حال دون اتساع الملكية الكنسية. فادّخار الاوقاف، والهبات التي كان يهودها المؤمنون ليرفع الله غضب السماء عنهم، وليجنبهم الويلات التي ما زالت تنتابهم، ورغبتهم في استئداء املاكهم ومقتنياتهم في حماية الكنيسة، كل ذلك ساعد كثيراً في اثراء وثراء الاكليروس القانوني والعلماني، ولا سيما الاديار التي ما زال نفوذها الادبي والمادي، آخذاً بالنمو والازدياد في جميع انحاء العالم المسيحي.

والصفة العسكرية التي طبعت نظام الحكم والادارة في بيزنطية اذ ذاك، ولا سيما البلاط الامبراطوري، أدّت عن طريق التجديدات التي اتّخذت والتي يعود بعضها أصلاً، الى عهد الامبراطور يوستنيانوس، ومعظمها في عهد اسرة الامبراطور هرقل، الى اعادة تنظيم الجيش والادارة معاً. فقد كانت ادارة الولايات، من قبل، بيد الحكام المدنيين، مهما دعت الاعمال الحربية، الادارة العسكرية والجيش الى التدخل، حتى عندما يضطر الوضع العسكري الجيش للبقاء في الولاية، فتقوم الادارة المدنية فيها بتأمين أورد الجيش وما يلزمه من تجهيزات، ولو التجأ أحياناً الى اعمال المصادرة والاستملاك. اما الآن فقد انقلبت الامور أمام خطر الوضع القائم، وانعكست الادوار وبسطت الادارة. فقد انقسمت البلاد الى دوائر عسكرية أو «ايالة» يقيم فيها جيش يتولى قيادته قائد، يضطلع نفسه بكل اعباء الادارة المدنية ويشرف على اعمالها المختلفة. وتوريدات الجيش ووسائل اعالته تتأمن محلياً، ليس عن طريق المصادرات الادارية، كما في السابق، بل عن طريق اقطاع افراد الجيش، حصصاً في الارض يستثمرونها في ما يؤمن معيشتهم وأورد ذويهم. وهكذا عمموا على كل الجيش في الامبراطورية البيزنطية نظاماً خاصاً يعرف عندهم بـ *Limitanei* (وباليونانية *Akritai*) جرى تطبيقه، منذ عهد بعيد، على «حلفاء» روما من البرابرة. وهذا النظام الذي جاء تكملة طبيعية لقيام المستعمرات العسكرية، كان له تأثير بالغ على روح الجيش ومعنوياته، اذ انه ساعد كثيراً على نمو الملكية الصغيرة وما أدّت اليه من نتائج اجتماعية.

من المفارقات الصارخة التي استبدت بالخواطر اذ ذاك، هو ان الاعمال الحربية، بين المسلمين وبيزنطية التي ركزت ربحها وخفّ أوارها، قد اعقبتها بالفعل على ما يظهر، حرب إقتصادية. ان اخفاء الطابع الاسلامي على النقد المتداول، واحتكار الدولة لمصانع ورق البردي، والتدابير التي تتسم بالحذر وعدم الثقة، التي اتخذها المسلمون ضد النصارى، ولا سيما ضد الملكيين اوغرت صدر اباطرة بيزنطية وحملتهم على اتخاذ تدابير زجرية، انتقامية. فاذا كانت رقعة الامبراطورية تقلصت وانكسحت، فقد بقيت بيزنطية سيدة البحر، كما يشهد على ذلك القانون المعروف بقانون الرودسين، وهو اشبه ما يكون بالقانون البحري الذي تمّ وضعه في ذلك العهد. فالاباطرة البيزنطيون المعروفون باسم الاسرة الايصورية، الذين انتهجوا هذه السياسة الحازمة، لم يكن يوسمهم قط ان يحولوا دون ذهاب سيطرة الامبراطورية على التجارة مع آسيا وتقلتها

من ايديهم ، حتى انهم رأوا انفسهم مضطرين للتنازل للتجار ولكبار اصحاب الاقطان الواسعة المسيطرين على القطاع الخاص ، عن تأمين تمويل القسطنطينية الذي كان تحت اشرافهم المباشر ، والتوقف عن توزيع المواد الغذائية على الفقراء من سكان المدينة . ولذا راحوا يحاولون الحؤول دون إجتار الدول الاسلامية مع اوربا ، كما سموا لابقاء القسطنطينية وبعض الموانئ البحرية الكبرى التي يسيطر عليها البيزنطيون ، تتحكم بالنقل التجاري وتأمين الاشراف على الملاحة في البحر المتوسط ، فاهجين النهج الذي كانت نهجته انكلترا في العصر الحديث بتحكمها بمسالك البحار على نطاق اوسع . غير ان النجاح لم يحالف قط هذه السياسية البعيدة المرمى . فاذا ما امكن الاستمرار في عملية تأمين أود العاصمة والبلاط الامبراطوري ، وهما هدف الحكومة الاول والاكبر ، فلم يعرفوا ان يحولوا دون هبوط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

فاذا ما اخذنا بوجهة نظر المؤرخ البلجيكي هنري بيرين الذي كان رائداً من رواد البحث في هذا المجال ، فالاسلام هو المسؤول عن تدهور التجارة في البحر المتوسط ، في هذه الحقبة ، وعن انقطاعها المفاجيء الذي ادى الى زرع الاضطراب والبلبلة في حياة الغرب الاقتصادية ، اذ ذاك وتدهور الوضع التجاري الذي لم يكن كاملاً ، يمكن رده مع ذلك الى اسباب ودوافع اخرى فقد رأى فريق من المؤرخين ان الاسلام احدث ينظمة عارمة في الحركة التجارية في الغرب : ألم يكن مؤسسه ورجاله الأول تجاراً ماهرين من قبل ؟ أو لم يُكْتَسَب لاتباعه ان يلبسوا ألوية الاسلام في كل قطر وصقع ، فرفرفت اعلامه وخفقت بنوده ، فوق هذه الاقطار الواقعة بين السودان في الجنوب ، ونهر الفولفسا في الشمال ، او الممتدة من الصين شرقاً الى مشارف جزيرة مدغسكير جنوباً ؟ ومن جهة ثانية ، ان تدهور الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، ثم قبل الفتح العربي الاسلامي بكثير ، ولم يكن للاسلام كبير اثر عليه ، فقد عرفت بيزنطية ان تحافظ على تجارتها وعلاقاتها الاقتصادية مع ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من ايطاليا ، وعلى شواطئ البحر الادرياتيكي . فالركود التجاري الذي اصبحت به البلدان الواقعة الى ما وراء هذا القطاع الجغرافي المحدود ، يجب رده ، الى هذا التطور الداخلي الذي اخذت به اوربا ، اكثر منه الى هذه السياسة التي انتهجتها بيزنطية فأبقت عليها ، لاغراض مالية ، ان تتجر مع اي قطر ، او تقيم علاقات اقتصادية مع اي مرفأ لا يقع تحت سيطرتها واشرافها المباشر ، وهو وضع لم يلبث ان ادى ، بمسند لأي قصير ، الى سيطرة مدينة البندقية على الملاحة البحرية سيطرة كادت تكون تامة ، وتحكمها شبه المطلق ، بالاسواق التجارية ، اذ ذاك . ومن جهة اخرى ، فالغرب الاسلامي كان بعد ، طري العود ، تخشين الطباع ، ليبعث النشاط في الحركة التجارية مسع بلدان الشرق الأدنى . ولم يحدث هذا كله الا بعد ان تم للاسلام السيطرة على جزر البحر المتوسط والتحكم ، بالتالي ، بالملاحة البحرية بين اطرافه المتباعدة ، وذلك منذ القرن التاسع .

تكریم الايقونات المقدسة وتحطيمها
 ١٤١
 عانت بيزنطية ، في هذه الحقبة ، من قضية دينية اقامت
 الالهين واقعدتهم في جميع أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، لم
 يكن من الصدفة قط ان تحدث ، في هذا الوقت بالذات الذي
 شهدت فيه آسيا الغربية ، ولا سيما الولايات التي تجاذب اطرافها المسلمون والبيزنطيون ، هذه
 الاضطرابات التي كانت ارمينيا نقطة الدائرة منها . فالحماية التي تمتعت بها هذه المقاطعات الناعمة
 بشيء من الاستقلال الداخلي تحت اشراف الاسلام ، فصلت بين الكنيسة الارمنية والقسطنطينية ،
 وباعدت بين الطرفين . وقد ساعدها الوضع السياسي المضطرب الذي ساد تلك المنطقة وسيطر
 عليها ، في نشوب هرطقات دينية حادة ، كهرطقة « البولسية » ، التي لا نعرف شيئاً يذكر
 عن تعاليمها ولا عن نشأتها والتي ترتبط ببعض الشيء ، بتعاليم مرقيون التي انتشرت من قبل ،
 في مصر والشام وفارس ، وآلى امرها الى مذهب مانى الذي كان اساس تعليمه الثنوية ابي
 القول بوجود عنصرين الهيين : الخير والشر ، وهي مقالة سيطرت رديحاً من الدهر ، على اذهان
 الناس وتفكيرهم وتحكت بايران قبل الفتح الاسلامي . وقد كان من اشد المنكرات لدى اتباعها
 القول : بالتشبيه ووضع الصور للمقدسات والمؤلفات ، وهو حنق شاركهم فيه ، الى درجة
 اخف ، جيرانهم اتباع العقيدة القائلة بطبيعة واحدة في السيد المسيح ، اذ كانوا يأبون التسليم
 برسم صورته لانه يتنافى والألوهية . ففي هذا الجو العابق بالكره للصور والحنق الشديد على
 من يرسمها ، نشأت هرطقة تحطيم الايقونات والتكریمها ، هذه الهرطقة التي اقامت
 الناس واقعدتهم ، ومزقت الامبراطورية كل ممزق ، اذ لم يعد الامر محصوراً كما في العصور
 الماضية ، بمجد لاهوتي ، بل تعداه الى العبادة ، ليستحيل ، بعد قليل ، قضية سياسية
 واجتماعية ، هزت الخطاطر واقلقتها .

من مظاهر التقوى والمعبادة لدى الشعب البيزنطي ، تكریم صور القديسين والايقونات
 المقدسة ، وهي عبادة غالى الشعب في بعض مظاهرها وخرج عن الصدد المرسوم ، اذ اتجهت
 بالاكتر ، الى الرمز منه الى المرموز اليه ، وأوشكت ان تقضي الى الصنمية او عبادة الاصنام .
 وهذا الانحراف في التقوى عن هدفها الاسمي ، كان يسبب صدمة عنيفة في النفوس العطشى الى
 النقاء الروحي ذات الحساسية الدينية المرهفة التي احبت ان ترى في نائبات الدهر والنكبات التي
 توالت على البشرية ، في ذلك العصر ، صواعق السماء وذاجر غضبها ، تأديباً لهم على معاصيهم .
 لما كان من الامبراطور ليون الثالث الايصوري ان اصدر ، عام ٧٣٠ ، امراً بتحطيم الايقونات
 المقدسة ، بعد ان حرّم تكریمها ، وتقديم أي احترام لها . فليس من عجب ان يقابل المؤرخون
 المسيحيون هذه التدابير التعسفية ، وهذه الاضطهادات ، بالحنق ويناصبوا العداء ، ويروا فيها
 رجوع صدى للتدابير التي اتخذها الخليفة الاموي يزيد الثاني ، بهذا المعنى . ومن الثابت ان
 فكرة محطمي الصور من البيزنطيين ومعظمهم ينتمون الى الولايات الشرقية في الامبراطورية ،
 تتصل من قريب ، بالمسلك الاسلامي المسيحي ، وتمت الى الدعاة البولسية والمونوفيزية بأوثق

الصلوات ، وتنضج بل تنترى بالكثير من مقالة المعتزلة التي احدثت ثورة في قلب الاسلام . وقد انطلق صوت يوحنا الدمشقي مدوياً في الشرق ، يمدد القائلين بتكريم الايقونات المقدسة بالحجج الدافعة والبراهين الدامغة : فاذا وجب رذل عبادة الصور والايقونات ، فليس من ينكر ما لها من قيمة تهذيبية مثالية تحتذى ، ورمز مستطاب لا بد منه للحفاظ على ايمان حي ، محي ، يخشى عليه من التعرير الجاف .

ولم تلبث المعركة الدائرة حول الصور ان ارتدت مظاهر جديدة وتلبست وجوهاً جديدة وكثر المناضلون عنها والمكافحون دون شرعيتها بين الرهبان ، وفي مقدمتهم ثيودوروس الستودي (مطلع القرن التاسع) ، اذ ان الحياة الرهبانية بدت منفرة للعقلين ، كما ان عدداً كبيراً من الايقونات المقدسة الموجودة في الاديان ، كانت تولى اصحابها الكثير من النفوذ والسلطان ، كما تجلب لهم وللاديار التي تحتفظ بها ، الكثير من الربح الحلال والدخل الوافر ، ممثلاً بهذه النذور والأعطيات التي يفدقها المؤمنون بسخاء . ولم يكن بمستطاع هؤلاء الاباطرة العسكريين ، ولا في مقدورهم قط ان يتصرفوا بهذه الكنوز ولا ان يتسلحوا بما للاديار من هبة ولفوذ ، كما تشهد على ذلك الاجراءات والتدابير المالية التي اصدرها ضد الاديان ، في مطلع القرن التاسع الامبراطور نيوفورس الاول ، مع كونه من اتباع القائلين بتكريم الصور ، ومن انصارهم . وقد احتدمت هذه المعركة وبلغت ذروتها من الشدة ، في حقبتين متواليين (منتصف القرن الثامن والرابع الثاني من القرن التاسع) واصبحت حدثاً مميزاً في هذا الصراع الطويل يقوم به الامبراطور للسيطرة على الكنيسة ، وللحد ، على الاخص ، من نفوذ الرهبان ، والخفض من سيطرتهم الاقتصادية والاجتماعية . فلاعجب ، والحالة هذه ان تثير هذه المعركة المحتدمة ، صعوبات حمة مع الغرب ولا سيما مع البابوية حيث لم تتجاوز عادة تكريم الايقونات الحد العدل ، ولم تبلغ الزبى من القلوا ما بلغت في الشرق ، ولذا لم تستصوب الاسباب والدوافع الكامنة وراء الدعوة لتحطيم الصور وتحريم تكريمها . وفي النهاية لم تلبث السلطة الامبراطورية ان نكست على اعقابها وانثنت وتحطمت التدابير التعسفية التي اتخذتها على صخرة التقوى الشعبية والتضامن الشديد الذي قابل به الشعب المؤمن والرهبان ، استعداء الدولة للايقونات والتشكر لتكريمها .

وهكذا استحال هذا التضامن الديني الصلب شكلاً من اشكال الوطنية الواعية ، واصبح شعاراً يرفع في وجه هذه المقاطعات والولايات التي يتسكع سكانها في مهاوي الهرطقات والتعاليم الدينية الهدامة ، والطابع المميز للتاريخ البيزنطي ، ليس بالنسبة لماضي هذه الامبراطورية فحسب بل ايضاً بالنسبة للعالم الاسلامي المجاور لها . كل ذلك جاء نتيجة لحفوت النشاط الفكري والادبي ، البارز هنسا بروزه في كنيسة الغرب ، ولا سيما منذ ان جرى التعبير عن خواطر الجماعات الاسيوية وافكارها ، في اطر المدنية الاسلامية وحضارتها . وقد بقيت مقالة البولسيين الدينية الهرطقة الوحيدة ذات الصولة في الامبراطورية البيزنطية ، الى ان محقت بالدم واطفئت جذوتها ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، في هذه العمليات الحربية التي اقتضتها تقوية

الحدود ، ودعا اليها تدريع الثغور ضد المهرطقة ، الطابور الخامس للسلمين بين صفوف الارثوذكسية . وهكذا خرجت الكنيسة من محنة بدعة تحطيم الايقونات ، بمحصة ، مطهرة منقاة ؛ مجلوة كالعروس في خدرها ، كما يتمثل الوضع خير تمثيل في صورة ثيودوروس السنودي وهكذا بموازرة قوى الشعب وأيده ، خرجت الكنيسة في الشرق اقوى جانباً واصفى عقيدة وأدل فناً ، وابن تعبيراً ، وانصع رمزاً بما اعترف للايقونات المقدسة من تكريم يتجه للرموز اليه اكثر منه للرمز .

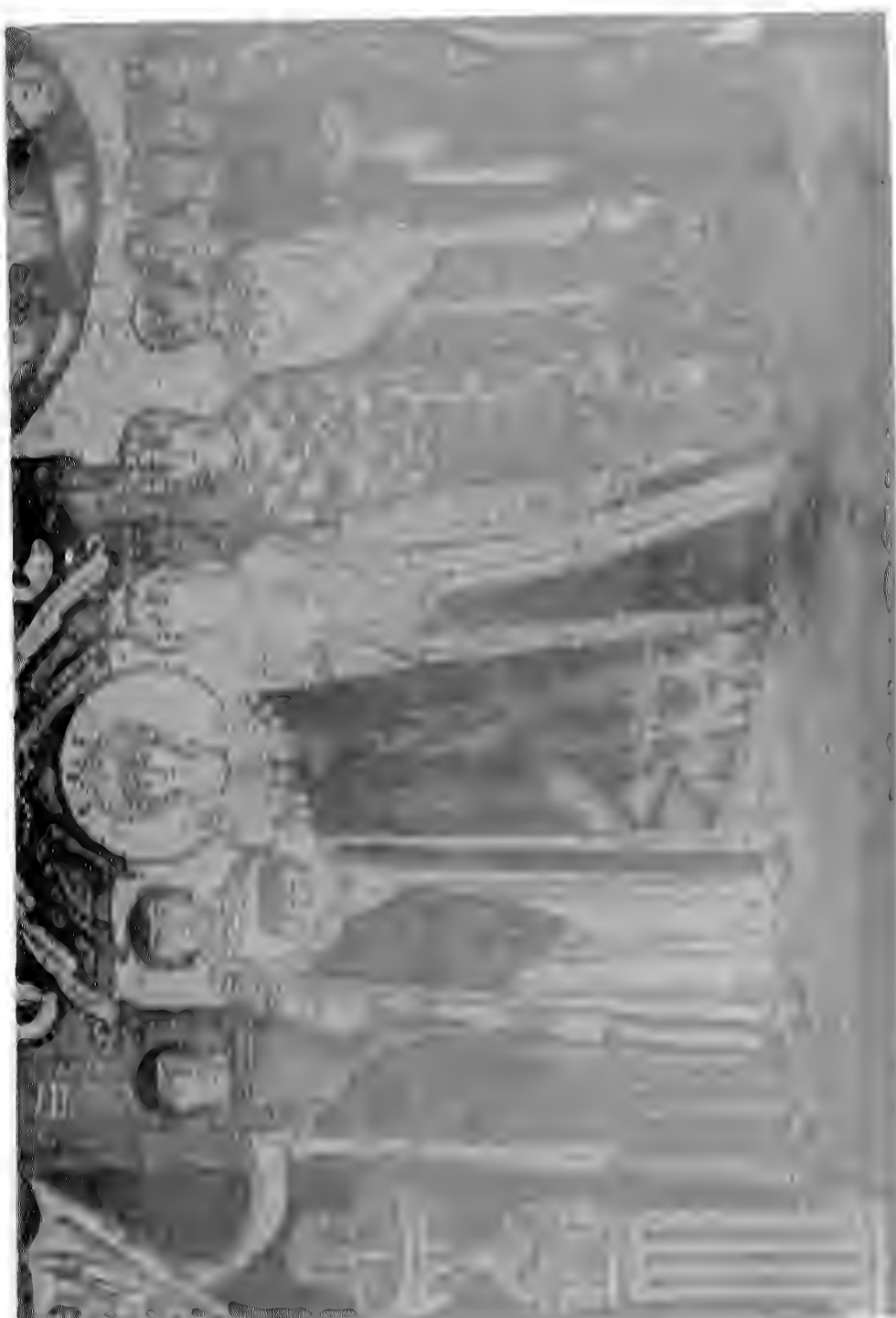
ومع ذلك ، فقد كان من توالى الضربات ، وفقدان الامبراطورية لحير ولاياتها واغناها ، اكبر الاثر على الآداب والفنون . فقد مر معنا كيف انه حتى مطلع القرن التاسع ، لم يمدنا الادب بغير عدد وجيز من سير القديسين . فلا مؤرخين ، ولا فلاسفة ولا مفكرين حتى ولا لاهوتيين . فالقديس يوحنا الدمشقي ، ابرز رجال العصر فلسفة ونضالاً عن تعاليم الكنيسة ، لمع اسمه وشاع ذكره في محيط اسلامي . والفن عاودته الحياة وعرف شيئاً من النشاط ، وان لم تترك لنا بدعة تحطيم الصور وتجريمها ، شيئاً من اثر المهد يمكن التمويل عليه لابداء رأي معلل مسنود . واستناداً الى مخلفات الفن في العصر اللاحق ، يحق لنا ان نقرر بان التنكر للايقونات وتجريم صنعها ، ساعد كثيراً على البحث عن رسوم لتحلية والزينة . وقد راح فنانون شرقيون ، ولا سيما الارمن منهم ، يعنون ، باحياء رسوم التحلية والتزيين ، من حيوان ونبات ، مما هو متبع في بلادهم الام . والبعض منهم يحيون تقاليد مدرسة الاسكندرية الفنية ويبعثونها حية . وهكذا يصح لنا ان نتكلم عن ظهور فن علماني ، بينا الفن الديني ، بعد ان عم انتشاره بين طبقات الشعب أصبح يقتنع برسوم عادية من الحياة اليومية ، تروحي الكثير من السخرية اللاذعة التي تذكرنا بفن الغرب ، اذ ذلك . فزوال بدعة تحطيم الصور والايقونات وضع حداً لتحلية الكنائس بالرسوم الدنيوية . اما في مجالات الفن والفكر الاخرى ، فسشهد ، منذ منتصف القرن التاسع ، نقطة فنية وادبية حرة بالذكر .

الفصل الخامس

أوروبا في عزلة وانزواء (القرن ٨-١٠)

رأت أوروبا نفسها، في مطلع القرن الثامن مهددة بشر مستطير أطل عليها من الفتح الاسلامي العربي ، بعد ان وطئت سنايك خيل العرب ارض جزيرة الاندلس ، فاذا بهذه القارة موحشة بعد ايناس ، تعاني البقية الباقية من الثقافة القديمة فيها سكرات الموت ، باستثناء بعض ملاجيء لها معزولة ، بينما كادت تلتبس على الرائي معالم النصرانية فيها ، بعد ان تداخلها ما تداخل من روااسب الوثنية ، انتقلت اليها فيما انتقل ، من اعراف برابرة الجرمان وأساطيرهم ، بعد ان استباحوا باحة البلاد وعاثوا فيها خراباً ودماراً . فاوروبا ارض العنف والعسف على ألوانه ، تسيطر عليها ارستوقراطية عطل من كل ثقافة ، صاخبة ، جشعة ، هي ابدأ وراء لذاتها ، وقد أطلقت لها العنان ، فاستبطرت ، وعبثت ، دون حسيب او رقيب ، ولا من يكبح جماحها . واوروبا هذه ، أوحشها سكانها ، وافقرت اقطارها ، فراح من يُعنى بالارض منهم ، يحرقها بأساليب بدائية ، فيؤا محدود ودخلها مقسوط .

صحيح انه يطالنا ، هنا وهناك ، بعض مراكز ، للحياة الروحية ، فيها تفتتها السياسي وزن ومقام ، وبعض ملاجيء للفكر ، فيها حيوية واشعاع ، وبعض تشكيلات سياسية اقل تختلفاً من غيرها ، وهي عناصر ، على طبيعتها ، مشتتة ، موزعة ، معزولة ليس لها من أثر كبير . فانكلترا التي تحتفظ في أديارها البندكتية بأغنى المكتبات وأحفلها طراً ، بالتراث المسيحي والثقافة الكلاسيكية القديمة ، هي منقسمة على نفسها ، متفسخة ، تتقاسمها ممالك ، سواء في ضعفها ، تتناحر فيما بينها وتتناقل لأتفه الاسباب . وبالمقابل ، فاذا ما تم لسادن القصر في مملكة اوسترازا ، ابن دو هرستال ، ان يروض الارستوقراطية في المقاطعات الثلاث الاخرى ، ويكبح من جماحها ، ويخفف من غلوائها ، واستطاع ، بقوة السلاح ، اخضاع الشعوب الجرمانية المجاورة له ، فبفضل ما له من سلطة وشكيمة شخصية ، لا اساس لها مبدئياً



100



اللوحة ٢ - كنيسة اجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .



الأول ٣ - شاهد مدفني من حجر يمثل شهيدتين نصاريين (القرن الثامن) .



اللوحة ٤ - الملك شارل الاصلي



اللوحة ٥ - حديث صوفي بين بوديين - نصب برونزي مذهب يرتقي الى السنة ١٨٠٠ .



اللوحة ٦ - محاربون يشتركون في حرب الأديان .



اللوحة ٧ - لاعة الصنوج



اللوحة ٨ - فارس وخادمه .



اللوحة ٩ - كـيلاسيـا في التـورا (الهند)



اللوحة ١٠ - المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ٩ القرن الثامن - القرن العاشر.



اللوحة ١١ - الداء باكوشيجي ، في مارا (اليابان) -



اللوحة ١٣ - معبد هيو فانشفارا (الهند) ، القرن العاشر .



اللوحة ١٣ - موت حارون



اللوحة ١٤ - جوفروا بلانتاجنيه .



اللوحة ١٥ - البرج الكبير في حصن سان جان في «نوجان-لوس-روترو» (القرن الحادي عشر).



اللوحة ١٦ - المسافرة بالرمح على الطريقة الجديدة.

ولا قوام ، في وقت انحدرت فيه الحضارة في شمالي غاليا الى الدرك الاسفل ، بينما كانت الأطر الكنسية من الركائز والضعف بحيث تعجز عن مساندة ومعاوضة أي بعث سياسي قويم في البلاد . اما مملكة المبارديين في شمالي ايطاليا ، فذكريات أمجاد روما وأيامها الغر لا تزال حية في النفوس ، والتقاليد الفنية فيها محترمة مرعية ، والمدن في ازدهار ، والنخبة بين العلمانيين لا تزال بعد ، على اتصال بالثقافة القديمة . وقد جعلت هذه العوامل نفسها العمل الاداري في البلاد صعباً عسيراً : فالدوقة من اهل الحسب والنسب ، في نزاع موصول مع نظام ملكي لا سند له ولا عماد ، لنهك قواه في محاولات للاستيلاء على الولايات البيزنطية ، بغية ضم ايطاليا تحت سيطرته . واخيراً وليس آخراً ، فاذا ما استطاعت البابوية ، بفضل الرهبان الانكلو سكسون ، ان توطن من نفوذها بين الجماعات المسيحية المتكاثرة عددها في الغرب ، فالبلاد البابوي الذي يهيمن عليه جوارل من الاغريق والسرمان والدملات ، محاولة اضعاف الطابع البيزنطي على الطقوس الليتورجية ، يقع تحت تأثير بطاركة القسطنطينية المعاندة ، كما يرزح تحت وطأة ولاية الامبراطور الثقيلة بينما نراه يعاني مريباً في الشمال ، من ضغط المبارديين الذين أصبحوا خطراً مداماً يتهدد باستمرار ، املاك الكرسي الرسولي وسلامتها . فانتفاء أي تعاون بين هذه القوى القائمة ، المتنافسة فيما بينها ، والتي يقعدا انفصالها ويشل فيها كل حركة ونشاط ، جعل اوروبا المسيحية منطقة مكشوفة يُنال منها بيسر وسهولة . فالغزوات الموسمية التي تشنها عليها قبائل الفريز والسكسون الوثنية من الشمال ، توهنها وتنهكها . اما في الشرق ، فقبائل الآفار الذين استقروا في مقاطعة بانونيا ، تهدد بخطر مستطير ، سكان مقاطعة فنيسيا ، ولذا فروا هاربين وغزوا الى الغياض والمستنقعات الواقعة عند مصب نهر البو ، يعتصمون بجزرها وخلجانها . اما الجنوب من اوروبا ، فموجة الاسلام العارمة ، تهدد ابتلاعه تحت جرف من الغزوات الكاسحة . والكتائب العربية التي سحقت ببضعة معارك ، مملكة الفيزيغوط في اسبانيا ، تجاوز مدها شمالاً ، جبال البرانس ، واحتلت ، عام ٧١٩ - ٧٢٠ ، مقاطعة الروسيوت ، والقسم السفلي من اللانغدوق ، وفي سنة ٧٢٥ انجبت كتيبة من فرسان المسلمين ، عبر وادي الرون ، ونهبت مدينة أوتون . وبعد ذلك بسبع سنين ، أنفذ الامير عبد الرحمن الغافقي سراياه على طريق بوردو وبواتيه ، في اتجاه نهر اللوار .

واتفق في هذا الوقت بالذات ان تم شيء من تجمع القوى ، في الغرب . ونشأت روابط زادت بها الايام متانة خلال القرن الثامن ، وحدت بين زعماء الفرنج وقادتهم ، وبين المرسلين الانكليز والبابوية ، التي راحت تسعى للتحرر من سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وكانت من شأن هذا التيار الوحدوي القوي ، ان لاحم بين اجزاء الغرب اجمع وقوى من عضدها ، وكون منها درعاً تتقي به شر الغزوات وما تجره من ويلات ، ولو لفترة قصيرة او لأمد وجيز . وفكرة التمثل هذه واستجماع القوى ، كان لها تأثير حاسم على مجرى التاريخ ، في الاجيال الوسطى ، اذ افسحت المجال لاول عملية تأليف ذاتي في اوروبا ، كانت الاساس الركين والمحور الوطيد الذي ستنبئ عليه نهضة اوروبا وبعثها ، فيما بعد .

نشأت على سواعد فريق من عبادة الاصلاح السياسي ، يتوث
ظهور الامبراطورية الكارولنجية الى اسرة من كبار الملاكين في منطقة الموز ، فاتخذوا 'نكاة'

لهم في ما ينشدون من اصلاح ، وظيفة سادن اوقيم القصر ، وهي وظيفة لم يلبث شاغلها ان
أصبح ، بعد ما آلت اليه النظم الملكية في عهد الدولة الميروفنجية من هلمة وانهار ، الاداة
الطبعة للقيادة والتوجيه ، واتخذوا قاعدة لانطلاقهم احدى ممالك الفرنج الثلاث ، اكثرها
خشونة طباع ، واقلها سكاناً ، هي مملكة « اوسترازايا » ، حيث بدت الطبقة الارستقراطية
فيها ، اكثر مرونة ، واقل حرثاً وتهذيباً ، والمسيحية الحديثة النشأة فيها ، اكثر رواء ونشاطاً
ونقاءً . فعند وفاة بابين ده هرستال ، عام ٧١٤ ، إستولى على الحكم والادارة بعده ، احد
اولاده الطبيعيين ، هو شارل ، الملقب بـ مارتل ، بشد ازره معظم رعاياه ويلتفون حوله . فما
لبث ان اخمد الفتن واخضع لسلطانه مملكة « نوستريا » ، وصد في مقاطعة « بواتو » ، عام ٧٣٣
تدفق سيل الغزاة العرب بقيادة اميرهم عبد الرحمن الغافقي ، فبرز للناس اجمع مخلص البلاد
ومنقذ المسيحية في الغرب . واستطاع ، بعد حروب ومعارك لاحقة ، ان يوقف سيل الغزو
الاسلامي ويحول دون تقدمه الى الشمال ، ويخضع لسيطرته ، بضربة معلم حاذق ، مقاطعتين :
الاكويتان وبروفانس . واسند الوظائف الكبرى في الحكم والادارة ، الى موظفين اكفاء
يتمتعون بثقته ، إصطفاً من بين اعضاء اسرته ومن خاصة الأسر الكبيرة في اوسترازايا ،
واعتمد على مناصرة رجال الاكليروس بمدد بكل ما يحتاجون اليه من عدة وعناد . واذ بدا
له ان لا بد من اخضاع جرمانيا لسيطرته ، قرر ان يساعد المرسلين والمبشرين على نشر المسيحية
فيها ، ولذا وضع جميع امكاناته ونفوذه تحت تصرف المبشرين الانكلوسكون ، امثال
« فيليبرورد » ، رسول قبائل الفريز ، وفيرمان ، الذي اسس ، عام ٧٢٤ ، في راينخو ، على
ضفاف بحيرة كونستانس ، اول دير انشئ على ارض جرمانيا ، واخيراً بونيفاسيو ، واسمه
الاول « فنفريد » ، الذي عمل بعد ان تزود بتوجيهات البابا وارشاداته ، على تنظيم الحياة
الرهبانية في مقاطعتي هس ، والتورينج ، وكنيسة بافاريا .

ولما كان اولاد شارل مارتل ، قد نشأوا نشأتهم الاولى في الاديان ، فقد وقعوا ، الى حسد
بعيد ، تحت تأثير رجال الدين ، فأخذوا ، بمساعدة القديس بونيفاسيو ، القيام بعملية اصلاح
شامل المؤسسات والنظم الكنسية ، اذ ذاك . ولما تم الامر لبابين ، عام ٧٤٧ ، واصبح سادن
القصر وحده ، اخذ بمؤازة رسول جرمانيا ومبشرها الاكبر ، في اقامة صلات له مع الكرسي
الرسولي الذي استجاب لهذه المبادرة وعطف عليها مشجعاً تخلصاً من ولاية بيزنطية البغيضة
ومن البارديين بعد ان ازداد ضغطهم عليه . ورغبة من البابا في توطيد سلطة سادن القصر ،
مصلح الكنيسة وحامي المرسلين القمور ، سمح له رسمياً ان يحمل آخر ملوك الميروفنجيين
الضعيف . وفي سنة ٧٥١ تم انتخاب بابين ملكاً على الفرنج . ولكي يركي هذا التبدل في الاسرة
الحاكمة ، بأسرة اخرى ويبرره ، فيضفي بذلك على مغتصب السلطة هالة من المهابة والوقار تفوق

بقيمتها الهائلة التي كانت تحف بخلفاء كلوفيس الشرعيين ، راح القديس بونيفاسيو يدهن الملك الجديد بالزيت المقدس . وهكذا تم تكريس العاهل الجديد وتنصيبه رسمياً . وقد جدد البابا نفسه ، عام ٧٥٤ ، تكريس الملك الجديد ومسحه بالزيت المقدس ، كما بارك ذريته من بعده ، وهذه البركة يمنحها لعائلة بابين ، تكريساً للاتفاق أو التحالف المعقود بين ملك فرنسا واسقف روما ، وتوطيداً له ، راح الملك بابين يأخذ تحت رعايته الخاصة البابا غريغوريوس الثاني ونزع من ملوك بافيا اللبارديين ، الولايات التي اغتصبوها حديثاً واقتطعوها من بيزنطية ووقفها ، بكل احتفال ، على الكرسي الرسولي . فانعم عليه البابا ، بالمقابل ، بلقب : « بطريرق الرومان » وهو تصرف فيه الكثير من الاعتباط والتعسف ، بدا لذاء غير قانوني ، اذ انتزع ممتلكات كانت تابعة ، من قبل ، للامبراطورية البيزنطية ، كما ان البابا انعم برتبة ليس من حقه ولا من صلاحياته ان ينعم بها ، بل هي من صلاحيات الامبراطور . وقد كانت هذه الاحداث والخطوات التي رافقتها ، الحجر الاساسي في إقامة سلطة البابا الزمنية ، كما كانت المسعف على تحريرها نهائياً ، من تابعة القسطنطينية ، وجعلها تتوّل دوماً ، على حماية دولة الفرنج لها . وهكذا تهيأت من بعيد اسباب اعادة الامبراطورية في الغرب .

وقد سهّل القيام بهذه السياسة ويسر تنفيذها ، الفتوحات الحربية التي حققها ابن بابين ، المعروف باسم كارلوس الكبير او شارلمان ، الذي قاد جيوش الفرنجة كل سنة الى ظفر مؤثّل ، موسماً بذلك حدود المملكة الى اقصى ما بلغه تغلغل المسيحية في الغرب . واستولى على عرش اللبارديين وبسط سلطانه على الدويلات المستقلة ادارياً ، في جرمانيا المسيحية ، وبذل جهوداً مريرة في اخضاع السكسون وحلمهم على اعتناق النصرانية ، وقضى على سيادة « الآفار » ، الشديدة الشكيمة ، وحمل كتائب الاسلام على التراجع والانكفاء ، عبر جبال البرانيس . وبلغ من اتساع رقعة مملكة الفرنج عام ٨٠٠ ، ومن قوة نفوذها ان راحت الاوساط الكنسية تفكر جدياً ببعث الامبراطورية الى الوجود ، لصالح الدولة الجديدة ، والرجوع بذلك الى التقليد القديم الذي انقطع عام ٤٧٦ ، عند سقوط روما بيد ادواسر ملك الهيرول ، وامتد هذا الانقطاع ثلاثة قرون بات فيها الغرب منقسماً على نفسه ، دائم القلق والاضطراب ، لا يعرف الاستقرار ، وبذلك عادت اليه وحدته السياسية والروحية . ويوم عيد الميلاد بالذات من سنة ٨٠٠ ، جرى تكريس شارلمان في كنيسة القديس بطرس ، وفقاً للطقوس والمراسم المتبعة في القسطنطينية ، وألبس التاج ونودي به امبراطوراً على الرومان . وبعد ذلك باثني عشرة سنة اعترفت بيزنطية بواقع الامبراطورية ، وإعادتها من جديد في الغرب .

ومع ذلك فقد كان من نصيب الجيل التالي اي الجيل الذي عاصر الامبراطور لويس الورع وشهد النفوذ الذي كان يتمتع به ، اذ ذاك ، رجالات الكنيسة ذوو الثقافة العالية ، تطبيق المبادئ التي أدّت الى بعث الامبراطورية . فالامبراطور هو القائد الاكبر للشعب المسيحي ، عليه ان يؤمن ادارة كل القضايا الزمنية ، كما ان سلطته او خلافته لا يمكن تجزئتها . وهكذا

فالمرسوم الامبراطوري الذي اصدره عام ٨١٧ بعنوان *Ordinatio Imperii* . يكون قد وضع حداً للتقليد الجرمانى الذي يُعَمَّل به الى ذلك الحين ، والذي كان يوجب بان يتقاسم وراثته الملك مملكته من بعده ، بينما ادعى الامبراطور نفسه عام ٨٢٤ ، حق الاشراف على دولة الكرسي الرسولي والتدخل بانتخاب البابا .

ساعد ما كانت عليه الاسرة الكارولنجية من ثراء وغنى ، وانبساط سلطان الفرنج واتساع مملكتهم ، على النهوض باسباب المدنية الغربية ، وهي مدنية محدودة الطاقات مع ذلك ، فلم يطرأ سوى تغيير بسيط على المقومات والعناصر المادية ، والاتصالات التجارية ، والتأليف الطبقي الاجتماعي في البلاد ، بينما نلاحظ تطوراً محسوساً في القطاع المدني ، هذا القطاع كان يتردى في احط دركات الفوضى والانحطاط . وقد امكن استدراك هذه الاوضاع غير الملائمة ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، عن طريق تقوية النظم والاجهزة السياسية ، مما ادى الى إستتباب النظام وتوطيد اسباب الوحدة . وهكذا نشأ جو ملائم ، سليم ، يسمح بازدهار امور الفكر وانتشار الثقافة التي كادت شعلتها تنطفئ في اواخر العهد الميروفنجي ، وهي ثقافة اطلت علينا فكرية ذهنية ، في البلدان الانكلوسكسونية ، وفنية في المقاطعات الشمالية من غاليا ، فاؤدت طوال حركة الانبعاث هذه الى نتائج طيبة ، مهدت الطريق لطلوع نهضة اخذت تنمو وتتسع دونما انقطاع . وقد عادت هذه الحركة التجديدية بالغنى والنفع على المناطق الواقعة بين نهري اللوار والرين ، اي على هذه الولايات الفرنجية القديمة ، قلب الدولة الكارولنجية ونقطة الدائرة فيها . ففي هذه الولايات قامت اوطد الاسس وارسخها . ومن هذه المنطقة جاءتنا اكثر الوثائق والمستندات . فمن هنا يجب ان نطيل لنرى الصفات والميزات التي طبعت بين ٧٨٠ و ٨٣٠ المدنية الكارولنجية ، قبل ان نتبين ما كان لها من أثر بيّن ، على الاقطار الاخرى ، في الغرب المسيحي .

فلا عجب من ان تأتي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في نصف الوضع الاقتصادي وروحه شمالي غاليا ، والحالة هذه ، واهية ، ركيكة ، بدائية المظهر والمظهر ، بعد هذا التردى الطويل خلال هذه المدة . فالسكان فيها قليلون ، وتوزيعهم ليس على سواء ، والوسائل التقنية المتبعة في الزراعة لم تكن لتصلح الا للاراضي الخفيفة الثربة ، السهلة الحرث والفلاحة ، سوادها من الدلفان والرمل ، بينما الاراضي العميقة الثربة والكثيرة الرطوبة أهمل امرها للاحراج والغابات والفياض والمستنقعات . ويفصل بين رقاع الارض المزروعة مساحات واسعة من الغابات والاحراج ، خالية تقريباً من السكان ، يرتادها من حين الى آخر بعض الخطابين والرعاة . والظاهر ان استتباب الأمن في هذه المنطقة ، بين ٧٥٠ - ٨٥٠ احدث تبديلاً ملحوظاً من الوجهة السكانية او الديموغرافية . فالقرى القائمة في السهل المحيط بمنطقة باريس حيث يقوم باستئجار الاراضي واستغلالها ، العديسد من الأسر ، كانت تضم من السكان ، اذ ذاك ، ما كانت تضمه ، تقريباً ، في اواخر القرن الثامن عشر . وهي كثافة كبيرة

إذا ما نظرنا إليها من خلال عطاء الأرض ومحصولها . ومع ذلك ، فهذه النسبة العالية في معدل السكان لم تتسبب بآية هجرة نحو الأراضي البكر . ويبدوان الناس في ذلك القرن ، كانوا اعجز من ان يوسعوا نطاق أراضيهم الزراعية عن طريق احياء اراضٍ جديدة للزراعة . ولم يعن الوقت بعد ليمسح باستمرار الازدهار الديموغرافي واطراد نموه ، بحيث يتضاعف عدد العاملين في الأرض والمستهلكين على السواء ، فيؤمنوا استمرار نمو ثروة البلاد باطراد .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ألا يكون أي أثر يذكر للحركة التجارية ، اذ ذاك . ان استمرار غزوات العرب في الجنوب ، والحروب التي ساقها كل من شارل مارتل وبابن ، أخذ بعضها برقاب البعوض الآخر ، وقد قضت على كل ما بقي من اثر النظام الاقتصادي القديم ، وذهبت بماله في تلك المنطقة ، فالتجته الحركة التجارية صوب البحر المتوسط . فالمستمرات الصغيرة التي نشأت في عهد الميروفنجيين بفضل تجار مشاركة ، والتي تألف منها محطات على طريق القوافل ، قد تلاشت واندرست ، وحل محلها ، مع الزمن ، تجار من أبناء البلاد يتعاطون البيع والشراء وفقاً للنسب ، بقوا ، مع هذا ، ندرة . ومع ذلك ، نرى كيف ان هذا الاصلاح البدائي من جهة وتوطيد اسباب الامن ، في شمالي غاليا ، من جهة اخرى ، ساعد ، منذ عام ٧٥٠ ، على اضافة شيء من النشاط ، على الحركة التجارية في البلاد .

ومن جهة ثانية ، استمرت حركة استيراد المصنوعات الشرقية الغالية الثمن : كالأفاويه والطيوب والعمود والديباغ وغير ذلك من الانسجة الجميلة التي يتهافت على اقتنائها الأثرياء وأبناء الارستوقراطية من علمانيين وكنسيين ، على السواء . والشيء الوحيد الذي تبدل هنا وتغير ، هو تحول التجارة عن المسالك القديمة التي كانت تسلكها في طريقها الى الغرب ، الى مسالك جديدة . فراسحت تعتمد بالأكثر ، اما على الموانئ البيزنطية الواقعة في جنوبي ايطاليا ، وعلى البحر الادرياتيكي ، وعبر وادي البو ، او على مجازات جبال الالب وممراتها ومعايرها ، او انها كانت تترد برأ ، متبعة الطرقات التي تجتاز البلدان الصقلية او طريق البحر البلطقي المائية ، وهي ، اذ ذاك ، اخطر الطرق ، وقاعدتها الكبرى جزيرة غوتلاند ، ومنها تدخل مجاري الأنهر الكبيرة في اوروبا الشمالية . ومن ناحية اخرى ، تطلع علينا تيارات جديدة تتمثل بحركة المعايضات التجارية ، بعد ان اخذوا بنسج الاقمشة وحياتك الاجواخ في بعض البلدان الواقعة حول البحر الشمالي ، مما كان يغذي ، بعض الشيء ، حركة تصدير بطيئة . كذلك اخذ تجار الفرنج ، ابتداءً من القرن الثامن ، يبيعون في الاسواق الاسلامية ، بعض مصنوعاتهم كالأسلحة الجميلة الصنع التي كانت تصنع في المعامل الواقعة الى الشمال من غاليا ، كما كانوا يتولون الاتجار بالرقائق ، فيبيعون ارقاء وقعوا في الأسر ، من البلدان الوثنية ، وهي تجارة رابحة انما كانت تجري بتحفظ كلي ، وبالحفاء . وذهب بعضهم الى القول ان حركة التصدير هذه ونموها المطرد كانت ذات شأن كبير على الغرب ، الذي كان اقتصر حتى الآن ، على استيراد المواد الشرقية لقاء أثمان باهظة ، معتمداً في دفع أثمانها على ما كان لديه ، بعد ، من احتياطي النقد ، دون ان

تكون له القدرة على تمويل التكاليف أو المتسرب منها إلى الخارج . وهكذا فتح التيار التجاري مع العالم الإسلامي ، المجال لادخال معادن ثمينة و عملات قوية و طرحها للتداول لتغذي الحركة الاقتصادية والمقايضات التجارية ، الأمر الذي مكّن الغرب من دفع ثمن السلع والبضائع التي كان يستوردها عن طريق بزنطية والتي كادت حركة استيرادها تنقطع لانعدام وسائل الدفع فكان ذلك بدء حركة لم تلبث بعد لأي من الزمن ، ان قلبت الوضع تماماً .

وهذا الانتعاش ، الوَجِيل - انما يؤكد - للحركة التجارية ، والاتجاهات الجديدة التي اتجهت إليها ، أدت إلى نتيجتين ثابتتين : تبدو الأولى في هذا الإصلاح التدريجي للنقد والعملة ، عند الفرنج ، وهو إصلاح تم بين ٧٥٤ و ٧٦٥ ، وعام ٨٢٠ . فأمام تداول النقد العربي والصقلي ، في البلاد ، كالدينار الذهب أو الدرهم الفضة ، استطاع ملوك الفرنج ، عن طريق سك عملات مماثلة لها ، من حين إلى آخر ، ان يعيدوا إلى التداول دينار الفضة ويثبتوا قيمته ، وربما تم لهم ذلك بربطه بالنظام النقدي المتبع في العالم الإسلامي . فليس من عجب قط ان يكون لإصلاح النظام المالي وتقويته اثر كبير على الحركة التجارية . ثم ان هذا النشاط التجاري جاء نتيجة طبيعية لهذه الحركة الديموغرافية السكانية التي برزت بواورها في هذه المنطقة الواقعة بين نهري السين والرين ، فأدت بين ٧٥٠ - ٨٥٠ ، إلى نمو عدد من المدن القديمة وتوسعها ، امثال : أراس وفردوت ومتر ، بينما نرى مناطق سكانية تطلع وتكبر وتتوسع ، حول مراكز ناشطة للتجارة ، أو لتفريغ البضائع وشحنها ، تقع على مجرى نهر السين الأسفل ، ونهر الموز والاسكو ، أو على ساحل المانش والبحر الشمالي .

ومع ذلك ، لا بد من الاعتراف هنا ان تباشير هذا الانبعاث الاقتصادي كانت ضعيفة وخفيفة للغاية ، يكاد المرء لا يشعر بها ولا يلمسها . فإذا ما اخذ المؤرخ على نفسه الإشارة إليها والتنبؤ بها ، فلأنها تهيء من بعيد ، وتهد الطريق للنهضة العمرانية والاقتصادية التي انطلقت موجتها في القرن الحادي عشر ، اذ لم يكن ، في مقدور المرء ، ان ينسى ، أوليتناسي التدهور العميق والانعكاس الذي طبع ، على العموم ، الوضع الزراعي الذي كان عليه الاقطاع الاقتصادي في العهد الكارولنجي ، وهو اقتصاد ريفي الطابع ، لا شأن يذكر للمدن فيه ، اذ كانت المعادن الكريمة مجمدة بشكل مجوهرات يخزنها الصاغة ، والنقد المتداول نادراً للغاية ، كما يستدل على ذلك من الرهونات على الاملاك ، ومن المسابك الكثيرة للعملة ، اذ كان يقوم على مقربة من كل مركز تجاري هام ، ممثل لضرب السكة يؤمن ما يحتاج اليه الناس والعملاء من نقد ، عند الاقتضاء . وهذا النوع من الاقتصاد هدفه الاول تأمين أول العيش للتاجر ، دون ان يأبه لتحقيق أي ربح اضافي ، معتمداً في ذلك على غلة الارض دون سواها .

لهذه الاسباب التي اثبتنا على ذكرها ، كان عماد الاقتصاد ، في الاقتصاد العقاري : الاملاك
هذه الحقبة ، الثروة العقارية أو الملكية العقارية ، متكناً النظام الاجتماعي منذ اقدم العصور ، ولكن لا يبرز شأن هذه المؤسسة على حقيقته الا على ضوء الوثائق

والمستندات العائدة لمطلع القرن التاسع . وقد اطلقوا على هذه العقارات أو الملكيات الضخمة اسم *Tillue* ، وهي مزروعات كبيرة قام منها عدد كبير في ايلات نوستريا وأوسترازيا ، ولا يدخل تحت هذا المسمى الاملاك الصغيرة الحجم التي يستقل اصحابها في استثمارها . وهذه الاملاك الواسعة الاطراف لا يستقر وضعها على صورة ثابتة ، لما يفتاتها من تغيير وتبديل ، ناتج عن الإرث والبيع ، والشراء والهبة ، وغير ذلك من الاسباب التي تعثر الملكية من عوامل التصرف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتفاوت فيما بينها مساحة واتساعاً . فبينما تكون مساحة العقار هنا مائة هكتار ، مثلاً اذ بها ، هنالك ١٨،٠٠٠ أو ٢٥،٠٠٠ هكتار . وبالرغم من هذا الفارق في المساحة ، فطريقة استثمارها واحدة هي ، يُعْمَل بها على شيء من التوافق والانسجام . فهي على العموم تقسم في استثمارها ، الى قسمين أو شقين : القسم المحفوظ لصاحب الارض أو مالِكها ، ولسميه : « الرباعة » ، والقسم المؤجر للاستثمار . فالقسم المحفوظ هو الذي يحتفظ صاحب العقار باستثماره لحسابه الخاص بحوره الفيلا أو الدارة وهو نقطته الدائرة في العقار ومحوره ، الذي يضم ، عدا منزل صاحب العقار ، عدداً من المنازل وبيوت السكن لمن في خدمته من خدم وحشم ومزارعين ، كما يشتمل عادة على كنيسة أو مصلًى . وهذه الرباعة تضم قطعاً مختلفة من الاراضي الزراعية ، يؤلف مجموعها ثلث أو ربع مساحة العقار القابل للحث والزراعة ، بينها قطع الكرمة عندما تسمح طبيعة الاقليم بزرعها ، ومروج ، وارض بور ، ومراعٍ للماشية ، وغابات واحراج للصيد والقنص . أما القسم الثاني من العقار ، فيتألف من قطع للزراعة هي الدوّار *Manse* الذي يقسم بدوره الى عدد من قطع قابلة للزراعة ، توضع تحت تصرف المربعين يستثمرونها ويستغلونها ، وفقاً لشروط معينة ، ولهم حقوق الارتفاق على بعض القطع البور في القسم المحفوظ لسيد الارض . ولبعض هذه القطع الزراعية مميزات خاصة تنعم بها وتميزها ، ولذا سميت *Inguénilles* ، تمتاز عن سواها بالاتساع ، وكثيراً ما يستغل الدوّار الواحد لاتساعه ، اكثر من مرابع واحد فيقسم حصصاً بينهم .

وتقسم الاملاك الكبرى والعقارات الواسعة على النحو الذي اقتضته الطريقة المستعملة اذ ذلك للاستثمار . فالفيلا هي اضخم واوسع من ان يستطيع صاحب الارض تشغيلها واستثمارها لوحده . فهي تحتاج ، بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة ، اذ ذلك ، الى عدد كبير من المزارعين والشغيلة . غير ، ان ندرة النقد بين ايدي الناس ، كثيراً ما حالت دون اكتراء ما يلزم لها من اليد العاملة . كذلك كان من المرهق والمرح معاً لصاحب الاملاك الواسعة ، استخدام أو تشغيل عدد كبير من الارقاء والعبيد ليس من السهل ايجادهم أو توفيرهم ، ولا سيما ونتيجة العمل لم تكن قط مشبعة . ولهذا الاسباب ، فضّل أصحاب العقارات الواسعة استثمار قسم من املاكهم هذه على يد عبيدهم أو احرار المزارعين ، فيستثمرون وفقاً لشروط معينة ، الارض المقطوعة لهم ، كما يرغبون ، على ان يؤمنوا أوّدهم وأوّد ذريتهم ، لقاء تمهدهم بشيئين : الاول تقديم مبلغ من المال ، بكل سنة ، لصاحب الارض ، وفي هذا دلالة واضحة على ان هؤلاء الفلاحين كان باستطاعتهم ان يقوموا ببعض الاعمال التجارية التي تعود عليهم ببعض الدخل ، مهما كان

ضئلاً ، كما كان عليهم ان يقدموا ، موسمياً ، بعض محاصيل الارض وتيناً معيناً من غلالها ، وشيناً مما تنتجه العائلة من الاشغال اليدوية ، كقطع من الحشب المشغول أو المنقوش ، وبعض الاقشة مما ينسج على اليد أو يحاك في المنزل . كذلك يترقب عليهم ان يساعدوا بالجمان ، صاحب الارض على استثمار القسم المحتفظ باستثماره لنفسه ، كما يترقب عليهم ان يقدموا له ، عدداً من أيام السخرة ، في السنة يتبرعون بها لفلاحة أرضه ، أو مساعدته في الحصاد ، وقطع العشب والقصيل ونقل الغلال ، والسهر على سلامة وصيانة المباني القائمة على املاكه . وهذه الخدمات يتبرع بها الفلاحون ، هي في نظر صاحب الارض ، اهم بكثير من الرسوم النقدية أو المعينية التي يترقب عليهم تقديمها له . وبالفعل ، فقد كان كبار الملاكين ، في القرن التاسع ، يؤجرون قسماً من اراضيهم ، ليس طمعاً منهم بما تدره عليهم من دخل وغلال ، بل ليؤمنوا لانفسهم الخدمات الثانوية التي كان يتوجب على المربين تقديمها لهم ، بعد ان يوفرها لهم الشيء الصعب أو العسير في الامر ، الا وهو دفع اجورهم . من الطبيعي جداً الا تؤمن هذه الطريقة لسيد الأرض في السنة الواحدة ، سوى دخل بسيط . غير ان كبار الملاكين كان يهمهم جداً ان تؤمن نفقات معيشتهم ومعيشة ذريتهم ، وان ترسل الى اهرائهم وحواصلهم بانتظام ، المواد الغذائية عن طريق نقلها بالسخرة ، وان تساعد هذه الحفنة من الدراهم التي يقبضونها من المربين أو من بيع المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم ، على شراء ما يرغبون في شرائه من الكاليات ، التي يبتاعها من وقت لآخر ، من التجار المتجولين .

فالمجتمع في عهد الدولة الكارولنجية هو مجتمع يرتكز في الاساس ، على الثروة المجتمعية الريفي المقارية ، ويحمل تنظيمه الطبقي سمات الملكية العقارية . فهو مجتمع يقوم أصلاً ، على الرق والاسترقاق أو الموالي ، شأن المجتمع الروماني في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، والدولة الميروفنجية . فالتمييز التقليدي المتوارث بين الملاكين وبين الموالي ، أساسه نظرة اهل العصر في ذلك الزمان . فالملكون هم وحدهم اعضاء في المجتمع ويشاركون وحدهم بنشاطاته العسكرية والقضائية ، كما يستدل على ذلك من بعض المصطلحات والمترادفات اللغوية كما نرى في كلمتي *Libre* و *Franc* ، مع ان الرق كان ، والحق يقال ، سائراً القهقري ، كما هو ثابت .

فالآداب والاخلاق المسيحية التي كانت تحظر استعباد المعتمد أو المنتصر ، كانت تعتبر تحرير الرقيق عملاً يستحق الاجر والمثوبة . فلا عجب ان تكون ساعدت بعض الشيء على الانتقال من قيمة الطبقة العاملة . فالأسباب التي تكمن وراء هذا الوضع ، هي ، في صميمها ، اسباب اقتصادية صرفة . فالارقاء الذين كان يؤتى بهم من البلدان الوثنية ، اصبح الاتجار بهم عملية رابحة منذ ان اصبحوا سلعة تشرى وتباع ، يشد التجار المسلمون اليها الرحال . ومن جهة اخرى ، فالأخذ بنظام التملك الواسع والعمل به ، أدى الى اهمال استعمال فرقاء الارقاء في الاعمال الزراعية الباهظة التكاليف . ففي مطلع القرن التاسع كان الارقاء يؤلفون عشرة في المائة من مجموع سكان الريف ، سوادهم الاكبر يعمل في المزارع والحقول . وقد ساعد وضعهم هذا

على التخفيف ، بصورة محسوسة ، من الروابط التي كانت تشد بسيد الارض ، مع العلم ان هذا الوضع كان عندهم وراثياً ، يجعلهم دوماً مرتبطين ، دونما محيص ، بسيدهم ، فيسومهم القصاص أوانا والعذاب أصنافاً ، وله الحق المطلق والآخر ، على كل ما يملكون حتى على ولدهم وذرائعهم . فهم لا يستطيعون الافلات او التنقل ، ولا ان يتزوجوا الانباء على رغبة سيدهم وبإذن صريح منه ، كما عليهم ان يستجيبوا ، سريعاً ، لكل مطالبه . فاذا ما استقر احدهم مع أسرته في الدوار الزراعي الذي تحت تصرفه ، فواجباته تخف نوعاً ، اذ ينحصر معظمها في استثمار الارض المغطوة له ، وهو استثمار باستطاعته ان يورثه اولاده من بعده . ففي الأيام التي لا سخرة عليهم فيها ، يستطيع الواحد ان يعمل في ارضه دونما اعتراض من احد ، وان يتصرف بغلale كيفما يشاء ، فيبيع قسماً منها . كذلك باستطاعتهم ان يوفتروا ، وان يدخروا لهم مالا ، وان يؤمنوا لهم ربحاً حلالاً ، كما باستطاعة من كان بينهم على شيء من النشاط والاقدام ، ان يشتروا ارضاً حرة ويتصرفوا بكل حرية باستغلالها . وكلما ازداد انتشار النصرانية في الريف اندمجوا ، أكثر فأكثر ، في المجتمعات المسيحية واكتسبوا ، بالتالي ، شيئاً من الشخصية الادبية ، فزواجهم لا يصبح مجرد مساكنة وتسترٍ ، بل يتم وفقاً لمراسم الاسرار المسيحية ، له ذات القيمة ويجري على النمط الذي يجري مع الاحرار .

فاذا كان وضع العدد الاكبر من الأرقاء اخذ يتحسن في نطاق الملكية العقارية الواسعة ، فوضع المربعين الذين تسميهم الوثائق التاريخية التي ترجع لهذا العهد بـ *coloni* ، لا ينعم بسوى شيء ضئيل جداً من الحرية . فهم بالاسم ، جزء لا يتجزأ من الشعب الحر ، ويخضع بالاسم للنظم التي يخضع لها العامة . غير انهم يخضعون ، بالفعل ، لمشئته رب الارض الذي ينظر اليهم نظرتهم الى متاع ، يستغلهم كيفما يشاء . ويصدر اليهم اوامره دونما رقيب او حسيب . فهم ، في الاساس معفون من الواجبات العسكرية ، الا انهم ملزمون الدخول في تنظيمات سيد الارض التي يعملون عليها ، كما انهم مجبرون على دفع رسوم خاصة اذا ما رغبوا في تكليف من يحل محلهم ، كما أن من كان منهم يعمل في اراضٍ خاصة بعمل العبيد ، يلزمون القيام بالاعمال الشاقة التي يطلب الى العبيد ، القيام بها . فالمدلول بين الحرية والعبودية لا يزال بعيداً ، والفارق بينها قوياً ، ليصبح انزال المولى او الفلاح المعمر ، قانوناً ، منزلة العامل الشغيل . ومع ذلك فهم يؤلفون معهم ، عملياً ، طبقة واحدة مرهقة ، رازحة . وهذا الفارق الاجتماعي الاقتصادي الطابع الذي يفصل بين العمال الذين يعملون في الاملاك الواسعة ، وبين الرجال الاحرار الذين يعملون في اراضيهم الخاصة ، يزداد اهمية يوماً بعد يوم .

والفلاحون الاحرار يشاركون بجميع النشاطات العسكرية والقضائية في مجتمع الفرنج . الا انه عندما تكون ثروة الواحد منهم متواضعة ، فليس في وسعهم ان يعمدوا باستثمارها الى آخر ، يكبدهم حضورهم امام المحاكم واشتراكهم خلال الصيف بالحملات العسكرية ، مصارفات ونفقات لا قبل لهم بها ، يتفادى الكثيرون منهم تحملها ، وذلك عن طريق وضع انفسهم

تحت حماية احد كبار الملاكين ، ورعايته فيحوّلون قطعة الارض التي يملكونها الى اقطاع يستثمرونه كفلاحين في حماية متنفس كبير . وهكذا لم تلبث الطبقة الوسطى ان ذابت فغابت تدريجياً . والانهيار الذي اصبحت به الطبقة الحرة يُبرز بصورة اجلى ، تفوق كبار الملاكين العقاريين الذين يعمل في استثمار اراضيهم ، اثنتا عشرة عائلة على الاقل ، بحيث يلتحقون بخدمة الجيش فرساناً لابسي الدروع . وهذه الطبقة التي تتميز في الشرائع البربرية والقوانين الكارولنجية بالقاب فخرية وشرفية ، ونعوت طنانة ، منها *Procures* ، و *Optimates*) و *Nobiles* ، تزداد ثراءً وغنى بما ينال عليها من الانعامات والأعطيات العقارية الموقوفة على الوظائف العالية واصحاب المراتب السامية ، عسكرية كانت ام كنسية . فهم اساد الفلاحين العاملين في املاكهم ، لهم وحدهم الحق بمراتب الجيش ومجالس القضاء والمحاكم ، والدنو من الملك والاتصال به مباشرة ، والتمتع بالحرية التامة . فهذا المجتمع الريفي الطابع حيث المراتب تعطى بنسبة ما يملك الفرد فيه من اطيان واملاك ، منقسم الى طبقات منعزلة بعضها عن بعض ، مغلق عليها ضمن الاراضي التي تستثمرها ، لا منفذ لها على الخارج ، جاع السلطة والشأن فيها بيد قلة من كبار الملاكين .

لما كان سدنة القصر في مقاطعة اوسترازيام اكبر اصحاب الاملاك ، فقد رسائل الحكم استطاعوا ان يقبضوا على زمام الحكم فيها ويستولوا على السلطة . فحاولوا ان يحكموا بالفعل ، وهي مهمة شاقة للغاية دونها خرط القتاد . صحيح ان الوضع الاقتصادي الذي كان عليه المجتمع ، اذ ذاك ، كان يساعدهم على ذلك ويجعل مهمة الحكم سهلة نسبياً ، اذ ان معظم سكان الريف والطبقة العاملة في الارض ، كانوا كلهم يخضعون ، بحكم ظروفهم الاجتماعية ، لملاك كبير ، يقوم في منطقتهم . وتحقيق هذا الهدف لم يكن يطلب اكثر من المحافظة على التاج وعلى احترام ما للملك من سيطرة اقتصادية ، واكتساب ولاء بضع مئتين من كبار النبلاء في البلاد . ومن جهة اخرى ، فقد كان المفهوم العام للدولة وللواجب الوطني لا يزال بعد غامضاً ، غامضاً مستغلقاً . فاكتساب ولاء كبار النبلاء انما كان يتم عن طريق اغراقهم بالهدايا والهبات ، أو باخضاعهم بالقوة والبطش . وهذا الاستسلام والخضوع هو بالطبع موقوت ، ووضع متأرجح ، وذلك لعدم وجود اجهزة تمتن من العلاقات بين البلاط والرئاسات الاقليمية . ففي وقت كان فيه تجول الافراد ونقل الارزاق والمقتنيات ضيقاً للغاية ، والقراءة والكتابة في سبيلها الى العفاء والزوال ، فالعلاقات السياسية كان لا بد من ان تركز على العهد المباشر المقطوع ، وعلى الاتصالات الشخصية وعلى الذكريات ، اذ ان الملك الذي لم يكن في وسعه ان يكون في كل مكان ، لم يكن له من ممثل في المقاطعات سوى الكونتية ، هؤلاء الموظفين الكبار الذين كانوا ، على الاجمال ، دون المهمة الموكولة اليهم ، يعاونهم قلة من العملاء يعملون في الوظائف القضائية الدنيا ، يفتقرون كلياً ، الى عدد كاف من صغار المساعدين ، ليتمكنوا من القيام بهام الادارة في دوائرهم ، كما يجب . وهؤلاء الحكام الاداريون هم انفسهم من كبار الملاكين ، غير

قابلين للرفق أو العزل ، مبدئياً ، بعيدون عن الملك ، ويعتمدون محلياً على انصارهم في المنطقة . فكثيراً ما تمردوا هم انفسهم على النظام ، وضربوا بالانضباط عرض الحائط . ومن جهة اخرى فالرسوم الجبائية من افراد الشعب ، والتقادم التي كان عليهم ان يدفعوها للملك ، وهي عادة يُعمل بها منذ عهد الميروفنجيين ، لم تكن تمد الملك بموارد كافية ، منتظمة الدخل ، بحيث يستطيع معها ان يجتذب ولاء الامراء ، ويصطنع النبلاء حوله عن طريق توزيعه ، الفينة بعد الفينة ، الاعطيات والهبات السخية .

ومع ذلك ، فقد استطاع الكارولنجيون ان يسيطروا ، في اواخر القرن الثامن ، على الارستقراطية معتمدين ، في ذلك ، على وسائل وذرائع شتى . منها انهم كانوا ينظمون كل سنة ، حملات عسكرية يرسلونها وراء الحدود . فالملكية الفرنجية ، هي عسكرية في الاساس ، لانها جرمانية ، بربرية في صميم طبيعتها . فالشعب هو قبل كل شيء ، الجيش ، والملك هو ، قبل كل شيء ، قائد حرب وقائد سلاح . فبمجرد ما كان يقوم بوظيفته هذه ، ويؤدي هذه الخدمة ، كان ذلك امتداداً لسلطته وسلطانه ، فيتقوى ويتوطد ، وعندما يجند شعبه ويدعوه لحمل السلاح ، يصبح هذا الشعب في قبضة يده وتحت تصرفه . فكل من كان حراً ، ولا سيما الاغنياء ، عليه ان يلبى نداء الملك بدقة وان يتقيد بالموعد المعين ، وإلا تعرض لجزاء ثقيل ولغرامة باهظة . فأقل تلكؤ أو تأخر يبدر منهم خلال العمليات الحربية ، يجر على المذنب او المخالف اشد العقوبات . ففي كل صيف يتوجب على الارستقراطية الفرنجية ان تحتشد على ادى ما يكون من الانضباط والنظام ، في فترة تطول من حزيران الى تشرين الاول ، فتشعر ، فيما بينها ، بتضامن اكبر عن طريق ما بينها من زمالة السلاح ورفاقة الحرب ، تحت ادارة الملك وقيادته . ثم فالحرب كانت دوماً حرفة مربحة ، مغذية . فالغزو والاسلاب والمغانم ، والاراضي المفتوحة ، كل ذلك يمد الملك ويوفر للملك ، ويعد له ظروفاً جديدة ومناسبات ناهضة ، ليزرع عوارفه ومكافآته على الذين يتفانون في خدمته ، وبهذا السخاء يكسب ولاء الآخرين . والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو ان محاولات التمرد او شق عصا الطاعة ، حوادث لا تقع الا في اعقاب معركة خاسرة او موقعة فاشلة . فالحرب وما تتبعه للجيش من اسلاب وغنائم ، هي اولى ادوات الحكم وأمثلها على الاطلاق .

واذا كانت الحرب تتجدد في كل سنة ، فهي ليست بذلك مستمرة دائماً ، والا أصبحت سلطة الملك نفسه فصلية موسمية او حينية ، عليها ان تتوارى وتختفي في الاشهر القسعود ، أي عنبها يكون المحاربون ملازمين بيوتهم ومنازلهم . من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الاتصال بهم لوعورة المسلك ، وصعوبة المرتفعات معزولين بعضهم عن البعض لاتساع رقعة المملكة ، أثر حرب ناجحة وسعت من اطراف البلاد . ولذا كان من المهم جداً ان يبقى استنفار الملك لوحدهات جيشه معمولاً به والبلاد في حالة حرب معلنة ، من حين الى آخر ، بحيث يتم للجميع مشاهدة ما للملك من قوة وبأس ، وما له من بطش حتى في أيام السلم ، عندما يكون الجيش

مرابطاً في قواعده خلال فصل الشتاء. ولذا كان من المحتم على الملك ان يكون له عيون وارصاد، له بهم كل الثقة ، يبثهم في جميع الولايات ، تشدهم الى الملك او الى الأسرة المالكة ، وشائج القربى الوثقى ، وأخلص روابط الود عن طريق علاقات شخصية لها من المتانة ما لآصرة الدم. ولذا بين ١١٠ كونتاً الذين كانوا يمارسون الحكم ويضطلمون بمهام الادارة في مختلف الولايات والولايات ، في عهد شارلمان والامبراطور لويس الورع وتحديد مراكز اقامتهم ، كان ٧٠ من بينهم اصلهم من مقاطعة اوسترازا ، و ٥٢ بينهم من اقارب الملك وأنسابه . ولهذه الاسباب عينها ، بهم الملك ان يترعرع تحت انظاره ، في البلاط الملكي ، أبناء النبلاء ، وهكذا يصبح لدى هؤلاء اليافعين الذين عاشوا في رفاقة الملك مباشرة ، واتصلوا به ، وسكنوا في غرف القصر وحجراته العديدة الفسيحة ، شعور الابن نحو الاب ، كما يجعلهم تذكركم لهذه الالفة ، أكثر ولائم له ، وأكثر ثقة به عندما يعودون ، بعد انفراطهم من الخدمة ، الى ايلاتهم الخاصة . ولهذه الاسباب لجأ الكارولنجيون الى طريقة عملية طالما عمل بها منذ عهد بعيد ، في الاوساط الارستوقراطية في شمالي غاليا ، وهي ان يجعل الملك ، عظماء الدولة ووجوه البلاد وأعيانها ، أقباعاً له .

ملكية وتبعية
في مطلع القرن الثامن كان عدد الرجال الاحرار الذين يضعون انفسهم تحت كنف عميد يحميهم ، او رئيس يسيع عليهم ينجاحيه ، كبيراً جداً دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم وحقوقهم . وهذا الخضوع او التكريس الذاتي كان يتم وفقاً لمراسم وطقوس ، نقرأ وصفاً لها ، وبياناً عنها ، لأول مرة ، في وثيقة حررت عام ٧٥٧ ، فيجشو طالب الحماية ويضع يديه بين يدي السيد السند الذي يلتزم رعايته ، فيصبح بذلك من « ازالامه » ، مديناً له بالولاء والخضوع والامتثال . ثم يؤيد او يحنم تكريسه هذا بتأدية قسم احتفالي ، ويشهد الله والناس ، على صدق ولائه وامانته . وكان يتلقى بالمقابل ، الحماية وغير ذلك من المنافع المادية ، منها مثلاً اقطاعه ، بالهجان ، ارضاً يستثمرها طالما بقي مالياً ومحافظة على العهد المقطوع ، تعرف عندهم « باقطاع » او أخاذاة . وينشأ بين الرجلين شيء من القرابة الروحية والادبية . فالضعف الذي كانت الدولة تتردى فيه ، واضطراب حبل الأمن في البلاد ، وتطبع الاقتصاد بطابع ريفي محض ، كل ذلك ساعد على ترسيخ هذه التقاليد ، والتمكين لها في النفوس ، وهي اعراف وتقاليد لها جذور عميقة في المجتمع الغالي ، الروماني ، وجرمانيا البدائية . ان اسلاف بابين وشارلمان استخدموا الطريقة ذاتها ، وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على اوسترازايا بأكملها ، وهي تقاليد تغلغل في صلب الحكومة بعد التغيير الذي طرأ على دولة الفرنج ، بحلول الاسرة الكارولنجية محل الاسرة الميروفنجية .

فالملوك تشبثوا ، قبل كل شيء ، بان يتألفوا من يعهدون اليهم بمهمات رسمية ، كونتية كانوا أم من ارباب المناصب الكنسية العليا ، الاعتراف بالولاء والطاعة ، وان يُتِمَّوا الواجبات الملقاة عليهم من جراء الوظائف التي يعهدون بها اليهم ، منها خدمتهم للملك ، سيدهم وزعيمهم ، خدمة

نصوحة. وعن طريق انابتهم لبعض دوائر الجباية ، او بتوزيعهم عليهم قطعاً من هذه المقارات الواسعة الارضاء التي يملكونها ، استطاع اوائل الكارولنجيين ان يعملوا ، في عداد زبائنهم أو تابعيهم ، اغنى الملاكين ، وكبارهم الذين لم يلبثوا ان امسوا «توابع للملك» ، ولذا ترتب عليهم اكثر مما يترتب على غيرهم من الناس ، ان يقوموا بواجباتهم كرعايا مخلصين ، فينخرطوا في الجيش وهم باحسن عدة وعتاد ، والاختلاف الى محكمة الملك ، ومساعدته بكل قواهم ، على تأمين اسباب الراحة واستتباب الامن في البلاد . اما الصفار من بين اصحاب الاملاك ، فكان عليهم ان يضعوا انفسهم تحت كنف اتباع الملك انفسهم . وهكذا ، فالطبقة العليا في هذا المجتمع الحر رأت نفسها مندججة كل الاندماج ، في نظام مترابط من الولاء المسلسل ، والمواثيق المقطوعة للتابع وللتابع التابع ، حتى تصل الى شخص الملك .

وقد جاء هذا النظام مجدياً فعلاً ، ثابتاً ارتكز عليه كل بنيان الدولة وكيانها ، بعد ان مكنت تقاليد التبعية والولاء في نفوس القوم ، وانتظم الأخذ بها عرفاً ونصاً . ومدة الاستعداد تجددت بكل دقة ووضوح ، فالفرقان مرتبطان الواحد بالآخر مدى الحياة ، الا ان يتجاوز السيد واجباته تجاوزاً يخرج بعيداً عن الصدد ، واقطاع التابع أخاذة يستغلها ويستثمرها ما دامت قائمة رابطة الملاء ، هو ما يميز ، اكثر فاكتر ، العمل بنظام التبعية . وهذه المنافع تعود على التابع ، تأتي ثمناً لولائه وخضوعه ، ولذا استثمرها مدى الحياة . اما اذا أخل بواجباته وحنت بقسمه ، كان من حق سيد الارض ان يستخلصها منه وان يقطعها عنه . وهكذا فالكرم الملكي يبقى مشروطاً ، واحتمال المصادرة يبقى اكبر وسائل الضغط والتأثير . اما طبيعة التبعية نفسها ، وطبيعة واجباتها ، فتبقى غامضة ، مبهمه . غير ان الملك يتوقع ان يقوم رجاله بواجباتهم بكل اخلاص ، وان يأتوا بالدليل على تعاونهم تعاوناً نيراً ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

وبعد ان أخضع الكارولنجيون ، بواسطة نظام عسكري شددت من متانته ومداه روابط الدم ، ومتنته روابط التبعية والمواكلة ، بعض عشرات من الأسر والبيوتات الشريفة المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد ، أخذوا يحاولون ادخال بعض التحسينات على النظم الادارية التي توارثوها من الميروفنجيين . فعبثاً طلبوا من الكونتية ان ينظموا اعمالهم الادارية ويضبطوها ويحكموا قيدها ، وان ينشئوا لهم دوائر خاصة لحفظ الوثائق والمحفوظات . وقد راحوا هم أنفسهم يضمنون مذكرات ومفكرات تبلورت ، في آخر الامر عن هذه القوانين التي جاءت تضبط الأوامر الشفوية الصادرة التي كانوا يستنونها في ربيع كل سنة ، امام الجيش المتشد والمتأهب للانقضاض . وساحلوا ان يتشددوا في مراقبة عملائهم الإقليميين . وفي سنة ٧٨٩ ، تُلغى الوثائق التاريخية ، لأول مرة ، الى نشاط مفاتشين متجولين يسمونهم *Missi Dominici* ، لم تلبث صلاحياتهم ان اتضحت ، شيئاً فشيئاً واتسعت . فقد كان موفدو الملك ، في مطلع القرن التاسع ، يجهزون ، في فرق مختلفة ، تضم الواحدة منها دوماً : اسقفاً وكونتاً ، وعدداً من

الإيالات يتراوح عددها بين ٦ - ١٠ ليس للبلاط فيها أي مثل . وقد انتظمت هذه الدورات ، وأصبح القيام بها فرضاً لازماً أربع مرات في السنة . فبعد ان يتزود موفدو المملك بالتعليمات اللازمة وينصرفوا للنظر في امر تنفيذ أوامر الامبراطور وكيفية تطبيقها ، يشرفون على اوضاع الامن في ربوع البلاد . كذلك كان عليهم ان يجمعوا شكاوى الرجال الاحرار ، اذا كان لهم الجراءة على الاعراب عنها ، وان يصلحوا ما ساء او اختلط امره من شؤون ادارة الكونت في الإيالة التي عهد اليه بإدارتها .

واذ تبين للكارولنجيين بأن هذا التفتيش لم يفر دوماً بالغرض وليس بالتالي كافياً ، فقد راحوا يحدّون كثيراً من حرية تصرف الكونتية ، لاسيما في ما لهم من صلاحيات تحوّلهم النظر في امور العدل وشؤون القضاء ، في أثر توسيع صلاحيات محاكم البلاد ، عندما انشئ في قلب كل إيالة ، هيئة من القضاة المسلمين المعروفين بـ *Echevins* ، غير قابلين العزل والرفق ، يجري اصطفاؤهم وانتخابهم من قبل المفتشين . وقد كلفوا حضور الجلسات الاحتفالية العامة لمحكمة البلاط وكان على الكونت ان يأخذ رأيهم بعين الاعتبار والاحترام .

ثم ان امتداد سلطة الملك وسلطانه الى مناطق شاسعة ، جعل من المهم انشاء حلقات اضافية متوسطة ، بين البلاط والكونتية ، اتسمت بالاحكام . والى جانب الولايات والايالات الفرنجية امثال نوستريا واوستراريا وبورغونيا ، هنالك مناطق اخرى في الامبراطورية كابطاليسا والاكويتين والبايفار ، اصبحت ممالك لها استقلالها الاداري ، بينها الولايات الواقعة تماماً على الحدود : في الشرق ، بالتجماء شعوب الدانمارك والصقالبة والآثار ، وفي الغرب ، على حدود بريطانيا ، وفي الجنوب في هذه المناطق التي استخلصوها من سيطرة العرب المسلمين ، فقد انشئت فيها ادارة عسكرية خاصة هي دائماً في حالة تأهب للحرب ، تحت ادارة قائد عسكري مباشر ، يراقب ، عن كثب ، أعمال الكونتية ويخضعهم لأوامره . وهذه الاعفاءات التي اعطيت لعدد كبير من المؤسسات الدينية ، في عهد الدولة الميروفنجية ، جرى توسيعها . فنذ القرن التاسع ، اخذنا نرى أملاك الاساقفة ، ورؤساء الاديار خارجة عن سلطة الكونتية ، ومداخلات معاونيهم ، وبذلك أصبح صاحب المركز الديني ، في نظر الرجال الاحرار ، القاطنين على املاك هذه المقارات ، الممثل الوحيد للسلطة الملكية . فهو الذي يقودهم للجيش ، والذي يقتص من مخالفاتهم ، ويقدم للمحاكم الملكية ، المجرمين الذين اقترفوا جرائم كبرى . وهكذا اخذ الاحبار ورؤساء الاديار يمارسون ، بالنظر لما يتمتعون به من نزاهة ، ومن ولاء للبلاط ، جانباً من الادارة الحكومية في قسم كبير من المملكة . وهكذا نرى ان الميزة الاخيرة التي اتصفت بها النظم والمؤسسات السياسية ، في عهد الدولة الكارولنجية انما كانت الاتحاد الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

وبالفعل ، فقد ارتدت السلطة الملكية ، خلال القرن الثامن ، في كل من مملكة الفرنج وبيزنطية والعالم الاسلامي ، صبغة دينية ظاهرة ، أدخلت تغييراً عميقاً على طبيعة السلطة .

ومفهومها . فقد جاء ذلك نتيجة منطقية لحفلة التكريس . فبعد ان يكون الملك مختاراً من الله ، ليمثله على الأرض ، أصبح من حقه ان يمارس شيئاً من الكهنوت وواجباته . فلم يعد حاكماً مطلقاً . فقد ترتبت عليه مسؤوليات ، وتحمل واجبات جديدة نحو شعبه ورعيته ، عليه ان يسهر على الكنيسة وان يدافع عن الضعفاء والمساكين وان ينشر على الأرض العدل والسلام ، وهما اهم ما يرود خواطر مستشاري الملك من رجال الدين والكنيسة . فاذا ما تحدت سلطته على مثل هذا النحو ، كان لازماً على رعاياه ، ان يتعاونوا معه وان يبذلوا أقصى ما بيدهم ، لتأمين السلام وتوطيد اركانه . وهكذا تبدو الفكرة الذهنية ، المبردة ، للدولة ، هذه الفكرة التي غامت كثيراً في عهد الدولة الميروفنجية ، وتنبور على هذا الشكل الشؤون المسيحية العامة لتختلط بشؤون الشعب الذي اصطنع بالعباد والذي تؤلف الكنيسة فيه ، قوامه الادبي والديني والعنصر الضابط له . قد يشك المرء في ان تكون هذه الفكرة الذهنية لهيكل الدولة السياسي قد وجدت لها صدى قوياً في خواطر الارستقراطية العلمانية ، في عهد شارلمان . فليس بالقليل النافل ان تسمي هذه الفكرة ، التي ظهرت واطلقت علينا في هذا العهد ، الاطار الاساسي لكل النظم الملكية التي عرفت في الاجيال الوسطى . هنالك مراسم او تدابير خاصة ، ليتورجية الطابع ، رآها شارلمان خليفة بان توطد حكمه وتشد سيادته ، تتمثل في هذا القسم او اليمين المغلفة يؤديها صاحبها ويده على بعض المقدسات . فقد بعث الى الوجود تقليد قديم تنوسي امره ، وذلك عندما اوجب ، عام ٧٨٩ ، على كل رعاياه ، ان يقسموا باللات ياؤا شيئاً إذا ، يسيء الى الملك او يضر به ، ثم فرض ، عام ٨٠٢ ، الالتزام والتقييد فعلاً ، بواجباتهم الدينية من حيث تناول الاسرار ، والتعهد بالامتناع عن كل مخالفة للشرائع الكنسية والمدنية ، والعمل على ما فيه مرضاة الله وخدمته . وتحت طائلة تقسم يؤدونه وايدهم على الانجيل او على ذخائر القديسين ، يضعون بوجه نفوسهم وقوام تحت تصرف الامبراطور ، أصبح المجتمع في مملكة الفرنج مرتبطاً بالملك ، المزم ، بحسب التكريس الذي تم له ، بتوجيه شعبه وقيادة الى الخلاص . وهكذا فالشاعر الدينية ، كونت عضداً ادبياً قوياً شد من أزر القوى المادية العظيمة التي قمت للدولة الكارولنجية .

ومع ذلك ، فهذا التنظيم السياسي للدولة يبقى ، لمعري ، واهناً لها هو عليه من طابع بدائي . وبين ٧٨٠ و ٨٣٠ أخضع اصحاب الملكيات الواسعة لشيء من الانضباط والانتظام ، وهو تدبير ضروري لم يكن بد منه ، فلاقى نجاحاً مدهشاً ، اذا ما نظرنا اليه من خلال الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية غير الملائمة جداً ، فاصبحت مملكة الفرنج ، اذ ذاك ، اشبه شيء بمملكة يرفرف فوقها النظام وتنعم بالسلام الداخلي ، مدة نصف قرن ، وهي نعمة بقي ذكرها طويلاً في اذهان الناس وخواطرهم ، وهكذا ، اتاح بعث السلطة واعادة النظام في البلاد للحياة الدينية والثقافة ان تحقق الكثير من التطور والازدهار .

الرواد الأوّل لهذه النهضة ، هم المرسلون الانكلوسكسون الذين نشروا الكنيسة الكارولنجية
لواء المسيحية فوق ربوع جرمانيا ، بعد ان شدّت من ازهرهم ، سدّنة القصر
في اوسترازايا وجعلوهم يفكرون بان التعاون بين الكنيسة المتجددة بالاصلاح من شأنه ان يوطد
سلطتها . وبطلب صادر عن بابين القصير القامة واخيه كارولمان ، قام القديس بونيفاسيو باصلاح
شامل عم الكنيسة الفرنجية وتناولها من جميع نواحيها ، وذلك وفقاً للبداءى والمناهج التي
وضعت خلال المجامع الاقليمية الثلاثة المعقودة تباعاً ، عام ٧٤٢ و ٧٤٤ ، في اوسترازايا ونوستريا
وقد تابع عملية الاصلاح هذه ونهض باسبابها ، ملك الفرنج الذي أصبح ، عقب تكريسه ،
شخصية كهنوتية الى جانب كونه حليفاً للبابا ، لبصبح ، عام ٨٠٠ ، الامبراطور ، ابي رائد
المسيحية ومرشدها . وقد تمّ في مطلع القرن التاسع ، اصلاح كل النظم والمؤسسات الكنسية
وتقنيتهما من الشوائب اللاصقة بها . وهكذا برزت كنيسة الاجيال الوسطى .

لهذه الكنيسة قانونيتها المميزة . ففي أواخر عهد الدولة الميروفنجية ، كارت قام في شمالي
غاليا ، المديد من الأديار التي ، عانت الامرين من الفوضى الضاربة أطنابها ، اذ ذاك ،
ومن مداخلات العلمانيين ، واختلاف نهج الحياة الرهبانية لدى الكثير من هذه الرهبانيات التي
لم يحافظ عليها اصحابها ، وتوزيع شارل مارتيل جانباً كبيراً من املاك هذه الاديار ، على اتباعه
ورعاياه . ومع ذلك فقد كانت هذه الاديار أسلم وأتقى هذه المؤسسات على الاطلاق ، فقد كاد
اهتمام القديس بونيفاسيو بها لا يذكر . ولم يتمكن قط من حمل جميع الرهبان على اتباع قانون
بندكتوس وفرائضه ، هذا القانون الذي كان على احسن ما يكون تطبيقاً وعملاً به ، في الاديار
الجرمانية ، الحديثة النشأة ، ومنها انتقل ، على النمط ذاته ، الى أديار اوسترازايا . وفي هذه الاديار
ازدهرت الحياة الرهبانية وفقاً للنزعات والمناهج الانكلوسكسونية ، اذ لم يكن رؤساء هذه
الاديار مجرد مديرين قاهمين بين رهبانياتهم ، كما ارادهم ان يكونوا القديس بندكتوس ، بل رسلاً
ومبشرين ، النشاط ملء وفاضهم ، يقومون بأعمال الكرازة بالانجيل ، تحت اشراف روما
مباشرة . ولم يلبث البحث والدرس ان رجعت كفته في هذه الاديار على كفة الاشغال اليدوية .

وقد حرص كل من بابين وشارلمان على ابقاء هذه الاديار ، في حالة جيدة وعلى مستوى عالٍ ،
محاولين مع ذلك استخدامها لسياساتهم الخاصة . فقد استمروا يُنعمون ببعض الاملاك المأخوذة
من عقارات الاديار ، ويقطعون بعض انصارهم وخدامهم من العلمانيين الذين ينعمون بالاسباب
رهبانية ، اطيب املاك الاديار وأجودها . الا انهم حرصوا على ان تثال الاملاك الباقية بين
ايدي الرهبان ، احسن عناية وأتمها . وبالفعل فقد تمتعت الجماعات الرهبانية ، في عهدهم ،
بجميع اسباب اليسر والراحة . وفي هذا الوقت بالذات برزت الدعوات التي انصرف اصحابها
للعلم والدرس ، اذ ان الاسند بالنظام العقاري على النهج المعمول به اذ ذاك ، والسير بأمسلاك
الاديار على الطريقة المقارية التي وزعت بموجبها الاملاك ، حرر الكثيرين من الرهبان من

الانصراف للأعمال اليدوية التي يتطلبها تأمين أود الحياة . وقد نظر الملوك الى رؤساء هذه الاديار نظرتهم الى موظفي الادارة ومأموري الحكومة ، فراحوا يصطفونهم ويتخيرونهم من نفس الوسط او مستوى الطبقة الاجتماعية التي يختارون منها الكونتية ، او من بين اولاد النبلاء الذين 'نشئوا في البلاط الملكي ، وعهدوا الى هذه النخبة وهم عادة من الشباب الذي يزخر بالنشاط ، بمهام ادارية وسياسية دقيقة . فقد كانت الكنيسة ، بين ٧٥٠ - ٨١٤ ملاًذاً لثقافة ، وموئل العلم والفكر ، والبوتقة الاولى التي صاغت وافرغت النهضة الفكرية والفنية التي اخذت تظهر اذ ذاك ، كما كانت بلا منازع ، الاداة المثلى والعنصر الفعّال ، والعامل الاقوى في تحت الحضارة الفرنجية وافرغها وفقاً للقالب الاقتصادي الذي تحكم بالوضع الاجتماعي ، في هذه الحقبة ، وبذلك كانت الكنيسة السند الاقوى والدعامة الكبرى في هذا الانبعث الذي انطلق في العهد السكارولنجي .

في عهد لويس الورع ، وقع حادث هام يمكن رده لتأثير رئيس احد الاديار هو بندكتوس انيان الاكوييتيني الذي تاقت نفسه للأخذ بتفسير جديد أكثر صرامة ، للفرائض الرهبانية البندكتية . فقد اقلع الامبراطور من جهة ، عن الاغتراف من اموال الاديار واملاكهم ، ووهب علانية عدداً منها ، حق انتخاب رؤسائها بكل حرية ، كما ان القانون الذي صدر عام ٨١٧ ، اوجب العمل بفرائض القديس بندكتوس بعد ان اجري فيها تعديلات مهمة ، اذ ابطال الاخذ بالنظرية الانكلوسكسونية للحياة الرهبانية المفتوحة التي تتوزع بين الدرس والتبشير ، واحل محلها نزعات ، تلمسجم ، أكثر فاكث ، مع الحياة الرهبانية المشتركة التي 'عمل بها في دنيا البحر المتوسط ، والتي تتميز بالشد في عزلة الرهبان ، والاقلال من الدروس ، والاكثر من التمارين الليتورجية . ومنذ ذلك الحين ، اخذ عمل الاديار التبشيري بالتضاؤل شيئاً فشيئاً ، واخذت الاسقفية تلمب في الكنيسة الدور الاول في هذا المضمار .

كانت الرتبة الاسقفية قد بلغ منها الانحطاط كل مبلغ ، في مطلع القرن الثامن ، مع انها لها اهل الاول والدور الابرز في التنظيم الكنسي . وقد كان اصلاح هذه الرتبة ، الشغل الشاغل للقديس بونيفاسيو الذي اولى جـلـ اهتمامه اصلاح الناحية المادية للكنائس القائمة في كراسي الابرشيات ، واملاء الكراسي الشاغرة منها بأساقفة اكفاء ، واقصاء من كان غير اهل منهم وقطعهم عن شراكة الكنيسة ، وتنظيم الجامعات الكنسية . وقد كان هذا الاصلاح عملية شاقة ، بطيئة ، ولم ينته منها الا في عهد الامبراطور شارلمان . فكان الاسقف ، اذ ذاك ، يجرى اختياره من بين كهنة البلاط او من بين رؤساء الاديار المتقدمين في السن ، شريطة ان يكونوا من اصحاب الكفاءات ، مشهوداً لهم بالفضل والتقوى ، اذ كان الامر يتعلق بتنصيب اسقف راعياً روحياً لمنطقة يقوم مركزه في قاعدة هي على الاجمال ، مدينة رومانية الاصل ، يتولى هو نفسه تدبير الكهنة رعاة الكنائس ، ويتولى امر تربيتهم وتحريرهم في امور الدين ، ومراسم الطقوس الكنسية والعبادة ، في مدارس خاصة تقوم على مقربة من المقر الاسقفي ، ويشرف

على مسلك المؤمنين وتصرفهم ، ويساعدهم على القيام بواجباتهم الدينية والمدنية على احسن وجه ، وبذلك يمدون السبيل امام الكونت والملك ، لاستبواب الامن والسلام في البلاد ، واشاعة العدل بين الناس . وخضع الاساقفة انفسهم لمراقبة شديدة من قبل موفدي الملك ومفتشيه ، وكانوا عرضة للقطع والفصل من مناصبهم ، من قبل مجمع كنسي يجمع بتوجيه الملك او تحت رئاسته ، كما ان مجالس الاكليروس العامة كانت تزودهم بإرشادات وتعليمات عليهم بالتقيد بها ، وتدرج اهم قراراتها في القوانين الرسمية . فالاساقفة ومصف المطارنة هم اجهزة ضرورية في دولة تتداخل فيها الامور الروحية والزمنية بصورة لا يمكن انفصامها .. وتمكيناً للاساقفة القيام بخدمة امثل ، واحياءاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة ، راح الامبراطور شارلمان في مطلع القرن التاسع ، يعطي انعامات مميزة للمتقدمين من الاساقفة او المتروبوليت الموكول اليهم امر الاشراف على الاساقفة التابعين لهم ، والذين اصبحوا يُعرفون ، كما في الكنيسة الانكلوسكونية ، برؤساء اساقفة . وهكذا بعد ان تم على مثل هذا النحو ، اصلاح الاسقفية ، وتثبيتها من الادران والشواذب التي تسربت اليها ، وبعد ان اُمدّت بالاطر والملاكات اللازمة ، احتل المصف الاسقفي ، في الامبراطورية الكارولنجية ، بعد عام ٨١٤ ، محلاً بارزاً ، ورأى نفسه مدعوأ ، كما جاء على لسان يرنان الاورلياني ، في كتابه : « حول النظام الملكي » ، ليس فقط لقيادة الرهبان وتوجيههم ، فحسب ، بل ايضاً العلمانيين والرهبان على السواء ، وعلى السير احسن مما تستطيعه السلطة الملكية الآخذة بالتقهقر ، بجماعة المسيحيين الى معارج الفضيلة والكمال المسيحي .

وهذا الاصلاح الذي تناول الرتبة الاسقفية والمصف الاسقفي ، ادى ، من جهة ثانية ، الى تقوية الاجهزة والمؤسسات الكنسية والعلمانية السفلى . فقد اخذ الكهنة ، في المدن يعيشون عيشاً مشتركاً ، تحت اشراف ورئاسة المقدم بين الكهنة ، وفقاً للفرائض والقوانين التي سنّها الاسقف كروودغانغ ، مطران مدينة ماز ، في منتصف القرن الثامن ، للفيث الكهنة الذين يخدمون في الكاتدرائية الاسقفية . اما الريف ، فقد اخذ بتنظيم كنائسه على اساس راعويات ، وذلك منذ عهد الدولة الميروفنجية . فقد بقي امر خدام هذه الكنائس الريفية مرتبطاً الى حد بعيد ، بكبير الملاكين ، ولي الكنيسة الاول ، لا سيما وهم على الغالب ، في جهل مدقع لما هم عليه من تربية سطحية للغاية ، تزداد المحذراً وسوء لمعاشرتهم اناساً مخشوشين ، اجلاًفاً . ومع ذلك فالتطور جاء عظيماً ، اذ اتاح لهذه المجتمعات الوثنية ، المنعزلة في هذه المقاطعات المسيحية ، ان تذوب تدريجياً وتندمج معها ، بحيث اصبح تحت تصرف اكثر الجماعات الريفية خشونة ، كاهن يعنى بخدمتهم الروحية .

وهكذا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها كل من البابا وملك فرنسا ، أمكن توحيد الاعراف الكنسية ومناهج الانضباط بين رجال الكنيسة . فقد تلقى شارلمان من روما ، عام ٧٧٤ ، المجموعة القانونية المسماة *Hudriuna* التي لم تلبث ان اصبحت القانون الذي تمشت عليه كنيسة

الفرنجة ، كما تلقى على التوالي ، فيما بعد ، نصوصاً ليتورجية طقسية منها : « الليتورجية الفريغورية » التي أحلت الليتورجية الرومانية محل العادات والطقوس الغالية المتباينة

وهذا الإصلاح الكنسي الذي مكّن من تحقيقه ، إعادة السلطة الملكية وتقويتها كان يحق ، النقطة الأساسية التي انطلقت منها نهضة ثقافية وحركة تجديدية تناولت الآداب والأخلاق . وبفضل هذا الإصلاح للأخلاق والآداب الذي تم بفعل ما كان لرجال الاكليروس من تأثير فعال ، أصبح العلمانيون أسس قيادة ، وأقل خشونة في طباعهم . يجب ألا يذهب المرء للظن ان الناس ، في هذا العصر ، كانوا يسرون بهدي التعامل الانجيلية بكل دقة . فقد كانت الامور الدينية خارج الأديار ، على جانب كبير من البساطة والسذاجة ، لا ينحرج الناس فيها كثيراً ، ولا يتورعون في ركوب المركب الخشن . الا انه هنالك تطور ملحوظ يبدو بوضوح في الاسرة الملكية . ف منذ عهد بابين ، لم يعد القتل السياسي القاعدة المطردة للوصول الى الحكم ، كما ان عادة التسري اخذت في الانتساح من الاذهان ، كما ان الاولاد السفاح اصبحوا من الندرة بمكان ، كما انصرف الامبراطور لويس الورع الى اصلاح البلاط منذ ان اعتلى العرش ، وحرص على استئصال الموبقات والمنكرات . وهكذا اخذت الامة الفرنجية تتخلص تدريجياً مما علق بها من شوائب المهجية .

هنالك ، كذلك ، بعث ثقافي وفكري ، انما على نطاق أضيق واشعاع اخف ، ازدهار الآداب افاد منه قلة من رجال الكنيسة ، وبضعة آلاف من الرهبان وبضع مئات من رجال الدين العلمانيين . ففي نظر رواد هذه النهضة والناهضين بأمرها ، كالقديس بونيفاسيو ومساعديه الاقربين ، فالحياة الدينية يجب ان تسير جنباً الى جنب مع الدرس والبحث والتعلم ، الامر الذي حل المبشرين على تأسيس مدرسة في كل دير أنشأوه ، في جميع اطراف اوسترازيا . وهكذا جاء الإصلاح الديني للكنيسة في الغرب مقروناً ، منذ البدء ، ببعث الحياة الفكرية والثقافية . وهذه الثقافة هي دينية بحتة تهدف ، في النهاية ، الى خدمة الله والى انتهاز نهج قويم في الحياة ، قواعدها الكبرى : الديارات الرهبانية والكاتدرائيات المتوزعة بين شعب غشوشن الطبايع ، بليد الذهن ، متبلد الفهم . وهي كذلك ثقافة لاتينية الطابع ، لغوية في جوهرها ، لم يكن الغرض منها سوى تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة ، كما نقلها الينا مترجمة ابرونيوموس ، ومؤلفات آباء الكنيسة في الغرب ، عن طريق دراسة الادب الكلاسيكي اللاتيني . وهي الى هذا كله ، ثقافة من وحي الطقوس الليتورجية ، ساعدت الاماديج والأناشيد الفنية الرائعة التي أبدعتها على تحلية وتزويق الكتب التقوية والكنسية والكتاب المقدس .

انطلقت هذه الحركة الإصلاحية من بين المرسلين الانكلوسكسون ، ولم تلبث ان اتجهت الاتجاه السديد في السنوات الاخيرة من القرن الثامن ، عندما وضعت الفتوحات الكارولنجية ، الولايات الفرنجية ، وجهاً لوجه مع البلدان الجنوبية ، حيث كان التراث اللاتيني الروماني اقل اندثاراً وانحطاطاً مما صار اليه امره في البلدان الاخرى ، وعندما اخذ شارلمان نفسه يهتم برفع المستوى

الثقافي بين رجال الاكليروس ، في شمالي غاليا . وفي هذا السبيل ادخل العامل الفرنجي في بطانته ، وألحق بحاشيته ، فريقين من اهل الفكر والادب من الاغراب ، أتى بهم من بلاط المباردين ، امثال بطرس البيزي ، وبولين الاكيلي ، والشماس بولس ، كما استقدم بعضهم ، من بين الاسبانين ، امثال ثيودولف الذي سيم ، فيما بعد ، اسقفاً على مدينة اورليان ، ومن بين الانكليز : ألكوينس احد مدرسي مدرسة يورك ، بعد ان اجتمع به اتفاقاً ، في ايطاليا ، واستقدمه الى بلاطه عام ٧٨٢ . وقد كان هؤلاء المثقفون عوناً له وعضداً قوياً اذ كلفهم اعداد الأطر والملاكات اللازمة لتعليم منهجي يعطى بانتظام في مدارس الكنائس الاسقفية ، والديارات الرهبانية او في مدرسة البلاط ، يرثاها رجال الاكليروس من أبناء النبلاء وسراة القوم اذ اعتاد الامبراطور ان يختار من بينهم ، أساقفة الكنيسة وأحبارها . وقد وضع ألكوينس بنوع خاص برنامجاً نموذجياً للدرس أتمن ذيعه وانتشاره في سلاسل من كتب النصوص التي هيأها وأخرجها للناس ، وهو نهج جاء عن طريق مرتيانوس كايلا ، امتداداً للنهج الذي كان عليه المعول في الادب الكلاسيكي القديم . ويتألف البرنامج المذكور من حلقتين متميزتين ، تعرف الاولى باسم *Trivium* وتشمل التعليم الاساسي الذي يضم ثلاثة فروع : الصرف والنحو ، مع شروح وتفسير للنصوص الكتابية لتيسير فهم اللغة اللاتينية ، والخطابة او فن الانشاء ، والجدل او فن المنطق . اما الثاني فيعرف باسم *Quadrivium* ، وهو يهدف عن طريق تعليم الحساب والموسيقى و « الهندسة » اي الجغرافية الى تزويد الطالب بدورة موسوعية من المعلومات حول الطبيعة والعالم .

سارت هذه الحركة الهويناء في البدء ، فجاءت نتائجها متواضعة ، اذ لم يكن لدى المكرين والكتّاب المعاصرين لشارلمان ، ومعظمهم اغراب ، باستثناء الراهب سان ريكسيه المجلبرت ، رغبة في وضع مؤلفات اصيلة ، بل كان جل رغبتهم ان يحتذوا ، ما استطاعوا ، النماذج والقواعد التي بلغت اليهم من التاريخ القديم . وقد تصرف ، هؤلاء الاساتذة ، تصرف طلاب متواضعين ، ليس لهم من هاجس سوى طلب العلم والسعي اليه . فالهم عندهم وضع الادوات والاجهزة الموصلة للعلم ، واعادة النقاء والاصالة اللغوية الى النصوص المسيحية ، وتنقيح نص الكتاب المقدس . وفي هذا السبيل ، وتوفيراً لنصوص واضحة ، موثقة ، وتيسيراً لعدد اكبر من النسخ ، طلع علينا طراز جديد من الخط يعرف عندهم بالكارولينجي الصغير ، وهو حرف اعتمدته على نطاق واسع ، دار النسخ (*Scriptorium*) التي أنشئت في مدينة تورس . وهكذا لم يتجاوزوا كثيراً الدرجة الابتدائية من الحلقة الاولى *Trivium* ، أي درس الصرف والنحو على أساس من الشروح والتعليق التي وضعها دوناتس ، وبريسيانوس . وقد امكن بعد هذا الجهد الطويل ، وبعد عدة قرون من الهمجية والبربرية ربط ما انقطع ، ووصل من انقص من امور اللاتينية الكلاسيكية ، اذ بفضل ما تحلى به النساخ من الرهبان ، من صبر جميل واحترام لهذه النصوص ، امكن انقاذ القسم الاوفى من تراث روما الادبي والفكري . وهكذا اصبحت للغة اللاتينية ،

في غالبا ، المنزلة التي بلغت اليها في البلاد الانكلوسكسونية : لغة علم وانضباط ودقة ، تتميز جيداً عن اللهجات الشعبية المحكية ، وتسمو فوقها بكثير . ومن الحوادث الاساسية البارزة التي ادت اليها هذه المرحلة الاولى من الانبعث الكارولنجي ، هو ان اللهجات الرومانية اتجهت كل منها ، في اتجاه مفرد . وهكذا أصبحت البلاد المسيحية ثنائية اللغة ، مزدوجتها .

وهكذا قيّض للجيل الذي تخرج على هذه المناهج واخذ ينتج في الحقبة التي عقت وفاء شارلمان ، ان يضي قدماً في مضمار التقدم والريقي . فالحركة الاصلاحية التي قام بها بندكتوس الانبائي الذي خشي من انصراف الرهبان نحو الادب العلماني وانقطاعهم اليه وراح ينقص من الساعات المخصصة للدرس ، في الاديار ، تؤلف دليلاً آخر على الاتساع الذي بلغته حركة البعث الادبي ، يحب اضافته الى الدليل الآخر القائم في هذه المقاومة التي لقيتها هذه الحركة الاصلاحية ، في الاوساط الكنسية الاكثر تطوراً . فقد جاء يقوّي من هذا التيار فريق من المثقفين الاجانب ممثلمهم ارلنديون ، هذه المرة ، فرّوا من وجه الغزو السكندينيافي الذي تعرضت له بلادهم ، بينهم سيدوليوس سكوط ، وجون أريجين الذي كان على اتصال مباشر بالفكر الفلسفي ، وهو اول فيلسوف لبغ ، خلال الاجيال الوسطى ، في الغرب تميز بالجودة والإصالة ، مع ان معظم رجال الفكر اللامعين ، في القرن التاسع هم من الفرنج . وقد اعرقت ثقافتهم ورسخت ، واتسعت مداركهم ورحبت منها الجنبات تشهد على ذلك رسائل لوديه فاريار . فاذا كانت البعض منهم امثال رابان مورسار على خطى ألكوينس ووضع لجيله كتب نصوص للمدارس ، كما وضع نصب عينيه تثقيف الرهبان ورجال الاكليروس ، فالسواد الاعظم بينهم حاول ان يشق طريقه بوضع آثار شخصية تميز بالاصالة ، رامياً منها الى اربعة اغراض رئيسية . اولها اغناء الليتورجيا والطقوس الكنسية عن طريق وضع اناشيد ومراثيل دينية تأتي متسجمة مع الروح الموسيقية التي تجددت بعد ان روعي فيها التناغم المسلسل على أساس من الرموز الجديدة . والثاني هو النظر في المؤسسات والنظم السياسية الممول بها ، اذ قام أحبار واساقفة عرفت بقوة عارضتهم ومقدرتهم على الجدل والمناقشة ، أمثال اغوبارده ليون وجوناس الاورلياني يجاولان التلنسيب والتكييف وتأمين الانسجام بين المجتمع العلماني والمجتمع المسيحي . والثالث هو التاريخ الذي يشله ، في هذه الحقبة أذجنهارده ، وأرمولد الاسود المعروف ايضاً باسم نيشارد ، اذ في علم التاريخ تتبع ، واقتفاء أثر سير الشعب المسيحي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه . واشير اللاموت ، وهو الفأية القصوى لكل ثقافة دينية تحاول مع بسكاسيوس رديتوس ، المتوفى ٨٥٦ ، اكبر لاهوتي الفرنج في القرن التاسع ، وغوتشالك ده فولدا تقريب فهم قضايا الايمان الكبرى . صحيح انه يجب الانغلو كثيراً في تقدير هذه لآثار الادبية التي يشقها ويرزحها كثرة الاستشهادات ، والتي كثيراً ما تلفتقر الى بساطة العفوية والبداهة ، وتبقى تعليمية بحتة ، الا ان ما فيها من زخم وقوة ، يكون بواذر اليقظة الفكرية ، في الغرب .

كما في الادب والفكر ، كذلك نهضة في الفن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الذي نهضة الفنون تناول الوضع السياسي والحياة الدينية . وقد جاء هذا الاصلاح اسبق من غيره مما رافقه من وجوه الاصلاح الاخرى ، واكثر اصاله ، وأقل اتكالا وتعويلا على الماضي ، اذ لم يعد الفنانون كالادباء ، مثلاً ، منهمكين باحتذاء النماذج الكلاسيكية ، فتتنزى انجازاتهم الفنية ، بنوازع وتيارات فنية بدت طوالها منذ اواخر القرن السابع ، بين نهري اللوار والرين ، في هذه المنطقة بالذات التي تم فيها التقاء التقاليد القديمة مع العنصر البربري الجديد ، فتمازجا بعضاً ببعض .

وقد تجلّت قدرة الفنانين والرسامين الغالين الفنية ، في هذه الانشاءات الهندسية التي تمت خلال عهد شارلمان ، ممثلة خير تمثيل ، في كنيسة جرميني التي شيدت وجرى تزيينها وفقاً للاساليب والمناهج القومية المرعية الاجراء . واذا كان ملك الفرنج الذي بنى كنيسة البلاط في مدينة اكس ، وارادها دليلاً على ان قوته هي من طبيعة قوة اباطرة بيزنطية ، فالمهندس أويد ده متر ، هو ايضاً من مقاطعة اوسترازيا .

فالمعهد الخصب بالانجازات ، هو ، هنا كما في مجال الادب والفكر ، العهد الذي جاء به عام ٨١٤ ، فالكنائس والمباني الاخرى التي ترجع الى زمن لويس الورع ولوثير ، امثال كاتدرائية ريمس القديمة ، وبزيليكسا سان جرمين دو كسير ، تحوي هندستها المعمارية ، ما يتم جيداً على التجديدات التي جاءت تعبيراً عن حاجات الليتورجيا الجديدة والتي تمهد السبيل مباشرة ، للهندسة الرومانية . ان انتشار عادة تكريم ذخائر القديسين ادى الى الحاق البزيليكسا من الطراز القديم ، والتي نرى منها وجهاً في كل من الشرق والغرب ، ببيان جديدة لاستعمال الزوار والهجاج ، اذ يقوم الى الامام ، حنيّة بشكل مفارقة حيث نرى جدث القديس في صحن من صحن الكنيسة ، يملوه معبد بشكل محدث ، وفي الداخل اروقة ، قليلة الارتفاع يملوها منصات ، وكنيسة فرعية يملوها برج من كل جانب . والشيء الجدير بالملاحظات هنا ، هو هذا التغير الاساسي الفاصل ، اذ نرى الانشاءات الفرعية ، الضخمة تحمل فيها الاعمدة المتخذة من الحجارة ، محل الاعمدة الرخامية التي ساروا على استعمالها في البزيليكسات ، كما حل الخشب محل العقود .

وهذا الفن الكارولنجي يبلغ ذروته في تزويق الكتب والمخطوطات والتوشيات البديعة التي وُشيت بها انواع الجلود المستعملة لتغليف الكتب ، وهو ازدهار يكاد يكون مفاجئاً ، لم يوطئ له العهد الميروفنجي السابق ، بشيء ، اذ ان زركشة الانجيل المعروف بالانجيل غودسكال تمت قبل قدوم العلماء الاجانب الى بلاط شارلمان . وتجديد الليتورجيا لم يكن بعيداً عن هذه الانشاءات بعد ان جرى تبني الليتورجيا الرومانية وتجديد نسخ الكتب المقدسة ، كل ذلك تسبب عن إنشاء مدارس خاصة لتحلية المخطوطات وزركشتها بالعاج ، كمدرسة سان دنيكس وتورس ، ومتر ، وهوغفلر ، وكوربي ، واكس لاشايل ، وقد اطلعت هذه الورش او المعامل

الفنية كبار الفنانين الذين بعد ان استوحوا الصور والرسوم البشرية المرسومة على الافاريز ، كما هي الحال في مفسرة او كسير ، والنقوش الظاهرة على بعض الاقشة المستوردة من الشرق ، وسفر المصنوعات الحديدية في منطقة الموزيل ، طلعت علينا بروائع فنية ، كتوراة كنيسة القديس بولس خارج الاسوار ، وكتاب القديس المعروف بكتاب دروغون، ومزامير اوترخت ، او توراة شارل الأصلع .

وحدة الحضارة في الغرب هذا هو الوضع الذي بدت عليه الحضارة في الغرب ، بين ٧٨٠ - ٨٣٠ ، في هذه البلدان الواقعة بين نهري الوار والرين ، وهو وضع

اخذت تتأثر به وتتفاعل معه جميع اجزاء الامبراطورية الكارولنجية . واذ كانت هذه الامبراطورية تتجه ، مشبعة الى حد بعيد ، بالعوامل والمؤثرات الدينية ، وكان جميع الذين يقومون بالتوجيه الروحي فيها من رجال الدين ، فليس من عجب ان تتجه افكارهم ، في الدرجة الاولى ، اتجاهاً مسيحياً وان يروا ، كما رأى اغوبارد الليوني ، بان كل النزعات الخاصة يجب ان تنصب وتنسكب في وحدة شاملة . ولما كانت الولايات التي تشع منها هذه الحضارة هي محور هذه الدولة التي تغطي رقعتها الجغرافية جميع ارجاء الغرب تقريباً ، وملك الفرنج هو المالك للقسم الاكبر من العقارات الواقعة الى الشمال من غاليا ، ورأس الطبقة الارستوقراطية في كل من اوسترازا ونوستريا ، فقد اصبح الامبراطور الروماني ، والرائد المشارك للبابا ، ولجميع المؤمنين بالسيد المسيح . وقد مهد لانتشار هذه الحضارة الكارولنجية ، العلاقات التي شدت الفكر ورجال الدين بعضاً الى بعض ، شداً محكماً عن طريق الزيارات والرسائل التي يتبادلونها فيما بينهم ، والكتب التي يتماورونها ، كما ربطت بينها هذه الاجتماعات الدورية التي تعقدتها الارستوقراطية الملمانية بمناسبة الحملات والسرايا العسكرية ، والاصل الواحد المشترك الذي يجمع بين مختلف الغاين باعمال الادارة : من اساقفة ورهبان وكونتية ، الذين ، بالرغم من توزيعهم في جميع أنحاء الامبراطورية ، يمدون تقريباً للأسرة الكبيرة الواحدة ، اذ قضوا معاً في البلاط الواحد ، حدائث واحدة مشتركة . صحيح ان الامبراطورية ليست الغرب كله او بكامله ، وانه لا يزال في بعض الاقاليم ، تقاليد ونزعات محلية قومية . ولهذا لم يكن الاشماع الحضاري في هذه المدينة الكارولنجية ، على نسبة واحدة ، وبمعدل واحد في جميع أنحاء هذه المناطق على السواء .

عرفت الاقطار الواقعة عبر نهر الرين ، من نهر الإلب حتى جبال الألب ، كيف تنصهر في بوتقة واحدة . فقد قام الكارولنجيون بتحضير جرمانيا في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب الفتح ليخضعوا هذه الاقطار لنفوذهم . فبتميينهم الكوننتية في هذه المقاطعات ، وبانشاء الولايات العسكرية على الحدود ، أوّلوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، الاقوام المتأرجحة في تحالفها اتجاهاً المرسوم وأطرها السياسية . ان دمج هذه الولايات في صلب المملكة الفرنجية ساعد كثيراً على تشجيع النشاط التجاري على اختلاف وجوهه ، وعلى تهديد السبل لظهور التجمعات

المدينة الكبرى . ولم يلبث النظام العقاري ان عم الريف وانتشر فيه ، دون ان يبلغ ، مع ذلك ، من التوسع والامتداد ، ما بلغه في القسم الشمالي من غاليا ، اذ بقيت الملكية الصغيرة الحرة معمولاً بها بكثرة ، ورائجة كل الرواج في الولايات الدائرية : في الفريز ، وسكسونيا والمقاطعات الألبية الاخرى . وقد قام المبشرون بنشر الدين والثقافة معاً ، بعد ان أقاموا لها مراكز اشاع واحدة تتمثل ، خير تمثيل ، في هذه الديارات البندكتية ، امثال دير راينخو ، وسان غال وفولدا ، وكوفي (كوربي الجديدة) . ولما كان من الواجب لهذه الثقافة اللاتينية ان يتلقفها رهبان ورجال الاكليروس من اصل جرمني ، فقد ساعدت ، عن طريق المعاجم التي أدت الى وضعها وتصنيفها ، الى تثبيت بعض اللهجات الالمانية القومية . وهذه الثقافة التي تغلغل في محيط لا يخشى ان يزاحمها فيه منافس او مزاحم لغوي يفسد عليها نقاء الاصل والمصدر ، لم تأت الحضارة السكاردولنجية ، في أي مكان ، بأنقى منها في المانيا ، وقُبِضَ لها ان تستمر في تطورها الصاعد مدة اطول لم يتم مثلها لأي منطقة اخرى .

وعلى عكس ذلك ، فقد اصطدمت العوامل والمؤثرات الفرنجية ، في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من مدينة تورس وشالون على الصون ، وجبال الألب ، بتقاليد وطنية متأصلة في نفوس اصحابها ، لا تلين ولا تقي ، في قليل او كثير . فالجنوب من غاليا كان يؤلف محيطاً شديد التماسك والتضام ، صعب النفاذ اليه : فلا النظام العقاري المعمول به على نطاق واسع في غير هذه المقاطعات ، ولا أعراف التسمية وتقاليدها تأصلت فيها أو أعرفت في ارضها . فالنظم والمظاهر الثقافية المعمول بها في هذه الاقاليم عانت كثيراً ، وأصابها المزيد من الاذى ، خلال هذه الحملات والغزوات العسكرية التي تعرضت لها تلك الاقطار خلال النصف الاول من القرن الثامن ، والمقاومة العنيفة التي قام بها السكان هناك ، حالت دون تجديدها عن طريق المؤثرات الفرنجية المتسربة اليها من الشمال . وهكذا نرى مقاطعتي الاكويتين وبروفانس تؤلفان ، في عهد شارلمان ولويس الورع ، فراغاً في خريطة الغرب الثقافية ، في هذا العصر . وعلى عكس ذلك ، فبقايا الحضارة القديمة في ايطاليا اللباردية وفي المقاطعات النابضة للكروسي الرسولي ، دب اليها النشاط وقاضت بالحياة عندما نعمت بالأمن والسلام السكاردولنجي ، والحركة التجارية مع الشرق شقت لها مسالك جديدة عبر شبه الجزيرة الايطالية ، بعد ان تعطلت أو تهللت الاتصالات والمقايضات التجارية في البحر التيريني ، فعادت هذه الحركة بالنشاط على التقاليد المدنية ، وعادت الحياة تزخر من جديد في هذه المدن العريقة ، ولا سيما تلك التي وقعت منها في سهل البو ، امثال ميلانو ، وكومارشيو ، وفراره . وقامت في نفس هذه المدن ثقافة لم تنقطع وشائجها بالثقافة الهيلينية لانها بمنجى عن السيطرة الكنسية . امسا في الفن فتعود الصور والاشكال الرومانية للظهور بشيء من الجود ، تحت تأثير العوامل البيزنطية ، سواء في محفورات العاج اللباردية الاصل أو في الصفائح الذهبية التي تغطي كنيسة القديس امبروسوس في ميلانو ، أو في الفسيفساء الرومانية الموجودة في كنيسة القديسة براكسيدس ، أو في تماثيل سيفيدالدو في ريرل

المهتوعة من الملك. وولاية اسبانيا العسكرية هي في الوضع ذاته: فالروح العسكرية الفرنجية قليلة الاثر في هذه المقاطعة التي يأهلها لاجئون من الفيزيغوط ، وهي نقطة عبور ومركز تجاري كثير الاتصال بالعالم الاسلامي .

وهناك اخيراً ، بعض المقاطعات في العالم المسيحي اللاتيني التي لا تخضع للإمبراطورية ، كالممالك الصغيرة التي قامت الى الشمال من اسبانيا او في الجزر البريطانية ، اذ لم تحلُ النهضة الكارولنجية من اثر على مملكة أستوريا حيث سيطر التبداول بالنظام النقدي الفرنجي ، وحيث اخذ تدريس الآداب اللاتينية يزدهر وفقاً للمناهج ذاتها ، وحيث راجت بعض نماذج الهندسة المعمارية المعمول بها في الشمال . اما الجزر فبقيت في شبه عزلة . فانكلترا وحدها لها حساب ، اذ ان المقاطعات الكتلتية الاخرى التي دّب اليها الانحطاط منذ عهد بعيد ، أي منذ ان تعرضت ، في اواخر القرن الثامن ، لغزوات السكندنافيين ، هي في حالة تضعضع كلي . ومع ان البلدان الانكلوسكسونية لم تقع مباشرة تحت تأثير نفوذ الدولة الكارولنجية الا في ما يتصل بنظامها النقدي ، فالفرق يكاد لا يذكر ، في الوضع الحضاري ، بين الطرف الواحد والاخر من المانش . فقد اشذت حضارة القارة ، من انكلترا ، بعض العناصر والمؤثرات الاساسية ، من بينها النظم الكنسية والتعليمية ، فاذا كانت الخطوات التي قطعتها النهضة الفكرية في الدولة الفرنجية اقل بروزاً من العنصر الذي استمدته من ثقافة الجزيرة البريطانية ، فالمدرسة الاسقفية في يورك ، لا تقل شأنًا ، حتى بعد ان غادرها الكويلس ، عما لمدارس غاليا الشمالية من سطوع وتألق ، ولا شك في انه تمّ في خلال القرن الثامن ، وضع الرائعة الشعرية باللهجة القومية ، المعروفة باسم *Beowulf* . ومن جهة اخرى ، فكلا الطرفين ، مشبعان بالتقاليد الجرمانية الواحدة . ومع ان النظام القضائي المعمول به في المجتمع الانكلوسكسوني ، والنظام الاخر الجاري الاخذ به ، في بلدان الفرنج ، ينمّان عن كثير من مواطن القري وفيها الكثير من الوثائق الوثقى ، فالاول هو ، مع ذلك ، اكثر تحرراً لان روابط التبعية فيه ليست من التماسك والترابط في نظامها ما هي عليه في الثانية ، واوضاع الأطر التي يتم فيها استثمار الملكية العقارية ليست محكمة الحلقات . فانكلترا افادت كثيراً ، كما افادت غالبا الشمالية ، من ازدياد النشاط في حركة المبادلات والمقايضات التجارية . فتجارها يصدّرون الملبوسات الصوفية للاقطار المجاورة لبحر الشمال ، ويبيعون من التجار المسلمين القصدير والعبس . كذلك افادت انكلترا ، بين القرنين السابع والتاسع ، من الناحية الادبية ، اذ ان ملكها « أوفتا » تعامل مع شارلمان ، كالند للنسب . وهكذا كانت حضارة الغرب المسيحي ، حوالي عام ٨٠٠ ، لأول مرة منذ انطلاق موجات الغزوات الجرمانية الكبرى ، ذات تأثير بيتن ، ومتجانسة كل التجانس ، بالرغم من الفوارق المحلية العارضة .

انقسام الامبراطورية الكارولنجية
ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع ، اصبحت هذه الوحدة ، وهذا الزخم الذي جاشت به المدينة الكارولنجية بصدمتين عيفتين ، متلازمتين الواحدة مع الاخرى : من جهة : المخطاط الملكية الكارولنجية التي كانت

الركن الرئيس لهذا البيان السيامي الذي قام في الغرب، ومن جهة أخرى، الغزوات التي تعرضت لها هذه المملكة في وقت واحد من الجنوب والشمال والشرق .

ففي عهد بابين وشارلمان ، وتحت تأثير الانصهار التدريجي للسلطات الروحية والزمنية ، دخل على النظام الملكي الفرنجي عاملان متضادان : الاول عامل بدائي قديم ، يقوم على مبدأ عسكري ، اساسه العنف والحرب والسلب ، وبفضل هذا العامل ، امكن السيطرة على ارستوقراطية الفرنج . اما الثاني فمبدأ ديني اصلا ، وعنصر جديد رأى ان يقيم السلطة ويُعبد سيادتها على مراسم وانظمة طقسية ، ليتورجية ، اساسها مراسم التكريس الرسمي والقسم الاحتفالي تصبح معها مسؤولية الملك الاولى والكبرى ، المحافظة على السلام وتأمين المصالحة بين الناس ، وتقوم له مناصرة النخبة الممتازة من رجال الفكر واهل الرأي والثقافة بين رجال الكنيسة . وهذا التوازن الذي قام واستمر ردحا من الدهر ، كان واهي الاساس اصلا ، فلم يعم ان اختل واضطرب . فمُنذ ان تولى لويس الورع مقاليد الحكم ، افضى تطور النهضة الادبية والفكرية الى المزيد من نفوذ رجال الكنيسة ، فراحوا يُقنعون الامبراطور بالتزام حدود واجباته في المحافظة على السلام ، والسهر على اشاعة العدل بين الناس

وهكذا بدا الامبراطور وديما ، مسالما ، وانقطع عن ترأس الحملات والتجريدات العسكرية وقيادتها الى ما وراء الحدود . ومضى المبشرون في دعوتهم للمسيحية والتبشير بتعاليمها ، يحاولون اقناع رؤساء القبائل الوثلية باهتناقهم الدين الجديد . وكان من جراء هذا الموقف والوضع الموصوفين ان فوتت على الملك فرص النهب والسلب التي كانت تتيح لها الغزوات والحملات العسكرية ، اي ان ذلك حرمة من الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكنه من بسط عوارفه ، والجلود بانعاماته على رعاياه ، دون ان يمس هذا الكرم والسخاء بشيء ثروته العقارية . ولذا لم تلبث ثروة الكارولنجيين العقارية الضخمة ان ذابت وتطايرت بددا .

وحاول الملك ان يبرز للناس ، متصفا بالعدل والعدالة ، وان يتم واجباته بكل دقة ويقوم بالمسؤوليات التي تولاه في حفلة التكريس الرسمية ، وهذه الواجبات التي فرضتها عليه روابط التبعية التي تشده الى النبلاء . والحال ان حفلة التكريس ، وهذه التبعية ، اللتان زادتا كثيراً من نفوذ الملك الكارولنجي الاول ، ورفعت عالياً من شأنه ، وزادته مهابة ووقاراً ، اخفتا ضمناً ، تحديداً ضيقاً لسلطة الملك .

فحفلة التكريس الرسمية التي كانت تتم بحضور رجال الاكايروس الاعلى ، وتحت اشرافهم ونفوذهم ، لم تلبث ان صحبها وعد رسمي يقطعه الممسوح باسم الرب ، على نفسه ، بان يضع حدوداً لسلطته وسيادته . فمُنذ عام ٨٤٣ ، راح الامبراطور شارل الاصلع ، يتمدد في كولين ، وهو بحضور كبار رجال الدين والدنيا في مملكته ، ويقسم مغلظاً ، انه سيتصرف وفقاً « لانتضيات العقل والعدالة » ، وان يمطي لكل واحد : « منها كانت الطبقة التي ينتمي اليها ،

لا يتوقع اي ضرر او اذى من سيده . وهكذا ، فالملك كان يتردد في استرجاع الامتيازات والالقب الشرفية التي كان يُنعم بها على رعاياه ، عندما تحين وفاتهم ، او ان يعاقب ، بالمصادرة هذه الانعامات ، من رعاياه يتهاون او يقبل بما يلطخ هذا الشرف او يشينه . وهكذا كان الملك يفوّت عليه فرصة تجديد الموظفين كلما سنحت له ، من وقت الى آخر ، وان يزيدم شعوراً بقيمة الولاء له عن طريق اعطائهم درساً في قصاص مثالي يكون عبرة لمعتبر . وهكذا فالرابطة التي قامت على الولاء اخذت تتحلل شيئاً فشيئاً ، ولم تعد لتؤدي ما يرجى لها من خدمات ومنافع . وهكذا بدا في الثلث الثاني من القرن التاسع ، ان نظام التبعية الذي أحكم وضعه رؤساء الدولة الكارولنجية الأول ، بات عاجز من ان يلبّح ، إخضاع عظماء هذه الدولة لسلطان ملك مزدد ، كثير الوساس والهواجس وهو لم يعد عندهم ، بقائد حرب يقود جيشه للنصر ، ولا بالواهب الجواد الذي يوزع عوارفه ، وأعطياته بسخاء . اما في اوساط الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تتأثر بعيداً بهذه الافكار والنظريات الكنسية ، فقد عرف هذا النظام ان يَبْقِيَ محكمة ، الروابط التي شددت ممثلي الأسر الارستوقراطية الدنيا الى رؤساء الأسر الاستوقراطية العليا . وعلى هذا الاساس تألفت تدريجياً ، هيأت سياسية صغيرة ، جاشت نفسها بالزوع للزيد من الاستقلال ، التي ، بالرغم مما تمّ لها من شأن محدود ، وجدت نفسها اكثر استعداداً للانسجام مع البنيان الاقتصادي الذي لم يترك مجالاً واسعاً للعلاقات ، من بعد ، ومع البنيان الاجتماعي الذي كان يؤمن السيطرة والسيادة لكبار الملاكين من اصحاب العقارات الشاسعة . فالسلطة الملكية ، رأت نفسها مشغولة ، لا تبدي ولا تميد ، امام الاعتبارات الادبية المشدودة اليها ، وامام مشاركة المصنف الاسقي ومراتبته ، فاخذت بالانقسام على نفسها تتوازعها اجزاء مملكة الفرنج ، وتتجاذب اطرافها وصلاحياتها ، كل لنفسه .

والذي عجل في هذا الانقسام ، الاختلافات التي مزقت الاسرة الكارولنجية ، عندما رأى لويس الورع ، بعد ان طعن في السن وشاخ ، نفسه تتنازعها الرغبة في الحفاظ على وحدة الامبراطورية والميل الى الاخذ بالتقاليد العائلية القديمة التي كانت توحي بان يوزع امبراطوريته على اولاده بالتساوي . نجم عن هذا الوضع عراك عنيف بين الامبراطور الوالد واولاده ، زاده احتد اما آراء رجال الاكليروس الذين أفتوا بضرورة المحافظة على سلامة الامبراطورية . ثم اشتدت عنفاً بعد موت الاب ، بين الاخوة المتنافسين . وقد راح كل من هؤلاء ينثر الوعود ويُغْثِيقُ الأعطيات ، جذباً منه للانصار من ابناء الارستوقراطية ، الذين راحوا بدورهم يبيعون ولاءهم بالزاد ، يرسو على من يدفع أعلى الاثمان واسناها ، بما زادهم ثروة وغنى . واخيراً تم اقتسام اوربوا الغربية فتوزعت الى ممالك متباينة ، وذلك وفقاً لمعاهدة فردان ، المعقودة عام ٨٤٣ ، اما الحدود الفاصلة بين هذه الممالك فخطوط الطول ، بحيث دخل في هذه الممالك واحدة من هذه الدولات التي احترم شارلمان استقلالها ، الا وهي الاكويتين ، وبافاريا وايطاليا ، يضاف اليها جزء متساوٍ من الولايات التي تألفت منها مملكة الفرنج . وهكذا أطلت علينا مملكة فرنسا

أوغرانيا ، في الغرب ، وقفت حدودها الشرقية عند نهر الاسكو والموز والصون وجبال
السيفين ؛ ومملكة فرنج الشرق الواقعة ما وراء الرين وجبال الألب ، ودولة ثالثة تتوسطها
امتدت من البحر الشمالي الى إيطاليا في الجنوب ، فضمت المدينتين الامبراطوريتين : روما
واكس لاشايل ، وهي الحصنة التي عادت للامبراطور ، هذه الرقبة المشرقية التي لم تكن تؤمن لحاملها
سوى صدارة اسمية لا غير . أما المملكة الشرقية حيث النظم والمؤسسات الملكية كانت احدث
عهداً ، وأعلق في النفوس ، فقد عرفت السلطة الملكية فيها ان تحافظ ، لمدة اطول ، على
تماسكها ، مع انه اخذت تبرز فيها أكثر فأكثر ، نزعات اقليمية هي تعبير عن نوازع الشعوب
الجرمانية الدفينة . ومقابل ذلك ، رأينا المملكة الوسطى تتناثر اشلاؤها الغربية حيث اخذ
يمثلو السلطة الملكية المحليون ، من مركز ودوق ، الذين كانوا يتولون إيلات حربية كبيرة ،
ينظرون اليها كأنها اقطاعات عائلية ، دون ان يقطعوا أو ان يصرموا ، على المكشوف ،
روابط التبعية المتخلخلة التي كانت تشدهم الى الملك ، فاستطاعوا ان يتحرروا ، بسرعة ، من
كل وصاية أو ولاية ، وان يلبثوا لهم امارات وراثية . وقد راح بعضهم ، بعد ان اصبح
التكريس ، وليس الدم ، هو الذي يولي الشرعية ، يفتنمون وضع الانحطاط الطبيعي الذي آل
اليه حقهة احفاد شارلمان ، وانتزعوا منهم ، بالقوة ، الرقبة الملكية عن طريق انتزاعهم من
قبل طبقة الاشراف في الامارة .

ولم يخل 'اقتسام الامبراطورية وتناثرها ، كما رأينا ، من أثر سيء على وحدة الكنيسة نفسها .
فقد حاول رؤساء الاساقفة ، في الغرب ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، ناهجين في ذلك
نهج المركزية ، بسط سيطرتهم على المطارنة الذين تحت ولايتهم ، كما حاولوا التحرر او التخفيف من
مراقبة الكرسي الرسولي واشرافه ، كما فعل مثلاً ، هنكار ، رئيس أساقفة ريمس (٨٤٥-٨٨٢)
وقد رد الكرسي الرسولي ، بالطبع ، على هذه المحاولة ، متذرعاً بمجموعة من القوانين ، تعرف
في التاريخ باسم *Fausse Décretales* ، مع انه لم يشك احد في صحتها . وقد اغتم البابا نيقولاوس
الاول فقدان هيبة الامبراطور ، وراح يدعي الأولوية الادبية لخليفة القديس بطرس ، ويعلم
بالتالي ، انه القائد الوحيد لجماعة المسيحيين ، كما ادعى لنفسه الحق بمحاكمة الملوك والجزم قطعاً
بقضايهم . ولكن هذا الخبر الروماني ، رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، واسف
روما ، هو ابدأ عرضة لاضطرابات تشيرها في وجهه الارستوقراطية الرومانية والشعب في روما ،
وهو بأشد الحاجة لحماية فعالة من قبل الامبراطور . وهكذا في مطلع القرن العاشر ، والامبراطورية
ليست بعد ، سوى لقب هزيل يتنافس على حمله عظماء سهول لمبرديا ، رأى الكرسي الرسولي نفسه
ينحدر الى أدنى دركات الانحطاط ، دون ان يفقد ، مع ذلك ، سلطته الروحية تماماً ، على
الكنيسة في الغرب .

وهكذا ، في الوقت الذي لم تستطع فيه مملكة مرسيا الاحتفاظ بسيادتها في انكلترا ، جعل

التصدع الذي اصبحت به الدولة الكارولنجية في القرن التاسع ، اوربا كلها هدفا لاطباع الغزاة .
يحاولون نهشها وقضمها من جميع الجهات .

تعرضت المسيحية في الغرب ، للهجوم من كل الجهات : فقد
العرب والنورمانيون والمجر
هاجما المسلمين في الجنوب ، فاستطاعت جيوش الفرنج ، في
القرن الثامن ان تصد هجوم العرب وان تحملهم على التراجع والنكوص على أعقابهم الى ما وراء
جبال البرانس . فقد كانت الولاية الواقعة على الحدود الاسبانية ، وهي ولاية عسكرية ، في
الاساس ، درعا قويا تولى أمر الدفاع عنها اسرة من القادة العسكريين الاشداء ، وقفت سدا
منيعا ضد توسع العرب والمسلمين ، من هذه الناحية . غير ان البحر كان حرا والبلاد الواقعة على
سيفه مكشوفة . فمن اسبانيا الى المغرب ، استطاع قراصنة المسلمين ان يحتلوا الجزر الواقعة الى
الغرب من البحر الابيض المتوسط ، كجزر البليار وكورسكا . منذ عام ٨٠٦ ، ثم صقلية التي تم
فتحها تدريجيا بين ٨٢٧ - ٩٠٢ ومن هذه الفتوحات المتقدمة اخذوا يرسلون سرايهم لغزو السواحل
البحرية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين ، بقصد السلب والنهب . وهكذا تعرضت لغزواتهم
المتعاقبة مدينة نيس (٨١٠) ومرسيليا (٨٣٨) ، وآرل (٨٤٢) وروما نفسها (٨٤٦) ،
كما ان مقاطعات بويل وكبانيا تعرضتا مرارا لهذه المغازي . وفي السنوات الاخيرة من القرن
التاسع ، أنشأ فريق من المسلمين ، في جبال المورس ، الى الجنوب من الالب ، قاعدة لهم ، تحصنوا
فيها ، واخذوا يتسللون منها الى كل جهات الالب ، قاطعين بذلك طرق المواصلات ، بين غاليا
وايطاليا ، فارضين الرسوم الباهظة على التجار وفود الحجاج ، مدة ثلاثة اجيال .

ومن البحر ايضا جاء الغزاة يطرقون ابواب غاليا من الشمال ويهزونها بعنف . فالقبايل
الجرمانية المستوطنة حول الاقطار السكنديناغية ، كالنرويج والدانمارك ، كانت بلغت شأوا
بعيدا بفن الملاحة ، واستطاعت ، خلال القرنين السابع والثامن ، ان تحسن كثيرا من بناء السفن
التي تستعملها ، وهي ، على الغالب ، قوارب لا ظهر لها ، متوسطة الحجم ، تسع الواحدة منها
من ٤٠ الى ١٠٠ رجل ، يمكن استخدامها في الملاحة النهرية وبحاري الانهر الخفيفة المياه . ويفضل
ما كان عليه هذا الجيل من تقدم في وجرة واقسام ، راح هؤلاء الاقوام الذين اصطلح الغرب
على تسميتهم باسم النورمان او النورمانيين (أي رجال الشمال) يهاجمون الامبراطورية مدفوعين
الى ذلك بعوامل عديدة . من ذلك مثلا ، الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية ، وازدياد
السكان في سكنديناغيا ، الامر الذي حدا بهم للبحث عن موارد جديدة للعيش . وقد انطلق
النرويجيون افواجا صغيرة ، يبحثون لهم عن اراض جديدة يعمرونها . وهكذا لم يلبثوا ان
احتلوا ، دون ان يحدث احتلالهم أي دوي او صدى له في الخارج ، جزر شتلاند وجزر الاوركايد
وارخبيل هيريدس ، وراحوا ، منذ عام ٨٣٤ يحاولون ، من سواحل لانكشير ، الاستيلاء على
ارلندا واستباحتها ، بينما استطاعوا ، في أواخر القرن التاسع ، ان يحتلوا اسكتلندا نفسها .
اما قبائل الدانمارك فقامت بسلسلة من الغزوات الجريئة اشتركت بها فرق أكبر واوفر عددا

يتولى قيادتها زعماء من الشعب .

وهذا الايغال يتم هذه المرة ليس على ايدي مزارعين او صيادين ، بل على ايدي تجار قراصنة ، تعاطوا ، منذ عهد بعيد ، الاتجار مع التجار المسيحيين في البحر الشمالي ، وهم يعرفون جيداً ما عليه سكان مناطقهم المتاخمة ، من غنى وازدهار ، في شمالي غاليا او في المقاطعات الانكلوسكسونية . فكلما أنسوا وجود حامية بوليسية تحافظ على الامن ، في المرافء التي كانوا يأتونها ، اقتصرت معاملاتهم على تأمين الربح الحلال من المياضات التجارية ، التي يقومون بها . الا انهم عندما كانوا يأنسون مكنناً للضعف او مقاومة خفيفة ، كانوا يتخلون عن التجارة فيقبضون بالقوة والبطش ، على ما في الموانئ التي يؤمونها ، والمدن التي يهبونها ، من ثروة ومتاع ، ويأخذون السكان عبيداً وارقاء ، ويستولون على ما تقع عليه ايديهم من مال وفضة ، ويرغولون في داخل البلاد بحثاً عن مغنم جديدة . فقد اقتصرت غزواتهم ، في بادئ الامر ، على سواحل الفريز ، منذ عام ٨١٠ ، وسواحل انكلترا والمنطقة الواقعة عند مصب نهر السين ، ثم تحولوا من المانش ، فنهبوا نوارموتيه ، عام ٨٢٠ ، وسواحل النافار ، عام ٨٥٩ ، واخيراً داروا حول شبه الجزيرة الايبيرية ، فدخلوا البحر المتوسط ، واذ لم يبق شيء في المناطق الساحلية توغلوا في الداخل على متن سفنهم ، ثم زاحم يتخلون عنها ويتحولون فرساناً . وليس ما يمثل تغلغلهم مثل قصة جلاء رهبان دين سان فيلبرت ، الذين غادروا ديرهم في نوارموتيه ، قبل عام ٨١٩ ، وراحوا يبحثون عبثاً لهم عن ملاذ يلجأون اليه ، الى ان استقر بهم المطاف في بلدة تورنوس ، على نهر الصون ، عام ٨٧٥ . ومنذ منتصف القرن التاسع اخذت هذه الفرق الدانياركية تستقر في المناطق التي يغزونها ويستبيحونها ويلشثون فيها مستعمرات لهم بعد ان استخدموها قواعد مؤقتة يقضون فيها فصل الشتاء . وهكذا ، فقد انشأت دولة سكنديناافية شملت القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، قامت حول يورك . وفي سنة ٩١١ ، أنتزع النورمنديون ، من ملك فرنسا ، الاعتراف رسمياً باحتلالهم المنطقة الواقعة عند مصب نهر السين واقامتهم فيها نهائياً ، فعرفت باسمهم « نورمنديا » .

وبعد ان استبيحت اوربا ونهبت على مثل هذا النحو ، تعرضت ، في النصف الاول من القرن العاشر ، لغزو جديد ، قام به فرسان جاؤوا من بوادي آسيا ، هم الهنغار يون أو المجر . فقد كان استقر بهم المطاف في سهول بالونيا . ومن هناك ، قاموا ، قبل عام ٩٠٦ ، بغزوات خاطفة ، بقصد النهب ، باتجاه المانيا الجنوبية ، ومنها يعموا شطر اللورين وكبشارديا ووادي الرون ، وبلغوا مقاطعة بورغونيا ، ومقاطعة برّي ، عام ٩٣٥ ، وروما عام ٩٣٧ ، والأكويتين ، عام ٩٥١ ، وهكذا لم تسلم اية مقاطعة في الغرب من ويلات الغزو .

يدعش المرء عندما يفكر بهذا النجاح البعيد تصيبه غزوات القرصنة
نتائج الغزو الجديدة والنهب والسلب . فالمسيحية اللاتينية لم تكن معبأة لحرب دفاعية . فقد قاد ملوكها حتى الآن ، هم انفسهم ، حملات دائرية ، وجيش الفرنج الذي كان بطيئاً في تحركاته

للحشد والتجميع ، كان مكيفاً لمثل هذه التجريدات العسكرية توجه ضد عدد معين يمكن تحديد موعد الهجوم عليه مسبقاً ، قبل المباشرة بالهجوم بكثير ، وكان دفاعه يركز على سلسلة من الحصون ، القلاع تقوم فيها حاميات بعداد واف تستطيع ، كما هي الحال في كتلونيا ومصب نهر الإلب ، الدفاع عن حدود الامبراطورية ضد عدو طارئ ، يهاجم بوسائل واساليب شبيهة كل الشبه ، بالاساليب والوسائل التي كانت تحت تصرفه . الا ان هذه الترتيبات والتجهيزات برهنت عن عجز تام في مواجهتها غزوات طارئة ، غير متوقعة ، تتجه ، بالاحرى ، ضد السواحل البحرية التي اهل تحصينها لعدم توقع الهجوم عليها ، أضف الى ذلك عنصر المفاجأة ، وتأثير الفشل الذي لحق بالمدافعين في الاصطدامات الاولى ، فثارت فيهم عقدة نفسية وشعوراً بالعجز فت من عضدهم وزادهم ضعفاً واهاناً . لهذه الاسباب مجتمعة ، وقعت اوروبا ، خلال قرون كامل ، فريسة سهلة المنال ، وتآلب عليها من الولايات والذل والهوان ما كان له التأثير السيء في المناطق الواقعة الى الغرب حيث كانت الحدود البحرية مكشوفة في كل من الجزر البريطانية وملكة الفرنج .

فقد ساعدت هذه الغزوات ، على هزيمة النظم وتفسخ المؤسسات الملكية وانتقصت كثيراً من هيبة الملوك وخفضت من شوكتهم ، بعد ان عجز الجيش عن ردّ غائلة هذه الغزوات ، فحاولوا ، منذ عام ٨٤٥ ، الحد من اعمال النهب ، في غاليا وانكلترا ، عن طريق شراء سلامة بمالكهم بتنظيم جباية خاصة ودفع غرامة سنوية للنورماندين ، وهو حل ليس فيه ما يشرفهم ، كما انه ينفّر الشعب ولا يعطي نتائج يمكن الاطمئنان اليها . ومن جهة اخرى ، ات تفاقم اضطراب حبل الامن والشعور بعدم الاطمئنان اضطر الدولة لتوسيع نظام الولايات العسكرية (Marches) الى جميع اطراف المملكة والاكتثار من القلاع والحصون ، وعلى توزيع الجيش الملكي على نقاط معينة للقيام باعمال السهر على الامن ، وان يتخلّطوا عن المبادر في الاعمال العسكرية ، لممثلهم الاقليميين . وهكذا أعيد الناس وتهيأت افكارهم لقبول فكرة توزيع سلطات القيادة .

وقد سببت هذه الغزوات خسائر مادية جسيمة للغاية . فقد نهب الغزاة اوروبا وسلبوها جانباً كبيراً مما لديها من مخزون المعادن الكريمة . واذ لم يحدث فقدان الجوهرات المذخورة في الاديار ، تأثيراً مباشراً على تداول النقد ، بين الناس وعلى الحركة التجارية ، فالامر جسيم على عكس ذلك من هذه الفديات والغرامات التي كانت تفرض بانتظام على الممالك والمقاطعات ، اذ حرمت البلاد من كميات كبيرة من العملات المسكوكة . وقد قاست الارياف على الاخص ، كثيراً من هذه الغزوات ، اذ ان سكان المدن كثيراً ما وجدوا لهم مأمناً وملاذاً ضمن الاسوار الحصينة التي ردت عنهم هجوماً مفاجئاً . وهذا التطور الديموغرافي الذي لوحظ في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا ، في مطلع القرن التاسع ، توقف فجأة وانقطع بغثة فافقرت اجزاء البلاد الاكثر تعرضاً لهذه المخاطر ، من جراء ما تعرّض له الاهلون من اعمال القتل والمذابح ، والخطف

والإجلاء ، والفرار ، ونقص المواد الغذائية ، فعاتت الأرض بوراً ليس من معنى بها .

كذلك لحق بالتراث الادبي والفكري الكثير من الازى ، اذ ان الغزاة اخذوا يهاجمون على الاخص ، الديارات ، في ارنلدا وانكلترا وشمالى ملكة الفرنج ، للنهب والسلب والخراب ، بينا فر عدد كبير من الرهبان من الاديوار الاخرى ، هرباً من الغضب المدام ، حاملين معهم ذخائر القديسين وما خف حمله من الحل والمجهرات والاواني الكريمة ، سعيماً منهم وراء ملجأ يأمنون اليه ويطمئنون الى سكناه ، وقد استهدفوا ، بعد ان انقطعت اسباب العيش للصروف والظروف المريرة التي يخفيها الجلاء المفاجئ ، لمن غضتهم الاقدار بانساب حداد ، قتلوا من فرايفهم الكهنوتية ، واستبيحت مكتباتهم ، وتفرقت محتوياتها من المخطوطات ايدي سبا ، واهملت الدروس ، وانقطعت كل عناية بها . وهكذا قضى على الحركة الفكرية التي كانت اخذت تزدهر في عهد الدولة الكارولنجية مع ان هذه الحركة لم تتأثر كثيراً من جراء التقهر الذي بدت يوادره مع المخطاط الدولة المذكورة . وقد انحدر المستوى الثقافي والحضاري بعد ان تغلغت في البلاد وانسرحت فيها عوامل البربرية والهمجية والوثنية ، وعمت الفوضى التي يحملها معه البؤس والشقاء ، ومثول الخطر المالحق باستمرار .

صحيح انها رجعة او حركة الى الوراء ، انما حركة محدودة ، موقوتة . أما انها محدودة فلأن كل بلدان أوروبا الغربية لم تتضرر بدرجة واحدة من الخراب والدمار ، الذي جبرته هذه الموجة من الغزوات على الناس ، كما انها كانت قصيرة المدى ومرت بسرعة باستثناء تلك التي تعرضت لها الجزر البريطانية ، وغاليا الشمالية ، ومقاطعة بروفانس ، تخللها فترات طويلة من الهدوء والسلام ، أمكن رتق الفتق واصلاح ما تعطل او اختل من شؤون الادارة والامن ، ولأنه قام ، في كل مكان تقريباً ، ملاجئ وغابات ومدن حصينة وأديار امكن تسويرها وتحصينها بسرعة ، حيث يمكن التخفي فيها والتواري وراءها ، عند اول بادرة خطر ، ووضع أثمن الاشياء بئامن من عبث الغزاة . وأما انها حركة موقوتة ، فلأن الغزوات توقفت ، وقد أليف الناس ، في الغرب ، شيئاً فشيئاً هذه الاساليب الحربية . فكلما ازدادت أعمال التحصينات حول الصروح والقصور ، قلت ، بالتالي المخاطر التي تنطوي عليها هذه الغزوات ، كما عادت على القائمين بها بكسب اقل . وفي الوقت ذاته ، وقعت في البلدان الاصلية التي خرجت منها هذه الغزوات ، تغييرات جذرية خففت من شوكتها وكسرت من حدتها . فالجهر الرُحّل استقروا نهائياً في سهول هنغاريا حيث انقطعوا للفلاحة والزراعة . والسلطة الملكية ، اشتد منها الساعد وقوي العَضُد في البلدان السكنديناوية : في النروج ، في اخريات القرن التاسع ، مع الملك هارالد هارفرغ ؛ وفي الدانمارك ، خلال القرن العاشر ، مع الملكين غورم و « هارالد ذي السن الزرقاء » . وهكذا خفّت وطأة الخطر الى ان توارى تماماً . وآخر مرة استهدفت بلاد الفرنج لخطر جليل ، كانت عندما تعرضت ، عام ٩٢٦ ، لغزو جيش لجنب من الدانماركيين ، والنصر الذي سجله ملك جرمانيا ، عام ٩٥٥ ، عند نهر الليخ ، فوضع حداً نهائياً لخطر الجهر . وعندما سقط ، عام

٩٧٢، المعقل الذي اتخذ منه المسلمون قاعدة لهم في جبال *Maures* من أعمال مقاطعة بروفانس، امكن تطهير منطقة جبال الألب من هؤلاء القراصنة الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة ، مدة طويلة . وهكذا انقضى عهد الغزوات دونما رجعة لتبقى انكلترا تعاني وحدها ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ضغط قبائل النوروي ، بحيث أصبحت أوروبا البرية في مأمن من أي غزو اجنبي .

ومع هذا ، فالغزوات التي وقعت في القرنين التاسع والعاشر ، لم تحمل في ثناياها ، غير الخراب والدمار . فالاتصالات الجديدة التي ادت اليها ، ساعدت كثيراً على نشر المسيحية وتغلغلها بين هؤلاء الاقوام . هنالك عدد لا بأس به من الفايكنغ ، اقتبسوا مبادئ الديانة المسيحية ونقلوها معهم الى ارجاء سكندينايفيا حيث امتزجت بالعقائد الوثنية واختلطت بها . وهذه الفترة من « الايمان المختلط » مهدت السبيل نهائياً ، لارتداد هؤلاء الاقوام ، الى المسيحية ، بالجملة بعد ان لقوا تشجيعاً حاراً من قبل الملك هارالد ، ملك الدنمارك ، والملك « اولاف » ملك النرويج . وقد كان من اثر هذه الغزوات ان عادت بالنشاط على الحركة التجارية . فالانتقال من مجال القرصنة الى مجال التجارة حركة يكاد لا يشعر بها الانسان . والمخيمات الدائمة للغزاة النورمنديين ، كانت خلال فترة الحروب ، امكنة تقام فيها الاسواق التجارية والمعارض . والحركة التجارية ، في البحر الشمالي ، التي اصبحت بشيء من التأخر ، خلال الهجومات الاولى العنيفة ، لم تلبث ان عادت سيرتها الاولى من النشاط . واخيراً وليس آخراً ، شهدت بعض المقاطعات استيطان الفايكنغ واستقرارهم نهائياً في ربوعها ، بشق الاشكال والاضلاع ، كصيادي اسماك ، وتجار متجولين بين ارلندا والسواحل البحرية الاخرى ، وبعض وحدات من المتمردين الزراعيين في الشمال الشرقي من انكلترا ، وظهور ارستوقراطية عسكرية ، سيطرت على سكان البلاد الاصليين ، عند مصب نهر السين . وهذه المقاطعة « نورمانديا » لم تعتم ان أصبحت من انشط المقاطعات التي عرفها الغرب ، تشهد الحركة الزاخرة التي قامت فيها ، على خصب التربة السكندينايفية .

وهكذا بعد ان توقف تطور المدنية في الغرب ، من جراء الاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت هذه الغزوات ، لم تلبث الحضارة ان استأنفت سيرها ويبدأ عندما عاد الامن الى نصابه والسلام الى محرابه . صحيح انه لم تعد الى أوروبا وحدتها ، ولكنها احتفظت بخير ما خلفه العصر الكارولنجي . وهذه البذور الطيبة التي هبطت في الارض في العهد الذي احاطت بهشارلمان وحفّ به لم تلبث ان أتت طلعاً شياً ، اختلف طعمه وتباين مذاقه باختلاف الاقطار المسيحية .

انكلترا السكسونية
قاست انكلترا من هذه الغزوات التي تحالفت عليها احوالاً شداداً ، مدة طويلة . فأديارها التي كانت مئآت أشعت على القارة جماء ، أصبحت خراباً يباباً . ومدينة يورك ، مسقط الكوينس ، اشهر علماء زمانه ، أصبحت ، بين ٨٦٧ - ٩٥٤ عاصمة مملكة سكندينايفية وثنية . ومع ذلك ، فالحضارة الانكلوسكسونية

عرفت ان تجتاز الهنة التي نزلت بها ، بسلام ، ولم تلبث ان نهضت بعد ان استجمعت قواها وملت من شعنها . فانخذت من مملكة وسكس ، اكثر ممالك الجزيرة الى الغرب ، قاعدة لها ، وعرف ملكها ألفريد الكبير (٨٧١ - ٨٩٩) ان يقاوم بعناد ، الغزاة السكندينافيين وان يسترجع منهم قسماً من الارض التي كانوا اغتصبوها منه ، واستطاع ان يبقي تحت سيطرته وسلطانه كل الاراضي التي فتحها او استرجعها ، بحيث ألغت كل المقاطعات الانكلوسكسونية مملكة واحدة . وحاول الملك ألفريد ان يعيد الى الثقافة روائها ، فاستقطب حوله في البلاط ، عدداً من العلماء الرهبان استقدمهم من القارة ، ولا سيما من مدينة ريمس . ولما كان مقتنعاً بكل الاقتناع ان اسباب المعرفة يجب ان تنتشر بين طبقات المجتمع العلماني ، لم يقصر جهده فقط على نشر الآداب اللاتينية والكنسية . فوضع تحت اشرافه المباشر ترجمة الآثار الكلاسيكية الى اللهجة الشعبية ، من بينها كتاب غريغوريوس الكبير المعنون « *Cura Pastoralis* » او الرسالة الراعوية ، حيث نرى تجديدأ واضعاً المهمة الاسقفية ولاهدافها ، كما أشرف على ترجمة « التاريخ الكنسي » لـ لوطواوي بيد ، ونقل مؤلفات « بويتوس » و « أورو » وكتاب « *Soliloques* » للقديس اوغسطينوس ، فساعدت هذه الترجمات والنقول على تقعيد اصول النثر الانكليزي وتوطيدها .

ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الملك ألفريد الكبير : كأدارد القديم « وأثلستان » ، يواصلون الجهاد ضد غزاة الدانماركيين وتوصلوا الى تحرير القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، تماماً ، استمرت الثقافة ، في ازدهارها مستمينة على ذلك بالمؤسسات والهيئات الكنسية التي عادت اليها العافية واتخذت تتجدد . وعلى نقبض الحركة القديمة ، عولت حضارة الجزيرة ، هذه المرة ، على موازنة القارة لها ، وجلب دم جديد لها جيء به من المراكز الثقافية والحضارية الجرمانية المشبعة باخلص وانقى التقاليد الكارولنجية . فاصلاح الحياة الرهبانية الذي باشر به القديس « دولستان » ، في دير غلاستونبري ، في مقاطعة سمرست ، جرى الاخذ به وفقاً للباديء والقواعد التي يسر عليها رهبان دير فلدري سير لوار ، وسان بيير الكبير « واينسيدالن » ، يرضى هذه الحركة الاصلاحية كل من الاحبار « إيثلولود » من ونشستر ، واوزوالد من ورسستر ، الذي استقدم الى الدير حيث يعيش ، ليعهد اليه بالتعليم ، الراهب الفرنسي « ابون ده فلوري » . وقد انتهت هذه الحركة الاصلاحية باعلان ما يعرف : « الاتفاق القانوني للامة الانكليزية » ، وذلك في مجمع ونشستر ، الذي انعقد حوالي عام ٩٧٠ . وهذا الاصلاح للحياة الرهبانية في انكلترا ، ساعد كثيراً على ازدهار الحياة الفكرية والفنية فيها ، اذ كانت قاعدتها الأم كاتدرائية ونشستر التي كانت مركزاً ممتازاً للنسخ المخطوطات وزخرفتها وتجميلها ، بعد ان استوحيت في عمارتها الفني هذا النماذج الكارولنجية . وقد درج اذ ذاك استعمال الحرف « الكاروليني الصغير » ، وانتشر في جميع مراكز نسخ المخطوطات في انكلترا ، بينما سارت الكنائس الجديدة التي انشئت اذ ذاك ، في طراز عمارتها ، على الطراز الهندسي المستعمل

في منطقة رينانيا . وقد اخذ النشاط يدب ايضاً ، في اواخر القرن العاشر ، بين هذه المقاطعات الانكلوسكسونية التي ما زالت عرضة للخطر السكندينافي . واشتدت سلطة الملك وقويت هيئته في النفوس ، خلال الحروب التي دارت رحاها لاسترجاع البلاد المقتصبة . غير ان انكلترا فقدت ما كان لها من مركز الصدارة في الاشماع الحضاري المسيحي . فالسنا الذي طبع مدنيتهما ، اذ ذاك ، مكتسب منقول هو ، والنهضة التي نشدها فيها ليست سوى وميض جاءها من تألقت النهضة في القارة .

فرنكيا الغربية في مملكة فرنكيا الغربية ، كما حددتها معاهدة فردان ، بلغ المحال السلطة السياسية وتدهورها ، في هذه الفترة ، حداً لم يتبلغه من قبل . فقد تنازع السلطة الملكية ، طوال القرن العاشر ، خلفاء شارل الأصلع وورثة الميراث « روبرت القوي » الذي كان تولى امر الدفاع ضد النورمنديين ومقاومتهم ، بعد ان استقر بهم المقام ، بين اللوار والسين . وقد ادت هذه المناقشات بالنتيجة الى المزيد من انقسام السلطة الملكية . فقد اصبحت المملكة عبارة عن امارات مستقلة الواحدة عن الاخرى ، بينها دوقيات : فرنسا ، وبورغونيا ، واكوييتانيا ، ونورمانديا ، بمثابة لاهم العناصر العرقية او الاثنوغرافية التي تسكنها ، بعضها امتداد لهذه الدويلات البربرية القديمة ، آخرها الدوقية التي تكونت من استيطان غزاة النورمنديين واستقرارهم فيها ، بينما تألفت امارات اخرى حول كوليتيات عديدة ، منها : كونتية الفلاندر ، وفيرماندوا ، وشمبانيا ، وأنجو ، وتولوز ، بعد ان تمكن امراؤها من فرض سيطرتهم وهيبتهم على الطبقة الارستوقراطية المحلية . صحيح ان اسياء هذه الامارات والكونتيات ، يستمرون كالموظفين الكارولنجهين الذين يتحدرون منهم ، على ولايتهم للملك انما هو ولاء لا يعني اية تابعة او علاقة خضوع ، او اي ارتباط بالملك . فالمناداة بهم التي كانت توليهم حق اصدار الاوامر وفرض القصاص والعقاب - وهو حق كان يناله اسلافهم بالعام خاص من الملك - اصبحت حقاً وراثياً مكتسباً ، يستعملونه دونما رقيب او حسيب . والمحطات السلطة الملكية والمحلاها هو اشد وطأة في جنوبي المملكة حيث لم يُنتج لتقاليد التبعية الكارولنجهية ان ترسخ وتمكن بين الناس . ففي السنوات الاخيرة من القرن العاشر ، لم يلبث الكونتية انفسهم ان فقدوا سيطرتهم ، والحقوق الملكية تتفلت لتستقر في المقاطعات والاقضية او في احد الاديار التي تنعم بالاعفاء او بيد القيسم على احدى القلاع او احد الحصون . وامر المناداة بالملك تنوع وتشعب ، واذا بنا يطل علينا وضع خاص او نظام خاص هو ما يعرف بالاقطاع .

ويتميز هذا الوضع السياسي القائم بالغموض الذي يكتنف معنى السلطة العامة . فكل سلطة ، هي سلطة خاصة . فالذي يتولاها بالارث يرى فيها جزءاً لا يتجزأ مما تم له من ميراث ، فليارس هذه السلطة لما فيه خيره ومنفعته الخاصة . فهو يحنس احرار الرجال دفاعاً عن شؤونه الخاصة ، والرسوم التي يتقاضاها الفلاحين لقاء الحماية التي يوليهم اياها ، لا مبرر لها سوى العرف المعمول به ، ولذا راحوا يطلقون عليها اسم « العوائد » . فاذا ما أفتى في امر ، او اصدر حكماً في

قضية ما ، فطعماً منه بما تؤمنه له هذه الاقضية والاحكام ، من منافع خاصة ، كالفرامات والصادرات . طبيعي جداً ان تكون هذه النظرية غيّرت كثيراً من مفهوم مؤسسات الدولة الكارولنجية ونظمها ، ومن قوام المجتمع نفسه . فالجيش الملكي توزع بين المغاير او رابطت وحدائه في القصور ، وهذه الهبات القضائية العامة القديمة العهد ، استحال حاشيات خاصة ، ودوائر استشارات الكونتية تحولت ، هي الاخرى ، الى بلاطات اقطاعية يختلف اليها أعضاء الارستوقراطية المحلية ، وبجالس المائة او الالوية اصبحت محاكم تابعة للأمراء تتولى محاكمة الفلاحين التابعين لرب الارض ، سواء منهم الاحرار والارقاء ، وامام السلطة الخاصة التي يتمتع بها ارباب القصور واصحاب الامتيازات ، فلم يلبث التمييز بين الحرية والعبودية عندهم ان زال تدريجياً من اذهان الناس ، بينما اتسعت الهوة بين هؤلاء الفقراء الذين يستثمرون بأنفسهم املاكهم وعقاراتهم ، وبين الأغنياء او السراة من الأثرياء الذين تؤمن لهم أملاكهم الواسعة دخلاً طيباً يستطيعون معه اقتناء حصان للطعان ، وتأمين اسلحة كاملة كنفارس ، والتمرن على مسابقة الفرسان في اوقات فراغهم ، فهم وحدهم يستطيعون ان يلعبوا دوراً له شأنه في المعارك . ففي اواخر القرن العاشر ، في هذه الفترة التي انتسخت فيها كل معالم المنظمات العامة التي عميل بها في عهد الفرنج ، نرى المجتمع العلماني يقسم الى قسمين بارزين : من جهة ، الفلاحون سواء أ كانوا مرابحين او مستأجرين او مشدودين الى ملكية الارض . فهم يخضعون لعدل وعدالة السيد او الرب الذي يعيشون في كنفه واستثمار ارضه ، هذا السيد الذي له الولاية على المقاطعة ، او من تعود اليه ملكيتهم بحق وراثي . ومن جهة ثانية ، الفرسان وهم محاربون محترفون معفون من الضرائب المعمول بها في المنطقة ، والذين لا يرتبطون به الا برابطة الولاء يؤدونها طوعاً واختياراً ، والذين تربطهم برئيس الاقطاع روابط وعلاقات خدمة السلاح والاستشارة ، وكلها خدمة محدودة النطاق ، والذين لا يخضعون لأي ضغط او اكراه . من هذه الفئة تطلع النخبة المحدودة لأصحاب الولاء المحلي ، من نسل المساعدين العسكريين في عهد النظام الملكي القديم .

ان استيلاء رؤساء الشرطة المحلية على صلاحيات القيادة لم يكن سوى تطبيق موفق للنظم السياسية والاجتماعية المتبعة في الاقتصار العقاري حيث المواصلات في وضع لا تحسد عليه ، وحيث السلطة الفعلية هي بيد كبار الملاكين . وهذا التقاطع او التوزع للسلطة الذي تهيأت أسبابه منذ عهد بعيد وتأخر تطوره برهة من جراء توحيد السلطة الملكية في عهد الدولة الكارولنجية ، بدا للناس ابان غزوات السكندينايفيين والدانماركيين ، المنظمة الوحيدة التي باستطاعتها المحافظة على السلام والنظام . فلنحاذر من ان نرى في هذا الحادث ، عاملاً من عوامل الانحطاط والانحلال . فالنظام الاقطاعي حقق ، على العكس ، بعض التوازن ، ويبدو انه مهتد السبيل جيداً امام انتشار المدينة الغربية . وبالفعل ، ففي الوقت الذي استقر فيه النظام الاقطاعي نهائياً في فرنسا ، في اواخر القرن العاشر ، ظهرت بوضوح وبجلاء بوادر نهضة جديدة ،

كان النظام الاقطاعي اقوى وامتن ركن ارتكزت اليه السلطة الملكية. ففي عام ٩٨٧، وهي السنة التي تم فيها انتخاب روبرتيان هونغ كابت ملكاً ، دخل هذا النظام صميم التقاليد العائلية لمركزية فرنسا القديما ، اغنى الامر على الاطلاق في غالبا الشمالية .. فمنذ هذا التاريخ فصاعداً ليس للملك حقوق مجزأة ، متقطعة ، متناثرة ، بين مجموعة المقاطعات التي تشكلت منها فرنسا ، اذ ذلك ، من المسير استثمارها والانتفاع بها ، بعلم واصول ، بل جملة من الحقوق المتناسكة ، نواتها وركيزتها الكبرى ، املاك وعقارات ومداحيل مختلفة محشودة حول باريس ولورليان . والى هذا الاساس العقاري القوي الذي تفوق متانته متانة اقوى الامارات الاقطاعية ، اذ ذلك ، يجب ان يضاف دعائمين قويتين اوجدهما النظام الملكي الفرنسي ، هما : من جهة حفلة التكريس الرسمية التي أضفت على شخصية الملك ، هالة رمزية ومهابة في قلوب الجميع ، فجعلت منه بحق ، المدافع التقليدي عن الكنيسة ، وهو تكريس ، يولييه ، وفقاً للتقاليد الكارولنجية ، حق تقديم عدد كبير من خيرة رجال الدين والاكليروس لترشيحهم للمناصب الاسقفية ورئاسة بعض الاديار ، ومن جهة اخرى رابطة التبعية التي تصبح الاساس الصحيح لعلاقة اديبية ، روحية ، شددت الى شخصية الملك ، ليس كل ارباب السلطة في المملكة ، على اختلاف مستوياتهم ، اذ ان سلم الولاء او تسلسله فقد شكله الهرمي ، وتوزع الى وحدات من التبعيات المستقلة ، لا عدا لها ولا حصر ، بل اكثر الدوقية والكونتية سلطة ونفوذاً .

ومن جهة اخرى ، فهذه النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في عهد شارلمان ، اخذت معالمها تتضح اكثر فاكثر . ففي سنة ٩٥٠ وما اليها ، نرى أدلة بينة تشهد على نشاط العاملين على احياء موات الارضين ، وتكاثر عددهم في البلاد ، وذلك بفضل تحسين تقني ادخل على وسائل الفلاحة والزراعة ، استطاع معها الفلاحون والمزارعون ان يعمثروا الاراضي الحرجية ، وان يتعاونوا معاً ويتناهدوا على احياء اراضي جديدة للزراعة ، بعد ان اقتصر عملهم من قبل ، على القطع الجرداء الواقعة في قلب الغابات . فمهدت هذه الورش والمشاريع الزراعية السبيل لمضاعفة انتاج المواد الغذائية ، وسهلت بالتالي ، الطريق امام تطور ديموغرافي وتكاثر عدد السكان ، الامر الذي ادى ، تبعاً الى القضاء على الاراضي البور ، والى تسهيل اتصال الناس بعضهم ببعض ، فنشطت المقايضات التجارية ، وتبايع الناس نبيد سوحس باريس ، والملح المستخرج من سواحل المحيط الاطلسي ، جرى تسويقه وتثنيقه في مناطق الشمال ، بينما نشطت الحرجية الاقتصادية ، مع اسبانيا الاسلامية ، كما ازداد ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، عدد التجار المتنقلين الذين كانوا ينقلون سلهم من البحر الشمالي ، عبر وادي الموز ، وهضاب مقاطعة شبنانيا وبورغونيا واوفيرنيا وادي الرون حتى البلاد الاسلامية .

وعلى طول هذه الطرقات في هذا القسم الشرقي من مملكة فرنسا ، اقرب هذه المقاطعات الى مراكز الاشعاع الفكري والفني في جرمانيا وايطاليا ، في هذه الولايات بالذات التي لم تتعرض كثيرها

لغزوات قبائل الشمال ، والتي كانت ملاذاً لرجال الفن والعلماء والكتب ، نرى يفسح ويذمر هذا التراث الادبي والثقافي الذي انتقل اليها من عهد الدولة الكارولنجية . وقد نشطت للعمل بعض المدارس الكاتدرائية ، منها مدرسة ريمس ، مثلاً ، التي جرى تجديد بنائها وبمئها في اواخر القرن التاسع ، على يد رئيس الاساقفة فولك ، ليتولى ادارتها بنجاح ، بعد عام ٩٧٢ ، جربوت دورياك الذي استطاع ان يحصل ، خلال اقامته في روما وفي الولايات العسكرية المتاخمة لاسبانيا ، وان يجمع اكبر قدر من المعارف والمعلومات ، حول الفنون والعلوم التي تؤلف نواة منهاج الـ *Quadrivium* . ولما كانت المصنف الاسقفني منهمكاً اذ ذاك ، بالشؤون المادية والدينيّة ، ومنغمساً بالمؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في الاقطاعات والامارات ، ويتسكع ، على العموم ، في وضع زري من الانحطاط ، فالمراكز الاكثر نشاطاً وإثماراً ، كانت ، ولا شك الاديار ، أمثال دير فلوري سبر لوار ، حيث كان علم المنطق والجدل يزدهر على يد الراهب ابوت ، احد تلاميذ مدرسة ريمس ، ودير سانت مرسيل ده ليموج المشهور بكونه قاعدة نشيطة للساخه المخطوطات وتزويقها وتحليلتها ، حيث كانت تبذل عناية خاصة بتطوير الطقوس الليتورجية ، وادخال تحسينات على التراتيل والانشيد الكنسية المتمدة الاصوات ، مهية السبل لطلوع المسرح الديني . واخيراً دير كوناك ، حيث تم حفر ونقش صندوقه ذخائر القديسة فوا ، فكان اول مثال تم وضعه في الاجيال الوسطى ، واخيراً « دير كلوني » .

تأسس هذا الدير عام ٩١٠ ، على يد غليوم الاكويتاني ، وتولى ادارته الراهب « برنون » رئيس دير « يوم » ، ودير « جيني » ، وادخلت عليه الفرائض البندكتية ، كما شرحتها وفسرتها وعلق عليها بندكتوس الأناني . فبعد ان تخفف الرهبان عملياً ، من كل المهام والاشغال المادية واليدوية ، وعهدوا الى خدام بقضاء حوائجهم وتأمين خدمتهم وأتمنوا كفاف معيشتهم بفضل ايرادات املاكهم الواسعة ، انصرفوا بكليتهم لما فيه مرضاة الله ، والاحتفال بكل ابهة ، بالطقوس الليتورجية . وكان الدير ، وفقاً لارادة مؤسسه ، بمعزل من كل تدخل علماني بشؤونه ، يرتبط مباشرة بالكروسي الرسولي في روما ، ونال في اواخر القرن العاشر انعام الاعفاء الذي يجعله خارج نطاق اشراف اسقف المحلة او البلدة . وساعدت الحياة الرهبانية المثالية التي سار عليها جمهور الرهبان والآباء ، على اذاعة شهرة هذا الدير ورفع اسمه في العالم المسيحي ، فتدفقت عليه الهبات والأعطيات . وعهد الى رؤسائه « أودون » ، و « أيمارد » ، و « مايول » ، وكلهم من رجال التقى ، مشهود لهم بالفضل والعلم وحسن السريرة ، التفرغ مهمة قضاء ، لاصلاح بعض المؤسسات الرهبانية ، كما عهد اليهم بقيادة هذه الاديار التي تولوا اصلاحها ورئاستها . وهكذا ، اطلت علينا الرهبة الكلونية التي ضمت عدداً من الاديار ، تعمل تحت رئاسة رئيس عام ، اخذت تمتد وتنتشر باتجاه مقاطعة الاوفيري وشواطئ البحر المتوسط ، كما قام لها اديار تناثرت حباتها على طول الطرقات التجارية

وكانت هذه الطرق تفضي بسالكها الى مشارف اسبانيا الاسلامية . اما الولايات المسيحية الواقعة على هذه الحدود، كملكة استوريا، مثلاً فقد كانت ملاذاً لعدد كبير من مسيحيي اسبانيا لجأوا بانفسهم من حكم خلفاء قرطبة حاملين معهم اساليب هندسية معمارية جديدة ، وعناصر تحليلية وزركشة مستمدة من الفن الشرقي . وقد قام في هذه الولاية الاسبانية اديار مزدهرة كان لها من الشهرة وبعد الصيت ما جذب اليها جريبرت دورياك ، ليدرس فيها الرياضيات والعلوم المربية . وقد اصبحت هذه الاديار مراكز ثقافية عرفت بنشاطها وعملت على اغناء الثقافة الاوروبية . ومع ذلك فقد كان الجانب الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، المركز الاكبر لهذا الاشعاع الفكري الديني في الغرب .

فكما ان تأسيس الدولة الكارولنجية ارتكز ، في القرن الثامن ،
 جرمانيا وامبراطورية اوتون
 واتخذ قاعدة له اقل المقاطعات الفرنجية تطوراً ، وابعدها
 إيفالاً في الروح الممجيّة ، هكذا تمّ تجميع القوى السياسية وتوحيدها ، في القسم الشرقي من
 اوروبا ، في قطر هو احدث الاقطار الجرمانية عهداً بالمسيحية حيث الاعراف والعادات
 والتقاليد الجرمانية ، كانت لا تزال محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وحيث قام التنظيم العسكري
 وارتكز على طبقة واسعة من الرجال الاحرار ، هو قطر الساكس الذي انتخب حاكمه الدوق
 هنري ، عام ٩١٩ ، ملكاً على جرمانيا . فقد اخذ العاهل الجديد ينظر الى السلطة التي تمت
 له ، نظرة بدائية وصرف جمل همه للدفاع عن ولايته غير ان ابنه اوتون الكبير (٩٣٦ -
 ٩٧٣) جهد نفسه ليعيد للملكية سينايتها وهيبتها باحياء التقاليد الكارولنجية وبعثها من جديد .
 فقد جرى تنويمه في احتفال رسمي علني ، وجرى تكريسه ودهنه بالزيت المقدس في مدينة
 اكس لا شابل . وحاول ان يحد تدريجياً ، دون ان يلغي رتبة الدوقية ، من استقلال حاملي
 هذا اللقب من امراء البلاد ، وان يحلهم على الاعتراف بحقوق الملك داخل الدوقيات الوطنية ،
 وان يقيم علاقات مباشرة مع الكونتية أنفسهم . وراح يطبق اخيراً الأساليب التي سار عليها
 الاوائل من ملوك الدولة الكارولنجية ، محاولاً ان يجعل من رجال الاكليروس الذين يتولى هو
 نفسه ترشيحهم للمصاف الاسقفي ، ويقدم لقب كونت يحملونه في المنطقة التي يقع فيها الكرسي
 الاسقفي ، معاونيه ومستشاريه في الادارة ويثق بهم كل الثقة . وهكذا تمكن من الحد من
 امتيازات الامارات المحلية ، وان يؤمن السيادة وحق الصدارة للملك الذي هو وحده المدافع
 الاول ، والمناضل الاكبر عن السلام ، ومقيم العدل بين الناس ، وموزع العدالة في كل ارجاء
 المملكة الجرمانية ، دون ان يفلو في استعمال حقوق التبرعية وآصرة الولاء التي له عليهم .
 وهكذا لم يتمكن صفار الرؤساء المحليين من ان يفتصبوا ، كما فعلوا في فرنسا ، السلطة الملكية ،
 اذ بقي الناس في المقاطعات الجرمانية يشعرون عميقاً بوجود جيش وبوجود هيبة للسلطة العامة .
 وهكذا بقي حياً في النفوس الشهور بالحرية ، هذا الشعور الذي جعل الناس يحسون انفسهم
 مرتبطين رأساً بأعراف وتقاليد ملكية .

وهذه الانتصارات يحققها الامبراطور اوتون الكبير على الصقالبة والمجر ، زادته مهابة في النفوس واحتراماً عندهم ، فاستطاع ان يتابع الرسالة التي قام بها الكارولنجيون بانشر الديانة المسيحية وحملها ابعد الى الشرق والشمال ، واصبحت مدينة ميمبورغ في عهده ، قاعدة للكنائس الاسكندينية الحديثة العهد ، ومرجعاً رئيسياً لها . وفي سنة ٩٦٢ ، انشئ في مجبورغ كرسي اسقفي ، واخذ نفوذ ملك المانيا يمتد الى البلدان المسيحية المجاورة لجرمانيا ، كما كان الملك الحكيم الفصل في هذه الاختلافات والمنافسات العائلية التي نشبت في فرنسا ، بين الكارولنجيين وانصار روبرت كلبت ، واخضع عام ٩٤٠ ، مقاطعة لوثرنجيا لسلطانه ، وأتاه ، عام ٩٤٣ ، ولاء ملك بورغونيا ، واخيراً اعترف به ملكاً عام ٩٥١ ، وفي عام ٩٦١ نودي به ملكاً على ايطاليا ، وولاه البابا يوحنا الثاني عشر ، رتبة الامبراطورية ، وهو شرف عادي حقاً وشرفاً لمن له حق الصدارة في لبرديا . إلا ان الشيء الوحيد الذي أضفى أهمية كبرى على تتويج الامبراطور ، عام ٩٦٢ ، هو انه ، لأول مرة منذ اواسط القرن التاسع ، وجد الامبراطور نفسه ، اقوى سلطة ، وأشد سيطرة من أي امير قام في الغرب ، اذ كان باستطاعته ان يؤمن ، بالفعل ، توجيه العالم المسيحي وقيادته . وغير دليل ، وأقوى شاهد على ما نقول ، هو ان الامبراطور اوتون ، غيرته منه على الدور السياسي الخطير الذي أسنده للأسقفية الجرمانية ، وأولاه مهمة اصلاح الكرسي الرسولي وانفاذه الارستوقراطية الرومانية من الدسائس التي تحط من شأنها . فقد خلع البابا يوحنا ، في مجمع عقد تحت رئاسته ، واستبدله ببابا آخر . فقد كان اوتو الكبير ، بحق ، شارلمان ثانياً ، وكان لتتويجه بالتاج الامبراطوري ، المدلول الذي يعني انه الباعث الجديد للامبراطورية الرومانية .

وهذا البعث ، وهذا التجديد للامبراطورية الرومانية طال واستمر ، اذ حصر الامبراطور هذه المرتبة في اسرته ، ففي الوقت الذي جرى فيه تكريسه ، تم تكريس زوجته امبراطورة ، كما توج ابنه مسبقاً ، باسم اوتون الثاني ، عام ٩٦٧ . وبعد ان أمّن هذا المنصب بالوراثة ، تلبست الامبراطورية معنى اقوى وواقع في النفس ، كما راحت هيبتها تمكن في عقول الناس وترسخ في نفوسهم شيئاً مع النظرية البيزنطية في هذا المجال ، وهي نظرية عميد على نشرها والدعوة لها رجال الاكليروس في روما والاميرة اليونانية ثيوفانو زوجة اوتون الثاني . وكان من الامبراطور الجرمانى الثالث ، اوتون الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) ان امر بنقل كرسي ملكه الى روما . وبالاتفاق التام ، رأياً وروحاً ، مع الكرسي الرسولي الذي شغله اذ ذاك تحت اسم سلفسترس الثاني ، صديقه الحميم العالم جربرت دورياك ، رغب ، على شاكلة الامبراطور قسطنطين الكبير ، من قبل ، ان يعمل من وظيفة الامبراطور ، بعد ان يستبدل تدريجياً كل اشكال السلطات السياسية التي تقاسمت اذ ذاك ، المسيحية اللاتينية ، رئاسة هي في الصميم : ادبية ، مسكونية ومسألة . فكانه كبر شأنه وزاد مهابة بعد ان تبنتها نظريات الرهبان الاكثر ثقافة الذين تألفت منهم بطانة الامبراطور لويس الزرع ، وسياسة الملاينة التي اتخذها تجاه الاستقلالات

القومية ، ساعدت كثيراً على ربح الشعوب التي اعتنقت المسيحية حديثاً ، في جماعة المسيحيين الكبري ، كالديوق البولوني « ماسكو » ، والملك اسطفانس المجري اللذين اعترفا برئاسة البابا الامبراطور رئيساً اعلى لها .

والى الشرق من الحدود التي جعلتها معاهدة فردان حداً لمملكة فرنسا ، رافق اعادة الامبراطورية ازدهار واسع في الحياة الروحية والنشاط الفكري والفني ، هذا الازدهار الذي جاء ثمة للنهضة التي تمت في عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للأطر والتوجيهات التي وضعتها الكنيسة ، والتي اتخذت عماداً لها ، تطوير المؤسسات الدينية برعاية هؤلاء الملوك ومؤازرتهم الشديدة ، اذ ان هذه المؤسسات نفسها ، ألفت ، هنا ، كما ألفت ، في عهد شارلمان ، سنداً قوياً للدولة الجديدة ، وأيداً قوياً شدة من ازدهارها ووطد من شأنها .

كذلك ، انطلقت الحركة ، في كل من انكلترا وبورغونيا ، باصلاح شامل للحياة الرهبانية ، في القرن العاشر ، راعي ، ولو بعيد ، وضع الكنيسة المختلف في كل من شبه الجزيرة الإيطالية واللورين . واشرف على بعث الحياة الروحية ، في ايطاليا ، فريق من الزهاد والنسك ، تأثروا الى حد بعيد ، بنسك الصحاري والقفار ، امثال القديس نيل الذي رغب الامبراطور اوتو الثالث في استقدامه الى روما ، والقديس « رومالد » ، الذي عرف ان يوحد بين طريقة الرهبان العاشرين معاً عيشة مشتركة ، وبين النسك والجبس ، في رهبانيات مشتركة تتألف من رهبان وزهاد ، جرى تأسيسها على مقربة من مدينة رافينا ، وفي جبال الابنين ، عرفت فيما بعد برهنة « كامالدول » . وعلى عكس ذلك ، كان القاثون بالاصلاح في اللورين عديدين ، اولهم « جبرارده بروني » ، فراحوا يحاولون اصلاح فرائض القديس بندكتوس لارجاعها الى نقائها الاول . واكثر هذا الفريق نشاطاً وحاسة ، هو حنا فندير ، الذي انتخب ، عام ٩٥٩ ، رئيساً عاماً لدير « غورز » في ابرشية مترز ، وفرض على الرهبان قانوناً صارماً ، وافسح مجالاً واسعاً للطقوس الليتورجية ، وشدد ، بمكسر دير كلوني ، على التقيد بفرائض التنسك واعمال التقشف ، وفرض على الرهبان ، العودة الى الشغل اليدوي والاتصال الدائم بالاساقفة . فلا عجب ان يحدث هذا الاصلاح للحياة الرهبانية الذي تم تحت رعاية الامبراطور وانتشر في جرمانيا ، تأثيراً بعيداً على رجال الاكليروس العلمانيين ، وساعد على تكوين احبار لهم قيمتهم الادبية العالية ، امثال لوتجرده ليج ، و « برنار هلدشيم » ، الذين انقطعوا للنشر والثقافة ، وتأمين ازدهار الآداب والفنون .

وهذه المطالب الثقافية العالية ، تفهمها الامبراطور اوتون وتبناها ، وراح ، تشبهاً بشارلمان وللأسباب ذاتها ، ينشئ مدرسة في قصره ويلحقها ببلاطه ، واستدنى اليه عدداً من علماء زمانه وحلة الثقافة ، فاستقدم من اللورين : « روثيه ده لويس » ، وعدداً كبيراً من ايطاليا ، بينهم « لاون ده فرسايل » و « ليوتبراند الكريموني » ، الذين انشأوا في مراكز التعليم

الكبرى ، في لمبرديا ، المعروفة بتمسكها بالتقاليد الادبية والبيانية الرومانية . ففي كل مكان من هذه الامبراطورية التي عهها الاصلاح ، سارت الحركة الادبية والفنية ، في النهج الذي انطلقت منه في اواخر القرن الثامن ، وهو نهج اخذ ينمو ويزداد متأثراً بالروح والاهداف الواحدة ، اذ كانت زطاة الغزوات خفيفة عليه ، فلم تحدث فيه اي انحراف عن الصدد ، او اي انقطاع عن السير . والمراكز الرئيسية لهذه الثقافة هي هذه الاديان البندكتية الكبرى التي تأسست في مطلع الامبراطورية الكارولنجية ، امثال كورفاي ، في مقاطعة الساكس ، ورايخنو ، وسان غال ، في مقاطعة الصواب . فهي التي غذت المراكز الاخرى القائمة في منطقة الموزيل ، وذلك عن طريق العلاقات الثقافية التي ربطت بين مناطق الشمال وسهل البو في ايطاليا ، فامتد اثرها نحو الشرق البيزنطي عبر البندقية ، التي كانت في ابان ازدهارها .

فالحالة هي أشبه ما تكون بالوضع الذي تهيأ في مطلع القرن التاسع : فأم وجوه النشاط لرجال الفكر هو درس الصرف والنحو وتأليف كتب في التاريخ ، منها مثلاً : « تاريخ الكسون » الذي وضعه « فيتوكند » ، والاهتمام بدرس الليتورجيا وتهذيبها عن طريق وضع اناشيد والحنان موسيقية دينية ، كالانجنازات التي حققها في هذا المضمار هو كبالده سان امان ، ونوتكر او توتيلوده سان غال ، ولا تزال الآثار التي وضعوها حية الى يومنا هذا بصيغتها وروحها . واذا كانت وضعت القصائد الشعرية المسماة *Waltherius* كالتي وضعها أكتهار ده سان غال ، او ان الاساطير الجرمانية القديمة قد نقلت شعراً الى اللاتينية ، فقد تلقت بأفكار وموضوعات جديدة جذدت منها الشكل وبعثت فيها روحاً جديدة ، الا انها كانت على الاجمال ، محاولات تقليد ومحاكاة لآثار كلاسيكية ، كهذه الهزليات والمليبات التي وضعتها الراهبة الرئيسة « هرُوسوينا ده غندرشام » محتدة فيها حذو الشاعر اللاتيني تيرانس . وعندما اراد المهندسون ان يشيدوا الكنائس الكبرى من غير عقود مزدوجة الحنايا ، كالكنيسة القائمة في دير جيرنرود ، راحوا يستلهمون المباني الضخمة التي انشئت في عهد لويس الورع . واستمرار الاساليب الفنية ورسوم الديكور والتعليق التي راجت في العهد الكارولنجي ، يبدو واضحاً في الفنون التي اعتادوا ان يسموها الصغرى ، كما نرى ذلك في بدايات هالدشام البرونزية ، وفي قطع العاج الموجودة في كنائس كولونيا ومتز أو في الجوهيرات الموجودة في مدينة تريف وراتزون ، وفي منمنمات «اخترناك» المزوقة ، ورايخنو ، أو في افاريز غولدباخ واوربرزيل . « فالنهضة التي رافقت عهد الاباطرة أوتون » هي بالفعل المصير الذي انتهت اليه جهود ألكوينس ، والمهندس « أويد ده متز » والفنان الذين تولى تميم مخطوطة المزامير في اوترخت .

والجدير بالنظر والملاحظة في معالم الحضارة الغربية ، في اواخر القرن العاشر هو التأثير البالغ للعهد الكارولنجي . فاوروبا برمتها ، بما لها وفيها من حدود ونجوم ، وما هي عليه من نظم ومؤسسات سياسية ، ومن نظام التبعية وعادة تكريس الملوك ومسحهم بالدهن ، وبعت

الامبراطورية ، ومؤسساتها الاقتصادية ، والسيادة القطاعية ، والنظام المالي ، وما الى ذلك من مؤسسات دينية ، وما يحيش فيها من روح وفن ، كل ذلك اخذ شكلاً واضحاً في هذه الفترة التي نمت فيها هذه البلاد بالامن والوحدة ، وهي هذه الحقبة البالغة النصف القرن تقريباً التي احاطت بسنة ٨٠٠ ، فالمسيحية اللاتينية ، اذ اتخذت ها مثل هذا الزمن الوطيد اصبحت بنأى عن الغزوات ، وبمزل عن الطوارئ المفاجئة ، وتجددت كلياً عن طريق المبادلات وازدياد السكان ، هي في أتم ازدهار وعلى احسن ما تكون استعداداً للانطلاق .

الفصل السادس

الشرق الأدنى : ازدهاره وأزماته (القرنان التاسع والعاشر)

عرف العالم الاسلامي ، بين منتصف القرن التاسع ومطلع القرن الحادي عشر ، كيف يفيد الى حد بعيد ، من هذه النهضة الروحية وهذا الازدهار المادي اللذين تهيأت أسبابهما في القرنين السابقين ، وهما نهضة وازدهار تحالف عليهما من الازمات والضائقات الاجتماعية والسياسية والدينية ما افقدهما الكثير من الرواء ، واذهب عنها الكثير من مباهج النعماء . ففي هذا الوقت بالذات ، راحت الامبراطورية البيزنطية ، تعلم ما تشعث من احوالها ، وما تفكك من اوصالها ، وتقوم ، هي الاخرى ، باصلاح شامل لاوضاعها ، لاقى هو الآخر ، مشاكل وصعوبات اجتماعية تجاوبت اصداؤها في جميع ارجاء الامبراطورية . فنحن أمام امبراطوريتين تتعادل فيهما كفتتا ميزان القدر ، في وقت كان كل منهما يحاول ان يطبع مصير المدينة ويُفرغ أحداث الدهر بما يتفق وطاقته على البناء والتكوين والانشاء . ومهما بلغ بينهما الخصاص والمضاء ، واشتدت بين الجانبين الفجوة والجفاء حتى راحتا تستمطران السماء اللعنات الواحدة على الاخرى ، فلم يكن لهما يد من ان يقوم بينهما شيء هو اشبه ما يكون بالتعايش السلمي ، خال معه كل منهما ذاته خالداً ابد الدهر ، فهما يحل شيء قريب أو شبيه ، بما تم لهما من نظم اجتماعية وحياة فكرية وادبية لن هو في عمر واحد من الزمن مع الآخر . فاذا ما تشاجرا وتراشقا الضربات واللكات ، ففي اوضاع ومصطلحات مشتركة يفهما جيداً كلا الفريقين ، لانهما على صعيد سوي واحد .

فالصعوبة القائمة في وضع رسم بياني للمجتمع الاسلامي المترامي الاطراف : من جبال الاطلس ومشارف الاوقيانوس غرباً ، حتى نهر الهندوس شرقاً ، هي نفسها الصعوبة يلاقيها من يرسم مثل هذا الشكل البياني للمجتمع الاوروبي ، الممتد من نهر العبر (في اسبانيا) الى جبال الاورال ، فلن نقف ، والحالة هذه ، الا عند القسفات البارزة ، والملامح المميزة ، والفسارقات المشتركة ، والاحداث الكبرى الناتجة .

التجارة فالعلم الاسلامي والمجتمع البيزنطي ، كلاهما ، من الوجهة التقنية ، في حدود المستوى القديم تقريباً : فلم يحدث في اي من الجانبين ، اي اختراع واكتشاف جديد استطاع ان يغير أو ان يبدل من الاوضاع السياسية التي احاقت بالانتاج والمبادلات التجارية . فالتجارة واوضاع الحياة في المدينة ينعمان بمرکز ممتاز اذا ما قيسا بالوضع الذي كان عليه الغرب في هذا العصر المشترك ، وعلى درجة اقل ، اذا ما قيسا بما كان عليه الوضع في التاريخ القديم . ومع ذلك ، فليس هو بالوضع المسيطر أو المتحكم ، اذ ان معظم الاهلين يطمنون خارج المدن ، في الريف ، والزراعة وتربية الماشية هما المعول عليهما بالاكثري لدى الدولة والمجتمع ، ونتائج التجارة ، تبقى ، منع هذا محدوداً . ومع ذلك ، لا بد من التشديد هنا ، على التجارة اذ ان التطورات العظيمة التي خضعت لها ، كان لها تأثير بالغ ، وصدى عميق في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

فالتجارة الاسلامية والبيزنطية حركتان متلازمتان متعاقدتان ، لا يمكن فصلهما او تصوير الواحدة منهما دون الاخرى . فهذه هي حاصل تلك . غير ان الاولى ، كانت اوسع مجالاً وارحب افقاً من الثانية ، وتتحكم بتجارة السلع الاساسية مع آسيا ، التي اصبح العراق منها شبه شيء بالمفتاح . والخليج الفارسي ، اكثر بما هو البحر الاحمر نفسه ، الطريق الموصل بين المحيط الهندي وبلدان البحر الابيض المتوسط . فمن مرفأ سيرا ، على ساحل ايران ، ومن أبلية والبصرة ، في العراق ، كان التجار ، شأنهم في هذا العصر شأنهم في عصر الساسانيين ، يخرجون حاملين بضائعهم باتجاه اقطار الهند الغربية ، يتجرون مع جواليهم العديدة في هذه الاقطار ، ويلتقون مع التجار الصليبيين في طريقهم الى سيلان . وقد قطعت تعديلات القرصان ، في القرن الثامن هذه الحركة واوقفتها ، ثم عادت سيرتها الاولى في القرن التاسع ، ونشط التجار فبلغوا معها الصين وشارفوا خان - فو ، الواقعة على مقربة من كنتون ، حيث كانت توجد جالية اسلامية تتمتع بشبه استقلال اداري . ولما كانت الاضطرابات الدامية التي وقعت في الصين ، خلال هذا العصر ، قد سببت خراب هذه الجالية ، انتقلت نقاط تلاقي التجار ، الى شبه جزيرة الملايو او الى سيلان ، دون ان يكون لهذا التغيير اثر يذكر على الحركة التجارية . وقد تركت لنا اخبار الرحالة والادوصاف التي وضعوها لنا ، ذكر هذه الاسفار ، منها في القرن الثامن : الرحلة المنسوبة الى سليمان ، وفي القرن العاشر الرحلة التي وضعها سيراغيان بوزورج التي تذكرنا اخباره بقصص السندباد البحري . ففي الاسفار التي قاموا بها ، باتجاه اليمن والبحر الاحمر حتى مرفأ جدة ، وافريقيا الشرقية حتى مشارف جزيرة مدغشقر ، تفوق الفرس ، قبل القرن العاشر ، على المصريين ، في هذا المجال .

والطرق البرية كانت تنطلق من العراق متجهة الى اواسط آسيا مارة بالهنا ، في ايران ، للاقاة التجار الصينيين ، بينما توجهت طرق اخرى نحو سوريا ومصر والامبراطورية البيزنطية ، وكانت آسيا الوسطى ، منذ القديم ، احد مراكز الاشعاع التجاري ، اذ كثيراً ما يتم التجار

المسلمون في هذه المنطقة ، الصين والهند وبلاد الفولغا . ويستدل من النقود التي عثر عليها المتنبون انهم وصلوا الى مناطق بحر البلطيق ، كما ان تجاراً آخرين بلغوا الاقطار الشمالية الغربية التي لا يعرف عنها الرحالة العرب ، شيئاً كبيراً ، ويرى البعض ان هذه اللقطات الوفيرة التي عثر عليها انما هي من بقايا الفدية والاسلاب التي اصابتها « النورمندفون » في الغزوات التي بلغوا فيها مشارف بحر قزوين . وقد بلغ هؤلاء التجار في اسفارهم اقوام البلغار في منطقة الفولغا كما تشهد على ذلك رسالة تركها بن فضلان حول وفادة ديبولماسية ، عهد بها اليه احد الخلفاء العباسيين ، اجتاز فيها آسيا الوسطى ، وهي رسالة لها أهمية كبيرة للتعريف بأقطار أصبحت فيما بعد روسية . ولعل هؤلاء المسلمين بلغوا في اسفارهم ، نحو الغرب ، مدينة براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، اليوم . وقد يكون من الفلو بمكان ان ننسب أهمية كبرى لهذه الاسفار ، او تأثيراً لا تستحقه على أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية .

فاذا لم يكن للتجارة المصرية نشاط يذكر في المحيط الهندي ، قبل الدولة الفاطمية ، فقد بلغت قوافل التجار المصريين ، باستثناء الشام والعراق ، الى الحبشة وقلب السودان والمغرب الأقصى . فالازدهار الداخلي الذي عرفته البلدان الاسلامية في الغرب ، واستبلاؤهم على كبريات الجزر في البحر الابيض المتوسط ، كجزيرة اقريطش (التي احتلها لاجئون اسبانيون) وصقلية ، والقواعد التي أقاموها في شبه الجزيرة الايطالية - ولا سيما باري منها ، منذ القرن التاسع - وسردينيا وكورسكا وجزر البليار ، شجعت كثيراً حركة التجارة في البحر المتوسط ، وأمنت للمسلمين السيطرة التامة على البحار الواقعة الى الغرب ، كما جعلت الطمانينة والسلام يرفرفان على طرق المواصلات بين مصر والمغرب الأقصى . وقد طردت بيزنطية من كل بحر ايجه والبحر الادرياتيكي لما لقيت من تهديد القراصنة السوريين والدلمات ، اضاف الى ذلك ان اسطولها التجاري اصبح في خطر مدام ، من جراء الثورات والانتفاضات التي قامت في البلدان التي تستمد منها حاجتها من البحارة كالثورة التي قام بها توما الصقلي ، والعراقيل التي قامت في وجه التجارة الحرة ، وبعد ان اعيد تنظيم هذا الاسطول في اواخر القرن التاسع ، بقي ، سواء منه عمارته الحربية وعمارته التجارية ، عاجزاً عن تحقيق ما كان له ، في الماضي ، من سيطرة وسيادة . ولذلك اتجهت الحركة التجارية ، في بلاد النصارى ، الى تجار البندقية ومدينة امالفي ، من رعايا الامبراطورية ، ولو بالاسم ، وقد عرفوا ان يعقدوا ، في هذا المجال ، مع جيرانهم من المسلمين ، عقوداً واتفاقات مجددة للغاية وسعوا من احكامها فيما بعد ، بحيث دخلت مصر في احكامها ، بعد ان احتلها ملوك الدولة العبيدية الذين جاؤوا من المغرب . والشواطيء المسيحية الممتدة من روما الى برشلونا ، بقيت مقفرة موحشة بعد ان عاث فيها القراصنة المسلمون ، وتوصلوا الى اقامة معاقل لهم في جبال المورس بينما المعقل المعروف بـ *Ciarde Freinet* . وقامت في اسبانيا حركة تجارية ناشطة ، اتصلت برأ بملكة الفرنج في الغرب ، كان واسطة العقد فيها ، تجاراً من اليهود يقيمون في البلاد المسيحية اكثر منهم تجاراً من المسلمين ، اذ لم يكن يرضون

بالتعامل معهم في المناطق الواقعة جبال البرانس الى الشمال . اما في البحر ، فلم يعد ليرضي التجار المسلمين ، ان يستقبلوا ، قانعين ، التجار القادمين من الشرق مع ما لديهم من السلع والبضائع . وبدون ان نشير هنا الى هذه الجمهورية البحرية الغربية القصيرة الامد التي قامت في بكشينا على مقربة من الماريا والتي بقي عام ٩٠٠ ، نطاق اتصالاتها البحرية مقتصرأ على نقطة ضيقة ، فقد كتب ابن خرداذبه أن التجار الاسبانيين من اليهود ، كثيراً ما بلغوا ، عن طريق البر أو البحر ، بلدان الشرق الأقصى ، فكانوا بذلك يملأون قلب الوضع التجاري لصالح الغرب ، لصالح النصارى . اما في المغرب ، فقد كانت أفريقيا (تونس) الملتقى للحركة التجارية في البحر المتوسط ، اذ كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء فلتنتشر لمروهم الواحات القائمة اكثر الى الغرب ، امثال مدينة سلجلماسة القائمة على سفح جبال الاطلس الغربي ، والقاعدة الكبرى للخوارج في هذه المنطقة .

وقد ظهرت بيزنطية ، أمام الاسلام ، مظهرأ زريأ . ولا يعني هذا انها لم تستعد من ازدهار الحركة التجارية الكبرى التي كانت ناشطة ، اذ ذلك ، فالطرق الآسيوية التي تفضي الى سواحل البحر الاسود يجب ان تمر حتماً بالقسطنطينية ، وعلاقتها مع شعوب الدالوب واوكرانيا ممتدة . والمشاريع التجارية الايطالية في الشمال من البحر الابيض المتوسط يقابلها قدوم الروس الى القسطنطينية . والمسلمون ايضاً الذين انشأوا لهم فيها جامعا ، وهي حركة عادت على اباطرة بيزنطية بالربح الوافر من الرسوم التي كانوا يتقاضونها ، كما عادت عليهم بالكثير من النفوذ والمكانة ، دون ان يلاحظوا قط ما تخلفي هذه الحركة وراءها من خطر في المستقبل بنسبة ما يتخلى رعاياها عن تحكمهم بالاسواق التجارية وفتح اسواق جديدة لتجارتهم .

وهذه الحركة التجارية الناشطة في كل قطر وصقع من بلدان الشرق الادنى ، كانت تدور ، في الدرجة الاولى ، على الخامات والمواد الأولية التي تفي بمطلب الحياة كما تناولت سلماً غالية التكاليف والاثمن هي ابدأ مطمح المظلم وكبار الاغنياء . وكان التجار المسلمون يستوردون من الشرق الأقصى التوابل والأفاويه (في مقدمتها الفلفل) ، والحجارة الكريمة والعاج من الهند ومن افريقيا ، والذهب من السودان والحريير من الصين الى جانب الحرير الوطني ، والاششاب الثمينة كالمفسر والصندل ، من اندونيسيا ، وخشب البناء من آسيا الصغرى واوروبا ، والجلود والفراء ، والعسل والشمع ، من روسيا ، واخيراً العبيد والارقاء : من بين صقالبة دلماتيا على يد تجار ايطاليين ، أو صقالبة من بلدان أوروبا الوسطى ، من سوق النخاسة في براغ ، و تراكا من قبائل الخزر أو يأتون بهم من اواسط آسيا ، وزنوج السودان . ومن بين السلع التي كانت تنفق في داخل البلدان الاسلامية : حريير مناطق بحر قزوين ، والقطن والبمخور المستورد من البلاد العربية ، والآلآء والاسفنج من اطراف عمان ، كما استوردوا كل المعادن التي تفتقر اليها البلاد العربية من ايران وشمالي العراق والمغرب والاندلس ، حيث كانت تتوفر بغزارة هذه المعادن على أنواعها . وكانوا يصدرون الى البلاد الواقعة خارج الاسلام السلع والمصنوعات التي تم عن تفوق

مهارات الفن الإسلامي الصناعية، في مقدمتها المنسوجات والمصنوعات المعدنية. فإذا ما وضعنا تجارة الرق جانباً، نرى ان تجارة بيزنطية كانت تقوم على مثل هذه الاصناف، انما على درجة اخف من التنوع. فالاولوية التي احتفظ بها هذا العالم وذاك، تقوم بان كلاهما كان يصدر للخارج بضائع وسلعاً مشغولة، غاية في الدقة بينما اقتصرت الحركة التجارية في البلدان الاخرى، على استيراد المواد الاولى.

من الصعب، واما الحق، ان نتبين كيف كان يتم التوازن في هذه الحركة التجارية وتداول النقد، اذ ان كل الوثائق التي لدينا غامضة للغاية. فاستمرار هذا التيار التجاري بين بلدان الشرق الادنى واقطار آسيا النائية، على الاخص، دليل كاف على سلامة اوضاعها، اما ان ينتقل قلب هذه الحركة التجارية، فيما بعد الى مصر، فامر يعود لاسباب ودوافع اخرى. وبعد هذا كله، فقد احتفظت كل من بيزنطية ودول العالم الاسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم منه للغرب شيء، وهو نقد مستقر، قوي، معتمد دولياً، مع العلم ان كلا من ايران، ومن اسبانيا ابتداءً من القرن العاشر، عوّلتا بالاكثير، على النقد الابيض، أي الفضة. وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت طاقة النقد الشرائية لأسباب ضرائبية، منذ القرن العاشر. ولا شك عندنا قط في ان هذه الحركة التجارية العالمية كانت أدت الى احداث نقص في النقد المتداول، لو لم تعوض مناجم الفضة والذهب الموجودة في ليبيا والسودان هذا النقص، بيسر. ويقال ان بيزنطية التي كانت تشتري من الشرق اكثير مما تبيعه، حققت التوازن في ميزانها التجاري بفضل المشتريات الاوروبية، كما ان توفر النقد في اوروبا الغربية يعود لما كان تصدره الى البلدان الاسلامية، في الشرق والغرب، من سلع وبضائع. ولعل في هذا التأكيد بعض الغلو من حيث تقدير أهمية الحركة التجارية في هذا المثلث الجغرافي. ومهما يكن من الامر، فبيزنطية لعبت دور المستهلك أو الوسيط، ولم يكن لها بالحقيقة كبير تأثير على الحركة التجارية العالمية.

قلما قام التجار بأسفارهم لوحدهم أو منفردين. فالتجارة البحرية، اقله في التقنية التجارية ما يتعلق بالمحيط الهندي، كانت، تبعاً للرياح الموسمية، تتكيف بها من حيث مواعيد الذهاب والإياب. وكانت كل سفينة تضم دوماً الى جانب قبطانها، عددًا من التجار. اما في البر، فالى جانب هذه الاساطيل النهرية التي كانت تمخر في النيل ودجلة وغيرها من الانهر، كانت الاسفار البعيدة تتم مع القوافل، فتمتد الجمال، وطرقاً سالكة لتعذر الرحلة على مسالك غير صالحة.

والتاجر المثالي الذي يحوب الارض مستثمراً ماله ومهارته، هو هذا الذي يصفه لنا كتاب «الف ليلة وليلة». ولكن لم يكن احد ليتجر بماله وحده. فمن طريق اتفاقات يجرها مع غيره من التجار، او بالاشتراك برأس مال يتناهد بعضهم على تكوينه بدفع اقساط منه على

النجم معينة ، كان التاجر ينهض لعمله ويمضي في مغامراته على بركة الرحمن ، وهي عادة ترجع باصولها الى الاجيال القديمة . . والاموال المستثمرة على هذا الشكل ، كان يُؤتَى بها من جهات شتى ، فيشارك بها العمال ورجال الادب ، وصغار التجار من جميع طبقات المجتمع ، وكبار الملاكين وابناء الارستوقراطية من رجال الجيش . فاذا ما راح التجار يستثمرون بعض اموالهم ومكاسبهم في ابتلاع الاملاك ، عمد كبار الملاكين الى تشغيل جانب من اموالهم ، في المشاريع التجارية ، وهي مشاريع كثيراً ما تهددتها المخاطر والارزاء . الا ان هذه المضاربات كثيراً ما عادت على اصحابها والقائمين بها بالربح الوفير ، وحفزت اصحاب الطبقة الوسطى على الاقبال عليها . وعلاوة على ذلك ، فالدولة كثيراً ما ساهمت من جانبها بهذه التجارة ، اذ لم يكن الملوك والامراء يأتمنون هولاء التجار على مبالغ طائلة ، مساهمة منهم بهذه الحركة فحسب ، بل كثيراً ما كان التجار يشاركون بزيادة الخراج ويتصرفون ، في تجارتهم ومضارباتهم باموال لم تكن لتتوفر لهم مهما اقتصدوا واذاً خروا . وكان بيت المال نفسه يستفيد ، هو ، الآخر ، من جباية الرسوم المفروضة على هذه المقايضات ، اذ كان عليهم ان يتقيدوا بدفعها وفقاً للاصول .

وتحسين الاعتماد ، وتوفير النقد لم تكن انجس فوائد هذه المعاملات التجارية ، فليس فيها من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت هذه المعاملات تجري على نطاق لم يبلغ من السعة ما بلغه ، اذ ذاك . فاذا ما حمل التاجر معه نقداً عدداً ، فلم يكن ، على الغالب ، كيات ضخمة او مبالغ كبيرة ، اذ كان لكبار التجار ، في الاسواق التجارية الكبرى ، عملاء او وكلاء معتمدون يسحبون عليهم سندات لشخص ثالث ، فيدفعون له من ضمنهم ، ما يطلب اليهم دفعه ، لقاء فائدة معينة . والعمل بهذه السفاتج (جمع سفتجة ، والكلمة فارسية) كان شيئاً متعارفاً لدى التجار ، اذ ذاك ، كما ان السند او الشيك كان تمهداً بالدفع من قبل موقعه ، اذ ان السند ، كان يمس حامله ، بمثابة قيمة السند . ولم تركه او ميراثاً ، مهما بلغت ، لم يذكر المورث ، في جردته ، من السندات المستحقة عليه ، ما يربو على ما يتركه من ثروة نقدية . وكان بيت المال يستوفي حصته من هذه الرسوم ، ويدفع بدوره ما يستحق عليه من ديون . فلي مركز تجاري كبير كالبصرة ، مثلاً ، كانت المبالغ المستحقة على التجار اولهم ، تدفع لاصحابها او تستوفي منهم عن طريق الاعتماد المالي . وكثيراً ما كان التجار المتنقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة ، بعد ان يتمهد هولاء بعدم مسها او التصرف بها الا بامر صريح منهم . وقد كان القانون يحرم شرعاً ، الربا ايئاً كان ، ومع ذلك فقد كان الربا فاشياً ، في كل مكان ، يتحصيل التجار على القانون لتأمين الكسب غير المشروع .

كانت المعاملات المصرفية وفقاً على كبار التجار . اما الصيارفة فقد غمزوا عنهم بأنهم اختصوا بأعمال الصيرفة المحلية . وكثيراً ما كان هولاء الصيارفة ، بجابذة (الكلمة فارسية) أي يُعهد اليهم من قبل بيت المال ، لطبرتهم ، بتمييز الجيد من الزائف ، بين هذه النقود التي تدفع للخراج ، وكانوا يتفاوضون عمولة عن خدماتهم هذه ، كما كان باستطاعتهم ان يشاركون ، بالمضاربات المالية

والاعمال التجارية .

وكان من جراء اعتناق سكان البلاد للإسلام واقبال المسلمين على التجارة ان كثر عدد الصيارفه في المدن والمراكز التجارية ، وهي اعمال تعاطاها النصارى واليهود واليهوس وعدد من المسلمين ، على السواء . فالقوارق الدينية لم تؤلف حائزاً او حائلاً دون احد لتعاطي مثل هذه الاعمال . وكان كبار التجار ، ولا سيما البزازون بينهم ، يأنفون من التعامل مع التجار بالفرق ، او التجار المتجولين في الاسواق لانتهاء معظمهم للطبقات الدنيا .

والتاجر ، سواء أكان مسلماً او غير مسلم ، لم يكن ملزماً بدفع رسوم المكس إلا عندما يحتاز الحدود بين بلد مسيحي وآخر اسلامي . غير ان التجزؤ الجغرافي وقيام الممالك والسلطنات والجائحات الكثيرة ، في العالم الاسلامي ، جعل من هذه القاعدة شيئاً ومياً او حبراً على ورق . ومهما يكن ، فقد انشئت في المدن والخواضر الكبرى للتجارة رسوم خزن ومرور ، كثيراً ما ندد بها وانتقد من فرضها ، الفقهاء الذين كثيراً ما خرجوا من الوسط التجاري ذاته ، مع انهم لم يتعرضوا بكلمة نقد ضد ضريبة الحراج . وليلزموا التجار دفع هذه الرسوم ، كان عليهم ان يودعوا سلمهم في الفندق الذي كان يقوم عادة ، عند مداخل المدينة ، ثم يعمدون الى التصرف ببضائعهم ويبيعها من تجار المرفق ، اذ كان من المحظور على التاجر ان يبيع بضاعته بالفرادى . وكثيراً ما تقاضى رؤساء القبائل وكبار الاقطاعيين رسوماً خاصة «خوة» يفرضونها على القوافل كرسوم حماية . وكانت حركة التجارة في المدن مستمرة ؛ اما الاسواق القائمة على طريق الحج ، فلم يكن لها شأن يذكر .

وكانت الدولة والهيئات المحلية تستوفي رسوماً عالية من المكوس بلغت ١٠ ٪ على المسلمين ، و ٢٠ ٪ على غيرهم ، ما لم ينعموا باستثناء خاص . وقد يحدث ان تقوم الدولة نفسها بالتجارة ، في بعض الحالات التي تشتد فيها المجاعة ، تأمناً منها للواد الغذائية . وقد كانت تحتكر في بعض الاحيان الاتجار ببعض الاصناف أو المواد ، كبيع الذهب الخام مثلاً . وهذه الاحتكارات كثرت انواعها ، وتعددت مناهجها في مصر . وعلى هذا النهج سارت ايضاً بيزنطية عندما كانت تستورد كميات وافرة من المواد الغذائية ، يحدوها الى ذلك ، الرغبة في تأمين تامين البلاط والعاصمة . اما في البلدان الاسلامية ، فتدخل الحكومة لم يتمدد على ما يظهر ، الاهتمام بخزن مقادير كبيرة تحسباً للطوارئ وفرض رسوم على المواد الغذائية الاساسية كالطحين والخبز عند ارتفاع الاسعار ، وبيع المواد بأسعار مخفضة عند نشوب المجاعة . وفي ما عدا هذه الاستثناءات ، يبدو ان اسعار المواد الاساسية لم تتبدل كثيراً . الا ان الاسعار كانت تختلف اختلافاً بيناً بين قطر وآخر : فالطحين ، في مصر كان سعره ارخص مرة او مرتين مما كان عليه في العراق .

وهكذا نرى ان العالم الاسلامي برمته نظم جيداً اعراف التجارة وآدابها واساليبها التقنية وهي اعراف وآداب واساليب لم تلبث ان انتشرت في جميع أطراف عالم البحر الابيض

المتوسط المسيحي . ولكن من أين لنا ان نعرف ، في هذه الحركة التجارية التي ازدهرت ، في ايطاليا مثلاً ، ما هو ، في هذه الاعراف ، بيزنطي او عربي ، من التراث الماضي القديم أو من الاشياء المستحدثة في الظروف المتشابهة الواحدة ؟ والثابت الاكيد هو ان الحركة التجارية البيزنطية التي تميزت بالسلبية والمحصرت في حيز جغرافي ضيق ، لم يتم لها شيء مما تتم للحركة التجارية في العالم الاسلامي ، من تنظيم للاعتداد المالي ولا من مرونة الرسوم والجباية .

والصناعة التي كانت دوماً من النوع اليدوي ، لم تكن تتعارض وتشغيل الحرف والمهن عدد كبير من الفعلة والعمال ، في بعض الحالات . نحن نعرف الكثير عن وضع الصناعة في الامبراطورية البيزنطية ، في القرن العاشر ، وذلك بالاعتماد على كتاب مشهور عنوانه : « كتاب الرئيس *Livre des Préfets* . اما معلوماتنا عن الوضع التجاري في العالم الاسلامي ، فهي متوفرة جداً ، ولو جاءت متأخرة عن تلك ، وذلك من الكتب الموضوعة في « الحسبة » والتي يمتددها « المحتسب » الذي يشرف على تنظيم الاسواق التجارية ويسهر على اسباب الأمن فيها . ففي كلا الوضعين ، فالمظاهر البرانية أو الخارجية والناحية الادارية للمهنة تحظى بعناية اكبر مما يحظى به وصف المهن أو اصحاب الحرفة انفسهم .

لا بد من التمييز ، سواء في بيزنطية او في الاسلام ، بين الحرف التي تقوم الدولة بتنظيمها والاشراف عليها ، وبين الحرف الاخرى الخاصة . يدخل في الفئة الاولى ، الى جانب ضرب السكة ودور الصناعة والمصانع الحربية ، مصانع النسيج التي كانت تؤمن صنع الملابس الفخمة اللازمة لرجال الحاشية والبلاط او لديوان الملك ، كالديباج الموشى بالذهب واسلاك الفضة ، او الحرير الملون بالقرمز والارجوان مما تدأب على صنعه دار الطراز ، في الدول الاسلامية ، والـ *Gynécée* ، عند البيزنطيين ، كذلك كانت الدولة تحتكر صناعة البُردي في مصر ، الى ان زالت صناعته وماتت عند ظهور صناعة الورق او الكاغذ . اما ما تبقى من الصناعات الاخرى فصناعات خاصة ، ولو فرض على بعضها ، كما في بيزنطية مثلاً ، وجوب تأمين بعض الاصناف اللازمة للحكومة ، في الدرجة الاولى ، تبتاعها بالثمن المعين مع الرسم المفروض ، او تستوفي منها عيناً بعض المصنوعات ، كرسوم مقطوع ، وهي طريقة ليس عندنا ما يشير الى وجود مثلها في العالم الاسلامي ، اذ ذلك .

وكانت الحرف في التاريخ القديم والاجيال الوسطى تلتظم حلقاتها على اساس نقابي . وهذه النقابة ، هل كانت تشبه لعمرى ، الـ *Collège* في التاريخ المتأخر عند الروم وهو جهاز دولة في الصميم ، ام انها كانت صورة سابقة وانما ، لهذه النقابات التي قامت في الغرب ، فيما بعد ، أو هي مؤسسات ومنظمات خاصة ، في جوهرها ؟ لا شيء من هذا على الاطلاق في بيزنطية . فذهب تدخل الدولة المعمول به في بيزنطية والمنتقل اليها في جملة من انتقل من تركة تاريخ الروم المتأخر ، جرى تطبيقه على النقابة او اهل الحرفة الواحدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان وفرة اليد العاملة

جمل من غير الضروري قط، انتساب العامل للحرفة امراً متوارثاً أباً عن جد، او امراً إلزامياً. وقد خضعت الحياة النقابية والنشاط النقابي، عندهم، لقانون محكم، دقيق، تضعه الدولة وتشرف عن كئيب، على تطبيقه. فالنقابات المهنية في القسطنطينية تقع ادارياً، على رئيس الشرطة الذي يتوجب عليه ان يسجل الاعضاء في الحرفة المعنية ويرخص بانتماء أعضاء جدد اليها. وسرى، فيما بعد، ما هو عليه الوضع النقابي، في العالم الاسلامي. فمع ازدياد الطابع الديني للدولة في الاسلام، خضعت الحرف والمهن لادارة المحتسب ولاشرافه، وهو الموكل اليه، أصلاً، السهر على التقيد بالفروض والواجبات الدينية، والاعتصام بالآداب العامة، أي انه مشارك للقاضي من بعض الوجوه والصلاحيات، وتقوم الدولة بتعيينه كذلك، دون ان يكون للقاضي أي اشراف فعلي على وظيفة المحتسب. والشعور السائد، مع ذلك هو ان النقابات اجهزة تعمل من ضمن الادارة العامة اكثر مما هي تشكيلات عنوية، اذ ان هنا، كما في بيزنطية، ليست الجمعيات الشعبية التي تنتظم سلك الجماهير، مهنية قط. ولا يبدو قط ان النقابة تكون، عند رؤساء الورش، الاطار العادي لحياة « معلم الكار ».

ومما تكن عليه طبيعة هذه النقابات، والقانون الذي تخضع له يحمل الطابع الاقتصادي الواحد، ويهدف الى غرض واحد، الا وهو الحؤول دون المنافسة وتأمين شيء من الاحتكار للحرفة الواحدة، الامر الذي يفرض القول بوجود سوق ضيقة غللاً بسرعة، وبتعديد الاجور والصفات التي يجب ان تتوفر في صاحب المهنة، تأميناً لمصلحة المستهلكين والمنتجين، على السواء، بعد ان يصبحوا في مأمن من كل مزاحمة أو منافسة. هذا ام ما جاء من احكام وتوصيات في كتاب *Livre des Préfets* الذي اشرنا اليه اعلاه. اما في الولايات والإرياف، سواء في بيزنطية أم في العالم الاسلامي، فالامر لم يكن على مثل هذه الدقة، اقله فيما يتعلق بالاجور والاسعار، بعد ان يكون المحتسب اخذ على عهدته، تحديد الأجور، وتحرير المكاييل والموازين والسهر عليها من الزيف والتلاعب. وعندما تعمل الصناعة تلبية لحاجة سوق في الخارج، تضفي عليها المراقبة من قبل الادارة، ضماناً أكبر لحسن الانتاج واتقانه.

اما في المدن فالمهنة أو الحرفة لها اختصاصها وعترفوها. واصحاب المهنة الواحدة يعملون في سوق واحدة أو في حي واحد، وعلى هذه الوثيرة سار الغرب فيما بعد. والروح النقابية هذه تغفلت بعبداً بين الموظفين الاداريين واصحاب المهن الحرة. ويخضع لرئيس المهنة العمال المتدربون والعمال المياومون، واصحاب المرتبات المعينة، حتى العبيد الارقاء، في بيزنطية، حيث كان يسمح لهم بممارسة بعض المهن، على مسؤولية اسيادهم الذين كانوا يحتفظون لانفسهم، بقسم من اجورهم. وعلى الاجمال، فالعمل اليدوي هو بيد اصحاب الحرف والمهن، سواء في المدن أو في الريف، في كل ما يصون مصالح سيد الارض. واصحاب الحرف لا يشاركون، الا ما ندر، في الاعمال الزراعية، فقد نظر الفلاح الى الرقيق نظره الى ابن المدينة، لا يراه الا عندما يحضر مطالباً، بكل خشونة، بحصة سيده من الغلال. ففي الورش العامة، يؤلف العمال المياومون

القسم الاكبر من اليد العاملة ، بينما لا يكون الارقاء سوى قلة بينهم ، يتصرف بهم سيدهم وفقاً للحاجة ومقتضيات العمل .

كثيراً ما غصت المدن بثالة السكان تتألف من الافاكين ، والشطّار ،
والدجالين والحطّفة والسرقه ، يتحيل الواحد منهم في عيشه على المغفلين ،
ويقتاتون من فئات موائد الاغنياء ، كما في روما قديماً ، وكما هو الوضع في بعض مدن الشرق
اليوم ، حيث عدد السكان هو اكثر بكثير مما تتمّ عليه اهمية الوضع الاقتصادي فيها .

فالمدينة ، في الاسلام ، ابتعدت كثيراً عما عُرف لها من هندسة وتخطيط في عهد اليونان
والرومان . فلم تحتفظ بما كانت عليه من شوارع واسعة عريضة تسير في اتجاه واحد مشترك ،
ولا بالوسط المحوري الذي كان يؤلف منها قلب الحياة المدنية والاقتصادية . فباستثناء القيصرية ،
التي هي سوق الاقمشة والبزازين ، والتي بقيت قائمة في قلب المدينة ، انتقلت الحركة التجارية فيها
بالاحرى الى الاطراف ، الى خارجها ، اي ابوابها البرانية . وكثيراً ما قام محل الساحة العامة
المكشوفة مسجد كبير . وقام في المدينة الواحدة ، المتفرجة الشوارع والازقة ، احياء عديدة كاد
الواحد منها يستقل تقريباً في عزلته ويقنع بما يقدم فيه من حركة مها انكشت معالمها . وتفتح
البيوت في هذه الاحياء من الداخل ، على افنية مكشوفة بينما تدير ظهرها للشارع في جدار أهم
لا ثغرة فيه ولا نافذة . ومع ذلك حذار من ان نفلو في تقييم الصورة المرسومة . فالمدينة القديمة
التي لم تتميز دوماً بتخطيط هندسي مبسّط ، لم تتبدل معالمها بالسرعة المرجوة ، ولا بالقدر
اللازم . فانقسام المدينة الى حارات او احياء لم يحل قط دون قيام نشاط جماعي فيها امتد الى
جميع اطرافها . فقد لا تقع منا العين على معالم للتجدد جديدة بالذكر او التنويه ، الا انه يبرز
في كثير من هذه المدن ، كدمشق وبغداد ، مثلاً ، شبكة بمتازة من الاقنية البديعة لجر المياه ،
وايصالها الى جميع الاحياء ، والاكثر من سبل المياه والاحواض فيها ، وبالتالي من الحمامات
المومية .

وهذه التقسيمات الادارية التي كانت عليها المدن في عهد الامبراطورية البيزنطية الاعلى ،
يبدو لنا انها مثلت دوراً بارزاً في هذه الاضطرابات التي كانت تلشب ، الفينة بعد الاخرى ، في
القسطنطينية وتهزها بعنف . وقد عرفت المدن الاسلامية مثل هذه التنظيمات والتقسيمات التي
جاءت استمراراً لما عرفت من امثالها قديماً . فقد قامت في المدن السورية ، منذ القرن العاشر ،
منظمات الاحداث يتولى افرادها السهر على الامن والهدوء ، وهي منظمات كثيراً ما قام الاعضاء
المنتمون اليها بمحركات انتفاضية عندما كانوا يأنسون ضعفاً او تراخياً من جانب صاحب
السلطان ، وذلك تعبيراً منهم عن عدم رضى المواطنين ، او عن وجود غليان فكري بين
الناس . ومن جهة اخرى ، نرى في عدد كبير من مدن ايران ، وفي بغداد بالذات ، منظمات
اكثر تعقيداً في نظمها ، تعرف عندهم باسم « الفتوة » التي تلبد ، من حيث الاشتقاق ، معنى

الاحداث ، واعضاؤها « الفتيان » ، وهي منظمة وعت الكثير من عادات العرب واخلاقهم قديماً ، كالشجاعة والجرأة والجود والمصيبة او التضامن . فاذا كان المصطلح عربياً ، من حيث الوضع والاشتقاق ، فمدلوله يتم عن تشكيلات يعود اصلها لمهد الدولة الساسانية ، فقدت الكثير من عروبتها او سماتها العربية . فبمعزل عن الاسرة والقبيلة ، يتعاون افرادها على العمل معاً ، كما يتعارفون فيما بينهم على كل ما يؤمن لهم الرفاهية والاشراج والترويح عن النفس ، وكلها اهداف لا تتم على شيء من الامور الدنيوية . والى جانب هذه الفئة ، نرى طبقة الميادين ، وهي طبقة تتألف من جمهرة البائسين والمموزين الذين لا قوام لهم ، ولا سند ، يهيمنون على وجوههم ويتطفلون على موائد الناس ، وقد يقومون بحركة سجنس من وقت الى آخر ، فتثاقل وطأتهم على الاشياء الغنية ، ويطالبون بمحلمهم من شرطة المدينة ليحصدوا من وطأتها . ومع ذلك نرى هؤلاء الفتيان ، يصحبون في القرن التاسع ، نقطة الثقل لتجمع فئة الميادين ، فينظمون انفسهم في وحدات غير قانونية . فالمدلول الادبي لهذا التضامن الذي يدين به الفتيان ، لا يتنافى مع حق او واجب سرقة الاغنياء واستخلاص ما يرغبون في استخلاصه من ارزاقهم ، والا فكيف نستطيع ان ندرك او نفهم تصرف هذه الطبقة من اللصوص الاشراف الذين يسرقون لمساعدة غيرهم . وقد عرف الفتيان في القرنين العاشر والحادي عشر ، مواقف سيطروا فيها على الوضع السياسي في البلاد ، اذ كثيراً ما اصبح رئيسهم ، كما هي الحال تماماً عند الاحداث ، رئيس الشرطة ، في المدينة .

وحياة الناس في الريف اصعب إحاطة بها من الحياة في المدينة
حياة الريف في البلاد الاسلامية
التي اصبحت مسادة التاريخ الاسلامي الاولى والمعين الاول
لمصادره المختلفة . فالريف هو قوام الحياة منها ، يمدّها بمحاجتها من القمح وبغير ذلك من الفلال والمحاصيل . فهي لا معنى لها بذاتها ، ولا بدون الفلاح او المزارع الذي يصمم مع ذلك تحديد عمله في المجتمع البشري . فبين المدينة والريف ، لا محل لحركة تبادل تجاري . فالتجار يتعاطون الاعمال بين مدينة واخرى ، والارباح التي يحققونها ، يجب ردها ، بعد كل حساب ، الى المنافع التي يمنحها سكان المدن الاغنياء ، من عمل الفلاح والشفل الذي يقوم به . ولكن مقابل ذلك لا يتلقى الريف شيئاً من المدينة . فالسكن فيه ، والغذاء ، واللبس والادوات ، كلها امور في غاية البساطة ، تدبر محلياً .

فليس من دواع بعد هذا ، للتبسط والاستغاضة في تبين ما كانت عليه الوسائل الفنية في الزراعة من طابع بدائي ، اذ لم يطرأ عليها اي تطور اساسي منذ التاريخ القديم حتى القرن العشرين . ومع ذلك فقد شجع الاسلام أقلية بعض المزارعات ووطنها في اماكن جهلت زراعتها من قبل . فقصص السكر ، وزراعة التوت الذي عليه ثقتات دودة القز او الحرير ، دخلت فنون زراعتها الى الغرب . والاساليب الفنية التي عولوا عليها في ري الاراضي ، في الشرق ادخلت الى الاندلس وراجت فيها ايمسا رواج . ونمو المدن ، وتكاثر السكان ، زاد من

شدة الطلب على المواد الغذائية . فقد كانت عمارات كثير من السفن تخمر دجلة ناقلة المواد الغذائية الى بغداد . ومع ذلك فلم تؤد هذه الحركة الى أي تحسين يذكر في حياة الفلاح ، وبالتالي في حياة الريف .

فالنشاط الزراعي هو ابدأ رهن بحاجة الاراضي والناس للقاء . وكانت مسؤولية الادارة الاولى تأمين الاعمال والاشغال التي تومن وصول الماء من الآبار او الانهر ، واسالته الى حيث تشتد الحاجة اليه . واساس الضريبة على الاراضي ونسبة الوسوم المفروضة على المزارع تختلف باختلاف طبيعة الارض ونسبة ما هي عليه من ري طبيعي او سقاية . فالاراضي المشجرة تؤلف طبقة خاصة . وتربية الماشية كانت تجري على نطاق ضيق ، والفلاحة لم يكن يقتضي لها جهداً كبيراً ، بينما أهمل امر تسميد الارض بالاسمدة الطبيعية . والظاهر ان صناعة الالبان ومشتقاتها كانت ، مع الحنطة ، اهم ما يعمل عليه الانسان في امور غذائه .

وكانت تربية الماشية جل ما يعتمد عليه البدوي في امور معاشه . فالبدو الرحل منهم اعتمدوا تربية الجبل ، بينما اتخذ البدو الظواعن ، عباداً لهم تربية الاغنام ، يظعنون بها طلباً للكلأ والعشب مع تقلبات فصول السنة . والتعاون المشترك بين البدو والحضر هو من الامور الحيوية في العالم الاسلامي ، وهو في ايران اقل منه في البلاد العربية الاخرى ، قبل هجرة الاتراك الذين وحدوا من مظاهر الحياة في البلاد . فقد قام الجانبان بتبادل محاصيلهم . ففي الازمنة والاقطار التي طفت فيها الانقسامات والتحزبات السياسية كثيراً ما فرض البدو على سكان المدن تقديم العوائد المينية . والاملاك الواقعة عند الحدود ، كان استثمارها ينتقل مناوبة وبصورة مطردة ، بين البدو واهل الحضر ، الا ان اختلاف انظمة الحكم ، والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تقع ، كثيراً ما ألحقت تغييرات اساسية في نسبة سكان الحضر والبدو ، على السواء ، وبالتالي بين المناطق التي اعتاد البدو ارتيادها والمناطق الاخرى التي كان يستقلها سكان المدن . وكثيراً ما تحول اهل الظعن الى مزارعين ، وهو وضع كثيراً ما نظروا اليه نظرة هزاء وازدراء ، واعتبروه محطاً لهم . وعندما يستقر بهم المطاف ، ينزع زعماءهم للسكنى في المدن ، الامر الذي ساعدهم على تعاطي الحياة الريفية دون ان يقوموا ، هم انفسهم ، بامور الفلاحة .

ونود كثيراً ان نعرف فيما اذا كان الازدهار الاقتصادي ادّى الى اي تحرر أو تحسين في حياة الريف ، او ادى ، بعكس ذلك ، الى المزيد من ابهاظ الحياة وازراحتها . فالجواب الواحد لا يمكن ان يعبر تماماً عن الوضع الذي ساد واستبد في جميع انحاء العالم الاسلامي . ويمكن القول باختصار ، دونما اطلاق او تعميم ، انه حدث ، ولا ريب ، من جراء ذلك ، شيء من تركيز الملكية ، ومن التضييق على الفلاحين ، والى المزيد من الاحراج في وضعهم ، والامعان في البوس . فالسؤال الاول عن هذا المصير القاتم ، انما هو الطبقة البورجوازية التجارية ، واكثر منها مسؤولية ، الجيش نفسه . فالملكية البورجوازية التي عادت الى عهد بعيد ، سيطرت على

الحدائق والجنان والبساتين الواقعة قرب المدن ، وهي اقطان عرفت بفناها وخصبها مع ما هي عليه من ضيق المساحة او الرقعة ، كما انها سيطرت على مساحات عقارية واسعة شملت قرى بكاملها . فلم يكن من النادر قط ، ان نرى هنا وهناك ، في العهد الاول من الدولة العباسية ، الفلاحين يتمتعون بملكية قوية الجانب ، وهي ملكية لم يستطيعوا ان يحافظوا عليها فيما بعد ، الا بشق الانفس . فالظروف التي ساعدت على استمرار المشاركة في مزارعة الارض ، لم تعد تتوفر الا في المقاطعات التي توزعت فيها الملكية العقارية وكلفت تشغيلها غالبا ، الا انها كانت تعطي دخلا طيبا ، وتزخر بالسكان ، كما هي الحال في لبنان الماروني مثلا ... اما في غير اماكن ، التي كانت توفرها الاعمال التجارية ، فالارباح قد استخدمت في شراء الاملاك والاقطان العقارية ، وهي ملكيات نمت وازدادت على اساس نظام الجباية الذي عمل به اذذاك . وكان الفلاح عندما يروح فريسة العوامل الطبيعية او يقترض لأي حادث عائلي ، يقترض ، عادة ، من المالك المجاور له ، وعندما يرى نفسه عاجزا عن الدفع كان يرى من مصلحته الخاصة ، ان يتخلى عن ارضه للدائن واضعا نفسه وذويه تحت رعايته وحمايته ، ويعمل مزارعا عنده . ومع ان القانون لم يكن ليقر او ليعترف بآية عبودية تشد الفلاح الى ارضه ، كان الفلاح المسر الذي يمجز عن دفع دينه ، يتمدد بوفاء الدين بالعمل في الارض . فاذا ما حاول الهرب أو التهرب أو التملص ، امكن مطالبتة بما عليه ، لا سيما وان جميع سكان القرية كانوا مسؤولين ، جماعيا ، أمام ادارة الجباية ، عن جميع الرسوم المترتبة على قريتهم .

وقد عرف القسم الجنوبي من العراق تغييرات اخرى قاربنا من عهد الرومانيين . ولكن يجب الاحتراز من القول بتعميمها . كان كبار الملاكين في بغداد يستثمرون الاراضي الخصبة الواقعة على جنبات شط العرب ، ويزرعونها قصب السكر مستخدمين لها عددا كبيرا من الزنوج بعد ان تناقص كثيرا عدد الفلاحين ، يأتون بهم باعداد كبيرة من سواحل افريقيا الشرقية . تألف منهم جماعات تسكن افرادها في فقر مدقع والبؤس ، كما يشهد على ذلك كتاب العصر . وقد زاد هذا الوضع الفلاحين بؤسا بعد ان تعذر عليهم مقاومة هذه المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها . وقد ادّى الوضع المذكور ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، الى ثورة الزنج ، فانضم اليهم بدافع من الشعور بالتضامن ، عدد كبير من الفلاحين . وقد امكن ، بعد جهد طويل ، التغلب على هذه الثورة اسوة بثورة الزنج ، في عهد سبارة كوس ، بعد ان وضعوا الخلافة ادنى من قاب قوسين من هلاكها . الا ان هذه الثورة تركت في الطبقات الشعبية بذورا لم تلبث ان طلعت في انتفاضات عنيفة قامت فيما بعد .

وكان من جراء البؤس الذي غمر الريف ان توافد الناس على المدن ، ففصّست بسكانها وزخرت ارباضها بالوافدين عليها طلبا للعيش وفرارا من الضيق الخانق الذي اخذ بتلابيبهم ، مما ادّى الى اضطراب حبل الأمن في البلاد ، ولا سيما في هذه المناطق التي يأهلها الاكراد ، اذ كانت اعمال اللصوصية ضاربة اطنابها . فقامت في البلاد عصابات من شذاذ الآفاق تسلب المارة

وتبص كبار الملاكين وتقتصرم ، واستفحل خطرهما بعد ان انضم الى هذه المصائب عدد كبير من اهل البدو .

لما كان نظام الجيش مسؤولاً ، الى حد بعيد ، عن المصير المظلم الذي الجيند في البلاد الاسلامية آل اليه الوضع في الريف ، كان لا بد هنا من إلقاء نظرة الى الوراة تتحمل الجيش وتشكيله .

كان هذا الجيش عند الفتوحات الاسلامية الاولى يعني العرب ، يتأمن أودءه من المغامر والاسلاب ، ومن المرتبات والاعطيات التي تدفع له . غير ان بعض العناصر المقيمة باستمرار على الحدود ، تميزوا ببعض الشيء ، عن اخوة لهم في السلاح توزعوا على الحاميات في المؤخرة . الا ان توقف حروب الفتح ، وعدم الانضباط ، الذي نشأ في صفوف الجيش ، والتفاوت في التدريب المهني والتفني ، بينا كانت الحرب تتطور وترتدي اساليب لم يألها العرب من قبل ، والحاف الموالي بالطلبات ، كل هذه الاسباب وما اليها ، ادت كما رأينا ، مع الانقلاب العباسي ، الى إقصاء العرب واقصارهم على المرتبة الثانية ، تؤخذ منهم عند الحاجة ، بعض العناصر اللازمة للاعمال السريعة . فالعنصر الخراساني اخذ يؤلف نقطة الثقل في الجيش وقوامه الاولى ومادته الاساسية ، تدفع لهم المرتبات السخية . وهذا الجيش نفسه هو الذي شال ورجع ، في مطلع القرن التاسع ، بعد المارك المتتالية ضد الامويين ، كفة حاكم خراسان ، اذ ذاك ، على اخيه الأمين الذي كان يساند العنصر العربي في الجيش . وكان من الصعب ، وايم الحق ، على الخراسانيين الذين كانوا يشمرون بقوتهم ونفوذهم ، ألا يدلتوا لهذا النفوذ على غيرهم ويهبوا به ، او ان يبقوا محافظين على ولائهم ، نحو الخليفة ، في كل المناسبات ، فاهيك عن ان تجنيد عناصر تم لها الاستعداد الفني والسلوكي ، لم يكن دوماً بالامر اليسير ، وهو امر يمكن نكرانه او التشكك فيه ، الا في بلاد البربر حيث كانت طبيعة المارك والحروب ، تتطلب الاعتماد على الخيالة الثقيلة والتحويل عليها ، مما كان يقتضي له تدريباً اكبر واوسع . وكانوا يحاولون ضد صفار القوم للعمل في الجيش ممن لم تكن لهم طاقة على شراء حاجتهم من الجياد والعقاد .

وفي الربع الثاني من القرن الثالث ، تمت خطوة ثانية ، الى الامام ، وذلك بتدبير من الخليفة المعتمد . فازدهار التجارة ، والمجاء حركتها نحو البلدان الشمالية ، سهل اقتناء الكثير من الارقاء والعبيد ، من سكان هذه البلدان ، ولا سيما من بين الاتراك منهم الذين اشتهروا بتقاليدهم الحربية ، حيث كان الاهلون يتخلون بارتياح ورضى عن اولادهم ، رغبة منهم في تأمين مستقبل افضل لهم عن طريق الخدمة في جيش المسلمين ، حتى ان قتالهم كانت لمحارب بعضها بعضاً وتتقاتل فيما بينها طمعاً في اسرى يقومون بين ايديهم ، فيبيعونهم ببيع التماج في سوق النخاسة ، كما جرى ذلك من بعد ، لرؤساء القناصل من العبيد في افريقيا . وهكذا ضم جيش الخليفة وحدات من العبيد اخذ عددهم يتكاثر وينمو بما يردفه من الاحداث الارقاء ، بعد ان يتم تدريبهم

في القصر، وتخرجه في أمور الدين والجيش، ويدبروا على أعمال الحرب وفنون الكر والفر. أما ما تبقى من وحدات الجيش فقد كانت تتألف من أبناء البلاد، ولا سيما من بين العناصر الحشنة الطباع، شأنهم شأن العبيد الأتراك، يعملون تحت إمرة ضباط رؤساء من أبناء جلدتهم. وبعد أن يرقوا المراتب، ويصبحوا في مصف الضباط الأعلى، ينهجون، معتقدين كانوا أم عبيداً، حياة تختلف كثيراً، بما تم لهم من أسباب الرفاء والقوة والسيطرة، عن حياة معظم أحرار الرجال، إذا ما شئنا أن نسقط من كل حساب، العبيد العاملين في الأعمال المنزلية.

والاقطاع والوقف وهذا الجيش الجديد، كان أكثر كلفة ونفقة، بالطبع من الجيش القديم فالخليفة، كالأباطرة الرومان بالنسبة لقائد الولاية، كان جل اعتماده على الجيش، كما أن مصيره كان يتوقف، إلى حد بعيد، على ولاء هذا الجيش له. وكانت معرفة هذه الأمور لا تفوت الجيش، ولذا لم يكن ليتورع في مطالبه والتشدد فيها. فبيت المال لم يكن يستطيع الاعتماد على دخل مطرد بحيث يمكن له مواجهة دفع مرتبات عالية. ولهذا كان أفراد الجيش يفضلون أن يُعطوا بعض الأتليان التي تدرّ عليهم مزيداً من الدخل والأرباح يطمئنون لها ويعملون عليها أكثر من تمويلهم على مرتبات يقتتر صاحب السلطان في دفعها. ولهذا الأسباب، كان لابد من خصم بتوزيعات خاصة من الاقطاع، كان الخليفة، إلى هذا العهد، يتصرف بها للذين يلاقون عنده حظوة خاصة. ولم يكن هذا التدبير وحده كافياً، إذ إن كمية الأراضي التي أمكن للخليفة التصرف بها، كان يحد منها اتساع الأملاك الأميرية، ولم يكن من الممكن انتزاعها من أيدي الذين صارت إلى ملكيتهم منذ عهد بعيد، ومنذ بدء القرن العاشر، أخذوا يوزعون على الجنود، تحت اسم اقطاع، الرسوم المستوفاة عن الأملاك الخاصة، ليس فقط عن طريق مرتبات عهد إلى مأمور بيت المال، أو إلى متعهدي الأملاك الأميرية، بدفعها لهم، بل أيضاً بالاعتراف لهم بحق استئجارها واستيفاء رسومها بعد أن تتغلى الإدارة عنها لهم. هذا بعض ما كان عليه الوضع، أقلته في سواد العراق وفي غربي إيران. أما المناطق الدائرية الأخرى، فقد سارت الحركة فيها بتمهل كلي، كما اختلف الوضع كذلك في الولايات التي بقي الجيش يمول في تشكيله، على القبائل التي بقيت تقاليد الحرب فيها قوية، كبلاد البربر، مثلاً.

وعلى كل، فقد آل الأمر إلى كارثة على الدولة وعلى سكان الريف معاً. فالدولة فقدت، إن لم يكن بالفعل، فاقله بالاسم، الاشراف الإداري على قسم متزايد من الأرض كما فقدت الإشراف على جانب من الفيء. فبعد أن جهل أسياد الأرض الجدد ومن يعمل فيها من المزارعين، كل شيء يتعلق بكيفية استثمار الأرض والوسائل المساعدة على ذلك، فلم يعد لهم من هم سوى الاتراء بأسرع ما يمكن، سيان عندهم أفقرت الأرض أم اجذبت، طالما كان بوسهم استبدالها بقطعة غيرها أكثر عطاء وقلل إمساكاً. وبعد أن أصبح الجنود أسياد هذه الاقطاعات، رأوا أنفسهم يتمتعون بالثروة والقوة. فقد كان من اليسير على الملاكين البورجوازيين أن يرغبوا صفار

الفلاحين أو متوسطيهم ، على طلب حمايتهم ، وحلهم على التنازل عما يملكون من عقار ، طمعاً منهم بمحايثهم ورعايتهم . فاذا ما استطاعت الملكية البورجوازية ، ان تحافظ على شيء من نشاطها في المناطق التي اشتدت فيها حركة تجميل المدن ، فتد اضطرت للتخلي عن جانب كبير من هذه الاقطان ، لهذه الطبقة الارستوقراطية ، العسكرية والمقارية ، التي طلعت من جديد .

ومما هو أنكى من ذلك ، الخطر الذي كان يروح على كواهل الدولة . فالنظام الاداري الذي عمِلَ به في عهد اوائل الخلفاء العباسيين ، كان ينص ، كما سبق واشترنا الى ذلك من قبل ، على وجود قائد للجيش وحاكم اداري ، في كل ولاية ، يستقل الواحد عن الآخر في ما له من صلاحيات وما يقع عليه من مسؤوليات . فلا يستطيع الأول دفع مرتبات الجند العاملين تحت امرته الا من المدفوعات التي يقدمها له الحاكم المدني ، بينما لا يستطيع هذا الأخير النهوض بمسئولته من شغل الا بالاعتماد على الجيش وقائده ، والدولة في شبه اليقين من ولائها لها . أما الآن ، فقد اتجه هم كبار القادة في الجيش الجديد ، للسيطرة على الادارة المدنية ، والتصرف بمصلاها ، بين تميين عزل ومراقبة ، والتصرف على هوام بموارد الدولة يوزعونها على الجند أو يحتفظون بها كما يشاؤون . وهكذا لم يلبث قائد الجيش ، في الولاية ، معها حافظ على الشكليات ، ان اصبح السيد المطلق . ولم يفت الوضع على الخلفاء ووزرائهم معها بلغت منهم الغفلة ، فراحوا يحاولون الحد من الامر . ولكن ما ان تندلع ثورة أو تبدر في الولاية حركة انتفاضية حتى يستنجد ذوو الامر بصاحب الجيش لاختاد الفتنة ، فيضطروا للتسليم مرغمين ، بسا رفضوا التسليم به من قبل . واذا ما رغبوا في استعادة ما سلموا به ، كان عليهم ان يُنْزِمُوا بذات الامتيازات ، على من يصطلفونه ، لاعادة الامر الى نصابه . وهكذا أطل الخطر على وحدة الامبراطورية من خلال مطامع العسكريين ، ومن هذه النزعات القومية التي كان يتمخض بها سكان البلاد الاصليون .

وبالرغم من الغلبة التي تمت في النهاية للارستوقراطية العسكرية ، بعد ان خلصت من شأن القطاع التجاري وجعلته في المرتبة الثانية بالرغم مما كان يمثل من قوة ، والذي كثيراً ما استعان باموال العسكريين لتحقيق ما كانوا يقومون به من اعمال تجارية ، يحمل بنا ان نجانب المغالاة في تصوير قوة البورجوازية . فمما بلغ من نشاط هذه الطبقة ومن حيويتها ، فهؤلاء التجار ، سواء في العالم الاسلامي او في الغرب ، لم يكن نفوذهم ، معها بلغ من قوة ، بالمعامل الاكبر في خلق الامبراطوريات الواسعة .

وبالفعل فقد افضى التخصص المسلحي في الجيش وتشكيله العنصري الى التفريق بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية : كمسائل التوجيه ، الوظائف الادارية . فقد كان 'يعيش' بهذه ، الى المواطنين الاصليين من سكان البلاد ، وبذلك الى عنصر اجني دخيل عليها . وقد حل محل

النظام الاسلامي القديم نظام احتلال عسكري ، بلغ اشده مع فتوحات الدولة السلجوقية ، الا ان معالم هذا التطور برزت بوضوح ، منذ القرن التاسع .

وفي الوقت ذاته ، برز الى جانب الملكية البورجوازية ، والعسكرية وطلع من تفاعلها ، نوع آخر من الملكية ، كُتِبَ لها ان تلعب ، فيما بعد ، حتى في التاريخ الحديث ، دوراً متزايد الاهمية ، الا وهو نظام الوقف او الحبوس . وقد كانت نواة هذا النظام ، وهذه الاملاك والاقطان التي صارت ملكيتها الى رجال الدين ، من أبناء الطوائف الاخرى التي لم يمسها الاسلام ولم يُلغِها . غير ان الوقوفات التي كان يهود بها المسلمون تلبست لبوساً شتى ، أفاد منها افراد المجتمع او بعض الهيئات والمؤسسات العامة . ففي الحالة الاولى ، أدّى النظام الى حفظ تركة ذرية خاصة وصيانتها من الضياع ، وان كانت ، اجمالاً ، صغيرة ، لا كبير شأن لها ، وذلك بحجة تأمين اسباب العيش لأسرة فقيرة ، وبذلك يحيل دون توزيع التركات . اما في الحالة الثانية ، فقد كان الغرض من الهبة دعم عمل خيري ، او اقامة بناء ديني ، كمسجد ، مثلاً ، او ذات منفعة عامة ، كالحمامات والمستشفيات والخانات ، اذ لم يرد نص قانوني على صيانتها والمحافظة عليها . وقد يفيد من هذه الوقفية اسرة ما من الاسر عندما يعهد اليها بإدارة الوقف وباستيفاء ما يدره من عطاء . وقد شاعت عادة الوقف للأفراد وذاع استعمالها ، وهو يتألف ، على الاجمال ، من اطيان وعقارات وأشياء اخرى غير منقولة ، اذ انه كان من المحظور ، على الواقف ، في بدء الامر ، في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقف املاك منقولة . ويبدو ان التبرعات للمؤسسات العامة لم تكن مهمة قبل القرن الحادي عشر . وكان الوقف على الاجمال وضيع الشأن اذ كان في مقدور الملوك والامراء وحدهم ، واصحاب المراتب العليا ، في البلاط ان يقوموا بتبرعات ووقوفات لها اهميتها . ومع ذلك ، فلم يلبث ان اصبح للوقف شأن كبير ، كما لحق ادارته شيء من التشدد والتعرج ، الامر الذي أفسد تحصيله ، من الوجهة الاقتصادية ، فأدّى الى اهماله .

وقد اخذ المجتمع البيزنطي يتطور هو الآخر ، متبعاً الاتجاه ذاته الذي
المجتمع البيزنطي سار عليه التطور في العالم الاسلامي ، وان تميز ببعض الميزات الخاصة به . فالاملاك والاقطان الخاصة بالبورجوازية التي لم تتركز على ثروات عائلية تجارية ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، لم يكن لها شأن كبير . فالثروة العقارية التي كانت تحت تصرف النبلاء ضوّل شأنها من جراء الغزوات التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية . وهكذا برزت في المرتبة الاولى ، حتى القرن التاسع ، الملكية الكنسية التي حاول الباطرة الذين قالوا بتعظيم العصور منهم ، حتى نيقفوروس الاول ، عبثاً ، الحد منها . ولم تلبث الملكية العلمانية ان استأنفت تطورها المساعد بالسبب التي ضعف فيها شأن طبقة الفلاحين ، في كل من الامبراطورية البيزنطية ، في عهدها الاعلى ، وفي العالم الاسلامي ، اذ ذاك ، امام تزايد عظماء الدولة شأناً . فقد احدثت موجة الغزوات ، حركة تراجع وقهري ، دون ان تلتحق بحركة التطور ، أي تغيير او تحول

يذكر . غير ان اضطراب حبل الامن ، وتراكم الديون ، برّياً او بغير ربا ، وجشع عظماء الدولة وطمعهم الاشهي ، كل ذلك وما اليه ، أدّى بالتالي : الى بيع الفلاح التركية المقارية التي وصلت اليه بالارث ، والى استخذاء المستضعفين والتأسهم عطف الاقوياء ، كما ان العجز عن الدفع أدّى الى شد الفلاح وربطه بأرضه ، والسلطة التي توفرت للمسكرين ساعدت على توسيع ما لهم من الاملاك الواسعة والاطحيان والعقارات ، فلتشأ في قلب آسيا الصغرى ، منطقة اصبحت تنعم تقريباً بالطمأنينة ، إلا انها ما زالت مع ذلك ، المجال الاكبر للجهاد من كلا الجانبين ، وفيها تمت أكبر ملكيات من الاطحيان لضباط الجيش الذين كان معظمهم من أبناء البلاد الاصليين ، تغطي الواحدة منها باتساعها ، ولاية برمتها ، كما حصل للأسر الشهيرة من آل فوكاس ، وسكليروس ، وما لينوس وكومينيس ، بحيث استطاعوا ان يلقوا بوجه الامبراطور نفسه .

وقد عاد هذا الوضع بالحيف الكبير على الدولة نفسها ، اذ فقدت الكثير من دخلها ووزاراتها ، بعد ان عجزت عن إرغام عظماء القوم على دفع ما يترتب عليهم دفعه من رسوم وضرائب مفروضة على الاراضي التي اضطر للتخلي عنها صفار الملاكين ، كما أسقط في يدها عندما ارادتهم على التزام حدود الاحتكارات العامة ، عندما يعمدون لتصرف محاصيلهم . كذلك فقدت الدولة كل سلطة لها ، وراح عظماء القوم واكابرهم يتحدّون الحاكم في القضية التي تصدرها ضدهم . كذلك فقدت وحدات جيشها بعد ان اخذ هذا الجيش يعتمد في تشكيله على طبقة الفلاحين الاحرار . فالوحدات التي كان هؤلاء العظماء يشكلونها من بين الفلاحين التابعين لهم ، لم يكن لها من كثرة المدد ، ولا من الولاء للامبراطور ما كان للجيش قديماً . ولذا جاءت ردة الفعل من قبّل حكومة الامبراطور قوية وسريعة جداً ، طوال القرن العاشر ، ضد تضخم الملكية المقارية ، كنسية كانت ام علمانية . فقد حظر القانون على كبار الملاكين شراء اراض الفلاحين ، واحاد الى هؤلاء الاملاك التي اغتصبها منهم مفتصبوها بالحيلة او بالعنف والاكراه ، وفرض على العظماء ، في هذه المجتمعات المسؤولة بالتكافل ، امام بيت المال ، الضرائب التي لم يكن في مكنة صفار الملاكين حملها والقيام بها .

كل هذا لم يحدّ قتيلاً . فنذ القرن العاشر راح يعض الاباطرة ، امثال نيقوفورس فوكاس ، ويوحنا كزيمينيس ، من الارستوقراطية العسكرية يملكون باليمين ما يهدمون باليسار . فتجاء تطور السلاح الثقيل ، لم يعودوا يكتفون الا بالملكيات المتوسطة الحجم بينا ضحوا بالصغيرة منها التي فقدت كل قدرة لها على الاحتمال ، والنهوض بما يترتب عليها من واجبات . ففي اواخر القرن المذكور ، اتاحت المناهضات التي نشبت بين العظماء ، وامكانية الحروب مع الخارج ، للامبراطور اللشيط باسيل الثاني ، ان يتغلب على هذه الثورات التي نشبت في عهده ، وان يقوم بمصادرات كثيرة ، فيكبح من جماح الارستوقراطية ، وبشد من شكينتها . وقد اخذت هذه الحركة تتطور بسرعة أكبر ، في القرن الحادي عشر ، وهي حركة شابهت الحركة التي قامت في العالم الاسلامي ، وان تأخرت عنها قليلاً ، مع فاروق وحيد هو ان الامبراطورية البيزنطية استهدفت ،

لصفرها ، للعديد من محاولات الانقلابات ، يقوم بها العظماء للاستيلاء على الحكم والاستبداد به ، وليس لتوسيع رقعة الامبراطورية او لاقتسامها ، لما كانت عليه من متانة الجانِب ، والتضامن العنصري والتناكس الديني ، ولبقاء الجيش معتصماً « بالروح الوطنية » .

الممل والنحل الاسلامية
ادى اشتداد النزعات الاجتماعية في العالم الاسلامي الى استفعال امر
الممل والنحل التي تلبست مظاهر دينية اسلامية بينما اخفت في ثناياها
مطالب ودعوات قومية مبطنة . واتسعت الفروق بين هذه الممل ، يوماً بعد يوم . فالخوارج لم
يحافظوا على كثرة عددهم الا في بلاد البربر حيث استفعال منهم الامر ، واخذ يتلبس شكل
دكتاتورية جماعية بزعامة آل رستم الذين ألقوا ، في اواخر القرن الثامن ، اماره لهم في مقاطعة
تباريت (ولاية وهران اليوم ، في الجزائر) وستمهد هذه الفرقة السبيل لظهور الحركة التي قام
بها « رجل الحمار » في منتصف القرن العاشر ، ضد الفاطميين . وقد اقتصر عملها ، في البدء ،
على بعض الواحات الواقعة في القسم الشمالي من الصحراء ، وثم في مقاطعة المزاب ، ومنها اخذ
اتباعها ينتشرون في الجزائر .

اما الشيعة ، فهي التي استقطبت ، في الشرق ، جميع الناقين على الدولة ، بعد ان انقسمت
الى عدة فرق ونحل اشتدت بينها المنافسات الشخصية ، وبرزت الفوارق العقائدية والمنافسات
الاجتماعية العنيفة ، وظاهر الاختلاف انحصر في شخصية الائمة الذين ينحدرون ولا شك ، من
سبط علي بن ابي طالب ، الا انهم يختلفون في بُنوتهم منه . الا ان سوء سلوك بعض العلويين ،
والاختلافات العقائدية التي نشبت فيما بينهم ، اوجدت بين الجماعة شعوراً بأن سلسلة الائمة
انقطعت عند اختفاء الامام الاخير وتواريه ، دون ان يكون مات ، وسيمود يوماً بشخص
المهدي ، على شاكلة المسيح المرتجى ، في النصوص الكتابية ، قبل انقضاء الدهر ، ليملا العالم
عدلاً وسلاماً . ولذا ، لا يمكن ان يقوم على ادارة الجماعة سوى قادة يتولون الامر انتداباً
او بالوكالة ، ليحافظوا مع علماء الملة على نقاء العقيدة ، وكلها امور تناقض تماماً ما اجمع عليه
اهل السنة . فالثورة عليها لا تجدي قتيلاً ، ولا تفضي الا لانهلال الجماعة . ولذا كان من الافضل
التقيد بالعقيدة الرسمية ، والاخذ بالتقية .

قلنا ان فرق الشيعة تباينت فيما بينها . فمنها من رأى ان الامامة الشرعية تقف عند الامام
الحامس زيد ، الذي مات سنة ٧٤٠ ، وقام اتباع هذه الفرقة بثورة عارمة ، في منتصف القرن
التاسع ، فانشأوا في طبرستان (مازدران) الى الجنوب من بحر قزوين ، كما انشأوا في اليمن ،
امارتين لا تزال الثانية منها قائمة الى يومنا هذا . فتعاليمهم وفقهم لا تختلف كثيراً عن عقيدة
السنة وفقها ، الا انهم غلبوا على امرهم امام شيع أخرى .

اما الشيعة الامامية ، فعدد الائمة عندهم ١٢ اماماً آخرهم الامام محمد ، في اواخر القرن
السابع ، فهم يتميزون عن السنة بانتظارهم المهدي ، ويقولون ان جوهر الألوهية ، ينصب في

الامام ، كما يختلفون معهم ببعض الاحكام الفقهية كزواج المتعة او الزواج الموقت .. وقد انتشرت هذه الشيعة في ايران ، ولا سيما بين الديلم ، وبين العرب من سكان العراق وسوريا الشمالية ، وتغلغلوا على نطاق واسع بين طبقة التجار ، الا انهم بقوا شبه مجهولين في الغرب ، وفي مصر . صحيح ان بعض زعمائهم الدينيين قاموا احيانا بثورات لاهية ، دون ان يفعلوا ذلك باسم تعاليمهم الدينية ، ودون ان يحجروا وراءهم اتباعهم . وهكذا بقي اثرهم السياسي ضعيفا .

ويختلف عن الشيعة الامامية ، الشيعة الاسماعيلية التي يقف الائمة عندهم عند الامام السابع اسماعيل بن الصادق ، وهو شقيق الامام موسى الكاظم ، كما هو حسب ترتيب الائمة عند الامامية . فالاسماعيلية التي حافظت ، ولو ظاهريا ، على العقيدة الاسلامية ، اخذت الكثير من تعاليم الافلاطونية الحديثة والقول بالاشراق وهي مبادئ شاعت في بلدان الشرق الادنى ، قبيل الاسلام بقليل . فهي تشرح آي القرآن على اساس من التورية والرمزية ، بحيث ان الاديان لديها كلها سواء تقريبا . فالانتقال من الله الى الانسان ، انما يتم على سبعة ادوار او مراحل : اولها الله ، ثم العقل الكلي الذي تجسد تباعاً في سبعة أنبياء ، سادسهم محمد ، وسابعهم ابن الامام اسماعيل الذي توارى ، حوالي عام ٨٧٠ . وبين كل نبي ونبي ، سبعة أئمة ، اولهم بعد محمد ، علي ابن ابي طالب ، اما الفاطميون فهم ائمة النبي السابع . وهم يعتقدون ان الامام معصوم ، وهو ملك النفوس كما انه سيد الناس اجمعين . اما الخلاص والنجاة ، فأشياء لا تعني شيئاً كبيراً عند الاسماعيلية ، بعد ان سلموا بتناسخ الارواح او التقمص . وهكذا ابتعدوا عن جادة الاسلام .

يظهر مما تقدم ، ان عدداً قليلاً جداً من الاقباع والمريدين استطاع فهم هذه التعاليم واستمراها . فقد كان على المريد ان يمر بسلسلة من التعاليم السرية ، لا يبلغ منها القمة إلا فريق مختار . وتعاليمها تبقى سرية ، ويقوم بالدعوة لها جيش من المبشرين الداعين (جمع دعاة) يحوون العالم لنشر الدعوة ، ودعوة الناس للاستعداد والتهيؤ ، بعد ان اقترب موعد مجيء المهدي ودنت نهاية العالم . وقد انتشرت تعاليم الاسماعيلية ، بين الطبقات الشعبية ، سواء في المدن او الارراف . وتألفت منها جمعيات مهنية ونقابات على اساس من مبادئها التي كانت محوراً لتنظيماتها . وفي الهيئات السرية التي نشأت فيها ، جماعة « اخوان الصفا » التي نعرف الكثير من تنظيماتها عن طريق « رسائلها » . وهذه الرسائل عبارة عن موسوعة للعلوم والفنون في ذلك العصر . ووجدت الاسماعيلية موطناً لها في الهند وبعض الحماة فارس وأفغانستان ، وفي زنجبار وأفريقيا الشرقية .

ومن الحركات الهدامة ، في الاسلام ، حركة القرامطة ، وهي تحلة قامت على اساس من المطالب الاجتماعية والتعاليم الدينية ، هزت بما أته من الحوادث الدامية : الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق وايران والهند ، وتركت في اذهان الناس ، ولا سيما المثقفين منهم ، ذكريات مريرة لما جرفته على البلاد من ويلات ودمار . وقد امكن كبح جماحها او حصرها في مناطق

ضيقة لا يخشى من شرها . وخوالي عام ٩٠٠ ، اشتعل العراق والتهبت جميع أطرافه بثورة لاهية قامت بها جماعة الفلاحين بعد ان انضم اليهم من نجوا من ثورة الزنج . وبعد جهود طويلة ووقائع مريرة امكن اخاد الفتنة وانقاذ الخلافة العباسية والحوول دون سقوط بغداد .

ولم تستطع السلطة ان تقضي على اعشاش الثائرين المعتصمين في المستنقعات او في المناطق الصحراوية ، الا بشق الانفس ، ولا ان تخلف من روع الطبقة الحاكمة الا بعد طول عناء ، كما انها عجزت عن منع الغرامطة من اقامة حكومة مستقلة في جزيرة البحرين في الخليج الفارسي هي اشبه ما تكون بجمهورية شعبية جماعية ، معادية للطبقة الارستوقراطية ، مع انها شجعت اعمال الرق ، فزرعت الخوف في البلاد وروعت مكة بالذات ، بعد ان استولت على الحجر الاسود الذي يتبرك الحجاج بلمسه ، والحقا اضطراباً في الحركة التجارية بين البصرة وسيراف . وقد الحقت الحروب التي دارت ، اذ ذاك ، الخراب والدمار في طول البلاد وعرضها ، وانهدكت الدولة العباسية ، فالقت بها بين ايدي العسكريين ، وهي ضربة لم تستطع ان تنهض منها . وبعد القضاء على حركة الغرامطة ظهرت الاسماعيلية بشكل سياسي ابرز ، فراحت تؤيد دعوة الفاطميين ومطالبتهم بالاستيلاء على السلطة ، وهم من سلالة علي بن ابي طالب وابنته فاطمة ، وقد كتب للحركة ، هذه المرة ، نجاحاً تاماً .

انقسام العالم الاسلامي
وبدون هذه الاضطرابات التي مزقت الاسلام ، كان من الصعاب المحافظة على هذه الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف . ان كبح الحركات الانفصالية كانت تذكى المطالب القومية ، وتحد من رغائب الشعوب التي ألفت ان تحكم نفسها بنفسها . اما الحل الآخر القائم بارسال حاكم عسكري شديد الشكينة ، فانما يعني انشاء امارة جديدة مستقلة . وحركة الانقسام السياسي هذه التي ابتدأت في القرن الثامن ، اخذت تشتد فيما بعد . فبالاضافة الى الدولة الاموية في الأندلس ، ودولة الخوارج في المغرب - نشأت عند البربر الحديثي العهد بالاسلام ، دولة جديدة ، هي الدولة العلوية ، التي لم تكن من دول الشيعة - هي دولة الادارة التي اسست مدينة فاس وجعلت منها عاصمة امارة مستقلة . ولكي تكبح الخلافة من شكينة هذه الحركات ، اولت الامر في افريقيا الى دولة وراثية هي دولة الاغالبة في تونس ، التي عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع الشرق كما حافظت على نفوذ الخلافة في الغرب .

اما في الولايات الشرقية ، فالوضع كان اكثر اضطراباً منه في الغرب . فايضا القينسا النظر ، رأينسا الانقسام السياسي ضارباً اطنابه على حساب سلطة الخليفة . فالزيديون يسيطرون على اليمن برمته ، والغرامطة على البحرين وما اليها ، اما مصر التي بقيت ، مدة طويلة ، مسرحاً لاضطرابات دائمة فلبثت محافظة على ولائها للسلطة الشرعية . وقد استطاع ابن طولون ، وهو قائد تركي اوفدته بغداد لارجاع الأمن الى نصابه ، ان يؤلف في البلاد دولة جديدة : هي الدولة

الطولونية ، زالت من الوجود ، في اواخر القرن التاسع امام طلوع الدولة الاخشيدية ، التي عرفت ان تحافظ على علاقتها ببغداد . وفي القرن العاشر ، سقطت سوريا الشمالية وولاية الموصل تحت سيطرة الدولة الحمدانية ، حيث استطاع سيف الدولة ان يكسب مجداً مؤثلاً ، بما حقق من انتصارات في حروبه ضد البيزنطيين ، وبرعايته للادب والادباء .

اما ايران ، فقد شهدت ، خلال القرن العاشر ، قيام عدة دول كردية تقاسمت البلاد من بحر قزوين حتى شطآن دجلة . فقد قام في قلب البلاد ، بين الديلم الحديشي المهد بالاسلام ، دولة قوية ، تولى الامر فيها البويهيون ، من الشيعة الامامية . اما في شرقي ايران ، فقد تألفت في خراسان وبلاد الصفد ، دولة اخرى هي الدولة السامانية التي انحدرت من آل الضمخاك ، احدى الاسر الوطنية التي امنت للبلاد ازدهاراً اقتصادياً واشعاعاً ثقافياً عالياً . وهكذا قامت في جميع ارجاء ايران ، دويلات وطنية ، تولى الامر فيها امراء من اهل البلاد . وهذه الفترة القصيرة التي عرفت في التاريخ : « بالفترة الايرانية » . فان لم تستطع ان تحل شيئاً من هذه المشكلات العارضة فقد ارضت المطامع الوطنية . وبعد فترة وجيزة ، اي حوالي عام ١٠٠٠ ، سقطت الدولة السامانية فريسة لهجوم استهدفت له من الخارج ، ومن الجيش في الداخل ، كلاهما على يد عناصر تركية . وقد تقاسم الغزاة الاسلاب بالسوية : فتمكن العصاة من قادة الجيش من انشاء دولة ضمت الجانب الاكبر من افغانستان ، عاصمتها غزنة ، اشتهرت بالمآتي العظيمة التي قام بها محمود الغزنوي . ولم تلبث ايران بعد ذلك بقليل ، ان وقعت فريسة لغزاة جدد من الاتراك .

وقبل هذا التاريخ بكثير ، كان الانحطاط بلغ من الخلافة العباسية ، كل مبلغ . فقد وقعت بغداد نفسها فريسة لفتن متعددة قام بها الميثارون ، ورجال الجيش . وعبثاً حاول بعض الوزراء ، بالرغم من المنافسات الشديدة التي قامت فيما بينهم ، منهم الوزير علي بن عيسى ، وابن الفرات ، ارجاع الامن الى نصابه وانقاذ ما يمكن انقاذه من الادارة العامة ، ولا سيما ادارة بيت المال . وتعاقب سراعاً على السلطة اذ ذاك ، باسم الخليفة عدد من الامراء عرفوا بـ : « امير الامراء » ، ما كاد يستتب لهم الامر ، حتى يتهاذى بين ايديهم الى الحضيض ليقع بيد أقوى . وفي سنة ٩٤٥ ، سقطت بغداد بين ايدي سلاطين الدولة البويهية ، كما وقع الخلفاء المباسيون تحت سيطرة الديلم الامامية ، ولما كان السواد الاعظم من المسلمين بقي مقتصماً بالشرعية ، لم يعمد الفاتحون الى إلغاء الخلافة ، بل حافظوا على ما لها من سلطة روحية كانوا يتسلحون بها لتبرير استئثارهم بالسلطة في نظر السنين .

اما فتح الفاطميين لمصر فقد أخفى في ثناياه ، خطراً الفاطميون في مصر والايوبيون في الاندلس أكبر هدد الخلافة العباسية . وبفضل داعيتهم ابي عبدالله الذي لاقى عند الفاطميين المصير السيء الذي لاقاه ابو مسلم الخراساني عند العباسيين ، راح احد الائمة الفاطميين هو عبّيد الله الفاطمي ، يستغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين البربر

وتدمراتهم ضد الاغالبية ، يستولي على الامر ، في افريقيا ، في مطلع القرن العاشر ، كما استولى على صقلية والمقاطعات التابعة لامراء آل رستم . وفي سنة ٩٦٩ ، استطاع احد خلفائه هو المعز لدين الله ان يستولي على مصر ، وأسس قائدهم جوهر الصقلي ، على مقربة من القسطنطينية ، مدينة جديدة هي القاهرة ، وتركوا امر تدبير افريقيا لامراء استقلوا بها تحت سلطة الفاطميين . ولم يلبث ان اصبحت الاسماعيلية في مصر العقيدة الرسمية في البلاد ، منع ان الشعب لم يقبل عليها اقبالا واسعا ، كما ان الازمنين فيها حققوا لهم بعض النفوذ السياسي . إلا ان قيام خلافة فاطمية في القاهرة ، مناهضة للخلافة العباسية في بغداد ، كرّس فصل مصر عن القارة الآسيوية . وقد نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر ، ترعاها السلطات الحاكمة ، تشد من ازرها جامعة الازهر ، وامتدت هذه الدعوة الى الخارج ، مما اقلق اهل السنة .

ان قيام دولة الفاطميين ، عند مداخل آسيا من الغرب ، لم يهدئ من هيجان العناصر المتطرفة في الاسلام . فعدم تحقيقها أي اصلاح اجتماعي في البلاد ، أفقدها عطف القرامطة . اما الاسماعيلية الذين حملوا دوماً بقيام دولة نصف إلهية ، واعتقدوا دوماً بقرب انتهاء العالم ، فقد شقّ عليهم كثيراً ما شهدوا من الضعف البشري في الخلفاء والحكام . فالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اعتلى عرش الدولة حوالي سنة ألف ، والذي عُرف بشدوذه ، تبدّى للناس ، لهذه الاعتبارات بالذات ، تحسماً للألوهية . وقد لقيت دعوته قبولاً عند بعض سكان سوريا من عرّفوا فيما بعد بالدروز نسبة للداعية الذي قام بالدعوة للحاكم في اوساطهم . وفي الوقت ذاته تقريباً ظهرت في شمالي سوريا فرقة النصيرية او العلوية، وهي فرقة قد يكون بعض أتباعها من بقايا الاقوام الوثنيين الذين اخذوا بشيء من المسيحية والاسلام ومبادئ الشيعة المتطرفة . فقد رأوا في علي نفسه، الله بالذات، فتمثلوه واحتفلوا بذكره وفقاً للأساطير الميثولوجية القديمة. اما الخليفة الحاكم فقد راح يضطهد المسيحيين والذمين من رعاياه ، نزولاً منه عند انتفاضة شعبية ، اذ ساء الجماهير ونقصهم كثيراً ما رأوا من حسن معاملة الخلفاء الفاطميين الذين تقدموه للذمين ، وأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف . إلا ان هذه النزوة لم يطل أمدها ، وبقيت برقاً خلباً . وقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الحجاج المسيحيين الى القدس ، وبقي صداها يتردد بعيداً في الاوساط المسيحية في الغرب ، بعد ذلك بقرن ، فاتخذ منها بعضهم حجة لهم عندما قاموا يدعون للحروب الصليبية .

ولم يستطع الفاطميون ، كالعباسيين منافسيهم في الشرق ، ان يؤمنوا الاستقرار السياسي في البلاد . فقد وجدوا انفسهم أسرى جيوشهم من البربر والزنج اضافوا اليها ، تأمينا للتوازن ، وحدات من الاتراك والاكرد والارمن ، بينا راحت افريقيا الشمالية تحاول الانفصال عنهم بعد ان زهدوا بها وتناشوا امرها . ولكي يقتصروا لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفه ضدهم الدولة الزيرية في تونس ، اطلقوا يد القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف والفرع في جنبات مصر ووجهوها ، في اواسط القرن الحادي عشر ، ضد افريقيا ، فجرت عليها الخراب والدمار ،

وأُزيلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبة نكباء لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألّبت عليها منذ القديم ، وبدلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي . فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترتادها الركبان والقوافل ، وانتفت منها معالم الزرع والضرع ، وتهدمت شبكة الاقنية التي كانت تؤمن سقاية الارض . ولم يستطع البربر ان يحولوا دون تقدم الهلاليين نحو الغرب . فقد أزيلت غزواتهم الخراب في البلاد ، وقد كانوا السبب الاول في هذا الخراب الاقتصادي الذي لا يزال يعاني منه المغرب الامرين .

ولم يلبث الفاطميون ان تحولوا عن عقيدتهم الاسماعيلية . فقد كان من جراء حرمان الامير نزار ، بكر الخليفة الفاطمي المستنصر ، من حق الخلافة ، في اواخر القرن الحادي عشر ، ان تحزّب له فريق من الايرانيين ونهضوا بأمره ، فكان ذلك اول انفصال وقطعة للفاطميين . وقد عقبه انفصال ثان ، في مطلع القرن الثاني عشر ، عند اختفاء ابن الخليفة الامر ، الذي ولد بعد موت أبيه وقد رأت فيه اليمن ، الوريث الشرعي للخلافة . وقامت بين الفاطميين فتن وحروب داخلية أفقدتهم ما بقي لهم من شأن ومنزلة في النفوس ، كما زادت من نعمة السنة عليهم . ومنذ وزيرهم بدر الجبالي ، وهو ارمني اعتنق الاسلام (اواخر القرن الحادي عشر) الذي قام باصلاح شامل في البلاد ، صار امر الدولة الى عدد من الوزراء معظمهم من قادة الجيش . فاذا ما استطاع الفاطميون البقاء في الحكم الى عام ١١٧١ ، مع ما كانوا عليه من ضعف وهن ، فالفضل فيه يعود لجيرانهم الضعفاء ، من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، لهذه الدولة العازلة التي قامت في الاراضي المقدسة ، مع الصليبيين ، وفصلت بين مصر وبلدان آسيا .

اما في الاندلس ، فقد راح الامير عبد الرحمن الثالث ، في مطلع القرن العاشر ، يعلن نفسه خليفة مستقلاً ويقطع بذلك كل صلة له بالعباسيين والفاطميين على السواء ، بجاءلاً من اسبانيا الاسلامية — الاندلس — ومن سكانها الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، منارة العالم الاسلامي اذ ذاك . فالممالك المسيحية التي قامت في الشمال الغربي من اسبانيا والتي عرفت ان تحافظ على سيادتها واستقلالها بالرغم من هجمات المسلمين ، والتأثير البالغ الذي كان للاندلس على المغرب الأقصى ، ولا سيما لما صممتها اجميلة قرطبة ، أمنت للاندلس اشعاعاً ادبياً وفكرياً عظيماً ساهمت فيه جميع عناصر البلاد على اختلاف عقائدها ولحليها . وقد اقبل مسيحيو البلاد على مناصرة الحكم والاسهام بهذا الاشعاع الفكري والروحي الذي عرفته الاندلس اذ ذاك ، مع حرصهم الشديد على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الدين في الشمال ، وهو وضع لا نرى له مثيلاً ، ولو على نطاق اضيق ، إلا عند الارمن . وقد لعب اليهود دوراً بارزاً اذ ذاك وازدهرت اعمالهم وبرز نفوذهم بحيث ان احدهم المدعو خسداي بن شبروط ، وزر للخليفة عبد الرحمن ، كما ان احدهم تال الوزارة بعد ذلك بقرن ، وتمتع بنفوذ عريض في احدى دول الطوائف في الاندلس . فلا عجب ان يقدم بين العرب والبربر ، وسكان البلاد الاصليين ، والارقاء — ومعظمهم من الصقالبة — اختلافات واصطدامات لم يكن بد منها ، إلا انها لم تصل يوماً لما وصلت اليه هذه الاصطدامات من عنف في

الشرق ، كما انها لم تفضِ قط الى وقوف العسكريين وسكان البلاد الاصليين ، وجهاً لوجه . واذا كان استطاع المذهب المالكي ان يسيطر في كل من الاندلس والمغرب ، فقد تم له ذلك دون ان يترك أية ردة في البلاد او يسبب أي ضغط او اكراه . فقد كانت الاندلس ، حتى القرن الحادي عشر ، مثلاً للتساهل . ومع ذلك فلم تستطع ان تحول دون وصول بعض الشخصيات المدنية والعسكرية الى الحكم واستئثارهم بالسلطة ، على شاكلة سدة القصر عند ملوك الفرنج . وقد اشتهر احدهم حوالي سنة ألف ، هو ابن ابي امير المنصور - المعروف باسم « المنصور » في الملاحم المسماة *Chansons de gestes* . غير ان اولاده لم يستطيعوا الحد من العناصر المتنافسة في الداخل : من بربر وصقالبة ، ووطنيين ، الذين ألفوا عدداً من الامارات المستقلة عرفت باسم ملوك الطوائف لعبت احدها ، أي مملكة اشبيلية ، دوراً بارزاً في الاشاع الحضاري . وهذا الانقسام والتوزع كان من شأنه ان يهدد الاسلام في الضم ، في الاندلس ، في الوقت الذي راحت فيه المسيحية في الغرب تستفيق من سباتها وتستجمع من قواها .

بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، لم يعد من الدقة بشيء . التحدث او التفتي بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال الشعور بالتضامن قوياً بين اقسام هذا العالم . وسيمضي هذا الشعور الميزة التي تطبع العالم الاسلامي بالرغم مما اعتراه من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الالف من السنين التي تعاقبت عليه .

فتجاء عالم الاسلام الذي اخذ في التفتت ، نرى الامبراطورية النهضة السياسية في بيزنطية
البيزنطية ، تقوم في القرن العاشر بحركة اصلاحية تجدد فيها من قوتها ونشاطها ، فلم تعد تعاني ، الا بعد ذلك بزمان طويل ، وعلى نطاق ضيق ، من هذه الانقسامات الدينية التي عانى العالم الاسلامي فيها ما عانى . فالحياة الرهبانية المشتركة تبلغ الذروة ممثلة باديار جبل آثوس التي تؤلف فيما بينها ، تحالفاً دولياً من هؤلاء الرهبان الذين ينتمون الى عدة بلدان من العالم الارثوذكسي ، أضف الى ذلك وحدة الايمان التي تشد من الوحدة الوطنية ويشد منها الساعد عن طريق نشر المسيحية الارثوذكسية بين الشعوب الصقلية ، والدفاع عن امتيازات الكنيسة الارثوذكسية من تدخلات البابوية المستضعفة الجانب . وقد تمثلت الحركتان خير تمثيل في شخص علم من اعلام الكنيسة ، اذ ذاك ، هو فوتيوس . فقد كان من اجداد جامعة القسطنطينية ، رُفِع الى الكرسي البطريركي ، عام ٨٥٣ ، في ظروف مشبوهة كانت مدعاة للظنة والجدل ، وراح يقاوم مطالب الكرسي الرسولي الذي لم يعترف بشرطته بطريركاً على القسطنطينية ، كما راح يغذي حركة ارتداد الصقالبة والبلغار الى الديانة المسيحية ، وهي رسالة نشطت للنهوض بها كل من روما والقسطنطينية ، على السواء . وقد نظر الرأي العام البيزنطي الى البطريرك فوتيوس نظرتة الى خير من يمثل المطالب الوطنية ، ولى من يعرف ان يحشد من تدخلات روما ويقف في وجهها . فالفوارق ، مها كانت طفيفة ، التي قامت بين الكنيسة

الشرقية والكنيسة الغربية ، بؤزت على حدتها : كاختلاف الطقوس الليتورجية ، اذ ان الكنيسة اللاتينية تستعمل الفطير في الذبيحة الالهية بينما تستعمل الكنيسة الشرقية الخبز ، واختلاف في بعض الانظمة كقص الشعر عند الرهبان في الكنيسة الشرقية لاي طقس انتسبوا ، وهذه الفروق بين الطبقات الدنيا في الاكليروس واصحاب المراتب العليا منهم الذين كان يؤتى بهم من رهبان الأديار ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة ، واللغة المستعملة في الليتورجية والطقوس الكنسية ، وبعض قضايا الايمان بعد ان ادخلت روما على قانون الايمان القول بانبشاق الروح القدس من الاب والابن . والانفصال الذي تم على يد البطريرك فوتيوس لم يلبث ان امكن رتقه رسمياً ، دون سد الثغرة او الهوة التي شجرت بين الكنيستين الشقيقتين ، وعندما سنحت ، عام ١٠٥٤ ، امام البطريرك ميخائيل كيولاريوس فرصة جديدة للانفصال من جديد ، تمت القطيعة نهائياً بينها ، وهي قطيعة تهيأت ظروفها منذ عهد بعيد .

وفي سنة ٨٦٧ ، صار العرش الامبراطوري ، في شخص الامبراطور باسيل الاول ، الى الاسرة المقدونية ، التي بذلت جهداً طيباً في اصلاح نظم الدولة البيزنطية ومؤسساتها العامة ، وفي توطيد دعائم الادارة وهيبة الدولة في قلوب الاهلين . فالمجموعات الفقهية ، والمؤلفات الوصفية التي ظهرت في هذه الحقبة نتيجة طيبة لهذا الاصلاح ، هي خير المصادر التي تمدنا باوثق المعلومات حول النظم والمؤسسات التي راجت في الامبراطورية البيزنطية ، في هذه الحقبة بالذات . ان اعادة النظر بالقانون اليوستينيائي وتكلمته باللغة اليونانية ، كل ذلك افضى الى نشر ما يعرف بالقوانين الباسيلية ، التي ظهرت في مطلع القرن العاشر ، في عهد الامبراطور لاون التاسع ، والى هذه المجموعة من القوانين يجب ان نذكر هنا : « كتاب الولاة » ، الذي جاء ظهوره يكمل سلسلة الكتب الشرعية المعمول بها اذ ذاك . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن ، راج الامبراطور العلامة قسطنطين المتدثر بالارجوان ، يضع عدداً من الرسائل والاجابات تؤولف بمجموعة هامة من الوثائق والمصادر الاولى ، تصف لنا العادات والاحتفالات الرسمية التي كانت تجري في البلاط الامبراطوري ، كما تصف بالتفصيل ، الادارة العامة في الامبراطورية ، والعلاقات التي قامت بينها وبين البلدان الاجنبية الاخرى . كذلك ظهر في هذه الفترة بالذات ، كتاب *Taktikon* ، وهو بحث يدور حول تنظيمات الجيش ، تم وضعه في نطاق حاشية الامبراطور العسكري نيقفوروس فوكاس . ومع ان هذه التشريعات ، والقوانين والتنظيمات التي وضعت ، اذ ذاك ، لم تأت اكلها كاملاً ولم تتبلور عملياً عن اعمال وقائع ذات شأن ، فليس في مكنته احد ان ينتقص من قيمة هذه المحاولة الجبارة او من نتائجها الطيبة ، ولو جاءت منقوصة ، غير مكتملة .

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية : أكفاً عدة ، وأمضى سلاحاً ، لاستئناف الهجوم ضد العالم الاسلامي المتفكك الارصال . فقد اقتضى لها قرناً (٨٥٠ - ٩٥٠) لبسط سيطرتها وتأمين سيادتها على قلب آسيا الصغرى ، وهي منطقة جديدة لها ، بعد ان تخلصت من خطر البوليسين

وشوكتهم ، فقتلت منهم من قتلت ، وأجملت منهم الى مقاطعة تراقيا ، من أجلت وأبعدت . وقد استعادت على الساحل الدائري للبحر الابيض المتوسط ، ما فقدته من املاكها السابقة في ايطاليا الجنوبية باستثناء صقلية ، وحررت جزيرة كريت من سيطرة العرب عليها . وقامت على حدودها الشرقية بسلسلة من الحملات والغزوات ، تلقى ضرباتها وهجومها الامير سيف الدولة الحمداني وحده تقريباً ، واستولت على المقاطعات الواقعة الى ما وراء جبال الطوروس ، كقلم انطاكية في سوريا الشمالية والحصون الواقعة على الفرات كحلاطية والرها . وبمساعدة الارمن الذين اشتهر عدد كبير منهم على رأس الامبراطورية امثال يوحنا تيميسيس الذي خلف نيقوفوروس على كرسي الملك ، حل النفوذ المسيحي في ارمينيا محل النفوذ الاسلامي . وقد جمعت وحيدة المصالح والعداء المشترك ضد اسباب العراق ، بين البيزنطيين والفاطميين ، بالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه الحاكم بأمر الله ، من المسيحيين ، وقاربت الاهداف فيما بينهم فأتاح ذلك للامبراطور ان يأخذ تحت حمايته المسيحيين ، ولا سيما الملكيين بينهم في الاراضي المقدسة . قلما رأينا النفوذ البيزنطي يبلغ ، بعد الفتح العربي ما بلغه من نفوذ في هذا العهد .

وبفضل الوهن الذي نزل بالعالم الاسلامي ، والتفكك الذي آل اليه ، استطاعت ارمينيا ان تسترجع استقلالها السياسي . فهذه البلاد التي لم تلتصم يوماً مع النظام الاداري الاسلامي ولم تأتلف معه ، انقسمت بالرغم مما قام في اطرافها من بعض الحاميات الاسلامية ، الى عدة امارات مسيحية مستقلة ، حيث تولت مقاليد الحكم فيها والتوجيه السياسي ، ارستوقراطية عسكرية وكنيسة عمرت بالحياة اللسكية والرهبانية ، يأتمر بتوجيهاتها ، شغب يعتاش من اعمال الفلاحة والزراعة ، مشدود كغيره من طبقة الفلاحين في اماكن اخرى ، أكثر فأكثر ، الى الارض ، وبينهم تجمعات قوية من سكان المدن ، من محترفي المهن والحرف . كل هذه الامارات اعترفت على انساب متفاوتة ، برئاسة « ملك الملوك » من السلالة البغرية التي كانت عاصمتها مدينة آني الواقعة عند منتصف نهر أراكس ، وقامت الى الغرب ، وحدات ارمنية ، في الاراضي البيزنطية كما قام غيرها ، من جهة الشرق في امارات ودول اسلامية . وقد جاشت هذه الوحدات السياسية ، على اختلافها ، بروح وطنية عارمة ، فراحت تتجاوب مع كل معضلة وتتفاعل بكل جدل طارىء ، وتتوزع احزاباً تميل ، هذه مع النبلاء المتنافسين ، وتلك مع اتباع الكنيسة اليونانية ، فقد رأى الامبراطور باسيل الثاني ، حوالي السنة الألف ، في هذه المناسبة ، فرصة سانحة لبسط سيطرته على بعض هذه الامارات الارمنية ، كما اتاح لخلقائه ، عندما أطل عليهم الخطر التركي بعد ذلك بنصف قرن ، بسط سيطرتهم على الامارات الاخرى . وقد راح عسدد كبير من الارمن من انقطعوا لاهمال الفلاحة والزراعة وتعمير الارض الموات ، ولبعض نبلائهم من اقطعتمهم بيزنطية ، بعض الاراضي ، ينزحون الى اواسط آسيا الصغرى ، بعد ان افقرتها الحروب المتتابة ، من سكانها ، كما راح غيرهم يطلب الرزق لهم في ارض مصر . ومنسذ ذلك الحين ، لم تعرف ارمينيا في تاريخها المديد قيام دولة موحدة في اراضيها ، باستثناء امارة صغيرة قامت في كيليكيا ، سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

فامام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية ، استطاعت ان تواجه معاً الصقلية والبلغار في البلقان ، بشكل عاد على الامبراطورية بنجاح اكبر مما عادت عليها به حملاتها المتكررة ضد الولايات الشرقية التي افاد منها كبار الاقطاعيين من الرجال العسكريين ، في آسيا الصغرى ، فالتوسع الديني ، والديبلوماسية البيزنطية التي عرفت ان تقيم الشعوب بعضاً ضد بعض ، والانتصارات الحربية التي حققتها جيوشها ، كل ذلك ساعد بالتضافر والتضامن ، على تحقيق مثل هذه النهضة ، التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي الى اقطار مرت بتطورات جذرية منذ الغزوات الصقلية الكبرى .

بين القرن التاسع والعاشر اخذت معلوماتنا حول البلدان البلقانية تزداد اكثر البلدان الصقلية فاكثر ، وضوحاً وتوثيقاً . فابينا اجلسنا النظر ، رأينا الاقوام الصقلية تتكون وتنشئ لها امارات مستقلة ، فيتفاعل القاطنون منهم في الغرب ، امثال الكروات والسلوفين بنفوذ الكارولنجيين ، بعد ان دخلوا برهة ، في وحدة الامبراطورية التي شكلوها . اما الذين قاموا منهم في الوسط او في الشرق ، كالصرب والمهرسك على الاخص ، فقد ساروا في تطورهم الصاعد ، على نهج مماثل . فالبلغار وحدهم ، بين هذه الشعوب ، يتمتعون بنظم سياسية نامية ، يبرز ما عرف من امثاله عند الشعوب المجاورة . فنجد منتصف القرن الثامن ، حل محل المعاهدة التي عقدت بين بيزنطية والمملكة التي انشأوها الى الجنوب من الدانوب الاسفل ، سلسلة من الحروب ، لم يكن بد منها ، عادت على « القيصر » كروم ، بعد عام ٨٠٠ بقليل ، بنصر مبين ، استطاع معه البلغار ان يوسعوا شيئاً فشيئاً ، من نفوذهم وسيطرتهم ، على حوض نهر مارتزا الاعلى ، ثم وسعوا من نفوذهم نحو الغرب والجنوب الغربي ، على الاقوام الصقلية المستوطنة في حوضي نهر الموراغا والفردار ، اما في الشمال الغربي ، فقد اصطدم نفوذهم بغزوة المجر . وحوالي سنة ٩٠٠ ، نرى القيصر سيمعان يسيطر على امبراطورية فعلية امتدت اطرافها من البحر الاسود شرقاً الى البحر الادرياتيكي غرباً ، حيث العنصر البلغاري اخذ يذوب ، تدريجياً ، بين الاكثية الصقلية : فالعنصران يعتبران مترادفين ، واللغة السلافية اخذت تدريجياً تحل محل اللهجة البلغارية التركية الاصل .

لا نعرف شيئاً يذكر عن صقلية اوروبا الوسطى من قبائل الصوراب ، والبولاوب والبوميرانيين والبولونيين القاطنين ما وراء نهر الإلب ونهر السال ، ممن دخلوا في حروب كثيرة مع الكارولنجيين واباطرة الاسرة الاوتونية . ونملك معلومات اوثق حول المملكة القوية التي انشأها ، في اواسط القرن التاسع ، امراء مورافيا فضمت ، فيما ضمت من اقوام وشعوب ، التشيك والسلوفاك . وليس من شك قط ان قامت بين الروس ، وعلى الاراضي الروسية ، نزاعات مماثلة وامارات متشابهة . وسيشهد تاريخ هذه الاقوام ، هنا ايضاً ، تطورات جذرية ، اثر تدخل عنصر اجنبي جديد ، يتمثل خير تمثيل في هؤلاء الاسوجيين ، اخوة « النورمنديين » في اوروبا الغربية ، الذين كانوا يجوبون على ظهر سفنهم ، خلال الاراضي الروسية ، متنقلين عبر

الأنهر الكبيرة ، حتى بلغوا مشارف بحر قزوين والبحر الأسود . وقد صرّفوا نشاطهم بين التجارة والسلب ، كما تشهد على ذلك النقود التي عُثِرَ عليها في مناطق بحر البلطيق ، واسسوا خلال القرن التاسع مواطن مستقرة على طول الطريق التجارية الكبرى الممتدة من البلطيق الى البحر الأسود مروراً بمدينة نوفغورود وكييف ، وبسطوا منها سيطرتهم على الصقالبة . وحوالي عام ٨٥٠ ، قام زعيمهم روريك ، وهو شخصية تحيط بها كثير من الأساطير ، بتوطيد هذه المناطق التي تمر بها هذه الطريق السلطانية ، ووضعها تحت سلطته . وليس ما يؤكد قط ان انظمة « روس » ، أطلقت ، اول ما أطلقت على الاسوجيين قبل ان يعم اطلاقها على هذه الطائفة من الصقالبة ، كذلك ليس ما يؤيد قط ان هذه الكلمة أطلقت ، قبل ان تطلق عليهم ، على فريق من الصقالبة خضعوا لسيطرتهم . وقد اصطلح البيزنطيون ، بعد ان استعملوا العديد منهم مرتزقة في جيوشهم ، على تسميتهم بشعوب *Varègues* ، مع انهم لم يجهلوا اسم : « روس » الذي عرفوا به ايضا . ومهما يكن من الامر ، فليس من يزعم بعد ، ان مملكة كييف لم تقم لها علاقات مع الصقالبة ، ولا تلقت شيئاً من اثر الاسوجيين . فتاريخ هذه المملكة هو بالفعل حبيكة من هذه العوامل والمؤثرات ، ونتيجة منطقية لصلابتها ولاخدها بسرعة ، بالعوامل والعناصر السلافية . وهذه المملكة التي حدها من الشرق ، بصورة عامة بمملكة البلغار الواقعة على نهر الفولغا ، ومن الجنوب الشرقي بمملكة الخزر ، ومن الجنوب بمملكة البلغار على نهر الدانوب ، كما تآخمت بعد ذلك بكثير قبائل *Petchenègues* والبحر الأسود ، ومن الغرب اماره بولونيا الناشئة التي كانت دولة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، تولى مقدراتها ملوك خلّدت اسماءهم الآداب الشعبية ، منهم أوليغ وإيفور ، وأولغا وفلاديمير وياروسلاف . والثابت ان احدى اميرات كييف تزوجت بهنري الاول من آل كابيت .

وقد استهدف صقالبة الدانوب لضغط قوي من قبل المجر ، وهم قوم من العنق الفيني ، اقبس الكثير من الطباع والاخلاق التركية . وقد زحزحهم عن مناطق الأورال حيث كانوا يقيمون ، قبائل البتشييك ، فاستقروا ، بعد غيّرهم من الغزاة الذين سبقوهم ، في سهول بانونيا ، وهكذا سيطروا على من فيها من صقالبة ، فصلوا بصورة نهائية ، بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب . و« قُبِضَ » للمجر ان يسيروا في تطورهم على نهج لم يعرف شيئاً منه ، لاشعوب الهونز ولا قبائل الآفار ، واستطاع المجر ان يصمدوا في وجه الشعوب التي جاورتهم ، وان يتخلّطوا عن بذواتهم ، ويتحضروا ويستقروا في مواطنهم ، ويؤلفوا مجتمعاً تميز بالملكية الجماعية التي سارت جنباً الى جنب والملكية الفردية وكادت تحل محلها ، وهو مجتمع اخذ في عهد سلالة ارباد يتماثل مع المجتمعات المجاورة له .

وبقي المجتمع السلافي سواءً في تركيبه تقريباً ، لدى جميع الدول الصقلبية او ذات الاكثية الصقلبية ، عماده الأكبر وركيزته الكبرى القرية أو الاسرة الكبيرة التي عُرفت في البلقان باسم زدروغا ، كما ان زعماءهم أو امراءهم - وهم حكام الأقضية على الغالب - وقد عرفوا في البلقان

باسم : جوبان ، احتفظوا لانفسهم بحق توزيع الاقطان الخاصة ، على انصارهم وازلامهم الذين اطلقوا عليهم اسم *Boiars* ، يمهدون بفلاحتها وزراعتها لعدد كبير من الارقاء ، من امرى الحروب . وقد ألف الرق السلعة الكبرى في هذه الحركة التجارية التي اخذت بوادرها تظهر عديم ، في هذه المبادلات التي اخذوا يقيمونها مع مدينتي تسالونيكي والقسطنطينية . ومن الاصناف التي كانوا يقايضون بها او يبيعونها ، ما كان يقع في ايديهم من حصائل الصيد والقصص وجني العسل ، وكان كبار القوم منهم يستوردون المنسوجات الجميلة والكيمياليات التي تؤمنها الصناعة في بيزنطية . اما في روسيا ، فالأفاق اخذت تتسع وتنبسط امام الحركة التجارية في مملكة كييف ، فربطت بين البحر البلطقي والبحر الاسود ، وكانت ضعفي تجارة بلغار الفولغا التي اتجهت بالاحرى نحو آسيا الوسطى . ولا شك قط في ان المحاصيل الريفية كانت اساس الاستهلاك المحلي ، وعليها قامت بالاكثرك الحركة الاقتصادية في البلاد ، وقد اخذت المدن الكبرى فيها تنمو وتطور بسرعة بعد ان استعالت اسواقاً تجارية نشيطة ، ومراكز سياسية وعسكرية لها شأنها ، كمدينة كييف مثلاً ، ونوفغورود . وقد كان ملوكهم حاشية تشبه الى حد بعيد ، ما كان منها ملوك الجرمان ، إبان غزواتهم على الغرب . من الصعب جداً تحديد السرعة والاساليب التي استحال معها اعضاء هذه الحاشية الى ملاكين اسياد ، كما بدوا لنا منذ القرن الثاني عشر ، وبالتالي يستحيل علينا ان نعرف ، ما هي نسبة الفلاحين *Smerdi* الذين كانوا من حيث المبدأ ، احراراً ، انما اخذوا يتحولون تدريجياً الى قوابيع ، من جراء الديون التي ارفعتهم ، او لاسباب اخرى . وهذا التطور تم على اقدار متفاوتة ، حسبما يكون القوم في وسط المملكة ، او في المقاطعات المكسوة بالاحراج الواقعة عند اطراف البلاد حيث السكان قليلون ، وحيث الناس يتسكعون في فقر مدقع ، في عزلة تامة من كل توجيه او مراقبة ، في جوار بعض الاقوام الفينية الممعة في خشونة الطباع والهمجية .

التبشير بالمسيحية بين الصقالبة
اخذت المسيحية تتغلغل بين اقوام الصقالبة وتنتشر في اوساطهم الشعبية ، مفيرة نظمهم السياسية ، والاجتماعية . فقد رأت بيزنطية في حمل الدعوة المسيحية اليهم بسطاً لنفوذها . وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً كبيراً بين الصقالبة المقيمين في مقدونيا واليونان ودماتيا . وبفضل علاقات الكرواتيين بالامبراطورية الكارولنجية ، اعتنقوا المسيحية اللاتينية ، بينما تولى تنصير الصرب رهبان يونان ومبشرون على الطقس البيزنطي ، وهو اختلاف لا تزال آثاره باقية ، ظاهرة على اشدها حتى يومنا هذا ، بين العنصرين القوميين الذين يتألف منها الشعب اليوغوسلافي . اما الكرازة بين المورافيين والنجاح العظيم الذي اصابته ، فالفضل فيه كل الفضل يعود : « لرسولي الصقالبة » كيرلس وميثوديوس . فن الانجازات العظيمة التي حققها في هذا المجال ، تزويد الصقالبة بايديحة خاصة مستوحاة من الايديحة اليونانية ، استجابة منها للرغائب التي كثيراً ما اعرب عنها المبشرون الذين سبقوها الى هذه الدعوة ، كما اعدوا نصوصاً بلقنتهم مكتوبة بالحرف الجديد ، ونظماً لهم الطقوس

الليتزورجية ، وشكلا كنيسة سلافية ، بحيث يمكن التأكيد هنا ما من دخول الدين الجديد الى هذه الشعوب الصقلية ، وآدابهم القومية ، كل ذلك هو من صنعها . فالمسيحية الشرقية التي نشأت وتطورت بين لغات وثقافات مختلفة ، حاولت دوماً ان تكيف الطقوس الدينية وفرائض العبادة وفقاً لسان كل شعب من هذه الشعوب ، وقد ساعد هذا على تغلغل الروح الدينية بين الطبقات الشعبية ، الا انها اضعفت من جهة ثانية الشعور بالوحدة المسيحية واهنت الاتصالات بين الثقافات الام الاخرى . فلا عجب ان تكون روما نظيرت الى عمل كيرلس وميثودوس نظرة ملوفاً للقلق والريبة ، اذ لم يكن عندهما الا كنيسة واحدة ، ولغة واحدة هي اللاتينية . كذلك اثار هذا الوضع المواجه بين الالمان وحرك حفاظهم ، فعارضوا قيام كنيسة سلافية لا تخضع لسلطة الكليروس الجرمانى ، وهذا ما يتفق تماماً والقاعدة المرعية في الكنيسة اللاتينية . الا ان دخول الجرمان الى الدانوب جعل الولاء للجرمان امراً لازماً ، وهكذا ندر تاريخ الصقلية في اوروبا الوسطى عن تاريخ الشرق المسيحي .

فالمعمل الخيرلتي عرف حركة انكفاء عند البلغار كما لاقى لديهم مجالاً ارحب واخصب ، اذ ان امراءهم لم يلبثوا ان وقعوا تحت تأثير المدينيات المسيحية التي اتصلوا عن كثب بقواعدها الكبرى ، كما انهم لم تفتهم المنافع التي يمنحونها من هذه النظريات السياسية التي طلعت بها هذه المدينيات . الا انهم كان عليهم ان يحسبوا حساباً لمعارضة كبار القوم وعظماهم الذين كانوا يرون في المسيحية نظاماً سياسياً مليئاً بالخطر ، وشكلاً يتلبسه التدخل الاجنبي في البلاد . ولذا راح القيصر يوريس (اواسط القرن التاسع) يمشد في إنشاء كنيسة قومية وطنية في بلاده . فالمساومات التي دارت سوقها اذ ذاك ، كانت ولا شك ، من هذه الاسباب التي ادت الى الرقعة بين القسطنطينية وروما والى الانفصال الذي تم في عهد البطريرك فوتيوس . كل هذا حسداً بالكنيسة البلغارية المستقلة للسير في الاتجاه الذي رسمته لها القسطنطينية ، والقاء في إطار الكنيسة اليونانية ، الامر الذي لم يساعد ، بطبيعة الحال ، على تهدئة خواطر ملوك البلغار لما مضته الاهداف والمرامي السياسية التي دغدعت آمالهم .

وبعد ذلك بنحو قرن ، كان لا بد للروس من ان يعتنقوا النصرانية بغالبها البيزنطي فقد سبق واعتنق بعض امراء العائلة المالكة المسيحية . وقمل عام الف بقليل ، رأى القيصر فلاديمير انشاء كرسي اسقفي في كييف يتربع عليه رئيس اساقفة . وفي الحين نفسه ، اخذ الجرمان بعثوث المسيحية ، بعد ان رأوا جميع البلدان المجاورة لهم ، سيقتم اليها ، فخذوا حذر ملكهم القديس إستبانس ، فأخذوا المسيحية بغالبها اللاتيني . ومنذ ذلك الحين اخذوا يسرون في فلك الغرب ويهيمون ، أكثر فاكتر ، بامور شعوب الكروات والالمان وغيرهم من الاقوام المجاورة للبحر الادرياتيكي .

فانتصار المسيحية وفوزها النهائي في اوروبا الوسطى ، عني أكثر من انتصار دين جديد وحضارة جديدة . فقد نتج عنه فكرة جديدة للدولة ، ومعنى جديد للشكليات ، وهي فكرة

حلا لرؤساء الدول الصقلية تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، الا وهي انشاء كنيسة تنتم ، على شاكلة الكنيسة في بيزنطية ، باملاك ووقوفات غنية يرتبط بها فلاحون ومزارعون ، يكون لها اكليروس يؤتى بقسم منه ، أقله في البدء ، من بين الاكليروس اليوناني . فلا عجب قط ان تلاقي مثل هذه النظرة ، حركة مقاومة على الصعيدين الاجتماعي والوطني ، كما لقت في بلغاريا ، في الحال ، دعاوة ناشطة معادية للمسيحية ، غذتها وبشتها سموم التعاليم التي نشرتها الجوالي البولسية التي كانت أبعدت الى تراقية ، من قبل ، بتوجيه الداعية بوغوميل زعيم هذه البدعة ورسولها .

استهدفت الامبراطورية البلغارية ، أكثر دول البلقان تطوراً الشرق الادنى ومتابعه العديدة
اذ ذاك وأوفرها أخذاً بأسباب الحضارة ، لهذه الاسباب بالذات ، لخطر مداهم ماحق ، كاد يطيح بها . فبالرغم من الانحطاط الذي صارت اليه ، في الداخل ، فقد بقيت مع ذلك خطراً ماثلاً على البيزنطيين يهددهم باستمرار ، اذ كانوا ادنى من قاب قوسين من بلغار الذين امتدت سيطرتهم الى مشارف القسطنطينية . وبعد ان حشدت بيزنطية جيوشها قام باسيل الثاني يهاجم الملك البلغاري صموئيل ويصليه حرباً طويلة لا رحمة فيها ولا هوادة ، استطاع معها كثيرون من امارات الصقالبة ، في الغرب ، خضعوا لبلغاريا ، الى ذلك الحين ، التحرر من ريقها والتمتع باستقلالهم تحت رعاية الامبراطورية البيزنطية ، بينما وقعت بلغاريا نفسها تحت سيطرة بيزنطية واصبحت احدى ولاياتها في الغرب (القرن الحادي عشر) . وكان لا بد من مرور قرنين على الشعب البلغاري يرزح معها تحت نير العبودية ، قبل ان يستعيد حريته من جديد وينعم بشيء من الاستقلال المشروط .

اما مملكة كييف الروسية ، فقد استهدفت ، في هذا الوقت بالذات ، لسلسلة غير منقطعة من الهجمات العنيفة ، شنتها الاقوام الرحل الضاربة في تلك الفياقي ، بينهم قبائل البتشنيك ، والاوز والكومان (بولوفتز بالروسية) ، ملحقين البوار بتجارها ، والحرب باقتصادياتها ، وان عجزوا عن النيل من استقلال البلاد السياسي . واذ عجز خلفاء ياروسلاف عن تأمين سلالة ملكية وراثية ، انشقت المملكة ، في اواسط القرن الحادي عشر ، على نفسها ، اذ راحت كل من نوفغورود وكييف ، وهما حواضر البلاد الكبرى ، اذ ذاك ، يتجه الواحد شطراً مغايراً للآخر . فمن الطبيعي ان يؤلف هذا الضعف ، تصاب به البلاد ، خطراً عليها .

وقد وقعت بيزنطية نفسها ، في القرن الحادي عشر ، في خطر مماثل ، سببته لها الانتصارات نفسها التي حققتها . فقد دخل ضمن حدودها ، من جراء الفتوح التي قامت بها ، شعوب وقوميات مختلفة ، متباينة . من هذه الشعوب ، الارمن مثلاً ، الذين ألفوا الاغلبية الساحقة بين سكان ولايات الامبراطورية الشرقية ، وكانوا حانقين على بيزنطية ، لا يصفحون لها عبثاً باستقلالهم الوطني ، كما ان الكنيسة اليونانية التي لم تستمد شيئاً ، على ما يظهر ، من عظة الماضي ، راحت

ثعاود سيرتها الاولى ، وكتابع اضطهادها للارمن ولأتباع المونوفيزية القائلين بوجود الطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اما البلغار ، فقد زادت معارضتهم الاجتماعية للكليروس اليوناني من الكره لسيطرة الاجنبي وحكمه للبلاد ، وهذا العداء الشديد للاجنبي اوشك ان يحول من المبادئ التي حملها بوغوميل ، وعمل بها وعلم ، الديانة الوطنية في البلاد . ومن بلغاريا ، انتقلت هذه التعاليم والمقائد الى الكروات ، ومنهم انتقلت الى فرنسا ، لتطلع ، في القرن الثاني عشر بشكل جديد ، هي الهرطقة المعروفة بـ *Albigétisme* او مقالة الالبيجوا .

وفي الوقت ذاته ، تفاقمت المصاعب والمشكلات التي نشأت غب استفعال امر الارستوقراطية العقارية في البلاد ، بعد ان عرف الاباطرة المسكريون في بيزنطية كيف يوجهونها ويسيرونها . فالملوك الذين تماقبوا على الملك بعد الامبراطور باسيل الثاني ، لم يكونوا على شيء من قوة الشكينة ، فاستخذوا في الملحقات واستسلموا للامر الواقع ، بعد ان احاطت بهم بطانة من المدنيين اخذوا باسباب الثقافة وفضلوا الدعة والطمأنينة ، فاستفحل شأن الارستوقراطية العقارية في هذه الولايات ، وراحت تسمى جهدها لانهاك الفلاحين الاحرار وشراهم . وعندما كان الاباطرة يطلبون من النبلاء التجند وخدمة السلاح ، كانوا يُفقدون عليهم ، من املاكهم الخاصة الاعطيات الوافرة ، كما كانوا يهودون عليهم بانعامات خاصة ، موقنة او يستثمرونها مدى الحياة ، لا تلبث ان تصبح وراثية عندهم ، فتألف من هؤلاء النبلاء وحدات عسكرية لم تكن اكثر ولاء للامبراطور من زميلاتها في الغرب . ولكي يأمن ملوك الروم شر هذه الوحدات يؤمنوا لهم ما يوازيها ، راحوا يشكلون من بين سكان الولايات القريبة من القسطنطينية ، بفضل الموارد الفنية التي امنتها لهم التجارة ، اذ ذاك ، وحدات من المرتزقة ، ازداد عددها فيما بعد ، بازدياد ازدهار التجارة في البلاد ، تألف معظمها من قبائل الفارينغ ، الى ان راحوا يستبدلوها ، بعد عام ١٠٥٠ ، بوحدات من النورمنديين في الغرب ، او من قبائل الصقالبة او من الاتراك بعد ان يجري تنصيرهم . وقد دخل الجيش البيزنطي ، فيما بعد ، وحدات من الارمن والبلغار أفقدته وحدته الادبية . ولما كانت هذه الوحدات العسكرية تحتفظ بولائها لقادتها ، فلم يمكن خطرهما على الملوك باقل من الخطر الذي اطلت عليهم من تشكيلات النبلاء العسكرية او من الجيوش المرتزقة التي عمل بها في البلاد الاسلامية . فاذا لم يلصق الامر الى خلخلة الامبراطورية وانقطاع اوصالها ، فلان الثورات والانفاضات التي تمرضت لها كانت كثيرا ما تنتهي بالقضاء على الفتنة وهي في المهد ، او باستيلاء الشوارع على السلطة . وعندما اطلت فيما بعد من الخارج اضطراب ماسقة ، كانت الارستوقراطية تسارع للسيطرة على الامر بالاستيلاء على السلطة .

والحال ، فقد مثلت امامهم هذه الاخطار وكانت منهم ادنى من قاب قوسين ، بمثابة بقبائل التشنك الذين اصبحوا على الدانوب ، والاتراك السلجوقيين عند مداخل آسيا الصغرى ، والنورمنديين الذين بعد ان انتزعوا ايطاليا الجنوبية من بيزنطية ، وصقلية من الاسلام ،

اخذوا ويحاولون ان ينشثوا لهم موطن. قدم على سواحل البحر الابوني الشرقية ، وبفضل حادث مؤسف هيأته الاقدار العابثة ، اتاح الانفصال الذي اعلنه كيرولايوس ، للبابوية المتحالفة مع النورمنديين للاستعانة بهم في الخصومة القائمة بينها وبين الاباطرة الالمان ، ان تسلك نهجاً معادياً لبيزنطية . صحيح ان روما والقسطنطينية وقفنا فيما بعد ، موقفاً اكثر اعتدالاً ساعد على القيام بهذه المفاوضات التي مهتدت للحروب الصليبية ورافقتها ، الا ان الوقعة الكبرى كانت قد وقعت ، هذه المرة ، على يد شعوب جديدة اعتنقت الاسلام حديثاً .

ان استعادة بيزنطية للولايات التي فقدتها من قبل ، والاضطرابات التي شجرت في جميع انحاء العالم الاسلامي وادت بالتالي الى انقسامه الى امارات ودويلات وسلطنات ، ألحقت تغييراً محسوساً في العلاقات التجارية ، في الشرق الادنى ، خلال القرن الحادي عشر ، وجعلت من اللازم القيام بعملية تنسيب جديدة عسيرة . فاهجرات التركية باتجاه الفلوات الروسية خلخلت كثيراً وألحقت اذىً عظيماً بالعلاقات التي ربطت بين البلدان الروسية وبين اقطار آسيا الوسطى والامبراطورية البيزنطية . وكان من جراء هذه التغييرات والتطورات الجذرية التي لحقت بطرق المواصلات التجارية بين آسيا والغرب ، ان حل البحر الأحمر ومصر محل الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين ، كما راح التجار الايطاليون ينافسون التجار البيزنطيين والتجار الاسلام في علاقتهم مع بلدان البحر المتوسط . وقد ساعد على هذا التطور ، في الشق الاول ، عوامل عدة ، منها : القلاقل والاضطرابات التي شجرت في الطرق ، وقسوة الجيش والاعمال الوحشية التي قام بها بفظاظ لا توصف في عهد المباسيين ، وجشع بيت المال واعمال القرصنة التي قام بها قرامطة المراق والبحرين ، وقيام حدود جديدة فاصلة بين بغداد ومقاطعة انطاكية اثر احتلال البيزنطيين لها ، يقابل ذلك انفصال مصر السياسي عن الخلافة العباسية ، وحركة الاستقطاب التي تمت حول القاهرة ، وسهولة نقل المواد الغذائية وانتشارها بسرعة اكبر في الموانئ القائمة على شواطئ البحر المتوسط . وقد عادت هذه الحركة بالفائدة الكبرى على مدينتي البندقية وامايفي ، الاولى من جراء استعادة بيزنطية للمقاطعة الواقعة الى الجنوب من شبه الجزيرة الايطالية ، وجزيرة كريت ، ومن جراء الانتصارات التي تمت على حساب الكروات التي امنت لها الاتصال بسهولة مع بيزنطية ، اما الثانية ، فبعد ان اقامت لها علاقات طيبة مع الاسلام في افريقيا الشمالية ، راحت توسع من نطاق هذه العلاقات ، الى مصر الفاطمية ، حتى ان غزوة الهلالين لتونس والخراب الذي زرعه في البلاد ، كل ذلك افاد منه الايطاليون الى اكبر حد . وبعد ان رأى المغاربة القاطنون على سواحل البحر المتوسط الغربي الحيف الذي نزل بهم من جراء انقطاع حركة النقل التجاري ، راحوا يعرضون عن خسارتهم بممارستهم القرصنة البحرية على السواحل القريبة من فرنسا وكتلونيا وايطاليا الشمالية . وبانتظار رد الفعل المسيحي لاعمال القرصنة هذه التي كانت استعادة صقلية من احدى نتائجها ، فقد افادت البندقية وامايفي ، لحسين موقعها التجاري من هذه الحركة . ومن جهة اخرى ، لما كان المغرب رأى فروقه من الحشب في

خطر ، وكان عاجزاً عن بناء عمارة من السفن قوية ، كان باستطاعة بيزنطية ، بالطبع ، ان تفيد كثيراً من الوضع الذي كانت عليه الحركة التجارية اذ ذاك ، وقد آثرت ، لاسباب مالية بحتة ، ان تجذب اليها الايطاليين فيهبطون القسطنطينية ، عوضاً من ان تيمت باليونان الى ايطاليا نفسها ، بعد ان عجزت من دفع الايطاليين الاتجار مع المسلمين مباشرة . وهكذا قامت حركة منظمة من التبادل التجاري بين ايطاليا والاسكندرية حلت جزئياً محل الحركة الاخرى التي قامت بين محوري بغداد والقسطنطينية ، وارتبت عليها بكثير . فان لم تنقطع حركة النقل التجاري التي قامت على القوافل في آسيا ، فاننا نلاحظ نقصاً كبيراً في المنقول من الثروة المنزلية ، في الشرق الاسلامي كما يشهد على ذلك ، نهوض طبقة جديدة تتألف من العسكريين وكبار الملاكين العقاريين .

وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها
في هذا العالم الاسلامي القلبي ، الجيتاش بمعطائهم الاحداث ، والمضطرب في الصميم ، ليس مسايلفت النظر ، ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب ، والازدهار الذي آلت اليه الحركة الفكرية . لما من امير الاوقامت حوله حاشية انخرط فيها جماعة من اهل الفكر والحصى ، ومسا من قاعدة او حاضرة الاوقام فيها للادب والفن اسواق رائجة ، وراح كثيرون من صلتحت احوالهم وبسم لهم الدمر ، كما راح كثيرون من عطفاء القوم وعليتهم يقبأرون في تشجيع تحنلة الادب ورجاله ، ومناصرة اهل الفن والنبوغ ، من اي لون كانوا ، او الى اي مذهب انتسبوا . فاذا حدثت الركبان عن ايجاد بغداد والسامانيين ، والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، فاشغباء القاهرة والقيروان ، وباليرومو وقرطبة ، في الغرب ، عن الحركة الادبية ، تسلاً بطون الكتب والتاريخ . واتساع هذه الحركة الفكرية التي عمت مشارق المسالم الاسلامي ومنغاريه ، فتحت الباب على مصراعيه امام التنوع لظهور مجار فكرية عامة وتلفيح الافكار والاذهان في كل مكان بالتالد والطريف من الآثار الادبية .

وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الاسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة ان ينهض ويعرف به في فهارس علمية . من ذلك مثلاً ، فهرس ابن النديم ، وكتساب الاغانى لصاحبه ابي الفرج الاصفهاني ، الذي يعد بحق ، من الكنوز الادبية الغالية . وقد ساعد على كثرة التأليف في العالم الاسلامي وفرة الكاغد او الورق الذي اخذ العرب سر صناعته من الصين ، وأدخلوا بعض اجناسه عن طريق سمرقند ، وما ان جاء القرن العاشر حتى انكشرت صناعته في جميع اطراف العالم الاسلامي ، فتلاشت امامه صناعة البردى كما قلت الحاجة الى الدروج والرقوق الجلدية السقي طالما عول عليها للنساخ في اديار الغرب . وقامت في بعض حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور للكتب ، غصت بعشرات الالوف من الكتب جرى تفسيرها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على ابواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من اللساخ والوراقين ، والخطاطين

والمزوقين والمنمقين . كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين ، وطائفة كبيرة من الكتاب وحلة الاقلام والمفكرين .

اما نتاج الادب الوجداني ، وادب الخيال او الرواية فقد كان اقل رواجاً من الكتب التي تبحث في الموضوعات الفلسفية ، بنسبة ما يمكن التفريق بين النوعين المذكورين . وقد رعى الامير سيف الدولة الحمداني الادب وقرب الأدياء الى بلاطه ، فراجت دولة للشعر عنده ، وراح الشعراء يتغنون بالحروب التي شنها ضد الروم كما راحوا يدعون للجهاد ، كما نرى خير ذلك في شعر ابي الطيب المتنبي (٩١٥ - ٩٥٥) . اما في سوريا فقد بلغ الشعر الذروة مع شاعر المهجسين : ابي العلاء المرمي (٩٧٩ - ١٠٥٨) الذي امتاز بقريحته الرقادة وبما وضع من الكتب التي تفيض سخرية وتهكاً بكثير من امور الادب والدين والفلسفة . وقد اسهمت الاندلس بهذه الحركة اسهاماً كبيراً . فقد نبغ فيها ، في مطلع القرن العاشر ، الشاعر ابن عبد ربّه الذي له حماسة ووضع عدداً من الشعر الاصيل . ثم طلع علينا ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) الذي غنى لنا في كتابه « طوق الحمامة » الحب العذري ، وقام في اسبانيا من راح يقلده ، كما لقي كثيراً من الاتباع والمريدين . فليس من ينكر ما كان لهذا النوع من الشعر في ما بعد ، على شعراء الزجل او أهل الطرب ، في جنوبي فرنسا *Troubadours* .

اما في العراق ، فقد كانت العناية شديدة بالنثر ، يحاول الكتاب تتبع خطى الجاحظ دون ان يتمكنوا من مجاراته او سبقه في هذا المضمار . وقد ازدهر فيه فن القصص وال نوادر الذي برّز فيه التنوخي (٩٣٩ - ٩٩٤) ، كما برز فن المقامة وهي نوع من القصة تسير حواشيها حول بطل يستقطب ماجريات القصة ويرويها بشكل من النثر المسجع المليء بالتهكم والسخرية . وأشهر اصحاب المقامات ، الهذلي (٩٦٨ - ١٠٠٧) ومن هذه الفنون التي راجت في هذا العهد ، فن الرسائل الذي امتاز بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى جامعا بين الایجاز والاعجاز

وفي القرن الثاني للعباسيين برز فن التاريخ والجغرافية وبلغ الأوج من الازدهار . وقد عني اول من عني بسيرة الرسول ، لاتصال هذا البحث بالحديث ، وقد اخذ فن السيرة يتسع ويتنوع محافظاً على وسائل الاعلام والعرض التي كانت له في الاصل . وقد ظهر في منتصف القرن التاسع مؤرخون امثال ابن قتيبة وابو حنيفة الدينوري واليعقوبي الذين وضعوا تواريخ عامة . فبعد ان أرتخوا لعهود الكتب المقدسة ، و « الأيام » عند العرب والفرس ، ولا سيما منذ عهد الاسكندر المقدوني ، نرى غيرهم يتعرض للبحث في الفتوحات العربية كالبلاذري الذي له « فتوح البلدان » . اما واضع علم التاريخ عند العرب ، فهو الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣) الذي وضع كذلك تفسيراً للقرآن . فقد كان عالماً ناهياً ، ومؤرخاً وضع كتاباً ضخماً في التاريخ ، يمكن اعتباره موسوعة تاريخية ضم كل ما وضع عن التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي على السواء ، وذلك بعبارة واضحة وبأسلوب من السرد الاخباري ، وهو نهج هذا حذوه كثيرون ، دون ان يبدي في الموضوع الذي يبحث ، آراء شخصية مما يجعل له قيمة كبيرة لدى النقد الحديث . ومنذ ذلك الحين اصبح

التاريخ اكثر فنون الاداب رواجاً في العالم العربي خلال الأجيال الستة التالية . وقد برز بين المؤرخين ، في القرن التالي ، أي في القرن العاشر ، المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦ ، والذي وضع لنا كتاباً ضخماً لخص فيه كتباً لم يبق منها سوى قسم ضئيل ، «مروج الذهب» ، ضم عدداً كبيراً من سير الخلفاء طواها على فوائد كثيرة . ومن بين هؤلاء المؤرخين ايضاً الصولي ، المتوفى عام ٩٤٦ الذي يحدثننا بكثير من الحرارة ، عن ذكرياته كموطن بغدادى عمل في بطانة الخليفة العباسي . وقد راح عدد كبير من المؤرخين لمعوا بين القرنين العاشر والثاني عشر ، يكملون تاريخ الطبري ، انما في غير النهج الذي سار هو عليه ، منهم هلال الصابى ، المتوفى عام ١٠٥٦ الذي لم يبق من آثاره سوى بعض نتف ، وابن مسكويه المتوفى عام ١٠٣٠ ، صاحب كتاب «تجارب الامم» . وقد برهن كلا المؤرخين الاخيرين عن اطلاع واسع ، ومعرفة دقيقة لشؤون الادارة عند العباسيين والبويعيين وحننا كتاباتها معلومات جزيلة الفائدة فكانت معينة لا ينضب من النوائد والمعلومات .

وقد كان من جراء الانقسامات السياسية التي مزقت وحدة العالم الاسلامي ، اذ ذاك ان طلعت علينا ترايخ عديدة تبحت في تاريخ المغرب والاندلس ومصر ويران ، ليس في ذكرها هنا كبير فائدة . وقد شارك في حركة التأليف هذه ، عدد من كتّاب النصارى ، كتبوا بالعربية تاريخ بطاركة الاسكندرية (الاقباط) ساهم في اكالة فيما بعد كثيرون . وبين هؤلاء المؤرخين المؤرخ الملكى يحيى الانطاكي الذي سكن انطاكية ، في الربع الثاني من القرن الحادى عشر ، وهي اذ ذاك ، تحت سيطرة البيزنطيين ، وفيها وضع تاريخه المشهور الذي جمع فيه تاريخ العالم الاسلامي ، لاسيا مصر والشام ، وتاريخ بيزنطية . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر عدد من كتب التراجم ، وفقاً للبلدان او المدن التي سكنوها ، وتراجم العلماء وفقاً لطبقاتهم : كطبقات الفقهاء والحكماء والشعراء والمحدثين والقضاة . ولم يلبث هذا الفن ان ازدهر فيما بعد ، ازدهاراً عظيماً . اما الجغرافيون العرب ، فقد وضعوا لنا آثاراً حرة بالذكر ، فكتبوا في للرياضيات وعلم الفلك ، سيراً منهم على النهج الذي انتعاه بطليموس ، وتركوا لنا اوصافاً حية ، شيقة القادات منها الدوائر الادارية التي كانوا يعملون فيها او تابعين لها ، وهي كتابات تفيض بالمعلومات الدقيقة والفوائد الجزيلة ، دارت حول العالم الاسلامي ، وتناولت وصف الهند والصين وآسيا الوسطى وروسيا ، والقطران الاخيران لا نعرف عنها شيئاً إلا من خلال هذه الكتب .

فالمعلومات التي ضمنوها كتبهم تركت الى نصوص من الوثائق الاصلية ، كما تعتمد ، من جهة ثانية ، على ما نقله عنها الرسالة العرب ، امثال سليمان وابن فضلان . فالكتب التي وضعها ابن خردادبه في القرن التاسع ، والاصطخري وابن حوقل ، في القرن العاشر ، واخيراً المقدسي ، حوالي سنة الألف ، وهو اوسعهم اسواهم مادة ، على الاطلاق ، ادعوا فيها كتب ، على من تقدمه في هذا المضمار ، وهي كتب كثيراً ما ضمت خرائط ومصورات جغرافية ، وصل بعضها الينا . وهذه الكتب تذكرنا بالكتب السبقى جاءت على وصف الادارة الحكومية ، وهي على منتصف الطريق بين الابحاث النظرية التي وضعها بعض الفقهاء ، كأبي يوسف ، والكتب الاخرى السبقى

ظهرت فيما بعد ، وهي اسهل أخذاً . ولعل أهم هذه الآثار ، على الاطلاق ، كتاب ابن قدامة الذي باشر بوضعه في مطلع القرن العاشر ومات دون ان يتمه . وقد كان المؤلف من كبار نقّاد الادب في عصره .

وما عسانا ان نقول عن نابغة عصره البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) المعروف باوروبا باسم *Aliboron* . فقد عالج بنجاح جميع الموضوعات ، وكتب بالعربية والفارسية . فنحن مدنيون له بهذه المعلومات الوافرة الدقيقة التي جمعها بعلم ومعرفة ، بفضل وصف الفتوحات والغزوات والعلاقات الدبلوماسية ، التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، في كل ما يتصل بمدنيات آسيا والهند . فهو ، من هذا القبيل ، مؤلف ليس من يعدله في التاريخ الاسلامي ، على الاطلاق .

ونرى بعضاً من ككتاب المعجم يستعملون تارة البهلوية الهندية ، وطوراً العربية الدخيلة على البلاد . والجديد في الامر هو ظهور ادب جديد ، فارسي ، اسلامي في الوقت ذاته . وساعد على ذلك اقتباس الايرانيين للأبجدية العربية . وقد جاءت حركة التأليف هذه على غير استواء في بعض البلدان : قوية ، ناشطة في الدولة السامانية ، البعيدة عن العالم العربي ، وثيدة ، بطيئة ، متأخرة ، في ايران الغربية . ومع ذلك فستبقى اللغة العربية في ايران مدة طويلة ، الاداة الوحيدة للتعبير في كل ما يتصل ، من قريب او بعيد ، بالقرآن الكريم ، والعلوم الاسلامية والفلسفة . فاجادة العربية وتجويدها أمر لم يكن منه بد في الاوساط المثقفة ، وهي وحدها قادرة على معالجة الموضوعات اللغوية . غير ان ما للغة الايرانية من ميزات ، وما لها من قدرة ظاهرة على معالجة الموضوعات الخيالية تفوق ما للعربية منها ، والرغبة في التأثير على أكبر عدد ممكن من القراء ، كل ذلك جعل من اللغة الايرانية اداة طيبة ، مثلى ، للتعبير عن خلجات الفكر بلفن وجمالية . ويبدو الفرق بعيداً مع الولايات الاسلامية الاخرى التي توارى كل اثر فيها للغات الايرانية والآرامية واللاتينية ، ومع لغة البربر في المغرب ، وما كانت عليه من ضعف وهن ، جعل منها مجرد لهجة من اللهجات المحكية قلّ من يكتبها او يستعملها اداةً للتعبير عن مكنونات النفس . فالادب الملحمي في الايرانية بلغ الذروة في المحاولة الاولى ، مع « الشاهنامه » (او كتاب الملوك) للشاعر الخالد الفردوسي ، الذي باشر بوضعه في اواخر القرن العاشر ، وهو في بلاط السامانيين ، ولا تزال اليوم اكبر وأكمل ملاسم الايرانيين على الاطلاق ، يقرأون فيها ابحادهم الوطنية قبل الفتح الاسلامي ، بلغة شعرية بديعة . وقام بين الايرانيين من عالّج قبل الفردوسي الفنون الشعرية على نطاق اضيق واضعف . ثم ظهر النثر الايراني في كتب التاريخ ، في بلاط الملوك الأوّل للدولة الغزنوية ، مع البسيطة (حوالي عام ١٠٥٠) وأحياناً في الكتب العلمية .

ففي الحين الذي تبرز في ايران وترسخ اللغة الفارسية الوطنية ، يطل علينا في العالم الاسلامي نوع جديد من الأدب الشعبي ، من المسير على المؤرخ تتبعه وتقصى مراحله لأن الناس تناقلوه شفويّاً ، ولم يكتب الا بعد ذلك بمدة طويلة ، بلغ ازدهاره في عهد العباسيين . وهذا الادب الشعبي الجديد ، يتألف اصلاً ، من قصص اخذ بعضها من الآداب القديمة ، كما أستمد البعض الآخر

من تاريخ الاسلام وتاريخ شعوبه الى ذلك الحين ، فيتألف من هذا كله مجموعة قصص تعرف بألف ليلة وليلة ، التي لم يستقر وضعها النهائي الا في اواسط القرن الرابع عشر . وقصص البطولة كقصص عنتر بن شداد مثلاً ، تضع أمامنا صوراً ومشاهد من بطولات العرب ، بين قدامى ومحدثين ، بينما تتغنى الاخرى بالبطولات التي شهدتها الثغور الواقعة على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فتروي لنا المكان والدسائس والحيل التي كانت تجري كل يوم حتى ايام الجهاد المقدس ، والملائق الودية التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين الذين كانوا اكثر تقفها للواقع من سادة بغداد والقسطنطينية . من تلك القصص مثلاً الملحمة النصف التاريخية ، بعنوان : « سيد بطال غازي » ، التي بعد ان تحولت وتطورت اصبحت الملحمة الوطنية الكبرى عند الاتراك ، في آسيا الصغرى . ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، لا بد ان ننوه هنا ، ولو بصورة عابرة ، بالقصة البيزنطية التي لم تلبث ان وضعت شعراً ، وهي المعروفة بـ « *Digenis Akritus* » ، التي تضع أمامنا مشاهد مثيرة من حياة رجال الحرب على الحدود .

العلم والفلسفة
اطلع القرن التاسع والعاشر ، أطيب الآثار العلمية والفلسفية التي عرفها الادب العربي في هذه الحقبة . وقد حاول واضعو هذه الآثار الفكرية ان يبرزوا أمامنا كعلماء محيطين بكل شاردة وواردة ، على شاكلة بيك ده لاميراندول ، في عصر الانبعاث الفني والادبي ، في الغرب . ولذا يصعب تصنيفهم الى فئات معينة . ومع ذلك يمكن ردهم الى قسمين رئيسيين : الفلاسفة المتكلمون أو اهل الكلام ، وهي تسمية اطلقت في الاسلام على الباحثين في شؤون العقل أو الحكمة ، والعلماء وهم هؤلاء الجماعة الذين يعمّون على الأيمان فيتخذون من العقل اداة تشد من ايمانهم . فالفلاسفة والعلماء ليسوا على الغالب سوى مظهر واحد للفكر ، اذ كان العقل يتجه دوماً من المشكلات الفلسفية اكثر من تعويل هؤلاء على العلم . اما بين العلم والتكنولوجيا التي تعتمد عليها المهن الاخرى ، فالاتصال يبقى ناقصاً ، اذ ان الملاحظة والتجربة هما المعول عليها للوصول الى تحديدات وتعريفات واضحة ، ولولم يؤلفا أساس العمل . فسواء عالج العالم المقاييس والوسائل الحسابية التي يلجأ اليها الرياضيون ، واستعان بوسائل النجامة والكيمياء ، فهو يضع نصب اعينه ، اهدافاً عملية ، مع التأكيد ان النتائج لا تتحكم قط بتوجيه العمل وفرضه .

وعلى عكس اهل الكلام الذين نراهم منشغرين في جميع انحاء العالم الاسلامي ، لا نجد الا في الشرق ، ولا سيما في ايران ، علماء يعملون للعلم ، وفي القسم الشمالي الشرقي منها . فالطب يسجل تقدماً محسوساً . فهو يؤلف مهنة او حرفة مغلقة ، او موصدة ، لا تفتتح لاصحابها ومخترفيها ، الا بعد درس ومراس وامتحان عسير ، يجب اجتيازه بنجاح . وهي مهنة ممارستها مباحة للجميع من يهود ومسلمين ومسيحيين ، كما نرى في اسرة آل مجتديشوع السريانية ، التي سيطرت على بيارستان جند يسابور . ومنذ القرن التاسع ، نرى الامراء والحكام ينشئون لهم مستشفيات حرية بكل احترام وتقدير . فالطبيب ، سواء أعْمِل في البلاط أو في المدينة ، فهو شخصية بارزة لها شأنها واهميتها . وقد اشتهر منهم عدد بما بلغوه من كفاءات وقدرات عالية ،

وان فالتنا معرفة الكثير من وجوه هذه المقدرة . وليس من يشك قط بالتطور العظيم الذي تحقق على ايديهم ، في مجالات : الكحالة وطب العين والقبالة وفن الاقرباذين ، والاكتشافات العلمية التي حققوها في هذا المضمار ، كالدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئة . وقد برز بين اطباء هذه الحقبة طبيبان طبقت شهرتهما الآفاق، هما الرازي المعروف عند الغربيين باسم *Rhazes* الذي برع ايضاً بالكيمياء وقد رأى النور في مدينة الري (٨٦٥ - ٩٢٥) ، وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) الذي ولد في بخارى ، والذي اشتغل كذلك بالفلسفة ، فكان من اكبر واشهر فلاسفة الاسلام ، في الاجيال الوسطى ، فكان له فضل عظيم على الطب ، لاسيما بعد ان وضع كتابه المشهور بـ « القانون » وهو موسوعة طبية ، واسعة ، منهجية . وكتابه هذا كان عليه الممول في الشرق حتى عهدنا هذا فكان القسطاس او النبراس الذي سار عليه الاطباء في الشرق الى هذا العهد ، كما اعتمد الاطباء في الغرب الى عهد موليير ، بعد ان عم نقله الى اللاتينية وطبع في روما لأول مرة ، سنة ١٥٩٣ .

اما علم الهيئة الذي اعتمد كثيراً على علم النجامة ، فقد حقق تطوراً محسوساً ارتكز من جهة ، الى ترجمة كتاب « الجسطي » لبطليموس ، كما ارتكز ، من جهة اخرى ، على ترجمة مجاميع طبية تعود لعهد الساسانيين والهنود . فنذ مطلع القرن التاسع ، أنشأ الخليفة المأمون مرصداً له في بغداد ، كما أنشأ بعده ، غيره من الامراء مراصد اخرى اشهرها على الاطلاق مرصد فرغانة ، كالمصد الذي بناه شرف الدولة البويهى ، في اواخر القرن العاشر . والاعمال العلمية التي حققها العرب والمسلمون حول : الإهليلج ، والكسوف والخسوف ، وحركات النجوم السيارة ، وقياس درجة الدائرة الأرضية على اساس فرضية استدارة الارض ، وما الى ذلك ، بثير الدهشة والاعجاب ، اذا ما فكرنا في الادوات التي كانت بين ايديهم كلاسطرلاب مثلاً ، وغير ذلك من ادوات توارثها العرب في التاريخ القديم ، وعولوا عليها في تحقيق ما -محققه من هذه الكشوف العلمية ، ولا شك ان البتاني (٨٧٧ - ٩١٨) هو اكبر علماء الفلك في زمانه . فقد كان من صابئة حران ، هؤلاء الصابئة ، الذين كانوا يتمتعون على النجامة ورصد النجوم . وبلغت شهرته الغرب حيث عرف باسم *Ballenius* .

ومع ان العرب تعلموا جداً في اقتباس الارقام الهندية ، فقد استعملوها مع الكسور العشرية والصفر ، فنحن في الغرب ، مدينون لهم ، مع ذلك ، بهذه الاعداد التي اخذناها بالفاظها العربية احياناً . واشهر رياضيين العرب ، واقدمهم على الاطلاق ، هو الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠) الذي ولد في خوارزم ، بالقرب من بحر آرال ، واليه تعزى الجداول الحسابية المعروفة في الغرب ، باسم *logarithmes* ، مع انه ليس بواضعها الحقيقية ولا عرفها . غير ان كتاباته حول المعادلات الجبرية قد جعلته اول من اخترع علم الجبر ووضع اصوله في العالم . وقد عالج غيره من الرياضيين الذين جاؤا بعده ، الهندسة وحساب المثلثات .

اما الكيمياء ، فلن نهتم لها بنسبة الاهتمام الذي لفته عند المفكرين في الاجيال الوسطى .

فالأكسير الذي بحث عنه كل الكيميائيين ، في الشرق والغرب ، على السواء ، هو من اشتقاق عربي . واشهر من عالج هذا العلم هو جابر بن حيان ، الذي عرف في الغرب باسم *Geber* ، وعاش في القرن الثامن . والذي وصل الينا باسمه من المؤلفات ، تم وضع بعضه بعد وفاته بقرنين ، واكثر . وقد كانت اكثر تطبيقاً ، المؤلفات التي وضعها فريق من علماء المعادن وعلماء النبات والفلاحة ، اشتهرهم على الاطلاق ابن وحشية الذي ينسب اليه ترجمة ، كتاب الفلاحة ، من النبطية الى العربية ، والذي لا يخلو مع ذلك من كثير من الاوهام والاساطير والخرافات .

كثيراً ما جمع هؤلاء الفلاسفة بين العلوم والفنون والموسيقى ، فراحوا يستلهمون نظريات ارسطو العلمية والعلوم الكونية والادبية التي قالت بها الافلاطونية الحديثة . واقدم هؤلاء الفلاسفة واعرقهم عروبة هو الكندي الذي لقبوه بفيلسوف العرب ، وقد عاش في القرن التاسع . اما المفكر الكبير والفيلسوف الذي جدد الفلسفة القديمة فهو الفيلسوف التركي المعتز والنسب ، اعظم فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، هو ابن سينا الذي عاش في بغداد وحلب ، في القرن العاشر ، وعلى يده تطورت الفلسفة نحو الاشراقية العقلية .

فامام مظاهر هذا التفكير التي جاءت مغايرة للدين ومناقضة لتعاليمه ، ولهذه المهرطقات العديدة ، والتفاسير المخالفة للنصوص القرآنية ، اخذ القلق يساور رجال الفكر الذين تهتمهم كثيراً امور العقل والوحدة . فقد رأينا كيف ان المعتزلة راحوا يحاولون التوفيق بين الايمان والعقل . فلاشعري (٨٧٤ - ٩٣٥) والماتيريدي الذي توفي عام ٩٤٤ ، حاولا ان يضعوا في خدمة الايمان ، سلاح القياس الذي عمل المعتزلة على تطويره . ولم تلق هذه الطرق والمناهج ، في بدء الامر قبول الاجماع . الا انها لم تلبث ان انتصرت وانتشرت في القرن الحادي عشر ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من تعليم الامة في الاسلام ، اضيف عليها شيء من التفكير العقلاني والشرعي ، على يد اهل الكلام الذين ظهروا فيما بعد .

ولهذا السبب قامت القطيعة بين موقف هؤلاء المفكرين المؤمنين حتى عندما يدافعون عن الايمان ضد العقل ، وبين فئة المتصوفة ، هؤلاء المؤمنين بقلوبهم الذين كثيراً ما رموهم بالكفر والزندقة . فالهاسي والجسّيد ، في القرن التاسع ، يعربان عن رغبتها في الزهد والنقاء الخلقي عند هذه النفوس التي لا تقيم وزناً للقياس ، كالحلاج ، مثلاً (٨٥٨ - ٩٢٢) . الذي قال في بعض تعاليمه : « انا الحقيقة » وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه الحرب ضد القرامطة ، فكفّروهم ورأوا فيه خطراً على الجماعة . فظهوره يعتبر حادثة نادرة في الاسلام ، جرت عليه الموت ، بعد عذابات اليمّة ، مبرحة تذكرنا بمأساة المسيح .

ادت محاربة هذه الزندقة الى ادب خاص ، منه نفهم ما كانت عليه هذه الملل والنحل . وقام في الاندلس ، عند مطلع القرن العاشر ، حول ابن مسرّة وأخذه بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، شعور بالقلق من جراء استفحال هذه التعاليم ادى الى وضع ابن حزم كتابه المشهور عن الملل

والنحل ، وهو احسن كتاب في الموضوع يصف لنا الفروق التي باعدت فيما بينها . وقد رأينا ما كان لابن حزم من اثر على الشعر في عهده .

الادب المسيحي واليهودي
على نقیض البحث العلمي الذي انفتحت ابوابه امام الجميع ، يبدو ان الفكر الديني لدى الطوائف غير المحمدية ، اختلفت عنده مظاهر الحياة العقلية ، عنها لدى العالم الاسلامي ، مع انه استعمل اللسان العربي ، تعبيراً وتبانياً . فهو يجذب ويتصلب عند المسيحيين فلم يطلع بأي اثر بارز ، ولا أفسح المجال لطلوع أية مشافة دينية مهمة . وقد اقتصر الجدل ، بعد ان تصلب وقساً ، على الامور الكنسية دون العقائدية . اما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر ، ونفض عنه الجود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلودية . ففي الوقت الذي راح فيه الاشعري يدخل على الاسلام المناهج الفلسفية المعروفة ، عرف رئيس الكهنة سادياً ، في بغداد ، ان يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم ، راح يحاول من جهته ، التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين ، أي بين مطلب الايمان ومناهج العقل . ومن كل الجوالي اليهودية في اوربا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة . ومن الرسائل المتبادلة بين هذه الجماعات الدينية ، تكونت مجموعة الوثائق المعروفة باسم *Papiers de la Genisah* التي عثر عليها في القاهرة ، منذ نحو خمسين سنة ، وهي مجموعة تمدنا كل يوم بنافذ مشيرة . ومع ذلك ، فازدهار المدارس المليية التي قامت في كل من القدس ، والقاهرة ، والقيروان - التي تجاوز اشعاعها ولايات ايطاليا الجنوبية - والاندلس ، يبدي بصورة قاسية ، الصدارة التي احتلها ربانة مدرسة بغداد ، على غير استحقاق او جدارة احياناً ، مع ان الانحطاط اخذ يدب اليها ويتغلغل فيها ، اثر القلاقل والاضطرابات التي نشبت في القرنين العاشر والحادي عشر . واذا ذلك ، انتقلت جذوة النشاط للأدب اليهودي ، الى البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط ، وراحت رئاسة الاحبار ورئاسة الربانة تضمحل تدريجياً وتموت . فاذا ما عرفت مدرسة القيروان الضعة والهوان في عهد الهلالين ، فقد اشتهرت مدرسة الاندلس بأن انجبت جبريل الملقبي ، احد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة الذي كاد يكون غريباً عن ملته ، كما كان شاعراً مشهوراً ، كما ان بهيا بن باكوري راح يضع كتاباً في مجالدة النفس والزهد ، يبدو غريباً جداً في الادب اليهودي . ومنذ القرن الحادي عشر ، اصبحت الاندلس ، ملاذ الفكر اليهودي ، كما اصبحت مركزاً للاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي .

الادب البيزنطي
اذا ما قارنا الادب البيزنطي بما ظهر حوله من آداب اخرى في الشرق او في الغرب ، استطعنا ان نكون لنا رأياً معللاً ، وان نبدي حكماً حول قيمته الحقيقية او النسبية . فهو ينعم بعلم اكبر ، وبدقة اوفر ، من الادب في الغرب ، واصاب نجاحات اكبر من التي حققها ، الا انه اقل غناً وتنوعاً من الادب الاسلامي . فقد عرف

الاسلام ان يتمثل آداب الشعوب التي دوحها ، وان يطبعها بميسم الميز ، وان ينميتها ويطورها بينما لم تشع. بيزنطية على الشعوب التي خضعت لحكمها وسلطتها الا في المجال الديني ، وفي بعض مظاهر خاصة من مجالات الفن ، مع العلم ان الشعوب التي اخضعتها لنفوذها لم يسمح لها طابعها البربري ان تستمرى عناصر ثقافية اخرى ، كما ان بيزنطية كانت اعجز من ان تعطي الغير شيئاً مما كانت تحرص عليه من تراثها الهليني التليد ، وبذلك جعلت نفسها بمعزل عن كل مؤثر اجنبي يأتيها من الخارج . فقد استطاعت ، وایم الحق ، ان تقبّس ، من الخارج ، بعض العناصر التي شاركت في تكوينها . ولكن ما من شيء جديد في المجال العقلي او الفكري . فلم تكن من القوة بحيث تستطيع ان تستغني ، دون ان تتعرض للخطر ، عن هذه العوامل التي ساعدت في إخصاب ثقافتها واغنائها . وهكذا راحت الثقافة البيزنطية تتطور وتتكامل من الداخل ، وتعمل ضمن حلقة مفرغة ، انمازت بالاخذ والقبس دون ان تكون لها القدرة على العطاء ، وبالتالي على الاشعاع . فقد كانت تحيا وتعيش لنفسها ، لا للغير . قد يكون الادب الشعبي هو الشيء الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة ، الا انه ادب مجهول القدر ، منقوص القيمة ، ليس من يشعر به الشعور الذي نعمت به بعض المؤلفات العلمية التي وضعت لنخبة مختارة من الطبقة الارستوقراطية .

وبالرغم من هذا ، وبعد الركود الادبي الذي طبع العصور الماضية ، وسيراً مع حركة الازدهار والاشعاع الفكري الذي عرفتها الثقافة العربية ، عرفت بيزنطية ، في القرن التاسع ، ازدهاراً عظيماً وتطوراً كبيراً في امور الفكر ، فازدادت فيها المدارس ، ودب النشاط في جامعة القسطنطينية بعد ان اجري فيها البطريرك فوتيوس ، وهو من اشهر تلاميذها ، إصلاحاً جذرياً وسكب فيها دماً جديداً ، وصقلت الاذواق والطباع في كل ما يتعلق بامور الفكر والفن . وبعد قرون من المناقشات البيزنطية الجوفاء حول قضايا دينية او كسسية لا طائل تحتها ، اخذ الناس ، بتأثير من هذه اليقظة الجديدة ، يحفلون بالتراث الحضاري القديم ، ولا سيما بالهليني منه . فبينما راح الاسلام ينقل من هذه الثقافة اليونانية بعض ما يتعلق بالعلم والفلسفة ، انصرفت بيزنطية للجانب الادبي الذي كان من العسير نقله الى العربية لما يتنزى به من الاساطير الوثنية والميثولوجيا ، ولما يستدعي تمثله من ذوق رفيه . وراحت تكمل رسالة مدرسة الاسكندرية ، وان تعثرت منها الخطى واشتط النهج في القبس ، اذ اقتصر على حرفية مرزحة ومقعدة . ففي هذا التطور من تاريخها ، اكلتست الثقافة البيزنطية أريجاً من الفكر العلماني لا يتعارض او يتنافى قط مع الايمان ، انما يتميز تماماً عما خلفته العصور السالفة واللاحقة كما يتميز كلياً عن الانتاج الفكري ، في الغرب ، خلال هذه الحقبة . فبالاضافة الى المؤلفات التعليمية الطابع او الموسوعية الهدف ، وكتب النصوص والادلة الموضوعية للحكام الاداريين والخاصة ، كانت كل الفنون الادبية ، من نثر او شعر ، موضوع اهتمام خاص . ويبرز من بين هذا الادب السقيم أهزبل ، بعض قصص ومسرحيات لها قيمتها الفنية . وعلم التاريخ الذي

يرى مادته الاولى تتجدد باستمرار ، ترك لنا ، قبل القرن الحادي عشر ، مؤلفات قوية بقيت على الزمن ، ابتداء من التاريخ الذي وضعه ثيوفانس (غرة القرن التاسع) ، والتواريخ الاخرى التي رأت النور في القرن العاشر ، بتشجيع من الاباطرة امثال لاون السادس ، وقسطنطين المسربل بالارجوان ، وخلفاؤهم من بعدهم ، منها التاريخ الذي وضعه لاون دياكر . وقد لقيت تراجم القديسين على انواعها ، رواجاً عظيماً لما كان لها من وقع في نفوس افراد الشعب . وجرى بنا ، ان نذكر هنا ، بعض الآثار النقدية التي نحا فيها واضعوها ، نحو لوقيانوس ، وان جاءت الهاكا حرفية ، وكان علينا ان ننتظر القرن الحادي عشر لنرى آثاراً ذات قيمة ارفع واسمى . ويأتي التاريخ في خدمة هذه الآثار ، منها التاريخ الذي وضعه ميخائيل اثناسيوس ، ونيقوفورس برين ، وكديريوس ، وسكيلتريس . كذلك علينا ان ننوه عالياً هنا ، بالكتاب الذي وضعه « النيبيل » نيكومانوس الذي ضم قصصاً مثيرة وعظمت وارشادات عملية . وقد برزت فوق هذه الحركة ، شخصية بسيلتوس ، الذي كان من الطراز الاول : رجل ادارة ، وفيلسوفاً موسوعياً ، ومجدداً للفلسفة الافلاطونية ، وللأفلاطونية الحديثة ، كما كان مؤرخاً وسيكولوجياً يهتم غوار النفس البشرية ، في كتابه الموسوم « كرونوغرافيا » ، والمنظم للتعليم الجامعي بمساعدة الامبراطور قسطنطين مولوماخس (اواسط القرن الحادي عشر) ، والمؤسس لمدرسة الفلسفة ، الى جانب مدرسة الحقوق التي كانت تمد الدولة بما تحتاج اليه من رجال الادارة والحكم .

وبالرغم من هذا النشاط ، فليس ابرز للعين ، من الادب الشعبي الذي امتاز بالاصالة والمعنوية والطبعية . ويمكن ان نضيف الى هذا اللون ، فن كتابة سير القديسين ، والقصص المستوحاة من القصة الشرقي ، امثال قصة برلعم ويوشافاط . واسوة بما كان عليه الوضع في الغرب ، فالمسرحية ، كالمقصص الشعبي في الأجيال اللاحقة ، مزيج من التلاحين والاعاني والسرد القصصي ، تدنس احياناً ، وحيناً تلى وتقرأ ، ويبقى هذا الفن ناشطاً حتى القرن العاشر . وقد طلع بعد قليل فن تمثيل الاسرار (*Mystères*) ، وهو مسرح ديني عرفه الغرب ، اذ ذاك ، يتألف أصلاً من حوادث يراعى في سردها الليتورجيا . ولعل أشهر هذه الآثار طراً ، وان جعلها العلم مدة طويلة ، هي بلا مراء ، الملحمة المعروفة بـ *Digenia Akritas* التي استقرت في شكلها النهائي ، في القرن الثاني عشر ، مع ان القسم الاساسي منها يعود لقرن أو قرنين من قبل . وهذه الملحمة تذكرنا بالقصص الحماسية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، مما سبق واشترنا اليه من قبل . فهي تصف لنا وضماً حياً ، مثيراً ، مشاهد من حياة جندي يعمل في حاميات التهموم والثغور ، وما تم له من علاقات مع بعض المسلمين ، تارة حربية ، وطوراً سلمية ، نستطيع معها ان نتبين ظروف وصروف الحملات والصوائف التي كانت آسيا الصغرى ملعباً لها ، في القرنين التاسع والعاشر ، كما نتبين ما كانت عليه ، اذ ذاك ، اخلاق القوم الساكنين على الحدود . ولا تزال ذكريات هذه الملحمة حية لليوم في نفوس افراد الشعب في اليونان .

والادب الارمني الذي استوحى قسماً من مقوماته ، من النماذج البيزنطية والسريانية ، ولا

سبأ الدينية منها ، اخذ يتحرر أكثر فأكثر ، ويعتمد على نفسه في هذه الآثار التاريخية التي خلفها لنا توما الارزرومي ، واستفانس طارون ، وارستفانكس ده لسديفرد وهي آثار جد مفيدة ، بالرغم مما هي عليه من تقصير واطناب . وقد ازداد الادب الرهباني إزدهاراً ، خلال عهد الأسرة البغراتية . واكبر شخصية علمية في هذا العهد ، هي شخصية غريغوريوس ماجستروس (النصف الاول من القرن الحادي عشر) ، وهو نبيل ارمني ، وقائد عسكري ، عمل في الجيش البيزنطي ، موسوعي الثقافة ، جود اللغتين : الارمنية واليونانية ، وراح يحاول اخراج مواطنيه من العزلة التي وضعتهم فيها لفتهم الأرمنية . صحيح ان الشاعر الصوفي الأرمني غريغوريوس تاريك ، الذي عاش في اوائل القرن العاشر والذي لم يقع تحت اي اثر اجنبي ، تمتع بين الأرمن ، ولا يزال ، بشهرة اوسع مما تتم لماجستروس . ولما كانت بلاد جيورجيا هي الأخرى ، مفتقر طرق ، وملتقى الثقافات البيزنطية والارمنية والارانية ، فقد اخذت تستيقظ تحت تأثير ترجمة الآثار والمؤلفات الكنسية ، وتتفاعل مع الحركة الفكرية في البلدان الصقلبية الأخرى التي اخذت تتحرك وتتحرر سياسياً ، لتصل بعد القرن الحادي عشر ، الى آثار تتميز ، أكثر فأكثر ، بالطابع الشخصي .

في جميع أقطار الشرق الأدنى ، المسيحي والاسلامي على السواء ، فنون الشرق الأدنى
ينزع الفن نحو التنوع ليقم له مذاهب أو مدارس « وطنية » خاصة ، مع حرصه مع ذلك ، على التمسك بعناصر مشتركة . وبالرغم من الفروق القائمة بين الفن الاسلامي والبيزنطي ، حدود واضحة المعالم والصوى ، بين هذه المذاهب الفنية المعمول بها ، في كلا الجانبين ، فكلاهما يتجاوب وحاجات مجتمعه الخاص الذي استعرضنا ، من قبل ، لتطوراتهما المتوازية ، فيستعمل كل منهما وسائل تقنية مماثلة . وحينما هنا ان نكشف ، ولو بإيجاز واقتضاب عن العوامل المشتركة التي تؤلف ما بينهما من وحدة ، بحيث نستطيع ان 'نظهر' بصورة محسوسة ، ما في هذه الانجازات التي حققتها هذه الفنون ، من قوة التأثير والاعراض .

نحن نجعل تماماً التكنيك الهندسي الذي يختلف ، هنا وهناك ، باختلاف المادة المستعملة في البناء كالحجر أو الآجر أو اللبن ، في كل ما يتصل بالمباني العسكرية ، والقلاع والحصون ، الدفاعية ، بالرغم من كثرتها وعددها . للدفاع عن حدود بيزنطية ، أو للدفاع عن البلاد الاسلامية ، ضد المشركين ، في آسيا وفي افريقيا ، وهذه الرُّبُط التي تقيم فيها متطوعة الفزاة الملبين نداء الجهاد المقدس ، ليوطدوا من سلطان الزعماء المحليين ، أو لمراقبة المقاطعات الصعبة الموقى ، التي كانت ، في كل من سوريا وكردستان والمغرب ، شهوداً ناطقة على ما بلغت السلطة المركزية من شدة التفتت ، والانحلال . اما الهندسة المعمارية المدنية ، فلم يصل البناء منها شيء يذكر . غير ان الحفريات التي جرت في سامراء العاصمة الموقية للعباسيين ، بعد بغداد ، فقد كشفت عن معالم القصر الخلافي التي تساعدنا كثيراً على تفهم ما كان عليه هذا القصر من اوضاع خاصة ، كما نعرف جيداً ان القصر المقدس الذي شيدته اسرة الابطرة المقدونيين ، في القسطنطينية ،

استوحى خطوطه من الطراز الهندسي المعمول به في بغداد . وهو عبارة عن مدينة ضمن مدينة ، أكثر مما هو قصر . فقد ضم العديد من الأبنية : هذه للسكن ، وتلك للتلهي والترفيه ، وأخرى للدفاع ، وأخرى للتموين وخزن المؤن التي يحتاج إليها الخليفة وحاشيته . كل ذلك يبدي الفارق الكبير بين هذه القصور الفسيحة الأرجاء ، وبين هذه المنازل القذرة التي كانت مأوى السواد الأعظم من سكان المدن .

أما الهندسة المدنية التي 'حفظت مبانيها أكثر من الأولى ، فقد قام فيها فروق بارزة أوجدها مقتضيات العبادة ، سواء أكانت مساجد أو كنائس . والقضية المشتركة التي كان على المهندسين مواجهتها وحلها بالتالي هي احسن ، تنحصر في السقف الواسع الذي كان يجب ان يغطي الردهة الكبرى المعدة لاجتماع المصلين . وهكذا راح المهندسون المعماريون ، في كل من القسطنطينية وإيران ، يتعاونون معاً لإقامة قبّاب وقناطر من الآجر ، بينما استعمل مهندسو أرمينيا وسوريا ، ثم البلقان ، الخشب لسقف كنائسهم المبنية بالحجر . وقد أدى التطور الذي رافق إقامة القبّاب في كنائس بيزنطية ، الى جعل السطح بشكل صليب يوناني .

فاذا ما زالت معالم الكنيسة الأولى التي بناها الامبراطور باسيل الاول ، فلا يزال قائماً لليوم ، سواء في القسطنطينية ام في الولايات التابعة لها ، كنائس عديدة متواضعة المظهر ، استعمال بعضها الى مساجد وجوامع . ان عهد السلالة البغراتية هو بالفعل العصر الذهبي للهندسة المعمارية عند الارمن ، كما يبدو ذلك في هذه التحفة الفنية الرائعة التي تتمثل على أتمها في كاتدرائية آني ، وما تركته من اثر بيّن في كنائس جيورجيا ، ولا سيما في كاتدرائية عاصمتها القديمة كوتائيس .

أما المسجد الذي هو عبارة عن بهو او صالة كبيرة لا مكان فيه لحنية او هيكل ، فهندسته لم 'تثر أية مشكلة او صعوبة . فمسجد ابن طولون ، في القاهرة (أواخر القرن التاسع) استوحى خطوطه الكبرى من مساجد بغداد العباسية . وبقيت هذه الهندسة مرعية الجانب في عهد الدولة الفاطمية ، كما يظهر ذلك بوضوح ، في مسجد الحاكم الذي استوحيت في هندسته بعض العناصر البنائية المستعملة في الغرب وطبقت في بناء جامعة الأزهر . أما في افريقيا ، فروائع الفن المعماري الهندسي ، تتمثل في مسجد القيروان الذي تم تشييده في مطلع القرن التاسع ، ودخلت في هندسته عناصر مستوحاة من عمارة المساجد في الشام والعراق . أما في الاندلس ، فتحفة الفن الهندسي فيها ، هي مسجد قرطبة الذي استمر البناء فيه أكثر من قرنين (القرن التاسع والعاشر) . أما في إيران حيث مواد البناء لم تقوَ على مغالبة الزمن وعوامل الفناء ، والهزات الأرضية الكثيرة الوقوع ، فلم يبق لنا شيء يذكر مما سبق بناؤه القرن التاسع ، وهو العهد الذي قام فيه مسجد أصفهان الكبير الذي أدخلت عليه فيما بعد ، تعديلات وإضافات جديدة . ونحن مدينون لإيران بهذه الأضرحة التذكارية الكبيرة التي تنتهي ببرج او قبة هي التي أُرُحّت بالطراز الجديد للمساجد

الجنائزية . وبعد ان اضيفت على هذه المساجد ابراج حلزونية الشكل مستوحاة من الفن القديم للعمارة ، في البلاد ، انتهت بظهور هذه المآذن المستديرة التي تنتصب مرتفعة نحو السماء والتي تختلف كل الاختلاف عن هذه المآذن المربعة الشكل ، ذات الادوار او الطبقات الضخمة التي شاع استعمالها في مساجد بلدان حوض البحر المتوسط . وبما يلفت الانظار في هذه المساجد ، بعد ان يحتاز المراء الساحة المسورة التي تحيط بها ، وبعد ان يدخل بهو الجامع وصحنه ، هو هذه الأعمدة العديدة التي كثيراً ما تعلوها اقواس او قناطر متنوعة الأشكال ، من هلال الى قنطرة كاملة .

ويوحّد بين المهندسين النصارى والمسلمين رغبة قوية في زخرفة المبنى وتحليته (الديكور) . فقد زالت تماماً ، معالم التماثيل والشخوص والنقوش الضخمة ، انتفح المجال لفيض من الرسوم والزركشة للمستطحات عن طريق الألوان او عن طريق نقش الحجارة وتقرينها ، او عن طريق التلييس او التكفيت . وكما سمعنا ورددوا على مسامعنا ان الاسلام حرّم ويحرّم تصوير الكائنات الحية في المماهد . فهذا القول لا يخلو من تشدد وعنت ، لا نرى قط الايرانيين يأخذون به او ينزلون عند حدوده . فالمسألة لم تكن لتمني تصوير ذات الجلالة . هيئة انسان ، او على شكل حيوان مهما كان كريماً ، اذ ان الله روح يعمل فوق كل مادة وغرض ويخلق ، كما لا يعني تمثيل الكائنات لذاتها . فالفنان المسلم لا يتحرج قط ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ، عن تزيين المباني المدنية بكل ما لديه من وسائل التحلية والزينة : من نبات وحيوان وانسان ، اذا كان في هذه الرسوم ، ما ينهض باسباب الفن ، او يزيد من قوة جاذبية التحلية ، في اي المظاهر التي تبرز عليها ، وفي اية حالة من الحالات ، كالصيد والقنص والحرب . والثابت هو ان الفنان في البلاد السامية ، هو الاول ان يأخذ من الكائنات رمزاً يستقيط منه ما له من معالم حسية لصل منها الى فكرة التجريد ، بما توحى هذه الحباثك والشجرات والدوائر الهندسية ، والحطوط الكتابية المتشابكة التي راجت رواجاً عظيماً في العالم الاسلامي . وهذه النزعة بالذات لم تكن غريبة عن الفنان البيزنطي نفسه بالقدر الذي يُظن او يذهبون اليه ، صحيح ان هؤلاء الفنانين لا يترددون قط منذ بدعة محطمي الصور والايقونات ، في تصوير القديسين والألوهية نفسها ، في الكنائس . الا انهم على عكس الفنانين في الغرب الذين لزعوا دوماً الى تجسيد او تشبيه قصص الكتاب المقدس ، ليمثروا بذلك ، عن لاهوت مجرد ، بأشكال وصور لا تتغير ولا تتحول ، هي فوق البشر ، لا تعود اليها الحياة الا عندما يستطيعون التصرف بفنهم بكل حرية .

والفيلسوف ، هذا الفن الذي يمكن وصفه بالفن الارستوقراطي والذي طامس اركان اليه الفنانون وعولوا عليه في الاجيال الاولى من تاريخ البيزنطيين والاسلام ، راحت بيزنطية تستبدله او تستميط عنه بالاكثار من الافاريز التي تكلف ما تكلفه الفيلسوف ، من نفقات . فالشواهد العديدة التي وصلت الينا من المباني الواقعة خارج القسطنطينية ، تبدو احياناً فخمة ، كما نرى ذلك في كنيسة القديس مرقس في البندقية (القرن الحادي عشر) ، وفي صقلية النورمندية

(القرن الثاني عشر) ، وفي مدينة كيبف (القرن الحادي عشر) ، واكثر بساطة في الكنائس الواقعة في الملحقات ، ككنيسة دفنة في اليونان ، واحياناً كنائس من ذوق شعبي خشن ، ككنائس قبادوقية « الكهفية » التي عثر عليها من عهد قريب . ومع ان العالم الاسلامي عرف استعمال الافاريز ، فقد فضل مع ذلك استعمال القاشاني المغطى بالينا والذي تفننت مصر كثيراً بصنعه . اما ايران ، فقد اشتهرت بصنع البلاط المربع ذات اللعان المعدني ، فاستعملت مجموعة كبيرة منه في مسجد القيروان . ولكي يستروا المباني المصنوعة من القرميد البسيط ، راح الفنانون ، سواء البيزنطيون منهم او المسلمون ، يغطون السطوح بطلاء متعدد الالوان . اما المرمر ، فقد أقنصروا استعماله على الداخل ، واستعملوا فيه جميع العروق . اما الفنانون في ايران الشرقية فقد حاولوا ان يخلقوا نوعاً من التحلية بمجرد رصف الحجر دون الركون الى الالوان .

اما الزركشة والتزيين بالحفر فلا يستعمل الا في تيجان الأعمدة والكورنيش . كذلك الجدران المحرمة التي بالغوا في دقة صنعها ، فيكثر استعمالها ، بالاحرى ، تحت القناطر والقباب والسطوح التي لم تكن مرصوفة بالسيفساء . وتكتمل اسباب الزينة بوجود الأرتجة الضخمة والمفروشات والطنافس والسجاد .

فبعد ان زهدت الهندسة المعمارية بالحفر والنقش ، راح هذا الفن يثار لنفسه بسيطرته على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . فالأخشاب الثمينة تحفر في العالم الاسلامي وتستخدم فيه على نطاق واسع ، في المساجد وفي المنابر . كذلك التكفيت والترصيع فهو من هذه الفنون التي اختص بها الاسلام . واستعمال العاج يبقى رائجاً على نطاق واسع في بيزنطية ، لما كانت الارستوقراطية فيها ، ميسورة ، ثرية ، قادرة على إقتناء الصناديق الخشبية التي تحمل نقوشاً تنبض بالحياة ، وهو فن بقي مستعملاً في جميع أرجاء البحر الابيض المتوسط : في مصر ، وصقلية والاندلس . واشتهرت بيزنطية بالابواب الضخمة المصنوعة من البرونز وبمصنوعات الفضة ومجوهراتها المنقوشة والمطعمة . وكنا نرى في العالم الاسلامي الصحن الكبيرة والصواني الواسعة ، والمفاصل النحاسية ، والمصابيح المصنوعة من البرونز ، المستوحاة نماذجها من الفن الساساني ، والتي كانت تصنع كذلك في مصر وفي الاندلس ، كما كانت تصنع في العراق وايران ، فنالت شهرة واسعة لا يزال يفيد منها من راحوا يقلدونها ، حتى في عصرنا هذا . والاسلحة الفنية المصنوعة في الهند أولاً ، ثم في دمشق وقرطبة لم تكن لتقل عنها شهرة . وفي صنع الحلي والمجوهرات والدمى ، كانت بيزنطية تخضع ، كأوروبا نفسها ، لفن سكان البدو ، الذي لم يُعرف كثيراً في الاسلام .

ومن الفنون الخاصة بيزنطية والغرب ، تحلية المخطوطات وتزيينها بصور ورسوم دينية ، يضاف اليها احياناً صور بعض الامراء ومشاهد مأخوذة من الحياة اليومية . وفن تزيين

المخطوطات الذي مارسه المسيحيون في البلدان الاسلامية ، لم يلبث ان انتقل الى المسلمين في أقطارهم ، فراحوا يزينون العديد من الكتب الاسلامية الدينية كالقرآن ، مثلاً . ولم يصل الينا نماذج سابقة للقرن الثاني عشر . والتحف الفنية لفن التزويق اليراني التي وضعت بعد هذا العهد بكثير ، جاءت وليدة عوامل ومؤثرات اخرى .

اما الخزفيات التي استعملت على نطاق واسع في جميع انحاء العالم الاسلامي ، ولا سيما في مصر وايران ، فامتدتنا بصحائف وصوان واطباق ترفل بمشاهد متنوعة ، وبعضها عطل من كل حلية ، وان وجدت فغاية في البساطة . وقد عرفت بيزنطية هذه الصناعة ، انما على نطاق ضيق . الا انها اشتهرت على الاكثر بصناعة الزجاج ، فلم يبق من مصنوعات سوى عدد قليل يحفظ معظمه بين مجموعة كنيسة القديس مرقس الفنية ، في البندقية ، وهي صناعة تمثلت على احسن وجهه ، في العالم الاسلامي ، سواء في سامراء وفي الغرب وفي مصر ، حيث اضيفت اليها صناعة البلوريات ، وقد عرف الصناع ان يتفننوا كثيراً بمصنوعاتهم ، فلونوها واستعملوا الزجاج مع المعادن . وقد عرفوا كذلك صناعة النوافذ الزجاجية الملونة وان لم يبلغوا فيها مبلغ الصناع المسيحيين في الغرب .

وقد اشتهر الشرق الادنى بصنع الانسجة الفاخرة السقي استعملت في الملابس كما استعملت لأمر الزركشة والتعليق . وقد اطلب الادباء وصفاً بصناعة الديباج والخز ، كما تفنن الصناع في استعمال هذه النسيج في اعمال الزينة ، وهي مصنوعات عرفت في بيزنطية قبل الاسلام ، وقامت لها دور ملكية في بيزنطية ، كما عرفت ببلاد القاهرة وقرطبة دور طراز ، اخرجت لثراء القوم واعيانهم ، منسوجات حريرية مدهشة بسجته بأسلاك الفضة والذهب ، لا يزال باقياً منها لأن نماذج رائعة في بعض الكنائس القديمة في الغرب . اما فن صناعة السجاد الذي اشتهر بها الشرق منذ عهد بعيد ، فلم يصلنا شيء مما تم صنعه قبل اواخر الاجيال الوسطى . كذلك عرفت صناعة الجلود فناً عظيماً جوته الصناع المسلمون وألفنوه للأغاية . فالكلمة الفرنسية *Cordouan* (اسكافي) اشتقت من اسم مدينة *Cordoue* التي اشتهرت بهذه الصناعة . كما ان صناعة الجلود الثمينة جاءت هي الاخرى من كلمة *Marron* المغرب الذي جوته هذه الصناعة .

اما البقايا السلافية التي كانت حضارتها على مستوى أدنى ، فلم تعرف اذ ذاك ، فناً شاملاً بها . صحيح ان الانعام الحشبية التي وجدت عند صقلية الغرب ، لفتت اذ ذاك ، انظار الرحالة والمسافرين ، كما ان مخلفات قصور الامراء البلغار هي أكبر شاهد ، على انتقال التقاليد الساسانية عبر العراق الصحراوية . كل ذلك ، مخلفات حقيرة ليس لها شأن يذكر ، فليس من عجب ان 'مرض' عنها العالم المسيحي ويذهب فيها . وقد كان من نصيب الفنانين البيزنطيين ان يحملوا الى القسالة فناً متكاملاً ، لم يلبث ابتداء البلاد ان اقبلوا عليه يتمثلونه ، ويقبسون منه ما شاء لهم

القبس ، بعد ان تتلذذوا عليه .

وهكذا نرى ان الازمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي هزت الشرق الادنى من اركانه ، كانت اعجز من ان تسبب ، في الحال ، انهيار المدينة . إلا انها مهدت الطريق وأفسحت المجال امام عوامل وقوى جديدة ، لم تلبث ان اثرت تأثيراً عميقاً في هذه المدينة ، وهددتها بمخاطر ماحق نزل بها في القرن الحادي عشر .

الفصل السابع

الحضارات الآسيوية في الأوج (من القرن السابع حتى الثاني عشر)

في القرون الأولى من تاريخ الأجيال الوسطى التي شهدت في الغرب ، انطواء العالم المسيحي كما شهدت ، في الشرق الأدنى ، ظهور الإسلام وانطلاقه كالشهاب الراصد ، عرفت البلاد الآسيوية ، من جهتها ، درجة رفيعة من الازدهار سجلت معها مدنياتها المختلفة رقماً قياسياً في جميع هذه البلدان . ففي مطلع هذه الحقبة ، أي في غرة القرن السابع ، كانت الامبراطورية الساسانية على قاب قوسين وادنى من انهيارها وزوالها . أما الهند ، فلم تلبث ان نهضت من كبوتها ، بعد ان نهضت عنها غبار الدمار والخراب الذي انزلته بها الغزوات الماحقة التي قامت بها قبائل الهونز ، وراحت اسرة هارشده ده كانوج تسمى ، على مثال اسرة الغوبتا ، لتعيد اليها وحدتها . أما الصين ، فبعد ان تغلبت على غزاتها من الاثراك والمغول بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعتها سلالة تانغ الجديدة ، راحت تبسط سيطرتها وسلطانها على التركستان والتونكين ، وشمال مقاطعة الانسام ، بينما ربطت الاقطار الأخرى الواقعة على سواحل البحار الجنوبية ، بصائرهما بالهند ، فأخذت تتطور وتتكامل تحت حمايتها ورعايتها ، فتمهد بذلك لهذا الازدهار الذي تميز به هذه الروائع الهندسية الفخمة التي تتمثل على احسن وجه في هياكل انككور وبارا بودور ، كما راحت أقطار جديدة تعب ، بملء رثيها ، من الحضارات الآسيوية . فها هي التيب التي اعتنقت البوذية ، لن تلبث ان اصبحت ، على شاكلة الترك ، خصماً عنيداً للصين ، ومسلماً للبوذية الهندية ، وحمى لها توفر لها الرعاية والحماية . أما اليابان فقد اخذت ، هي الأخرى ، تستفيد من سبائتها العميق ، وتقتبس بدورها من مقومات الحضارة الصينية ، ولم تعم ان كشفت عما هي عليه من الصفات والمناقب التي ان تلبث ان ميزتها وفردتها . وحركة التطور والتكامل التي اخذت الاقطار الآسيوية بأسبابها ، وجدت جذوتها الكبرى في الهند والصين . فكلاماً استطاع ان يحافظ على مناطق نفوذه التقليدية التي عرف ان يسيطر عليها : الصين في التركستان والتونكين ، والهند في المناطق الهند الصينية واندونيسيا ، كما استطاع كل منها ان يحافظ بناهجه وأساليبه الخاصة ، اذ في الوقت الذي كانت فيه الصين تعتمد على القوة والبطش في

سياستها وتعمل على توطيد النظم الادارية التي اتقنتها ، واحتفظت الهند ، مع البلدان الدائرة في فلكها ، باحسن العلاقات واطيبها في المجالات التجارية والدينية والثقافية .

عند هذا القدر نقف في هذه الموازنة ، وهذه الازائية التاريخية التي تقابل التطور الذي اخذت الافطار الغربية باسبابه والمدنية التي اطلعتها . فلا نرى في آسيا حول هذه العطفة التاريخية التي تكونت من سنة الالف ، شيئاً يمكن مقارنته بهذه النقطة . هذا الانبعاث الذي دب في الغرب الآخذ باسباب النظام الاقطاعي ، كما لا نرى شيئاً يمكن ان نقارن به هذا الانقلاب الجذري الذي قلب الشرن الادنى ، رأساً على عقب . صحيح ان الامبراطوريات الاسيوية الكبرى ليست بمنزل او بنأى عن اي تغيير او تبديل ، ولا مؤسساتها ونظمها متحجرة بحيث لا تقبل التبدل . فهناك اخطار كثيرة تترصدها ، يتحتم علينا تحديدها وتبدل باستمرار من حدودها واوزاعها ، قبل ان تحمل اليها الحراب . ومع ذلك فقد استطاعت ان تحافظ على مقوماتها الاساسية مدة اطول وان تصونها من عبث العابثين . فليس من فجوات عميقة يلحظها المؤرخ في تاريخ هذه الامبراطوريات ، قبل طلوع الفتح المغولي الذي اخذت بوادره ترتسم منذ فجر القرن الثالث عشر ، فبعد ان عشنا قليلاً بالترتيب الزمني الذي نحاول ان نرسم ضمنه التطور المتوازي لهذه المدنات البشرية الكبرى ، علينا ان نكشف ، في هذا الفصل ، عن الخصائص المميزة لهذا العالم الاسلامي كما تبدت لنا من خلال تطوره التاريخي حتى السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر او ابعد من ذلك بقليل .

هي نظرة خاطفة ، جريئة نلقها على تاريخ هذه القارة الشاسعة ، خلال حقبة من الدهر على مثل هذا الاتساع ، والمدى الذي نيتف على خمسمائة سنة . هنالك امران يساعداننا في الكشف عن الطابع المميز لوحدة التاريخ هنا ، بالرغم من تلك الاحداث الكثيرة كما يساعداننا على التسامي فوقها ، هما : انتشار البوذية وتوسعا ، في بدء هذه الحقبة ، والنشاط البالغ الذي عرفته الحركة التجارية ، طوال هذه الحقبة بالذات .

انتشار البوذية في هذا العالم الاسيوي ، كما يبدو لنا في القرن السابع ، الذي ينعم بالاستقرار الموقت وبلازدهار ، كما يظهر ، تلعب البوذية ، دوراً أساسياً . فالبوذية ، تنعم في الهند رسمياً برعاية الامبراطور هارشا ، والمناطق التي تسيطر عليها كجزيرة سيلان ووادي نهر الغانج ، هي اراضٍ مقدسة . وقد بلغت البلدان الواقعة على سواحل البحار الجنوبية وتغلغلت بين شعوبها ، واقامت لها في التركستان نفسه ، نقطة ارتكاز قوية ، أشمت منها بعيداً . وقد اغدقت عليها اسرة تانغ ، الصينية ، الانعامات السابغة ، وساعدتها على ايفاد كتائب من المرسلين والمبشرين والحجاج ، الى الهند والبلدان الواقعة الى الشرق من القارة الاسيوية ، وبلغت التثبيت التي كانت بقيت ، الى ذلك الحين ، مغلقة في وجه المؤثرات الاجنبية ، كما دخلت اخيراً كوريا واليابان ، حيث استقرت ، وازدهرت بفضل ما عرفت به من روح

مستكونية ، اذ كانت عنصراً ضاماً ولحمة ربطت بين اشتات المدينيات التي لقمعتها وتغلغلنت بين ثناياها . فايها حلت ونزلت ، ساعدت على بعث مذاهب ونزعات فنية حملت معها ليس تيار المؤثرات المختلفة التي عملت على نشرها فحسب ، بل ايضاً العبقرية التي ميزت كل قطر من هذه الاقطاره بمفرده .

قام خلال القرن السابع سلسلة متصلة الحلقات من قوافل الحجاج الصليبيين بنية زيارة الهند والمراكز البوذية المشهورة في الانسولاند والتركستان ، يبحثون جادين في اثار الوثائق والاسانيد التي كانوا بحاجة اليها ، ويحرصون على جمعها وحفظها . وقامت ركبان اخرى ، في القرون اللاحقة ، تؤم اليابان التي ارسلت بدورها العديد من الوفود الديلية الى الصين . وقد علق البلاط الامبراطوري في الصين ، اهمية كبرى ، على تبادل هذه الرحلات وتنظيم هذه الاسفار ، بين الجانبين ، اذ كثيراً ما اردف الوفود التي كان يرسلها ، بكاهن له شخصية لامعة ، كثيراً ما عهد اليه بمهمات دبلوماسية ، وكان هذا الكاهن موضوع احترام كبير ، كما تم للراهب بي تسنغ ، الذي استقبلته عند رجوعه ، الامبراطورة نفسها ، عندما بلغ البوابة الرئيسية من جهة الشرق ، على قرع الطبول والزومور وتصداح الموسيقى ، على رأس وفود من الرهبان جاؤوا من كل اديار البوذية ومعاييدهم في العاصمة ، حاملين الاعلام والمظلات ، سائرين على انغام الاجواق الموسيقية والتراتيل الديلية . ان عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج لم يمودوا قط لبلادهم ، إما لانهم استقروا نهائياً في البلاد التي هبطوا فيها ، او لانهم قضوا محبهم في طريق عودتهم ، لما تعرضوا له من الاخطار الكثيرة التي هددت حياتهم : من بحار هائجة تخمر عباها سفن تجارية سرية المطب ، او من وقوعهم في ايدي القراصنة الذين كانوا يعبثون بطرق المواصلات البحرية والبرية على السواء ، او من وقوعهم اسرى بين ايدي اللصوص وقطاع الطرق الذين كثيراً ما جردوهم من امتعتهم وملابسهم او قتلهم ، او المخاطر التي كانوا يصادفونها في الاحوال الجوية والمصاعب البرية كالزوال المائعة التي كان يغوص فيها سالكها ، وغير ذلك من جهد وضنك وعناء عند ما يحاولون قطع هذه الطرق والمسافات الشاسعة التي تباعد بينها .

ففي الوقت الذي راحت فيه قوافل الحجاج والوفود الديلية تهرأ بهذه نشاط الحركة التجارية المخاطر العديدة التي تعترض طريقهم ، نشطت نشاطاً كبيراً الحركة التجارية التي قامت بين البلدان الواقعة على سواحل بحار الجنوب وبين الاقطار الاخرى في آسيا . فالسفن الصينية الكبيرة التي كان باستطاعتها ان تشحن من ٥٠ - ٦٠ طناً ، كانت تفتار من جزر السوند وتسلم بضائع ما طاب لها من مواد ، بينما كانت سفن العرب تملح بادخ - تشبو ، في الوقت الذي كانت فيه سفن جزيرة جاوا المصنوعة من الخيزران ، تنجيه غرماً لملفاه التجار المسلمين . صحيح ان الاخطار الناجمة عن هذه الملاحة التجارية التي عرفت ان تعتمد على الرياح الموسمية كانت كبيرة لكثرة حوادث الفرق التي طامسا ادت اليها ، ولهجوم القراصنة عليها ، او التحول

عن خط السير في الطريق المرسوم لتفادي هيجان البحر ، اوبيع البضاعة بسعر بخس جداً عند حراجة الموقف ، مع ان الناس في المرافىء والاسكلة البحرية ، ينتظرون وصولها بفارغ الصبر ، كما ان مستودعات التخزين في المرافىء ، كانت عرضة للحرائق ، عدا عن رسوم الدخولية والباج المترتبة على التجار ، مع العلم ان الصينيين كانوا يدفعون ايهظ الرسوم وأثقلها ، اذ ان وسق سفنهم كان يبز الجميع . ومع ذلك ، فحركة المقايضات التجارية هذه التي وصفها لنا الرحالة العرب بكثير من التفصيل والاسباب ، كانت تقوم على قواعد راسخة ، ثابتة ، كما نعمت بالازدهار .

وقد بلغت الحركة التجارية هذه مدينة كنتون ، وهاي - تشيو على مصب نهر هواي ، ومدينة يانغ - تشيو على مصب نهر اليانغ تسيو ، كما بلغت مقاطعة فو - كيان . والقناة الكبرى التي تم فتحها بأمر الامبراطور يانغ - تي ، والتي جرى توسيعها فيما بعد بأمر من الامبراطور سواي (٦٠٥ - ٦١٧) ، سهلت وصول الملاحة البحرية والنهرية الى داخل البلاد . وعند بلوغ التجار مرفأ يانغ - تشيو ، وهو مرفأ دولي نشيط الحركة ومزدهر التجارة ، كان وكلاء الامبراطور يتسلمون البضائع ، ويحتفظون بها في العنابر الحكومية لمدة ستة اشهر . وكان البائع يدفع للشاري مبلغاً من المال تأكيداً منه وضماناً لجودة بضاعته ، بينما يأخذ الاخير على عاتقه بعض الاخطار التي قد تتعرض لها البضاعة . وفي نهاية الرياح الموسمية عندما يكون البائع على أهبة مفادرة المرفأ ، تصبح الصفقة تجارية قطعية ، اذ يعمد وكلاء الامبراطور الى قبض ثلاثة اعشار البضاعة ، ويسلمون الباقي للشاري . اما اذا كان الامبراطور هو نفسه الشاري ، فيدفع نقداً ضعفي الرسم المفروض ، لا سيما اذا كانت البضاعة كافوراً . وكان الاجانب الذين يتجولون داخل الصين ينعمون ببعض الحماية . كذلك كان عليهم ان يبرزوا جواز سفرهم والترخيص المسبق لهم ولتجارهم ، والتصريح عن المبالغ التي يحملونها . وكانت هذه الرخص تبرز في كل مركز لجباية الرسوم التي تقرأ بها البضاعة .

وفي الواقع ، فقد ألقت الصين ، خلال اجيال سحيقة ، ولا سيما من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، سوقاً ممتازة لتجار الخليج الفارسي ، وللتجار المسلمين القادمين من بغداد ، اذ كانت الاسعار مقبولة ، وتدع مجالاً لتحقيق ارباح طائلة عند طرفي المحيط الهندي . وهكذا نشطت حركة تجارية عارمة بين العراق والصين ، على طول المراحل والمحطات المعقدة التي تركزت في قواعد : كيداح (شبه جزيرة الملايو) وامبراطورية الخمير ، وصومطرة ، وجافا ، بالرغم من تباین العملات التي كانت الصفقات التجارية تتم على اساسها ، سواء أكانت نقداً ذهباً ، ام فضة ، في الهند ، او نقداً من الفضة ، وسبائك النحاس ، في الصين او عبارة عن مقايضات عينية في بحار الجنوب . والوزن المعمول به في الصين وبلاد الخمير وفي غيرها من البلدان ، كان القبان المعروف بالقبان « الروماني » ، انما بموازين صينية . والنشاط الذي عرفته حركة المقايضات التجارية ، كان تعبيراً عن ازدياد مطالب العالم الآسيوي بأسره وحاجاته المتنوعة ، ولم تكن حاجات الهياكل والاديار دونها جميعاً . فلنبيين عن كتب ، لائحة الاصناف المستهلكة يومياً في

هيكل تا - بروم ، احد الاديار المهمة في كمبوديا ، في القرن الثاني عشر ، وهي : ٧ أطنان من الارز غير المقشور ، و ٦٤ كيلو غراماً من السمسم ، و ٤٨ كيلو من الفاصوليا ، و ٢٠ كيلو من القمح الاسود ، و ٣ كيلو من سكر القصب ، و ٥ لترات من الزيت ، و ١٢٠٠ غرام من الزبدة المدبوبة . والتبرعات الملكية التي يجود بها الملك ، كل سنة ، لم تكن تغل شأناً عن هذه الكميات ، وهي ٢٦٧٩ طنناً من الارز غير المقشور ، و ٤٠ طنناً من الرصاص ، و ٥٢٦٤ كيلو غراماً من المصنوعات الذهبية ، و ٣٨٦٠ كيلو غراماً من المصنوعات الفضية ، وبضع مئات من الكيلوات من النحاس الاحمر والنحاس الاصفر والقصدير ، و ٣٥ الماسة ، و ٤٠٦٢٠ لؤلؤة ، و ٤٥٢٠ حجرأ كريمة ، و ٥٢٣ مظلة ، و ٩٦٧ قلوغاً صينياً ، و ٥١٢ سريرأ من الحرير ، و ٢٣٨٧ بدلة معدة لأكسية التماثيل والاصنام .

وفي الدرجة الاولى بين المواد التي كانوا يتجرون بها ، تأتي المعادن على انواعها . الذهب الذي كان يؤتى به من مناجم صومطرة وكوريا ، والفضة من مناجم شبه جزيرة الملايو ، بالإضافة لما كانوا يسمونه «الرصاص الابيض» او الزئبق الذي كانت الصين بحاجة اليه لتأمين مطالب علمائها ، والنحاس الذي لم يكن بد منه لسك النقد ، والحديد الذي اشتد طلب اندونيسيا عليه بعد ان كانوا يقايضون به جوز الهند ، والنفط اللازم للسفن الصينية . ويأتي بعد ذلك ، الأخشاب الثمينة كالبغم (*Camphor*) الذي كان اكبر انتاج شبه جزيرة الملايو ، والصندال الذي كانت الهند وبلاد الخير تلتجانه بكثرة ، والخيزران ، والكافور لمنافعه العديدة ، اذ كان يستخرج منه زيت الكافور ، ذات القيمة العالية لدى التجار العرب والصينيين ولا سيما امباطورهم على السواء ، وخشب التيك في الهند وكمبوديا وأخيرأ الابنوس . والعطور والطيب على اصنافها العديدة ، منها : المقر او الصبر الذي كان ينبت اصلاً في مقاطعة أسام والتي كانت اجود اصنافه تأتي ، مع ذلك ، من مقاطعة تشمبا وبلاد الخير ، والبخور الذي كانت الصين تستورده ، والمسك الذي كان عبارة عن فوح يعطيه بعض الماعز البري الذي كانوا يصطادونه في الصين وفي التيببت بعد برميته بالنبال او نصب الشباك . وأفخره على الاطلاق عند سكان الخليج الفارسي ، النوع الذي كان يؤتى به من التيببت ، عن طريق القوافل البرية ، بينما المسك الصيني والاخر الذي يؤتى به من جزيرة صومطرة ، كان سريع الفساد والتلف عندما يتعرض لرطوبة البحر . ولذا كانوا يعمدون لصره في نوافج ويضعونه في أوعية مغلقة اقفالاً هرمسياً . وهذا النوع من المسك كان يؤخذ من بعض الجزر اذ المسكي . وتجارة التوابل والافاريه التي اشتهرت بها الهند وبلدان جنوبي آسيا الشرقية : كاللفل على أنواعه ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل الذي كان يؤتى به من مقاطعة كيداج ، وحب الهال الذي كان يطلع في بلاد الخير ، والكبابية او حب العروس ، والصففران الذي كان يصدر من الهند وكمبوديا ، والقرفة ، يجلب الاتسيفنا تجارة بعض المواد الطمعية الغذائية كجوز الهند الذي يستخرج منه الزيت ، وزيت الورد المستورد من الصين ، وسكر القصب والارز وغير ذلك من الحبوب . وبين المواد الثمينة الاخرى يجب ان نذكر العاج الذي كان

يؤتى به من الهند ومقاطعة كيداح وبلاد الخير ، والعنبر او الند الذي يؤتى به من الصين ، وحراشف السلاحف البحرية يؤتى بها من البلاد الواقعة على سواحل بحار الجنوب ، وقرن وحيد القرن من جافا وكبوديا ، وغير ذلك من المواد الثمينة التي كانت تدر على التجار العرب والمسلمين مكاسب طائلة ، اذ زبائنهم من الصينيين كان يهمهم اقتناء سيور يتمنقون بها ، مرصعة بالحجارة المذهبة او المفضضة وبغير ذلك من الحجارة الكريمة ، والياقوت الاحمر ، والماس واللائي ، والمعق التي كانت تصدر من الهند وسيلان وغيرها من بلدان آسيا الجنوبية الى الصين . والى تجارة المواد الصبغية او الكيماوية المعدة للصبغة ، كالزنجفر الذي تصدره الصين ، والكبريت وملح البارود ، وشلش السوسن ، والسباذج المستعمل في صقل المعادن ، وشمع العسل المستورد من بلاد الخير ، يجب ان نضيف الانسجة الثمينة والفراء : كالانسجة النباتية ، والمخمل ، والجوخ والموسلين القطني ، والديباج المزركش بالحرير وأسلاك الذهب . وكلها مواد كانت تصنع في الهند وتصدّر الى الصين ، مع غير ذلك من الحصر وقماش القنب . وكانت الصين تصدر الفراء المصنوع من جلد السمور مع ان البلاد كانت تستهلك منه مقادير كبيرة تستعمل كبطائن لمعاطف الشتاء عند الاغنياء ، حتى ان بعض الحيوانات كانت تصدر للخارج كالبيغاء مثلاً ، يرسلون به من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي ، وكلاب الصيد ، تصدر من المقاطعات الشمالية الغربية في الهند ، الى العراق ، بينما كانت الصين تستورد : الماعز والجاموس والثيران . وبالإضافة الى هذه الاصناف والسلع ، هنالك مصنوعات اخرى كانت تصنع في الصين وتنفق في الاسواق الخارجية ، منها القيشانيات الصينية التي كان يراعى في صنعها اذواق الزُبن في الخارج ، وأطباق من اللك والنحاس والورق وأمشاط مصنوعة من الخشب ، ومظلات ، وقذور حديدية ، وغرابيل ومناخل وابر ، وبرادع الاحصنة وأحسن أنواع الخفوف وأجملها على الاطلاق تلك التي كانت تصنع في مقاطعة كباي ، في الهند . وكبوديا التي كانت تصدر ريش الزراف او الورور ، كانت طريقاً لمروا المرايا الزجاجية الزرقاء التي هام الصينيون باقتنائها وكانت تصنع في بلدان الشرق الادنى .

وقد درت هذه التجارة الناشطة على البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ربحاً وافراً ، يتوافد اليها الهنود والصينيون لجمع في مايرغبون في جمعه من الذهب والافاوية لكثرتها ، كما ان عدداً كبيراً من بينهم كان يقصد هذه البلدان وقيم فيها تفادياً للقلاقل والاضطرابات والثورات التي كثيراً ما كانوا عرضة لها . وقد عاد ذلك على هذه البلدان بالغنى الوافر ، كما ان الاملين عرفوا ان يفيدوا من هذه الاتصالات المثمرة ، بحضارات الهند والصين معاً .

وهذا العالم المزدهر على احسن وجه ، والذي كان مسرحاً للحججاج
الاخطار الخارجية
البوذيين في القرن السابع يسرحون فيه ويمرحون ، ومرتماً لرحلتهم
امثال : هوان - تسانغ (٦٣٠ - ٦٤٥) وبني - تسنغ (٦٧٥ - ٦٨٥) لم يكن ليدور في خلد

الإنسان ، ولم يخطر على بال أحد من السكان ، إذ ذاك ، أنه على قارب قوسين من الأخطار الخارجية تهدده بأسوأ مصير ، تلتابه الواحد بعد الآخر ، على فترات متلاحقة ، وجرت عليه الخراب والبنوار . هنالك حادثان ثقيلان رزح تحتها تاريخ هذه البلاد : إطلالة الغزاة العرب على أبواب آسيا الشرقية ، وبروز الغزاة المغول ، في الشمال .

ومنذ أوائل القرن الثامن ، أخذت جحافل المسلمين تفرع أبواب الهند وقدق مداخلها من الغرب ، بدافع من الجهاد المقدس فيحتلون تدريجياً المواقع الاستراتيجية التي كانت تتمسك بالحركة التجارية مع الهند والصين ، ويدوخون الولايات الشمالية الغربية كآفغانستان وتركستان وقد زرعت هذه الفتوحات معها الدمار والخراب بما لم تر له مثيلاً منذ عهد الهويز ، فحطموا كل شيء . وقد شهدت البوذية ، إذ ذاك ، تراجعاً قوياً وانكفاء بعد ما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك ، في أبان ازدهارها ، وأخذت تتراجع أمام الغزاة العرب يوغلون بعيداً حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الغانج . وعندما قضى تماماً على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من أسرة بالا - سينا ، كانت البوذية تلفظ في الهند آخر أنفاسها ، مع انهيار البلد الذي أطلع البوذية وشهدها تفرع وتنام وتنتشر . وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل ، كياناً مضطرباً : فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كلوج ، في النصف الأول من القرن السابع ، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي ، إذ راحت الدول الكبرى فيها تتطاحن فيما بينها في سبيل تحقيق السيطرة التامة ، الأمر الذي أدى إلى حروب واشتباكات متصلة ، كما أدى ، من جهة أخرى ، إلى تشتيت القوى وهدر الجهود ، وإهلاك المناطق الأكثر عرضة للخطر . والهند الجنوبية التي كانت بنى عن هذه الغزوات لبعدها ، قامت دويلاتها تتناحر فيما بينها وتتقاتل تحزباً منها مع هذه أو تلك من الممالك الكبرى . ومع ذلك ، فقد عرفت البلاد عهداً من الازدهار رعى فيها جانب الفنون والآداب . كما استطاع هذا القسم من الهند أن يحافظ على علائقه مع البلدان الواقعة على شواطئ بحار الجنوب ، وبذلك أمكن المحافظة على معالم الحضارة الهندية فيها .

أما الخطر الثاني الذي كُتِبَ له أن يبدل ويفتر كثيراً ، من معالم آسيا الشرقية ، فقد بدت بوادره تبرز بوضوح ، منذ القرن الثامن . فبعد عام ٧٤٤ ، أخذ الترك من المرق ويغور ، يلشون لهم إمبراطورية ، خلفها بعد ذلك بنحو قرن ، إمبراطورية أسسها التوك من المرق كيرغز ، فكان ذلك تهديداً من بعيد ، لهذه الإمبراطورية الضعيفة ، المترامية الأطراف التي أقامها المغول فيها بعد . صحيح أن الخطر ، من هذه الجهة ، كان لا يزال بعيداً ، إذ عملية توحيد الأقوام البدوية الرحل الذين كانوا خطراً على الصين من الشمال والغرب ، لم تكن اكتملت بعد ، ولن تتم وتكتمل بكل ما كان لها من نتائج إلا في سنة ١٢٠٦ ، أي عندما ظهر جنكيز خان .

فانحلال الإمبراطورية الساسانية ، وانقسام الهند وتفسخها على بعضها ، والضعف الذي أصاب ملوك تانغ ، والفتوحات التي قامت بها سلالة سونغ ، ثم انكسارهم السريع في الصين

الجنوبية ، واخيراً الاضطراب والقلق الذي أحدثه المغول ، كل هذه الاحداث الجسام وما اليها هي من معالم هذه الحقبة التاريخية التي امتدت خمسة اجيال بكاملها ، مع ما جرت وراءها من بؤس وشقاء ، وقتل ونهب وسلب ، مما تحمله الغزوات في مطاويها . ومع ذلك ، لا بد من التنويه عالياً هنا ، ان الثقافة البوذية بقيت آخذة في الاتساع والتغلغل طوال هذه الاجيال ، فانشأت في الهند طرازاً فنياً جديداً هو ما يعرف بطراز بالاسينا ، وبطراز تانغ في الصين ، وطراز مدرسة نارا في اليابان ، والطراز الهندي الجاوي الذي سيطر في اواسط جافا ، دون ان تهمل الانتاج الفني الذي ازدهر في تشامبا في القرن التاسع ، وفي امبراطورية الخير ، وفي مملكة الشامي التي قامت في السيام ابتداءً من القرن الحادي عشر . وهذه الثقافة الهندية لم تكن لتقل ازدهاراً في الممالك الاخرى التي قامت في الدكن ، كمملكة آل بلافا ، وآل غالوكيا ، وآل تشولا ، وآل باندايا التي اعطتنا مباني هندسية لم يكن لها مثيل في جملها . ولذا كان لا بد من استعراض نتائج هذا الازدهار الفني ، بلداً بعد بلد .

تبرز المعلومات التي يمدنا بها الحجاج الصينيون عن الهند ، في القرن السابع ، استمرار التقاليد الهندية وديمومتها ، وتنوع العادات التي سار عليها القوم ، اذ ذاك ، وهذا البذخ والجود الذي تحلى عند حكام البلاد وملوكها . فهي تصف لنا بدقة متناهية نظام الطبقات المعمول به في طول البلاد وعرضها ، والفروق التي باعدت بينها ، كالبراهمان الذين جعلوا قاعدتهم المثلى في الحياة الطهارة الى اقصى حدودها ، والنبلاء *Kshatrya* الذين كانوا من السلالات الملكية ، والتجار *Vaigya* والمزارعون والفلاحون *Indra* ، واخيراً طبقة المنبوذين وهم اهل الطبقة الدنيا *Paria* كالجزارين والصيادين والجلادين ، الذين اجبروا على الإقامة والسكنى ، خارج المدن ، فاذا ما خرجوا من بيوتهم وتنقلوا ، ساروا وحدهم منزوين ، ولزموا اليسار من جانب الطريق او الجادة .

فالملك او الامبراطور له الدور الاول . فهو يعطي المثل في كل شيء ، كما يختصر في شخصه جميع الفضائل التي يمثلها المحاربون *Kshu Triya* . فالامبراطور هارشا هو صورتها الاتم ، ومثلها الاعلى في نظر الحجاج الصينيين ، وهو المدافع المخلص ، والحامي الفيور للبوذية ، يهتج نهج الغوبتا في البذخ والابهة . فقد فاز على الاخضر ، باعجاب حيوان ... تسانغ ، الذي نزل عليه ضيفاً بضعة اسابيع ، فوصفه : بأنه من ائنف رجال عصره ، واعلام كعباً ، فحرص على ان يجعل من بلاطه ملتقى رجال الفكر والادب ، من شاكلة : مايورا ، وبانا ، وضع عدداً من القصائد المستطابة والتشليلات الحية . وكان الى جانب هذا رجل حرب ، كما دلت على ذلك بمناسبات عديدة ، وكان رجل دولة ، كما برز خلال الحروب والمفاوضات السياسية التي ساعدته على توحيد شمالي الهند . فاذا لم يلتزم دوماً بجانب الحياد في الامور الدينية ، فقد نحا مع ذلك ، نحو كبار ملوك الهند ومشاهير عظمائهم ، اذ كان متساهلاً ، سمحاً مع الديانات الهندية الاخرى ، وسار بعيداً في هذا الطريق بحيث افضى الى مذهب توحيد الاديان .

وباعتباره الوريث الادبي للوك الغوبتا ، فقد نهض الملك هارشا بالمدنية التي خلفوها ، ورفع علانياً مشعل الازدهار الذي حققوه للهند حتى القرن السابع . اما عاصمة ملكه كانيا كويجا او Kanani وهو الاسم الذي تحمله اليوم ، فكانت موضوع اعجاب هيوان - تسانغ ، اذ جاءت شبيهة تمام الشبه بمواسم اسلافه :

« كانت على مقربة من نهر الغانج ، يحيط بها سور عال وخندق ماء عميق . يرتفع فيها الى عنان السماء العديد من الابراج الشاهقة ، وتقوم فيها الحدائق الفناء والرياض الفيحاء ، والبرك المائية والاحواض البديعة كأنها صفحة مرآة . اما اسواقها ، فتتص البضائع الاجنبية من كل لون وجنس . يرتع سكانها بالهنا والغنى كما ترفل أسرها بالرفاء . اينما اجلت النظر ، وقعت منك العين على معارض من الزهور والرياحين والفاكهة اللذيذة . وفيها نحو من مائة دير يضم مجموعها اكثر من ١٠٠٠٠ راهب ، وفيها نحو من ٢٠٠ معبد مختلف آلهة الهند ، كما يقدم فيها بضعة آلاف من الحوارج على البوذية » .

وهذا الوصف يمكن اطلاقه ايضاً على المدن والقرى والساكن في الارياف ، اذ كلها ترفل بنعمة الرفاء والثراء ، كما نجد فيها كثافة السكان . وهذا الغنى قوامه الاقتصاد الزراعي ، مع العلم ان التجارة كانت ناشطة للغاية ، كما ان المقايضات التجارية كانت على اشدها مع البحار الجنوبية .

ويفيض الحجاج الصينيون وصفاً وتعريفاً بامور الدين وادعائه اذ ذاك . فبعد ان شالت الديانة الهندوكية وراجت ، اصبحت كل المراكز البارزة التي سيطر عليها البوذيون من قبل محوطة بمدن ومعابد هندوكية ، فمدينة بيناريس ، احدى المدن المقدسة عند الهندوكيين ، كانت تضم نحواً من ٣٠ ديراً للبوذيين ، و١٠٠ هيكل للبراهمانية ، لم تفقد لليوم شيئاً من ابتها وقامتها :

« ترتفع فوقها ابراج من عدة ادرار او طبقات ، ومعابد لها جبال فتان ، صنعت من الحجر المنحوت والخشب بشتى الالوان . وكلها يقع في رياض غضيفة ، كثيفة الظل ، يترقق فيها الماء السلسيل » .

وقد أثار اتباع سيفا اعجاب الحجاج الصينيين ودهشتهم :

« اذ ان بعضهم كان حليق الشعر ، بينما احتفظ البعض الآخر بفدائر متدليلة فوق أكتافهم ، وهم عرايا الاجسام تماماً ، لا يسترون عريهم بشيء (فرقة ال Jains) والبعض الآخر يأخذ بفرك اجسامهم بالرماد ويخضعون نفوسهم لأصعب العذابات وأشدّها ، فتصبح جسامهم دكناء كالخة . وبينهم من اعتمر ريش الطادوس كما ان بينهم من يغطون اجسامهم ببعض الاعشاب المضفورة ... وهناك فريق قلعوا شعورهم ، راحقوا شواربهم ، وبينهم من ارخى سوافهم وأعقصوا شعورهم فوق رؤوسهم » .

اما المباني البوذية والجماعات التي تختلف اليها ، فشيء آخر تماماً . فالمدينة الرهبانية : فالاندا التي كانت ، اذ ذاك ، في اوج عزها ومجدها - هذه المدينة التي خربها المسلمون ابان القرن الثالث عشر وجعلوها قفراً يباباً - كانت تضم نحواً من عشرة أديار تكون معاً وحدة ، يحيط بها سور من القرميد ، له من جهة الغرب ، رتاج ضخم . وكان الدير عبارة عن قاعة او بهو مسقوف ،

وجامعات مُشِعة ، كانت لها املاك واطيان واسعة بينها أكثر من ٢٠٠ قرية تؤمن لها الرزق والمؤن اللازمة . ويرسل عدد كبير من المحسنين يومياً ، لهذه الاديار ، مقادير كبيرة من المواد الغذائية كالارز والسمنة والحليب اللازم لغذاء الرهبان وتلاميذهم ، كما ان الملك نفسه كان يجود عليهم من عوارفه السابغة ، يهب طائلة . ويدرس في هذه المعاهد الدينية أكبر جهابذة البوذيين ، واوسم علماء ، فيلقنون العلوم الدينية كما يدرسون العلوم الاخرى ، وهو تعليم ناجح ، رصين ، على مستوى طلاب جامعيين ، بلغوا العشرين من عمرهم ، وقالوا درجات جامعية عديدة . ولا يمر الطالب من صف الى اعلى إلا بعد ان يمتاز بنجاح ، امتحاناً صارماً . يخضع الطلاب لنظام آمر بني على الحكمة والاختبار البشري . ويترأس كل دير رئيس يكون عادة المتقدم عليهم سنًا . والحياة الرهبانية تفرغ على ترتيب دقيق ، وفقاً لسير الساعة المائية ، هذه الساعة التي ترك لنا عنها بي - تسانغ ، وصفاً دقيقاً في كتابه *Nun - hai - ki* - الفصل الثالث منه ، ولها جرس يقرع في الوقت اللازم إيداناً بانتهاء عمل ما وحلول عمل جديد : كوقت الاجتماع العام ، او وقت الصلاة ، او وقت تناول الطعام . وعندما يأتي الليل ، تقفل ابواب الدير ، بعد ان تركت مفتوحة على مصراعها طوال النهار ، وتُختم ، وتسلم الاختام والمفاتيح للرئيس . وجماعة الرهبان أنفسهم يقضون في امورهم فيماخذون احكامهم بالاجماع ، كما ان جمهور الرهبان يهابته الكاملة هو الذي يقرر كل ما يلزم لادارة الدير وأملاكه الواسعة . فكل سرقة او اختلاس ، يعاقب عليه فاعله بالطرء ، في الحال . وهذه القوانين والانظمة ، يخضع لها المبتدئون انفسهم في السلك الرهباني ، كما يخضع لها الطلاب العلمانيون ، ويخبرون عليها جبراً .

والحياة للعلمانية نفسها تتأثر الى حد بعيد بمنهج حياة الرهبان في الاديار الهندوكية والبوذية . وهذه الاديار هي ملتقى تجمعات وحشود كبيرة تؤمها في بعض الاعياد التذكارية التي يحتفل بها الشعب ، والتي تصبح مظهراً من مظاهر البذخ والجاه . وكان الملك هارشا ، يقوم في كل سنة بتوزيع المواد الغذائية ، على كل الرهبان في الامبراطورية ، كما كان يعقد ، كل خمس سنوات ، « ندوة الخلاص » ، وذلك في السهل الفسيح الواقع على مقربة من مدينة الله اباد ، عند ملتقى نهري الغانج والحجبا ، ويقوم ، اذ ذاك ، بتوزيع الصدقات ، على نطاق واسع . وقد حضر هيوانغ - تسانغ ، سنة ٦٤٣ الندوة التي وقعت في تلك السنة ، ضمن سياج من القصب يرفع في الوسط برادفات من القش ، حيث توضع الهدايا على اختلافها : من ذهب ، وفضة ، ولآلىء ثمينة وزجاجيات حمراء و حجارة كريمة ، وألبسة الخبز والديباج والقطن ، ونقود الذهب والفضة . ويمعدون في خارج هذه الحظيرة ، غرفة للطعام ، فسيحة الارجاء ، مسقوفة ، وقاعة للاجتماعات تتسع لأكثر من ألف مقعد وكرسی ، يدعى اليها الرهبان واتباع الهندوكية ، والنساك العريان ، والبؤساء ، والمعوزون ، واليتامى ، والاولاد الذين لا سند لهم ولا قوام . ويضرب الامبراطور وحاشيته خيامهم على مقربة من نهر الغانج حيث ترسو عمارة من السفن النهرية ، بينما تأخذ الفيلة والحيش مواقعها المعينة ، في السهل . وكانت عملية التوزيع هذه ، تستمر شهرين ونصف ، اذا ما اخذنا

بأقوال هيوآن - تسانغ ، فتبتدىء بالبوذيين المحتشدين امام تمثال بوذا ، وقتنقل بالتوالي ، الى عبدة الشمس حاملين صورة أديتيا ، ثم اتباع سيفا ، ويأتي بعد ذلك اتباع الديانات الهندية الأخرى ، ثم تمر مواكب التبتا والزهاده المراه ، ثم مواكب الرهبان والعلمانيين والبؤساء واليتامى . فيوزع الامبراطور كل الاموال التي جمعت في خزينة الدولة خلال السنوات الخمس ، بما في ذلك : « ملابس الملكية ، وأحدثه وأقراط الذهب واساوره والاكلييل المحيط بتاجه ، والآله التي تزين عنقه ، والدرة الثمينة التي تندلى من عنقه » . فيهب رجال حاشيته للعصال لشراء هذه الكنوز. ويعيدوها الى الملك هارشا ، وفقاً لتقليد صار عليه جدودهم الأولون كان بمثابة رسم او ضريبة يتحملونها طوعاً واختياراً . ويزيد هيوآنغ - تسانغ على ذلك فيقول : ولكن ما هي إلا بضعة أيام ، فيعود المالك ويهدي هذه الكنوز من جديد ، ويوزعها كما فصل في المرة الاولى .

اما الحياة في مقاطعات الهند الأخرى ، فكانت على مثل هذا النحو المتناقض ، من البذخ والفقر المدقع ، كما كانت عليه في مملكة هارشا . فالسكان ، كأهل الدكن مثلاً ، شديدو السمرة ويتكلمون لهجات مختلفة ، كلهمجة تلفو والتامول ، بينما كانت الطبقات الاجتماعية العليا ضالمة بالثقافة السنسكريتية . وقد جعلهم المناخ الاستوائي الذي يعيشون فيه ، على استعداد نفسي للفلو والتطرف : خمول من جهة ، وفيض في الكلام والمفاطفة ، من جهة أخرى . وكانت الهندوكية هي المسيطرة بالفعل ، مع ان البوذية كانت لا تزال قائمة على بعض نشاط . وقد دارت بين الجانبين معارك وحروب طويلة تورطت فيها الأسر الملكية الدرافيدية ، التي عرفت كلها ادواراً زاهية زاهرة من الاشعاع الحضاري . وقد استطاعت احداها ، وهي الاسرة الملكية البلافا ، التي سيطرت على ساحل الدكن الجنوبي الشرقي ، ان تقيم لها حضارة ازدهرت حتى القرن التاسع ، فبنت في القرنين السابع والثامن ، الهياكل المشهورة في مدينة : مافاليبودام ، وشدت من ازهر الآداب والثقافة التامولية التي عرفت ، اذذاك ، عهداً من الازدهار ، لم تسجل مثله من قبل ، كما كان لها اثر كبير على البلدان المستهندة او التي اخذت بالثقافة الهندية : كالهند الصينية وكمبوديا ، وتشامبا . اما دولة تشالوكيا التي سيطرت على سواحل الدكن الغربية الشمالية والتي تمكن احد فروعها من تدوين مملكة اندراه القديمة وفتحها ، فقد تركت ، هي الأخرى ، آثاراً حرة بكل تقدير واحترام . فقد كان ملوكها رؤساء شعب مهران ، وهو شعب حربي ، شجاع ، باسل ، فاخر افراده بقوام البدنية ، وربوا جنودهم ونشأوا على ذلك ، ولذا راحوا يضربون جيوشهم واقياهم بالحروب ويكسبونهم بنيرانها . وقد تركوا ، هم ايضاً ، مباني ضخمة ، تأخذ بمجامع الالباب ، لا يزال بعض هذه المباني ماثلاً للآن في مدينتي ألورا ، وبادامي (القرن الثامن) .

اما مقاطعات الهند الشمالية الغربية ، فقد تخالطت العروق فيها : كالترك والايروانيين والآريين ، وتمازجت المذاهب والمقائيد والاديان ، كالديانة الفارسية القديمة ، والمائوية ،

والنسطورية والهندوكية ، واليانية والاسلام . واستمرت اتصالاتها التجارية ، بحراً مع ايران وبلدان الغرب على اساس من تبادل السلع والبضائع المصنوعة في الخارج ، كالديباج والخز والسجاد والطنافس على انواعها الكثيرة . فكانت هذه المقاطعات ، بالنسبة لموقعها الجغرافي ، اولى الاقطار الهندية ، التي وطأتها سنايك خيل غزاة المسلمين لدى الفتح . ومع ان سكان هذه الاقطار كانت طباعهم الفت الغزوات منذ اكثر من الف سنة وهم يتعرضون لها من الميمنة والميسرة ، اذ كانت كلها تتسع طريقاً واحداً واعتادت رؤية الفاتحين يدقون منها الابواب بمنف وجلبة ، فقد هبوا جميعاً يستمسون في صد الغازي الجديد ويبدلون ارواحهم في سبيل الدفاع عن ديارهم ومنازلهم . ومنذ ذلك الحين نشأت بينهم عادات واعراق ، لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كزواج الاولاد منذ الصغر ، مغالة منهم في محافظتهم على نقاء العرق وصيانتهم ، والحجر على المرأة وفرض الحجاب عليها ، صوناً لها من عبث الغزاة وشروء نظراتهم الامارة بالسوء . وكان من نتائج الفتح الاسلامي ، لتلك الاقطار ، ان انكفأت الحياة في الهند على نفسها ، وانطوت على ذاتها ، وايقظت ، في النفوس النزعات القومية الغافية بين الاجناس والملل والنحل ، وواقفت تطورها وحجرتة . وبعد محاولة اولى نحو المصالحة ، من آثارها هذه المساجد الهندية الطراز الماثلة اليوم في مدن غوجارات وكاتياوار ، عادت مقاومة الاهلين تتصلب من جديد . وبذلك طلع على الهند عهد قائم ، حالك ، اضاعت معه هذه البلاد استقلالها ، كما استنزفت فيه كل قواها . وهذا السبات العميق الذي استسلمت اليه ، لم تفق منه الا لماماً ، في انتفاضات محلية ابدتها مقاومة الاقوام الوطنية . وكان من فضل هذه الردة ان صانت لنا ، سالماً صحيحاً حتى اليوم ، التركيب الاجتماعي الذي عرّفت به الهند ، وهذه التقاليد الدينية والفلسفية ، وهذه المناقبية التي ميزت شعوب الهند ، والتي لا تزال لليوم ، في كثير من امورها واحوالها ، ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن .

يتذكر القارئ الكريم كيف ان في السنوات الاولى من القرن السادس ، امبراطورية الخيز هوت الى الحضيض ، بملكة فو - نان ، اقوى الدول المستهندة الواقعة على بحار الجنوب ، وانشطها طراً منذ عهد بعيد ، وذلك تحت الضربات القاصمة التي انهالت عليها من ملك تشان - لا (منطقة بساتك اليوم) ، احد الملوك التوابع لها الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية الخيز . وقد ازدهرت هذه الامبراطورية طيلة قرن من الزمن ، وعاش ملكها ، في مقاطعة Sumbor Prei Kuk اولاً ، ثم في مقاطعة انغور بوراي ثانية ، عيشة ملوك زمانه ، محوطاً بجيش لجب من رجال بطانته وكبار موظفي دولته ، يستقبل بكل أهبة وبهاء ، ثلاث مرات في الاسبوع ، من يطعم بشرف المشول بين يديه .

اما الموظفون فهم على مراتب مسلسلة تسلسلاً آسراً ، وفقاً لوظائفهم التي نعرف القاب حاملها اكثر من معرفتنا لحقيقة او ماهية الخدمة التي يؤدونها . وقد عاشت معظم الطوائف الدينية الهندية الاصل ، معاً في ظل هذا النظام الواحد ، كما نستدل على ذلك من هذه الرقم والنقاش الحجرية ، وكلها بلغة سنسكريتية ، شعرية صحيحة ، ثم بلغة الخميز ، منذ مطلع

القرن السابع . كل هذه المصادر تنوه عالياً كيف ان هذه البلاد تمثلت حضارة الهند السنسكريتية . والجدير بالذكر هنا ، طلوع عبادة خاصة هي عبادة الـ *Linga* (وهو الـ *Phallos* عند الاغريق) وهو رمز الخصب والاختصاص عند الاله سيفا ، التي كانت تصبح ديانة الدولة الرسمية . ومن الاهمية بكان التنويه هنا بهذه الظاهرة ، كما سنرى بعد حين .

كان القرن التاسع في تاريخ البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، عصر اختار ونُضج . فلم تلبث الدولة الجديدة التي ظهرت ان امتصت دولتين « هنديةين » قامتاً معاً في مقاطعة تشامبا ، التي ابتلعت تدريجياً مملكة لين - بي القديس فكوكت حوالي منتصف القرن التاسع مملكة تشامبا الموحدة . اما مملكة شريفيايا التي تألفت في الجنوب الشرقي من جزيرة صومطرة وضمت قسماً من الملايو ، والتي برزت للعمل بنشاط منذ عهد قريب ، فقد اخذت تمتد الى أطراف شبه الجزيرة الهند الصينية والتونكين وتشامبا ، في الشمال ، واضعة منذ انطلاقتها الاولى ، الاسس التي قامت عليها سيادتها وسيطرتها على البحار ولا سيما مضائق تلك المنطقة . وفي الوقت ذاته ، ظهر في جزيرة جافا ، مملكة جديدة هي مملكة سايلاندرا ، أي مملكة الجبل ، وهو تعبير هندي للمعابد الاندونيسية التي كانت تجعل من الجبال مهبطاً للآلهة تستقر عليها ، كما انه لقب حاكي ، الى حد بعيد ، اللقب الذي كان يحمله ملوك فو - نان قديماً . فباحياهم هذا اللقب ، رمز ملوك جافا الى الدوافع التي جالت في أفكارهم ، والاهداف التي نشدوها من اقامة سلطة شاملة . وقد يكون في تكتسيهم بهذه الكنية ما قد يشير الى حقوقهم المكتسبة على فو - نان . وقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مهمة جداً زرعت الفوضى في مملكة الخمير وجعلتها تنقسم على نفسها الى مملكتين هما : تشان - لا البرية (ضمت جنوبي اللالوس والقسم الاوسط منه) ، وتشان - لا المائية (ضمت حوض نهر الميكونغ) . وهناك من الدلائل ما يشير الى ان جافا حاولت ان تفيد من هذا الظرف بالذات لتخضع كمبوديا لسيطرتها وتضعها تحت نفوذها . ومع ان المقاطعة الاخيرة كانت تحتجاز عهداً مظلماً ، فقد عرفت ان تحافظ على استمرار الانتاج الفني فيها . اما جافا ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، ان وصول سلالة سيلاندرا للحكم يتفق في الزمن مع الوقت الذي عرفت فيه الوسيلة الكبرى للبوذية ، ازدهاراً كبيراً في البنغال الغربي ، والاتصال الذي تم بينها وبينها جامعة نالاندا ، واستنهاض كل الادارة الرسمية للبلاد ، كاتخاذها مثلاً أسماءاً مشابهة لأسماء الهند ، وتبني اللغة السنسكريتية المعمول بها في شمالي الهند . وغصّت جافا اذ ذاك ، بالمباني والعناصر البوذية برز بينها الأثر المشهور المسمى *handikalasan* ، الذي شيد ، سنة ٧٧٨ ، وبواسطته نستطيع ان نضع ترتيباً زمنياً للآثار المعمارية الاخرى . ولعل اهم هذه الآثار وأجملها على الإطلاق هو البارابودور ، اذ في نقوشه البارزة الحفر ، ما يشير الى بعض النصوص البوذية الهندية . فبعد ان سيطرت البوذية على أواسط جافا ، دفعت أمامها ، الى اطراف الجزيرة الشرقية ، العناصر الموالية للهندوكية ، حيث نرى ، منذ عام ٧٦٧ ، بعض آثار لعبادة شارة الخصب الملوكية .

وفي مطلع القرن التاسع ، وقع حادث عظيم في مملكة كمبوديا ، وذلك عندما رجع امير من

سلالة ملوك الخير ، من جزيرة جافا ، وراح يحمر المملكة من نير الاستعباد لجافا ، وأسس عام ٨٠٢ عبادة الإله ، الملك ، في هيكل شيد ، هو نفسه ، على قمة رابية هو جبل كولين الذي يطل على سهل انفكور . وهذا الحادث كان لا يخلو من مغزى كبير . فلتحرر كلياً من عبودية ملوك الجبل ، في جافا ، كان لا بد له من الاحتفاظ باللقب ذاته الذي بعثها الى الوجود وأقامها هو نفسه ، فيضم اسمه ، وبالتالي شخصه ، الى عبادة الـ *Linga* اوشارة الخصب عند الإله سيفا المجائي ، فهو درع المملكة ، وحامي ذمارها . ولهذا السبب بعينه ، اقام قصره على قمة احدى التلال المرتفعة ، وتسلم من يد احد البراهمة رمز الخصب (*Lingu*) الملوكي الذي رمز به الى قوة ملوك الخير وسيطرتهم . واعتمد الراهب البراهماني النصوص الهندية وراح يحتفل بالطبوس الدينية ويعلمها لحاجب الملك الذي كان هو الآخر كاهناً براهمانياً ، وأخذ منذ ذلك الحين يسير في صحبة الإله - الملك ورافقه في جميع تنقلاته . وهكذا أطل على مملكة كمبوديا عهد جديد بولود امبراطورية الخير ، هذه السلالة الملكية الانفكورية الناجزة الاستقلال .

ففي الحين الذي كانت فيه الصين تواجه عهداً من الاضطراب والقلق يتفق وآخر عهد سلالة تانغ والسلالات الخمس ، وبينما اخذت سيطرة ملوك سيلاندرا ، من جهة اخرى تنحط لتزول تدريجياً امام بأس مملكة جافا الشرقية ، راحت مملكة الخير تتجه بخطى ثابتة نحو الازدهار ، وتنحت لها الخصائص التي ميزتها والتي حافظت عليها حتى بدء انحلالها في القرن الرابع عشر .

فالملك هنا ، كما في الهند ، هو محور الدولة وقطب الدائرة فيها . فهو رأس كل سلطة فيها واليه مصيرها . فهو حارس القانون ، والمشرع على النظام ، وحامي الدين ، والمحافظ على النذور والوقوفات التقوية ، والمناضل في سبيل سلامة البلاد واستقلالها . فهو الإله على الارض . ويجلس الملك للديوان مرتين في النهار ويبرز من خلال نافذة ، مصراعها من الذهب ، حاملاً سيفاً بيده . يعلن عن وصوله بصداح الموسيقى وعن تروسه الديوان بالبوق . فان مشى فلبس على الارض العارية ، بل يفرشون دوماً تحت قدميه الطنافس البديعة . فاذا ما غادر قصره فعلى ظهر فيلته ، فوق هودج فخم . عاصمته صورة مصغرة للعالم ، فالقلب منها هيكل قائم على رابية يشبه جبل ميرو ، هو محور الدنيا ، ونقطة الدائرة ومهبط الإله الملك . ويحرص كل ملك على ان يشيد ، على نسبة امكاناته ، جبلاً معبداً وينصب عليه بكل حفاوة ، محوطاً بالمراسم الرسمية شارة رمز الخصب ملفوفاً بالقمط الملكية دون ان يدري احد ما اذا كان هذا التمثال جديداً او من القرون الماضية .

يتولى الادارة في البلاد ويتحكم بها الطبقة الارستوقراطية : كالبراهمان واعضاء الاسرة المالكة ، واقارب حاجب الملك . والمجتمع نفسه يحمل طابع التسلسل : فبعد الملك يأتي البراهمان توأ ، ومن كل على شاكلتهم من اساتذة الدين واللاهوت و « ارباب المنزل » ، ثم يأتي ولي العهد ، فالوزراء ، فقيادة الجيش ، فاصحاب المقامات العليا والمراقب ، فرجال الحرب الاشداء ، ثم سواد الشعب ولميمه من البائسين ومناكيد الحظ . وفي ثغالة المجتمع يأتي المقعدون

والمشوهون ، والحُدُب والاقزام ، وكبار المجرمين وشذاذ الآفاق ، والبرص ومن لا عذار لهم . فاعضاء الطبقة الاولى وحدهم : من المملك الى المحاربين الاباسل ، لهم الحق بدخول الهيكل . فالادارة هي كذلك بين يدي موظفين يخضعون لتسلسل دقيق وترباط آسر : من وزراء ، الى قادة جيش ، الى مستشارين ، فولاة ، وحكام اقضية ، ومدراء ناحية ، وبأموري المحازرت والمستودعات ، ورؤساء السخرة الذين يقسمون الى اربعة مراتب يصعب علينا تحديد ماهية كل واحدة منها على حدة . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي بلغتها السوق التجارية عند الخير ، ظهر لنا كم كان ضخماً عدد التجار في البلاد ، وقد يكون حكمهم حكم الفلاحين وسكان القرى من السلم الاجتماعي ، وهو وضع لا نعرف عنه كبير امر . وجل ما نعرف هو ان عدداً كبيراً منهم كان يعمل في خدمة الهياكل والمعابد ، عرضة لسخرية كبار القوم والتهم عليهم .

وقد سارت هذه الاقلية ، فترة من الدهر ، تارة مع الهندوكية واخرى مع البوذية ، وراحت تحتفل بالاضافة الى هذا ، بعبادة خاصة ترتبط ولا شك بعبادة الجدود : فالملك والامراء ، واصحاب المراتب العليا ، ورجال الجيش البواسل ، اخذوا يشيدون وهم احياء ، معابد باسمائهم وينصبون فيها تمثال احد الآلهة يسمونه باسم الاله الشفيع . وكان الواقف يحصر جداً على هذه العبادة ويؤمن استمرارها ، اذ كان الناس يهتمون كثيراً بالامر المصير بعد الموت ، كما يبدو من نقيشة محفورة في معبد انفكور - قات ، مكرسة للسماء والجحيم على السواء . وهذا النوع من العبادة والتكريس غير مألوف قط في الايقونوغرافيا الهندية .

ففي هذه الدولة التي حَسُنَتْ ادارتها فسلسلت امورها ، نعمت المواصلات بشبكة جيدة من الطرق النهرية والبرية ، منها طريق بري مبلط ، تراوح عرضه بين ١٠ و ٢٥ متراً ارتفع نهره فبرزت جاداته في تقاطع مستقيم الزوايا ، وتمر فوق الانهر والمجاري المائية الضخمة على جسورة كبيرة . ويقوم على طول الطريق مراحل ومحطات معينة ، يسهر على الاهتمام بها فريق من القرويين ، ويقوم في هذه المحطات باعة متجولون امامهم اطباق شتى يعرضون عليها سلمهم . والنقل يتم بواسطة حاملين الاثقال على الظهر او الرأس او الكتف . اما المزرع من الاحمال ، فينقل على ظهور الافيال او يُعهد بأمره الى عربات النقل ، وهي على عجلين ، يجرها زوج من الثيران او الجاموس تعلوها مظلة من الهشم . اما اصحاب الرئاسة ، فيتنقلون في هودجهم الخاصة ، بصحبة آلهتهم وما اليها من مقدسات . كذلك نرى عربات كبيرة للنقل بها اربعة او ستة عجلات فوقها مظلة وستائر مدلاة تغطي مستودعات البضائع . ويمخر في الأجر العديد من القوارب التي ترك الحجاج الصينيون وصفاً دقيقاً لها .

فباستثناء الهياكل المبلية كلها من الحجر ، وأجملها على الاطلاق يعود للقرن الثاني عشر ، كمعبد انفكور - قات ، مثلاً ، فبيوت السكن كلها تقريباً تصنع من الخشب وتسقف بالقش ، ما عدا القصر الامبراطوري الذي كان سقفه من القرميد الاحمر . لم يصلنا شيء من هذه المباني الخشبية . وكان في القصر ، على ما يقدر العارفون ، وفقاً للنقائش المحفورة ، جناح خاص بالعامّة

من الشعب ، بينما لم يترك احد من الرحالة ، في ذلك العهد ، أي وصف للجناح الخاص بالملك .
ومهما يكن من الامر ، فقد كان فيه قسم خاص بالحريم ، وآخر خاص بسكنى الملك ، يسهر
على سلامته حارس خاص .

اما الاثاث ، فكان يتألف من مقاعد واطية ، وغير ذلك من الادوات المختلفة الجميلة النقش
والمنظر ، اضيف الى ذلك شبكة كاملة من السلاح على اختلاف أنواعه بينها مجموعة من السيوف
الهندية ، واخرى من القسي ، والنبال والمعدات التي قلدوا منها المنجنيقات المستعملة في الصين ،
والمظلات ، والمذبات ، والمراوح والألوية ، وآلات الطرب التي كانت تحتفظ في مخازن خاصة ،
اسوة بما كان يجري في الهند . ويبدو المحاربون لابسى دروعهم ومعتنرين حوذهم . اما المدنيون ،
فكانت ملابسهم ترفل بالكثير من الحلي والحجارة الكريمة ، وتتألف اصلاً من سروال طويل
للرجال ، ومن تنورة او قفطان للنساء . وتمر اوقات النهار رتيبة على دقات الساعة المائية .
ولفت نظر السياح ، كثرة استعمال القوم للخلال او السواك ، وما عليه القوم ، عادة ، من
نظافة ، يتلوهن برؤية مصارعة الديوك بعد ان اعتاد الملك الاستمتاع بهذه الألهية البريئة يومياً ،
ويراهن عليها ، ويدفع في حال خسارته ، ذهباً . وتلعب المرأة ، في المجتمع ، على ما يبدو ،
دوراً بارزاً . وليس بغريب قط ان يراعى في النظام الوراثي قرابة الرحم ضمن الصلب . والاسر
الكبيرة التي تعد بين افرادها كريمات جميلات ، تهدينهن للملك ، فيقمن في بلاطه مع سرايره
وقيانه وراقصاته . وكثيراً ما أدى هذا الوضع بهن الى التدخل بشؤون الدولة ، والى لعب دور
بارز في الحياة الدينية .

فاذا ما عولنا على الوثائق الخطية التي وصلت الينا ، يبدو لنا ان المعابد ومن اليها من خدم
وحشم ، لعبت دوراً هاماً . فالى جانب المعبد يقوم عادة دير يتولى ادارته رئيس عام يؤمن
النظام ويسهر على ضبطه وصيانتته بكل دقة ، كما يقوم بتدبير اموره المادية . فالرئيس هو الذي
يمين مقربي الدباح والمنجمين ، بينما يطلع الحاجب بتأمين مراسم العبادة ، ثم يأتي المراقبون ،
والبراهمة والنسك والكهّان معهم عدد كبير من الحراس : هؤلاء يقومون على حراسة الدوائج
الثمينة وكنوز الذهب والفضة ، واولئك يسهرون على النار المقدسة ومشاتي الموتى ، بينما يحرس
البعض منهم الابواب ، والحدايق ، والبعض الآخر الرحي التي تطحن الارز او تحلجه . وبلي
هؤلاء حشود من الاتباع يقيمون ضمن دائرة الهيكل او خارجها يسهرون على تأمين انتظام
الحياة في المعبد وراحة سكانه وخدمته على انواعهم كالمعتننين منهم بضفر الزهور والعناية
بالحدايق ، وغير ذلك كالنسوة اللواتي يعملن في تنقيسة الارز او طحنه ، ومتمهدي الماشية ،
وناظري الارقاء والحراس ، وآخرون يعنون بالكتب ولسخها وبالمحفوظات وصيانتها . اما
الراقصون والراقصات وأهل الكيف ، فيؤلفون طبقة خاصة بهم . ومعظم هؤلاء الخدم قرويون ،
جبيهم من القرية القريبة ، ويؤتى منهم باعداد أكبر في فصل الامطار ، وكلهم معفون من
السخرة او مصادرة الحكومة لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس الدير . ويحظر عليهم القيام

بأعمال سخرة لغير آلهة لا يعملون في خدمتها . ان معبداً واحداً هو معبد باكو ، ضم وحده ، في القرن التاسع ٢٢٥٣ شخصاً ، ثلثهم من العبيد الارقاء . وقد بلغ معبد نا - بروم ، في القرن الثاني عشر ، شأناً اكبر ، اذ كان يعمل في خدمته ٧٩ ٣٦٥ شخصاً ، من بينهم ١٨ من كبار الاحبار ، و ٢٧٤٠ كاهناً ، و ٢٢٠٢ مساعداً و ٦١٥ راقصاً . وهكذا نستطيع ان نكون لنا فكرة تقريبية عما كانت هذه المجموع المحشودة تحتاج اليه من المواد الغذائية والكميات الضخمة اللازمة لتأمين عيشها . ولذا فليس من عجب قط ان يبلغ عدد القرى التي يملكها هذا الهيكل والدير القائم الى جنبه ، ٣١٤٠ قرية لوحده وكل هؤلاء الخدام ومن اليهم من 'نظّار' ومراقبين يعملون جميعاً في خدمة المعبد ، جميعهم معفون من الرسوم والضرائب ، إلا انهم يتعرضون لجزاوات قاسية اذا ما أتوا شيئاً يمس المعبد او يلحق الاذى والضرر بجمهرة الزهبان ، او يؤلف تعدياً على املاكه ومقتنياته . فاذا ما كان المسيء براهماً ، فقصاصه الطرد دون أي عقاب او جزاء مادي آخر ، او فرض أية غرامة مالية عليه . وبفرض على كبار القوم ، اذا ما كانوا من المعتدين ، غرامات عينية ، تدفع ذهباً ، يختلف مقدارها باختلاف المراتب التي ينتمون لها : من ولي العهد الى أدنى مأمور . فمن حاول التملص من الدفع ، 'حكيم' عليه بالجلد على ظهره ، مائة جلدة .

ومظاهر الحياة عند الخير التي استمرت خصائصها المميزة في كمبوديا الى وقت حديث ، بقيت معمولاً بها ، دونما تغيير كبير ، بينما اخذ شأن الدولة الإنفكورية ينمو باطراد ، منذ تأسيس انفكور على يد باسوفرمان الملك (٨٨٩ - ٩٠٠) ، الى ان بلغت اوجها في عهد الملك باسوفرمان السابع (١١٨١ - ١٢١٩) الذي كان من اشهر الملوك الذين اعتلوا عرش كمبوديا . ونحن مدينون لهذا الملك الذي كان من معاصري ملك فرنسا فيليب اوجست ، والملك بودوين الرابع ، في المملكة اللاتينية في القدس ، بأشياء كثيرة ، ولا سيما هذه المباني الكبيرة التي وصلتنا من عهد دولة الخير ، وعلى يده نعمت مدينة انفكور بسور دائري ، طوله ١٢ كيلو متراً ، يحيط به خندق عميق ، وله حصة ابواب ضخمة . وقام خارج السور المعبد الكبير الذي بلغت مساحته ٨٢٠،٠٠٠ متر مربع . وهو يقوم في وسط هذا المجتمع الضخم المسمى بايون ، الذي يعلوه عدد من الابراج ذات الاربعة الوجوه . وقد كان الملك جايا فارمان السابع ، بوذاً صادقاً ، يرفع عبادة الاله الملك ، ولكن ليس على مذهب الـ *Linga* الخاص بـ سيفا ، بل وفقاً لتمثال ضخيم لبوذا جالس فوق الشعبان . وقد يكون هذا الملك أصيب بالبرص ، وهذا ما حمله على انشاء ٢٠٠ مستشفى للبرص ، وزعها على جميع أنحاء البلاد . وفي عهده بلغت العبادات الشخصية الذروة من الازدهار والاقبال ، انطلاقاً من عبادة الملك نفسه الذي برزت صورته ، ليس على ابراج المجتمع الضخم ، على شكل ملك العالم « وجهه في كل مكان » ، بل ايضاً في ٢٣ مدينة اخرى من مدن الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين ، ارتدى المظهر الامبراطوري صبغة دينية عنه . فالعاصمة الملكية والمملكة كلها ليست سوى صورة مصغرة لهذا العالم الالهي ، حيث النظام البشري يبقى صورة طبق الاصل للنظام الالهي او السماوي .

فاذا كانت امبراطورية الخير هي القطر الوحيد ، بين الاقطار المطلة على بحار الجنوب التي غلك بشأنها معلومات واوصاف دقيقة ، علينا ان نعتبر ، مع ذلك ، ان جميع البلدان التي تألفت منها هذه المنطقة الآسيوية الواقعة الى الجنوب الشرقي ، قد نمت جميعها بعضارة واحدة ، في هذه الفترة من تاريخها كانت التقاليد والاعراف الهندية نسيج وحدها . فقد كانت هذه البلاد بطريقة ليس هنا محل تفصيلها باسهاب ، تعبيراً واضحاً لاشياء وامور لم يُرمز اليها في الهند إلا تضيئاً وتلميحاً . ومن بين المميزات المفردة لهذه البلدان ، اقله لفترة معينة ، العبادة الملكية للـ *Linga* التي كانت رمزاً للسيادة التامة والسيطرة الشاملة .

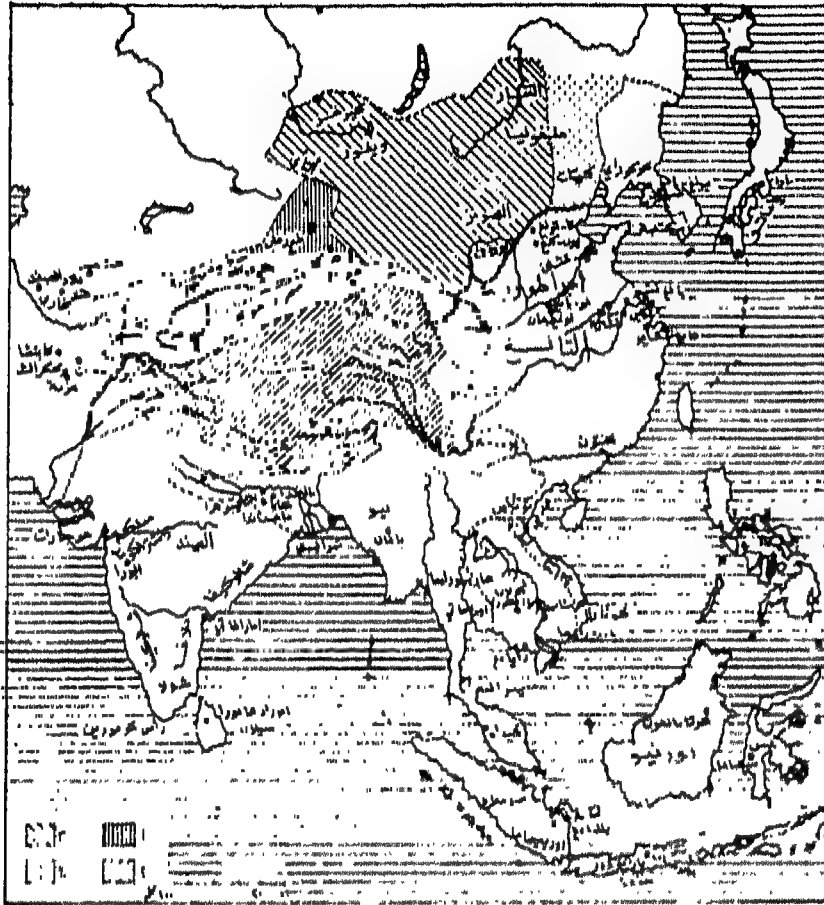
الا ان الحوادث التي تألفت على البلاد فتضرت بها ، وانبعثت العقائد والمعادن القومية ، كل ذلك ذهب بفوائد هذه الوحدة ومنافعها ، وافضى ، بالتالي ، الى تغييرات هامة ، في جغرافية الهند الصينية والانسولاند . ففي الوقت الذي تابعت فيه كمبوديا توسعها الجغرافي باحتلال بعض ولايات تشامبا والسيام ، وراح الاناميون ، من جهتهم ، يستولون على الشمال من مقاطعة تشامبا ويتابعون ، وثيداً ، تغلغلهم صوب الجنوب ، طلعت قبائل الثاني ، قادمة ولا شك من يو - نان وظهرت في شمالي السيام ، ثم اخذت تنحدر رويداً نحو مصب نهر مينام . ثم ان الانحلال الذي اصيب به ملوك سرينيفايا ، مكّن امراء جافا الشرقية ، من بسط سيطرتهم على بلدان ارخبيل الملايو .

وعندما قام ماركو بولو ، حوالي عام ١٢٨٨ ، وتشيو - كاكوان ، عام ١٢٩٦ ، بالرحلة الى الولايات الجنوبية الشرقية ، كانت دولة الخير تودع آخر ايامها ، تحت الضربات التي انهالت عليها من قبائل الثاني التي كانت فرضت سيطرتها ، اذ ذاك ، على الجانب الاكثر من السيام ومع ان التشامبا فقدت نصف اراضيها ، فقد كانت عرفت مع ذلك ، اذ ذاك ، مرحلة من الهدوء جاءت بين عاصفتين : فقد راحت بورما نفسها التي عرفت في القرن الحادي عشر عهداً عجيباً من الازدهار ، ومعها مقاطعة الانام ، فريسة احتلال مغول الصين . كذلك استطاعت جافا الشرقية ان تحافظ على استقلالها وان تستمر المضي في تطورها ، انما في اتجاه جديد ، ملايوي الطابع ، اخذ يطبعها ويفردها ، على حساب التقاليد والاعراف الهندية التي درجت عليها اجيالاً طوالاً واخذت بها حقبة طويلة من الدهر .

* * *

من ستة الى سبعة قرون مضت ، رزحت الصين ، في اواخر عهد الصين في عهد سلالة تانغ دولة سواي ، تحت فوضى قاتلة ، استطاع معها شاب شجاع ، جريء ، يُعرف بكفاءته وبمقدرته ، ان يخلص البلاد مما تعاني ، هولي - شي - مين . فقد كان هذا الشاب ابن الكونت الذي عمل ، من قبل أباطرة سواي ، حاكماً عسكرياً على إحدى المقاطعات وبرهن عن صدق ولائه لهم . وقد نمت لهذا الشاب شخصية بارزة ، فنصب اباه ، عام ٦١٨ ، على العرش

الامبراطوري ، وقام خلال اربع سنوات كاملة ، بعدة حروب وتجهيزات حربية دوتخ فيها جميع اقطار الصين ، ثم اعتلى العرش هو نفسه ، بعد ان بذل ما بذل من الشجاعة والدهاء السياسي وحسن التصرف ، وتوج باسم تاي - تسونغ ، في الرابع من ايلول ٦٢٦ . وفي مدة ملكه الذي



الشكل (رقم ٩) آسيا المسيحية حوالي عام ٧٥٠

امتد ٢٣ سنة ، استطاع ان يعيد الى الصين ، ما كان لها من امبراطورية شاسعة ، وما كانت تنعم به من مجد ورفخار . فضممت اليها مقاطعة منغوليا برمتها (٦٣٠) وانخفضت ايرال التركستان ، والواحات الهند - الاوروبية في صحراء غربي ، وأنشأت لها من بين هؤلاء الاقوام التي عرفت من قبل ، بعدائها للصين ، انصاراً لها وغيونا . ولا شك في ان الدسائس التي سحكت في البلاد ، في اعقاب هذا العهد الجيد ، والوهن الذي اصاب بعض الابطارة ، والفظاظة التي بلغت بها بعض السراري والمخطيات اذ زين الغرور لاحدا من ان اعلنت نفسها امبراطوراً ، وهذا الوضع المخزي

الذي استمر نحواً من قرن كامل ، عرف ان يضع له حداً نهائياً ، الامبراطور هيوان تسونغ (٧١٢ - ٧٥٦) لدى اعتلائه العرش . فالسيطرة الصينية التي عرف هذا الامبراطور ان يوطدها ويرسخ من اسبابها ، بلغت اذ ذاك ، ابعد مدى عرفته الصين ، في آسيا ، من قبل . فقد دخلت في حدودها ، من الغرب جبال تيان - شان وجبال بافير ، فأخضعت لها طشقند ، وفرغانة ، وجلجيت ، ووضعت تحت حمايتها كشمير وبلخ وكابل ، وتحالفت ضد المسلمين ، مع بخارى وسمرقند ، وسيطرت على التركستان بكامله ، وحملت قوافلها التجارية كما بسطت دبلوماسيتها ، نحو الجنوب والشرق . وهكذا تم لها التحكم والسيطرة على الممرات والمجازات المفضية الى الهند ومضايق المحيط الهندي . وهكذا عرفت الصين عهداً من الحروب والفتوحات المظفرة تجاوبت أصدائها الانجازات الفنية الصينية ولا سيما ما اتصل برسوم المعارك ورسوم الحيوان . وفي هذه الحقبة استقرت امور الصين ، ولو مؤقتاً ، وبلغت حضارتها واشاعها الفكري عهداً مشرقاً من الازدهار ، كما نشطت المبادلات التجارية والدينية بين الصين والاقطار الآسيوية الاخرى ، وبينها وبين بلدان الشرق الادنى الواقعة تحت السيطرة الاسلامية .

ومع ذلك ، فقد انهار هذا البنيان الشامخ دفعة واحدة ، حوالي عام ٧٧٠ ، عندما راح قائد صيني اخرق ، بمهاجمة اترك طشقند بالرغم مما كانوا عليه من صدق الولاء للصين . واذ ذاك ، شرعت مقاطعة يو - نان ، في أقصى جنوبي الصين ، تتعلم وتتحرك في محاولة لها للتحرر من نير الصينيين ، واخذت بمهاجمة القوات الصينية العاملة فيها . واذ كانت الصين استنزفت الكثير من دماء بنينها في هذه الحروب الدامية التي استمرت اجيالاً وكلفتها زهرة شبابها ، ورغبة منها في إعادة الطمأنينة والهدوء الى البلاد ، استسلمت للتفسيخ الاداري والانقسام السياسي . وعندما زالت سلالة تانغ ، من الوجود ، عام ٩٦٠ ، لم تكن الصين تتألف من غير الولايات الجنوبية ، كما ان عدد السكان فيها كان قد تناقص كثيراً .

فسلالة تانغ الصينية التي امتد عهدها ثلاثمائة سنة ، قامت في بدء ملكها ، بفتوحات هي اوسع ما حققته الصين من فتوح ، الى ذلك العهد . فقد حققت في المجال الفكري ، التأليف التام بين التقاليد الماضية وبذلك رسمت لها نموذجاً ووضعت منهاجاً نسجت على منواله ، الاجيال الصينية الطالعة . فملوك سولاي الذين حققوا وحدة البلاد من جديد ، لم يسعفهم الوقت من حل المشكلات التي تأتت عن عملية الوحدة هذه . فباشر ملوك تانغ الامر منذ ان تسلموا الحكم ، فحاولوا ، بآدى ذي بدء ، القيام باصلاح شامل في الادارة العامة . ولكن ايانا والغرور ! فقد جاء هذا الاصلاح نظرياً أكثر منه عملياً او واقعياً ، اذ ان الادارة كانت من التعقيد والتشابك بحيث بدا من المستحيل تقريباً ، اجراء أي اصلاح فعلي في البلاد . فالتمسك بالتقليد ، والاخذ بالاعراف المستبعدة ، وجهل الموظفين المدنيين للمشكلات التي عانى منها كثيراً سكان الريف وتربصوا بها ، كل هذا يفسر لنا كيف ان الحكومة كانت تضطر الى إلغاء او تعديل القرارات التي كانت تتخذها او تصدرها ، قبل ان تأتي هذه التدابير ثمارها ، او قبل ان تباشر بتطبيقها . فكل سلطة

مصدرها ، مبدئياً ، الامبراطور الذي كان يصدر قراراته عندما يجلس للديوان ، بينما كانت التغطيات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية ، وترسل للموظفين والحكام الاداريين العاملين في الملحقات . وقد تغيرت صلاحياتهم مع الزمن كما سنرى .

الاطر الادارية والمكرية الوصول الى الرئاسات العليا وبلوغ المراتب الكبرى ، طريقة الامتحان الناجح بين حملة الشهادات العليا ، في مباريات يجتازونها لهذه الغاية : شهادة العالمية التي تخول صاحبها للتقدم للنعاصب ، ومباريات لاصطفاء خير الموظفين والعمال المدنيين والمسكريين ، واخيراً شهادة تقويم الكفاءات ، تبنى على علامات وترقيات يضمها رئيس الموظفين على طالبي الوظائف والمتقدمين اليها ، ان يكونوا من خريجي الجامعات ، وان يركي ترشيحهم اسانذتهم . فاذا ما كانوا من ابناء الاسر الكبرى ، وهو الوضع السائد لعمرى لدى الجامعيين ، كثيراً ما تالوا المنصب الذي يرومونه ، بأيسر السبل ، بالاستناد الى حسبهم ونسبهم ، وبالنظر لان الاب تولى الوظيفة من قبل ، او لاستطاعة المرشح ان يحصل على الوظيفة المرومة بأساليب اخرى . غير ان عدد المراكز كان محدوداً ، الامر الذي اوجب على طالب الوظيفة ان ينتظر طويلاً للحصول عليها . اما المباراة ، فقد كانت تدور ، على الغالب ، حول مواضيع ادبية . وقد يتضمن الامتحان بعض المواضيع الرياضية والفلكية اذا ما اقتضت طبيعة الوظيفة ، من صاحبها ، مثل هذه المعلومات ، مع حفظ بعض النصوص او التعليق عليها أو التفسير لها او كتابة موضوع خاص . وكانت عنايتهم بضبط الحروف واققان كتابتها تفوق عنايتهم بالقرتب . والنجاح في المباراة كثيراً ما ادى الى اقامة المآدب الرسمية التي لم تلبث ان استعالت عادة رسخت في القوم واستبدت بهم في المناسبات العارضة .

وقد سيطرت ، في العاصمة ، خلال القرن الاول من حكم ملوك تانغ (٦١٨ - ٧٥٥) مركزية شديدة قوية ، أضفت بالتالي اهمية اكبر على ثلاثة اجهزة رئيسية هي : دائرة شؤون الدولة ، والديوان الامبراطوري ، والسكترتيرة العامة . فقد ضم الاول ، مناصب الوزراء الستة وهي : الادارة العامة ، المالية ، الاديان ، الجيش ، العدل ، الاشغال العامة . اما الديوان ، فقد اشتمل ، الى جانب صلاحياته المعروفة ، الاشراف على مدرسة البلاط التي كانت تؤمن مع تدريس الادب ، تعليم اولاد الاسرة الملكية ، بينما دخل في صلاحيات السكترتيرة العامة ، الاشراف على مكتبة القصر والمحفوظات الملكية ، ودائرة المؤرخين ، ودائرة الاقتراع ، وغير ذلك من الدوائر الفرعية . فارتبطت بالبلاط ، مثلاً مجلس الدائرة الفلكية الذي انيط به السهر على ضبط الساعة المائية وتأمين الارصاد الجوية والفلكية ووضع التقاريم المختلفة ، ثم الشؤون المنزلية ، واخيراً تدبير الامور الخاصة بالقصر الموكولة امورها الى فريق الخُصيان . ولا بد هنا من ان نذكر ، ولو بصورة عابرة ، الدوائر التسع التي كانت تشرف على المراسم الرسمية والاحتفالات الدينية ، وكلها تتمتع باختصاصات وصلاحيات لها شأنها تتعلق بإدارة المعابد والهياكل والمدافن ، وتأمين الاضاحي والتقديم ، وتنظيم المآدب الامبراطورية ومراسم

التشريفات المتبعة في استقبال ممثلي الدول الاجنبية ووفودها ، كما كانت من اختصاصهم النظر في امور القضاء العليا والزراعة .

وطوال المدة التي سيطرت فيها على البلاد مركزية أسرة ، حتى مطلع القرن الثامن ، لم تعرف الادارة في تقسيماتها الادارية ، دائرة اكبر من الولاية او المحافظة التي كانت تنقسم بدورها الى عدد من الاقضية وهذه الى عدد اكبر من النواحي . وباستثناء بعض الظروف الخاصة ، لم تكن السلطة العليا في الولاية ، تلقى ليد موظف كبير واحد . وكان هنالك مندوبون ملكيون يعهد اليهم الامبراطور بزيارة الولايات ومراقبة سير العمل في الملحقات على اختلاف دوائرها . وقد تراخت هذه المراقبة تدريجياً ، نتيجة محتومة لحركة ارتبطت ، ولا شك ، بالتحلل طبقة الفلاحين من جهة ، ومن جهة اخرى ، بظهور طبقة ارسوقراطية عقارية . ومثل هذا الوضع ، طلع على الخلافة العباسية وفي تشكيلات سياسية اخرى لدى الغرب . ونلاحظ من ناحية اخرى ، بين ٧٠٥ - ٧٥٦ ، ازدياد سلطة الموظفين الاداريين ، في الملحقات ، بالرغم من وجود مفوضين حكوميين ومفتشين اداريين مهمتهم مراقبة الاقضية والمحافظات والولايات الكبرى . واستطاعت معظم الوحدات الادارية الكبرى ان تحقق ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، وطوال القرن التاسع ، شبه استقلال اداري تحت زعامة حكام جمعوا بين السلطة المدنية والعسكرية . وبجمل القول ، فقد شهدت العاصمة التي تمتعت بالسيطرة التامة في الشطر الاول من هذا العهد ، سيادتها لتناهبها الولايات الاخرى ، ورأت في هذه السيادة والقوة العسكرية التي سارت في خدمتها شعباً يخاف السلطة الامبراطورية ، بحيث ان كلا من كبار الحكام في الولايات الكبرى اصبح في القرن العاشر ، دولة ضمن الدولة ، يوقف سلطة الامبراطور عند حدها . وراح اقوام ساعدوا يعلين سقوط العائلة المالكة ويتربع هو مكانها على العرش . وهكذا أطلقت علينا ، عام ٩٦٠ ، سلالة سونغ .

فالخطوط الكبرى لهذا التطور تهمنا أكثر من الصلاحيات التي تمتع بها جيش لجب من الموظفين ، موزعين على مراتب ودرجات . وبدلاً من الاغاضة في التفصيل والاسترسال في العموميات يكفي ان نعطي بعض الايضاحات التي لا بد منها . فالحكام المدنيون في الولايات كانوا ينتقون من بين اعضاء العائلة الملكية . وكانوا قلما يقيمون في الملحقات ، فيكفون امر الحكم والادارة الى نائب او وكيل يعينونه ويمتمدون عليه في تصريف الامور . ومن هنا نتبين بعض الشيء ، الاهمية التي اخذها الحكام العامون وكبار القواد الذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين ، وكان تحت امرتهم وحدات من قوى الجيش يتراوح عدد افراد الوحدة ، عام ٧٤٢ ، بين ٢٠٠٠ و ١٤٥٠٠٠ ، جندي بنا بلغت القوة العسكرية التي رابطت في ولاية هو - باي ٩١٤٠٠٠ ، اذ ان أكثر من ثلثي قوة الجيش كانت ترابط في المقاطعات الحربية الواقعة على الحدود . وقد اضطرتهم الامور العسكرية ، شيئاً فشيئاً ، لأن يسيطروا على كل المصالح الاخرى : على مستودعات وعنابر التموين ، والشؤون المالية ، والاشغال العامة ، وامور القضاء . وكثيراً ما ادت اقامتهم مع

الحكام الاداريين في دار الولاية الى اصطدامات، الى استصفائهم ملء السلطة الفعلية في المقاطعة .
ففي الايلات العسكرية القائمة وراء حدود الصين الخارجية ، كان يتم المفاوضات المأمونة
السبعة ، وهو عدد لم تعرف مثله الصين في ازهر عهودها وفي اعظم امتداد لسيادتها عبر التاريخ ،
وهي ايلات كادت تزول من الوجود ، في اواخر عهد هذه الاسرة بنسبة فقدان الصين السيطرة
على هذه الايلات العسكرية . فرقة الحماية الواحدة التي يتولون امرها كانت شاسعة ، اذ ان
حماية واحدة ختمت بين أرجائها ما يؤلف اليوم التركستان الروسي والتركستان الصيني وأفغانستان
وكان هؤلاء الحكام يصطفون من بين كبار الاداريين المحليين ، ويعمل تحت ادارتهم موظفون
محليون ويمارسون صلاحيات مدنية وعسكرية على السواء ، ويقومون بالاشراف على عدة
مقاطعات او عدة ولايات هامة .

فالولاية الذين يرتبطون بالامبراطور شخصياً ، بلغ عددهم عام ٦٣٩ نحواً من ٣٥٨ والياً ، ثم
زل هذا العدد الى ٣٢٨ ، سنة ٦٤٥ ، دون ان تدخل في هذا العدد البلدان التابعة للصين بموجب
موثائق . ويقسم الولاية الى رتب ودرجات تختلف باختلاف عدد السكان في الولاية التي يعملون
فيها ، وهو عدد كان يتحدد دورياً بعملية احصاء تجري في اوقات معينة ، ويتراوح بين ٢٠،٠٠٠ و
٤٠،٠٠٠ هائلة او اسيرة . فاذا ما تعادلت ولايتان احدهما في الداخل والاخرى على الحدود ،
بمعد سكانها ، جاءت الثانية في مرتبة اعلى . والنواب الولاية كانوا أثبت عملاء الامبراطور
مركزاً ، تناوح عددهم بين ١٥٢٨ و ١٥٧٣ نائب والي بسين عامي ٦٣٩ و ٦٤٢ ، كما كانوا
اقربهم اتصالاً بالأهلين . وفوق الأسر التي كان رئيسها يتحمل كل مسؤولية ويتعرض وحده
للجزاء اذا ما اتهم احد أعضائه اسرته بالتقصير ، تأتي القرية التي كانت تتألف عادة من ١٠٠
اسيرة ، كما ان خمس قرى كانت تؤلف ناحية . ورئيس القرية هو الشيخ أي المتقدم في السن بين
سكانها ، ويترتب عليه كما يترتب على مدير الناحية ان يمد قائمة بالأفراد الخاضعين في القرية وفي
الناحية ، للضرائب او لأعمال السخرة ، وبذلك يصبح في مقدور نائب الولاية ان يصنف السكان
حسب فئاتهم ، ويشرف على توزيع الاراضي ، ويحافظ على السجلات العقارية وجدول الضرائب
وادارة الجباية ، كما كان باستطاعته ان يحافظ بدقة على نظام البريد ، وعنابر الدولة ومستودعاتها
ويضع تحت اشرافه السير على الطرقات العامة ويؤمن سلامتها وسلامة الملاحة النهرية . وهو
بوصفه حامى الشعب ، عليه ان يرعى مكارم الاخلاق ويؤمن أود الميث للكراميل ، ويضع تحت
جناحه الايتام والبائسين ، وينظر بنفسه في القضاء ويكافح الاوبئة .

والجيش الذي اصبح طيلة عهد اسرة تانغ في الحكم قوام النظام وركنه الركين ، خضع خلال
الاجيال المتعاقبة ، لتطور سار جنباً لجنب والتطور الذي مرت به الادارة . ومع ذلك فتعبثته
بقيت مشكلة مستعصية بحيث ان الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة في بسده الامر يجب
ردها للمقدرة والكفاءة التي تحمل بها قواد الجيش وليس لتنظيمات الجيش . فالى سنة ٧٢٢
تقريباً ، كانت الوحدات العسكرية التي تقدمها كتائب المليشيا الباسلة تعمل لشهر واحد في

الحرس الامبراطوري ، بينا الوحدات الاخرى التي ترسل للخدمة على الحدود كانت تقضي في خدمة الجيش ثلاث سنوات ، بينا الحاميات المراقبة على الحدود الشمالية ، كانت تغذيها اسر خاصة 'فرضت عليها الخدمة العسكرية الاجبارية لقاء بعض امتيازات ومنافع خاصة . وكثيراً ما أجبرت الوحدات العاملة في الجيش الم رابط في قواعده على الحدود، على تجديد تمهدها بالخدمة دون ان تعطى الحق بالرجوع الى البلاد ، فتؤلف بذلك جيشاً محترفاً مستمراً في الخدمة . ومن المحتمل كثيراً ان تكون وحدات من هذا النوع ، ألفت حرس الامبراطور الخاص او عملت في خدمة بعض كبار الحكام او القادة . اما الوحدات الاضافية الاخرى ، فقد جيء بها من بين الذين صدرت عليهم أحكام قضائية ، فيرسلونهم الى المعسكرات الحربية . وفي القرن الثامن ، كان الحرس الامبراطوري يتألف أفراداً من سكان العاصمة وارباضها الذين يُعفون من السخرة ، لقاء خدمتهم في الحرس ، مدة ستة اشهر ، ثم انزلت الى شهرين ، عام ٧٢٥ . وكثر عدد التجار الذين راحوا يتجندون لقاء اعفائهم من الضرائب المترتبة عليهم ، ثم يعمدون الى استبدال أنفسهم بعبيد وأرقاء في خدمتهم . فبينما كانت الجيوش المراقبة في الشمال تتألف بمعظمها على هذا الشكل ، كانت الوحدات المراقبة على التخوم تؤلف جيشاً محترفاً بعد ان برهنت الطرائق الاخرى لتشكيل الجيش التي عمل بها، عن عدم جدواها . وفي سنة ٧٤٩ صدر مرسوم امبراطوري ألفت بموجبهِ « الكتائب الباسلة » ، ولم يحتفظ إلا ببعض وحدات للمحافظة على الامن . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد بأن الجيش بين ٧٥٦ و ٩٠٧ كان برمه جيشاً محترفاً .

فقد 'عرف الصينيون بمقتهم للحروب واعراضهم عن كل ما يسببها او يدعو اليها ، وهو شعور تحسوا به ليس فقط أثر الانكسارات العسكرية العديدة التي منوا بها ، بل ايضاً بعد الصعوبات المتزايدة التي صادفها اباطرة الصين في الداخل . فمن علامات الازمنة المعيزة : ان الناس ، اذا ما ملّوا القتال وسُموا الحروب ، مالوا الى الدعة وطلبوا الهدوء والراحة ، وفضلوا الاخلاص للسكينة والازواء بعيداً عن صخب الدنيا . ولكي يتفادوا داعي الحرب راح الصينيون يشوهون انفسهم . فهستيريا الحرب التي ميزتهم في القرن الاول من عهد سلالة تانغ ، حل محلها روح الاستسلام والمقاومة السلبية ، وكلها امارات تدل على مبلغ تفسخ الامبراطورية . وهذا السأم تردد صدها عالياً على لسان الشعراء ولا سيما تو - فو الذي كتب عام ٧٥٢ قائلاً :

بما يؤسف له جداً فالخشود تتوالى ،
في الخامسة عشرة نرسل الى الشمال للدفاع عن النهر الاصفر
وفي الاربعين نجد الفسنا جنوداً نفلح ونزوع ، في غربي البلاد
وكهولاً وبعد ان ابيض منا الشعر ، ندعى للسلاح من جديد بعد عودة قصيرة
تباً لهذه الحياة ، وما أشقها مع الاولاد .

وهذا التحول والتطور نحو سيطرة جيش محترف له ما يبرره ويزكيه في هذه
تطور المجتمع
الثورات والانقلابات الاجتماعية التي جرت البؤس والشقاء على الجماهير الشعبية .

صحيح ان البلاط يستمر كمأولف عادته ، في هذا البذخ والبطر الذي 'عرف به وشاع عنه من قديم الزمان . واحسن شاهد على ما نقول ، هذه الخزفيات القبرية ، الدقيقة الصنع ، العائدة لهذا العهد التي تبرز لنا صوراً من ترف البلاط ، ومواكب الراقصات في غلائلها المثيرة تستر منها الاقدام الناعمة ، ومنظر المحاربين بمتطين صهوات جياهم ، كل ذلك يتم عن مجتمع فروسي مترف . غير ان الشعب اخذ منذ القرن الثامن يتربص بمشكلات عانى منها الامرين ، كان من بعض نتائجها هذا التناقص الفاضح في عدد السكان . ففي اقل من ٧٥ سنة اي من سنة ٧٥٤ الى ٨٣٩ ، هبط عدد سكان البلاد من ٥٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً ، بعد ان زال في اواسط القرن الثامن كل اثر للملكية القرويين التي كانت الدولة تحافظ عليها ، فرزحت تحت ما توقع عليها من الضرائب واعمال السخرة والخدمة العسكرية والديون المتراكمة ، مما اضطر معه صغار الملاكين الى بيع ما يملكون من عقار والعمل في خدمة كبار الملاكين الذين كانوا في الوقت ذاته من كبار الموظفين . ونسمع صدى هذا كله في ما كتبه تاونغ - يوان (٧٧٣ - ٨١٩) ، اذ جاء على لسانه :

« تزداد حياة جيراننا من القرويين يوماً بعد يوم . فما اسرع ما يستنزفون غلال ارضهم ، ويدفعون الى آخر بارة ما يترتب على اكواخهم من رسوم ، ويأخذون بالبكاء والعيول وهجران اوطانهم ، ويتضورون جوعاً ويموتون عطشاً ، ويجرون صرعى الى الارض . تلتهم الارياح والامطار ويشكون البرد شتاء وحارة القيط صيفاً ، ويستنشقون السموم الفتالة المملكة ، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى . فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة . وبين الاسر العشر التي عاشت هنا مع ابي ، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة ، ومن بين الاسر العشر التي عاشت معي هنا مدة اثني عشرة سنة لم يبق سوى اربع او خمس اسر لا غير . فاذا لم تمت كلها ، فقد هاجرت ورحلت عن الديار وبقيت وحدي هنا » .

واذا اردنا ان نأخذ باقوال الشعراء ، لسان حال هؤلاء الناس والمتكلمون باسمهم ، فالتجارة بارت وماتت هي الاخرى . « فقد كانت الحكومة في ابتزازها لمرافق التجارة كالدمرة في جشمها » . ومع ذلك فقد اخذ التجار يتأبون ، بكل الوسائل لديهم ، المقايضات التجارية طمعاً بالارباح التي تدرها ، مع التجار المسلمين والاسواق التجارية في بلدان جنوبي شرقي آسيا ، وهكذا استطاع بعضهم ان يتغلب على ما تعرضوا له من فداحة الرسوم الباهظة التي فرضت عليهم ، واعمال المصادرة والضرائب التي رزحوا تحتها ، بحيث انهم كانوا يدفعون ١٠ في المائة رسماً على الشاي الذي كان قد اصبح ، في هذا العهد ، مشروباً وطنياً .

فانهيار طبقة الفلاحين ، والعراقيل التي سدت سبل التجارة ، وهما عماد الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الصينية ، كانا من اكبر الاسباب التي دعت للثورة التي انطلقت في اواخر سنة ٨٧٤ . فالترك الذين كانوا استقروا في شمالي الصين وجدوا في الوضع الموصوف ، فرصة سانحة لرحضة النير الصيني عن اعناقهم . فلم تقو الاسرة المالكة على تحمل الصدمة ، وراح النظام

الاقطاعي الجديد الذي أطل على البلاد من خلال كبار الموظفين ، يسدد لها الضربة القاضية فسقطت وتوارت عن مسرح التاريخ .

الحياة المغلقة والدينية
في هذا العالم الصيني الشاسع الاطراف الذي عرف عهداً من الازدهار في بدء الامر ، وماعتم ان راح فريسة طغيان سلطة ناشزة ، تمتع الناس بحرية فكرية لم يعرفوا مثلها من قبل ، فارفعت الاصوات منددة بعيب الارادة الامبراطورية . ولم يكن من الغريب قط ان نسمع في المجال الديني جدلاً صاحباً ، مع البوذية وضدها على السواء . ومع ذلك فقد عرفت البوذية في هذا العهد ازدهاراً انتشرت معه وامتد في واحات التركستان الصيني الذي خضع اذ ذاك ، لاشراف ملوك التانغ الا انهم نظروا اليها ، في بدء الامر ، نظرتهم الى ديانة غريبة ، ولذا ناصبها العداء المكشوف ، المستمكون بالتقاليد والتعاليم الكونفوشيوسية : « ما بوذا ، بعد هذا كله ، سوى بربري دخيل ، يختلف عن الصيني لغة ولساناً وزياً » . وبالرغم من شدة هذا النقد وطرافته ، رعى اباطرة التانغ للبوذية عهداً واخذوا بنصرتها ، ورحبوا بتعاليمها وحجاجها . وبدافع من هؤلاء الملوك ، راحت مصانع الحفر والنقش البوذية تعمل بكل نشاط : والى هذا العهد تعود المغاور المشهورة في لونج - ين وما تحمله من حلي النقوش ، فارفعت في البلاد معابد وهياكل بوذية كثيرة ، وهذا العدد العديد من التماثيل والشعوص ، وكلها يتم كم كانت البوذية غريبة بالفعل عن الصين ، اذ ان كل هذه الانجازات الفنية كانت من طراز هندي حاول الفن الصيني ان يلطف قليلاً من طابعها ، حيث تطل علينا مثل « تقاليد جمالية تختلف كثيراً عما عُرف في الصين من امثالها . صحيح ان تطبع البوذية بطابع الصينية في المجالين الفكري والفني تم ببطء كلي ، فاقتربت بالاكث من التاوية ، سيراً منها مع حركة تطويرية اخذت باسبابها قبل مجيء سلالة تانغ بكثير .

وتابعت ديانات اخرى دخلت الصين منذ عدة اجيال ، انتشارها في البلاد ، فقد تغلغلت الماوية منها في منغوليا ، وكسبت لها انتصاراً ومريدين صادقين لدى اترك ويغور في تاريخ وشيدت لها معابد وهياكل في معظم المدن الكبرى في الصين . والمسيحية على المقالة النسطورية دخلت ، هي الاخرى ، الصين وشيدت اول بيعة لها في مدينة تشانغ - نغان ، عام ٦٣٨ ، ونعمت فيها برعاية مستمرة . ومنذ عام ٨٤٥ ، تعرضت البوذية فيها لاضطهاد عام اصطلت بنارها ديانات اخرى « دخيلة » . كذلك استهدفت التاوية والبوذية لهجمات عنيفة من قبل اتباع الديانة الكونفوشيوسية ، باعتبارها ديانتين كثيرتي التصوف وذات مراسم غريبة . واخذت الهجمات تشدد ضد الحياة الرهبانية والنسكية ، واللاعمل البوذي ، وضد سلبية التاوية والاعمال السحرية التي اهتمت بها وغير ذلك من التهم التي الصقوها بها ، كما يجب التسليم ايضاً بان اتباع التاوية والكونفوشيوسية لم يروا اي فائدة من تحالفها ضد البوذية التي عرفت ان تتخلق باخلاق الصين وتطبع بطابعها بحيث بدت وكأنها ديانة جديدة قالت بوحداية الوجود ، واخرجت للناس لحظة جديدة تعرف عندهم بنحلة التأمل او التجريد لقيت انتشاراً واسعاً في طول البلاد

وعرضها ، حتى انها بلغت اليابان تحت اسم « زن » ، وهي مذهب روحاني يحرك المشاعر ويحمل الفرد على القيام بمراسم دينية شخصية تحرك العواطف والشفقة في القلوب ، حيث طريق الخلاص مفتوح لاصحاب الشطحات الصوفية .

وعهد دولة تانغ الذي امتاز ، من جهة ، بالبطولة والفروسية ، كما امتاز ، من جهة اخرى ، بروح النقد والسخرية والصوفية ، شهد انتشار صناعة الورق واستعماله أكثر فأكثر فنشط ذلك ظهور الطباعة الخشبية ومهد الطريق امام الطباعة بالحروف المتنقلة ، وذلك بعد التوصل الى حروف متنقلة اتخذت من الدلفان او الفخار (النصف الاول من القرن الحادي عشر) . وقد اتاحت الكشوف العلمية التي أمكن تحقيقها ، في هذا المجال ، للثقافة ان تقطع مراحل من الرقي والتقدم خلال حكم التانغ والوصول الى شيء من التأليف في مجالات الفكر والدين والفلسفة كما وصلت عبر الاجيال الماضية .

لا يصح قط ان نجعل او نتجاهل الدور البارز الذي لعبته الحميات الصينية في عهد دولة تانغ
البلدان المجاورة للصين في هذا الطور الحضاري الذي مرت به البلاد في عهد ملوك تانغ . وهذا الدور يبرز على امثله ، من كتابات الرحالة هيوان - تسانغ الذي قام في القرن السابع ، برحلة الى واحات التركستان ، وعرف ان يصفها لنا وصفاً دقيقاً . وكان يقيم في هذه الاقاليم ، ممالك توابع ، تباينت فيها العروق الانثوغرافية واختلفت اللغة واللهجات ؛ وكانت قمر بها طرق تجارة الحرير ، فتترك فيها حركة ناشطة بالازدهار ، كما كانت ممرأ لمؤثرات الحضارية الغربية في تغلغلها نحو الصين ، فكانت بالتالي ملتقى حضارة العرب وايران الساسانية كما انتهت اليها معالم الثقافة الهلينية البوذية ، والهند بعد ملوك الغوبتا ، والمناوية حتى والتبت . وعن طريق هذه الواحات بلغت البوذية الصين مع المؤثرات الخارجية الاخرى ، اذ ان المناطق المتاخمة للصين من الجنوب الشرقي ، والتي كانت تقس تحت مراقبتها واشراقها المباشر ، كالانام والتونكين ، كانت قطعت شوطاً بعيداً في تصيتها بحيث لم تكن قادرة على مدها بعناصر جديدة تجدد من ثقافتها وحضارتها .

وكان سكان هذه الواحات ، ومعظمهم رجال حرب ورعاة ، يعيشون على التجارة والزراعة تحت تبعية الصين وولايتها ، مع محافظتهم على عاداتهم الخاصة وعلاقاتهم الروحية بالهند . فقد كانوا مستمسكين بالبوذية . ويتكلمون لهجات هندو اوروبية ، فقد جمعوا من ممالكهم متاحف للادب والفن البوذي ، وأضافوا على هذا الاخير طابعاً مميزاً ، هو صيني السميت في الواحات الشرقية ، ايراني الطابع في الشمالية منها ، هندي المظهر في ما وقع منه في الجنوب . وهذه الرسوم والصور التي تغطي جدران المغاور تعطينا صورة صحيحة لما كانت عليه الحياة والنشاط الديني في هذه المناطق من معالم ومظاهر . وهذه الرسوم التاريخية التي تعود لهذا العهد ، قد زالت من الصين وايران ولم تسلم لليوم غير تلك التي كانت في التركستان الصيني ، فوصلت اليها

شاهد عدل على ما كان عليه قادة القوم من ملابس ومشر بثياب على -الزي الهندي او الصيني ،
ممتطين صهوات جياهم في هجوم على الحصون والقلاع تحت خفقان البيارق ، او سائرين الهويناء،
مرتدين اجمل حللهم وزينتهم . فنحن امام عالم جيتاش ، يعيش على الحدود عيش بذخ واباء
وشمم ، في اطار اجتماعي خاص به . وهو عالم يرجع القهقري ليهوي وتبدأ في البربرية ، خلال
هذه الحقبة التي تمتد من اضمحلال ايران الساسانية وسلالة تانغ في الصين .

الصين في عهد سلالة سونغ
ظهر سلالة تانغ في الصين ، في القرن العاشر حمل معه الى البلاد ،
جواً جديداً ، اتسم بالهدوء والسلام . فبقدر ما حافظت سلالة
تانغ على تقاليد البلاد القديمة ، وخاضت من حروب ، وهدرت من دماء زكية ، وعانت من
المجاعات وتضاريس الحياة بين حلوها ومرها ، احتقر ملوك دولة سونغ العنف والحروب الفتح
والغزو فقد هم ملوك تانغ ، في ايام دولتهم ، ان يشبعوا اذواقهم من الفنون والاشياء الخارجية ،
بحيث بدا اشهر شعراء هذا العصر : لي - تايبو اقرب الى الفكر الغربي منه الى نفسية الصينيين
وذهنيتهم . اما في عهد السونغ ، فاننا نشهد ، خلافاً لذلك ، تجديداً للقيم التقليدية ، وراحت
مدنيتهم تبرز ، في كل المجالات ، ما هو صيني الطابع ، في الدرجة الاولى .

فاذا ما رضي ملوك سونغ ان يفقدوا نصف اراضي الصين وان يقنعوا بالقسم الجنوبي منها ،
فما ذلك لضعف فيهم ، او لزهة او عدم اكتراث قط . فقد كان باستطاعة الأول من ملوك هذه
السلالة ، بما تم لهم من حزم وعزم وسمو الهمة ، ان يعيدوا الى الصين ، قوتها وبأسها بعد ان
استحكمت الفوضى بخراب البلاد في اواخر عهد تانغ (السلالات الخمس) . فقد وجدوا امامهم
صعوبات جمة في الداخل والخارج على السواء ، ولا سيما هذا الفقر المدقع الذي كان الريف يتسكع
فيه من بعد ما تكالبت عليه المحن والاحن : كالجاعة ونزوح السكان ، التي فتت من عضد الصين ،
وقتل فيها كل الرغبة في الحروب وخوض المعارك . والاصلاح الزراعي ، هذه المشكلة التي
أقضت مضاجع المسؤولين وأقعدتهم ، ازدادت تأزماً بدلاً من ان تلقى الحل المرجى ، فشلت
ميزانية البلاد وأوقعتها في الفوضى ، بعد ان انعدمت اسباب الجباية ، وتخلخلت انظمتها ،
وزادت تكاليف الحكم والادارة ، وأسقط في يد الدولة بعد ان رأت نفسها في حلقة مفرغة .
وعهد مؤسسو هذه السلالة ، الى بعض العلماء الكونفوشيوسيين ، من محافظين ومجددين ، بتحقيق
الاصلاح المنشود . ولكي يؤمنوا ما هم باشد الحاجة اليه ، ويمدوا الادارة بموظفين اكفاء ،
اخذوا باصلاح نظام الامتحانات ووضعوها على مناهج واساليب سارت عليها طويلا . واعادوا
الى الاستعمال النظام الذي جروا عليه من قبل بانشاء احتياطي للقمح حفظوها في حواصل
للحكومة . واعادوا التوازن في ميزانية الدولة بتخفيض النفقات العامة الى ٤٠٪ وقد شجعوا
الانتاج عن طريق التسليف على الغلة ، والقوا نظام السخرة واستبدلوها بضريبة على الاعناق
تدفع سنوياً . واعادوا مسح الاراضي من جديد ، واجروا توزيعاً جديداً لها ، وهو اصلاح
قصد منه في الدرجة الاولى ، تحسين الوضع المالي ، اكثر منه اصلاح النظام الاجتماعي ، اذ ان

نظام الملكيات الكبرى بقي معمولاً به ، كما انه كان من الايسر تأمين الضريبة العقارية . كل شيء منظم وفُرضت عليه الرسوم : الزراعة وملكية الارض والتجارة ، حتى البضاعة الموجودة في المستودعات فُرض عليها رسم بلغ ٢٠ في المائة من قيمتها ، يضاف اليه ٢ في المائة اذا لم يتم الدفع في اوانه . وتشجيعاً للأعمال التجارية ، اخذت الدولة بنظام التسليف على الاملاك ، فانشأت لهذا الغرض وكالة خاصة تعطي التجار سلفة لقاء رهن . فاخذت تكاليف العيش تنزل تدريجياً ، واخذ الناس في الريف والمدن يعولون على الارز في معاشهم ، كما تشددت الدولة في ملاحقة المحتكرين .

من المؤسف ان هذا الاصلاح لم يعمر طويلاً . ولكي يتمكن المزارعون من تسديد ما استلفوه على غلالهم راحوا يستدينون من مصادر اخرى : من المرابين بفائدة تبلغ احياناً ٥٠ بالمائة بالاضافة الى ٢٠ بالمائة المستحقة عليهم للدولة . وقد راح المتعلمون المعروفون بتحفظهم يرفعون عقيرتهم عالياً ضد الذين قاموا بحركة الاصلاح هذه ، فانقسم الناس على بعضهم في الداخل وعمت الاضطرابات ، وفقد التوازن ، بينما وقعت الصين الشمالية بما فيها العاصمة بكين ، فريسة بيد اقوام الكيتات ، والجرتشات . وبعد محاولات فاشلة قام بها اباطرة الاسرة سونغ ، قرر الرأي عندهم ان يقيموا نهائياً في مدينة هانغ - تشيو ، متخليين عن القسم الشمالي من الصين .

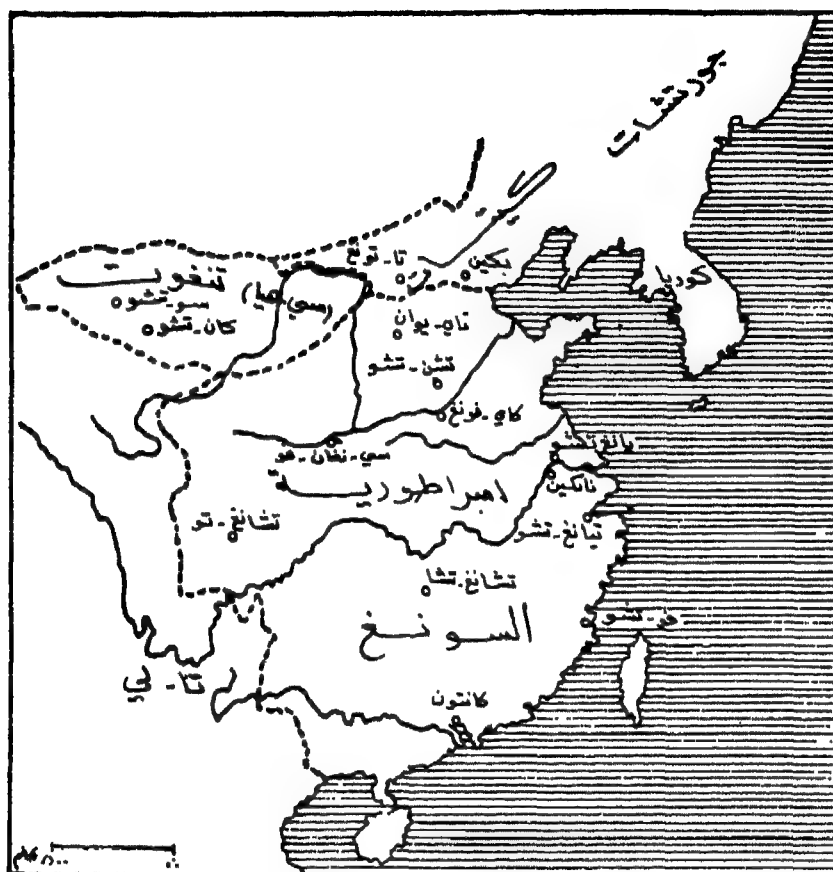
وهكذا بعد ان تحرر المفكرون والمثقفون من ضواغط الروح العسكرية البغيضة راحوا يعملون على تحقيق نزعاتهم السمحاء واهدافهم السامية . فما من عهد حقق في مجال الفكر والفن ما حققه عهد ملوك سونغ في تاريخ الصين . فالاباطرة انفسهم ضربوا بسهم في الثقافة ، لا بل كانوا اتقف من ربيع على عرش الصين طراً ، كما يشهد على ذلك الامبراطور هواي - تسونغ (١١٠٠ - ١١٢٥) ، الذي كان ذواقاً ، وعالماً بالآثار وحفياً بها ، جامعاً لها ، وناقداً فنياً وادبياً ، ورساماً في بعض الاحيان . فلا عجب ان تصبح العاصمة الجديدة ، بين ١١٣٢ - ١٢٦٧ اشبه ما تكون بمدينة متحف ومقرأ لحفى الفنون الجميلة ، حفّل موقعها الجغرافي البديع ، بالمعابد والهيكل ، والقصور والصروح الجميلة في مثل هذا الجو العابق بالسلام ، وفي متعة من العيش المترع ، وفي مثل هذا الاطار الجغرافي البديع المناظر ، اعطت مدرسة الرسم والتصوير في عهد دولة سونغ ، ابهج روائعها الفنية . فبعد ان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناهج الفلسفة والشعر الرفيع ، راحت تضع لنا مناظر تعبق بالظلال المترعة بالسحر ، السابحة في غلالة من الندى ، الغارقة في البعيد الرجراج ، القائمة على خطوط شاطحة . وقد رُسِمت على أرضية من الحرير الشفاف بالحبر الصيني فبدت في قدمها كأنها عنبر ماصع . وقد خضع فن التصوير عندهم لهذه المثالية الصوفية التي آل اليها مفكرون انقطعوا للتجريد والتأمل ، معظمهم من اتباع الديانة التاوية ، فبدت المناظر وكأنها رؤى متحيزة ، عبّرت عن النفس بمرمز ، وورثت عن طبيعة الرسام الفيلسوف برسوم مبهمة وهو تصوير نفساني حاول ، على طريقة الفلسفة ، ومستعيناً بالمحسوس ، ان يتلسس جوهر النفس وحقيقتها وان يذوب معها . فاذا كانت الصورة

ذات اللون الوحيد تؤلف وجدها قصيدة، فالقصيدة التي تسبح نسج بردتها ملوك سونغ هي نفسها صورة ناعمة مهففة تور بالحس والشعور ، وبكل ما في الطبيعة من حب وهيام .

وقد رافق هذا الازدهار الفني إشعاع ادبي واسع النطاق ، مكن له اختراع الطباعة فانتشرت الفلسفة الكونفوشية. فاذا كانت البوذية والكونفوشية والتاوية، لا تزال مشاراً فيما بينها لجدل عنيف ، هو من مميزات هذا العهد المفردة ؟ فقد وضعت كلها نصب عينيها ، هدفاً واحداً : وحدة الوجود او الكون ، فترد الكون والانسان الى مادة واحدة لا غير . فاسمع ما يقوله تشاد - يونغ (١٠١١ - ١٠٧٧) بهذا الصدد : « فلانسان والارض والسماء تؤلف جميعاً وحدة واحدة ، مع كل الكائنات التي كانت في كل الازمنة والامكنة ، اذ ان ناموس الكون واحد هو ... فبدأ الحياة واحد هو ، وينبض في الجميع ... » ويضاف الى هذا عامل تطوري تحتلظ فيه وتتنازع به اقدم ما عرف به المجتمع الصيني البدائي والنظرات الفلسفية الهندية التي حملتها البوذية الى اطراف الشرق الاقصى . وقد ألبس تشو - هي (١١٣٠ - ١٢٠٠) هذه الفلسفة صيغتها النهائية التي تبرز لنا على أتم وجه ، هذه الفكرة كما تبنت لنا في عهد ملوك سونغ . وبالرغم من متانة هذه النظرية الفلسفية التي وضعها تشو - هي وذهب صداها بعيداً في الارض ، فقد فتحت ، مع ذلك ، الباب على مصراعيه ، أمام التأمل في شبه حلقة مفرغة ، مانعة في المستقبل ، كل انطلاقاً ، نحو المذهب الروحي . وهكذا كان السبب في هذا الشلل الذي اصاب الفلسفة الصينية بين القرنين الثالث عشر والعشرين وهو شلل زاده جموداً وقموداً الفتح المغولي ، وفيما بعد ، الروح المحافظة التي ميزت عهد ملوك مينغ .

منذ أواخر القرن الرابع بلغت الحضارة الصينية كوريا واليابان . كما دخل اليابان الحلبة دخلتها البوذية . وفي سنة ٥٥٢ ، حملت بعثة كورية الى امبراطور اليابان تمثل بوذا ، ومجموعة من الحكم البوذية والكلم المأثور ، وهو حادث كان له تأثير عظيم ودوي كبير تمثل في اعتناق اليابان رسمياً للديانة البوذية . وقد نشبت اذ ذاك ، حركة عنيفة بين المحافظين المشهورين بمعارضتهم للبوذية ، وبين المجددين التقدميين الموالين لها ، بزعامة اسرة سوغا الكبيرة . وعندما تمت الغلبة للطريق الثاني ، تمت معها المناداة بالبوذية ديانة اليابان الرسمية ، مع ارتقاء الامبراطورة سويكو العرش (٥٩٣ - ٦٢٩) ، وهي من اسرة سوغا ، فكانت اول امرأة تجلس فوق عرش اليابان واتخذت مساعداً لها احد امراء سوغا هو اومايادو سوغا الذي عرف منذ ذاك ، باسم شوتوكو تايشي ، الذي كان من اشهر رجال عصره . واذ كان بوذاً مخلصاً وغيوراً ، فقد ادرك سمو الثقافة البوذية وتعاليمها وتساميها فوق ديانة البلاد البدائية المسماة شنتو ، التي لم تستطع ان تعلو فوق الاساطير والحرافات التي علمتها حول مراسيم التطهير والرجس ولم تخرج من هذا كله باية نظرية ادبية . واعتماداً منه على الخلقية البوذية ، راح شوتوكو يصدر ، عام ٦٠٤ مرسوماً تألف من ٢٧ مادة صح. اتخذاه دستوراً للحكومة ذات سيادة تأخذ الناس بالعدل ، بعيداً عن كل استبداد . ومن هذا العهد ارتفعت في البلاد اولى الاديار والمعابد

البوذية ، فقد 'عدّ' منها ٤٦ عام ٦٢٤ ضمت ٨١٦ رايماً ، كما ضمت ٥٦٩ رايبة ، وهي مبانٍ من الخشب 'صنّمت' وفقاً للتقاليد اليابانية ، وسهروا على حفظها وصيانتها فوصل معظمها إلينا سالمًا حتى القرن العشرين ، كما كانت تمامًا في مظهرها القديم . فليس من فرق جوهرى في



الشكل (رقم ١٠) الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠)

المظهر ، بين المعبد الياباني والهيكل الصيني . فهو يقع في ساحة مربعة الاضلاع تحف به الاروقة كالدير ، ويحيط به افناء واسعة وعدة مبانٍ مخصصة للاعمال الادارية في الدير . ويرقى الى هذه الساحة الفسيحة الارجاء من عدة ابواب ، فيطل علينا الهيكل الذي يشابه الـ *Stupa* في الهند ، والسرادق المذهب (*Kondô*) الذي يضم الايكونوستاز حيث لا يسمح للجسمور بالدخول ، ثم قاعة الوعظ والارشاد ، فالمكتبة ، فقبة الجرس ، فبيت المنامة ، وغرفة الطعام ، والمطبخ ، وجناح الحمامات تقوم كلها في الخارج ، الى الشمال من سور الدير . ومن ابرز هياكل هذا المهد

ومن اجلها على الاطلاق ، هيكل هوريوجي ، الذي تأسس عام ٦٠٧ ، والذي اكلت النار احد أفرزته ، في حريق شبّ فيه عام ١٩٤٩ .

فاذا كانت العلاقات الرسمية المباشرة بين الصين واليابان ابتدأت في سنة ٦٠٧ ، فالعلوم والفنون الصينية كانت دخلت اليابان، قبل ذلك بقليل عن طريق كوريا، منذ اواخر القرن الخامس. فقد احدث دخولها الى اليابان ، بين الطبقات الاجتماعية العليا، حركة تعاطف واقبال قوية للغاية، بعد ان صدمت بمنظرها الخارجي البسيط ، وباعتقاداتها البدائية ، الرجال الذين تألفت منهم البعثة الصينية . فقد بدا القصر الملوكي كأنه مجموعة من الاكواخ تعلو ابوابها احواض المياه وعقّافات عديدة يركن اليها عند شوب النار لهدم المباني ، منعاً لانتشار الالهب واتساع الحرائق. اما الزي فكان يلبس الجسم لبساً، مع ستره تشبه ما كان مستعملاً من امثالها في كوريا. اما الفتيان ، فكانت شعورهم توزع بين ضفيرتين ، تعمق فوق الاذنين او تعمق فوق الجبين . والوشم الذي يعتبره الاغراب من سمات النبيل والشرف ، فقد اصبح فرضه على الناس ضرباً من القصاص .

وقد اثير الازدهار الذي عرفته الصين في عهد الأول من ملوك تانغ تأثيراً بالغاً على اليابانيين ، فراحوا يقتبسون كل ما هو صيني ، كالكتابة والرسم على الحرير وصنع اقلام التصوير والورق ، وعلم النجامة ، والتقويم ، وحساب تواريخ ايام السنة، وهندسة المناظر، وبناء الجسور . وتشبهاً بالصين ، راج اليابانيون يحصّنون من شواطئهم البحرية ، ويتبنون نظام الضرائب ، وسك العملة ، ووضع المراسم في استقبالات البلاط ، والملابس والزينة الرسمية في الاستقبالات ، والرتب والمراتب في الوظائف . وقد كانوا اقتبسوا منذ عهد بعيد ، اي منذ عام ٤٠٥ ، الخط الصيني ، اذ قدّم الى اليابان ، هذه السنة بالذات كاتب كوري ، لاستخدامه في القصر ، وما انتصف القرن الخامس حتى اقتبست اللغة المحلية في اليابان ، الابجدية الصوتية المستعملة في الصين التي كانت تتألف من ٥٠ صوتاً صوروها حروفاً رُتبت على النسق الهندي المعتمد في التعليم . ومنذ ذلك الحين طلعت علينا المحفوظات ، والسجلات ، والامام والمراسيم المكتوبة ، مرسّخة في البلاد لاصول السلطة المركزية الحاكمة وسهلت وضع تاريخين للبلاد هما الـ *Kojiki* والـ *Nihonji* ومجموعة من القصائد (*Manyoshi*) وبيان طوبوغرافي (*Fûdoki*) كذلك طلعت بوادر يقظة فكرية وذوقية تردد صداها في الموسيقى الوطنية ، اذ ان اليابان تبنت الموسيقى التي راجت في عهد تانغ، وهي صينية الاصل ، وموسيقى *Kan* المستوردة من كوريا ، والنظرية الموسيقية التي حملها معه لن - يي ، وهي هندية الاصل ، واكثرها رواجاً، وموسيقى غرا ، من اسم جزيرة قريبة من كوريا . وكل هذه المدارس الموسيقية الاربعة ولا سيما المنسوبة منها الى لن - يي ، تبدو معاً واضحة من خلال التطور الذي مرت به الموسيقى في اليابان .

كل هذه المؤثرات الفنية والفكرية دخلت اليابان عن طريق الكوريين . فالعديد من رجال الفن والصناعة ، بين مهندسين ورسامين ونقاشين ونسّاخ وغيرهم من ذوي المواهب الصناعية ،

قدموا من بعيد وسكنوا اليابان، لا سيما ابان الاضطهاد الذي اعلنته الصين ضد البوذية ، في اواخر القرن السادس. ولا بد من التنويه هنا بهذه الحركة التي قامت في العصر التالي فحملت عدداً كبيراً من طلاب العلم يفدون من اليابان على الصين لاقتباس العلوم ولا سيما الطب منها .

وعندما راحت اليابان تقلد الصين تقليدا حرفياً ، اخذت عنها في جملة ما اخذت ، النظام الاداري الذي عمل به في عهد دولة تانغ ، كما اقتبست اصلاحاتهم ونظمهم الاقتصادية ، دون ان يدركوا جيداً كيف ان الشكل الديموقراطي لهذه السلطة لا يأتلف قط مع التقاليد الارستوقراطية الصرفة المتبعة في الطبقة الموجهة التي تتألف ، في السابق ، من كبار الملاكين للارض المتوزعين احزاباً والمتنعمين بامتيازات الطبقات المتنازعة . فادى الامر في عهد الملك نارا (٧٠٧ - ٧٨١) ، الى شيء من الاتفاق للمتلطف اصبح معه الامبراطور (Tenno) الذي هو في الاساس نظام وراثي ، حاكماً زمنياً وروحياً ، فكان بهذا ، زعيماً وطنياً ، وإلهاً قومياً. فتحت سلطته يعمل جهازان خاصان، هما الـ *Shinto* الذي لا نرى له مثيلاً او مرادفاً في الصين، والآخر هو مجلس شورى الدولة . فالاول يهتم بكل الامور الدينية ولا سيما ما تعلق منها بالمعابدات القديمة ، في اليابان ، بينما الجهاز الثاني يؤلف رأس هرم الادارة العامة الذي يتشعب منحدرأ من الوزراء لينتهي بالدوائر المحلية. فالوظائف لا تعطى لاصحابها والرتب لحاملها، وفقاً لاستحقاقات خاصة او لنجاح يصيبونه في الامتحانات. فالوظائف والمرتاتب هي من حظ ابناء الاسر الكبيرة الذين تهيأوا لها واستحقوها بالدروس والعلوم التي تلقوها في الجامعة الامبراطورية . وابناء كبار ارباب البلاد الذين ساهموا من قبل في قيادة المملكة وتوجيهها ، تسند اليهم وظائف تستمر في بيوتهم بالوراثة. ولما كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة لقاء هذه المراتب الشرفية التي يحملونها ، فقد ألغوا عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة التي كانت تنفد من الرسوم المفروضة على المكلفين من غير النبلاء وعلى المبيد الارقاء . وقد سببت الضرائب الباهظة خراب الملكية الصغيرة التي فرض على اصحابها من كلا الجنسين ، دفع رسوم ، منذ بلوغهم السادسة من عمرهم . ولما كانت الارض لا تورث ، فقد كانت تعود الى ملكية الدولة عند وفاة صاحبها ، كما كانت الدولة تعتمد الى توزيعها من جديد ، بعد كل ست سنوات ؛ فلا يمكن التنازل عنها لاحد او بيعها من احد ، باستثناء قطع الارض التي تقوم عليها عمار ومبان ، او فيها اغراس من شجر اللك . وكان افراد الشعب يخضعون لثلاثة انواع من الضرائب : ضريبة على الارز تتناسب واهمية الاراضي المزروعة أرزاً ، وضريبة اخرى تترتب على الرجال وحدهم يدفعونها عيناً : انسجة او محاصيل زراعية محلية ، وإخيراً السخرة . والى هذا ، فقد سُمح لحكام الولايات ان يحتفظوا لانفسهم بقسم من الفوائد المترتبة على السلفة التي استلفها المزارعون من الدولة ، فيضطر هؤلاء لدفع فائدة فادحة ، تكون ضريبة اضافية جديدة . ثم ان الخدمة العسكرية الاجبارية ، تلزم رجلاً من اصل ثلاثة ، على قضاء ثلاث سنوات ، في خدمة الجيش بعيداً عن ذويه ودياره ، هذا ان لم تضطره الظروف للبقاء في الخدمة العسكرية الى ما لا حد له ، مع العلم ان على الجندي ان يتكفل بتأمين غذائه

وعدته، وإن يستمر في دفع الضرائب الثلاثة المقرّبة عليه، كما عليه أن يُسهم في التجهيزات العامة . وهو يضي أكثر أوقاته في اعمال السخرة أكثر منها في خدمة عسكرية فعلية . واليابان مدين لما هو عليه من وبالة الصحة لانه لم يتعرض يوماً للفرز من الخارج ، اذ ان جيشه كان في وضع زري جداً بحيث لم يكن يرجى منه شيء .

صحيح ان طبقة النبلاء رأت أملاكها تنتزع منها ، ولو اسمياً ، وتمعطى لأعضاء الاسرة الامبراطورية ، إلا انه قبل ان يوضع القانون موضع التنفيذ ، نال رؤساء البيوتات الكبرى تمويزات محسوسة على الاملاك التي انتزعت من ملكيتهم ، كما نالوا مراكز عالية ، وأعطوا من الضرائب والرسوم المفروضة، والسخرة والخدمة العسكرية والمدفوعات العينية، وكلها امتيازات أصبحت وراثية في اسرهم يتوارثونها خلفاً عن سلف . وبموجب المراتب التي أُجريت عليهم ، يحق لهم الحصول على بعض الاثارة من الارز وغيره ، وان يفرضوا بعض الرسوم ، وان يتقاضوا فوائد على ما يقرضون . وإذا ما أدّوا للامبراطور ولحكومته خدمات سنية ، نالوا عنها تقديرات محسوسة ومنافع عينية جزيلة . وقد اخذوا يعملون بنازع من النفس ، على توسيع دائرة مقتنياتهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً : فيجمعون بين وظائف عديدة عالية ، ويُعترف لهم بحق املاء المناصب السفلى من اتباعهم ومريديهم، وبذلك فتعدوا الباب على مصراعيه امام الرشوة والفساد . وهذه المكاسب والامتيازات المربضة التي كانت تزداد قيمتها بارتفاع المركز وسمو الوظيفة ، تمتع بثملها وأكثر ، رجال الدين من رؤساء ديانة الشنتو والبوذية .

هذه القوانين التي صدرت عن جماعة مضت بعيداً في حركة النظام الاقطاعي في اليابان

تصيتها وأخذها بأسباب الحضارة الصينية ، وهامت كثيراً بالمركية التي سادت البلاد في عهد دولة تانغ ، صدرت لمعمرى ، عن سلطة مركزية طرية العود ، ضعيفة العضل بحيث تستطيع ان تفرض ارادتها على مصالح بعض الخاصة . وجاء توزيع السلطات واقتسامها يخدم الى حد بعيد ، الجشع الذي جاش في صدور ونفوس بعض كبار الزعماء الذين راحوا ، امعاناً منهم في المقاومة ، يعتصمون في املاكهم الواسعة او في اقطاعاتهم *Shōen* ولم يلبثوا ان نالوا تدريجياً، اعفاءات متزايدة عن اراضيهم كما اعفي المزارعون والفلاحون العاماؤون في اراضيهم من السخرة . ولم تلبث هذه الاقطاعات الشاسعة ان أصبحت ممالك مصغرة، مستقلة ضمن الامبراطورية . والموظفون الذين كانوا من كبار الملاكين ازدادوا نفوذاً وشأناً : فقد نعموا ، من جهة ، بأعطيات واسعة اجرتها عليهم الدولة ، كما استطاعوا ، من جهة ثانية ، ان يستثمروا دوماً قديداً ، اراضيهم والمزارعين العاملين فيها . وهكذا تمكن كبار الزعماء في البلاد من استرجاع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وجاء ، واستطاع كبير زعيم هؤلاء الاقطاعيين الـ (*Fujiwara*) ان يجمع بين قبضة يديه ، كل مراكز القيادة والتوجيه ، وتوصل عن طريق أنصاره وأتباعه ومريديه بعد ان اخذ عددهم بالنمو والازدياد ، ان يسيطر على المجلس الاعلى للنبلاء، والوظائف الكبرى في الدولة، ويقدم للعرش الامبراطوري، الامبراطورات والوصيفات.

وسواءً اعتبرت هذه الاقطاعات *Shiōen* ممتلكات خاصة او انعامات نالها اصحابها للخدمات الجلى التي أدّوها للبلاط، فقد كانت النقطة التي انطلق منها وارتكز عليها النظام الاقطاعي في اليابان. صحيح ان وحداتها اختلفت مساحةً ووضعاً وقواماً. فالتى قطعت منها شوطاً بعيداً في التطور، نزعت الى الانقسام والتفرع الى استثمارات تولى امرها ملقزموت ، بينما راحت الاخرى تتسع وتزداد بضم الاراضي المتفرقة بين أقضية مختلفة ، ومعظمها يتألف من مزارعات الارز يستغلها مكثرون او مرابعون . اما التى كانت منها ملكاً لمؤسسة دينية ، فكان يتولى تشغيلها وكيل فوّضت اليه العناية بها والسهر عليها فكان شبه مالك لها ، يتقاضى لحسابه الخاص بعض العائدات التى يجنيها من اصل غلة الارض ، بمثابة مرتب له . وكثيراً ما كان صاحب الارض يقدم ، هو نفسه ، للمزارع ما يحتاج اليه من نضوب ويزار على ان يقدم الفلاح عمله بالجهان وان يسلم كامل المحصول عند تمام المواسم ، كما كان عليه ان يقدم ، علاوةً على ذلك ، عيناً بعض محاصيل الارز وغيرها من نتاج الارض ، كثيراً ما اضطر المزارع لشراؤها من اصحاب الاملاك المجاورة . ومن كان من هؤلاء المرابعين والخدم والارقاء صالحاً للخدمة في الجيش ، كان عليه ان يقوم بشيء من الخدمة العسكرية عند سيد الارض ليردّ عنه عوادي الغزاة والمهاجرين . اما في الاقطاعات الواسعة ، كان الوكيل يتولى ادارة الاقطاع فينظمها على شاكلة الادارة العامة في الدولة ، بعد ان كان تحت امرته ، عدد كبير من العمال التوابع لسيد الارض . وهذا السيد المستقل في اقطاع ، كان يخضع ، مع ذلك ، لرئيس اعلى هو الحارس القانوني لهذه الاقطاعات الذي كان ينتخب عادةً من بين اعضاء مجلس النبلاء الاعلى ، فيكون من كبار الاشراف او من الاسرة الامبراطورية ، او من بين سراري الامبراطور ، او ممثلاً لأحد الهياكل الكبرى في البلاد الذي ينعم بنفوذ عظيم . ومقابل هذه الحماية والرعاية التي يؤمنها الحارس ، لهذا السيد ، يترتب على هذا الأخير ، ان يدفع سنوياً مبلغاً معيناً يتناسب والخدمات التي يتلقاها منه عن البلاط .

ان تاريخ اليابان الداخلي طوال هذه الاجيال التي نستعرض هنا لبعض معالمها ، ليس سوى سلسلة متصلة الحلقات من خصومات ومواقف بين رجال الاقطاع على اختلافهم وذلك رغبة من السلطة المركزية بتخفيض عدد هذه الاقطاعات ، او الغاء بعضها او اخذها بنظام آسر عليه ان تنقيد به ؛ ولم تتم هذه المقاررات الكبرى ان استحالت تدريجياً الى اقطاعات فاقت بقوتها العسكرية ، قوة السلطة المركزية للامبراطور . فالبنين السياسي الذي حذوا فيه حذو ملوك تانغ في الصين ، ساعد على اتخاذ مثل هذا الوضع ، اذ كان على رأس الادارة المركزية ، موظفون كبار يتوارثون هذه المراكز ، لا يمكن عزلهم او رقتهم ، فسدت منهم الاخلاق والاضاير ، وماعت نفوسهم . فحيث اخفقت الدولة ، استطاع نظام الاقطاع ان ينبج ، لأنه عرف ان يساير تطور الشعب الياباني ، وان يراعي طبيعته ، فتوصل الى حل مشكلة تزايد السكان ، وان يؤمن النظام في الداخل ، بعد ان كان الـ *Shiōen* احسن ادارة مما كانت عليه الدولة ، وان يرفع من مستوى العيش . واستطاع ان يشكل وحدات عسكرية تفوق كثيراً بنظاتها وفعاليتها ما

كان منها لدى الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية ، لدى الدولة اشبه بسجن يقوم السجين فيه بأشغال شاقة ، كان جنود الاقطاع يخدمون في خدمتهم لذة وفخراً .

وبالرغم مما كان عليه هذا الوضع الاجتماعي في اليابان ، من معاناة وغموض ، فقد جاء ، مع ذلك ، وضعاً بنّاء ، سجلت الدولة فيه ، خلال القرن الثامن ، اي في عهد العاصمة نارا ، رقماً قياسياً في تطورها التاريخي . فقد راحت الدولة التي نعمت ببنين سياسي واقتصادي قوي ، ترعى الآداب والفنون وتؤمن لها الازدهار . وقامت الدولة بإصلاحات رمت منها للحد من نفوذ الاسر الاقطاعية القوية والتسيج حول ملكية صغار الملاكين . والبوذية التي اصبحت دين الدولة الرسمي ، عرفت عهداً من الازدهار لم تعرف مثله من قبل ، تمثل بهذه المؤسسات التقوية او الانسانية المعيدة ، التي بفضل ما نعمت به ، تحت اشراف الامبراطور ومراقبته المباشرة ، من ادارة قوية ، صحيحة ، استطاعت ان توسع من نطاق عملها الاجتماعي ، فانشأت المستوصفات ، واهتمت بامر المرضى ، ومدت يداً رفيعة للمعوزين وساعدت رجسالات الدين ، ونشرت اسباب المعارف . فالجامعة الحكومية التي قامت في العاصمة نارا ، عرفت ازدهاراً كبيراً عام ٧٠١ ، اذ تألفت من اربع كليات ، هي التاريخ والادب والحقوق والرياضيات ، كما كانت تعلم علم الاصوات والخط . وكان للرهبان البوذيين نفوذ كبير ، فقد تراسوا الحفلات الدينية ، ونظموا الاعياد الوطنية ، وشقوا الطرقات في البلاد وانشأوا الكثير من الكباري عليها ، وساعدوا على التشجير وزرع الاغراس على جوانب الطريق ، وقاموا بحفر الآبار واقنية صالحة للري . ولم يقل عدد الرهبان اذ ذاك عن ٨٠٤٠٠٠ راهب وراهبة في بلاد تراوح عدد سكانها بين ٧ و ٩ ملايين نسمة ، اي بنسبة واحد في المائة من السكان . واستطاع الاباطرة ان يسيطروا تبعاً على الجزر المتاخمة ويحققوا انتصارات 'مدوية' على اقوام الـ *Ainu* الذين ما عثموا ان ذابوا تدريجياً في جسم الامة اليابانية .

كان فن التصوير المنصر الذي وتحد بين هذه النزعات على اختلافها ، بالرغم من ان منابه الكبرى لا تزال بعد صينية ، الا انه اخذ يبرز اكثر فاكثر ، بطابعه الياباني . وقد اتخذ مادة له عناصر شتى ، منها اللك الناشف المفروش على صحائف من المقوى ، والنحاس المذهب والقوالب المتخذة من الصلصل المزوج بقصاصة القش والتين ، والطلق ، فالتخذ من هذه العناصر التي عاجلها بمهارة المنقوشات الفنية التي امدتها بها . واخذت المصنوعات الثمينة المعدة للاستعمال ترد على البلاد من الصين والتركستان الصيني ، وايران ، حتى ومن اقاصي الهند ، وتحفظ في مبنى *Shōmōin* الذي استعمل متحفاً فكان اقدم متحف في العالم على الاطلاق ، يفتح ابوابه امام الزائرين ، مرة في السنة . وقد انشأت الدولة ، في طول البلاد وعرضها ، مصانع ومعامل ، اهتمت بشؤون الرسم وصناعة الجواهرات ، واللك ، والسلال والحزفيات ، على اختلاف اشكالها وغير ذلك من الصنائع والمهن لا نعرف شيئاً كبيراً عنها . والموسيقى والرقص الابقاعي اللذان ترعرعا تحت رعاية واشراف دائرة الطقوس والمراسم ، استمدوا الكثير من موهباتها من الصين

نفسها ، ولا تزال تمتع النظر ، لليوم ، برأى وجوه مصطنعة يعود صنعها الى هذا العهد ، حتى ان الشعر نفسه ظهرت له مجموعات من المنتقيات المختارة .

وكلما امعنا السير في هذه الحقبة طالعنا الفتن الكثيرة والدسائس تحيكها الاسر الكبيرة ضد بعضها البعض ، بتعريض مفضوح من الفوجيوارا وحسابهم ، اذ لم يكن احد لينكر ما كان لهم من شأن وشأ و نفوذ عريض . وراحت الدولة من جهتها تنشيء لها جيشاً له قدرة ثابتة على الحرب والكفاح ، تألفت وحدات من طبقة رجال الحرب والشفاليه ، هذا الجيش الذي كُتِبَ له ان يلعب فيما بعد ، دوراً كبيراً في المجتمع الياباني . ومهما يكن ، ففي عهد دولة هايابا (٧٨١ - ١١٦٧) ، ولا سيما في الحقبة الاولى منها التي امتدت حتى سنة ٩٦٧ ، بلغ الفوجيوارا القمة من القوة والسؤدد ، كما بلغت اليابان الذروة في هذه الحقبة من اقتباس الحضارة الصينية ، مع ان حركة التعاطف هذه بين الجانبين كانت خفت قليلاً ، كما هو ملحوظ . فالعاصمة الجديدة كيوتو ، بما قام فيها من هياكل ومعابد ، وقصور وصروح ، وبما بلغه فيها البلاط الملكي من بذخ في العيش ورهافة في الذوق ، برزت بالفعل ، المرأة التي تجلت على اديمها هذه النزعات ، فبعد ان صقلت الاذواق لدى طبقة النبلاء ، مالت افكارهم نحو الفنون الصينية الجميلة ، الا انهم اخذوا ، بعد ان وعوا شخصيتهم وشعروا بقيمة الذات ، بتكليف العناصر الدخيلة وفقاً لما يأنلف وطبيعة مزاجهم القومي . وهكذا قل ايضاً عن البوذية التي اخذت علاقتها مع الصين تحف وتباعد ، بعد ان ارتدت طابعاً قومياً . وهكذا بدت اليابان اكثر استعداداً من اي وقت مضى ، لتعني ذاتها وتشعر بنبوغها وعبريتها ، بعد ان اخذ الاحتطاط ينخر في دولة تانغ الصينية ، فانهطت وزالت من الوجود ، فتراخت بالتالي العلاقات الاقتصادية والروحية التي ربطت طويلاً بين البلدين .

وهكذا بدا البلاط الامبراطوري في اليابان أقل اخذاً بالثقافة الصينية ، كما تَلَبَّس الشعر سمات اكثر يابانية و اقل تقليداً من قبل ، واكثر طبيعية . وبعد ان تكاملت وسائل الخط والكتابة راحت المرأة اليابانية نفسها تهتم بالأدب وتعنى بالتأليف وأمور الفكر وراحت بعض النساء ينظمن قصائد تفيض عذوبة وتميل اكثر فاكثر الى التجدد . من ذلك مثلاً : « مذكرات مخدّة » التي وضعتها الادبية اليابانية : ساي شوناغون (٩٨٧ - ١٠١١) . وقد تسبب التعلم الجامعي عن فتح المزيد من الكليات ، فاقبل عليها التلاميذ وهم بعد في سن حداثهم يدرسون علم الاصوات ، وآثار الصين الكلاسيكية ، والطب ، بنسبة واحد على خمسة طلاب . والفنانون من أبناء البلاد راوحوا بما يرسون بنجاح كلي الخط وفن التصوير الصيني ، اذ بالرغم من التحرر الذي حققوه ، بقي رجال الادب من اليابانيين ، على اتصال متين بزملائهم في الصين ، حتى بعد زوال دولة تانغ . ورهافة الذوق هذه برزت على اتمها في بلاط الفوجيوارا الذين برزوا بما وصلوا اليه من بذخ ، البلاط الامبراطوري نفسه ، فمارسوا في الدولة دكتاتورية فعلية . فاكثروا من اقامة الولائم في اسواق الادب والحفلات الموسيقية ، والمراقص الایمانية التي كثيراً ما تلبّوها بها . فقد ألفوا في فصل الربيع الترفيه عن انفسهم برؤية حدائق الكررز في ابان نورها وزهرها ، واستمتعوا برأى الاشجار تتعري من اوراقها في الخريف ، وجلوا نواظرهم بنظر الثلج يكسل

قم الجبال . اما المرأة ، فقد كانت بهجة القصر وعطره ، وشم الحياة ومتعتها .

هذا النظام الاقتصادي والسياسي الذي اقامه في اليابان المتعصبون للثقافة طوع عهد الشوغونات الصينية والمقتبسون لها ، في القرن السابع ، لم يلبث ان انهار ، عام ٩٦٧ ، في الوقت الذي يضعف فيه نفوذ الفوجيوارا في البلاد بعد ان استكانوا الى الدعة واستسلموا بكليتهم للملاذ . وتضخمت قبيلتهم الى درجة فقدت معها الوحدة ، فانقسمت على نفسها تحت تأثير الدسائس والمؤامرات والاحزاب الداخلية والعصبية التي شدد البطون بعضها الى بعض فلم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ، وعهدوا بامرهم الى رؤساء من المرتقة ، فاضطروا اخيراً للتنازل عن سلطتهم وسيادتهم للنبل والبارونات ، القائمين في المقاطعات ، والى اصحاب الاقطاعات الضخمة .

وطلوع هذه الاقطاعية الريفية جرّ على الشعب موجة من التطير والتشاؤم ، زاد من حدتها هذه الاعتقادات والاورام الشعبية التي راحت تروج وتنتشر ، منذرة بان سنة ١٠٥٢ ، ستحمل معها زوال الناموس البوذي . فبعد ان اثرى الرهبان البوذيين ، واستبحروا في البذخ والجاه ، راحوا يناصرون بعضهم البعض العدا ، ويوغرون صدور بعضهم بالنم والدس والافتراء ، وكلها امور يتبرأ منها الدين . ولذا راح الشعب يبحث له عن ديانة جديدة تحمل معها التميزية والسُلوان لمن ذهب فريسة التشكك والارتياب ، فالتفت الى بوذا أميدا ، فاخذت عبادته تزدهر اذ ذاك وتنتشر . وفي الوقت نفسه اخذت اليابان تنكفيء على نفسها وتنطوي على ذاتها ، ولو بصورة مؤقتة ، واقصرت علاقاتها مع الصين على الامور التجارية دون سواها ، وانصرفت لفتح الجزر الواقعة على مقربة منها الى الشمال ، حتى اذا ما تم لها تدوينها ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عادت اليابان سيرتها من الاتصالات مع الغرب .

والحقبة القصيرة التي مرت على البلاد في عهد دولة الروكوهارا (١١٦٠ - ١١٨١) ، رأت المنافسات والحروب يشتد أوارها بين الاسر الاقطاعية الكبرى التي راحت تتنازع السيادة وتحاول الخفض من جانب الفوجيوارا ، كما اشتدت المنافسة بين قبائل التايرة والميناموتو ، وتحول الاسرة الامبراطورية نحو ساحل البحر الداخلي . وقد تم الامر في سنة ١١٨٤ ، لامير من اسرة ميناموتو ، ان يعيد الامر الى نصابه ، فأنشأ له عاصمة جديدة هي مدينة كاماكورا ، وأقام فيها نظاماً جديداً من الحكم هو ما يعرف عندهم بـ *Shogunat* ، وهو نظام حافظ ، ولو بالاسم ، على سلطة الامبراطور الذي استمر يعيش في بلاطه وبين حاشيته عيشاً سداً العبث ولحمته الغرور ، الذي بعد ان حاول عبثاً إعادة نفوذه والاستقلال بالامر ، وقع تحت وصاية الشوغون زعيم النظام العسكري الذي جمع في قبضته ملء السلطة . وقد عول في ضبط الامر على رئيس الاركان العام ، وعلى محكمة عليا للاستئناف ، ومجلس تنفيذي . وقد مثله في المقاطعات حاكم عسكري لم يلبث ان جمع بين يديه السلطة المدنية ايضاً . وأخذ على نفسه جباية الرسوم

والضرائب المترتبة واستلام ما يعود للسلطة من غلال الأرض . ولكي يحدوا من استقلال كبار الموظفين المحليين، أنشأت الدولة دائرة للتفتيش، وخلقت عدداً من المقررين أو الخبراء الاقتصاديين، ومحققين استثنائيين. وهكذا استمرت الآلة الحكومية تسير ظاهرياً وفقاً للتقاليد المرعية ، بعد أن أدخلت عليها مثل هذه الإصلاحات الجذرية .

وهذا الإصلاح الإداري الذي جاء يسد من خطوات السلطة ويقوّمها لصالح الشوغون ، لم يلبث أن أعطى أطيب النتائج في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فنشطت التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، فزادت حركة المقايضات والمبادلات . وقد نال التجار بعد أن توزعوا إلى نقابات محلية ومهنية حق نقل تجارتهم بكل حرية ، بعد أن تعهدوا بدفع رسم سنوي مقطوع ، كما تعهدوا بأن يدفعوا للمياكل شلتو ، قيمة المبالغ المفروضة عليهم . كذلك أخذ وضع الفلاح بالتحسن ، وسار الرق في طريق الزوال .. والحادث البارز الذي أحدث في أواخر القرن الثالث عشر ، دويلاً عظيماً في حياة البلاد الاقتصادية . هو ادخال زراعة الشاي إلى اليابان . والمرأة نفسها نالت هي الأخرى ، نصيبها في هذا الإصلاح بلبها بعض الحقوق الجديدة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الشنتو هي ديانة الطبقة الارستوقراطية في البلاد وانتشرت بين الطبقات الشعبية الديانة المعروفة بـ *Amidismo* ، تلقت اليابان من الصين، مذهباً صوفياً جديداً لقي رواجاً عظيماً في البلاد هو مذهب *Zen* وهو نظرية فلسفية يُعَدُّ ظهورها عطفة في تاريخ الفكر والفن في اليابان ، وساعدت على تحييز النبوغ القومي . ومذهب الـ *Zen* هذا ، الذي هو تأليف للتعاليم البوذية والتاوية والهندوسية ، هو تعبير لهذه الحركة الاجتماعية العكسية التي استهدفت محاربة البذخ والبطر لدى الطبقة الموجهة ، وردة فعل ضد صنمية المثقفين وعبادة المتعلمين ، وحركة رجعية موجهة ضد الشكليات التي سارت عليها ديانة الشنتو ، وضد ميوعة العبادات الطقسية التي سار عليها اتباع أميدا ، وضد العصبية الديلية الذميمة التي يمثّلها ، على أحسن وجه ، نيكيرين (١٢٢٢ - ١٢٨٠) والاساطير الخرافية التي راجت في هذا العصر ومنها انبعثت نظرية جديدة في الهندسة المعمارية الدينية، واستعمال الخبر الصيني في تصوير المناظر، واخيراً الاحتفال بالشاي ، وكلها أمور تركت طابعها العميق في الثقافة اليابانية . وفي هذه الحقبة تم حريق الهياكل والمعابد الكبرى التي احترقت أو هدمت أثناء الحروب الأهلية : وقد جاء الصيليون يعملون في حركة التجديد والبعث ، وصنع التآثيل بعد أن اشتد الطلب عليها بكثرة . وبفضل هذا الانبعاث ، راح الشعر يحدد من نشاطه ، كما راح النثر ، بعد أن استقامت الجملة البيانية ، يتحفنا بهذه الآثار التاريخية ، أشهرها على الإطلاق *Heike Monogatari* و *Heiji Monogatari* .

وهذه اليابان المتجددة ، ستقوم وحدها ، في القرن الثالث عشر ، بعد توضيحات كثيرة في اقتصادياتها ، وفي روحها الحربية ، بحروب دفاعية مظفرة ، ضد غزو المغول للصين .

القسم الثاني

عصور أوروبا الأقطاعية
والإسلام التركي وآسيا المغولية
(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

الفصل الأول

تحوُّل أوروبا (القرن الحادي عشر والثاني عشر)

طالما نلظر المؤرخون الى السنة ١٠٠٠ نظرتهم الى فترة رعب وظلمة وفتور واعتقدوا ان مسيحيي الغرب ، الذين اقتنموا بدنو نهاية العالم ، قد عاشوا هذه الفترة منكشين على ذعرهم عاجزين عن النموض باي عمل . اجل ، كل منا لك يحمل على الاعتقاد بان ارتقاب نهاية الازمنة ، في طبقات عريضة من المجتمع ، قد غدا ، بفعل التأمل المتواصل في كتاب الرؤيا ، اشد افضاضاً في اواخر الالف الاول من العهد المسيحي ، ولكن بما لا شك فيه ايضاً ان كبار المسؤولين في الكنيسة قد حاربوا هذه الاعتقادات وان سواد المؤمنين قد تغلبوا على مخاوفهم واستمروا في مسيرتهم قدماً الى الامام . ولا تبدو السنة ١٠٠٠ في الواقع ، كشفق حسير بل كفجر لامسح ؛ ففي ذاك التاريخ توطدت نهضة اوروبا ، في كافة الحقل ، بمد مرحلة اعداد طويلة الامد . أبعد خطر الغزو الذي ثاقلت وطلاته منذ قرون وزال نهائياً ، واقام انضمام الشعوب البولونية والتشيكية والهنغارية الى المسيحية سوراً دفاعياً منيعاً ، في وجهه الشعوب الرحل من سكان الفيا في ؛ وبينما كانت آثار الغزوات الاخيرة في طريق الزوال ، برزت حركة توسمية لن تعرف الوهن طيلة مائة وخمسين سنة ونيف .

بيد ان هذا النمو ، حتى منتصف القرن الثاني عشر ، قد سار سيراً مطرداً دون ان يدخل على الانظمة السياسية والاجتماعية التي قامت في اواخر الانحطاط الكارولنجي اي تبدل يذكر . فالاقطاعية - وهي الاسم الذي اطلقته التقليد على هذه الانظمة - قد توطدت ثم استفادت من التقدم الشامل لمعققت ، في آن واحد ، مزيداً من المرونة والاقدام .

١ - المجتمع الاقطاعي

لم يبق في اوروبا ، في القرن الحادي عشر ، من وجود لتلك السيطرات السياسية المظلمى

التي يتوفق سيدها ، بواسطة وكلائه المحليين الامناء ، الى بسط النظام والامن على اقاليم واسعة الارحاء . فان آخر هذه الامبراطوريات ، تلك التي اسسها ملوك الدانمرك ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، على شواطئ بحر الشمال وبحر البلطيك ، لم تلبث ان تقسخت . وفي جرمانيا نفسها ، التي حرصت على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث تحالفت العظمة الامبراطورية مع الملكية ورفعت من شأنها ، نرى السلطة الملكية تتفتت بسرعة بعد ان انهكها اتساع مهامها المتنوعة وتنازعتها وتقاسمتها روما والولايات السلافية المتاخمة ؛ فنجد السنة ١٠٧٥ ، نرى هنا ، كما في فرنسا او إيطاليا قبل ١٠٠ سنة ، ان السيادة اخذت بالتجزؤ . ففي كل مكان ، نرى المناصب العليا والملكيات تفقد ، دون ان تزول ، كل سلطة فعلية ، ولا تلبث ان تصبح مجرد اساطير . اما الملك ، وهو المكرس ، فيحتفظ في اعين الجميع باولوية تتميز بطابع لغائى الطبيعية ، واحاطت مسيح الرب بهالة عجائبية مجموعة من الاساطير تكونت وانتشرت انذاك ؛ فالزيت الذي يمسح به يوم التكريس يأتي مباشرة من السماء ؛ وهو يستطيع ، بمجرد لمسة من يديه ، شفاء بعض الامراض ؛ ومن حيث هو نصف كاهن ، ويحتل مرتبة دونها مراتب كافة البشر ، لا يستطيع احد ان يعتدي عليه بالضرب ؛ وهو اخيرا تجسيد للنظام الالهى . ولكن على الرغم من رأي العالم الاقطاعي هذا في الوظيفة الملكية ، فان الملوك قد فقدوا في الواقع حقيقة سلطتهم . ولم تعد سلطتهم الفضلى ملكية بل اقطاعية او عقارية : فالملك الذي ليس تابعا لاحد موضوع احترام عظماء المملكة ؛ وهو ، الى ذلك ، شأن الاسياد الآخرين ، سيد اراضيهم المائلية واملاكه الوراثية وحامي الفلاحين المباشرين فيها . ولكنها في اغلب الاحيان سلطة هزيلة جداً . ويكفي هنا ان نقدم مثل ملك فرنسا لويس السادس الذي كعند ، في اوائل القرن الثاني عشر ، بمعاونة بعض التبعة المنزليين ، في اخضاع بعض صغار حكام الحصون في « جزيرة - فرنسا » *Jle - de - france* ، ووضع حد لتجاوزاتهم . والمضادة بين واقع ضعف الملك وبين الرسالة السامية الملقاة على عاتقه هي بالضبط احد مواضيع الاعاني الایمائية الفرنسية وتلك التي تعبر بامانة عن مشاعر كبار الارستوقراطيين العلمانيين من امثال « عربية نيم » او « تنوبج لويس » .

بيد ان الشيء المهم ، اذا غدت الملكيات مناصب روحية غير ذات فعالية ، ان تؤمن مهمة الالهية هي مهمة الامن والعدالة الضرورية للمحافظة على المجتمع المسيحي . فقد امتنتها في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، الكنيسة التي سارعت منذ العهد الكارولنجي الى الحلول بحمل الملوك المستضعفين ؛ كما امتنتها بعد ذلك ، تحت اشد الاشكال اليومية حقارة ، القوى المحلية الخاصة واسياد الحصون .

في السلتين ٩٨٩ و ٩٩٠ ، روج المسؤولون الكنسيون في مجدهي شارو
السلطات الجديدة
وبوي - وكلاهما من اعمال الأكتين ، تلك المقاطعة المسيحية التي بدا فيها
الانحلال السياسي أقوى منه في سواها - حركة سلام الرب التي ما لبثت ان انتشرت في كافة
أنحاء غاليا الجنوبية والشرقية وتسربت ، بموافقة الاسياد انفسهم ، الى مناطق شمالية ارسخ

تنظيماً كامارات متراسة . تستلنى من ذلك جرمانيا حيث ما زال الملك ينعم بقوة تسمح له بالدفاع عن السلام بنفسه - وفي هذا دلالة على حقيقة الغاية من هذه المحاولة : فالمقصود هو ان تستبدل ، حيث تصاب بالوهن ، جمعيات السلام المشكلة بصورة طبيعية بين الرجال الاحرار في اطار الممالك البربرية والموضوعة تحت اشراف الملوك ، بجمعية جديدة يكون الاحبار رؤساءها وتكون وسائل العقوبة فيها العقوبات الكنسية ، أي الحرم والابسال . ويشترك في عضويتها كل الاسياد ، و « كل من أوتي سلطة من الله » ، وكل الاغنياء ، الذين تنحصر وظيفتهم في الحرب وقد يصبحون خير سجنس وبليلة ، ويعقدون جمعية قلمية احتفالية ويقسمون مينا جماعية تجدد كل جيل . ويتمهد الجميع بالامتناع عن القيام بأعمال العنف حيال الاشخاص الكنسيين والممتلكات الكنسية أولاً ، والفقراء الذين ليس من يدافع عنهم ثانياً ، ويمتنعون بالاضافة الى ذلك ، في علاقتهم المتبادلة ، عن اللجوء الى السلاح خلال شطر من كل اسبوع . وخلال بعض ايام الوردانة الطقسية ، أي ايام « الهدنة الالهية » ، ويتكفلون جميعهم اخيراً ضد من قد يخالف الميثاق المشترك . ان هذا التنظيم الذي ارتكز الى احدى أقوى العواطف الجماعية في طبقة المحاربين ، أعني بها احترام اليمين ، لم ينجح ، والحق يقال ، في الحؤول دون كل اضطراب ؛ بيد انه ، دونما ريب ، قد فاق الادارة السكارولنجية فاعلية ؛ وقد توصل طيلة قرن ونصف (لقد عقدت اجتماعات سلام الرب الاخيرة في فرنسا حوالي السنة ١١٥٠) ، بانتظار اعادة السلطة الملكية ، الى تأمين السلامة اللازمة . وبالفعل نفسه ، وسعت حركة السلام شقة الخلاف بين فئة رجال الحرب اعضاء الحلف السلمي ، وفئة رجال الكنيسة الذين يؤلفون مجتمعاً خاصاً يخضع لنظام مستقل يصونه ، وبين جمهور الوضعاء من احرار وغيرهم . فقد فرضت على هؤلاء ، حيلة لما قد يقدمون عليه من اعمال عنف ، عقوبات أشد صرامة ؛ وبينما لم يتعرض الفلاحون الاحرار ، في الماضي ، وفي الظروف العادية ، الى اللجوء النقدي ، تعرضت جرائمهم ، في القرن الحادي عشر ، للعقوبات الجسدية ، وأسندت مجامع السلام تنفيذ هذا القانون الاستثنائي ، أعني به قضاء الدم ، الى ورثة قوة الملوك العسكرية ، أي حكام الحصون .

فان الحصن ، ذلك البرج المربع المؤلف من طبقتين او ثلاث ، الذي شيد في السابق بالاخشاب واخذ يشيد آنذاك بالحجارة ، والذي يعلو مرتفعاً طبيعياً او صنعياً تحيط به أسوار من أوتاد خشبية ، قد بقي ، بعد زوال السیادات الاقليمية ، رمزاً ومركزاً للسلطة الفعالة ، أي « للحكم » اما هذه الابنية العسكرية ، وهي قليلة العدد نسبياً ، لأنها ، في أغلبيتها ، ابنية عامة قديمة (وعلى المغامر الذي تحدته نفسه باقامة حصن جديد ان يحسب حساباً للصعوبات المادية ، ومقاومة الاهالي ، وغارات حكام الحصون المجاورة الذين يقفون صفاً واحداً في وجه الدخيل الذي يتناول على حقوقهم) ، فهي في الدرجة الاولى ملاجئ يحتوى فيها ساعة الخطر ، ونقاط تتجمع فيها الفرق العسكرية المحلية . وان مهمة تأمين السلام - وبالفعل نفسه ، اصدار الاحكام الجزرية في القرى العشر او العشرين التي تحيط بالحصن وقوم ، كما درج التعبير ، تحت حمايته ،

او تحت كابوسه ، او تحت سلطانه ، تعود بصورة طبيعية الى سيد الحصن ، أي الى ذاك الذي يبدو وكأنه السائد بالذات ، أعني به السيد . ليس لهذا الاخير ، مبدئياً ، وفاقاً لتنظيم السلام الجديد ، أي حق على ما قد يوجد في اراضي الحصن من رجال الكنيسة وممتلكاتها ، فيتكون من ثم عدد مواز من الاقطاعات والحصانات الصغيرة . وينتظر هذا السيد ، من الاسياد المجاورين المساوين له ، ومن كافة العلمانيين الذين يتمتعون بسلط من الثروة يتيح لهم الاشتراك في الحرب على صهوة جيادهم والقيام غير قيام بوظيفتهم العسكرية ، احترام اليهود التي قطعوها في جمعيات السلام على الاقل ، والصداقة وتأدية الخدمات الموعود بها ، مقابل مجاملات متبادلة ، حين تعديم الاحترام والدخول في طاعة السيد ، على الاكثر ، ولكنه لا يارس حياهم أية سلطة قسرية . اما كافة علمانيي الطبقات الدنيا المقيمين في نطاق الحصن فتحت سلطته المطلقة .

يتضح من ثم ان توزيع السلطات بعد انهيار السلطة الملكية قد فرض تنظيم المجتمع ، توزع الناس في ذاك العهد ، وفاقاً لموقفهم من القوى الرادعة ، الى ثلاث « طبقات » . والمقصود بذلك فئات محددة ، ثابتة ، اوجدها الاله نفسه ، منذ الخلق ، وباعتراف الجميع ، لتأمين انتظام العالم ، يقابل كل منها « حالة » خاصة او رسالة معينة . احل في الطبقة الاولى اولئك الذين يصلون وتنحصر مهمتهم في التغني بمجد الرب والحصول على خلاص الجميع ، وجراء بهمهم اولئك الذين يحاربون ، وقد اسند اليهم امر الدفاع عن الضمفاء ونشر السلام الالهي ، واحل ، تحت هاتين النخبتين ، العمال الذين يتوجب عليهم ، وفاقاً لاحكام العناية الالهية ، الاسهام بمهمهم في اعادة اختصاصي الصلاة والحرب . ذاك هو المخطط الموجز الذي رشح في اذهان الجماهير حوالي السنة ١٠٠٠ ، وعبر عنه منذئذ في كل مكان ، في الابحاث التمهيلية او الماعط وفي تنظيم الاحتفالات العادية ، وانتقل من جيل الى جيل ، فأصبح طيلة قرون عدة الهيكل الاساسي للمجتمع الغربي .

كانت اولى هذه الطبقات نفسها مؤلفة من فئتين : فئة الكهنة برئاسة الاساقفة ، وفئة الرهبان التي اعوزها التلاحم ، ولكن اصلاحات تدريجية ادخلت عليها مزيداً من الوحدة وجمعت عدداً من الاخويات الكبيرة في عدد مواز من « الجمعيات » الخاصة . وكانت هذه الطبقة قديمة العهد تؤلف وحدها جسماً حقيقياً له تعاليد واهلته وقوانينه الخاصة . وتجدر الاشارة منذ الآن الى ان حركة تجديدية وتطهيرية بطيئة ، تنزع الى التمييز تمييزاً افضل بين الروحانيات والزمنيات ، كانت آخذة تدريجياً بطبعمها بمزيد من الفردية واحكام الفصل بين العلمانيين والاكليريكيين . ومن حيث ان هؤلاء الاخيرين مكرسون لخدمة الله ، فانهم يمتشون من احسانات المؤمنين ، لا الاعشار التي تعود بمعظمها للاسياد العلمانيين الذين اسس اجدادهم الكنائس القروية ، بل التقادم الطقسية او الفسلية التي يستفيد منها خدام الحورنيات ، ولا سيما دخول الاراضي التي تقدم هبات تقوية للمؤسسات الدينية ، ولعمل الاعتقاد بما للاحسانات من فعالية فدائية لم يكن يوماً اعنى منه في الفترة الممتدة من اواخر القرن العاشر حتى اوائل القرن الثاني عشر ، وقد ضمت خلال هذه المدة نسبة مرتفعة من ممتلكات

العلمانيين المقدمة للاله وخدامه الارضيين الى ممتلكات الكنيسة . والطبقة الكنسية طبقة غير معقولة: فكل انسان سيد نفسه يستطيع الدخول اليها بعد ان يتغلب على اسلحته اذا كان من طبقة المحاربين ؛ ويجب عليه في الظروف العادية ان يقدم مهراً « لللبسة » ، ويتوقف المركز الذي سيحتله في سلم الوظائف الروحية ، بصورة عامة ، على اهمية هذه التقدمة الاولى . فهناك تفاوت ظاهر في فئة « المصلين » ، والمسافة القائمة بين مجالس الكهنة القانونيين في الكاتدرائيات ، وكلهم ابناء اسياد يعيشون في مجبوحة كاسياد من محاصيل دخلهم القانوني ، وبين الكليريكيين الوضعاة القاعين بالخدمة الروحية في الارياف ، وكلهم ابناء فلاحين يستفيدون من دخل عارض ضئيل وغالباً ما يضطرون الى ان يدفعوا المهرات بانفسهم في اراضي الخورنيات الضيعة ، هي بالضبط تلك التي تفصل بين الاغنياء والفقراء ، وبين فئة المحاربين المحترفين وفئة العمال . وان هذا التمييز الاجتماعي الاخير هو في الواقع اعرق تمييز لان له انعكاسه داخل الكنيسة العلمانية نفسها ، وحتى في الاسويات الرهبانية : فقد اخذوا في القرن الثاني عشر ، يفصلون فصلاً واضحاً في اديرة البندكتيين ، بين رهبان الترتيل ، اخوة الفرسان ، وبين الرهبان المساعدين ، اخوة الفلاحين . ونحن هنا امام تمييز حديث العهد يسدل الستار تدريجياً على التمييز القديم بين الانسان الحر وبين العبد ، ولكنه تمييز واضح جداً يعين جداً لا يمكن تخطيه في الظروف الطبيعية .

الروسية جمع في هاتين الفئتين الرئيسيتين اولئك الذين تطلق عليهم النصوص اللاتينية المعاصرة اسم « الجنود » بينما تطلق عليهم اكثر اللغات الشعبية الغربية اسم « الفرسان » . وبالفعل بات مفهوم المحارب والفراس مترادفين خلال القرن العاشر ، حين امسى دور المشاة الاثرياً في المعارك ولتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار ، الذين لا يستطيعون تأمين عدة الفرسان الكاملة بسبب فقرهم المدقع . فكان على كل جندي ، في الواقع ، ان يتسلح وفقاً للزرقه ، ولذلك كانت فئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد توجب ، حوالى السنة ١٠٠٠ ، للالتساب اليها ، اقتناء حصان وشتى الاسلحة الهجومية والدفاعية اولا ، والقدرة ، بعد ذلك ، على التمرن على مسافة الفرسان الشاقة ، وتخصيص وقت كاف ، اخيراً ، لتلبية الدعوات الى الاجتماع والاشتراك في الحملات العسكرية . وكان لزاماً عليه بالتالي ان يكون لديه رأس مال هام (فقد كان ثمن الدرع وحده ، في القرن الحادي عشر ، يوازي ما يتطلبه مشروع استثمار زراعي على بعض الاهمية) ومتسع كاف من الوقت بنوع خاص . فامتتهن الفروسية ، من ثم ، كبار الملاكين العقاريين ، اولئك الذين يحصلون دخل املاك واسعة يحرثها خدام كثيرون ولا يحتاجون الى ادارة استثمارها بانفسهم ، والاتاوات المفروضة على عدد من الاراضي التابعة لهم قد يبلغ العشرين ... وبكلمة واحدة ، اولئك الذين يخدمهم عدد هام من العمال .

بيد ان طبقة الفرسان ، التي كانت في البدء مفتوحة الابواب لكافة الاغنياء ، ما عثمت ان ان اقلقت وامست طبقة وراثية ، وجاء هذا التطور طبيعياً جداً في زمن المخطاط الاقتصادي

كانت فيه جميع الثروات عقارية وندر فيه ان يتوصل احد الناس ، بمساعيه الفردية ، الى رفع او تخفيض قيمة ارثه بصورة محسوسة . وكان تطوراً سريع الخطى في فرنسا الوسطى حيث اكتمل في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، بينما كان بطيئاً في غير مكان وبقي ناقصاً هنا وهناك . وحين بلغ حدّه ، لم يعد للثروة اي شأن ، بل للنسب وحده . فورث ابناء الفرسان منذئذ - وحدهم ، باستثناء حديثي النعمة من المغامرين او الفلاحين المثرين - صفة الفروسية ؛ وحق لهم دون غيرهم ، عندما يبلغون اشدّهم ، الانخراط في فئة اختصاصيي الحرب، بعد حفلة اشراك عائلية وبسيطة جداً يتسلمون خلالها اسلحتهم ، بعد امتحان اهليتهم العسكرية ، من ايدي احد متقدمي عائلتهم سنّاً. فكانت هذه الطبقة ، والحالة هذه ، قليلة العدد نسبياً ؛ ويبدو ان هنالك عائلة فرسان في كل قرية على وجه التقريب .

وكان بين اعضائها تفاوت ملحوس في الثروة ، فالبعض يمتلكون حصناً ، ويتمتعون من ثم بحق توزيع الاوامر على الفلاحين ومعاقبتهم واستثمارهم ؛ ولكن هؤلاء الاسياد الكبار يؤلفون نخبة محدودة العدد . ويعيش معظم الفرسان ، في بيت ريفي ، حياة نصف قروية ويشرفون بانفسهم على استثمار املاكهم الصغيرة حين لا يقومون بوظيفتهم الحربية ؛ وليس من النادر ان نرى فرساناً فقراء ، هم اخوة الابكار في بعض العائلات الكثيرة العدد ، يضيق بهم ارثهم ويتمذرو عليهم تعهد اسلحتهم فيضطرون الى المغامرة وركوب الاخطار خوفاً من الانحدار الى طبقة الفلاحين. بيد ان الفرسان جميعهم ، سواء كانوا اغنياء ام فقراء ، يشتركون ، اقله في بعض المراحل ، في معيشة واحدة هي معيشة المحاربين المحترفين ، ويكتسبون العقلية الملائمة لهذه المعيشة : اعتبار خاص للقوة الجسدية ؛ ميل الى المآثر الرياضية ، في الحرب نفسها او في التجارب العنيفة التي تنوم مقامها وتمتد لها - ككنص الوحوش المفترسة الذي تخفبه المخاطر ؛ والمبارزات التي تكاد لا تتميز عن المعركة نفسها والتي لم تكن لمدة طويلة . مبارزات فردية في حلبة مغلقة . بل تجابه فرقتين من الفرسان ، في ارض واسعة الاطراف ، يتعاقب فيه الكر والمطاردة والتقتيل والفدية - واخيراً تقاليد الشرف والايمان التي تستند الى قوانين الحرب . ويشكل هذا المجموع من العادات والشواعر التي تدرّ الى التخصص العسكري في طبقة الفرسان ، اول عامل من عوامل الوحدة . اما العامل الثاني فامتياز يضاف الى الارث ويحمل من الفرسان ، منذ القرن الحادي عشر ، طبقة حقيقية من النبلاء ؛ فالفرسان جميعهم ، بسبب الخدمات المفروض عليهم ان يؤدوها للجماعة كلها ، يعفون من الفرائض والاعباء التي تنوء بثقلها على طبقة العمال ، ولا يؤدّون واجباتهم التافهة ولا يعترفون بقاض يستطيع معاقبتهم ؛ ولا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا السيد اقطاعهم ، بل ارادتهم ، القيام بها .

ان طبقة الفرسان - وهذا ما يميزها ايضاً - محاطة كلها بالانظمة الاقطاعية .
الاقطاع
منذ نهاية العهد الكارولنجي ، اقدم معظم الرجال الاحرار المنتمون الى مرتبة عليا ، رغبة منهم في تأمين الحماية او فوائد اخرى مختلفة ، على مقدمة شخصهم الى ولي نصير ؛

وهكذا فان الفرسان ، المقيمين في الاراضي التابعة للحصن والمزمين بالتجمع فيه عند اول طارئ ، قد غدوا اصحاب اخادات خاضعين لسيد الحصن ؛ ومنذ انهيار القوة الملكية - اي منذ اوخر القرن العاشر في غالبا ، ومنذ اوائل القرن الثاني عشر في جرمانيا - اصبحت هذه الارتباطات الشخصية الروابط السياسية الوحيدة بين اعضاء الارستوقراطية . ولكن صفة هذا الخضوع ، في الوقت نفسه ، قد تبدلت بشكل محسوس ايضا . فقد رسخ في كل مكان ، منذ السنة ١٠٠٠ ، ان خدمات التابع النبيل تستحق مكافأة قانونية ؛ فليس من واجب السيد ، خلال الجمعيات التي تضم رجاله حواله بصورة دورية ، ان يوزع عليهم الهدايا والاحصنة والاسلحة والنقود والحلي فحسب ؛ بل يجدر به ايضا ، منذ تقديم خضوعهم له ، ان يكلفهم تعهد بعض الاراضي ، طيلة اخلاصهم له ، او يخصهم باي انعام آخر - سيادة كاملة على اقطاع ، او جزء من الاعشار او الاتوات ، او استثمار ارض بسيطة في اغلب الاحيان ، او ارض يتسلم الفلاحين - على ان يدر دخلا منظما يعوّض على الرجل شقائه : وهذا الانعام هو الاقطاع . في اوائل القرن الحادي عشر كان تسليم الاقطاع يلي يمين الاخلاص مباشرة ، ثم درجت العادة على ان يدخل في احتفال تقديم الخضوع ؛ وقد اوجدت هذه الوحدة الوثيقة بين الاقطاع والخضوع تحولا في الرابطة بين رجل ورجل . ومرد ذلك الى ان تعهد الارض ، وهو المنصر المادي للموس الثمر ، قد غدا اعظم اهمية في نظر رجال الحرب هؤلاء الذين يكادون يعجزون عن التجريد ؛ وعكست اخيرا العلاقة الاصلية بين الهبة الاقطاعية والارتباط الشخصي ، فاعتقدوا بان وفاء صاحب الاقطاع وخدماته وحتى تقديم شخصه امر واجب بسبب الاقطاع وان واجبات التابع تمثل بدل هذا الاستثمار . وقد تم هذا التحول في الاعتقاد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر : فاصبح السيد وصاحب الاقطاع مرتبطين بمحقها المشترك على ارض واحدة اكثر من ارتباطها بوعد الصداقة . فما هو والحالة هذه موقف كل منها ؟

ليس الفارس صاحب الاخاذة مطلق التصرف باقطاعه : فقد يفقدها اذا لم يحترم بنود عقد خضوعه ؛ ويجز السيد الاستثمار حال ثبوت اخلال صاحب الاخاذة بواجبه امام جمعية كافة اصحاب الاخاذات . اما اذا برّ التابع النبيل بيمين ولائه فلا يمكن ان يكدره مكدر في تصرفه باقطاعه ؛ ويستطيع ان يتنازل عن بعض اجزائه لاصحاب الاخاذات التابعين له ؛ وينزع طبيعيا الى اعتبارها كاحد املاكه الخاصة التي لا شيء يميزها عنها في الظروف العادية ؛ وقد اعترف له ، في اوخر القرن الحادي عشر ، بصورة عامة ، بحق بيعها او نقلها الى ورثته . اجل ان هنالك بعض الاستثناءات ؛ فالاقطاعة ، من حيث هي وراثية ، لا تقبل التجزئة ، ولا مناص بالتالي من موافقة السيد وتدخله حتى يستطيع متسلم الاقطاع الجديد التمتع بحق الاستثمار ؛ وكثيرا ما يضطر هذا الاخير لدفع رسم الانتقال ويخضع لاحتفال تقديم شخصه . ولكن هذه الضمانات لحق السيادة لا تحول دون انتقال الاقطاعات من يد الى يد ، ولا دون قيام او زوال الولاء الذي تستلزمه . فادت سهولة الانتقال هذه الى تراخ اكد في الروابط بين انسان وانسان . فلم ينتخب

السيد ، بعد ذلك ، اصحاب الاخاذات التابعين له ، بل غدت الوراثة والبيع يدخلان في خدمته اتباعاً جديداً غالباً ما لا يصلحون « لخدمة » اقطاعهم بسبب صغر سنهم او عجزهم الصحي ، او يكونون مجهولين منه ان لم يكونوا معادين له ؛ ومن حقنا الشك في حقيقة قيمة ايمان تقسمها الشفاء وحدها خلال احتفال لم يعد سوى معاملة شكلية تخضع لها علاقة عقارية بحجة . اضاف الى ذلك ان وراثة الاقطاعة وحق بيعها رفعا عدد الفرسان الذين باتوا ، بعد تسلمهم اقطاعات مختلفة بشتى الطرق ، خاضعين لعدة اسياد : وهم قد وعدوا كلاً من هؤلاء بالاخلاص والخدمة ؛ وجلي انه يصعب عليهم التفرغ كلياً لكل من اسيادهم في حال انهم ينزعون بالفضل الى التمتع بتعهداتهم الكثيرة حتى لا يقوموا باي منها . لذلك فان الارتباط الاقطاعي ، من حيث هو خاضع للاقطاعة ، ابعد من ان يكون ابدأ ، شأنه في العهد الفرنجي ، خضوعاً كلياً من الانسان لحاميه لا يحل من موجباته سوى الموت .

يجب الا نمتد مع هذا بان خضوع صاحب الاخاذة للسيد قد فقد كل قوته ؛ فهو قد بقي مرتكزا الى احد اخطر الافعال التي يمكن ان تصدر عن المسيحي ، اعني به القسم . ولكن قوته قد غدت اكثر تفاوتاً وتأثراً بالظروف . وهذا نحن نورد هنا ما جاء في رسالة وجهها فولبير اسقف شارتر ، حوالي السنة ١٠٢٠ ، الى دوق « أكييتين » ، الذي استشاره في هذا الامر ، حول مفهوم العلائق بين السيد وصاحب الاخاذة انذاك . هناك في الدرجة الاولى الاخلاص المتبادل من حيث ان المتعاقدين يحتلان مستوى واحداً تقريبا ؛ فـ « على السيد ، في كل الامور ، ان يعامل تابعه بالمثل ، وان لم يفعل صح اتهامه بسوء النية » . واذا ما رددنا هذا التعهد الى حقيقة جوهره ، بدا لنا انه وعد ذو طابع سلمي : فان كلا من الطرفين يتمتع عن القيام باي عمل قد يلحق الضرر بالآخر . وانما يستحسن ان تكون الصداقة اشد حرارة وان تظهر بخدمات ايجابية ؛ واذا كان من العدل ان يتمتع التابع عن الحاق الضرر بسيد ، فهو لا يستحق اقطاعه بهذه الطريقة ؛ ولا يكفي الامتناع عن فعل الشر ، بل يجب فعل الخير ايضا ؛ ويتوجب من ثم على صاحب الاخاذة ان يقدم لسيد المشورة والمساعدة باخلاص ، اذا اراد ان يكون جديراً بالاقطاعة ومنسجماً مع ميثاق الاخلاص التي اقسما . و « المساعدة » تعني تقديم العمون بكل الوسائل الممكنة والوسائل التي تفرضها الظروف ، وذلك بتقديم المال ، واستخدام النفوذ ، في القضاء وغيره ، لدى خصوم « الصديق » ، وفي اغلب الاحيان بالقوة والاسلحة ، كما يليق ذلك في مجتمع عسكري . واتضح تدريجياً خلال القرن الثاني عشر طبيعة ومدى المساعدة الاقطاعية ، وتحددت في الاعراف المحلية : وهكذا فقد بات من المعترف به في فرنسا ان من حق السيد ان يفرض على صاحب الاخاذة ، بالإضافة الى الدورات التدريبية في الحصن ، الخدمة العسكرية المجانية اربعين يوماً في السنة ؛ وان باستطاعته ايضاً مطالبة تابعه بمساهمة مالية ، حين يتوجب عليه دفع فدية او تسليح ابنه او مهر ابنته او حين يشترك في حملة صليبية . اما واجب المشورة فيجب ان ينظر اليه من زاوية عرف خاص بمجتمعات القرون الوسطى ، اعني به الشعور الراسخ بان رئيس الفرقة

لا يستطيع اتخاذ قرار خطير واصدار حكم والبت بمصير ممتلكاته ، دون عرض الامر على رجاله والاستئناس برأيهم ؛ فعلى صاحب الاخاذة ، والحالة هذه ، كلما طلب اليه ذلك ، التوجه الى سيده والاقامة في دياره ؛ وان هذا الاجتماع ، من جهة ثانية ، ظرف يتيح للرجلين إعادة الاتصال بينها وتوثيق رابطة قد يكون ارضاخا البعاد . وغالباً ما تضاف الى هذه الموجبات العامة خدمات متبادلة اكثر تلقائية واعمق انمكسات ادبية : وهكذا فغالباً ما يحدث ان يرسل صاحب الاخاذة ابنه لتمضية حدائنه وتعلم مهنة القروبسية في كنف السيد ورفقة اولاده ، لا سيما وانه سيدهى « لخدمتهم » فيرتبط بهم من ثم ارتباطاً وثيقاً . وليس من النادر اخيراً ان تكون العلاقة اشد وثوقاً ايضاً ، فلا يميز بين صاحب الاخاذة وبين اقرب اقرباء سيده ؛ اذ ان الرابطة الاقطاعية ، حين تنميها مجاورة جسدية وروحية ، تبرز بكل قوتها وتسمي ، كالرابطة الدموية ، ملزمة وموجبة .

ان العقد الاقطاعي ، كما رأينا ، اطار مرن جداً ؛ فقد يحدث الاخلاص ، والغم ، والنسب ان يقيم بين رجلين قرابة حقيقية ، اعني بها تلك الاخوة المتنازة التي تصلها اغان ايمائية كثيرة ؛ ولكنه قد يؤول ايضاً الى مجرد ضمانة ضد الاعتداءات الممكنة حين يقوم بين قوتين غريبتين او متعاديتين . ويبدو بصورة عامة ان قوة الاخلاص منوطة في جوهرها بقوة كل من التابع وسيده ؛ فالفارسي الصغير الفقير ، التابع لسيد عظيم ، مضطراً لان يخدم ، مجزى من الانقياد ، هذا السيد الذي يخشاه والذي يستطيع ان يقدم له مساعدة فعالة . وهي تختلف باختلاف المقاطعات ايضاً ؛ ففي المناطق المسيحية الجنوبية ، تبدو الموجبات الاقطاعية اكثر حصراً واقل وضوحاً . وقد تحولت اتفاقات خاصة ايضاً ؛ فان بعض الوعود بالخضوع والطاعة ، لا سيما حين تقطع بين عظام الاسياد ، معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالباً ما تدون في وثيقة خطية وتوضع خلال مقابلة تجري في ولاية متاخمة وتحدد بالتفصيل كميّات المساعدة

غير ان سؤالاً يرتسم امامنا هنا : اذا كانت النظم الاقطاعية ، المتفاوتة الفعالية ، تؤلف الاطار السياسي الوحيد لطبقة الفرسان ، فهل باستطاعتها ان تحافظ على النظام داخل هذه الطبقة ؟ يمكننا الاعتقاد بانها تتوصل دائماً الى ايثاق ارتباط صفار الفرسان الريفين بسيد الحصن المجاور ؛ فهي تجمع حوالى الحصن ، وهو المركز الرئيسي للمشاط العسكري ، جنود الجوار في وحدة متينة تزيد في تراصها اخوة السلاح وتجتمع دورياً ، اما في التمارين الحربية ، واما في البلاط الاقطاعي ، حول السيد المشترك ، الحكم الطبيعي للخلافات الداخلية . ومن الثابت من جهة ثانية ان شعور الخضوع ، في طبقات الفرسان العليا ، يشكّل حاجزاً فعالاً في وجه المشاهدات : فان اقل اصحاب الاخاذات اكثر اناءً بوحى ضميرهم يتردد دائماً في مهاجمة سيده مهاجمة سافرة ، وقد اسهم هذا الاحجام في ايقاف كثير من الممارك ورفع الحصار عن كثير من الحصون . وعلى الرغم من ذلك لم يكن التنظيم الاقطاعي كافياً . فهو في الدرجة الاولى لم

يؤلف ، كما يسود الاعتقاد ، جهازاً متلاحماً يجمع في كتل متراسة ، حول كل ملك أو كل امير عظيم ، كافة الموالين في الاقاليم ، بل تجزأ الى حيايات محلية كثيرة ، مستقلة عملياً بعضها عن بعض . ثم ان السيد ، وهذا هو الامم ، ما كان ليستطيع مراقبة كافة تصرفات تابعه ؛ فبماكانه ان يماقيه بمجرد اقطاعه اذا اساء الاخلاص المتوجب عليه ، ولكن حقوقه عليه تقف عند هذا الحد ؛ وباستطاعة صاحب الاخاذة ان يرتكب ابشع الجرائم ، اذا ادى لاسياده المختلفين خدمات المساعدة والمشورة ، دون ان يتمكن هؤلاء من اتخاذ اي اجراء بحقه . وقد برز بكل جلاء نقص النظم الاقطاعية في الاجراءات القضائية المطبقة في كافة انحاء الغرب في القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر .

عندما يتجشم احد الفرسان ضرراً يلحقه به احد افراد حاشيته ، ليس من محاكم نظامية تستطيع قبول شكواه واتخاذ اجراء مباشر ضد المعتدي ، الا اذا كان الرجلان عضوين في جمعية اقطاعية واحدة . فيتوجب على الضحية والحالة هذه ان تحصل حقها بيدها ؛ فتقوم بمساعدة اصديقاتها ، بعمل عسكري ضد الخصم وذويه ؛ وتبتدىء بذلك حرب قد تدمر زمناً طويلاً جداً وقد تتسع تدريجياً بحسب المبالغات ، وهذا هو البثار الخاص . فكل خلاف وكل نزاع حول الارض وكل اهانة وكل بادرة في غير محلها قد تقضي من ثم الى نزاع مسلح يولد بدوره احقاداً اخرى وانتقامات اخرى . بيد ان الفريقين المتعادين يقبلان عموماً ، بواسطة الاصدقاء المشتركين ، وبعد مسامحات طويلة ، بان يفصل في خلافهم مجلس مؤلف بالتساوي من انصار كل منهما . ثم مرض الضحية شكواها ، تدعيها في موقفها ايمان اقربائها واسيادها واتباعها ، ثم يتناقشون ويلتمسون غالباً حكم الاله اما بدعوة ابطال الفريقين الى المبارزة ، واما باخضاع المدعى عليه لامتحانات الماء والنار الطقسية ؛ ويضعون في النسابة تسوية تقرر بالتخلي عن بعض الحقوق . واذا كان موضوع النزاع مالاً ، تقرر قسمته بصورة عامة ؛ اما اذا كان جريمة او ضرراً جسدياً ، فيحدد ثمن الدم ، الذي يتوجب على المعتدي دفعه لجميع من الحق بهم ضرراً . وانما يتوجب على المتخاصمين ان يقبلوا كلهم بشروط الصلح ؛ فالقضاة ليسوا في الحقيقة سوى مصلحين ولا يأخذون على انفسهم فرض حكمهم بالقوة . فنحن من ثم امام قضاء بطيء وناقص وبامط الاكلاف (بسبب الدفع للوسطاء والقضاة والشهود والابطال) وبالنتيجة غير ذي فعالية لانه لا يعمد الى الضحية حقها كاملاً ويشجع على اللجوء الى العنف . ومساكن التنظيم الاقطاعي بمفرده ، من ثم ، ليكفي للحفاظ على النظام والسلم ، لو لم يكتمل اطار طبقة الفرسان بوسيلتين : الاكثار من ايمان الضمانة المتبادلة ، وثوثيق الروابط المائلة .

تقسم اليمين بوضع اليد على الذخائر المقدسة او على كتاب الاناجيل ، وامنن رهن النفس رهناً احتفالياً ؛ فليس من عمل آخر اكثر الزاماً لانسان بهتم لخلاصه الابدني ويخشى بالاضافة الى ذلك ، في اموره الزمنية ، نتائج الغضب الالهي . ويلفت النظر ان فارس القرن الحادي عشر محمول على اقسام ايمان كثيرة . يمتنع بموجبها عن استعمال القوة والحق الاذى بالغير . فهناك اليمين العسامة

المقسمة جماعياً في جميعات سلم الرب ، وإيمان الخضوع التي تعددت بعد تزايد المشاركات الزراعية والإيمان الخاصة أخيراً التي تفرض في ظروف عديدة فتصدق كل اتفاق وصفقة ، ويقسمها ليس كل متعاقد فمحسب ، بل كل الاصدقاء الذين يرافقونه أيضاً والذين يصبحون ، بعهدهم هذا ، شركاء له في عمله ويتعهدون بالحفاظ على السلم . فيدخل الفارس بهذه الطريقة في شبكة من الوعود التي تربطه نهائياً بكافة جيرانه تقريباً ، أي بأولئك الذين يتاح له ظروف كثيرة يقابلهم فيها ؛ فيضطر بالنائي الى كبح نزواته والركون الى الهدوء .

بالإضافة الى ذلك ينتسب الفارس الى وحدة ضيقة ، تحميه وتراقب اعماله ، اعني بها نسبه . فقد غدت العائلة ، بعد اختلال حبل الامن الذي عقب انهيار الملكيات ، الخلية الاساسية لمجتمع الفرسان . فامست في آن واحد اشد تلاحماً (ودرج استعمال اسم العائلة المشترك بين جميع الاعضاء ، وهو رمز هذا التجمع ، في الطبقة الارستوقراطية منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر) . واعظم اتساعاً : فاحتفظت روابط الدم بكل قوتها طيلة اجيال عديدة جامعة ، حول الاكبر سناً ، الحفدة وابناء الاخوة وابناء الاعمام . ولا يحدث البتة ان يعمل النبيل آنذاك مستقلاً عن اقربائه ؛ وهو في الحرب واثناء المرافعة امام القضاء يحاط ابداً بـ « اصدقائه بالجسد » الذين يقدمون له المساعدة والذين يتوجب عليه مساعدتهم بالتفضيل على اعز اسباده ؛ وهو ، اذا حرم كل ثروة فردية ، حتى ولو كان متزوجاً ولم يرزق اولاداً ، يشترك معهم في ثقل ارث الجدود الذي ينظم رئيس الجماعة استثماره بشورة الجميع . وهذا التضامن الاقتصادي الذي يلزم بالتعاون الدائم هو العامل الملمزم الاول بين عوامل الوحدة العائلية . وجدير بالذكر ان قوة الموجبات النسبية تسهم اسهاماً كبيراً في الحفاظ على النظام . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان الفارس غالباً ما يثليه نسباً عن تنفيذ نواياه الحربية خشية منهم من ان يجرؤا جرأاً الى عمل لا يوافقون عليه ، وفي الدرجة الثانية الى ان تؤكد الممتدين من ان يناصبهم العداء كافة اقرباء ضحاياهم غالباً ما يحملهم على التراجع عند اعتداءاتهم المحتملة . ولذلك فان طبقة المحاربين ، التي هي تجمع ليس قوامه الافراد المنزليين بل عدداً كبيراً من الجماعات المتشابهة نسباً وانتساباً اقطاعياً ، هي طبقة سلسة وعنيفة لعمرى ، ولكنها ليست خارجة كلياً على النظام .

تختلف الظروف الاقتصادية في الطبقة الاخيرة من المجتمع اختلافها في الطبقتين الفلاحون الاولين . فبين العمال الذين لا ينتسبون الى نخبة الفرسان ، وبين العمال الذين يحصلون من الارض بمرق جبينهم ما يلزم لاودهم واود غيرهم ، من لا يملكون شيئاً ويستعطفون خبزهم على ابواب الاديرة وينطلقون الى كل جهة سعياً وراء اي عمل ممكن ويتمنون ويشقون في املاك الاسياد الواسعة تحت امرة الخدام المنزليين . ولكن سواد هذه الطبقة من الفلاحين الاحرار في ان يستثمروا اراضيهم العائلية على هوام ؛ انما يجب ان نميز ، في عداد متعاطي اعمال الزراعة هؤلاء ، بين العمال الذين يستخدمون المحراث وأولئك الذين يركشون ارضهم بالمعول .

وهناك اخيراً فئة من غير النبلاء الذين لهم شركاؤهم الخصوصيون، الخدّام، والذين يعيشون حياة بطالة ؛ هؤلاء فلاحون ورثوا ارضاً أحسن استثمارها ، او عملاء الاسياد ووكلاؤهم في ادارة خدمة منزلية او ادارة قطعة ارض ثانية كوفئوا بنصيب من الواردات التي يكلفون جمعها ؛ وم من جهة ثانية على جانب كبير من اليسار ، يمتلكون الجياد ويمتلكون الاقطاعات في غالب الاحيان وتتجاوز مواردهم موارد فرسان كثيرين، على انهم نادراً ما يدخلون (اقله في فرنسا) في طبقة النبلاء المقفلة اقفاً محكماً في وجه حديشي النعمة .

بيد ان هؤلاء الممال ، بصرف النظر عن مقدار ثروتهم - وهذا ما يميز وضعهم - قد خضعوا خضوعاً تاماً لسيد لم يختاروه ، يحميمهم ويقودهم ويعاقبهم ؛ والنظام المفروض عليهم نظام شديد يطبقه رئيس يتمتع بحق نفيمهم . وينتسب عدد كبير منهم ، ممن دعوا بالفدائيين في القرن الحادي عشر ، وبالحرس الخاص في القرن الثاني عشر ، الى رجال آخرين يزعمون ان لهم عليهم كل سلطة ؛ ويخضع الباقون منهم لسيطرة سيد الحصن في الارض التي يقيمون فيها . وسواء كانوا عمالاً في القرية او اتباعاً لشخصين - وهم يتساوون في سوء المعاملة - فانهم مرغون تجاه سيدهم بتأدية خدمات مختلفة يطلق عليها اسم « المادات » - لان مداها يحدده العرف - او « الهدايا » احياناً ، لانهم اعتبروها تقادم تلقائية من الاتباع المحميمين الى حامي السلام . فهناك الالتزامات العسكرية اولا : على الرعايا ان يؤمنوا حراسة القصر ، ويقوموا في التحصينات عند حدوث اي طارئ ، ويسيروا مشياً على الاقدام وراء الفرسان كي يؤدوا لهم بعض الخدمات ؛ وعليهم بنوع خاص الاسهام في بعض الاعمال التسخيرية كالترميم والنقل وتقديم القرطبان او الاغذية في سبيل تعهد الحصن وحاميته . وهناك الخضوع القضائي ثانياً : فهم تابعون لسلطة محكمة السيد التي تجازيهم ، في حال الجرم ، بالاضافة الى التمويض على الممتدى عليه ، بفرامة مالية تتراوح بين ثلاث (٣) وستين (٦٠) نحاسة ، والتي ترفع قضيتهم الى السيد نفسه اذا ارتكبوا زنى او سرقة خطيرة او جريمة قتل مقصودة . وهناك الخدمة المختلفة اخيراً : فجامعو واردات السيد الحاكم يستوفون الرسوم على الصفقات وانتقال المواد الغذائية واستخدام طاحون السيد وقرنه ومعصرته ؛ والممال القرويون ملزمون في بعض الظروف باضافة السيد ورجاله او تقديم كمية من المواد الغذائية توازي ما تكلفه هذه الضيافة ؛ وهذا ما يعرف بحق الماوى ؛ وهم ملزمون اخيراً « بمساعدة » حاميمهم الذي يدعي لنفسه بحق مصادرة المال او المحاصيل الزراعية او كل ما ينقصه وما يريد ايتضاً في الغالب من منازلهم ؛ وهذا ما يعرف بحق الاقتطاع .

ان هذه الحقوق السيدية ، المختلفة بين سيادة واخرى ، التي تنوء بثقلها على كافة الرعايا بالتساوي ، سواء كانوا مالكيين او مستثمرين ، وسواء كانوا احرار التصرف بشخصهم او غير احرار ، تمثل في القرن الثاني عشر ، بالنسبة للسيد ، دخلاً اجلاً فائدة من كافة واردات الاملاك ؛ فاستغلال حق القيادة انما هو ما وفر لحكام الحصون وللجمعيات الرهبانية الكبرى اهم الموارد ورفعهم الى مرتبة دونها مرتبة الفرسان العاديين الذين لم يستفيدوا الا من كراه

اراضيهم . وتشكل هذه الموجبات كذلك ، بالنسبة لمن تفرض عليهم ، عبئاً دونه الفرائض المقارية ، وينطوي بعضها على المزيد من الازعاج ، لا سيما فريضة الاقتطاع التي نظر اليها الكثيرون نظرتهم الى السرقة ، والتي ارغمت على التظاهر بالفقر وقضت على روح التوفير . انما يجب الان ننسى ان هذه « العادات » هي ثمن الضمانة والسلامة ؛ فبفضل السيد يسود النظام داخل الجماعة ؛ كما ان كل تمكيز للامن يجمع بصرامة يزيد في شدتها ان السيد ، وهو الحريص على احقاق الحق ، لا ينتظر شكوى الضحايا كي يطلب تدخل عملائه . فلهذا السبب ، ولان الفلاح الخاضع للسيد الحاكم غير مرغى على تأمين الدفاع عن نفسه ، كانت الروابط العائلية في الطبقات الدنيا اقل منها وثوقاً في طبقة الاشراف . بيد ان التجمع هنا ايضاً امر مرغوب فيه لانه يتيح دفاعاً افضل ضد المطالب السيدية : فقد وقف الفلاحون تدريجياً ضد استخدام حق النفي ، خلال القرن الحادي عشر ، في اطار القرية ، حول المعبد ومقبرته ، وهما مكانان يحميها سلم الرب بصورة خاصة ، وباستطاعة الفلاحين ان ينجوا فيها من اشد اعمال العنف والمصادرات ازعاجاً - وحول الاخوية التي هي جمعية صلاة وتعاون متبادل . وهكذا تكونت الخلية الاساسية في المجتمع الريفي ، اعني بها الجماعة القروية ، اي جمعية عمل يتنوع اعضاؤها بامتلاكات وحقوق عرقية جماعية ويتفقون على تنظيم استثمار الارض وعلى جمع القطيع المشترك في الاراضي البائرة وعلى تنظيم الدورات الزراعية - وجمعية دفاع ايضاً تحافظ على « العادة » ، وتعارض استحداثات السيد ، وتتوصل احياناً ، في القرن الثاني عشر ، الى حل هذا الاخير على تخفيف نظام النفي .

هذا هو ، بخطوطه الكبرى ، نظام المجتمع الاقطاعي . اجل ، ان هذه اللوحة الاجالية ، التي تنطبق على مملكة فرنسا ، قد لا تنطبق جملة على كل مجتمع اقطاعي ، لان اوروباً متنوعة المناطق والسكان . فالانظمة الاقطاعية ، في المناطق الجنوبية مثلاً ، اقل رسوخاً الى حد بعيد ؛ وفي المانيا ، ابقى استمرار السلطة الملكية ، الى جانب نظام الاقطاع « *Lehnrecht* » ، الذي ينظم العلاقات الناجمة عن الاقطاع ، على القانون البلدي العقاري « *Landrecht* » ، الذي يمكن تطبيقه على كافة الرجال الاحرار ، نبلاء كانوا ام فلاحين ؛ وقد جهلت بعض المناطق الاخرى ، كمنطقة الفريز ، مثلاً ، حكم السيد والاقطاع ؛ اضاف الى ذلك اخيراً ان قيام العلاقات السياسية والاجتماعية في البلدان الشمالية التي دخلتها الصراينة ، اي الجزر البريطانية وسكندنافيا والساكس ، لم يتحقق الا بتأخر زمني محسوس : وهكذا فقد تألفت معظم فرق الفرسان الانكلو نورمندية ، حتى السنة ١١٠٠ ، من مفارين فقراء لا يملكون فتراً من الارض ، دخلوا الخدمة جنوداً منزليين يعيشون على طاولة اسيادهم ، ولم تصبح ارستوقراطية اقطاعية الا ببطء وبعد مرور زمن طويل .

وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكز التنظيم الاجتماعي ، بصورة عامة ، الى تحديد النشاطات : فهناك نخبتان ، اسندت الى احدهما الوظائف الروحية والى الاخرى المهام العسكرية ،

بتحدهما عمل جمهور الفلاحين . لذلك كان مستوى حياة رجال الكنيسة والفرسان رهن انتاج العمل الريفي ؛ وما زال هذا الاخير ، في منتصف القرن العاشر ، انتاجاً هزلياً يكاد لا يكفي لاعالة رجال الاكليروس والنبلاء ؛ فاذا ما ارتفع ، وزادت المحاصيل الزراعية ، استطاع المخصصون للصلاة والحرب الحصول على نصيب اوفر من الثروة والتصرف به لرفاهيتهم والنفقات البذخية ومشاريع الفتوحات النائية والابحاث الفنية والفكرية . وبلغت النظرة ان يقطعة النشاطات الريفية تبرز بالضبط حوالي السنة ١٠٠٠ التي كانت منطلقاً للحضارة الغربية .

٢ - النمو الاقتصادي

ان استئناف النشاط الاقتصادي الذي لاحت دلائله منذ العهد الكارولنجي قد برز بصورة حاسمة ، في اوروبا ، حوالي السنة ٩٥٠ ، بعد ان حالت دونه ، طيلة قرنت ونصف ، الغزوات النورمندية والاسلامية والهنغارية . في هذه الفترة ، كما يبدو ، اي في العقود القليلة التي سبقت السنة ١٠٠٠ ، انتشرت بسرعة في الارياض المسيحية ، التي أعيد تعميرها ، عدة اكتشافات تقنية ذات نتائج عظيمة جداً . اجل كانت هذه الاكتشافات قديمة العهد ، ولكن تطبيقها في الغرب قد بقي محدوداً حتى ذلك التاريخ . يتعذر في الحقيقة تتبع هذا الانتشار لان الادلة المباشرة ، واعني بها آثار الادوات او رسوماتها ، نادرة جداً ويصعب تحديد تواريخها ، ولان النصوص لا تنطوي الا على القليل القليل من المعلومات . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان الانطلاقة الكبرى في الغرب ترتبط آنذاك ارتباطاً وثيقاً بتبدل اساسي في الطرائق الزراعية ، اي بشورة حقيقية بطيئة اتاحت انتاج مزيد من المواد الغذائية يجهد اقل منه في السابق ، فقلبت ظروف الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

ان هذا التبدل على جانب كبير من التعقيد ويتناول شتى عناصر الطرائق التحسينات التقنية الزراعية؛ بيد انه يجدر بنا ، في سبيل توضيحه ، ان نعرض التحسينات المختلفة التي تترابط في الواقع ترابطاً وثيقاً وتتداخل تدخلاً مستقلاً . يقوم التحسين الاول في استخدام قوة المياه الجارية استخداماً افضل : فيبدو ثابتاً ، منذ القرن العاشر ، ان مجاري المياه قد نظمت وحولت مياهها الى اقنية وخزانات وشلالات معدة لتعريك مطاحن الحبوب ومعاصر الزيوت . فاغنت المطاحن المائية عن الهواوين والمطاحن اليدوية ، ورفعت عن اليد الماملة المنزلية عبء تحضير الحبوب الذي كان عملاً شاقاً جداً ، واثاحت لها الانصراف الى مهام اخرى اعظم انتاجاً . وفي الوقت الذي استخدم فيه الناس الطاقة المائية لوصولهم الى استخدام قوة الجر الحيوانية استخداماً افضل ايضاً ؛ فقد ظهر وانتشر في الوقت نفسه تحسين عظيم في اساليب قرن الحيوانات ؛ فاستميض بالطوق الصلب عن لبس الحصان الرهل الذي كان يخنق الحيوان وينقص قوته انقاصاً

محسوساً ؛ اما نير الثور الذي احكم صنعه وفاقاً لقوى الحيوان الفاعلة ، فقد نقل من الكائبة الى القرون . ويرتبط بهذه التقدمات الاولى تحسن في الادوات ؛ فقد استعملت ، في المذرة والحرفة ، عن الحشب بالحديد ، فقدت الاداة اعظم فائدة ؛ واخذ الناس يستخدمون المسلفة ؛ واستطاعوا بصورة خاصة ربط آلات زراعية اعظم طاقة الى دواب مقرونة ازدادت قوتها . فقد انتشر آنذاك في كافة مناطق اوروبا الشمالية ، وفي كافة الاراضي المخصبة التي لا يخشى أن تتضرر بالحراثة العميقة ، استخدام المحراث الكبير الثقيل ذي المعجلات والمقلب ؛ اما المحراث الحشي القديم ، الذي لا يقلب الا وجه الارض ، فقد خصص تدريجياً بالاراضي الحشافة الجافة .

قلبت الارض قلباً افضل وهوت تهوية احسن ، واستفادت ايضاً من تقدم طرق اخصابها ، واصلاحها بالسجيل ، وهي طريقة انتشرت في غربي فرنسا ، ورتيا الذي اعتمد على نطاق واسع في لومبارديا منذ اوائل القرن الثاني عشر ؛ فتحسن من ثم انتاج العمل الزراعي وحدثت اخيراً ثورة في تحديد مواعيد زرع الحبوب المختلفة ، فحلت تدريجياً محل نظام الدورة الرومانية التي تتجدد كل سنتين ، ومحل طرائق بدائية اقل انتاجاً ، كالزراعة المتنقلة او المؤقتة ، او زراعة الارض المحرقة ، الدورة التي تتجدد كل ثلاث سنوات ؛ اجل لقد جرى هذا التبدل بكل بطء (اذ ان الطرائق الجديدة قد ادخلت ، كما يبدو ، في العهد الكارولنجي وفي الاراضي الملكية والرهانية الواسعة) ولن يكون الاجزئاً ، ولكنه يشكل تقدماً حاسماً . فقد سمحت هذه التقنية بزراعة الارض سنتين من اصل ثلاث بدلاً من سنة من اصل سنتين وحصلت زيادة في انتاج المواد الغذائية تعادل نصف الانتاج السابق على الاقل ، وانتشر مع الدورة الجديدة استعمال القرطمان الذي آثره الفلاحون على الشمير . فقد استخدم في اغلب الاحيان حساء لتغذية الانسان ؛ كما استخدم لتغذية الماشية جزئياً ايضاً فاسهم في رفع عددها وتحسين نوعها . وانتشرت بصورة خاصة تربية الخبول ؛ وكان لهذه الظاهرة الرئيسية ، التي غدت اساس تبدل كلي في اساليب الحرب ، ووجهت من ثم تطور الارستوقراطية الغربية ، صدها البعيد في الاقتصاد الريفي ؛ فمنذ اواخر القرن الحادي عشر اخذ الحصان يقوم مقام ثور الفلاحة لانه يفوقه سرعة في الحركة ويساعد ، بمحراث الارض مراراً متعددة ، على زيادة الانتاج ، مع ان تعمده اعظم اكلاًفاً . تلك هي الاستحداثات التقنية الهامة . ولشعر ايضاً الى انها استخدمت ببطء ايضاً ، في اهم المشاريع الزراعية اولاً ، وان مركز انتشارها كان ، على ما يبدو ، السهول الغربية الكبرى في المقاطعات الفرنجية القديمة بين نهري الوار والرين ، وانها لم تدخل فعلاً ، خلال القرون الوسطى ، سوى ارياف جنوبي انكلترا وفرنسا والمانيا الشمالية ؛ اما جنوبي فرنسا فقد حافظ ، لاسباب مناخية بحتة ، على العادات القديمة ، اي على المحراث القديم وزراعة الارض دورياً كل سنتين .

احدثت هذه الثورة التقنية تجديداً كلياً في الحياة الريفية . فجاءت الحصاد ، في كافة المشاريع الزراعية ، وبالمجهود نفسه ، اهم منها في

الانتاج والسكان

السابق الى حد بعيد . ولم يعد للسيد من حاجة ، بغية زراعة القطع الكبرى الصالحة للحراثة في اراضيه الاحتياطية ، لذلك الجيش اللجب من المسخرين : اذ ان بعض الافراد يكفون للقيام باعمالهم . فهو بالتالي لا يستدعي الآخرين بل يتفق معهم على ان يدفعوا له ، عوضاً عن هذه الخدمة ، بعض المال او محصولات زراعية . وهكذا زالت تدريجياً معظم اعمال التسخير التي فرضت في املاك الاسياد خلال العهد الكارولنجي . ففي السنة ١١١٧ مثلاً ، ابدلت برسم نقدي ايام العمل الثلاثة المفروضة اسبوعياً للسيد على بعض مزارعي دير « مار موقيه » الالاسي . الا ان هذا الطراز نفسه من الاعمال التسخيرية قد استمر حتى منتصف القرن الثالث عشر في بعض املاك الاسياد من المنطقة الباريسية . ومع ذلك فقد توقف شيئاً فشيئاً اسهام المشاريع الزراعية التابعة للسيد في استثمار الاراضي الاحتياطية ، باستثناء بعض الايام التي تحددها روزنامة الفلاح والتي توافق نبت المزروعات ، وخلال مرحلة الحراثة بنوع خاص . ثم ان ابدال الخدمات القديمة بالآلات ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن التقنيات ، قد درّ على سيد الارض موارد اضافية : آتاوات عينية تؤمن له قوين بيته وتتيح له انقاص مساحة اراضيه الاحتياطية وتأجير قسم منها وزيادة عدد المزارعين ومن ثم زيادة الارباح ، وآتاوات نقدية تتيح له شراء مزيد من الاراضي . ففدا السيد ، والحالة هذه ، اقل ارتباطاً بارضه ؛ واحتل الدخل الدائم في ايراداته مكاناً متزايد الاهمية ؛ واخذت مشاريع الاعمال الزراعية ، في املاك السيد ، تنفتح شيئاً فشيئاً على الخارج .

اما في الاراضي التي يستثمرها الفلاحون ، فقد اتاح تزايد انتاج ادوات العمل وتناقص اعمال التسخير التي استأثرت دورياً في الماضي بقسم من اليد العاملة المنزلية ، الحصول من الارض على حصائد اوفر . اجل ، لقد توجب عليهم تسليم او بيع بعض هذه الحصائد لتسديد الآتاوات التي تقوم مقام الخدمات القديمة او لتلبية مطالب السيد الجديدة . بيد انهم يحتفظون بفائض كاف لتأمين تغذية أفضل لعائلاتهم التي تنعم ببعض اليسار في ارض زاد جنيتها دون ان تزيد مساحتها : فكان هذا دواء ناجعاً لمعالجة سوء التغذية المزمن ، الذي ثقلت وطأته منذ قرون على العالم الريفي ، ورفع نسبة الوفيات بين الاطفال وحال دون ازدياد عدد السكان . ففدت الجماعات نادرة بعد السنة ١٠٠٠ وانتهت الى الزوال ، بينما اخذ عدد سكان البلدان الغربية يزداد باطراد . يتعذر لعمري تحديد اهمية هذه الظاهرة بسبب افتقارنا الى الاحصاءات الدقيقة ، ولكننا نستطيع ، على الرغم من ذلك ، ملاحظة مداها الهام : فبحسب احد التقديرات المقبولة النادرة جداً ، ارتفع عدد سكان انكلترا من ١١٠٠٠٠٠ في السنة ١٠٨٦ الى ٣٧٠٠٠٠٠ في السنة ١٣٤٨ ؛ واذا ما اعتبرنا ان ارتفاع عدد السكان قد سبق العقود الاخيرة من القرن الحادي عشر بزمان بعيد ، جاز لنا القول بان عدد سكان اوروبا الغربية قد ازداد ، خلال القرون الثلاثة التي عكبت السنة ١٠٠٠ ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كان عليه قبل هذه السنة .

يتميز هذا الارتفاع ، في بدايته ، بارتفاع كثافة السكان في الاراضي الزراعية القديمة اولاً :

فالمساحة نفسها من هذه الاراضي قد تؤمن الغذاء ، دون جهد يذكر ، لعدد اكبر من الناس ؛ كما ان نصف او ربع الارض العائلية القديمة يكفي اليوم لتغذية عائلة من المزارعين ، لذلك فقد تقسمت الاراضي التي يستثمرها الفلاحون جزأين او اربعة اجزاء ، فارتفع ، بالفعل نفسه ، عدد المساكن والسكان في القرية . ولكن ارتفاع كثافة السكان قد رافقه بسرعة توسع الاراضي المزروعة على حساب المساحات المهمة ، لانها كانت ، بسبب وضع التقنية ، اما قليلة الانتاج واما صعبة المعاملة . وهناك ثلاثة وقائع متوافقة كانت منطلقاً لنهضة احياء الارض الكبرى التي ابتدأت ، وفاقاً لمناطق النصرانية ، ما بين السنتين ٩٥٠ و ١١٠٠ : استخدام وسائل جرد وادوات حراثة اقوى من ذي قبل قادرة على استئصال الارومات العميقة وقلب الاراضي الكثيرة الاتربة التي يرهن المحراث القديم حتى اليوم عن عدم جدواه فيها ، وفائض اليد العاملة التي حررها اعتماد الطرق الزراعية الفعالة ، وارتفاع عدد الولادات التي يقابلها نقصان الوفيات بين الاطفال .

اسهم الفلاحون والاسياد العقاريون في هذه المشاريع الممددة لتحويل الاحراج احياء الاراضي والمستنقعات ، شيئاً فشيئاً ، الى اراض منتجة . وغالباً ما سبق الفلاحون الاسياد الى النهوض بهذا العمل ، لان استثمار الاراضي القديمة الصالحة للزراعة يتطلب جهداً اقل منه في السابق : فبعد ان ينهي رب العائلة اعمال الحراثة يبقى امامه متسع من الوقت لاصلاح الاراضي البائرة المتاخمة لحقول ، فيتاح له بذلك توسيع املاكه تدريجياً ، فيقوم في فصل الشتاء باحراق الاشجار الصغيرة وقطع الاشجار الكبيرة واستئصال الجذور ، وتصبح هذه الارض في الربيع مرجاً اخضر يمكن في السنة التالية حراثته وبذره ، وبعد ذلك غرس جفون الكرمة فيه ؛ واذا كانت الارض تعود لسيد يقط ، فانه يفرض اقاوة على من اصلحها ، والاطالب الفلاح بضمها الى ارضه الوراثية . وهكذا ، بفضل هذا التقدم البطيء الذي أحرز على كافة تخوم المقاطعة ، اتسعت الارض المزروعة سنة بعد سنة . وما لبثت الحقول الجديدة ان باتت نائية عن القرية ، فاقام الذين اصلحوها مساكنهم فيها ، وهكذا برزت عند حدود المقاطعة مساكن متناثرة ، وغالباً ما وجد مصلحو الاراضي انفسهم وجهاً لوجه امام غيرهم من اتي من القرى المجاورة ، فقدت الاراضي البائرة ، التي كانت ، فيما مضى ، تعزل القرى عزلاً تاماً ، رقعاً متشككة مجدية جداً . اصف الى ذلك ان ابناء الفلاحين ، حين يبلغون اشدّهم ، لا يتوقفون جميعهم الى العمل في املاك آباءهم ، فيضطرب بعضهم الى البحث عن الثروة في غير مكان ، ويتوجه من لا يذهب منهم نحو المدن ، او من لا ينضم الى جهور الاخوة المساعدين في الاديرة الجديدة ، الى الاسياد ذوي الاملاك الحرجية الواسعة حيث يقيمون مع بعض رفاقهم ويكوّنون في قلب الاحراج ارضاً زراعية جديدة ، بعد اعتماد الزراعة المؤقتة على الارض المحرقة ؛ هؤلاء هم « الضيوف » وقد ثبت الدليل على وجودهم في كافة المساحات المهمة التي الفت كلها في المهد الكارولنجي جزراً مقفرة بين الواحات الآهلة بالسكان .

اما الاسياد العقاريون فقد حدث لهم ان وسعوا استثمارهم المباشر ، كما حدث لهم ، بغية الاستفادة الى اقصى حدود الاستفادة من عملهم المزيين الذين اصبح لديهم متسع من الوقت ، ومن اعمال تسخير المزارعين التي لم تستبدل بالآلات ، ان اقدموا على زراعة بعض اقسام اراضيهم الاحتياطية المتروكة مراعي او احراجاً . بيد ان معظم الاسياد سعوا في الدرجة الاولى وراء زيادة دخلهم الدائم والاكثر بالتالي من المشاركات الزراعية . فقدموا لطالبي الاراضي من الفتيان قطعاً بكرراً وطلبوا اليهم استثمارها ، وغالباً ما امنوا لهم ، رغبة في استئثارهم ، الادوات وحيوانات الجر والمال اللازم لمباشرة العمل ، ورفعوا عنهم ، بصورة عامة ، الاتاوات المزعجة ، وتمهدوا لهم بعدم استيفاء ضريبة القطع التمسفية وبتحصيل الضرائب الاخرى بنسبة مقبولة : فكان على المزارع ، بعد ان يحصل على الضمانات التي تقيه مخاوف الخسارة في السنوات الاولى ، ان يقدم للسيد قسماً من حصائده يتراوح بحسب المناطق بين $\frac{1}{4}$ و $\frac{1}{12}$ ، بالإضافة الى البديل الضليل الذي يدفعه لقاء اقامته في البيت الذي يشغله . كانت هذه الشروط مغرية ، وقد اذيع خبر حسناتها في المناطق البعيدة احياناً فافضت الى تنقلات السكان مسافات بعيدة ، من المناطق المأهولة قديماً والكثيفة السكان الى القطاعات الزراعية المستحدثة ، كالتنقلات التي جرت في اوائل القرن الثاني عشر مثلاً وانتهت بسكان سنونج ، الى مناطق مصب نهر الفارون ، او بالفلنك ، الى مستنقعات سواحل البحر الشمالي بين نهري الفيزير ، والالب .

كانت نتيجة هذا الاستعمار الزراعي النشيط تبديلاً سريعاً في منظر الارياف الغربية . فتناقصت المساحات المهددة المهمة في كافة الاراضي السيديّة ؛ وقد بلغ من هذا التناقص احياناً ان اختل توازن الاقتصاد القروي ، حين لم يبق سوى القليل القليل من القطع المحرجة التي توفر ، بالإضافة الى خشب التدفئة ومختلف الحصاد ، المادة الخام لمعظم المصنوعات القروية والبلوط لتغذية الخنازير ، وتؤلف احد العناصر الاساسية في النظام الزراعي - او من تلك المراعي والاراضي الهادرة التي لا مناص منها لتغذية المواشي بسبب ندرة المروج وفقدان زراعات الكلاً . وتجزأت الاحراج الكبرى التي تطلتها الفسح الجديدة ، وبرزت « الارياف » وقامت القرى الكبيرة ذات التخطيط المنتظم في « السهول » المفتوحة ، حين كان اصلاح الارض جماعياً ، اما « الغابة الظليلة » فقد قسمت غابات صغيرة قامت بينها المشاريع الزراعية التي انتشرت في وسط البراحات ، حين استثمر الاراضي السيديّة مستعمرون منفردون . وكذلك نمت الزراعات اخيراً على جنبات السواحل الرسوبية وفي مستنقعات الوديان على ضفاف الانهار الكبرى ؛ فالحرب هنا لم تعلن على الشجرة بل على الماء ، وقد اوجب الفتح ، المستند الى شبكة من السدود ، تدبيراً جماعياً لتصريف المياه بكملة نظام جماعي شديد ، للعناية بجهاز الوقاية . فتزايدت في كل مكان الاراضي التي تنتج الحبوب ؛ وقد بلغت هذه الزيادة ذروتها في منتصف القرن الثاني عشر ؛ وجاءت اعمال احياء الارض ، التي انضمت نتائجها الى نتائج التقدم التقني ، تريد في حجم المواد الغذائية وتتيح ارتفاع كثافة السكان .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الازدياد في مواد الاستهلاك وعدد انتقال الممتلكات والسكان السكان نمواً في حركة المقايضات . في السنة ١٠٠٠ ، تمثلت طبقة « العمال » مثلاً شبه حصري بفلاحين عندوا في الحصول ، من اعمالهم الزراعية ، على ما يؤمن معيشتهم ويسد حاجات الفرسان والاكليروس الضرورية ؛ وباستثناء حالات نادرة ، جرى انتقال الثروة ، عن طريق الاتاوات ، داخل الاراضي الخاضعة للسيد التي هي شبه مغلقة . ولكن تحسن انتاج العمل الزراعي قد افضى شيئاً فشيئاً ، بفعل تزايد المشاركات وارتفاع الارباح من الرسوم النسبية المفروضة على الحصاد ، وربما بفعل ارتفاع قيمة الاعشار الكنائسية بنوع خاص ، الى تزايد محسوس في موارد الاسياد : بمأ حدا باعضاء الطبقات العليا الى رفع مستواهم المعيشي وعدم الاكتفاء بالمواد الغذائية الضرورية لاودهم . واتاحت الظاهرة نفسها ، لعدد متزايد الارتفاع من العمال ، الانصراف عن الارض الى نشاطات غير زراعية بالضرورة ، والقيام باعمال جديدة ، كالصناعة اليدوية او التجارة ، تلبية لطلب الاغنياء . وقد تأمنت المواد الغذائية الضرورية لهؤلاء الاختصاصيين من فائض انتاج الاستثمارات الريفية ؛ الا انهم اضطروا لشراؤها بآمالهم ؛ فتمددت من ثم المقايضات خارج اطار الاراضي الخاضعة للاسياد ، واتصفت العلائق الاقتصادية بالانفتاح والمرونة ، وخضع انتقال الثروات لحركة حثيثة . فكانت النتيجة الطبيعية ان النقد احتل مركزاً اعظم اهمية في الحياة اليومية ، ومست الحاجة للدراهم ؛ فاعيدت الى التداول تدريجياً المعادن الثمينة المجمدة في خزائن الصاغة ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فضربت في مصانع النقد قطع اخف وزناً وعياراً ؛ فعمت النقود وفقدت في الوقت نفسه بعض قيمتها ولا سيما قيمتها الشرائية وغدت من ثم اسهل تداولاً وامكن استخدامها آنذاك لتأمين عمليات الشراء اليومية . وكانت النتيجة الاخيرة للتوسع الاقتصادي ارتفاعاً بطيئاً ومستمر في الاسعار : وبامكاننا تقدير مدى هذا الارتفاع متى علمنا ان ثمن الحبوب ، في احدى مناطق فرنسا ، سيصبح في اواخر القرن الثالث عشر اعلى منه في السنة ١١٠٠ بعشرين ضعفاً .

وقد لفت انتباه المعاصرين ، بعيد السنة ١٠٠٠ ، بين كافة مظاهر النهضة العامة في العلائق بين السكان ، كثرة الاسفار وتعددها والحركة الناشطة المفاجئة على الطرقات . فقد سهل التنقل احياء الاراضي الذي قلل من المراقيل الطبيعية (الاحراج الواسعة ومستنقعات الوديان) واسهم من ثم في تقريب المسافات بين الجماعات البشرية . بيد ان تقنيات هذا التنقل ما زالت بدائية : فلمست العربات متوفرة بعد ، والانهار والبحر هما للجميع اسهل الطرقات والوسيلة الوحيدة لنقل الاحمال الثقيلة ؛ اما في البر فينقل المشاة والدواب ، في الاكياس او على الاجلال ، مواد غذائية خفيفة الوزن وغالية الثمن بكيات صغيرة جداً ، الا انهم يسلكون طرقاً مختصرة غير محددة قد تفرضها هنا وهناك بعض نقاط المرور الاضطرابي كالجواز او الجسر او الخاضة ، والاديرة وبيوت الرب المشيدة حديثاً التي تؤوي الضيوف مجاناً .

على الرغم من بطء المسير ومشاق الطريق وخطارها ، كثيرون هم ، في القرون الاقطاعية ،

الذين يهجرون عائلاتهم او جماعتهم ويقومون بالاسفار : رجال او نساء ، اكليروس او رهبان فرسان او اناش من الطبقات الدنيا . فالسفر هو اعظم هو آذاك ، وافضل وسيلة لرجل الدرس والبحث كي يزيد معارفه ويطلع على كتب اخرى او يخاطب معلمين آخرين ، ولغير الابكار من الابناء كي ينجوا من وصاية النسب المملة . ولعل المكوث في مكان واحد اقسى واجب يصعب على الرهبان احترامه . فكل حجة للتنقل مستحسنة ، وغالباً ما يكون الحج مناسبة للسفر . وتأتي حينذاك في رأس الممارسات التقوية زيارة بعض الاماكن المقدسة - وهي عادة وثيقة الارتباط بعبادة الذخائر : والمقصود هو الاقتراب بالجد من بعض الحاجيات التي تشع بنعم فائقة الطبيعة منذ ان لامستها في الماضي اجسام القديسين . وغالباً ما تكون هذه الزيارة كفازة تطهر من الخطايا المميتة ، ووسيلة ايضاً للحصول على مساعدات فورية ، ولشفاء الجسد من الامراض ، ولاستئالة القوى الروحية . وهكذا فان الرجال يحشدون في بعض التواريخ حول بعض المعابد المعجائية (وقد سبق ورأينا ان الحرص على اعداد الكنائس لاستقبال هذه الجماهير هو في الاساس من تحويلات التصميم والتجديدات الهندسية قبل القرن التاسع) ؛ ومنذ السنة ١٠٠٠ اتسعت حركة الحج الروحي هذه ، فاختار القسم الاكبر من الحجاج آنذاك ، هدفاً لزيارتهم ، اماروما ، واما اورشليم والاماكن المقدسة في فلسطين ، واما مدفن القديس يعقوب في كومبوستيل .

لم يكن هؤلاء المسافرين ، الذين يسرون على مهل ، لينقلوا مؤناً غذائية تكفيهم طيلة سفرهم ؛ ولم يكن بمكنتهم كذلك الاعتماد ابدأ على الضيافة الجبانية في المؤسسات الخيرية ؛ فحملوا من ثم نقوداً كي يدفعوا في طريقهم اكلاف مآواهم وغذائهم وغذاء دوابهم ونقلهم بحراً . وسلبوا هذه النقود لبائعي المحاصيل الزراعية ، واصحاب الفنادق المقيمين على جنبات الطرق ، واللحامين ، والخبازين ، الذين اخذوا آنذاك يقيمون باعداد متزايدة في امكنة التوقف ويجمعون ثروات طائلة ، كما تؤيد ذلك المستندات . فافتحت من ثم امام المستثمرين الزراعيين اسواق جديدة بفضل حركة التنقل المتزايدة : فغدا باستطاعة الفلاحين تصريف قسم من فائض حصاندهم ، وانتشرت النقود في الاوساط الريفية .

بيد ان المزارعين الصغار لم يستفيدوا في الحقيقة استفادة كبرى من هذه الاموال ؛ فان القسم الاكبر من حصيلة مبيعاتهم قد عاد الى خزائن الاسياد الذين وفقوا قوانينهم الجبائية لاتساع حركة التداول النقدي ، باحلال الاتاوات النقدية او العينية محل الخدمات القديمة ، وبالكثار من الموجبات ورسوم القطع . وانتهت النقود التي انتشرت بواسطة المسافرين الى الاسياد (الذين قاموا مباشرة احياناً بمقايضة فائض مواردهم ، ولا سيما موجودات اهراء جمع الاعشار القائمة على مقربة من الطريق الكبرى ، بالمواد الغذائية) فكان حكام الحصون وافراد المؤسسات الدينية ، الذين يحبون رسوم القطع الهامة والفرامات القضائية الطائلة الارباح ، اول من استفاد من هذه

الحركة . فبات باستطاعة اعضاء الارستوقراطية الكنائسية والعلمانية ادخال زيادة محسوسة على نفقاتهم . واستخدم رجال الكنيسة بنوع خاص مواردهم النقدية الجديدة لتجميل المعابد : فشيّدوا بدراهمهم ابنية جديدة واسسوا مصانع نقاشة واشتروا للمواهب حلالا كهنوتية جديدة؛ وان هناك لصلة وثيقة بين الازدهار الفني في اواخر القرن التاسع ونمو صناعات التخصص ، ولا سيما صناعة النقاشة ، وبين نهضة الاقتصاد النقدي .

اما الفرسان فقد ضحوا بامكاناتهم المالية على مذبح رغبتهم في الظهور، وفي التألق في الجمعيات العالمية ، وهي من ملاذ النبلاء الاولى . فما عادوا يقيمون بلتاج املاكهم والصناعة المنزلية ، بل تعودوا البذخ : بذخ المائدة ، الذي حمل على تقديم الاصناف النادرة للضيوف، والنبذ في المناطق الشمالية ، والتوابل في كل مكان ؛ وبذخ الزينة الذي حمل على افعال المسوجات المتبدلة واقتناء الفراء والاقمشة الاجنبية الثمينة والاجوان ذات الالوان النادرة . اضاف الى ذلك ارتكاز الميل الى المصنوعات المستوردة الجميلة ، الذي لم يخف في يوم من الايام والذي حافظ على حركة تجارة طويلة المسافات في عهود الانكماش الاقتصادي ، قد زاد بصورة مفاجئة واحداث توسعا جديدا في تجارة المواد البذخية . وبينما تزايد شراء المصنوعات الشرقية الذي قابله تزايد في التصدير الى البلدان الاسلامية ، نشط ، داخل العالم الغربي ، انتاج ومقايضة بعض السلع الثمينة : تجارة المخور بين مناطق السين والواز ، التي قامت فيها اقصى الكروم الشمالية ، وضاف اللوار ، وسواحل الاطلسي ، وبين انكلترا وهولندا ؛ وانتشار الامجواخ الممتازة المنسوجة والمصبوغة في مدن مقاطعتي الارقوا وفلاندر ، فنشطت بذلك حركة انتقال البضائع في الوقت الذي نشطت فيه حركة تنقل الحجاج . ومن المستحدثات التي تثبت الاتساع المطرد في النقل التجاري ان حكام الحصون ، وقد اغرتهم المصنوعات الثمينة التي تمر تحت حمايتهم في الاراضي الخاضعة لسلطتهم ، فرضوا ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، رسوما جديدة تناولت سلع الترانزيت ، وازيقت الى الرسوم القديمة المفروضة على عرض هذه السلع في الاسواق . وتألفت داخل طبقة العمال طبقة اقتصادية بلغ من اهمية عددها في اوائل القرن الحادي عشر انها كانت موضوع شروط خاصة في ايمان سلم الرب ، وقد نمت باطراد ضامة اولئك الذين يؤمنون لاعضاء الطبقات العليا المصنوعات البذخية التي يطلبونها : اعني بها طبقة التجار .

كان بين اختصاصي التجارة بعض افراد الجماعات الاسرائيلية في المدن القديمة
التجارة التي خلقت في اوروبا ، خلال مرحلة التقهر الاقتصادي ، مستعمرات التجار الشرقيين القدماء واسهمت ، كما هو طبيعي ، في اتساع حركة المقايضات . بيد ان المسيحيين الذين اخذوا يحنون الارباح من الاعمال التجارية قد ارتفع عددهم باطراد : الوكلاء الذين اسند اليهم سيدهم مهام تجارية ففقدوا في الوقت نفسه بعض الصفقات لحسابهم الخاص وانتهوا الى الاستملاء من وظائفهم الاولى ؛ وبعض العاملين في الطرقات والانهار الذين وظفوا في التجارة الاموال الاولى

التي جنوها من خدمة المسافرين ؛ وبعض ابناء الفلاحين الذين اضطروا للزواج عن املاك عائلية ضاقت بسكانها وآثروا المغامرة بتعاطي التجارة الصغرى على العمل الشاق في احياء الاراضي . كل هؤلاء كانوا تجاراً متجولين . والمجال لم ينفصح بعد امامهم حتى يستطيعوا انتطار الزبن في بيوتهم ويستحضروا البضائع من الاماكن النائية دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الانتقال : فالبحث عن البضائع حيث تكون وافرة ومعتدلة الاسعار ، ونقلها وعرضها على من يمكنه شراؤها باسعار مرتفعة ، والاسراع ، في مكان البيع ، الى شراء السلعة الموافقة التي يمكن بيعها في غير مكان ، والانتقال بعد ذلك الى مكان بعيد آخر ، تلك كانت حال تاجر ذاك العهد ، وهي شبيهة كل الشبه بمجال البائع المتجول ؛ وطابعها المميز هو الحركة ، التي اشار اليها المعاصرون ، بحيث ان تسمية الحاكم الناطرة في الخلافات التجارية الصغرى بـ « محاكم الاقدام المغبرة » قد استمرت في انكثرا النور مندنية زمناً طويلاً بعد ذاك العهد .

كان هذا النشاط في الحقيقة جزيل الفائدة ، ويبدو ان عدد التجار الذين اثروا بسرعة كان كبيراً جداً ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الكراهية الدائمة التي استهدفت المهنة التجارية وسوء نية التجار الذين كانوا ، في شيخوختهم ، يقدمون للكنايس والفقراء كميات ضخمة من الفضة والذهب كفارة عن الخطايا التي ارتكبوها ، بحكم تجارتهم ، ضد حجة القريب : فهذا « بنتلكون » ، احد سكان أمالفي ، الذي توفي في السنة ١٠٧١ ، قد وهب كنيسة القديس بولس القائمة خارج الاسوار في روما ابواباً برونزية طلبها من بيزنطية ، وشيد كنيسة القديس ميخائيل في جبل غارغانو وجهاز وتمهد بعض المستشفيات في انطاكية واورشليم .

غير ان حياة التاجر محفوفة بالاعطال ايضاً : اذ عليه الدفاع عن امواله في الاسفار ، ومقاومة جباة رسوم الترانزيت الذين يحاولون ان يأخذوا منه كل ما لديه من اموال ، وتحصيل ائمان بضائمه من الزبن النبلاء ؛ وعليه ان يكون شجاعاً ويحتاط للخطر بحمل السلاح ؛ وغالباً ما يتشارك التجار وينظمون القوافل كي يواجهوا الاعطال بقوة . اضاف الى ذلك ان للتكتل حسنات اخرى : فكل تاجر يستفيد من خبرة رفاقه ، ويحدث ان توحد الرساميل احياناً ، فيتاح للتجار عقد صفقات اوفر كسباً .. في البدء كانت هذه الشركات ، التي حملت اسماء مختلفة ، مؤقتة ومؤسسة لرحلة واحدة ، ثم ضمت ، بصورة قانونية ، وفي جماعة دائمة ومنضبطة نظمت تنقلاتها في مواعيد معينة وحددت خط سيرها سلفاً ، كبار التجار في منطقة واحدة ، وناقلي البضائع في نهر واحد ، والمتوجين الى مركز تجاري واحد . يلتقي التجار على اختلاف مناطقهم ، سواء كانوا منفردين او منخرطين في هذه التكتلات المهنية لمقايسة سلمهم في نقاط تقاطع طرقات التجارة الرئيسية ، في اجتماعات تجارية كبرى ؛ فان سوق العرض ، وهي مركز سلم خاص في كنف سيد المنطقة الذي يعد لفترة من الزمن ، لقاء رسم طفيف ، بحرية المعاملات التجارية . وتوفير الحماية للجميع ، جهاز اساسي للتجارة المتجولة ؛ اما المدينة ، وهي مأوى الاستراحة بين مرحلة انتقال واخرى ، فجهاز اساسي آخر . فالحاجة ملحة الى مستودعات يقضي فيها التجار

اشهر فصل الامطار القاسية بانتظار فصل القوافل واسواق العرض. ولذلك فان حركة المقايضات التجارية وحركة التنقل على الطرقات قد احدثنا نهضة في الحياة المدنية في الغرب .

نهضة الحياة المدنية
ان المجموعات السكنية الجديدة ، اي « الضيع الكبرى » - هذا هو الاسم الذي اطلق عليها آنذاك ، وغالباً ما وصفت بـ « الجديدة » ، للايضاح - نشأت ونمت في موقع مناسب للانتقال ، لأن المدينة مكان اتصال ، وللدفاع ايضاً ، لان في المدينة ثروات يجب الدفاع عنها . فقامت من ثم ، على وجه العموم ، في جوار مدينة رومانية روعيت في تأسيسها سهولات الاتصال ، واحيطت بالاسوار ، وضمت بالإضافة الى ذلك مقر الاسقف والكهنة القانونيين ومركز عدة اديرة ومحل اقامة بعض العائلات النسيطة في اغلب الاحيان ، وجمعت من ثم زبناً اثرياً دائمين . وقامت كذلك بعض الضيع الكبرى في جوار الحصون الهامة التي هي مراكز سلطات قضائية واسعة تقوم فيها حامية عسكرية كبرى يجب تمويلها ؛ او في جوار الاديار ، تلك المراكز المحصنة ايضاً ، التي تجتذب المسافرين من حيث هي نقاط لاجتماعات دينية دورية . ولكن الحي الجديد يكاد يبقى متميزاً ابداً عن النواة السكنية القديمة التي اسهمت في تعيين مكانه : وتنحصر في هذه الاخيرة ، المنكشحة وراء اسوارها ، المهام الدينية او العسكرية ، ولا يقيم فيها بصورة عامة سوى رجال الاكليروس والجنود ؛ اما الضيعة وهي في البدء مكان مفتوح قائم خارج الاسوار ، فتنتظم حول المكان المخصص للاعمال التجارية (المرفأ ، الساحة العامة) ، وهو في الغالب فسيح جداً تقام فيه سوق اسبوعية ؛ وتستطيل شوارعه ، التي تحيط بها الفنادق وفاقاً لاتجاهات السير الرئيسية ؛ ثم ان بيوتها نفسها ، التي يطل الدور الاول فيها ، بباب عريض ، على الشارع الذي يكثر فيه المارة ، تعبر عن الغاية التي من اجلها احدثت المجموعة السكنية : فهي وليدة الطريق ، وهي بالتالي مكان مرور وتجارة .

ينتسب الرجال الذين أسسوها وتجمعوا فيها الى اوساط مختلفة . فالبعض منهم ، وهم قليلون في الارجح ، « دون جنسية » ، يدخلون في عداد التجار الجوالين المجهولي المنشأ الذين توقفوا فيها يوماً وأسسوا عائلة . وينتسب شطر هام من السكان الى المدينة القديمة او الحصن او جواره ؛ كالوكلاء ، وخدام الاسقف او حاكم الحصن او الدير ، وبعض فلاحي الضواحي السابقين ، الذين استهوتهم مكاسب التجارة فتركوا استثمارهم الزراعي وجمعوا بعض المال ببيع عقارهم وأسسوا عملاً . وينتسب معظم سكان الضيعة اخيراً الى الارياك المجاورة . الا انهم ، مهما كان منشأهم ، اندمجوا في طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية ، التي اتضحت صورتها في منتصف القرن الحادي عشر ، وتميزت ، قبل أي شيء آخر ، بدور اقتصادي خاص : فأعضاؤها متخصصون في التجارة والصناعة اليدوية ، حتى ولو لم يتجرّدوا تماماً عن الارض او ما زالوا يجمعون بعض الحنطة والنبذ من القطع التي يحتفظون بها في جوار الضيعة وحتى داخل نطاقها ، او حصلوا على استخدام المراعي السيديّة (نسبة الى السيد) المجاورة لمواشيهم .

لذلك ليست الارض ، شأنها في غير مكان ، الثروة الرئيسية في المدينة ، بل احتياطي الفضة ،

سبائك او نفوداً ، والبضائع الثمينة المخزونة . ولذلك ايضا تجمع الثروات في المدينة وتنهار بسرعة ، كما ان الرابطة العائلية اضعف منها في المجتمع الريفي لان النشاط المهني هنا وطبيعية الاملاك لا يخضعان للموجبات النسبية .

اذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في الضيعة الكبرى ، فان تنظيم السلطة فيها مماثل في الاصل لتنظيم السلطة في الارياف . فكثيرون بين سكان القرية ، ممن ينحدرون من فلاحين مهاجرين لم يبتعدوا كثيراً عن قريتهم الوالدية كي يمتلصوا من كافة روابطهم ، كانوا فدايين واتباعاً شخصيين لاحد الاسياد ، وكثيراً ما ازعجتهم الخدمات ، التي الزموا بها نحو سيد شخصهم ، في ممارسة مهنتهم . اصف الى ذلك ان الضيعة الجديدة قد قامت في الارياف ، والارض التي ارتفعت عليها المساكن تؤلف على العموم جزءاً من اقطاعات ريفية قديمة ، واسياد الارض بطالبون شاغلي هذه القطع بالاتوات السابقة نفسها ، ولتقادم المواد الزراعية ، وحتى خدمات الحراثة . وخضعت المدينة كلها اخيراً الى حكم سيد او عدة اسياد ، وفرض اسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن ، الذين استوفوا الرسوم نفسها المستوفاة في الاحياء الريفية من ممتلكاتهم ، الخدمة العسكرية اثناء تنظيم الاسواق وجمعوا ضريبة القطع ، وكادوا ينتزعون من التجار رؤوس اموالهم ، ومارسوا اخيراً بعض الحقوق التي عرقلت اعمال المقايضة ، كتمتياز الشراء بالدين ، وحق ارهاق التجار الغريباء ، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع . لذلك فان النظام السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي . ولذلك ايضا سوف يحاول سكان المدن الحصول من اسيادهم على تعديل نظام الحكم هذا مستخدمين بعض الاسلحة : احتياطي المعادن الثمينة الذي كدسوه والذي قد يغري من بيدم الساطة ، وعادات التضامن المكتسبة في الجمعيات التجارية ، وتدريبهم على خوض المعارك بقوة ، وقد حققوه في تجولاتهم التجارية ، ومثل الجمعيات السلمية القائمة بين اعضاء طبقة الفرسان .

وفي سبيل تثبيت اقدامهم امام سيد السلطة ، اتحدوا في أغلب حركة التكتل البورجوازي
الاحيان ، اتحاداً اشد وثوقاً ، في هيئة جماعة تضم كل الفئات وكافة رؤساء العائلات في القرية : اعني بها جمعية البورجوازيين . قامت هذه الجمعية ، شأن الجمعيات التي تألفت للدفاع عن سلم الرب ، على عين متبادلة ، واستهدفت ، في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوفاق بين المتحالفين ؛ فالذين يعتمدون على « سلم المدينة » يقعون تحت طائلة عقوبات صارمة تنفذها الجماعة بحضور كافة اعضائها . ووجدت هذه الهيئة كذلك كافة النشاطات الفردية بغية القيام بعمل جماعي ضد اعداء الجمهور . فكانت من ثم جمعية منضبطة يشرف على ادارتها ، كما هو طبيعي ، اوسع الاعضاء نفوذاً في اعظم الفئات قوة ، أي فئة التجار ، بوجه عام ، السقي تتوفر لديها اعظم الوسائل المالية .

برزت مقاومة البورجوازيات اولاً في المقاطعات الغربية حيث ساعدت الحركة التجارية التميزة بمزيد من النشاط على نمو المدن المبكر ، أي في المنطقتين اللتين تأثرتا منذ العهد الكارولنجي

بنمو حركة المقايضات : ايطاليا اللومباردية حيث بذلت ، منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر جهود التجار الاولى (وهم هنا حلفاء طبقة الاشراف التي ألفت في المدن الجنوبية أقوى عنصر بين مجموع السكان) للافلات من قوة السيد ؛ وشمالى فرنسا حيث تألفت الجمعيات البورجوازية في « المان » في السنة ١٠٧٠ وفي كمبريه في السنة ١٠٧٧ ، ثم في بوفيه وكلتان ؛ وامتدت المقاومة شيئاً فشيئاً الى المدن المختلفة ، الصغرى منها والكبرى ، وافضت قبل السنة ١١٥٠ ، في معظم المراكز التجارية ، الى التخفيف من وطأة اقتسارات الحكام المزعجة . فرضي الاسياد ، تحت ضغط التمرد احياناً - في السنة ١١١٥ ، اقدم بورجوازيو « لان » على قتل اسقفهم الذي رفض تخفيف مطالبه - وتحت تأثير مبلغ كبير من المال غالباً ، واقتناعاً منهم بفوائد الاتفاق الذي يساعد على نمو المدينة ويؤدي في النهاية الى ارتقاع عدد رعاياهم ، بمنح الجمعية البورجوازية دستوراً ، أي عقداً خطياً ومذكراً بالاختام ، يضمن « الحرية » او « الاعفاءات » ، أي تخفيض الرسوم .

تضمنت بنود دساتير الحريات في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، وعداً لكافة سكان المدينة ، وبعد انقضاء فترة من الزمن لتحدد عادة بسنة ويوم ، لكل من يقصدها للاقامة فيها ، بالاستقلال الشخصي ؛ فحلت بذلك كافة روابط الفدائية والاستثمار التي كان من شأنها اخضاعهم وراثياً ، في السابق ، لرجل آخر - وزالت بالفعل نفسه الواجبات المفروضة على الاتباع ، كزواج الفدائي خارج الاراضي السيدية ، وحرمانه من التصرف بملكه اذا لم يرزق اولاداً ، وحظر التنقل عليه . اضيف الى ذلك ان العادات السيدية ، ان لم تلغ بكليتها (اذ غالباً ما يحتفظ السيد ببعض الامتيازات وبعض المكاسب) ، فقد انقصت انقصاً عظيماً ؛ فالخدمة العسكرية ، المطابقة على مضض ، لانها تعرقل التنقلات التجارية وقد تزعم على استعمال القوة ضد الزبن والملاء ، قد ألغيت احياناً وتحديثت ابدأ ، واقتصرت صلاحية السيد الفدائية ، على معاقبة الجرائم الفظيعة اذا تقدمت الضحايا بالشكوى ، وفقدت ضرائب القطع طابعها التمسفي ، والقيت بصورة خاصة كافة امتيازات السيد التجارية ، وكافة المراقيل المقامة في طريق الانتقال والتجارة والتردد بحرية على المعارض والاسواق .

كانت الجمعية البورجوازية ، بعد تحقيق هذه النتيجة ، تلتهب الى الانحلال في معظم الاحيان . فتصبح المدينة حرة آنذاك . ولكن غالباً ما يحدث ان يستمر التكتل البورجوازي حتى بعد اسراز النصر وان يعترف بوجود الجمعية في الدستور ويوافق عليه . فتحصل جمعية البورجوازيين بالتالي على الشخصية القانونية وترث قسماً من حقوق السيد الحاكم القديمة وتسمي سيادة جماعية ؛ سيادة عسكرية ، اذ ان البورجوازيين ملزمون بحمل السلاح ، لاجل خدمة المدينة لا السيد ، ولأجل الدفاع عن مصالحها التجارية ولتأمين نجاح الجميع ؛ وسيادة قضائية ، اذ ان الصلاحية الاستثنائية التي حصلت عليها خلال النضال من اجل الحرية والتي يارسها مندوبو التكتل ، قد حلت الآن محل سلطات القمع القديمة التي اقصاها الدستور عن المدينة ؛ وسيادة مالية اخيراً ،

فقتصر بأموالها وتفرغ الرسوم على كافة أعضاء الجماعة سواء كانت هذه الرسوم مساهمات أقرت في السابق تدعيماً لمناهضة السيد أم عادات اقطاعية قديمة استردت بالشراء من المستفيدين منها . ويشترك كافة البورجوازيين على السواء في هذه السلطة الجماعية ويعقدون جمعيات عمومية ويتخذون القرارات الهامة متضامنين . إلا أن إدارة الشؤون العادية والشؤون القضائية وإدارة الأموال العمومية تسند إلى هيئة مختصرة منبثقة بصورة عامة عن الأوليغارشية التجارية ، أطلق عليها اسم المشيخة في البورجوازيات الشمالية واسم القنصلية في البورجوازيات الجنوبية .

وهكذا تكونت ، بين السنة ١٠٠٠ ومنتصف القرن الثاني عشر ، ونتيجة لنهضة التجارة ، وفي وسط العالم الريفي والمجتمع الاقطاعي ، اجسام غريبة هي المدن . أجل أنها لا تزال صغيرة جداً وتكاد لا تضم سوى بعض المئات ، ونادراً بعض الألوف ، من البورجوازيين غير أن ظهورها قد أحدث تبديلات عميقة في الوسط البحار . فقد شجع نمو المدن ، في الدرجة الأولى ، تسرب الاقتصاد النقدي إلى الأرياف . كانت المدينة التجارية ، في البدء ، مخزناً تعرض فيه بصورة دائمة سلع مغربة غريبة عن الانتاج المحلي ؛ وكان هذا المعرض يحرك في الطبقات الريفية ، أي الفلاحين ، ولا سيما في الاشراف وكبار أعضاء الكليروس ، رغبة في الانسحاق ، فكلستجميع المدينة في خزائنها دراهم هؤلاء الناس ، أي فائض الثروة الناجم عن انتاج زراعي أفضل . إلا أن الأموال المنقولة ، المكسدة في المدينة ، توزع بدورها بعد ذلك : بالدين ، لأن التجار يسلفون الريفيين ، زبنهم ، المال الذي يفتقرون اليه ، فمتسكاث القروض بالفائدة التي يمارسها اليهود بنوع خاص ، لأن الربى محظر مبدئياً على المسيحيين ، والقروض لقاء رهونات عقارية التي تضع تحت تصرف الدائن الأرض ومحاصيلها حتى تسديد الدين ؛ وبالشراء من أهالي المدن أيضاً : إذ أن المدينة مركز استهلاك ثابت لمحاصيل الحقول والمواد الغذائية (فالبورجوازي ، ولو كان نصف فلاح ، لا ينتج كل ما يؤمن غذاءه) والمواد التي تستعملها الصناعة المدنية كالصوف والخشب والجلد . فساعد وجود المدينة على طبع حركة التداول النقدي بالسرعة واستعمل التطور الداخلي للاقتصاد الريفي والاقدام تدريجياً على تأسيس المشاريع الزراعية .

اضف الى ذلك ان المحاولات البورجوازية للفوز بالاعفاءات قد قلبت التوازن السياسي قلباً اعتبره المعاصرون مشيناً . فها قد برزت في قلب التنظيم الاقطاعي ، المبني على الآباء والتسلسل ، سيادات لا هي بالنبيلة ولا هي بالدليلة ، واحلاف تربط المتساوين ؛ وها قد جاء تأليف فئة اجتماعية جديدة ، الطبقة البورجوازية ، المتميزة بدورها الاقتصادية الخاص وبنظامها القانوني الممتاز ، أي الحرية الشخصية ، يدخل البلبلة في نظام الطبقات القديمة وفي التسلسل التقليدي في توزيع الثروات ، إذ أن العمال قد نزعوا ، عن طريق التجارة ، إلى أن يمسا اعظم ثروة من الفرسان . وهكذا فسان المدينة - الحديثة ، التي كانت ملجأ للمستثمرين الفارين من اسياهم الذين ينضمون ، بعد مرور سنة ، إلى الجماعة البورجوازية ، وعبرة لسكان القرى الذين بدأوا بدورهم ، بعد سكان المدن بنصف قرن تقريباً ، يطالبون اسياهم بتحديد العادات

الاقطاعية وتخفيفها ، قد غدت جرثومة تفكيك في قلب العالم الاقطاعي . بيد ان نهضة المدن والازدهار التجاري قد شكلا موقناً ، وحتى اواخر القرن الثاني عشر ، عوامل توسع قوية كانت الطبقات المسيطرة ، اي الفرسان والاكليروس ، اول من افاد منها .

٣ - التوسع العسكري

أدى ارتفاع عدد سكان الارياف الفلاحين الى اتساع الاراضي الزراعية وانشاء قرى جديدة والى نمو المدن ، وأدت الظاهرة نفسها الى تنمية روح المغامرة في الارستوقراطية . فاستهوت المشاريع العسكرية أبناء العائلات الشريفة ، الذين ارتفع عددهم ايضاً ، بتأثير من ميولهم والتربية التي خضعوا لها ، لا سيما وانهم كانوا يبحثون عن موارد اضافية ، ولما كانت نظم السلم والقانون الاقطاعي والروابط المختلفة التي تشدهم الى كافة جيرانهم تقصر على جوار مسكنهم ظروف ومكاسب الحرب ، فقد قرروا القيام بحملات عسكرية بعيدة . وهكذا كان ارتفاع كثافة السكان منطلقاً لتوسع طبقة فرسان البر ، وبخاصة طبقة فرسان « الفرنجة » والارستوقراطية العلمانية في المقاطعة الكائنة بين نهري « اللوار » والرين . ولكن نجاح هذه المشاريع يفسره كذلك تحسن تقنيات الحرب المعتمدة لدى المحاربين المسيحيين .

يعود اهم هذه النجاحات الى استخدام الحصان في المعركة استخداماً متزايداً ، وتفننيات الحرب ، ويرتبط هذا النجاح من ثم بتحسين عدة الخيول ، ولا سيما باعتبار الركاب وتقدم تربية الجياد ، وبالتالي بتقدم التقنيات الزراعية وانتشار دورة استراحة الارض كل ثلاث سنوات وزراعة القرطمان . ومهما يكن من الامر ، فان المحارب الجدير بهذا الاسم ، في القرن الحادي عشر ، هو فارس كما نعلم . فنتج عن ذلك ، في الدرجة الاولى ، ان المحارب استطاع ، لانه فارس ، حمل اسلحة دفاعية اثقل وزناً ، وبالتالي اشد متانة وفعالية . وفي الواقع تحسنت الاسلحة تدريجياً منذ العهد الكارولنجي . وقد تألفت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كما يمكننا مشاهدة ذلك في الرسوم المطرزة على « فروش » « باير » التي تصف حملة غليوم الفاتح على انكلترا ، من عناصر ثلاثة : الخوذة المعدنية الطويلة التي تتممها الى الامام قطعة مسطحة (الانف) تقي مقدمة الوجه ، والدرع الطويل الذي يقي الجسم من الذقن حتى الركبتين ، وهو مصنوع من جلد تغطيه صفائح معدنية صغيرة ، او محبوك بكليته بالزرد المعدنية ، وهي طريقة اخذت بالانتشار تدريجياً ، والترس الجلدي الكبير اخيراً ، وكان شكله اما مستديراً واما ثلاثي الزوايا . وكانت هذه الوقاية المتقنة باهظة الاكلاف (ولتحسن التسليح ، كما نرى ، علاقة مباشرة بتقدم صناعة الحديد وازدياد الدخل السيدي الذي يتيح للنبل تكريس مزيد من المال لعدته) ، الا انها تجعل الفارس ، علمياً ، بأمن من اسلحة القذف ، أي الحراب وسهام القوس الصغيرة ، التي لا يمكن ان تؤذي سوى ركوبته . ولذلك فقد تبدلت أساليب خوض المعركة ايضاً .

ليس بعد اليوم من هجوم ينطلق من مسافة طويلة ؛ لقد ترك استعمال القذائف للمشاة الذين غدا دورهم ثانوياً ، فكلفوا مهمة تأخير اقتراب الاعداء فقط ؛ اما الجنود الحقيقيون ، فانهم يتبارون الآن بالمصارعة وجهاً لوجه . أجل قد يقوم الجنود بالهجوم راجلين أحياناً ، — اذ ان الحصان ، الذي يستخدم للنقل فقط ، يُترك حين يصطدم المتصارعون — ولكن الاسلحة الهجومية ايضاً غدت آنذاك اثقل وزناً ، كي تتيح فري الحوذ وتمزيق الدروع : وهذه الاسلحة هي الفؤوس او الرماح الكبيرة التي تستعمل بالذراعين . الا ان التبدل الحاسم بنوع خاص كان ان المرحلة الفاصلة في المعركة غدت ، شيئاً فشيئاً ، تصادماً بين الفرسان . واعطت الركاب الفارس مزيداً من التوازن واتاحت له نهج خطة هجومية جديدة : يمسك الفرس باحدى يديه والرمح الطويل بالآخرى ويحمل على عدوه بسرعة عدو حصانه ويحاول قلبه عن السرج . فيكفي ان يلقي على الارض بعنف فارس متبلّك بعدة ثقيلة حتى يصبح مؤقتاً عاجزاً عن القتال ؛ لذلك ، وبسبب الضمانة الكبرى التي توفرها للمحارب اسباب وقايته المعدنية المعززة ، تبدل الهدف من الاصطدام تدريجياً : فلم يعد القصد قتل العدو بل اسره وقبض قديته . واكتمل التطور في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، فقامت المعركة حينئذٍ بسلسلة من الهجمات المتعاقبة يقوم بها فرسان ثقيلو العدة ولا يمكن مقاومتها اذا لم يمارس الاعداء التقنيات نفسها ويجهزوا باسباب الوقاية نفسها . وقد اضيفت الى تحسن الادوات والاساليب العسكرية تربية استهدفت ، بكليتها ، تنمية الجسم واتقان فن الفروسية ، وطرأ حياة كانت افضل تسلياته التمارين العنيفة والالساب الحربية ، وذهنية تحمل ، فوق كافة الفضائل ، الشجاعة الجسدية والغيرة على رفاق السلاح ، وذلك رغبة في توطيد تفوق الفارس الفرنجي ، انطلاقاً من السنة ١٠٠٠ ، على كافة المحاربين المتهنين الآخرين .

منذ اوائل القرن الحادي عشر انطلق المغامرون الارلون المسعودون نورمنديو انكلترا رايطاليا من ضفاف السين في نورمانديا ، حيث استمرت تقاليد « الفيكينغ » الحربية ، وحيث ارغم النظام الدوقي الصارم معكري صفو الامن على الانتزاع عن بلادهم . وكان اهم احداث التوسع النورمندي نتيجة اقصادام غلبوم الفاتح في السنة ١٠٦٦ ، على رأس زمرة من المحاربين المحشودين من املاكه ، ومن بريطانيا وفرنلندر ايضاً ، على الاستيلاء على مملكة انكلترا . فاقصبت المناطق الانكلوساكسونية ، منذ ذاك الحين ، عن النفوذ السكندينياني وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحضارة غالبا الشمالية . ولا ريب في ان عناصر الثقافة المحلية ، المنحدرة الى مستوى التقاليد الشعبية ، قد حافظت على نشاطها ، بينما ارسخت الطبقات المسيطرة لغة اليابسة وعاداتها الاجتماعية وطرق تفكيرها . وانضمت العادات الاقطاعية المستوردة الى النظم الصارمة التي خضعت لها الجماعات الساكسونية لتجعل من ملك انكلترا اقوى اسيااد اوروبا في عهده .

سبق لنورمنديين كثيرين ، في عهد الفتح الانكليزي ، ان ذهبوا يبحثون عن الثروة في

اقاصي التخوم الجنوبية للمسيحية اللاتينية . فاكري القسم الاكبر منهم خدماتهم العسكرية ، في جنوبي شبه الجزيرة الإيطالية حيث تجاهت سيطرات مختلفة ، وحيث كان اصحاب الدوقيات اللومباردية في الأبنين والحكام البيزنطيون في الساحل والمدن التجارية والعرب اخيراً الذين كانوا قد استولوا على صقلية يتصارعون باستمرار . فاستخدم هؤلاء الجنود الاقوياء بسهولة واستدعوا اخوتهم وابناء اعمامهم الذين كانوا يعيشون حياة حقيرة في قصور الاسياد العاجية بالاولاد . وهكذا فان احد هؤلاء المرتزقة المدعو روبر غيسكار ، وهو رئيس فرقة عسكرية تجمعها روابط النسب والاقطاعية ، قد انجز عملاً مدهشاً : اذ انه قد اقتطع بسيفه في كالابريا ، و « بوي » ، دولة عاد واستلمها اقطاعاً من البابا في السنة ١٠٥٩ ، ثم سار قدماً في فتوحاته على باري ، في السنة ١٠٧١ وطرد الاغريق طرداً نهائياً من ايطاليا الجنوبية ، وانتزع ، في الوقت نفسه ، وبمساعدة اخيه روجيه ، صقلية من المسلمين قطعة قطعة ، وخضعت له باليرمو في السنة ١٠٨٢ ، وحين اصبح حماً لامبراطور القسطنطينية خطر له التوسع في إلبيريا ، فاحتل دورازو وكورفو .

احرز بذلك في نقطة تلاقي العوالم المتوسطة الثلاثة ، اللاتيني والبيزنطي والعربي ، اول تقدم حققته المسيحية الغربية ، وتأسست دولة جديدة اقطاعية الهيكل في اجهزتها العليا على غرار نورمانديا ، على ان ملكها ، كما في انكلترا ، قد تمتع بحقوق واسعة جداً على السكان الذين اخضعهم الفتح ، وافاد ، بالإضافة الى ذلك ، من موارد جبائية وافرة تضمن له خدمات عملاء مخلصين . فان صقلية ، وهي ملتقى لفسات واديان وحضارات ، كانت ايضاً ميناء على الطرقات البحرية الكبرى تتمون فيه البواخر وسوق ذهب وتجارة كبرى . فمن هذه الزاوية الاخيرة ، كانت احتلال الجزيرة من قبل المسيحيين وضمها الى ملكية ثابتة الاركان حدثاً ذا أهمية عظمى للغرب بأكمله ؛ وقد أفضى ذلك فعلاً الى الحد من نشاط القراصنة بصورة محسوسة ؛ وتوفرت كذلك محطة امينة للبواخر المسيحية التي استطاعت باو غ مرافئ الشرق بمزيد من السهولة . ورفع الحصار عن حوض المتوسط الغربي ؛ فلم تعد البندقية والادرياتيكي الطرق الهامة للتجارة مع الشرق ، واتيح للنشاط التجاري الامتداد الى شواطئ كاتالونيا ، ولنفدوك ، وبروفنسا ، وكلها قطاعات لا يزال قراصنة الباليار المسلمون يضايقونها - بينما احتلت بيزا ، وجنوى ، على شواطئ البحر التيريني الإيطالية ، محل امالفي التي استطاعت بمفردها حتى ذاك العهد ، بموجب اتفاق مع عرب صقلية ، اجتياز مضيق مسينا ، والتوجه ببواخرها التجارية شطر الشرق .

الحرب الاستردادية والحرب الصليبية
امست شبه الجزيرة الايبيرية جبهة أخرى لاسترداد فتوحات
غير المؤمنين ، فاستقبل رؤساء الدول المسيحية الصغيرة في
الجبال الشمالية ، اي كاتالونيا والاراغون قشتالة ، بدورهم ، فرساناً من الفرانجة ،
والنورمنديين ايضاً ، ولا سيما البورغونيين والشمبانين . واستطاعوا بفضل هذه النجيدات القيام
بغزوات فصلية على مناطق الاحتلال الاسلامية المستضعفة : غارات نهب مفاجئة اولاً ، ثم

حملات فتح اكسبت المسيحية ، شيئاً فشيئاً ، طرائد فتحت امام الاستعمار الريفي والمدني وتكون في اسبانيا ، ابان هذه المارك المثمرة ، شعور جديد هو تعبير عن القوة التوسعية الفنية لدى الفرسان الغربيين : فكرة الحرب المقدسة كعمل تقوي يؤمن الخلاص . اما هذا الشعور ، الذي ستمبر عنه وتبثه الاغالي اليمائية ، فقد استفله ووجته المشرفون على ادارة الكنيسة . ففي السنة ١٠٦٣ ، اعدت ، بالتجاء وادي الايبر ، اولى الحملات العسكرية المنظمة على غير المؤمنين ، وقد حصل المشتركون فيها على ضمانات بسلامة ممتلكاتهم وعائلاتهم ونيل بعض الغفرانات والفوائد الروحية . وقد قابل بطء النجاحات البيرينية هذه - اذ ان ساراغوسا لن تسقط الا في السنة ١١١٨ - الانتصارات الصاعقة التي حققها فردينان الاول ملك قشتاله : فهو قد دخل كوامبر منذ السنة ١٠٧٤ وفرض الجزية على معظم الامارات الاسلامية في شبه الجزيرة ، واحتل ابنه مدينة طليطلة في السنة ١٠٨٥ . ثم اضطر المسيحيون بعد ذلك لفترة من الزمن الى التراجع امام « المرابطين » الآتين من افريقيا ، ولصعوبتهم ما لبثوا ان استعادوا الاراضي التي تخلوها عنها ، وغالباً ما حالف الحظ الصراع ضد غير المؤمنين ، وهو صراع لن يعرف بعد ذلك التاريخ توقفاً طويلاً الامد .

اختلفت الحرب الصليبية ، بمفهومها الحضري ، عن الحرب المقدسة التي خيشت ضد الاسلام ، بتفاصيل بسيطة : فالحاربون المسيحيون تجندوا في مشروع اشترك الكرسى الرسولي في ادارته ، وتسلموا شارة مميزة رمز الفداء نفسه ، وحصلوا على امتيازات واسعة ومحددة بدقة ، وعين لهم هدف اعظم تهوياً من استعادة هضاب قشتاله ، اعني به انقاذ قبر المسيح . منذ ان انتشرت ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، عادة القيام بالحج ، تزايد السفر الى الارض المقدسة لانه اعتبر اعظم الممارسات نفعا للخلاص الايدي ، وقلما ضايقه العرب ، الذين كانوا متساهلين جداً ، كما يبدو من جهة ثانية ان الغزو التركي لم يجعل الدخول الى مهابد فلسطين اكثر صعوبة . الا ان فرسان الغرب ، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة ، اخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، يؤدون فريضة الحج ، جماعات صغيرة مسلحة ، كما اخذوا بعد عودتهم ، بيسطون شعورهم بأن الفتح ليس امراً مستحيلاً ، ويصلون في الوقت نفسه ثروات الشرق الطائلة . وجاء الاندفاع التركي اخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جديداً خطيراً ، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق . استفاد البابا اوربانوس الثاني من هذا الجو الملائم ودعا كافة المسيحيين المتهتمين الخدمة العسكرية والحاملين شارة الصليب ، الى الذهاب بأسلحتهم الى القدس ؟ فصادت دعوته ، في وقت قصير ، نجاحاً منقطع النظير قلب المخطط البابوي الذي كان متواضعاً في البداية . ففي كافة مناطق المسيحية اللاتينية ، لبى الفرسان هذه الدعوة بحماس . وهكذا ابتدأت عملية معدة لأن تدوم أكثر من قرنين سياسور الحنين اليها عقول النبلاء حتى فجر العهد المعاصر . اعدت الحرب الصليبية الاولى على مهل وبالتفصيل : تنطلق اربعة طوابير مسلحة وتسلق طرقاً مختلفة وتلتقي امام القسطنطينية . ليس هنالك من ملوك ، لأن هؤلاء لم يتمكنوا آنذاك بسلطة

فعملية ؛ ولكن أكثر المحاربين عدداً وثباتاً ، اولئك الذين أفلحوا أخيراً في الاستيلاء على اورشليم في ١٥ تموز من السنة ١٠٩٩ ، انطلقوا من المناطق الفرنجية القديمة .

تنظم في الارض المقدسة بعد ذلك شبه مخفر امامي بعيد للاقطاعية الغربية . الا ان هذا الصرح السياسي كان في الواقع ركيكاً : اذ ان السيطرة « الفرنجية » لم تتخط سواحل الشرق قط ، ولأنها لم تبلغ قط في الشمال ، حيث حققت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة كيليكيا ، الصحراء التي كان من شأنها ان تكون لهذه السيطرة حدوداً داخلية على بعض القوة ؛ فالاسلام ما زال راسخ القدم في دمشق وفي حلب ، وهو ينوء بثقل وزنه على هذه الطريدة الساحلية . وكان ركيكاً في تركيبه الداخلي ايضاً : ففي العادات الاقطاعية الغربية ، المنقولة الى الشرق نقلاً صناعياً ، ما استخدم هيكلًا اوحد لكيان سياسي لم يوجد له رئيس زمرة - كما في الدولة الصقلية او المملكة الانكلو - نورمندية - بل حكاهم حصون وفرسان اتحدوا على قدم المساواة في جمعية مؤقتة لتأدية فريضة الحج وخوض غمار المعركة . اجل لقد قامت هناك بمملكة كانت اجهزتها في البدء اعظم فعالية مما تبدو في الابحاث التي وضعها رجال القانون الاقطاعيون في القرن الثالث عشر : فملوك اورشليم هم الوحيدون ، مع ملوك انكلترا ، الذين استطاعوا ، في منتصف القرن الثاني عشر ، الحصول على الخدمة المباشرة من اصحاب اخاذات لا يرتبطون بهم مباشرة ، والوحيدون ايضاً الذين لم تكن الخدمة العسكرية ، بالنسبة لهم ، محددة في الزمان . ولكن هذه المملكة لم تمارس الرقابة على امارات الرها وانطاكية وطرابلس التي تأسست ، ابان تقدم الصليبيين ، بمبادعات مستقلة ، فلم يستطع الملك من ثم تحقيق وحدة القوى الضرورية للذود عن حدود تحقيق بها الاخطار المداومة . وكان ركيكاً ، بالاضافة الى ذلك ، لأن الصليبيين ، على نقيض المرتزقة في كالايريا ، او رفاق غليوم الفاتح ، لم يقصدوا اقتطاع سيادة وراء البحار والاستقرار فيها . فهم قد تعهدوا بانقاذ اورشليم بحراستها حراسة مستمرة ، وقد عاد معظمهم الى بيوتهم بعد بلوغ امنيتهم . ونيل الغفرانات . ولهذا السبب لم تكن الدول الفرنجية في الشرق مستعمرات معدة للسكان . اجل استقرت بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في بعض الحصون المتشعبة وبعض المراكز التجارية ؛ ولكن الغربيين بقوا أقلية ضئيلة في وسط سكان البلاد .

بيد ان المؤسسات اللاتينية في شواطئ المتوسط الشرقية قد طال بقاؤها . ويعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الاسلام كان مستضعفاً جداً ؛ ويعود ايضاً الى أن مشروع الحرب الصليبية ، خلال القرن الثاني عشر واولئل القرن الثالث عشر - على نقيض ما تحملنا الارقام التسلسلية التي نسبها المؤرخون في الماضي الى اعظم الحملات اهمية على الاعتقاد به - هو في الواقع مشروع دائم ؛ ففي كل سنة نذور جديدة ، وفي كل ربيع يتوجه شطر من الفرسان الاوروبيين الى ما وراء البحار ويقضون في الارض المقدسة بضعة اشهر ، وبضع سنوات احياناً ، فيوفرون لمنظمي الدفاع جنوداً قد يكونون اقل خبرة وتدريباً ولكنهم اشد همة وحماساً من جيش الاقطاعيين المحليين

يفسحون المجال بعدئذٍ لخدمة خدمتهم للمسيحية، لا فواج أخرى من المجندين؛ فتكونت بذلك حركة دائمة ذهاباً وإياباً. زد على ذلك ان جمعيات دينية جديدة قد تأسست وخصصت لهذا النوع الجديد من التقوى، الذي هو الحرب المقدسة؛ فقد كان في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً فرسان المعبود الذين وضع قانونهم في السنة ١١٢٨، وفرسان مستشفى اورشليم، والفرسان التوتونيون، وقد اسندت اليهم مهمة استقبال حجاج الارض المقدسة وحمايتهم ضد غير المؤمنين؛ ولم تلبث فروع اخوياتهم ان انتشرت في كافة المناطق المسيحية وجندت صليبيين جددًا وجمعت الاحسانات من تعذر عليهم وفاء نذورهم فابدلوها بالمال واستخدموها للدفاع عن المؤسسات الصليبية في المشرق؛ وان الحاميات الدائمة التي تعهدتها هذه الاخويات في الحصون الضخمة المجهزة خير تجهيز والقائمة عند تخوم العالم الاسلامي، قد اسهمت اسهاماً فعالاً، على الرغم من المنافسات التي قامت بين الجمعيات، في اطالة وجود الامارات المسيحية. اجل لقد انكشبت هذه الامارات شيئاً فشيئاً؛ فقد فقدت الرها في السنة ١١٤٤؛ وسقطت اورشليم في السنة ١١٨٧. ولكن المنطقة الساحلية صمدت، واذا كان الفرنجة قد انكفؤا امام الاسلام، فانهم اخذوا، في اواخر القرن الثاني عشر، يستعمضون عن خسارتهم ببعض اراضي بزنطية. فهم قد استفادوا من تفوقهم العسكري، واغرتهم ثروات المدن اليونانية، وغاب عن بصرهم الهدف الديني للحملة الاولى الى ما وراء البحار، فاستولوا على قبرص في السنة ١١٩١، ودخلوا القسطنطينية ونهبوها في السنة ١٢٠٤ واسسوا فيها امبراطورية سريعة الزوال ووطدوا اقدامهم لبعض الوقت في الموريه. وهكذا فان الروابط بالمتوسط الشرقي لم تحل قط، بل اشتدت تدريجياً.

كان لهذه الاتصالات المتبادلة اثرها الكبير في تطور الحضارة الاوروبية. فنادرة هي عائلات الفرسان في فرنسا او انكلترا او جنوبي المانيا التي لم يشترك عضو من اعضائها على الاقل في الاسفار الى اسبانيا او الارض المقدسة او اليونان؛ وقد غدت الحرب الصليبية تقليداً في بعض العائلات الثرية، يشترك فيها مداورة جميع الذكور الذين يحترفون الجندية، وما ان يعودوا حتى يبحثوا عن سبب للسفر مرة اخرى. لذلك فن الحرب المقدسة والتنقلات البعيدة التي اوجبتها، قد ادت، في الدرجة الاولى، الى تخفيف نتائج ارتفاع عدد السكان في الارستوقراطية العلمانية، وحدثت من ظروف القوضى والصعوبات الاقتصادية التي كان من المحتمل ان يحدثها، لولا هذه الحروب، تزايد سريع في عدد اعضاء طبقة المحاربين المحترفين.

اضف الى ذلك ان هذه المشاريع العسكرية قد ساعدت الى حد بعيد على اثره الغرب مادياً وعلى انطلاقة تجارته البحرية. الا ان هذا القول لا يصح في الحملات الصليبية التي وقفت، بفهمها الحصري، ولو بصورة متقطعة، موقفاً عدائياً حيال غير المؤمنين فمرقلت بذلك بعض الاعمال التجارية، كما يصح في الحملات الايبيرية، ولا سيما في عمليات استعادة صقلية كما سبقت الإشارة الى ذلك. ومهما يكن من الامر، فان مجرد الحاجة الى نقل طوابير الحجاج المتزايدين باطراد قد بعث، في كافة موانئ المتوسط اللاتينية، حركة بناء السفن ونشاطات الملاحة، فدرت رسوم

المرور ارباحاً هامة على مجهزي السفن والبحارة الذين وظفوا رؤوس الاموال المجموعة في مشاريع تجارية وملأوا سفنهم الفارغة ، في موانئ التموين ، بالمنتجات الشرقية ، كالتوابل ، وحجر الشب ، والمصنوعات البديعة التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة في اوروبا ، وقدموا احياناً ، على الرغم من التحريمات البابوية ، الارقاء والاسلحة المهربة للمسلمين . فازداد بسرعة كلية ، بفضل هذه التجارة المتواصلة احتياطي المعادن الثمينة في المدن البحرية ، ولا سيما في ايطاليا ، فموض تكديس الثروات المنقولة عن تخلف البلدان المسيحية المتوسطة في حقن الانتاج الزراعي . وكان ذلك نقطة انطلاق توسع التجارة الجنوبية التي كانت بواورها أسرع ظهوراً منها في سواحل البحر الشامي .

ان تجار البحر في برشلونا ومرسيليا ، وبخاصة في بيزا وجنوى والبندقية ، الذين مارسوا ، منذ الحملة الصليبية الاولى ، بعض اشكال الشراكة المالية ، كالشركات العائلية او شركات التوصية ، المؤسسة لسفرة واحدة او لسلسلة عمليات ، وفي ذلك دليل واضح على تقدم البورجوازيات الايطالية ، قد اسهموا اسهاماً ناشطاً في الحملات الحربية المشنونة على المسلمين والبيزنطيين ؛ فحصلوا بالمقابلة ، في افضل المواقع التجارية من البلدان المحتلة ، على امتيازات اقليمية ، «فنادق» هي مستعمرات تجارية صغيرة ومراكز اعمال ومضاربات اسهمت مكاسبها في اثراء القرى الغربية التي انتسب التجار اليها . وتذكر احياء التجارة هذه ، القائمة في المدن الاجنبية ، تذكيراً غريباً بالمراكز التي شغلها التجار السوريون في مدن غالبا واسبانيا في اوائل القرون الوسطى ؛ ففرى والحالة هذه ان وضع المسيحية اللاتينية قد انقلب كلياً ، من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة الى الشرق ؛ فهم التجار الايطاليون والكاثولونيون والبروفنسيون من يستلم الآن زمام التجارة في سواحل المنوسط الآسيوية والافريقية ، ويحني الارباح .

افضت الحملات الصليبية بسرعة اخيراً ، باقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً ، الى تهذيب اخلاق الفرسان ، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغربية ، وادخال التقنيات الجديدة — وهكذا فان تقنيات التحصين التي نقلها الصليبيون الى الشرق تحسنت فيه خلال القرن الثاني عشر ، فافادت اوروبا ، بالمقابلة ، بعد ذلك ، من هذه التحسينات — واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والادب في العالمين العربي واليوناني ؛ فجاءت هذه الاشكال والمفاهيم والطرائق والعادات ، التي حصل عليها احياناً في امارات فلسطين وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية او على جبهة القتال في شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتشرت بفضل العائدين من الحج ، تنمي التراث الثقافي في اوروبا المسيحية . ودفع كل ذلك الى الامام بالنهضة الروحية ، التي مهد لها العهد الكارولنجي ، فتواصلت ببطء وعلى غير انتظام ، يساعدها آنذاك اليسار العام وازدياد الاتصالات وسرعة المفاضات على اختلاف انواعها .

٤ — النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

لما كانت الكنيسة قد احتفظت في الغرب ، حتى في القرن الحادي عشر ، بامتياز التعليم ، ارتبط تقدم الثقافة والنشاطات الفكرية ارتباطاً مباشراً بوضع الاجهزة الكنسية . اجل لقد تحسنت هذه الحالة منذ اوائل القرن العاشر ، ولكن النتائج الاولى تناولت الكنيسة النظامية اولاً ؛ واذا سارت الحياة الرهبانية ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، في طريق التطهير بتأثير انتشار العادات الكلونية ، بنوع خاص ، فان الكنيسة العلمانية ، على نقيض ذلك ، ما زالت تعاني من النقائص الخطيرة نفسها التي تألمت منها المؤسسات الرهبانية ، لا بل من نقائص اعرق تأصلاً ، لان افراد اكثير وسها اكثر اختلاطاً بالعالم واكثر تمرّساً بالتالي لفساده .

اما هذه المعاييب فهي ، على حدّ تعبير اولئك الذين اشهروها فساد الاحلاق والاتجار بالقدسيات وشكوا منها آنذاك ، « النقولاية » اي فساد الاخلاق — فقد عاش معظم الكهنة العلمانيين ، في كافة درجات التسلسل الكهنوتي ، عيشة العلمانيين ، وحلوا الاسلحة ولم يحترموا قانون التبتل — والسيمونية ، اي الاتجار بالقدسيات ، والمقصود بذلك ، بصورة عامة ، الرغبة في الربح ، وبالتحديد ، الاتجار بالاسرار المقدسة وبيع الوظائف الدينية بالمزاد . ولهذا العيبين سبب واحد عميق : هو الدور الذي لعبه العلمانيون في توزيع المهام الكنسية . فالكنايس ، كل الكنايس ، هي في الواقع تحت سلطة العلمانيين . وكنايس الرعايا الريفية هي ملك العائلات الشريفة التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقها استثماره على غرار املاكها الاخرى والتي لم تستعمل كافة مداخيل المذبح فحسب ، بل عينت خدامه من بين اتباعها واختارتهم بين اوضاع الناس مرتبة حتى يكونوا اسلمهم انقياداً . اما الاساقفة ورؤساء الاديرة فقد عينهم الملوك او بعض الامراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية . لذلك ، وبتأثير من المفاهيم الاقطاعية ، كانت الوظيفة الدينية ، والسلطات والمكاسب المرتبطة بها ، — لا سيما الانعام العقاري ، كالسيادة الاسقفية او الاقطاعية الكهنوتية ، وهو ملازم لكل خدمة دينية — في نظر المعاصرين ، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليدية رمزية ، ثم يؤول اليه ، على غرار الاقطاعية عند وفاة صاحبها ، حين يصبح المركز شاغراً . ليس من الصعب رؤية نتائج هذا الوضع : فمن جهة ، حمل التقارب الذي حصل في الاذهات بين الوظائف الكنسية والاستثمارات الاقطاعية ، على عدم التمييز بين اخلاص التابع الاقطاعي والعلاقة التي تربط خدام الكنيسة بسيدها ؛ وهذا لعمري تمثيل خطر لانه قد يعني اخضاع السلطات الروحية الى السلطات الزمنية . ومن جهة ثانية ، ونحن هنا امام واقع خطير آخر ، لم ينظر الاسياد العلمانيون ، حين توجب عليهم الاختيار بين المرشحين لاحد المناصب الدينية ، الى صفاتهم الادبية ، نظرهم الى الخدمات التي قد يؤديها المختار لهم ، وحتى الى الهدية التي سيقدّمها لهم ؛ وهكذا فان عدداً من ملوك القرن الحادي عشر ، من امثال فيليب الاول ملك فرنسا او

معاصره غليوم الاشقر ملك انكلترا ، وجدوا في الاتجار بالمناصب الاسقفية وسيلة لزيادة موارد النقدية القليلة لزيادة مهمة جوهرية . فافضت هذه الطريقة الى فساد الاختيار : اقصي المرشحوں المثقفون المشهورون بحياتهم المثالية ، وانتخب الدسائسون ، ابناء العائلات النبيلة من طلاب الوظائف ، الذين فكروا قبل اي شيء آخر ، حين جمعوا كل كسب ممكن من وظائفهم ، باستعادة ثمن انتخابهم ، والذين لم يهتموا اطلاقاً للتوفيق بين اخلاقهم وموجبات رسالتهم الراعوية . ذلك هو الشر الاساسي الذي غدا استئصاله امراً واجباً . لقد سبق وواجه مصلحو الحياة الرهبانية ، في الماضي ، معضلة مماثلة : فحلت ، لاسيما في كلوني ، بمنع كل تدخل علماني في الشؤون الدينية ولا سيما في ملء المناصب الشاغرة . فتحت تأثير الرهبان الذين كانوا ، لاسيما في « اللورين » ، على علاقة مباشرة باكليروس الكنائس المركزية ، والذين توصل بعضهم الى الوظائف الاسقفية ، قامت حركة لاجل حرية الانتخابات العلمانية وتسربت تدريجياً الى العالم الكنسي . سقطت الكنيسة ، منذ وفاة اوتون الثالث تحت سيطرة الارستوقراطية الرومانية . الا انها انقذت مرّة اخرى من الفساد المحلي ، بعد السنة ١٠٤٦ ، بفضل الامبراطور هنري الثالث الذي عين في الادارة البابوية العديد من الكهنة اللواتي نجحوا ، المتحلين بقيم اخلاقية سامية ، والمتأثرين الى حد بعيد بالتيار الصوفي اللوريني ، والضليعين في دراسة الحق القانوني ، والعارفين بالعيوب التي نالت منها الكنيسة . فانتهت الروح الاصلاحية الى الكرسي الرسولي ، واتسمت فيه ، بواسطة بعض الرجال المتصلين ، من امثال الكردينال « هومبيردي مويانو » ، بطابع اشد تنظيمياً . وانيط بروما ، منذ ذلك الوقت ، تنسيق الجهود المبذولة هنا وهناك لانقاذ الكنيسة العلمانية من التأثيرات الزمنية المفسدة ؛ فكان ذلك بداية تنظيم عام سيتتابع طيلة نصف قرن ونيف ، وقد درج التقليد على تسميته بالاصلاح الغريغوري نسبة للبابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، احداً أهم باعثيه .

كانت نتيجة الاولى تعظيم مركز الكنيسة الرومانية . فارت اولوية
الاصلاح الغريغوري الكرسي الرسولي ، التي سبق ووضحت واثبتت في ايام الانحطاط الكارولنجي في المجموعات القانونية المعروفة خطأ بالايودورية اعيد ايضاحها واعلمت بمزيد من القوة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي الوقت نفسه (١٠٥٤) الذي انفصلت فيه الكنيسة الغربية انفصالاً نهائياً عن الكنيسة البيزنطية ، اخذت تظهر بمظهر هيئة تسيطر عليها ادارة البابوية المركزية التي غدت سلطة عليا ارتفعت فوق كافة سلطات هذا العالم . واعتمد في روما منذ السنة ١٠٥٨ ، وتحت ظل قصور ملك جرمانيا هنري الرابع ، مبدأ الانتخابات الحر المستقل ، بمعزل عن رقابة الباطرة الالمانيين ودسائس الارستوقراطية المحلية معاً ، ثم ما لبث ان سُنَّ قانوناً في مجمع السنة ١٠٥٩ : سوف ينتخب البابا بعد هذا التاريخ على يد اعضاء الاكليروس الروماني الكرادلة . بعد هذا الاصلاح الاول ، ارتقى اشد اعضاء الاكليروس حرصاً على عظمة مركز الكرسي الرسولي الى رتبة البابوية ، فاسهم ذلك ايضاً في اعلاء نفوذ

خليفة القديس بطرس ادبياً ، ولم يرَ الاكليروس والرهبان ، منذ ذاك الحين ، عظيم غضاضة في الخضوع لسلطة روما ، ليس في حقل العقيدة فحسب ، كما كانت الحال منذ زمن بعيد ، بل في حقل النظام والانضباط ايضاً . اما الاسس الضرورية للنظام الكنسي ، وفاقاً لمجموعة المراسيم التي اختيرت بنسب لامر غريغوريوس السابع ، والتي ليست سوى موجز لها ، فهي التالية : رئاسة مطلقة للبابا الذي لا يمكن ان يقاضيه احد ولا يمكن الاعتراض على احكامه ، ادارة الكنيسة الجامعة من قبل الكرسي الرسولي الذي يمثله قصّاد يجب ان ينحني امامهم اعلى الاحبار رتبة ، والذي يلم بكافة الاسباب الهامة ، وله وحده حق التشريع ، خضوع رؤساء الاساقفة والاساقفة خضوعاً تاماً للسلطة البابوية الحرة في تعديل حدود الابشيات ونقل او اقالة الرعاة .

وفي الواقع ، تحقق هذا البرنامج بسرعة : فان مبادرات امثال « هوغ دي ديه » و « امات دولورون » ، مندوبي البابا غريغوريوس في غاليا ، وموقف البابا اوربانوس الثاني الذي لم يقذف في مجمع « كليرمون » المنعقد في السنة ١٠٩٥ ، بالمسيحية في الحرب الصليبية فحسب ، بل رسم باعطاء انظمة سلم الرب قيمة شاملة ، اثبتت النجاحات المستمرة التي حققتها المركزية الحصرية . فقدت الكنيسة اللاتينية ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، ملكية او طدرسوخاً من كافة السلطات الزمنية في الغرب ؛ وقد فكر المثقفون في الكنيسة الرومانية ، في سبيل مصلحة البابا الذي حمل التاج والمعطف الارجواني ، باعادة المنصب الاعلى الذي يشرف على ادارة المسيحيين في الحقلين الزمني والروحي ، مقدمين بذلك على عمل جريء هو تحوّل الاسطورة الامبراطورية الى شخص البابا .

اضف الى ذلك ، في درجة ثانية ، ان تصلب البابوات ومساعدتهم ، ان لم مشادة التوليات يقض نهائياً على تدخّل الاسياد والعلمانيين في تعيين الاساقفة ، فقد حدّ منه حدّاً عظيماً على الاقل . في السنة ١٠٧٥ ، اوضح البابا غريغوريوس السابع علانية مغزى القرار السادس من مجمع السنة ١٠٥٩ ، الذي كان قد رسم بأن لا يدين الكاهن لعلماي بتولية كنسية ؛ وبذل جهده بصورة خاصة بنية تطبيق هذا المبدأ في وظائف الاساقفة ورؤساء الاديرة . فاصطدم بمقاومة عنيفة ابداهها كافة المستفيدين من التجار بالقدسيات ، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم وابتوا عرضة لان يمنعوا من ممارستها ؛ والامراء ايضاً الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الارباح التي توفرها لهم ، ولا سيما بسبب الفوائد السياسية التي يوفرها لهم الاشراف على الكنائس الكبرى . فقام آنذاك بين باعثي الاصلاح والملوك ذلك الصراع الطويل المعروف بمشادة التوليات . وصدرت اعظم مقاومة عناداً عن الامبراطور لان الامارات الاسقفية في الملكية الجرمانية تمثّل اضمن عضد للملك الذي حرص على مراقبتها عن كثب ؛ اما الخلاف ، فيعدّ تجابه طويل الامد طرحته خلاله على بساط البحث مسألة العلائق بين السلطتين الشاملتين — وقد رأينا غريغوريوس السابع يستند الى حق الربط والحل الممنوح للقديس بطرس ويدعي

مراقبة اعمال الامراء ، ويحيز لنفسه خلع الامبراطور - قد انتهى الى الهدوء ، بعد تنازلات متبادلة . في السنة ١١٢٢ ، تم الاتفاق في معاهدة « وورمس » على صيغة تسوية اعدّها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر علماء القانون في دير « بيلك » النورمندي ، ونقّتها الاسقف « ايف دي شارتر » ، واعتمدتها كل من فرنسا وانكلترا ، حيث لم تقسم معارضة الملوك بذلك الطابع من الشدة . ففُصل ، في الوظيفة الاسقفية ، بين المهمة الروحية التي اقصر منحها ، عن طريق المكاز والحاتم ، على الكنيسة وحدها ، وبين امتيازاتها الزمنية ، من سيادات عقارية وقضائية ، التي ترك امر توليتها للسيد العلماني ووفقاً للراسم الاقطاعية . فليس بعد من خضوع حقيقي للأمر بل مجرد يمين اخلاص ، واذا توجب على الاسقف التوجه ابدأ الى سيد كنيسته كي يستلم من يديه ، بشكل مادة رمزية ، خاصيات السلطة ، فما كان ذلك ليحدث الا بعد انتخابه الحر من قبل مجلس كهنة الكاتدرائية . اجل لم يعد الملوك وسائل الاقناع لانجاح مرشحيهم ؛ غير ان التعمين يعود الى رجال الكنيسة ، وفي ذلك ضمان لاختيار بعيد عن الشبهة : فتحقق بذلك الهدف الاساسي .

الا ان نجاح المصلحين كان ، بالمقابلة ، محصوراً جداً في ما تعلق بالمناصب الدنيا . فقد احتفظ العلمانيون برعاية الكنائس الريفية ، وأقله بحق اقتراح تعيين « خادم النفوس » على الاسقف ، ان لم يكن بحق تعيينه بمزول عنه ؛ ولهذا السبب بقي الاكليروس الوضيع عادي الصفات جداً . وعلى الرغم من ذلك فان الاصلاح الغريغوري لم يبق دوناً نديجة هنا ايضاً ؛ ففي غضون القرن الحادي عشر حصلت مجالس الكهنة ولا سيما الاديرة على عدد كبير من كنائس الارياف قدمها اليها مالكوها تلقائياً بمثابة احسان وتصدق ؛ وحوالي السنة ١١٠٠ ، بعد ان انضم الخوف من عذابات الحياة الثانية الى مساعي رجال الكنيسة ، ازدادت هذه الحركة سرعة ، فأعاد العلمانيون معظم المعابد التي كان الاحبار قد اقطعوا اياها استثمارات اقطاعية . وهكذا فان حق الرعاية ، في القرن الثاني عشر ، قد مارسه في الغالب جمعيات دينية انقادت للضمير وأحسنّت اختيار خدام الكنائس ، على الرغم من انها طالبت لنفسها بالقسم الاكبر من مداخيل الكنيسة ، تاركة خدام الرعايا في حالة عوز واملاق . يضاف الى ذلك ان حسن اختيار الاساقفة الذين اهتموا ، كل في ابرشيته ، لدعوة هؤلاء الخدام لاجتماعات دورية ، ولمراقبة الاكليروس الريفية ، قد اسهم في تحسين الاجهزة الدنيا في الكنيسة العلمانية . بيد ان هذا التحسن كان بطيئاً في الحقيقة : فلن تخلو القرى ، لمدة طويلة ، من الكهنة المتزوجين والاميين والبؤساء ، او من الكهنة الجشعين الذين يستثمرون رعاياهم ويماولون جني الارباح المادية من الخوف السحري الذي يبعثونه في النفوس .

بيد ان تقدماً محسوساً ، هو النتيجة الاخيرة لحركة الاصلاح ، قد بدا ، خلال القرن الحادي عشر ، وأوائل القرن الثاني عشر ، في سلوك العلمانيين الديني . فقد انجلي امامهم ، بصورة خاصة ، مفهوم الخلاص : فلأجل خلاص النفس ، كان من الموافق ، في الدرجة الاولى ، التمييز عن الاخطاء المرتكبة ، بعد ارتكابها ، بالحسنات المتوالية ، التي نظر اليها كما الى غرامات قضائية

تدفع للاله لاستعادة راحة الضمير ؛ اما الآن فقد ساد الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأن الاعمال وحدها هي ما يعتمد به وبأن تطبيق تعاليم الانجيل في الحياة امر مستحسن ، أقله تلك التي لا تتنافى كثيراً واخلاق الفرسان وضرورات الحياة اليومية . ويبدو من جهة ثانية — وهذا هو بنوع خاص الشعور الذي نخرج به حين ننظر الى تطور الايقونات المسيحية — ان الاله امسى اقرب الى البشر ، فقد غدا منظرة اقل ارباعاً ؛ وأخذ يظهر تحت اشكال الطفل يسوع الملبس القلب ؛ واتسمت العذابات والمكافات الموعود بها بعد الوفاة ، بطابع أكثر بعداً عن التجريد ؛ وانتشرت عبادة العذراء ، الوسيطة والمعزية ، لارتباطها في الارجح بدور متعاطف الالهية لعبته المرأة ، نتيجة لتهدب الاخلاق ، في مجتمع ذاك العهد . ومهما يكن من الامر فان نفاذ المواقف والمشاعر المسيحية الى اقل حركة من حركات الحياة العلمانية ، الذي لن يتوقف طيلة القرن الثاني عشر ، هو النتيجة المباشرة لاصلاح المؤسسات الكنسية ولتعيين الكليروس تدريجياً بنأى عن التأثيرات الزمنية فغدا ، بفعل ذلك ، اشد تطلباً من نفسه ومن الغير .

ما ان سارت مسألة تنظيم الهيئـة الكنسية واستقلالها حيال العادات
الابتغاءات الدينية
الاقطاعية في طريق الحل حتى طرحت تدريجياً مسألة اخرى اعظم اتساعاً وسمواً ، هي موقف رجال الكنيسة من ثروات هذا العالم . هذه معضلة جديدة اثارها مباشرة تبديل الظروف الاقتصادية ، ونمو حركة المقايضات والتداول النقدي ، واثراء الغرب . فان حرمان الاسياد والعلمانيين من حق التولية لم يكن لعمري ، بالنسبة لافراد الاكليروس الواعين واجباتهم ، سوى خطوة اولى : اذ ان تحرير الكنيسة يجب ان يكون كاملاً ويتميز بعود الى « الحياة الرسولية » والى طرائق المعيشة في جماعات النصرانية الاولى . ولا يكفي من ثم ان يكون الاساقفة افضل اختياراً وعلماً واخلاقاً ؛ فحتى يتمكنوا حقاً من تأدية رسالتهم الراعية ، يحسن ايضاً ان يتخلصوا ويخلصوا اعضاء اكليروسهم من كافة الاطماع الزمنية والسعي وراء السلطة ومحبة البدخ . اما الحياة الرهبانية فمن المستحسن ، بدون شك ، ان تكون أكثر انعزاًل عن التأثير العلماني وان تنظم تنظيمياً أشد صرامة عن طريق التقيد بالقانون تقيداً صحيحاً ؛ ولكن هذا ليس بجوهر الامر : اذ يجب بنوع خاص ان تقود الى الزهد التام في الشؤون الدنيوية ، لا سيما وان اناساً كثيرين اخذوا يلتفتون رغد عيش « الكلونيين » ؛ فقد تكونت في « كلوني » ارستوقراطية رهبانية ماشت البيئة الاقطاعية والتقسيم المجتمعي مماشاة تامة . ولكن الناس قد تساءلوا عما اذا كان يحسن بالراهب ان يعيش حياة الاسياد ، في ابنية فخمة ، ويرتدي الملابس البدخية ، ويأكل افخر المأكولات ويتباهى ببجوحته ويحرص على تأمينها . فنشأ من ثم ، في القرن الحادي عشر ، تيار تأصل في التيار الغريغوري ثم تجاوزه قوة ؛ واستهدف اصلاً اعمق جذوراً ليس في اجهزة الكنيسة فحسب ، بل في روح الكنيسة نفسها ايضاً .

برزت هذه النزعة في كل مكان ؛ وحتى عند العلمانيين انفسهم ، وبنوع خاص لدى طغام الناس في المدن ، السريعي التأثير ، بسبب نشاطاتهم المهنية ، بالمعاضل الاقتصادية ، والعارفين

خير معرفة بخطور الثروات ، والحذرين ايضاً من ثراء الاحبار الذين يستطيعون مشاهدتهم عن كتب والذين تقف ادعائهم بالسلطة الزمنية وقوفاً مباشراً في وجه توقيهم الى الحرية . وليس من النادر ، خلال صراع التكتلات البورجوازية ، انتقاد ثروة الكنيسة ؛ وهكذا فقد نمت في مدن لومبارديا ، عند اولئك الذين اطلق عليهم بسرعة اسم « الباتاران » ، حركة قوية غايتها تحقيق فقر الاكليروس ؛ واستوحى الشعور نفسه المهيج « ارنو دي بريشيا » الذي حرض بوجوازيي روما ، في منتصف القرن الثاني عشر ، على السلطة البابوية . الا ان كهنة كثيرين قد شعروا هذا الشعور ايضاً وتأملوا ملياً في هذه المعضلة وبحثوا عن حلول عملية لارضاء هذه الرغبات . فبرزت هنالك نزعتان : احدهما تعود الى الحياة النسكية ، أي الى حياة أكمل عزلة واعظم تقشفاً ؛ بينما تقود الثانية الى الاملاق ، وليس المقصود بذلك « فقر » (كلوني) ، فحسب ، الذي وفق بين الزهد الفردي والثراء الجماعي ، بل الفقر الحقيقي ، أي فقر آباء الصحراء ، ايضاً .

الجماعات الرهبانية الجديدة بدأت مثل هذه المحاولات باكراً جداً ، أي بعيد السنة ١٠٠٠ ، في الكنيسة العلمانية ، ولا سيما في غاليا الجنوبية وإيطاليا حيث كانت تكللة مباشرة للعمل الذي قام به القديس « روموالد » بغية تحديد الحياة الرهبانية : فقر بعض الكهنة ، دون التخلي عن خدمتهم الروحية ، الابتعاد اكثر فأكثر عن العالم ، واتفقوا على التجمع بغية سلوك حياة مشتركة في الفقر ، كأولئك الذين تجمعوا في « سان - روف » (١٠٣٩) في أبرشية فالديسيا . فشجع هذه المبادرات خيرُ الاساقفة فضيلة ، وساندها بطرس داميانوس احد عظام رسل الاصلاح ؛ وأكب الغريغوريون على استحداث مبادرات جديدة مماثلة . تعددت جمعيات الاكليروس شيئاً فشيئاً ، وعاد كهنة مجالس الكاتدرائيات ، على مثالهم ، الى النظام الذي كان قد فرضه عليهم ، في العهد الكارولنجي ، « بنوا دانيان » : فان هذه الجمعيات الارستوقراطية ، التي سلك افرادها ، وجميعهم ابناء اشراف يمتلك كل منهم قسماً وافراً من سيادة كنيستهم ، حياة حرة جداً في مسكنهم الخاص ، تحولت هنا وهناك الى جمعيات حقيقية تخضع لبعض التقشف . غير ان كهنة علمانيين آخرين قد تأقوا الى حياة اكثر املقاً : فقد فرض « غلبوم دي شامبو » والقديس « نوربير » على التلاميذ الذين تهاقوا عليهم في « سان - فكتور » في باريس ، وفي بريونترية ، في اوائل القرن الثاني عشر ، قانوناً صارماً جداً مستوحى من ثلاثة مؤلفات للقديس اوغسطينوس ، (وتبرز هنا ايضاً النزعة الخاصة بهذا العهد ، اعني بها التصميم على العودة ، من وراء العهد الكارولنجي الذي استقرت فيه الكنيسة في العالم استقراراً فيه الكثير من سعة العيش ، الى تقاليد المسيحية الاولى) . لم يكن «الفكتوريون» و«البريوتريون» ملزمين بالفقر التام والحياة المشتركة فحسب ، بل بالسكوت ايضاً والعمل اليدوي والاحتفال الطقسي ، وسلوك حياة مادية فقيرة جداً ، فعاشوا من ثم في الواقع عيشة الرهبان ؛ ولم يتميزوا لا بفارق واحد : لم يلزم الكهنة القانونيون بالحياة الرهبانية على الرغم من انتمائهم الى الاكليروس ؛

فان رسالتهم الاساسية ، التعليم والوعظ ، هي في العالم ، ولذلك فانهم قد اسهموا بنشاط في نهضة الاكليروس العلماني والعلمانيين ادبياً .

تأثر العديد من الرهبان كذلك بقراءة آباء الصحراء - وكان النساك الايطاليون اول من بدأ هذه الحركة ايضاً في اواخر القرن العاشر - فرغبوا في سلوك حياة منعزلة والاهتمام الى الفقر الانجيلي . ونحن نرى في عدم ارتياحهم للتفسيرات التي تناولت قانون الرهبانية البندكتية منذ العهد الكارولنجي تعليلاً لنجاح المصلحين الذين اسسوا ، قبله « كلوني » ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، جمعيات قوية جديدة . وتجدر الاشارة الى ان اتجاهاتها كانت مختلفة على كل حال : فهنا يبحثون عن الزهد التام بالعالم ، كما هي حال جمعية « غرانفون » التي أسسها « اسطفان دي موريه » في السنة ١٠٧٤ والتي يتوجب على افرادها ان لا يكتفوا أية ثروة زمنية ، حتى ولا ارضاً للزراعة ، وان لا يمارسوا أي عمل ، فاضطربوا بالتالي لأن يستعينوا بمساعدن يكونون رهباناً من الدرجة الثانية ويكلفون جمع الصدقات لتأمين معاشهم اليومي ؛ اما هناك فقد شدتوا على فكرة العزلة ، كما هي الحال في الجمعيات الكروتوزية التي أسسها القديس « برونو » وتلاميذه في الصحارى القائمة وسط الجبال والتي ضمت نساكاً يجتمعون بين وقت وآخر لحضور القداس ويقضون معظم حياتهم في السكوت والورع داخل قلبة فردية .

الا ان الجمعية الجديدة التي عرفت اكبر نجاح والتي تأسس مركزها « سيتو » ، في السنة ١٠٩٩ ، على يد « روبر دي مولسم » ، قد اعتمدت عادات اعتبرتها مجرد عودة الى قانون القديس بندكتوس وتقويماً للانحراف الكلوني ، فجمعت بين العزلة والفقر وحققت التوازن بين النزعتين . العزلة عن العالم أولاً : اقام السيستريسيون ، شأن الكروتوزيين ، بعيداً عن الاماكن المأهولة ، في قلب الغابات والوديان المستنقعة . الا انهم اعتقدوا بأن اضمن وسيلة للاهتمام الى الله هي الانصهار في جماعة ، فعاشوا حياة مشتركة صافية في خورس الدير ومائدته ومنامته . والاملاق التام ثانياً : فقد ألصق بالموجبات البندكتية مفهوم تقشفي جداً ؛ وكل رغد في المأكول والملبس يُقبل به في كلوني رفض هنا رفضاً باتاً؛ السيستريسي يحترق جسده ويسيطر عليه . الا ان العائلة الرهبانية قد اقتنت ممتلكات عقارية لأن في ذلك ضماناً استقرارها واستقلالها . وانما حظر عليها ، بالمقابلة ، استيفاء الواردات على انواعها ، سواء كانت هذه الواردات محصول الاعشار ام اتاوات المستثمرين ، ام خدمات الاتباع الشخصيين ؛ فللاخوة ان يستحصلوا من الارض بأنفسهم على غذائهم ؛ وجمع كل دير ، في وحدة عمل وثيقة ، رهبان الخورس ، المنتسبين الى الاكليروس ار الارستوقراطية ، وهم اوسع ثقافة ومقيدون بمارين روحية كثيرة ، والمساعدن ، أي افراد الطبقة الدنيا المتألمين الى الحياة الرهبانية الذين لا يقدمون سوى عملهم لخدمة الله ويؤلفون اليد العاملة القوية . ويفسر ارتفاع كثافة السكان من جهة ، ولا سيما ضرورة عزل حياة الروح عن عالم طفت عليه الرغبة في جني المكاسب طغياناً متزايداً ، غرابة تكاثر جمعيات الكهنة والرهبان الجديدة ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ولا سيما السرعة الفائقة في امتداد الجمعية

السيسترسية بفضل صفات نادرة تحملها، برناردوس، رئيس دير «كليرفو»، الذي كان صوفياً ورجل عمل معاً، وواحداً من عظام ذلك العهد.

ولكن الجهود في سبيل تأسيس كنيسة اعمق حياة روحية قد امتدت الى ابعد من ذلك ايضاً. فقد انتهى بعضهم، في صراعهم ضد الزمنيات، أي المادة، الى اعتبار هذه الاخيرة مبدأ يناقض الخير، والى الالتقاء بالمفاهيم المانوية، نذكر منهم في ذلك العهد «بيير دي بريس»، و«هنري دي لوزان»، اللذين استألت تعاليمهما، على الرغم من حكم السلطات الكنسية عليها، اتباعاً مقتنعين، لا سيما في فرنسا الجنوبية. فساد الشعور في كل الاوساط، في الشعب كما في أكثر دوائر الاكليروس العالي ثقافة، بأن المحاولات التقوية الحارة تتعرض لخطر الزيغ عند حدود الايمان القويم. فقد بدأ في الكنيسة الغربية زمن المهرطقات، والصراع ضد ضلال العقل، والمجامع التي يضطر فيها المفكرون الجريثون الى التراجع عن اقوالهم، وقد بلغ من القديس برناردوس الجهد في اعادة الوحدة الى جسم الكنيسة الذي مزقته الخلافات العقائدية الاولى. اما سبب هذا الاضطراب فهو ان الكنيسة لم تمس اسيرة نظام جماعي يفرض معتقداً مشتركاً، وحريصة على العودة الى الحياة الرسولية والهرب من غواية الثروات فحسب، بل اوسع علماً وأقوى حجة ايضاً. ان الاضطراب في اوائل القرن الثاني عشر لدليل نضج فكري لا مراء فيه.

٥ - النهضة الروحية : الحركة الفكرية

ان لانطلاقة النشاطات الفكرية والحياة الادبية ما يبررها : فالبجوحة المتزايدة والتحرر التدريجي حيال المشاغل المادية والاطماع الزمنية أتاحا لرجال الكنيسة الانكباب بكليتهم على رسالتهم الخاصة، اعني بها عمل الفكر. اضيف الى ذلك ان امتداد نشاط الفروسية الغربية قد شجع الاتصالات بمحضارات الشرق، فاستحضرت من سوريا وآسيا الصغرى مخطوطات عربية ويونانية، وفي اسبانيا المستعادة، ولا سيما في طليطلة، وفي ايطاليا، في بيزا، وروما، وصقلية، ودير جبل كستينو، المركز الامامي للحضارة اللاتينية، الذي اعيد تأسيس مكتبته في منتصف القرن الحادي عشر، أكب المترجمون على وضع هذه المؤلفات في متناول الكهنة الناطقين باللغة اللاتينية.

بتوفر هذين السببين تبدلت الاطارات المادية، أي المدارس، والاطارات الفكرية، المدارس أي برامج الدراسة ونظم الفكر، التي اطبقت على الحياة الفكرية منذ النهضة الكارولنجية. كانت الاديرة حتى ذلك العهد اعظم المراكز لنشاطاً، وما زالت بعض المدارس الرهبانية، في القرن الحادي عشر، على جانب كبير من النجاح، كمدارس الاديرة في «سواب» ومدرسة دير «بيك» في نورمنديا. وعلى الرغم من ذلك فان اعظم المراكز حياة آنذاك كانت علمانية وازدهرت في جوار مجالس كهنة الكاتدرائيات، في «لياج» و«تور» و«النجيه»

و « المان » و « شارتر » التي لمعت مدرستها ، بعد ان احياها فولبير تلميذ روما ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، طيلة القرن الحادى عشر ، وباريس اخيراً التي تخطت مدارسها حدود المدينة نحو منحدرات جبل القديسة جنيفيف وغدت في اوائل القرن الثاني عشر مكان اجتماع خيرة علماء المنطق المسيحيين الغربيين . افضى انتقال المدارس هذا من الاديرة المنعزلة في الارياض نحو المدن الاسقفية ، وهو ظاهرة وثيقة الارتباط ايضاً بتوسع المدن وانتشار الاقتصاد النقدي ، الذي حرّر رجل الفكر من جمعيات الانتاج ، أي من الاديرة الريفية ، الى جعل مؤسسات التعليم أعظم انفتاحاً وأكثر حرية ؛ فبات باستطاعة المعلمين تلقين دروسهم جنباً الى جنب دونما تقيد بنظام مشترك ؛ وغدا باستطاعة الطلاب الانتقال من معلم الى آخر ومن مدينة الى أخرى - وقد احصوا ، مع الحجاج والتجار ، بين مستخدمي الطرق التي نمت حركة السير فيها - وكان هذا التنوع نفسه مثمرأ مخصباً .

اضف الى ذلك ان آفاقاً فكرية اعظم اتساعاً قد انفتحت امام المستمعين الذين يجلسون على الارض المغطاة بالموص ويصغون الى « الدروس » ، أي القراءات التي يشرحها المعلمون ، ويدونونها هم بايجاز . كان درس الفنون العقلية السبعة يؤلف جوهر العمل المدرسي الذي كان مجرد مخالطة سلبية وسطحية لبعض النصوص المقدسة او غيرها وتأمل بطيء في « المراجع الكبرى » ؛ فلم يكن باستطاعة رجال الفكر ، بعد مثل هذه الثقافة ، وحين يضطرون للانتاج ، الا جمع ذكرياتهم الدراسية دون منطق واحكام . الا ان تقدماً مزدوجاً قد احرز منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر : فقد درست الفنون العقلية باعتماد طرق افضل ، ولم يعد لها ، خصوصاً ، بالنسبة للعقول النيرة ، سوى دور تحضيرى في حلقة الدروس .

تميز التقدم في المواد القديمة ، اللغة والبيان ، بتلّين ادوات التعبير . الا ان اللغة اللاتينية ، وهي لغة حية حقيقية لكافة رجال الكنيسة ، وقادرة على التعبير عن ادق الافكار ، قد حافظت على نقاوتها كاملة لأنها امست ، ببعدها عن الالسن الشعبية ، بمنأى عن إعدادهم ، وخصوصاً لأن مطالعة كبار مؤلفي العهد الكلاسيكي انحصرت تدريجياً في حلقات ضيقة . فحدثت في أوائل القرن الثاني عشر « نهضة » جديدة ، هي مجهود اختياري في سبيل العودة الى ثقافة العصور القديمة الكلاسيكية عن طريق دراسة خير مؤلفاتها الادبية ؛ فتنابول الشرح ، في المدارس العلمانية ، « فرجيل » و « اوفيد » و « لوكان » و « هوراس » ، لا كأمثلة لغوية بمتازة فحسب ، كما في السابق ، بل باعجاب وتعطف عميق . فتحرر المعلمون والتلاميذ محرراً كاملاً من ذاك الحذر الذي ابداه معظم المفكرين المسيحيين بصدد المؤلفين الوثنيين ؛ وجعلوا منهم غذاء روحياً ، فاستندوا طوعاً ، مثلاً ، لحل المعاضل الاخلاقية ، وحتى المعاضل التي واجهوها في علاقتهم بالخالق ، الى كتاب « الصداقة » لشيرون والى رسائل « سينيكا » . ورافق مخالطة الكلاسيكيين هذه تصنع في الانشاء ؛ وبلغت الانتباه انشغال رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر بالمهارة الادبية ؛ فقد هذبوا الرسائل التي وجهوها الى أصدقائهم ، وألّفوا مجموعات رسائل اخرى على

الطريقة الشيشرونية معدة للنشر ؛ ودرج رئيس دير « كلوني » ، « بطرس المحترم » ، على طلب الراحة من متاعب وظيفته بكتابة قصائد رقيقة الصيغة والنظم برفقة اوسع مرؤوسيه ثقافة ؛ كما ان القديس برناردوس ، الزاهد ، الذي كان يؤكد مازحاً لأبنائه في دير « كليرفو » انه لا يعرف معلماً افضل من اشجار الغابات ، قد كتب عظامه وأبحاثه الصوفية في لغة مليشة ببيان رفيع . الا ان هذا الميل الى التصنع قد رافقه تقدم محسوس في الثقافة الحقيقية ؛ واذا ما استندنا الى النتائج ، للحكم على أساليب تعليم الفنون العقلية كما طبقت في مدارس شارتر وباريس ، جاز القول بأنها حسنة ، وقادرة ، بتوجيهها الادبي ، على بعث الشغف بالادب والايغال في معرفة القلب البشري .

غير ان هذه الدروس قد اعتبرت آنذاك مجرد اطلاع أولي وتحضير لاستكشاف حقول جديدة . فبدون ان نتكلم عن لهجة غدت اعظم ذاتية ، ومحاولة اقناع وفراصة بدت آنذاك في المؤلفات الادبية البحتة التي توغلت بعيداً ، ككتاب « أبيلار » « تاريخ مصائبي » او رسائله الى « ايلوييز » ، في التحليل السيكولوجي ، او حاولت درس الانظمة السياسية ، ككتاب « جان دي ساليزبوري » ، « الحاكم » ، نرى ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، تقدماً سريعاً في بعض المواد الدراسية التي لم تكن حتى ذاك العهد سوى ملاحق غير ذات شأن للفنون العقلية — بعض العلوم العملية التي لم يكن لها مكان في حلقة الدروس العادية للاعداد الكنسي البحت — كاللاهوت و « أمته » التي اخذت تتحرر شيئاً فشيئاً ؛ اعني بها الفلسفة .

ساعدت العلائق الودية بالعالم العربي على تحقيق التقدم في حقول العلوم واللاهوت والفلسفة من حقول المعرفة : علم مجرد اولاً ، الرياضيات ، الذي درسه جريبر في كاتالونيا منذ اواخر القرن العاشر ، واندمج تدريجياً في برامج التعليم المعتمدة في « شارتر » و « لان » ، والذي ساند التعمق في دراسته جهود اصحاب النظريات الموسيقية وأتاح الاكتشافات الهندسية الرومانية ؛ وعلم تقني ثانياً ، الطب ، الذي اقتبست طرائقه عن مفسري ابقرات من المسلمين ، وانتشرت بواسطة مدارس خاصة اسست على مقربة من الحدود الاسلامية ، كمدارس « ساليرن » التي اشتهرت منذ القرن العاشر ، ومدارس « مونبلييه » التي تأسست في اوائل القرن الثاني عشر . وهنالك ابحاث اخرى نخطت اطار الفنون العقلية السبعة ، اعني بها ابحاث الحقوقين . فقد دفع اليها ، في آن واحد ، نمو المقايضات التجارية وتوسع المدن ، اللذان اوجدا صعوبات قانونية لم يكن العرف الاقطاعي ليستطيع حلها ، ومشادة التوليات التي أدت الى تصحيح المجموعات القانونية ووضع جدول عام بالمراسيم بغية تمكين الادعاءات البابوية . وهم الايطاليون بنوع خاص من قام بهذه الابحاث التي سارت في اتجاهين : نحو درس القانون الروماني بتفسير « المجموعة » ، الذي توصل في « رومانيا » بنوع خاص ، في المقاطعة اللاتينية ، الى خضعت لأطول سيطرة بيزنطية ، في « رافنتا » اولاً ، ثم في مدارس بولونيا التي أشهرها ، في اوائل القرن الثاني عشر ، إرنديوس مفسر النصوص المبهمة ؛ ونحو وضع الحق القانوني نهائياً

بالتقريب بين المقترحات المختلفة الواردة في مجموعات المراسيم ، وهو محاولة توفيق افضت حوالي السنة ١١٤٠ الى « مرسوم » غراتيانوس .

بيد ان اعظم تقدم تحقق آنذاك في الحقل الفكري هو تقدم المنطق والبحث العقلي المطبق على المسائل اللاهوتية . ما زالت الفلسفة ، في القسم الاول من القرن الحادي عشر ، مجرد قرين ثقافي تابع للجدل ومعد لترويض عقل الطلاب ؛ وهكذا يفسر المعلمون امامهم ، في مدارس شارتر ، بعض النصوص التي تمكس المذهب الافلاطوني ، وبعض الصفحات من مؤلفات سينيكا ، وبعض اجاث « بويس » و « جان سكوت » ؛ ثم يثيرون النقاش بطرح المسألة التي استهوت مفكري ذاك العصر ، أعني بها مسألة حقيقة « المثل العامة » . ولكن هذه التباين العقلية ما زالت بعيدة كل البعد عن المشاغل الدينية : فالمسيحي آنذاك يحاول الاقتراب من الخالق بواسطة المحبة لا بواسطة مجهود عقلي . الا ان الحاجة قد برزت حوالي السنة ١٠٧٠ ، بفعل نمو المعارف والرشاقة المتزايدة في القوى العقلية ، لا الى مناقشة مضمون الوحي ، بل الى التعمق فيه بالبرهان : فلم يعد الاله ، بالنسبة لكهنة الجيل الجديد ، محبة فحسب ، بل حقيقة ايضاً ، وانما على العقل بني تشابه الانسان به ؛ فشرعوا من ثم يدرسون العقيدة درساً عقلياً ؛ واخذ ايمانهم يبحث عن التفهم . اما هذه الكلمة « الايمان يبحث عن التفهم » فقد قالها السيد « انسلموس » (١٠٣٣ - ١١٠٩) رئيس دير « بيك » ، ثم رئيس اساقفة « كنتربري » ، وهو من شق الطريق امام اللاهوت العقلي ، الوثيق الارتباط بالفلسفة ، الذي تقوم مهمته بالتوفيق بين الوحي والعقل . فطبقت طرائق الجدل على قراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وبدلت منها الطابع تدريجياً . وتعاظم رويداً رويداً دور التفكير الشخصي ؛ اجل ما زال القارئ يستند الى المراجع التقليدية العظمى ، ولكنه تصرف حيالها بمزيد من الحرية ؛ وحل محل الشرح الانتقادي والتفسير الحرفي بفضل « انسلموس دي لان » ، تلميذ القديس انسلموس ، وأحد مشاهير المدرسين ، « الحكم » ، أي مجموعة مقاطع الكتاب المقدس والآباء المتعلقة بهذه النقطة الهامة او تلك من العقيدة . وعن الحكم صدرت « المسألة » : فاذا ما برز خلاف بين المراجع المتقابلة ، يعود الى المنطق امر التوفيق بينها ، فيلعب العقل آنذاك ، وهو ابدأ في خدمة الايمان ، دوراً اساسياً في البحث عن الحقيقة . وهكذا تأسست الطريقة المدرسية (*Scholastique*) في غضون جيلين من الزمن .

لم تلبث اخطار تحرر القوى البشرية هذا ان ظهرت ، لا سيما في تعاليم بيار ابيلا في باريس وفي مجموعة المسائل التي وضعها تحت اسم « هكذا وكلا » . افليس احترام النصوص المقدسة والايمان نفسه مهددين الآن بحسارة بعض المعلمين العلمانيين الرواقين من حججهم وطاقتها ؟ فارتسمت منذ ذاك الحين ردود الفعل الاولى ضد الجدل : لقد تصدى القديس « برناردوس » و « هوغ دي سان فكتور » - وهما « نظاميان » مثلاًن خير تمثيل اولئك الذين يسعون وراء التواضع والفقر ويتوقون الى الاهتمام الى روحانية الكنيسة الاولى والعودة الى الحياة الرسولية ، ويستندون ، في سبيل ذلك ، الى العهد القديم والقديس اوغسطينوس والآباء اليونانيين - للاهوتيين العقلين ،

وقابلهم بالطريقة الصوفية معتبرين ان الهبة هي السبيل الحقيقي الذي يقود الى الله ، وقد وجدوا ، في طريق التأمل هذه ، عوناً في التعبد للعذراء الوسيطة . وفي السنة ١١٤٠ توصل رئيس دير « كليرفو » ، في مجمع « سنس » ، الى استصدار حكم على بعض اقتراحات جسارة تقدم بها ابيلاز ، الذي خارت عزائمه فهجّر العالم ؛ وفي مجمع « رمس » الذي انعقد في السنة ١١٤٨ توصل ، بعد نقاش طويل ، الى حمل المعلم الباريسي « جيلبير دي لا بوريه » على التراجع عن رأيه . ولكن هذه الانتصارات تحقّقها الروح الرهبانية ، وهذه العقوبات ، وهذه الاذعانات ، وهذه التضحيات يقدمها كبار المفكرين في سبيل وحدة الكنيسة ، لم تكن لتنتقص من نشاط الابحاث المنطقية . فما زال عدد الطلاب يتزايد باطراد في مدارس باريس حيث يجتمع اعظم الجدليين مهارة وحيث يكتمل بناء اول مذهب بين المذاهب الفلسفية الكبرى في الغرب .

لم يبقَ نمو النشاط الفكري في الكنيسة دونما صدى في ارفع الشرائع المتجولون والاغاني الايمائية طبقات المجتمع العلماني التي وسعت آفاقها وهذبت أذواقها الحملات العسكرية النائية ؛ فقد نشأ وازدهر ادب مكتوب باللغة العامية معد لتسلية اولئك الذين لا يستطيعون الاطلاع مباشرة على المؤلفات اللاتينية . ثم جمعت في اواخر القرن الحادي عشر ، خدمة لأعضاء طبقة الفرسان ، وبمساعدة ادباء محترفين ، من الكهنة في الاربعاء ، او اقله من خريجي المدارس الكنسية ، قصائد وأناشيد تناقلها الناس شفها حتى ذلك العهد . وكانت ثمة مركزان رئيسيان يقابلهما وحيان مختلفان . ففي الأكيّتين ، انشدت ، في الاجتماعات الاقطاعية التي تحتلف اليها السيدات الارستوقراطيات ايضاً ، قصائد قصيرة باللهجة الجنوبية من نظم بعض الأسياد في الغالب (اول هؤلاء الشعراء المتجولين النبلاء هو دوق اكيّتين « غليوم التاسع دي بواتيه ») تدور حول موضوع أساسي هو العلاقة الحبيبة . ان هذه العاطفة ، وقد كانت في الاصل شهوانية جداً وموصوفة بوقاحة ، تخلّت شيئاً فشيئاً عن شهوانيتها ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وتبدلت تحت تأثير العادات الاقطاعية والروحانية المسيحية ، وغدت ثفانياً على بعض اللبس في سبيل السيدة المختارة ، « البعيدة » بالفضل وبصورة عامة . وفي الوقت نفسه ازدادت القواعد والاوزان الشعرية تعقيداً ودقة .

اما في شمالي فرنسا ، فان مجتمع الفرسان ، وهو اكثر ميلاً الى الحروب منه الى الحياة العالمية ، قد آثر الملحمة العسكرية ، اذ قد تأخر هنا ارتقاء المرأة في حياة المجتمع العالي الذي يعبر عنه الهام الشعراء الغنائيين الناطقين باللغة الشمالية ، واتساع العبادة المرمية ، او نشاط الصوفي « روبر داربريسيل » الذي أسس جمعية راهبات في « فونتفرو » في السنة ١١٠١ ؛ فأشيد بالفضائل النبيلة ، البسالة ، والامانة للمسيح والانساء ورفاق الحياة الاقطاعية ، في قصائد مسجعة متعاقبة طويلة يواجه ابطالها من الشخصيات التاريخية في العهد الفرنجي معاضل راهنة ، كالصراع ضد « الوثنيين » المسلمين او متناقضات الاخلاق الاقطاعية ؛ وقد جاءت بعض هذه الاغاني الايمائية ، ولا سيما اغنية « رولان » ، على جانب كبير من الجلال العنيف احياناً ، وهي

من نظم فنانون عظام انقادت لهم التقنيات الادبية . وفي الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، بينما توثقت الروابط ، بفعل اتساع حركة المقايضات الشامل ، بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية ، وبينما اخذت العادات الجنوبية تدخل الى بلاطات شمالي « الوار » بفعل زواج لويس السابع ، ملك فرنسا المقبل ، من « اليانور » ابنة دوق « الاكيتين » ، تسربت الى ادب فرنسا الحشن ، مواضيع الشعراء المتجولين الحبيبة التي توسع فيها وحسنتها بعض الكهنة المعجبين بـ « اوفيد » . وتكون في الوقت نفسه ، تحت تأثير النهضة الادبية والمقتبسات الشرقية ، لون جديد للقصة القديمة تشابكت فيه ، تمشياً مع تطور الذوق ، حول شخص الاسكندر او « اينديوس » ، المغامرات الحربية والدسائس العاطفية .

٦ - النهضة الروحية : الازدهار الفني

ان محاولات مهندسي العمارة والرسامين والنقاشين ، التي لم يوقفها الانحطاط الكارولنجي ولا الغزوات ، قد افضت اخيراً ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، الى تكوين نمط عظيم . كما ان تسهيلات التنقل ، التي اتاحت سرعة انتشار التقنيات المهنية ومواضيع الالهام ، والتقواء الفنانين التقاء متكرراً ومقابلة نتائج اختباراتهم ، قد شجعت هذا الازدهار الحاسم الذي يعشه كذلك تقدم الدروس ، والمعارف الرياضية بنوع خاص ، واثراء المؤسسات الرهبانية الكبرى : فاستخدمت الاموال الناجمة عن بيع فائض الحصائد وحصيلة الاعشار والاتاوات على الاراضي المستثمرة ، لنقل مواد البناء وتعمد البنائين ، بينما اتاحت حركة التداول النقدي المتزايدة نهضة المصانع الفنية الاختصاصية . الا ان النشاط الفني قد بقي سائراً في الاتجاه نفسه : خدمة الله والاحتفاء بمجده عن طريق تجميل الكتاب المقدس ، ولا سيما المعبد . فلسنا نشاهد بعد ، كما هي الحال في الادب ، فنانون يلبون طلبات الزبن العلمانيين ؛ لذلك فقد بدت النهضة في تشييد وتزيين الابنية الدينية المختلفة الاحجام ، ابتداء من الكاتدرائيات حتى اوضع المعابد الريفية . بيد ان ارحب الابنية هي الابنية الرهبانية : ففي الاديرة البندكتية ، حيث استمر تقليد اوجده « بنو دانيان » ، لا سيما فروع جمعية « كلوني » ، دفع الحرص على تحقيق « عمل الله » كاملاً ، بالرهبان ، الى تكريس معظم مواردهم النقدية لعظمة أماكن العبادة . فبعثت هذه المشاريع الكنسية فناً بنائياً هو الفن « الروماني » الذي يتميز في الهندسة بشمول استعمال العقود ، وفي التزيين بالعودة الى النقاشة الكبرى التمثيلية والبنائية .

ظهرت الدلائل الاولى لنهضة هندسة العمارة في السنة ١٠٠٠ في
هندسة العمارة « الرومانية »

الوقت نفسه الذي حدث فيه تقدم الرياضيات ، وقد لاحظها المؤرخ « راوول له غلابر » ؛ وان تنويعه « بالمعطف الابيض من الكنائس الجديدة » الذي التحفته الارياض الغربية آنذاك لذهو شهرة حلال . الا ان الابنية التي ارتفعت في السنوات الاولى

من القرن الحادي عشر بقيت بسيطة وعابسة وعارية ، ولم تتطور الطرائق المعتمدة في العهد الكارولنجي الا بكل بطء وتردد . فتصميم المعابد لم يتحول : اذ ان المستحدثات الرئيسية (اضافة الكنيسة السفلية والصحن المحيط بالخورس والنارتكس أي جناح الموعوظين) قد حققت في القرن الحادي عشر ، اشباعاً لحاجات الطقس الجديدة . اما المعضلة التي سعى الفنانون آنذاك لحلها فهي معضلة الغناء ؛ فحاولوا نشر العقود فوق كافة اقسام الكنيسة ، ولا سيما الصحن الوسطي الكبير ، بعد ان كانت محصورة في الاقسام الضيقة المثبتة من البناء ، كالسرداب ، والطابق الارضي من المدخل الذي يعلوه برج الاجراس ، وصدر الكنيسة فوق المذبح . وتوجب عليهم من ثم ايجاد طريقة تمكنهم من تحميل جدران الكنيسة حجارة وملاطاً أثقل وزناً الى حد بعيد من وزن الهيكل الخشي المعتمد تقليدياً في الكنائس الكبرى . اجل لقد توفرت لهم بعض عناصر الحل : اذ ان المهندسين الكارولنجهين قد استعاضوا عن العمود بالركيزة واستعملوا الدعام الخارجية للجدران . ولكن ما زال امامهم تطبيق هذه التدابير الجزئية على المساحات الكبيرة . فتميزت مراحل محاولاتهم بالفشل المتكرر وتطأطؤ عقود الصحن او انهيارها ، كما ورد في اليوميات الرهبانية . وقد ظهرت الصحن المعقودة أولاً ، على ما يبدو ، في كنائس الارياف الوضيعة الضيقة المظلمة المحفورة في الصخر ، في مناطق استوريا ، ثم في جبال البيرينيه الكاتالونية . وانتشر شيئاً فشيئاً استعمال الاقواس المتوازنة المتقاربة في العقود المستديرة التي ترسي معظم ثقلها على ركائز تساندها الدعام من الخارج ؛ ثم استعمال العقود المستديرة المتقاطعة التي تحول ضغطها الى اركان الزوايا الاربع ؛ ثم استعمال القبة ، وقد امتدت على اقواس صفري في الزوايا او على الاقواس الكبرى ، وقد اتاح ذلك اسناد غناء الكنيسة الوسطى الى الاقسام الضيقة الاربعة المحيطة بالوسط ، واكتشفت تدريجياً اخيراً كل الحلول المعدة لاسناد العقود بعضها الى بعض . ولنا على هذه المحاولات وهذه التجارب ، الموفقة او الفاشلة ، التي استغرقت القسم الاكبر من القرن الحادي عشر ، امثلة كثيرة في بعض الابنية المعقدة ، كدير « تورنوس » في بورغونيا . فكانت نتيجة هذه الجهود ، حوالي السنة ١٠٧٥ ، ظهور تحف رائعة كثيرة وابتداء عهد العمارة « الرومانية » العظمى .

جاءت هذه الهندسة متنوعة جداً ، فبذلت من ثم محاولات كثيرة لنسبة كنائس هذا العهد الى مدارس اقليمية مختلفة . اجل ان تصميم البناء الجديد الموفق ، الذي يعود فضل نجاحه الى فنان معين ، قد اقتبس تكراراً في عدد من الابنية الثانوية المجاورة ، ولا سيما في المعابد الريفية الصغيرة التي اعتمدت في تشييدها تصاميم هندسية اقل توفيقاً . بيد ان من شأن هذا التوزيع الجغرافي اغفال نشاط المقايضات الاقليمية ، وهو بالضبط الظاهرة التي تميز أواخر القرن الحادي عشر : فالواقع هو ان عناصر مشتركة تتجانب في الكنائس الكبرى المقامة على طريق معينة مطروقة ، كتلك الكنائس مثلاً التي تقع ، بين « تور » و « كومبوستيل » مروراً بـ « ليموج » و « تولوز » ، على احدى طرق الحج الكبرى الى مزار القديس يعقوب . ونلاحظ كذلك

الالهام نفسه والمبتكرات المتأثلة في بعض الاديرة النائية عن بعضها والتي تجمعها روابط دينية الطابع . لذلك يجب ألا نسقط من حسابنا العلائق الشخصية التي قامت بين رؤساء الجمعيات الكنسية ، وانتقال فرق العمل من مكان الى آخر ، في تفسير هذه التأثيرات المتداخلة التي تبدو في بورغونيا مثلاً حيث ظهرت وتوازت نزعتان متباينتان نشأتا عن النجاحات الاولى المحققة في المنطقة البريونية (نسبة الى *Brionnais*) فأفضت اولاهما الى كنيسة كلوني الكبرى والاخرى الى كنيسة دير فيزلاي . ولكن الواقع الهام هو تنوع الحلول التي تناولت معاضل التوازن : وهكذا فقد تجاوزت في « بواتو » الكنائس ذات الصحن الثلاثة المتساوية الارتفاع ، والكنائس ذات الصحن الواحد ، والصحن الجانبية ذات العقود المستديرة المتقاطعة . والصحن الجانبية ذات العقود المستديرة المتوازية ، والصحن الكبرى ، اخيراً ، المسقوفة بالقباب المتلاصقة . وان في هذا التنوع لتعبيراً عن المحاولات الحثيثة والقوة الخلاقة العظمى التي اجتابت الحضارة الغربية كلها قبيل وبعيد السنة ١١٠٠ .

انخفضت تقنيات الزخرفة واسلوبها لتطور أبسطاً حركة . ففي النصف الاول من القرن الحادي عشر لم تستخدم سوى الطرائق والمواد المعروفة في العهد الكارولنجي تقريباً : فكان المزهرفون مصورين على الجدران ، او مصوري لوحات مصغرة ، او صاغة . وأنتجت اجمل الزخارف الملونة ، التي تجدد فيها الالهام بدخول المواضيع التصويرية المقتبسة عن الكنائس المسيحية الشرقية ، في معامل « تريف » و « اخترناخ » الجرمانية ، او في اسبانيا الشمالية والاكتين المتأثرتين بفن النصارى من رعايا دولة الاندلس ، كتلك التي تزين مخطوطات بياتوس في تفسير كتاب « الرؤيا » ، ولعلها اجمل زخارف الكتب الغربية المصورة في القرون الوسطى . اما الفن المعدني فقد حقق اجمل مصنوعاته في المناطق التابعة للإمبراطورية ، ولا سيما في وادي « الموز » ، حيث أكل « رينيه دي هوي » في السنة ١١٠٨ جرن العماد البرونزي في كنيسة « القديس برتلماوس » في « لياج » . الا ان زخرفة الابدية التي تقدمت الابدية « الرومانية » العظيمة قد بقيت زمناً طويلاً في منتهى البساطة : وقد تمثلت في جوهرها ببعض تنسيقات بنائية في الجبهة ، كالطرائد اللومباردية المقتبسة عن الزخارف الخارجية في أبنية « رافنا » . اما الابتكارات الوثيقة الارتباط ببعضها والتي تحققت فجأة في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر ، فهي التالية : تزيين البناء الديني بالاشكال الزخرفية المعتمدة على نطاق ضيق منذ زمن بعيد في الرق والمج والبرونز ؛ وانطلاقة النقاشة على الحجر التي لم تندثر تقنياتها اندثاراً تاماً في غالبا منذ النواويس الاخيرة المزخرفة المنتجة في المصانع البيزنطية وتيجان الاعمدة الاولى المستعملة في كنيسة «جوار» المدفنية . انها لثورة فنية حدثت في آن واحد في « بورغونيا » حول « كلوني » - ربما تحت تأثير الصباغة الاسبانية وتحت تأثيرات فنية اخرى أكيدة ، لأن الدير الكبير كان آنذاك ، شأنه شأن روما ، قلب المسيحية النابض وأقوى مراكز الجاذبية - وفي « لنفدوك » ، في « تولوز » و « ماستاك » ، بفضل الاتصال المباشر بالزخارف التصويرية والاشكال الحجرية

في اسبانيا المستردة . فارتبطت الزخرفة المنقوشة منذئذ ارتباطاً وثيقاً بنجاحات الهندسة « الرومانية » .

انطوت هذه الزخرفة على فن تصويري اولا : فاذا حافظت المواضيع المواضيع التصويرية الهندسية والنباتية في الزخرفة البربرية على حيويتها ، واذا تكاثرت وتجددت بفضل المصنوعات الشرقية المستوردة ، فقد غدا الموضوع الرئيسي ، مرة اخرى ، الشكل البشري ، وفي هذا التطور دليل على عودة الى المفاهيم القديمة ، أي نهضة اخرى ملازمة للنهضة الادبية . ولكنه فن مقدس ايضا : فليس تمثيل الاشكال في نظر المصور « الروماني » سوى وسيلة لجعل القوى الفائقة الطبيعة محسوسة ، ولا سيما عظمة قدرة الله الذي يظهر ، في أبيه جلالة ، دياناً في الدينونة الاخيرة او في وسط رموز رؤيا القديس يوحنا . وفن تزييني في جوهره اخيراً ، مرتبط بالاطار الهندسي ، تتميز نجاحاته ، بالضبط ، في التوفيق توفيقاً مطرد الكمال بين الاشكال وهندسة البناء . ولم تزخرف في البناء سوى بعض عناصره فقط : تبجان الاعمدة ، ببعض التبسيطات النباتية اولا ، وببعض مشاهد الحياة التي تملأ الاطارات المخصصة لها تماماً ايضا ، كما في كنائس منطقة « اوفيرنيه » ، في كاتدرائية « سان - لازار » في اوتين وفي دير « فيزلاي » ، والجبهة ايضا ، سواء كانت الزخرفة مجموعة عريضة من الافايز والنقوش الناتئة التي يتوشح بها الجدار الغربي بكامله ، كما في « بواتو » ، ام تزييناً في الابواب فقط . الا ان الباب الضخم ، وهو مجموعة معقدة تتداخل فيها المسطحات المزينة والتقببات وصفوف الاعمدة ، الذي اخذ شكله النهائي ، على ما يبدو ، في « كلوني » اولا ، بعد محاولات عديدة في الكنائس البريوتية الصغرى ، والذي نسج على منواله في « بروفنسا » بأشكال تستلهم المصور القديمة استلهاً مباشراً ، كان ، دونما ريب ، اجمل ما حققه المزيّنون في اوائل القرن الثاني عشر .

حدثت انطلاقة النقاشة المفاجئة في تزيين المعبد من دور الرسم الذي بقي رئيسياً حتى اواخر القرن الحادي عشر . ومع ذلك ففي داخل الكنائس ، وتحت العقود المستديرة وفوق المذبح وفي اقسام الجدران الواسعة التي تتخللها نوافذ ضيقة ونادرة ، ما زالت المصور ترسم بالالوان المزوجة بالماء والصمغ والآح ، يتأدى فيها المنحى الكارولنجي في الرسم على الجدران ، بحرية احياناً كما في « تافان » ، او بتبسيط وتعظيم على غرار الصور البيزنطية المصغرة .

ان في هذا الازهار التزييني لأوضح دليل على ازدياد الثروات في الجمعيات الدينية . لذلك فقد تشكى الراغبون في احياء روح الفقر في الكنيسة من الميل الى الزخارف الزاهية : فانتقد القديس برناردوس بشدة النقاشة الكلونية ؛ اما السيستريسيون الذين برهنوا في اول عهد جمعيتهم عن حرية رائمة ومهارة عظيمة في زخرفة كتبهم ، فقد حظروا كل تزيين في كنيستهم حرصاً منهم على الاملاق التام . ولكن فنهم المجرد الذي استهدف توازن الكتل الحجرية العارية قد حقق مع ذلك اروع جمال ، كما في « فونتاني » او « تورونيه » ؛ جمال صاف ومجرد منبثق عن علم الاعداد

بفعل ذلك التوافق الموسيقي نفسه الذي رغب القديس « هوغ دي كلوني » في رؤيته مثلاً ،
بشكل رمزي ، على التيجان المنقوشة فوق اعمدة الخورس في « كنيسة الكبرى » .

بيد ان الفن « الروماني » جنوبي في جوهره ، عميق الجذور في المقاطعات التي تأثرت من
قبل تأثراً قوياً بحضارة روما ؛ وصنّاعه الاولون هم المصورون الاستوريون والبنّاؤون
اللومبارديون ؛ ازدهر في بروفنسا ولنغدوك وبواتو وبورغونيا ؛ ولم تختلف ركائز الكاتدرائية
وأقاريزها ، في اوتين وآرل ، عن الزخارف التي تزين الاطلال الرومانية القريبة . الا ان المانيا ، في
الوقت نفسه ، بقيت أمينة للتقاليد الفنية الكارولنجية ، كما ان الصحن المرتفعة في الكنائس
النورمندية لم تسقف بالعقود . وعلى الرغم من ذلك فقد جرت في اوائل القرن الثاني عشر
محاولات هندسية جديدة في شمالي اللوار : فقد انتشر في « ايل دي فرانس » بين السنة ١١٢٠
والسنة ١١٣٠ استعمال الاقواس المتقاطعة التي سبق واستعملت في السنة ١١٠٠ في خورس
كاتدرائية « دورهام » ؛ وبرزت حسنات طريقة الغماء الجديدة في بناءين كبيرين ، كاتدرائية
« سنس » وكاتدرائية « سان - دني » . اما باب هذه الكنيسة الاخيرة ، فقد نقشه ، بناء
على اشارة « سوجر » رئيس الدير ، فنانون ربما جاؤوا من لنغدوك ؛ فهو ، بتأيله - الاعمدة ،
حاصل النقاش « الرومانية » واولى آيات فن التمثيل القوطي .

كانت التبدلات الاقتصادية العميقة التي حدثت في السنة ١٠٠٠ اساساً لتقدم فائق السرعة
تحقق ، بين السنة ١٠٧٥ والسنة ١١٥٠ ، في كافة حقول النشاط البشري . حيوية نابضة ،
اخصاب ، وتنوع ايضاً : كان عهد النمو هذا حافلاً بالمتناقضات في السجاي والميول والاذواق .
وقد برزت المتناقضات ، مثلاً ، في اشخاص ثلاثة رجال قاموا بالوظائف نفسها ، وظائف مديري
الجمعات الرهبانية ، وعمارفوا وتحابوا ومثلوا معاً وبالتساوي اوائل القرن الثاني عشر :
« سوجر دي سان - دني » ، وهو اداري ماهر ومستشار رشيد للملك فرنسا ؛ وبير المحترم
رئيس دير كلوني ، وهو اديب رقيق ، متزن وعطوف ؛ وبرناردوس رئيس دير كليرفو ، وهو
متقشف وصوفي ومرشد حازم وعنيف للنصرانية .

الا ان هذه التيارات الصاخبة المتباعدة اخذت تهدأ وتتقارب ، في منتصف القرن الثاني
عشر ، بعد ان توارى هؤلاء الرجال الثلاثة . فانفتح عهد جديد امام الغرب المسيحي ، عهد
تنظيم وانضباط وتهذبة وكلاسيكية وأبنية كبيرة متوازنة .

الفصل الثاني

انكفاءات الاسلام وبيزنطية وصراعا تحما (القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر)

ان اللوحة التي نستطيع رسمها للعالم الاسلامي في النصف الاولي من القرن الحادي عشر قد تتميز ، اذا ما قورنت بانطلاقة اوروبا المسيحية ، بالفوضى السياسية والانقسامات الدينية ، وحتى بالانحطاط الاقتصادي في مناطق واسعة من هذا العالم . وثاق المسلمون المتزايدون عدداً ، امام هذه المحن الخطيرة ، الى الوئام والوحدة ، لاسيما وان الحكومات الخارجة على السنة ، كحكومة الفاطميين في مصر مثلاً ، لم تحقق الآمال الموضوعة فيها . فقد رلبعض المغامرين ، الذين ضموا قوة السلاح الى الدعوة الدينية فحققوا انتصار الدين القويم وأسسوا قوة سياسية جديدة لن تلبث وثبتت قدرتها ، أقلته على اضعاف او ايقاف توسع المسيحية الغربية . وقد حدثت هذه النهضة ، في آن واحد تقريباً ، في طرفي العالم الاسلامي : في الولايات الغربية - المغرب واسبانيا - بفضل البربر ، وفي الشرق بفضل تدخل القوة التركية .

عاشت بين الصحراء الكبرى والسودان قبائل من البربر الرحل اعتنقت المراطون والموحدين الاسلام منذ عهد قريب . فكون منها بعض المبشرين ، في منتصف القرن الحادي عشر ، مجموعة من غلاة المتعصبين شنت على الاوثان من العبيد الحرب المقدسة التقليدية . اقام البربر في اديرة محصنة يدعى الواحد منها بالرباط الذي اشتق منه اسمهم « المراطون » - « اهل الرباط » - . وأقنعوا ، دونما صعوبة ، بوجود تنظيف المراكز التي صورها لهم فقهاء المغرب المالكيون كمراكز افساد الاخلاق : فاحتلوا في سنوات معدودات مراكز والنصف الغربي من الجزائر الحالية . ثم استدعاهم الى اسبانيا اولئك الذين أقلقهم ضعف الامراء المسلمين وتحدياتهم في وجه الفتح المسيحي ؛ وصادف ذلك من الجهة المسيحية ، فترة حلول تصلب فرسان ما وراء البيرينييه ، الذين سيقومون بالحملات الصليبية في الشرق ، بحل روح التفاهم بين الاديان التي ما زال يمثلها (السيد) في فالنسا . فتوحد بين السنتين ١٠٨٦ و ١١١٠ على

أيدي المرابطين كل ما تبقى من اسبانيا الاسلامية، أي النصف الجنوبي من شبه الجزيرة بين مصبي الناج والايبر . وتوطدت بوجودهم الدكتاتورية المالكية المتمسكة بحرف القانون واللاهوت ؛ كما تجددت في عهدهم الحرب المقدسة ضد المسيحيين وأصبح موقفهم من اهل الذمة في الداخل أشدّ تصلباً .

الا ان البربر الاشداء ما لبثوا ان ترفوا في الاندلس ؛ اضيف الى ذلك ان حاجات الجماهير الدينية ما كانت لتقبل دكتاتورية الفقهاء زمناً طويلاً . فنشأت حركة جديدة اعظم قوة ، وأعظم تميزاً ايضاً بسبب انتمائها الى البربر المراكشيين الحضريين ، هي حركة الموحدنين التي أسسها ابن تومرت ونظمها من بعده عبد المؤمن الذي ستملك سلالته منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر . فنادى ابن تومرت ، الذي تلقن في الشرق تعاليم الغزالي الصوفية ، بالعودة الى مصادر الايمان المباشرة . ثم قرر تحطيم حكم الفقهاء المطلق ، فأعلن نفسه مهدياً ، بالمفهوم نفسه تقريباً الذي ألصقه الاسماعيليون بهذا الاسم . اجل ، لم يفلح بعمله هذا في القضاء على نفوذ الفقهاء الذي ما زال عظيماً في المغرب حتى ايامنا هذه ؛ ولكنه استطاع ، كما حدث في الشرق ، ان يدخل على الدين القويم في الغرب عاطفة صوفية عميقة ستجسم ارتقاءاتها باكرام الأولياء الذي هو الصفة المميزة للورع الشعبي .

الحضارة الاندلسية
ان اسبانيا الموحدة ، بعد ان تحررت من ظلم المالكية ، وعلى الرغم من استمرار تصلبها حيال المسيحيين ، وحتى اليهود ، شجعت انطلاقة الفكر الاسلامي الذي بلغ فيها اوجه آنذاك . انها ، والحق يقال ، لفترة هامة جداً : فقد حلت الثقافة الاسبانية - الاسلامية محل الشرق في الحقول التي اخذ هذا الاخير في املها ، وفي الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي مستعداً لأن يتقبل ، من ايدي المفكرين الاسبانيين ، اصول الثقافة الاسلامية . حرية في البحث والفكر لعل ابن طفيل عبّر عنها خير تعبير في قصته الفلسفية « حي ابن يقظان » التي توصل فيها الى نوع من الديانة الطبيعية تتغلب فيها العاطفة على التمسك المفرط بالشكليات . ولكن الأثر الاكبر في فكر الغرب المسيحي سنتركه مؤلفات ابن رشد الذي وضع اوضح شرح منظم لمذهب ارسطو : فقد عرضت فيه تعاليم الفيلسوف القديم وكأنها تفترض توافق الايمان والعقل ؛ ولكنه اجاز القول بتطور الفلسفة تطوراً مستقلاً ، كما قال ابن باجه من قبل . وأكب العلم الاسباني ، في الوقت نفسه ، على الايجات الطريفة ، بعد ان اكتفى زمناً طويلاً بما يتوصل اليه الشرق : فقام مؤلفو الزيجات التي ما لبثت ان ترجمت الى اللاتينية ، وعلماء النبات وعلماء تركيب الأدوية كابن البيطار ، وعلماء الزراعة كابن العوام والاطباء اخيراً كابن زهر . وما زال التاريخ محافظاً على مستواه ، فترك لنا الرحالتان ابن جبير وابو حنيد الغرناطي وصفاً قيماً جداً ، الاول للشرق كله بما فيه بلاد الصليبيين ، والثاني لروسيا . وقد حافظ الادب الصافي على مستواه ايضاً ، فرفع الشاعر المتجول الفاجر ، ابن كزمان ، اللون الشعبي المعروف بالموشحات الى مرتبة الادب الرفيع .

ولم يكن الفن دون العلوم مرتبة مجيدة في عهد الموحدين ، في اسبانيا ومراكش على السواء ، حيث انصهرت تعاليم الشرق والتقاليد المحلية في تحقيق شخصي اصيل . فان حصن الرباط ، وجامع الكتبية في مراكش وقصر اشبيلية لا تزال توحى حتى اليوم بما انطوى عليه هذا الفن من متانة وأناق ، على الرغم من بعض التحويلات اللاحقة .

امتدت هذه الثقافة الاسبانية الى ما وراء حدود السيطرة الاسلامية المنكشنة . ففي صقليا المخصصة للنورمانيين ، حيث عومل المسلمون المقيدون بتساهل قل نظيره ، تألق مركز اشعاع ثان ، دون اسبانيا شأنًا على انه اعظم أهمية ، الى حد بعيد ، من الشرق اللاتيني ، انتقلت بواسطته الثقافة الاسلامية الى الغرب . وقد عمل فيها بعض المسلمين أنفسهم في خدمة الامراء المسيحيين : ففي منتصف القرن الثاني عشر وضع الادريسي ، المولود في سبته والمقيم في صقليا ، لروجه الثاني ، المؤلف الجغرافي الوحيد المزين بالخرائط القيمة الذي ضمنه عربي معلومات وجيهة عن اوروبا بالاضافة الى ما سبقه اليه كبار الجغرافيين المسلمين .

وأثاحت الثقافة الاندلسية بدورها اخيراً انطلاقة الفكر اليهودي الذي كانت مستعمراته الاسبانية ، آنذاك ، اوسع مستعمرات اليهود المتشتتين ثقافة . لا بل ان الفتوحات المسيحية أولاً ومضايقات الموحدين ثانياً أهابت باليهود الى الانتشار في العالم كبن ميمون مثلاً الذي استقر نهائياً في الشرق بينما اتصل معظم اخوته في الدين ، المقيمين في اسبانيا المسيحية وفرنسا الجنوبية حيث أحسنت وفادتهم آنذاك ، بأبناء ملتهم في ايطاليا ، فخلصوا هؤلاء من سيطرة نفوذ صقليا الاسلامية والقيروان ، وهكذا تكونت في مناطق الحدود بين الاسلام والمسيحية ثقافة يهودية ارسخت التقاليد اليهودية - الاسلامية القديمة حتى اوائل القرن الثالث عشر ، وعينت باللغة العبرية والشعر الديني والديني والتاريخ اليهودي والدروس العلمية والفلسفية والدينية . فروى بنيامين التوديلي ، على غرار معاصره ابن جبير ، رحلاته الى الشرق . وليس من شك في ان المؤلفات الفلسفية والدينية ، التي تأثرت جزئياً بأبحاث المسلمين ، واطلع المفكرون المسيحيون عليها بدورهم ، هي أهم ما تحقق بالنسبة للتاريخ العام . تصارعت فيها نزعات الافلاطونية الحديثة ، التي يعكسها « يهوذا حلاوي » عكساً على الاقل ، ومذهبا الارسطوطاليسية والعقلية اللذات أشاد بها ابن ميمون . فان هذا الأخير ، على غرار معاصره ابن رشد ، بالنسبة للاسلام ، لا يحبر مفكري اليهود وأعظمهم جرأة في القرون الوسطى ، ولكنه آخر فلاسفة اليهود في هذه القرون . ومرد ذلك الى ان حياة الجماعات الفكرية ستتجه بعد ذلك التاريخ اتجاهات مختلفة : فان يهود البلدان المسيحية ، الذين لم يمدوا لتقبل مبادئ العلوم والفلسفة الشرقية ، وصادفوا صعوبة في الانسجام والبيئات الجديدة ، سينادون ، في الجو نفسه الذي انتشرت فيه الحركة « الألبية » ، بالزعامات الدينية والصوفية المعروفة باسم حركة « القبالة » السرية التي رأى كتابها « زهر » النور في اسبانيا في القرن الثالث عشر . وظهرت بموازاة ذلك صوفية يهودية أخرى تعرف بالحاسدية اقل ارتباطاً بالتعاليم الفكرية الآتية من الشرق وأشد تأراً ببعض مظاهر الحياة

الرهبانية المسيحية ، في احياء اليهود في رينانيا التي كانت موضوع اضطهاد قاس بمناسبة الحملات الصليبية ومجبتها . فارتبطت الحياة اليهودية منذ ذلك الحين بثقافة البلدان المسيحية .

حقق النظام الموحد اكمل عمل توحيدي كان باستطاعة الغرب الاسلامي ان يحققه عبر تاريخه الطويل ؛ او اقله اخصب وحدة بين بلاد البربر المراكشية واسبانيا الاسلامية . فالمغرب الشرقي نفسه ، الذي هدده خطر غارات نورمنديي صقليا ، قد التجأ الى امبراطورية الموحدين ، التي لم يبق خارج نفوذها ، من العالم الاسلامي الغربي بأكمله ، سوى بعض المغامرين المنتسبين الى سلالة المرابطين من بني « غانية » المتحصنين في جزر البليار . فادت هذه الوحدة ، وهذا السلام النسبي الذي أمتن في البحر آخر اسطول قوي ، الى انعاش الحياة الاقتصادية . اجل لقد كانت التجارة مع ايطاليا وفرنسا شبه محصورة في البيزيين والجنوبيين والمرسيليين ؛ ولكن مراقبة نشاطاتهم ما زالت امراً ممكناً في الموانئ التي حصلوا فيها على بعض الامتيازات ؛ اضيف الى ذلك ان المحاصيل المحلية ، أي المواد الآتية من السودان النيجيري الغني بالذهب والذي قامت العلاقات بينه وبين اسبانيا منذ دخول المرابطين ، قد وجدت لها اسواق تصريف مشمرة نحو اوروبا المسيحية .

الا ان فترات التوازن والازدهار هذه لم تدم طويلاً . فبعد السنة ١٢٠٠ تقريباً ، تجددت عمليات المسيحيين الحربية لاستعادة اسبانيا ؛ وبرزت بوادر الشقاق بين السكان المغاربة والانجليسين الذين لم يوحدها كلمتهم ؛ وغدا التجار الاوروبيون اشد تطلباً . فلم تمر خمسون سنة حتى انكشفت اسبانيا الاسلامية في مملكة غرناطة الصغرى ، بينما عاد المغرب الى انقسامه التقليدي . وكان كبار مفكري الاسلام ، كالصوفي ابن العربي ، قد شعروا بالجو يكفر من حولهم في هذه الولاية المنعزلة في اقاصي المعالم الاسلامي ، فنادروها وتوجهوا الى الشرق يقضون فيه ايامهم الاخيرة لأنهم ما زالوا يعتبرون الشرق ، على الرغم من محنه الخاصة ، مهداً لثقافتهم .

هل ترد المحن التي مرّ بها الشرق الاسلامي الى قيام السيطرة التركية
الفزوات التركية

يا ترى ؟ ان الرأي ، المتأثر في الارجح بما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية في القرن الاخير من انحطاط وفقدان اعتبار ، لا يتورع عن التأكيد بأنها خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً . ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن اذ ان الاتراك لم يمتثلوا آسيا الاسلامية دون ان يستدعوا لهذا العمل او يساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الالوان الادبية على الاقل قد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان الانحطاط اخيراً لم يحدث الا في القرن السادس عشر ، أي بعد انقضاء خمسين سنة على فتحهم . وتوفى الاتراك في هذه الأثناء ، بعد ان بسطوا سيادتهم على الشرق الاسلامي بأكمله أولاً ، وعلى الامبراطورية البيزنطية كلها وجيرانها البلقانيين ثانياً ، الى تأسيس اطول امبراطورية متوسطة عظمية عهداً بين الامبراطوريات التي تأسست بعد انهيار السيطرة الرومانية . لذلك فان الواقع التركي ، بفعل نتائجه القريبة او البعيدة ، جدير بأن لا نمر

به مرور الكرام . فهو ابعد من ان يكون المخطاطا ، لانه حدد معظم المخطوط التي ميزت الدول الاسلامية حتى ايماننا هذه .

نحن نعلم كيف ان الدول الاسلامية في الشرق الادنى انتهت منذ زمن بعيد الى تعبئة جيوشها من الارقاء الاتراك الذين وقعوا في الأسر او ابتيعوا قتيانا وأعدوا للخدمة العسكرية وأدجوا في المجتمع الاسلامي . الا ان الحركة التي نشاهدنا الآن تختلف اختلافاً كلياً عما سبقها . لقد تم الاتصال بين دول الاتراك في آسيا الوسطى وبين الاسلام بواسطة بعض التجار وبعض المبشرين وحتى بواسطة الغزاة المتطوعين الذين غزوا ، عند حدود الوثنية ، روح الحرب المقدسة القديمة . امام عظمة هذه الحضارة المتفوقة ، اقتفى عدد كبير من الاتراك ، في القرن العاشر ، بين «الغولغا» و «ألتاي» ، خطى بلغاريي الفولغا واعتنقوا دين الاسلام الذي كان قابلاً في نظر الجماهير للاتفاق وبعض التقاليد السامانية او لفتح ذراعيه لمعتقدات اخرى كثيرة ، والذي تلقى ، في نظر الرؤساء ، توجيهات فقهاء الدولة السامانية الحنفيين . زد على ذلك ان الاسلام هو دين الغزاة ايضاً فاستهوتهم فضالته الاصلية ؛ واذ كانوا قليلي الاهتمام لحداقة اللاهوتيين ، وجدوا في الحرب المقدسة ، التي شنت اول ما شنت على الوثنيين من اخوانهم ، وسيلة لارضاء ميولهم التقليدية الى الغزو .

استحال بذلك على الامارات الايرانية جمع الارقاء من بين هؤلاء المسلمين الجدد . فانهى الامر بها ، تأميناً لتعبئة الجيوش ، الى استدعاء وتوطين قبائل تركية كاملة تدخلت بالتالي في النزاعات بين الاحزاب او اسهمت في القضاء على الشيع السجسة . وهذا هو اصل مملكة القراخانيين التي ضمت الى التركستان الصيني ، الحديث العهد في الاسلام ، منذ أواخر القرن العاشر ، المناطق المنترعة من السامانيين . وأسس الجيش التركي التابع لهؤلاء الامراء ، في « غزنة » من اعمال افغانستان ، امارة اخرى ما لبثت ان امتدت الى خراسان ، آخر ممتلكات السامانيين .

جاءت الدولة الغزنوية ماثلة لامارات اخرى أسسها قواد الجيوش التركية ؛ الا انها اتسمت ببعض المميزات الجديدة : فقد اعلن زعمائها ، وهم من السنيين المتصلبين ، عن تصميمهم على انقزاع الخلافة من الشيعيين ؛ وأدركوا بالاضافة الى ذلك انهم لن يستطيعوا السيطرة على جيشهم ، ولا دفع مرتباته بسخاء ، ولا احتباس نشاط الغزاة ، الا بتشجيعه على الفتح ، فنظموا بقيادة محمود الغزنوي حملات موفقة على وادي الهندوس . اجل ، لم يستهدفوا في البداية سوى غزو المعابد البراهمانية ؛ ولكن النتيجة الثابتة ، كما رأينا ، كانت نشر الاسلام في الهند الشمالية الغربية ؛ وهذا واقع تاريخي تؤيده جغرافية باكستان الحالية .

وهم الغزنويون انفسهم من استقبلوا في اراضيهم السلجوقيين ، زعماء منطقة بحر آرال وقبيلة اوغوز التركية ، فتأثر رؤساء هذه الجماعات من الرحل ، ولا سيما طغري بك ، بتعاليم المبشرين السنيين ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الحرب المقدسة انما هي تحرير الاسلام من البدع التي مزقته .

في السنة ١٠٤١ سحقوا الجيش الغزنوي الذي تأخر في العودة من الهند : ففتحت امامهم ابواب ايران على مصراعها . وصادف ان الخليفة العباسي كان راغباً آنذاك في التحرر من حماية البويهيين الشيعيين ، وقد وضع القانوني الكبير ، الماوردي ، تلبية لرغبته ، بحثاً ضمن اصول الحكم القويم . ولكن القوى الدينية لم تكف لاصلاح الاسلام فاستدعى طغري بك الذي دخل بغداد دون قتال ومنّح ، بالاضافة الى لقب ملك الشرق والغرب ولقب السلطان ، ملء السلطة السياسية ، واسندت اليه مهمة نصرة الدين القويم على البدع في الداخل وعلى الفاطميين في مصر . فضم خلفاء طغري بك ، الى ايران وبلاد ما بين النهرين ، سوريا التي انتزعوها من المصريين . قد يقال ان هذا الحل جاء خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سيد ضعيف بوصي كثير الطلبات . ولكنه جاء نصراً للدين الاسلامي القويم ايضاً : اذ ان الاسلام الملتف رسمياً حول راية العباسيين الخضراء سيتمكن ، في كافة أنحاء الشرق الادنى ، من اعادة تنظيم الدولة في كنف الجيش التركي .

غير ان الفتح التركي وجهاً آخر . فهؤلاء التركان الرحّل لم يهتموا بالخصوص العقيدة اهتمامهم للغزو وكسب الغنائم من غير المؤمنين . فكان طبيعياً بعد ان استقر هؤلاء الغزاة في ايران الغربية ان يوجهوا نشاطهم ضد الامبراطورية البيزنطية . اضاف الى ذلك انهم ألقوا اتحاداً من جماعات قبلية غير متلاحمة واعتبروا السلطان قائداً حربياً مؤقتاً ، فخضعوا بصعوبة لقوانين دولة منظمة اصبح سلطانهم رئيساً لها . أفليس من الطبيعي ايضاً ، والحالة هذه ، في سبيل تحويل اعمالهم الفوضوية عن الدولة ، الحدو بهم ، وقيادتهم عند الحاجة ، الى غزو البيزنطيين ، لا سيما وان الجيش في الامبراطورية اليونانية في حالة يرثى لها من الفوضى ، والسكان لا تجمعهم وحدة ادبية ؟ فعندما سحق السلطان الب ارسلان ، في السنة ١٠٧١ ، آخر جيش بيزنطي في « مانزيكرت » وأسر الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينس ، انفتحت امامهم ابواب آسيا الصغرى . وكان العديد من بني عرقهم قد خدموا في الجيش اليوناني ، ولم يتردد المطالبون بالعرش ، في نزاعاتهم الداخلية ، في استخدامهم لبلوغ غاياتهم : فاستدعوه الى ابعادهم عن الهدف الذي حددوه لانفسهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا ليستطيعوا دخولها عنوة . ولم يدرك اليونانيون الا بعد فوات الاوان ان الشعب التركي ، باستيظانه آسيا الصغرى ، قد مزّق اطارات الامبراطورية ، وان الارمن والسوريين يعاقبة ، المعادين لبيزنطية ، قد ارتضوا بهؤلاء الأسياد الجدد ، وان يونانيي آسيا الذين انكفأوا تدريجياً نحو شواطئ بحر ايجه . وأنهم كثر الحروب الطويلة قد أعدموا وسائل الوقوف في وجه الاتراك . وهكذا تكون وطن تركي ، هو تركيا ، لن يلبث المسافرون ان يتحققوا من حقيقة واقعه ؛ وهكذا حقق الاسلام فتح بلاد جديدة .

لم توفق الدولة السلجوقية في الحقيقة الى فرض رقابتها على التركان الشرق الادنى السلجوقي الذين توزعوا خارج حدودها ؛ ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية تركية يدير شؤونها الخراسانيون السنيون . فباستثناء اذربيجان حيث استوطن التركان جماعات كبيرة ، لم يطرأ تعديل يذكر على توزيع السكان في الشرق الادنى ، كما ان الانظمة الادارية

والادارات نفسها التي خلّفتها ايران والدولة الغزنوية لم تتغير قط ايضاً . كان السلاطين الاول الثلاثة - طغري بك والاب ارسلان وملك شاه - رجال حرب نوابغ ، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الادارية فتركوا للوزراء أمر ادارة الشعوب المحتلة . وقد عبّر احد هؤلاء الوزراء ، نظام الملك ، وهو شخصية بارزة نادرة ، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء ونوادر . ولكن مجموعته لم تأت مجدد .

ليست الادارة اذن ما حوره السلجوقيون - وما الطغراء التي استعملت حتى السنة ١٩٢٢ لتصديق فرمانات والشهادات العثمانية سوى طرفة فحسب - بل توجيه الدولة نفسها . وفي الوحدة السياسية الكبرى التي حققوها ، كان الجيش ، وهو غريب تماماً عن السكان ، المستفيد الوحيد من الفتح . فقد خصّص باقطاعات عظيمة من الاراضي ، على ان هذا التوزيع ، على الرغم مما قيل فيه ، لم يفض الى اقامة النظام الاقطاعي ، لأن الدولة السلجوقية قد احتفظت بحال قياداتها العسكرية برقابة حازمة أتاحت لها السيطرة بقوة على المحاربين الذين كانت اقطاعاتهم وضيفة على العموم . اما السلاطين فهم رجال الحكم يقضون على سجن المدن في مهده ويراقبون حركات القبائل العربية او الكردية ويقتصون من المحتلين بالأمن والنظام .

عادت هذه السلطة المستعادة بالخير ، في الدرجة الثانية ، على السنة وفقهاها . واذا كان الاضطهاد لم يتناول اتباع البدع الجديدة فردياً ، فقد هدمت مؤسساتهم ، وبذل مجهود مادي وأدبي ضخم لرفع شأن الدين القويم وحصر ادارة المجتمع الاسلامي باتباعه دون غيرهم . فأسس المسؤولون مدارس خاصة تأمنت فيها للمعلمين والطلاب سبل المعيشة والعمل ؛ لقد ولّى عهد المؤسسات نصف الخاصة التي تلقن شتى الدروس ، وجاء عهد المدارس العامة المعدة ، على غرار جامعة الازهر ، مركز الاسماعيلية في مصر ، لتوزيع ثقافة دينية قومية رفيعة . سيتخرج من هذه المدارس موظفو الادارة ، والقانونيون ، مرشدوها ، والقضاة ، دعائمها : تلك هي «المدارس» . يعود انشاء اقدمها عهداً ، وقد كانت في منتهى الوضاعة ، الى السامانيين الاخيرين والغزنويين من بعدهم . ثم ازدادت عدداً في كافة أنحاء العالم السلجوقي بناء على رغبة الحكومة اولاً ورغبة كافة العظماء ثانياً . وأول من أعطى المثل ، في قلب بغداد ، نظام الملك ، بتأسيسه المدرسة «النظامية الفخمة التي تولى التدريس فيها اوسع فقهاء العصر شهرة ، ولا سيما الاشعريون ، الذين اهتم الوزير الكبير لنجاحهم .

وفي الوقت نفسه قام السلجوقيون ، المولعون بالبناء ، بتشديد الجوامع العظيمة والمستشفيات والمدارس والخانات والجسور ، وكلها أبنية يدخلها التقليد في واجبات الملك الواعي لمسؤوليته الدينية . وخصت هذه المؤسسات بموارد متزايدة الاهمية : فالأوقاف التي كانت في معظمها خاصة ومحدودة غدت منذ ذاك الحين ذات أهمية عمومية واتسعت اتساعاً غريباً وزادت من أهمية المعتاشين منها ، رجال الجوامع والمدارس ، وكلهم دعائم أساسية للدين القويم الذي ينفق عليهم .

شاهدت الدولة السلجوقية اخيراً المصالحة التي جرت ، في ذهن المؤمنين وموقف الحكومة

على السواء ، بين الصوفية والدين القويم الذي أمسى الصوفيون حلفاءه ، بأعداد متزايدة ، لدى الشعب . وحين اكتشف المفكر الكبير الغزالي ، بعد خبرة طويلة في تدريس الفلسفة الكلامية ، ان لا قوة للدين بدون رضى القلب ، وان العاطفة الدينية التي لا تستند الى ارشاد العقل غالباً ما تؤدي الى فقدان التوازن ، وان ما يدوم ، في الواقع ، هو اتحاد القلب والعقل معاً ، انما كانت يعبر تعبيراً نافذاً وشخصياً عن نزعة عامة في اوساط الارستوقراطية الاسلامية . اضيف الى ذلك ان الصوفيين قد انصرفوا تدريجياً ، في الوقت نفسه ، عن حياة العزلة وألفوا الجمعيات وخضعوا لقانون قريتهم من الجمعيات الدينية المسيحية . فكان من المحتوم ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، ان تقضي هذه العادات الجديدة ، التي اخذت تنتشر منذ اوائل العهد السلجوقي ، الى تأسيس جمعيات دينية حقيقية كانت اولها جمعية القدرية التي اسسها عبد القادر الجيلاني . اجل لم يحل ذلك دون ابقاء الصوفيين على عادات غريبة عن العبادة المشتركة ، وزائفة جداً احياناً ، ولكن صفة منافاتها للديانة الرسمية واصطباغها بالبدعة قد زالت عنها . وهام السلجوقيون انفسهم يسفون عليهم الاوقاف ويؤسسون الاديرة في المناطق المحرومة منها . فجذبوهم من ثم اليهم واستغلوا النفوذ الادبي الذي كان لاوليائهم على الجماهير الشعبية .

لم يبق من ثم امام المارقين من الدين سوى المداينة ، او اللجوء الى المناطق النائية ، او النشاط السري ايضاً ، وهكذا تأسست جمعية ارهابية توصل محركها حسن الصباح ، وهو مبشر اسماعيلي اغضب الفاطميين بسبب انتصاره لحركة نزار ، الى الاستيلاء ، عن طريق الخدعة او التهديد بالتشهير ، على حصون منيعة عديدة ، ولا سيما قلعة الموت في الجبال القزوينية . وليس المعتقد هو ما يميز هذه الشيعة بل سرها وتنظيمها المدهش واعتمادها الاغتيال السياسي كوسيلة عمل كانت اولى ضحاياها البارزة نظام الملك نفسه . وكانوا يسكرون المبتدئين بشراب مزوج بحشيشة الكيف يذيقهم لذة الافراح السماوية . ولكن الاغتيال الذي مارسه هؤلاء الحشاشون قد اعطى الكلمة « *Assassin* » مفهومها الفرنسي : ومرد ذلك الى ان هذه الشيعة لم تلبث ان انتشرت في سوريا حيث عرفها الصليبيون . وقد بقيت طوال اجيال عدة مثار رعب في كافة انحاء الشرق الادنى على الرغم من ضآلة عدد اتباعها الحقيقيين .

يجدر بنا ، في هذا الجو الديني الجديد ، ايضاح وضع اهل الذمة الحقيقي الذي شوهته دعاوة الحروب الصليبية . ليس من ريب في ان تركان آسيا الصغرى قد اذاقوا المسيحيين اليونانيين مرّة العذاب الوانا ؛ وفي المرحلة الاولى من غزواتهم الحقوا الضرر والاذى بالارمن واليعاقبة ايضاً . ولكن وضع المسيحيين لم يتغير قط في الدول السلجوقية المنظمة ، ولا سيما في فلسطين . فان الحج الذي توقف عن طريق الاناضول قد نشط عن طريق البحر ، ولم تقم في طريق الحجاج اية عقبة حتى اورشليم . والواقع هو ان الغرب قد ارتكب خطأ ، ربما كان مقصوداً عند بعضهم ، بعدم التمييز بين عذابات يونانيي آسيا الصغرى وحال مسيحيي فلسطين ، وهو خطأ وقعوا فيه تحت تأثير شعور الفرسان الفرنجة حيال المسلمين بعد اشتراكهم في حروب اسبانيا . ولكن

تساهل الاسلام التقليدي لم يتغير قط ، الا في اسبانيا بالذات ، بفعل التصلب المسيحي . اما في الشرق ، حيث لم تلصق بهم ، كما جرى في الأندلس ، همة التعاون مع الفرسان اللاتين ، فلم يتأثر التساهل حتى بالحملات الصليبية نفسها .

لم تتمكن الدولة السلجوقية ، على الرغم من احيائها العالم الاسلامي ، من تجزئة الاسلام التركي .
الابقاء على تلاحمها زمنا طويلا . فقد انفرط عقد السلالة المالكة غداة وفاة « ملك شاه » في السنة ١٠٩٢ : وافضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، وتوزيع الاقطاعات والوفيات المبكرة ، والقصور الشرعي الضعيف ، الى تجزئة الامبراطورية التي استمعتها بعين الاتابكة ، اوصياء على أبناء السلطان القصر ، وكلاء على اقطاعاتهم ، فرغبوا ، كما هو طبيعي ، في الحلول محلهم . فتوجب من ثم تخصيص افراد الجيش دونما حساب باقطاعات جديدة ما عتمت ان اصبحت سيادات وراثية . وتزايدت كذلك اسباب التناحر بين العرب والأتراك ، وبين التركان والاكراد . كل هذا يفسر نجاحات الصليبيين وتقدم الجيورجيين واستمرار الخلافة الفاطمية . الا ان امارات مستقلة اقل عدداً واعظم قوة واطول عمراً ايضاً تأسست على انقاض الامبراطورية السلجوقية السريعة الزوال وابقت في الشرق الأدنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية : العراق وسوريا ويران وآسيا الصغرى .

غدت العراق آنذاك مجرد ولاية في عالم اسلامي لم يعد ليعتبرها مركزه الرئيسي ، ولكنها استعادت ، بفضل الانحطاط السلجوقي ، بعض الاستقلال تحت ادارة الخلفاء الزمنية ، غير المترقبة حقاً . وقد حاول احد هؤلاء ، الناصر ، حوالى السنة ١٢٠٠ ، ان يعيد الى الخلافة سلطة دينية حقيقية تعلو سلطة الفقهاء ، فلم ينصرف ، في سبيل هذه الغاية ، عن مطاردة جمعيات الفتوة في بغداد فحسب ، بل جعل منها احدى وسائل حكمه ، ساعياً جهده لاصلاحها من الداخل ، وتوحيد تنظيمها تحت كنفه ، وتشجيعها على تحقيق مثل روحي اعلى اوحته منذ امد بعيد بعض اشكال الصوفية الجماعية ، ثم حاول جمع الامراء والنبلاء في فتوة ارستوقراطية جعل منها نوعاً من جمعيات الفرسان ؛ واذا كانت هذه المحاولة الاخيرة قصيرة الامد ، فقد كتب للفتوة الشعبية ، التي اشرف على اصلاحها ، ان تلعب دوراً غير قصير في حياة البلدان التركية .

اما تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد سيطر عليه ، طوال القرن الثاني عشر ، الصراع ضد الصليبيين . كانت هذه المناطق حتى ذاك التاريخ ، اما تابعة للعراق تارة ولمصر اخرى ، واما مراكز لامارات هزيلة . ولكنها غدت آنذاك ، بفضل تقدمها على بغداد النائية استعداداً للقيام بهذه المهمة ، مركز تجمع لنهضة عسكرية وتجدد ادبي وثقافي . وقد حدث في اول القرن ان الارستوقراطية العربية ، ولا سيما في اماره دمشق التي لم يحدق بها خطر الفرسان الفرنجة كما احدث مجلب ، رضيت ، طوعاً او قسراً ، بالفتح اللاتيني كما جاء في المذكرات الطريفية التي وضعها آنذاك اسامة بن منقذ . ولكن تجاوزات بعض الفرنجة واستمرار تدفق الصليبيين

خلقت ، في سنان المدن السورية وبين علماء الدين ، حركة اعتراض على هذه اللامبالاة الاثيمة ، وعلى انقسامات المسلمين ، فمرف بعض الامراء الاتراك كيف يستغلونها في سبيل بعث الكيانات السياسية الكبرى لمصلحتهم . وهذا ما حققه زنكي اولا وابنه نور الدين من بعده في منتصف القرن الثاني عشر : فقد ضمنا الى امارتهما في حلب ، وهي محور الحرب المقدسة ضد الفرنجة ، شطراً هاماً من بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا باجمعها ، وجندا في جيوشها اعداداً متساوية من الاكراد والاتراك . فاستطاعا رد الفرنجة شيئاً فشيئاً الى الساحل السوري على الرغم من النجيدات البيزنطية او الغربية التي تلقوها . وهكذا جعلنا من سوريا ، بتدابيرهما الجائرة ضد الشيعة وبتأسيسها العديده من المدارس والجمعيات الصوفية التي اسهم فيها بعض المهاجرين الايرانيين ، اوسع المراكز نشاطاً لصراع مزدوج ضد اعداء السنة في الخارج والداخل . اضاف الى ذلك ان هذا التجمع سهله زيادة الثروة المادية : فقد خسرت بغداد مركزها الاول في تجارة الشرق بعد ان احتفظت به مسدة طويلة احتفاظاً صناعياً ، اما الموصل ، وهي مركز صناعي اقرب منها الى مناجم دجلة الاعلى ، وحلب ودمشق القريبتان من الموانئ السورية ومستعمرات الايطاليين التجارية ، فقد امست ، مع القاهرة والاسكندرية ، اوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً ، لا بل تقدمت على القاهرة والاسكندرية ، وأمست مراكز الاسلام الفكرية والفنية ايضاً . ومرد ذلك الى ان مصر الفاطمية التي فتت شقاقات جيوشها وانقسامات الاسماعيلية وفقدان الثقة بها في عضدها ، لم تحافظ على استقلالها الا بفضل الحاجز المزدوج الذي يفصلها عن الاسلام التركي : الصحراء والدول الفرنجية . ولكن ما ان حاول الصليبيون الاستيلاء على موارد دلتا النيل الفنية حتى اضطر المصريون لطلب النجدة من نور الدين . فارسل سيد حلب بقيادة صلاح الدين الكردي ، جيشاً فتح مصر ثم وضع حدا للخلافة الفاطمية في السنة ١١٧١ فوحده ، بعمله هذا ، الاسلام الشرقي كله بعد انشقاق دام قرنين كاملين .

افضى هذا الفتح بدوره الى قلب القوى الاسلامية قلباً مباشراً في الحقل السياسي ، وبطلياً غير كامل في الحياة الروحية . فاستغوى صلاح الدين بتفوق مصر المادي واستغل ضعف خلفاء نور الدين ، فاستلم إرث هذا الامير العظيم . وهكذا وضعت موارد مصر وسوريا مما في خدمة جيش تركي - كردي تحمس لخوض الحرب ضد الفرنجة فاستعاد القدس من الصليبيين (١١٨٧) وردم الى طريدة ساحلية ضيقة . الا ان الهجوم المعاكس العنيف الذي شنته الحملة الصليبية الثالثة اتاح للصليبيين الحفاظ على حصونهم الاخيرة ، لذلك اخذ خلفاء صلاح الدين ، الايوبيون ، وان صدوا عند الحاجة هجمات الحملات الصليبية الجديدة ، يؤثرون اقامة علائق تجارية طيبة مع التجار الايطاليين على اطالة الحرب المقدسة . لا بل ان احدهم ، الكامل ، عرف كيف يرد على دبلوماسية فردريك الثاني الحكيم بموقف كريم ايضاً . كان اثر ذلك ، في مصر ، وهي ملتقى تجارة الهند عن طريق البحر الاحمر والتجارة الايطالية في المتوسط ، ازدهاراً عظيماً متزايداً : ويؤيد هذا القول ان احدى الشركات التجارية الكبرى (شركة كارمي) حاولت آنذاك احتكار

استيراد الابازير ، وان الحماية الايوبية ، نتيجة لذلك ، قد ثامت بوطأتها على اليمن والمدن المقدسة .
الا ان العهد الايوبي ، على الرغم من ان مصر المتجانسة والموحدة السلطة لم تعرف القيادات
الاقطاعية الكبرى والثورات والانفصالات الاقليمية ، قد خضع بدوره للجيش ايضا . ومنذ
منتصف القرن الثالث عشر ، اخذ الجيش ، بعد ان عزز لدفع خطر الهجوم الفرنجي والغزو
المغولي ، يرفع رؤساءه الى السلطة ، وجعلهم ينحدرون من اصل عبيدي ؛ فأسس هؤلاء الجنود ،
لقرون عدة ، عهد المماليك العسكري .

اما ايران فقد عرفت تاريخاً اعظم اضطراباً ، وغموضاً ايضاً ، لانها ما زالت تتأثر بحركات
الشعوب التي كانت تغلق آسيا الوسطى . وسقطت المناطق الاسلامية الواقعة وراء الاوكسوس ،
منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، تحت حماية « القراخيطي » من غير المسلمين — فقد دان
الكثير منهم بالستورية — الذين عاملوا الاسلام معاملة غريبة من الاديان غير مبالين بانتصار
السنّة . وقد تكونت عند الفريقين ، على اثر الهزيمة التي أنزلوها بسلطان ايران السلجوقي ،
سنجر ، اسطورة الخوري يوحنا ، ذلك الملك الغامض الذي قالوا عن مملكته انها تقع في مكان
ما وراء الدول الاسلامية وتكهنوا بأنه سيقضي على الكفرة . ولكن كل ما حققه « القراخيطي »
في الواقع هو الدفع ببجاعات جديدة من الاشقياء التركان نحو ايران الشرقية فعاثوا فيها فساداً
دون ان يؤسسوا فيها حكماً دائماً . ولم يقاوم هذه الجماعات ، في المناطق الشمالية الغربية المعتصمة
بالصحراء ، سوى خوارزم التي ما لبثت ان بسطت سيادتها على ايران بكاملها . ولكن الخوارزميين
لم يستطيعوا ضم بغداد اليها ، ولا فرض حمايتهم على الخليفة ، فافتقروا الى عضد الاسلام القويم ؛
ولما كانوا ، بالإضافة الى ذلك ، يحننون جيشهم من قبائل تركية لم تعتنق الاسلام بعد ، ويميشون
لأجل الحرب والسلب ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا كل شمبية . فلهم الغزو المغولي خوارزم لقمة
واحدة ؛ وتدفق الجيش المهزوم على العالم الاسلامي في الشرق الادنى ، وعاث فيه فساداً
وخراباً . ولم تنج من هذه الغزوات سوى الهند الشمالية الغربية بفضل تحصنها وراء جبال منيعة ؛
وقد عاشت آنذاك في كنف امارات تركية انتسبت ، من قريب او بعيد ، الى الغزنويين ،
وخضعت منذ اوائل القرن الثالث عشر لنظام عسكري شبيه بنظام المماليك في مصر .

اما آسيا الصغرى المحتلة منذ عهد قريب ، وهي آخر ممتلكات الاسلام التركي ، فقد كوّنت
في البدء عالماً شبه مغلق . ولا يزال الغموض يكتنف هذه الفترة من تاريخها ، لأن الذين احتلوا
كانوا تركاناً خشنين غرباء عن تقاليد الدول الاسلامية القديمة وعن العالم البيزنطي الذي حلوا محله ،
ولأن مؤرخيها ، بالتالي ، لم يبرزوا الا في عهد متأخر . الا اننا نميز فيها ، على الرغم من ذلك ،
قطاعاتين متقابلين : ففي الولايات المتاخمة للحدود اليونانية من جهة تركان غدير مستقرين تقريباً
يشنون غزوات الحرب المقدسة باستمرار ، كالولئك الذين خضعوا لسلطة رئيس مثل لقبه
— دالشمند — ، في الاربع ، صلة « الحكيم » ، لا اسم العائلة ؛ ومن جهة ثانية أسس احمد
فروع السلالة السلجوقية ، بمساعدة بعض المواطنين الايرانيين ، ورغبة منه في التعايش السلمي مع

بيزنطية ، دولة قوية وحتدت آسيا الصغرى تدريجياً وضمت اليها أرمينيا الغربية نفسها . وفي اوائل القرن الثالث عشر بدت سلطنة « الروم » السلجوقية – أي تلك التي سيطرت على الولايات « الرومانية » القديمة – وكأنها دولة عظمى : فنهضت فيها المدن التي كان التركان الرحل قد أخضعوها ؛ ونشطت التجارة مع آسيا الداخلية والقسطنطينية ، ومع مصر وروسيا ؛ وتدخلت الملكية اخيراً ، بفضل جيشها القوي ، في شؤون سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا . فالتجأ الإيرانيون الهاربون من تعسف الخوارزميين ومن الغزو المغولي الى منطقة الاناضول التركية التي ورثت آنذاك حضارة ايران وأطالت بقاءها ؛ اما علاقتها بالعالم العربي ، حيث ألفت الاتراك ارستوقراطية عسكرية فحسب ، فقد كانت مقطوعة تماماً .

أدى تقدم تركيا الجديدة نفسه وأخذها بالحضارة الإيرانية تدريجياً الى إيجاد هوة بين سكانها وبين التركان المتسكنين بعاداتهم . ولكن جماعات مشردة جديدة ، هاربة امام هجمات الشعوب الآسيوية ، ظلت تحتماز الحدود الاناضولية باستمرار طامعة بالمراعي ، ثائرة على كل تنظيم اداري . فاتخذت عدائها للدولة السلجوقية طابع حركة اجتماعية ودينية ، يقودها المدعو « بابا اسحق » الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر . فاليه تعود ابوة كافة النزعات ، المارقة من الدين في الغالب ، التي ارجفت دورياً ، حتى فجر العهد المعاصر ، التركمان المتضايقين في الممالك التي أسسوها بقوة سلاحهم . اجل لقد غلب بابا اسحق على امره ولكن الاضطرابات التي أثارها مهّدت الطريق امام نجاحات المغول الذين فرضوا حمايتهم ، في ١٢٤٣ ، على الدولة السلجوقية ، وقضوا نهائياً ، في الواقع ، على سلطتها .

نرى لزماً علينا هنا القول مرة اخرى ان الشرق الاسلامي ، ثبات الحضارة الاسلامية الذي تبدل تبديلاً عظيماً بفعل الغزوات التركية ، والذي تجزأ ، سياسياً او عنصرياً ، تجزؤاً لم يشاهده من قبل ، ما زال يعرف حضارة زاهية جداً ، بوجهيهما الرئيسيين ، العربي والایراني . وانما انطفأت الحياة الفكرية تدريجياً في نطاق البرهان الحرفي فقط : فالغزالي كان آخر الفلاسفة الشرقيين ، بينما تحول العلم الى تردد اقوال السابقين . اما التاريخ فقد أمسى اعظم الالوان الادبية حيوية في العالم العربي ، واسفر عن انتاج وفير : التواريخ العامة او المفصلة ، او الموسوعات الضخمة الموضوعة للقراء « العرفاء » ؛ مذكرات ابن القلانيسي الدمشقية الى جانب مذكرات اسامة بن منقذ ؛ ترجمة صلاح الدين لعماد الدين الاصفهاني ، وهي جملة جداً في نظرنا ، الى جانب التاريخ العام الذي وضعه ابن الاثير الواسع الاطلاع (اوائل القرن الثالث عشر) وضمنه معلومات وأخباراً صحيحة كثيرة جداً عرضت ببصيرة وألمية ؛ تراجم العلماء والاطباء لابن القفطي وابن أبي أصيبعة ، وهي جليلة الفائدة لمؤرخي العلوم ، وقد جاورت ، في رفوف المكتبات ، القاموس الجغرافي الضخم لياقوت ، الذي يعود الى السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ايضاً . وكان الانتاج الادبي بالمقابلة اقل وفرة ؛ ولكنه بلغ ذرى الجهد « بمقامات » الحريري الذي سار على خطى الهمذاني ، بينما تمثلت الصوفية خير تمثيل بالاسباني

ابن العربي الذي أمسى ، في ملجأه الشرقي ، اول عالم عربي باصول الصوفية الجديدة ، وبالمصري ابن الفارح الذي كان شاعراً كبيراً .

واستطاع الادب الايراني من جهته ، بعد ان تخلص من قيود كل ارسطوقراطية مستعربة ، ان يفتح بجرية كاملة . واذا بقيت خوارزم مركزاً لتدريس الثقافة العربية واشتهر فيها اللغوي الزمخشري وكثيرون غيره ، فان اللغة الفارسية قد تفوقت ، منذئذ ، على اللغة العربية كوسيلة للتعبير الادبي . وهو الشعر هنا ما سار في الطليعة وانتج اجمل روائعه : فعمر الخيام الذي عاصر كبار السلاطين السلجوقيين واشتهر خصوصاً برباعياته ، الملقى بتشاور مستعذب ملحد ، كان رياضياً وفلكياً كبيراً ايضاً ؛ وفي القرن التالي ، كتب النظامي ، الذي جاء من حدود اذربيجان الشمالية ، روايات شعرية طويلة تتميز بشعور رقيق واسلوب متقن السبك ؛ اما السعدي اخيراً ، الذي عمّر طويلاً وانتهى حياته في عهد المغول ، فهو بدون منازع اشهر الشعراء الفرس بدويانه « حديقة الورود » الذي ضمنه ، نثراً وشعراً ، امثالاً مختلفة في الحقائق الاخلاقية . وانتج الادب الفارسي في الوقت نفسه مؤلفات صوفية أكثر عدداً واروع جمالاً منها في الادب العربي : ونذكر هنا على سبيل المثال السهروردي النائز ، والشاعر « فريد الدين العطار » (اواخر القرن الثاني عشر) الذي اتجه نحو الادب التعليمي ولكنه اوجد لوناً سيبيلج منه الذروة ، ابان الفتح المغولي ، في منتصف القرن التالي ، جلال الدين الرومي الذي ولد في ما وراء النهر ، وقضى كل حياته ، كما يدل على ذلك اسمه ، في آسيا الصغرى حيث اسس جمعية الدراويش المشهورين باسم الدوّارين .

بيد ان بعض الاوساط التركية ، حتى بين الذين لم يأخذوا بالحضارة الايرانية ، تأثرت بالثقافة الاسلامية . ويبدو ان الاتراك قد نسوا كتابتهم الخاصة ؛ فاعتمدوا كتابة القرآن . فاستخدمت وسيلة التعبير هذه ، في آسيا الوسطى ، منذ القرن الحادي عشر ، في وضع ملخص الحكمة الاسلامية ، « كوداتكوبيليك » ، وفي نظم أشعار تركية لا تزال شعبية حتى أيامنا هذه . ادخل عليها « احمد يسفي » بعض المقتبسات الايرانية التي تتفق وشعور ابناء جلدته الاتراك من الناحية الدينية . وارسم عند تركان آسيا الصغرى ايضاً ادب تناقلته الالسن أولاً ، ثم أنتج بعض نفثات الاقلام في عهد السيطرة المغولية .

اضف الى هذا ان العهد التركي - الذي امتد اجمالاً من منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر - كان ، بالنسبة للشرق الادنى الاسلامي ، فترة ازدهار فني عظيم . اجل ان من شأن اندراس الابنية السابقة اندراساً تاماً تقريباً ان يحملنا على المغالاة في الاهمية النسبية للآثار البنائية التركية . ولكن الواقع هو ان السلجوقيين والزنكيين والايوبيين كانوا مولعين بالبناء وان نوع أبنيتهم ليس دون عددها اهمية وشأناً . ويبرز فيها الافر الايراني ، او بالاحرى الخراساني ، بروزه في الادب ؛ ولكنه ربما تداخل فيها ببعض التقاليد التركية ؛ ومهما يكن من الامر ، فان فناني الاسلام الاتراك هم الذي دفعوا بهذه النهضة العظيمة الى الامام .

لم يبق من الابنية المدنية شيء يذكر ؛ ولكن هندسة العمارة العسكرية كانت اوفر حظاً في البقاء . رأينا من قبل ان حصوناً كثيرة شيدت في الشرق الادنى خلال القرنين العاشر والحادي عشر . اما في القرن الثاني عشر فقد ارتفعت بصورة خاصة القلاع والاسوار حول المدن : فقد اضاف صلاح الدين قلعة المقطم الى أسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي قبل السنة ١١٠٠ ، بينما شيد ابنه الظاهر في حلب ، القلعة المشهورة التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه والتي بليت بهذا الحجم ، كما يبدو ، حتى لا تكون دون الحصون الصليبية اهمية ؛ ولم يتوفق المؤرخون حتى يومنا هذا الى التمييز بين التأثيرات المتبادلة التي تفاعلت في الشعبين المتزاحمين في سوريا فادت الى تقدم سريع في هندسة العمارة العسكرية .

ترك نشاط الملوك الاتراك الديني وأعمالهم الخيرية ، آثاراً بنائية كثيرة . وقد درس العلماء درساً مستفيضاً جامع اصفهان العظيم المجهز بأربعة أو اوين فخمة على جوانب فناءه ، وبكشك داخلي كبير مخصص للسلطان ، ومثدنة مستديرة رشيقة لن يلبث طرازها ان ينتشر انتشاراً واسعاً ، وبشرفة منقوشة اخيراً يمثلها المؤذن للدعوة الى الصلاة . وراجت سوق القبور الفخمة كضريح سنجر في مرو الذي جاء اجمل وأكمل من القبور السامانية السابقة . اما المدرسة ، وهي طراز بنائي جديد بمساكنها وقاعات التدريس فيها ، فقد جاورها باطراد ، على غرار الجامع ، ضريح مؤسسها . وباستثناء سوريا ، اتاح استيغال القرميد للبنائين الاستفادة من تضيد القراميد نفسه لزخرفة الابلية من الخارج ، بينما استمرت طرائق التزيين النقاشي او المتعدد الالوان في اعمال الزخرفة الداخلية . ونشأت عن اتصال القباب المستديرة بحدان القاعات المربعة ، وعن تزيين اقواس الابواب الكبرى ، المشاكي المدرجة ، « المقرنصات » ، التي درج استعمالها انطلاقاً من تركستان حتى المغرب . اما نط الكتابة المدفنية الذي حافظ على دوره الزخرفي ، فقد اقترب تدريجياً من الخط العادي ، وغدا بالتالي أكثر اناقة ورشاقة . اصف الى ذلك ان فن الخطاط ملازم لفن المزوَّق الذي تعود نماذجه المعروفة الاولى الى مصانع بلاد ما بين النهرين في اواخر القرن الثاني عشر واولى القرن الثالث عشر . ويجب ألا ننسى اخيراً آيات الصناعة النحاسية في دمشق ولاسيا في الموصل ؛ فهي تفيض حياة بتمثيل المشاهد على سليقتها ، كذلك المثلة على جرن الهاد المنسوب الى القديس لويس ، الذي احضره هذا الملك من الارض المقدسة ليزين به « الكنيسة المقدسة » في باريس .

وفتح الاتراك في الاناضول نطاقاً جديداً للفن ، كما لدين الاسلام ايضاً ؛ فاكستت البـلـاد بالجوامع والمدارس والضرائح والحنات في قوניה وقبصرية وسيواس وديفريغي ؛ وقد تداخلت فيها التأثيرات الارمانية . بالتقاليد المحلية في بناء الحجر ، وبالتقنية الارمنية الخاصة بالنقوش البارزة . وليس بمستبعد ان تكون بعض التمثيلات الحيوانية ، وحتى البشرية ، مستوحاة من نماذج تركية قديمة اتقن صنعها في آسيا الوسطى . فلا مجال والحالة هذه ، امام هذا القدر الكبير من المنجزات المعقدة والمبتكرة ، للكلام عن طابع هدام ترتديه السيطرة التركية .

الطوائف المسيحية الشرقية امام هذا الازدهار الادبي والفني ، تبدو نشاطات الطوائف المسيحية الشرقية هزيلة جداً وشبه رسوبية . وقد أعرب عنها منذ ذلك الحين ، الا عند الارمن والبيعاقبة ، باللغة العربية وفي مؤلفات معدة لجمهور محدود جداً . وانما تجدر الاشارة الى ان الاقباط ، الذين كانوا متخلفين عن مسيحيي آسيا ، قد بذلوا مجهوداً كبيراً في سبيل نهضة روحية لا مناص منها لبقاء طائفتهم . فنتج عن ذلك وضع مجموعات قانونية أشرف عليها آل عسّال في القرن الثالث عشر ، بينما برز بعض المؤرخين الاقباط ايضاً ؛ وهكذا فان ابن العميد ، الموظف لدى الايوبيين ، قد اشتهر في عهد مبكر في اوروبا باسم *Elmacin* ، وان مؤلفاته لقنت « مستشرقينا » الأول مبادئ تاريخ البلدان الناطقة بالضاد . ويجب كذلك ان نخص بالذكر الطوائف البعقوبية التي حدثت نهضتها الفكرية في العهد السلجوقي منطوية على مخالطة ظاهرية . ولكن لما ما يفسرها فآسياد آسيا الصغرى الجدد ، الحذرين من العرب واليونانيين معاً ، قد آثروا اختيار موظفيهم المحليين بين مسيحيي الطقس السرياني ؛ ولما كان بعض هؤلاء يقيمون في بلاد تتكلم اليونانية والبعض الآخر في بلاد تتكلم العربية ، أثر باعثو هذه النهضة الادبية العودة الى اللهجة السريانية القديمة ، مع ان أبناء دينهم قد انقطعوا عن التكلم بها ؛ بهذه اللغة العلمية ، الميته ، وضع مفكر كبير ، هو البطريق ميخائيل السوري ، في القرن الثاني عشر ، يوميات نقلت الى الارمنية وهو بعد على قيد الحياة ؛ وبلغت هذه الحركة ذروتها في اوائل العهد المغولي بمؤلفات ابن العبري التاريخية والسياسية والدينية ؛ الا ان عدم انتشار هذا الادب قد جعل من هذا المؤلف آخر مؤلفيه المشهورين .

كانت الثقافة الارمنية آنذاك اعظم حيوية وأكثر تنوعاً . ما زال بعض الارمن يعيشون ، عند حدود الاناضول واذربيجان ، تحت سيطرة الامراء الاتراك ، وضم البعض الآخر منهم الى مملكة جيورجيا التي تأسست وتوسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فشجع هذا الانصهار في دولة مسيحية ، وان يونانية الطقس ، على نشأة اول مركز للثقافة الارمنية حول بعض الاديعة في حوض الاراكس الاعلى . اضاف الى ذلك ان أرمناً آخرين قد فروا الى كيليكيا امام الفتح التركي لأواسط آسيا الصغرى . فتأسست هنا ، خلال القرن الثاني عشر ، دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطية وفرنجة سوريا تارة وضايقوها اخرى ، بلغت اوج عزها في اوائل القرن التالي مع أميرها ليون الكبير وفتحت أبوابها واسعة امام المقتبسات اليونانية او اللاتينية ، محافظة في الوقت نفسه على قومية متحذرة . اما مركز الاراكس ، البعيد عن التأثيرات الغربية ، فقد أنتج خصوصاً مؤلفات تاريخية والمجموعة القانونية الهامة التي وضعها مخبطار غوش . ولكن مركز كيليكيا والفرات يعنينا مباشرة ، اذ ان « متى الرهاوي » هو احد المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الاولى ، وان للترجمة الارمنية لمجموعة القوانين الانطاكية الفضل في اصال هذه الوثيقة الاساسية للقانون اللاتيني في الشرق .

ويعود لتأسيس دولة جيورجيا اخيراً بعث ادب هذا الشعب وفنه . فقد انضمت آنذاك الى

المؤلفات الدينية المستوحاة من اليونانيين المؤلفات التاريخية ، والملحمة القومية التي وضعها « شوطا روستافيلي » ، والتي يبرز فيها الاثر الايراني . واستمرت الطوائف الارمنية في الوقت نفسه ، حتى تلك التي حرمت حق تشييد الكنائس ، في وفائها لتزويق المخطوطات . ولكن اسهامها الاعظم في تاريخ الفن يقوم حتى تاريخه في الدروس التي لقنها الارمن والجيورجيون على السواء للفنانين الروس وفناني البلقان أيضاً في الارجح .

اما النتيجة فهي ان حياة هذه الطوائف في وسط الجماهير الاسلامية قد ازدادت انعزالاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما يفسر ضعف انتشار ثقافتها ؛ وقد شعر رجال الفكر المستنيرين من أبنائها بمخاطر هذا الوضع . فما ان اتضح ، في القرن الثالث عشر ، فشل الحملات الصليبية للغرب اللاتيني ، حتى جرت بعض الاتصالات بين المرسلين الآتين من روما وكهنوت الطوائف الشرقية ، ولكن على الرغم من الاوهام الساذجة التي غرر موفدو البابوية من فرنسيسكان او دومينيكان انفسهم بها ، فان الاختلافات قد بقيت اعظم من ان يسمي التقارب مشعراً ودائماً ؛ وكان من شأن هذا التقارب ، لو حصل ، ان يهدد بالخطر التساهل الذي أفادت منه الطوائف الشرقية لدى المسلمين الذين ربما كانوا يعتبرونه تحالفاً سياسياً مع اعداء الاسلام . اما الموارنة ، الذين ضموا كلهم الى سوريا الفرنجية فقد عادوا كلهم منذ القرن الثاني عشر الى الوحدة الكاثوليكية ، دون ان يضحوا بشيء من استقلالهم على كل حال ، ولكن لم ينح نحوهم ، من الكنائس الاخرى ، سوى بعض الفئات الارمنية في كيليكيا . ثم تجددت هذه الاتصالات بعد الفتح المغولي ، الا انها ، على الرغم من فائدتها ، قد انتهت الى فشل ذريع .

غسق بيزنطية
اذا ولتى انصار هذا التقارب وجههم شطر كنيسة روما ، دون كنيسة القسطنطينية ، فلأن الامبراطورية البيزنطية قد زالت عملياً من الوجود ، على الرغم من التاعتها الاخيرة في القرن الثاني عشر . فلا ريب في ان عيوبها الداخلية كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الكارثة التي حلت بها من جراء الفتح التركي لآسيا الصغرى والتي اضيف اليها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر تقدم "بتشنيك في أعالي الدانوب وهجوم النورمنديين الايطاليين على ابيروس . ولكن البتشنك محقوا ، والنورمنديين صدوا بعد زمن قصير . أما أترك آسيا الصغرى الذين لاقوا صعوبات جمة في تنظيم فتوحاتهم ، فقد استطاع البيزنطيون - بفضل عضد الحملة الصليبية الاولى أيضاً - ايقافهم واقصاءهم عن مشارف النجد الاناضولي على البحر . فباتت بيزنطية آنذاك سيدة المضائق وايجه واليونان وتراقيا وبلغاريا دون منازع ؛ ومن حيث هي حامية الصرب ، فان قوتها ، على هبوطها ، ما زالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية . وقد استطاع مانوئيل كومنينوس ، في الربع الثالث من القرن الثاني عشر فرض احترام رأيه في الشؤون الدانوبية والتدخل في الدسائس الايطالية ولعب دور هام في الشرق اللاتيني . اجل لقد ثقلت وطأة تأثير الارستوقراطية العلمانية في داخل الامبراطورية : فقد ازدادت « مداخيل الحيطه » وأمست وراثية ، وضم العظماء اليها موارد الاديرة التي قدمت لهم بمثابة مكاسب ؛ وكانت سلالة آل كومنينوس عوناً كبيراً لانتصار

الارستوقراطية التي انحدرت منها. ولكن خسارة آسيا الصغرى ، قد اضرت ، في الوقت نفسه ، اضراراً بالغاً بأعظم عائلات الامبراطورية ، فاستطاعت الدولة القاء الاهابسة والخوف في قواها الهدامة . وهذا ما يفسر استقرار عهد هذه السلالة اذا ما قورن بالانقلابات المتعاقبة في القرن السابق : فقد خاضت بيزنطية آنذاك حروباً عديدة للذود عن حدودها ، ولكنها نعمت في الداخل ، على العموم ، بسلام نسبي .

بفضل هذا الاستقرار ، سارت النشاطات الفكرية والفنية سيرها الطبيعي . فالتاريخ لا يزال حقلاً خصباً : فروت آناً كومنينوس وقائع ملك ابها الكسيوس ؛ وأكمل كيناموس روايتها حتى ملك مانويل ، وألف نيكتاس خونياوس بحثاً مفصلاً مستفيضاً في التاريخ البيزنطي منذ تولي يوحنا كومنينوس حتى بعيد الحملة الصليبية التي نظمت في السنة ١٢٠٤ ، بينما حظي موجز التاريخ العام الذي وضعه زوناراس ، بعد مرور زمن قصير على تأليفه ، بشهرة واسعة عظيمة . وكتب في الوقت نفسه ثيوفيلاكثوس الاوكريدي ، المعاصر للكسيوس ، ثم ميخائيل خونياوس واوستاخوس التسالونيكي ، في اواخر القرن الثاني عشر ، وبلغة كلاسيكية وعلمية ، رسائل وخطباً ومؤلفات دينية ملأى بالملومات المفيدة . ووصلت الينا ، بالاضافة الى ذلك ، حاملة اسم ثيوذورس بروذروموس بنوع خاص ، مجموعات قصائد منظومة باللغة الشعبية تذكرنا بـ « فيتون » ، وان هذا اللون ، الجديد في بيزنطية ، سيكتب له البقاء . اما الابحاث الفلسفية فقد ضعفت بفعل حركة مماثلة لتلك التي عرفها الاسلام آنذاك : فان جسارات يوحنا الايطالي ، احد تلاميذ « بلسوس » قد أفلقت الارثوذكسين ؛ واحترز الناس من المستوحيات الوثنية ، التي اخضبت ذاك الاخصاب المعجيب في الاجيال السابقة ، واذعنوا كل الاذعان لتعاليم الدين .

اما الفن فلم يصب بالمقابلة بأي وهن . فان قصر بلاشيرن الذي شيده آل كومنينوس في اقصى « القرن الذهبي » ، والذي تبقى منه الجزء المعروف اليوم بـ « تكفور - سراي » ، قد اثار الاعجاب على غرار « القصر العظيم » الذي اعمل شيئاً فشيئاً . وما زال البيزنطيون يشيدون الكنائس في الدير والابرشيات ، بكثيرة « الضابط الكل » في القسطنطينية . وبلغت الانتباه بصورة خاصة ان اثر الفن البيزنطي ما زال يمتد الى ما وراء حدود الامبراطورية المنكشحة : فالبلدان السلافية التي اعتنقت الدين المسيحي حديثاً طلبت الى مهندسي العمارة اليونانيين تشييد كنائسها ؛ وفي ايطاليا الجنوبية وصقلية وضعت مواهب الفنانين المحافظين على التقليد البيزنطي في خدمة كبار البنائين من الامراء النورمنديين ؛ واستوحيت بعض أبنية الغرب اللاتيني نفسها كـ « سان - فروت في بريغو » ، بفعل تأثيرات غير واضحة ، بعض النماذج البنائية البيزنطية . واستفحل مؤلفو وفنانو البلدان اللاتينية او السلافية ما تملوه بحرية ، ولم يترددوا في البحث عن مصادر وحي اخرى في امكنة اخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد حصل التوازن آنذاك بين بيزنطية التي ما زالت تنبض بالحياة ، وبين الغرب الذي اخذ يستيقظ من سباته .

ان التضاد لمدى نشاطات الفكر هذه والانهطاط الاقتصادي الذي منيت به الامبراطورية اليونانية منذ اواخر القرن الحادي عشر . فلما كانت الفتوحات التركية قد حالت تقريباً دون الاستعانة ببجارة الولايات الآسيوية ، حين مسّت الحاجة الى اسطول للوقوف في وجه النورمانيين ، اضطر الكيسوس كومنينوس الى التحالف مع البندقية ، القوة البحرية الوحيدة في البحر المتوسط ، لقاء امتيازات وضعت في يدها عملياً احتكار تجارة الامبراطورية الخارجية (١٠٨٢) . ولم يجد خلفاء الكيسوس حلاً آخر لاضعاف نفوذ البندقية الا بموازنتها بامتيازات مماثلة يمنحونها الجنوبيين والبيزنين ويفيدون من المنافسات التي تقوم بين الطرفين . اما في الامبراطورية التي تناقصت مواردها الجبائية تدريجياً ، فقد تعاضل باطراد تأثير الجاليات الإيطالية المقيمة في الاستانة ، وتعاضل معه تدخل اللاتين في السياسة البيزنطية : فدول الصليبيين التي لم تقم بعملية مفيدة ضد اترك الاناضول ، قضت في الشرق على النفوذ اليوناني ؛ والجيش البيزنطي نفسه قد لجأ الى خدمات المرتزقة الغربيين الذين ازداد عددهم ازدياداً مطرداً ؛ وتعددت في العائلات المالكة كما في الارستوقراطية الزوجات المختلطة ، التي ادخلت على بلاط مانوئيل كومنينوس عادات نصف لاتينية . الا ان الشعب اليوناني لم ينجر في هذا التيار ، فأظهر اشمئزاه ، بتأثير من اكليروسه ، من التدخل الغربي . فحاول مانوئيل اخيراً (١١٧١) ، بعد فوات الاوان ، التخلص من التجار الايطاليين ، مع انه لم يكن بغنى عنهم ؛ فجاءت محاولته بمثابة حرب معلنة في غير أوانها افضت ، بعد وفاة الامبراطور ، الى تقتيل كافة لاتين القسطنطينية . وبذلك قطعت بيزنطية المستضعفة اتصالها بالغرب حين بدار رجحان كفة الغرب على كفتها في ميزان القوى .

جاءت النتيجة سريعة وغامضة ومسرحة . انتهج مانوئيل كومنينوس سياسة عظيمة ارهقت رعاياه ، دون ان تجدي فتيلاً على كل حال ، اذ ان كارثة ميريوكيفالون في السنة ١١٧٦ قد أعطت البرهان القاطع على استحالة استعادة تركيا الآسيوية . فاستهدفت غضبة الشعب الارستوقراطية العسكرية واللاتين على السواء ؛ وعجز اندرونيكوس كومنينوس المقتصب ، وحكم سلالة « الملائكة » القصير ، من بعده ، عن تأسيس أي بناء دائم على الانقراض التي كدستها الحركة المعادية لللاتين . فاستفاد النورمانيون والبلغاريون والصرب واثراك الاناضول من تصارع الاحزاب وقاموا في آن واحد بهجماتهم او بثوراتهم على الامبراطورية . واذا سعى « الملائكة » آنذاك للتعاون مع صلاح الدين على اللاتين ، فقد فكرت فئات اخرى بالتعاون مع هؤلاء لاستلام الحكم . اجل نحن لا نعلم بالضبط مدى اطماع بعض قادة الحملة الصليبية الرابعة ، منذ مغادرتها الغرب ، ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن الواقع هو ان البندقيين وفرسان فرنسا الشمالية قد دخلوا القسطنطينية عنوة في اوائل السنة ١٢٠٤ وعملوا فيها نهباً واستلاباً وأقاموا على انقراض بيزنطية « امبراطورية لاتينية » ضعيفة .

قد يجوز ، لاعتبارات شتى ، التوقف بالتاريخ البيزنطي عند هذا التاريخ . ولا يعني ذلك قط ان اللاتين استطاعوا تدوين كافة الاراضي اليونانية : فلا يزال منها ، خارج سيطرتهم ،

منطقة « طرابزون » ومنطقة ابيروس و « امبراطورية » نيقية بصورة خاصة التي يرجح ان الأتراك رأوا من الخير ابقاءها على شواطئ آسيا الصغرى الغربية ، والتي توصل ملوكها ، بفضل جيش من الفلاحين ، الى توطيد هذا الملجأ الأخير لثقافة يونانية عرفت الازدهار آنذاك على يد « نيكيفوروس بليدس » واضع دائرة المعارف . ولكن ما أوردنا ليس سوى بقاع متشككة تسودها التفرقة نفسها التي تسود امارات الامبراطورية اللاتينية . اما الذين يستفيدون من هذه العملية فهم دول البلقان السلافية في الدرجة الاولى ثم الأتراك في اجل لاحق بعيد . لذلك لم تخدم حملة السنة ١٢٠٤ قضية التقارب اليوناني اللاتيني قط ، بل اوجدت هوة يستحيل اجتيازها بين فرسان الغرب والجهامير اليونانية المتكئة حول كنيستها ؛ ويمكن القول بهذا الصدد ، ان الانشقاق الديني الذي لا يزال قائماً حتى أيامنا هذه انما يعود تاريخه الى السنة ١٢٠٤ لا الى السنة ١٠٥٤ .

روسيا قبيل الفتح المغولي
كان مقدراً للشعوب البلقانية ، بعد ان تحررت بسقوط بيزنطية ، ان تبلغ ذروة قوتها في القرن الرابع عشر . ولكن هذا القول لا يصح في روسيا التي توقف تاريخها بقسوة ، على غرار الاسلام ، منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، بفعل الفتح المغولي . كان التصدع ، في هذه المساحات السلافية الشاسعة ، قد لحق بامارة « كييف » ؛ ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي باعادة توزيع الاراضي ، بحسب تسلسل معين ، كما توفي احد امراء العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة . الا ان المخططات الدولة « الكييفية » يرد أيضاً الى توسع الشعب الروسي الذي تجهمت تجارته ، آنذاك ، شطر المانيا وقزوين بالتفضيل على القسطنطينية ؛ ويرد أيضاً وخصوصاً الى غارات سكان السهول البائرة من « كومان » او « بولوفتس » الذين طردوا سلافي المناطق الجنوبية وأرغوم على استعمار السهول القليلة السكان التي يروها الدنيستر ، او منطقة الغابات شبه المغفرة ، في الشمال الغربي ، التي تمتد حتى اواسط الفولغا . فنشأت عن هذا التشتت شعوب مختلفة ، الاوكرانيون ، والروس البيض ، والروس الطوال . وتحررت آنذاك منطقتان : نوفغورود وبسكوف ، في اقصى الشمال ، اللتان اعطتا الجمعيات الاقليمية استقلالاً داخلياً وتنظمتا كجمهوريةين تجاريتين ما لبثت عامة الشعب فيها ان قاومت اوليفارشية رجال الاعمال والحكام ؛ ونظم « اندريه بوجوليوسكي » في الشمال الشرقي ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في المنطقة التي ستنمو فيها موسكو قريباً ، امارة « سوزدال التي احدثت انقلاباً في تاريخ ماض تركزت فيه روسيا حول الدنيبر .

على الرغم من هذه التيارات المختلفة التي ترسم بين الشعوب الروسية ، احتفظت « كييف » بمركزها الادبي : فانما وضعت في كييف نفسها ، في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، الى « روسكيا برافدا » أي مجموعة القوانين الروسية ، وظهرت اليوميات المنسوبة لسطور التي تشيد بمآثر اسطورية او واقعية أقتها السلالة القديمة . وفي « كييف » ملك على التوالي قسطنطين

موفوماكوس الذي ستتجسم الحكمة بخياله الشعبي ، و « ايفور » ، بطل الحرب ضد « الكومان » .
وان ما يلفت الانتباه في كل ما بلغنا من الادب المكتوب في ذاك الوقت ، او من التقاليد الشفهية
هو عمق التضامن والوطنية الروسيين . ولذلك لم يكتف الادب بالنقل عن اليونانية ، بل انطلق
انطلاقة قادته الى الاستقلال . ففي هذا العهد اخذ بعض الشعراء يشيرون روايات نصف اسطورية
تعتبر عن الحكمة الشعبية ، استهوت الفلاحين الروس حتى فجر القرن العشرين ، اجل ان تحريرها
قد حدث في عهد متأخر جداً ، وهذا ما يجعل الشك مخشياً على صحة رواية « حكمة ايفور »
الشهيرة . ولكن اذا صحت نسبتها الى القرن الثاني عشر فانها ترينا روسيا الناهضة قادرة على
وضع ملحمة خليقة ، من حيث قيمتها الادبية ، بأعظم حضارات العصر . وبدا الاستقلال نفسه
والمبكرة نفسها في الفن : فلم تعد روسيا القرن الثاني عشر ، على غرار الدولة الكييفية القديمة ،
مجرد ولاية من ولايات الفن البيزنطي . فقد عرف مهندسو ابناءة نوفورود وبسكوف كيف
يوفقون بين التأثيرات اليونانية وتأثيرات المانيا البلطيقية ، كما عرف ذلك ايضاً رسامو الايقونات
ومزوقو الكتب . ونشأت بصورة خاصة في المنطقة التي سيطلق عليها اسم موسكوفيا ، أي
في سوزدال وفلاديمير ، هندسة عمارة حجرية ، جديدة كل الجدة بغنى زخرفتها المصورة ،
يستحيل علينا ان لا نرى فيها تقليداً للنماذج الارمنية والجيورجية . ويبدو في كل مكان ،
بالاضافة الى ذلك ، ان فنانين روسيين كثيرين قد حلوا محل الفنانين الاجانب وطبقوا دروسهم
بحرية متزايدة .

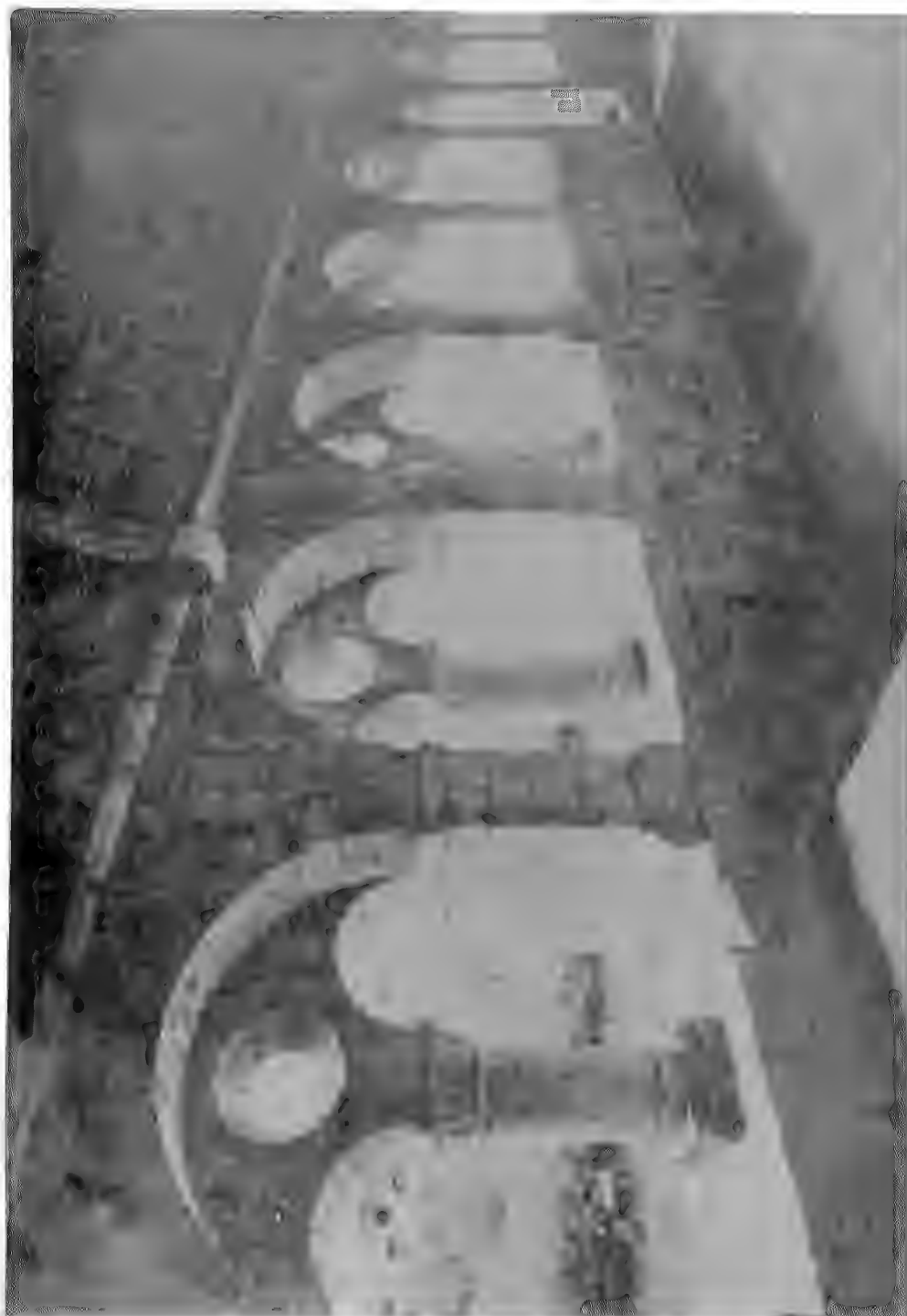
بيد ان روسيا التي بدت حضارتها على وشك التفتح ، لن تنجو ، شأن الاسلام التركي الذي بدا
مستقراً ، من كارثة جديدة : فقد دقت ساعة الفزو المغولي .



اللوحة ١٧ - المسيح في جلاله



اللوحة ١٨ - الباب المني في المقبرة الملكية شارو (القرن الثاني عشر -



اللوحة ١٩ - لواق دير تورونيه (القرن الثاني عشر) .



الوحدة ٢٠ = قلعة البير - بن | حصن الأكراد | ، قلعة صليبية في سوريا | القرن الثاني عشر |



البرقة ٢١ - قلعة حلب (سوريا) في القرن الثاني عشر -



3 55 1/2 x 12 1/2 x 6 1/2



لوحة ۳۳ - فارس مغولي يلاحق حصاناً هارياً .



اللوحة ٢٤ - الاحصنة في الشرب



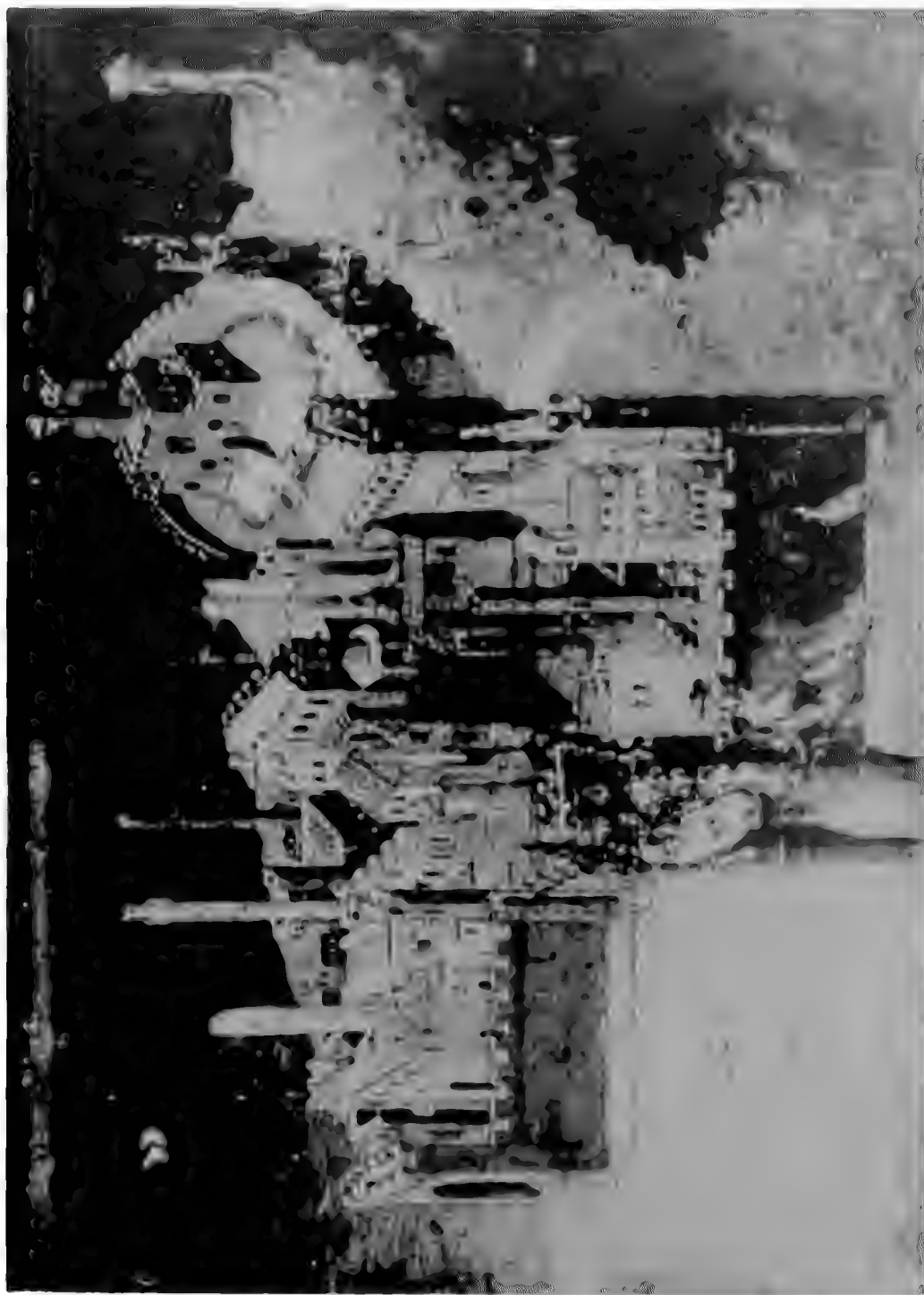
الأوحة ٢٥ - اعمال الحفول



اللوحة - ٢٩ - سوق لنديت



الوحدة ٣٧ - قبة بني بويجه المسمى ، القرن الثاني عشر .



الوحدة ٢٨ - مدينة البطالة في القرون الوسطى -



اللوحة ٢٩ - مدينة كركستون -



اللوحة ٣٠ - كنيسة نوردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) ..



اللوحة ٣١ ملك نواتي .

[illegible]

الفصل الثالث

آسيا المغولية (القرن الثالث عشر والرابع عشر)

ان الواقع الجديد الذي يميز آسيا في القرن الثاني عشر والذي رأينا في فصل سابق تحيزه البطيء ، هو ان الهند والصين قد فقدتا نفوذهما المعريق في القدم على الدول الشرقية في هذه القارة الواسعة الاطراف . اجل كلتاها تلبهان خيلاء ، استناداً الى ماضيها التاريخي الطويل ، بتحقيقاتها المدهشة في الحقل الفلسفي والديني وفي حقول الادب والموسيقى والفنون التصويرية . وكلتاها لا تزالان الزعيميتين الروحيتين لبلدين احدث عهداً في آسيا الجنوبية الشرقية ، أي كوريا واليابان ، تساند مركزهما هذا تجارة لا تزال ناشطة . ولكنها تشكوان كلتاها من وهن داخلي هو النذير بالمحطاط قريب .

قسّمت الهند عملياً الى شطرين بفعل الغزو الاسلامي الذي سار في آسيا قبيل التوسع المغولي اندفاعه نحو الشرق وبلغ البنغال التي أكمل فتحها في السنة ١٢٠٢ . ولم تحمل الحروب الداخلية التي مزقت الدول الاسلامية الحديثة العهد وأفضت الى هزيمة الغزنويين امام الافغانيين الغوريين ، دون تقدم الفاتحين نحو الجنوب ايضاً . فانكفأت الممالك المحلية نحو « دكن » وتقامت شبه الجزيرة وانتقلت السيطرة من هذه الى تلك بحسب محالفة الحظ لهذه او لتلك في المعارك . اجل كانت المقاومة ضارية في وجه الغزاة ولكنها تأثرت بهذا الانقسام وهذه الحروب بين الاخوة .

وتجزأت الصين بدورها ايضاً بعد ان اعرض السونغ نهائياً عن استعادة ارث « التانغ » وآثروا في مدينتهم - المتحف « هانغ - تشيو » الانصراف الى الفن وعلم الجمال وعلم المعهولات . فخصمت كافة مناطق البلاد الشمالية للـ « كين » ، « الجورتشتات » الاذكياء الذين قوّضوا مملكة الـ « كيتات » وحققوا السيطرة عليهم خلال القرن الثاني عشر ، وبلغ منهم انهم هددوا عاصمة « السونغ » فترة من الزمن . وفي منتصف هذا القرن ، بلغ عدد العوام في الاراضي الصينية

ستا على الأقل : « تا - تنغ » في الشمال (جيپول) ؛ « لياو - يانغ » في الشرق ؛ « تا - تونغ » في الغرب ، بكين في الوسط ؛ كي - فونغ (تانكين) جنوبي مملكة الكين ؛ وهانغ - تشيو اخيراً ، عاصمة السونغ . وكان من شأن الصلح غير الثابت المعقود مع الكين ، الذين بقضوء تكراراً ، ان أتاح لهؤلاء السيطرة على اراض شاسعة قاست الامتريين من غزوات وحروب متتالية دامت قرونًا عديدة ؛ واذا انهمك بلاط السونغ بالمجادلات الادبية والفلسفية ، فان شعوب الشمال قد اختبرت الحياة القاسية التي تعيشها بلدان خاضعة لحكام لا يزالون برابرة .

كانت النتيجة الاولى لهذا الانحطاط المزدوج تحرر الدول الآسيوية الاخرى عملياً ان لم يكن نظرياً ، من سيادة الصين والهند . فسطع نجم الامبراطورية الخيرية آنذاك في عهد ولاية الملك « شورا فارمان » الثاني الكبير (حوالي ١١١٢ - ١١٥٢) ؛ اجل انه اغتصب الملك اغتصاباً ، ولكنه كان محارباً شجاعاً وادارياً لامعاً ضم اليه « سيام » الوسطى (مملكة لوبوري) الى مملكته ، وأرغم اليه « شيبا » على محالفة لهاربة « واي كوفيت » (امام) وشيد معبد « انفكورفات » المدهش ، وهو افضل طراز للمعبد . الجبل ، المكرس لـ « فيشنو » والمعدن لأن يكون ضريحاً ملكياً ؛ وفي كال هذا البناء وجمال زخرفته العظيم ما يجعل منه رائعة من روائع الفن العالمي . ثم سطع كذلك ، بعد كسوف نجم عن هجوم الشيبا ، في ايام جايا فارمان السابع (أواخر القرن الثاني عشر) ، ولعله أشهر ملوك كمبوديا ، الذي جهز المملكة وعاصمتها بأفصح معابدها ، وأنجز العديد من الاعمال المعمارية ، وأسس المستشفيات وسما بالسلطة الامبراطورية حتى ذروتها . وتناقصت بالمقابلة قوة الشيبا التي أفوض اندفاع « امام » نحو الجنوب الى « صرها » في الولايات الجنوبية من الهند الصينية ، فانكمأت التأثيرات الهندية ، بالعمل نفسه ، امام « حضارة صيدية » الطابع . على الرغم من هذا الوضع اليائس الذي جعل الشيبا تواجه التقدم الامامي في الشمال والقوة الخيرية في الغرب والجنوب ، نراها محافظة على نزعتها الى الحرب ومستمرة في شن الغارات ، براً وبحراً ، على كافة جيرانها . الا ان السيام قد بقيت محترمة ؛ فبينما توسع اليه « طاي » ، الآتون من الشمال ، حتى واسط البلاد الخاضعة آنذاك لسيطرة الخبيرين ، استطاعت مملكة « هاريبونجايا » الابقاء على حضارتها المونمية المتأثرة بالحضارة الهندية فأثراً حقيقياً . وانطأ في « بورما » سلالة الملوك العظيم الذين دفعوا بلادهم الى الامام في القرن الثاني عشر ؛ ولكن التقاليد الثقافية ، على الرغم من الغوص السياسية ، قد انصابت بفضل بوذية « الباب الصغير » التي كانت بورما مركزها المفضل . وبقيت الجزر اخيراً مقسمة الى ثلاث ممالك : مملكة « شيلندرا » سياد « كريفيجايا » وأتباع اليه « شولا » سياد الهند الجنوبية ؛ ومملكة « سورايا » (« جاغا الشرقية ») التي لا نعلم عن تاريخها سوى النزر اليسير ؛ ومملكة « قاديري » ، وهي أقوى هذه الممالك وأعظمها نشاطاً ، التي نعلم ان ثقافتها الهندية تخضع تدريجياً للتقاليد المحلية .

اما اليابان ، التي سبق ورأينا انها عاشت طوال قرون عديدة من المستوردات الصينية ، والتي كانت آخذة في العودة الى عبيريتها الخاصة في الحقل الفكري والفني ، فما زالت خاضعة لسيطرة

عائلة الـ « فوجيوارا » القوية . واذا ما سادها الاضطراب ، في القرن الثاني عشر ، بفعل
منازعات العائلات الكبيرة الطامعة بالسلطة ، واذا ما طرأت على السلالة الامبراطورية تبدلات
خطيرة ، واذا ما فرض نظام « الشوغونا » السياسي الجديد قوانين صارمة ، فان الانطلاقة لن
تتوقف الا في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، والاختلال الذي سببه هذا التوقف
سيحدث في الزمن حين يبرز خطر الغزو المغولي . الا ان هذه المرحلة هي ايضاً الفترة التي أخذت
فيها الصوفية « زن » ، وهي في اول عهدها ، تطبع الثقافة اليابانية بطابعها الخاص المميز .

يتضح من ذلك ان البذور التي ألقها الهند والصين في كافة البلدان الشرقية والجنوبية الشرقية
قد أنبتت حضارات جديدة - الخيرية - الجافانية واليابانية - وجعلت بعض الشعوب المتخلفة
تعي حقيقتها وطاقاتها . الا ان الهند والصين قد افتقرتا الى القوة اللازمة لبسط سيطرتها على
الشعوب المحيطة بها ؟ لا بل تعمس عليها مقاومة ضغط امبراطورية اسلامية تحركها عصبية
الحرب المقدسة وعالم بدو سائر في طريق التنظيم .

منذ العصور القديمة ، جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي
ماضي عالم البدو
البائرة الشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من اوراسيا . وقد انتسب هؤلاء
بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتيانية أي التركية المغولية . ولكن مساكنهم نفسها فرضت
عليهم ، منذ الوف السنين ، نمطاً حياتياً راعوياً اتسم بطابع بدائي غريب الى جانب الحضارات
المستقرة التي عاصرتهم . استهوت قبائلهم منذ القدم الاراضي الزراعية المتاخمة لبوراتهم فتجمعت
شيئاً فشيئاً واكتفت في فترة من الزمن بشن غارات صاعقة وحشية على جيرانها ، ثم تكتل عدد
كبير من هذه الجماعات بصورة مفاجئة وقام بغزوة رهيبة فرّ امامها السكان المزارعون الذين
تحولت مزروعاتهم الى مراعى على يد بدو رحل لا يهتمون الا لزواجلهم ومواشيهم . بهذا المد
والجزر وهذا الكر والفر قام تاريخ البلدان المتاخمة للبورات الاوراسية : البدو يسعون البورات
في الاراضي الزراعية ، والعلاحون يسعون اراضيهم الزراعية عند حدود البورات . الا ان نوع
حياة سكان الحدود ، وهو شبيه بحياة البدو ، واختلاط القبائل في الاراضي التي سلكتها في
تدقاتها ، قد سهلا الاتصال بين البدو الرحل والسكان المقيمين . ومع ذلك فان سكان البورات ،
الانماء لحياة العرسان والرعاة القاسية ، قد استهوتهم ثروة الحضارات المتطورة وتغلغلها . واذا
هم عندوا في تقويضها ، فان بعضهم قد تأثروا بسحرها وتكيفوا احياناً بحضارة المقيمين : فتصهين
البعض ، كما قول الكتبات ، الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين الشمالية
وجعلوا من بكين مقراً لهم ، وتأثر البعض الآخر بالحضارة الايرانية ، كالترك الـ « يوغور » ،
الذين اعتنقوا المازوية وتعلموا اصول الادب فغدوا المربين الحقيقيين للدول التركية - المغولية
الاشرى ورفضوا العودة الى الحياة البدوية .

لقد برهنوا احياناً عن اخلاصهم في محاربة الدول الكبرى التي ارتأت طلب مساعدتهم

أو أرغمت على طلبها ، ولكنهم كانوا في الغالب تهديداً خطيراً ودائماً : فقد أتلحت لهم خيولهم الصغيرة القيام بهجمات صاعقة ، ودرجوا على أن لا يتركوا وراءهم إلا الخراب والدمار ، فكانوا أعداء مرعبين . أجل لم يتوصلوا بعد إلى توحيد جماعاتهم القبلية المتشتتة في البورات . ولكنهم توصلوا إلى تأسيس إمبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقباً مطرداً على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية . وغالباً ما قوض فيها أقل الناس تخضراً الممالك التي توصل أكثر الناس تطوراً إلى تأسيسها . لذلك بات لزاماً علينا هنالقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ منذ غزوات القرن الرابع الكبرى التي بلغت امتداداتها أوروبا ، مع اتسلا ، والهند ، مع ميهيراكولا . ومن شأن هذه المعجالة أن تساعد على فهم نشأة عمل جنكيز خان وطابعه المميز .

في القرن السادس ، استقرت فيما بين الصين ومصاب الدون ثلاثة شعوب كبرى : الـ « جوان - جوان » في منغوليا ، من منشوريا حتى « طرفان » ، و « الهون الهناليون » ، من شمالي منطقة قراشهر إلى مرو ومن الآرال إلى البنجاب ، والهون الأوروبيون ، وهم من العرق التركي في الأرجح ، حول بحر آزوف ومصب الدون . إلا أن الجوان - جوان وهفتالي تركستان ردوا إلى الورا ، في السنة ٥٥٠ ، على يد الـ « تو - كيو » مؤسس الإمبراطورية البدوية الأولى التي عرفت تنظيمياً على بعض الاستقرار . أجل لقد انقسم التو - كيو إلى مملكتين تؤمّن امتدت أراضيها من منشوريا إلى خراسان وكان هذا الانقسام ، بالإضافة إلى فوضويتهم التقليدية مدعاة لضعفهم . وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة بينهم وبين بلاد فارس الساسانية التي التمسست ببنظمة مساعدتهم عليها فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه سلالة « تانغ » الصينية القوية سحق اخوانهم في منغوليا ، فبسطت حينئذ سيطرتها عليهم . ثم حلت محلهم إمبراطورية تركية أخرى هي إمبراطورية الـ « يوفور » الذين أقاموا إلى الجنوب من بحيرة « تينال » ، جاعلين من « قره بلغاسون » عاصمة لهم ، وسيطروا ، حول طرفان ، على شطر من تركستان . ثم غدا الـ « يوفور » أهل قرار وضعفوا بفعل تخضرم ، فانازعت عاصمتهم منهم في السنة ٨٤٠ ، على يد « الكرخيز » ، وهم من الأتراك الهنبيين . كان الـ « آفار » ، في هذه الأثناء ، قد خلفوا الهون في البورات الروسية وأقاموا بين الدنيستر والدانوب ، بينما استفاد الـ « شا - تو » من الأتراك المتصنين العائشين حياة بدوية حول « ها - مي » عند طرف البورات الأخير ، من ضعف التانغ ليستولوا على شمالي غربي الصين (٨٠٨) . وعادت منغوليا ، في عهد « الكرخيز » ، وحتى السنة ٩٢٠ ، إلى هجيتها الأولى ، بينما تمكن الـ « يوفور » ، على الرغم من ضعفهم ، من تثبيت أقدامهم في تركستان .

في أوائل القرن العاشر طرد الكرخيز بدورهم وأبعدوا على أيدي برايرة آخرين من العرق المغولي ، هم « الكيتات » . كان هؤلاء قد حاولوا ، لثلاثة قرون خلت ، التهرب إلى الأراضي الصينية ، ولكن التانغ ردوهم إلى الورا بضراوة ، فاستفادوا آنذاك من انهيار القوة الصينية ودخلوا بقيادة رئيس جريء وراء الجدار الكبير وأقاموا على العرش الإمبراطوري قائداً صينياً

فرضوا حمايتهم عليه ، فكان ذلك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في الصين التي ستتولى جماعاتهم فتحها . وقد دامت اقامة الكيئات زمناً طويلاً : فتصيّنوا وحملوا اسم « كين » (ذهب) الصيني ، وأغاروا تكررراً ، طيلة قرنين ، على حدود الصين الجنوبية دون ان يفقدوا شيئاً من طاقاتهم الحربية . ولهذا فان تاريخهم يختلف بعض الشيء عن تاريخ معاصريهم « المجرّيين » الذين سبق ورأينا انهم وصلوا الى اوروبا الوسطى في اواخر القرن التاسع وشنوا غارات مدمّرة ، وان متفرقة ، على بعض ربوع الغرب المسيحي قبل ان يردوا نهائياً الى سهل الدانوب ويستقروا ويعتنقوا الدين المسيحي ويؤلفوا بعد ذلك سوراً منيعاً للمسيحية في وجه الموجات الاخيرة لغزوات البدو المتدفقين على اوروبا . وفي الواقع اقام برابرة آخرون ، في عهد متأخر ، بين الفولغا وقزوين : ففي هذه الرقعة من الارض التي يتلاقى فيها البيزنطيون والعرب من تجار الفراء ، والتي لجأ اليها العديد من اليهود هرباً من اضطهادات الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكاينوس ، يبدو ان الخزر اعتنقوا الدين اليهودي . فردوا الى الوراء في السنة ٩٦٥ على يد امير روسي من « كييف » ، ثم سحقوا في السنة ١٠١٦ على يد الامبراطور باسيلوس الثاني ، ولم يتلاشوا نهائياً الا في السنة ١٠٣٠ . في هذه الاثناء ، نجح الاتراك الغربيون ، او القراخانيون ، في اجتياز دولة السامانيين الاسلامية - وهؤلاء ايرانيون سبق ورأينا كيف سيطروا سيطرة واسعة ، سريعة الزوال ، على البختيار ، ومنطقة ما وراء النهر ، وخوارزم وخراسان وسيستان - وانتزعوا منهم منطقة ما وراء النهر التي ضموا اليها قشغاريا فتركوها بأن نشروا فيها الدين الاسلامي الذي كانوا قد اعتنقوه .

بعد ثلاثي الخزر ، احتفظ « الكيئات » والقراخانيون بمواقعهم طيلة القسم الاكبر من القرن الحادي عشر . ثم ادمج القراخانيون ، حوالي السنة ١٠٧١ ، في الامبراطورية السلجوقية التي كان مؤسسوها ، المنحدرون من الاوغوز المقمورين ، قد اعتنقوا الاسلام ديناً : فانفصل تاريخهم منذئذ ، كما سبق ورأينا ، عن تاريخ عالم البدو ، مع ان ذهنيّتهم التركانية المتأصلة ستبرز تكررراً في تصرفاتهم . وفي الوقت نفسه ، اقام شعب تيبتي في « الاوردوس » و « الألاشان » ؛ فاخضع هؤلاء الرحل الآخرون ، الذين عرفوا باسم « سي - هيا » ، شمالي غربي الصين بينما احتفظ « الكيئات » بشمالها الشرقي .

خلال القرن الثاني عشر ايضاً ، جرت تنقلات الجماعات البدوية عند طرفي عالم البورات . ففي سهول روسيا الجنوبية ، حل محل « الخزر » « البشتنيك » الذين سبق وعلنا أي خطر شكلوه على حدود الامبراطورية البيزنطية من جهة الدانوب ، الى ان قضى عليهم الامبراطور يوحنا كومنينوس (١١٢٢) . ثم جاء « الاوغوز » الذين عاثوا فساداً بدورهم في البلقان وخلفوا ال « كبشاك » . وأحْدق الخطر من جهة ثانية بصين السونغ ايضاً ، اذ هُذِّمَها « الكيئات » في الشمال الشرقي ، و « السي - هيا » في الشمال الغربي . فكان خطأ الامبراطور « هواي - تسونغ » ، وهو شاعر افضل منه سياسي ، محاولة منه لاجراج الكيئات من بكين ، في الاستعانة

بال « جورشات » الذين تشدهم أو اصر النسب الى المنشوريين الحاليين. فلم يكتف انتصاف البرابرة هؤلاء بمنغوليا الداخلية ومنشوريا اللتين عينهما لهم « هواي - تسونغ » . فبعد ان قوضوا امبراطورية « الكيتات » ، الذين كانوا قد ركزوا الى التعقل والهدوء بعد ان تموتدوا الحياة الصينية ، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية مندفعين بمحلاتهم حتى بلاد السونغ التي لم يصدوا فيها الا بصعوبة .

شملت سيطرة الجورشات ، من ثم ، عند فجر القرن الثالث عشر ، وقبيل مغامرة جنكيز خان العظيمة ، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية ، بينما احتفظ البسي - هيا بالمناطق الشمالية الغربية . واقام الويغور ، بعد ان باتوا اهل قرار ، في واحات تاريم وكوكا ، وطرغان ، السقي يبدو ان ازدهارها قد تأخر بفعل تراكم الرمال . وعاش القراخيطةاط ، المتصينون والمتنصرون ، عيشة البدو الرحل في الشطر الاخر من تركستان ، من « ها - مي » الى « الآرال » و « خوجند » ، باسطين حمايتهم على المنطقة القائمة بين أعالي نهر ينيساي ونهر « آمو - داريا » . وحلست وراء هذا النهر ، امارة الخوارزميين ، وهم اتركاء اعتنقوا الاسلام ، محل السلاجوقيين في منطقة واسعة الاطراف ظمت ، بالاضافة الى خوارزم نفسها ، خراسان ومنطقة « كابول » وغزنة وبلاد فارس كلها حتى جيورجيا . اما شمالي الهند اخيراً فقد احتله الغوريون الافغان الذين تغلبوا على الغزنويين . وشمل العالم التركي كافة أنحاء الشرق الأدنى الاسلامي ؛ وتوسع الاتراك - المغوليون في روسيا والبلقان حتى سهول الدانوب .

هذه هي الفسيفساء الغربية التي كوّن بها السكان الرحل - وقد أمسى بعضهم اهل قرار - حين ظهر جنكيز خان : تنقلوا ثقلاً مستمراً منذ قرون ، دون ان يربط بينهم تلاحم حقيقي ، وأسسوا ممالك وامبراطوريات غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً. لم تموض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية ؛ تأثروا بالحضارة الصينية تارة والحضارة الارابيسية اخرى او بقوا امناء للتقاليد التركية - المغولية ، وامتدوا اتفاقاً ، بحسب ثقلاتهم المختلفة ، تارة الى البوذية او الكونفوشيوسية ، وطوراً الى المسيحية النسطورية او المانوية او الاسلام او اليهودية . كانت محالقاتهم سريعة الزوال ، ولم يتأثروا بتقدم الحضارات بل سافطوا في الغالب على عاداتهم الهمجية .

ان خضوع هذا العالم البدوي المتشوش لارادة جنكيز خان قد تكون الامبراطورية المغولية
أعد ، والحق يقال ، منذ زمن بعيد . لهذا القرن العاشر تحرر المغول ، بفضل تغلب الخيطاط على الاتراك الكرغيز ، من الوصاية التركية التي فرضت عليهم. منذ سقوط الجوان - جوان . اصف الى ذلك ان تأسيس امبراطورية القراخيطةاط في الربيع الاول من القرن الثاني عشر ، قد مثلت سلفاً ، على الرغم من ضعف رؤسائها ، موجة الغزوات البدوية الجديدة الطافرة قبل حصولها بمائة سنة : فهي الامبراطورية المغولية الاولى التي اقامت

بعيداً عن مناشئها الأصلية ، في منطقة هامة من الاراضي الخاضعة حتى ذاك العهد لجماعات من المقيمين .

ولكن قبائل مختلفة جداً ما زالت تتنازع البلدان المغولية حوالي منتصف القرن الثاني عشر : التتر ، والمغول بحصر المعنى ، والكوتنجيرات ، والاوريات ، والماركيت . وأقام ابعداً الى الغرب ، في رقعة غير محددة تماماً ، الكراييت الذين عاشوا عيشة بدوية واهتدوا الى اللسطورية منذ اوائل القرن السابق ، والنشيان ، ولعلمهم من اصل تركي ، الذين اعتنق بعضهم اللسطورية وبقي البعض الآخر أميناً للسامانية . واذا حقق الكراييت والنشيان ، كما يبدو ، بعض مظاهر الحضارة اللسطجية ، فان مجموع البلدان المغولية قد استمر منذ سيطرة الكرعيز في حالة همجية ظاهرة . ليس هناك من مجموعات سكنية كبيرة ، ثابتة او متنقلة ، محاطة بالاواد ، على غرار « مدنت » « الوينور » او « التو - كيو » ؛ بل دساكر حقيرة ومعسكرات تتجمع فيها بعض العائلات او تقيم فيها عائلة واحدة في اغلب الاحيان . فتفسخ المجتمع ، المبني على القبيلة وفروعها ، حتى عاد الى مستوى العائلة . ثم تمكنت العائلة نفسها ايضاً بفعل الفوضى السائدة .

ارتسمت عند أكثر هؤلاء البدو الرحل تأخراً ، في منغوليا الداخلية ، بعض محاولات التوحيد على ايدي حدود جنكيز خان أنفسهم . فقد جمع احدهم ، المدعو قايدو ، عملاً بطريقة اعتمدها الفاتح فيما بعد ، حول قبيلته الخاصة ، - البرجيين - العائلات التي طلبت حمايته فأسس بذلك « المملكة » المغولية الاولى وأسند ادارتها الى حفيده « كابول » الذي خلفه ابن عمه « امباكاي » ، ثم ابن هذا الاخير ، كوتولا . اشتد ساعد المغول شيئاً فشيئاً فأقاموا علائق صداقة « بالكيئات » ، أبناء جلدتهم المتنصنين والمتحضرين . ودعي كابول الى بلاط بكين الامبراطوري فأدهش ضيافته ، الذين لم يشتهروا برقتهم ، بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة . ولكنه ، على الرغم من الهدايا التي أسبغت عليه ، قد تحسب لكين ينصب له ، وامر فجا بصد بتقشير موفدي الامبراطور وانقلب على الكيئات الذين لم يقاوموه ، بسبب انشغالهم بمعاربة السونغ ، المقاومة ضعيفة ، ونخلوا له اخيراً عن بعض المراكز المحصنة في شمالي النهر « سي - بنغ » وتمهدوا له بتقديم خراج سنوي من الابقار والاغنام والحبوب (١١٤٧) . ثم تخاضم المغول وأشقائهم التتر ، فتحالف التتر والكيئات وأحرزوا عليهم نصراً سريعاً ، فزال « الملكية » المغولية في الصراع وعادت القبائل والحزاب الى تجزئها الفوضوي .

في هذا التاريخ تقريباً (١١٦٧) ، أبصر جنكيز خان النور في سرادق العائلة المنسوب على ضفة نهر « الاونون » اليمنى . كانت أبوه « ياسوغي » ، وهو ابن شقيق الخان « كوتولا » ، رئيساً على فئة « الكيئات » في قبيلة البرجيين ؛ وكان قد اختطف زوجته من بلاد « الماركيت » . حارب التتر الى جانب عمه وقتل احد زعمائهم ، « تاموجين - اوغا » حوالي السنة ١١٥٥ ، ثم تدخل في خلافات الكراييت الداخلية وفاز بصداقة خانهم طغريل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه .

أطلق على بكر أبنائه الاربعة اسم « تاموجين » تخليداً لذكرى انتصاره على الزعيم التتري . ولكن النية قد أدركته ، على اثر سم دسه له التتر ، حين لم يتجاوز تاموجين سنه التاسعة . فانترعت مواشيه من ارضه وأبنائه القصر الذين آلت حالتهم الى البؤس والشقاء . اما تاموجين فقد التجأ ، بعد طفولة قاسية وغير مستقرة خلقت فيه جلدأ نادراً ، الى حليف ابيه ، خان الكراييت الذي جعل منه صاحب اخاذه تابعاً له . واثاح له ذكاؤه العملي الفطري ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشؤون العائلية ، ثم محاولة تجديد الملكية المغولية لمصلحته ، وحل لقب الخان ، الذي لم يحمله ابوه . هلمت له القبائل التي جمعها حوله فاختران لنفسه (١١٩٦) اسم « شنكيز خان » الذي جعلنا منه جنكيز خان . استمر في استغلال تحالفه المجهدي مع طغريل ، فنظم حملة على التتر ، تلبية لطلب الكيئات ، مما اثاح له جني الالقب الشرفية الصينية ، ثم اقتص من اعدائه الشخصيين ، واخضع العديد من القبائل المجاورة لسلطة الكراييت . الا ان تعاضل قوة طغريل قد اثار بعض الانتفاضات ولا سيما ثورة بعض القبائل المتحالفة بقيادة رئيس نودي به امبراطوراً (غور - خات) على منغوليا . ولكن الغلبة تحققت في النهاية لجنكيز خان الذي سنده طغريل . فهزم واخضع ، على التوالي ، « التايشوت » - الذين تشدهم اواصر سب الى قبيلته - والتتر (١٢٠٢) ، والماركيت ، والعديد من جماعات اخرى دونهم شأنًا . لس حينذاك من نفسه القدرة على الانقلاب على الكراييت ، الذين قبلوا بالخضوع له ، بعد ان قتل طغريل ، على الرغم من انتصارهم عليه في معركة ضارية . ثم جاء دور النيان الذين استتبعت هزيمتهم خضوع « الاويرات » ، والماركيت ، « الملشقين » والكرغيز (١٢٠٧) وغيرهم .

بعد ان توحدت منغوليا كلها تحت سيطرته ، تولى جنكيز خان ، الذي نودي بها خاناً اعظم (كاهان) ، تنظيم الدولة والجيش وباشر فتح الدول المتحضرة . بدأ بالصين الشمالية ، مهاجماً السي - هيا (١٢٠٩) أولاً ، وشانناً بعد ذلك حرباً على الكيئات ستدوم خمساً وعشرين سنة . وقبل ان ينجز احتلال الصين الشمالية ، اندفع غرباً ضد القرا - خيطاط (١٢١٨) وخورازم (١٢٢٠) ، ضاماً الى سلطته كافة المناطق الخاضعة لرقابة هذه الامارة الاخيرة : مناطق ما وراء النهر ، وافغانستان ، والقسم الاكبر من ايران . وارسل اثنين من خيرة قواده الى المناطق القزوينية ، فاجتاحا جيورجيا واذربيجان واحرقا مدينة همدان ، واصطدما « دالين » شمالي القفقاس ، واخيراً هزما « الكبشاك » (١٢٢١) وامير « كييف » (١٢٢٢) .

اسس جنكيز خان ، في اقل من عشرين سنة - فهو قد مات في السنة ١٢٢٧ - امبراطورية شاسعة امتدت من بكين الى الفولغا . ثم جاء ابنه الثالث ، « اوغداي » ، الذي كان قد عينه خلفاً له . وتابع بدوره توسيعها ، فانجز القضاء على الكيئات في مناطق الصين الشمالية الشرقية ، وفتح كوريا ، ودخل في حرب طويلة الامد ضد السونغ سيچني ثارها خلفه الثاني ، وتولى استعادة بلاد فارس الغربية التي كان قد انتزعها ورثت الامبراطورية الخوارزمية . وبلغ بعض

قواده في اندفاعهم ، جيورجيا وأرمينيا ؛ وارسل غيرهم ضد أوروبا : فان بلغاريا وروسيا الجنوبية واوركانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا ، وحتى شواطئ الادرياتيكي ، قد عرفت على التوالي ، بين السنة ١٢٣٦ والسنة ١٢٤٢ ، اعماهم التخريبية وقساواهم السقي لا توصف . اجل ، لقد حملتهم وفاة اوغوداي والتنازع على خلافته على الارتداد الى الورا حتى الفولغا ؛ ولكنهم كانوا قد وسعوا الامبراطورية حتى ابواب أوروبا الوسطى .

وحالت مدة ولاية الخان غويوك القصيرة (١٢٤١ - ١٢٤٨) دون تحقيق فتح الدول المسيحية ، وهو مشروع قد راوده كما يبدو . ثم انصبت جهود الفتح المغولي من بعده على الشرق الأقصى . فتولى ابن عمه « مونكا » (١٢٥١-١٢٥٩) في الدرجة الاولى امر اصلاح ادارة الامبراطورية ؛ الا ان عمله لم يحل دون تفسخها بعد وفاته . وانهى اخوه « كوبيلاي » الحرب ضد السونغ ؛ وتخلى المغول هذه المرة عن الاساليب التدميرية العزيزة عليهم ونهجوا نهجاً جديداً نظموا بموجبه البلدان المحتلة تنظيمياً منطقياً وحجوا الزراعة ودرسوا المعاضل الادارية الاجتماعية . وبعد انهيار السونغ نهائياً في السنة ١٢٩٧ ، اسس كوبيلاي ، وهو اول اجنبي سيطر على امبراطورية عمرها ١٥٠٠ سنة ، سلالة « يوان » وتبنى سياسة اباطرة الصين التقليدية . فاجب على اصحاب الاختاذات الذين كانوا خاضعين لهذه البلاد ان يخضعوا له ايضاً ، ووطد السيادة المغولية على كوريا ، وحاول تكرار الاستيلاء على اليابان ، ولكنه اضطر للمدول عن مشروعه بعد ان اغتفى احد الاعاصير افراد فرقه الغازية افناء تاماً . ولم يكن اوفر حظاً مع انام وشبها اللتين فرض عليهما - وعلى بورما ايضاً - حيازة غير ذات اثر تقريباً . وتوفى ملك « قاديري » بفضل الحملة التي وجهها على جافا في السنة ١٢٩٣ الى اللقاء بالغزاة في البحر ، فتعاظمت قوته بعمل الانقاذ هذا واسس امبراطورية « ماسا باهيت » .

كان واضحاً من ثم ان الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى ؛ وكانت الحروب الاهلية ، من جهة ثانية ، قد اندلعت في منفرليا نفسها ، فاضطر كوبيلاي الى تأديب ابنائه بجلده حتى يعيدهم الى النظام . وقد اصبحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات . اجل لقد بقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير المقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل « ولاية » اسند الى خان ايضاً ؛ فقد حكم بلاد فارس ، مثلاً ، هولاكو ، اخو كوبيلاي ، (١٢٥٦ - ١٢٦٥) وافراد ذريته من بعده .

لم تخضع الحضارة ، على ما نعلم ، خضوع حضارة المغول للمستلزمات
 مميزات الحضارة المغولية الجغرافية والاقليمية . فكانت اقامتهم في البورات الشاسعة عرضة لتبدلات قصوى في حالة الطقس ؛ ربيع قصير ، وصيف شديد الحرارة والجفاف وشتاء شديد البرد ؛ وكسحت هذه المساحات ارباع عاصفة لا تصادف في طريقها ما يعيقها . فكان هذا المناخ القاسي قيناً بتدوية صعبة الاقوياء ، وبالقضاء على السقماء في سن مبكرة . ولا عجب من ثم

اذا كان الشئ المغولي، سواء اقام في البورات ام في الغابات ، شعباً جليداً قوي الشكيمة . وكان طبيعياً ان تفضي حياة القناصين الشطفة ، في مداخل الغابات ، او الرعاة في قلب البورات ، الى تطوير الاجساد وفقاً لمقتضيات البيئة : جذع ضخم وقفص صدرى نام فوق سيقان قوسها ركوب الخيل ، بصر حاد ، ورشاقة عظيمة . يأكلون اللحوم ويستهلكون الالبان ويميلون الى احتساء المسكرات . يتميزون بالمرح والشجاعة ، وبوحشية لا توصف احياناً ، ويبرهنون في الغالب عن ذكاء ودهاء وحتى عن قابلية للتقيد بالقوانين .

تألفت معظم القبائل من الرعاة . اما القناصون ، الذين يحتقرون الرعاة ، مع انهم دونهم تحضراً ، فلا يمتلكون ماشية وخيولاً ، بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعات اليدوية ، كالنجارة والحداة . يحتذون النعال الخشبية (شانا) شتاءً ويتكأون على عصي طويلة للسير او التزلج على الثلج ، ويحتسذي بعضهم نعالاً من العظم الصقيل تساعدهم على التزحلق على الجليد واللحاق بالحيوانات . يبنون اكواخهم من اغصان الشجر ويغطونها بقشور شجرة تعرف بالبتولة ، ويستطيعون نقلها جاهزة على العربات .

اما القبائل الراعوية ، فمرغمة ، بحسب تقلبات الطقس في البورات وحالة المراعي ، على انتجاع الكلاً دورياً وعلى العيش عيشة بدوية . في الشتاء ، تنزل القطعان الى البورات حيث المناخ اقل برداً وتبقى فيها طيلة اشهر الربيع لان اعشاب البورات آنذاك خير ما تأكله الماشية ؛ ثم تعود في الصيف الى منحدرات الجبال حيث المناخ اقل حرارة . ولاجل هذه الجولات الطويلة يصمم كل شيء في المساكن الوقتية من زاوية سهولة الانتقال . تنضد العربات في دائرة فتؤلف سوراً . اما المظال ، التي غالباً ما تبقى جاهزة فوق العربات ، فولى نوعين : بعضها (جير) مستدير ومصنوع من لبد ويركب على هيكل متحرك من قضبان والواح خشبية حول قضيب وسطي يعتبرونه مقدساً ؛ ويثبت في اللبد اندوب صغير للتهوية وتصريف الدخان ؛ والبعض الآخر (ميخان) عريض وقليل الارتفاع ويغطى بالصوف ، بينها تمتاز مظلة الرئيس بلونها الابيض او المذهب .

تجهز العربات الخشبية بحملين كي تنقل ، بالاضافة الى المؤن ، بعض الادوات البدائية كالارعية الخشبية ، والقدور ، والدلاء الجلدية ، والقرب ، والمنافخ ، وقفطى بلبد اسود يمنع تسرب المياه ، ثم تجرها الثيران فتصر وترتج في سيرها على الطرقات . تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيراً على الاقدام . ثم تليها القطعان التي يحيط بها فرسان يمتطون جياداً صغيرة متشعبة الرؤوس مجهزة بسروج جلدية ليست دون ممتطيها حياة ونزقا . ويختلط في القطعان ، التي تهيجها النمر ، الاحصنة والافراس والثيران والعجول والابقار والكلاب الداجنة والاغنام والنماج وحتى الابل احياناً .

لا يتقيد المغول بنظام معين في مأكلهم بل ينتقلون ، شأن كافة البدو الرحل ، من التقدير الى الافراط في تناول الطعام . فكل عيد وكل حدث سار مناسبة لاقامة الولائم . يتغذون من لحم

الحصان او الضأن مسلوفاً او مشوياً ، واللبن الخائر (ترك) ، والثوم والبصل ، ونوعاً من الزبدة المضروبة في أوعية خشبية بواسطة عصا مجهزة جزئياً بقطعة من جلد ؛ اما اذا مسّت الحاجة ، فإنهم يكتفون بالغبيراء والعنبيات البرية والجذور الصالحة للأكل . يثملون باحتساء لبن الفرس المختمر (كوميز) ، الذي يحرصون على التزود بسنه اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية . تشعل نيران المعسكر بالزناد وتضرم بالمنافع وتغذى بالاختاء المجففة والاشواك والجذور . قبيل حلول فصل الشتاء ، تنحر الاغنام وتدخر لحوماً مبردة ، ويحفظ كذلك الحليب المجفف المسحوق . ولا يتوفر الطمحين الا للقبائل التي تعيش حياة البدو الرحل على طرق القوافل ، كقبيلة « الماركيت » مثلاً .

ومن حيث هم رجال حرب وقناصون وصيادون ورعاة ، فقد اتقنوا استعمال القوس والسهم ، الموضوع في حقيبة جلدية واحدة شبيهة بتلك التي اعتمدها الغز ، والسيف المعقوف ، والرمح الحديدى . يتعاونون منذ الطفولة على صنع الاقواس والسهم من خشب شجر الدراق او العرعر ويجهزون بها برؤوس من المعظم أو من خشب الشربين . ويجهزون بعض السهم برأس حديدي رهيب يحصلون عليه لدى حدادي قبائل الغابات ويطلونه بالسّم احياناً . اما الطرائق التي يمتدونها في القنص فهي التالية : اخراج الحيوانات من مخابثها ومحاصرتها قبل القضاء عليها ، الاستمانة بالبيزان والشواهين والصقور لقنص الطيور ، استخدام الوهق في قنص الحصان البري والحمار البري والكبش ، او اللجوء الى الجياد والاقواس في مطاردة الايائل والاعوال والظباء . يعرفون كيف يخرجون الذئب من الارض بواسطة اداة حديدية وينصبون الشرك للحيوانات ذات الفراء ، ويطردون الذببة من مأواها ، ويصطادون بالشباك اسماك البهيرات والانهار ، وتساعدهم في القنص ، كما في الحرب ، كلاب مشهورة بشراستها . فوق المعسكر تحلق أسراب من غرابان الزرع ، وتطوف حوله ، ليلاً ، الذئاب والثعالب وحتى الثعالب .

بعد اقامة المعسكر لقضاء الليل ، ينظم العسس حول النيران ، يلعب العسيس بالكماط او يصفون الى الروايات التي يتناقلها اهل البورات . ويتحول المعسكر ، في مكان الاقامة الفصلية ، الى « مدينة » فيتألف حينذاك من دوائر عربات عديدة ، تنصب المظال في الارض ، وتؤلف مظال الرئيس وحرمه ، على بعض المسافة من المظال الاخرى ، قصراً بدائياً يرتبط به ، بالإضافة الى الخدام والمبيد الكثيرين ، قطيع خاص ومراع خاصة . ينصرف المغول ، في اوقات فراغهم ، الى صنع اللبد والسيور والخبال والسروج وعدد الخيل والجمال والاسلحة والهيكل الخشبية للمظال والعربات ، ويمدون اشيراً الجلود والفراء .

يعترف تاريخ اليونان السري « بان رائعة كريمة تنبعث من الملابس السوداء اللون التي يرتديها المغول » ، ومرد ذلك الى انهم يغطون اجسامهم بالجلود والفراء الى ان الاغنياء بينهم يغطون معاطفهم الشتوية بجلود السهامير والثعالب والقواقيم والسنجاب ؛ فهم لن يرتدوا الحرير والمنسوجات المصنوعة في فصل الصيف قبل ان يفتحوا بلاد الصين . يرسل الفتيان والفتيات

شعورهم ويتكونها تتدلى على آذانهم . ويحز الرجال شعر رؤوسهم ما بين الاذنين ويحلقونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة اصابع بين هديين ، ويحذلون ما تبقى منه ويمقدونه وراء الاذن محتفظين بذؤابة تتدلى فوق الحاجبين . وتتمتع النساء المزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيتين ، يغطيها احياناً بقمش صوفي ، او حريري ، للدلالة على الثروة ، وتنتهي القبعة بذيل طويل شبيه « كيو تشانغ - تشون » (١٢٢١) بالاوزة او ذكر البعل .

كان هؤلاء المحاربون الجسورون الرواغون في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد الحيوانات المفترسة او القبائل المجاورة وكانوا يترصدون مجيء العدو الذي يعلمون به اذا ما رأوا غنائم الفبار ترتفع في الافق او الصقوا آذانهم بالارض . ويجتمع هؤلاء الفرسان حول راية الحرب التي ترافقهم في كل المعارك والتي هي لهم موضوع عبادة . يعتمدون على مطايا ليست دونهم قوة - تحملي باعشاب البورات - ويعرفون كيف يدارونها ، ويستطيعون الحصول منها على اكبر مجهود ممكن اذا ما استعملوا معها السياط : فالحصان رفيق الانسان ، وتضفي عليه الروايات المغولية شخصية حقيقية . يتدرع المغول ، للاعمال الحربية ، بلباس وقاية من الجلد المسلوق ، وينقضون على الاعداد انقضاض الصاعقة ، ولا يترفقون بالحياة البشرية . وهم بالاضافة الى ذلك نبالون مخيفون ، بل « امهر التبالين المعروفين في العالم » كما يقول ماركو بولو . تتحلى جيوشهم المتعددة حياة الصحراء ، بقدرة نادرة على تحمل المشاق وتكتفي بلبن الفرس ، الذي يشربه الفرسان من القرب المعلقة بالسروج ، والمنيبات البرية ، والطرائد التي يقتنصونها في رحلاتهم . يسهرون وينامون على صهوات خيولهم ، ويقطعون مسافات طويلة دون توقف . ويستطيعون اذا ما نفذت مؤنهم ، تأمين معيشتهم لمدة عشرة ايام ، بامتصاص دم جياهم ، التي يفتحون احد عروقها ثم يشدونه بمشاقرة الحرير او الكتان ، او باذابة بعض الحليب المجفف في قليل من الماء .

يعتصمون ، اذا ما فوجئوا بهجوم ، وراء عرباتهم الخففة بالدغال : او يهربون ويرشقون مهاجميهم ، اثناء هربهم ، بالسهم ، لانهم يتقنون الالتفات نحو ردف جوادهم السائر بهم بسرعة : وقد اهتمد الفز والفارتيون هذه الطريقة الخفيفة من قبلهم . يلجأون بسهولة الى خدمات الجواسيس والجنود الملتصقين بهم من الاعداء ، ولا يرون في الحرب سوى ظرف للتفتيل والسلب والنهب . يخضعون الاسرى لاعذبة وحشية : ولا يستفيد من عقوبة الموت خنقاً ، بدون اراقة دماء ، سوى اولئك الذين يكونون لهم بعض الاعتبار ، لانهم يعتقدون بان الروح تقيم في الدم . ولما كانوا ، شأن كافة البدو الرحل ، لصوصاً ونهابين وقطاع طرق ، فانهم يأتون باستمرار اعمالاً ثائرة لا يكفر عنها ، مبيدين هائلة بكاملها دونما تبكيت ظمير ، مستولين على المواشي ، مخربين المواد والادوات ومضرمين النار في مراعي اطراف النزاع المغلوبة على امرها . وتوزع غنائم الحرب ، شأن الطرائد المقتنصة ، بين الرؤساء والقادة والمحاربين .

المجتمع البدوي ، في هذا العالم المهدد بالخطار ، خضوع المجتمع البدوي ، الى تسلسل سلطة منظمة جداً يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المتحددة من جد واحد التي يعتبر جميع اعضائها بان ما يجمعهم هو صلة النسب الشرعي . يحظر من ثم اختيار الزوجة من التكتل نفسه ؛ ولما كانت صلة القرى من جهة الاب قد شملت ، بسبب المتفرعات العائلية ، عدة تكتلات مجاورة ، توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا جد مشتركاً بينها وبينهم ، والتي غالباً ما تكون مع مواشيها في مراعي نائية جداً ؛ وغالباً ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذي لا تشدهم اليه اواصر القرى . ولذلك فان العناية تبذل في نقل حقيقة روابط النسب ، شفهيًا ، من جيل الى جيل . ويرافق هذا الزواج من الغريبات تعدد الزوجات ايضاً ، الا ان الزوجة الاولى تعتبر ابدا الزوجة البكر او الزوجة الرئيسية . اختطاف الزوجات عادة دارجة غالباً ما تؤدي الى اعمال ثأرية . وقد يحدث ان يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات - ويكون اذ ذاك تكلمة مفيدة للتحالف بين التكتلات - ، فاما يهب الآباء ابنائهم قبل سن البلوغ بزمان طويل ، فيذهب الخطيب في هذه الحالة ويعيش في عائلة عروسه ، واما يتفق الياق مع اهل الفتاة فيبادلها الهدايا - عجل او جلود سمير سوداء - ويدفع لها فدية ، في حين تقدم العروس ، بالاضافة الى مهرها وخدماها ، هدية تعدها والدتها لحماة ابنتها .

العائلات كبيرة ابداً ، وولادة الصبي حدث سار جداً ؛ يطلقون على المولود الجديد اسم اول شيء وقع عليه نظر امه بعد الوضع ؛ ثم يسبقون عليه بعض الهدايا : دثار ، وفراش من جلد السامير ، وقمط مبطن بالفرور . كل الاولاد ، حتى اولاد النساء الثالويات ، يعتبرون شرعيين ، ويعاملون معاملة الاخوة والاخوات ويربون معاً تربية واحدة . يضاف اليهم اولاد بالتبني من الايتام ، والمخذولين ، والمفقودين ، وحتى من ابناؤ الزنى ؛ بيد ان ابناؤ الزنى الذين يشكبه بانهم ينحدرون من اب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذباح ؛ وطبيعي انهم يقصون عن التكتل ، فيرغمون في اغلب الاحيان ، على تأسيس تكتل آخر . ولكن الاولاد المتبنين ، وان كانوا غرباء عن التكتل قانوناً ، يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الاولاد الشرعيون .

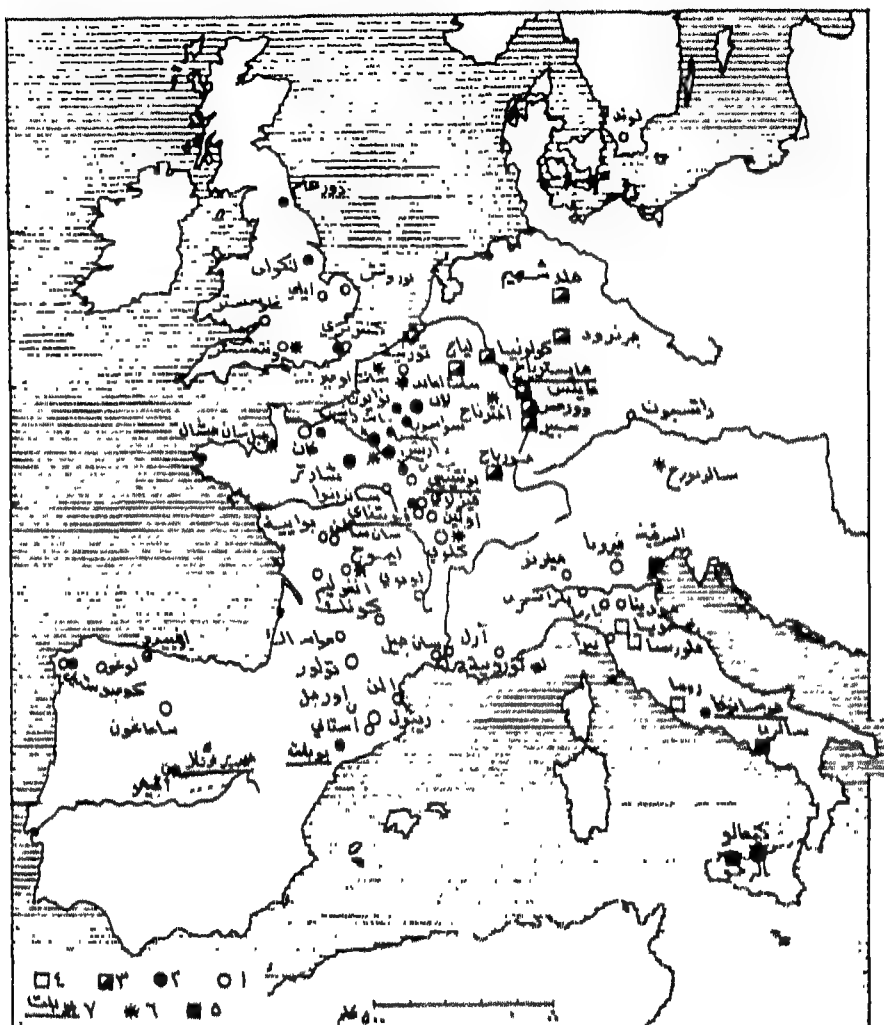
يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم . الا ان الابن الثاني وحده ، حتى بعد زواجه ، يبقى في خباء ابيه ، لانه هو الذي يصبح ، بعد وفاة ابيه ، حارس الدار ، ويرث خبائه وزوجاته والادوات والمواد والمراعي المائدة له . ويتقاسم الآخرون ما تبقى من الاملاك ؛ اما المتبنون فلا يصيبهم سوى قنوة وضبعة ، ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى عبادة التكتل . وغني عن البيان ان كثيراً من البدو ، حتى في الطبقة الارستوقراطية ، يؤولون الى الاملاق ولا يستطيعون الحصول على نصيبهم من الارث اذا لم ينتزعوه بالقوة من انسابهم الاغنياء الجشعين .

ان للنساء ، اللواتي تعود الاعمال المنزلية اليهن ، دوراً عظيماً جداً في هذا المجتمع : فمن ينصبن ويفككن المظال ؛ ويقدن العربات ويحملن المواشي ويضربن الزبدة ويمددن الحليب الجفف ويساعدن الرجال في اعداد الجلود وصنع الاحذية وجمع اللبد ويشترين بالمعاينة كل ما هو ضروري للمنزل ، ويرافقن القادة احياناً في الحروب ويقمن ابان المعركة باعمال الرجال . ولذلك فان هؤلاء كثيراً ما يطلبون مشورتهم ؛ وقد حفظ التاريخ اسماء من كان لهن اثرهن في مقررات بعض القادة . يضاف الى ذلك ان الامراة ، بعد ترملها ، تؤمن الوصاية على اولادها القصر ، وتتصرف تصرفاً مطلقاً بمتلكات العائلة ، وتتولى ادارة المعسكر وتقوم المحاربين احياناً . وقد تقوم اخيراً ، عن طريق اقسام اليمين ، بعض الاخوات ، خارج نطاق العائلة ؛ فقد يحدث ان يعقد رجلان ، ينتسبان على العموم الى تكتلات مختلفة ، اتفاق صداقة يوطده بالضرورة تبادل الهدايا ويمتثل به بوليمة ورقصات طقسية ؛ وبعد ان يسبعا « اخوين بحلفين » ، يلزمان بتبادل المساعدة في شتى الظروف .

يتألف مجتمع المغول الرجل من اربع طبقات متميزة : النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية
الارستوقراطية الحاكمة ، والرجال الاحرار او المحاربون ، وعامة الشعب ، والعبيد الذين يشملون ، الى حد ما ، الخدام والصناعيين اليدويين . يختطف العبيد من تكتلهم اثناء حرب سائرة او غزوة يسلب فيها الفتيان والحياد على السواء ، وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهون انفسهم لتكتل غير تكتلهم ، او بعض ابناء عامة الشعب الذين يقدمهم آباؤهم لأحد القادة او احد المحاربين اعترافاً بخدمة مؤداة . يصبحون كلهم جزءاً من املاك العائلة التي تقتنهم ، ويوزعون مع الاملاك او يدخلون في مهر الفتيات ويرافقون عند ازواجهن . عودتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق . وقد يحدث ان تستعبد قبيلة كاملة اذا ما غلبت على امرها ، بنا تخضع قبائل اخرى ، بل ارادتها الى قبائل اعظم شأناً . حياة العبيد قاسية ، ولكن عملهم لا يختلف قط عن عمل الخدام الذين ازداد عددهم بازدياد ثروة الارستوقراطية .

تتصرف عائلات عامة الشعب بمتلكات فردية ما عدا المراعى وربما القطعان فهذا يختلف عليه . المشتركة بينها في التكتل . ويرجح انها ملزمة بتقديم بعض الخدمات والاغاوات للقادة . المحاربون او « الرفاق » ، وهم شبيهون بمطوعي الجيوش الجرمانية ، يأثون عادة من تكتل غير التكتل الذي يدخلون في خدمته ، دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم . يمثلون بالطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي ويرتبطون بزعيم التكتل او بالنبل المتحكين باتباع كثيرين ، ولكن لهم الحرية في ترك خدمتهم والانتقال الى تكتل آخر دون ان يتهموا بالخيانة . يولعون بحرس السيد الخاص وينفذون بهذه الصفة المهام الخطيرة الفجائية ، فيختطفون اجل نساء القبائل المجاورة ويستولون على الخيول ويسرون بها نحو المعسكر ، ويشتركون في المعارك ؛ يعينون قادة على جيش التكتل الذي لا يحند الا في حالة الحرب . يستخدمون كذلك مندوبين

وسفراء وموظفين اداريين ، ويتحولون ، بعد اعساده السلم ، الى خدام ويدخلون في حاشية الزعيم الذي قد يفدون مستشاريه واصدقائه الخلف والذي يتوجب عليه حمايتهم على كل حال : فهو ملازم باسكانهم واعالتهم واكسائهم وتسلبيهم ، ومضطر بالتالي الى شن المزيد من الغزوات .



الشكل (رقم ١١) - الفن في العرب (١٠٧٥ - ١٢٠٠)
 ١ - الفن « الروماني » ٢ - الفن القوطي ٣ - التقليد الكارولنجي ٤ - التقليد الروماني
 ٥ - القابض البيزنطي ٦ - مصانع زريق الخطوط ٧ - الابلية السيسترية

وتضم الارستوقراطية اخيراً العائلات ، المتماوتة الثروة ، التي توصل زعيمها ، بقوته او مهارته او بصيرته او ثروته ، الى فرض قبوله في فئة المقتدرين . تستطيع هذه العائلات ، بقيادة زعمائها ، التمتع بمزيد من النفوذ بارتفاع عدد مؤاكلتها وزينها ؛ فتتزع من ثم الى الاستقلال عن التكتل ، والانفصال عن الذين يضايقونها ، وجمع كل من قد يعود عليها بالفائدة حول زعيمها ،

مشمّبة بذلك تركيب القبيلة . فهي قد شعرت ، قبل ان يحقق جنكيز خان توحيدها تحت سلطته ، بضرورة الاتحاد تحت قيادة الزعماء الذين يختارهم مجلس القبيلة لفترات معينة ، كالحرب والصيد المشترك مثلاً ، والذين لا يمكن من ثم ان تصبح سلطتهم وراثية .

يؤلف مجموع التكتل ، من الزعيم حتى العبيد ، وحدة وثيقة العرى ، عرفت باسم «اولوس» الذي يعني على وجه التقريب «القرابة» او «الملك» . ويمتلك ارضاً (يورت) تسرح فيها قطعانه ويتقوت هو بما هو ضروري لحياته ، ولا يعرف من انواع التبادل سوى المقايضة البدائية . للزعيم يعود امر معرفة المراعي المخصصة للتكتل وحدود اراضيه ، وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكر ، وتعيين الطرقات الواجب سلوكها او تجنبها وادارة عمليات القنص لتوفير المواد الضرورية لأود التكتل .

منذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقام الخان الأعظم ، النظام الاجتماعي في ظل الامبراطورية توطد التسلسل الاجتماعي ، ولكنه ارتدى في الوقت نفسه طابعاً اقطاعياً : غدت الامبراطورية « الاولوس » المغولي ، و « الشعب - الدولة » ، كما غدت تراث التكتل الامبراطوري . وغدا افراد هذا التكتل ، وكلهم أنساب الامبراطور امراء امبراطورين ؛ فجلسهم هو الذي ينتخب الخان الأعظم ، ولا يحق لأحد سواهم ان يعين خليفة للامبراطور . يطعمون ايضاً في امتلاك « اولوس » خاص بهم ، ويصبحون بذلك اصحاب الأخاذات الكبرى في الامبراطورية ، ويخضعون ، حين التنصيب ، لواجب السجود تسع مرات على ان تمس جبهتهم الارض كل مرة . اجل للخان الحق في ان يسلم كل او بعض تراثهم الذي هو عظيم جداً على العموم : جمهور كبير من السكان ، الاراضي الضرورية لتجولاتهم ، وخصوصاً المداخل الضرورية لتعهد المنزل الاميري التي توفرها الأتاوات المفروضة على اهل القرار في البلدان المحتلة حديثاً . وتوزع هذه « الاقطاعات » من جهة ثانية دونما نظر الى التجمع الجغرافي لأن الامبراطورية ، بحسب ذهنية البدو ، واحدة لا تنجزأ .

توزع الاقطاعات ايضاً على خدام الامبراطور الأمناء ومرافقيه وعلى الارستوقراطيين والمحاربين المتفسيين وراء الامراء الامبراطوريين الذين يحملون جيمهم اسم الزعيم (نوايان) : وتتألف الاقطاعات من بعض العائلات وما يعود اليها من مراعي؛ وقد تصبح هذه الاقطاعات «اولوس» اذا ما امتدت وتوسعت . يقيم المستفيدون من هذه الانعامات في وسط أتباعهم ولكنهم يستمرون في خدمة زعيمهم مع الجندين الذين يخضعون لارادتهم ؛ واذا هم ألزموا بالخراج وبوضع مجنديهم تحت تصرف الامير الامبراطوري وباحتفال التنصيب امام الامبراطور ، فان لهم ملء السلطة على مرؤوسيههم ، وينظرون في الدعاوى ، ويوزعون المراعي ، ويتولون ، بالوراثة ، قيادة الجيوش المقسمة ، بحسب أهميتها ، مئات والوفاء (حتى عشرة آلاف رجل) ، ويحتلون افضل مركز في عمليات القنص ، ويستأثرون بأحسن الطرائد المقتنصة ، ويفرضون اخيراً الأتاوات

وأعمال التسخير على عائلات اتباعهم. وباستطاعتهم تعيين مرؤوسيه العسكريين ايضاً، فيكتفي الامبراطور اذ ذاك بالموافقة على اختيارهم ، وفرض حاية على بعض المواقع في اراضيهم يدفن فيها



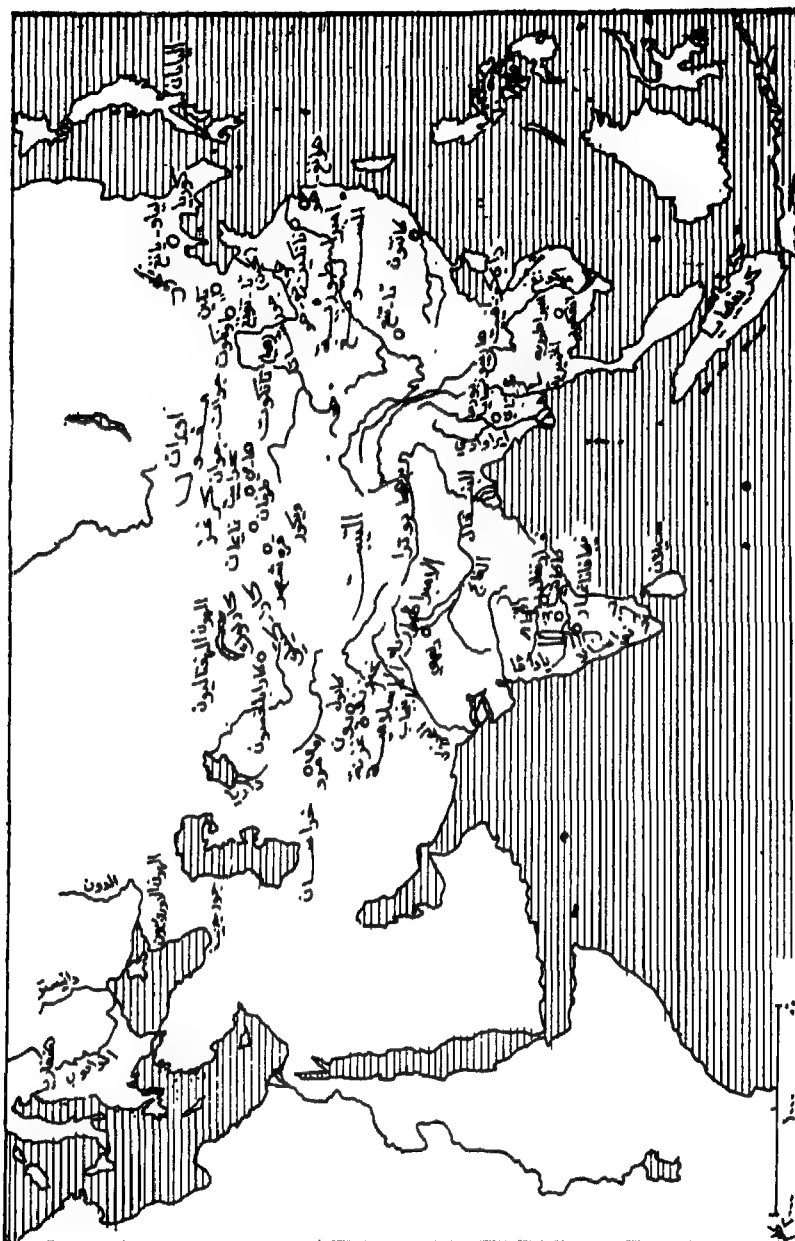
الشكل (رقم ١٢) - الشرق الأدنى واوربا الشرقية في اراثل القرن الثالث عشر
١ - الدول اللاتينية ٢ - الدول اليونانية ٣ - دول البلقان السلافية ٤ - الدول الارمنية والجيورجية

أعضاء التكتل الملكي او تخصص للنقص. الا انهم ، بالمقابلة ، يخضعون خضوعاً عميقاً للامبراطور ولسيد عهدهم اللذين لا يمكنهم ترك خدمتها كما لا يمكنهم بيع اقطاعهم ؛ اما سيدهم فيستطيع حرمانهم من هذه الاقطاعة وتسليمها لغيرهم ؛ كما يستطيع حرمانهم من قيادتهم العسكرية دون

ان يقبل بأية مراجعة او شفاعة . ولكن مركزهم يكرس رسمياً بكتاب توليصة ، او ببعض الالقاب الشرفية - كلقب « حامل الكنانة » الذي منحه جنكيز خان - او بلوحات فسر لنا « ماركو بولو » تسلسلها : فالسيادة التي تضم ١٠٠ رجل - أي تجند ١٠٠ جندي - الخلق بلوحة ذهبية او فضية مذهبة ؛ واللوحه ذهبية ابدأ ومزدانة برأس اسد للسيادة التي تضم ألف رجل . وتحمل اللوحه كتابة منقوشة تبارك الختان الاعظم وتلحن من يعصي أوامره . ولداكي اللوحات جميعهم حق بالمحلة في تنقلاتهم ، وبالعرش الفضي عند مقابلة الناس لهم . وباستطاعة أرفعهم مرتبة اقتناء جنياد لنقل البريد دون اذن صريح من الامبراطور ، ويستفيدون كذلك من الانعامات الامبراطورية : الآنية الفضية ، و « السروج الجليلة » ، والجواهر والحجارة الكريمة ، والخيول أخيراً ، وهي خير ما يهداه أبناء البورات هؤلاء بعد ان يجمعوا ثروة طائلة . وأضاف كوبيلاي الى هذه الانعامات انعاماً أخيراً يمنح مرة كل ثلاث سنوات : لباس ابهة ، وزنار ذهبي ، وأحذية من جلد الابل المطرز بالخطوط الفضية ، وكان كل ذلك « مزداناً بالحجارة الكريمة والجواهر وأشياء اخرى غالية الثمن عظيمة القيمة » . ففي كل عيد ، يرتدي الامبراطور وأصحاب الاقطاعات الـ ١٢٠٠٠ الذين يشكلون حرسه الخاص ، ثياباً فاخرة كلها من لون واحد .

الختان الاعظم
ان اعتلاء جنكيز خان عرش الامبراطورية لم يغير في الظاهر شيئاً من الاصول الموقولية القديمة التي اعتمدها مجلس التكتل في تعيين رئيس لا يتمتع بسلطة وراثية . فبعد ان اصبح تكتل الفاتح مجلساً امبراطورياً ، بات من حقه انتخاب الامبراطور الذي لا يمكن اختياره الا من بين أعضائه . الا ان الوراثة أمدت في الواقع امراً واجباً ، بعد ان اخذ الامبراطور يعين خلفه بموجب وصية ، - ابنه الثاني بحسب تقاليد المظالم - وهو اختيار يوافق عليه المجلس بصورة عامة . ترتدي جمعية التكتل ، في هذا الحرف ، مظهر احتفالي خاصاً استطاع الراهب الايطالي « جان دي بيان كاريينو » رؤيته والاعجاب به في السنة ١٢٤٦ ، حين جرى انتخاب « كوبرك » : فبينما تسود المذاكرة في السرايق الامبراطورية ، يجتمع الفرسان وأهل المقامات داخل اسوار القصر ، وفي الخارج يلتظرون الحدث حشد عظيم بالإضافة الى الجيش الملتف حول اعلامه . وما ان يتم التمهين حتى يقوم أعضاء التكتل بالطفوس التقليدية التي ترافق كافة الاحتفالات المدنية او الدينية ؛ يرفعون القبة عن الرأس ، ويجلون الزنار الذي يلقونه على الأكثاف ، ويجلسون الملك على العرش المذهب الذي حل محل الطنفسة اللبدية القديمة ، ويحيونه بلقبه الجديد . ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم الأرض ، فتحذو حذوهم جماهير المنتظرين في الخارج . وبعد اقسام الايمان الاحتفالية وتقديم الذبائح الحيوانية (فعول وحجور) ، يبدن الامبراطور عهده بتوزيع الالقاب والمراتب والدرجات الرفيعة على خدام الامبراطورية الممتازين .

حين بلغت السيطرة الموقولية أقصى حدودها ، نظمت حياة الختان الاعظم ، مستقرة كانت ام نقيلة ، تنظيمًا دقيقاً جداً . فخلال أشهر الامطار الستة ، أي من ايلول الى شباط ، يقم في



الشكل (رقم ١٣) - آسيا في عهد جنكيز خان

قصره في بكين ، حيث يحتفل ببداية السنة الجديدة في شهر شباط . ومن آذار الى لوار ، ينتقل
المسكر الامبراطوري الزاهي الى القصر بواسطة الشواهي . بعد العودة ، لا يقيم الامبراطور
في بكين سوى ثلاثة ايام يحتفل خلالها بأعياد كبرى ، ثم يذهب لقضاء فصل الحر في مقره
الصيفي « شانغ - تو » ، في قصر من الخيزران . فالبون شاسع بين هذه الحياة المتفخلة وشطف
العيش والاضطراب في المعسكرات المغولية القديمة . 'يقام الى جانب المعسكر الامبراطوري ،
الذي يضم مظال لا تحصى لأهل المقامات وعائلاتهم واخرى تجمع فيها الأسلحة والسروج
والشواهي ، معسكر آخر خاص بزوجات الملك ، « الاوردوس » ، له خدماته ومراعيه الخاصة .
وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى ، وهي أنفاس المظال اطلاقاً ، مظلة اخرى يستخدمها
الملك مسكناً له ؛ يحرس مدخلها باستمرار ، وهو ابدأ الى الجنوب ، اسباده من المراتب الرفيعة .
تغطي بحلود الاثر وتفرش جميع اقسامها الداخلية ، بما فيها العوارض الخشبية ، بحلود الفواطم
والسماير ، وتشد فيها حبال حريرية ، وتستخدم لاستقبال السفراء الأجانب - كفلوم دي
روبروك في السنة ١٢٥٣ ؛ يجلس فيها الامبراطور على سرير مذهب يصعد اليه بثلاث درجات ،
رافقه زوجته الرئيسية ويحيط به كبار موظفيه الذين يجلسون بحسب مراتبهم .

كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليعة . وقد وصف لنا تنظيمها هاركو بولو : يجلس
الامبراطور باتجاه الجنوب امام الطاولة العليا ، وتجلس الى يساره امرأته الاولى (اليسار عند
الصينيين هو المقام الاول) ؛ يجلس الامراء الامبراطوريون الى اليمين امام طاولات أدنى ارتفاعاً
« بحيث لا يتجاوز رأسهم اقدام السيد الاكبر » ؛ ويجلس الاسياد الآخرون امام طاولات اقل
ارتفاعاً ايضاً ؛ وتجلس الى اليسار ، وفقاً للتدرج نفسه ، زوجات الامراء والاسياد ، بحيث
يستطيع الامبراطور رؤية جميع مدعويه . يوضع على طاولته اثناء ذهبي كبير يتعرف منه النبيل
بأكواب من اللك الصيني المذهب ويستكب في أكواب اصغر حجماً ، ملأى بالتوابل ، يفترف
النبيل من كل منها مدعوان . يؤمن خدمة الخان اسباده عظام بستر أنفسهم وفاهم حجاب حريري
مذهب ، فيقدمون له اصناف المأكول والمشرب . تزن الآلات الموسيقية حين يهيم بالشرب ؛ فيجشو
كافة الحاضرين الى ان يشفي غلته .

لنذكر بين الأعياد البارزة في حياة البلاط عيد الذكرى السنوية لجورس الامبراطور الذي
يرتدي ، مع كبار موظفيه ، الثياب المذهبة ويتقبل الضرائب والهدايا العينية من رعاياه . ولندكر
خصوصاً عيد رأس السنة الجديدة الذي يحتفل به في شباط ؛ ترتدي البلاط كلها حلة بيضاء ،
والبياض لون يقيم به المغول - مع انه سيصبح لون الحداد عندما تتولى الحكمة سلالة المنغ . يحاط
الامبراطور في هذا العيد بأفراد عائلته ويستقبل صفوف اصحاب الاخاذات ابتداء من الامراء
حتى المنجمين ومن كبار الاسياد حق الاطباء والقناصة . تقدم له الهدايا التي يتبادها الجميع في
ذاك النهار ؛ وتقدم له كذلك ، في هذه المناسبة ، الجزى المفروضة على البلدان المحتلة : الاحصنة
من تركستان ومنغوليا ، والفيلة من الهند وشبها والابل من سخراسان ، والآنية الذهبية والفضية .

كل فرد يقدم الخضوع بدوره للامبراطور ثم يبخر اللوحة الذهبية الحاملة اسمه والموضوعة على طاولة أشبه بالمذبح . وتلي المأدبة التقليدية ألعاب المشعوذين لتسليّة الحضور .

يتلمّى الامبراطور بلعبة الكرة الهوائية التي يشترك معه فيها كبار موظفيه ، وبمعاقرة المسكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى ؛ ولكن لهو الاول هو القنص الذي يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط وبروض لاجله ٥٠٠ باژ وصقر وشاهين ، بالإضافة الى الحيوانات السوروية الصغيرة التي تروض لاجل قنص الطرائد الكبيرة ، والى اسراب كلاب الصيد التي يتعمدها بعض كبار الاسياد لخدمة الامبراطور . ويخضع لهذا النظام كذلك اطلاق الشواهين واسترجاع الطيور المفقودة والتعمد بالبحث عن الاشياء الضائعة . يسهم الامبراطور بالقنص من على ظهر فيله ، في حمل هو له بمثابة غرفة اثناء تنقلاته . وعلى كافة سكان المنطقة ، المسموح لهم باقتناص الطرائد ، باستثناء الايائل واليحمير ، طيلة الشهرين او الثلاثة اشهر التي يستغرقها القنص ، ان يقدموا للامبراطور حصيلة اقتناصهم .

اعدت المدافن الامبراطورية منذ جنكيز خان في منحدرات جبل « كنتاي » المقدس ، ينقل جثث الخان الميت اليها في موكب جنائزي طويل يسير ببطء في المسالك حتى قلب البلاد المغولية القديمة . وعلى غرار ما درج عليه الغز والصينيون ، يقتل جميع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن امام طقس من طقوس الذبائح طالما يرافقه ذبح الخيول ايضاً ؟ ام اننا ، كما يزعم رشيد الدين ، امام تدبير احتياطي للمحافظة ، ما امكنت المحافظة ، على سر وفاة الملك ؟ مهما يكن من الامر ، فان الهزرة التي اردت ، كما يبدو ، بحياة ٢٠٠٠ ضحية اثناء جنازة « مونكا » تذكرنا تذكيراً غريباً بطقوس « مدافن العربات » في عهد اولل التاريخ المعروف .

قبل ان ينظم جنكيز خان جيشاً امبراطورياً ، قامت الحرب عند المغول الجيش والحرب على اكتاف السكان المسلحين والجنود المحترفين معاً . وقسم رجال التكتلات ، برئاسة زعمائهم القبليين الى فرق محاربة وفرق مساعدة ، يضاف اليها ، حول الرئيس ، فرقة مختارة قد تضم الف رجل . اما المحاربون المحترفون ، الى اي تكتل انتسبوا ، فيحيطون بالحرس القومي او يوضعون احياناً ، بحسب مقتضيات الظروف ، تحت امرة هذا القائد او ذاك .

اساعد جنكيز خان نفسه ، في البدء ، بحراسة متواضعة - ٧٠ رجلاً فقط - وتولى في الوقت نفسه القيادة العليا لكافة وحدات الجيش المغولي . ثم اضطره توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح في المناطق النائية الى وضع تنظيم ثابت حازم ، فوزع السكان الذكور ، اعداداً للتعبئة ، عشرات ومئات والوفاء ، ثم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل . ورفع الحرس الامبراطوري كذلك الى عشرة الاف رجل يحمندون جميعهم من بين ابناء الاسياد والاحرار البواسل ؛ واختارهم الخان نفسه ، بالاستناد الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهم ، من بين المهندسين المتطوعين - « لا يجوز لاحد الاحتفاظ بمن يريد الانضمام الى الحرس » - الذين يقدمهم اصحاب الاخاذات

وفاقاً للقاعدة التالية : « اخ » عشرة رجال لقائد الالف ، اخ وخسة رجال لقائد المائة ، اخ وثلاثة رجال لقائد العشرة ، على ان تؤمن كل من هذه الفئات ، بالإضافة الى ذلك ، احصنة مجنديها وُعددهم . على عاتق هذه الوحدة المختارة ، التي يشكل ١٠٠٠ من خيرة رجالها مقدمة الجيش ابان الحرب ، القيت واجبات دقيقة دائمة . فهي توزع على الشكل التالي : الف عاس والـ ف « حامل كنانة » ، وحراس نهاريون وحراس مائدة وحراس مظلة وامراء اخور . يخدمون مناوبة طيلة ثلاثة نهارات وثلاثة ليال متواصلة . لا يستطيع احد دخول المظلة الامبراطورية اذا لم يرافقه رجال الحراسة ؛ ومن واجب هؤلاء ، منذ الفسق ، القاء القبض على كل من يحاول الاقتراب منها ؛ ويعاقب افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم بغرامة عينية : ملابس وجوادر مجهز بكامل عدته . وتتراوح العقوبات ، التي يحكم بها الامبراطور نفسه ، بين الضرب المكور بالعصا وقطع الرأس . اما التخلف عن الخدمة فيعاقب بثلاثين ضربة عصا في المرة الاولى ، وسبعين في المرة الثانية وبالنفي اخيراً في المرة الثالثة . واكن الحراس استفادوا من امتيازات تموض عن هذه العبوديات . فالحارس البسيط يقدم على قائد الالف ؛ واذا ما تنازعا فالقائد هو من يعاقب .

اهتم الحكام ، في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية ، بالجيش والحرب فوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية . لذلك فان المصادر الادبية الخافلة بالنصائح المسداة للجنود ترفع النقاب عن الاساليب الحربية الخاصة بالشعوب البدوية ؛ يشدد فيها على العناية بالطبول والرماح ، وحراسة الاعلام ، وسلامة العربات والمظال ؛ كما يشدد على ضرورة الاقتصاد في المؤن ابان المعارك وعلى حصر انتجاع الكلاً الضروري لتموين الجيوش ، وعلى عدم اصطحاب الاحصنة الهزيلة الماجزة عن تسلق الجبال او اجتياز الانهر ، واخيراً على تخفيف عدة الحصان بالاستغناء عن كل ما هو مزعج او ثقيل : يجب ان لا تضايق الاثغار الركوبية وان لا يترك الفارس الاعنة مسدلة .

والامبراطور هو الذي يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأي منجميه ، ويرسل ، قبل هذا الموعد بيومين ، بضع مئات من الفرسان الكشافة . لا تزال القوة خفيفة ، اذ ان الجندي لا ينقل سوى قربتين ملأيتين بلبن الفرس الرائب ، واناة خزفي لطهي الطرائد التي قد يقتنصها في الطريق ، ومظلة فردية صغيرة تقيه من المطر ، ويعلق كل ذلك بالسرج . فجميع الاحتياطات متخذة اذن لتأمين سهولة تحرك الجيش . وهذه السهولة هي ما جعل المغول يتفوقون على اعدائهم واحداث ثورة في فن الحرب شبيهة بتلك التي حدثت في القرون الوسطى واعطت الاولوية ، في الغرب والشرق الادنى على السواء ، لكتائب الفرسان الثقيلي التسلح . وهي ايضاً ما اومم العدو ، الذي يهاجمه فجأة نبالون خفيفو الحركة ، بانه امام جيش لا يحصى له عد . اجل لقد فاق عدد الجنود المغوليين ، وقد ضم شعوباً كاملة تحمل السلاح ، عدد الفرسان الفريبيين ، الموزعين وحدات صغيرة ، الذي لم يتجاوز ، الا في ظروف استثنائية نادرة ، عشرة آلاف محارب . ولكن

ما نعرفه عن الفارات الصاعدة التي شنها المغول على تركستان والشرق الأدنى وأوروبا يحملنا على الاعتقاد بأن الذين اشتركوا فيها لم يتجاوزوا عشرين أو ثلاثين ألف رجل دفعة واحدة. وقد بلغ الجيش المعد للحرب ، حين وفاة جنكيز خان ، على ذمة رشيد الدين ، ١٢٩٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ لحراسة الامبراطورة والامراء الامبراطوريين ووزع الباقون ثلاث وحدات في الوسط والشرق والغرب . وحين يتكلم المؤلفون الشرقيون والرحالة الغربيون ، في عهد لاحق ، عن جيش مؤلف من ٥٠٠٠٠٠ رجل كوحدة غازية قليلة العدد ، وحين يشيرون الى ان الامبراطور يحمل قواد المشرات والمئات والالوف ولا يصدر او امره المباشرة للقواد وحدات المائة الف ، فان هذه الاعداد غير جديرة بالتصديق اذا لم ندخل فيها فرق المجندين المعبثين في البلدان الخاضعة للسيطرة المغولية ، وهي فرق لا قيمة لها ولا تنقل الى مسافات بعيدة. ونحن نعلم من جهة ثانية ان وحدات الفرمان قد بقيت ام وحدات الجيش ؛ فان سرعة تحركها وخدماتها الكشفية والجاسوسية الممتازة ، وتموينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قد فرضت الاكتفاء بمجندين اقل عدداً - واعظم تفوقاً - الى حد بعيد من كل ما استطاعت تعبثه آنذاك الامبراطوريات والملوكيات المتحضرة .

يبدو ان المغول قد تعودوا أساليب اعدائهم الحربية ، وانهم قبلوا في الدرجة الاولى بالمعركة بين جيشين متقابلين . ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها . اذ ان مصادرنا لا تصف لنا سوى نوع من قانون مثالي يفرض الاقتراب « في الاعشاب الكثيفة » واعداد الجنود للمعركة « بشكل بحيرة » ، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الاعداء « كالمثقب » . يعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات الجيوش ويتسم قواه ثلاث وحدات : أقلها عدداً يوضع تحت قيادته المباشرة ويتألف من اشد المحاربين مقاومة وبشكل الوسط ؛ وتنتشر الوحدات الرئيسيتان على جانبي الوسط يميناً وشمالاً ، أي شرقاً وغرباً ، لأن المغول يتجهون أبداً الى الجنوب . قبل المعركة التي تعطى اشارتها بدق طبول الخان ، ينشد المحاربون « ويعزفون على آلة شعبية ذات وترين » (ماركو بولو) . لا تدور المعركة الا في النهار ، وتتوقف في الليل ، ولكن ذلك لا يفيدنا شيئاً عن مراحلها الفنية . الا ان اعتماد الآلات الحربية الشبيهة بالغرف المستطيلة التي تصنع من الاخشاب وتنقلها الفيلة ، لا تخلو من الدلالة . يتباهى ماركو بولو ، بما عرف عنه من محركة ، بانه واعمامه قد عدوا ضباط كوبيلاي ، استعمل المنجنيق الذي اتاح في السنة ١٢٧٣ دخول سيانغ - يانغ على الهان السفلى ، بعد حصار دام خمس سنوات . اما نحن فنرجح ان مثل آلات الحصار هذه قد احضرها مهندسون مسلمون آتون من بلاد ما بين النهرين .

لم يتصور المغول ، شأن أمثالهم من البدو الرحل ، قانوناً غير قانون القبيلة التنظيم الداخلي وانتجاع الكلأ ، فاحتقروا اهل القرار ولم يفكروا الا بتدمير قراهم وتخريب حقولهم . الا ان فتوحاتهم جعلتهم يحاطون أناساً تفوقوا عليهم حضارة ، فأحسنوا صنماً احياناً بالاصفاء اليهم . وهكذا فان جنكيز خان قد صادف ، في السنة ١٢٠٤ ، كاتباً تركياً في خدمة

زعيم « النيان » يتكلم ويكتب لغة « الويفور » ؛ عندما وقع في الاسر حاملاً خاتم سيده - بما أثار دهشة الفاتحين البرابرة - استخدمه جنكيز خان، فحررت وثائقه الرسمية، منذ ذلك التاريخ، باللغة التركية الويفورية . ثم اسندت اليه مهمة تهذيب أبناء الامبراطور وتعليمهم الكتابة الويفورية، المشتقة من الكتابة السريانية، التي ستشتق منها الاحرف المغولية . ثم الحق به شخص آخر كرايتي الاصل « وبنفوري » الثقافة ايضاً؛ فاسندت اليها اعمال ديوان الامبراطورية الذي قسم بفضلهم شيئاً فشيئاً الى دوائر ، وما لبث ان شمل « الدوائر الصينية » بغية ادارة امبراطورية واسعة الاطراف .

نمت هذه النواة الادارية وتجهزت في عهد اوغوداي ، لا سيما بفضل وزيره وصديقه الكيتاني « بي - ليو تشو - تساي » ، وهو رجل عالي القدر لم يلبث ان اخذ بالحضارة الصينية . فاضيفت الى الدوائر المغولية والصينية مصالح اخرى تانغوتية وفارسية . فقسمت أراضي الامبراطورية أقساماً ادارية ، كالقطاعات العشر في المنطقة المحتلة من الصين مثلاً . وبذلت المحاولات اخيراً لتحديد اراضي التجول والمراعي لكل قبيلة مغولية . وأقرت في الوقت نفسه ، على أسس نظامية، الميزانية التي قامت على نوعين من الواردات: عشر نقدي يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من اصل مواسمهم ، واقتطاع رأس من كل ١٠٠ رأس ماشية فرض على الرعاة . وفي سبيل تأمين الجباية بسرعة احدث جنكيز خان هيئة من المفوضين الامبراطوريين ، استطاعت استخدام البريد الامبراطوري ، ثم اعاد اوغوداي تنظيمها ، ولكنها لم تعش طويلاً .

في عهد كوبيلاي، الذي اصلح الطرقات وخانات القوافل وزرع الاشجار الظليلة على جوانب المسالك ، أثارت خدمة البريد هذه اعجاب ماركو بولو . ولما كان المؤرخون قد اتخدعوا منذ ذلك التاريخ بمواهب المغول الادارية وعبقريتهم التنظيمية ، يحذر بنا هنا ان نصف هذه الخدمة وصفاً موجزاً : فالطرقات والمسالك تسمح للسعاة بنقل الاوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية . تقوم على مسافات معينة - من ٢٥ الى ٤٥ ميلاً - محطات يوجد فيها على الدوام ساقية وهداة ، ورباطات ، وقطيع غنم وتخزن حبوب لتأمين المسافرين ، بالإضافة الى مبيت مجهز خير تجهيز ، معداً لكبار الموظفين من ناقلي الاوامر الامبراطورية . واذ كانت بعض المحطات الهامة تتسع لأربعمائة حصان ، أمكن القول بأن أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ حصان كانت من ثم موزعة على الطرقات ، يقدمها كلها ويتمدها - الا في المناطق الصحراوية حيث يأخذها الخان على عاتقه - اسباط المناطق وملاكوها . وقامت بين المحطة والمحطة ، كل ثلاثة اميال ، قرى او مراكز سعاة ينقلون ، سعيماً على الاقدام ، الرسائل والمواد الغذائية و « الأشياء الغريبة الاخرى » المبعوث بها الى الامبراطور؛ كان هؤلاء موظفين ذوي اجور معينين من الضرائب على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين ، يراقب تنقلاتهم كتبة مقيمون في كل مركز . اما السعاة المرسات السرعان الذين يحملون ابداً اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب ، فكانوا ينقلون الاوامر العاجلة الى الأماكن البعيدة .

واذا نسبت الى اوغوداي ايضاً بعض اشغال المنفعة العامة ، كحفر الآبار في المناطق الصحراوية تسهلاً لاجتيازها ، فان الادارة قد تنظمت تنظيمًا نهائياً في عهد كوبيلاي . ولكن الختان كان آنذاك ، في الدرجة الاولى ، امبراطور الصين ؛ لذلك كانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيون . وفي الواقع اسندت ادارة الامبراطورية ، المقسمة الى ٣٤ مقاطعة ، الى اثني عشر وزيراً صينياً من عظام الاسياد يقيمون في احد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع مسن الشؤون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ، ويؤلفون اخيراً محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة ويتخذون قرارات مطلقة في الشؤون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجنيدها ويصدرون ، في الدعاوى الهامة ، احكاماً مبرمة ، باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها .

اما تنظيم القضاء في المقاطعات فأكثر تعقيداً اذ ان ثمة محكمة اولية تسوّي الخلافات في كل محسكر ، بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية في اقطاعاتهم ، وتلتئم في الاولوس محاكم خاصة يرئس كلا منها قاض كبير . ويبدو ان السرقة أكثر الجرائم تكراراً في المسالم المغولي . وهي تعاقب بحسب أهميتها اما بضربات العصي -- من ٧ الى ١٠٧ -- واما باعدام تراق فيه الدماء ، الا اذا استطاع السارق دفع تسعة اضعاف قيمة المسروق .

امام صعوبات التموين في امبراطورية على مثل هذا الاتساع ، اضطرت حكومة كوبيلاي ، أكثر من سابقتها ، الى حصر جهودها في المشاغل الاقتصادية . فأحدثت أفتنية كبرى بسين بكين ويانغ - تشيو ؛ وطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجاتها ؛ وأعفي ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقتاً من الضرائب ؛ وأعيد نظام قروض الدولة الذي عرفته الصين في أيام السونغ ؛ ووزعت الادارة ، في السنوات القليلة ، الحبوب والمواشي التي جمعتها في سنوات الاخصاب ، ومن أدلة سياسة المساعدات هذه تأسيس المستشفيات والمي�م ومستوصفات المعجز ، وتوزيع الاطعمة واللبسة بالجمان ، و ' ' حسنات اليومية في فناء القصر .

كانت الاقوات والضرائب ، لفترة من الزمن ، كافية لتنفيذ الخزانة الامبراطورية . وكان للضرائب الميئنة أهمية عظيمة ؛ الطرائد الصغيرة والكبيرة ، الاحصنة التي يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش ؛ المواد الغذائية على أنواعها ، بما فيها البطيخ والعنب ، التي تقدمها البلدان المحتلة . يضاف الى ذلك الضريبة النقدية (فضة) المفروضة على المزارعين المتحضرين ، وضريبة اخرى خاصة (ذهباً) مفروضة على الملح ، ورسوم اخرى على السكر والفحم الحجري المستخرج من سببال الصين الشمالية بكلفة اقل من كلفة الوقود . ويدخل الخزانة ايضاً قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع والجزى المتوجبة على البلدان الاجنبية او التابعة للامبراطورية . فبدت ثروة الامبراطورية وكأنها تمتنع النفاد ؛ ولكنها تلاشت بالاكثر من المقدد الورقي الذي كان ، كما سنرى ذلك ، احد الأسباب الرئيسية لانهار « اليوان » .

التجارة والعلاقات الخارجية

فأين نحن اذن من اقتصاد بدائي ساد عالم المغول الذين لم يعرفوا ، كما نرجح ، القطع النقدية واكتفوا بالمقايضة البدائية ؟ الا ان بعض تجار تركستان الصيني قد ركبوا الأخطار منذ أوائل القرن الثالث عشر وتوغلوا في منغوليا بغية تبادل الاغنام والابل يجلود السامير والسناجب . اصف الى ذلك ان قيام الامبراطورية الجنكيزخانية ، بتسهيله جمع الثروات الطائلة في المعسكر الامبراطوري ، قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر المسير في البورات . ولكن منغوليا ليست من أفاد من ذلك ، اذ ان نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية . وقد يكون جنكيز خان أدرك بسرعة أهمية طرق الحرير الخاضعة آنذاك لسيطرة الريفور ؛ فنظم ، بالاتفاق مع هذا الشعب ، قافلة كبرى ، مؤلفة من ٥٠٠ جمل حملها من كافة ثروات آسيا ، وأعدّها لاقامة العلاقات التجارية مع خوارزم . فكان الهجوم على هذه القافلة ونهبها ، اللذان نظمهما احد الحكام الخوارزميين ، مصادفة مشؤومة وفاتحة حرب لا هوادة فيها استمرت عدة سنوات خربت المغول خلالها تحريماً نهائياً المناطق الغنية التي كان الخان قد رغب في الاتجار معها . اصف الى ذلك ان الوزير يي - ليو تشو ، حين جاء دور الصين ، لم يتوصل الا بكل صعوبة الى اقناع جنكيز خان بالعدول عن مشروع وضعه ، تحت تأثير ذهنيته البدوية ، لافناء السكان وتقويض المدن والاسواق واعادة المساحات المحتلة الشاسعة الى بورات ومراع للمغول . ولكن فتح بلاد السي - هيا آنذاك (١٢٢٦) قد سمح يجعلها طريقاً رئيسية للقوافل بين الشرق الاقصى والغرب ، بينما كان لا مناص في السابق ، لبلوغ ايران والصين ، من سلوك طريق طويلة محفوفة بالاعطال تمر بمنغوليا العليا . فأثاحت الطريق المباشرة ، المارة بـ « سو - تشيو » و « تون - هوانغ » ، واعادة النظام مؤقتاً الى الربوع المغولية ، ظهور التجار الاجانب مرة اخرى في آسيا العليا وبلوغهم الصين .

كان استثمار السكان استثماراً منسقاً . ينظم في هذه البلاد الأخيرة ، كلما امتد الفتح المغولي ، فكر الأسياد المغول ، الذين غدوا من كبار الملاكين في البلاد المحتلة ، باقراض الصينيين ، بفوائد مفرطة ، الأموال التي انتزعوها منهم ، وذلك بالاتفاق مع تجار جلبهم من المسلمين ، أسسوا نقابات وشركات مصرفية ، وقاموا بدور الوسطاء لاقناع الاسياد بالموافقة على القروض للصينيين . الا ان هذا النظام ، الذي جنى منه « تجار الاموال » المكاسب الرئيسية ، قد انفي رسمياً في السنة ١٢٩٨ : فان السكان الصينيين ، الذين عوملوا منذئذ معاملة المغول ، قد حصلوا على ضمانات قانونية ضد الفوائد الجائرة التي تتقاضاها النقابات الاسلامية وضد مصادرة نساء المدنيين واولادهم . ولكن هذا التشريع لم يأت بالنتيجة المتوخاة ، فاقضى اقرار تشريع جديد في السنة ١٣٠١ والسنة ١٣٠٢ ضد استثمار استهدف الفلاحين والصناعيين اليدويين ، لم يحل دون انطلاق التجارة الكبرى ؛ ويبدو ان نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها في عهد كوبيلاي ؛ او ان ما يجوز قوله فيها هو ان ماركو بولو قد افتنن آنذاك بمشاهدتها .

في الصين الوسطى مغزت السفن الشراعية نهر « اليانغ - تسو » وسار غيرها في القناة الكبرى ، التي ربما واكملها كوبيلاي ، لتموين بكين بالارز والحرير الضروري لانتاج قمشتها الموشاة بأشكال الزهور ومنسوجاتها التي تتخللها الخيوط الذهبية ، ومنسوجاتها الحريرية الملساء ؛ وقد صدرت تشنغ - تو ، في الغرب (سو - تشوان) الحرائر الصينية حق اواسط آسيا . وانتشرت على السواحل البحرية مرافئ عجت بنشاط منقطع النظير ، فكانت « يانغ - تشيو » ، سوق الارز الكبرى ، وكانت « هانغ - تشيو » ، حيث عاشت النقابات عيشة الامراء ، مستودعاً للسكر وصدرت الحرائر الى الهند والعالم الاسلامي ، والتجرت فو - تشيو بالتوابل والحجاجة الكريمة التي قامت اهم اسواقها في « تسوان - تشيو » ، بينما اشتهرت منطقة « فو - كيان » بصناعة الاواني الصينية . فتوافد التجار الاجانب على الصين من عرب ، وفرنس ، ومسيحيين شرقيين وغربيين ، وهنود وماليزيين ، فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائلة من بيع توابل جواو والهند بارباح مرتفعة جداً . وبفضل المعاهدات التجارية التي عقدها كوبيلاي مع « راجوات » الهند الجنوبية ، ولا سيما راجوات ترافنكور وكرات . وقصد التجار الصينيون بدورهم المناطق النائية كي يبيعوا فيها الحرير الخام والملسوجات الحريرية ويستحضروا منها التوابل والاقمشة الموصلة والملسوجات القطنية والحجارة الكريمة .

نشطت العلاقات التجارية ، برأ وبحراً ، مع ايران ، حيث تولت الحكم آنذاك عائلة هولوكو المغولية ، التي صدرت الطنافس والسروج وآلات الوقاية المعدنية والادوات البرونزية والاواني المزدانة بالمينا . وما الاثر الصيني البارز في التزاويق الفارسية سوى نتيجة هذه العلاقات . واخيراً اقيمت العلاقات مع اوربا ايضاً . فوصلت طرقات عدة بين مصب « الدون » وبكين مروراً بخانية الكيشاك المغولية وشمال تركستان الصيني ومنغوليا و « وقره كورم » . وانتهت الى هذه الطرق طرقات اخرى تنطلق من ترابيزون والمتوسط الشرقي وتجتاز خانية فارس وتمر بتبريز وسمرقند وطشكند وواحات تركستان . واسست البندقية وجنوى اسواقاً تجارية في القرى ومستعمرات في بلاد فارس ، فقامت للمرة الاولى في تاريخ العالم الغربي ، على طول هذه الطرق ، علائق مباشرة بينه وبين الشرق الاقصى ؛ وهذه هي المغالطة في نتيجة فتوحات المغول الخربة . ونشطت في الصين لنفسها حركة الصفقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي ، الذي سبق للسونغ ان استعملوه ، والذي اقتبس اوغوداي مبدأه ، منذ السنة ١٢٣٦ ، عن الكيئات في الصين الشمالية ، والذي استعمله كوبيلاي ايضاً استعمالاً منظماً . صنعت الاوراق النقدية « السوداء » من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود في بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التي تمثلها ، وحاملة خاتم الامبراطور الذي يضمن شرعيتها . وقد فرض التداول بها ، تحت طائلة عقوبة الاعدام ، على كافة رعايا الامبراطورية . اجل لمزيد التجارة استياعهم من هذا النقد لانهم استطاعوا بسهولة استبداله بمواد غذائية مفيدة للتصدير . الا ان كوبيلاي ، بالاكثار من هذه الاصدارات ، قد فتح الباب امام التضخم الذي سيلضي في القرن الرابع عشر الى انهيار الامبراطورية الصينية .

الشامانية
أدت إعادة العلاقات الدولية واستتباب الأمن على الطرقات ، بدورهما ، الى
ازدياد عدد المبشرين المتوافدين على الشرق الأقصى من كل قطر ومصر . ولكن
المسائل الدينية ليست شغل المغول الشاغل . فاذا اعتنقت بعض القبائل النسطورية او البوذية
وحتى الاسلام ، فان اغلبية القبائل قد حافظت على مفاهيم البدو القديمة حيال تكون العالم ،
وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بكافة الشعوب التركية -
المنغولية . العالم في نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة ؛ المنطقة السهلية ، وهي مملكة النور ومقر
النفوس الفاضلة ، تضم ١٧ طبقة عليا ؛ العالم السفلي ، وهو مقر الظلمات والاشرار ، يقسم الى
سبع او تسع طبقات ؛ وتقوم بين الاثنتين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان . تخضع
السماء والارض الى كائن اعظم يقيم في الطبقة العليا ، تانغري ، او السماء - المؤله . وبين الآلهة
الآخرين ، تعنى الإلهة اوماي بالاطفال ، وتمثل اتوغان أو إيتوغان ، الهة الارض ، بالهة
الجبل ، اوتوكان ، في الارجح . ويقم عفاريت لا يحصى لهم عد في الارض ، والمياه ، والجبال ،
والنباتات ، وهي اماكن مقدسة احيطت بالاكرام منذ القدم . ويتمثل العفريت حارس القبيلة ،
« السولد » ، تمثلاً محسوساً ، بسائر تملوه جدائل من سبيبة الفحول ، وهي في الارجح حيوانات
مقدسة ، غنبيه اللون وسوداوية الذنب والغفرة ؛ وينصب الساري في حظار يحيط به نطاق من
شجر الصنصاف يقوم على حراسته متولو شؤون العبادة . ولكن العفريت يسكن علم القبيلة
ايضاً (توك) الذي تقدم له ذبيحة قبل كل حملة عسكرية . ولكل انسان كذلك إله مصير
يؤدي له واجب عبادة ؛ فقد اكرم جنكيز خان اله مصيره ، السماء - الزرقاء - الازلية ، في كافة
ظروف حياته العصبية ؛ وقد درج الفاتح على أن يتسلق جبلاً مقدساً ويرفع قبعته عن رأسه
ويلقي زناره على كتفيه ، ويسجد تسع مرات مولياً وجهه شطر الجنوب .

ومن الجائز ايضاً ان يكون « السولد » قد استخدم كذلك نطاقاً لارواح الاجساد اذ ان
المغول قد قدموا لها فيه حوماً كان افراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك في مأدبة طقسية . واعتبر
جنكيز خان بعد وفاته كمفريت حام ، فاديت له عبادة خاصة كادت تمثله باله حقيقي .
ولكن الطقس الذي احتفلوا به اكراماً للجدود كان اهم الطقوس اطلاقاً ؛ وكان الاقصاء عنه
بثابة طرد من القبيلة .

كان لسجود « الكوميز » وسكب الحمر الطقسي صدهما حتى في الميبد الكبير الذي امر
كوبيلاي باحيائه في بكين في الثامن والعشرين من آب ؛ فقد سكب فيه على الارض ، لاختصاصها ،
حليب الافراس الامبراطورية ؛ قربان جماعي يقدم ، كما ذكر ماركو بولو ، للارض والسماء
والارواح ، ومن شأنه ان يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار .

فنحن اذن امام ديانة بدائية احيطت بعبادات خرافية ، كالتامل في راسل خروف محموس
بغية معرفة الحظ ؛ وباللغات ؛ فاذا ما قذفوا بالحجارة الى الماء ، استنزلوا على العدو عاصفة
ثلج ومطر ؛ وبالذلات الطبيعية المشؤومة ، كنباح الكلاب ؛ وبالايمان التي ترافقها الهدايا

والمآدب والرقصات الطقسية ؛ وربما بالوشم أخيراً : فإن بعض تلمیحات « التاريخ السري » تحمل على الاعتقاد بأن الذئب والوعلة كانا رمزین لحدود القبيلة الجنكيز خانية بینما الصق ببعض المصنوعات ، كالمرآة ، طابع مقدس يحرم مسها او استخدامها .

لیس لهذه الديانة من كهنه سوى السحرة او الشامانین المتسلحين بطبل شد عليه جلد ثور اسود . استخدم هؤلاء الرجال الحشنون الدهاء ، السلطة الفائقة الطبيعية ، المعترف لهم بها ، بغية لعب دور شعبي عام ، والاستئثار - لا سيما بين قبائل الغابات - بلقب الزعيم (باقي) وفرض انفسهم على ولاة الشعب . فلم يتردد جنكيز خان وخلفاؤه في اقضاء اكثرهم ازعاجاً وحتى في التخلص منهم اغتيالا . وعلى الرغم من ذلك كان وجود الشاماني ضرورياً للقيام ببعض الطقوس وتقديم بعض الذبائح وتفسير بعض الدلالات الطبيعية . وفي البلاط ، تقدم الشاماني الاعظم ، المتجلبب بالثياب البيضاء والمعتلي صهوة جواد أبيض ، على كافة اصحاب المقامات في حاشية الامبراطور ؛ وقد درج التقليد على التماس تنبؤاته قبل كل مشروع حربي .

الديانات الغربية لم يكن المغول ، على امانة سوادهم الاعظم للمعتقدات الشامانية القديمة ، مرتبطين بأية عقيدة معينة . فبرهنوا من ثم عن تساهل متساو ، في كافة الحما الامبراطورية ، حيال الديانات المتجانبة فيها : البوذية والطاوية والكونفوشيوسية والاسلام والمناوية واليهودية والمسيحية النسطورية او الكاثوليكية ، بالإضافة الى شتى الشيع المشافة . فتمتعت كل كنيسة بنظام قانوني وصلاحيات قضائية عادلة ؛ لا بل حصل بعضها على اعفاءات من الضرائب لاتباعها . واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الاجانب عن ديانتهم دون ان يعني ذلك ، بالضرورة ، اعتناقهم اية ديانة ؛ واذا ما اقدم بعضهم على ذلك ، فانهم كانوا يحتفظون بخرافات غليظة ادت بكثير من الديانات الغربية الى الفساد والامحطاط .

يبدو ان جنكيز خان قد اعار الطاوية في البداية اهتماماً خاصاً . ومرد ذلك في الارجح الى القوى الفائقة الطبيعية المعزوة الى كهانها ، والى انه نظر اليها نظرتة الى شامانية فضلى . استدعى الى معسكره كاهناً مشهوراً من « هو - بي » ، يدعى « كيو تشانغ - تشوان » ، آملاً الحصول منه على العقار الذي يؤمن الخلود . ذهب الكاهن المعجوز في شهر آذار من السنة ١٢٢١ واضطر الى سلوك طريق طويلة تفادياً للمخاطر ، فلم يبلغ الاوردوس الامبراطوري ، وهو آنذاك في البلاد الافغانية ، الا في الخامس عشر من نوار من السنة ١٢٢٢ ، ومكث فيه قرابة السنة . الا ان رواية مرافقه ، وهي مفيدة جداً لمعرفة البلدان التي اجتازها ، لا تخفي اخفاقي المهمة الدينية ؛ فغضب امل الفاتح لأنه لم يجد فيه ذلك المعجاني القادر على ان يؤمن له الخلود ، ولكنه اصفى بلطف الى الحكيم وتظاهر بالتأثر بتماليمة واصدر أمراً مهوراً بالحقاقم الامبراطوري بإعفاء كافة رؤساء الطاوية من الضرائب ، على الرغم من انه لم يهتم اهتماماً خاصاً لفلسفة الطاو .

اما في بلاط خلفاء جنكيز خان فكانت المسيحية النسطورية اولى الديانات التي تمتعت بنفوذ

واسع . انتشرت النسطورية في آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن بفضل كنائس ايران ، ولكن التانغ حرّموها في السنة ٨١٥ ، فتلاشت بعد ذلك في الصين . بيد انها حافظت على حيويتها في تركستان فاستعادت لنشاطها التبشيري في الشرق ، ولا سيما في اوساط قبائل الكرايين والونكوت والتانكوت المغولية . وفتح لها الاحتلال الجنكيزخاني ابواب الصين مرة اخرى ، فتمكن البطريرك النسطوري ، في السنة ١٢٧٥ ، من احداث أسقفية في بكين .

بيد ان النسطورية لم يمتطروا هذا الاعتراف الرسمي حتى يظهرها في البلاط المغولي ، فان النسطوري تشنكاي الكراييتي (١١٧١ - ١٢٥١) ، الذي جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل ان يبلغ ذروة قوته ، قد احتفظ بمهامه في ولايتي اوغوداي وغويوك . ولم يفته ، كما نرجح ، بينما كان يشغل منصباً اسهم فيه اسهاماً كبيراً في تنظيم ادارة الامبراطورية ، ان يقدم كل مساعدة ممكنة لأبناء دينه ، اذ ان رشيد الدين يشكو من عدائه للسليين الذي شاطره اياه نسطوري آخر هو كاداك ، ذو الثقافة الويغورية ايضاً ، والذي اسندت اليه مهمة تهذيب غويوك ثم أصبح رئيس وزرائه . الا ان الاثنين اهدما عندما آل الحكم الى مونكا الذي أتى بذلك عملاً سياسياً لا اضطراراً دليلاً ، اذ ان هذا الامبراطور الجديد قد اختار نسطورياً آخر ليحل محل تشنكاي . اضيف الى ذلك ان مونكا ، وهو ابن اميرة كراييتية نسطورية ومتزوج من امرأتين نسطوريتين ، قد شمل بتساهله كل الديانات لأنه رأى فيها خير اداة للتسيير دفعة الحكم . ففي « اوردوسه » - كما ذكر روبردك - اشترك رجال الدين النسطوريون والمسلمون والبوذيون والطاويون ، بالبتسم الديلية الرسمية ، في اعياد البلاط وباركوا كأس الخان الاعظم ، الا ان النسطوريين كانوا في مقدمة هذا الموكب المقدس . وقد حدث احياناً ان رافق مونكا زوجته الى القاديس النسطورية التي كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح . وقد اشتهرت والدته ، التي اعتلى ثلاثة من أبنائها العرش الامبراطوري ، ببصيرة سياسية وسلوك لا لومة فيه . وبعد مرور ٨١ سنة على وفاتها ، أي في السنة ١٣٣٣ ، توجهت ادارة كنيسة الصليب ، وهي احدى الكنائس النسطورية الثلاث في كان - تشيو من اعمال كان - سو ، الى البلاط الامبراطوري بسؤال عن الاكرامات التي يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الامبراطورة التي كانت قد وضعت في المعبد .

في عهد كوييلاي رغب راهبان نسطوريان شرقيان في الحج الى اورشليم . وصلا الى بلاد ما بين النهرين في السنة ١٢٧٨ ولم يتمكن أي منها بلوغ الاماكن المقدسة ، ولكن الارونكوتي مرقس (الذي توفي في السنة ١٣١٧) قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد بينما اصبح رفيقه « ربان صوما » ، الذي ينتسب الى « هو - بي » سفير خان فارس لدى ملوك الغرب ، فاستقبله « فيليب له بيل » في باريس ، ثم استقبله في « بوردو » ادوارد الاول ملك انكلترا ، واستقبله اخيراً في روما البابا الجديد لقولا الرابع (١٢٨٨) . اجل لم يتوفى الى حمل الغرب على محالفة سيده ضد المماليك ، ولكن زيارته قد اطلعت الكاثوليك الرومانيين على أهمية المسيحية المغولية التي كانت اعظم ازدهاراً في فارس منها في الصين على كل حال .

وحدث باتجاه معكوس ان عين كوبيلاي النسطوري السوري عيسى ، الذي كان قد دخل في خدمة غويوك ، مديراً لمكتب الابحاث الملكية (١٢٦٣) . ويبدو ان هذا العالم والطبيب الذي اتم بلغات كثيرة قد اوحى قراراً صدر في السنة ١٢٧٩ قضى بحظر الدعاة الاسلامية في الصين . وعين بعد ذلك مفوضاً لشؤون العبادة المسيحية ، ثم وزيراً ، فعين كافة أبنائه ، وهم نسطوريون ايضاً ، في مناصب مرموقة .

يجب اخيراً ان نفرز مكاناً خاصاً ، في حاشية كوبيلاي النسطورية ، للأمير الاونكوني « كورغوز » الذي أطلق عليه الصينيون اسم « كوو - لي - كي - سو » والاوربيون اسم « الأمير جورج » . كان ، لجهة والدته ، حفيداً للإمبراطور ، ولم ينقطع ، بهذه الصفة ، عن استخدام نفوذه في البلاط لحيز المسيحيين ، فأسس المدارس والكنائس النسطورية . اضاف الى ذلك انه كان ذا ثقافة رفيعة واقتنى مكتبة قيمة ، واستهوت المباحثات حول الكلاسيكيين الصينيين والفلسفة والتنجيم والرياضيات . انضم في السنة ١٢٩٤ ، تحت تأثير المبشر « جان دي مونتيكورفينو » ، الى الكتلركة الرومانية ، وعهد ابنه باسم يوحنا (شو - غنان) اكراما للراهب الايطالي . وكان لارتداده صداه البعيد لأنه ادخل الكتلركة الى قلب العائلة الجنكيزخانية .

أدى تقدم المغول الصاعق منذ نصف قرن قريباً ، الى اختلاطهم
المغول والمسيحية الرومانية
بالمسيحية اللاتينية في اوروبا الوسطى وفي سوريا الفرنجية على
السواء . الا ان غزومهم ، على ما رافقه من تخريب وارهاب ، قد خلق في نفوس الحكام المسيحيين
وهماً - غذاه استمرار اسطورة الخوري يوحنا - بأن هؤلاء الفزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم
على الاسلام . ومن واجبنا هنا ان نأتي على ذكر هذه المحاولات التي لا فضل لها ، بالنسبة للمؤرخ ،
سوى انها أتاححت الظرف لروايات عديدة دونها المسافرين ، ما كنا لنعلم بدونها شيئاً يذكر عن العالم
المغولي . كان البابا اوشنتيوس الرابع ، منذ افتتاح مجمع « ليون » ، قد أوفد الراهب الفرنسي سكاني
« جان دي بيان كاربينو » الى الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق
الدين المسيحي مع شعبه . فسار الرسول عن طريق المانيا وبولونيا وامارة كييف وبلاد الكباشك
وبلغ منطقة قره كوروم حين كان مجلس الامبراطورية ملتئماً لانتخاب غويوك (١٢٤٦) .
قدّمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم - مع ان التفاهم لم يكن امراً سهلاً بين النساطرة
الذين يحميمهم المغول لأنهم يؤلفون جزءاً من شعوب آسيا العليا ، وبين الرومان الغرباء عن
الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها - فتلقى جواباً خطياً (مقدمته تركيه ونصه
فارسي) ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع الى من هو ، بنعمة السماء - الخالدة ، « الخان المحيطي
لشعب المغول العظام » . بيد ان القديس لويس قد جدّد المحاولة خلال اقامته في الارض المقدسة
في السنة ١٢٥٠ ؛ فأوفد الرهبان الدومينيكان الثلاثة « جان دي كاركاسون » و « اندريه دي
لونجومو » وأخاه الذين ساروا عن طريق تبريز وطالاس وبلغوا المعسكر الامبراطوري في
منطقة الايميل والقوبق؛ فتقبلت ارملة غويوك هدايا ملك فرنسا ، ولكنها طالبت به بخضوع صريح .

وانطلق رسول آخر ، هو الفرنسي سكاني غليوم دي روبروك ، من القسطنطينية في السنة ١٢٥٣ واجتاز بلاد الكبشاك حيث ادرك مدى اطلاق الاوساط النسطورية على شؤون الغرب ، ومرت في « قبالينغ » وهي مركز طائفة نسطورية وطائفة بوذية ، وقابل مونكا في جبال الالتي . فصادف هناك اوربيين عدة اختطفوا في هنغاريا واستخدموا في البلاط المغولي - لورينية من منزلة متزوجة من مهندس روسي ، وصانع باريقي « يقيم أخوه على الجسر الكبير في باريس » متزوج مسلمة هنغارية ، وابن رجل انكليزي مولود في هنغاريا ايضا - وسمح له بالاحتفال بالخدمة الالهية ، يوم عيد الفصح ، في كنيسة قره كوروم النسطورية ، واستطاع ، امام ثلاثة محكمين عينهم الخان ، الاشتراك في مجادلة دينية علنية وقف فيها ، على صعيد الايمان بالله واحد ، الى جانب الفقهاء المسلمين ضد الفلاسفة البوذيين . ولكنه على غرار سابقه ، لم يحرز أي نجاح على الصعيد السياسي . وهذه هي وصية السماء - الأزلية : لا اله الا اله واحد في السماء ، ولا ملك الا ملك واحد على الارض هو جنكيز خان بن الله . فطولب ملك فرنسا من ثم بتقديم خضوعه للخان الاعظم : وقابل روبروك ، في طريق العودة ، ملك ارمينيا (كيليكيا) هيثوم الاول الذي كان أكثر واقعية ولم يتردد في الاعتراف بسيادة الخان الاعظم ، فحصل منه بعد ذلك على صك حماية « يحرر الكنائس في كل مكان » ، ويعد بمساعدة عسكرية .

تبدلت الامور بعض الشيء في أيام كوبيلاي بعد ان بلغ بعض التجار الايطاليين ، من جهة ، أسواق الشرق الأقصى ، وبعد ان اطلعت بعثة « رابان صوما » الغربيين ، من جهة ثانية ، على أهمية الطوائف المسيحية الآسيوية . وليس ، بين المسافرين الايطاليين ، أشهر من الآخرين البندقيين نيكولو ومافيو بولو اللذين خطيا ، أثناء اقامتهما الأولى في بكين (١٢٦٦) ، بمقابلة كوبيلاي الذي كلفهما رجاء البابا بأن ينتدب الى الصين مائة مثقف « متعمقين في الفنون السبعة » . وعندما عادا في السنة ١٢٧١ ، دون التمكن من تلبية طلب الخان ، اصطحبا ابن نيكولو ، ماركو بولو ، الذي تسمح لنا روايته المشهورة بتتبع مغامراتهم . مروا بفارس وخراسان وقشغاريا ولوب نور ، وبلغوا الصين الغربية ؛ ثم اجتازوا بلاد الونكوت التي أوهمهم معتقدها النسطوري بأنها مملكة الخوري يوحنا ، وانتهاوا في شهر نوار من السنة ١٢٧٥ الى « شانغ - تو » مقر كوبيلاي الصيفي . عين ماركو بولو في الادارة الامبراطورية - في مكاتب سبباية الضريبة على الملح ، في الأرجح - وأسندت اليه عدة اعمال هامة ، فكث في الصين أكثر من ١٥ سنة ؛ ويناب انه رافق بعض البعثات المغولية الى شيبا وسيلان . وغادر الصين بحراً في السنة ١٢٩١ عندما طلب اليه كوبيلاي مواكبة اميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه ، خان فارس . ولم يعد بعد ذلك الى الشرق مع انه كان قد حمل رسائل موجهة الى البابا وملوك فرنسا وقشتالة وانكلترا . ولكن مغامرته ليست فريدة من نوعها ؛ فان ايطاليين آخرين قد أقاموا في الصين وجمعوا ثروات طائلة وأسندت اليهم مهام رسمية ، كـ « أندالو دي سافينيانو » الجنوي الذي عاد الى اوروبا في السنة ١٣٣٨ بصفة سفير لخان الصين .

في هذه الاثناء ، كان المبشرون الكاثوليك الأولون قد توجهوا الى الشرق الاقصى بايعاز من البابا نقولا الرابع . وحل الراهب الفرنسي سكاني « جان دي مونتيكورفينو » رسائل بابوية الى خان فارس وكوبيلاي ، فأقام بعض الوقت في تبريز ، وذهب الى الهند مستهدياً تاجراً إيطالياً ، ثم الى الصين حيث قابل حفيد الخان الاعظم وخليفته ، تيمور ، وسر بأنه حمله على « تقبيل الصليب بكل تقوى » . ولا ريب في ان اعتناق الامير جورج للايمان الروماني وتشيد كنيسة في بكين قد خلفا تياراً تنصرياً : « أكثر من عشرة آلاف تلميذ » ، وهو عدد مبالغ فيه في الأرجح ؛ ولكن النتائج كانت مرضية حقاً اذ ان البابا اكليمنضوس الخامس قد رقى « مونتيكورفينو » في السنة ١٣٠٧ ، الى درجة رئيس أساقفة ، ثم ارسل اليه اساقفة آخرين ، قبل احداث الاسقفيات في القرم و « تسوان - تشيو » . وتؤيد وجود هذه الجمعيات التبشيرية رواية « اودوريك دي بوردينون » ؛ فبين السنة ١٣١٤ والسنة ١٣٣٠ زار هذا الراهب الفرنسي سكاني بلاد فارس التي تمرق الى كنائسها اللسظورية ، والهند حيث أفضى التعصب الاسلامي ، قبيل زيارته ، الى تقتيل اربعة اشقاء قصر ، وحيث ما زال للكنيسة اللسظورية مؤمنوها في « القديس توما » (ميلابورا) وسيلان وجاوا وشبها ، والصين اخيراً عن طريق كانتون ؛ وكان هنالك جمعيات فرنسيسكانية في تسوان - تشيو ، وهانغ - تشيو ، وبكين حيث مكث ثلاث سنوات . وقد استفاد رئيس الاساقفة مونتيكورفينو الذي خص « كغيره من المبشرين » بمرتبات رسمية ، من « حماية بعض ذوي المقامات الرفيعة الممعتدين » ؛ وكان يتوجه الى الخان الاعظم بموكب احتفالي ويخبره ويقدم له الصليب كي يقبله .

بعد وفاة مونتيكورفينو ، شغل مركزه زمناً طويلاً ؛ ثم عين بندكتوس الثاني عشر خلفاً له لم يقم في بكين سوى خمس سنوات ؛ وحين عينت البابوية ، في السنة ١٣٧٠ ، رئيس أساقفة جديداً ، كانت الصين قد آلت الى سلطة المنغ الذين حرّموا ممارسة الدين المسيحي في امبراطوريتهم بسبب ارتباطه الوثيق بالسيطرة المغولية . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم تكن الاراساليات الكاثوليكية ، حتى بدون ردة الفعل القومية هذه ، صائرة الى فشل محتم . فمثل يجب ان نعيّر أهمية كبرى لارتداد جمهور من الألبان المسيحيين الثابتهين للطائفة البيزنطية المنخرطين في الحرس الامبراطوري الذين جاء مندوبهم يقدمون خضوعهم للسلطة الرومانية في السنة ١٣٣٨ ؟ ان الباطرة المغول أنفسهم ، على الرغم من تساهلهم نحو كافة العبادات ، قد برهنوا ، منذ قبل كوبيلاي ، عن تفضيل ظاهر للديانات الآسيوية . فقد سبق لمونكا ان استدعى الى بلاطه طاوياً ، لاما تجردا فيه للمجادلات اللاهوتية ؛ وقد انعقد في قره كوروم في السنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بمجمع بوذي اصدر حكماً صريحاً على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرف تاريخ الاصول البوذية . فرجعت منذ ذلك التاريخ كلمة البوذية . واذا أبقى على « مكانب » العبادات المختلفة التي كانت وسائل مفيدة للحكم ، واذا تأيد تكرار الاعفاء من الضرائب الذي استفاد منه كافة « الرهبان » ، لساطرة او طاويين ، مسلمين او بوذيين ، فان ذلك لم يمنع كوبيلاي من التمسك تدابير تمييزية تناولت المسلمين كالرسوم الذي صدر في السنة ١٢٧٩ حول تنظيم ذبح المواشي

المعدة للقصابة بشكل يتنافى والطقوس الاسلامية - ولا سيما الطاويين : اذ قد صدرت الأوامر تكراراً بملاشاة مؤلفاتهم التي تمسخ الاصول البوذية . ولعل الخان ، كما يؤكد ماركو بولو ، قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيلان مستقبلاً اياها بأبهة عظيمة ؛ ومن الثابت انه استدعى الى بلاطه لاما تيبتيًا ، مستهدفاً ، من وراء ذلك ، هدي المغول وضمنا وفاء التثبيت على السواء .

ازدادت هذه النزعات شدة في عهد خلفاء كوبيلاي الذين كانوا كلهم بوذيين نشاطاً ، باستثناء الأمير أناندا الذي اعتنق الاسلام ثم اغتيل قبل ان يجلس على العرش . عرفت الصين من ثم غزوة حقيقية من الرهبان التيبتيين حاول الامبراطور يسون (١٣٢٣ - ١٣٢٨) في فترة من الزمن اخضاعها لقانون ، بينما كان بعض المثقفين الكونفوشيوسيين قد حصلوا من أسلافه على بعض الاصلاحات الوجلة التي لم تحدد من تجاوزات الكهان البوذيين . فاستمدت القومية الصينية من عدائه للبوذية غذاء جديداً لمقاومة سلالة اليوان .

ان المغامرة المغولية المدهشة ، بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية
تصدع آسيا وانحطاطها
في أواخر القرون الوسطى
عظيمة ، قد حوت في نفسها جراثيم التحلها . لما ان انتهى الفتح
حتى مست الحاجة الى تنظيم وإدارة . ولكن التفاوت كان عظيماً
جداً بين البربرية المغولية وقبائل الشعوب المتحضرة التي شملتها وطمعت في حكمها . وقد برهن
النظام الاقطاعي للمجتمع الجديد عن انه مجرد مسكن وقي لكبح هذه البربرية وتدارك فوضى
المغول العميقة التي غدت الآن خطراً سياسياً ؛ ومرد ذلك الى انها قد خلقت ، بدورها ، في قلب
الشعب المغولي ، هوة بين الأسياد والكبار المتشبهين عظيمة وبذخاً ، وبين المحاربين البدو الذين ما
زال يؤس البورات مخيماً عليهم . وكان من شأن سجن هؤلاء ، اذا تعذر اخضاعهم للنظام ، ان
يهدد بالخطر وحدة الامبراطورية وازدهارها ؛ وكان من شأن تحضر اولئك ، من جهة ثانية ، ان
يفقد العنصر المغولي الضائع في بحر الشعوب المختلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها . اجل لقد
استغنى بمرکز ممتاز لمسقط رأس الجدود ، منغولياً ؛ وأبقى على التقاليد والعادات والطقوس
المغولية ؛ ولكن المغول ، في الأمور الجوهرية ، قد ذابوا في حضارة البلدان المتحضرة المتفخلة ؛
وقد زاد في ذوابهم ان الإدارة ، التي تعذر تنظيمها وفقاً لطريقة البورات السريعة في تصريف
الأمور ، قد اسندت بالضرورة الى موظفين بلديين . ولذلك فان كوبيلاي وحفيده تيمور
(١٢٩٤ - ١٣٠٧) ، وهما الممثلان الحازمان الاخيران للسلالة الجنكيزخانية ، كانا امبراطورين
صينيين أكثر منها خانين منغوليين . لما لبث سجن مغول منغولياً ، المحرومين من مكاسب السلطة ،
ان عاد الى الظهور : فقد أسس «قايدو» ، في آسيا العليا ، خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية .
واذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل البورات إعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته ، فانه قد شكّل
ساجزاً بين الصين التي المحصرت فيها ، في الواقع ، سلطة الخان الاعظم ، وبين فارس التي ما زال
حفلة هولاء جالسين على عرشها . فكان هذا التكتل من ثم عاملاً أساسياً من عوامل
التقسيم اللاحق .

سندرس في فصل آخر تأثير خانية فارس السريع بالحضارة الايرانية وسنين كيف ان نفوذ العناصر التركية المتعاطف في المناطق الغربية من الامبراطورية الجنكيزخانية، قد لاشى ، خلال أجيال معدودة ، كل ما يميز الاسم المغولي ، ان لم يلاش هذا الاسم نفسه كلياً . ويكفي هنا ان نذكر بأسرع انهار مفاجيء للسيطرة المغولية في الصين الذي سهله ، في آن واحد ، ضعف الاباطرة الاخيرين - وقد كانوا منحطين يتحكم بهم أجبائهم المفضلون او بعض المتطرفين في التقوى - وبقطة القومية الصينية .

ولدت هذه الحركة الاخيرة في أوساط جمعيات سرية سهّل نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانيين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء . وكانت هذه الجمعيات قد انضمت في البدء الى النظام المغولي لأنها قد ذاقت الأمرين في السابق من اضطهاد السونغ . استمدت شيعة النيلوفر الابيض ، وهي احدى اعظم هذه الجمعيات نشاطاً ، نفوذها القوي من ايمانها بمسيح بوذي ، ميتريا ، بشرت بمجيئه القريب . فانطلقت الحركة الثورية من منطقة كانتون في السنة ١٣٥٢ ، وتعاضمت قوتها بفعل الفوضى المتفاقمة ، وتجاوزت « اللامات » المسيطرين على البلاط ، والاضطراب المالي اخيراً الذي سببه التضخم المستمر في الورق النقدي ، لما لبثت ان عمت كافة أنحاء الصين الجنوبية . الا ان الاضطراب قد سيطر عليها في البداية ، اذ ان العصاة المسلمين قد اتوا اعمالاً تخريبية فظيعة . ولكن احدى رؤساء الفرق المسلحة ، الكاهن السابق « تشو يوان - تشانغ » ، وهو مفامر في الخامسة والعشرين ، ما لبث ان تميز ببعد نظره السياسي وبالنظام الشديد الذي فرضه على جنوده ، محظراً عليهم كل سلب ونهب ، واستلم قيادة حركة التحرير . وبعد ان بات سيد الصين الجنوبية كلها ، استولى على بكين بسهولة في السنة ١٣٦٨ وقتل ، دونما شفقة ، كافة المغول الذين لم يتبعوا امبراطورهم الاخير في قراره نحو البورات .

انه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طامسا اخضعها الفاتحون الشاليون . فالثورة القومية قد حررت ، في الدرجة الاولى ، الصين الجنوبية من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن ؛ ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ ٤٠٠ سنة ملوك وارسوقراطيات عسكرية من اصل اجني . كان عمل تشو يوان - تشانغ ، الذي أسس سلالة المنغ ، باسم « هونغ - وو » الامبراطوري ، حركة قومية في الدرجة الاولى ، استمدت قوتها الرئيسية من العودة الى التقاليد الصينية الصميمة . وقد أدعى هذا المؤسس نفسه ، بفعل غريزة استمرار غريبة ، الانتساب الى عائلة التانغ ، آخر سلالة قومية سيطرت على الصين بكليتها مع ان سقوطها يعود الى ٤٠٠ سنة . وسيستهدف كل عمله ، خلال ملك دام ثلاثين سنة - اذ انه لن يموت قبل السنة ١٣٩٨ - طمس خلة السيطرة المغولية وربط الصين الجديدة بأبعد ماض قومي ، وذلك باعداد حضارة تراعي ، في جوهرها ، التقاليد الصينية : وقد ارسخ كل هذا على سلطة امبراطورية مطلقة توطدت تدريجياً ، واعادة منصب المندرين والالاقب الشرفية ، والاحتفال بالعبادة الكونفوشوسية ، واحياء مجامع المثقفين العالمية . ولكن هونغ - وو الذي ما زال يذكر انه

عاش في احد الاديرة حياة كاهن صيني، لم يستجب كل الاستجابة ، في الحقل الديني فقط ، لرغبة الكونفوشيوسيين ، واستمر في حاية البوذية . اما في الحقول الاخرى ، فقد عبت الصين بروح قومية وتحثرت في تقاليد ستعرف الديمومة حتى سقوط المنغ في القرن السابع عشر .

نترك اذن حضارات الشرق الاقصى ساعة جعلها تقسيم الامبراطورية المغولية تنكشف على نفسها وقطع كل علاقة بينها وبين الغرب . فلن يحدد الاوروبيون هذه العلائق الا بعد مرور اجيال عديدة ، أي في اوائل القرن السادس عشر ، تاريخ اسفار البحارة البرتغاليين . اجل لم يبق من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شتمتها الصين الجديدة ، ولكن متاحفنا تجملت بما بقي من رسوم مدمشة لفرسان وحيوانات جمعت بين الاناقة الصينية والواقعية المغولية . اما في آسيا الغربية فكان مقدرا لذكريات الملحمة الجنكيزخانية ان تعرف ديمومة اطول عهداً وتحاط بهالة من المجد . فطيلة قرون سيطلق اسم التتر على جماعات مختلفة الاجناس ، اعتنقت كلها الاسلام ، وعاشت حياة البدو الرحل في السهول الروسية . وعندما سيقرر التركاني تيمورلنك ، بعيد تولى المنغ السلطة في الصين ، ان يقذف بمواطنيه من وراء النهر لمهاجمة كافة انحاء الشرق الادنى ، سراه يخبىء وراء الاسم المغولي ويزعم انه انما يكل او يحدد عمل جنكيزخان وجاغاتاي : ولكنه انتساب خادع ، اذ ان النفوذ التركي قد حل منذ زمن طويل محل السيطرة المغولية في البلدان الممتدة من قشغاريا حتى مصاب الدانوب .

الفصل الرابع

تَفْضُّحُ أوروبَّا الاقطاعيَّة (حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)

يتوافق المؤرخون على اعتبار الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر حتى السنة ١٣٢٠ تقريباً بمثابة العهد الكلاسيكي للقرون الوسطى الغربية ، والفترة التي بلغت فيها حضارة القرون الوسطى ذروتها وحقت توازنها . لا ريب في ان الانطلاقة الصاخبة التي اتاحت مزيداً من التقدم منذ السنة ١٠٠٠ قد هدأت آنذاك وانتظمت : فان اطراد السهولة في اقامة العلائق ، واختصار المسافات ، وقيام المفارق الفكرية الكبرى - كجامعة باريس مثلاً - حيث يلتقي رجال قادمون من كل البلدان المسيحية ، قد مهدت الطريق لزوال الفوارق الاقليمية وتلاشي العقليات المتباينة وانسجام الاكتشافات المتنافرة والتوق الى الوحدة . ان هذا العهد هو عهد التأليف الكبرى ، عهد « المرايا » ، اي دوائر المعارف التي احصيت فيها المعارف الشاملة ونسقت تنسيقاً منظماً ؛ وعهد « المجموعات » ، حيث يجمع اللاهوتيون ويقارنون كافة الآراء العقائدية ويصرفون ذهنهم وفطنتهم في الترفيق بين البرهنة والوحي ؛ وعهد البحث عن الوحدة والتوازن اللذين تعبر عنهما ، عند مدخل الكاتدرائيات ، صور المسيح التي تجمع جمعاً يثير الاعجاب بين قسَمات الاله وقسَمات الانسان والتي هي اجمل تمثيل تصويري لسر التجسد المسيحي .

بيد ان هذه الوحدة وهذا التوازن لقصيان . فتحت الانسجام الظاهر اخذت القيم تنقلب انقلاباً كلياً عميقاً . فقد اخذت تزداد ، ويوما بعد يوم ، اهمية النقد والتجارة في عالم كان ما يزال شبه ريفي ، فنخلخلت قواعد النظام الاجتماعي ؛ كما ان رسوخ قدم الملكيات ، التي اخذت تتجابه ، ونشوء الروح العلمانية وغوها السريع ، قد هدد تلاحم المسيحية بالخطر ؛ فبدت من ثم في الافق دلائل الازمات الاقتصادية ، والحلقات السياسية ، وقلق الضائير ، التي ستبرز بكل واقعها في القرون الاخيرة من القرون الوسطى .

١ - الاقتصاد الاوروي

بعد السنة ١١٥٠ اخذت حركة الاستعمار الداخلي تسير ببطء في استقرار الاقتصاد الزراعي . دول الغرب القديمة . اجل ما زلنا في القرن الثالث عشر نشاهد امتداد الاراضي الخصيبة في منطقة لنكولن وقيام قرى جديدة في حوض الفارون ؛ ولكن المساحة الزراعية ، بصورة عامة ، لم تتوسع قط . فقد امتد الاصلاح الى اقصى حدود الاراضي الصالحة للاستثمار وذلك نتيجة لتقنية زراعية لم تتحسن تحسنا محسوسا منذ التجديدات التي ادخلت عليها في القرن الحادي عشر ؛ وقد كان يحدث احيانا ان بعض الحقول ، التي جوزف باستئارا تحت تأثير الشعور بالرضى الذي يحدثه كسب مساحات جديدة من الاراضي المجدبة ، قد يتكشف إحماها ، فاهملت بعد عدة مواسم مخيبة . وغالبا ما ضاقت مساحات الغابات الضرورية لتوازن الاقتصاد الريفي ، فاصطدم جامعو الاخشاب بمقاومة الإسياد والجمعيات القروية ، دفاعا عن حقوقهم في الكلا والاحتطاب . ونتيجة لاطراد نشاط الفلاحين ، بات نمو تربية المواشي ، لثمين المدن باللحوم وصناعات الاجواخ بالاصواف ، يتعارض وتوسع اعمال الحراثة : اذ ان ملاكي الاراضي البائرة ، الذين كانوا يحاولون استئالة واجتذاب الفلاحين لزيادة مداخيلهم ، في الماضي ، اصحوا يرفضونهم لانهم باتوا ينجون مزيدا من الارباح من هذه الاراضي بتخصيصها مراعي للانعام والابقار ؛ وفي ولايات كثيرة - خصوصا في انكلترا حيث سمحت انظمة مورتون وانظمة ونشتر للإسياد ، في القرن الثالث عشر ، بضم الغابات الى المراعي العمومية - امست الزراعة محصورة في مساحات معينة بفعل توسع المراعي . ولما كان عدد السكان ما زال يرتفع باطراد ، على الرغم من توقف اصلاح الاراضي البائرة ، فقد حدث في اوائل القرن الرابع عشر ان اكتظت الارياف بالبشر وكادت الاراضي الزراعية لا تكفي لتغذية عائلات الفلاحين ؛ ولندكر هنا مثل احدى الاقطاعات ، الى الشمال من حوض لندن ، حيث ارفع عدد الشركاء الزراعيين بنسبة الثلث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دون ان تبدل مساحة الاراضي الزراعية ، فكانت النتيجة ، بعد هذا الارتفاع ، ان ثلاثة ارباع العائلات لم تتمكن من تأمين اودها في الاراضي الضيقة التي استلمتها . وهكذا فقد ضعفت ، قبل ان تنقلب كليا ، النزعة المؤاتية الكبرى التي بعثت في آن واحد ، منذ ٣٠٠ سنة ، انطلاقة الاقتصاد الريفي وتقدم الاسكان ، واعطت امتن اساس لتفتح الحضارة الرومانية . وما توازن منتصف القرن الثالث عشر ، الجزئي ، سوى نتيجة الركود الذي سيطر على انتاج معظم المواد الغذائية

ومع ذلك ، فعلى الرغم من ظهور اولى دلائل التقهر في النشاط الزراعي في بلدان اوروبا الغربية ، توالى التقدم الاقتصادي في حقول ونطاقات اخرى . ففد برز اولاً ، في مناطق الحدود الشمالية والشرقية للعالم المسيحي ، باعداد الحقول الزراعية وتأسيس القرى : ففي سكنديناويا تضاعف عدد المراكز القديمة المأهولة ، آنذاك ، بمراكز سكنية اخرى عرفت باسم (تورب) ؛

وحصل في السهول الشرقية الكبرى ، بنوع خاص ، حدث ذو أهمية رئيسية في تاريخ الغرب ، اعني به انتشار المزارعين الالمان .

حوالي السنة ١١٥٠ ، ما كان الجرمانيون ، الذين توسعوا بسرعة في الاستعمار الالمانى في الشرق المستنقعات المقفرة القائمة على شواطئ بحر الشمال وراء نهر الفيزير ، ليتخطوا ، شرقاً ، المنحدر الشرقى لغابات تورنج ، الا في حالات نادرة ، مما يشهد تراجعهم المحسوس تحت ضغط السلافين منذ العهد الكارولنجي . اما هؤلاء ، فهم وان اقبلوا تدريجياً على التنصر وخضعوا شيئاً فشيئاً لنظام الامارات ، قد استقروا في مستوى حضارة مادية غاية في التدني . فالفلاحون منهم ، الذين يعيشون جماعات في قرى صغيرة ومتنقلة ، قد خضعوا خضوعاً تاماً لطبقة الاشراف والكنيسة اللتين استغلتهما بقساوة ؛ وقد تعاطوا بصورة خاصة تربية المواشي وزراعة الحبوب الثانوية والذرة البيضاء ، معتمدين ادوات بدائية جداً ، في اراض صالحة للزراعة ؛ لذلك خلت بلادهم من المدن وبار الشطر الاكبر منها .

الا ان الالمان ، الذين اهتموا في الدرجة الاولى لمقاومة غزواتهم ، توصلوا ، بفضل ارتفاع عددهم وتحسن اسلحتهم ، الى بسط سيطرتهم عليهم . وبينما كان بعض الرهبان الجرمانيين ، من سيسترسين وبريمونترية ، عاكفين ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، على تأسيس اديرة كثيرة بين نهري الالب والفيستول ، ادخل الامراء المستقرون عند حدود الامبراطورية ، في طاعتهم ، الزعماء السلافيين المسيحيين في « شوارين » ومكلنبورغ وبوميرانيا وسيليزيا واقدموا على فتح اراض مازالت وثنية . وسار دوق ساكس ، « هنري الاسد » ، وافنى القبائل الفنيدية في « نورالبنجيا » ؛ كما ان انسال « البير الدب » ، فاتح « براندنورغ » ، وسعوا دولتهم على طول نهر السبريه بين الامارات السلافية المسيحية واجتازوا نهر الاودر في السنة ١٢٥٣ ، وضموا بوميرانيا في السنة ١٢٦٩ . وانجز في القرن الثالث عشر عمل على جانب من الامة ، في مناطق نائية ، بغية فرض الايمان بالمسيح على الشعوب البلطيقية : الروس والفنلنديون والليتوانيون ، الذين كانوا آخر مجموعة وثنية هامة في اوروبا . وقد نهضت بهذا العمل جمعيات دينية وعسكرية من المتطوعين الجرمانيين : مثل جمعية الفرسان المعروفين باسم « حاملي السيوف » ، وقد أسست خصيصاً لنشر تعاليم الانجيل في « كورلاند » ؛ وجمعية الفرسان التوتونيين الذين نقلوا من فلسطين الى الجهة التبشيرية في المانيا الشرقية . وقد استدعى هؤلاء دوق مازوفيا البولوني ، فتولوا فتح بروسيا فتحاً منظماً انطلاقاً من الفيستول الادنى ؛ فجمعوا في حملات صليبية سنوية امراء وفرسان جرمانيا وبوهيميا وبولونيا ونظموا الاراضي المحتلة تدريجياً وأسسوا بين السنة ١٢٣٠ ومنتصف القرن الرابع عشر دولة رهبانية وعسكرية كبرى .

رافق هذا العمل السياسي استعمار زراعي واسع . فقد أقدم السيسترسيون والنوربرتيون ، رغبة منهم في توفير النجدة لرهبانهم المساعدين واستثمار ممتلكاتهم استثماراً افضل ، والفتاحون

الجرمانيون ، لأجل احكام السيطرة على البلاد المحتلة ولجني أعظم مكسب منها ، والامراء السلافيون الحميون ، لأجل تأمين رعايا اشد اخلاصاً من رعاياهم البلديين ، والتوتونيون اخيراً ، لأجل اعادة اعمار بروسيا بعد ثورة السنة ١٢٤٠ . وعملية الافناء التي استهدفت البلديين بسببها ، على الاستعانة باليد العاملة الالمانية . وكان جمع المهاجرين ونقلهم الى مسافات بعيدة عملاً شاقاً يستلزم اموالاً طائلة وجهازاً دعائياً ، فأسندوه الأسياد الى ملتزمين ، عرفوا بـ « المستأجرين » ، من الفرسان ولا سيما البورجوازيين الذين حصلوا ، لقاء اتعابهم ، على مركز متماز في القرى الجديدة التي أسهموا في اعمارها ، وتفاوضوا جزءاً من المداخليل السيدية . فاستألت شروط المشاركة الزراعية (ضرائب خفيفة) فلاحى هولندا وريانيا وتورنج فجاءوا من ثم ونزلوا بأعداد كبيرة في المنطقة الواقعة بين الالب وبحر البلطيك والاورد والجبال المعدنية ؛ ونزل آخرون ابعد الى الشرق في بروسيا وبولونيا الصغرى وحتى في الاراضي المجاورة للبرغ ؛ ونزل غيرهم اخيراً في بعض البقاع المنعزلة من السهول الهنغارية وترانسيلفانيا . فكانت نتيجة هذه الهجرة الكبرى تزايداً سريعاً في عدد السكان : تأسست في سيليزيا وحدها أكثر من ١٢٠٠ قرية جديدة بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٣٥٠ . وكانت نتيجتها كذلك تبديلاً كلياً في منظر الارياض . ومرد ذلك الى ان المزارعين الالمان قد أدخلوا الى البلاد السلافية تقنيات زراعية أكمل اتقاناً الى حد بعيد : أدوات فضلى ، والمطحنة المائية ، والآلات - المحراث الكبير ذو الباسنة الحديدية وفأس الحطابين الثقيلة - التي أتاحت استثمار الاراضي التاربية والغابات الظليلة ؛ وزراعة الكرمة ، وزراعة الحنطة التي حلت محل الذرة البيضاء ؛ وراحة الارض سنة كل ثلاث سنوات ؛ والتخصص الزراعي الذي لم يترك للنشاط الراعي سوى مركز ثانوي . وقامت في المساحات الكبرى المغفرة ، التي باعدت في ما مضى بين المراكز السكانية السلافية ، قرى كبيرة ذات نظام جماعي تأسست في وسط مقاطعة مقسمة الى اراض تزرع اصنافاً مختلفة متعاقبة .

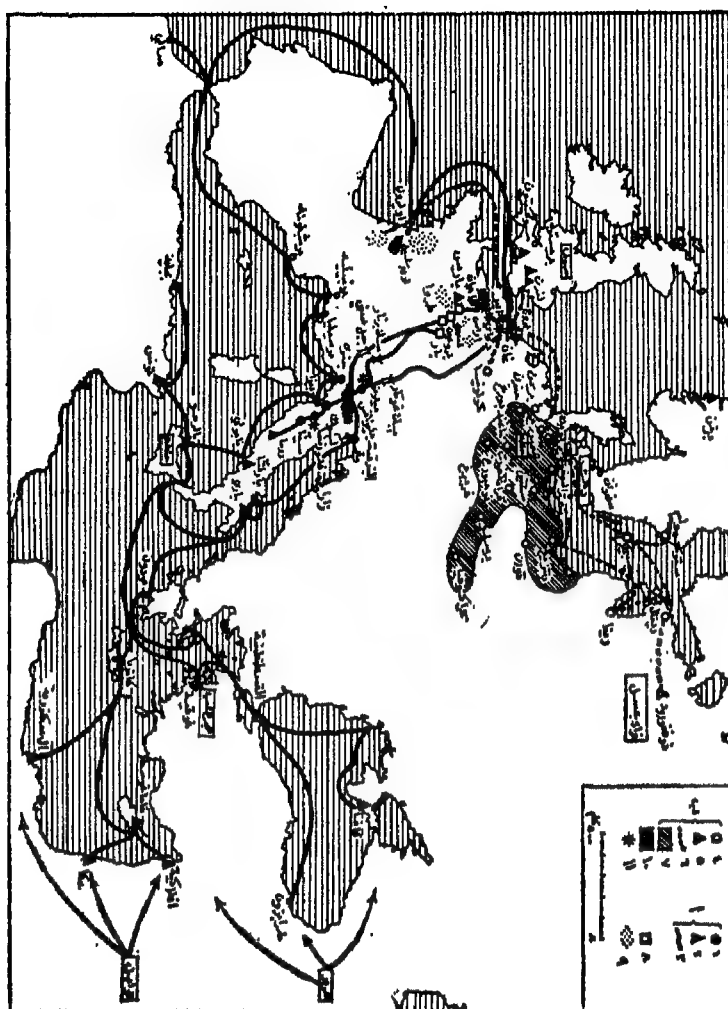
لم يكن الاستعمار الالمانى عسكرياً ورهبانياً وزراعياً فحسب . فقد جاء اختصاصيون آخرون ايضاً : معدنون فحصبوا الاراضي في كافة بلدان اوروبا الوسطى واستثمروا عروقها المعدنية ، واهل تجارة خصوصاً - ولذلك تميز الوجود الالمانى بظهور بعض المدن في مناطق لم تعرف المدن قط . فان المستعمرات الزراعية الجديدة ، التي قامت في اراض بكر خصيبة جداً ، واستندت الى انتاج الحبوب الثمينة السهلة التصريف ، واستثمرت على أيدي شركاء زراعيين فرضت عليهم أتاوات نقدية في الدرجة الاولى وأرغخوا من ثم على العمل في سبيل البيع ، فقد تهيأت بصورة طبيعية للاقتصاد التجاري . وقد توفقت قرى جديدة كثيرة ، منذ تأسيسها ، الى أحداث سوق ذات امتياز ؛ وكانت كلها وثيقة الارتباط بمدينة قام دورها ، بالضبط ، بتأمين اتصال هذه القرى بالتيارات التجارية الكبرى . فانتشرت من ثم في مهاجر الفلاحين الالمان قرى كبيرة تكاد تكون محض جرمانية . بيد ان الاستعمار المدني قد تخطى هذه المنطقة تخطياً بعيداً : فقد قامت سلسلة من المدن التجارية على شواطئ البلطيك الجنوبية والشرقية ابتداء من لوبك (١١٤٣) حتى ريفا (١٢٠١) وريفال (١٢٧٠) ، كما أعمار التجار الالمان ، في القرن الثالث

عشر أكثر الأحياء نشاطاً في المدن الجديدة التي قامت في بولونيا والدول الدانوبية وسكندنافيا ، ابتداء من « برغن » حتى ستوكهولم .

ان هذه الهجرة الجرمانية الكبرى ادخلت نظم الحضارة الغربية المثل الى بلدان لا تزال بربرية ، وحتى حدود البورات الخاضعة آنذاك لسيطرة المغول ، وأعطت البلدان السلافية مقوماتها . فموض هذا التوسع الجانبي ، باعداد اراض جديدة لزراعة الحنطة التي اتيح تصدير معظم مواسمها ، وبتنمية الصيد في بحر البلطيك الغني بأنواع الرنك ، وبتشجيع كافة انواع المقايضات ، عن الركود الزراعي التدريجي في البلدان الغربية . كما اسهم في انطلاقة التجارة الأوروبية الكبرى .

ان النشاط التجاري الوثيق الارتباط بتقدم الصناعة وحركة تداول اجواخ « فلاندر » النقود قد تزايد باطراد في كافة انحاء أوروبا حتى اواخر القرن الثالث عشر . وانتظمت نهائياً حركة اقتصادية دائرية : مركزان رئيسيان هما شواطئ بحر الشمال وشبه الجزيرة الإيطالية - وقد اشتهرا منذ اوائل القرون الوسطى ، بسبب موقعهما ، بنشاط التجارة - ومركز منظم هو اسواق شمبانيا الدورية .

كان المرتكز الرئيسي للازدهار المطرد في المركز الشمالي التقدم المستمر في صناعة الاجواخ . وكان هذا التقدم نفسه وثيق الارتباط بذيوع المبل ، في طبقات المجتمع العليا ، للمنسوجات الصوفية التي تفوق انتاج الانوال المنزلية اتقاناً وتنوعاً والواناً ؛ ووثيق الارتباط من ثم بتقدم الحياة الاجتماعية . وانتشرت اهم مراكز حياكة الاقمشة وصباغتها ، في القرن الثاني عشر ، غربي الراين والاسكو : سانت اومير وأراس ولبيل ودواي واميان وبوفيه وكبريه وتورنيه . ولكن اكثر المصانع نشاطاً تجمعت شيئاً فشيئاً في الفلاندر التي حاول كونتيتها بشق الوسائل ، منذ القرن التاسع ، بعث حياتها الاقتصادية . فأقيم معظمها في دواي اولاً ، ثم في ايبر وغنت اللتين انتهى نشاطهما ، في اواخر القرن الثالث عشر ، الى السيطرة سيطرة تامة على سوق الجوخ . لم تكن الصناعة ، في هذه المدن الصناعية الكبرى - وهي الاولى من نوعها السقي عرفها الغرب والتي جاوز سكانها ، للمرة الاولى في ذاك العهد ، ٣٠.٠٠٠ نسمة - متمركزة في مصانع كبرى ، بل موزعة على عدد كبير من المشاغل الصغرى المتخصص كل منها بمرحلة معينة من مراحل العمل ، والمشرّف على ادارتها رب عمل هو ، بحسب المشاغل ، حائك او مقصّر ، حلاج او صباغ ، ينظم العمل كما يطيب له بمساعدة بعض الرفاق . الا ان الانتاج ، المعد جله للتصدير البعيد ، خضع بكليته لرقابة تجار مهرة ، اصحاب اموال طائلة ، وقادرين وحدهم على ابتياع الخامات في الاسواق النائية ، وتأمين تصريف المصنوعات . وكان هؤلاء التجار ، الذين غالباً ما اجّروا ادواتهم للصناعيين اليدويين ودفعوا لهم اتعابهم على اساس الوحدة المصنوعة ، يارسون رقابة اقتصادية تامة على ارباب الحرف الصغرى الذين استغلوا بدورهم الرفاق ، وهم



الشكل (رقم ١٥) - الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الثالث عشر

- أ - الايطاليون : ١ - المراكز الاقتصادية الرئيسية . ٢ - الاسواق الرئيسية . ٣ - الطرق التجارية الرئيسية .
 ب - الهالسيون : ٤ - مدن الهاليس الرئيسية . ٥ - الاسواق الرئيسية . ٦ - الطرق التجارية الرئيسية .
 ٧ - منطقة الاستثمار الزراعي الجرمانى . ٨ - الاسواق الدورية الشمالية . ٩ - أهم مناطق تصدير النسيج . ١٠ - أهم مناطق تصدير العظم . ١١ - أهم مراكز صناعة الاجواخ .

عمال متفوضون جوعاً يستخدمون اسبوعياً ولا ينعمون بأية حماية . فنجم عن مثل هذا الوضع ، منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر ، قلق اجتماعي عبّرت عنه الارجيف

والاضرابات عن العمل . وقد حدثت اولى الاضرابات ، بفهموها الحاضر ، في السنة ١٢٥٠ . فارجد هذا الصراع الحفي اخيراً بين اليد العاملة وكبار الملتزمين ، وقد استمر بفعل الخلافات السياسية والرسوم على المواد الغذائية التي فرضها شيوخ البلد النبلاء حتى لا يلزموا برفع الاجور ، في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ازمة انتاج ، انحصرت في المدن الفلنكية على كل حال ، وعوض عنها نمو صناعة الاجواخ في « برابان » « وهينو » وبيكارديا وشمبانيا .

كان انتاج الاجواخ صناعياً ، منذ فجر القرن الثاني عشر ، حافظاً لنشاط التجارة في المنطقة الفلنكية التي قامت فيها ، منذ ذاك التاريخ ، اسواق اقليمية دورية . فكان لا بد من تمييز الانوال الناشطة المتزايدة ابدأ بالاصواف الاجنبية التي ما لبثت انكثرت ان اصبحت سوقها الاولى ؛ كما كان لا بد من الحصول ، في الارياض ، على المواد التلوينية ، الاسلينج ، والقوة التي تزرع في نورمانديا بنوع خاص ، والوسمة ، او العظم ، التي كانت منطقتا اونيس وبيكارديا اسواقها الكبرى ؛ وكان لا بد ايضاً من استيراد حجر الشب ، وهو مادة خام اساسية تستعمل لتقشير الدهنوف وثبيت اللون وصلل الاقمشة ، من شواطئ البحر المتوسط الشرقية . وكان لا بد اخيراً من ارسال المنسوجات الى المشترين المنتشرين في أنحاء الغرب المسيحي ، وحتى في مناطق اخرى نائية . فجاءت هذه التيارات التجارية المتزايدة القوة تعزز التيارات التي تقاطعت تقليدياً في بحر الشمال ناقلة الملح والنبيد من فرنسا ، والتوابل الشرقية نحو البلدان الشمالية . واستقر مركز كافة هذه المقايضات شيئاً فشيئاً في مرفأ بروج الذي جهز تدريجياً ، بفضل بناء ميناءه الاماميين ، دام (١١٨٠) وايكولوز (اواخر القرن الثالث عشر) ، لاستقبال اكبر السفن حمولة .

ولكن بروج - وهذا ما يميز نشاطها عن نشاط المدن البحرية الايطالية - لم تكن سوى محطة او نقطة لقاء مفتوحة الابواب للتجار الغرباء ؛ فان سكانها ، الذين لم يتعاطوا الملاحة وتجهيز المراكب ، لم ينصرفوا الى المهن البحرية ، فبقى زمام حركتها التجارية في ايدي الاجانب ، اعضاء شركات التجارة الداخلية اولاً ، ثم الايطاليين في اوائل القرن الرابع عشر .

نشأت الشراكة التجارية بين المدن (الهانس) عن اقامة الالمان في شواطئ البلطيك وعن تأسيس المدن الحديثة - وهي المدن التي قامت على مصاب الانهار وخففت الضغط عن المناطق الزراعية الداخلية من شلسفيغ حتى لتونيا . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتحد تجار هذه المدن في شراكة تجارية اقامت حوالي السنة ١١٦٠ سوقاً للبضائع المنقولة في فيسبي من اعمال جزيرة غوتلاند ، واستوردت من التروج التي مني اقتصادها بالعجز ، حنطة اراضي المزارعين ، وضمنت رقابة صيادي الرنك الوفير في سكانيا ومونتهم بالملح ، وحدثت سوقاً دائمة في نوفغورود ، فاحتكرت من ثم كل التجارة في البلطيك . وفي اوائل القرن الثالث عشر ، افضت الرغبة في تأمين المزيد من الاسواق للمحاصيل الشمالية ، وللأسماك المجففة بنوع خاص ، والرغبة من ثم في تنظيم العلاقات بين قطاع تجارة البلطيك وقطاع تجارة بحر الشمال ، عن طريق

اتصال بري بين نهري التراف والالب ، بكبار تجار لوبك الى عقد معاهدة صداقة مسح تجار هبورغ؛ ثم انضم الى هذا التحالف تجار مدن اخرى، في الشرق وفي الغرب على السواء، كـ « برمين » في الساحل ، وكولونيا على الرين ؛ وبعد ان قامت هذه الشراكة بين التجار ، في البداية ، باتت ، في منتصف القرن الثالث عشر ، شراكة بين المدن بقيت لوبك والمدن الفندية قلبها النابض . واستت فئة « الاسترلين » اسواقاً ثابتة ممتازة في « بروج » التي غدت محطتهم الرئيسية ، ثم في لندن حيث حصلت هذه الشراكة من الملوك الانكليز ، بين السنة ١٢٦٠ والسنة ١٣١١ ، على وضع موافق جداً . وتعاطى هؤلاء التجار المشاركون تجارة المواد الثقيلة التي نقلوها وواكبوها في سفن مستديرة تتسع لمحملة كبيرة وتجهز بسطح يفصل طبقاتها . وقام نشاطهم خصوصاً ، في اواخر القرن الثالث عشر ، بامتيار محاصيل الشمال ، الفراء والعسل والرنك وقمعح مناطق الاستعمار الجرمانى (حوالي السنة ١٢٥٠ استهلك القمعح المستورد من براندبورغ في فلاندر وانكلترا) ؛ وامنوا كذلك نقل الصوف الانكليزي الى المدن التي قامت فيها معامل الجوخ ، وتجاوزوا بريطانيا واتجهوا نحو شاطئ فرنسا الاطلسي ، الى جون بورنوف ، واوليرون ولاروشيل، بغية نقل الملح الى مصايد الاسماك في سكلانيا والنيبيذ الذي يباع في فلاندر وانكلترا والمانيا . فغدا هذا الساحل الاطلسي نقطة تألب تجارة دولية ، كما غدت اعراف اوليرون ، التي دوّنت كتابة في اواخر القرن الثاني عشر ، قانوناً بحرياً دولياً لكافة الرابطة السكاليين . وكانت التجارة على هذا الساحل بسيطة لا تستلزم رؤوس اموال كبيرة بالنسبة للمحملة المنقولة واكتفت بالتقنيات التجارية والمالية البدائية . فاختلقت بذلك عن تجارة الايطاليين الذين زاحوا هؤلاء التجار ، في السنة ١٣٠٠ ، ادارة الاعمال التجارية في بروج ولندن .

ان النشاط الاقتصادي في المركز الجنوبي - وهو قد تخطى ايطاليا رجال الاعمال الايطاليين على كل حال ومال الى دخول مركز بحر الشمال وضمه اليه - كان في الحقيقة اشد تمكداً الى حد بعيد . كان مرتكزه الرئيسي التجارة البحرية ايضا التي تركزت تدريجياً في مرفأين : البندقية القديمة الشهيرة ، وجنوى التي لم تخلف وراءها منذ منتصف القرن الثاني عشر ، مرسيليا وبرشلونة فحسب ، بل توصلت اخيراً الى التغلب على منافستها بيزا. التي سقطت واقتقرت نهائياً بعد معركة « ميلوريا » (١٢٨٤) . اجل كان من شأن الحملات الصليبية ان تعمق تجارة المدن البحرية الايطالية التي اتجهت في البدء نحو الشرق بنوع خاص ؛ ولكن التجار ، في الواقع ، استغلوا الحملات العسكرية المسيحية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فقدموا لها مساعدة اسطولهم لقاء اسواق وامتيازات اقتصادية : ولنا في عمل البندقيين الذين نكبوا بحملة السنة ١٢٠٤ عن طريقها ، خدمة لمصالحهم واعمالهم ، فقدادوا فرسان الغرب الى فتح مدن مسيحية ، زارا اولاً ثم القسطنطينية ، خير مثل عن هذا الاستغلال ؛ اضاف الى ذلك ان روح الحرب المقدسة ، التي وهبت كثيراً منذ اواخر القرن الثاني عشر على كل حال ، لم تمنعهم ، من جهة ثانية ، من عقد اتفاقات تجارية مع الامراء المسلمين . لذلك ، وبفضل تقدم فن الملاحة

ايضاً ، واستخدام السفن الشراعية الكبيرة والمتينة ، ووضع الخرائط البحرية الاولى قبل القرن الرابع عشر ، فقد اتسع حقل نشاطهم اتساعاً مستمراً .

فتحت لهم في اوائل القرن الثالث عشر أبواب البحر الاسود الذي كان وقفاً على التجارة البيزنطية . فاتجروا مع شعوب البورات في كافا من اعمال القرم ، وفي تانا في اقصى بحر ازوف . واستفادوا من ان المغول اسسوا دولة تضم آسيا بكليتها حتى شواطئ البحر الاسود ، فاختدوا يحاولون اقامة علائق مباشرة مع الشرق الاقصى : فتوصل بعض الجنوبيين والبندقيين ، كما رأينا ، الى الهند وبحر الصين واندونيسيا . وتخطى الجنوبيون جبل طارق نحو الغرب وترددوا على «سالي» وساروا ابعد الى الجنوب بمحاذاة الشواطئ الافريقية وعرضوا انفسهم للمخاطر ، من الجهة الشمالية ، بالدوران حول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي اواخر القرن الثالث عشر ، وصلت طرق الملاحة الايطالية ، المارة في الاراضي المسيحية والاسلامية على السواء ، (اذ ان سقوط عكا في السنة ١٢٩١ ، وفقدان المراكز اللاتينية الاخيرة في الارض المقدسة ، لم يعيها التجارة قط) كافة انحاء العالم المتوسطي ، من كافا وطرابزون حتى بيرا ، ومن القاهرة ودمياط والاسكندرية حتى تونس وبوجي وسبته بواسطة مستعمرات ثابتة .

اما نشاطات الملاحين الجنوبيين والبندقيين الثانوية ، خلال هذه الحقبة فهي التالية : استيراد محاصيل الشرق من شب وتوابل ومصنوعات بدخية الى اوروبا ، وتصريف بعض انتاج الصناعة الاوروبية ، ولا سيما الجوخ ونسيج الكتان الى الشرق ، ومساحة بين الموانئ الاسلامية ابتداء من آسيا الصغرى حتى مراكش . وهي نشاطات وافرة المكاسب حقاً لانها تناولت بضائع ثمينة جداً ، ولان المبيعات ، في المرافئ المغربية الغنية بالمعدن الاصفر ، كانت تسد ذهاباً دونما صعوبة . ولكنها نشاطات خطيرة ايضاً ، لانها تفرض المجازفة برؤوس اموال هامة تكون بالضرورة تحت رحمة البحر والقرصنة . لذلك فان التحسينات التقنية المدخلة ، منذ السنة ١١٥٠ حتى اوائل القرن الرابع عشر ، على العمل التجاري والمالي ، قد استهدفت اول ما استهدفت ، بالإضافة الى تنظيم التصريف ، الحد من هذه الاخطار وتخفيف شدتها . ولكن مثل هذا التقدم لم يتحقق في البندقية اذ ان الجمهورية ، وهي شراكه مصالح واسعة خضعت بكليتها ، منذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، لرقابة كبار التجار ، قد اخذت ابداً على عاتقها ومسؤوليتها كل الاخطار الكبرى واحتكرت بناء السفن ونظمت ، في مواعيد محددة ، قوافل تجارية جماعية توأكبها سفن الحماية . ولم يؤمن ضمان رؤوس الاموال الا بالاكتثار من عقود الشراكة الفردية : وكانت الغاية من هذه العقود التوفيق بين رجل شاب ونشط يكلف مواكبة البضاعة بحراً وادارة الاعمال في المناطق النائية ، وبين متمول في سن النضج يقدم القسم الاكبر من رأس المال ويوظف في كل رحلة عدة مبالغ ماثلة بغية موازنة الاخطار . اما جنوى ، وهي مدينة خضعت لنظام اكثر فردية ، فقد عرفت انواع شراكات اعظم كمالاً . فقد كان بناء السفن ، وهو الصناعة الرئيسية في كافة هذه المدن البحرية — لان السفينة ، في القرن الثاني عشر ، تخلق بسرعة ويجب ابدالها بعد مرور خمس او ست سنوات — منوطاً بشركات

يملك كل من اعضائها قسماً من السفينة ويبتون بأكثرية الاصوات في امر استخدامها وينتخبون القبطان ويتقاسمون الارباح . وارتكز تمويل المشاريع التجارية بصورة خاصة الى عقود «طلب» لا تفرض على التاجر البحار اي اسهام في رأس المال بل تكلفه استثمار النقود التي يقدمها الممول . وما لبثت هذه العقود ان تطورت فتركت للشريك العامل مزيداً من الحرية والمبادأة ، فقام في منتصف القرن الثالث عشر ، بين الاسواق الجنوبية المختلفة وبين المدينة الأم ، نوع من نظام القروض البحرية المرتفعة الفائدة ، على ان لا تسدد الا اذا حالف التوفيق الرحلة ، وهي الاشكال الاولى للضمان ضد الاخطار البحرية . فادت هذه الترتيبات الجزأة ، وهذا التعاون بين مقرضي الاموال ، المنحدرين بمعظمهم ، من ارسطوقراطية ملاكي الاراضي ، وبين العملاء الضليعين بامور الملاحة والتجارة ، الى تقدم الاعمال تقدماً مستمراً في المرافئ الإيطالية .

وتعاطى بوجوازيو المدن الإيطالية الداخلية ، التي تأخرت في الاهتمام باقتصاد المقايضات ، تجارة المسافات الطويلة ايضاً ، باستخدام سفن المدن الساحلية ولا سيما سفن جنوى . ولكنهم الفوا شركات اطول بقاء من شركات «الطلب» وشركات العقود الفردية وجمعوا رؤوس اموال اعظم شأناً ، فتعاطوا ، الى جانب هذا النشاط ، الصناعة والعمل المصري : صناعة الحرير في لوبك والصوف في ميلانو حيث الخامات الآتية من سردينيا وافريقيا الشمالية وانكلترا ، وفي فلورنسا حيث حولت الاجواخ المحلية والفلسكية الى مصنوعات بذخية من الطراز الاول ، وعمل مصري في الاوساط اللومباردية والبيموننتية الصغرى ، اسقي ، وكيري ، ونوفاري التي سلك سكانها منذ القدم طرقات جبال الالب فانثشروا ، صرافين ودائنين وتجاراً ، في كافة انحاء فرنسا الشمالية حيث زاحوا سكان كاهور ، الاختصاصيين الاول في العمليات النقدية ، وفي سينا التي اخذ رجال الاعمال فيها على عاقبتهم منذ عهد مبكر ، جمع مداخيل الكنيسة الرومانية ، وفي بليزانس التي تعاطت نقل البضاعة والصرافة والاقرض بالاتفاق التام مع جنوى والتي جاء منها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، اكبر ممولي باريس . ثم ان فتح ايطاليا الجنوبية على يد «شارل دانجو» (١٢٦٦ - ١٢٦٨) ، وقد انفق عليه البوجوازيون التوسكانيون لقاء الحصول على مركز اقتصادي ممتاز في مملكة صقلية ، وانزاع السينتين والوكيين بعد ذلك ، جعلوا الحظ يحالف الشركات الفلورنسية ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، محالفة مدهشة .

تأسست هذه الشركات حول احدى العائلات بانضمام بعض الدائنين (ويتراوح عددهم بين ٥ و ٣٠ على العموم) المتساوين قانوناً ، المنصرفين عن الاسهام في اي مشروع آخر ، المكرسين كل نشاطهم لخدمة الجماعة ، وكانت تتصرف برأس مال هام جداً قوامه مساهمة الشركاء ولا سيما الامانات الخاصة . وكان يعاونها عملاء مأجورون يوزع معظمهم على مختلف الفروع المؤسسة في شتى مراكز الاعمال الرئيسية في ايطاليا والشرق الادنى والغرب الاوربي (في بروج ولندن وباريس ، وفي افينيون بعد ان امست مقراً للبلاط البابوي) . وزاولت هذه الشركات ، السقي عنيت بصناعة الصوف وكافة الاعمال التجارية ، النشاطات المالية بنوع خاص ، اي نقل الاموال

من مكان الى آخر ، والاتجار بالذهب ، مسكوكات او سبائك ، ولا سيما الاقراض بفائدة تتراوح بحسب الاخطار ، بين ٧ و ٣٣ ٪ . وما لبثت ان اضطرت ، توطيداً لمركزها في البلدان الاجنبية ، وتلافياً لخطر الابعاد والحجز المهددة ابدأً بالاجانب ، وسعيًا وراء الحماية من عسداء البلديين المستتر الدائم ، الى تسليف الأمراء اموالا طائلة جداً . ثم انتهى الأمر بها ، بسبب تفوقها التقني ، واحتياطها النقدي الذي اتاح لها تقديم مبالغ طائلة ، في قليل من الوقت ، الى ادارة اموال بعض الدول . وهكذا فقد آل كل اقتصاد مملكة أنجو الايطالية ، في اوائل القرن الرابع عشر ، الى ايدي الصيارفة الفلورنسيين ؛ ولعب هؤلاء دوراً متزايد الأهمية في الآلة الجبائية ، المطردة التسلط ، العاملة في خدمة البابوية ؛ وبين السنة ١٢٨٠ والسنة ١٣١٠ سلفت شركة «فرسكو بالدي» ملك انكلترا أكثر من ١٢٢٠٠٠ ليرة استرلينية ، بينما كان اثنان من عملائها «بش» و«موش» مستشارين ماليين للملك «فيليب له بيل» . وجي ان اعمالاً تجارية على هذا الاتساع ، متوقفة على حسن نوايا الملوك ، ومهددة بالحروب والاضطرابات الشعبية وهبوط اسعار المعادن الثمينة ، لم تكن بما من من الاخطار ؛ وبما ان الامانات كانت متوجبة الدفع حين الطلب كان من شأن اقل ارتباك عابر ان يفضي الى انهيار الشركة كلها وافلاس الشركاء ، المسؤولين باجسادهم وبممتلكاتهم دونما تحديد . ولذلك لم تكن الافلاسات امراً نادراً في فلورنسا . الا ان هذه الاعمال التي ادارها مركزياً تجار مقيمون في اماكن ثابتة اجمالاً ، والتي قامت باطراد على الكتابة والحاسبة الصحيحة (وهي ما زالت بدائية في الحقيقة على الرغم من استخدام الاعداد العربية والصفر منذ السنة ١٢٦٠ تقريباً) ، لم تتوقف ، في الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، عن التوسع توسعاً مستمراً في كافة أنحاء ايطاليا ، وانتهت تدريجياً الى تطويق الاقتصاد الاوروبي بأكملته ؛ واذا حافظت الشراكة الهانسية على استقلالها واستمرت في التحكم بشعارة البلطيك كلها ، فهم التجار الايطاليون من سيطروا ، بعد السنة ١٣٠٠ ، على معظم تجارة الاصواف الانكليزية ... حيث حلوا محل التجار الفلمنكيين - والذين كانت مؤسساتهم في بروج اعظم المؤسسات ازدهاراً .

اسواق شمبانيا الدورية تم الاتصال ، حتى ذلك العهد ، بين المركز الايطالي ومركز بحر الشمال

بواسطة الطرقات البرية التي تجتاز جبال الالب وملكة فرنسا . فقامت منذ القرن الثاني عشر ، في مضاب شمبانيا حيث تتقاطع هذه الطرقات ، اسواق تلاقى فيها التجار الاوروبيون . في القرن الثالث عشر ، غدت هذه الاجتماعات التجارية الستة (واحد في لانيي وآخر في بار - سور - اوب ، واثنان في بروفين ، واثنان في طروا) التي يدوم كل منها ستة اسابيع وتتعاقب في مدار السنة ، المركز الحقيقي للتجارة الكبرى ، الذي لم يؤمه تجار الاجواخ في ارتوا وفلاندر ، والايطاليون بانمو الشب والتوابل فحسب ، بل تجار بروفسا وانكلترا والمانيا وكالونيا ايضاً . انطوت كل سوق على مرحلتين متواليتين ، خصصت الاولى منها (دخول ومبيع) للصفقات التجارية ، والثانية (خروج) لتصفية الحسابات بين التجار وقد احكم فيها نقل الاموال من سوق الى سوق ، منذ اوائل القرن الثالث عشر ، ولما كانت

كبار رجال الاعمال في العالم المسيحي هم الذين يشتركون في هذه الاجتماعات شبه الدائمة ، اختيرت الاسواق الشمبانية تدريجياً مكاناً تدفع فيه معظم الديون وامست مركزاً لمعاملات كثيرة تستهدف التعويض عن الديون . وانتشر كذلك ، بواسطة هذه الاسواق وبفضل الايطاليين ، اللجوء الى الاقارب بالديون الذي اعتبر ، بشكل بدائي ، بمثابة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقاً . فلعبت اسواق شمبانيا ، بفضل هذه « السفتجات » ، وعمليات التعويض بين التجار ، دوراً رئيسياً في توسيع التجارة الغربية الكبرى ، اذ انها ساندت اعمالا مطردة للنمو على الرغم من الحاجة الى تغطية نقدية حقيقية .

بلغ نشاطها المتزايد ذروته حوالي السنة ١٢٩٦ . غير اننا نشاهد في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، بروز ظواهر لن تلبث ان تلث ان تحد من دورها . فهناك في الدرجة الاولى استقرار التجار تدريجياً في مراكز ثابتة ، مما اتاح لهم ، بعد تمسك الشركات ذات الفروع واستخدام الوثائق التجارية المكتوبة ، التفاوض في امور الاعمال دون مواجهة الزبن ؛ واقامة الايطاليين في الامكنة الرئيسية من شالي غربي اوروبا ؛ وانشاء شبكة طرق جديدة لتحديد شمبانيا . فان بناء جسر فوق نهر الروس قبل السنة ١٢٣٧ قد فتح طريقاً جديدة وصلت البندقية وميلانو بالفلاندر مروراً بسان غوتار . ثم اتاح تقدم التقنية البحرية ، في السنة ١٢٧٧ ، للسفينة الجنوبية الاولى بلوغ بروج مباشرة ، ثم انكثرت في السنة التالية . وهكذا فقد قامت منذ السنة ١٢٩٨ اتصالات بحرية منظمة ، واقم في العقد الثاني من القرن الرابع عشر خط بندي بموازاة الخط الجنوبي ، فتم بذلك تجهيز وسيلة نقل نحو الفلاندر افضل الى حد بعيد من النقل بواسطة العربات . وحدث اخيراً تبدل ذو طابع اعم اسهم في انحطاط اسواق شمبانيا ، اعني به تقدم الحياة المدنية المطرد . وقد ارتدى هذا التقدم اشكالا كثيرة - ففي القرن الثالث عشر اخذت المدن الصغرى تظهر في المناطق الدائرية من العالم المسيحي ، المانيا وراينلاند وسكندنافيا ، التي كادت تكون ريفية بكليتها قبل ذلك التاريخ - ولكنه تميز خصوصاً باحداث المراكز المدنية الكبرى ، فغدت هذه الاخيرة اسواقاً ناشطة واماكن دائمة لتصرف البضائع في مناطق مطردة الاتساع ، وقامت ، بالنسبة لكل منطقة ، بدور الاسواق نفسه ؛ وهكذا اتجه النشاط التجاري في فرنسا الشمالية الى التركز في باريس ، المدينة العظيمة ، التي ربما بلغ سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد « فيليب له بيل » . وجاء اخيراً التحول الداخلي في الشركات الايطالية الكبرى ، التي باتت اجهزة ذات فروع ، تتفق والظروف الجديدة الناشئة عن قيام هذه المدن .

ان التوسع التجاري ، الذي تحقق بسرعة لا سيما في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر ، قد احدث تغييراً في الوسط الاقتصادي واستلزم في الدرجة الاولى وضع نظام جديد للتداول النقدي . فقد ارتفعت كمية المعادن الثمينة المتداولة بفعل تجارة المحاصيل الفائضة التي زاوها الايطاليون في سواحل افريقيا الشمالية وانتاج المهاجرين الالمان الذين استثمروا مناجم فضية جديدة في اوروبا الوسطى ، لاسيا مناجم فريبرغ في ساكس التي اكتشفت حوالي السنة

١١٧٠ . ولكن هذا الارتفاع في الكمية المعدنية بقي طفيفاً ، ولم تتعادل نسبة وسائل الدفع ونسبة الصفقات الا بفضل تزايد تداول النقود الذهبية والفضية وتنظيم وسائل الدفع الاخرى والبيع ديناً . ومع ذلك فقد طرأ تحسن ملموس على المسكوكات . ففي الدول التي تطلعت سلطتها في كل مكان على السیادات الاقطاعية ، لم يترك اصدار الامراء للنقود الجيدة الثابتة القيمة - كالجنيحات السترلينية الانكليزية في اواخر القرن الثاني عشر او كاهلتر في سواب - سوى دور محلي للنقود الصغيرة السوداء غير القانونية ، التي كانت تسك في المصانع الخاصة . اضيف الى ذلك ان مقتضيات التجارة الكبرى قد اوجبت ضرب قطع نقدية تفوق ، عیاراً ووزناً ، تلك التي راجت اثناء حقبة الانكماش الاقتصادي . فمثلاً اولاً القطع الفضية «الكبيرة» التي تزن اكثر من غرامين وتعادل ١٢ درهماً ، اي انها تعادل القطعة القديمة المعروفة بـ *Six* التي حصر استعمالها في حسابات بيع الجملة ؛ وقد ضرب القطع الفضية الاولى في البندقية في السنة ١١٩٢ ، فاعتمدتها على الفور المدن الايطالية الاخرى ؛ وفي السنة ١٢٦٦ اصدر القديس لويس القطع التورونية (نسبة الى مدينة تور) الكبيرة ثم القطع الباريسية الكبيرة (وهي اربعة اضعاف القطع التورونية) التي انتشرت في هولندا وادي الرين عن طريق اسواق شهبانيا الدورية ، وغدت اساساً لحسابات بيع الجملة في الامارات الفلمنكية . وفي منتصف ١٢٣١ اصدر فردريك الثاني في صقلية القطع الاوغسطية ولكنه لم يضرها الا طلباً للنقود وللإستهلاك المحلي فقط ؛ وفي السنة ١٢٥٢ ، اصدرت في جنوى وفلورنسا في آن واحد قطع نقدية ذهبية مرتفعة العیار تزن ٣ غرامات ونصفاً وتساوي عشرين قطعة فضية كبيرة (الجنوي ، الفلورين) وهي القطع التي اصبحت ضرورية لاقتصاد سريع التوسع آنذاك ما كانت النقود البيزنطية او العربية لنفي بمحاجاته . ووضعت في التداول قطع بمائة في ميلانو ، ثم في البندقية ، في السنة ١٢٨٤ . وفي فرنسا وانكلترا اصدر القديس لويس وفيليب له بيل وهنري الثالث ايضاً بعض القطع الذهبية ولكن بكميات محدودة ؛ واذا راج المعدن الاصف في هذه البلدان ، فقد راج بشكله الايطالي بنوع خاص . وان في النجاح الغريب الذي صادفه الفلورين الذهبي ، وهو اساس قوة الشركات المصرفية التوسكانية ، لاوضح رمز لاتساع النشاط الاقتصادي .

ان ارتفاع الاسعار الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المقايضات والتداول النقدي قد تواصل خلال هذه الحقبة ؛ وهكذا ارتفعت الاسعار الزراعية في نورمانديا ، كما ارتفع بدل الارض ، نتيجة لذلك ، بنسبة ٥٠٪ بين السنة ١١٨٠ والسنة ١٢٦٠ . وتميزت هذه الحقبة ، كما سبق ورأينا ، بقيام المدن الكبيرة ، وان في تشييد الكاتدرائيات العظمى لدليلاً على الرخاء الذي عم كافة هذه المدن المطردة النمو . وتنظمت آنذاك من جهة ثانية الحرف الصناعية ؛ فالتف ارباب العمل والرفاق والمعال الاختصاصيون في عمل معين ، حول اخوية دينية خيرية ، والفوا شركات عرفت بـ «الحرف» و«الفنون» ؛ وقد نظمت هذه التجمعات مزاولة المهنة وساولت في الدرجة الاولى ، عن طريق رقابة مدة العمل وطرائقه ونوع الانتاج ، الحد من المزاومة وتأمين المساواة بين ارباب العمل .

تكيف الاقتصاد الريفي تسرب الاقتصاد التجاري في الوقت نفسه تسربا عيقا الى الاوساط

الريفية . فقد انفتحت امام المنتجين الريفيين اسواق متزايدة الاتساع دعتهن الى تخصيص قسم من محاصيلهم للبيع . ورافقت هذا الوضع الجديد ، الذي تشهد عليه بعض بنود الاتفاقات حول الاعفاءات ، والذي أجاز للفلاحين اقتناء العيارات وألقى العوائق المقامة في وجه التجارة والاحتكارات السيديّة ، وحدث في القرى اسواقاً دائمة ومعارض موسمية للحيوانات ، تبدلات عميقة في نظام المشاريع الاستثمارية الريفية . فتمت زراعة الكرمة على جنبات طرق التصدير ، وانتشرت من ثم كروم واسعة في مناطق فرنسا الاطلسية اتصلت اتصالاً مباشراً بمرفئ التصدير ، اوليرون ولاروشيل وبوردو . وانتشرت كذلك زراعة النباتات الصبغية في شمالي فرنسا وفي المنطقة التولوزية وفي سهل الدو . ونمت تربية المواشي لتموين المدن الكبرى باللحوم ؛ فمنذ القرن الثالث عشر امن اللحامون الباريسيون حاجتهم من « بريا » ونورمنديا . وقلبت تجارة الصوف اقتصاد الارياف الانكليزية ظهراً على عقب ، اذ ان الفلاحين والاسياد اخذوا يسمون وراء اقتناء المزيد من المواشي لتلبية طلب المصدرين . ويجب هنا ان نذكر واقعين يمتان بصلة الى هذا التبدل في ذهنية المنتجين الذين لم يهتموا آنذاك للعيش من ارضهم فحسب بل لتحسين انتاج استثمارهم ايضاً رغبة منهم في الكسب التجاري . فهناك ، من جهة ، تعدد الاشكال الجديدة لاستثمار الاراضي ، الذي لم يعد دائماً بل حدد باجل قد لا يتجاوز سنوات معدودات احياناً ؛ فقد انتشرت عقود الضمان وعقود المزارعة انتشاراً سريعاً في فرنسا وايطاليا ، مما اتاح سهولة استبدال المزارعين المهملين بالمزارعين الكفاء ، والمطالبة باعتماد افضل الطرائق انتاجاً ، والتوفيق دورياً بين دخل الارض وانتاجها الحقيقي . ومن جهة اخرى وضعت المؤلفات الزراعية ، كالببحث في « زراعة الكرمة وتربيتها » لـ « والتر دي هنلي » او بحث « بيير كريستينوس » البولوني (نسبة لـ *Bologne*) في الموضوع نفسه ، التي كان نجاحها ، في كافة انحاء اوروبا ، عظيماً جداً ورائعاً . يضاف الى ذلك ان انتشار الدين في الارياف ، حيث غالباً ما ينص العقد على ان الحبوب هي مادة قرض الاستهلاك حتى تفرض عليها فائدة بمهومة (اذ ان اجل الوفاء يحدد في موعد ارتفاع الاسعار) ، وان عقود الطلب التي يسلم الممتول بموجبها مواشيه لاحد المربين بغية مقاسمته انتاج القطيع ، هما ايضاً من بوادر هذه الذهنية التجارية التي تسربت الى عالم الحقول .

وبلغت النظرة ان اسياد الارض قد افادوا احياناً اكثر من الفلاحين من هذا التوسع التدريجي في آفاق الاستثمار الزراعي ومن هذا الارتفاع في نسبة النقد المتداول ، وذلك بمضاعفة الجهود في الأعمال الزراعية وبقرض المزيد من الموجبات . فكانت هذه اولاً حال البورجوازيين الذين وظفوا اموالهم في السیادات العقارية بغية استثمارها كما تستثمر في الاعمال التجارية ؛ فقد طبقوا بشدة الصمغ الجديدة للاستثمار المؤقت ؛ وحدثت بسرعة في ضواحي المدن التوسكانية ان ثقلت وطأة شروط المزارعة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر لمصلحة سكان المدن . وفي الوقت نفسه ، تميز تقدم المقايضات ، في الارياف الانكليزية ، بتعزز وضع السيد وبنمو

الاستثمار المباشر: فقد توسع باستمرار، وعلى حساب أراضي المزارعة، احتياطي الأرض السيديّة التي اطرّد تحسن استثمارها بفعل اتقان طريقة استراحة الأراضي سنة كل ثلاث سنوات وبزراعة القرنيات في الأراضي البائرة أيضاً؛ وقد ضوعفت في الوقت نفسه الخدمات المفروضة على المزارعين.

الا ان صفار المستثمرين كانوا، أحياناً أخرى، المستفيدين الأول من الاتجاه الاقتصادي الجديد. فان نبلاء فرنسا بنوع خاص، الذين اعتبروا الاهتمام للكسب متعارضاً وشرفهم واحتقروا كل نشاط تجاري، قد استفادوا من انتشار الاقتصاد النقدي كي يتحرروا من استثمار أراضيهم استثماراً مباشراً. ودون ان يصبحوا يوماً اصحاب دخول من أراضيهم، انقصوا مساحة احتياطيتهم وأجبروا منه قطعاً كبرى رؤساء الأعمال القدماء في منزلهم، وآثروا استيفاء الأتاوات قطعاً نقدية، فاستبدلوا بالنقد الضرائب العينية القديمة، وذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين لمسوا الفائدة من تصريف فائض حصائهم بأنفسهم في الأسواق المختلفة. وهكذا فان تصريف محاصيل الأرض تجارياً قد تحقق، في معظمه، بفضل الفلاحين أنفسهم ولمصلحتهم، ناهيك عن ان وضعهم في السيادة العقارية قد تحسن تحسناً مستمراً. فان انقاص الاحتياطي قد أدى بالسيد الى التخلي عن معظم أعمال التسخير التي ما زال يفرضها لقاء تعويضات مالية؛ ولم يطالب مزارعيه قط، بعد ذلك، الا بالدرام؛ ولكن الارتفاع المستمر في الاسعار قد خفض قيمة هذه القطع، فخفض من ثم اعباء الفلاحين: فقد غدا كراء معظم الأراضي، في اواخر القرن الثالث عشر زهيداً جداً نسبياً. واضطر أسياد كثيرون أخيراً، للتعبؤض الى حين عن الهبوط التدريجي في قيمة مداخلهم وللتخلص من ضائقة عابرة، الى ان يبيعوا من اقباعهم بعض الحقوق التي كانوا يمارسونها حيالهم: فحصلت الجمعيات القروية، المتزايدة باطراد، بموجب اتفاقية اعفاء، على الغاء أكثر الموجبات ازعاجاً.

التبدلات الاجتماعية
حوّر التطور الاقتصادي من ثم العلاقات بين فئات المجتمع المختلفة التي كانت قد تحددت في مرحلة الانكماش على الأرض. كانت هذه التبدلات الاجتماعية معقدة في الواقع، وكانت أجلى نتائجها ايجاد المزيد من الفوارق بين الطبقات وتبديد المسافات - كما درج التعبير في ايطاليا آنذاك - بين الجسام والهزلى. وآلت على العموم، كذلك، الى ازالة التوازن بين الطبقات القانونية: فقد تحسن وضع العديد من غير النبلاء بينما ظهرت بوادر الانحطاط في طبقة الاشراف.

اما داخل طبقة الفلاحين، حيث كانت الاوضاع الاجتماعية، في اوائل القرن الثالث عشر، آخذة في التناقص والتشابه، فقد ادخل انتشار الاقتصاد النقدي مزيداً من الفوارق. واجه بعض الريفيين حركة المقايضات المتزايدة على حين غرة ولم يهبأوا للسعي وراء المكسب وأرغوا على مضاعفة الانفاق، فتأخروا مادياً واضطروا، لسد عجزهم، الى الاستقراض، ورهن قسم من ارضهم، وبيع بعض دخول ملكهم، وتحويل ملكهم الخاص أحياناً، لقاء مساعدة ما،

الى ارض تابعة لاقطاعة ، والقبول ، في سبيل تأمين المعيشة ، بأوضاع متزايدة الشدة . وما لبثت هذه الطبقة المنحطة الممرضة للاستثمار من قبل الاغنياء ، ان رأت بأمر العين اقرار تدنيها ، حين أقدم رجال القانون المحترفون ، خلال القرن الثالث عشر ، وبتأثير من معرفتهم للحق الروماني ، على تطبيق مفردات العبودية الواردة في هذا الحق على أفرادها ، باعثين حيالهم رقاً جديداً يختلف بعض الاختلاف عن الرق القديم ويتميز بأعباء نوعية وبالحضوع لتعسف السيد . كان هؤلاء الارقاء القديرون قليلي العدد في فرنسا ، ولكنهم ألفوا في انكلترا ، بفعل اشتداد النظام الاقطاعي ، سواد سكان الارياف . وانما يبدو بصورة عامة ، باستثناء الارياف الانكليزية وضواحي بعض المدن الايطالية الكبرى ، ان وضع جمهور الفلاحين قد تحسن تحسناً مادياً محسوساً ، وعرف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، على الرغم من زيادة الحقوق السيادية الاميرية وتكاثر ضرائب الاقتطاع والمساعدات النقدية التي غالباً ما فتحت اللغزات في اذخار الارقاء ، فترة يسار استثنائية تمادت ذكرها لدى الجماهير وأسهمت في فرنسا ، كما نرجح ، في اعلاء نفوذ القديس لويس واطالة التحدث بملكه . وحدث أخيراً ان ارتقت نخبة ضئيلة من الريفيين سلم الثروات . والدليل على هذا الارتقاء ، الذي اعتبره الفرسان مشيناً ، ان موضوع الفلاح الحديث النعمة ، الهزأة والذير الجدير بالثروة ، قد انتشر فجأة في ادب اوائل القرن الثالث عشر . فنادرة في الحقيقة هي القرى التي لم يتوصل احد فلاحيه ، بفضل مهارته في بيع انتاج عمله ، الى اذخار رأس مال صغير وتحصيل بعض الدخول من اراضي جيرانه وابتياح بعض الاراضي من الفرسان المفقرين ، وبالتالي الى تكوين سيادة صغرى ، وفرض سيطرة اقتصادية رابحة على القرية ، والعيش عيشة النبلاء دون عمل ؛ وتزوج العديد من هؤلاء الحديثي النعمة من بنات الاشراف الريفيين وتوفى البعض منهم ، بعد السنة ١٢٥٠ ، الى الفوز بلقب أشراف .

جلى ان الارتقاء الاقتصادي كان أكثر تقدماً الى حد بعيد في المدن حيث يمكن كسب المال واستثماره بجزيد من السهولة . ولكنه لم يكن شاملاً هنا ايضاً ، وأدى التطور الى اخضاع شطر من سكان المدن للشطر الآخر . ولدينا الكثير من الامثلة ، في الازواض التي مرّت بها الطرقات التجارية الرئيسية في منتصف القرن الثاني عشر ، عن تجار جمعوا ثروات طائلة ، وأخذ الكثيرون منهم منذ ذلك الوقت اموالهم المنقولة الى ممتلكات غير منقولة ؛ فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر واستثمروا العقارات واشتروا الاعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن . فاستقرت من ثم الثروات وتكونت شيئاً فشيئاً في كافة المدن طبقة محدودة مهيمنة استمر أفرادها في جمع الثروات عن طريق مزاوله الاعمال ، متسلحين ضد تقلبات التجارة بثرواتهم العقارية . ولما كانوا يتماطون المقادة والصيرفة ، فقد احتفظوا لانفسهم ، بفضل اموالهم النقدية ، بأوفر النشاطات كسباً وبتجارة المسافات الطويلة والتجار بالنقد . وقد سيطرت شركاتهم المهنية سيطرة كلية على « حرف » الصناعيين والسياسة الصغيرة ؛ ولما كانت هذه التجمعات تؤلف هيكل مجتمع المدن وتقوم ، كما هو طبيعي ، بادارة الشؤون العامة ، فقد راقب اوسع البورجوازيين ثروة ،

برأسه أقوى الشركات المهنية ، إدارة الشؤون البلدية ، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسية في المدن الداخلية في نطاق تكتلهم . وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجار الجوخ الاشراف في مبدن فلاندر الصناعية ، لمصلحتها ، الانظمة على المهن الدنيا ، التي يزاوها عمال الصوف ؛ وهكذا ايضاً اديرت شؤون التكتل في فلورنسا من قبل الفنون « الكبرى » الاثني عشر ، وقد احتل المركز الاول بينها كبار رجال الاعمال ، « تجار كاليا » . فتوصلت فئة البورجوازيين الاثرياء ، بقبضها على زمام المؤسسات المدنية ، الذي اتاح لها ان تنظم حياة المدينة الاقتصادية خير تنظيم لمصلحتها وتدير اموالها العامة ، الى ارساخ تفوقها ارساخاً نهائياً ، فاتسعت الهوة التي تفصلها عن الطبقات المتوسطة . ومالت طبقة الاشراف طبعاً الى ايصاء ابوابها في وجه حديشي النعمة ، وهذه ذهنية طبقية يعبر عنها افعال المجلس البندقي الكبير في السنة ١٢٩٦ مثلاً . وقد فاز بعض اعضائها بالنبل عن طريق القروسية : ففي فلورنسا اختلطت الارستوقراطية المنحدرة من اصل غير نبيل ، خلال القرن الثالث عشر ، بانسال عائلات الفرسان العريقة ؛ ولم يكن ارتقاء النخبة البورجوازية هذا الى مرتبة الاشراف وقفاً على المدن الكبرى دون غيرها . ولكن اولئك الذين لم يتسلخوا اسلحة الفرسان ، وامتلكوا مع ذلك الاراضي الواسعة والقصور ومارسوا حق التصرف وجمعوا بالاضافة الى ذلك كميات ضخمة من الذهب والفضة ، قد احتلوا في مجتمع اواخر القرن الثالث عشر مركزاً ارفع مرتبة من مركز معظم الفرسان .

اذا ما استثنينا انكلترا حيث عرف الاسياد كيف يستثمرون اقطاعاتهم بحذاقة ، واراضي الاستعمار الزراعي في المانيا الشرقية حيث تألفت طبقة قوية هي طبقة الاشراف القرويين ، وإيطاليا وبعض مدن فرنسا الجنوبية حيث اقام الاشراف برضاهم في المدينة واسهموا في النشاط التجاري ، رأينا ان التطور الاقتصادي قد الحق الضرر بالاشراف العريين . فقد تعددت مناسبات الانفاق امام الفارس ، الذي لا يأتي عملاً ، والذي يعتبر التبذير فضيلة كبرى . ولم يعد في القرن الثالث عشر ليرتضي بعميشه اجداده الريفية القانعة ؛ بل ثابر على التردد على الجمعيات والبلاطات ، ولم يكن جائزاً له ، من باب اللياقة ، الدخول اليها اذا لم يرتد ملابس « شريفة » الالوان يبتاعها من التجار ؛ وما زالت العدة العسكرية تتمتع يوماً بعد يوم ، واذا هي أمست أكثر فعالية ، فقد أمست أكثر غلاء ايضاً . وتكامل كذلك فن التحصين ومهاجمة الحصون ؛ فتوجب تحويل البرج الخشي والترابي القديم الى جهاز مركب من الاسوار الحجرية ؛ وغالباً ما اضطر حكام الحصون آنذاك الى تجنيد المتطوعين المحترفين المأجورين - انتشر الارتزاق العسكري في الغرب في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، وبعد مرور مئة سنة غدت الجيوش كلها مأجورة - كما اخذ صغار الاشراف ايضاً يحفرون الخنادق حول مزارعهم ويشيدون بجانبها الحصون ويحولونها الى بيت محصن . وجلي ان كل ذلك تطلب مالا وفيراً ، لا سيما وان الأسعار كلها كانت آخذة بالارتفاع . وانتشر استعمال الدراهم من جهة ثانية في كل مكان ؛ وكفوا عن اعطاء البنات نصيبهن من الارث العقاري مبدلينه ببائنة نقدية ؛ وأخذوا يهبون الكنائس قليلاً

من الارض ومزیداً من النقد ؛ وطلبوا في وصياتهم احياء الاعياد السنوية واقامة القداديس وتشبيد الكنائس بفرصهم على املاكهم دخولاً نقدية دائمة تضخمت قيمتها جيلاً بعد جيل ورتبت أغباء ثقيلة على الورثة . أجل لقد ساعد امتلاك الأعشار والاستمرار في استثمار احتياطي ضيق استثماراً مباشراً على ايدي الخدام المنزليين على تأمين معيشة العائلة وتلافي النفقات الغذائية ؛ ولكن الفارس يفتقر الى المال لكافة الحاجات الاخرى . فعلى الرغم من ان استبدال الأتاوات وأعمال التسخير بضرائب نقدية واتساع الحقوق الاميرية السيدية - فجميع الاشراف طالبوا أقباعهم آنذاك بالمساعدة المالية ، وأخضع الفئادون الجدد في فرنسا للاقتطاع التعسفي - قد زادا موارد الاشراف النقدية ، فان هذه الموارد باتت غير كافية واختل باستمرار ، في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، ميزان حسابات الفرسان . فالجىء الاشراف ، للمحافظة على مستوى معيشتهم ، الى الاستدانة - لا من انسابهم واصدقائهم ، كما فعلت الاجيال السالفة ، وكلهم يتخبطون في الضائقة نفسها - بل من المؤسسات الدينية المزدهرة ، ومن البورجوازيين و « لومباردي » المدن والامراء . ثم اخذوا ، بعد استنزاف المال المستدان ، يبيعون اراضيهم قطعة قطعة : فكان هناك بيع الخضوع (لقاء مال مسلف او تسديداً لدين) وبيع الحقوق او الاراضي النبية التي كثيراً ما اشتراها فلاحون افرياء او متمولون بورجوازيون يبحثون عن توظيف مضمون لاموالهم .

كان من شأن هذا الاضطراب الاقتصادي وهذا الافتقار التدريجي - الذي اعتبره الفرسان ضيقاً هائلاً ان يلبثوا ان يتغلبوا عليه - وهذا الهبوط الذي يسترعي الانتباه اليه ارتقاء بعض الطبقات من غير النبلاء ، إيجاد ردة فعل دفاعية في اوساط الاشراف . فتدخلوا تدريجياً ، بغية حماية الاملاك العقارية ، عن العادة القديمة القاضية باجراء قسمة متساوية بين ورثة من درجة واحدة ، ودرج العرف على ابقاء النصيب الاكبر للبكر ، او ادخال كافة اخوته الحياة الرهبانية . وتمسك الاشراف في الوقت نفسه بعد ان فقدوا تفوقهم عملياً ، بامتيازاتهم الشرفية وبالشارات الخارجية لتمييزهم الطبيعي . واحتفظت لهم انظمة السلم الالمانية ، في اواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر ، ببعض الملبوسات وبعض الالوان المعينة ، وحظرت حمل الاسلحة على غير الاشراف ؛ وقد حاولت المجموعات الفرنسية ، التي تبحث في الاعراف ، اظهار استخدام المؤسسات الاقطاعية وكأنه وقف على الاشراف ، واعارت اعتبار النبلاء اهمية اعظم - على الاقل - من اعتبار العامة . اما نتيجة تفاقم الروح الطبقيّة هذه ، فهي ان الفرنسيين نظروا الى النبيل في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، وكأنه صفة مميزة من صفات الرسالة العسكرية ، اي الفروسية ، ومن ثم الثروة ، تنتقل بالوراثة طبعا ؛ فبرزت نعوت جديدة (« الفارس » في الشمال و « الشريف الشاب » في الجنوب) تظهر تفوق انسال الفرسان اجتماعياً الذين لم يتوقفوا الى حل الاسلحة على الرغم من بلوغهم السن القانونية لذلك . أجل ان اثبات الطابع الوراثي للنبيل قد حصره ضمن حدود معينة ، ولكنه لم يمنع الافرياء الجدد من اجتيازها :

قلة اجتازتها بالكذب بعد ان عاش افرادها حياة الاشراف مدة طويلة كافية لانساء اصلهم ، وكثرة بالحصول من الامير على تعديل القانون لمصلحة افرادها والاجازة لهم بالانخراط في صفوف الفرسان المسلحين .

ان هذه التبدلات الاجتماعية كلها : اثرء النخبة من غير الاشراف الذين كانوا بحاجة الى عضد السلطة لتثبيت ارتقائهم ، ولا سيما افتقار النبلاء الذي عرضهم لكل اذى وارغهم على بيع حقوقهم وخدماتهم من العظماء ، اتاحت لبعض الامراء ، الذين عرفوا ، بفضل مركزهم الموثق ، بالنسبة للتيارات النقدية كيف يستغلونها لمصلحتهم ، توسيع بسط سيطرتهم . وكانت هذه ، احيانا ، حال بعض اصحاب القصور الذين تحكمت حصونهم بالطرق الكبرى او بسوق تجارية أو بمدينة مزدهرة ، والذين جنوا مكاسب هامة من الضرائب التي فرضوها على مرور البضاعة وبيعها ، واستطاعوا ارساء دعائم امارتهم الصغيرة . ولكن الحركة امنت الربح الوفير ، في الدرجة الاولى ، للملوك ولورثة المناصب الكبرى في القرون الوسطى الاولى الذين مارسوا سلطتهم الجبائية على مناطق فسيحة وتمتعوا من جهة ثانية بوجاهة كافية ، واعتمدوا وسائل عمل ذات فعالية كافية أيضاً للحصول من الممولين على قروض بشروط حسنة جداً .

٢ - رسوخ أركان الملكيات

يتضح من ثم ان انتشار الاقتصاد النقدي ، يضاف اليه اطراد سهولة العلائق بين البشر وبروز الأفكار الجديدة التي يشها التعمق في دراسة الحق الروماني ، كان احد الاسباب الرئيسية للتبدل الذي نشاهده ، بين منتصف القرن الثاني عشر واولئ القرن الرابع عشر ، في نظام الغرب السياسي ؛ فقد حلت محل تلك الكتلة الواحدة الكبرى ، التي لم تتميز عن المسيحية اللاتينية ، والتي تألفت من خلايا صغيرة مستقلة كثيرة العدد ، هي السيادات ، ملكيات كبرى متميزة ، هي الصور الاولى لدول أوروبا المعاصرة . بيد ان هذا التبدل قد ارتدى ، بحسب المناطق ، مظاهر على بعض التباين .

ليس من ريب في ان تجمع السلطات قد تم بمزيد من الاعتدال والاستمرار الملكية الفرنسية في مملكة فرنسا على الرغم من انها قاست أكثر من غيرها من التحلل الاقطاعي . فقد كان فيها للملكية مركز مرموق منذ منتصف القرن الثاني عشر . وحدث خلال ستة اجيال متعاقبة ان الملوك لم يرزقوا سوى ابن واحد ، فساعدت هذه المصادفة ، في الدرجة الاولى ، على ارساء مبدأ الوراثة في الملك تدريجياً ؛ وبفضل هذه المصادفة ايضاً ارتبطت الثروة المقارية العائدة للسلافة الكابيتية ارتباطاً متمنع الانفصال بالتاج ، فأعطته مرتكزاً سيدياً ثابتاً ، على ما يتسم به من تواضع . فمذ السنة ١٠٨٠ تقريباً ، توصل الملوك ، الذين أحاطوا هذه الاملاك بكل عنايتهم ، الى تخليتها سليمة ، وموسعة احياناً ، الى وريثهم ، وسعوا من جهة ثانية ،

دانخل حدودها ، الى اخضاع الأسياد العلمانيين لسلطتهم . وحوالي السنة ١١٦٠ ، حين أخذت القوى الاقتصادية المتفاعلة تشجع ، في كافة أنحاء فرنسا ، قيام سيادات اقليمية ليست دون املاك الكابيتين اتساعاً ووحدة ، صم هؤلاء على تخطي حدود الـ « ايل دي فرانس » . فأخذت السلطة الملكية منذ ذاك الحين ، وطوال قرن ونيف ، تتمكن وتتقوى ، ولكنها لم تتغير في جوهرها ولم تفقد الطابع الخاص الذي طبعت به في ظل النظام الاقطاعي .

كان ملك فرنسا ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً عقارياً وسيداً حاكماً مطلقاً التصرف . وقد ألفت هذه الامتيازات الخاصة المعقدة ، التي يستحيل حصرها في اطار واضح الحدود ، ما أطلق عليه بالضغط اسم « التراث » . فاستفاد لويس السابع وفيليب اوجست ولويس الثامن والقديس لويس من كل ساحة لتوسيع هذه السيادة : الفتح العسكري ، او الصفقات الحقة ، او التطاولات التي أضفى عليها العرف ، شيئاً فشيئاً ، صبغة قانونية ، او سياسة المصاهرات ، او حماية المؤسسات الدينية مقابل الاشتراك مناصفة في ممتلكاتها ، وحققوا هذا التوسع احياناً بضم مساحات كبرى الى تراثهم (كضم دوقية نورمانديا في السنة ١٢٠٤ ، وقد كانت أهم من الامارة الكابيتية الاولى) او بمكاسب صغيرة متعاقبة كثيرة ليست دون الضم فعالية ، وان حصلت في الخفاء او بتقدم تدريجي بطيء . وقد سمى الملوك في الحقيقة ، من وراء هذه المكاسب ، الى تجميع الكهاف من الاراضي لتأمين المال اللازم لانعاماتهم والاقطاعات لأبنائهم غير الابكار ، فلم يهتموا لاقتناء سيادة شخصية واسعة الاطراف اهتمامهم لمستقبل أنسالمهم ولضمان اخلاص اصحاب الأخاذات ؛ وقد اعترفوا في قرارة أنفسهم بأن املاك الملك ، المدة لتأمين معيشة البلاط والمهاطة بامارات تابعة ، لا يجب ان تسير في توسع لا نهاية له . ومع ذلك فان التراث الملكي ، بفضل المصادفات السلاية ومباديات العملاء الملكيين الجادة ، قد شمل ، طوال السنة ١٢٧٥ ، القسم الاكبر من المملكة ، ففدا الناس لا يميزون بين املاك الملك والسيادات العلمانية الصغيرة الداخلة فيها وممتلكات الكنائس الملكية ، ويعاملونها المعاملة نفسها . ولم ينبج من التوسع الكابيتي آنذاك سوى أربع امارات قامت عند حدود المملكة وتوطدت دعائمها بعد تطور داخلي شبيه بذلك الذي أتاح توسع سيادة الملك وألفت كيانات ذات طابع خاص تميزت عن فرنسا الملكية بلفتها احياناً وباهرافها وذهنيتها ابدأ : فلاندر ، غويان ، بورغونيا ، بريثانيا .

وكان ملك فرنسا من جهة ثانية ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً اقطاعياً ، وقد أعطاه مجموع الاراضي الخاضعة له حق الاستفادة من خدمات شخصية يؤديها له بعض اصحاب الاقطاعات . فسمى الكابيتيون كذلك وراء استفلال هذا الوضع ، واستخدام التفاني الذي يفرضه الاقطاع — والذي اعتبر في ولاية القديس لويس نفسها خير وسيلة مضمونة لاستئالة الانشرف — وتنظيم العلاقات الاقطاعية داخل المملكة بحيث يتألف منها شبه هرم يكون التاج رأسه الوحيد ، على ان يشمل كل الاراضي النبيلة التي لم تدخل بعد في الاراضي الملكية . ولعل هذا الهدف وراءى لهم مجزئ من الوضوح بعد ضم نورمانديا التي ارتدت الانطسة الاقطاعية فيها

طابعاً خاصاً من التنظيم والوحدة . اجل ، لم يتوقفوا قط الى تحقيق هدفهم تحقيقاً كاملاً . ولكن فرنسا ، حيث كانت معظم اراضي الفرسان أملاكاً خاصة بجهة ، وحيث الف اتباع جماعات محلية صغيرة غير وثيقة الارتباط ، قد سارعت ، بفعل علمهم وعمل اسياذ الامارات الاقليمية الموازي له ، الى اتباع النظام الاقطاعي ، فخضعت الطبقة العليا كلها لنظام من العلاقات الشخصية والعقارية بات متلاحماً ومتجهاً بكليته نحو شخص الملك . فأقر في الدرجة الاولى المبدأ القائل بأن الملك لا يقدم خضوعه لأحد ؛ ثم حصل الملك تدريجياً ، اما عنوة ، بعد حملة تأديبية ضد سيد سجنس ألحق الضرر بكنيسة يحميها الملك ، واما بشراء امتيازات احد الاشراف المدنيين في هذا القصر من قصوره . او تلك الارض من اراضيه ، على خضوع كافة الاشخاص البارزين في المملكة الذين لم يخضعوا له بعد . وقد سمى بصورة خاصة الى ان يدخل في تراثه الحصون وأعظم الحقوق مرتبة وأوفرها كسباً ، ودعا مرؤوسيه المباشرين من رجال الاقطاع الى ان يستميلوا اليهم بهذه الطريقة اشراف الجوار من المرتبة الثانية . وحرص الملك وعملؤه اخيراً على الاستفادة من تفوق السيادة ؛ ولما كانت هذه الاقطاعات جديرة بأن « تُخدم » ، فقد غدت الموجبات للاقطاعية آنذاك موضوعية وملزمة مع انها لم تزل ، في معظم المقاطعات ، مستبهمة ومتقلبة : خدمة السلاح وخدمة البلاط ، والمساعدة المالية ايضاً ، وقد اوضحها العرف في بعض الظروف ، ايضاحاً تاماً ؛ وحق الاقطاع المحدد ، كلما حل اللقب شخص جديد ؛ وخصوصاً قدرة مساعدي الملك على التدخل في السيادات المستقلة ، واستخدام الحصون « المنتجة » ، والنظر في دعاوى الدرجة الثانية والتلاعب بروح العرف الاقطاعي لاكتداد صاحب الاقطاع . فأثبت النظام الاقطاعي ، يطبقه امير يقوي مركزه استمرار توسع املاكه ، بينما اضعفت الصعوبات المالية العدد الاكبر من الاشراف ، انه اداة ذات فعالية نادرة . وقد استخدمه فيليب اوغست حتى ينزع من « جان سان تير » تابعه خير ممتلكاته في فرنسا ؛ وحين ضحى القديس لويس بشرط من فتوحاته الحديثة ، بغية حل هنري الثالث ملك انكلترا على الاعتراف به سيداً عليه بالنظر لممتلكاته في اليابسة ، كان مقتنعاً بأنه انما يقوم بصفقة رابحة ؛ وان في المصير الذي انتهت اليه دوقية غويان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، التي انكشت رقعتها باستمرار بفعل مصادرات متعاقبة تليها ردود ناقصة ، انه كان مصيباً في اعتقاده .

أفضى توسع سلطة ملك فرنسا الخاصة ، السيدية والاقطاعية ، الى توسع اجهزة الادارة . كانت هذه الاخيرة ، في القرن الثاني عشر ، بدائية جداً : فالملك ، شأن أي صاحب قصر آخر ، يلجأ ، لمساعدته على ادارة ثروته العقارية واعمال حكمه ، الى اهل بيته او « نزله » ، أي انسابه وخدامه وبطائنه ؛ وان هذا الجمهور الصغير ، الذي انضم اليه ، بين حين وآخر ، اصحاب الاقطاعات الآتون لتأدية واجب المشورة ، هو ما الف « بلاط » الملك . واستخدم الملك اخيراً ، بغية المحافظة على مركزه في السيادات التي تؤلف تراثه وممارسة حقوقه فيها وجمع دخوله منها ، مأمورين من اصل وضيع ، هم الممثلون ، الذين يلتزمون وظيفتهم التزاماً بغية تبسيط عملية جمع

المال . وعندما توسع التراث في اوائل القرن الثالث عشر ، بات لزاماً على الملك تعيين ممثلين اضافيين أكثر امانة وارفع نسباً ، هم القضاة الذين اختار العدد الاكبر منهم بين صغار فرسان حاشيته . وتميزت في الوقت نفسه اجهزة الادارة المركزية . فبينما تنظمت شتى ادارات «نزل» الملك ، شيئاً فشيئاً ، وفي تواريخ يصعب تحديدها لأن قيامها كان تلقائياً دون ان تقره قوانين نظامية قبل القرن الرابع عشر ، تفرعت عن البلاط ادارات ذات اختصاص ما لبثت ، تدريجياً ، ان أصبحت مستقلة ودائمة : ادارة أسندت اليها شؤون القضاء وعرفت بـ « محكمة البرلمان » ، وأخرى انيطت بها رقابة الأموال الملكية ، وعرفت بـ « غرفة الحسابات » . غير ان الموظفين الذين دخلوا في خدمة الكابيتيين ، قد حفظوا من اصلهم الوضيع الخاص ميزتين أساسيتين . فهناك اولاً وحدة ذهنيته وثقافتهم : فلم يبق قط أي تمييز او تعارض بين «النزل» ، منبت الخدام ، والبلاط ، وبين حاشية الملك واجهزة الحكومة . وهنالك خصوصاً الانقياد : فبعد هجوع مصالح البلاط الكبرى منذ اوائل القرن الثالث عشر ، بات كل رجال الملك وضيعة الاصل واستمدوا قوتهم من قوة الملك وحدها وبرهنوا عن انصياع تام وعن قفان كلي في الدفاع عن الامتيازات الكابيتية . وهكذا فانت سيطرة ملك فرنسا تعززت تعزراً عظيماً حوالي السنة ١٢٧٥ بفعل حركة يعود الفضل الاكبر في بعثها الى هؤلاء المساعدين . اجل ربما تعاظمت هذه السلطة بفضل المركز الفكري الذي احتلته باريس ، مدينة المدارس ، وقد غدت عاصمة الكابيتيين الحقيقية الدائمة ، ولكنها تعززت من جهة اخرى بالاشعاع الروحي القوي المنبثق عن الملك السابق ، القديس لويس ، الذي اهتم اكثر من اسلافه بالعدل ، اي بالفضيلة الملكية بالذات ، والذي كان اول ملك في سلالة وضع النظمة تشمل المملكة بأكملها في المجال الاخلاقي الصرف . وعلى الرغم من ذلك فما زالت سيطرة سيد اقطاعي توسعت سلطته الخاصة حتى شملت معظم انحاء المملكة .

الا ان السلطة الملكية ، التي ما زالت تتوطد باستمرار ، اخذت في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، تتطور في جوهرها ، وذلك بفعل تأثير مزدوج . هناك اولاً تأثير فكرة السلطة العامة التي بعثت حية في اعقاب الدراسات التي تناولت الحق الروماني منذ اوائل القرن . فان هذا المفهوم الجديد للسيادة ، الوثيق الصلة بالاعتناع بأن السلطان ، المستخدم « للخير العام » ، لا يمكن ان يكون ملكاً خاصاً ، قد انتشر خصوصاً بفضل « قانوني » القسم الجنوبي من الاملاك الملكية الذين تلقوا علومهم في مدارس «مونبلييه» . وهنالك كذلك تأثير اهل البطانة أنفسهم الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً عظيماً بفضل تعقد الادارة المتزايدة واطراد استخدام الكتابة : فقد نشأت طبقة جديدة آنذاك ، هي طبقة ممثلي السلطة واهل القانون والقلم . ولما كان هؤلاء قد عموا مفهوم السلطة العامة ، مؤكدين ، بصيغ واضحة ، ان الملك وحده ، في حدود مملكته ، يتمتع بالسلطة الملكية ، بات لمجرد وجودهم امره الهام ايضاً . فان هيئة الموظفين الحاكمين ، المؤمنة جماعياً على سلطة اعتبرت آنذاك مثالية ومغفلة ، والباعثة الحياة في آلة ادارية امست

قادرة على السير بمجرد حركتها ، اخذت في تلك الايام تتفوق على شخص الملك نفسه : ولعل «فيليب له بيل» هو اول ملك فرنسي تدنى تأثيره على تسيير الشؤون العامة . وبينما اخذ الاحتفال بتكريس الملك يفقد الكثير من اهميته اخذت السلطة الملكية ترتدي طابعاً اشد تجرداً وابهاماً ان هذا المظهر الجديد للسلطة المطلقة ، المتفوقة على كل سلطة اخرى والمختلفة في جوهرها عن سلطة الاسياد ، ساعد التأثير الملكي على احراز تقدم جديد . فقد نهى الناس شيئاً فشيئاً للأقرار بان للملك ، الذي يعمل بعد اليوم للخير العام ، ويعبر عن ارادة المجموع بحسب المبادئ التي استقتها الفلسفة الكلامية من مؤلفات ارسطو السياسية ، ويدعو احياناً مثلي الطبقات المهمة في المملكة كي يعرض عليهم الاسباب الموجبة لقراراته - ذلك كان الهدف من استشارات السنوات ١٣٠٢ و ١٣٠٨ و ١٣١٤ - الحق في ان يوجب على رعاياه ، خارج نطاق املاكه او نطاق العلائق القطاعية ، الخدمة العسكرية او ضرائب نقدية تقوم مقامها . غير ان التقدم ، بصدد هذه النقطة الاخيرة ، كان في الحقيقة بطيئاً : فان الرأي القائل بان للملك الحق في فرض الضرائب ، بالإضافة الى دخول سيادته العادية ، لم يكن غالباً قط في اوائل القرن الرابع عشر . ومرد ذلك الى ان الاجهزة المالية في الملكية ما زالت ابتدائية في عالم لعب المال فيه دوراً متعظماً الاهمية وفي الوقت الذي انتشر فيه دفع المرتبات في الجيش الملكي وأحل الارتراق المأجور محل الخدمات القطاعية .

في كثير من الامارات ، كفلاندر ، وبورغونيا ، والفويان في داخل مملكة انكلترا فرنسا ، وبروفنسا او هينو عند حدودها ، تعززت السلطة بالطريقة وبالسرعة نفسها تقريباً ، اي بتوسع الاملاك وتعدد اجهزة الادارة وتوطيد السيادة بفضل القانونيين . ولكن التطور لم يتم دائماً في زمن واحد . فهو قد تأخر في مناطق اسبانيا المسيحية التي نجت من خطر العرب منذ اوائل القرن الثالث عشر وسارت في طريق التوحد حول تاجي قشتالة واراغون لأن السلطة الملكية فيها كبحتها ارستوقراطية . وستها معارك استعادة البلاد وحدت منها قوة الامتيازات المحلية وخضعت لرقابة جمعيات الممثلين القانونية . ولكنه كان مبكراً وحيثاً في مملكة صقلية حيث استطاع «فردريك الثاني دي هومستوفن» ، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي بيئة تميزت بانقيادها وطواعيتها ، تنظيم سلطة ملكية واسعة الصلاحيات تركز الى ادارة تسلسلية مغلصة جداً ، وتسيطر على الكنيسة نفسها حيث تقتصر بموارد جبائية وافرة . واتجه التطور اخيراً ، في انكلترا والامبراطورية ، اتجاهاً آخر مختلفاً تماماً .

افضى الفتح في المملكة الانكليزية الصغيرة الى اقامة نظام تبعية اقطاعية ومشاركات زراعية على الطريقة النورمندية يخدم مصلحة الملك ولا يتساهل ، باستثناء الحدود العسكرية في الشمال والغرب ، بقيام امارات اقطاعية متراسة . بعد ان كبس الفاتح جراح الارستوقراطية الانكلو-نورمندية ، حاولت هذه الاخيرة الاستفادة من المنازعات السلالية التي عقب موت هنري الاول (١١٣٥) ، بغية الحصول ، على غرار ارستوقراطيات اليابسة ، على استقلال حرمت منه :

فاستولت على شطرها من الاملاك الملكية واستأثرت بالقصور وشيدت حصونا جديدة واوجدت سلطات اقليمية اعظم تلاحا. ولكن هذه الحركة كانت سريعة الزوال. بيد ان اصلاح الملكية، الذي مهد له هنري الثاني بلانتاجنيه في السنة ١١٥٤، قد تم بمزيد من السهولة، لا سيما وقد ابقى على معظم انظمة العهد السكسوني الاساسية التي جمعت الشعب كله، بفعل جمعيات الكونتية والمئات المحلية، في ظل « قانون مشترك »، هو قانون الملك، يؤمن لهذا الاخير، في احوال الغزو، وبحسب الكيفيات التي نصت عليها اتفاقية الاسلحة في السنة ١١٨١، الخدمة العسكرية المفروضة على كافة الرجال الاحرار الذين ينضم اليهم، عند الحاجة، الاتباع الخاضعون لتجنيد الزامي ايضا. لهذه الاسباب، وعلى الرغم من ان الملك المفتقر الى املاك واسعة والحريص ايضا على الاستفادة من حق المأوى، لم يقيم اقامة دائمة في عاصمة واحدة، اتيح للسلطة الملكية فيها ان تنطلق دون ان يعيقها عائق. والدليل على انطلاقها المبكر أن أجهزتها الرئيسية توطدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر: ممثلون محليون، مأمورو أحكام مدنية، يعملون بسلطة الملك، وقضاة يقومون بمحولات دورية، واداة رقابة مالية، هي رقعة الشطرنج، ومحكمة قضائية مركزية ما لبثت ان تجزأت محكمتين، احدهما ثابتة (المحكمة المشتركة) والثانية متجولة ترافق الملك (محكمة الملك)، فاعطى كل ذلك المملكة هيكلًا متينًا. وكان هنري الثاني وريكاردوس قلب الاسد اعظم ملوك عهدهما اطلاقاً، واستطاعا وحدهما منذ ذاك العهد الاعتماد على تفاني وغيره موظفين محترمين، « كتبة الملك »، وكانا اوسع ملوك عهدهما ثروة ايضا لانها استثمرا، الى اقصى حدود الاستثمار، حقوقها الاقطاعية ومكاسبها القضائية. ولكن شدة هذه الاعباء نفسها، التي ناءت بثقلها على اسباب عقارين عززت نزعتهم الاقتصادية مركزهم - بينا هي قد اذلت الاشراف في فرنسا - جعلت السلطة الملكية، على نقض سلطة الكابيتيين، تميل الى الانكماش والحصر. وحدث مرتين خلال القرن الثالث عشر ان ارغم اوسع اتباع الملك ثروة، البارونات، تساندتهم الكنيسة، على الحد من ادعاءاته؛ لا بل حدث مرة في السنة ١٢٦٤، انهم اخذوا على عاتقهم ادارة شؤون المملكة طيلة اشهر عدة. ووضعت وثائق خطية، كميثاق السنة ١٢١٥ الذي تأيد تكراراً، اظهرت بجلال الحدود النظرية لتحكم ملكي استحالته ممارسته دون رضى عليه الاشراف ومساعدتهم. اصف الى ذلك اخيراً ان القوة الجديدة التي استمدتها جمعيات الكونتيات من ائراء الفرسان، تلك الطبقة العسكرية التي بات افرادها اعياناً ميسورين وولاة محليين، جاءت بدورها تزيد الطين بلة في الحد من بطانة الملك ومثليه، باحتفاظها للمأمورين الذين تنتخبهم هذه الجمعيات، اي لجماعة من الفرسان المحليين، بادارة العديد من الشؤون، ولا سيما المحافظة على النظام. بيد ان ما يجدر لفت النظر اليه هو ان تضامن البارونات والجماعات المحلية في ممارسة السلطة قد حققت، بين الامة والملك، وحدة لا مثيل لصفواتها في اي مكان آخر. واذا كان الملك حاذقاً وشعبياً، توفر له وسائل عمل قوية.

كانت هذه حال ادوارد الاول في الربع الاخير من القرن الثالث عشر. فقد كان اول ملك

انكليزي الاسم منذ الفتح ، ان لم يكن انكليزي النزعة ، وملكا ظافر توصل بفضل ضم بلاد
الويلز وحملاته العسكرية في سكتلندا ، الى الحد من دور وتأثير عظام البارونات في اطراف
المملكة ، فقام باستقصاءات واسعة للحفاظ على الحقوق الملكية أو استعادتها ، في اطار العلائق
الاقطاعية ؛ واستفاد في الحكم من خدمات قصره المتميزة بالسرعة والمرونة ووسع بصورة
خاصة اجهزة « الصوان » المالية . واستفاد كذلك من انطلاق التجارة ، فوجد موارد وافرة
في استثمار الجمارك ولا سيما الرسوم المستوفاة على استيراد الخمر وتصدير الاصواف والجلود ،
وعقد قروضا ضخمة لدى رجال الأعمال المقيمين في لندن . فاستطاع بذلك ، الا في بعض
فترات الشدة ، تمويل سياسته دون أن يثقل بالاعباء مملكة تفتقر الى الثروات الكبرى .
وغالبا ما أمر أخيراً ، رغبة منه في ابراز الجلالة الملكية بكل سناها ، باجتماع مجالس الممثلين
ومجالس البارونات ، وجمعيات اصحاب الاخذات المكلفة مساعدة الملك على توزيع العدل ،
« والمجلس المشترك » الذي يقر الاعتمادات التي يطلبها الملك ، وفرسان الكونتيات وبورجوازي
المدن الناشئة . وباستطاعتنا القول ، بعد كل اعتبار ، ان الملكية الانكليزية ، وان مرت في
فترات عاكست مصالحها واضطرت الى تراجع غير ذات نتيجة ، لم تكن في اوائل القرن
الرابع عشر دون ملكية فرنسا متانة ورسوخا .

اما السلطة الملكية فقد اذلت اذلالا تاما في الامبراطورية آنذاك .
مناطق الامبراطورية

ومع ذلك فان احياء الحق الروماني والعلائق الوثيقة ببيزنطية
وشخصية فردريك بربروس نفسها قد عززت المفهوم الامبراطوري تميزاً قوياً . اجل لقد
تلاشت آنذاك الامبراطورية والملكية الالمانية بحيث كاد مسح الامبراطور من قبل البابا يعتبر
بجرد اجراء طقسي واخذ امراء جرمانيا يعتقدون بانهم هم الذين ينتخبون الامبراطور فعلاً ،
وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقليد الكارولنجي ، كما ابرز ذلك اعلان قداسة شارلمان في السنة
١١٦٥ ، واختارت « إيكس لا شابيل » والمناطق الرينانية مركزاً للشاطها ، ولكن الامبراطورية ،
مع ذلك ، بدت وكأنها امتداد مباشر لامبراطورية الرومانين التي مجد قانونيو بولونيا عظمتها
الفريدة وطابعها المقدس . وفي الوقت نفسه الذي اعلن فيه الامبراطور اوغسطس ، في ممالك
جرمانيا وايطاليا وبروفنسا ، عن حقه في الامتيازات المطلقة ، كان يستخدم الانظمة الاقطاعية
لتوسيع سلطته . وقد طالب أخيراً ، على غرار اسلافه ، بالسيادة على العالم ، اي بادارة كافة
الدول المسيحية ، وبمراقبة البابوية على الطريقة الكارولنجية ، وبالسلطة الادبية على ملوك الغرب
الآخرين المعتبرين تابعين للامبراطورية . وسعى هنري السادس ، في الواقع ، الى بلوغ هذه السلطة
بواسطة العلائق الاقطاعية ، فظفر بخضوع ملوك قبرص وانكلترا ، وحاول الظفر بخضوع
فيليب اوغست .

غير ان هذا البناء الساحر ما عثم ان انهار لانه لم يقم على اسس متينة . فالملكية الالمانية
التي كانت بمثابة ركيزة للامبراطورية قد افتقرت الى الاستقرار والعزيمة : ومرد ذلك الى انها

كانت ملكية غير وراثية تضعفها ، بمناسبة كل خلافة ، التنازلات التي يضطر الملك المنتخب الى القبول بها لمصلحة العظماء كي ينتخبوه ، و ملكية دون املاك ، هائلة ، منتشرة في كل مكان وغير ثابتة الاركان في اي مكان . فكان متمذراً عليها والحالة هذه الاحتفاظ بنفوذها على المملكتين الاخرين . فالى الغرب من جبال جورا والالب ، لم تكن السلطة الامبراطورية آنذاك سوى كلمة لادلالة لها ، وقد امسى تأثيرها السياسي دون التأثير الفرنسي بمرحل . وكان لزاماً لاحكام سيادتها على ايطاليا ، الجموحة ، الوافرة المدن ، اهمال الارياف الجرمانية ، وتخلي الاباطرة الالمان كذلك عن ادارة عملية التوسع نحو الشرق التي تمت بدونهم لمصلحة امراء الحدود . ثم اتجهت الامبراطورية تدريجياً شطر الجنوب : فقد رغب هنري السادس ، سيد صقلية ، في السيطرة على المتوسط ، كما صمم ابنه فردريك الثاني على تشييد سلطته في روما . اضيف الى ذلك ان مطالبات ملك المانيا ببسط سلطته على كافة الدول المسيحية اثارت معارضة ضارية قضت في ايطاليا وجرمانيا على ما تبقى له من سلطة حقيقية . فقامت معارضة الممالك الغربية حيث اخذت تنضج الفكرة القائلة بان الملوك ، وهم اباطرة في ممالكهم ، لا يمكن ان يرتضوا باية وصاية : وهكذا فان فردريك الثاني ، الذي سبق له وتخلي عن كل حق حماية مراعاة منه لشعور غيره قد فشل فشلاً ذريعاً عندما دعا ملوك الغرب لتأليف ما يشبه وحدة روحية تكون بمثابة حلف يقاوم الهرطقة وادعاءات الكنيسة الزمنية في آن واحد . وقامت معارضة اشد نضالية نهضت بها البابوية المتمسكة تمسكاً متزايداً بأولويتها الروحية .

زالت الامبراطورية اذن ، كنظام ، في منتصف القرن الثالث عشر ، حين عجزت عن التغلب على هذه العقبات الكثيرة ، ولم يعرف الديومة ، كعلم وحدة وسلام ، سوى المثل الامبراطوري الذي احياء تبار فكري مسيحي غذته مؤلفات الكاهن الايطالي « يواكيم دي فلور » ، وقوته في الآونة الاخيرة أبحاث عقائدية وضعت بايعاز من فردريك الثاني أثناء صراعه مع البابا . وقضى هذا الانهيار على الوحدة التي ربطت ايطاليا بالمانيا وأحدث في المناطق التي كانت خاضعة خضوعاً مباشراً للامبراطور تقهقراً سياسياً عميقاً ، اذ انه ، على نقيض ما حدث في الممالك الأوروبية الغربية المتلاحمة ، أدى بها الى التجزئة والمنافسات . ففي المانيا عرفت السلطة الملكية الذلّ والهوان خلال فترة شغور العرش التي عقيبت موت فردريك الثاني وتجاوزت عشرين سنة وتميزت بأعمال العنف والحروب الأهلية واستباحة السلب في املاك الملك وامتيازاته وتوطد السلطات المحلية في ظل الفوضى الشاملة . فباتت هذه الدولة من ثم مجموعة امارات مستقلة استأثرت بكافة الامتيازات الملكية اما اغتصاباً واما بفضل الامتيازات الخاصة التي منحها فردريك الثاني والمطالبون بالعرش من بعده . وكانت هذه الامارات في الشرق متراسة وواسعة الرقعة بينما هي كانت في الغرب متشتتة ومتناثرة جداً ، لا سيما في وادي الرين ؛ وقد أفسحت مكاناً للندن الحرة الداخلة في تحاديات تستهدف الدفاع السياسي ، كما أفسحت احياناً ، في جبال الالب ، مكاناً لطوائف مستقلة من الجبلين اخذت في سويسرا تؤلف الاتحادات .

وعرفت إيطاليا الامبراطورية تجزؤاً أعظم في السلطات التي توزعت على بعض الامارات الاقطاعية وراء الالب ، ولا سيما على المدن . ولكن التكتل البورجوازي ، الذي ما زال قوياً في توسكانا ، والذي اخذ - وهذه ظاهرة من ظواهر شمول انتصار المبدأ الملكي - يتوارى في لومبارديا امام قوة « مستبد » يتولى « السيادة » هو الذي عاد اليه السلطان وكافة الحقوق التي أحيتها دراسة التشريع الروماني ، وخضعت له الارياف المجاورة . ولكن خلافات دائمة قامت بين هذه المدن المتنافسة تجارياً ، وحتى بين جماعات المدينة الواحدة احياناً حيث تباينت مصالح الاشراف والأثرياء وصغار الصناعيين فتجهموا فئات متخاصمة متزاحمة . في هذه البيئة المضطربة بالذات ، وبين المبعدين الذين تاقوا في منفاهم الى وطنهم السليب ، استمر الامل الوطيد بالامبراطورية ، أي امبراطورية رومانية حقاً متملصة من التأثير الجرمانى .

وهناك اخيراً ادعاءات البابوية بادارة العالم السياسية ، وقد تعاضمت بفعل انهيار السلطة الامبراطورية نفسه . فقد رسخت عقيدة الأولوية البابوية في مقاومتها فرض الامبراطور سيطرته على العالم المسيحي وعلى الكنيسة ؛ وقد وجدت عضداً لها في الانظمة الاقطاعية وفي المفهوم الجديد للسلطان كما جاء في مجموعة القوانين *Corpus Juris* . وفي القرن الثالث عشر اعتمر البابا تاجاً ثانياً دلالة على تفوقه . ثم قام انوشنتيوس الثالث بمشروع يقابل مشروع الامبراطور هنري السادس ، فبذل الجهد كي يؤلف حول الكرسي الرسولي شبكة واسعة من التبعيات الاقطاعية كان من شأنها ان تجمع وراء الكنيسة الرومانية كافة ملوك العالم المسيحي ؛ وقد امست أراغون ، وبلغاريا ، وسيادة سيمون دي مونفور في لنغدوك ، ثم مملكة انكلترا ، اقطاعات تابعة للكنيسة وبرهنت عن خضوعها بدفع فريضة سنوية . وقر الرأي شيئاً فشيئاً على ان الامبراطور نفسه صاحب اقطاع خاضع للبابا ؛ واستند البابا بونيفاسيوس الثامن ، في ابهة يوبيل السنة ١٣٠٠ ، الى اطروحات جيل الرومي وجاك الفيتري التي بنيا فيها مذهباً متراصاً من آراء القانونيين حول السلطة البابوية ، فاحتفل بسلطة اسقف روما ، المرشد الوحيد للشعب المسيحي زمنياً وروحياً .

الا ان هذه الادعاءات جاءت متأخرة في الواقع . فلم يكن باستطاعة البابا ، كما لم يكن باستطاعة الامبراطور ، ان يفرض حمايته على الدول التي تقاسمت اوروبا آنذاك . وكان من شأن هذه التأكيدات لإثارة عدد متزايد من اولئك الذين تأثروا بتحذير المؤلفين السابقين ؛ ابتداء من القديس برناردوس ، للعبير الاعظم ، من مغريات السلطة ، واعتبروا ، بفعل الدعاوة العنيفة التي يشنها المناضلون في خدمة فردريك الثاني ، ان البابا انما يتنكر لرسالته الحقيقية بسعيه وراء السيطرة الزمنية . فالعالم المسيحي الذي توحد في العهد الاقطاعي وفي الحملات الصليبية الاولى قد تجزأ في الواقع نهائياً . وقد احدث هذا التجزؤ نفسه ، وتمتاز السلطات العلمانية من جهة ، والتطور الاقتصادي من جهة اخرى ، وتعظم قوة المال وما انتهى اليه من تحوّل في الاخلاق ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، قلقاً متزايداً داخل الكنيسة .

٣- تعرض وحدة الكنيسة للاخطار

بيد ان السلطة الملكية قد تعززت باستمرار في الكنيسة ، كما تعززت في الممالك الغربية وامارات المانيا الشرقية والسيادات المدنية في ايطاليا الشمالية ، بفضل الصراع نفسه الذي جعلها تبدي تلك المقاومة الطويلة في وجه السلطات العلمانية بمناسبة التوليات اولا ، و « السيطرة على العالم » ثانياً . فقد جعل توسع الحق القانوني من اسقف روما ، الذي نظمت المقررات الجمعية انتخابه تدريجياً ، المشترع الاعظم في العالم المسيحي ، ومعصوماً عن الخطأ ، لارت « حكم البابا وحكم الاله حكم واحد » كما اعلن ذلك في اوائل القرن الرابع عشر مؤلف وضع بحثاً حول الاولوية البابوية . وكما ان الاجهزة المركزية في الملكيات الزمنية قد تميزت وُفرّق بينها تدريجياً ، كذلك توزعت الشؤون الكنسية على لجان مختصة من الكرادلة الذين تعاضلهم شأنهم تعاضلهم مطرداً ، والذين استلموا في منتصف القرن الثالث عشر شارة مميزة هي القبعة الحمراء . وقد تزايدت هذه الشؤون في الواقع تزايداً مطرداً ايضاً؛ التدخلات المتعددة في تعيين الاساقفة ، والدعاوى القضائية المتكررة المقامة امام محكمة روما . وتوسعت اخيراً ، خلال القرن الثالث عشر ، الاجهزة المالية التابعة لهذه السلطة المتعاضلة : فبينما طوالب بشدة آنذاك باعفاء رجال الاكليريوس من الموجبات الجبائية الزمنية فرضت رسوم على الكنائس والمستفيدين من الارباح وفرت موارد نقدية شعرت الباباوية ، على غرار السلطات العلمانية ، بالحاجة إليها ، فساعدت هذه المركزية وهذا التقدم في الجهاز الاداري على غرار ما حدث في الدول الاخرى ، على تلاحم الكنيسة ووحدها .

الا ان هذه المركزية اصطدمت بنزعات معاكسة قوية جداً حرّكت جمهور القوي المعادية الشعب المسيحي نفسه . فبحرف النظر عن التطور السياسي العامل على خلق الحواجز والمحيب بالامراء وسكان المدن ، الفيارى على امتيازاتهم ، الى مقاومة الحصانات الكنسية ومقاواة رجال الاكليريوس واخضاعهم واستغلالهم اسوة بغيرهم من الرعايا - وانت في موقف الملك حيال رجال الكنيسة ، منذ القرن الثاني عشر ، في انكلترا ، حيث بلغت السلطة الملكية مرحلة النضج قبل غيرها ، لغزى عظيم في هذا المجال - قامت حوالى السنة ١١٥٠ ، بتأثير من تقدم الحضارة نفسه ، ثلاث حركات تناهض النظام الادبي والفكري والروحي الذي فرضته الكنيسة الرومانية بوسائل اعظم قوة .

فهناك ، في الدرجة الاولى ، تزايد التهافت على ملذات العالم ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن ظروف المعيشة ونمو العلائق بين الناس . فان ميل الفرسان الى الاجتماعات العالمية ، الذي ظهر منذ اواخر القرن الحادي عشر في فرنسا الجنوبية وفي بروفنسا وتسرب تدريجياً الى كافة أنحاء أوروبا خلال القرن الثاني عشر ، وارتقاء المرأة في مجتمع الاشراف ، وانتشار تلك الآراء واللياقات التي اطلق عليها اسم « الأنس » ، واستهدفت المحبة قبل اي شيء آخر وخدمة السيدة المختارة ، خارج انظمة

الزواج المسيحي ، واطراد التطفل في المذات على انواعها ، كل ذلك صرف افراد الطبقة العليا تدريجياً عن المفاهيم والموجبات التي فرضتها الكنيسة وافضت رويداً رويداً الى نوع من التبدل في القيم الاخلاقية . فنشأت من ثم في هذه الاوساط محبة للعالم ظهرت اولاً في القصائد الغنائية للفرسان الفرنسيين في اواخر القرن الثاني عشر وفي الاطراء البريء للبهجة الدنيوية وادت اخيراً الى الخشية من الموت الذي لم يعد ينظر اليه كنهاية السفر وبداية الافراح الصافية ، بل كإنتزاع وحرمات ، وما يؤيد هذه الخشية ، في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، التغير الذي طرأ على المواضيع التصويرية . اضيف الى ذلك ان الرغبة في الكسب ، في اوساط التجارة - وغالباً ما رافقها عند البورجوازيين المحطاط كبير في الاخلاق -- والحرص على جني الارباح من البيع والاقراض ، لم يأتلفا تماماً مع ممارسة المحبة . وهكذا فقد افصى التقدم المادي ، عند رجال الاكليروس وعند العلمانيين على السواء ، الى التنكر الصريح للتعالم المسيحية .

وهناك ، في الدرجة الثانية ، تقدم العلوم العقلية النظرية . فان الاداة الجدلية التي استنبطت في النصف الاول من القرن الثاني عشر استخدمت بعد ذلك بحماس في عالم رجال الفكر وانتهت الى توجيه تفكيرهم توجيهاً كلياً . ولعل الحضارة الغربية لم تعرف حقبة أشد اهتماماً بالمنطق والبرهنة والنقاش والتبويب والتجريد من القرن الثالث عشر . وتفسر حتى هذه الابحاث النظرية اهتمام المفكرين المسيحيين وشغلهم بمؤلفات ارسطو التي نقلت تبعاً من العربية الى اللاتينية في اسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثاني عشر . وكان من شأن اعادة العلاقات الثقافية ببيزنطية . وهو حدث رئيسي في تاريخ ذلك العهد يستره فتح القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، مع انه مدين في الدرجة الاولى لتقدم المواصلات بوجه عام ولتقص المسافات -- انما ادخلت مزيداً من الخلو على غالبة المذاهب الفلسفية السابقة للعهد الميلادي . ولقد اعطى المخطوطات اليونانية بنوع خاص دروساً اعظم صراحة عن مؤلفات الستاجيري (ارسطو) بمسند ان نوع عنها غشاء المسرين المشوه ، ومبنى اعظم سحراً ايضاً . واخذ اساتذة المدارس الباريسية حوالي السنة ١٢٢٥ ، يحدون حدو غليوم دوفارني في تطبيق اساليب الفلسفة العقلية على بحث المسائل اللاهوتية ، وهو اتجاه حاسم لعمرى اذ ان العقل ليس سوى حرية الانسان واقلة امام « المراجع » وجرفومة استقلال في وجه الافتسارات الفكرية . وقد زاد من اقلاى هذا الموقف ان الاساتذة والطلاب ، وسعلمهم من الاكليروس ، لم يجدوا بواسطته آنذاك منجاة من نظم الكنيسة القائمة . فمنذ اوائل القرن الثاني عشر اخذ رجال الفكر بقصدون بعض المراكز الكبرى حيث يجتمع خيرة الاساتذة وتتوفر افضل الكتب ؛ وهكذا تكونت بدوات الباحثين الاولى ، في بولونيا لدراسة القانون الروماني ، وفي باريس لتعليم الفنون العقلية والاستقصاء اللاهوتي . فراحمت هذه المدارس ، المتميزة بمزيد من الحرية ، مدرسة الاكليروس المحلي ؛ ولم يعد باستطاعة الاسقف ورئيس ديوانه ، على الرغم من احتفاظها بامتياز منح و اجازة التعليم ، لاساتذة المد ، مراقبة التعليم والفكر مراقبة فعالة .

وهناك أخيراً نزعة اعم انتشاراً ورسوخاً في الطبقات الشعبية وعلى جانب كبير من القوة ، كما يبدو ، في عامة سكان المدن ، برزت اشد خطراً على الانظمة الكنسية ، مع انها كانت ، على نقيض النزعتين الاخرتين ، عامل اثم وتجهيد للروحانية المسيحية . وقوامها تحول عميق في الموقف الديني وممارسة التقوى يؤيده استمرار تلطيف المواضيع التصويرية الدينية وقفها وانتشار عبادة العذراء التي باتت آنذاك ، للعديد من النفوس ، محور الحياة الدينية ، والرواج الغريب الذي عرفته الروايات المزيفة المعطفة المنسوجة حول النصوص الانجيلية ، وازدهار المأساة الطقسية التي كانت نقطة الانطلاق للمسرح الديني باللغة العامية . وقد سعت هذه الحركة الصوفية الطابع وراء التأثيرات العاطفية القادرة على ادخال مزيد من الحرارة على مجموع الطقوس التي تفرضها الكنيسة ، ووراء كل ما من شأنه ان يؤثر مباشرة على الحواس ويتيح للبسطاء من الناس الاتحاد ، بدون مداورة فكرية ، باله عطف ومعز ، فهايت من ثم طبعاً الى الحد من دور الكنيسة القائمة . والكنيسة القائمة هي بالضبط موضوع اللوم والتعير بسبب تعلقها المفرط بالماديات ، اذ انت تطور العاطفة الدينية هذا كان في الواقع امتداداً مباشراً للجهود المبذولة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، اي منذ حدوث النهضة الحاسمة في الاقتصاد النقدي ، بغية احياء الفقر الانجيلي ضد رغبة الرؤساء الروحيين .

استهدف هذا التوق الاتحاد العاطفي المباشر بالمسيح ، باحتقار وساطة الاكليروس الفاطس في الزمنيات والمشغول بالشؤون الادارية ، واصلاح اجهزة المجتمع الديني اصلاحاً جذرياً . وقد افضى ، في اشكاله القصوى ، الى قيام نخبة مختارة من « الصالحين » المنحدرين من المجتمع العلماني مباشرة ، « الانقياء » حقاً اي فقراء واطهار ، المكلفين ايصال الروح القدس ، بطقوس غاية في البساطة ، الى جمهور الشعب واقتياد هذا الجمهور نحو الخلاص بقراءة العهد الجديد عليه بلذته الخاصة . عرفت هذه الحركة انتشاراً واسعاً وافضت في بعض النقاط ، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، الى هرطقة شهيرة . نذكر منها « هرطقة الاطهار » التي سببت اضراراً بالغة في جنوبي مملكة فرنسا ، ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تعاليمها ، وليس القول بشنوية مانوية ، تقيم اله الخير في وجه اله الشر ، سوى احد اشكالها المتطرفة في الاربع الذي زاده تطرفاً الثالوثون من اتباعها ، وهي قد جاءت متأخرة على كل حال وافسحت المجال لاقتباسات كثيرة ودخلت غربي اوربا بفعل الاتصالات التي جرت حوالي السنة ١١٦٧ مع بعض الاسرار البوغوميليين في البلقان . وهي مدينة بنجاحها - الذي تجسلى باهراً لدى الفرسان الجنوبيين المنجرفين وراء المذات الارضية - لتكشف رؤسائها المسؤولين الذين تحملوا وحدهم ، على نقيض الاكليروس الكاثوليكي الفاسد ، اعباء الموجبات الاخلاقية القاسية وسبحوا لجمهور المؤمنين بالاشراك بسلام في افراح العالم . ونذكر هرطقة اخرى هي « الفالدية » التي كانت في البدء شيعة فقراء اقتفوا خطى احد بورجوازيي ليون وجرموا انفسهم من ممتلكاتهم بغية التوفيق بين حياتهم وحياة المسيح ، اصطدمت هذه الحركة الانجيلية المصدر بمعارضة الرؤساء

الروحانيين حين اراد اتباعها العلمانيون ، حوالي السنة ١١٨٠ ، الاستغناء عن الكهنة وادّعوا حق تفسير نص العهد الجديد بعد ان آمنوا ترجمته ، وطالبوا كذلك بحق الوعظ ؛ ولكنها في الاربع حركة استجابت لرغبات عميقة اذ انها ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، ما لبثت ان انتشرت انتشاراً سريعاً جداً غربي وشرقي جبال الالب .

كانت الكنيسة من ثم مهددة بخطر فقدان الاخلاق ، ورقابة الفكر ، رد الفعل البابوي ورسالتها نفسها ، أي دورها كوسيلة بين البشر والاله . ولكن مقاومة هذه التيارات الثلاثة جاءت قوية تحت ادارة الكرسي الرسولي المتولدة وبفضل كافة الموارد التي أتمنها تنظيم الكنيسة الجديد . فبغية استعادة تأثير الكنيسة على سلوك النبلاء مع النساء ، استمر في الدرجة الاولى المجهود الذي بذله رجال الاكليريوس منذ منتصف القرن الحادي عشر لطبع طقوس وذهنية الفرسان بالطابع المسيحي ولجعل هذه الطبقة العسكرية « جمعية » بالمفهوم الديني لهذا التعبير تكون اشبه بالاخويات ، وذلك بالصلة على الاسلحة أولاً ، ثم بادخال بعض الممارسات الطقسية على الاحتفال بتسليم الفارس اسلحته ، كالغتسال المظهر وحراسة الاسلحة ليلاً والمناولة سلفاً ، وباليمن المفروضة على المبتدئين بالسلوك بحسب بعض القواعد الاخلاقية . ويحجب الاعتراف هنا بان المثل الاعلى الذي وضع نصب اعين الفرسان كان قديماً ، بالشكل الذي ارتداه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، في اسطورة « غرال » ، بارضاء النزعة الصوفية ، التي جعلت الفرسان اللغندوكيين سريعي التأثر بهرطقة الاطهار .

الا ان رد الفعل الاول للكنيسة ضد الانحرافات في الاخلاق والفكر وممارسة التقوى كان على العموم عنيفاً وزجرية . فهي قد أقدمت ، بغية استئصال عادات التجار المخالفة للمعجبة ، على اعلان تحريم الربى . وأصدرت حكماً على أدمى الابحاث خطراً في مؤلف (ارسطو الجديد) وفي السنة ١٢١٠ ، منعت في باريس تفسير كتابي « ما وراء الطبيعة » و « الطبيعيات » ؛ وفي السنة ١٢٢٨ دعا البابا اللاهوتيين الى الكف عن الاستماع بمبادئ الفلسفة الوثنية في براهمينم لاثبات الحقيقة ، وطورد الفالديون من قبل السلطة الاسقفية . وشنت في السنة ١٢٠٨ ، للمرة الاولى ، حملة صليبية على مسيحيين ثبتت هرطقتهم ، أعني بهم « اطهار » اللغندوك ؛ نظمت في البدء كوسيلة ضغط على الامراء المحليين لحملهم على الاسهام في عملية القمع ، ولكنها انتهت الى عز لهم والى انتقال بمتلكاتهم الى الصليبيين الآتين من « ايل دي فرانس » . اما استقصاء وقمع الانحرافات المعقدة ، اللذان تركا لمبادأة الاساقفة حتى ذلك التاريخ ، فقد نظما ونسقا خصوصاً على يد بعض الامراء اولاً . وضع فردريك الثاني ، ما بين السنة ١٢٢٠ والسنة ١٢٢٨ ، ٣٤٤ ولتبريع متلاحم في هذا الحقل فرضت بموجبه عقوبة النار على الهرطقة ثم على يد الباباوات الذين تسلموا ، ابتداء من السنة ١٢٣١ ، ادارة التحقيقات ، او « التفتيش » . ولكن هذه التدابير الزجرية ، التي لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها على كل حال ، تكاملت في النصف الاول من القرن الثالث عشر بما بذلته الكنيسة من جهد واع - ويعود الفضل في ذلك الى انوشتيوس الثالث

الذي تمثل حبريته أوج السلطة الرسولية - لماشة التيارات الجديدة وجني أكبر فائدة منها .

جميعات التسول
فقد بات لزاماً على الكنيسة ان تضم اليها الحركة القوية الداعية الى الفقر
والى ممارسات دينية اسهل منالاً على الرضعاء . وضع انوشنيوس الثالث
تحت حمايته جماعات الملمانيين المنقطعين للعمل المشترك والزاهدين في الثروات الذين أطلق عليهم
اسم « المتواضعين » في ميلانو ، واستمال اليه بعض جماهير الفالديين الذين رجعوا الى الرأى القويم
باسم « الكاثوليك الفقراء » . وشجع البابوات بصورة خاصة تاليف وانتشار فرقتين دينيتين
داخل الكنيسة ، تجيش فيها الروح الجديدة ، أعني بها جميعتي التسول ، الدومينيكان
والفرنسيسكان . تأسست الاولى أبان الحملة على « الاطهار » : فقد جاء اتفاقاً الى-لنغدوك في
السنة ١٢٠٦ كاهن اسباني قانوني يدعى دومينيك (عبد الاحد) ، واستقر في تولوز ، وحاول
مع عدد صغير من رفاقه ، اقناع الهراطقة ، بكلامه ولا سيما بسلوكه الذي لم يكن دون سلوك
« الصالحين » تقشفاً وزهداً واعتمد في رسالته الجديدة قانون القديس اوجسطينوس الرهباني ،
فتغلب عن كل ثروة زمنية وصمم على العيش من التسول وكرّس نفسه بالكلية للوعظ والتبشير .
اما مثلما الفرنسييسكانية فقد كان شبيهاً بملشأ الحركة الفالدية : تأثر فرنسيس ، ابن احمد التجار
الاسيزيين الأثرياء ، بالارشادات الانجيلية فوزع في السنة ١٢٠٦ كافة ممتلكاته على الفقراء وسلك
حياة زهد تام وفرح كامل في خدمة « السيدة الفاقة » ، وأسس في السنة ١٢٠٩ ، مع بعض
الشبان المتأثرين بمثل ، أولى الأسر الأخوية . وقدّر لنوع حياة هؤلاء الملمانيين - وهو تقشف
غنائفي في الاتحاد صوفي مع المسيح بلغ من خلوصه انه انتهى عند فرنسيس بظهور آثار جروح
المسيح في جسمه الذين درجوا ، دون ازعاج أنفسهم بالموجبات الطقسية الكثيرة ، على التنقل
والتبشير بالاخلاقيات الانجيلية ، مستعطين خبزهم ، او طالبين عملاً لكسبه بشغلهم اليومي في
المشاريع الزراعية الكبرى ، ان يعرف لدى سكان مدن ايطاليا اوسطى نجاحاً شبيهاً بذلك
الذي أحرزه الفالديون .

ان هاتين الرسالتين ، المتباينتين أهدافاً وطابعاً روحانياً ، الهادفتين الى الاتصال المباشر
بالالة عن طريق الفقر ، نشأتا تلقائياً على غرار العديد من الهراطقات . ولكنها بقيتا على اتصال
وثيق بروما . فقد احسن انوشلتوس الثالث الالتفات الى دومينيك وفرنسيس ، وعرف خلفاؤه
كيف ينظمون هاتين الجمعيتين ويستخدمونهما : في السنة ١٢١٧ استقر دومينيك في روما نفسها ،
وما لبثت جمعية الوعاظ (الدومينيكان) ان عرفت ازدهاراً مفاجئاً ، فان أدبرت هـا ، التي تم
تنظيمها الداخلي آنذاك ، انتشرت من ثم انتشاراً سريعاً في كافة أنحاء العالم المسيحي ، وتجاوز
عددها الـ ٣٠٠ في السنة ١٢٣٥ . وسبق للقديس فرنسيس ان أوفد بعض رفاقه الى فرنسا
واسبانيا ، ثم ان الكردينال هوغولين الذي فوض اليه البابا ، في السنة ١٢١٩ ، حماية ورقابة
الاخوة « الصغار » (الفرنسييسكان) ، اصبح بدوره حسيباً اعظم باسم غريغوريوس التاسع في
السنة ١٢٢٧ ، أي بعد مرور سنة على وفاة فرنسيس ، فباتت الجمعية من ثم تخضع خضوعاً تاماً

لادارة الكنيسة الرومانية. باستقبال هاتين العائلتين الدينيتين، المتميزتين عن الجمعيات الرهبانية، استعادت الكنيسة نشاطها ووضعت تحت تصرفها قوى ذات قيمة كبرى؛ فقد وفرت لها جمعيات التسول وسيلة بزت بها شيع المراطقة، واستجابت لنزعات التدين الشعبي الجديدة التي لم تؤمن لها الكتلركة، حتى ذاك العهد، ما تصبو اليه. وقد عرف الدومينيكان و «الاخوة الرماديون»، في الواقع، نجاحاً منقطع النظير، لأنهم مثلوا، على غرار الأخويات التي ترعرت فيما مضى، قريبة من المراطقة، عقيدة مسيحية صوفية زاهدة بالخيرات الزمنية، ناشطة وعاملة في الخارج، متأصلة في قلب المدن بين الجماهير القلقة، مشركة العلمانيين، بواسطة العوام الخاضعين للقانون الرهباني، في اصلاح الاخلاق والتطهير الجماعي؛ وعقيدة مسيحية تبشيرية، لا طقسية فحسب، تؤمن بالوعظ الحر، الملقى بلغة عامية، معرفة الانجيل معرفة مباشرة؛ وبهذا الاتجاه الجديد ترتبط التعديلات المدخلة على المعابد المشيدة بجانب أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان التي غدت أسواقاً فسيحة تلقى فيها المواعظ وتفتح لجماهير المدن الفقيرة. ولم يلبث «الوعاظ» و «الصفار» - ولهذا السبب أصبحت هذه الجمعية العلمانية الاخيرة، في عهد مبكر، وبدافع من البابا، أخوية كهنة - ان حلتوا محل الاكليروس العلماني العاجز عن القيام برسائلته.

الجامعات حاولت البابوية كذلك استعادة الاشراف على الحركة الفكرية في المدارس. وهم باباوات النصف الاول من القرن الثالث عشر، أي انوشنتيوس الثالث اولا، ثم خلفاؤه، من انتصروا لأساتذة ومستمعي المدارس الجديدة على مجالس كهنة الكاتدرائيات والسلطات العلمانية وساعدوهم على تأسيس شركات مهنية متلاحمة، هي الجامعات - أي نقابات المعلمين والطلبة المهلفين - وعلى تحقيق امتيازاتهم واستقلالهم الاداري. واذا استمرت الجامعات الفقهية في ايطاليا الشمالية، أي جامعة بولونيا، التي تأسست في عهد مبكر وحظيت بحماية الأباطرة، وجامعات بادوا ومودينا وفيتشنسا، في ترمدها على التأثير البابوي، فإن هيئة المعلمين والطلبة الباريسيين قد سعت، ما بين السنة ١٢١٢ والسنة ١٢٤٦، وراء نصرته الكرسي الرسولي على ممثل ملك فرنسا ومستشار مجلس كهنة الكاتدرائية؛ وقد أوجدت البابوية في ايطاليا جامعات روما وسيننا وبلزانس ووضعت تحت حمايتها مدارس مونبيلييه، وأسست في السنة ١٢٢٩ جامعة تولوز لنشر العقيدة القويمة في بيئة أفسدتها هرطقة الاطهار، وعظفت أخيراً على انطلاقة اوكسفورد حيث ادخل بعض المعلمين الاسكليز بنجاح باهر أساليب التعليم الباريسية. بفضل هذه المساندة، وبينما كان المحسنون الجوادون يؤسسون المدارس والنزول بفيضة رعاية وايواء الطلبة الذين لا مورد لهم، انتظمت هذه الجمعيات التعليمية وقرعت الى كليات أعدت احداها، كلية الفنون، للتربية التحضيرية ووجهت الاخرى شطر البحوث التخصص، كاللاهوت او القانون او الطب. اما في باريس فكان طلاب الفن، أكثر الطلاب عدداً على الاطلاق لأن درس الفنون العقلية كان يستغرق بين سبع وتسع سنوات اجمالاً ويجمع قرابة مئة معلم وأكثر من ألف طالب في الارجح. وقد توزع هؤلاء بدورهم، وفاقاً للغاتهم، الى أربع «امم» بوجه كلا

منها وكيل منتخب؛ وما لبث الرئيس الذي عينه الوكلاء رئيساً عليهم ان أصبح مع الزمن رئيس الجامعة كلها والناطق الرسمي باسمها .

ولكن السلطة الرسولية أصرت على رقابة هذه المؤسسات المتحررة، وقد استخدمت جميعات التسول لبلوع هذه الغاية دون عناء . أجل لقد تنكر القديس فرنسيس أساساً للنشر العلم بين افراد الأخوية التكفيرية التي أسسها والتي كان عليها ، في رأيه ، ان تستميل النفوس بملهم الصالح في ممارسة المحبة والفقر والتواضع ؛ ولكن الكهنة الذين ارتفع عديم تدريجياً في صفوف « الصغار » ، لا سيما بعد مماته ، وجهوا الرسالة الفرنسية شطر الوعظ العلمي ، ناهجين من ثم نهج الدومينيكان ، وقد شجعهم الباباوات في ذلك . اما الدومينيكان المنقطعون لمناقشة المراطقة فكانوا منذ تأسيسهم رجال فكر حريصين على تلقي دروسهم في أشهر المدارس ؛ انتشرت جمعيتهم في البداية ، انطلاقاً من باريس وبولونيا ، في المدن الجامعية الكبرى ؛ اضيف الى ذلك انها تقيدت بقانون صارم بإدارة رؤسائها العامين ، فقدمت بذلك خير ضمان لمعتقداتها القويم .

أسند الباباوات الى هؤلاء واولئك النهوض بشؤون التفتيش أولاً ثم وجههم شطر التعليم ، فدخل « المتسولون » من ثم الى الجامعات، وقد حدث ذلك اما عرضاً ، باهتمام بعض المعلمين العلمانيين ، كالأستاذين الباريسيين الانكليزيي التابعيين ، ايون دي فاغرشام والكسندر دي هيلز اللذين ارتدوا ثوب القديس فرنسيس في السنة ١٢٢٤ والسنة ١٢٣١ ؛ اما مباشرة : ففي السنة ١٢٢٩ ، حين أعلنت جامعة باريس الاضراب ضد الاسقف ، أسند هذا الأخير تعليم اللاهوت الى دير الدومينيكان القائم في شارع سان - جاك . ومنذ السنة ١٢٤٠ ، تولت الجمعيات الجديدة ، العاملة باشراف الكرسي الرسولي المباشر ، ادارة الدروس اللاهوتية ، وتصدت للسألة الكبرى الناشئة منذ سنوات عن انتشار الفكر اليوناني . فحاولت التوفيق بين فلسفة ارسطو - التي انتشرت في المدة الأخيرة بعض أبحاثها : « السياسة » ، و « البيان » ، و « الاقتصاد » - والوحي ، والاحتراز بذلك من خطر القطيعة المتزايد بين النشاط الفكري والتعليم الكنسي . فنجحت بالفعل في تحقيق هذا التآليف العسير : واذا مال الفرنسيكاني بونافنتورا ، الذي لم يثق بالمنطق العقلي ، الى المثالية الافلاطونية ، وهي في الواقع امتداد للاختبار الصوفي الذي قالت به مدرسة سان - فكتور ، فقد توصل استاذان من الدومينيكان في جامعة باريس ، هما البير الكولوني وتوما الاكويني ، الى التوفيق بين لباب فلسفة ارسطو والعقيدة المسيحية . وكانت ثمرة الجهود المبذولة منذ قرنين لتكييف الاداة الجدلية المؤلفة من اللاهوتيين غير المنعزين اللذين وضمها توما والذين يؤلفان اول مذهب لاهوتي كامل قام في العالم المسيحي الغربي .

بيد ان الكنيسة ، على الرغم من هذه النجاحات الثابتة وهذا التجدد الذي دانت به للروحانية الفرنسية والفكر الدومينيكاني ، لم تتوصل الى استعادة وتوطيد مركزها الذي أخرجته التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية . ويمكن القول ان المسافة قد ازدادت اتساعاً ، في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر ، بين حاجات المؤمنين الروحية والنظام الكنسي السائر سيراً مطرداً نحو التصلب والقوة .

فقد برز الخلاف اولا بين العلمانيين ورجال الاكليروس . نما عند هؤلاء نحو الروح العلمانية
المسيحيين الذين ارهف حسهم والذين بحثوا آنذاك عن غذاء روحهم في
قراءة المهد الجديد - وتلبية لهذه الرغبة أنجز حوالي السنة ١٢٥٠ في جامعة باريس نقل نص
« الترجمة العامة » نثراً بعد اعادة النظر فيه - شعور عميق بالسخرية والحذر وحتى بالعداء
الصريح نحو رجال الكنيسة . ولكن لا نخدعن بهذه الظواهر : فان هذا الانطباع ناجم جزئياً
عن ان العلمانيين ، وقد استطاعوا التعبير عن مشاعرهم ، بفضل تقدم العلم ، لم يعودوا بحاجة لقم
رجال الاكليروس لافراغها في قالب الكتابة الدينية . ومها يكن من الأمر ، فان هذا الموقف
العدائي من رجال الاكليروس ، الذي ربما زاده تصلباً وعظ الأخوة المتسولين أنفسهم ، وقد
ثاروا في مواضعهم على امتيازات الكهنة العلمانيين ، فباتوا من أشد المنافسين لهم في أغلب
الاحيان ، قد كان في جوهره موجهاً ضد وضع الكنسيين الزماني . أي انه استهدف هذا الوضع
في المقاطعات الإيطالية والفلمنكية حيث طمع رجال الاكليروس بأن يعفوا من الفرائض المالية ؛
وفي مملكة انكلترا ، اقطاع الكروسي الرسولي ، حيث عينت الادارة الرومانية عدداً كبيراً
من الاجانب في مناصب الكنيسة العليا ، فاستثمرت الادارة البابوية هذه الكنيسة أيما استثمار ؛
وفي فرنسا ايضاً حيث رأى الفرسان المقترون أملاكهم العائلية القديمة ، التي تبرع بها اجدادهم
احساناً ، املاكاً كنسية مزدهرة جداً ، وحيث تحالف البارونات للدفاع عن امتيازاتهم
القضائية ضد تجاوزات المحاكم الكنسية وطالبوا القديس لويس ، في السنة ١٢٤٥ ، بأن « يعاد
رجال الاكليروس ، الذين اثروا بافقارهم ، الى وضع الكنيسة الاولى ، ويعيشوا حياة تأملية ...
ويحيوا المعجزات التي حرم منها العالم منذ زمن بعيد » ، وحيث ثار « روتبوف » بشدة ، يؤيده
الجميع ، على اثناء الفرنسيين ، الذين تخلوا آنذاك ، في أديرتهم المدة للدوس ، عن زهدهم
الأول ، وكشف الستار عن نزعتهم الخفية الخطرة الى المذهب الصوفي القائل بمحبة الله
وجود النفس .

الا ان الانتقادات ، التي حركتها حملة فردريك الثاني العنيفة ضد روما ، قد تخطت هذه
التفاصيل وقصدت بالقدح لكيان الكنيسة نفسها ، ولا سيما للملكية البابوية التي تميزت في أواخر
القرن الثالث عشر بايطاليته وتعاطيه السياسة واندفاعها وراء المادة . وقد وجدت هذه
الانتقادات لها ، في بعض أفراد الجمعية الفرنسية ، مناصرين نشيطين جداً ، بعد وفاة بونا فنتورا
(١٢٧٤) الذي كان قد أفلح في الحفاظ على وحدة الأخوة التي أصبح هو رئيسها العام . فقد اعتبر
بعض « الاخوة الصفار » تلطيف مبدأ الفقر ، أي حق امتلاك العقارات وقبول الاوقاف وتمهيد
الخدام ، الذي شجعه البابوات لتقوية عمل الجمعية والسماح لها بالقيام بوظيفتها الدراسية والدعائية
قيماً أفضل ، بمثابة خيانة كبرى لروح القديس فرنسيس . وهكذا فان أقلية « الروحانيين »
الضئيلة ، التي حركها في إيطاليا خصوم السياسة البابوية وأفسدتها من جهة ثانية نزعات صوفية
تتنافى كلياً والمعقدة القوية ، ولا سيما النظرية اليواكيمية القائلة بارتقاب مجيء المسيح ثانية ،

قد وقفت بعنف في وجه « الديرين » المثقفين الساعين وراء سعة العيش ، وقاومت السلطة الرومانية . وفي مستهل القرن الرابع عشر زلت بها القدم خارج الكنيسة فالتحقت بالفالدين ، ورثة هرطقة « الاطهار » في رينانيا والاخويات التقوية العلمانية العديدة وراحت تضخم التيار الصوفي ، الهرطقي او القريب من الهرطقة ، الذي لم ينضب معينه في يوم من الايام .

في الوقت نفسه اقامت ادعاءات بونيفاسيوس الثامن الشوقراطية في وجه الكرسي الرسولي كافة المدافعين عن الملكيات العلمانية ولا سيما القانونيين العاملين في خدمة « فيليب له بيل » : فكان للشثائم التي أطلقها جاكوبوني دي تودي باسم «الروحيين» الفرنسيين صداها في هجمات « غليوم دي نوغاريه » العنيفة . فجاء الحكم الصادر بإشارة من ملك فرنسا على جمعية الهيكلين - التي استفادت من توزيع فروعها في كافة أنحاء العالم المسيحي وتعودت جمع الاحسانات للحمولات للصليبية ، فلمعت ، قبل الشركات الايطالية ، دور مصرف الايداع والتحويل ، والتي أدى بها فقدان المؤسسات اللاتينية في الارض المقدسة الى هذا الدور المالي - انتصاراً للسلطة العلمانية ، وزاد من النعمة على رجال الاكليروس بتشديده على اندفاع الكنيسة وراء الزمنيات . وحين اقامت الادارة البابوية ، بعد السنة ١٣٠٥ ، في جنوبي فرنسا ، قبل ان تستقر في افينيون ، هرباً من جو روما الفاسد وسجسها ، على مقربة من المملكة الكابيتية او تحت كنفها تقريباً ، كانت قد فقدت الكثير من قوتها الروحية . فتسرب الى العالم المسيحي قلق واضطراب لم يكونا عميقين حقاً -- ويحذر بنا ، الى جانب مظاهر العداء للاكليروس هذه التي اتسم معظمها بطابع المرح ، ان نشير هنا الى قوة وبساطة ايمان اكرثية المسيحيين الساحقة -- الا ان خطرهما كان في تفاقم مستمر .

ان الجمود التأليفية التي بذلها القديس توما الاكوييني لم تسفر آنذاك عن اية العلم والمقيدة نتيجة ، فحصلت القطيعة بين العلم والبحث العقلي ودراسة العالم والانسان من جهة ، وبين حقيقة الايمان التي تخضع لرقابة الكنيسة من جهة اخرى . فالجامعات لم تنقد انقياداً سلساً للنظام الفكري الذي رغبت روما في فرضه عليها . وقد حدثت في باريس ، ما بين السنة ١٢٣٣ والسنة ١٢٥٧ ، ازمة عنيفة اقامت في وجه السلطة البابوية الاساتذة العلمانيين الراغبين في تخفيض عدد منابر التعليم المسندة الى الدومينيكان والفرنسيسكان لانهم شككوا في تضامنهم معهم واخذوا عليهم خضوعهم الاعمى لسلطة غريبة عن سلطة النقابة . وكان مقدراً لهذا الصراع ان يتجدد جيلاً بعد جيل ويعم مدارس انكلترا نفسها . وقد تعرضوا كذلك ، في الجامعة ، لنواحي فكرية انطوى التعرض لها على المزيد من المغامرة ، ضاربين بالندارات الكرسي الرسولي والاساقفة عرض الحائط . وقد رافق انتشار مؤلف « ارسطو الجديد » انتشار فلسفة ابن رشد بواسطة اطباء مدرسة ساليرن بصورة خاصة ، فتغلغلت في المدارس الباريسية ؛ اجل انها كانت مستوحاة من ارسطو ، ولكنها اقل منه استساغة مسيحية الى حد بعيد . ان هذه التعاليم الخطرة التي ابرزت استقلال البحث العقلي حيال العقيدة ، عرضت للخطر ،

منذ السنة ١٢٧٠ ، محاولات القديس توما للتوفيق بين العقل والايمان ، فصرفت ابعاد المفكرين المسيحيين بصيرة ، ولا سيما الاساتذة الفرنسيين ، عن الابحاث الفلسفية ووجهتهم نحو الافلاطونية الصوفية ؛ واعادت الطريق للتأليف الجديد الذي اقترحه « جون دونز » ، السكوتلندي ، في مستهل القرن الرابع عشر ، ليحل محل تأليف القديس توما ، المستخف به آنذاك ؛ فهو قد تخلى ، بتأثير من تشربه تعاليم القديس اوغسطينوس ، عن التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والايمان ، وفتح امام هذه الابحاث طرقاً متباعدة : « ان الله لم يوح للانسان الحقائق التي يستطيع العقل بلوغها ؛ كما ان العقل لا يبلغ الحقائق الموحاة من الله » ، ويستنتج من ذلك ان كل ما ليس منزلاً يمكن مناقشته بحرية . اما الاساتذة الباريسيون المشهورون بحجراتهم ، وعلى رأسهم « سيجر دي برابان » ، فقد استمروا في تفسير ارسطو وابن رشد على الرغم من الاحكام التي استهدفتهم في السنة ١٢٧٠ والسنة ١٢٧٧ ؛ فميزوا هم ايضاً بين امور الايمان - التي يُسلم بها بدون مناقشة - وامور العلم التي يمكن ان يتناولها العقل بكل حرية .

فتحت هذه الآراء امام البحث ، باستخفافها بالمراجع وبمبادئها باولوية الاختبار ، الذي اعتبر بمثابة مصدر لكل معرفة ، حقلاً متحرراً من كل وصاية كنسية . وبينما اخذت اسفار المبشرين والتجار تعطي صورة اكمل ، ان لم تكن اصح ، عن مساحة العالم وتنوع الطبيعة ، وبينما اخذ يلتشر استخدام اللغات الاجنبية ، اليونانية والعربية والعبرية ، التي فكر الراهب الكاثولوني « رامون لول » بتلقيها المبشرين في فترة اعدادهم لرسالتهم ، بات ممكناً ، منذ ذلك التاريخ ، اخضاع اخلاق الكنيسة وسياساتها وحتى كيانها للبرهان العقلي ، خارج نطاق الايمان فتبدل المناخ الفكري تبديلاً اساسياً حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يتأثروا مباشرة بفلسفة ابن رشد . ففي جامعة اكسفورد ، انقطع الكاهن العلماني « روبرت غروستات » ، ثم « الاخوان الصفيرون » « جون بيشام » و« روجيه بيكون » وهم اقل اهتماماً بالمنطق منهم بالعلوم الطبيعية والرياضيات ، لملاحظة الاشياء ، اي للطريقة التي كان سيكون اول من وصفها بالاختبارية . واذا لم تقترن هذه الابحاث آنذاك بنتائج حاسمة ، فقد تأيدت مع ذلك ، في اوائل القرن الرابع عشر ، بحصر نطاق الوحي حصراً دقيقاً ، حرية البحث الشخصي وعلمنة العلم التي تقدمت علمنة المجتمع في الارجح .

٤ - اشعاع الحضارة الفرنسية

كان لتطورات العقلية في طبقات المجتمع العليا ، خلال هذه الحقبة التي تداعت تقدم التدريس فيها انظمة الاقتصاد الريفي والعالم الاقطاعي والعالم المسيحي ، انعكاسها الطبيعي في تطور التعبير الادبي . فنحن نلاحظ فيه توسعاً مائلاً ، اذ منذ منتصف القرن الثاني عشر تجملت المواضيع الغربية بتأثير سير القديسين والطقس البيزنطي وادب القصة العربي

والعادات المحلية الكلتية ، كما اننا نرى ميلاً متزايداً الى الجدل الحر وملاحظة الانسان والطبيعة ملاحظة مباشرة ، وتجزراً متاثلاً ، اخيراً ، حيال الانظمة الكنسية .

ان الحدث الرئيسي في هذه الحقبة هو انتشار الثقافة الادبية التي تمت بصلة الى تحسن ظروف الحياة المادية . لقد تطلب توسع الاعمال من البورجوازيين دراسة مهنية منسقة ؛ وبات لزاماً عليهم ان يعرفوا القراءة والكتابة والحساب وفهم اللغة الفرنسية التي كانت آنذاك لفسة التجارة الكبرى . فأنست لاجلهم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في المدن الايطالية والفلمنكية مدارس عامة لا تخضع لسيطرة الاكليروس وتلقى الدروس فيها باللغة العامية ، وقد ساعد ذلك على رسوخ هذه اللغة . وانتشر التعليم كذلك في طبقة الفرسان من قبيل اللياقة العالمية اولاً ، خلال القرن الثالث عشر ، فتباهى فرسان كافة البلاطات الاوروبية وسيداتهما ، على غرار نبلاء الأكتين ، بانهم يعرفون القراءة ؛ ومن قبيل الحاجة التقنية ايضاً ، لأن استخدام الكتابة في المعاملات القانونية ، وكان محدوداً جداً في السنة ١١٠٠ بسبب ارتكاز العقود والحقوق المتبادلة الى الحركة الطقسية او الذاكرة او الشهادة الشفهية ، قد تقدم تقدماً سريعاً منذ منتصف القرن الثاني عشر : فقد حررت الوثائق ، ونظمت السجلات وجمعت العادات المحلية في كتب . توجب من ثم على الفرسان أن يعرفوا القراءة لتصريف شؤونهم الخاصة ، ولا سيما اذا اسندت اليهم وظيفة ادارية في خدمة الامير . وادى تنظيم الدول وتوسع اجهزتها السياسية ، في القرن الثالث عشر ، الى تكوين فئة متزايدة العدد من الكتبة ومسجلي العقود ومقيدي الدعاوى وماسكي الدفاتر الذين حصلوا من العلم مبادئه على الاقل ، وبات الكتاب اقل ندرة اخيراً . فمئذ القرن الثاني عشر اخذ بعض الخطاطين المحترفين ، في الاوساط الجامعية الكبرى ، يستنسخون المؤلفات استنساخاً سريعاً ويعرضونها للبيع ، بلية للطلبات المتعددة .

افضى انتشار الثقافة الادبية في الاوساط العلمانية الى تقلص الادب اللاتيني . اجل
الادب
لقد وضعت باللغة اللاتينية ، حتى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مؤلفات هامة كيوميات اخبر الالماني « اوتون دي فريسنج » ، و « الانتيكلوديالوس » ، وهو بحث فلسفي رمزي كبير للاستاذ الباريسي « ألان دي ليل » ، والانشيد الكنسية الرائعة التي ألفها « آدم دي سان - فكتور » ؛ ولكن اللغة اللاتينية ليست بعد السنة ١٢٣٠ - اقله في فرنسا - سوى لغة التعليم العالي واللغة الطقسية فعسب ، مما أدى الى فصل النشاط العلمي عن المشاغل الجمالية بعد ان كانت هذه المشاغل وهذا النشاط وثيقة الارتباط في الحضارة الغربية منذ النهضة الكارولنجية . فارتفعت بالنسبة نفسها منزلة اللغات الشعبية التي انبثقت منها لغتان ادبيتان جديدتان اضيفتا الى اللهجات المحلية ، لغة الاولك من جهة ، التي استخدمها الشعراء الغنائيون في كافة المناطق الجنوبية من العالم المسيحي اللاتيني ، ولهجة ايل - دي - فرانس ، من جهة ثانية ، التي تبسطت في اوساط شمبانيا وبيكارديا الادبية والتي كان انتشارها شاملاً . ومرد ذلك - اذ ان الصفة الاخيرة هي ما يميز هذا العهد - الى ان فرنسا احرزت في حقل الادب اولوية مطلقة يفسرها عظم المملكة بالذات ، وهي المتقدمة على كل مملكة غيرها في اوربا من

حيث عدد السكان ، وازدهارها ، والدور الذي لعبته في الاقتصاد الغربي الاسواق الدورية الشبانية ، وتوسعها العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الذي احل نخبة فرنسية اللغة في انكلترا والارض المقدسة وقبرص وموريا ، وبث الفرسان الفرنسيين في اسبانيا المسيحية وايطاليا الجنوبية ، وقيام اهم مركز فكري في باريس اخيراً . ومهما يكن من الامر فان الادب الفرنسي هو ما يجب ان نتبع فيه التيارات المختلفة التي استجابت على التوالي لاذواق الجمهور .

حوالي السنة ١١٥٠ ، اخذت العادات الجنوبية تلتشر في فرنسا الشمالية ؛ ويغلب ان نقل بلاط بواتيه الى « ايل دي فرانس » ، في اعقاب زواج لويس السابع مع « الياور داكيتين » في السنة ١١٣٧ ، واقامة بنات الياور ، أليس في « بلوا » ، وماري في شمبانيا ، قد ساعدا مساعدة كبرى على هذا الانتشار . وفي المناطق المحيطة بالأملاك الكايتية ، درج أسياذ الامارات الاقطاعية الآخذة في التثبت والتوطد ، وكونتية فلاندر وشمبانيا ، والبلانتاجنيه ، على ان يضموا حولهم ، في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، جمعيات زاهية زاهرة ، ويرعوا الأدباء في منازلهم . ثم خفت نصرة الأمراء هذه للأدباء قبيل القرن الثالث عشر حين آلت نجاحات السلطة الملكية الحاسمة الى اكفهرار سنى الدول الدائرية . الا ان تذوق الشؤون الفكرية كان ، في ذاك الحين ، قد شمل أوساطاً اعنى رسوخاً في المجتمع ، فبلغ أهل القصور انفسهم : ففي السنة ١٢٠٠ ، أخذ الكونت « دي غين » نفسه ، الذي كان محاطاً بالمشعوذين ، يتعود نظم الشعر . وأفضى انتشار هذا الادب البلاطي ، الجنوبي المنشأ ، في البداية ، الى تغيير الشكل الخارجي للمؤلفات الشعرية التي لم تعد معدة للانشاد ، على غرار الملاحم العسكرية الاولى ، بل للقراءة بصوت عالٍ ، ولذلك بات الشعر مقفى . وحدث في الوقت نفسه ، تحت تأثير لغة « الاوك » ، ان انتشرت وتبسّطت عواطف العشاق المتدلين وعاداتهم . لذلك فقدت الاغاني الايمائية ، بعد السنة ١١٥٠ ، مميزات الاولى وتشربت روحاً أعظم رقة ، ارسوة راطية الطابع ، واهتمت بالتحليل السيكولوجي وتناولت المواضيع الغرامية في جو لا يخلو من كل مدهش وعجيب . الا ان لوناً أدبياً اكثراً انسجماً مع المشاغل الجديدة ، هو القصة المتدلة ، قد ازدهر آنذاك مديناً بشهرته لـ « ماري دي فرانس » و « غوتيه داراس » وخصوصاً لـ « كريتيان دي طروا » الذي أعطى هذا اللون رائعته بكتاب « ايفين » (حوالي ١١٧٢ - ١١٧٥) . وقد تحولت فيه الملحمة الحربية ، تحت تأثير « اوفيد » وبعض الملاحم القديمة ، وربما القصص البيزنطية ، وخصوصاً تحت تأثير الثقايلد الاسطورية الكلتية التي وفرت حوالي السنة ١١٧٠ ثلاثة مواضيع روائية كبرى هي مواضيع « تريستان » و « دي غرال » و « ارثور » ، الى سلسلة من المغامرات المدهشة و « التسولات » التي تتخللها دسائس عاطفية تناو لها وصف دقيق . فجاءت القصة من ثم ملسجمة مع تهذب الاخلاق وتسرب عادات التدلل الى طبقة الاشراف التي أشاد هذا اللون بقيمها الرئيسية : « الفروسية » ، أي الشجاعة والاناقة ؛ و « العلم » ، أي الثقافة والعدالة .

في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر، طرأ تطور محسوس على هذه النزعة الارستوقراطية التي يختلط فيها الواقع بالخيال . فقد تقلص الشعر امام النثر اولاً بفعل تقدم المطالعة الفردية . ثم جعل ازدهار الطبقة البورجوازية من المدن مراكز رئيسية للحياة الأدبية ، كان أشهرها ، بالإضافة الى باريس ، آراس ، مدينة صناعة الاجواخ والاعمال المصرفية الكبرى ، ومقر مجمع اشبه بمجمع ادبي عرف باسم (le Puy) أسسته جمعية مهنية ودينية من المشعوذين ؛ ونحن نعرف أكثر من ١٨٠ كاتباً عملوا فيه خلال القرن الثالث عشر. ثم اصيب ادب التدلل بالنهكة، ولم يعد ليبي رغبات المجتمع العالمي فأبدى مزيداً من الاهتمام للواقع المحسوس وتأثر كذلك بالمفهوم المسيحي للفروسية وأساليب الفلسفة الكلامية وتطور الفكر الشامل نحو الرقة والسرية ، فانهى مع مؤلفات لانسو (١٢٢٠ - ١٢٣٥) و « قصة الورد » و « لغليم دي لوريس » ١ حوالي (١٢٣٦) الى رمزية غالباً ما تتكلف تهذيب الاخلاق . وانتشر بالمقابلة ادب المناسبات المعاصرة ، بشكل روايات عن الحملات الصليبية - فقد ألف « روبير دي كلاري » و « فيلوهردوين » ، بمناسبة حملة القسطنطينية ، التاريخين الاولين اللذين وضعاً نثراً باللغة الفرنسية - وبرزت الرغبة في وصف التفاصيل الواقعية والمزاح البذيء التي لبستها الحكايات القصيرة وطابقتها كذلك الاوصاف الدقيقة التي طلع بها جان رينار في القصة الغزلية ؛ كما برزت اخيراً السخرية الرشيدة المرححة التي استهدفت النساء والاكليروس وتمرضت للتدلل والاخلاق الارستوقراطية ، كما يتضح ذلك في قصة « اوكاسين ونيكوليت » .

ان هذه النزعة الى الواقعية والهجاء ، التي أظهرت تفوق العقل على العاطفة ، وهو موقف جديد بنم عن بصيرة وذكاء ، قد تولدت نهائياً بعد السنة ١٢٤٠ بينما اهتمت الجماهير اهتماماً متزايداً المؤلفات الهادفة الى جعل العلوم في متناول الجميع . كما ان المكتبات الخاصة ، التي اخذت تتكون في منتصف القرن الثالث عشر ، قد عبرت عن الاتجاه المزدوج ، المتزايد تباعداً ، نحو الورع الشخصي والصوفي من جهة ، ونحو معرفة الانسان والعالم معرفة عقلية طليقة من جهة ثانية ، واشتملت بصورة خاصة على الكتب التالية : المؤلفات التعليمية ، كدوائر المعارف ، « الكنوز » ، و « صور العالم » ، المستوحاة من مؤلفات « فنان دي بوفيه » (حوالي ١٢٥٤) ، ومؤلفات تقوية كتراجم القديسين ونصوص الكتاب المقدس او « مدائح العذراء » . لذلك فان الميزة التي تتسم بها المؤلفات الادبية الكبرى حوالي السنة ١٢٧٥ ، أي في الوقت نفسه الذي اخفق فيه مشروع توما الاكوييني ، هي عودة ، لا تخلو من الجفاء ، الى الحقيقة والبساطة والملاحظة المتحررة من كل اقتدار صريح او معنوي . وفي نسوة آراس بثرت ألعاب آدم دي لاهال الموسيقية (١٢٦٢ - ١٢٨٠ تقريباً) بمسرح متحرر من اصوله الطقسية منقطع لتصوير المجتمع ؛ وازدهر ، بفضل الباريسي روتوف ، شعر بسيط صادق يعكس مشاعر عامة البورجوازيين ويشدد بالمقابلة على انحطاط فضائل الفرسان . اصف الى ذلك ان جان دي مونج وهو خبير بمثل للروح الجديدة ، قد هاجم بقعة ، في « قصة الورد » التي وضعها حوالي السنة ١٢٧٥ في باريس ،

كافة الآراء الاجتماعية المسلم بها وكافة العواطف المصطنعة والمقعدة؛ فهدم أسس الاخلاق التبدلية وسخر من عبادة المرأة وانكر تفوق شرف النسب؛ وان في المركز الاولي الذي يحل فيه الطبيعة والعقل لاجلالاً مباشراً لمفاهيم فلسفة ابن رشد . فانتهى بهذا العمل الهدام عهد عظيم من عهود الادب الفرنسي .

الا ان هذا الادب قد استمر ، حتى وفاة القديس لويس ، ادباً دولياً تتذوقه النخبة في كل مكان ، فأوحى من ثم ، في مظاهره المتعاقبة ، كافة الانتاجات الموضوعية باللغة العامية في اوروبا الغربية . ففي كاتالونيا ، ولا سيما في البرتغال ، سار الشعراء منذ اواخر القرن الثاني عشر على خطى شعراء جنوبي فرنسا المتجولين ، وكان للأغاني الایمائية في فرنسا الشالية تأثيرها على ملحمة « السيد » القشتالية في الارجح . وفي أثناء الرحلة التي قام بها فردريك بربروس الى آرل كي يتوَجَّ فيها ملكاً على بروفنسا ، تعرف المشعوذون الالمان الى الشعر الغنائي الجنوبي واقتبسوا عنه مقومات ادب التدلل . فنقلوها الى المنطقة الرينانية حيث اعطت النور للأغاني الایمائية الالمانية؛ وبعد السنة ١١٧٠ ترجم « وولفرام فون اشنباخ » ومنافسوه القصص الفرنسية الجديدة . وغزا الشعر البروفنسي المدن الايطالية ، ولا سيما جنوى ، وحتى البندقية ، فأكبَّ عليه بلاط فردريك الثاني في صقليا اكباباً مثابراً . وآثر الفلورنسي « بروننتو لاتيني » ، حتى ما بين السنة ١٢٦٢ و ١٢٦٨ ، ان يضع بالفرنسية كتابه « الكنز » الذي كان قد ألقه لتعليم حكام المدن الايطالية ، لأنه اعتبرها « اعذب اللغات وأعظمها شمولاً » .

لعل اشاع فرنسا هذا يبرز بمزيد من القوة ايضاً في المظاهر الفنية لحضارة الفن القوطي القرن الثالث عشر . في الموسيقى اولاً : فنذ حوالي السنة ١٢٠٠ حتى منتصف ولاية القديس لويس ، توسع الفنانان الباريسيان ليونين وبيروتين في أبحاثهما حول الموسيقى المتعددة الاصوات ووضعوا الاسس النهائية لبعض الالوان الجديدة التي ازدهرت من بعدهما . وفي الفنون التصويرية خصوصاً : ففي فرنسا الشالية تكون اعظم فنون القرون الوسطى أي الفن القوطي ، قبل ان ينتشر في كافة انحاء اوروبا باسم « الفن الفرنسي » . وهو فن مقدس شأن الفن « الروماني » ، ولكنه اعظم منه انسانية وواقعية ، فاستجاب من ثم للتطور الفكري العام ؛ وهو فن المدن ايضاً يعبر عن ارتقاء البورجوازيات واشاع كنائس المدن واحتجاب الأديرة الريفية بفعل تأثرها بصعوبات الاقتصاد في السيادة .

تحرر النمط القوطي من الاشكال « الرومانية » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ولكن هذا التحرر كان بطيئاً . فقد ادخل الفنانون السيسترسيون ، منذ السنة ١١٤٨ في ستيو ، ومنذ السنة ١١٥٠ في بونتينسي ، الأقواس المتقاطعة الجارية بين الزوايا المتقابلة في سقوف كنائسهم النسقية العارية ؛ وقد استعملت أساليب التسقيف الجديدة كذلك في انجوابات ، ولكن دون ان يفضي هذا الاستعمال الى تعديلات هامة في هندسة الأبنية التي ما زالت رابعة متراسة .

وتحققت النجاحات الحاسمة في الاراضي الملكية بتأثير من الهندسة البنائية في « سان - دني » .
وحارل مهندسو العمارة ، في كاتدرائيات نويون وسنليس ولان وباريس وسواسون التي شرع
بتشييدها ما بين السنة ١١٤٥ والسنة ١١٨٠ ، مختلفة كل الاختلاف عن بعضها شأن الكنائس
« الرومانية » ، وقريبة كلها ، في تصميمها العام ، من الفن « الروماني » في نورمنديا ، استثار
كافة الامكانات التي يوفرها تقاطع الاقواس والتسديد بالزوافر ، فتوقفوا في « لان » الى جبهة
تتألف من ثلاثة مداخل عميقة مسقوفة يعلوها موضوع هندسي تجميلي وردي الشكل ، بين
برجين ، وتوصلوا في باريس الى رفع القباب الى أكثر من ٣٠ متراً . اما الرسامون والنقاشون
المكثفون تزيين الاغلاق ، فقد حولوا النقاشة « الرومانية » شيئاً فشيئاً باضفاء مزيد من الاناقة
والمدونة على التماثيل - الاعمدة والاشكال ، وخصوصاً بطرق مواضيع حياة العذراء في سنليس
اولاً ، ثم في لان ، واخيراً في باريس حوالي السنة ١٢٢٠ .

ادت هذه المحاولات ، بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٢٥٠ في فرنسا الكابيتية هذه بالذات ، الى
خلق علم الجمال القوطي الذي نجد أمثلته النموذجية في شارتر ، وقد شيدت بين السنة ١١٩٤
والسنة ١٢٢٠ ، وفي « رمس » التي بوشر بتشبيدها في السنة ١٢١٢ ، وفي اميان التي ابتدأ العمل
فيها حوالي السنة ١٢٢٠ . فجاء هذا العلم نطاً استبدادياً سيطر على الابنية كلها فحدت من تنوعها ،
وتميز هندسياً بتشامخ تدريجي نحو العلاء . في هذه الكنائس التي احتلت فيها الخورس مكاناً متزايد
الاتساع ، والتي قامت بمجاء صحنها المنخفضين كنائس جانبية - هي اوقاف عائلية خاصة تم
عن ثروة بعض الفئات الاجتماعية وبروز بعض المظاهر التقوية المتميزة - تحققت الوثبة العمودية
بارتفاع القباب ، ونحول القسم العلوي من ابراج الاجراس ، والانسجام بين الزوافر الخفيفة وبين
دعائمها ، وايقاف الركائز الكثيرة المنحرفة من التيجان حتى لا يعيق صعودها عائق . وقد بلغ
هذا الشموخ حده في أبلية « بوفيه » القصيمة التي ارتفع خورسها ، قبل انهيارها ، الى قوابة ٥٠
متراً وابعادها الى أكثر من ١٥٠ متراً . وفي الوقت نفسه تجوفت الجدران وكادت الأبنية تصبح
مجرد هيكل يقوم على الركائز والاقواس ، فاتسعت الأبواب واستطالت النوافذ العلوية باتجاه
أقسامها السفلى بحيث زالت تدريجياً المسافة الوسيطة الفاصلة بينها وبين اقواس صحن الكنيسة ؛
وبالت من الاتساع بحيث توجب تقويتها ببعض عناصر التقوية الداخلية . وتمثل كنيسة « سانت
شابيل » الشاهقة في باريس ، التي ليست سوى هيكل زجاجي ، اكتمال هذه التهوية التدريجية .

تتميز الطريقة القوطية اساساً ، في النقاشة ، باستعداد روحي آخر حيال مواضيع العصور
المقدسة . اجل لم تزل هذه المواضيع مقدسة ، ولكن الفنانين لم يحاولوا اذ ذاك ، تحت تأثير
التبدلات التي طرأت على الشعور الديني ، تمثيل قوة الاشخاص الفائقية الطبيعة ، بل ما يمكن ان
يحملهم اعظم عاطفة اخوية نحو الانسان . ولا يعبر هذا الفن عن عظمة الاله بقدر تعبيره عن
محبه . لذلك فاننا نشاهد في الحركات والوجوه جنواً ورقة ، وفي الابتسامة تصنعاً ، وفي العيون
تغضناً وفي الجفن تناقلاً يطبعان النظر بلطف بشري يناقضه التحديق الساهي في الوجوه

« الرومانية » . وكانت الخلوقات ، في الوقت نفسه ، موضوع اهتمام خاص . فبات للكائنات ، من نبات وحيوان ، ولأعمال الانسان ، مكانها في النقاشة التزيينية التي رقت ووجهت بكل اتقان . وقد أفضى هذا الترتيب الجديد ، الذي لا تزال تنعكس فيه نزعتا النفس الرئيسيتان في القرن الثالث عشر - البحث الآتي عن العطف الالهي وملاحظة الأشياء بتبصر - في الحقل التصويري ، الى اهمال المواضيع الخيالية (اذ ان المزيين لم يستوحوا الرؤى الجليانية آنذاك ، بل المواضيع الواقعية وسير المسيح والعدراء والقديسين) ، واتقان تقليد النماذج النباتية التي عم استخدامها في التزيين وانتشرت في كل مكان ، ومراعاة القياسات والتناسق في الشكل البشري . فبرزت النقاشة شيئاً فشيئاً في الجدار وغدت تمثالاً (فالصحناء ، بعد تاج العمود ، سائرة نحو الزوال) ، وانتهت ، بفعل قبلتها الانسانية ، الى الاقتراب اقتراباً قريباً من فن صناعة التماثيل القديمة : فان اشخاص مشهد الزيارة في رسم لا تختلف بوجوهها وملابسها عن التماثيل اليونانية .

وأدى تجوّف الجدران أخيراً ، بحجوله دون النقوش والرسوم التزيينية ، الى ازدهار تقنية الزجاج التي اعتمدت في الغرب منذ القرن العاشر على الأقل يحدّ منها ، حتى ذاك التاريخ ، ضيق النوافذ « الرومانية » . فانتشر استعمال ذاك الزجاج المقطع بواسطة مصانع الزجاج الكبرى التي قامت على التوالي في سان - دني في منتصف القرن الثاني عشر ، ثم في شارتر ، وأخيراً في سانت - شابل ، وسيطر على كافة الطرائق التصويرية الاخرى ، وفرض على تزاويق الخطوط نفسها ، التي أنتج أجملها في المصانع الباريسية ، اسلوبه الخاص : الاصباغ المتائلة التي تفصل بينها دوائر سوداء تقوم مقام الفواصل الرصاصية بين القطع الزجاجية ، والخطوط المنكسرة ، والتبسيط الكلي .

تكوّن هذا النمط في الحوض الباريسي ثم انتشر في كافة أنحاء أوروبا . ويرد هذا الانتشار الى الاسباب التالية : تعاظم الدولة الكاثيكية ونفوذ القديس لويس في العالم المسيحي ، والمنشأ الفرنسي لبعض التيارات الدينية ولا سيما للجمعية السيسترسية التي انتشرت اديرتها في كل مكان ، وشهرة المراكز الفكرية في « ايل دي فرانس » - فقليلون جداً هم ذوو المقامات الكنسية الذين لم يترددوا على جامعة باريس في القرن الثالث عشر والذين لم يستطيعوا من ثم نقل قبس من الطرائق الفنية الفرنسية الى الكنائس التي اسندت اليهم ادارتها في عهد لاحق - ، وتأثير المصنوعات الصغيرة ، كالتماثيل العاجية الباريسية او المذاخر الليموسينية النحاسية المزدانة بالمينا ، التي قلّدت اشكال الفنون الكبرى خير تقليد وصدرت الى كل مكان .

تميز هذا الانتشار بمعقه وشموله في الارض المقدسة بصورة خاصة ، وفي البلدان الجرمانية بعد السنة ١٣٠٠ على الرغم من أمانتها الطويلة للتقاليد الكارولنجية . ادخل السيسترسيون اولاً استعمال الاقواس المتقاطعة في مناطق المانيا المختلفة وحتى في اسوج ؛ ثم استوحى بناؤو كاتدرائيات مبرغ ومغذبورغ ولمبورغ منجزات لان وسواسورت ، كما استوحى بناؤو ستراسبورغ وكولونيا الكاتدرائيات الفرنسية الكبرى التي يعود تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر ؛ وعلى شواطئ

البطليك سفت الكنائس الكبرى المبنية بالقرميد ، في كل مدينة من مدن الشراكة الهانسية ، وفقاً للطرائق القوطية . وتم التقليد نفسه في النقاشة حيث انتشر النمط الجديد ، في الغالب ، كما في ستراسبورغ مثلاً ، بفضل الفنانين الآتين من فرنسا ؛ ولكنه تقليد مكثار : اذ ان تماثيل نومبورغ وبيرغ الجميلة هي ، خارج فرنسا ، التماثيل القوطية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بتماثيل شارتر او رمس .

اما في البلدان الجنوبية ، وهي مهد النمط « الروماني » وأرضه المختارة ، فلم يكن لفن « ابل دي فرانس » هذا الأثر الكبير . فحتى أواخر القرن الثاني عشر بقيت غالباً الجنوبية أمينة كل الامانة للطرائق التقليدية : والى هذا التاريخ يعود ازدهار النقاشة الرومانية في بروفنسا وتحقيق النقوش في فيك وفي كاتدرائية « بوي » . ولم يدخل الفن الشبالي الا بدخول الجمعية السيسترية وبسط السيطرة الكابيتية ، أي بعد حروب الالبيين في لنفدوك ، ومع سلاله المجو في بروفنسا - وبصورة سطحية جداً - أي بعد السنة ١٢٥٠ . ثم انتقلت تقنية الاقواس المتقاطعة عبر طرق الحج ، فظهرت في السنة ١١٦٨ في سان - جاك دي كومبوستيل ، ولكن كاتدرائيات لوغو وسينوفيا ، المعادة الى اواخر القرن الثاني عشر ، ما زالت آنذاك رومانية ، على غرار النقاشة الكبرى في كاتلونيا وروسيون التي تمادى عهدها زمناً طويلاً بعد ذلك العهد ؛ ولم يشع علم الجمال الفرنسي حقاً ، بعد ان نشره السيستريسيون في بوليه ايضاً ، الا في اوائل القرن الثاني عشر ، اذ فرض نفسه ، في طليطلة وبورغوس وليون ، على مهندسي الكنائس الجديدة . وهناك اخيراً بلدان ، هما ايطاليا وانكلترا ، لم يتأثرا بالنمط الجديد الا تأثراً جزئياً .

ففي انكلترا ، التي بلغ من تشربها الثقافة الفرنسية وانقيادها ، في حقن التصوير ، للتقنيات الفرنسية المصدر ، اننا لا نستطيع التمييز ، في القرن الثالث عشر ، بين النقوش الباريسية ونقوش ونشستر المزوقة ، وأصلت الطرائق القوطية ، التي اختبرت فيها قبل سواها ، تطوراً مستقلاً منذ عشية الفتح الكابيتي لنورمنديا ، واستغرق تحررها من طرائق النمط « الروماني » ، النورمندي مزيداً من الوقت . فحتى حوالي السنة ١٢٥٠ ، نرى ان كنائس « الفن الانكليزي المبكور » ، وأشهرها كنيسة سالسبوري ، تتألف من اجزاء متجمعة متلاحة وتمت عن إثارة فنانها - الذي سنشاهده في العمود اللاحقة - لانبساط الاجزاء القائمة وراء المذبح ، ولا تزال محتفظة بأبواب وضعية . اما النمط « المزخرف » الذي عقبه ، وهو يتميز ببروز خطوط طفيلية ، فقد تحرر تدريجياً من التأثير الفرنسي . وسواء غطت النقاشة الجبهة كلها بالتماثيل ، كما في كاتدرائية « ولز » ، او اعتمدت في الابنية المدفنية لتمثيل الموتى تحيط بهم مواكب النواحين مذر في الدموع ، فانها على مزيد من التميز والتفرد ايضاً . اما في ايطاليا ، حيث لم يرسخ النمط « الروماني » نفسه في يوم من الايام ، فان المستوردات السيسترية الى فوسانوف وسان غالانو ، ثم استخدام الاقواس المتقاطعة في الكنائس الدومينيكية والفرنسيسية الكبرى ، الذي انحصر هنا في السقف ولم يفيض الى العمودية ولا الى تجويف الجدران ، لم تتوصل الى تفسير اتجاهاتها الفنية الاصلية الخاضعة اما

التأثير البيزنطي واما للتقاليد القديمة .

اضف الى ذلك ان الفن الفرنسي قد اصيب حوالى السنة ١٢٧٥ بنهكة
ضعف التأثير الفرنسي شبيهة بتلك التي اصيب بها الانتاج الادبي . فقد نضبت القريحة
الحلاقة ؛ حلت المسائل التقنية كلها ، ولم تتجدد المفاهيم قط ، وافرط الفنانون في التدقيق
والرقه ، دون ان يتجرأوا بعد ، كما في انكلترا ، على نهج تزيين مستهجن . ساروا في النقاشه شطر
التصنع والتفه . وليس هذا سوى مظهر من مظاهر الانحطاط التدريجي في الحضارة الفرنسية :
فالملكة الكابيتية قد فقدت آنذاك المركز الرئيسي الذي احتلته في تطور الثقافة الغربية .
وبردة هذا التواري الى اسباب عديدة نذكر منها في الدرجة الاولى التغييرات التي طرأت في
اواخر القرن الثالث عشر على الاقتصاد الاوروبي . استفادت فرنسا في ما سبق ، أكثر من أية
دولة اخرى ، من التوسع الزراعي ؛ ولكن هذا التوسع قد توقف خلال القرن الثالث عشر ،
فأدى توقفه ، بفعل فقدان التوازن بين السكان المتزايدين عدداً والانتاج الذي انتهى الى الاستقرار ،
الى أزمة كانت مجاعة السنة ١٣١٦ - ١٣١٧ الحطيرة اوضح دليل على واقعهما . واتضعت في
الفترة نفسها مظاهر انحطاط الاسواق الدورية في شيمانيا ؛ وغدا الاقتصاد الفرنسي المزدهر ،
بعد نمو التجارة الكبرى المطرد ، وتوسع الأعمال المصرفية ، وانتشار النقود الذهبية ، خاضعاً
لسيطرة رجال الاعمال الايطاليين ، كما يبدو ذلك بوضوح في باريس نفسها .

الى هذا العامل الاول من عوامل التراجع انضم تقهقر السيطرة الفرنجية في الشرق الادنى :
ففي السنة ١٢٦١ استعاد اليونانيون القسطنطينية وحسروا اللاتين في بعض السيادات في شبه
جزيرة موريا حيث لم يلبثوا ان تطلينوا ، وفي السنة ١٢٩١ سقطت عكا آخر معقل مسيحي في
سوريا ؛ واذا لم يؤثر هذا التقهقر بشيء على التجارة الإيطالية ، فانه قد حدّ من نفوذ الثقافة
الفرنسية . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك توسع الدول الدائرية : المانيا التي امتدت نحو
الشرق وقامت فيها المدن الكثيرة وازدهرت اقتصادياً بفضل الطرقات التجارية الجديدة المنحدرة
اليها من جبال الالب ، وانكلترا التي احيت بعض تقاليدھا المحلية بعد ان فقد الملك والارستوقراطية
ممتلكاتها في اليابسة الاوروبية ، وقشتالة التي توصلت الى حصر العرب المغاربة حول غرناطة ،
واراغون التي نمت تجارتهما في المتوسط والتي انتزعت ، منذ السنة ١٢٨٢ ، صقليا من أيدي امراء
النجو الذين انحصروا في ما خضع من شبه الجزيرة الإيطالية لمملكة نابولي . ففرنسا ليست وحدها
بعد اليوم ، وبمكنتنا تكوين صورة عن هذا التنافس في تاريخ جامعة باريس الداخلي : لا تزال
المدارس الباريسية ، في منتصف القرن الثالث عشر ، تحتل مركزاً اولياً معترفاً به ، ولكن
المفكرين العاملين فيها والاساتذة الذين يوزعون التعليم على طلابها ينتسبون بأعداد كبيرة لبلدان
أجنبية ، كـ « الليبر الكولوني » و « توما الاكويني » والقديس « بونا فتورا » . واحتلت مدرسة
او كسفورد ، التي ما زالت تتقدم باستمرار ، مركز الصدارة في بعض حقول البحث . وأفضت

النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين البابا وملك فرنسا الى هجرة بعض الاساقفة والطلاب - وهي هجرة اولى . اضيف الى ذلك ان تجزئة العالم المسيحي الى دول مستقلة متميزة قد حدثت من مكانة المراكز الفكرية الكبرى ، كجامعة باريس مثلا : وهذا ما حدث في السنة ١٣٠٢ حين نفى فيليب له بيل جون دونس ، المعروف بدونس سكوت ، بسبب مناصرته لروما .

لهذه الاسباب جميعها ، تدنى شأن النفوذ الفرنسي . فبينما لم يبق من أثر لانتشار اللغة الكاثيكية الواسع في الشرق الا في قبرص وموريا ، ازدهر في البورقغال واسبانيا شعر غنائي بلغة الشعب . اجل لا يزال افراد الطبقة العليا في انكلترا يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولسكنها لغة فرنسية مشوهة باطراد ، وبقوا امناء لقصص الفروسية التي تؤلف بهذه اللغة ، ولكن اللغة الانكليزية ، وهي لغة الارياك ، اخذت تنتشر في المدن وتستعمل في الكتابة مرة اخرى . ونخل الشعر كذلك عن اللغة الفرنسية في ايطاليا الشمالية ثم في ايطاليا الجنوبية بعد تفهم « شارل دانجو » . وفي الواقع انتقلت ادارة الثقافة من فرنسا الى ايطاليا في هذه الحقبة الممتدة من السنة ١٢٧٠ الى السنة ١٣٢٠ التي هي بمثابة مرحلة نضج نهائي بالنسبة للعمليات الفريسية اشتدت فيها الانتقادات الموجهة الى البابوية ، وقد افضى الحكم فيها على ارسطو الى الحكم على فلسفة لوما الاكوييني ، ومرحلة توسع التجارة الكبرى توسعا عظيما ، ونهضة البندقية وجنوى البحرية والعمليات المصرفية الفلورنسية الكبرى .

ان ايطاليا هذه ، التي خيم عليها الانحطاط حتى ذاك العهد
تباير النهضة الايطالية
وخضعت خضوعا متاديا للغزوات والهجومات الاجنبية ، والتي تأثرت
أكثر من أية دولة اخرى ، منذ القديس فرنسيس الاسيزي ، بالرسالة الوحيدة القادرة على تجديد
مسيحية القرون الوسطى ، قد استعادت بفضل التجارة التي أحيها البحر ، استقلالها الروحي
وقوتها الخلاقة . فقامت في مدنها ، حيث تكدست اعظم الثروات المنقولة في الغرب ، ثقافة
خاصة متميزة أغنتها العلائق بالشرق ورواسب الثقافة الرومانية التي اخذت تستعيد نشاطها ،
فهي ايطاليا اذن التي تسلمت إرث فرنسا الادبي ونفخت حياة جديدة في الألوان التي وهنت فيها
بعد ان ازدهرت في ما وراء الجبال : ان تقليد قصص الفروسية الذي تلاثى ، داخل المملكة
الكاثيكية ، في اكنثار معقد لا رونق له ، قد وجد له موطئا ، في اوائل القرن الرابع عشر ، في
بلاطات حكام لومبارديا المستبدين ، كما ان الشعر الصقلي اولا ، والشعر التوسكاني والبولوني ثانيا ،
قد اقتبسوا وجددا شعر الشعراء المتجولين في فرنسا في « النمط المذهب الجديد » . اضيف الى ذلك
أخيرا ان ثقافة القرون الوسطى الكلاسيكية ، المدرسية والصوفية على السواء ، قد حققت
آنذاك ، في « المهزلة الالهية » ، التي تجمع بين الايمان العميق وانتقاد الملكية البابوية بمرارة
والاعجاب بفرجيل وارسطو ومعرفة ابن رشد وتبجيل محبة التذلل ، منتهى كمالها وأعظم منتجاتها .
وأدت ايطاليا للفنون قسما اعظم تميزا ايضا . وهذا القسط هو بعث تدريجي للأشكال

القديمة نهضت به إيطاليا الوسطى بصورة خاصة ، في تلك المقاطعات ، الملاجيء ، التي لم تتأثر شأن غيرها بسيطرة المفاهيم الجالية الأجنبية . فلم ينقطع السكان قط في هذه المناطق عن تشييد الكنائس ذات الأعمدة الداخلية والجدران العارية المغطاة بالآخشاب وفقاً لنمط الكنائس الملكية الصافي: فان كاتدرائية اورفياتو التي بوشر بتشبيدها في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر، أشبه بكنيسة ملكية قسطنطينية ، على غرار كنيسة «سانت ماري دي ترانستيفر» التي شيدت قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف ؛ وبرزت مثل هذه الامانة للطرائق القديمة في التزيين ايضاً سواء في الجبهات حيث تتعاقب القطع الرخامية بأشكال هندسية ، كجبهة «سان مينياتو» في فلورنسا، ام في اشكال التبليط بالفيسفساء التي رسمها آل «كوزماتي» اليونانيو المنشأ للكنائس الرومانية. اما النقاشة التي تأثرت تأثراً اطول عهداً بالطرائق المستوردة من الخارج ، فقد رجعت بدورها الى الماضي الروماني ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في «بارم» حيث تتميز الاشكال الرومانية التي حققها «بندتو انتلامي» بتوازن وجمال رشيق لا يتميزان عنها في النقوش الناتئة . وفي الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، غدت صقليا ، التي أعدها فردريك الثاني ، في تفكيره ، لأن تصبح مركز الامبراطورية بعد تجديدها، مركزاً لنهضة صناعة التماثيل القديمة التي أنتجت، في الفترة نفسها التي أنتج فيها «الاله الجميل» في اميان، التماثيل النصفية العظيمة المتسمة بطابع روماني عميق التي حققها ازميل «نيكولو دي فوجيا» . واقتبس جمهور من فنانين توسكانا اخيراً ، ابتداء من نقولا البيزي وانتهاء بـ «تينوكاينو» مواضيع النقوش المقدسة المستوردة من فرنسا مستوحين في عملهم نقوش النواويس استيحاءاً مباشراً . وفي اواخر القرن الثالث عشر شملت هذه الحركة التصوير ايضاً . ولما كان هذا الاخير مستقلاً عن فن التزيين الزجاجي الذي لم يجد له مكاناً في كنائس ايطاليا المعتمة ، فقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن البيزنطي الذي كان مزدهراً جداً في اواخر عهد النهضة المقدونية ، فجساء التزيين الفسيفسائي الذي انجز في بيت العماد في فلورنسا ، بين السنة ١٢٢٥ والسنة ١٢٨٠ ، تقليداً خالصاً للنماذج الشرقية . ولم يهتم «شياپوي» (١٢٤٠ - ١٣٠٢) الا لاضفاء الحنان الفرنسي على الصور البيزنطية ، وقد واصل محاولاته ، في سينتا ، دوشيو و «سيمون دي مرتيني» . اما في روما فقد انصرف الفسيفسائي توريثي في كنيسة «سانت ماري» الكبرى (١٢٩٦) ، والمصور الجدران كافاليني في كنيسة «سانت - سيسيل» ، عن تقليد صور الشرق اليوناني الجاهدة المستوية واهتدوا الى حياة الصور القديمة ودقة قياساتها . فكانا كن مهتد الطريق لـ «جيوئو» الذي ادخل الماطفة القوطية على الاشكال «الرومانية» فأحيها في صور جدران كنيسة «اسيز» العليا (١٢٩٦ - ١٣٠٤) وفي ارينا دي بادوا .

ولكن الفترة (١٣١٧ - ١٣١٨) التي صور فيها جيوئو، تلبية لطلب آل «باردي» ، وهم من كبار صيارفة فلورنسا، مشاهد حياة القديس فرنسيس على جدران كنيستهم الخاصة المعروفة باسم كنيسة «الصليب المقدس» ، تصادف في الغرب فترة عقببت بمجاعة كبرى انهارت فيها الاسعار الزراعية وأفضى القلق الاقتصادي وتوسع السلطة الملكية في فرنسا الى قيام التكتلات

الاقتصادية ، بينما بدأت اعمال حربية شبه مستمرة مع انكلترا عند حدود غويان ؛ وتصادف ، كذلك الفترة التي اخنارها البابا يوحنا الثاني والعشرون لتوسيع القصر الاسقفي في افينيون وللدخول في نزاع معلن ضد « الروحانيين » ؛ كما تصادف اخيراً الفترة التي وضع فيها دانتي ، في كتابه « المللكية » ، نظرية امبراطورية لم يعد لها من وجود ، ومجدد ، في كتابيه « المطهر » و « الفردوس » ، العظيمة الايطالية . فقضي آنذاك نهائياً على التوازن بين العناصر السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية لحضارة القرون الوسطى الذي قدّر له ، قبل خمسين سنة ، في عهد القديس لويس ، ان يتحقق بصورة عابرة في « ايل دي فرانس » . فاعترض العالم الغربي ، الذي ما زالت قوته الخلافة شبه سليمة ، قلقاً فكرياً وصعوبات مادية ما كان ليرتقب مدى ديمومتها .

القسم الثالث

الأيام العصيبة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

الفصل الأول

وَعِي مَصاعِب أوروبا

بعد ان اختل نهائياً ، في الربع الاول من القرن الرابع عشر ، توازن العالم المسيحي السريع الزوال ، دخلت أوروبا الغربية مرحلة طويلة من الاضطرابات تمخضت بتحول عميق في الدول والانظمة الاجتماعية والاقتصادية ، والعقليات . وليست بلايا حرب المئة سنة ، والكوارث البشرية ، وتراجع العالم المسيحي امام الغزو العثماني ، واضطرابات الكنيسة الرومانية ، سوى المظاهر السلبية لهذه الولادة الشاقة . اجل لقد قوّت هذه المظاهر المنافسات بين القوى الملكية ؛ واستعجلت تحرير الدول حيال السلطة الكنسية ؛ وأظهرت عدم التناسب بين موارد الامراء المالية والعسكرية وبين وسائل ولايتهم على مجتمع زالت فيه زواياً نهائياً روابط التعلق الشخصي والمقاري في النظام الاقطاعي . وبدا النظام الاجتماعي وكأنه يتفكك في شقاء الارياف ، وفي انقسامات الاوساط المدنية حيث انفجر حقد الوضعاء على اشراف متشبثين بامتيازاتهم المهنية والبلدية . فبرزت في كل مكان عواقب انكماش الاقتصاد المتماهي : نقص في الانتاج وتنافس صناعي وتدن في النقد المتداول وفوضى في الاسعار .

الا ان هذه الايام العصيبة لا تعني قط ، كما يميل الناس غالباً الى الاعتقاد ، نشوئاً كلياً في الافكار وفساداً في الاخلاق او نهكة في القوى الخلاقة . فان الناس آنذاك ، وان عاشوا عيشة جائرة كانت نهاية الحياة فيها قريبة جداً من منبمها احياناً ، لم يبيتوا على اليأس قاعدة ولا على الدوار نظاماً . وان القرن الرابع عشر الحافل بالمضادات والمتناقضات - التي هي سمات الحياة بالذات - لا يستحق ، في حقل نتاج الفكر والفن ، الازدراء الذي درج الناس على قذفه به . فيجدر بنا في الدرجة الاولى ان نلم بالابعاد الحقيقية والانسانية لهذه الحضارة التي أرادت ان تكون شاملة مع تشبهاً بتنوعها والتي حددت الدولة تجردها في اجوائها .

١ - أبعاد الحضارة الغربية

ما برحت رقعة العالم المسيحي الروماني، منذ منتصف القرن الثالث عشر،
الرقعة الجغرافية تنكش انكاشاً مطرداً . فقد أقصرت ، امام الامبراطورية البيزنطية

المجددة ، وامام الاسلام ، على الجزر - قبرص ورودوس وكريت والارخبيل - وعلى بعض مقاطعات موريا والآتيك ، ولكنها قواعد انطلاق ضعيفة للنهوض بهجوم معاكس . ولم يكن لهذه المراكز المتقدمة ، القليلة السكان ، المتزعزعة بفعل غارات المغامرين الكاتالونيين والنافاريين ، سوى قيمة عسكرية هزيلة ؛ ناهيك عن ان مشاغل جنوى والبندقية وبرشلونة التجارية كانت كافية للحيولة دون تنفيذ مشاريع الحملات الصليبية لو ان هذه المشاريع كانت أشد عزمًا ولم تقتصر على احلام تغذيها البلاطات الاميرية دون ان يكون لها أي صدى في الجماهير . لذلك تضاءلت العلاقات بين الغرب والشرق في المتوسط الشرقي بعد ان عاث فيه القراصنة الاتراك فساداً . يضاف الى ذلك ان تدخل السلطة العثمانية قد ارغم الحضارة المسيحية على الانكفاء برأ ايضاً . فقبل نهاية القرن الرابع عشر تراجعت حدود العالم الغربي حتى شرقي كرواتيا وبنفاريا وبولونيا التي باتت كلها ، منذ ذلك الحين ، ولقرون عدة ، مواقع تهددها الاخطار امام الاسلام التركي . وهو تراجع لم يكن ليعوض عنه الفتح المسيحي للتوانيا عند الحدود الشمالية لهذا العالم .

ولم تعد الممالك الايبيرية كذلك من القوة بحيث تستطيع ، في القرن الرابع عشر ، مواصلة الانتصارات الصاعدة التي أتاحت لها الاستيلاء على كثير من المواقع الاسلامية في الغرب ؛ وسيقدر لامارة غرناطة ، في ارض شبه الجزيرة نفسها ، ان تدوم حتى اواخر القرن الخامس عشر . ففشتالة غدت مسرحاً للنزاعات السلالية ولاضطرابات الحروب الاهلية التي تحالف اطراف النزاع فيها مع المسلمين احياناً ؛ وعندما حاولت شن الهجوم على هؤلاء اخفقت امام غرناطة في السنة ١٣١٩ ، وعلى بعض المسافة من « الجزيرة » *Algéiras* في السنة ١٣٤٣ . اجل لقد برهنت اراغون وحدها عن طاقة توسعية ؛ ولكنها ، بعد ان استعادت من العرب المغاربة القطاع الغاليسي والجزائري الذي يعود اليها ، اقتطعت لها امبراطورية متوسطية في العالم المسيحي نفسه : فالسيطرة الكاتالونية ، وهي آخر سيطرة اشتركت في التسابق البحري ، لم تتخط اليونان حيث أسست بعض الدوقيات السريعة الزوال ؛ ثم اضطرت ، منذ اوائل القرن الخامس عشر ، الى العودة الى حوض المتوسط الغربي : صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، الباليار .

كانت النتيجة انتقال مركز ثقل العالم المسيحي نحو الغرب . ولعل روما نفسها اعتُبرت عاصمة لا تليق بأن تكون هذا المركز بسبب دنوها من الحدود الجديدة وتعرضها للأخطار . ويمكن القول ، من هذا القبيل ، ان اقامة البابوية في افينيون قد جاءت نتيجة اختيار حصيف ؛ فان افينيون ، وهي ارض بروفنسية ضمن اراضي الكنيسة ابتيعت في السنة ١٣٤٨ من « جان » ملكة نابولي ، كانت عاصمة موافقة يستطيع المندوبون والقصاص وناقلو البريد والرسل الانتقال منها الى اهم مدن الغرب في آجال متساوية تقريباً : باريس في خمسة او ستة ايام ، لندن في ثمانية او عشرة ايام ، بروج في ثمانية ايام ، البندقية في ثلاثة عشر او اربعة عشر يوماً ، فالنس في ثمانية ايام .

في هذا الغرب الذي تحددت آفاقه ازداد وعي التجار والعلماء والحكام لتقاربهم المتبادل .

وقد شجعهم على ذلك بعض النجاحات التقنية والنزعات الفكرية الجديدة التي جعلت التحليل والدقة في المرتبة الاولى من مشاغل الفكر . فسوف يتيح قياس الزمن ، بفضل اكتشاف الساعة الدقاقة المتقنة ، حساب دوائر الطول ؛ كما ان تقدم رصد الاجرام قد شق الطريق امام تحديد دوائر العرض بمزيد من الدقة . وبات بمكنة المسافرين ، بفضل قدرتهم على تعيين الاماكن بنقطة تحدد باحداثياتها وعلى وضع الخرائط ، اختصار المسافات وتوفير الوقت . وتحسنت كذلك وسائل النقل على الطرقات البرية والبحرية التي غدا التغلب على مشقتها امراً اوفر سهولة . ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أفضى دخول البواخر المرتفعة والسفن الحربية العاملة بين المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، ودخول القوارب الشراعية المسطحة والمراكب الطويلة الضيقة والخفيفة العاملة بين الاطلسي والبحر المتوسط ، والتعامل في بروج وعلى سواحل ملاحات بواتو مع بواخر الشحن الثمالية الثقيلة ، الى اعتماد هياكل متشابهة في بناء السفن . ويشير المؤرخ « فيلاني » ، في كلامه عن انتشار المراكب الطويلة الضيقة والخفيفة ، الى شمول استعمال الدفعة المحورية . وقد أمنوا للسفينة استقرارها فوق المياه بزيادة عدد الصواري واضافة الشراع اللاتيني الى الشراع المربع ومضاعفة صفوف الجذافين في السفينة الحربية وتقوية الهيكل بتجهيز مقدمها بطرف قوي . ونهبت « الانوار » الى مداخل المرافئ والشواطئ القريبة من الطرقات البحرية ، وعم استعمال البوصلة . فادت الطمأنينة والسرعة الى اختصار المسافات . ومع ذلك فان السفر من البندقية الى بروج كان يستغرق في القرن الرابع عشر ثلاثة اشهر ، بما فيها رسو السفن في بعض المرافئ للتمون ؛ اما نقل البريد برأ بين هاتين المدينتين فكان يستغرق خمسة عشر يوماً في الظروف العادية ، بينما كان يكفيه في الظروف الطارئة اسبوع من الاحضار المتواصل .

اما سبب هذا التباين فهو ان الطريق البرية تفضل الطريق المائية ، النهرية او البحرية ، من حيث السرعة ؛ اذ ان المسافة بين مراحلها لا تتعدى ٤٠ او ٥٠ كيلومتراً اجمالاً . واتسعت العربات الكبيرة والثقيلة ، التي تجرها الخيول المقرونة ، لأكثر من ستة عشر شخصاً . الا ان العربات ذات المعجلة والحصان والبغل ما زالت ، في الاربع ، الوسائل المفضلة لنقل التجار المبادرين والمسافرين الذين لا ينقلون أمتعة كثيرة ؛ وهي وحدها ما يوافق الطرق الصعبة ، ولا سيما معابر الالب التي أصبحت سالكة بفضل اعمال فنية جريئة فاخترت المسافات بين المتوسط وبحر الشمال . وهكذا تحولت لمصلحة الرين الطريق التي كانت تؤدي في السابق الى اسواق شمبانبا الدورية ؛ فانحدر المسافرون عن طريق البرينر والسبتيمر والسان - غوتار - الذي تأكيد قياس « جسرهم المزيده » في السنة ١٣٧٠ - و « السان برنار » الكبير والصغير ، نحو جنيف واسواق المانيشا الجنوبية ؛ وأثارت اقامة البابوية على ضفاف الرون ، لجاز « مون - سني » ، منافسة حركة نقل متزايدة في مجازي لارش و « مون - جنيفر » . ولذلك لم تقس المسافات ، بالنسبة لأناس يواجهون اخطار البحر والجبل ، بقياسات الطول المألوفة ، بل قدرت بالايام التي يستغرقها قطعها . وقد ذكر المنادي الحربي « برتي » ان « جيل له بوفيه » حدد ابعاد فرنسا في منتصف القرن

الخامس عشر كما يلي : « اثنان وعشرون يوماً طويلاً وستة عشر يوماً عرضاً » . وهكذا فإن إبعاد الغرب في القرون الوسطى ما زالت تقاس بمقياس الإنسان .

هل باستطاعتنا إقامة مقابلة بين انكفاء العالم الغربي وتوقف حركة الارتفاع عدد السكان في كثافة سكانه يا ترى ؟ ان معلوماتنا أولية ومتقطعة وغير متلاحمة : بعض الإحصاءات المدنية في الإمبراطورية وإيطاليا وهولندا ؛ وفي فرنسا ، إحصاء عام للعائلات وسجلات تقديرية ومطاح ضرائب ؛ وفي إنكلترا جدولان بالضرائب الشخصية . فهل يمثل مفهوم العائلة ثلاثة أشخاص أو خمسة أشخاص ؟ ان السؤال موضوع جدل . ولكن المؤرخين يجمعون على النظر إلى القرن الرابع عشر والشرط الأكبر من القرن الخامس عشر نظراً إلى حقبة طويلة تتميز بهبوط كثافة السكان .

أجل لقد أدى ارتفاع هذه الكثافة في القرون السابقة إلى اكتظاظ المناطق الخصبة بالسكان ، ولكن هذا الارتفاع يجب ان يقاس بالنسبة لوسائل الإنتاج لا بأرقام مطلقة . وليس محتملاً ان تكون فرنسا قد بلغت الـ ١٥ مليون نسمة التي توصل إليها « ف. لوت » انطلاقاً من جدول العائلات العائد إلى السنة ١٣٢٨ ، بينما ما زال سكان إنكلترا في الوقت نفسه دون الأربعة ملايين . فان مساحات جدياً واسعة قد بقيت ، بسبب الافتقار إلى التقدم التقني ، شبه خالية من السكان : كالجبال التي لا يعيش سكانها إلا من تربية المواشي (الالب ، والبيريني ، وجبال السيرا الإسبانية ، والابنين ، والجبال القديمة في أوروبا الوسطى) ؛ والتلال البائرة أو البراحات في اسكتلندا وبلاد الويلز ؛ ومستنقعات المانيا الشمالية التي لم ينجز صرف مياهها ؛ وسهول المتوسط الساحلية التي انتشرت فيها الملاريا . فلا عجب من ثم اذا تفاوت توزيع السكان في الأرياف : ففي سهول زراعة الحنطة على مقربة من باريس ، في هضبة فرنسا ، عشرون عائلة تقريباً في الكيلومتر المربع ؛ بينما ليس في تلال « هوربوا » المخرجة سوى ثلث هذه النسبة ؛ وعاش كذلك نصف فلاحي إنكلترا في بعض كونتيات الجنوب والشرق .

أضف إلى ذلك ان هؤلاء السكان ، الذين تفاوت توزيعهم وبات عددهم مرتفعاً جداً بالنسبة لحالة الإنتاج الغذائي ، قد عانوا الأمرين ، في بعض المناطق ، من أضرار الحروب . فقد أقفرت بفعل مثل هذه الأضرار بعض مناطق ولاية « بور دو » التي سيهاجر إليها الـ « غافاش » في وقت لاحق . كما ان نورمنديا التي بلغ عدد سكانها ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، أكثر من مليون نسمة ونصف المليون ، كانت قد فقدت ، في السنة ١٤٥٠ ، ثلثي سكانها ، فأثار خراب أريافها مراثي « توما بازين » أسقف ليزيو . ولكن هذا النقص في السكان يلاحظ في كافة أنحاء أوروبا : ومرد ذلك إلى ان نتائج سوء التغذية والانحطاط الاقتصادي كانت . أخطر وأعم من كثر الجيوش الغازية وفراًها .

وقد سبق انقلاب الوضع هذا ما يمكن اعتباره تمهيداً ومقدمة له . فجماعة السنة ١٣١٦ قد

أفنت عشر الاهالي في مدن صناعة الاجواخ في فلاندر الكثيفة السكان . كما ان الطاعون الاسود ، الذي نقله من حيفا الى مسينا احد المراكب التجارية ، قد انتشر ، خلال اشهر معدودة ، حتى في انكلترا وسكندينيا . اما اضراره ، التي جسّمها المؤرخون المعاصرون ، كما نرجح ، فقد تجاوزت مع ذلك كل تصور ممكن ؛ فتراوحت نسبة الوفيات ، بحسب المناطق المبتلاة ، بين ثمن وثلاث مجموع السكان . وقد دوّن سجل خورنية جيغري في بورغونيا ، وهو الوثيقة الوحيدة من نوعها التي وصلت الينا من هذا العهد ، ٦٤٩ حادثة وفاة من اصل ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ نسمة ، في السنة ١٣٤٨ وحدها ؛ اضيف الى ذلك ان اديرة المقاطعات المتوسطة قد اقفلت عملياً : فلم يبق في مونيبلية سوى سبعة اخوة من اصل ١٤٠ راهباً دومينيكانياً ؛ وفقدت توسكانا ثلاثة ارباع او اربعة اخماس سكان مدنها ، في الارجح .

كان الطاعون بلاء شاملاً تجدد تكررأ حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ثم فتك بسكان بعض المناطق بصورة خاصة ، فطبع هبطة كثافة السكان بطابع خطير جداً . وان هذا النقص الكبير في عدد السكان - منتجين ومستهلكين - هو الظاهرة الاساسية التي تفسر تدهوراً اقتصادياً طويل الامد . ومهما كان من امر التقديرات العددية ، فانها توحي لنا مع ذلك بمدى حركة لا نظير لها من قبل ؛ فان عدد سكان انكلترا قد هبط ، على ما يبدو ، الى ما دون المليونين والنصف في السنة ١٣٧٧ . اضيف الى ذلك ان ندرة اليد العاملة آنذاك واقع أكيد في كافة أنحاء اوروبا ؛ في المدن المزدهرة كبرشلونة وفالنس واشبيلية ، كما في ارياف قشتالة التي لم تكن كثيفة السكان في يوم من الايام - وليس توقف حرب استعادة اسبانيا بغريب عن هذه الحاجة الى السواعد في الارجح ؛ وفي انكلترا كما في فرنسا حيث انكشفت مساحة الاراضي المستثمرة انكماشاً عظيماً ؛ وفي سهول ايطاليا الجنوبية ، وحتى في المانيا التي تأخر العمل في استعمارها الداخلي مع انها لم تصب بالطاعون بنسبة غيرها .

لم يكن الضرر الذي نزل بالمدن أخف منه في الارياف . الا ان المسدن ، في اعظم المناطق محضراً ، ما زالت آنذاك وضيفة جداً ؛ فربما قاربت فلورنسا الى ٤٥٠٠٠ نسمة ، قبل الطاعون ؛ وربما بلغت ميلان نصف هذا العدد ؛ وتراوح عدد السكان في معظم المدن الداخلية - كمودينا وسينا وبادوا مثلاً - بين ١٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة . اجل لم تعرف مدن اوروبا كلها نسبة النقص نفسها في عدد السكان . قال جانب هويسكا في اراغون التي فقدت ٥٠٪ من سكانها ، ضمت برشلونة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، ٧٠٠٠ عائلة تقريباً ؛ وعلى بعض المسافة من الي التي هبط سكانها من ١٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠ نسمة ، بينما تجدد أكثر من نصف العائلات السقي تألفت منها ، لم يهبط سكان تولوز ، بفضل تقاطر الفلاحين الهاربين من حقولهم المتضررة ، بالنسبة نفسها ؛ فقد انخفض عددهم من ٣٠٠٠٠ حوالي السنة ١٣٣٥ الى اقل من ٢٠٠٠٠ حوالي السنة ١٤٥٠ . ويشاهد هذا التفاوت نفسه في مدن صناعة الجوخ في هولندا التي لم يسجل بعضها أي هبوط قط - فقد استقر عدد سكان غنت حوالي ٥٠٠٠٠ - في حال ان بعضها الآخر قد

انهار انهياراً بكل ما في الكلمة من معنى . وبلغت النظر ايضاً البطء الذي رافق ، على الطرق الجديدة للتجارة الدولية ، تقدم المدن في مثل هذا الطرف العسير : فجنييف لم تضم سوى ١٣٠٠ عائلة في السنة ١٤٠٤ ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، كان سكان زوريخ دون عددهم عشية الطاعون ، وفي منتصف القرن الخامس عشر لم تبلغ نورمبرغ الـ ٢٠.٠٠٠ نسمة قط ، متجاوزة بذلك الى حد بعيد سكان فرنكفورت - على المين - بينما لم يبلغ سكان لوبك ، وهي محور تجارة المدن الهانسية ، سوى ٢٠.٠٠٠ او ٢٥.٠٠٠ نسمة . وماذا عسانا نقول عن انكلترا الريفية حيث لم تبلغ أية مدينة ، باستثناء لندن ، أكثر من ١٠.٠٠٠ نسمة في السنة ١٣٧٧ ؟

في كافة هذه المدن ، وحتى في باريس ، أكبر مدينة في أوروبا - ١٠٠.٠٠٠ وربما ١٥٠.٠٠٠ نسمة - برز الطابع النصف الريفي الذي لم تفقده كلياً في يوم من الأيام . فسواء أفضى الازدهار في القرن الثالث عشر الى ايهام الناس بتقدم مستمر ، ام دفعهم الخوف من الحصار الى ابقاء مصادر التموين قريبة منهم ، فان المساكن المجموعة ، المتقاربة جداً في بعض الاماكن ، قد تباعدت ضمن اسوار انبسطت داخلها اراض واسعة غير مأهولة : حدائق وكروم ومراع وحقول . ويعود ذلك ، بعد ان ندرت اسباب العيش ، الى ان الناس لم يكونوا ليبتعدوا اكثر النسل الا في الفترات التي تعقب الاوبئة ، اذ نلاحظ عند الباقين على قيد الحياة ارتفاعاً كبيراً في نسبة الزواج . وقد لاحظ « بيرين » ، في هولندا التي لم تصب شأن غيرها بالطاعون ، أصابتها بأزمة الصناعة ، اقبال ابناء النبلاء على الحياة الكهنوتية والفلاحين على جيوش المرتزقة ، بينما كرست الفتيات بتوليتن الله في سكون حدائق أديرة المدن . وراح الصناعيون الفلمنكيون والبرابانيون يطلبون عملاً في مصانع سينت وفلورنسا المقترة الى امثالهم ، بينما اختار الكالونيون والنابوليون المجازفة والمغامرات .

ربما حدثت آنذاك مهاجرات هامة لم تستهدف ، كما سنرى ذلك في اواخر القرن الخامس عشر ، اعادة استعمار المناطق المتضررة ، بل كانت دلالة اختلاف قوارن بين نسبة السكان والموارد . فقد انتقل السكان في هولندا من المدن التي عمتها البطالة الى الارياف ، وفي الاماكن الاخرى من الارياف التي سيطر عليها الخوف من مجندي الحروب الى المدن المقلية . وحينما استطعنا استشفاف وضع السكان لاحظنا نسبة كبيرة من العازبين ونسبة ضعيفة من الاولاد في العائلات ، وفي الوقت نفسه انخفاضاً كبيراً في معدل الاعمار . واذا ما استندنا الى بعض الحسابات التي اجريت بالنسبة لانكلترا ، فان معدل الحياة ، الذي قدر به ٣٤ سنة حوالي السنة ١٣٠٠ ، قد هبط الى ١٧ سنة اهان انتشر الطاعون ، ثم ارتفع الى ٣٢ سنة في الربع الاول من القرن الخامس عشر . وقد بلغ من قصر الحياة آنذاك ان « كومين » نفسه قد نظر الى انسان في الثامنة والحسين نظارته الى انسان « مسن جداً » . ولم يعجب احد من ان يحكم الامير شارل فرنسا في السابعة عشرة من عمره ويموت في الثانية والاربعين متحلياً بحكمة الشيوخ ، في حال ان معاصره ادوارد الثالث ، الذي قضى في الخامسة والستين ، بدا لأبناء جلدته ، في السنوات

الآخيرة من حياته ، وكأنه فضولي ينتمي الى جيل غير جيلهم . وقد اسهم اقتراب الموت بدوره في تضيق آفاق أوروبا التي سبق ورأينا انكماش حدودها .

اضمحلت في الوقت نفسه بعض الخطوط التي أعطت ، أثناء اشعاع الحضارة
ولادة الأمم الفرنسية ، ظاهر الوحدة للعالم المسيحي . فان تعاظم سيطرة الملوك او الامراء ، بعد ان علم الناس كيف ينظرون الى أبعد من الحدود التقليدية للسيادة أو لضواحي المدينة ، قد صلبت الاطارات القومية التي انكشفت داخلها آنذاك روابط الفئات الاجتماعية . اجل ليست ظروف الاحتكاك بين عقليات شعوب الغرب المتباينة ما اعوز الاجيال السابقة : مشاجرات الفرنسيين والاسبانيين على الطرقات المؤدية الى « سان - جاك » ؛ مناقشات البحارة النورمنديين ، رعايا ملك فرنسا ، والبحارة الفاسكونيين رعايا ملك انكلترا ؛ تراحم الايطاليين والفرنسيين والكاتالونيين في اساطيل البحر المتوسط ، الخاضعة للسيطرة العثمانية ؛ تصادم السلافيين والالمان في سهول الشرق ، وتصادم الالمان والسكندنافيين في البحار الشمالية . ولكن التصادم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد ازداد شدة بازدياد وعي الشعوب لفرديتها تحت تأثير الحياة المشتركة في كنف أمير واحد وتأثير المصالح المشتركة وتشابه الاخلاق والمشاعر . وفي الوقت نفسه الذي تفادمت فيه المزاخمة الاقتصادية ، اخذت المنازعات الدبلوماسية والمنافسات السياسية وتعايير « الوطن » و « الأمة » ترتدي ، في كافة اللغات ، طابعا حاداً جداً ، لأن كل شعب اخذ ينصرف الى تحديد نفسه ضد جيرانه في الدرجة الاولى .

نشأت الأمة الانكليزية قبل غيرها بفضل قلة عددها وتلاحمها في جزيرتها . فقد تكون ، في القرن الثالث عشر ، ضد المطالب البابوية والتعسف الملكي ، شعور جماعي بـ « وحدة المملكة » بلغ درجة كبرى من القوة في مناطق الحدود حيث اصطدم بالقومية السكتلندية او بتشبث سكان منطقة الويلز بعاداتهم الخاصة . واهتز سكان ما وراء المانش لكارثة بالوكبورن (١٣١٤) ولعاهدة نورفولك المذلة ، وبغضوا السكتلنديين وسكان منطقة الويلز الذين دفعهم « مكر » الفرنسيين ضدهم ، فوحّدوا جهودهم وحددوا شعورهم القومي ، بينما نشأ في الالم شعور نفسه عند الفرنسيين ؛ وكان العامل الحاسم في الحالين حقداً مشتركاً واحداً كما يشهد بذلك مؤرخو المعسكرين : فرواستار ، جان له بيل ، مق دسكوشي ، توما بازين ، او جون دي ريدنغ وتوما ولستكهام . وقد تباهى كل من المناادي الحربي الفرنسي والمناادي الحربي الانكليزي ، في « نقاش » شهير تميز بالحدة ، بتفوق وطنه وتفوق العادات السائدة فيه . واعترف « جيل له بوفيه » ، في « وصف البلدان » ، بما لكل من الشعبين من مميزات وعادات ، ولكنه لم يخف تفضيله لأمتة الخاصة : « ان شعوب هذه المملكة اناس بسطاء ولا يهرون الحرب شأن الآخرين » . وقبل مئة سنة ، أي منذ ولاية « جان له بون » اعتبر انصار سلالة « الغالوا » انهم وحدهم « الفرنسيون الصالحون » ، بينما مثّلوا بالاعداء الانكليز كافة الجنود الغزاة الذين يجوبون البلاد ؛ وقد وجّه بورجوازيو باريس اللوم « لاسطغان مرسيل » رئيس التجار وقتلوه (١٣٥٨) لأنه حالف عصابات هؤلاء

الجنود ، بينما صرخ قضاة « كاهور » البلديون ، الذين أرغمتهم معاهدة كاليه على الاعتراف بادوارد الثالث (١٣٦٠) : « واعذابه » ، ما اصعب التخلي عن السيد الطبيعي والقبول بسيد اجنبي مجهول ! وهو هذا الشعور القومي نفسه ما اثار الحماس ، في عهد شارل السابع ، في قلوب اهالي « تورنيه » وليون المخلصين ، وبعث حرب الانصار في الاريايف النورمندية ضد « الفرنسيين المنكرين » المواطنين على الاحتلال الانكليزي والمستفيدين منه .

وتصلبت بفعل الحركة نفسها ، في الطرف الثاني من اوروبا ، مقاومة البلدان السلافية للسيطرة الجرمانية او للفتح التركي . اجل ان الامبراطورية الصربية التي أسسها اسطفان دوسان ، والتي كانت ردة فعل استقلالية ضد الحماية البيزنطية ، قد زالت من الوجود بعد هزيمة كوسوفو الاولى (١٣٨٩) ، ولكن مآثر الجبلين البلقانيين قد عرفت فترات مجيدة بفضل هونيادي واسكندر بك : كانوا ، والحق يقال ، اعداء للاسلام ، ولكنهم لم يتشبهوا بصليبيي القرن الثاني عشر ، بل بالبولونيين ، الذين انتصروا على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ (١٤١٠) او بالمحاربين الهوسيين القساة الذين لم تنل منهم حملات عسكرية استمرت عشرين سنة ولا التدابير الامبراطورية القمعية الوحشية ، ولا التنازلات الكنسية التي أقرت في مجمع « بال » . وقد جاء في المرسوم التنظيمي لجامعة براغ الذي أعلن تحت تأشير « جان هوس » : « يجب ان يكون البوهيميون الأول في مملكة بوهيميا ، اسوة بالفرنسيين في مملكة فرنسا او الالمان في المانيا .

وعرفت مناطق اخرى ايضا لم تبطل كغيرها بالحروب والاضطهادات ، يقظة التضامن القومي : فقد كتب محرر العقود اللياجي « هريكور » ، حوالي السنة ١٤٠٠ : « البلاد أخذة في الاتحاد » ؛ وليست البلاد في نظره ارضا فحسب ، بل مجموع الارادات التي تمثلها وتتحذ للذود عن استقلالها ضد السيطرة البورغونية وعن لغتها ضد الثقافة الجرمانية ؛ ونحن هنا امام طليعة امة صغيرة ترمز اليها درجات الساحة العامة في لياج . وليست بأقل فائدة ، من هذا القبيل ، مع انها أكثر تأخراً في الزمن ، ولادة شعور قومي بورغوني في امارات هولندا التي وحدتها منذ السنة ١٣٨٤ ، السلالة المتفرعة عن سلالة الفالوا . وقد اضاف الحاح الضرورات السياسية والاقتصادية والنقدية والانضواء تحت سلطة امير واحد ، ووحدة المصالح ، الى النزعات المحلية الخاصة المتأصلة ، صوفية مشتركة لم يكن الأسياد ، في اجتماعات « الجزيرة الذهبية » ، الوحيدين الذين أخذوا يجاذببتها . فحتى السنة ١٤٣٥ ، استطاع « فيليب له بون » ، الامير الفرنسي ، تحليل النفس باعتلاء عرش فرنسا الذي كان هو اول صاحب اخاذه فيها ؛ اما ابنه شارل « المتهور » فقد أعلن نفسه برتغالياً ، حتى لا يقول انكليزياً ، بسبب امه المنتسبة الى آل « لنكستر » . وحدث في الوقت نفسه ان كلمة « بورغونيون » التي أطلقت اساساً على انصار خاصمو انصاراً آخرين هم « الارمنياك » أصبحت نقياً لكلمة « فرنسيون » . وقد اسف « شستلين » مؤرخ الحوليات نفسه للنزاع بين « هاتين الامتين المختلفتين » الفرنسيين والبورغونيين ؛ ولكن « اوليفيه دي لامارش » و « جان مولينييه » من بعده قد بغضا فرنسا ، وعبر الهتاف « لتتش بورغونيا » ،

في آخر القرن الخامس عشر ، عن يقظة وعي شعب مختلف تماماً ، هو شعب هولندا ، الذي ما زال يتلمس طريقه .

اجل ان اوروبا لم تشترك اشتراكاً متساوياً في هذه التطورات . فليس هناك من وعي قوي حقيقي في المانيا مثلاً ، على الرغم من انها حاولت جمع شتات أبنائها . كما ان الدول التي كانت تؤلف مملكتي آرل وبورغونيا القديمتين توصلت الى التخلص نهائياً من القبضة الامبراطورية ودخلت الوحدة ثلث الاخرى في التبعية الفرنسية او في تبعية دوقية بورغونيا أسيا هولندا ، ولم تعد الهجمات الامبراطورية ، بعد منتصف القرن الرابع عشر ، لتنهج الانصار الجرمانين في ايطاليا الشمالية . ولم تجع « الامة » الالمانية حقيقتها ، بسبب حرمانها من عناصرها الغربية ، الا في ظروف نادرة ، كاحتكاكها بالقومية التشيكية مثلاً ، اذ لم تبرز في أماكن اخرى سوى نزعة عاطفية غامضة لا تترأى الا في التوريات الادبية .

اما في شبه الجزيرة اليبيرية فيجب علينا ان نتكلم عن القوميات في صيغة الجمع . فالكانالونيون والاراغونيون والقشتاليون والنافاريون يشعرون ويعلمون انهم يتميزون عن بعضهم ، كما تشهد على ذلك الحروب الأهلية الفظيعة التي قامت بينهم باستمرار . وسبق للبرتغاليين كذلك ، في معركة « الجواروتا » (١٣٨٥) ، ان أعربوا عن تصميمهم على العيش منفصلين عن ملكة قشتالة .

على الرغم من تألق ايطاليا آنذاك في حقل الفنون والادب ، فانها قد تأخرت ، أكثر من أية دولة اخرى ، عن ركب القوى القومية هذا . وعيشاً نادى دانتي ، في مستهل القرن الرابع عشر ، بثاله المسكوني المبني على الامبراطورية الشاملة والمسيحية الرومانية ؛ فكان الجواب الوحيد الذي تلقاه أنانية اقليمية غاية في القذارة . وما زال الوطن ، بعد مرور مئة سنة ، كما لمقضع في حاكمه « اران فالان » ، سوى خليط من الافراد لا يجوز ان يكون أي منهم أعز عليه من نفسه : « فهل يجوز ان ارغم على الموت من اجل وطن هو حصيلة هؤلاء ؟ » وليس باستطاعتنا الاستشهاد ، امام هذه الانكارات ، الا بببترارك الذي تمكن لعمري من تذوق عذوبة الحياة في ارض بروفنسا ، ولكنه شتر على افينيون ، منفاه في الديار « الاجنبية » وراء الجبال وعبر عن خلفه الشعبين في « دفاعه » ؛ او بكتارن دي سينتا ، التي تدين لها سلطة الكنيسة ، سواء لمصلحة العالم المسيحي اجمع ام بموجب رسالة قومية ، بالاقامة في روما والبقاء في أيد ايطالية ، « بين سكان روما او ايطاليا » .

ان قومية القرن الرابع عشر ، من حيث هي مجرد عاطفة تفاوت وعيها اللغات القومية ولم تجش بعد الا بحميا بدائية ، وجدت اولئك روابطها في وحدة لغة تهر فيها ، بالكلمات نفسها ، طرائق الشعور والتفكير نفسها . فقد اهتدى شعب فرنسا ، في ازدهار النثر الذي بات وحده موافقاً آنذاك للأخبار المحلية والقصة والمسرح الشعبي وفي « يوميات »

فرواسار ، وكتمة « قصة الوردة » ، وملاحق « قصة الشلعب » ، وفي التحويرات الكثيرة التي أدخلت على قصص الفروسية والأسرار والمزاحيات ، الى مميزات سبجته التي عبر عنها بلسار واحد انكفأت امامه اللهجات الاقليمية . اجل ما زالت فرنسا الجنوبية « وطن لغة الاروك » ولكن لغة باريس ، التي ازداد استمالتها باطراد في وثائق الديوان الملكي وفي وضع صيغة القوانين اخذت ، حتى في هذا الوطن ، تنتشر يوماً بعد يوم ، اذان « اللغة الام » هي ما كان يعتمد عليه في الصكوك الرسمية . ولذلك فقد دهش المناادي الحربي « بري » من ان سكان بريطانيا ، على الرغم من انهم رعايا الملك ، « يتكلمون لغة لا يفهما احد غيرهم اذا لم يتعلمها » ، في حال ان سكان كونتية بورغونيا وسافوا يتكلمون اللغة الفرنسية « بسهولة » .

اما ايطاليا والمانيا ، الامتان اللتان تتلمسان طريقها ، لما زالتا متمسكتين بلغتيهما الخاصتين . فقد بلغت اللغة الايطالية كمالها دراكاً مع دانتي ؛ وعبرت اللغة الالمانية ، لاسيما في المدن التجارية ، عن التصنع الرمزي والعاطفي ، بينما اتاحت مؤلفات « اكهارت » للنثر ان يقدّر التعبير عن الفكر الجرمانى بالذات . الا ان الحركة القومية لم تجد لها في لغة أية بلاد مرتكزاً اقوى منه في لغة بوهيميا . فقد انتصرت هنا اللغة التشيكية مع شارل الرابع الذي اوصى ، في رقيقه الذهبي ، باستخدامها وتعليمها . وقد أثبتت انها جديرة بمعالجة اصعب المواضيع ، أي القانون والطب والفلسفة واللاهوت ؛ فكانت لغة المصلحين والوعاظ ومترجمي التوراة ، وقد هتف لومادي ستيني قائلا : « ليست محبة الرب للتشيكية اقل منها للاتينية » . وحين حاربها سيجيسمون دي لوكسمبورغ والبارونات الالمان ، استخدمت للتعبير عن الغضب « الالم القوميين » على غرار الشعر الغنائي الصربي الذي يجتد لمازر ، المغلوب على نفسه في كوسوفو ، « تاج صربيا الذهبي » .

وليس النهضة الادبية والاجتماعية التي حققتها اللغة الانكليزية اقل ما يميز هذا العهد . كانت الرطانة الانكلوسنورمندية لغة الادارة والمحاكم وأوساط البورجوازيين الأثرياء والارستوقراطية ، فبلغ من بعدها عن هذه الطبقات الاجتماعية في اواخر القرن الرابع ، انه بات لازماً فتسح المدارس لتعليمها وان المناقشات ، رغماً عن انك رجال القانون ، أصبحت تجري باللغة الانكليزية في البلاطات الملكية . وحين تجاسر هنري دي انكسار على التقدم بحججه باللغة الانكليزية ، امام مجلس السنة ١٣٩٩ ، لاقالة ريشار الثاني الموالى للفرنسيين ، كان الشاعران « لنفلاند » و « شوسر » وناقلو التوراة نثراً (بايعاز من ويكليف) قد توفقوا منذ ربع قرن الى التعبير الادبي عن رغباتهم الاجتماعية وانتقادمهم للأخلاق ومثلهم الديني الاعلى .

كان مقدراً لهذه القومية الناشئة ان تسعدر شيئاً فشيئاً من هذا
السلالات والكنائس القومية
المستوى العاطفي والادبي الى المسلك السياسي بشكل تعلق
بالسلالات القومية في وجه كل منافس اجنبي مهما كان من امر حقوقه الوراثية . فقد هدّد
السكتلنديون ، المشهورون بولايتهم الراسخ لسلالة البروس ، باقالة ملكهم داوود ، حين فكر هذا

الاخير ، وهو في الاسر ، بالتخلي عن مملكته لادوارد الثالث ، « مفضلين تقديم جميع ممتلكاتهم فدية له » (١٣٦٢) . وفي السنة ١٣٢٨ فضل البارونات الفرنسيون فيليب له فالوا على ادوارد الثالث نفسه مع ان هذا الاخير حفيد فيليب له بيل من جهة امه ، لأن فيليب له فالوا من « مواليد المملكة » . وكان لتهمة موالة فرنسا اثرها الكبير في تخلي الانكليز عن ريشار الثاني وحلمهم على القبول بأن عمه هنري دي لنكستر ملكاً عليهم ، كما ان البرتغاليين هلكوا لابن زنى مفتصب ، هو جان الاول مؤسس سلالة الافيي ١٣٨٥ ، رغبة منهم في الحيولة دون اتحاد سلافي مع قشتالة . وحدث على نقيض ذلك ، كما نرى في اوروبا الوسطى ، ان السلالات الاجنبية تجنست في وطنها الجديد : فقد خلف جان دي لوكسمبورغ الذي تزوج من آخر اميرة من اميرات البريمسليين في بوهيميا (١٣٠٦) ، ابنه شارل الرابع الذي سبق ورأينا ما فعله في سبيل الثقافة التشيكية ؛ وبعد ان استقرت سلالة النجو في هنغاريا بفضل مصاهراتها للاربادين ، دان لها تاج القديس اسطفاك بكثير من اجداده وحتى ببسط السيطرة على بولونيا التي عادت وأقامت فيها بعد ذلك سلالة سلافية جديدة بزواج الملكة هديج من الامير اللتواني لادسلاس جاجلون (١٣٨٢) . اما دوقية بورغونيا الذين ارسخوا اقدمهم في هولندا بسلسلة من محالفات المصاهرة فقد بلغ من قوة مركزهم انهم لم يتخلوا عنه قط ؛ ومنذ الجيل الثاني كان « جان سان بور » يتكلم لغة الفلاندر الشعبية ؛ وفي اواخر القرن الخامس عشر وقف الشعب بكليته في وجه مكسيميليان دي هابسبورغ لأنه لم يكن « سيده الطبيعي » .

وبرزت في الغرب اخيراً ، خلال القرن الرابع عشر ، قوميات كنسية حقيقية . ألم يقل الكثير خطأ والقليل صواباً عن اقامة البابا في افينيون منذ ان اتممه بياتريك « بتزويج البابوية من مملكة فرنسا » ؟ اذا كان البابوات « الليموسيون » قد قبلوا في غالب الاحيان بأخذ سياسة الملوك الكاثوليكين والغالوا تحت حمايتهم ، فان مهمة دوق النجو الكبرى لدى غريغوريوس السادس في السنة ١٣٧٦ لم تستهدف سوى محاولة ابقائه على ضفاف الرون . ولكن ردة فعل الرأي العام الانكليزي ضد الفرنسيين المستأثرين بالكروني الرسولي كانت اعنف منها ضد دسائس البابوية الايطالية . فقد كان حكم التشريع البرلماني قاسياً جداً على منح الاجانب براءات التولية الرسولية وتهريب الموارد الكنسية وفوائد الحقوق الاميرية البابوية والاكثر من تقديم الدعاوى الى محكمة روما : فقد اضيف في السنة ١٣٦٥ الى انظمة « التولية » (١٣٥١) و « التحذير » (١٣٥٣) ، منع دفع الضريبة الاقطاعية التي توجبت على ملك انكلترا منذ خضوع « جان سان تير » للبابا انوشنتيوس الثالث . واذا كانت المملكة البحرية ، عند حدوث الانشقاق ، بين المالك الاول التي جمعت شمل الخاضعين لبابا روما ، فانما كان ذلك ، كما كتب آنذاك اسقف «غالواي» السكتلندي ، « انتقاماً من الفرنسيين ، لا محبة بالحقيقة » .

وتجدر الإشارة هنا ، على كل حال ، الى ان موقف الدول المختلفة من البابويين المتنافسين قد أملت النفس الاقليمية الخاصة عنها ، فكانت الحكومة الفرنسية ، بدافع من الجامعيين ورجال

الشرع الذين كانوا جدّ سعداء في مراقبة جمع المكاسب الكنسية والحاكم الروحية ، اول من قام بالاختبار الغليكاني ، طيلة سنوات عدة ، بتحضيرها الخضوع للبابا (١٣٩٨) . او ليس في التوزيع غير المألوف ، بحسب القوميات ، الذي اخضع له اعضاء مجمع كونستانس المعدّ للحكم على الهرطقة التشيكية - وهي كنيسة اخرى قومية تماماً - الدلالة كل الدلالة ايضاً على تطور مفهوم « الامة » بالذات ، المخصص حتى ذلك العهد بالفئات الجامعية ، وعلى الانظمة الدينية الجديدة ؟ فقد طالب الامراء - ويشهد على ذلك في فرنسا الامر الصادر عن سلطتي الملك والمجلس في السنة ١٤٣٩ - بأن يديروا على هوامم شؤون الكليروس في الامم المختلفة ، كلما استحال الاتفاق مع البابا على الاشتراك في هذه الادارة : وهكذا فان القومية اقامت الحواجز حتى في حقل الكنيسة المسكونية مبدئياً .

وقد قوى هذه الحواجز التقسيم التدريجي الذي تناول الامارات الحدود البرية والبحرية والممالك . الا ان مفهوم الحدود ما زال ، بفعل الحاجة الى الحرائط الطبوغرافية الدقيقة ، مجرد مجاز قانوني لأن الحدود غير معروفة تماماً حيث يجب ان تقوم في الارض . وقد رافق الرغبة في الحيلولة دون توضيح حدود الاراضي التابعة للاقطاعات ، رغبة خفية في عدم تعيين حدود التوسعات المفيدة التي قد تحققها السلطة . لذلك غالباً ما كان الفاصل بين الممالك منطقة دفاعية : كالولايات المتاخمة للحدود الشرقية الخاضعة لرقابة الكتائب الجرمانية ، ومقاطعات الحدود بين سكتلندا والويلز حيث فصلت انكلترا عن سكتلندا ، كما يقول المنادي الحربي برّي ، « ثلاثة ايام من البلاد الصحراوية » ، ومقاطعات الحدود الاسبانية المتاخمة للعالم الاسلامي . وكان الهدف من الحصون التي شيدت عند تخوم الويلز وقشتالة والاكتين رسم الحدود رسماً تقريبياً حيث لم تؤلف الجبال او الاحراج « سياجاً » تقليدياً ملائماً ؛ ونحن هنا امام معنى جديد لكلمة « الحدود » التي اقتبست اساساً من جبهة الحرب ، فحلت في اوائل القرن الرابع عشر محل كلمة « ولاية متاخمة » . ويبدو ان الملك لويس العاشر قد استعمل كلمة « حدود » في السنة ١٣١٥ للمرة الاولى في كلامه عن الحاميات التي تدافع عن المملكة في منطقة الفلاندر ، ثم استعملت ، في وقت لاحق ، في الكلام عن الجبهة الاكتينية ، وعن كل منطقة تتنازع حدودها الجيوش المتقابلة . فسمى المسؤولون حينذاك ، رغبة منهم في التدقيق والضبط ، الى تعيين الحدود بالصلبان والانصاب والاشجار ؛ وقد درجوا على تنظيم الاحتفالات الدورية احياء لهذه الذكرى ، كذاك الذي كان يقيم اهالي باريتوس ورونكال منذ السنة ١٣٧٥ ، ويتبادلون فيه التعهدات والجزى على نصب مجاز « بيرسان - مارتين » الفاصل بين اوديتهم البيرينية . وقد كان لوضع علامات الحدود بين الامبراطورية وجيرانها ، وهو اعظم سهولة على جوائنب الانهر - قربان الزورق في الرون يعرف ان الضفة اليمنى هي المملكة واليسرى هي الامبراطورية - دوره في تدريب لجان التحقيق ، وان رافقه الاخفاق احياناً ، على التبصر والفتانة ، كما لوحظ ذلك ، في السنة ١٣٥٥ - ١٣٥٦ ، في منطقة اللورين والبار والكونتية . ولكن الحدود ، على صعوبة

رسمها في الاراضي ، سرجودة في الازهان ، وهذا هو الامم .

واعتبرت حدوداً ايضاً ، في نظر اقوام القرن الرابع عشر ، التخوم البحرية، مع ان الحرب لم تنقيد آنذاك بأي قانون وان الشعب الانكليزي ادعى الملك على المانش ، الذي اطلق عليه اسم « البحر البريطاني » في الخرائط الاولى . وامتد مفهوم البحر الاقليمي - الذي ظهر في المتوسط - الى الشواطىء الاطلسية ، ولا سيما شواطىء هولندا التي تمخضت آنذاك بمبادئ مخصصة في حقن الحق الدولي العام. وادعت البندقية الملك على البحر الادرياتيكي بكامله، وجنوى على البحر الليغوري ؛ وقد قدّر القانوني برتولو دي ساسوفراتو (١٣١٣ - ١٣٥٦) بـ ١٠٠ ميل روماني - ١٥٠ كلم تقريباً - نطاق المياه الاقليمية المطلقة . ودرج التقليد السكنديني في بحار الشمال على تحديد المياه الاقليمية بخط يقسمها مناصفة ؛ على انهم ، باستثناء الانكليز، قد اعتبروا البحر نطاقاً حرّاً بصورة عامة . ومع ذلك فان الفلاندر ، حرصاً منها على الامن والسلامة ، أعلنت سيادتها المطلقة على طريدة من المياه الساحلية يبلغ عرضها ٢٠ كيلومتراً تقريباً وتوازي المسافة القصوى التي يمكن رؤيتها من الشاطئ، وقد عرفت باسم « ستروم » الفلمنكي ؛ واعترف الفرنسيون والانكليز والمدن التجارية الهانسية، مداورة ، بهذا الستروم بين السنة ١٣٧٠ والسنة ١٤١٤ . والدليل على هذا الحرص توسع صلاحيات المحاكم البحرية، على غرار ما حدث في الدول المتوسطية والابيرية؛ وقد احدثت هذه المحاكم مبراسيم في انكلترا (١٣٦٠) وفي فرنسا (١٣٧٣) وشملت صلاحياتها البحارة والملاحين على الشواطىء وفي المراكب وفي المياه الاقليمية .

غدا من ثم لازماً ، لاجتياز هذه الحواجز الجديدة ، الحصول على اجازات مرور مؤقتة وقابلة الابطال . فأضيفت آنذاك الى الضرائب على عرض البضائع ومرورها دوائر الجمارك التي احدثت في كافة دول اوروبا . غير ان فكرة هذه الدوائر ارتسمت في انكلترا قبل نهاية القرن الثالث عشر « بالرسم القديم » الذي استوفي منذ السنة ١٢٧٥ على تصدير الاصواف والجلود ، والذي اضيف اليه الرسم على الاجواخ والمحور المستوردة « والرسم الصغير » على الصادرات المختلفة والرسم على الحمولة الذي استوفي بنسبة المشحونات ، فبرهنت منذ ذاك الحين انها حاجز جمركي قمين بحماية المملكة البحرية . اما في فرنسا فان الضرائب على البضائع ، التي اضيفت الى الحقوق القديمة وتناولت معظم المواد الغذائية ، قد تنظمت منذ السنة ١٣٥٨ تحت اشراف « رئيس مرافىء المملكة ومعابرها » . واستجابت الرسوم الماثلة في هولندا واسبانيا والبرتغال للحاجات نفسها ، بينما عقد اتفاق في كولونيا ، في السنة ١٣٦٧ ، فرض في كافة المدن التجارية الهانسية رسماً نسبياً لقيمة البضائع المستورة من المناطق الاخرى او المصدرة اليها .

فتنظمت بالتالي اقتصادات اقليمية هي امتداد لروح تقليد القرون الوسطى حول حماية الصناعة في المدن ، ولكن اطارها اُمسى قومياً آنذاك . وطالب المواطنون ، في وجه الاجنبي الذي حسدوه وارتابوا منه ، بالاستفادة من نظام يفضلهم عليه، ان لم يكن من احتكار النشاطات التجارية . فالى السنة ١٣٨١ ، يعود المرسوم الاول حول الملاحة الذي أعلن حصر التجارة في

مرافئ، ما وراء المانش بالسفن الانكليزية ، دون ان يستطيع الى ذلك سبيلاً على كل حال ؛ ولكن المصدرين الاجانب اضطروا الى دفع رسوم اضافية لأجل التخلص من محطة الاصواف التي تديرها شركة واسعة الامتيازات من التجار الانكليز ، والتي تنقلها من مكان الى آخر في البر الاوروبي ، جاعلة منها وسيلة للضغط السياسي : وفي ذلك دليل على توسع استخدام السوق الممتازة . فاقترع وضع الاجانب في كل مكان بهذه القومية الاقتصادية ؛ فاذا هم تمتعوا ببعض الامتيازات فانهم في الغالب يمحضون لحق الملك بوراثةهم ؛ اضاف الى ذلك ان المجموعات القومية التي يؤلفونها تعيش بمعزل عن البلديين ، على الرغم من تمتعها باستقلال داخلي : كالمستعمرات (Loges) البندقية والفورنسية والكاتالونية في بلدان المتوسط ، والمستعمرات البرتغالية والقشتالية في هارفلور حيث منحها « فيليب دي فالوا » بعض الامتيازات ، وأسواق تجار المدن الهانسية في لندن وبروج ، ولا سيما « الملل » الاسبانية والايطالية في هذه المدينة الاخيرة .

وجلي ان الاجنبي المنعزل ، الذي كان موضوع حذر ، لم يطمئن قط لمصيره . فقد تكررت بعد السنة ١٣٨٠ فورات غضب الشعب اللندني ضد تجار المدن الهانسية والصناعيين الفلمنكيين بتأثير من كرهه للأجانب . وكذلك فان المسلمين الذين خضعوا للنير المسيحي وعوملوا بتساهل في قشتالة واراغون ، قد عوملوا معاملة قاسية في ماجورك والبرتغال حيث بقيت للرق شوكتة . كما ان اليهود ، وهم كثر في اسبانيا والمناطق الالمانية ، قد ذاقوا الامرين حين اعتبرهم الشعب مسؤولين عن الكوارث الطبيعية ولا سيما عن الطاعون الاسود : فقد انفجرت الحركات المعادية للأحياء اليهودية في نورمبرغ وفرنكفورت (١٣٤٩) وبروكسيل (١٣٧٠) . وان التشريع العام ، المستوحى من الحق الروماني ، قد غدا حيالهم قاسياً جداً .

اضطر الاجنبي ، رغبة منه في التخلص من هذه المعاملة القاسية ، الى طلب التجنس ، الذي قد حصل عليه احياناً ؛ وفي هذا برهان جديد على ان الجنسية كانت سائرة في التطور نحو مفهوم قانوني معين . ففي فرنسا مثلاً ، سن مجلس باريس ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قانوناً يعلن ، باسم التضامن القومي ، حق السلطة المدنية في منع الزواج من الاجانب .

فقدان السلطة المنظمة
جاء مفهوم الأمة في الوقت المعين ليساند مبدأ السيادة الروماني الذي حاول الملوك والامراء الغربيون ارساء سلطتهم عليه . وقد ركّنه تقليد قبول اعضاء المجلس الاعلى في فرنسا و « وحدة المملكة » في انكلترا ، ففدنا هنا « السيادة والقوة » ، وهناك « السلطة المطلقة » التي تحدد كلها السلطة الملكية . واعترف الملك في اقسامه اليمين للرب ، وللرايا امام الرب ، بأنه ليس سوى حارس شعبه . وفي فرنسا نفسها ، كتب مؤلف « حلم الروضة » ، بايماز من شارل الخامس ، « ان الملك يقام ... بإرادة الشعب وحكمه » . وبجث الملوك في كل مكان عن نقطة يرتكزون اليها في الاستشارات القومية : جمعيات مجالس الطبقات ، البرلمانات ، المجالس ، ومجالس المندوبين ، التي يطلبون اليها ابرام او

رفض المعاهدات ويعتصمون بأرائها ، وكأننا آراء رجال القانون ، لتبرير اخطر المقررات في حق السياسة الدولية . وباستطاعتنا القول ، في هذا الصدد ، ان الامة ، التي يرمز اليها اتفاق الامير وممثلي الجماعات ، كانت مدعوة طبعاً لان تصبح مرتكز السيادة بالذات . واذا ما نظرنا من هذه الزاوية الى الصراع الفرنسي الانكليزي الطويل ، الاقطاعي في ظواهره والسلافي في أسبابه المعلنه ، لرأينا انه ملكي وقومي معاً في جوهره ، لأنه استعجل انهيار الانظمة الاقطاعية وبرهن في الوقت نفسه عن انه محاولة لتحديد النطاق الاقليمي والبشري حيث يستطيع كل امير ، بل يتوجب عليه ، ممارسة السيادة كاملة .

لا ريب في ان فاعلية النزعات التي أدت الى تجزئة العالم المسيحي وحدات ملكية وقومية قد اختلفت باختلاف درجة تطور الدول والشعوب على الصعيد السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي او الفكري . ولكنها قد صادفت في كل مكان حقلاً خصباً بفضل فقدان السلطة المنظمة ، منذ ان تزعمت القوى الثلاث التي تركز عليها الامل بتهدئة العالم الغربي وتنظيمه وادارته . فالامبراطورية قد تحطمت منذ انهيار فردريك الثاني ولم تستعد قط ، على الرغم من محاولات هنري الرابع و « لويس دي بافيير » ، النفوذ والقوة اللذين كان من شأنها دعم مطالبتها بإدارة الامراء . وبعد ان بات التاج يباع بالزاد العلني ، وبعد ان سلخت عنها الاقاليم الفرنسية والاطالية وجاورتها الممالك السلافية وعمتها الفوضى الداخلية ، لم تعد الامبراطورية سوى حلم لا طائل فيه . اما البابوية ، التي غدت على الصعيد الزمني أعظم ملكية مركزية منظمة ، فلم ينافسها احد قط دورها العقائدي ورسالتها الاخلاقية . ولكن أنى لها بعث مزاعمها الشيوقراطية البالية حين تبدو ، في ملجأها الافينيوني ، وكأنها خاضعة لرغبات ملك فرنسا ، وحين تمزقها ، ابان الانشقاق ، المصالح القومية المتباينة ؟ فلم تفقد دورها في ادارة السياسة فحسب ، بل اخذت تفقد دورها التحكيمي ايضاً : اذ ان محاولاتنا الكثيرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وانكلترا قد ذهبت ادراج الرياح . فاضطرت من ثم ، في القرن الخامس عشر ، امام ازدياد مطالب الملوك ، الى ان تسلم للدول بشكل جديد من التسوية : اتفاق التخلي .

اما مملكة فرنسا ، وهي القوية بنفوذها التاريخي ، فقد بدت لرجال القانون المحيطين بفيليب له بيل ، قادرة على الحلول في ادارة سياسة العالم المسيحي محل الامبراطورية والبابوية اللتين برهننا عن عجزهما . وقد سبق ورأينا كيف ان هذه الاحلام وغيرها لم تستند الا الى الذكرى . ففي الوقت الذي تكونت فيه ، كان نفوذ فرنسا ، مادياً وروحياً ، قد مال الى الهبوط . ثم جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط فكذبت الوقائع اقوال العلماء النظريين .

لذلك فان مفكرين كثيرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد ان أعياهم ادراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته . وقد اتخذ موقف الانتظار هذا ، في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الانكليزي ، أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ، ولا سيما في هولندا ، شكل الحيام وحتى اسمه الجديد . وعجزت الممالك الاسبانية عن تحديد موقفها على الصعيد الديني ، فاعتصمت طيلة

سنوات ، بعد قيام الانشقاق ، في « اللامبالاة » ، وان شق عصا الطاعة ، الذي رغب فيه الجامعيون الباريسيون في اواخر القرن ، كان هو ايضاً ، من بعض الوجة ، ما اطلق عليه اسم « الطريق الوسط » في الانتظار التي زاد في مغزاها ان الذين نادوا بها هم انفسهم الذين تلبسوا بدقة قياساتهم وادعوا مع ذلك قول كل شيء ومعرفة كل شيء . فقابل توارى السلطة الروحية عجز في السلطة الفكرية .

٢ — هبوط السلطة الروحية

ان القرن الرابع عشر ، الذي هو « قرن الانشقاقات » ، قد نقل مضاداته ومناقضاته الي صعيد الفكر نفسه . لقد املت تأليفات القرن السابق الجريئة ، بسبب سخافاتهما ، ولعنهما ، على الرغم من ذلك ، قد فتحت آفاقاً بلغ من بعدها ان الناس توغلوا آنذاك في مسالكها المتباعدة . فسواء كانت الطريق فلسفة تبتغي الاستقلال عن اللاهوت وتستطيع ان تذهب بسالكها بعيداً في مجاهل الارتياحية ، او روحاً عليية تخطر ، بسلطة المنطق ، خطواتها الاولى نحو التدقيق والوضوح ، او ايماناً يتعمد احياناً امام الظلم الاجتماعي والكوارث المتعددة ، ويختلط غالباً بالهبة الالهية والخوف الملقض من الموت ، ويضي الى تفتح شتى ادواع الصوفية وتجربك المواطف ، فناننا نلاحظ في كل مكان ، وحتى في قصر الحياة الذي يقرب بين الرذيلة والفضيلة ولا يميز بينها ، التباعدات نفسها والاختلاف عينه في السلوك والتصرف . ولم يكن من العسير فضح التباسات القرن وغباواته والفرطاته والمخرفاته ، ولم يتأخر مذهب الاخلاق عن ذلك في حينه . بيد ان الجهد الفكري هذا في سبيل انماء المعارف الخاصة وانطلاقة الروح هذه نحو ايمان مسيحي حي قد كانا اختاراً غصباً ودليلاً على حيوية في الحضارة الغربية يزيد من اهميتها ان سلطة البابوية الروحية وسلطة الجامعات الفكرية نفسيهما لم تتوصلا بعد ذلك الى مراقبتها ، كما لم تتمكن ، بأولى حجة ، من توجيه مظاهرها المتعددة نحو هدف مشترك .

أقيمت الدعوى على بونيفاسيوس الثامن عشية يويل السنة
الانتقادات الموجهة الى البابوية
١٣٠٠ الذي بدا وكأنه أرغم جمهور المؤمنين المسيحيين على ان
ينغروا سجداً على اقدام الثيوقراطية الطاهرة ، وقد تابعا مكشاور فيليب له بيل بكل عناد
طوال عشر سنوات تقريباً ، فكانت الطاهرة الاولى مسن ظواهر مأساة الضمائر المسيحية امام
زوال نفوذ أعلى سلطة مسؤولة عن مصائرهم . وقد شعر الملك الوري شارل الخامس نفسه ، في
منتصف الطريق التي سلكها هذا الهبوط السريع ، بالحاجة الى استشهاده الله على حسن نيته في
مناصرة البابا الافينيوني ، ولكن المؤمنين لم يلتظروا انفجار الانشقاق المعتر حتى يشكوا في
خليفة بطرس .

بيّننا اعلاه الاسباب البعيدة التي أدت الى هذا الهبوط : فان النصر المبين على الامبراطورية ،

بعد سقوط فردريك الثاني ، قد ألقى على البابوية وحدها عبء ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية ؛ فكان هذا العبء اثقل من ان تنهض به وسائلها الراهنة ؛ واطر خطر تهديداً ايضاً من ان لا يثير ردود فعل السلطة العلمانية التي سارع قانونيو فيليب له بيل الى مساعدتها واهتدوا في الحق الروماني الى ما يؤيد مطالبة سيدهم بالامبراطورية الشاملة . انه انتقام السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وقد زاد من مخايلته انه تناول ، اول ما تناول ، شخص البابا بالذات ، الذي غالباً ما نعت « بالمسيح الدجال » ، وان حدثه لن تخف في المستقبل أياً كانت سيئات البابوات او حسناتهم .

وما انت خطيت الخطوة الأولى حتى تناول انتقاد التجني حاشية البابا وشخصه وحق سلطته . ولم يحظ بالاحترام العام ، بين بابوات القرن الرابع عشر جميعهم ، سوى اوربانوس الخامس وحده ، ذلك الرجل القديس الذي انحنى أمامه بترارك . اما الآخرون فان الأحكام التي اصدرها معاصروهم عليهم كثيراً ما تحولت الى الثثرة ، كروايات فيلاني الحبشة او احقاد بترارك الجائرة ، وكان هذا الأخير أول من يستفيد من الانعامات البابوية وأول من ينتقدها اذا منحت سواء . اجل لقد افسحت محبة اكليمنضوس الخامس ويوحنا الثاني والعشرين المفرطة لاولاد اخوتهم وتبذيرات اكليمنضوس السادس مجالاً للانتقادات الشرعية ، ولكن يوحنا الثاني والعشرين اتهم بالبخل تجنيباً ايضاً . وكان بندكتوس الثاني عشر ، وهو السستري المتكشف والمرجع اللاهوتي الذي نعلم ، هدفاً بعد موته لحملات بترارك والامبراطوريين والمسولين الذين حاول اصلاحهم . وان في عنف هذه الحملات ، التي لا توحى الثقة اجمالاً ، لدليل على وقاحة متزايدة : فالمعروف عن « ماثيو فيسكوني » ، الذي اتهم بمحاولة السيطرة على يوحنا الثاني والعشرين ، انه كان يصرح علناً ان « البابا يعمد عن البابوية بعدي عن اللوهية » . والحقيقة ، على كل حال ، هي ان ترددات هذا البابا في موضوع مشاهدة الله في السماء وتموراته العقائدية ورجوعه عن اقواله قبيل اسلامه الروح لم تكن لتوحي ثقة عياء في شخصه .

وقد بلغ السيل الربي عند حدوث الانشقاق حين تراشق الحرم باباوان متنافسان . فقبنت جامعة باريس ، دون ان تقصد ذلك ، جسارات ويكليف الذي حكم على الباباين منذ السنة ١٣٨٣ ودعا المسيحيين للاتحاد ضدما ؛ وبلغ منها جوالي السنة ١٤٠٧ ، بعد فشل « طريق التخلي » ، ان نعتت بندكتوس الثالث عشر بـ « المنشق المتصلب » و « الهرطوقي الحقيقي » ، وغريغوريوس الثاني عشر بـ « مخرب الكنيسة » ؛ ثم اتهمها مجمع كنستانس بالرق والسحر بعد ان اطلق على الاول تهكماً اسم *Benefictus* (المستقل) والثاني اسم *Errorius* (الضال) ؛ ولن يلبث آباء مجمع كنستانس ان يعزلوا يوحنا الثالث والعشرين لانه « خطر وغير نافع » .

يغلب على ظننا ان اباحية الكلام هذه انما كانت في تقاليد الفرون الوسطى ؛ اذ ان بترارك الذي اصدر احكاماً سيئة المقصد على البابوات ، لم يكن قط ليقصد تحقير المركز البابوي لانه كان محافظاً ويعتبر البابوية مصدرراً لكل سلطة . بيد ان انتقاد الاشخاص لم يكن من جهة اخرى

ليبرز هذا المركز الذي ادركه ايضاً رشاش الانتقادات اللاذعة التي وجهت الى مجمع الكرادلة . فركزية الحكومة البابوية المتعاطمة قد اولت الكرادلة في الواقع شأنًا عظيمًا . كانوا مستشاري البابا حين يدعوم الى الاجتماع وقاموا الى جانب ذلك بالاشراف على شؤون الديوان والمحاكم والمجلس الرسولي والقضادات وادارة دول الكنيسة . وتمكن بعضهم احياناً من اتباع سياسة شخصية او اقله خدمة صوالح الأمير الذي يدينون له بارتقائهم الى مقام الكردينالية . وقد توفرت لامراء الكنيسة وسائل الحفاظ على مرتبتهم : حشم وخدم منزليون ، مساكن عظيمة ، ثياب رسمية ، نصيب من موارد الكنيسة العادية (الخدمات المشتركة) ، انعامات استثنائية خاصة ، موارد الرتب الكنسية الكثيرة على الرغم من مساعي يوحنا الثاني والعشرين للحد من سوء استعمالها . وامتلأت مصالح الادارة البابوية بازلامهم الذين كان الكثيرون منهم يتخبطون في حالة عوز شديد ويبحثون عن رتب كنسية شاغرة . وتذكرنا لهجة الانتقادات ضد هذه التجاوزات بلهجة القديس برناردوس معنفاً احبار عصره . فبعد وصف بترارك لهؤلاء الرجال « الذين اغتتمهم قطعة جوج حمراء صغيرة تتألف منها قبعاتهم » ، اعتبر جرسون (Gerson) ان « الذين يجمعون ٢٠٠ وحتى ٣٠٠ رتبة كنسية » خليقون بان يعرضوا في معرض جثث المجرمين ، وتكلم نقولا دي كلامانج « في » دراسته عن خراب الكنيسة « عن » لجنة جشعهم القاتمة المرعبة » . واغتمت بريحيات السويدية ، وكاترين السيملي من بذخهم اغتمام الروحيين الذين تعرضوا لاضطهاد مؤسف في الوقت نفسه الذي توسعت فيه الحقوق الاميرية البابوية . ولكن هل كان لكرادلة افينيون ابناء اخوة ومحبون اكثر من اسلافهم كرادلة روما يا ترى ؟ وما هي قيمة كلام المخادع الذي لم يثبت بالدليل قط لا بترارك ولا فيلاني ولا مارسيل البادواني . فقد استطاع جوفروا الباريسي بدوره ان يتهم الرومانيين بانهم لا يحبون البابا الا لغاية مادية .

الا ان الشكوى الحقيقية لاعداء البابوية ، وهي ابعاد هوى وبغيا ، فغير هذا كله : فالماخذ على باباوات افينيون انهم كانوا فرنسيين ، وملأوا مجمع الكرادلة بغاسكونيين وكريسينيين وليموسيين يضمنون اخلاصهم ، وانتظروا تهدئة دولتهم الايطالية حتى ينتقلوا الى بلاد لا تكرم الضيف ، وايدوا اخيراً وجهة نظر ملك فرنسا ضد انكلترا على الصعيدين المالي والدبلوماسي . ومهما بلغ من غلو بعض هذه التهم ، فانها قد اسهمت مع ذلك ، في حينه ، في احراج مركز السلطة الروحية في معترك المنافسات السياسية واضعاف ثقة الناس بها اضعافاً ملحوظاً .

استفاد في الدرجة الاولى من هذا الضعف اصحاب النظريات النظرية الامبراطورية الجديدة السياسية وانصار الروح العلمانية والتواقوف الى الحلم الامبراطوري الذين رغبوا في تحقيق انتقام الدولة من ادعاءات ثيوقراطية ما زالت متصلة حتى بعد ما حققه بها القانونيون الفرنسيون من استئلال واخزاء . ففي السنة ١٣١٢ بالذات ، اعلن اكليمنضوس الخامس في رسالته « العناية الراعوية » ، كمال السلطة البابوية ، كما اعلن يوحنا الثاني والعشرون ، في السنة ١٣١٦ ، حقه في الرئاسة في السماء وعلى الارض . فوجد الكرسي الرسولي

آنذاك مرّة أخرى اشدّ مناوئته عناداً في المطالبين بالتاج الامبراطوري الذين تمكنوا من ابقاء ايطاليا تحت رحمتهم . اجل قضى الموت على طموح هنري السابع عشية تنويجه في روما (١٣١٣) ، ولكن لويس دي بافيير قد توفّق الى حل التاج ، رغم انف البابا ، في المدينة الازلية ، في السنة ١٣٢٨ . انه لنجاح سريع الزوال في الحقيقة ، ونجاح ظاهري اكثر منه واقعي : اذ ان كردينالاً واحداً لم يتخل عن يوحنا الثاني والعشرين ؛ ولم ينظر احد نظرة جدية الى البابا المزيف « بيير دي كوربارا » وادارته الوهمية ، فاضطر الدخيل بسرعة الى الخضوع وانهى ايامه في قصر افينيون حيث فرضت عليه اقامة هنيئة مغمورة . ولم تحضر الجماهير البيزية تمثيلية اذلال الشخص الخشي الذي يمثل يوحنا الثاني والعشرين الا مكرهه وبناء على امر امبراطوري . اما الامبراطور فقد اضطر الى الهرب من ميلانو تخلصاً من سخرية الحفراء . ولكن اذا اثبتت هذه الهجمات الامبراطورية عدم جدواها ، فان الصراع المرير الذي اوجدته بين الامبراطورية والبابوية قد اتاح للروح العلمانية التي سيرت أصحاب النظريات ان تطلع بحسرات لم تخطر على بال بشر من قبل .

فحوالي السنة ١٣٠٨ ، لم يجترئ السترسي المجلّبت دادمون ، في نقاش قريب العهد ، على تعيين من تعود اليه السلطة الواحدة الضرورية للعالم المسيحي . وبعد مرور خمس سنوات ، وبوحي من بعض نظريات ابن رشد في الارجح ، اشاد دانتي بدوره بـ « الشمسين » المتساويين بالتطابق . اجل لقد كان من المنادين بالوحدة المسيحية ولكنه انبأ بانفصال محتوم بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية ، فقوض من حيث لا يقصد احد الاسس التقليدية لهذه الأخيرة ، برغبته في الدفاع عن قميص الجسم السري التي لما تخط بعد : وان دحضه الجدلي لـ « هبة قسطنطين » قد مهد الطريق ، قبل قرن كامل ، لانتقاد لوران فال . وألف ماسيل البادواني ، أحد انصار لويس دي بافيير ، في السنة ١٣٢٤ ، كتاب « نصير السلام » الذي اعلن تفوق الدولة التي يعود اليها وحدها أمر الاشراف على المصير الزمني للجنس البشري . فليست من ثم سلطة البابا الزمنية ، والبابا مجرد معتمد للمجمع او للامبراطور ، سوى حصيلة سلسلة من الاعتصابات ؛ وليس بالتالي للسلطة الكنسية من وجود الا في الدولة وبواسطة الدولة : هذه هي النتائج القصوى التي استخلصها مارسيل من مفهوم الخير العام في فلسفة ارسطو . اصف الى ذلك ان مصدر السلطة الدينية ، الذي هو جمهور المؤمنين ، علمانيين وكهنة ، قد جعل من نظام المراتب امراً نافلاً ؛ وان الكهنة ، المتساوين جميعهم ، يرشدون رعاياهم الى خلاصهم بانوار الوحي دون غيرها . فلا عجب من ثم اذا ما حيا مشاييمو « الانجيل الازلي » ، من روجيه و اخوة صفار ، في لويس دي بافيير ، المنتقم للحكم على ميشال سيزينا ، الذي يحسد الفقر الفرنسي المزم ؛ واذا ما اقدم سكان روما على المناادة بالامبراطور في الكابيتول . وهكذا فان القحمة الامبراطورية ، التي هتف لها البيواكيميون ، قد تلوّنت بالذكريات الماضية والابتغاءات القومية ايضاً .

لهذه النزعات نفسها استجابات ، بعد مرور عشرين سنة ، مفامرة « كولا دي رينزو »

الغربية في روما : تولي السلطة يوم أحد العنصرة من السنة ١٣٤٧ ؛ استحمام رمزي في بيت العماد القسطنطيني في اللاتران، عقبه تسليم الاسلحة في أول آب المصادف ذكرى حمل اوكتافيوس للقب اوغسطس ؛ بعد مرور اسبوعين ، حل المحامي عن حقوق الشعب ستة تيجان كمقدمة لتسلم السلطة الامبراطورية . فحدث آنذاك هذا التناقض الغريب : روما امبراطورية بدون امبراطور وبابوية بدون بابا : وكان على شعب روما وعلى المدن المتحالفة معه ان تستعيد السيطرة على العالم وحق منح الشارات الامبراطورية . اجل كانت المغامرة قصيرة الامد وانتهت بشكل محزن ومضحك معاً . ولكن في مجرد حدوثها لمغزى بعيد الدلالة على عجز الكرسي الرسولي عن ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية .

ففي منتصف القرن الرابع عشر هذا لم يعد تعبيراً « الشعب الروماني » و « الامبراطورية » ليشملا كافة الشعب المسيحي ولا كافة العالم المسيحي . اطلق التعبير الاول آنذاك على سكان مدينة روما دون غيرهم ، كما اطلق التعبير الثاني على المملكة الجرمانية دون غيرها . ولم تكن مطالبات لويس دي بافوير الشاملة لتخضع بلاط افينيون : فقد درج احد الكرادلة على ان يقول للبابا : « ايها الأب الأقدس ، احذر الفضة التوتونية » . والشئ الوحيد المهم في نظر البافيري كان مملكته الجرمانية وسيطرة عائلته على الامراء الألمان ، وهو قد اكراه على الدخول في صراع لا مخرج منه ، لان التاج الامبراطوري كان ضرورياً لتحقيق ما يصبو اليه . وأدرك خلفه شارل الرابع ان تنويجه في روما (١٣٥٥) احتفال لا اهمية له ؛ وحين حصرته « البراءة الذهبية » ، في السنة ١٣٥٦ ، حتى انتخاب الامبراطور بسبعة ناخبين من الألمان ، لم يدهش أحد من اغفال ادعاءات البلاط الروماني ، لان تحرر الامبراطورية من الوصاية البابوية كان أمراً مفروغاً منه .

وبينما كانت الامبراطورية تحقق هذا التحرر ، وروابط التبعية الاقطاعية الكنائس القومية بين الكرسي الرسولي والتيجان الخاضعة له تسترخي أو تنحل ، لم تعد المباداهات والآراء البابوية لتلقى اذناً صاغية لدى الحكومات الا بمقدار تأمين صوالح هذه الأخيرة . لقد كثر الكلام ، طوال القرن الرابع عشر ، عن حملة صليبية شاملة ، ولكن الصوالح الخاصة جعلت الامراء يتصامون في كل مكان حيال نداءات الدبلوماسية الافينيونية في سبيل التهدة : فلم تتحقق بالتالي وحدة الممالك ضد القائلين بغير الدين المسيحي . وبرزت بحدة آنذاك بسبب تعاضل المركزية في حكومة الكنيسة ، مشكلة تقليدية هي مشكلة العلائق بين السلطتين . فقد تعارض منح بعض الرتب وصوالح المانحين العاديين ؛ كما ان تعيين الاجانب خيب آمال خريجي الجامعات واصطدم بالشعور القومي لا سيما في انكلترا ابان الحرب الفرنسية . وكان من شأن استئثار الأحكام أمام « محكمة روما » احتمال اعادة النظر في الدعاوى التي فصلت فيها الحاكم الملكية ؛ كما ان جمع الغرفة الرسولية للاعشار والضرائب والرسوم المختلفة قد حرم الحكومة الانكليزية من بعض الموارد الاميرية . لذلك كانت انكلترا أول من عارض هذا الوضع ، وزاد في معارضتها له انها اتهمت البابوية بالتعيز لعدوها . وليس مرد أهمية

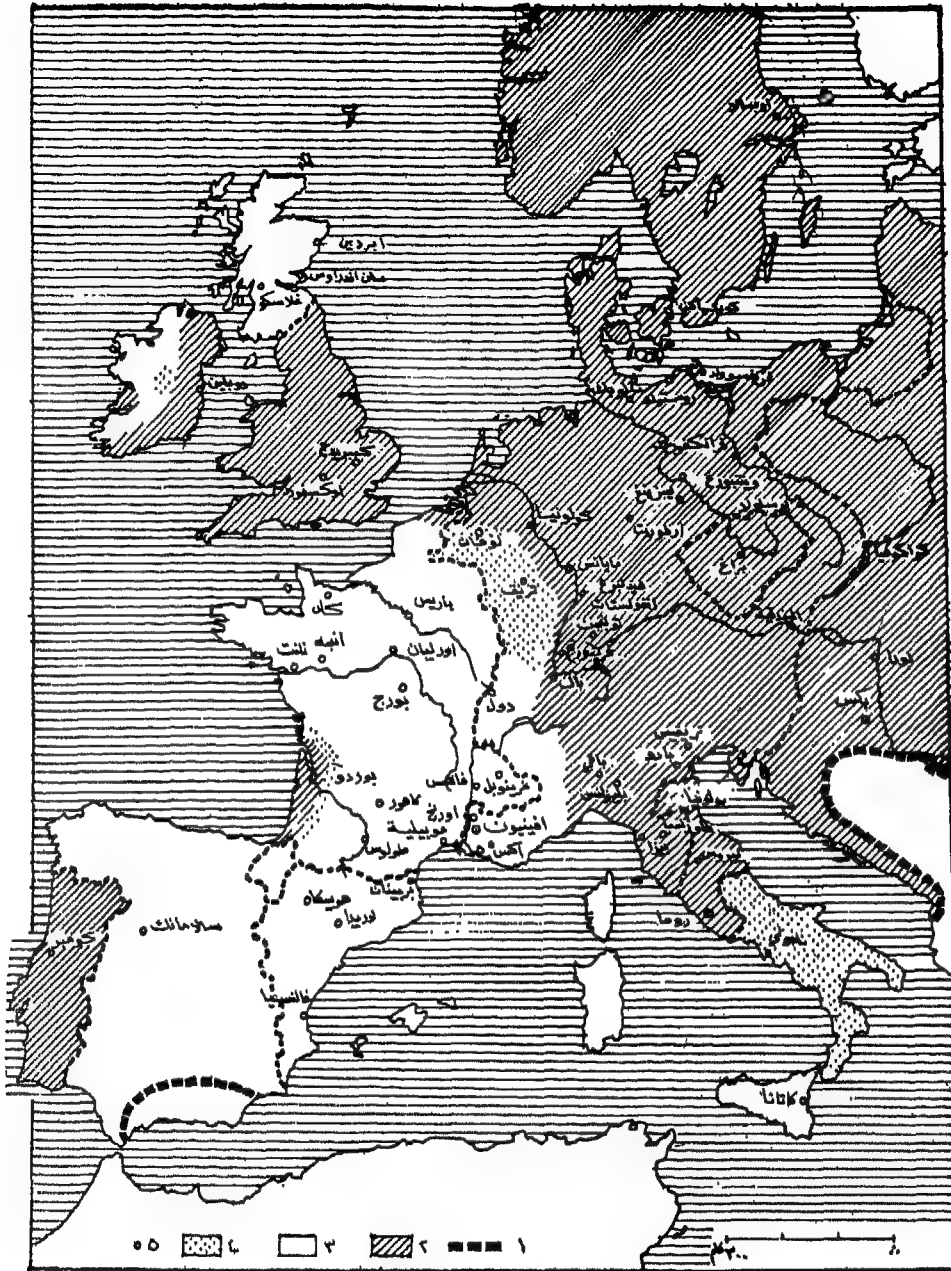
الشكاوى البرلمانية المتكررة من تجاوزات الكرسي الروماني الحقيقية او الوهمية ، بما فيها حملات البرلمان الصالح على «مدينة افينيون الخاطئة» ، واهمية الانظمة المعادية للبابا التي اعلنت في السنة ١٣٥١ والسنة ١٣٥٣ وجددت او اكملت في السنوات ١٣٦٥ و١٣٩١ و١٣٩٣ ، الى فعاليتها - فقد بقيت حرفاً ميتاً - بل الى المبادئ التي تستخلص منها . فلما كان الملك هو الولي الأخير لكافة الرتب في انكلترا بوصفه سيداً على حفدة واقفيها ، ادعى لنفسه بحق الحلول محل الأولياء المقصرين كي « يعيد حرية الانتخابات » ؛ وما ذلك في الواقع الا ليراقب مراقبة مباشرة كل تعيين في المناصب الكنسية الهامة ويفرض على الاكليروس اكبر اسهام ممكن في نفقات الدولة ويدير بنفسه كنيسة قومية لا يكون البابا سوى مرشدها الروحي البعيد . ومنذ السنة ١٣٧١ اقترح اخوان اوغسطينيان على البرلمان حجز ممتلكات الكنيسة كي تسدّ بواسطتها ، للخير العام ، النفقات الباهظة التي تقتضيها حرب مشؤومة ، فسبقا بذلك النظريات الويكليزية . ولم يخطئ الأساقفة الانكليز في تخوفهم من هذا الاقتراح : فقد كانوا يخشون الوصاية الملكية الثقيلة فوق خشيتهم المطالب البابوية . الا ان الملك ما زال يؤثر الاتفاق مع الكرسي الرسولي ومقاسمته اسلاب كنيسة انكلترا على السير حتى النهاية في تنفيذ المقررات البرلمانية المتطرفة .

ولم ينقض جيل على ما حدث في انكلترا حتى نظمت فرنسا بدورها ، اثناء اضطرابات الانشقاق ، كنيسة قومية خاضعة للسلطة العلمانية . وطيلة بقاء البابوية فرنسية ، اقتصرت الاصطدامات بين السلطين على المنافسة المثيرة بين المحاكم المدنية والمحاكم الكنسية التي حاولت جمعية فنسيان ، في السنة ١٣٢٩ ، التمييز بين صلاحياتها الخاصة ، والتي اصدر شارل الخامس في معرضها مرسوماً حدّد من صلاحيات المحاكم الاسقفية ، الا ان الموقف الملائف الذي وقفه بلاط افينيون قد ساعد كثيراً على تذليل الصعوبات النادرة التي اثارها براءات التولية الرسولية وحق الاسلاب او عدم اقامة ذوي الرتب من الأجانب . ولم يحدث في الحقيقة اي امر هام حتى اليوم الذي اقدمت فيه الحكومة الملكية ، بعد مرور عشرين سنة على الانشقاق ، على تبني قضية « الوحدة » ، ودعت الأمراء ، رغبة منها في اكرام البابوات المتصلين على الاستقالة ، لان يحرّموم حق رقابة الكهنة الوطنيين واسباب المعيشة معاً . وان حركة شق عصا الطاعة في السنة ١٣٩٨ ، التي اعدتها كلية اللاهوت في باريس ، وهي أول من طلع بالفليكانية الجامعية ، والتي حظرت مؤقتاً استئناف الأحكام أمام الكرسي الرسولي ، قد أولت البرلمان صلاحية مطلقة في قضايا الرتب الكنسية التي تمنح أصحابها دخلاً معيناً والدعاوى الخاصة بحياة الاسقفيات والخورنيات وجمعيات التسول . وحين تقرر في السنة ١٤٠٣ العودة الى الطاعة ، لم تنخلّ صحابة الملك عن هذه الفليكانية البرلمانية التي خولتهم حق الاطلاع على الشؤون الروحية . فقد فرضت مراسيم السنة ١٤٠٧ على الكرسي الرسولي اختيار أصحاب الرتب الكنسية من بين عدد من الكهنة تقرره لجنة جامعية . فسارت فرنسا بذلك على الطريق المؤدية الى الأمر الذي صدر عن الملك والمجلس في بورج حول الشؤون الكنسية وأتاح تحديداً واضحاً « للحرريات الفليكانية » .

فكان هنالك أولاً حق كنيسة فرنسا في ان تدير شؤونها بموجب « القوانين المقدسة » ، أي مقررات المجامع الأولى والأخبار الأولين ، وهي كل لا يمس ولا يمكن ان يحوّر بإرادة البابا التي لم يعد لها على المملكة سوى « سلطة معتدلة » . وكان هنالك ثانياً ، في حق الرتب الكنسية أو الحقل الجبائي ، سيطرة صحابة الملك سيطرة فعلية على الشؤون الكنسية : اذ ان الانشقاق المعثر الذي تقاسم المسيحيين حول باباوين أولاً ، ثم حول ثلاثة باباوات ، قد حمل اللاهوتيين على ان يسندوا ، ولو مؤقتاً ، ادارة كنيسة فرنسا الى « ابن الكنيسة البكر » وقضائه . وكي لا تتألم من هذه السيطرة العلمانية الجديدة ، لن تجسد بابوية القرن الخامس عشر وسيلة أفضل من قسمة الصلاحيات عن طريق اتفاقات التخلي .

المنهج المجمع
اضطرت البابوية ، قبل ان ينتهي بها الأمر الى هذا الحل ، الى مواجهة خطر آخر مصدره الكنيسة نفسها استهدف اذلال سلطتها اذلالاً نهائياً . فحق حدوث الانشقاق الكبير ، كانت الأسباب المتذرع بها أبدأ ، لعزل أحد البابوات وانتخاب بابا آخر يقاومه ، عدم الاهلية أو جريمة الهرطقة . وبمجة الهرطقة هذه ادعى لويس دي بونيفاسيوس يوحنا الثاني والعشرين ، كما سبق لفيليب له بيل ان عزم على استصدار الحكم على بونيفاسيوس الثامن . ولكن باباوين تحلوا اثناء الانشقاق باهلية شخصية مساوية وتقاسما الشعب المسيحي ، فازهرت القداسة في كلا الجانبين : كاترين السيلسية ، وكاترين الاسوجية وجيرار كروت بين مناصري اوربانوس الرابع ، والرسول العظيم فلسان فرييه بين مناصري اكليمنضوس السابع . فإين هي الحقيقة يا ترى ؟ ان تهمة الهرطقة تلتصق بدون تبصر ، ما زالت في نظر اللاهوتيين أضعف من ان تحمل مسألة جديدة . فدرت حينذاك ، كما لم تدور يوماً من قبل ، الدعوة لمعد المجامع ، ونضجت النظرية المجمعية .

اذا كان الاحتكام الى المجمع ، بصدد مقررات اصدرها بابا ظالم أو غير واقف على الحقيقة ، قد بات أمراً عادياً منذ قرابة قرن ، فرد ذلك الى انه استعجاب لبعض نزعات الفكر المسيحي التي لا تخلو من خطر كبير على كل حال . استخلص بعضهم ، من تحديد الكنيسة كما نقحه كونراد دي جلنهوسن (جماعة المسيحيين المؤمنين في العالم بأسره) في السنة ١٣٨٠ ، النتائج القصوى ، مقتلين من دور نظام المراتب أو ملاشيته تماماً . وعلى نقبض ذلك ، حل بعض الاساقفة ، للدلالة على خضوعهم للكرسي الروماني ، هذا اللقب : « الاسقف بنعمة الله والكرسي الرسولي » ، وتناول التأديب الكنسي جان دي بويي في السنة ١٣٣١ لانه علّم في باريس ، ان سلطة الاساقفة وحتى الكهنة تنبثق مباشرة من الله دون ان تمر بالبابا : فكان ذلك بمثابة عودة الى أحلام « الروحانيين » بصدد كنيسة يتنازل فيها الكهنوت الرسمي عن مكانه لحياة رهبانية ينزل عليها الوحي ، وانباء بتهجمات أمثال ويكليف وهوس على نظام المراتب ، وتشجيع للجمعيات الدينية والرهبانية على مقاومة محاولات الاصلاح التي قام بها يوحنا الثاني والعشرون وبندكتوس الثاني عشر وانوشنتيوس السادس .



الشكل (رقم ١٦) العالم المسيحي الغربي في عهد الانشقاق الكبير

- ١ - حدود العالم المسيحي اللاتيني . ٢ - العالم المسيحي الخاضع لأكليمنطوس حوالي السنة ١٣٩٠ .
- ٣ . العالم المسيحي الخاضع لأكليمنطوس حوالي السنة ١٣٩٠ . ٤ - مناطق التنافس بين هذا وذاك .
- ٥ - مدن جامعية و « مكاتب » في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

اضف الى ذلك ان النظرية الجمعية قد نضجت في القرن نفسه الذي شاهد توسع نظام الجمعيات التمثيلية في كافة الممالك . واعتقد مجلس الكرادلة بامكانية الاستفادة من ممثلها فعاول بعد السنة ١٣٥٢ فرض وصاية الكرادلة على الأحمبار الجدد . الا ان انتقاد القانونيين والمفكرين قد تخطى هذه الرغبات الولىفارشية . فقد انتهت آراء مارسيل البادواني في السياسة الى حملة عنيفة على نظام المراتب : اذ انها قالت بمساواة كافة الكهنة وعينت لادارة الكنيسة العليا المجمع المسمم الذي ليس البابا سوى مثله فحسب . وعلى غرار هـ مجد « غليوم دركهام » ، في « حوار هـ » ، دور المجمع ؛ وقد افاحت له حداقته الجدلية التآديد بأن وحسدة الكنيسة لا تتنافى وتعدد البابوات .

بيد ان معاصري الانشقاق ، على الرغم من تأثرهم بالآراء الجديدة ، لم يقبلوا كآتهم بواقف انقسام الكنيسة وزوال نفوذ البابوية . فان مؤلفات « جان بتي » و « ونقولا دي لامانج » ولا سيما « جرسون » و « بيير دايي » تم عن توقعهم الى وحدة العالم المسيحي . وقد اشتهر جرسون في حكمه على وسائل العنف بقوله : ليست الحرب او اراقة الدماء ما يحل معضلة الانشقاق . ولكن تصلب البابوات ولا مبالاة الحكومات قد اديا الى فشل الحلين الاولين بين الحلول الثلاثة التي اقترحها دايي في السنة ١٣٨١ : التسوية والتخلي . فلم يبق غير الحل الثالث ، أي المجمع العام ، الذي يلحق ضرراً كبيراً بسلطة خليفة بطرس . وقد سبق لجامعة باريس في السنة ١٣٩٤ ان اخضعت ، بما يشبه الاستفتاء ، لحكم ١٠٠٠ شخص تقريباً ، ارادها في حكومة الكنيسة ؛ الا ان ترددات البابوات المتعاقبين وراجعاتهم وممانعتهم ورفضهم لكل مصالحة ولكل تنازل قد جعلت اللجوء الى المجمع أمراً لا مخلص منه . وتجدر الاشارة هنا الى ان فعالية المجمع لم تبد ، في البداية ، اعظم من قدرة البابوات على الدفاع عن شرف حقوقهم : اذ انت كرادلة الجبهتين تخلفوا عن حضور المجمع المزمع التي دعا اليها الباباوان المتراحان واجتمعوا في بيزا في السنة ١٤٠٩ ؛ فوضع المجمع نصب عينيه تحليل الكنيسة من صراع مانوين دور كرادلة ضد كرادلة دون بابا ، واهمل نصائح جرسون الحكيم ، وسارع الى ايجاد مافس ثالث للعبور بين المشؤمين » ، مما زاد بالطين بلة .

في جو البلبلة هذا طلبت النفوس الحيرة المتدبنة ، ماديتهما ، تحكم مجمع مسكوني حقيقي . وكان الطرف من الخطورة بحيث توجب الاعتراف له بحق الاجتماع دون دعوة بابوية وباضمان ملائمة الجامعات الكبرى اليه للاستشارة . ورأى الامبراطور سييجيسموند من واجبه أخضد المجمع تحت حمايته والترحيب بانعقاده في كولستانس (١٤١٤) . فانبا اختيار المقول وايضاح الفكرة الجمعية في مذهب فلسفي باصلاح حكومة الكنيسة اصلاحاً ينطوي على مزج من الديمقراطية . اكد المجمع انه يستمد سلطته مباشرة من الله وان له ملء الحق في الاجتماع كل عشر سنوات ؛ وحددت مراسيم أخرى صلاحيات الحبر الأعظم في ما يتعلق بالحكم والرتب الكنسية والقضاء والشؤون المالية وحق بالنظام الكنسي ؛ وفرضت عليه العمل بقرارات المجمع

تحت طائلة التأديب والعزل . وكان في النتيجة ان اصلاح الكنيسة « في رأسها واعضاءها » لم يترك للبابا سوى سلطة رمزية : وهكذا فان البابوية ، التي اكتفت السلطة المدنية بمناقشتها ، قد اتضعت أمام ملائنة الجامعة ورأي المؤمنين العاديين . ولم يقتض لاعادة سنى السلطة البابوية قبل منتصف القرن الخامس عشر سوى عناد مارتينوس الخامس وخلفائه ، وقد ساعده على النجاح فقدان ثقة المؤمنين في مجمع « بال » بسبب تجاوزاته وعجزه .

٣ - وهن السلطة الفكرية

ادعى الجامعيون ، في الوقت الذي هيموا فيه على الكنيسة ، حق اصلاح المجتمع العلماني ايضاً . فاعتقدوا ، بفضل القانون الكابوشي في باريس ، وفضل جان هوس في براغ ، وويكيليف وتلاميذه في اوكسفورد ، بانهم مدعوون لان يُدخلوا على الحكم مبادئ منطقهم الصارم أو يعمدوا المجتمع الى بساطة المساواة الانجيلية . واذا كذب الواقع ادعاءاتهم ، فمرد ذلك الى ان المدرسة ، التي غالباً ما تكون سبّاقة في الحقل النظري ، كثيراً ما تكون متأخرة في الحقل العملي . فان اولئك الذين توجهوا بانظارهم الى « نور الالم » في حمة الايمان ، لم يلبثوا ان شعروا بأن الجامعة ، بعد ان فقدت وحدة تعليمها الصافية وشمول ثقافتها ، قد تباعدت عن السلطة السياسية ، وان طرائقها الجافة لم تسفر عن أي شيء من شأنه ارضاء العقول المجددة والنفوس الصوفية .

تعددت الجامعات
بدت الحياة الجامعية ، اقله في الظاهر ، وكأنها تتقدم تقدماً عظيماً . فان « المكاتب » ، وقد تكاثرت في البلدان التي ازدهرت فيها المدارس منذ زمن بعيد ، قد انتشرت ، في اقل من سنتين ، في كافة أنحاء اوروبا الجرمانية والسلافية ، وبلغت شاطئ البلتيك وحتى ضباب ايرلندا وسكتلندا .

نظمت هذه الجامعات الجديدة كتبها تقريباً على غرار جامعة باريس او جامعة بولونيا . واذا ما استثنينا اوكسفورد حيث انصهرت « امة الشمال » و « امة الجنوب » في السنة ١٣١٣ ، توزع الطلبة « ائمة » امّن مفوضوها ادارة الجامعة بالاشتراك مع عمد الكليات والرئيس . وعرفت المدارس الثانوية كذلك تقدماً كبيراً ايضاً . وهكذا ازدهرت في باريس مدارس السوربون ونافار وكليرمون ومونتيغو وليمون و « سانت - بارب » ؛ وفي اوكسفورد ، مدارس اوريل وكوينز ونيو كوليدج وماجدولين و « اول سولز » التي أسست تخليداً للذكرى ابطل « ازنكور » ؛ وفي كمبردج ، كلية الملك ؛ وفي براغ ، كوليجيوم كارولينوم ؛ وفي ايطاليا ، التي لم تتأثر بنسبة غيرها بهذه الحركة ، عرفت بولونيا حيوية الكلية الاسبانية التي أسسها الكريدينال البورنوز والكلية الغريغورية التي أسسها غريغوريوس الحادي عشر . وتحقق كذلك

بعض التقدم في تنظيم العمل وحتى في تخصيصه : ففي السنة ١٣٧٩ ، دشنت نيو كوليج في
او كسفورد نظام « الاوصياء » ؛ وبعد مرور عشرين سنة انبأ توزيع المهام على الاساتذة باحداث
المنابر المصرية . وأخذت كليات الطب ، التي ترتدي بالضرورة طابعاً تقنياً ، تشرح الجسم
البشري ، مستعينة في ذلك بجثث المحكومين بالاعدام ؛ وصدرت المبادأة في هذا الشأن عن
البابا الذي امر بتشريح جثث ضحايا الطاعون في افيثيون ومدن أخرى كثيرة في ايطاليا .
فقد التشرريح ودراسة الاعشاب الطبية مواد دراسية مستقلة . واهملت كلية الطب في باريس ،
في السنة ١٤٧٠ ، « حزم العلف التي كانت لها ، في شارع فوار ، بمثابة المقاعد ، وانتقلت الى بناء
خاص في شارع لابوشري اودعته المكتبة النخصية التي تجمعت لديها منذ قرن ، على غرار
مكتبة المؤلفات القانونية في اورليان . وتكوّنت خارج ايطاليا ، حيث تعددت المكتبات ،
مكتبات أخرى في افيثيون وانجيه و « كان ، وثانت وبواتيه وكبرديج ؛ وكانت عطايادوق
غلوستر القوام الاساسي لما سيصبح « المكتبة البودلية » .

اذا سطع نجم كبريات الجامعات في بعض حقول المعرفة - الفنون واللاهوت في باريس ،
واللاهوت في سلنكا واورسفورد وكولونيا ، والطب في مونبليه ، والحقوق في بولونيا -
فلانها قد سعت كلها لتأمين تعليم كامل ، دون ان تتوفر دائماً لديها الكليات الخمس التي جهزت
بها جامعة كان . فان البابوية ، السخية في توزيع الامتيازات ، لا سيما في عهد اكلينمنضوس
السادس واوربانوس الخامس ، قد ترددت احياناً في الموافقة على انشاء مراكز الدراسات
اللاهوتية : واذا حصلت جامعة براغ على هذه الموافقة منذ تأسيسها في السنة ١٣٤٧ ، فان
جامعتي فينسا وكراكوفيا لم تنشأ هذه المراكز الا اثناء الانشقاق الكبير ، الاولى بعد مرور
٢١ سنة على تأسيسها (١٣٨٥) والثانية بعد مرور ٣٨ سنة على تأسيسها ايضاً (١٤٠٠) .
ومرد ذلك الى ان كل كلية سعت آنذاك للاستعانة باكبر عدد من الملافنة اللامعين كما تشهد بذلك
براءات تأسيس جامعات هيدلبرغ (١٣٨٦) وكولونيا (١٣٨٨) وارفورت (١٣٨٩) .

كانت الجامعات ، على غرار امها الباريسية ، مدارس اسقفية سابقة في اغلب الاحيان ،
فبقيت من ثم خاضعة للسلطة الكنسية . وخضعت فوق ذلك الى نصراء الآداب والفنون
والامراء الذين انعموا عليها بهباتهم . ففي الوقوف الجامعية - لا سيما في لوبك وغريفسوولد -
هو احدى ميزات نصرة الآداب والفنون آنذاك . وكان المهم في نظر الملوك ارساخ استقلال
الدولة فكرياً وابقاء الطلبة الوطنيين فيها واجتذاب الاجانب اليها واخيراً اعلاء اسمهم بين
الناس . وحين غدت الحياة الجامعية سلباً للمجد واداة للحكم ، ارتدت طابعاً قومياً صرفاً ،
فكان ذلك سبباً أولاً من اسباب ضعفها .

قابل تعدد الجامعات ، في الواقع ، تقدم الدول القومية وتجزئة نطاق الصلاحيات الدينية .
فان جامعة براغ التي اسسها الامبراطور شارل الرابع في السنة ١٣٤٧ وتألقت من « امتين »
جرمانييتين (بافاريتين وسكسون) و « امتين » سلافييتين (بوهيميين وبولونيين) كانت معدة

لجمع الشعوب في ثقافة مشتركة وبث تعاليم اللاهوت في الامصار السلافية . فسارع الامراء المجاورون ، بدافع التنافس ، الى تأسيس جامعات زاهرة ماثلة : ارشديق النمسا في فيننا ، وكازيمير الكبير في كراكوفيا . وسار مارسيل « دنجن » على خطى البير دي ساكس ، الرئيس الأول لجامعة فيننا ، فادخل الفكر الباريسي الى جامعة ميدلبيرغ التي جعل منها الكونت البلاطي روبرخت الأول دي ويتلسباخ مركز دعاوة « عمرانية » تمتد دائرة اشعاعه الى مناطق الرين الاوسط والاسفل .

يفسر ازدهار الجامعات الايطالية وطينة البلديات ونصرة الامراء للآداب والفنون والتنافس في حقل الثقافة . فان شهرة جامعة « المعرفة » في روما ، التي خبا نورها في السنة ١٣٧٠ بعد لمعان دام ٦٧ سنة ، قد استعيدت في السنة ١٤٠٦ ، ثم في السنة ١٤٣١ ، بفضل اوجانيوس الرابع ؛ ودالت كذلك جامعة بادوا لاسرة كرارا بتأسيس كليتها ؛ وفي السنة ١٣٤٢ والسنة ١٣٤٩ ، اي خلال سبع سنوات ، اضافت بيزا وفلورنسا الى اسباب تزاحمها تنافس جامعتيها ؛ ويصح القول نفسه عن بافيا وفراري وبلزانس في السهل الباداني . وكذلك اتفق بورجوازيو روستوك (١٤١٩) ، بمساعدة المدن الهانسية ، على تعليم اولادهم في مدينتهم ، ثم استت جامعتهم فرعاً لها في غريفسوولد (١٤٥٦) . ثم حذي حذوهم على التوالي في تريف ومايلس وتوبنجن وفريبورغ (بريسكو) وبال والمجولستات وليبزيغ . وانتقل التنافس الى الممالك الجنوبية فتولت سلالة اراغون وحدها تأسيس جامعات برينيان وهويسكا ولريدا وفالنس . ويرد ذلك الى تعاطف الافة الاقليمية خلال القرن الخامس عشر : فهدف فيليب له بون الى تحرير دوله من وصاية باريس بتأسيس جامعة « دول » في السنة ١٤٣٢ (وقد نقلت الى بيزنسون في السنة ١٤٨١) وجامعة لوفان في السنة ١٤٢٥ ؛ واكره « رينه دالجو » رعاياه البروفنسيين على الاختلاف الى آكس التي تأسست مدرستها في السنة ١٤٠٩ ؛ وفي السنة ١٤٦١ تأسست مدرسة في نانت عاصمة دوقية بريطانيا . وكان جواب الانكليز على تأسيس حكومة ولي العهد لجامعة بواتييه (١٤٢١) احداث جامعة في بوردو (١٤٤١) ؛ وكان الهدف من تأسيس جامعة كان (١٤٣٧) الحيلولة دون اختلاف النورمنديين ، وهم لا يزالون خاضعين للملك انكلترا ، الى بازيس التي استعادها شارل السابع . وفي ما وراء المانش كذلك ، كان طرد الارلنديين من اوكسفورد باعثاً لقيام « مكتب » « دوبلن » ، كما كان طرد السكتلنديين ، اثناء الانشقاق ، باعثاً لاحداث جامعة « سانت اندروز » وجامعتي غلاسكو (١٤٥٠) وابردين (١٤٩٥) من بعدها . وتوقف السكتلنديون انفسهم عن الاختلاف الى كولونيا وباريس حين توفر لهم التعليم في اوبسال (١٤٧٧) وكوبنهاغن (١٤٧٨) ، لا بل ان الملك كريستيان الرابع سيعمد بعد ذلك الى منع رعاياه من التعلّم في الجامعات الاجنبية .

بات عدد هذه المؤسسات مرتفعاً جداً : فتأخر بعضها او اقفل نهائياً . فاضطرت جامعتا بيزا وفلورنسا ، في منتصف القرن الخامس عشر لان

تأخر الدروس

لان تنصهرا في جامعة واحدة ، والمحط مستوى جامعات نابولي وافينيون وغرينوبل وبربنيان وغلاسكو ، وانضمت جامعة كاهور الى جامعة تولوز . وكان للظلام التي رفعها الملافة الباريسيون الى البابا في السنة ١٤٢٣ ما يبرها : « ان ما بقي منا مهدد بالزوال النهائي بسبب احداث « المكاتب » الجديدة . واذا تارجع عدد الطلاب في المراكز الكبرى - باريس وبولونيا وسلنكا - حول ٥٠٠٠ طالب ، فان طلاب اوكسفورد لم يتجاوزوا ال ٣٠٠٠ ، وربما لم يبلغ طلاب تولوز وفينتا وليزيغ ال ٢٠٠٠ ، ولم يختلف الى القسم الأكبر من الجامعات الاخرى سوى بعض المئات فقط . فأخذ العالم الجامعي يفقد حيويته بدوبانه تدريجيا .

اضف الى ذلك ان الاساتذة والطلاب ، باعمالهم المبدأين الاساسيين اللذين سلكوا بموجبها حق ذاك التاريخ ، اعني بها دولية شؤون الفكر والاستقلال حيال السلطة السياسية ، قد عرضوا مستقبلهم لخطر كبير . فلم يكتف الامراء بابقاء جامعاتهم تحت وصايتهم المالية واكرام رعاياهم على الاختلاف اليها ، بل ادعوا اكثر من مرة حق تعيين الاساتذة ومراقبة تصرفاتهم . فالحركة الويكليفيه ، على الرغم من انها قعت بسرعة ، قد اتاحت للملك انكلترا وضع اوكسفورد مرة اخرى تحت السلطة الاسقفية ، وقد عين فيها هنري الرابع اول « استاذ ملكي » . وفي فرنسا نفسها ، وطن الحريات الجامعية ، باقت الاضرابات المدرسية دون جدوى . وكادت جامعة اورليان تقفل ابوابها في السنة ١٤٠٥ ، حين فقدت سندها الزمني . وما لبث البرلمان ، الذي لم ينقطع عن التدخل في شؤون المدارس ، ان اصبح في السنة ١٤٦١ مرجعها الرسمي الأعلى .

اضف الى ذلك ايضا ان الجامعات ، التي تأثرت بالخلافات الدينية والتحاسد القومي وتدخلت في الامور السياسية ، كانت بذلك كمن يسمى لموته بنفسه . فبعد ان سادتها الاهواء الجماعية وحياة العصر ، باقت لسان حال الرأي العام ، كما تشهد بذلك امثلة براغ وباريس بنوع خاص . ففي براغ عجزت « اتفاقات الامم » ، التي اعلنت اكثر من مرة دون جدوى ، عن وضع حد للمشاجرات بين الطلاب الالمان والطلاب السلافيين الذين أدت بهم النوايا السيئة والمنافسات العنصرية واللغوية والاخلاقية الى التنافر والتعادي . وحين اعلن جان هوس ان الامة البوهيمية (بمعناها الجامعي) يجب ان تحكم الامم الاخرى ، توصل الى فوز التشيكيين ، في الجمعيات ، بثلاثة اصوات مقابل صوت واحد للالمان ، في حال ان اربعة اخماس الاساتذة كانوا من الالمان . فكان ذلك سببا لرحيل هؤلاء الى ارفورت وهيدلبرغ ولا سيما الى ليبزيغ . وكان اختار الافكار هذا مؤاتيا لتقبل آراء ويكلييف ، وهو يفسر كيف ان المنازعة الهوسية نقلت جامعة براغ من الصعيد اللاهوتي الى المعترك السياسي .

اما النفوذ السريع الزوال الذي استعادتته جامعة باريس في عهد شارل الخامس والدور الرئيسي الذي لعبته في حل عقدة الانشقاق ، فلا يخفيان الضرر العظيم الذي لحقته بها مناجزاتها في النطاق السياسي . فإن انتصارها لاكلينمنضوس السابع كان سببا لنزوح العديد من الاساتذة

والطلاب الاجانب الذين استهوتهم مراكز الدروس الجديدة في المنطقة « العمرانية » : كالير دى ساكس ومارسيل دنجن كما سبق ورأينا . ثم ان مظاهر الانشقاق السياسية قد ارغمت الملكية على تحديد موقفها من الشؤون الانكليزية او الايطالية ومن المسألة الكنسية على السواء . وكان من سوء طالعها اخيراً ان الحرب الاهلية جاءت تجهز على ما تبقى من سمعتها . فلم يفلح « جان بتي » في اعلاء نفوذها بتطوعه للدفاع عن قاتل « لويس دورليان » دفاعاً لم يفترقه له جرسون قط ولم ينثن عن لومه عليه أمام الكلية وأمام مجمع كونستانس ايضاً . بيد ان الجامعة ، باكثريتها ، قد ساندت القضية البورغونية لانها رأّت فيها نصرة لاصلاح الدولة ، ذلك الاصلاح الذي اعتقدت ان باستطاعتها فرضه في السنة ١٤١٣ بواسطة خطب « اوستاش دي بافيي » و « بنوا جنكتيان » وبوضع القانون الكابوشي . اصف الى ذلك ان علائقها بالتمرد وقبولها بمعاهدة طروا وتحليلها عن ولي العهد قد انتهت في داخلها الى ردود فعل متعاقبة وعمليات تطهير متوالية ففقدت اعتبارها ، في المرحلة الاخيرة من مراحل حرب المئة سنة ، بالوقف الذي وقفه اعضاؤها وبهبوط مستوى التعليم فيها .

وجرد المناهج
وعت جامعة باريس هذا الهبوط وعزته الى سوء الحظ ومنافسة شقيقاتها
الصغرى ولها . وقد ادعت منذ زمن بعيد ايضاً ان الكهنة انما همجروها لان
الكرسي الرسولي لم يحتفظ لهم برتبهم الكنسية التي تدر عليهم دخلاً . غير ان الهبوط مردّه في
الواقع الى أسباب ابدى خطورة واعظم شمولاً : فلازمة الجامعة قد عمت الغرب باجمعه بسبب
المحطاط المنهج والعقيدة والفكر .

ولم تكن جامعة اوكسفورد آخر جامعة تأثرت بهذا الهبوط . فقد فقدت في القرن الرابع عشر التقدم الذي حققته منذ روجيه بيكون في دراسة الطبيعة دراسة صحيحة ، مؤثرة المدول عنها بحكمة الى المنطق السديد والدوران في حلقة من السفسطة العقيمة . وكان ويكلييف على صواب في تهكمه من زملائه الذين يبتكرون ، كما يقول ، مذهباً منطقياً جديداً كل عشرين سنة . اجل لقد استهدف علم الصرف والنحو النظري غاية حميدة هي تعبير دقيق عن مداليل واضحة : ولكن التمسك بالشكليات قد جفف التعبير واستنزف المداليل . ثم انتقل الداء الى جامعات البر الاوروي التي تأثرت قبل ذلك بالاضطراب البلية في ايطاليا ، والحروب الاهلية في اسبانيا والمانيا وبوهيميا ، والحرب ضد الاجنبي والتنافس بين الاحزاب في فرنسا ، والخلافات الدينية في كل مكان . اخذ بترارك على « مكتب » كولونيا وجود فلسفته المقلدة ، ولكنه شكاً كذلك من ان بولونيا « تبدو وكأنها لم تعد بولونيا » ، وقيل بالاضافة الى ذلك انها كانت في السنة ١٤١٦ ، على شفير « انحلالها التام » . وكتب « انكا سيلفيو » في كلامه عن جامعة فينا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، « ان البيان والشعر شبه مجهولين تقريباً » . ولم تكن جامعة باريس افضل حالاً : فقد اعوزتها الكتب شأن الجامعات الاخرى ؛ وعمت الشكوى فيها من المشاجرات وعدم انتظام الدروس واهمال الاساتذة وتعطيل الطلاب ؛ اجل لم يكن كل هؤلاء

« فرنسوا فيون » ، ولكن الكسالى كانوا كثيراً : فقد كتب شاهد عيان في القرن الرابع عشر « ان الذين ينسخون مادة دروسهم لا يتجاوزون العشرة بالمئة ؛ وان صفوتهم اولئك الذين لا يستفيدون من اية منحة » ، والذين يتأخرون في دروسهم حالما يتحسن وضعهم المالي . ولكن لا تسئل عن الحجب حين تطرح امثلة لا طائل تحتها كهذه : « لماذا يكون الرهبان اكثر سمنة من باقي الناس » او « لماذا يصاب اليهود بالزيف اكثر من المسيحيين » ؟

ان الاصلاح الذي نهض به الكردينال « دستوتفيل » لم يستطع ، على الرغم من فضله ، استئصال جذور داء عضال . فقد تعود الناس الشنشة ورضوا بها ، وبدت الجامعات الفرنسية ، ولا سيما جامعة باريس ، على الرغم من احداث المنابر الجديدة فيها ، وكأنها مصابة بالشلل . ضمت كلية الفنون علماء واسمي الاطلاع ، ولكنها افتقرت ، منذ وفاة نقولا دي كلامنج في السنة ١٤٣٧ ، الى مفكرين مبتدعين ، وكانت كلية اللاهوت ابعد تأخراً ايضاً بعد ان فقدت اعلامها في عمليات التطهير - لا سيما عملية ابعاد الاوكهامين في ايام الاحتلال الانكليزي - فباتت توزع علماً مهيناً نفعية تقليدياً . ولم تهتم هذه الكلية وتلك للبحث العلمي بل تنكرتا لعلم اللغات والأدب القديم اللذين كانا بمثابة خشبة الخلاص « للكاتب » الايطالية . فما عادت هذه الجامعة « ذات الراسين » كما درج روبير « غاغين » على تسميتها ، لترضي العقول المتميزة والنفوس التواقفة الى التقدم . فبحث جان جرسون وبيير دايي وامثالهما ، خارج انظمة المدرسة ، عن تفتح شخصياتهم . اضعف الى ذلك ان المدارس الثانوية نفسها ، وكانت المبادعات في معظمها اقل تقييداً ، لم تفتح قط على آفاق الفكر الجديدة . فلم تجهل مدرستا مونتيجو والسوربون علم اللغات فحسب ، بل الأدب والشعر والعلم الروحاني ايضاً . وقد بلغ من حياة الجامعات على هامش العالم المعاصر ان استطاع احدهم ، في معرض الكلام عنها ، كتابة ما يلي : « ان فقدان الانسجام بين عمل الجامعات التقليدية وتزايد نشاط العالم الخارجي يترك انطباعاً بان هنالك تناقضاً وصراعاً . ففي الوقت الذي تخمرت فيه العقول ، وتساءلت القلوب في عالم مضطرب عن معنى الحياة ، لم يكن لدى الجامعة من جواب سوى قياساتها المنطقية » .

٤ - اختار الافكار والقلق الديني

ما هي الحقيقة ؟ ومن هما العالم والانسان ؟ لقد واجه القرنان الرابع عشر والخامس عشر هذه الاسئلة الازلية بقلق خاص . لقد تزاوجت فيها وتشابكت آراء جديدة ، هي مصادر الفكر المعاصر ، وخيال خلاق ، وكافة مظاهر الفكر العباس .

ان في قصة « الخواتم الثلاثة » التي كتبها بوكاس لوصفاً موجزاً للقلق
تزعات العصر
الذي ساد ذاك العصر : ترك احد الآباء ، لابنائيه الثلاثة ، ثلاثة خواتم متشابهة دون ان يعلن عن الاصلي الصحيح بينها ، فاعتقد كل من ابناؤه بانه هو من يمتلك هذا

الحاتم الاصيلي ؛ وهذه هي حال الديانات الثلاث ، المسيحية واليهودية والاسلامية ؛ فلاب السماوي يعرف الفضلي بينها ، بينما يعتقد كل واحد بأنه يمارس الديانة الحقيقية . يتضح من ذلك ان بعض العقول انحرفت عن التأليفات الجامعية الكبرى وانتهت الى التسليم بحقيقة متعددة . ثم ان كراهية بيتاراك لدانتي والسرور الذي شعر به في معارضته يكشفان القناع عن المضادة بين الجليلين . استطاع مؤلف « المهزلة الالهية » ان يوفق بين مذهب العقلين والمذهب الاوغسطيني وان يتصور امكانية وحدة العالم المسيحي في توزيع السلطات توزيعاً متعادلاً ، فسلك ، في موضوع رؤية الثالث ، طريقاً كانت مراحلها الشعر والمحبة - التي تنقل النعمة - والاختطاف ؛ وكان مرشدوه في هذه الطريق فرجيل وبياتريس والقديس برناردوس . فهل كان ذلك منه انتحالا لفلسفة القديس توما ام حكمة بشرية صرفة ومفهوماً عدانياً للمدينة ؟ لا بل ان فكر دانتي المرتكز الى اليقين بان العصور القديمة تكون جزءاً من مخطط العناية الالهية قد استعاد كمال الانسان والتاريخ البشري السائر في طريقه نحو مصيره الواضح المعالم . اما قلق بيتاراك ، وهو خاص بالقرون الوسطى دون منازع ، فيتصل بالتقليد الاوغسطيني : فالثقة المعقولة افسحت المجال لاقضاض الوجود الذي لم يكن يرضى بالتأليفات الكبرى . وكان الوقت قد فات حين الفت كلية اللاهوت الباريسية الرقابة المفروضة على فلسفة القديس توما . ومرد ذلك الى ان العلم الفرنسي الموجه نحو اعادة النظر في المبادئ والمناهج والنتائج قد حال دون كل رجوع الى الوراء .

ان الفكر في القرن الرابع عشر قد اخذ ينطور في الواقع انطلاقاً من دونس سكوت لامن القديس توما . كانت دونس خصماً للروحيين وابناً حقيقياً للقديس فرنسيس راغباً في اقصاء الفطرة الوثنية عن الفكر ، فمال طبعاً من ثم الى ابعاد المذهب العقلي عن مفهومه للاله والعالم ؛ فأراه وحي الكتاب الهاء هو ارادة خلافة وحرّة أكثر منه منظم عقلي للخليفة . لذلك فبينما لا يستطيع العقل الوضيع بلوغ الحقيقة الا عن طريق القياس المنطقي الامينة ، يجب ان يكون البحث عن الله اندفاعاً ترشده المحبة . فمن جهة اذن بشر ايثار المفاهيم الصريحة المتميزة بالتقدم العلمي والسمي وراء الدقة ؛ ومن جهة ثانية ، مهدت موجبات المحبة الطريق لازدهار صوفي يثير الاعجاب . ومهما يكن من الأمر ، فان انكار الاتفاق بين الايمان والعقل قد اعاد وضع كل الامور على بساط البحث - أسس المعرفة ونظام العالم ومفهوم الانسان والحياة - وفتح طرقاً متباعدة ؛ فأرسل البعض فلسفتهم على العقل وحده واستشف البعض الآخر مقتضيات الاختبار العلمي بينما اهتدى بعضهم ، من غير الصوفيين ، الى سر لاهوت أدبي في الفكر القديم . اجل تفاوتت هذه الطرق اخصاباً وفعالية ولكن الانسان التوّاق الى ادراك جوهره ومصيره قد سلكها كلها .

ان أتباع ابن رشد ، باهمالم العمل العلمي الذي نهض به معاصروهم قد أوصدوا امامهم طريق المستقبل . فقد اضاع « جان دي جاندين » وقته في الدفاع عن « سيجر دي برابان » ، « خليفة ارسطو الممتد » واكتفى بعلم الطبيعة الذي وضعه « الستاجري » . اجل ان كتاب

« المدافع عن السلام » ، الذي اسهم فيه ، يحمل في متنه مبدأ اولوية المصلحة العليا التي سيصبح ميكافلي داعية لها . كما ان سخرية جاندين التي تخلو من الاحترام وانتقادات مارسيل البادواني اللاذعة تكاد لا تحجب الحاداً عميقاً ارغمتهم الاعراف الاجتماعية على اخفائه في بلاط افينيون نفسه حيث كان لهم بعض الاصدقاء . ولكن اللامبالاة الدينية في ايطاليا واسبانيا قد تحطمتهم بتسخرها وراء العلوم العربية ، مما أتاح للغرب الاهتمام الى نواح جديدة من المعارف القديمة .

التقى جان دي جاندين ومارسيل البادواني ، في بلاط لويس دي اوكهام والنشاط العلمي بافيري ، بغليوم اوكهام الذي كان له ولتلامذته الفضل الاول في انطلاقة التقدم العلمي . فكان لنجاح آرائهم في منتصف القرن الرابع عشر أثره الكبير في نكوص فلسفة القديس توما التي انكفأت عن باريس ووجدت لها في كولونيا مكاناً تلتجىء اليه . انت اوكهام ، الذي أبصر النور حوالي السنة ١٢٨٠ ، تلقى تعاليم دونس سكوت في الارجح ودرس ، على غرار ، في اوكسفورد وباريس . وقد انسجم فكراً ، في هذا « المكتب » الاخير ، مع دومينيكاني متحرر من فلسفة القديس توما هو دوران دي سان بورسين ، ومع فرنسيسسي مثله هو بيير اوريول . وكان الجدال قد تجدد آنذاك بين مذهب الواقعية ومذهب الاسمية . فكان ان الفكرة ، التي ليست في نظر اوكهام ، وريث الاوكسونيين ، سوى مراس في حقل الاختبار ، او سوى انضاج العقل للتأثيرات التي تتلقاها الحواس او « هوى من أهواء النفس » ، قد لعبت في البرهنة دور تمثيل الأشياء التي تعبر عنها الكلمات . هذا هو سبب نسبية معرفتنا للواقع ؛ وهذا هو ايضا سبب عجز علم ما وراء المادة واللاهوت العقلي . ويتضح من ثم ان بمكنة اللاهوت الموحي به وحده ان يرسم لنا مفهوم صفات الله ومفهوم الروح اللامادية ومفهوم السنة الادبية . ولكن فن احكام البرهان ، بالمقابلة ، هو الشرط الواجب لكل نشاط عقلي .

على الرغم من حكم كلية باريس على المذهب الاوكهامي في السلتين ١٣٣٧ و ١٣٥٠ ، فانه قد احتل فيها مركز متمازاً كان منطلقاً لاشعاعه . فقبل ان يتولى البير دي ساكس ومارسيل دنجن الاشراف على مصائر جامعتي فينسا وهيدلبرغ الفتيتين ، تغذبا في باريس بأفكار «البادىء الكريم» الى جانب جان بوريدان و « نقولا اورسم » . وتكونت في اجتماعات الاوكهاميين السرية ، التي أشهرتها الكلية ، تقنية جديدة للمنطق غالباً ما انتهت الى طريق غير نافذة ، حين باقت الاسمية غاية بحد ذاتها ؛ فكانت النتيجة ازافاً فكراً هو السبب الأساسي للأزمة الجامعية . ولكن الاوكهامية قد اتجهت شطر درس الظواهر الحسية ايضاً : اعتمدت الاسمية نهجاً واستندت الى الملاحظة والاختبار ، فددت بذلك حافزاً مخصصاً للتقدم العلمي . فمرفت الرياضيات والهندسة وعلم الآليات ، وعلم طبيعة الكرة الارضية والعلوم الطبيعية الاخرى ، آنذاك ، تمايرها المصرية الاولى ، بينما أتاح جهود الاسمية تعبيراً أوضح لمفاهيم أساسية هي مفاهيم العدد والمسافة والوقت : فكانت النتيجة تقدماً في علم المحاسبة والجغرافيا وصناعة الساعات .

ان اوكهام ، بزعرته اركان مملكة ارسطو ، قد أثار التساؤل حول نظريته في العالم ايضاً . فلم تعد مركزية الارض عقيدة ايمانية ، واستُشِفَت امكانية تعدد العوالم الذي سينادي به « نقولا دي كو » في الجيل التالي ، واكتشف بوريدان مبدأ سنة الجماد ، وأوضح اورسم سنة النسبية بين سرعة سقوط الاجسام والوقت ، فكان ذلك مقدمة لأبحاث « نقولا دي كو » النظرية ولاكتشاف كوبرنيك . وانتشرت من جهة ثانية تعاليم ارخميدس بفضل نقل نصوص ترجمتها العربية المعروفة في القرن الثالث عشر الى اللغة اللاتينية على يد جيرار دي كريمون ، فتأمن بذلك ، وبواسطة ألبرتي و «نقولا دي كو» ، اتصال تقليدهما بـ « ليونار » . وعلى تحقيقات القرن الرابع عشر ايضاً ، لا سيما في نظرية البير دي ساكس حول انتقال مكان مركز الثقل الارضي بفعل قرص القشرة الارضية وفقدان التوازن بين اليابسة ومياه البحار ، بنيت نظريات ليونار في الجيولوجيا والاحاث . ودفع الاهتمام الى بطليموس بالجغرافيا وعلم وضع الخرائط الى الامام ، في جنوى وبالم (في ماجورك) وفالنس ، كما تشهد بذلك مجموعة الخرائط المعروفة بالكاتالونية في « مكتبة » شارل الخامس . كان نقولا اورسم مستشاراً مسموع الكلمة لدى هذا الملك ، وعالماً يشار اليه بالبنان ، وغدا في فرنسا ، الى جانب بيير دايي ، احد واضعي اصول الجغرافيا الاولين : اجل ما زالت الجغرافيا آنذاك علماً اختبارياً ، بانتظار تحسين آلات الرصد الفلكي والخرائط الطبوغرافية الموروثة عن المصور القديمة والعرب . الا ان بعض النجاحات التقنية الاخرى تنم عن الرغبة في الدقة لدى رجال العلم في ذاك العهد ، على الرغم من ان اضطرابات القرن الرابع عشر لم تكن لتشجع على الاكتشاف . فقد ظهرت الساعات العامة الاولى في كان وبيزا وباريس في الوقت الذي ظهرت فيه ساعة « برج القصر » الشهيرة ، وقد حلقت المانيا في هذا المضمار . وعرفت الهندسة المائتة السدود ذات الابواب في الفلاندر ومستنقعات بواتو وسهل ميلانو منذ اواخر القرن الرابع عشر ، وصنعت مجارف الرمل الاولى في زيلندا بعد مرور ثلاثين سنة تقريباً ، وما لبثت اكتشاف المنافع المائية للأفوان ان أعدت وثبة الصناعة المعدنية الالمانية . وكان اختراع ذراع الدافعة ومقبض ادارة الآلة اخيراً ، في أوائل القرن الخامس عشر ، مقدمة لتحويل او اختراع عدد من الآلات : كدولاب المغزل والمضخة والخرطة .

وجاءت النظرية في الوقت نفسه تدعم تقدم الاختبارية ؛ فنذ أواخر القرن الرابع عشر تعددت الأبحاث ، التي ترجمت عن المؤلفات القديمة او المعاصرة ، في ايطاليا الشمالية والمانيا الالمانية والجنوبية ، حاملة أسماء قيصر *Kieser* وفونتانا وسنتيني وماريانو وألبرتي . وهكذا حضر عصر ليونار الذي « لم يكن » ، كما كتب عنه بحق ، ذلك الجن الخفيف والناقص المتميز عن عصره . فبعد نقولا دي كو ، دخلت جذور تعاليمه في قلب القرن الرابع عشر ، وما كان في الارجح ليفتح تلك الآفاق الغريبة امام العلم المعاصر لو لم ينتقل الفكر الغربي ، قبله بزمان طويل ، من

محاولة فهم جوهر العالم الى محاولة فهم ظواهره . ولعل ذلك اخصب ما حققته وأسهمت به الاوكهامية .

أما مظهرها الاخير ، ولعله الأهم في نظر اهل زمانه - اسلوبه الجدلي - فلم يؤد الا لسفطة عقيمة . وخيبت الاسمية الاوكهامية الآمال في النهاية، فكان مصير « الطريقة الجديدة » الآمال في أواخر القرن الرابع عشر . فعاد « القدماء » ، من أتباع توما وسكوت ، الى الهجوم ، لا سيما وان العقول والافتدة ، التي لم ترض بالاسمية الجافة ، قد بحثت ، امام قساسة ذلك العصر ، عن موجب الحياة والامل اما في دراسة الادب القديم واما في للصوفية . وقد اقترن احتقار الواقع المعاصر ، في كلا الحالين ، باحساس مرهف جداً .

دراسة الادب القديم الاولى
كانت دراسة الادب القديم في البدء مجهوداً يستهدف الوصول الى مذهب أسمى من الواقعية الموضوعية المسيطرة آنذاك . اجبل ليس فرنسكو دي بتراركو - بيتاركو - من يتقيد بمذهب معين : اذ ان ابن محرر العقود الفلورنسي هذا قد نفر من الدروس الشرعية . استفاد من رتب كنسية وأكثر من التنقل ، فتجول بين مدينة وأخرى مؤمناً معيشتة بعطايا نصرائه المتعاقبين ؛ انتقل من توسكانا الى هولندا مروراً بباريس ، ومن اكس-لا-شابيل الى نابولي ، ومن روما الى مونبلييه وافينيون ، واختار فوكلوز خلوة مفضلة . رافق القرن بكامله تقريباً (١٣٠٢ - ١٣٧٤) ، فحركه هوى : الادب اللاتيني ؛ وتسلط على عقله حلم : احياء القيصرية البابوية المسيحية وحطمت خيبة امل : المحبة التي لم تشاركه اياها لور . بيد ان الاكرام الذي كان موضوعه في الكابيتول (١٣٤١) والتعلق الذي أحاطه به الجميع لم يسكتنا عذاب نفس شاعر متقلب المزاج . واذا هو تجنب الجدول وسفسطات أتباع ابن رشد ، فان التأمل الباطني دون سواه كان له مدرسة حكمة ، كما ان الادبار كان له خشبة الخلاص الوحيدة امام التشاؤم : فالفرح والألم لا شيء كلاهما . وقد عبرت مؤلفاته عن قلق رجل شاهد أثر الطاعون الكبير في فلورنسا . وحيز لم يجد مؤلف « حياة العزلة » التهدة المنشودة في عاطفة مسيحية على بعض الغموض ، التجأ الى القدماء . الا انه مقت ارسطو ، معلم اتباع ابن رشد ؛ ولم يستخلص مثاليته الدينية من فلسفة افلاطون الا من خلال مؤلفات شيشرون او الابهاء ، وقد أعوزت مثاليته هذه الاسس الفلسفية والعلمية ؛ وقد بحث عن التعزية في العاطفة التي يتكلفها شيشرون وسينيكا . وكانت هذه كلها آفاقاً مقفلة بالنسبة لمعاصريه ، كما نرجح ، اذ ان تلاميذه قد شعروا بالقلق نفسه . فان بوكاس ، على الرغم من انه ندم على كتابة « الايام العشرة » ، لم يتمكن ، في مؤلفاته الاخرى ، وعلى الرغم من ايمانه الكاثوليكي الصادق ، من ان يقدم لمعاصريه سوى علم اخلاقي وثني متحرر من كل مفهوم فائق الطبيعة . لذلك لم تكن واقعيته مرشداً يفضل العلم الاخلاقي الموضوعي الذي اقترحه جان دي موننغ على قراء الجزء الثاني من « قصة الورد » .

على ان فرنسا ، على غرار ايطاليا ، حظيت بمشاهدة ازدهار الادب الشيشروني الاول في

بلاط شارل السادس ، بفضل لوران دي بريمييفكت وجان دي مونثروي وغوتيه كول ونقولا دي كلامنج . وكان مقدراً للجيل التالي ، بفضل معرفة القدماء معرفة أفضل ، ان يوسعوا الطريق التي شقها بيتاراك وان يتوصلا ، في السنة ١٤٠٠ ، الى تحقيق ما تاقت اليه نفسه تحقيقاً عظيماً . ولكن هذا الاتجاه ، التفاؤلي والواثق من النجاح ، يعبر عن الارتجافات الاولى للنهضة ويختص بايطاليا في الدرجة الاولى .

استمرت الاوغسطينية ، على الرغم من فقدان حظوتها مؤقتاً في الجامعات ، في الصوفية تغذية تيار صوفي ليس حنين بيتاراك اليها سوى انعكاس شاحب له ، بينما تألف المذهب السكوتي معها تآلفاً تاماً اذ انه اراد ارساء خير ما في النشاط البشري على سعي الارادة ، بفعل المحبة ، للامثال للأوامر الالهية . وتوصل معاصر سكوت ، الكاثوليكي رامون لول ، المعروف « بالملفان الملمم » ، عن طريق مذهب عقلي خاص مبني على احد أشكال الادب القديم ومعرفة اللغات الشرقية والبرهان الحسابي ، الى السمو بالتأمل الفرنسي نحو الذرى نفسها . فعملية جداً هي المؤلفات التقوية التي اقبل القراء على مطالعتها اقبالهم على قراءة « الاسطورة الذهبية » للدومينيكان يعقوب دي فوراجين او قصائد جاكوبوني دي تودي ، وعرفت « زهيرات » القديس فرنسيس رواجاً قل نظيره منذ اوائل القرن الرابع عشر . وكان مقدراً للصوفية ان تغذي تياراً مزدوجاً ، في الجماهير – وهذا ما يفسر المحرافات ايمان قليل الاستنارة – وفي الاوساط المثقفة – وهذا ما يفسر غم النفوس المتشددة في ممارسة الفضائل الانجيلية .

وعرفت البقاء طيلة القرن الرابع عشر فلول شيع القرون السابقة : هرطقة الاطهار في لندوك وكورسيكا وبييمون وبوسنيا ؛ وعاش الفالديون جماعات منعزلة في كل مكان تقريباً ، ولا سيما في اراغون ودوفينه وبييمون وحتى في بوهيميا حيث تم الاتصال بينهم وبين الهوسية ، ولكنهم برهنوا عن تصلب لم ينجح التفتيش ولا الحملات التأديبية في التغلب عليه . وبلغت حركة الروحانيين منتهى نشاطها في عهد البابوات الثلاثة الاول في افينيون ؛ فقد تهاضوا الديريين دفاعاً عن مثل الفقر المطلق ، وكلفوا بالآفاق الجليانية التي وسعها مفسرو « يواكيم دي فلورا » ، وتأثروا بتحريضات جمعية « الاخوة الصغار » المنشقة ، فتناولوا بالانتقاد السلطة الكنسية والبابا الذي نعتوه « بالمسيح الدجال » والبلاط الروماني الذي شبه « ببابل » . وقد حدث ما هو أسوأ من ذلك ، اذ ان الوكيل العام للجمعية الفرنسية ، ميشال دي سيزينا ، كاد يجرّ الديريين أنفسهم الى حركة بير دي كوربارا (١٣٢٨ - ١٣٣٠) الانشقاقية لانه عارض البابوية في المشادة حول فقر المسيح . ولكن « القانون » الفرنسي ، وهو أشد الزاماً من قانون الديريين مع انه يضارعه في احترام السلطة ، كان آخذاً في تجديد حرارة الاخوة الذي اصبح ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، رسالة برناردين دي سيان وجان دي كابستران . وقد بلغ من قوة الاندفاع نحو الزهد انه اخذ يزهر في كل الاتجاهات .

كانت رينانيا وهولندا ، الى جانب المناطق الجنوبية ، اعظم مراكز الصوفية حيوية . فان جاذب الاختلاء والتعشف قد وجه الدعوات نحو الجمعيات التي حافظت على حرارتها النسكية والتكفيرية او استعادت . فلم يعرف البندكتيون والمتسولون ، بعد ذلك ، النجاح الذي عرفته أشد الجمعيات صرامة أعني بها جمعية الشارترين : فالى الـ ٣٧ والـ ٣٤ فرعاً التي أسسها هؤلاء في هولندا خلال القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، اضيف في القرنين التاليين ١١٠ و ١٥٠ فرعاً جديداً . ويفسر جاذب الفقر النجاحات التي أحرزها القانون الفرنسي ، ونجاح ريمون دي كابو في المحافظة على وحدة الاخوة الوعاظ عن طريق اصلاحهم ، واصلاح جمعية القديسة كلير على يد كوليت دي كوربي في اوائل القرن الخامس عشر . ولم تكن حياة العزلة اقل جاذباً ، كما يشهد بذلك كثائر النساك والمنزليين عن الناس : فليس من دير او مدينة دون زاهد ناسك مختل في صومعة قريبة من كنيسة او مقبرة . هكذا عاش في السنة ١٤٢٩ ، في مستودع عظام الابرياء في باريس ، الاخ ريشار الذي لم يظهر الا في الساعات الخطيرة ، حاثاً المؤمنين المشدوهين على التوبة منذ الفجر حتى المساء . وهكذا عاشت ايضا السيدة جوليان النورويشية التي اشركت في الحياة الصوفية ، حوالي السنة ١٤١٣ ، احدى سيدات لن ، مارجري كمب ، واضعة اغرب مؤلف انتجته الادب الانكليزي بما تضمنه من تنبؤات ومناجيات صوفية .

افضت الاخوة الدينية الى قيام جمعيات وجماعات كثيرة صعب على الكنيسة ان تلمس فيها دلائل العقيدة القويمية . هذه كانت حال الرجال المتسولين والنساء الهائشات في الاديرة : فقد اتهمت بعض جماعاتهم بالهرطقة الالبية ؛ وقد اطلق ، في عهد لاحق ، لقب « لولار » (كاهن فاجر) على بعض المتجولين من هؤلاء المتسولين ، قبل ان يطلق على اتباع الويلكيفية . الا ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة الذين الزموا ، في حياتهم المشتركة ، بممارسة الفضائل المسيحية ، لم يكونوا متعتمدين كلهم . فقد كان لزاماً على كل امرأة من هؤلاء النسوة ان تقضي سنة ابتداء وتؤدي ست سنوات في الحياة المشتركة وتبلغ الثلاثين قبل ان تعيش في احد المساكن الفردية التي تميز هذه الحركة ؛ وكانت تخضع في حياتها الاخيرة هذه لرئيسة عامة هي « السيدة الكبرى » . اضيف الى ذلك ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء خضعوا تدريجياً لنظام متشابه ، اعني به نظام العالميين الخاضعين للقانون الرهباني او نظام القديس اوغسطينوس . فيجب من ثم ان نميز بينهم وبين « الجالدين » الذين اتوا غرائب لم يتمزف اليها طقس او قانون او كهنوت .

آرت مناطق بال وستراسبورغ ، على صعيد يختلف كل الاختلاف عما ذكرنا ، ندوات من المثقفين ، « الملمانيين الاتقياء » ، والكهنة والرهبان المنزليين الذين اجتمعوا طوعاً هادفين الى تحقيق تقدم روحي جماعي . عاش « اصدقاء الرب » هؤلاء ، الذين اشتهرت بهم المقاطعات الرينانية ، في ظل بعض الرجال البالغين في الطريق الصوفية شأوا بعيداً . نذكر بين هؤلاء راهباً دومينيكانياً مشهوراً هو المعلم جان اكهارت الذي انهى في السنة ١٣٢٧ ، في « مكتب » كولونيا ، العمل الذي بدأه في باريس ؛ توفي قبل ان يرغم على تقديم خضوعه ، المضمون سلفاً ، واقترح

صوفية ميتافيزيقية ، ولكن الاتحاد بالله الذي صبت اليه نفسه اصطبغ بمذهب الوهية الكون . وبين تلاميذه ، برهن جان تولر (المتوفى في السنة ١٣٦١) عن انسه غير بعيد ، ولو بمزيد من التحفظ ، عن تفكير معلمه ؛ وارتدت الصوفية ، مع هنري سوز (المتوفى في السنة ١٣٦٦) ، طابع الجليل الشخصي والماعطي حيث تحتل العذراء ، عند اقدم الصليب ، المكان الرئيسي وحيث يشع كال النفس ، التي توصلت في الالم الى الاتحاد الالهي ، بأعمال البر والمحبة .

وقد سمي وراء هذا الاتحاد بالله ، عن طريق الزهد ، اناس كثيرون في هولندا ، ارض التصوف المختارة : جيرار غروت و « دي دفنتر » في غنت ، وجان رويسبروك في بروكسل . بفضل غيره الاول تأسست جمعية اخوة واخوات الحياة المشتركة التي مارس اعضاؤها ، على الرغم من حياتهم الجماعية ، العمل الرسولي ونشر الكتب التقوية ؛ ويجب ان نعزو لهذه الجمعية النجاح المدهش النظير الذي عرفه كتاب « الاقتداء بالمسيح » المنسوب الى تومادي كمين . وحارب رويسبروك من جهته ، وهو مؤلف « الاعراس الروحية » ، نزعة الاكهارتية التجردية وعاد الى القول باسهام الروح اسهاماً ناشطاً في تلبيتها دعوة النعمة الالهية .

وتوصل بيير دابي الى رأي آخر ، منشق عن ريشارد دي سان فكتور والقدوس برناردوس ، مؤداه ان التأمل وحده قمين بأن يسد مسدّ الحدود العقلية في مذهب اوكهام ويطبع النفس على أسرار الرحي . وسلك تلميذه جرسون السبيل الذي يؤدي من « الطريقة العصرية » الى « التقوى العصرية » . كان عميد « سان - دوناسيان » في بروج وعرف الصوفيين الفلمنكيين الذي شغلوا منه الفكر في البداية ؛ ولكنه بحث ، بوصفه جامعياً وعالم بالآداب القديمة وطرفاً في مناقشات زمانه ، عن طريق مشتركة للحياة الروحية يوفق بها بين النظرية والصوفية ويتجنب الاخطار التي ركبها اكهارت والجهارات التي عاها على رويسبروك . فقال بزهدي يناوب عن العقل الجرد ويلمق النفس سرّ الوجود الالهي فتستسلم للانخطاف بقوة النعمة . ومن بعده وصف راهبان شارترتيان ، هما لودولف ودينيس ، درجات نعمة الصلاة : فتأمن من ثم ، عن طريق القرن الخامس عشر ، الاتصال بكبار متصوفي القرن السادس عشر .

آل « الهيام بالصليب » الى السمو بالصوفيين نحو رفعة الكمال قبل القديسة تريزيا النفري والقدوس جان دي لاكروا بقرنين كاملين . احتفظ جرسون طيلة حياته بأحدى ذكريات طفولته : ابوه يسند ظهره الى الحائط شابكاً يديه بشكل صليب وقائل له : « هكذا ، يا بني صلب الاله الذي خلقتك وخلصك » . واشركت كلون دي سيان بالآلام المسيح قرارات آلام صنعتها المنهارة ؛ وشعرت كوليت دي كوربي يومياً ، في ساعة آلام المسيح ، بالآلام جسدية عادية جداً . واحتل آنذاك المركز الاول في الممارسات التقوية التعبد للدم المقدس والجراح المقدسة وكلمات يسوع السبع على الصليب ؛ وكانت « ساعة الآلام » تستل « درب الصليب » الذي لم يحدد عدد مراحل بعد . وقدسوا آنذاك لإحكام التأمل في يسوع مسيحاً متألماً على احكام

التأمل فيه قائماً من بين الاموات ظافراً . ولا ريب في ان التعبد القرباني ، الذي أقرّ في القرن الثالث عشر ، باقامة عيد خاص للقربان المقدس ، قد انتشر انتشاراً مطرداً ؛ ومهما يكن من جهلنا للطقس الديني الذي رافق تناول القربان ، فيبدو ان هذا التناول قد بات اقل ندرة : فقد نصح الى راهبات مستشفى المخلص في ليل في اواخر القرن الرابع عشر بتناول القربان اربعين مرة بعد ان كان عدد التناولات المفروضة ستة فقط بحكم قانونهن . ولكن عبادة القربان المقدم للمؤمنين في معرض مشع كالشمس قد أعاد الى الكثيرين منهم ذكرى السهرة في بستان الزيتون بالتفضيل على ذكرى التجلي في جبل طابور . وبحركة اجماعية ، اضافت النفوس القلقة ، الى تكريم العذراء الام التي عبّر مثاقيل القرن الرابع عشر عن نضارتها الطاهرة بتأثير عقيدة نشرها دونس سكوت في فرنسا ، الشعور مع عذراء الآلام التي توصلوا الى رفع عددها الى مئة وخمسين قبل ان يحدوده بسبعة . وام الآلام هذه ، التي اوحى موضوع تمثال « التقوى » ، هي الوسيطة الطبيعية للانسان : فانتشر استعمال المسبحة الوردية في القرن الخامس عشر بفضل الدومينيكانى البريطانى الين دي لاروش .

وبرز الموت اخيراً ، وهو ما اقض مضاجع الناس في تلك الايام المضطربة ، بمظهر الفساد الذي يرافقه . فان « التمثال المرتعد » الذي نصب للكردينال « دي لاغرانج » على قبره في كنيسة السيدة في افينيون يمثل الميت « جثة عارية من اللحم ، شعثة الراس ، غائرة العينين ، بارزة الحرقدة » ، وتستخلص منها الكتابة المحفورة على القبر هذا الدرس : « انما نحن هباء وجثة نتنة وغدام وطعام للديدان . وانت سوف تصبح مثلنا هباء » . وتبارى الوعاظ ، رغبة منهم في الحث على التوبة ، في تحليل تفاصيل آلام المسيح ، اذ ان موهبة الدموع ، بمجرد التفكير بالخطيئة ، لم تكن وفقاً على الصوفيين : فقد توجب على هؤلاء ، اذا ما استندنا الى النصائح المعطاة لأخوة الحياة المشتركة او الى دنيس الشارترى ، ان يمارسوا تمارينهم التقوية في الحفاء ، بينما حذر جرسون هواة التأثر والصوم والامانة بتذكيرهم ان الغلو في التوبة هو فخر من فخر ابليس .

لم تكن الحاجة الى ابليس في الواقع اقل منها الى القديسين في الديانة الشعبية ، ولذلك فهو قد احتل في تعبد الجماهير مكاناً متعظماً الهامية . ولما كان كهنة الحورنيات أنفسهم متميزين في الغالب بجهلهم المطبق ، على الرغم من ارتفاع نسبة خريجي الجامعات بينهم ، ومسؤولين عن عائلات كبيرة ، وكثيرين جداً على كل حال ، فقد برهنوا عن عجزهم عن وضع حد لهذه الغرابات ، هذا حين لم يسهموا فيها بأنفسهم . وتظهر لنا الانظمة الجمعية وسجلات الزيارات ان الوضع المادي في طبقات الكهنوت الدنيا لم يتحسن قط بل سار من سيء الى أسوأ بفعل مصائب العصر ؛ وفي ما كتبه نقولا دي كلامنج عن انهيار الكنيسة الدليل الصادق على ما أثاره فيه هذا الوضع من سخط ووجوم . واذا اتاح تقدم التعليم في الطبقات الوسطى ، حوالى اواخر القرن الرابع عشر ، انتشاراً أعظم اتساعاً للمؤلفات التقوية (كتب الساعات ، وكتب التعليم المسيحى ، وكتب تفسير القداس وكتب الصلاة) ، فان جمهور المؤمنين لم يستفد من هذا الانتشار . ومهما

يكن من الامر ، فان تسلط فكرة الشيطان هو دونما ريب احدى ميزات ذلك العهد واطولها بقاء لانها ، على الرغم من الاصلاح ، تستمر حتى القرن السابع عشر نفسه . فقد اعتقد الناس كلهم آنذاك بالسحر وشراب العشق والرقية ومقاسمة الشيطان ، اما رغبة منهم في تعاطيها واما سعيًا وراء فضح من يتعاطونها ومطاردتهم ؛ وليس اسهل ، في سبيل النيل من عدو ، من اتهامه بالرقية والسحر .

ليس من عجب ، في مثل هذه الظروف ، اذا ما ضلت الجماعات طريق التقوى الحقيقية . ولنا على ذلك شواهد كثيرة ذات اهمية . فقد ازدادت حدة الحقد على اليهودي مدنس القربان بازدياد عدد « المعجزات القربانية » التي ظهرت اولها في باريس في السنة ١٢٩٠ ، ثم انتشرت في فرنسا الشمالية وهولندا ، ودامت حتى الثورة التي استهدفت افناء اليهود في بروكسل في السنة ١٣٧٠ . وقد سبق لنا وذكرنا تجاوزات الحركة المعادية للمعاصر السامي التي دفع اليها انتشار وباء الطاعون في السنة ١٣٤٨ والتي لم ينج منها اليهود المطاردون بكراهية الا بالالتجاء الى الاراضي البابوية . واجتاثت المانيا الغربية والجنوبية في آن واحد زمر « الجالدين » ، المرأة حتى الزائر الذين يؤلفون دائرة ويقومون بمحركاتهم الاحتفالية التي تتعاقب فيها ، تعاقباً مطرداً ، السجدة والابتهالات والجلدات المتبادلة بواسطة سيور جلدية مثقلة بالحديد . وكان من شأن التبشير الشعبي ، الذي مارسه حكام قديسون من امثال « فنان فرييه » ومصلحون اجتماعيون او كهنة ضالون على السواء ، ان يفضي الى كل حركة مفاجئة : فلنفكر هنا بـ « جون بول » كاهن كسنت المعنوه ، الذي اثار ، في السنة ١٣٨١ ، فلاحه انكلترا على اسياهم ، او بجماهير المناطق الشمالية التي طاردت ، في السنة ١٤٢٨ ، سيدات طبقة الاشراف كبغايا ، تلبية لنداء المدعو توما كونكت : « الى الطنطور ! الى الطنطور ! » .

ولكن شتان بين هذه الحركات الفوضوية وبين المهرطقات التي انتشرت ،
المهرطقات الجديدة
في آن واحد تقريباً ، في انكلترا وبوهيميا والتي كانت في البدء تيارات فكرية جامعية قبل ان تنتهي الى الشعب بصورة مبسطة تتشابه فيها نزعات قومية واجتماعية أحياناً . فالنقد العقلي للمعاند ، سواء في الويكليفية او الهوسية ، قد رافقته الرغبة في تجديد الكنيسة اخلاقياً والعودة الى الصراحة الانجيلية ، وأدى الى رفض السلطات الكنسية وبعض الطقوس — أسرار وعبادات — التي كانت في نظرهم عيب كنيسة غارقة في الزمانيات وطامعة بالخيرات المادية .

دأب جون ويكليف ، في كليات او كسفورد التي أقصت الاوغسطينية الفرنسية عنها الاسمية الاوكهامية ، كما في مجلس الملك الذي استخدمه منذ السنة ١٣٧٤ حتى السنة ١٣٧٨ خبيراً في خلافاته مع البابوية او الاساقفة ، على تحديد السلطة المدنية والكنيسة على السواء ؛ ولم يلبث منطق الحاقده ان قاده الى انتقاد السلطات الكنسية ، وإلى حدود حرية الارادة نفسها . فنجم عن تساوي السلطتين ، اللتين لا يسمح بممارستها الا لمن هم في حال النعمة ، حق الامراء في ان

ينتزعو من رجال الدين الممتلكات التي حولها فساد الكنيسة عن غاية تخصيصها الاولى . اقيمت عليه دعوى كنسية اوقفت مرتين وانتهت ، غداة الانشقاق الكبير ، بتوبيخ أسقفى بسيط لا بالحكم الذي تمناه غريغوريوس الحادي عشر . ثم أقصي عن او كسفورد حين دب الخلاف بينه وبين المتسولين حول سر القربان ، وشجعه مشهد الشقاق فبلغ منه ان قال بكنيسة روحية فحسب ، لا باباً ولا كرادلة ولا أساقفة فيها ، تقتصر سلطة كهنتها ، المتساوين صلاحية وفقراً ، على التبشير والوعظ فقط . وأرسى الحياة الدينية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، وقد طلب ، تمهيداً لذلك ، نقله الى اللغة الانكليزية . فلا فائدة بالتالي من التضرع الى العذراء والقديسين والحج الى الأماكن المقدسة واللجوء الى الفرفانات ، وحتى الى الاعتراف بالخطايا : فوثبات الضمير المستقيم هي التي تحمل الخطيئة من خطاياهم ، والمسيح يستطيع ، بفضل علم سابق يقارب القضاء السابق منذ الازل ، التعرف الى خاصته . وأنكر تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر القربان ونظر الى الاسرار نظرتة الى مجرد رموز .

استؤصلت الهرطقة الويكليفية بسرعة من الاوساط الجامعية ، وحتى قبل موت ويكليف نفسه (١٣٨٤) ، ولكنها انتشرت بظاهر تقوي ، معاد للسلطات الكنسية والطقوس ، في اوساط محدودة من الفلاحين او الصناعيين المدنيين الذين كانوا في بعض الظروف عوناً للأشراف الريفيين على رجال الدين . اجل لقد أتاح تضامن الاساقفة والحكومة الملكية حصر هذا الانتشار . ولكن مجمع كونستانس ، الذي صدق الحكم على الويكليفية ، قد أمر بإبعاد فلول الهرطقة الى خارج الاراضي المسيحية : فقد علق آباء المجمع الآمال ، بتسوية الشقاق ، على تنظيف حقليين من حقول العالم المسيحي نبت فيها الزؤان حديثاً .

ساعد الوضع الاجتماعي ، والاحتكاكات المنصرية واللغوية ، وتجاوزات الكنيسة القائمة ، كذلك ، على انتشار الهرطقة في يوهيميا ايضاً . كان تأثير ميلك دي كرومرز ولا سيما توما دي ستيتني قد اوصل تلميذها جان هوس الى تخوم الايمان القويم ، ولكن سعيه وراء صوفية قادرة على ان تعيض من عبوس الاسمية ، قد أعده لأن يتقبل من او كسفورد ، قبيل السنة ١٤٠٠ ، وبواسطة جيروم دي براغ ، تعاليم ويكليف الجديدة . لم يكتف المعلم البراغي عندئذ بالاحكام الأسقفية والامبراطورية والبابوية ، بل جاهر بأرائه وانتقاداته . وفي هذه الأثناء اضطر أسقف براغ ، زبينك التشيكي ، الذي ساند هوس ، الى الاستقالة من منصبه ، فزاد بذلك انتشار الهرطقة : ونقل الكتاب المقدس الى اللغة التشيكية ، وللدلالة على الاستقلال ، عاد المؤمنون الى تناول جسد الرب تحت اعراض الخبز والخمر معاً ، ودرج هوس على القول انه يستأنف دعواه ، على البابا يوحنا الثالث والعشرين^(١) الذي حكم عليه ، الى رئيس الكنيسة الاوحد ، يسوع . حوكم امام المجمع وحكم عليه دونما التفات الى الفسخ الامبراطوري ، فأذل وأحرق مع جيروم دي براغ في كونستانس في السنة ١٤١٥ . انه لحكم قاس أدى الى الثورة الهوسية التي

(١) اقبل هذا البابا واعتبر غير شرعي . وهذا ما يفسر ورود اسم البابا يوحنا الثالث والعشرين في عصرنا هذا . « هيئة الترجمة »

يصعب مع تشابك بواعثها الاجتماعية والاقتصادية والقومية تحديد خطوطها الدينية البهتة . الا انها افضت ، بما أناه « الطابوريون » من اعمال بطولة عنيفة انتصروا فيها تكراراً على « الحملات الصليبية » الامبراطورية والبابوية الموجهة ضدهم ، الى نظام جمهوري دان بالتساوي بين الفلاحين ، الجنود ، الخاضعين لسلطة فرسان تشيكيين متحمسين ، الذين جمع بينهم كلهم حرص على الصراحة التقوية ينسب ببعض مظاهر « الصعاليك » في القرن السادس عشر او « الرؤوس المدورة » في القرن السابع عشر .

٥ - التصنع في التعبير الادبي والجمالي

قلق الوجود والتوق الى حياة فضلى : ان كافة الارقيابات والمتناقضات التي تميز الفكر الفلسفي والحياة الدينية ، تبرز ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، في التعبير عن الحياة الاجتماعية وفي مظاهر الفن على السواء . فقد اثير نقاش بين المحسوسات والمعقولات ، وبين البهانة والتصنع ، وبين الفظاظلة والشعور الرقيق ، لم تسمح اية نزعة باستشفاف جواب جازم بصدده .

متناقضات الحياة الادبية
ليس عسيراً علينا ان نرسم ، بواسطة المحفوظات القضائية ومؤلفات مهذي الاخلاق المفتمين - في وقت ازدهر فيه لون « الاحلام » و « المراثي » - لوحة قائمة السواد لاخلق المجتمع المسيحي في عهد الطاعون والحرب اللذين طال امرهما في هذه البلاد او تلك . فهل نحن امام مجتمع « مختل التوازن » ، فقد كل رزانة في التظاهر بالرديلة والبهيمية ، وقارب الجنون في اغلب الاحيان ، وانتقل ، دون تحول ، من الجريمة الوقحة الى دموع التوبة ، وتباهى احياناً بقبائحه واستنشق بلذة رائحة الجثث النتنة ؟ ان خطوطاً كثيرة في هذه الصورة الخيالية المفجعة حيناً والبطولية حيناً آخر ، ترد الى الوهم الذي يولده فينا النظر الى الاشياء البعيدة . فان نجاحات الروح العلمانية والطبقة البورجوازية من جهة قد انمت ، كما سبق واشرنا الى ذلك ، الميل الى الهجو الاجتماعي وحرية كبرى في التعبير واقعية لا تعقدها الاصطلاحات ، واشتدت المضادة من جهة ثانية بين الاخلاق التي لم تزال فظة والتفخل المتزايد لدى الطبقات العليا ، فبرزت من ثم المتناقضات الاخلاقية بمزيد من القوة .

لم يكن الناس في القرن الرابع عشر ليهتموا لسباحات حياتهم القصيرة وغير المستقرة اجمالاً او ليعتبرموها عند الآخرين . فهل في تدشين اول مستشفى للعجائين في ميمورغ ، في السنة ١٣٧٥ ، دليل على تفاقم الامراض العقلية يا ترى ؟ مهما يكن من الامر ، فان بلاطاً واحداً لم يخل من مجانينه واقزامه ، وليس من عيد شعبي الا وكان لهم فيه الدور الاول ، وقد احصاهم الناس في عداد الوحوش الغريبة . ولم يستطع الملوك والعظماء ، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم منذ قرون ، الاعتدال في ميولهم الفظة : فان سوررات الغضب الشديد عند جان له بون الابي او ادوارد الثالث

البشوس ، وعوارض الهيجان عند فيليب له بون الذي كان يسكنها بالسير على الحصان حتى
 النهكة في غابة « سواني » ، ونوبات « السوياء » عند « الجسور » ، تتجدد عند كل من لم تدفعه
 حياته ، الحربية حيناً والمتفخلة حيناً آخر ، الى مراقبة اهوائه . وقد اعترف فرواسار ، على
 الرغم من اعجابه الاعمى بطبقة الفرسان ، بان « اكابر الامراء واكابر الاسياد . . . ما كانوا
 ليميزوا عن البهائم لولا وجود الاكليروس » . وان في جاذب علوم السحر والتنجم التي اسهم في
 نشرها رجال الدين انفسهم بسبب ميلهم الطبيعي الى التشكي من داء لمسوه في كل مكان ، لدليلاً
 على ان الناس قد حاولوا في الاوقات العصيبة استمالة كافة القوى الفائقة الطبيعة او الجهنمية
 اليهم : فهنري دي ترنستار لم يقدم على عمل شيء دون استشارة ساحره الطليطلي الذي ادعى
 استحضر الموتى ؛ وروي عن غاستون - فييوس ، كونت فوا ، ان روحاً مؤالفة كانت تشعره
 بالاحداث ساعة حصولها بالضبط . وان في استصواب رجل متزن كجرسون وضع دراسة
 لتحويل شقيقاته عن تعاسات الحياة الزوجية لصدى للتقليد الرهباني القديم الذي استرذل الفعل
 الجنسي واحتجاجاً على الفجور والضلal الذين شاهدهما بأمر عينه . واستند مذهبو الاخلاق الى
 هذه الافراطات في اصدار حكم مطلق على العصر بكامله ، ابتداء من القصة الهجائية التي اتهمت
 كافة المعاصرين بتمضية وقتهم في تمسيح فوفيل - الحمار الاحمر الذي كان يرمز الى مجموع الرذائل
 كلها - حتى الشاعر اوستاش ديشان الذي لمن

« زمنه الكلي الرجاجة والبهتان

وعصره المليء بالكذب والغفيرة والحسد »

وقد زادت في تشاؤمهم رؤيتهم للأهواء الجماعية التي كانت الجماهير المدنية سريعة التأثر بها ،
 فتذرف الدموع سخية عند سماع المواعظ وتقبل على تناول الاسرار بحماسة وتطرد بنات الهوى
 تلبية لدعوة مبشر - وقد تنسأهل معن في اليوم التالي - او تقوم « باهتزازات » دامية تشرك
 فيها الكائنات السماوية اشراكاً غريباً : ففي أثناء مذابح الحرب الاهلية ، في السنتين ١٤١٣ و
 ١٤١٨ ، وضع المهتجون الباريسيون القبة البورغونية الصغيره على رأس قوائم قديسيهم .
 اصف الى ذلك ان اللهو الشعبي غالباً ما تميز بفضاظة مثيرة كمشهد تنفيذ الاحكام بالموت الذي
 كانوا يستطيعون التماهي فيه ، وكالبازرة التي جرت في باريس نفسها بين عيان تضاربوا بالعصي
 حتى الموت . وكان لكل مدينة لصوصها الذين يسيطرون على الشوارع المظلمة ليلاً : فقد ألف
 هؤلاء اللصوص ، في باريس نفسها ايضاً ؛ « مملكة الصعاليك » التي اطلق فيها اسم « الصعاليك
 الاحرار » على من يرفض منهم الاسهام في تحمل الاعباء المشتركة . ثم جاءت الحرب فأخرجت
 زمر اللصوص وقطاع الطرق والقتلة هذه من اغواطها ؛ وبلغ من « صعاليك » القرن الخامس
 عشر ان حملوا شارة حجاج سان - جاك نفسها .

اذا كانت الاهواء عنيقة واذا شجعت مصاعب الحياة القلقة على جمع الثروة بأسرع السبل -
 كان جباة الضرائب والصارفة والتجار اول المبادرين الى هذا الجمع وقد اهتموا بالغش وسرقة

أموال الدولة عموماً - فهل يحيز لنا ذلك لجمال « البورجوازي الشريف » و « الفلاح المسكين » اللذين لا نعلم بوجودهما الا حين يأتيان علماً يؤخذان عليه فيلتمان ، بذرف الدموع ، براءات الغفران ؟ هنالك طريقتان امام الانسان للحكم على عصره : اما الحكم عليه حكماً مبرماً كما يفعل مهذبو الاخلاق والمهجاؤون ، واما الارتضاء به بسلامة قلب ، دون تجاهل علاقته ، واتباع اخلاق منتصفة ترفض كل تجاوز وافراط وتفسح للذة والمنفعة مكانها . تتمثل الطريقة الاولى ، في انكلترا ، بنقد لنفلاند الاجتماعي الذي استوحى المواعظ الشعبية في رؤيا « بيرس بلومن » . وتتمثل الثانية بسخرية شوسر الباسمة في كتابه « قصص مع كينتربري » الذي ينم عن ذوق شامل واحترام للأعراف الاجتماعية .

لا ريب في ان مثل الفروسية أرسخ هذه الاعراف تأصلاً في طبقة الفروسية وأدب المجاملة النبلاء مع ان تجدد العائلة المنتمة اليها أصرح حصولاً منه في السابق . وهو ما زال مرتكزاً الى الفضيلة الرجولية التي تقاس بتمجيد الاقدام والنجاح الشخصي ؛ وليس نصيب الفارس منه ، في سعيه وراء البطولات ، دون نصيب البورجوازي في صراعه لجمع الثروة . وان في ما اطلقت عليه ايطاليا اسم الفضيلة (Virtù) محاولة لتعظيم الحزم وطول الالة والسيطرة على النفس : وانما هي زهد بشري أكثر منه مسيحي فيه تتأدى خشونة القرون الوسطى ، وتترأى أناقة النهضة ، ويبعث الرجل الشريف والرجل الصالح احدهما عن الآخر دون ان يتلاقيا بعد .

الا ان من واجبنا القول بأن الفروسية والمجاملة ، بفرض الزاماتها فرضاً مطرد الشدة ، قد برهننا عن عجزهما عن عكس أنظمة المجتمع الجديدة ؛ فكانتا من ثم مثلاً مصطنعاً اصططنع بالتكلف الادبي وتختز في الخيال الوهمي ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يرضوا بتشويه فضائل الفروسية وطالبوا باحترام دستورهما .

ما فتئت المرأة ، وفقاً لمثل المجاملة ، تملي التصرفات الشريفة ، ولكن هذه التصرفات قد ارتدت طابعاً آخر . فاذا كانت لور ، بالنسبة لبيترارك ، « سيدة روحانيته » ، فإن الفارس ينهل وحي بطولاته من « سيدة أفكاره » . فقد قال والد « جاك دي لالين » ، لاينه : « قليلون هم النبلاء الذين بلغوا فضيلة البطولة السامية دون ان يلهموا بسيدة او آنسة » . من اجلها تقسم الايمان الصعبة او الغريبة احياناً ؛ فقد أقسم مرافقو ادوارد الثالث من الجنود لسيداتهم ، في السنة ١٣٣٧ ، بأنهم سيحبسون احدي عيניהم بقطعة نسيج سوداء الى ان يأتوا مأثرة كبرى . والفارس التائه انما ينتظر من « سيدته » ، في البلاط نفسه او أثناء الخدمة العسكرية ، مكافأة بطولاته البعيدة الكثيرة ، عند انتهاء مصائبه ومحنه . ولم يلتقد انطوان دي لاسال هذه العادات قط في كتابه « جهان دي سان تري الصغير » الذي ألفه لابن الملك « رنيه » ، بل بقي أميناً « للعصر السالف النبيل » ؛ وعلى غرار جهان ، تذكر « جاك دي لالين » ، الذي كان مثلاً حياً في تشرده البطولي ، دروس « سيدة بنات الاعمام الحسنات » ؛ فقد تمكن من اسالة قلوب

الاميرات يهداياه واستطاع في أحد الايام دخول ميدان المعركة حاملاً في أعلى خوفته بخاراً مطرزاً بالجواهر ، وفي معصمه اسولراً ، كما كلاًها شهادة بإعجاب المعجبات به . وغدت الالوان والشعائر رموزاً متفقاً عليها للأمانة المثالية ، ما زال يتوخاها ، في خدمة الصليب دون غيرها وفي احترام المرأة ، الفرسان الملتفون حول فيليب دي ميزير وبوسيكو في جميعي « آلام المسيح » و « الترس الاخضر المزدان بالسيدة البيضاء » . بيد ان الكثيرين من اعضاء الجمعيات الجديدة - جمعيتا « النجمة » و « رباط الساق » في القرن الرابع عشر ، وجمعيتا « الحزبة الذهبية » و « القديس ميخائيل » في القرن الخامس عشر - قد اضافوا المشاغل العالمية الى ابتغاءات الفرسان البطولية في الايام السالفة ، لابل اقاموها مقامها احياناً .

اذا المرأة احتلت مركزاً رئيسياً دون منازع في « بلاطات المحبة » التي ابتكرها الامراء البورغونيون ، فهل بقيت ذاك الموضوع الخالص لمحبة حلال ؟ ثارت كريستين دي بيزان ، في نقاش حاد ، على الاخلاق المتراحة في « قصة الورد » ، في « جان دي دونغ » و ظهور كتاب « مئة قصة جديدة » ، مروراً ب « الزوج الباريسي » و « أفراح الزواج الخمسة عشر » ، انتشرت اخلاق عالمية أخفت ظواهرها الجاهلية احتقاراً متفاوت الوقاحة للمرأة قوامه ازدراء الرجل لكائن ضعيف ولادة لذة . وما أسعد المرأة التي تحترم من اجل كثرة اولادها ، فقد كتب مؤلف لاتيني ما يلي : « لا يقاس جمال المرأة ، في نظري ، بطلاوة وملاحة بحياها بل بحسبها العامر المعد لأن ينجب لك بنين حسناً جداً » . وأبناء الزنى كثر في كل العائلات ، وليس من يفكر باخفائهم او حرمانهم من الارث ، والمحبة خارج الزواج تعظم وكأنها منتهى التمتع ، وتتنصف ألقاب الرجال ، من محاربين وغيرهم ، بحرية مفرطة : فاذا لم يجد السيد « دي لا تورد لاندرى » افضل من أماليح لفرد الحرس لتربية بناته ، فان مجتمع المدن الايطالية ، وبلاط بورغونيا من بعده ، قد خصصاً السيدات ، بصورة طبيعية جداً ، بكل مجانة مستهجنة يحجبها الذوق اللطيف . ولا يرى احد غضاضة في اشراك الديانة في هذه المظاهر الاباحية : فان لويس دورليان ، الذي أرخى لشهواته العنان ، كان يرتدي المسح ايضاً ، وقد مثل ابنه شارل ، الشاعر ، تأوهات « عشاق العفاف » بآلام أبناء القديس فرنسيس السرية .

أنى لمثل الفروسية المتأخر هذا ، من جهة ثانية ، تدميت اخلاق الجندي المتعود اعمال القوة والعنف ؟ لقد قضت مبادئه بأن تتبادل قوى الخصمين ، في الحرب والمبارزة على السواء ، وبأن يكون النصر حليف أعظمها شجاعة : ولكن ذلك لم يحل ، في ساحة المعركة او أثناء الجولة على صهوات الجياد ، دون معاملة المشاة الاوباش وسكان الاكواخ بمنتهى القسوة والفظاظة . « قسوة واستلاب واغتصاب » ، ذاك كان شعار فرسان كثيرين روى فرواسار فظاعتهم بكل رضى ، لأنها غدت جزءاً لا يتجزأ من الاخلاق العامة وباتت ، في نظره ، هفوات تافهة لا يطالب بها رجل شريف ، بينما هي تصبح جرائم اذا صدرت عن القروي او البورجوازي او رجل الدين ، اذا ان القسوة ، المعتبرة فضيلة عسكرية ، كانت وفقاً على النبلاء . « هل تعرف ان تكون قاسياً

ومتفطراً ؟ ، طرح ' ' السؤال على البورجوازي « فيليب فان ارتفلد » حين استلم قيادة الثورة في غنت . وكانت المبارزة بين بورجوازيين أمراً مشيناً معترفاً ، لأن الأرستوقراطية استأثرت بحق سماع « صراخ الدم » والدفاع عن شرف « الروابط الزوجية » . وقد اعتبرت الكين ، في مثل هذه الحالات ، تصرفاً منكراً ، ولكن صليبي « نيكوبوليس » التقى قد أسند الى احدهم مهمة اغتيال ابن عمه في احد الشوارع الباريسية المظلمة . لذلك كان شر عقاب يعاقب به الفارس نعمته بالقروي الحشن ؛ وحين حكم على السيد « جياك » لاقدامه على قتل زوجته ، اغرق في كيس مخيط كما لو كان حيواناً مضراً ؛ وهذه ميتة لا تليق بالفارس .

لا ريب في ان الاخلاق الفظة ترد الى اعتبارات الشرف ، ولكنها ترد قبل البذخ والذوق ذلك الى الحرص المفرط على المال ايضاً . ففي وقت انهارت فيه المداخيل السيدية ، بينما زاد انتشار البذخ بين الطبقات الميسورة ، وفرض حب التظاهر سخاوات وقفية كبيرة ، وما زال السخاء فضيلة الرجل الشريف الاساسية ، كانت المحافظة على المستوى الاجتماعي ضرورة ملحة . وكان الحسد والبخل ، على غرار السخاء ، « سيدين وملكين » . وحصل خدمة يدفع ثمنها ، ولا سيما الخدمة العسكرية . وقد كتب فرواسار : « الجنود لا يعيشون قط من الغفرانات » . ولما كانوا ، من جهة ثانية ، ينتظرون الغنائم والغدى من الحرب ، فكان طبيعياً ان يصبح الفارس سلاباً . فاذا توصل اوستاش دوبرشيكو ، الذي اعجب فرواسار بآثوره البطولية ، الى ان يستولي عن طريق الخدمة على احد الحصون اكراماً لسيدته ، فان ثري الحرب كروكار ، قد ارتفع من مرتبة الفلمان الى مرتبة الاسياد .

في طبقة النبلاء هذه ، التي كثر فيها حديثو النعمة ، شغل الشبان بالهم بالبذخ الذي سخر منه الهجو البورجوازي في « تقليد رينار » :

« المماشرات السيئة تتسلط على العقل
هذا يلعب بالكتاب وذاك يحمي الحفلات
هذا يجادل وذاك يحارب
كلهم كرماء وذوو مال وفير
ولا يعلمون من أين تأتيهم الاموال » .

وليس غرائب الذوق والرغبة المستجدة في اقتناء الاقمشة الثمينة كالحرائر والفراء وفقاً على طبقة ذات مزايا معينة . فعبيد الطاعون الكبير ، كما قال فيلاني الفلورنسي ، « ارتدت اوضع اللسوة الملابس الجميلة التي ارتدتها من قبلهن سيدات ارستوقراطيات أدركتهن المنية » . وفي انكلترا ، حيث حاولت بعض القوانين تقييد النفقات المفرطة بتدريج البذخ في الملابس بحسب مرتبة الافراد وروثهم . ويرد ذلك الى ان الذكور استمدوا ، منذ اوائل القرن الرابع عشر ، الزي « الجزئي » الذي احتللت ألوان الملابس والاحذية والقبعة فيه بين الجهة اليمنى والجهة

اليسرى . واضيف اليه ، حوالي السنة ١٣٤٠ ، زي الملابس القصيرة الضيقة ، بينما حافظ المجدون وحدهم ، أي رجال الدين والقضاة والاساتذة والاطباء ، على الثوب التقليدي الطويل . وفي النصف الثاني من القرن ، حلت القميص القطنية محل القميص الصوفية الناعمة ، واستعملت الفراء النادرة لصنع القبعات وتزيين الملابس ، المصنوعة من الاجواخ الخفيفة ذات الالوان الزاهية المتنوعة ، القادرة على التعبير عن الفوارق الاصطلاحية بين مختلف العواطف . وزاد الشكل العام غرابة : فاذا أرجعت المرأة شعرها الى الوراء حتى لا يظهر منه شيء على جبهتها ، فانها كست رأسها بالطنطور او بقبعة المنجتم المقرنة المزدانة بخمار طويل متسدل ؛ وقد انتقد السيد « دي لا تور - لاندري » زي كشف أعلى الصدر والكثفين والذبول السابغة التي يجب رفعها والغاؤها على الازرع ، والحصر المشدود حتى اضاقة النفس . اما زي الرجال وهو أشد غرابة ايضاً بكتافه المستعارة المحشاة وضيق زنا ثوبه المحصر المنحدر الى الركبتين ، فقد اظهر نصف الجسم الاعلى بشكل مربع منحرف يعلو ساقين نحيلتين محشورتين في سروال ضيق ملتصق بهما تلتصقان حذاءين أشبه بطرف مقدم السفينة - كأظفار الحيوانات المسيخة ، كما يقول اوستانش ديشان . ويتكامل كل ذلك بقبعات عالية او مستديرة من الجوخ او من الفرو . واختفت اللحية في أواخر القرن بعد ان درج زي ارخائها وتقسيمها الى قرنين « مغناجين » ؛ اما الشعر ، الذي كان في البدء طويلاً ومتوجاً ، فقد قص بعد ذلك بشكل كمة قروية . وهو هذا اللباس الغريب الذي سخر منه « جان دي كوندية » في قصة جاءت تسميتها « القرد » في محلها

سبق لبيتاراك وشتر على هذه الأزياء المشينة ، وعبثاً حرّم اوربانوس الخامس وشارل الخامس الاحذية الملونة . الا ان القرن الخامس عشر قد زاد في الطين بلة فكسدت الجواهر والاقمشة الثمينة ، ولا سيما الحرائر والملابس المزينة بالصفائح الذهبية والفضية . فأفصى بذخ الملابس الى ابراز المضادة بين الثروات وبؤس الجماهير ، مع انه استجاب لسعي الناس آنذاك وراء حياة افضل ووراء شكل جمالي معين يمثل الادب والفن ، لا غرائب الأزياء ، مظاهره الحقيقية .

استطاع القرن الرابع عشر ، في كل شكل من اشكال التعبير الجمالي ، مصائر الفن القوطي ان يطبع بطابعه تنوع محاولاته وحتى جسارتها احياناً . كان لزماً عليه ان يتحرر من الوصاية الجائرة التي كان الفن القوطي العظيم قد فرضها على كافة أنحاء اوروبا ، ورغمًا تنكر لمبادئها ؛ ولم يكن باستطاعة الاجيال اللاحقة ، امام إرث القرن الثالث عشر ، اي امام تنسيق النسب الهندسية ، وحقيقة النقاشة المحصنة بالمثالية ، والميل الى الاضواء والالوان ، وتناسق الاصوات المتعددة في الغناء ، واللغة الادبية - الفرنسية - المسلم بها لغة شاملة ، سوى ان تستنزف صيغه المفرطة الكمال التي مالبت ان استقرت استقراراً نهائياً ، او ان تحاول الابتعاد عنها بالبحث عن تزيين اعظم اخصاباً واقل تبعية ، او عن ضرب من ضروب « فن غريب » ينجمها من الجمود والانحطاط . وكان مقدراً ان تنجم عن هذه الابحاث صيغ جديدة تأتلف فيها التقاليد المقبولة والطرائق المتحنة مع نزعات جريئة ومغصوبة . فلسنا بمستدحيال

الكلاسيكية التي شهد القرن الثالث عشر ازدهارها، حتى ولا حبال فن « عظيم » جداً في أكثر الاحيان : اذ ان كل نظرية جمالية يجب ان تدرس مجردة ، أي بمنزل عن اللغوانين المدرسية ، والنظرية ، او بالاحرى النظريات التي أبصرت النور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لا تستحق الاستخفاف الذي استهدفها بسهولة

اذا ما استثنينا ايطاليا التي اتجهت آنذاك نحو طرق مختلفة ، وأينما ان كل دولة من دول اوروبا ، على الرغم من فوارقها القومية او الفردية ، حاولت تجديد طريقة تعبيرها الجمالي بتلدين الصيغ القوطية . وقد ادت النزعة العامة الى الاختبارية والفلسفة الكلامية ، عند بعض هذه الدول ، - وكان لفرنسا نصيب السبق في هذا المضمار ايضاً - الى اعطاء المركبات العضوية شكلاً نهائياً يكاد لا يختلف بجموده عن جمود الخطوط الاولى في التصاميم . وجدت الاختبارية في الوقت نفسه في معرفة الخصوصيات وساعدت على تمييز الالوان وانماء مظاهر الذوق المختلفة ، بينما اوجبت الفلسفة الكلامية على العقول وضوح التعبير ، وكال الشكل . فنشأت من ثم ، في منتصف القرن الرابع عشر ، مطابقة بين النزعات الفكرية والادبية والفنية وطرائق التعبير عنها .

الميل الى الوضوح : تلك هي حال الاناقة المجرّدة والمتميزة ببعض الفتور في هندسة العمارة . فان في ارتفاع العقود ، وفي صلابة الركائز التي آلت فيها التيجان ، حين لم تضمحل نهائياً ، الى مجرد طريدة من اوراق الشجر ، وفي دقة النقوش النائضة ، وفي توسيع النوافذ المفرط ، وفي تفضيل الاشكال الهندسية المشعة ، لمعظمة اشبه بمظمة اللوحة الكبيرة المنجزة . ولكن البناء يتميز بمزيد من التلسيق وتميز انارته بمزيد من الرق والساواة في التوزيع . وتطورت تقنية زجاج الكنائس ، فقد اعتمد اللون الرمادي بالتفضيل على غيره في الخلفيات ، وانتشرت الالوان الاخرى المختلفة ، التي اضيف اليها اللون الاصفر المزوج باللون الفضي ، في صفائح زجاجية مزدوجة عريضة ، ما زالت تلون في داخلها ، ندرت فيها الفواصل الرصاصية . وان ما دشنه القرن الثالث عشر المشرف على الانتهاء ، في كنيسة القديس اوربانوس في « طروا » قد قفّح في كنيسة سانتوان في روان ، وفي كاتدرائيات متز وستراسبورغ ، وفي كركسون ، وفي البي - حيث انجز معبد محصن بالقرميد - وانتشر في ما وراء الرين وحتى وراء الجبال ايضاً . اما ايطاليا فقد تأخرت عن الركب ، ولن يلفت الانتباه فيها ، طوال القرن الرابع عشر ، سوى مثل كاتدرائية اورفياتو . ولكن الامر يختلف كل الاختلاف في شبه الجزيرة الابيرية حيث تأثرت برشونة وبالم وجيرونا وببلونا وطليلة بالنمط المشع في فرنسا الجنوبية الذي نشأه حتى في « بطام » من اعمال البرتغال . وانتشر هذا النمط المشع اللينق الفاتر دراكافي المانيا حيث انهى احد الفنانين الفرنسيين ، في السنة ١٣٢٢ ، خورس كاتدرائية كولونيا : والى القرن الرابع عشر تعود ، في اقسامها الهامة ، تحقيقات هولندا البنائية القوطية الكبرى في غنت وبروكسل ولياج . وابتكرت انكلترا اخيراً علماً جمالياً خاصاً : فبعد ان رضيت ، طولك جيل كامل ،

عن التزيين المثلل بالخطوط المنحنية المتقابلة والزخيرات اللحيمة والاقسام الناتئة السمجة ، سارعت الى اعتماد الخط المستقيم الجاف ، في اطار مستطيل اقصيت عنه القناطر عمليا ، وهوت فيه العقود المتقاطعة دونما هدف ، التي انتهت الى رسم مراوح غريبة . فارتفعت الروائع الاولى التي تمثل هذا الفن « العمودي » في بريستول وغلوستر حوالي السنة ١٣٣٠ ؛ وهو قد بلغ ذروته في اواخر القرن في خورس يورك ، وخورس كنتبري الذي انهاء هنري فيل في السنة ١٤١١ .

اما الفنون التصويرية ، التي لازمت هندسة العمارة حتى ذاك العهد ، فقد انجحت نحو الاستقلال . فادى مثل الاقتداء الجمالي ، الامين لتقليد واقعية القرون الوسطى ، بالنقشة والتصوير ، الى البعث الدقيق عن صحة الاحكام والكمال التقني ، وقد اعتبرا منفصلين عن بعضها ولم يكثر للتوفيق بينهما وبين الاطار الذي انزلا فيه . ولم تعد نقشة التماثيل في الابنية ، وقد الجئت الى ملاحظة التفاصيل وتقبل جسم الانسان تمثيلا صادقا ، سوى تكلمة ضرورية للبناء ؛ كما لم تعد التماثيل المرتفعة جزءا لا يتجزأ من البناء ، فبرز كل منها تحت مظلة ضخمة ، واخذت مشاهد القباب والاسكف والصفائح الخشبية في اسفل الجدران تفسح المكان للصورة الفردية : ذاك هو زمن انتشار صور العذراء حاملة ابنها التي تتميز ببعض التكلف في تراخي الوركين ، ولكن النقاش قد رسم على ثغرها الابتسامة الحقيقية التي تبسما النسوة الشابات . وبرز فن الصورة الفردية عند نقاشي ورسمي المدافن ايضا ؛ فقد اهلوا النقوش والرسوم المقدسة التي اعتمدت في المدافن الملكية او الاسقفية خلال القرن الثالث عشر وشغفوا بتمثيل الموتى تمثيلا معبرا مألوفاً . هكذا تظهر لنا المذارى المرحات ، في ارفورت ، وشارل الخامس في اللوفر ، ومدافن سان دني وافينيون . وهذه ايضا هي النزعة التي اتفقت وتقليد المصور القديمة في المناظر التي نقشها نقولا بيزانو ، والتي اشعت ، من خلال مدرسته ، على اسبانيا واطاليا ايضا .

وفي فرنسا ايضا كما في ايطاليا - في سينا وفلورنسا - ارسخ التصوير استقلاله ومميزاته الجديدة . فها هي من جهة ، عند منعطف القرن ، واقعية جيوتو المنتصفة - تألف كما سبق ورأينا ، بين العاطفة القوطية ، والاشكال القديمة - التي يعبر فيها عن محبة الفرنسيين للطبيعة في مشاهد معتادة ، مستعارة من « الاسطورة الذهبية » في صور « بادوا » الجدرانية . وهذه هي من جهة ثانية ، مدرسة دوتشيو ومارتيني في سينا ، التي قد تكون دون الاولى روحانية ، ولكنها تتميز بواقعية مؤثرة وجليلة الفائدة ، بما تعرضه من ذكريات الشرق الكثيرة في مشاهد الحدائق والقصص الزاهية التي ملأت بها جدران قصر البابوات في افينيون . وبسلوك هذه السبل ، قطعت شوطا كبيرا ، في مجالات التقدم ، المدارس الفرنسية ، اي مدرستا افينيون وباريس ، اللتان بحثتا كلتاهما عن طرائق جديدة للتعبير التصويري ؛ فان الصورة التي لم يبق لها من مكان في كنائس غدت معرضا للزجاج سوى المثلثات القائمة بين اقواس العقود ، والتي اقصيت عن المساكن الخاصة بفعل انتشار التنجيد والفرش ، وكلاهما اوفر دفأً وافضل تأثيلاً ، قد رسمت

آنذاك على اللوحة الخشبية في الرافدة المركزة وراء المذبح او في صفحة كاملة من مخطوط مزوق. اجل لقد فقدت بذلك طابعها البنائي العظيم ؛ ولكنها استعاضت عن هذا الفقدان بموهبة امثال جيرار دورليان مصور جان لوبون ، والواقعية الشديدة التعبير في « نسج مذهب نابونا المهذب » وتزيينات « جان بوسيل » : فهنا قد سيطر الاهتمام بتصوير التفاصيل الدقيقة ، دونما علاقة مباشرة بالنص المقصود تزيينه بالصور ، حتى ان الفنان قد نسي المؤلف العام الذي اعد تصاويره له .

ان الحركة العلمية السائرة قدماً بفضل الاختبارية ، قد فرضت على
الالوان والتماثيل الادبية
النثر العامي ما لم تفرضه مباشرة على هندسة المارة والفنون
التصويرية من ضبط في تأدية الفكر . فكانت ترجمة مؤلفات القدماء ، الى اللغة الفرنسية بنوع
خاص ، مدرسة تعلم المرونة والدقة ، فاتاحت خلال القرن الرابع عشر تحسين اداة التعبير عن
الفكر تحسناً مستمراً : تراجم فيجيس وفيتروف ، و ترجمة نقولا اورسم لمؤلفات ارسطو .
وبدأ انتشار الروح القانونية بانتشار مجموعات المنتخبات والتفسيرات ؛ وبينما كان الايطالي
برتولو مستمراً ، في بيزا وبادوا ، في وضع متعارفاته باللغة اللاتينية ، وسع جان ده ماره و جاك
دابلج و جان بوتيليه في فرنسا الطريق التي شقها « بومانوار » من قبلهم ، فظهرت حينذاك
« عادات » بريطانيا وفرنسا ، و « طراز حصن باريس » ، و « المجموعة الريفية » ، وكلها
روائع عصر من رجال الاختصاص .

وباستطاعتنا ان نذكر التاريخ ايضاً ، مع انه لم يبلغ بعد درجة الفن . فهو بعد جان لو
بيل ، قد اشتهر ، بفضل فرواسار ، بالوان لم يتوصل اليها جوفانيل في مذكراته . فان فرواسار
الذي تقصى الاخبار برصانة وصدق لم يعترف له بها احياناً ، وكان قماراً على الاحاطة باحداث
الغرب كلها ، وشغف بمعرفة مجتمع عصره وحرص على تفسير ما رأى ، قد حدد مهنته خبير
تحميد : « لو قلت : حدث كذا وكذا في ذاك العصر ، دون ان اكتشف السر » او القي الاضواء
عليه ، لكنت دوت مذكرات لا تاريخاً . فالشغل الشاغل الجديد انما هو الوقوف على اسرار
البلاطات والقلوب والبحث عن دوافع الاعمال عند عظماء هذا العالم . اجل لم يكن ذلك وقفاً
على فرواسار ، ولكن اوروباً لم تعرف له نظيراً ، لا في اسبانيا ولا في انكلترا ، ولا في هولندا
نفسها حيث يجب ان نذكر اسمي برابانتش ويستن الشهيرين .

ليس المجال بعيداً بين التاريخ ، وهو سرد بطولي او ازدرائي للاحداث ، وبين الرواية
الخيالية والقصة البطولية والخبر والنقد الاخلاقي . فقد تمثلت في كافة انحاء اوروبا جميع هذه
الالوان باشكالها التقليدية او الجديدة الجريئة . واستمرت فرنسا في طرق مواضيع الاعباني
الايمائية ، اذ ان القصة البطولية والمغاملة ، نثراً او شعراً ، قد احتفظت بمكانتها ورواجها ؛
وولع الاجانب بدورهم بالختارات « على طريقة فرنسا » . فظهرت في ايطاليا « القصص الملكية

الفرنسية « وفي المانيا » كتاب المغامرات « وفي اسبانيا » الفتح العظيم « وراء البحر » ، بينا اوحى برسفال ، في انكلترا ، « السيد غواين والفارس غرين » ، وعرف تريستان ترجمة تشيكية ، واقتبس اوزياس مارش عن اللغة الكاتالونية نغمات شعر المجاملة . ولكن بودوان دي سيبورك ، على الرغم من انه ما زال يتميز بنفحة ملحمة ، قد عرف ، في السنة ١٣٢٥ ، الحميا التي جعلت في القرن نفسه من « تاريخ فارس الالهة » القصة البطولية الاولى . وفي الواقع ، برز الميل اكثراً فاكثراً الى القصة ، ففي « قصص من كنتبري » لشوسر ، التي تم عن اعجاب المؤلف بيوكاس وتقليده له ، والتي تمتاز ببساطة سيكولوجيتها وظرافة نقدتها الاجتماعي ، وفي « كوند هوكانور » لجوان مانويل بلغت القصة الذرى ، بينا كان « جات دي كوند » يقف في اللغة الفرنسية حكايات منظومة جميلة . وهكذا كان الهجاء والواقعية على موعد في الادب . فحارب تجاوزاتها الصادرة كلها عن جان دي مونج ، كل من غليوم دي دينيوفيل وجون بونيان بروح مسيحية . بيد ان « حج الحياة البشرية » و « تقدم الحاج » لم يحولا كلاماً دون دخول النفحة الداعرة الى اسبانيا مع « كتاب المحبة » لجان رويز ، كما لم تنمأ كاهن طروا ، خالع الثوب الرهباني ، من تقليد رينار باستهزاء وقحة . ونافسه كثيرون في هذا المضمار لا سيما الاسباني « بيرو لوبيز دي ايلالا » الذي برهن عن عنف لاذع في « ريمادودي بالاسيو » ، والفلمنكي « جان فان بوندال » . وكان الادب بالاضافة الى ذلك علمياً ، وقد جمع بين الروح النقدية والثقافة واعتمد في التعبير التقنية المدرسية الرائجة آنذاك ، اعني بها الرمزية .

ليس من فن اكثر تصنعاً من علم البيان : وعلم البيان هو الاسم الذي اطلق على الشعر آنذاك . فتجسم المثل المجردة والتعبير عن الافكار بالوان ثابتة (القصيدة الاسطورية ، القصيدة القصيرة ذات الادوار ، النشيد الملحمي) كانا مليئين بالاعطاس وعرضاً الاشكار والوحي للجفاف . ولكن هذه الاشكال الثابتة كانت مطابقة لهوس الرمزية العام ، القوية الى الفهم نسبياً في الفنون التمثيلية ، والمعاة كل التعمية في البحث الادبي . ولولا عبقرية غليوم دي ماشو لانتهى الامر بالشعر الى هوة التكلف والابتذال . اما فضل هذا الكاهن القانوني الرسمي الاصل ففي تجميل اشكال فنّه الجامدة - القصيدة القصيرة ذات الادوار ، ولا سيما القصيدة الاسطورية - بتعبير موسيقي مجدّد : « الفن الجديد » الذي هو مجهود تقني لتنويع اساليب التعبير ووضوحها . وابع تجميل الكتابة الموسيقية بقيم جديدة ، وقد رسمت خطوطه الكبرى منذ القرن الثاني عشر ، تصور كل الاوزان الممكنة . فبات بمكنة الايقاع ان يصبح اشد تعقيداً وبمكنة الآلات الموسيقية ، ولا سيما الارغن ، ان تبلغ فرديتها . فاطل ايقاع الاصوات المتعددة ، بالفعل نفسه ، على الواقعية . وعلى الرغم من اقراطات على بعض الجفاف احياناً ، فان خصب التقنية الجديدة يقاس بمدى انتاج متقن . فالى جانب « البصر يقول » و « يقال عن الحديقة » ، انبأ « نشيد القبرة » بموهبة جانكين الوصفية ، كما ان « قداس السيدة » - المعروف بقداس مسح شارل الخامس - هو اول قداس متعدد الاصوات في التاريخ الكنسي فرضت فيه المدرسة الفرنسية ، بفضل ماشو ، مفاهيمها على الغرب .

اما اوستاش ديشان الذي عاصر ماشو دون ان يرتفع الى مستواه ، فقد خلف انتاجاً ضخماً - ٨٠٠٠٠ بيت من الشعر تقريباً - نهج فيه نهجا واحداً لم يتح له بلوغ السهولة الممتنعة والرشاقة . وجعل منه « فن الاملاء » معلم القواعد النظرية الشعرية لاجيال من المربين ، اذ انه وضع القواعد النهائية « لمهنة » ليس الموسيقيون وعلماء البيان بعد سوى عمالها المأجورين . ففي كل مكان ، في المهارات الكلامية او تنضيد القوافي ، في التصنع او العاليمات ، طغت الرمزية وباتت طريقة التعبير عن فوارق علم الاخلاق وابتغاءات النفوس . فهاهي الوردة مثلاً : بسطت في زجاج الكاتدرائيات فمثلت تنسيق الفكر حول حقيقة بدئية عامة ؛ وقدمت للمجملين في احدى المباريات ، فرمزت الى عقب التعبير الرقيق ؛ تنثر في الوردية ، اكراماً للعدراء ، اوراق « الوردة التي صار الكلمة فيها جسداً » كما يقول دانتي . وتفرض فكرة النثر هذه فكرة تقدم تدريجي وتوق الى الجمال والخير ؛ وفي ذلك زهد عالمي وديني بدا في تصرفات العاشق عند جان دي مونج كما في رؤى فلاح وضيع في « بيرز بلومن » ، وفي مأثر « جهان دي سنثري » الصغير كما في المراحل الصوفية في « الاعراس الروحية » . وهكذا حافظ الاحساس على حقوقه في هذا الفن العابس الصناعي الذي كان في الغالب جدلياً وتعليمياً ؛ وهو سيفرضها منذ اواخر القرن الرابع عشر .

الفن اللهي انه لتطور بطيء ومعقد افزعته ، في كلا مظهري الحنو العالمي الكاذب وتحريك المواطف الصادق ، الاشكال العارية والهندسية . ولكن خشيته هذه ليست شبيهة بذاك الدور المفاجيء الذي يمترى اناساً يفقدون ، عندما تعم الفوضى ، كل معاني الاعتدال . واذا حدث لهم ، برودة فعل منهم ضد جفاف الاشكال ، ان يخلطوا بين الحشو والتزيين وان ينظروا الى التكلف كما الى الذوق اللطيف ، والى تحريك المواطف كما الى الهوى ، واذا بدا الميل الى الاخراج ميلاً شاملاً ، فيجب ان نعترف بان الفن اللهي انما يملك فيضاً من « الغرابة » ويخفي في الوقت نفسه الثروة الحقيقية .

ان الشارع التجاري القديم الذي يصل في روان ، عاصمة الفن القوطي المشرف على الزوال ، بين « سانتوان » و « سانت ماكلو » ، يجمع بين مفهومين للفن والحياة : فهناك الفن المشع في تناسقه المرتفع والمنطقي ؛ اما هنا فالعقد اعظم انخفاضاً ، ولكنه في منتهى المتانة ، تتنضد فيه الخطوط المنحنية والخطوط المنحنية المتقابلة اشكالاً اهليلجية ومثلثات ، الا ان سهم العقد ، على الرغم من تسنيته الجميل ، لا يضاهي صفاء عظمة « البرج » المتوج . تسالو التزيين آنذاك كل اقسام البناء ، بما فيها الهيكل الهندسي نفسه - الاعمدة ودعائم الجدران والزواقر . انه لعلم جمالي جديد قد يكون اقتبس عن انكثرا بعض الاشكال التزيينية المنحنية الخطوط التي ظهرت في او كسفورد (كلية مرقون) واكستير (الكاتدرائية) منذ السنة ١٣١٠ والسنة ١٣٢٧ - واهملت بعد ذلك في ما وراء المانش - ولكنه من الانسجام مع تطور الفن الفرنسي بحيث لن

يلت ان يعم المناطق نفسها التي سيطر عليها الفن المشع . لنترك من ثم ايطاليا جانباً : اذ ان تشيد « الرائعة المزيفة » ، التي هي كاتدرائية ميلانو ، لدليل جديد على ان شبه الجزيرة حرم لا يدخله اي نوع من انواع الفن القوطي ؛ وانكلترا ايضاً التي استثمرت ، على نمط واحد تقريباً ، موارد الطريقة العمودية ، والتي حققت رائحة تلفت الانتباه هي « كلية الملك » في كمبردج . يبقى امامنا فرنسا التي انتشر فيها الفن الجديد بسرعة ، وهولندا ، والدول الجرمانية ، من كولونيا حتى فينسا ، واسبانيا والبرتغال حيث اقترن نمط الاقواس المتقاطعة الكثيرة بعظمة الفن الاسلامي الشرقي في اسبانيا ، حتى كرس بذخ الفن البرتغالي ، في تومار وبليم ، الجمع بين الرومنطيقية القوطية وعظمة المسال الظاهرة ، وهو جمع بين العالم القديم والعالم الجديد . وكان مقدراً للفن اللهي ، وهو اشد اعتدالا في الكنائس القروية ، ان يملأ اريافنا ، حتى ما بعد القرن السادس عشر ، بآنية تمتاز بالمتانة والرشاقة . وقد اعتمد كذلك في هندسة العمارة المدنية ووافق رغبة العظماء في الرفاهية : القصور البندقية ودور البسليات وابراج الاجراس في الشال ، ومقر جاك كور في بورج ، ومسكن رئيس الرهينة الكلونية في باريس - وكلها من التشابه بحيث يكاد يستحيل الاعتقاد بان الفارق الزمني بينها هو قرابة قرن كامل - والحصون اخيراً ابتداء من « بيرفون » حتى نانت ، كل هذه الابنية تشهد بما لا يترك مجالاً للشك ، بقيام مفهوم للحياة يعرف الانسان بموجبه كيف ينظم ، كما يطيب له التنظيم ، الانفاق على الزخرف .

تحريك العواطف والواقعية
وهي المناطق الفرنسية ايضاً التي عبرت خير تعبير ، في نطاق
الفنون التصويرية ، عن الحنو المعقد ، الصوفي والشهواني معاً ، في اواخر
عهد الفن القوطي . ولنا الآن ، كما في السابق ، امام مدارس اقليمية ، بل امام جماعات من
الفنانين استلهم عطايا احدى اسر الامراء : النجو ، وبري ، وبورغونيا بنوع خاص ، اذ ان
ازدهار بورغونيا وهولندا قد جعل من امرائها اوسع زين الفنون ثروة . وقد جمعت روائعهم
بين عاطفة اعظم تهدياً وواقع شديد التأثير جداً ؛ فالعذراء المرضعة في التزاوي هي امل الحياة
البشرية ، ولكن هذه الحياة تزرع تحت الالم في تمثيل « التقوى » في فيلنوف - ليزا - فينيون ؛
وتتجلى الانسانية كذلك في المسيح منتظراً العذاب « في فينيزي (يون) » ، كما في « الصلب » ،
في « غابة برووات » الشهيرة ؛ كما ان تمثيلات « الانزال الى القبر » التي حققتها المدارس
الشمبانية والبورغونية ، لا توحى اضطراب المأساة بقدر ما تفرض السكوت والتأمل . ولم
يكن النحاتون والنقاشون والمصورون معتمدين حين جعلوا من الميت الرفيق الدائم للانسان
الحي ، وحين اكثروا من « رقصات الاموات » ، وحين رتب كلوس سلوتر وتلاميذه الواقعيون ،
حول الميت المضطجع على المدافن البورغونية ، موكب « الباكين » ؛ وفي صفاء الصوفية ،
اوحى ظفر المختارين ، الى الاشقاء « فان ايك » ، موضوع « تمجيد الحمل » الرائع ، كما ان رؤيا
يوحنا ستقدم ، حتى « دور » ، مواضعها للنحاتين والمزوقين ولعمال التطريز والتدبيح في انجيح .
لم يقض تحريك العواطف اذن على واقعية القرن الخامس عشر . فاذا هي ما زالت عابسة ،

في الامبراطورية ، مع كونراد ويتز ، فانها قد تلذنت في المناطق الاخرى تحت التأثير الايطالي ويفضل الالوان الساطعة التي تقدمت تقنياً وجل فيها مصورو المناطق الشمالية . وحقت ، مع روجيه دي لا باستور ، عظمة قوّة وهادئة في آن واحد ؛ فنور الاخوة « فان ايك » الساطع ، مثلاً ، يحتاس بدقة مناظر الريف اللباجي تحت اقواس « العذراء » المنسوبة للمستشار رولين ، معيداً الى الذاكرة المزوقين والمشاهد الريفية في « ساعات » شانتيني ومناظر منطقة « تور » التي جلى « فوكيه » في رسمها . ولا عجب اذا ما ضم هذا الفن الفرنسي الالماني ، بالمعيد من خطوطه ، تأثيره الى تأثير الفن الايطالي على الفنانين الكاثالونيين (جايم هوغيه) او البرتغاليين (لونيو غونسالفس) .

ففي التصوير اذن ، كما في الصياغة ، وكما في تحقيقات التدبّيج والتطريز في اراس وتورنيه وبروكسل ، اقترنت واقعية الملاحظة وكمال التقنية برقة القرن الخامس عشر . اما الفن الادبي الذي طفى عليه . تصنع علماء البيان ، فلم يعرف قط هذا التجدد ؛ وليس لمجالس البيان وللندوات الادبية من فضل الا في اشاعة الميل الى الشؤون الفكرية وتهذيب اللغة تهذيباً بلغ درجة التكلف . فهل فيه ما يستوقف القارئ ؟ يترى ؟ هناك بعض القصائد النضرة القصيرة ذات الادوار من تأليف كريستين دي بيزان وشارل دورليان ، كما ان هنالك بعض القصائد العميقة التي تتميز ، على ما فيها من حشو ، بالقلق والثقة معاً ، في تحريكها الصادق للمواطن ، والتي يجب ان نبعث فيها عن عبقرية « فرنسوا فيون » . الا ان المحاولات كانت اعظم تجديداً في الموسيقى مع ان التمرنات الصوتية والتلحينات المعقدة في الانغام المتعددة الاصوات قديمت كلياُ المخاوف التي كانت ابدتها ، على غير جدوى ، حيال هذه التجديدات ، البراءة الحكيمة ، التي اصدرها يوحنا الثاني والعشرون في السنة ١٣٣٢ . وانما انتشر الاتباع آنذاك ، وهو ابتكار فرنسي انكليزي ؛ وواصلت الموسيقى غير الدينية ، في ايطاليا كما في اسبانيا ، اختبارات ومحاولاتها ؛ فسمت مقاطعة هينو بفن الطباقي نحو الكمال بفضل دوفاي واوبرخت و« وجوسكين ده بريه » و« اوكجيم » . آنذاك تعلمت المانيا وايطاليا نفسها لـ « معلمي الشمال » .

غير ان تمثيلية « السر » الدينية ، وهي خير تعبير نموذجي للقرن الخامس عشر ، تخطت الى حد بعيد ، بشمولها وبدبّيتها ، كافة اشكال المسرح العالمي المتنوعة من تمثيلات اخلاقية وتمثيلات مضحكة وتمثيلات يتكلف ابطالها الجنون ، على الرغم مما « للمعلم باتلين » من حسنات وفضل . وتوسع المسرح الديني في « المداخل » الايطالية والتمثيلات الكتلية لسير القديسين واللوحات الانكليزية الحية ، فاثبت مرةً اخرى منشأه الشعبي في مواكب العربات الرمزية في اشبيلية وبروج . الا انه لم يبلغ ، في اي مكان ، الرونق الذي بلغه في فرنسا : فان « المعجزات » التي غدت طقساً شعبياً ومثلت او رقصت احياناً في المعبد ، اصبحت تستغرق اياماً عدةً بتمثيل حدث الحبيبي متتابع ، وغزت فناء الكنيسة الذي يتسع لمشاهدها الكثيرة ، وجندت اخويات كاملة للقيام بادوار الممثلين . وبات هذا الطقس الشعبي حدثاً اجتماعياً اعيد فيه

باستمرار تمثيل « سرّ السيدة » او « سرّ الآلام » . واتقن خير اتقان بفضل ارنو غريبان فحرك عواطف الجماهير واسال دموعها . اجل لم يخل من الابتذال ولا من الحشونة ؛ ولكن الاستأثر المبرقشة والموسيقى والغناء الفريغوري والاغاني الشعبية وتعدد الاصوات والآلات قد اسرت الحواس كلها ، كما ان اطالة النص لم تترك اي مجال للراحة . ولعل في ذلك خير شاهد على شمول انتشار مفهوم جمالي عميق التأثير .

هكذا تبدو لنا ، معقدة وغنية ، على ما تثيره من حيرة في اغلب الاحيان ، روح الاجيال الاربعة او الخمسة التي عاشت في اوروبا الغربية والجنوبية منذ حوالي السنة ١٣٢٠ حتى السنة ١٤٧٠ تقريباً . وسيتاح لنا ، بعد استفاضة درسنا لمتناقضاتها ، ووقوفنا عن كثب على خطوط ابتغائها ، ادراك ردود فعل هذه الاجيال امام الصعوبات المادية التي هاجمتها بقوة والانقلابات السياسية التي كانت هي ابطالها وضحاياها في آن واحد .

الفصل الثاني

متاعب أوروبا المادية

يعود الى أواخر القرون الوسطى ادخال هذه الطلبة الجديدة في صلوات الربيع: « من الجوع والحرب والطاعون، خلصنا يا رب ». الجوع والحرب والطاعون، تلك هي الأخطار التي هددت الانسان في كل برهة ؛ وتلك هي الضربات الثلاث التي ورد ذكرها في الاغنية التقوية - لا فرق اذا كانت اصطلاحية او صادقة - التي نظمها الشاعر البريطاني جان مسكينو :

« بثس الحياة حياتنا المحزنة
التي تستبد بها ، ليلاً نهاراً ،
الحرب والموت والجوع والبرد والحر » .

١ - الحرب

ان اسم « حرب المئة سنة » الذي ابتكره المؤرخون المعاصرون يقتنافى والحقيقة في نواح كثيرة، ولكن له الفضل في انه يعيد الى الذاكرة ديمومة الضربة العظمى. ان هذا النزاع الفرنسي - الانكليزي ، الذي نشأ حوالي السنة ١٣٣٦ عن المعضلة الاكيتيلية المزمنة ، لم يتوقف الا في السنة ١٤٧٥ ؛ وقد تتابعت حوادثه المتكاملة طيلة قرن ونصف ؛ وجرت في فترات انقطاع أعماله العسكرية منازعات على نطاق أضيق في بريطانيا واسبانيا وهولندا . اضيف الى ذلك ، في كل من الممالك المتحاربة ، الصراعات بين الاحزاب التي غالباً ما انتهت الى حروب أهلية ، والثورات ومؤامرات الامراء ومغامرات الاسياد الذين استغلوا الظروف لاشباع رغباتهم ، وثورات الفلاحين والفتن في المدن ، ناهيك عن الغارات الفجائية التي قامت بها ، برأ وبجراً ، المصائب المسلحة والقراصنة وقطاع الطرق : وان الكلمة المشهورة التي قالها كاهن كاهور القانوني في أواخر القرن الرابع عشر لا تفقد شيئاً من صحتها لو قالها أبوه وأبناء اخوته ايضاً : « طيلة حياتي لم أرَ سوى الحرب » .

اضف الى ذلك ايضاً ان تكرر النزاعات المسلحة ، ان لم يكن ديمومتها ، واقع يشمل الغرب المسيحي بأكمله . فلننوه هنا بانقسامات الممالك الايبيرية ، وبمحملاتها على المسلمين في غرناطة ومراكش حين أأاحت لها خلافاتها متسماً من الوقت لذلك ؛ وبالمناقشات بين الممالك في سكندنافيا؛ وبالمزاحمة ، المسلحة غالباً ، بين مدن الشراكة الهانسية وبين الداغمارك او انكلترا؛ ولننوه كذلك بأن المنظمة التوتونية قد واصلت ، عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي اللاتيني ، معركتها الكبرى ضد السلافيين وسعت الى سحق انطلاقا بولونيا ، بينما فتحت الغزوة العثمانية ، في الجنوب الشرقي ، جبهة حرب جديدة دائمة . وبصرف النظر عن الامبراطورية ، التي عجزت كل قواها عن وضع حد لسجس الـ « ريتز » - ولنزاعات أعظم اتساعاً بين الامراء احياناً - ، فان ايطاليا كانت مسرحاً لمشادات معقدة وطويلة الامد لم تكن حرب استعادة اراضي الكنيسة على يد الكردينال البوروز ، بين السنة ١٣٥٣ والسنة ١٣٦٤ ، التي كان ثمنها خسارة قادحة في الارواح ، سوى حادث واحد من حوادثها الكثيرة ؛ فمن الشمال الى الجنوب ، بقيت شبه الجزيرة الايطالية ، حتى الصلح السريع الزوال الذي عقد في لودي في السنة ١٤٥٤ ، لا بل حق التدخل الفرنسي في السنة ١٤٩٤ ، ميداناً مقفلاً تقابلت فيه ميلانو والبندقية ، سينا وفلورنسا ، فلورنسا وبيزا ، وتنازعت اسرّة النجو واراغون نابولي وصقلية ، ناهيك عن مخاصمات اقل شأنًا واضطرابات داخلية وسياسية واجتماعية في كل اخاذاة .

فما هي القوة التي كانت قادرة على منع ارافقة الدماء بين الملوك والامراء؟
عجز الدبلوماسية
لم يتوفر للدبلوماسية ، التي اخذت تفكر ببعض مبادئ واعراف الحق الدولي ، سوى وسائل غير ثابتة . اجل كان مندوبو الكرسي الرسولي يجوبون الغرب بصورة متواصلة لتسوية الخلافات بين الامراء المسيحيين . فمنذ بندكتوس الثاني عشر حتى اوجانيوس الرابع ، أي منذ السنة ١٣٣٥ حتى مجمع أراس في السنة ١٤٣٥ ، ليس من خبر روماني - باستثناء فاصل الانشقاق المؤسف - الا وبذل جهداً كبيراً لوضع حد للنزاع الفرنسي الانكليزي ، وذلك بفرض هدنات ، و « ايام » بين المتفاوضين ، ومؤتمرات صلح ؛ ولكن جهودهم لم تعط قط سوى نتائج سريعة الزوال جاءت في اعقاب مساومات استغرقت وقتاً طويلاً جداً ، كما خبر ذلك المندوبون الذين بدأوا مساعيهم في السنة ١٣٧٢ وتوصلوا بعد جهود سنوات ثلاث ، الى عقد هدنات قصيرة ، ولكنهم اخفقوا أخيراً في التوصل الى شروط صلح مقبولة ، فاضطروا ، في السنة ١٣٧٧ ، الى التسليم بتجدد الاعمال الحربية .

قضت العادة ، في سبيل تسوية الخلافات ، باضافة التسوية الحبية او التفاوض المباشر بين الملوك الى التحكيم البابوي او وساطة شخص ثالث . ونشأت عن تقليد « المحاكم المتنقلة » المؤتمرات بين الفريقين المتحاربين التي حاولت ، منذ اجتماع مونتروري في السنة ١٣٠٦ حتى اجتماع شالون - سور - سون في السنة ١٤٤٤ ، تسوية قضايا الاضرار الملحقة بمناطق الحدود والقطع البحرية . الا ان الحاجة مستترة باستمرار الى تجديد الجهود - التي كانت ثمرتها مبادئ قانونية مخصصة على كل

حال - بسبب تجدد اعمال العنف بصورة دائمة . ومع ذلك فقد أكثروا ، في كل هدنة ، من الضمانات والتأكدات ، وأسندوا صلاحية النظر في الخلافات المحتملة الى « محافضي الهدنات » . غير ان الحدود غير الواضحة ومباداهات الضباط والجنود في المعسكرين وتصفية الفدى المتوجبة كانت منطلقاً لمنازعات غالباً ما تشعل نار الحرب . وقد حدث أيضاً أن الامراء الذين هالتهم فكرة النزاع الدامي وتشبثوا تشبثاً صيبانياً بشرف الفروسية ، فكروا جدياً بتسوية نزاعاتهم في معركة فردية : فادوارد الثالث وفيليب السادس في السنة ١٣٤٠ ، ولويس دورليان وهنري دي لنكستر في السنة ١٤٠٢ ، قد فكروا بالاستغناء عن اصطدام الجيوش بمبارزة جيلة .

يضاف الى ذلك ، على الرغم من الحصانة المعترف بها للسفراء ، انهم احتجزوا من الممثلين الاجانب ، الذين ما كانوا ليحصلوا على وثائق الامان الا بعد وقت طويل ، والذين يهتك سر مراسلاتهم احياناً : فهم يتهمون « باستكشاف اسرار البلاد » . لذلك فإن البابوية والبندقية ، اللتين كانتا اول من لجأ الى الاتصالات الدبلوماسية الكتابية ، قد ابتكرتا كذلك لغة المفاتيح والشفرة ايضاً . واذا اضفنا ان هذه البعثات كانت محدودة الصلاحية ، والاخبار تنقل ببطء ، والاشاعات الكاذبة تنتشر بكثرة ، وان اقل حادث - كمقتل « جان سان بور » على جسر مونتر و في السنة ١٤١٩ مثلاً - قد يفضي الى فشل كل المساعي ، اتضح لنا هزال « الانقطاع عن الحرب » .

أداء الطرق و فرق المرتقة
ما لبثت الحرب ان اصبحت مهنة آنذاك بفعل التقاليد الاجتماعية والظروف السياسية والضرورات الاقتصادية والمقتضيات التقنية .
اجل ما زالت تحتفظ خلال القرن الرابع عشر بخطوط كثيرة من وجهها في القرون الوسطى . فهناك في الدرجة الاولى أعرافها المستوحاة من آداب الفروسية : كتب التحدي ، طلب المبارزة ، الممارك الفردية ، الهدنات المحلية ؛ ثم تكوين الجيوش المبني على تفوق الفرسان والنبل ؛ وذهنية المحارب اخيراً . وقد اجل جان دي بوي ، في بحثه العسكري ، الآراء السائدة بصدها : « الحرب ، في الحقيقة ، دفاع عن الحق » ؛ و « ما أكثر ما أدى التمرن الطويل عليها الى انسكاب الدمووع عند التفكير بالذهاب للموت او للعيش مع صديق عزيز » ؛ « السلاح يشرف الانسان أياً كان » ؛ والحرب امتحان شرف ومدرسة صداقة ، و « شيء مفرح » إجمالاً . ولكن إعداد ضابط شاب هو ، في المانيا ، دخول احد المغامرين في خدمة عائلة تبتقي ثأراً او في خدمة مدينة ، وفي فرنسا ، غارة ليلية مفاجئة للاستيلاء على ماعز وأحصنة إحدى حاميات الاعداء ، وسرقة ملابسها « المنشورة » .

ثم ان الاندفاع وراء الاخطار والمكاسب والبطولة وارتفاع عدد الولادات بالنسبة لمداخليل العائلات الشريفة المتدنية ، لاسيما في المناطق الآهلة بالسكان ، قد حملا اخوة الابكار على طلب المغامرة . يضاف الى ذلك ان الوحدات الاقطاعية ، المؤقتة ، لم تعد لتفي بمحاجات الحرب المستمرة ، كما ان نظام قيادتها قد حال دون تأليف وحدات مرنة ومتجانسة . ولنا ، منذ أواخر

القرن الثالث عشر ، في « مستأجري » فيليب لو بيل ، والاتفاقيات المعقودة بين ملك انكلترا او الفرق الفسكونية ، وحاملي الاقواس الفولاذية العاملين في خدمة فيليب دي فالوا والزم المسلحة العاملة في خدمة ملوك اراغون وقشتالة دليل على اضطراب الامراء للجوء الى المرتزقة . وقد طبع هؤلاء الجنود المحترفون حروب القرن الرابع عشر بطابعهم الخاص . وقد قصد بعضهم مناطق ثانية جداً بحثاً عن المغامرات : « الفرقة الكاثالونية » قد حاربت في آسيا الصغرى وتوقفت الى احتلال الاتيك في السنة ١٣٠٩ ؛ وبعد ذلك ، تركت « الفرقة النافارية » في موريا ذكرى مرورها في محلة « نافارين » التي حملت اسمها (حوالي ١٣٧٥ - ١٤٠٠) . ولكن حروب فرنسا وإيطاليا هي التي جعلت من « الفرقة » منظمة دائمة ومن « دليل الطرق » مثلاً اجتماعياً .

لم يتميز دليل الطرق خلال الاعمال الحربية عن مجندي الملك . الا انه اختلف عنهم أثناء فترات المهادة . فهو حينذاك رجل غريب عن بيئته وعاطل عن العمل يستحيل ارغامه على العيش في مجتمع منظم . وما ان عقد صلح بريتنسي (١٣٦٠) ، كما يقول فرواسار ، الذي عرف العديد من أمثاله ، « حتى اجتمع رفاق مساكين كثيرون من مارسوا مهنة السلاح وتشاوروا فيما بينهم وقر رأيهم على ان عليهم ، وان قرّر الملوك الهدنة ، ان يؤمنوا سبل معيشتهم » . وبعد مرور ثمانين سنة ، كان صلح أراس (١٤٣٥) وهدنة تور (١٤٤٤) فاتحة لطفيان « السلاخين » الذين لم يتقاضوا منا أي اجر ، كما ورد في كتاب صفح منحه شارل السابع لأحدهم ، فاضطروا بسبب ذلك الى الاعتصام بالارياض وقامين « معيشتهم على حساب اعدائنا ورعايانا بسلب ونهب ممتلكات كل من يصادفون » .

وفيما يلي موجز لتاريخ « نفل موليون » الذي روى لفرواسار تفاصيل مغامرته : استلم أسلحته كفارسي في بواتيه وانضم الى « الفرقة الكبرى » ؛ وهي مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل (كما يقول فرواسار) من الاشراف الفقراء او اولاد الزنى ، المغامرين المنتمين الى بلدان كثيرة ، الجامعين بين الجشع الفسكوني ، والشهوانية الفلمنكية ، والحدة الاسبانية ، والتقلب الايطالي ، والحنونة البريطانية ، والفظاظة البيكاردية ، والقساوة الالمانية ، وغطرسة الانكليزي « الذي لا يحترم سوى امته » . لكل زمرة كهنتها وصندوقها وشرطتها وعجلاتها وخيولها وخدامها وصناعيوها وبغاياها ؛ وقد رافق هؤلاء المؤمنين ، الذين أرادوا ان يجعلوا منهم صليبيين ، مع ان بعضهم ، من امثال جون دي هرلستون ، ما كانوا ليتأخروا عن احياء الاعياد والولائم بمئة كأس مسزوقة ، كهنة مرشدون يخدمونهم باقامة القدايس . وعلى الرغم من خضوع هذه الزمر لنظام حديدي وتشاركها دونما دمج ، فانها قد اكملت ، « متأخرة » ، نهب القصور والمدن والقرى في وادي الرون ، واستولت على « جسر الروح القدس » وألزمت البابا بدفع الفدية وجات وصالت في أنحاء اللندفوك وإيطاليا الشمالية . اسهم النفل معاً في هزيمة الجيوش الملكية في برينييه (١٣٦٢) ، ثم حارب في سانسير واوراي بقيادة هوغ كلغري الذي رافقه

حتى بلاد قشتالة وانتقل بعد ذلك الى خدمة « بيبير الطاغية » والتقى برفاقه القداماء الملتحقين بـ « دوغكلين » . ثم استدعي أدلاء المسكرين عند تجدد النزاع الفرنسي الانكليزي ، ولكن النفل قد خاض المعارك لمنفعته الخاصة في الدرجة الاولى .

وفي عهد السلاطين ، لم يكن رودريغ دي فيلندراندو وفرنسوا دي سوريان وبرننه غرسار وكثيرون غيرهم ، ممن استبسلوا في معية جان دارك احيانا ، دون ضباط الفرقة الكبرى شجاعة وبأسا . وقد حصل غرسار من شارل السابع على مكافأة كبرى لمحافظة على حصن « شاريته سور لوار » بمجاوله دون استيلاء جان دارك عليه . اما فيلبراندو ، فعلى الرغم من اخلاصه للقضية الملكية ، فقد سيطر على جنوبي فرنسا على رأس زمرة بلغت من التنظيم درجة قل نظيرها . وحين عجز شارل السابع عن القضاء على السلاطين ، اسند الى ابنه لويس مهمة ايجاد عمل لهم ، دون افنائهم ، في اراضي الامبراطورية وعلى نفقة الامبراطورية .

كان تجنيد الفرق زمن الحرب وتخصيصها بتمويض بطالة عند اعلان الهدنة تدابير ظرفية ؛ الا ان الفرق ، في الواقع ، قد حوّلت الوحدة الاقطاعية القديمة الى جيش محترف . كان الانتقال غير محسوس بين صاحب الاخذة المأجور في أواخر القرن الثالث عشر والضابط الذي يستخدمه الملك وحده محدداً عدد المجهدين ومدة الاستخدام وسلّم الأجور ، على غرار ما درجت عليه انكلترا منذ السنة ١٣٥٠ . وجاء الاصلاح الفرنسي في السنة ١٤٤٥ ، الذي شمل المناطق الجنوبية في السنة التالية ، يبقى في الخدمة ، في ايام الهدنة ، على عشرين فرقة من ١٠٠ حربة ، أي ٨٠٠ فارس محارب ، اذ ان الحربة وحدة ثابتة تضم ستة فرسان : فارس كامل السلاح ، نبالان ، حاملا خناجر وخادمان . الى هذه الفرق ، المعروفة بـ « بمرق النظام الكبر » ، تضاف ، عند الاقتضاء ، فرق النظام الصغير او الاجر المحدود ، التي كان باستطاعة الملك « كسرها » على هواه . اما الاجر فمنتظم ، وتقوله الضريبة الدائمة ؛ حصص من اللحم والخضار والعلف ؛ تعويض اضاءة ؛ مسكن يؤمنه الاهالي ؛ وهكذا فان الاصلاح قد نظم ، في خدمة الملك ، مهنة المحارب . اما ما حدث في السنة ١٤٤٨ من تعيين ٨٠٠٠ نبال معقنين من الضرائب قدمتهم القرى بنسبة « قوتها » بالرجال والثروة ، فلم يكن له من قيمة عسكرية بقدر ما كان له من مغزى : أعني به الدور الذي ترك للمشاة في المعارك . وقد سارت فرنسا ، في هذه التطورات ، على خطى الايطاليين الذين استخدم شارل السابع ثلاث فرق منهم في السنة ١٤٢٤ ، والسويسريين الذين استوحى لويس الحادي عشر نظامهم عندما شكل « زمرة » البيكاردي ، اسلاف فيالقنا المعاصرة .

منذ قرابة قرن ، داست ايطاليا جماعات من المحاربين الفرقة الايطالية *Condotta* المحترفين ، أعني بهم في الدرجة الاولى فرقاً من الطراز المألوف أشبه بالدول العسكرية الراحلة بقيادة بعض الاجانب كالآخ مورالي وهو شريف بروفنسي و « اخ

صغير ، سابق ، الذي غدا فارساً من فرسان رودوس ثم رئيس زمرة ثم قطع رأسه كالأشقياء في روما ، بعد « كولا دي رينزو » ، والدوق « ورنر دارسلنجن » ، « عدو الله والشفقة والرحمة » ، والانكليزي « جون هوكود » و « فرقة المقدسة » ؛ وبريطانيو « سيلفستربود » الذي افتخر بنهب « شيزينا » . ثم سئمت الدول من الاجانب ، فاتجهت بأبصارها الى الايطاليين : فكان ذلك عهد الفرقة الايطالية الذي دام حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر . فالفرقة التي يجند افرادها من منطقة معينة في شبه الجزيرة تتسم بطابع « قومي » ، صرف ، تدين بنشأتها الى شخصية رئيسها الذي يعطيها حتى اسمه ؛ ولما كان طامعاً بنبل المنشأ ، فانه يختار رجاله بين زبنة ويكافئهم كمأجورين لا كشركاء . ويحرص على انتاج دائم ، فيؤثر الاستغلال على التدمير ، ويبقي جماعته من ثم في وضع يتيح لهم القيام بالخدمة ويناقش نغدومه عقد الاتفاق الذي يحدد الواجبات المتبادلة ؛ فانما هو ملتزم يبحث عن افضل السبل نفعاً .

تتألف « الحربة » الايصادية من ثلاثة رجال فقط - ليس بينهم سوى محارب واحد - ولكن تشكيل الوحدات يخضع لنظام واضح : خمس حربات تؤلف مركزاً ، وعشر حربات علماً ، وخمس وعشرون وحدة تؤلف لواء ؛ عدد المشاة يقارب عدد الفرسان . وقد بلغ من تدريب هؤلاء واولئك ومن صفات ضباطهم وقادتهم ان شهرة المنتمين الى الفرقة الايطالية ، على الرغم من تلون ضربت به الامثال ، قد طبقت آفاق الغرب ، ابتداء من جيوفاني دلي اوبالديني (القرن الرابع عشر) حتي برتولوميو كولونيوني وفرنسكو سفورزا (القرن الخامس عشر) ، مروراً بـ « مالاتستا وكرمينيولا وبيتشينيوني » . فحين عن « لشارل الجسور » ، ولعله اعلم امير بين امرء قالوا بالشؤون العسكرية ، ان يعيد تنظيم قواه ، استشار الايطالي « كمبواسو » واستند الى النظم السائدة في ايطاليا وفرنسا ووضع مبادئ تنظيمه العظيم الذي يعود الى السنة ١٤٧٣ . ولكنه مع ذلك كان متأخراً : اذ ان السويسريين ، الذين أحيوا الكتيبة الجديدة باهتمام مربع يجمع ١٦ حربة في كل جهة من جهاته ، قد أنباءوا بذلك انهم سيمسون جنود المستقبل . ومها يكن من الامر ، فان الجندي لم تعد ارتجالاً ، واذا سلمنا بأن النسب قد يوفر الاعداد لها ، فانه لا يوفر لها الجدارة اللازمة : فهي مهنة ، ويجب ان تلقن كهنة .

الفن العسكري
اكتسب الفن العسكري ، بالمقابلة ، مميزات جديدة : ازدياد قوة النار ، وتعاطف دور فرق المشاة ، والميل الى تحقيق التعاون بين « الاسلحة » المختلفة ، وتنسيق حركات الجنود ابان الاعمال الحربية . فنذا ان توصل الغرب ، في القرن الثالث عشر ، الى تمحيص النطرون ومزجه ، بالنسب الملائمة له ، بالكبريت والفحم ، استطاع اسماع صوت البارود . فحققت الفلاندر ذلك منذ السنة ١٣١٤ ، ثم استعصى تدريجياً عن الفخاخ بالقطع النارية الخفيفة وبالمدافع القصيرة الضخمة ذات القمالية في مهاجمة المراكز المحصنة . اجل لم تسفر القنابل القليلة التي أطلقها مدافع الانكليز في كريسبي في السنة ١٣٤٦ الا عن اثاره دهشة الفرنسيين ، ولكن ميلانو ، في السنة ١٤٤٧ ، استسلمت لفرنسكو سفورزا بعد

قصنها بالمدافع ؛ وقد تم مصنع ترميم المدافع الذي أحدثه بسونو و « بور » و « جيريو » في احرار النصر الذي حققه الفرنسيون في « كستيون » (١٤٥٣) ؛ ونظم لويس الحادي عشر وشارل الجسور « زمر » مدفعيتهم ، وظهرت في السنة ١٤٦٧ ، في معركة « مولينا شيل » مدافع الجبال الخفيفة . الا ان كلفة السلاح الجديد الذي ارتبط انتاجه بتوسع استثمار المناجم ، وصعوبة تحريكه ونقله قبل اختراع مسنده في اواخر القرن الخامس عشر ، قد حالتا دون انتشاره . اصف الى ذلك ان رجال الحرب لم يؤمنوا على العموم بمستقبله ، شأنهم في ذلك شأن « جان دي بوي » ، ولا سيما ما كلفه الذي اعتبره مضرأ أكثر منه مفيدأ .

وأهل هؤلاء الرجال أنفسهم ، زمنأ طويلا ، دور فرق المشاة . الا ان ملك انكلترا ادوارد الاول قد برهن عن براعته اذ جعل قوة الرماية ومجالها ثلاثة اضعاف ما كانت عليه باحلاله محل القوس القديم والقوس الفولاذي ذي المقبض ، « القوس الطويل » ، « الغالي » البالغ مترين ارتفاعأ ، وباللجوء قبل سواه الى خطة ازالة الفرسان عن جباههم . كان الفرسان ، وفاقأ لهذه الخطة ، بآمن من الضربات أثناء قيام النباليين في بدء المعركة بعلمهم الذي يحطم قوة العدو الهجومية ؛ وبعد تحقيق هذه النتيجة يتطون صهوات جباههم لتفكيك وحدة جيش الاعداء . ولا تقسر هزائم الفرنسيين ، في كريسسي وفرونوي والمعارك الاخرى التي تخللتها ، بفارق الشجاعة او العدد ، بل بتفوق النباليين الانكليز من جهة ، ومن جهة الفرنسيين بسوء توزيع الجنود قبل المعركة وباعتماد ازالة الفرسان عن خيولهم دون هدف معين . اصف الى ذلك ان المشاة الانكليز ، في فرونوي ، قد تحركوا وهاجوا الفرنسيين جانبياً ، بينما ما زال « جان دي بوي » ومنافسوه يعارضون كل مناورة تصدر عن المشاة . ولكن التجديد لم يتجاوز هذا الحد ؛ فقد تأخر الانكليز في استخدام الفرسان لأعمال المشاة ، دون ان يتحلوا بمرونتهم على كل حال ، فذاقوا الامرين ، في فورميني ، من جرأ مناورات الكونت الشاب دي كليرمون .

اما سر هذا الفن العسكري الجديد فهو حذاقة القائد وسرعته ومهارته . فان العقليسة اللاتينية ، التي تحلت بالتعاليم الموروثة عن فيجيس ، قد جعلت من الجندي في الفرقة الايطالية رجل حرب كامل الصفات . وان تفسيرأ حرفياً لاحدى أهاجي مكيا في قد يحمل على الاعتقاد بأن التظاهر بغير الحقيقة والمفاجأة والكين والحيلة والمساومة ليست سوى « مداعبات » ؛ ولكن الواقع هو ان الضباط ، قد حافظوا على الجنود الذين يستثمرون خدماتهم ، وآثروا ارغأ العدو على المناورة والجماء الى وضع يائس على انهاكه وانهاك انفسهم في معارك متعاقبة تكلف ثمنأ باهظأ .

احتمل المشاة ، وفاقأ لهذا الفن ، وسط الجيش ، وأحاط بهم الحيلة عند الجناحين والفرسان في المؤخرة . ولكن الايطاليين لم يقاتلوا سوى الايطاليين ، دون اتصال بالخارج ، وبسلاح كان قد أكل الدهر عليه وشرب حوالي السنة ١٤٧٠ ، فأتاحوا للسويسريين فرصة الاستفادة من دور المشاة الهام . سلّح الطابور السويسري بحربة اطول من رمح الخيال وناور بحركة عسكرية

سريعة ابان احتدام المعركة . فزعم جان دي بوي ان ذلك خطأ ونسب اليه هزيمة السويسريين في « سان - جاك » في السنة ١٤٤٤ . ولكن غرانسون ومورا سيفندان مزاعم المخطط الحربي التقليدي . وهكذا فقد احتلت كافة مقومات الجيش المصري مكانها قبيل الحروب الايطالية .

الحرب البحرية
اذا صح ان الحرب البرية قد غدت مهنة ، اتجهت لأن تصبح تقنية قائمة بذاتها ، فان ذلك يصح بأولى حجة عن الحرب البحرية . ومرد ذلك الى

ان نوع حياة اهل البحر وذهنيتهم يجعلان منهم وسطاً اجتماعياً خاصاً ، والى ان الفن البحري ، وهو لا يزال اختبارياً جداً ، يقتضي دأباً طويلاً وجولات توجبها المهنة ؛ والى ان المعركة البحرية ربما تتطلب جرأة وسرعة لا تتطلبها المعركة البرية . ومرد ذلك بصورة خاصة الى ان الملوك ، الذين ما عادوا ليكتفوا بمصادرة مراكب التجارة والصيد في زمن الحرب ، أرادوا ان يقتنوا نواة اسطول حربي على الاقل تكون ملكاً خاصاً بهم . ففي وقت واحد ، وفي كافة المناطق البحرية ، تنظمت ، باسم « امارات البحر » ، قيادات بحرية تمتعت بسلطات قضائية ايضاً : امير قشتالة وامير اراغون وامير البرتغال ؛ وكان لكل من فرنسا وانكلترا اميران : امير بوثان في المتوسط وامير فرنسا في المانش ، للاولى ، وامير الشمال وامير الغرب للثانية ، ويفصل بين قيادتهما مصب التاميز . وكان لدوقية بريطانيا وكونتية الفلاندر ودوقية غويان امراؤها ايضاً .

لم يستطع ملك انكلترا سد حاجته بالبواخر التي قدمتها له « المرافئ الخمسة » تقليدياً ، فبنى منها بماله في « سوثبتون » ؛ وكان لملك فرنسا دار صناعة في روان ، هي « دار السفن » وقاعدتان رئيسيتان هما هارفلور ولاروشيل . اما معدل عدد البواخر ، وهو يختلف باختلاف العهود ، فرجا بلغ الخمسين قطعة في كلا البلدين ومعظمها من القوارب الشراعية المسطحة والقوارب الشراعية ذات المجاذيف . ودون ان يهمل الخصمان مساعدة حلفائهما البحرية ، أي الاسطول القشتالي والجنوبي للاول والاسطول البرتغالي والاراغوني للثاني ، فقد درجا على طلب مساعدة مراكب مأجورة ، ايطالية بنوع خاص . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحاجة ماسة ، في كل البلدان ، لمنح قباطنة السفن التجارية اجارة بالأسلح في رحلاتهم وبمهاجمة قطع الاعداء : وهذا شكل من أشكال مهنة الحرب يماثل ، في البحر ، ما كانت تعتمد فرق المرتزقة في البر . كانت القرصان عوناً على الاعداء ، ولكنه في زمن السلم يلحق الاذى بالحلفاء ايضاً ، شأنه شأن المحارب المحترف الذي كان يتحول ، بحسب الظروف ، من اجير امين الى قاطع طرق ومن قاطع طرق الى اجير امين . وفي كلا الحالتين كانت المكاسب عظيمة .

مكاسب الحرب
الاجر والغنيمة والفدى ، تلك هي مكاسب الحرب « الدسمة » ومرتزق المحترفين الذين يرغبون في ان تطول الحرب . فقد كان جواب « جون هوكود » لبعض الرهبان الذين تمنوا له السلام : « أتريدون ان يمينتي الله جوعاً ؟ فأنا اعيش من الحرب كما تعيشون انتم من الصدقات » . اما معاصره « ايريفو مارشيه » فقد عبر لفرواسار عن

سفه لانقطاعه باكراً عن « حمل الخير » أي « عن السلب والنهب » . : « آه كم كنا سعداء حين كنا نسير مطمئنين خيولنا ونجد في الأرياف كل ما نحتاجه أو على الطرقات ناجرأ ثرياً ... كنا اذن نفرض الفدية على هوانا . وكنا كل يوم نكسب مالاً جديداً » . وخلص الى القول : « كانت حياتنا شقة كيفما نظرنا اليها » .

« نظر الجنود الى اجورهم نظرم الى كسب تجاري » كما تحقق من ذلك « اينيا سيلفيو » . وسبب ذلك ان الحرب كانت صفقة تجارية يجريها مستثمرون يحملون اسم الادلاء او السلاخين او القراصنة ؛ واسم « *Compagnis* » (فرقة - شركة) مشترك بينهم وبين التجار . والشركاء (الرفاق) انما يعملون معاً ، متكافلين متضامنين في المربح والخسارة . اجل هنالك مناطق أوفر كسباً من غيرها ؛ ولكن ليس ما يعادل الطرق الكبرى التي يسلكها المسافرون ، وليس من دولة نظير فرنسا « ارضها عذبة ، يطيب العمل فيها ، وتلأها القرى الكبيرة والمناطق الجميلة والمروج الغناء والخور اللذيذة الضرورية لتغذية الجنود وانعاشهم » . ولذلك فان أفراد الفرقة الكبرى ما لبثوا ان نفروا من العيش في بورات اراغون .

تأسست جمعيات القراصنة « لتجميع الغنائم » الواحدة من الاخرى ، ونهجت عادات مماثلة لعادات التجار . وانت العرف ، الذي كرسه العقود واجتهادات محاكم وحدات الفرسان او امارات البحر ، قد نظم بدقة توزيع الفدية . ولم يختلف سوى في نقاط تفصيلية بين البندقية وجنوى ومرسيليا وبرشلونة والرافاء البريطانية والنورمندية والانكليزية ومياه بحر الشمال البعيدة . فبالاضافة الى الحصص التي يصيبها ربح نسي ، كان مجرد الاشتراك الفعلي في العمل يعطى حقاً في المكسب يختلف باختلاف مرتبة المشترك . وقد حدث ان طالب بالمكسب بحارة شاهدوا من بعيد عملية استيلاء على احدى السفن ؛ وحدث احياناً ان استصعب كل قرصان ما استولى عليه ، اما ما كان يحدث في الغالب فهو النعمة .

وغالباً ما كانت هذه المكاسب مرتفعة جداً . فليس من يجهل عمليات الجنويين والكانالونيين الراجحة في المتوسط ؛ ولم يكن المانش طيلة حرب المئة سنة ، وبحر الشمال ابان نزاعات المدن الهانسية ، اقل مورداً للارباح . اما في البر فان رجال « الامير الاسود » العائدين ، في السنة ١٣٥٥ ، من منطقة تولوز ، « وهي من أغنى مناطق العالم » ، ولا يزال سكانها يجهلون ما هي الحرب ، « قد نقلوا من الغنائم » ما جعل أحصنتهم لا تقوى على التقدم . وما كان « الدليل » « سيجين دي باديفول » لينتقل من مكان الى آخر الا مصطحباً عربته ذات العجلات الاربع كي ينقل عليها منامه . ودامت الحال معه على هذا المتوال حتى أوعز ملك نافار بسمه ووضع يده على ثروته . ولكن بشئ المصير مصير المدن التي لم تفد نفسها بالمال ، كليون او افينيون مثلاً ، تجنباً للسلب والنهب ، او لم تجند فرقاً تدافع عنها كما كونا ومتر ، او لم يعد اميرها مسبقاً ، كما أهل ذلك هنري دي تراسمار في السنة ١٣٦٥ ، محطات مرتزقة وقومهم ؛ اذ ان الذعر نفسه قد أوحاه الجنود النظاميون والادلاء على السواء . ودرجت العادة احياناً ، قبل الهجوم ، على

أجلاء من لا يقرون على المقاومة من نساء واطفال ، « محافظة على شرف الكياسة » : كما حدث لسكان روان او بونتواز حين نزحوا عن مدينتهم والتجأوا الى باريس في السنوات ١٤١٨ - ١٤١٩ . وكان الاستيلاء على مدينة ما يعني اباحة سلبها ونهبها سلباً ونهباً كامليين . فكانت الحرب من ثم غذاء للحرب .

كانت الفدى ما يمول عليه في المغامرات وما يسمى اليه الساعون وراء المكاسب : فقد خشي هنري الخامس ان يفسد انتصاره في ازנקور اذا ما اتاح لرجاله الوقت الكافي لجمع الاسرى ، فأصدر من ثم امره بتقتيلهم ولم يستثن من هذا التدبير سوى ارفعهم مكانة . وهنالك بعض الفدى المشهورة : فدية الملك جان ، وفدى دوغكلين ، وفدى الكونت دي دينيا ، وفدى شارل دورليان . وقد حددت اجتهادات كثيرة مصير أسرى البحر او البر : الاسير ملك أسرته ويجب ان يعاد اليه اذا ما فر وقبض عليه شخص ثالث ؛ وتحدد قيمة الفدية بالمناقشة بين الأسير و « سيده » ، وفاقاً للتسعير متعارف . واذا قضى شرف المالك ومصلحته باحسان معاملة أسيره وبفرض فدية عليه تتلاءم وامكاناته ، فان هذا الاخير يعتبر « مرذولاً وحائثاً اليمين » اذا لم يسع جهده للدفع ؛ وغالباً ما ينعم عليه بحرية مؤقتة كي يجمع القيمة اللازمة . وانما ما أكثر الذين لا ذوا بالفرار دون ان يدفعوا فديتهم ! الا ان الاسير كان مادة دين وقد أمكن بهذه الصفة الاتجار به : ملك جاك كور ، بالاشتراك مع دونوا ، اسيرين انكليزيين عاليي الشأن ، قدم احدهما لجان دي بوي الذي لم يجر عليه ذلك سوى نفقات معيشته . ولم تدر الفدى كلها ما درته فدية الملك جان التي لم يسدد الا نصفها فحسنت مع ذلك وضع الخزينة الانكليزية طيلة سنوات . اما فدية السيد « دي شاتوفيلين » ، التي حددت بـ ٢٠.٠٠٠ قطعة ذهبية ، فلم تدر على الدائنين سوى دعويين طال عهدهما وانتهت بمائلة الاسير الى الافلاس . وبلغ من افتقار أسير آخر انه عجز عن تسديد ديونه واضطر الى التخلي عن قصره لجاك كور . فكانت الحرب من ثم صفقة رابحة شريطة الحصول على مغامرات وافرة وعدم الوقوع في الاسر .

٢ - البلايا العامة الكبرى

ان الحرب ، وهي عمل الانسان ، قد زادت في قلق حياة هددتها باستمرار ضربات عيماء كالنبا طبيعة لم تقهر بعد . اجل لقد كان للمسافر الحامل اجازة مرور قانونية برقيق امل في تجنب التوقيف والفدية على شواطئ وطرق فرنسا أثناء الحرب ، وفي معاير « الجورا » و « الالب » ، وفي مياه المتوسط وبحر الشمال . وحدث كذلك عادة الثأر وتدابير الانتقام ، بعض الشيء ، من خطر القراصنة ، وخاوف الوقوع في العبودية في البلاد الاسلامية . ولكن عبثاً انيرت الرؤوس والمرافئ ، اذا ان غرق السفن لم يكن شيئاً نادراً : فان سفناً كثيرة كانت تفرق ، عند رأس « الراس » ، في كل شهر من أشهر الشتاء ، وكان سكان الشواطئ يستفيدون من حطامها . وكان لإخطاء الطريق ، في البحر كما في الجبال ، ايذاناً بقضاء محتوم .

اضف الى ذلك ان اخطار الماء والنار واطار المرضى والجوع كانت تحدق بالانسان في عقر داره . فان كتاب « يوميات بورجوازي باريبي » عاصر معاهدة طرورا واعمال جان دارك البطولية ليس سرداً لما اتشقق على تسميته بالاحداث التاريخية، بل ذكريات ابن مدينة اقضت منه المضجع تقلبات الطقس وحالته الصحية وهاجس التعمين . واثت الحرائق ، في مدن انكلترا وفرنسا والمانيا وفي كل مكان ، على احياء كاملة ، وساعدها على ذلك مواد بناء قابلة للحريق وتكسد المنازل فوق بعضها وهزال وسائل مكافحة النار . وعرفت تولوز نفسها ثلاثة حرائق في النصف الاول من القرن الخامس عشر مع ان القرميد كان آخذاً في الحلول فيها محل الخشب والسياع . ولكن الحرائق الكبرى اخذت تندر تدريجياً، حتى في مدينة خشبية كلها، كـ «روان» مثلاً ، بفضل انتشار الاغمية الاجرية والاردوازية : انسان في القرن الرابع عشر وثلاثة في القرن الخامس عشر مقابل ثلاثة عشر في القرن الثالث عشر . وكلت كل مدينة لبعض ابنائها (شيوخ البلد) امر مكافحة النار ، كما حرص في كل مكان على العناية بعيون الماء والاكثر منها . غير انهم قد اتقوا بصعوبة اضرار الماء ، اي اضرار المطر الذي يتلف المحاصيل ويفيض الانهار ويفغر بالمياه دورياً الاحياء المنخفضة في تولوز وبوردو وليون وباريس وروان ولندن غنت وانقرس ، وينتزع الجسور والطرق على طول السيول المتوسطة . ولم تكن مياه البحر اقل ضرراً ، فهي قد غمرت مناطق « الفنس » الانكليزية الحصبة في السنة ١٣١٤ - ١٣١٥ وخربت ، تسع مرات على الأقل بين السنة ١٤٠٤ والسنة ١٤٥١ ، سدود « الفريز » في «الفلاندر» ، فارجعت بذلك الشاطئ الى الورا وسببت من الحسائر الفادحة ما ارغم « جان سان بور » على ان يتولى بنفسه ، في السنة ١٤١٠ ، مراقبة اعمال الترميم . وقد غمرت آنذاك بعض القرى غمراً نهائياً .

ولكن شر الضربات ، بامتداد الجغرافي كما بنتائجها ، كان الاوبئة . فقد عجزت التدابير الصحية واعمال الوقاية وحتى الطب الذي نميل الى الاعتقاد بتقدمه ، لا سجا في زمن الحرب والاضطرابات الاقتصادية ، عن حصر اضرارها او عن تحرير الجماهير من هاجس « الفناء » . وقد اخفت هذه الكلمة الاخيرة امراضاً متنوعة جداً ، ولكن الطاعون الذي نقلته السفن الجنوبية من الشرق في السنة ١٣٤٧ قد اجمل كافة الاموال . لقد تكلمنا في السابق عن اتساع نتائجه التي شملت اوروبا جمعاء والتي نجمت عن انواعه الثلاثة : الجلدي والرئوي والمعوي . وعاش الباقون على قيد الحياة من الشبان والفتيان في قلق مقص دائم بسبب ارتعاضهم فرقا من ذكره ، وقد كتب احدهم : « اكتب وانا انتظر الموت بين الاموات » . ويعود ذلك الى ان الطاعون الاسود قد نم في الدرجة الاولى عن حالة صحية سيئة قد تزداد سوداً بين ساعة واخرى ، واظهر في الدرجة الثانية عجز وسائل الوقاية .

سبق لاوروبا ان عرفت قبله ، بالاضافة الى العدوى المحلية ، اوبئة اخرى شاملة كالزحار ، وضروباً اخرى من العدوى ، في بلدان الشمال ، بين اسوج واللوار ، حوالي السنة ١٣١٥ . وبعد الوباء الكبير الذي انتشر في السنة ١٣٤٨ ، شاهد الباقون على قيد الحياة تجدد البلية في السنوات

١٣٥٨ - ١٣٦٠، ١٣٧٣ - ١٣٧٥، وانتشارها انتشاراً واسعاً بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٠٠؛ ففي السنة ١٣٩٩، كانت عمليات الدفن دائماً في باريس، وحظر على المنددين اعلان اخبارها. وفي السنة ١٤١٤ والسنة ١٤٢٧ حجب السعال الديكي صوت الوعاظ اثناء القداديس. وفي السنة ١٤٣١ قتل الطاعون نفسه بالوف الضحايا من الشبان ثم عاد وانتشر انتشاراً شاملاً، مع الجدري، في السنة ١٤٣٨. وبعد مرور ثلاثين سنة، لم يبق من محل لقبر واحد، اثناء « فناء » آخر، في مقبرة الابرياء في باريس. وقد توصل بعضهم الى تقدير ضحايا الطاعون وحده، في انكلترا، بين السنة ١٣٤٩ والسنة ١٥١٧، بثلاث مجموع الوفيات. ولما كان الطاعون قد شمل اسبانيا وإيطاليا والمانيا والبلدان السكندنافية، فلا غرابة والحالة هذه اذا ما استمر الانخفاض في كثافة السكان حتى القرن السادس عشر.

بيد ان الحكومات والشعوب قد حاولت كافحة الامراض بوسائلها الهزيلة. كانت الاطباء قليلي العدد: ففي السنوات الاولى من القرن الرابع عشر، ما كان « المهلجون المرموقون » الثلاثون في باريس ليرضوا بالاهتمام بالجراحة، ولو امن لهم ذلك ثروة طائلة، لا سيما وانهم كانوا يتقاضون « مرتباً كبيراً » يتناسب « ومنصبهم الكبير »؛ وتحلى الجراحون - المحجّامون بدورهم عن عمليات صعبة كاستخراج الحصى وحز القروح « لحرازين » ليس ما يعادل جسارتهم سوى جهلهم. وعلى الرغم من التقدم الذي نجم عن اعتماد التشريع في الجامعات، فقد تدنى مستوى الطب بعمل المهنيين غير القانونيين. وقد لوحق منهم ثلاثة وعشرون دفعة واحدة امام المحاكم في باريس في السنة ١٣٣٢. وارتفعت الشكوى في القرن الخامس عشر من القوابل اللواتي مارسن مهنتهن دونها تفويض بذلك من القاضى.

على الرغم من علم امثال « غي دى شوليك » طبيب اكليمينضوس السادس، او « جنتيلي دا فولينيو »، او علماء كلية الطب الفرنسية، مرتدي القلائس المربعة، الذين استشارهم الملك، في السنة ١٣٤٨ والسنة ١٣٧٣، حول الطاعون، فان حياة السكان - حتى العظماء منهم الذين كانوا يموتون في سن مبكرة على العموم - لم تكن قط في ايد جدية بالثقة. اكتفى الطب بالتعليم القديم، الذي شوهه جدول متكلف، وبيع بعض الاختبار؛ ولم يجرؤ احد، الا في اسبانيا وإيطاليا، على الاستعانة صراحة بالتعليم اليهودي والعربي. وقد فسروا ظهور الطاعون، بتصادم الكواكب وسوء سمعة المريخ. اما المداواة المعتمدة فكانت اما مضرة، كتجنب كل تهوية، وأما غير ذات فمالية، كالمطهرات العطرية، وأما داخلية في التدابير الصحية العادية البسيطة، او الوقائية الخفيفة، او العلاجية العديدة التأثير.

غير ان التدابير الصحية العادية كانت افضل من الطب، والتدابير الصحية الخاصة افضل من التدابير الصحية العمومية: وكان لزاماً ان تكون الحياة منظمة جداً كي تقاوم الطاعون والاطباء. كانت الملابس، من صوف وفراء، جيدة وكافية، ولكن التدفئة ما زالت غير كافية لا سيما في الأرياف. والبيوت اعوزها النور؛ واستخدم الورق المطلي بالزيت بدلا من

الزجاج الذي ما زال مادة بذخية حتى في المدن . وما كانت المساكن الريفية لتلتقى نور الشمس الا بواسطة الباب في اغلب الاحيان ؛ واضطر الصناعيون اليدويون ، في المدن ، الى العمل على مقربة من الشوارع التي تفتقر هي نفسها الى النور بسبب تجهيزات الوقاية من المطر والحرارة فوق المداخل . وكانت الحمامات العامة مؤمنة نسبياً حتى في مدن من المرتبة الثانية ، ولكن المساكن الخشبية آوت الى جانب الادميين جرداً هي أخطر ما ينقل الطاعون ، وكثيراً من البراغيث التي يرشد « المقتصد الباريسي » الى طريقة لافئتها يعتبرها واجباً يومياً . وليس من ريب في ان التدابير الصحية العامة قد افادت من دروس الطاعون الكبير : فمذ السنة ١٣٥٠ حظّر تجول الخنازير في شوارع باريس ؛ وبعد مرور ست سنوات ، نظم فيها القاضي « هونغ اوبريو » اول بلاعة (مجرور) تحت الارض ؛ وانما توجب ، حتى القرن السادس عشر ، اصدار اوامر متكررة بارغام السكان على نقل اقذارهم الى المطامير العامة بدلا من الالقائها بها في الشارع او في نهر السين ؛ ومن المعجب المعجب ، كما قال احدهم بسذاجة في السنة ١٤٠٤ ، ان تشرب منه الاجسام البشرية دون ان تتعرض للموت او للامراض المستعصية .

اما الواقع فهو سوء التغذية ، قيل جوّ المدينة التي اتسعت لمروج وحقول فسيحة ، وقيل وخامة المساكن التي اثبتت بعض الحسبان كفاية الهواء فيها ، ما سهل انتقال العدوى الوبائية ، لان الارياض نفسها لم تنج منها . عادات غير صحية : فلا ملعقة فردية ولا صحيفة فردية . ونظام غذائي غير معتدل : كثير من المقددات والنشويات والمقويات والدهنيات والتوابل ؛ وقليل من المأكّل الطازجة المغذية . ونقص في الاغذية بنوع خاص ؛ اذ ان انتشار الاوبئة قد صادف ، في الزمن ، المحول والمجاعات .

ان ما نعرفه عن تاريخ المحول يفوق ما نعرفه عن وطأتها وامتدادها . فهي ، سواء كانت محلية او شاملة ، قد نجمت على العموم عن عدم اعتدال الفصول وغالباً ما اشتدت بفعل اضرار الحروب . فلنقتصر الكلام هنا على مجاعتي القرن الرابع عشر الكبيرتين : هطلت في السنتين ١٣١٤ و ١٣١٥ امطار طوفانية عاقت زرع الارض في فصل الخريف وحالت دون نمو الحبوب ونضجها ، بينما قضى فصل الصيف البارد على الامل بجمع الملح وقطف العنب . فحين نضجت كافة الموارد بين روسيا وجبال البيرنيه ، ارتفعت الاسعار وبلغت معدلات غير اعتيادية ، وانتشرت المجاعة مسببة اوبئة خطيرة . وبعد مرور ستين سنة ، جاء دور اوروبا الجنوبية : اصابه الكروم بالصر في السنتين ١٣٦٥ - ١٣٦٦ ، حصاد سيء في السنة ١٣٦٨ ؛ وفي السنوات ١٣٦٩ و ١٣٧٠ و ١٣٧١ ، جفاف وحصائد سيئة وموتان ؛ وفي السنة ١٣٧٤ ، قضى الجفاف ، و « الامطار والعواصف » من بعده على كل شيء : فظهر الطاعون مرة اخرى ، وزادت الظروف السياسية والعسكرية في خطورة الفاقة وارتفاع الاسعار ؛ في اللندرك صودرت المواد الغذائية لاجل الجيوش ؛ وفي ايطاليا اتخذت الادارة البابوية من تصدير الحبوب الى الدول الاخرى في شبه الجزيرة سلاحاً دبلوماسياً . وفي كل مكان استفاد المضاربون من هذا الوضع السيء ، امام عجز

السلطات العامة ، السيئة التنظيم ، المفسدة بالرشوة والمسؤولة ، فوق كل ذلك ، عن نظام جبائي جائر . أجل لم تحمل تدابير ممثلي غرينفوريوس الحادي عشر من الجراء : فهم قد حاولوا منع المضاربة وأوجبوا ، تحت طائلة الغرامة ، تقديم تصريح بالخزونات ، وإرادوا ، بعد احصاء الموارد والحاجات ، تنظيم توزيع اسباب العيش واخضاعها لتسيير محدد . ولكن صرامة طريقتهم قد اخفقت امام عدم ادراك مرؤوسيههم وتصلب الانانيات الاقليمية .

تفاقت في كل مكان روح الاثره المحلية ، وزاد في حدتها قلق مقض من نقصان المواد الغذائية . فازداد مثلاً التنافس التقليدي بين باريس وروان في تجارة الحبوب طيلة أيام المحول : خلال زمهريرالسنه ١٤٠٨ - ١٤٠٩ الذي جمده مياه الانهر في كافة أنحاء فرنسا الشبالية ، وقدرافقته الهامعة والطاعون ، او حين تجددت الحرب الانكليزية فزادت في هشاشة اسعار المواد الغذائية ، او اثناء البؤس الذي طال امره منذ السنه ١٤٣٧ حتى السنه ١٤٣٩ والذي يجدر قراءة وصفه في ما تركه بوجوازي باريس والمؤرخون البورغونيون .

تمرضت الحياة اذن لازمت دورية كبرى تخللتها ، في تعاقب مطرد ، فترات هدوء نسبي ومراحل صعوبات محلية . وكان الانسان تحت رحمة المحاربين والاطباء والمضاربين وبلايا الطبيعة . فاذا لم يكن خبزه مؤمناً ، هل كان باستطاعته شراؤه يا ترى ؟ بهذا السؤال ننتقل الى فقدان التوازن الاقتصادي .

٣ — فقدان التوازن الاقتصادي

انه لاسهل علينا ان نتكلم عن فترات ازدهار اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفترات انحطاطه وانخفاضه ، وتقلباته القصيرة الامد ، من ان نضع خطوط بيانية تبين اتجاهاته العامة .

ان انكلترا ، الغنية بوثائقها المالية ، تبسط امام اعيننا حركة صادرات اتجاهات الاقتصاد صوفها الخام واجواخها وحركة اموال خزائنها الملكية . وقد حاول بعضهم وضع بيان بالاسعار فيها ، كما حاولوا ذلك في هولندا وممالك راغون وقشتالة ونافار . فنحن نعرف حجم النبيذ الفسكوني المصدر في بوربدو والمستورد في انكلترا . وقدرت - تقديراً خاطئاً أحياناً - اهمية انتاج الجوخ في ايبير استناداً الى وزن الرصاص المستخدم لوسم الاجواخ . ويعرف العلماء اسعار الحبوب والاجواخ والعظم في تولوز والقمح في صقلية والجاودار في كونغسبرغ خلال القرن الخامس عشر ، ونصيب تجارة المدن الهانسية في انكلترا وحجم صيد الرنك والتجارة البحرية في « دياب » . ورفعت المصادر الجبائية النقيب ، بصورة غير مباشرة ، وفي فترات يتفاوت مداها ، عن نشاط مرسيليا وجنوى وبرشلونة ولوبك ولا سيما ممبروغ . واتاحت سجلات بعض الصيارفة البروجيين وتجار اللغفدوك ورجال الاعمال الايطاليين تبسيع

تقلبات فوائدهم بينما اخذت بعض حسابات السیادات العلمانية والكنسية ترفع النقاب ، في كل مكان تقريباً عن ترجیح قيمة موارد الاراضي . فاستخلصت من كافة هذه الارقام ، وكلها جزئي وناقص ، حقيقة المخطط بعيد المدى باستطاعتنا كشف اعراضه وتشخيص طبيعته . ان هذا المخطط الذي نهضت منه ايطاليا بسرعة وتسرب الى انكلترا ببطء وكان اطول بقاء وربما ابعد عمقاً في فرنسا التي خربتها الحرب ، قد ارتدى مظاهر اقليمية متنوعة جداً ، وتفاوتت ابصاراً بين شكل وآخر من اشكال النشاط الاقتصادي واصاب الاوساط الاجتماعية المختلفة اصابات مختلفة جداً ايضاً . اما النتيجة الرئيسية للامرات التي تجددت تكراراً فكانت ، كل مرة ، بعض الهبوط في الاتجاه الاقتصادي كما يثبت ذلك شمول اتفاق الخطوط البيانية المختلفة ومشابقتها في الرسم الاسنان المنشار واتجاهها العام نحو الانخفاض ، لا سيما في القرن الرابع عشر .

والحقيقة هي ان وحدة عوامل المخطاط وترايط المجتمعات الغربية ، قبل استئثار الاقاليم باقتصاداتها الخاصة ، قد فرضا تعميم الازمات دون ان يفقداها فوارقها المحلية . افلا يتوجب علينا والحالة هذه البحث عن السبب الاول لانقلاب الوضع في فقدان التوازن ، الذي لاحت بوادره منذ قبل نهاية القرن الثالث عشر ، بين السكان والانتاج الزراعي ؟ فواقع الارتفاع النسبي في كثافة السكان ظاهرة كان ايقاف اصلاح الاراضي ، وجود التقنية الزراعية المعاصرة عن تحسين الانتاج ، وخود حركة التعمير ، دلالتها ونتيجتها في آن واحد . واذا كان الطاعون الكبير قد ابعد ، بما فتك به من ضحايا ، شبح تكاثف السكان طيلة اربعة قرون كاملة ، فان التوافق بين العرض والطلب ، الذي كان من شأنه - ولعله حقق ذلك في بعض البلدان - ادخال تحسين مؤقت على الوضع الاقتصادي ، لم يلبث ان فقد ، لا بفعل حالة حرب شاملة ودائمة فحسب ، بل خصوصاً بفعل ما طرأ على الاوضاع النقدية من اضطرابات لم يعرف لها نظير من قبل .

لم يحفظ التاريخ من هذه « الانقلابات » سوى ما بلغ منها منتهى الشدة : اعني بها فترات انهيار بعض النقود - في فرنسا بين السنة ١٣٣٦ والسنة ١٣٤٣ ، وبين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٦٠ ، وبين السنة ١٤١٦ و ١٤٣٠ - التي كان لها صداها وراء الحدود في معظم الانظمة النقدية ، والتي عقبها اصلاحات جزئية افضت الى استقرار الاوضاع ، وقد حاول تفسيرها : بحاجات الحكومات العسكرية ، والسياسية التي كان هبوط النقد لها بمثابة افلاس جزئي بموت ؛ وبالتسهيلات المقدمة لتجارة التصدير التي يمكن ان تباع موادها الغذائية بسعر اوفق ؛ وبضرورة اجتذاب النقود الاجنبية ، الذهبية والفضية منها ، الى مصانع السك والحفاظ على مكاسب الاسياد . ويرد غموض المسألة الى تعقيد الانظمة النقدية التي قام فيها النقد ، المعترف به قانوناً في التعامل ، على قطعة افلس الصغيرة التي خففت باستمرار واستند الى قيمتها في تسعير النقد الفضي او الذهبي الخالص تقريباً ، الذي كان اداة الصفقات الحقيقية . اما اذا نظرنا من فوق الى التطور النقدي خلال القرنين الاخيرين من القرون الوسطى ، فاننا نرى في الواقع اتجاهها

مشتركاً الى تخفيف وزن القطع النقدية تخفيفاً تدريجياً يختلف باختلاف البلدان : فان القطعة الكبرى في الفلاندر مثلاً قد فقدت ، بين السنة ١٣٣٠ والسنة ١٣٨٠ ، ٨٠٪ من قيمتها الاصلية ؛ وفقدت القطعة الفرنسية المعروفة « بتورنوا » ، خلال قرنين لا تدخل فيها عهود الفوضى النقدية ، ٧٥٪ من هذه القيمة ، بينما لم تفقد الستريالية الانكليزية سوى ٤٧٪ فقط . ولكن المعدل السنوي لهذا الفقدان ، وهو ضئيل في الواقع ، لم يخفف « المجاعة النقدية » التي كان هذا النقد « الذائب » خير دليل على حقيقتها

حاول بعضهم وجود صلة بين هذا النقص في المخزون النقدي والتبدلات التي طرأت ، في منتصف القرن الرابع عشر ، على العلاقات بين الشرق والغرب : اذ يبدو ، حتى السنة ١٣٤٠ تقريباً ، ان الفضة قد صدرت من الغرب لدفع رصيد تجارته مع الامبراطورية المغولية ؛ وان الذهب الشرقي قد تدفق ، عن طريق بيزنطية بنوع خاص ، - حيث لم يبق ، مع ذلك ، في التداول ، سوى قطعة « الهيربير » الذهبية الخفيفة العيار جداً - على الغرب ، الذي استطاع آنذاك الاكثار من سك النقود الذهبية . ثم ما لبثت قيمة الفضة ان ارتفعت ، لان النفقات العسكرية قد زادت في طلبها لدفع مرتبات الجنود ولان افعال طرق آسيا الصغرى قد حولت تجار الغرب نحو مصر حيث احتلت الفضة مركزاً يفضل مركز الذهب . الا ان هذه الوقائع لا تفسر في الحقيقة سوى فقدان النسبة بين المعدنين والفوارق العظيمة احياناً التي قامت بين سعرهما القانوني وسعرهما التجاري ؛ فهي لا تعطي سوى فكرة غامضة عن الاسباب العميقة « لمجاعة نقدية » كانت حافزاً لبحث مطرد النشاط عن مناجم الفضة في الغرب . وليس مرد هذا البحث الى تزايد حجم الصفقات ، بل هو دليل شبح الاسواق الذي ولد الثروات ويفضي الى تقويم المال . وهذا هو سبب الواجب المتناقض الذي واجهته الحكومات وفشى بالمحافظة على استقرار النقد الذي هو شرط لا بد منه لسلامة الصفقات ، كما يقول نقولا اورسم . وبتخفيض قيمته الذاتية دورياً لمكافحة جمع الثروات والتخفيف من وطأة استقرار يؤول الى ازالة تضخم النقد الورقي .

يحدد مستوى يسار البشر او يؤسهم بقياس العلاقة بين اعبائهم النقود والاسعار والاجور ومواردهم ، ويعبر عنه بالاسعار . ولكن الاستفادة من هذه الاسعار على الرغم من ضخامة المعطيات الحسابية والتنويعات المتفرقة ، لاتزال في نقطة انطلاقها لذلك فان تفسيرها سينطوي على صعوبات كبرى ؛ فآثرنا من ثم التعبير عنها ، على ما بينها من فروق ، بالنقود الرائجة التي كان لها معناها في نظر المعاصرين على تحويلها ، كما درجت العادة في السابق ، الى غرامات ذهبية : فالذهب والفضة كانا كلاهما سلماً موضوع مضاربة تجارية ، وهما بشكلان بهذه الصفة عيارين قابلين للتبدل .

ان بين الوقائع التي تبدو وكأنها تهيمن على اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر استمرار

هبوط الاسعار الزراعية ، ولا سيما اسعار الحبوب . وهو اتجاه عام يبرز حتى في اسواق البلطيك التوتونية ، وحتى في شبه الجزيرة الايبيرية وان حدث ذلك في عهد متأخر : ففي نافار تضاعفت الاسعار بين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٩٠ ، وربما حدث الشيء نفسه في اراغون ايضاً ؛ وبدأ الهبوط في مملكة فالنس في اوائل القرن الخامس عشر ، وانتقل الى اراغون ثم الى نافار ، الى ان شمل كافة المناطق في السنة ١٤٤٥ . وفي انكلترا طرأ على الاسعار ارتفاع واحد استمر في الصعود منذ السنة ١٣٥٥ حتى السنة ١٣٧٥ ؛ الا ان الحيز قد سقط منذ السنة ١٣٧٧ الى ادنى سعر عرفه منذ ثلاثين سنة . ونجد الارتفاع الذي عقب الطاعون الكبير ، في كافة المحام الامبراطورية ، كما نجده ، في اثناء مجاعة السنتين ١٣٧٤ و ١٣٧٥ ، في الدول المتوسطة . اما في هولندا ، التي تستهلك كثيراً من الحيز ، فقد ارتفع سعر القمح منذ السنة ١٣٤٠ وبلغ القمة في السنة ١٣٨٠ ثم انخفض بعد ذلك ولم يعد الى الارتفاع الا خلال عشرين سنة فقط (١٤٢٠ - ١٤٤٠) . وقد اهتمت في هذه الاسعار التغيرات الموسمية ، وهي ابعد التغيرات اثرأ في المعاصرين ، لان اقل تبدل في الحصائد واقل تقلب في حجم الطلب يفقدان الاسعار توازنها ، ويخففات كذلك من وطأة الاضطرابات النقدية المفاجئة ؛ وقد امكن ، في بوردو وتولوز ، وجود صلة بين ارتفاع وهبوط اسعار الحبوب ، المتعاقبين تماقياً مطرداً ، وبين حوادث التقلبات النقدية ؛ وكذلك فان « اشتعال الاسعار » في اعقاب انهيار النقود ، في باريس كما في روان ، قد جعل من السنة ١٤٢٠ - ١٤٢١ اقسى سنة مرت على فرنسا ولورمنديا .

اما ما نعرفه عن الاسعار الزراعية الاخرى - نبيذ ، منتجات تربية المواشي ، صوف ، نباتات صباغية - والاسعار الصناعية - مواد البناء والملابس مثلاً - لمصنوعات تؤلف الاجور في اكلاف تحضيرها حجماً لا يقبل الانقاص ، فيتم عن مزيد من الاستقرار : الاسعار تستقيم هنا او تميل احياناً الى الارتفاع . الا ان هذا الارتفاع ، والحق يقال ، لم يثبت بالدليل الا في انكلترا وهولندا : فان تصاعد الاسعار ، في صناعة النسيج الفلمنكية ، قد عدل جزئياً ، في القرن الرابع عشر ، بتخفيض اسعار الجملة تخفيضاً منظماً ، ولكن الوضع تغير في القرن الخامس عشر ، حين اعتمد دوقية اسرة فالوا و « فيليب لو بون » بنوع خاص سياسة استقرار تحول دون تضخم النقد الورقي ، لا سيما منذ اصلاح السنة ١٤٣٣ ، فنقلت آنذاك وطأة الاسعار على الاقتصاد ، بينما تناول الارتفاع المنسوجات الاسكلزية بدورها حوالي السنة ١٤٤٠ .

لقد تفاوتت تأثر المنتج بهذا « الاختلاف » في الاسعار (هبوط في الحبوب ، وارتفاع في المنتجات الاخرى) . فكانت النتيجة في الارياض المحصاراً في امكانات الكسب لا مخرج منه الا بالكثارة من زراعة الحنطة لعرض مزيد من الحبوب ، باسعار متدنية ، في الاسواق - ولكن ذلك يزيد في الهبوط - او بالاقلاع عن زراعة الحبوب وبممارسة نشاطات اوفر كسباً : كزراعة الكرمة وتربية المواشي . اما في المدن فلم يكن من تناسب بين ارتفاع

اسعار المنتوجات الصناعية وبين انحصار الطلب وتحملة الاسواق ، ولا يجد التجار من يشتري البضائع الا باسعار متدنية يتحملون وحدهم نتائجها .

وكان اثر هذا الوضع في المداخليل اشد منه في الاجور . وسبب ذلك ان سوق العمل قد افاد ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، من نقص كبير في اليد العاملة ندرك مداه بعيد الطاعون الكبير . فكما ان الأرض التي هبطت قيمتها تدريجياً لم تجد سواعد كافية تنهض بما تستلزمه من اعمال ، كذلك احتاجت المصانع الى صناعيين . ومنذ السنة ١٣٤٩ تقاضى احد فلاحين « تدنفتون » احد عشر فلساً بَدَلَ عمل دفع له اجره ستة فلوس في السنة ١٣٣٦ . وفي السنة ١٣٤٩ ايضاً ، و « نظراً لفلاء المعيشة وسوء حال اليد العاملة » ، استفاد عمال صناعة الاجواخ في « سانتومير » من ثلاث زيادات متوالية على الاجور : فقد مكنتهم الحاجة الى اليد العاملة من التصلب في تطلّهم . فاقرت السلطات العامة في كل مكان ، للحدّ من ارتفاع الاجور تدابير آتية لفتت الانظار كما لفتها هول انتشار البواب من قبل . وصدر في انكلترا ، منذ السنة ١٣٤٩ ، قانون تكامل بعد مرور سنتين « بنظام الفلاحين » ، يحظر ، تحت طائلة العقوبات ، على ارباب العمل ، منح اجور تفوق اجور السنة ١٣٤٨ ، وعلى العمال طلب مثل هذا المنح . واصدر ملك فرنسا قانوناً مماثلاً في السنة ١٣٥١ وحددت جمعيات اراغون التمهيلية في السنة ١٣٥٠ ، وجمعيات قشتالة في السنة ١٣٥١ ، الحد الاعلى للاسعار ، واسندت امر تطبيقها الى البلديات . وكان قد سبق لبلدية برشلونة ان حدثت من المطالبات الرامية الى الحصول على اجور توازي اربعة او خمسة اضعاف الاجور القديمة . كما سبق لفلورنسا ان قررت نقل العمال من مصنع الى آخر لسدّ الثلمات ، التي اوجدها ارتفاع نسبة الوفيات ، سداً متساوياً . وعمدت بلديات اخرى ، كبلدية تولوز او ماز مثلاً ، الى تسعير الاجور او تنظيم الاستخدام وشروط العمل .

الا ان هذا التدخل الشامل من قبل الدولة ، حتى في بلدان كانكلترا أحدثت فيها اجهزة قسرية ، لم يحقق استقرار الاجور ولا الحد من ارتفاعها . اجل ، ربما لم يطرأ في النهاية تطور يذكر على الاجور في فلورنسا والفلاندر - وكانت هذه الاخيرة اقل اصابة بالبواب - وربما بقي وضع عمال حيّ « سان جرمان » في باريس شبيهاً به في العهد السابق ؛ وهو استقرار شبه شامل في فرنسا . ولعله يرد الى تداع ابعده عمقاً في الاقتصاد ، بفعل هبوط الانتاج قبل انخفاض كثافة السكان ، وبفعل استمرار توافر العمل في المصانع . ولكن الاجور قد ارتفعت في كافة البلدان الاخرى : ففي اراغون ونافار اطردها ارتفاع طيلة القرن الخامس عشر ؛ وفي انكلترا ارتفعت قيمة الاجور الشرائية ، في اواخر القرن الخامس عشر ، الى اكثر من ضعفها في منتصف القرن الرابع عشر .

يجب هنا الانحاول معرفة اهمية الارباح والاجور وقيمتها الشرائية ، اللتين هما الشرطان الحقيقيان للحياة : فنحن لا نعلم قيمة الارباح الاسمية وصلتها بالاسعار ، ولا حاجات البشر

الحقيقية التي تتغير بتغير العادات والاذواق . لماذا تمثل نقداً تلك العادات التي غالباً ما اعطيت عيناً ، كالأحذية والملابس والغذاء ، وحتى المسكن أحياناً ؟ اضيف الى ذلك ان الاجور قد اختلفت بين مهنة واخرى ، ومدينة واخرى ، وفصل وآخر ، وان الصفات المهنية لم تكن اقل تنوعاً ايضاً . فلا ريب مثلاً ، بصورة عامة قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وحتى في السنة ١٣٨٠ ، في غنت وفلورنسة ، في واقع وجود طبقة كادحة عملت في مصانع النسيج وتقاضت اجوراً متدنية غير كافية . وفي حالات اخرى كثيرة ، استطاع الصناعي ، العامل في خدمة رب مهنة صغيرة ، ان يؤمن معيشة متوسطة ، كما ان الفلاح ، للذي كان يوصي بملكاته لاحد ابناؤه او لتأمين معيشة ارملته ، لم يكن بالضرورة بائساً . وتبدل الفوارق الاجتماعية اوضح تحديداً من المستويات المعيشية : فان الأجر اليومي لعامل ليوني^٢ ، في اوائل القرن الخامس عشر ، وهو يقدر بفلس « تورنوا » ، كان يساوي ، اذا ما اخذنا ايام العطلة بعين الاعتبار ، ٢٥ فلساً في الشهر و ١٥ ليرة في السنة ؛ وكان ثمن ليرة الخبز درهماً ونصف الدرهم ؛ وتراوح دخل الحريف والبناء والمستقرف بين ٢٥ و ٦٠ ليرة في السنة ، كما تراوح دخل التاجر وصانع الفراء وصانع الجوخ والنجار بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فلس . فيتضح ، مع حفظ النسبة ، ان الارباح لم تكن مرتفعة قط ، وفي ذلك دليل على عصر الايام : ففي اوائل القرن الرابع عشر ، لم تتوصل اوسع الشركات الايطالية ثروة ، الا بفضل ادارة دقيقة جداً ، الى تحقيق ارباح تتراوح بين ٧ و ١٥ ٪ ، بينما حققت في السابق ارباحاً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ ٪ . الا ان المشاريع التجارية والمضاربات الزراعية وتأجير العقارات المستأجرة ، بعد تجزئتها ، ربما درت مزيداً من الارباح . ففي تولوز ، قاربت نسبة الارباح ٢٥ ٪ في القرن الخامس عشر واستقر الدخل العقاري حوالي ١٠ ٪ ، وبلغت ارباح التجارة البحرية ، في روان ومرسيليا ، حتى ٣٠ ٪ أحياناً . ولكن هشاشة المشاريع جعلت ارباحها غير اكيدة .

بيد ان الضرر قد ادرك دخول الاخذات وشتى الدخول العقارية بصورة خاصة بسبب استحالة التوفيق بينها وبين مختلف ظروف الاضطراب الاقتصادي . فبات من ثم لازماً علينا ، في الدرجة الاولى ، ان نحاول تقدير نتائج المخطاط طويل الامد على الارض ومالكها .

ان الطاعون الكبير ، ببلبته اليد العاملة ، قد استعجل انهيار الاراضي
مصير الاراضي التقليدي . فالتطور كان قديماً وشاملاً على الرغم من بعض الفوارق الزمنية . وليس سوى الامبراطورية ، في مناطقها الشرقية - الاراضي المستعمرة وراء الإلب - ما عرف تجدد الاملاك الواسعة . اما في البلدان الاخرى فقد استرخت روابط التبعية الشخصية نهائياً وتفككت عرى التجمع القديم حول هذه الاملاك ، بينما كانت الاراضي آخذة في الانتقال من مالك الى آخر . وفي انكلترا ومنطقة تولوز ومنطقة بوردو ونورمنديا وبورغونيا والمانيا الغربية استطاع الفلاح ان يستفيد من صعوبات مالكي الاراضي . فقد تضافرت نفقات الحروب الدائمة ، والفدى الواجبة الدفع ، وتخفيضات اسعار النقد التي اذابت الدخول الثابتة كما يذوب الثلج

بفعل حرارة الشمس ، وواجب المحافظة على مستوى الميعة ، وانتهت بإسياد كثيرين الى ضيق شديد ائبه بحالة الياس . كما ان الاستمرار في قسمة الارث انصبه متساوية ، والافراط في توزيع الاراضي بموجب الوصيات ، قد اسها كذلك في انقاص مساحات هذه الاراضي انقاصاً عظيماً . وهناك ما هو شر من ذلك : فمنذ الربع الاول من القرن الرابع عشر ، انقص هبوط الاسعار الزراعية دخول الاراضي السيدية الاحتياطية . ثم جاءت أزمة اليد العاملة ، فوق كل ذلك ، تسبب ارتفاعاً في الاجور ، وبالتالي زيادة في اكلاف الاستثمار .

بيد ان فقدان التوازن بين حجم الانتاج ومستوى الاسعار ، وبين ندرة اليد العاملة وانقاص الطلب ، لم يكن سوى وجه واحد من تعقير ابعاد عمقا واطول مدى . فلما كانت استقرار الحبوب قد عادت الى الهبوط منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، ولما كانت اكلاف الاستثمار - ولا سيما الاجور - قد حافظت على ارتفاعها ، استمر نظام الاراضي الواسعة في التداعي والتخلخل واستحال إيقاف التطور القديم نحو استثمار الارض استثماراً فردياً .

زد على ذلك ان السيد ، الذي اعوزه المال ، قد ارغم على التنازلات كي يبقي في الارض اليد العاملة النادرة ، حرّة كانت ام عبدية . فاسهم اعتناق البعض وتخفيف اعباء البعض الآخر ، اللذان تما كلاهما عن طريق المساومات والمزايدات ، في حل اواصر تعلق الفلاحين بإسيادهم . كما ان الفدادين الذين لم يعتنهم القرن الثالث عشر قد حصلوا على الحرية بالقراضي او بالفدية او بالتهديد بالفرار . وكان الاعتناق فردياً او جماعياً ، وافادت منه العيلة او القرية احياناً ؛ كما كان كاملاً او محدوداً ، مشروطاً بانتفاء ضريبة الاقتطاع ومنع انتقال ارث المعتقد : ففي فرنسا مثلاً عرفت مقاطعات شبنانيا وايل دي فرانس وبري وغيرها ، وكلها سناطق فدادية شخصية او عينية ، شتى ضرورت الاعتناق . واعيد النظر كذلك في الاعباء ، عبدية كانت ام حرّة ، عينا ام خدمات : فعددت هنا ، وخفضت في غير مكان الى ما دون قيمتها السابقة ؛ وامكن التخلص منها احياناً بدفع اقساط دورية ، كما امكن ابدالها ، عندما تكون تسخيراً ، بمبلغ معين ثابت سرعان ما تخف قيمته في هيمان الجاني السيدي . فمنذ عهد الطاعون ابدل حوالي ٥٠ ٪ من التسخيرات بمبالغ نقدية في ٨١ اقطاع موزعة على ٢١ كونتية ؛ وبعد مرور ثلاثين سنة تجاوزت النسبة ٦٠ ٪ .

وغدت المشاركات الزراعية في الاراضي التابعة للاقطاعات اعظم مرونة ، فبرز الميل الى ابدال عقود المزارعة بعقود التزام تترك للمستثمر ، بفضل استثمارات متوسطة الاجل ، الاستفادة من فائض الحصاد . وهكذا فان نسبة حصة كهنة سان - سورين في بوردو ، قد هبطت من ٦٩ ٪ الى ٥٣ ٪ في الثلثين الاولين من القرن الخامس عشر ، بينما حلت المشاركات القاضية بدفع ضريبة خفيفة ، في اراضي زراعة الحبوب في الفوريز ، محل المشاركات القاضية بتقديم النصبه من الامتار . وقد اشتهر في انكلترا مثل اسياد بركلي الذين حوّلوا استثمارات اراضيهم التقليدية الى

استثمارات حرّة ؛ وبصورة عامة ارتفع ، في الاراضي التابعة للاقطاع ، عدد المستثمرين « الاختياريين » والمتعاقدين ارتفاعاً عظيماً طيلة القرن .

إذا لم تسمح كل هذه التضحيات باستثمار كافة الاراضي التابعة للاقطاع فالاستثمار المباشر ، باولى حجة ، قد اثبت يوماً بعد يوم انه اقل دخلاً ، اذ ان العمل المأجور ، وهو المنجح من التسخير الذي ولى عهده ، قد اثبت انه باهظ النفقات . وفي المناخات المؤاتية لقريبة المواشي ، كمناخ انكلترا مثلاً ، حول السيد قسماً من اراضيه الصالحة للزراعة الى مروج ، رغبة منه في ان لا تنتهي الى البوار . وغالباً ما اجر قطعاً هامة بشروط توافق المستأجر : انتفاء الالتزامات المالية ، كراء خفيف ، مدة تعاقد كافية لحمل المستأجر على تحسين المقار . وفي منطقة تولوز تخلى اصحاب الاقطاعات للمستثمرين عن بعض الاراضي البائرة لمدة طويلة نسبياً دون ان يفرضوا عليهم اية اتاوة . وفي نورمنديا سلم الاسياد الاراضي باجور منخفضة ولكنهم اشترطوا على المستأجرين اصلاح الارض بالسجيل وزرعها بشجر التفاح واحياء قطعان المواشي . اجل ان هذه الجهود اشبه ما تكون بعمل (بنلوب) في تلك الارياف المعرضة لحراب دائم . ولكنها تضحيات تم عن بصيرة المرتضين بها ، نشاهدها في المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، حافظت على ثروة السيد العقارية كاملة سالمة .

الا ان هذه الثروة تعرضت لمزيد من الخطر حين فضبت موارد الاسياد فاضطروا الى بيع الحقوق والاراضي : اما عن طريق الاستقراض المتفاوت موارد ، تخلصاً من العقوبات الكنسية المفروضة على المراهبة ، والمكفول برهن الاتاوات او الدخول او الاراضي ؛ واما عن طريق البيع « الوفاي » الذي اعتبر موافقاً جداً بفضل ما ينطوي عليه من امكانات تاجيل وتسويق ؛ واما عن طريق تعيين الدخول العقارية بنوع خاص . وقد كُفّلت هذه الاخيرة برهن الضريبة المفروضة على المزارعين او الحصص الزراعية او الاقطاع بكاملها ، او مجموع ثروة البائع احياناً . وقضت بالتخلي مؤقتاً عن حق او ملك يحل بموجبها محل « السيد الطبيعي » « سيد » او عدة « اسياد » لم يعرفهم الفلاح من ذي قبل . وغالباً ما حدث ، بعد تراكم الدخول المتوجبة على الارض ، ان بيعت الارض بيعاً نهائياً . وما اسعد السيد الذي لم يرهن احتياطي املاكه ولم يضطر ، في النهاية ، الى بيع اقطاعه الى مالك جديد ا زد على ذلك ان الارث الوالدي نفسه ، وهو مجزأ في جوهره وموزع على اصحاب حقوق معينين ، قد ابتلع بدوره احياناً .

كان المستفيدون من عملية قطع الاسياد صلاتهم المباشرة بالارض والفلاحين وتحولهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية المستثمرين الفلاحين من جهة ، ومن جهة ثانية اولئك الذين توفر لديهم المال فوجدوا في محاصيل الارض فرصة لتوظيفه : اعني بهم البورجوازيين . وان التطور الذي ثقلت وطأته على الاشراف الفرنسيين بنوع خاص ، لم يرق كذلك بالاشراف الالمان والايطاليين ولا سيما بالاكليروس . وقد شاهد هذا الاخير ، لا سيما في ايطاليا ، ذوبان املاكه الشاسعة بين ايدي موقعي العقود الزراعية المعروفة بـ « المزعومة » ، المؤقتة مبدئياً والدائمة

في الواقع . اما الارستوقراطية الانكليزية، التي تعودت استثمار اراضيها استثماراً سليماً، فقد تمكنت من الوقوف في وجه التطور ، لا سيما في املاكها الرهبانية التي غالباً ما ضرب المثل بمحسن ادارتها ، وفي اقطاعات عائلاتها الكبرى . بيد ان آل بركلي اضطروا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، الى التحول بدورهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية ؛ وتلاحظ مبطة الاقطاعة كذلك في الشمال كما في الجنوب وفي بلاد الويلز ، في املاك آل « برسي » و « مورمر » و « كلار » و « بوهن » .

ان عزو هذه المبطة العامة في الحياة الزراعية الى عجز اقتصاد القرون الوسطى عن زيادة وسائل الانتاج بتحسين التقنية ، انما هو تفسير عصري لوقائع ما كان المعاصرون ليعوها في الارجح . فهل يسعنا ، قبل الجزم ببؤس مالكي الاراضي نهائياً ، التأكد من ان الحشائر التي منوها لم يموت عنها بموارد اخرى غير زراعية ، « كالارباغ الوافرة » في الحروب ، وجعالات الـ « الاتباع » الانكليز ، والوظائف الجزيلة الكسب التي اسندت للامراء ورجال الكنيسة ؟ والواقع هو ان عائلات كثيرة من طبقة الاشراف القديمة قد استطاعت الابقاء او الحصول على وضع اقتصادي دونه وضع جدودها قبل حرب المئة سنة .

بيد ان كل ذلك لم يمنع طبقة متوسطة من الفلاحين الميسورين من الاستفادة من انهيار نظام الاملاك الواسعة ؛ فقد حصل بعض « حديشي النعمة » من اصحاب الاملاك على حقوق وحتى على اراضي الاسياد . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ، توصل ثلاثة مستثمرين في « ويدون بك » الى جمع معظم الاراضي الشاغرة في ايديهم ، بينما هبطت نسبة صغار المستثمرين الى ٥٠ ٪ . وهذا ما حدث لمستثمري اراضي الكنيسة في نورمنديا ولفلاحي المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، الذين وصلوا ، خلال القرن الخامس عشر ، الى الارتفاع فوق مستوى امثالهم ؛ كما حدث ذلك لفللاحي منطقة « جوزا » الى الجنوب من باريس ، حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، ولـ ٤٠٠ رب عائلة ميسورين سجل التاريخ اسماءهم في منطقة بوردو بعد السنة ١٤١٤ ، ولآل « برتوت » الذين كونوا لانفسهم ثروة عقارية طائلة في نورمنديا بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٦٠ .

وآثر البورجوازيون توظيف ارباح تجارتهم في الممتلكات والعائدات العقارية : اذ ان الاراضي، التي هي اضمن من الاعمال لتوظيف الاموال ، دليل تقدم في السلم الاجتماعي . ويحتل آل « البرتي دل جيوديشي » مركز الصدارة بين عائلات التجار الايطاليين الاثرياء التي جمعت ثروات عقارية طائلة في منتصف القرن الرابع عشر : فحول « بيت السيد » ، الذي تجدد فيه الميل الى « السكينة » الريفية ، امتدت الحقول المستثمرة التي سترسل محاصيلها ، بعد اقتطاع مؤونة السيد منها ، الى الاسواق التجارية . وسار على هذه الخطة نفسها ، حول المدن ، بورجوازيو اوغزبورغ واولم ونورمبرغ في المانيا الجنوبية وبورجوازيو بورغوس وبرشلونة في اسبانيا . وسيطر « مدينو » متر على الارياف المجاورة . وفي القرن الرابع عشر كان لتجار « بوردو » كرومهم الخاصة في « ميدوك » ، كما ان مجهزي السفن في روان استعاضوا عن

مخاطر البحر بمحاصيل 'رض . ويجدر التنويه هنا بالاقطاعات الكبرى التي حصل عليها « جاك كور » من الاشراف المفتقرين في مناطق بوربونيه وبري وفوريز ، بينما ارتفع حدة « كليمان باستون » ، الذي لم يملك وراء المانش سوى مطحنة وبعض الاراضي ، الى المصف الاول بين تجار الصوف .

وظف البورجوازي أمواله في أراضيهِ واعتمد في استثمارها على مهارته في الكسب ، فأدخل الى ايطاليا و « مسين » ومنطقة تولوز عادات الاقراض والدين . أقرض الكرام ، واشترى المحاصيل قبل جمعها ، وأسس الشركات مع مربي المواشي وضارب في جمع الاعشار وبرهن عن خبرته في معرفة الاراضي الخصبة التي تدر خمسة اضعاف البذار . وفي هولندا ، وفر له انطلاق صناعة النسيج ، عن طريق زراعة الكتان ، تعويضاً عن الصعوبات الزراعية . وذهب تاجر الصوف الانكليزي ، من مرعى ، الى مرعى يختار الجزز ويبتاعها . وتنتقل تاجر الحبوب او التبنيد في باريس او روان ، بين الحقول والكروم ، وزار اهراء الحبوب وسقائف الخمر واشترى المحاصيل التي تغذي تجارته ، قبل جمعها احياناً . فلم تكن الارض في نظره فرصة توظيف مثمر يرفعه الى مرتبة الاسياد فحسب ، بل وفرت له المواد الخام و سلع التجارة .

فهل باستطاعتنا ، انطلاقاً من هذا الاتصال بين المدن والارياف ، الاستنتاج صناعة النسيج ان هبة موازية في الصناعة والمقايضات قد رافقت بالضرورة الهبة الزراعية الطويلة الامد ؟ ام ، على نقيض ذلك ، ان ارباح السلع التجارية - وهي قطاع اقتصادي اقل جهوداً - قد عوضت عن نقص ارباح الارض ؟ يبدو جلياً ان المخطاط الاقتصادي كان شاملاً حيث كانت الازمة الزراعية ابعد عمقاً ؛ ففي انكلترا مثلاً لم تعوض طاقة السوق الداخلية على الاستهلاك وتصدير الاجواخ المتزايدة عن النقص في تصدير الصوف ؛ وقابل تقدم صناعة الاجواخ تأخر في تربية المواشي . ولكن اذا كانت بعض اسواق الانتاج والاستهلاك قد تأخرت تأخراً ملحوظاً ، فان أسواقاً اخرى قد برزت وتقدمت ، وانتقل غيرها تدريجياً الى جوانب الطرقات الجديدة ؛ ولا ينكر ان صعوبات اشتداد التنافس الاقتصادي كانت حافزاً كبيراً للتقدم التقني والمبادعات الخلاقة . الا ان اللوحة تتميز هنا بكثير من الفوارق .

سنؤكد من كل هذه المتناقضات الظاهرة في درس خامات صناعة النسيج ومنتجاتها . اجل لقد ولى واقع احتكار الصوف الانكليزي وصناعة الاجواخ الفلمنكية التي لاءمت نسيجها الثقيلة فصول الشتاء الشمالية الطويلة والبرد المسائي القارس في المناطق الجنوبية ؛ وولى كذلك زمن اللقاعات ، في اسواق شمبانيا الدورية ، بين الصناعي الفلمنكي والشاري الايطالي الذي كان يصبغ الجوخ وفاقاً لأذواق الزين الجنوبيين او الشرقيين . ولكن المقصود ليس ازمة صناعة الجوخ فحسب بل تعدد المنافسات وأسواق الخامات بصوة خاصة .

فهناك منافسة محلية ، في هولندا ، بين صناعة الاجواخ الريفية وبين صناعة الاجواخ المدنية

التي تأخرت في «أراس» ودواي وسانتومر وبروج وغنت وإيبر، بينما استجابت مراكز الصناعة الريفية لرغبة زبن اقل ثروة في اقتناء الاجواخ الخفيفة. وان في انطلاقة قرية هندشوت الفلمنكية لرمزا لتفوق الحرير على الجوخ القديم الثقيل. وهناك منافسة أيضاً بين الفلاندر وبين مينو وبرابان ومنطقة لياج وهولندا التي تعددت مراكز صناعاتها، لا سيما في الشمال، على حساب المواسم الاقليمية القديمة: فتقدمت لوفان وبروكسل ومالين و«بوا» - له - دوك، ومايسترخت ولیدن على سانتومر ودواي اللتين سقطتا نهائياً، وعلى أراس التي وجدت في الوشي البلجيكي وسيلة وقتية تؤخرها سقوطها. فيتضح من ثم على العموم ان صناعة هولندا قد حافظت على مركزها او عوّضت عن خسائرها. ولكن المنافسة الاجنبية لم تكن بأقل شدة، فتأثرت الفلاندر والامارات المجاورة بالحرب الفرنسية الانكليزية التي حالت دون انتظام وصول الصوف من وراء المانش وسببت ازمات بطالة ورفعت كلفة المصنوعات الصوفية: وقد سبق ورأينا ان سياسة الاجور المتدنية والتخفيضات النقدية لم تكف للقضاء على المنافسة الاجنبية ولا للحيولة دون هجرة العاطلين الى الخارج.

اما في اسواق المنسوجات فقد تحسن مركز الاجواخ الانكليزية تحسناً مفاجئاً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، فيما المحدر تصدير الصوف الخام، المحصور في أيدي شركة انكليزية ذات امتياز استقرت نهائياً في كآليه، من قرابة ٣٥ ٠٠٠ كيس سنوياً في السنة ١٣٥٠ الى ٥٠٠٠ كيس فقط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. فان صناعة الاجواخ الانكليزية، التي تقدمت بفضل المهاجرين الفلمنكيين هنا وبفضل الصناعيين المحليين في غير مكات، وكانت الى جانب ذلك أساس ثروة «المغامرين التجار»، وانتشرت، انطلاقاً من انكلترا الشرقية، في المناطق الجنوبية والغربية وحتى في «يوركشاير»، نحو الشمال، قد وطدت، خلال القرن الخامس عشر، شهرة نسايجها الخفيفة المختلفة توطيداً كان كافياً لأن تعرف نجاحاً كبيراً حال تصديرها من لندن وسوثمبتون وبريستول: فقد عثر حتى في روسيا على الاشيرة الرصاصية الموضوعة على اللسانج المصدرة من لندن بواسطة تجار المدن الهانسية. واحتل الجوخ الانكليزي في تولوز، منذ السنة ١٤٥٠، مركز الصدارة الذي كانت الاجواخ الفلمنكية والبرابانية لا تزال تحتله، بنسبة ٩٠٪، في السنة ١٣٩٨. ولم تتوان «الامة» الانكليزية الناشطة، في انفرس نفسها، عن مغالبة الانتاج المحلي وخزن نسايجها المعدة لمزاحمة اجواخ هولندا في الاسواق الالمانية.

زد على ذلك ان مصانع جديدة قد أسست في كل مكان تقريباً وحاولت تموين الاسواق الاقليمية. فان صوف الامبراطورية، الذي كان يصدر في السابق الى لومبارديا، قد جمع الآن في فريبورغ التي عاش ثلثا سكانها من صناعته في منتصف القرن الخامس عشر. وتقدمت في فرنسا صناعة الاجواخ الشيمانية والنورمندية والبرية واللنغدوكية. وظهرت في اسبانيا، حيث أدخل المرينوس حوالي السنة ١٣٤٠، الاجواخ الاراغونية والسكالاتونية. وفي الفترة المتراوحة

بين السنة ١٣٣٠ والسنة ١٣٤٠ ، كان هنالك في فلورنسا ، اذا صدقت رواية فيلاني ، ٢٠٠ حاولت تلتج بين ٧٠ و ٨٠ ألف قطعة سنوياً ؛ وحين تغلبت مصانع « فن الصوف » بعد ذلك على الازمة التي تعرضت لها في أواسط القرن الرابع عشر ، استعانت بالمهاجرين الفلمنكيين على أثر الشغب الذي سببته جماعة « الشومبي » ؛ وهكذا فان صناعة الاجواخ الفلورنسية ، التي لم تتأثر بنسبة ما قيل عنها، قد حافظت، على الرغم من ارتفاع أسعارها ، وحتى في الشرق نفسه، على زين لا يرضون عن مصنوعات المتأخرة بديلاً . وهي قد استوردت الصوف الانكليزي من سوثبتون حيث ألفت الايطاليون مستعمرة صغيرة . اما الآن فهو الصوف الاسباني ما استخدم لمصنوعات الاستهلاك الراج .

انتشر استخدام الصوف الاسباني ، بعد ايطاليا ، في مدينة بروج ، في أواخر القرن الرابع عشر : فقد قام قبالة كاليه ، مركز التجار الانكليز ، احتكار تجار بورغوس للسوق البروجية ، كما ان انطلاقة « الامم » الاسبانية في الفلاندر قد أفادت من رواج صوف الميرنوس . فان هذا الاخير ، وان كان أقصر من الصوف الانكليزي ودونته جودة ، قد وافق متطلبات السوق الجديدة : اذ انه بات وسيلة بقاء لصناعة هولندا التي غذت به صناعة الاجواخ الجديدة وصدرته بعد ذلك لا الى اسبانيا فحسب — التي عاد اليها صوفها — بل الى المانيا العليا وبروسيا ايضاً ، مما عوّض هن اقبال السوق الفرنسية .

نمت في الوقت نفسه كذلك صناعة النسائج القطنية والكتانية والقنبية . فاستقرت صناعة نسيج القطن الجديدة ، التي موتهها البندقية بقطن الشرق ، في ايطاليا الشمالية أولاً ، أي في كريمونا حيث جمع آل اقتادي ثروتهم الطائلة ، ثم اجتازت البرنتر : ران « اندريا بونسنيوري » الذي انتقل الى خدمة « جورج فوجر » ، قد جسد الشاحن الايطالي العطل لمصلحة الملتزمين في مدن المانيا العليا . وكذلك فان صناعة نسيج الكتان التي حصرت في « هينو » حول « آت » وفي الفلاندر حول « كونيتره » وفي برابان حول نيفيل قد بلغت من التقدم شأواً جعلها تغذي ، في الاسواق الالمانية وحتى الانكليزية ، حركة تصدير زاحمت النسائج اللورينية والشمبانية . اما صناعة نسيج القنب ، فقد ألتجت في نورمنديا ، بحسب ما نعلمه عن تاريخ النسيج الفرنسي ، مقداراً من نسيج الاشرعة الغليظ أتاح بيعه للانكليز ، بينما توفقت بريطانيا (فيكتريه وبولدافيد ولوكروثان) وبواو الى تأمين زين دائمين في اسبانيا والبرتغال .

وحدثت تبدلات مماثلة في توزيع مواد التلوين . فان حجر الشب ، الضروري لتثبيت ألوان النسائج وألوان الجلد على السواء ، قد أمنت ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ، المناجم الجنوبية في فوجيا من اعمال آسيا الصغرى . الا ان الصناعيين قد آثروا على الاصباغ الشرقية ، النادرة والباهظة الثمن — القرمز والبقم — اصباغ القوة والعظم والزعفران الغربية المنشأ . فبيع زعفران جنوبي فرنسا والافرنى ، وهو من الصنف الممتاز المكلف ، حتى في أسواق القسطنطينية ؛ الا انه استبدل اخيراً بزعفران كاثالونيا وخصوصاً بزعفران أكيل ، في جيبسال

«الابروز»، الذي كان يصدر الى مراكز صناعة النسيج في المانيا العليا . وتقدمت على بيكارديا ونورمنديا وتوسكانا ، وهي الاسواق التقليدية لأكثر الاصباغ استعمالاً ، أي العظم ، وكلها قريب من مراكز النسيج الكبرى ، مناطق امتازت بظروفها الطبيعية او الاقتصادية : الأكتين وسهل البو . فقد وجدت الاولى ، حول الي وتولوز ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، كما وجد الثاني ، حول الاسكندرية ، حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في صادراتها من العظم ، مادة لمضاربات مثمرة .

ان تلبية رغبة الزبون الذي يفضل الجوخ الخفيف على الجوخ الثقيل
تجارة المواد الغذائية
والكتتان على الصوف ، واحلال الصوف الاسباني محل الصوف الانكليزي ، والاستعاضة عن الدوس البطيء بالاقدام باستخدام المطحنة الريفية السريعة . واستعمال الشب الايطالي بدلاً من الشب الآسوي والعظم اللومباردي او الاكتيني بدلاً من العظم البيكاردي ، والتوفيق في فلورنسا الى عمل لا يتوفر في غنت ، والتمويض عن فقدان السوق الفرنسية بفتح أسواق شمالية ، كلها أدلة على طاقة التاجر على تخفيف وطأة الانحطاط الاقتصادي . وان في بعض القطاعات الهامة من التجارة الدولية لأدلة لا تقل عنها شأنًا ، ولا سيما في قطاع الخمر . فكيف استطاعت التجارة الفسكونية ان تعيش بعد انفصال الاكتين عن التاج الانكليزي يا ترى ؟ بدا الهبوط ، الذي ظهرت بوادره منذ امد بعيد ، وكأنه لا دواء له : ١٠٢٧٢٤ برميلا في السنة ١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، ٧٨٤٢ في السنوات ١٣٧٩ - ١٣٨١ ، ٦٠٠٠ في السنة ١٤٥٠ - ١٤٥١ ، و ٣٠٠٠ أخيراً عشية استعادة فرنسا للاكتين . اعترف لويس الحادي عشر نفسه بوجوب الحفاظ على ثروة بوردو ومنطقتها ، فاستعادت التجارة نشاطها ولو ببعض الصعوبة . وزاحمت كذلك بعض الخمر في اوروبا الشمالية الجمعة التي تزايد صنعها واستهلاكها : خمر «لاروشيل» و«بواتو» وخمر «فرنسا» ، وخمر او كسير و«بون» ، وتسدد نقلت كلها ، بواسطة الانهار والطرق والبحر نحو هولندا والمانش ، فجمعت أراس «دأم» من بيعها وفرض الرسوم على عرضها ، منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، نصيباً كبيراً من عائداتها . ولم تتمكن خمر الرين والموزيل ، التي جنى منها المسيونيون بعض الارباح ، من مزاحة هذه الخمر بسهولة ، بينما لم يستورد الشمال ، من الجنوب الذي شكلت فيه تجارة الخمر قطاعاً ناشطاً جداً ، سوى بعض الخمر الحلوة ، كخمر «رومينيا» و«ملفوازيا» ، مستخدماً السفن الايطالية لنقلها .

لم تنج هذه البقعة او تلك يوماً من المحول ، فسادت في كل مكان فطرة دفاعية للحفاظ على الخطئة ، ولكن المضاربين تحدوا الرأي العام والحواجر الجمركية . فكانت المعضلة ، في البلدان المتوسطة ، معضلة دائمة ؛ واذا ما صدقت المؤلفات التجارية - « ممارسة التجارة » لبينغولوتي او بحث دا اوزانو - فان السهول الايطالية واللغندوك وافريقيا الشمالية ، ولا سيما صقلية ، قد صدرت فائض حبوبها الى المناطق المفتقرة الى القمح او الراحة تحت وطأة الجوع . وغدت اسبانيا والبرتغال من كبار أكتالي الخبز منذ أواخر القرن الخامس عشر ، فاخذتا تنظران ،

منذ ذلك الحين ، الى السهول المراكشية ، واستوردتا في الوقت نفسه الحنطة الفرنسية وحنطة هولندا التي لم تعد المانيا الشرقية بحاجة اليها بعد ان اقفرت قراها او كادت . فقد ولّس من ثم زمن بلغت فيه مدن الشراكة الهانسية اوج ازدهارها وغذت انكلترا وفرنسا الشمالية (القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر) .

أتى اهل الشمال بالرنك مع الجاودار وعادوا بالملح مع الخور . فقد غذى «جون بورغنوف» ، وشأنه في ذلك شأن بريطانيا وسانتونج ، تجارة «أساطيل الملح» السنوية ، ومون كذلك انكلترا وهولندا التي عجز انتاج ملاحاتها الباهظ الاكلاف عن سد كافة حاجات صيد الرنك ، فيما اخذ السمك يهاجر شواطئ «سكانيا» نحو مياه بحر الشمال .

ان حاجة التجار الماحّة الى تخفيض نفقاتهم الخارجية قد دفعت أسواق التجارة وطرقاتها بهم الى التشارك ونحوير طرقاتهم واستبدال أماكن لقائهم والبحث عن أسواق جديدة . وهكذا فان فتح «السوند» للسفن الثقيلة المحولة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد أتاح انقاص اجور المراكب بإبطال المرور في المضيق الدانمركي . ولما كانت شراكة المدن الهانسية ردة فعل دفاعية أكثر منها مظهراً من مظاهر قوة تسير في معارج التقدم ، فقد ناضلت كي تفرض على الدانمركيين حرية التجول في مياهها وكي تحافظ على أسواقها في لندن وبروج وبرغن ونوفغورود . غير ان الاتحاد لم يوفر على مدن المانيا الشمالية نتائج الهبطة الاقتصادية الشاملة ؛ فان لوبك ، على الرغم من مركزها الممتاز قد تأخرت عن ركب شريكاتها ومنافساتها في بروسيا ؛ كما ان بعض مدن المنطقة الغربية ، ولا سيما كولونيا ، قد صممت على الدفاع عن مصالحها الخاصة ؛ زد على ذلك ان هذه المدن كلها قد تضررت بفعل المزاحمة الانكليزية والنيرلندية حتى في البلطيك . فتقهقرت من ثم الشراكة الهانسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، لا سيما حينما سقطت سوق نوفغورود في أيدي «ايفان» الثاني في السنة ١٤٧٨

وعلى غرار أسواق مدن الشراكة الهانسية ، كانت «المؤسسة الالمانية» في البندقية و «الامم» الايطالية والاسبانية والانكليزية في بروج ، ثم في انفرس ، اجهزة دفاعية ايضاً : فان الاسواق التي يديرها ويمثلها لدى السلطات المحلية مجلس وأمين سر ، و «الامم» التي قام على رأسها قنصل ، قد أمنت لأعضائها الإقامة في منزل واستخدام مخازن مشتركة واخوة جمعية دينية ، وخدمات المساعدات المتبادلة ، والاستفادة من سلطة قضائية خاصة ، وفوائد نظام جبائي خاص ، وامتيازات تجارية خاصة . وقد بررت شتى ضروب المخاطر فمو مثل هذه التجمعات .

تحولت خطوط المواصلات أكثر من مرة بين قطبي اقتصاد القرون الوسطى ، هولندا وايطاليا : الخطوط البحرية التي سارت عليها منذ السنوات ١٣٢٠ - ١٣٤٠ ، بأعداد متزايدة ، السفن الجنوبية والبندقية المسطحة ، نحو بروج ، بينما أدخلت «هياكل سفن» خليج غسكونيا ، الى برشلونة وجنوى والبندقية ، طرازاً لمركب اسهل قيادة ، مجهز بدفة من طراز جديد ، وجامع

بين الشراع المربع والشراع اللاتيني . فأدى من ثم انطلاق برشلونة الى مزاحمة المدن الإيطالية . وسارت على طريقي السمبلون والغواتر البريتين معظم وسائل النقل ؛ فأمنت اولهما المواصلات الى سوق « شالون - سور - سون » الدورية الحديثة العهد ، واتجهت من ثم ، على طريق اللورين ، نحو الشمال ، واستوفي رسم المرور عليها في « جونغ » من أعمال الجورا ؛ أما الثانية فقد انحدرت في وادي الرين عن طريق بال . وعرفت فرنسا الداخلية ، التي لم تمر فيها هاتان الطريقتان ، تحولات ماثلة ، على نطاق أضيق ، في خطوط المواصلات التجارية . ولنا في الطرقات الاكيتينية خير مثل على ذلك ؛ فان سائقي العجلات البيارنيين ، رغبة منهم في تجنب مخاطر الحرب ومراكز استيلاء رسوم المرور السبعة والعشرين على الفارون ، شقوا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، طريقاً مباشرة تصل تولوز ببايون لأجل نقل الجوخ والعظم المستوردين من انكلترا او المصدرين اليها . ويتضح من ذلك ان ما أملى على التجار اختيارهم هو تجنب المخاطر قبل تبان أسعار النقل النهري والبحري . وخلال حرب المئة سنة تقاسم السين والواز والطريق البرية والبحر المواصلات بين باريس وهولندا . وحدث الشيء نفسه بين الانهار الكبرى وطرقات السهول الألمانية والبولونية . وارتبط مصير أماكن المعاملات التجارية بتحويلات الطرقات ايضاً ؛ الا ان هذا الارتباط في المرافئ البحرية التي حددت الطبيعة مواقعها اقل منه في مراكز الاسواق الدورية الدولية الكبرى . فقد لوحظ في هذه الاخيرة اتجاه الى الانتقال شرقاً والاقتراب من الطرقات المارة في المهازات الالبية . فقد خلفت اسواق شبنانيا اسواق شالون وجنيف وفرنكفورت ، ثم اسواق ليزينغ ؛ وفي عهد لاحق ، أي بعد السنة ١٤٥٠ حاولت اسواق ليون الحلول محل جنيف ، بينما دافعت ميلانو من جهة ، وبروج وانفرس و « برغ - اوب - زوم » من جهة ثانية ، عن أسواقها الخاصة . الا ان عهد الاسواق الذهبي كان في الحقيقة ماثلاً الى الهبوط ؛ ومرد ذلك الى ان طابع التواتر فيها ما عاد ليتفق وعادات التجار المقيمين المستقرين وعُرف اجراء الصفقات التجارية والمالية المباشرة في مراكز الاعمال نفسها بواسطة العملاء او بالمراسلة احياناً .

استمدت عناصر تحسين تقنية الاعمال من خبرة التجار الجنوبيين ، اسبانيين تقنية الاعمال او ايطاليين ، ومستت الحاجة اليها امام واجب الدفاع عن النفس في الظروف الصعبة . فقد توجب ، في آن واحد ، استدراك مخاطر المشاريع التجارية وحصرها ، والتعويض جهد المستطاع عن نقص الادوات النقدية ؛ وهذا ما أفضى الى مظهري الطرائق التجارية : الشركات ، بالنسبة لنظامها ، والمحاسبة والدين ، بالنسبة لسيرها . وتلقى التاجر الايطالي ، بفضل دراسة « الطاولة الحسابية » والتعزير العملي ، ثقافة تفوق بها على منافسيه الشماليين ، من انكليز وغيرهم ؛ الا ان الصيرفي البروجي ما لبث ان اصبح قادراً ، على غرار ، على تحسين مسك الدفاتر التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر : فقدا السجل اليومي وسجل الصندوق و « ورقة النقد » أشياء عادية . ولما كانت الارقام العربية ، التي ظهرت في ايطاليا منذ القرن الثالث عشر ، لم تنتشر فعلاً الا اعتباراً من القرن الخامس عشر ، فقد درج الناس زمناً

طويلاً على الحساب بواسطة قطع معدنية تمثل قيمة نقدية مختلفة . ولكن طريقة مسك الدفاتر المزدوجة ، التي استعملت في اليونان منذ قبل السنة ١٣٤٠ ، قد انتشرت شيئاً فشيئاً . فنجمت عن معاملات الصيارفة تدريجياً المعاملات المصرفية المصرية : الودائع ، والحسابات الجارية والتحويلات الداخلية والخارجية . أما التحويلات الحطية ، المعروفة « بالبوليصات » ، التي يرتقي أقدم نماذجها ، وقد اكتشف في بيزا ، الى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد اشتق منها « الشك » الحالي . ومن عقد المغايضة ، الذي اتفق عليه في البدء امام مسجل العقود ، للاقرار خطياً بدين يدفع بنقد آخر وفي مكان آخر ، اشتقت السفتجة التي تستلزم ، بموجب تحديداتها ، عملية مقايضة دون نقل المال فعلاً ، وعملية دين . ثم تأسست أجهزة عامة اتخذت ، بعد مصارف ساحة رياتو في البندقية ، شكل المصارف الحكومية في جنوى (دار القديس جرجس ، في السنة ١٤٠٨) ، وبرشلونة (١٤٠١) وفالنس (١٤٠٧) . واتجهت عمليات فتح الاعتادات الى التمرکز في اوساط الاعمال الكبرى وانحصرت في أيدي الايطاليين او كادت : في سينا والبندقية وفلورنسا وجنوى وبروج وافينيون ولندن وبرشلونة ومونبلييه ، خلال القرن الرابع عشر . وبعد استلاب المؤسسات الايطالية على يد البورغونيين في السنة ١٤١٨ ، تخلت باريس عن مركزها لجنييف التي انتقلت منها الاعمال الى ليون حوالي السنة ١٤٦٠ . ونشطت حركة هذه المراكز جميعها بفضل انتشار ممثلي الشركات الكبرى .

لم تتجانس أنظمة الشركات الايطالية : فقد غلبت سيطرة الدولة في البندقية ، والمشاريع العائلية في فلورنسا ، والروح الفردية في جنوى . وسارت الشراكة الفلورنسية الظروف ، فانتقلت في القرن الخامس عشر ، من نظام الشعب المتعددة الى نظام الفروع . فقد جمعت الاولى ، وهي شركات ذات اسم جماعي ، حتى ٢٥ مساهماً احياناً ، وعدداً كبيراً من العملاء الموزعين على الشعب : وان في هذا ، لعمرى ، حصرياً جعلتها سريرة المطب ، كما خبرت ذلك عائلات « فرسكوبلدي » ، والبرتي و « اتشياولي » و « بروتسي » و « باردي » . اما الثانية ، التي يقدم لنا آل « مديشي » افضل مثل عنها ، فقد اعتادت نظاماً حصرياً في ادارتها وأموالها ، دون ان تعتمد في ادارة كل فرع ، ففي حزمة هذه الجمعيات المتوازية على غير جمع واتصال ، لم يكن عجز جمعية عن وفاء الدين ليجر وراءه بالضرورة عجز الجمعيات الاخرى . وقد مارست كافة شركات النظام الاول والنظام الثاني ، في آن واحد ، الصناعة والتجارة والاعمال المصرفية ، وحقق بعضها احتكارات افقية وعمودية : كآل زكريا ودرايبرو في جنوى ، وقد اشتهروا في تجارة حجر الشب ، وكالبندقيين « اندريا بربريفو » و « جياكومو بادوير » او اللوكي « رابوندي » الذي كان صير في البلاطات الفرنسية ، او آل داتيني دي براتو ، الى جانب الفلورنسيين . فقد تتلمذ على هؤلاء احد تجار رافنسبورغ ، على مقربة من كونستانس ، ويدعى « جوزف هومبيس » ، وأسس ، في اواخر القرن الرابع عشر ، « مصرف رافنسبورغ الكبير » الذي كان المثال الاصلي للمشاريع العظمى المماثلة التي أنشأتها المانيا العليا بعد مرور قرن على تأسيسه . وأهم المثل « جال كور » ، ايضاً الذي تذكرنا مشاريعه المتنوعة بالمثال المديشي .

لم تكن فطنة رجال الاعمال الايطاليين شيئاً باطلاً ، لأن الافلاس ، على الرغم من ضآلة عدد القادرين على تقليدهم في طرائقهم ومشاريعهم ، كان بالمرصاد لأعظم ممارسي الاعمال التجارية : فبعد انهيار آل « فرسكو بلدي » في السنة ١٣١٢ ، جاء دور آل « سكالي » في السنة ١٣٢٧ وآل « بوناكورسي » وآل « اوساني » وآل « كورسيني » في السنة ١٣٤١ وآل « اتشياولي » وآل « بيروزي » في السنة ١٣٤٣ ، وآل « باردي » في السنة ١٣٤٦ . ولم يحل التضامن العائلي واتحاد الشركات دون منافسة شديدة تنازعوا بتأثير منها ، في ما تنازعوا ، الفوائد الادبية والمادية لاستثمار الاموال البابوية : فقد انفصل آل البرتي « الجدد » عن آل البرتي « القدماء » ، وآل « تشركي » « البيض » عن آل تشركي « السود » ، وارغم آل البرتي « القدماء » آل « غواردي » على اعلان الافلاس (١٣٧٠) ، قبل ان يصيروا انفسهم الى الانهيار امام آل « البيزي » وآل « ريتشي » .

يجب ان نفسر هشاشة المشاريع هذه بمرض التعاضل والعجز عن مواجهة طلبات الدائنين بسبب الافتقار الى الاموال النقدية ، لا بمعجز ادوار الثالث مثلاً عن وفاء آل باردي وآل بيروزي حقوقهم ، او مطالب « شارل الجسور » من آل « مديشي » . وهكذا فقد انهارت فروع شركة آل مديشي في لندن وبروج وليون في اقل من ثلاثين سنة (١٤٦٦ - ١٤٩٤) . ولعل الدعوى المقامة على جاك كور اوقفت نشاطه في منحدر مماثل ايضاً . وحوالي السنة ١٤٤٠ ، عانت برشونة الامرين من أزمة الثقة . ورناء على مستوى دون هذا المستوى ، مدينتين لتصفية حسابات صيارفة بروجيين كثيرين ولحجز سجلاتهم ، بكشف النقاب عن طرائقهم .

ليس قدم الاساليب التجارية والمصرفية دون عدد الافلاسات تأييداً لشعور الركون الاقتصادي الذي سيطر حتى الربع الاخير من القرن الخامس عشر . ففي مرسيليا وبرشونة وفالنس واشبيلية وحتى في ليشبونة حيث كانت رؤوس الاموال الجنوية ترتقب فرصة قريبة لمكاسب جديدة ، ما زالت المشاريع التجارية تعتمد شكل شركة التوصية الذي احتفظ بطابع شخصي وعائلي . اما الشركات المساهمة الكبيرة التي استثمرت مطاحن تولوز منذ القرن الرابع عشر فتبدو وكأنها شذوذ عن القاعدة . واذا ما استثنينا الشركات الايطالية ، لم يُشاهد قط ، قبل السنة ١٤٥٠ ، عملاء يثلون أولياءهم تمثيلاً دائماً في المدن الاجنبية . ولم تعرف السقنجة في مرسيليا قبل السنة ١٣٦٠ ، وفي تولوز قبل أواخر القرن ، وفي روان قبل اوائل القرن الثاني ، وقد أقصرها التجار الذين استخدموها على اعمال تجارية صرفة لم تتطور تطوراً يذكر . وفي بروج نفسها استلزمت تقنية الدفع التعمدات والاعترافات الخطية بالدين ، وتحديد المواعيد ، وكلها وسائل تقليدية . ويجوز القول نفسه في التأمين البحري الذي اعتمد في بروج منذ السنة ١٤٩٥ وادخل بعد خمسين سنة الى المرافئ الاطلسية ، مع انه قديم العهد في المتوسط .

وجلة القول ، اذا تقدمت تقنية الاعمال بفضل تحول الاسواق والطرق التجارية ، واذا آلت الى تخفيف وطأة الهبطة الاقتصادية ، فانها قد توقفت بفعل هذه الهبطة نفسها كما توقفت بفعل

الذيق المطرد . ولم تكن فوائد الطرائق الجديدة الا في تناول ابعاد التجار همة وأوفرهم فوة . فكان من ثم محتوماً ان ينتقل القلق الناجم عن ظروف طالت معاكتها الى النطاق الاجتماعي ايضاً .

٤ - الاضطرابات الاجتماعية

التفاسات الاجتماعية
كان مهنو تورنيه ، في السنة ١٣٠٢ ، يفكرون باليوم « الذي سيساوي فيه الجميع في الثروة » . وبعد مرور ثمانين سنة أذكى جون بول بدوره ، في اغنية شهيرة ، احقاد الفلاحين الانكليز الثائرين على أسيادهم وعلى مأموري الجباية . وكان « الشعب الصغير » يصرخ آنذاك في فلورنسا : « ليحيا الشعب ! » . والى هذه الأقوال المعادية للسلطة ، انضمت ، خلال قرن من البؤس ، دعوة الروحانيين الى تحقيق المساواة . فـ منذ العشرين سنة الأخيرة من القرن الثالث عشر ، كانت مدن هولندا قد دقت ناقوس الخطر وكان لانذارها رجوع صدى في الاريايف . فـ عرفت الاريايف ، التي لم تتأثر أنظمتها تماماً ودور المال المتزايد ، والمدن التي سيطر عليها القابضون الحريصون على اسباب الثروة الجديدة ، تفاساتها واضطرابات الاجتماعية معاً . وتجدر الإشارة الى ان هذه الصراعات ، التي سبقت انقلاب الوضع الاقتصادي بزمان بعيد ، قد تفاقمت بفعل الازمة ، لان الذين كانوا ينتجون او يبيعون شيئاً ما ، ويحددون الاجور ، ويستفيدون من حركة العرض والطلب ويتمكنون من ابقاء أرباحهم في مستوى الاسعار والنقد ، هم وحدهم من استطاعوا الارتقاء والبقاء فوق المستوى المعادي العام . وتوصلا الى هذه الغاية ، دفع المنطق الاناني بالمستفيدين الى ان يقفلوا وراءهم الابواب التي فتحت امامهم سبل الثروة .

لا يزال الغموض يكتنف عدم السياق الظاهر في تعاقب الاضطرابات الاجتماعية في آخر القرون الوسطى . ولكن هذه الاضطرابات ، على الرغم من ذلك ، تؤلف بما لا يترك مجالاً للشك ، مجموعاً من ردود الفعل المتتالية ، المتشابهة والآنية احياناً ، لوضع اقتصادي واجتماعي واحد أقله في وسائله الفاعلة العميقة . وينهض المهنيون والفلاحون ، في هذا المجموع ، بالأدوار الرئيسية ، بينما يمثل الاشراف والاسياد ادوار الضحايا : تبان في الاوضاع حقاً ، وتبان في النسب العددية ايضاً .

الاضطرابات في المدن
كان « فيليب دي بومانوار » ، في أواخر القرن الثالث عشر ، قد أدرك المعضلة خير ادراك : « نرى مدناً كثيرة لا يسهم البورجوازيون الفقراء والمتوسطون فيها بإدارة المدينة » ، التي هي وقف على الأرياء ، لان المواطنين يخشونهم بسبب ثروتهم او بسبب تسبهم . ويحدث ان يكون بعضهم حكماً او محلفين او جباة وان ينقلوا في

السنة التالية ، وظيفتهم ... الى الاقارب من أنسابهم ... يتفق الأثرياء على ابعاد كل رقابة عن حساباتهم ، فيصبح من العبث اتهمهم بالسرقة والغش مها كانت مستندات الاتهام . لذلك لم يستطع الفقراء احتياهمهم ، ولكنهم لم يعرفوا سبيلا للمطالبة بحقوقهم افضل من الثورة عليهم .

تشابهت معطيات المعضلة في كل مكان تقريباً . ارتفع سكان المدن ارتفاعاً مذهماً خلال القرن الثالث عشر ، ولكن امتيازات البورجوازية بقيت وقفاً على اشراف قلبي العدد . فكم كانت عدد « العظماء » بين سكان غنت البالغين ٥٠.٠٠٠ نسمة ، وسكان بروج البالغين ٢٥.٠٠٠ ، وسكان أراس او سينا البالغين ٢٠.٠٠٠ ، وسكان فلورنسا البالغين ٤٥.٠٠٠ ؟ ياترى ؟ ربما جزء من ثلاثين او اربعين في غنت ؛ وعشر عائلات تقريباً في ليل ؛ وأقل من اربعين في لياج ؛ و ٢٥٠٠ « عظيم » تقريباً في فلورنسا . هؤلاء جمعوا كافة الثروات بين أيديهم . كانوا ذوي املاك ريفية ، ولا سيما في ايطاليا ، فراقبوا بهذه الصفة ، شؤون التمنوين وحددوا الاسعار . وجمعوا رؤوس الاموال ، فتصرفوا بهذه الصفة ، بمصير الثروات الخاصة والاموال العمومية . وسيطروا بالاضافة الى ذلك على العمل ، ابتداء من المادة الخام حتى بيع الانتاج المصنوع ، فأشرفوا بهذه الصفة على النقابات في مدن الشمال وعلى الفنون الكبرى في المدن الايطالية . وأمن لهم النظام السائد في كل مكان تقريباً ، والقاضي بأن تنتخب كل جمعية أعضائها ، الاحتكار العملي للوظائف البلدية : فأنيطت بهم دون غيرهم اعمال الادارة والقضاء والشؤون المالية . لهم القصور ؛ ولهم التعليم . ولما كانت يدا الشريف الفلنكي غير جاستين وأظافره غير « زرقاء » ، فانه « يشرب النبيذ كل يوم » ؛ يمتطي الحصان ويستسمي نفسه « السيد » ؛ يدفن في الكنيسة . صناعي غنت يدعوه « عاطلاً » . وخلال فترة طويلة ، اقام تضامن النسب حول الشريف حاجز دفاع اعتبره منيعاً .

ليس مجرد اتفاق من ثم اذا انفجرت النقمة الاجتماعية في اوساط صناعة الجوخ بنوع خاص ، وهي منذ القديم طليعة الحركة الادبية والاجتماعية . وقد سبق لبير فالدو وفرنسيس الاسيزي والمتواضعين والروحيين ان وجدوا في اوساطهم صدى تقريظهم للفقير والتواضع . ويرد هذا الواقع الى ان تعدد عمليات صناعة الجوخ والفرق في الاجور قد احل الصناعات ، ولا سيما الحلاجين والقصارين ، في وضع متدن ابرز منه في اية مهنة اخرى . ولكن يجب الا نخذعنا هذا الواقع : اذ ان المهنيين غالباً ما انقسموا وتعادوا في مصالحهم ؛ ولذلك فان الانظمة المفيدة التي توصلوا الى تحقيقها منذ اواخر القرن الثالث عشر قد خدمت تنافسهم ووقوفهم في وجه الاشراف على السواء .

افتقر الشعب الى العلم والتلاحم ، ولم يكن من ثم قادراً الا على القيام باضطرابات لا طائل تحتها ، لو لم يجد قادة يحسدون شواعره ويعربون عن رغائبه . فنقم تارة على الاشراف بسبب الاجور والادارة البلدية ، كما حدث ذلك في هولندا طيلة القرن الرابع عشر ، وفي ستراسبورغ في السنة ١٣٣٢ ، وفي مترز في السنة ١٣٤٦ ، وفي سينت في السنة ١٣٥٥ ، وفي فلورنسا في السنة ١٣٧٨ ، وفي برشلونة في عهد لاسق ؛ وهاجم تارة اخرى رجال المال ، اليهود في المانيا زمن الطاعون

الكبير ، والاجانب في انكلترا : فبين السنة ١٣٦٠ والسنة ١٤٦٠ ، عرفت المملكة الانكليزية سلسلة من الحركات المعادية للاجانب استهدفت ، في لندن وسومبتون ، الفلنكيين اولاً ، ثم تجار المدن الهانسية والابطالين بنوع خاص . وغالباً ما استهدفت الثورة الشعبية مأموري الجباية والسلطات العامة والسلطة الملكية ايضاً : وهذا ما حدث بمناسبة النقود في باريس (١٣١٣) ؛ وبمناسبة الضرائب في باريس ايضاً (١٣٥٨ و ١٣٨٠) . ولم يخضع مثيرو الشعب لمذهب عقائدي ؛ بل للنزعات الى مساواة غير واضحة المعالم ، ما لم يتول امر التمرد احد الطماعين او الفوضويين او المعائدين سعيًا وراء بلوغ هدف شخصي او تحقيق نزعات بيئتهم .

اذا ما استثنينا « بيردي كونك » في الفلاندر (١٣٠١) و « كولا دي رينز » في روما و « ميشال دي لاندو » ، العامل الحلاج ، في فلورنسا ، لم ينتم خطيب شعبي قط الى عامة الشعب ، بل الى طبقة الاشراف او الى اسمى المهن مقاماً ، كالجواخين في القرن الرابع عشر والجزارين في القرن الخامس عشر ؛ وكلنا يعلم العلائق التي قامت بين سيلفستر دي مديشي ، وميشال دي لاندو . وقد استفاد اللييجيون ابدأ من عون البورجوازيين الاثرياء على اساقفتهم او على آل « داتين » ، ارباب المصاهر الاولى في البلاد . وهو مارينو فاليارو ، احد عظام الاشراف ايضاً ، من نقل المعركة الاجتماعية الى البندقية حين ركبت الاضطرابات الشعبية ؛ وفي اوساط الاشراف ايضاً بحثت جنوى عن قادة احزابها . وكما في هولندا ، كذلك في بال ومايانس وكولونيا ، تحالف الاشراف السراسبورغيون مع ارباب المصانع لانتزاع السلطة من النبلاء ، ثم مع النبلاء لانتزاعها من ارباب المصانع . وفي متز ، وقر الاشراف ، المنقسمون على انفسهم ، القادة لعمال المصانع ايضاً . وما كان ارباب المهن ، لولا هذه المحالفات ، يستطيعوا الاشتراك في الحكومات المدنية .

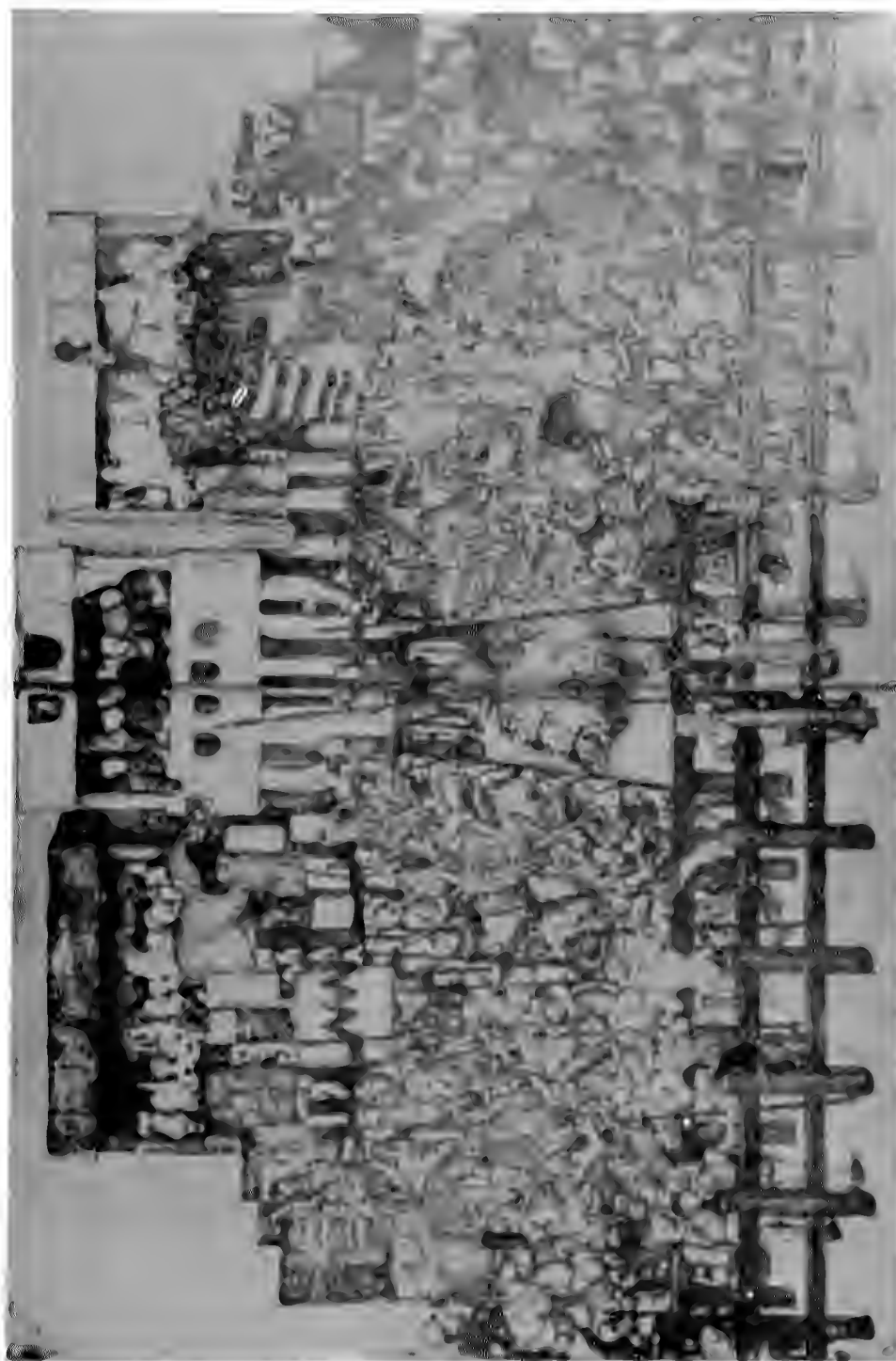
اتسمت الاضطرابات الريفية بمزيد من العنف ، ولكنها كانت دور الاضطرابات الريفية الاضطرابات المدنية تلاهما ونجاحاً . وهي انفجارات بؤس وغضب اكثر منها نتيجة تصميم واضح الاهداف . فان ثورة الفلاندر البحرية قد استهدفت النظام الاجتماعي برمته ؛ وثورة فلاحي « ايل دي فرانس » لم تستهدف بلوغ غاية معينة ؛ وانصار « وات قبلر » ، بعد الاستيلاء على لندن ، قد تفرقوا حالما قطع لهم ريشارد الثاني عهده الاول ؛ ولم يكن لثوار اللنفدوك « التوشين » لا برنامج ولا قيادة ؛ وثورة جاك كاد في مقاطعة « كنت » ، لم تسفر عن اية نتيجة على الرغم من الاستياء الشامل . واذا احرز ثوار كاتالونيا ، في الوقت نفسه ، مزيداً من النجاح ، فرد ذلك الى ان مثلهم الاعلى في التحرر الزراعي قد وجد وحدته في مساندة البورجوازيين الكاتالونيين .

ان هذا الصراع المزدوج في سبيل تحرر الفلاحين ، ولا سيما في سبيل توصل اهل المهن الى منافع ومسؤوليات الثروة البورجوازية ، قد افضى في النهاية الى فشل مزدوج . ففي مرحلته

الاولى ، اي حتى السنة ١٣٨٠ تقريباً ، عرف الفلاحون واهل المهن ، هنا وهناك ، نجاحات عابرة . وقد حدث لهم ايضاً ، بتأثير من صعوبة الايام ، وبخافز من يؤسهم في الارجح ، ان شعروا بواقع التفسخ الاجتماعي وصمموا على اكمال التحسينات التي حققوها بالنسبة لمصيرهم . وكان اول من نهض بالحركة المدن الفلمنكية ، وهي اعظم تطوراً من المدن الاخرى ، وليساج المشهورة بنضاليتها . اجل كانت الاعترافات بالمهن كمؤسسات قد حدثت من دور اللسب والدم . وهي هذه الاعترافات نفسها التي ساعدت حينذاك ، على الرغم من مقاومة دائمة - هذه سلطة الكونتية في الفلاندر الذي سألده تاج فرنسا - على تجديد وتثبيت انتصار المهن : في غنت ، في السنة ١٣٦٠ ، بعد مناهضة عنيفة دامت ١٥ سنة بين القصارين والحكاكة ، وفي لياج حيث كانت الغلبة للمهن في السنة ١٣٨١ . وحدث الشيء نفسه في العالم الزراعي حيث تحققت ، على الرغم من المثل الذي اعطته الفلاندر مرة اخرى ، النجاحات المحرزة بمعيد الطاعون التي جعلت الفلاحين ينظرون بفارغ الصبر الى الانتماء من تبعية تحرروا منها جريئاً . وان ما طاموا به ريشارد الثاني ، في سهل ميل اند ، في السنة ١٣٨١ ، هو زوال ما بقي من الارتفاقات الاقطاعية القديمة .

ان الاضطرابات التي انفجرت في آن واحد ، حوالي السنة ١٣٨٠ ، وان على غير ترابط ، في انكلترا وهولندا ومدن فرنسا والمانيا الغربية وفي ارياف اللندوك وفي برشلونة وفلورنسة . كانت في الارجح بادرة ازمة بلغت آنذاك ذروتها . اختللت في امدائها ، كما اختللت في وسائلها ايضاً : فهنا فن مدنية ، وهناك ثورات شاملة على نطاق اقليمي ، ونحوات في الفلاندر الى حرب اقطاعية ودولية . ولكن معناها الحقيقي اجتماعي في الدرجة الاولى : وهكذا فقد تولقت مآز الى تجنب ويلاتنا بالتخفيف وقائياً من طابع المثل ، الذي اتم به النظام البسدي ، لمصلحة عامة الشعب .

الا ان المهن ، التي توصلت الى السلطة حين اخذت قوة المدن بالتفوق ، قد عجزت عن تحسين وضعها الاقتصادي تحسيناً محسوساً . زد على ذلك ان طبقة جديدة من الاشراف قد قامت على انقاض الطبقة القديمة . ولم يجد احد من دواء للتغلب على الصعوبات المادية المتعاظمة سوى تصلب الانظمة التعاونية واقفال ابواب المهن في وجه طلاب العمل ، وبالاختصار جود الارضاع الاجتماعية . لغدت المنازعات والمناهلسات مادة بذخية وجب الاحتياط لها بالالتجاء الى حام وحكم يكون ملكاً او اميراً . فكانت القوة السياسية وحدها هي النهائية من استفاد من العملية .



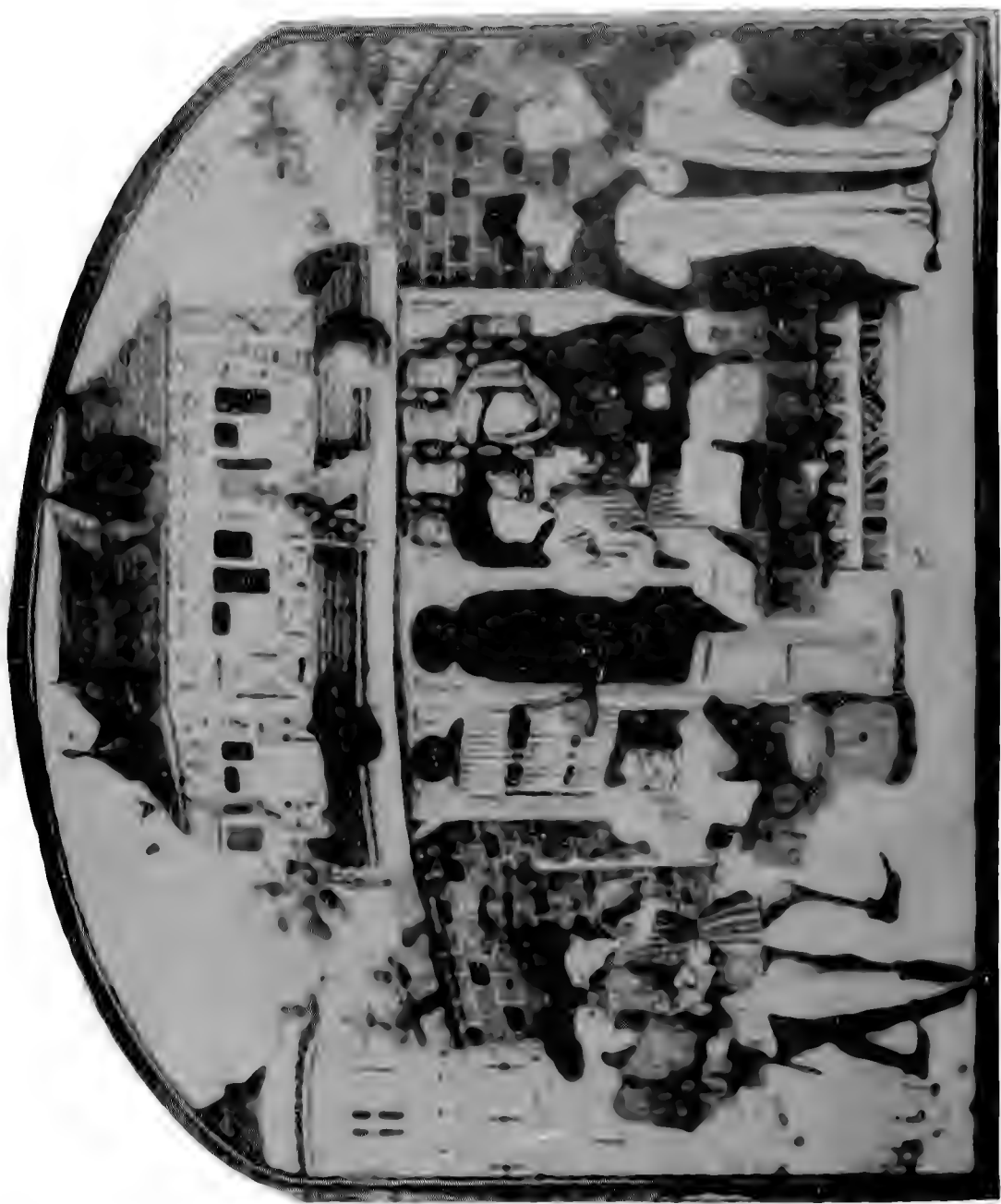
الزوجة - ١٢ - مباراة عسكرية



اللوحة ٣٤ - تشييد كاتدرائية (كاتدرائية جورج)



اللوحة ٣٥ - سفينة (يونان يتعلمه الحوت) .



اللوحة ٣٦ - تجار وزن



اللوحة ٣٧ - دعوى دوق آلانسون

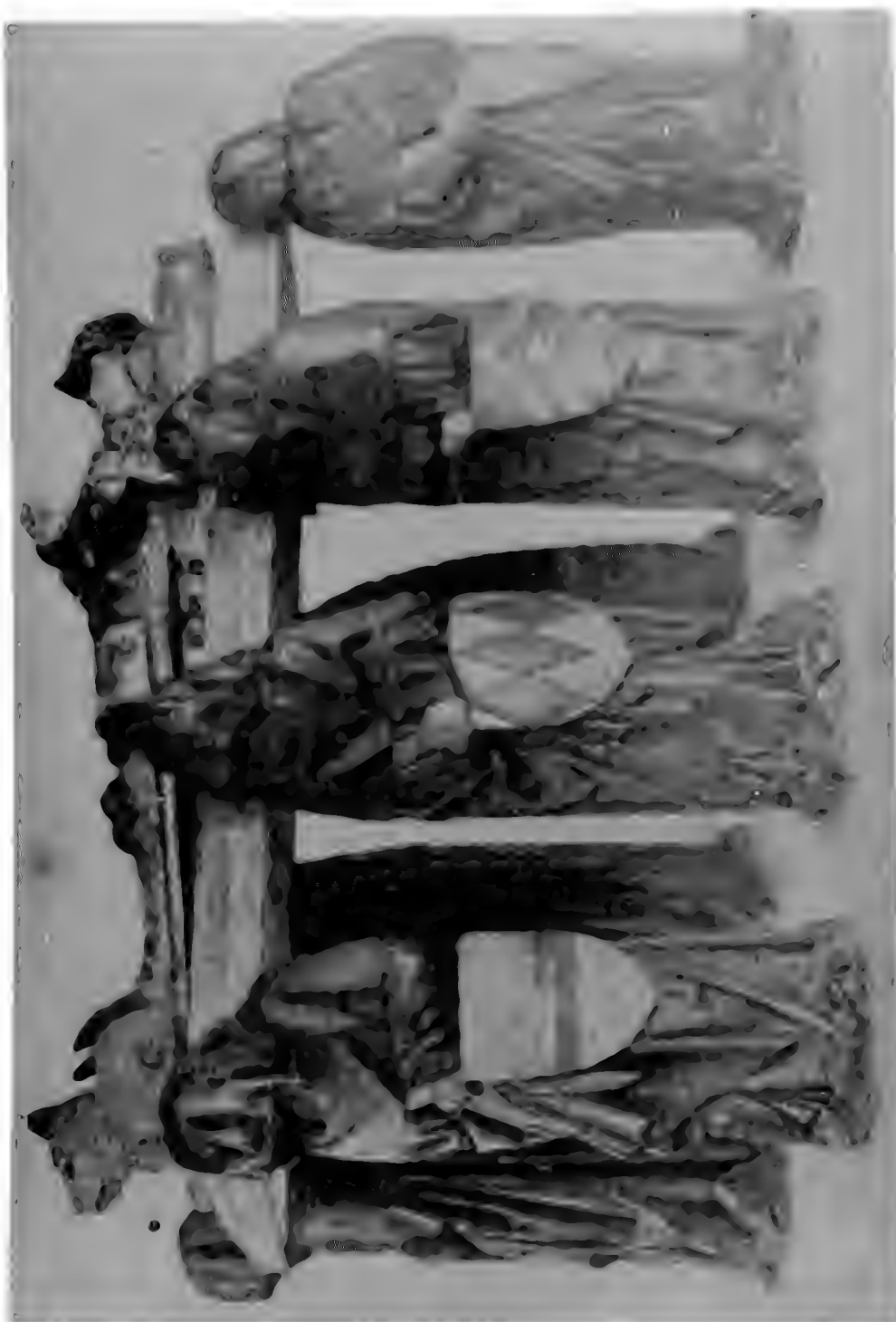


اللوحة ٣٨ - درس لاهوت في السوربون .





اللوحة ١٠ - القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر) .



اللوحة ٤٩ - صريح فليب بونت وزير العدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر) .



اللوحة ١٢ - قصر رشيد الممثلة في الهندية : (القرن الخامس عشر) -



اللوحة ٤٣ - الباب الضخم لجامعة سالنكا (اسبانيا) ، أوائل القرن السادس عشر .



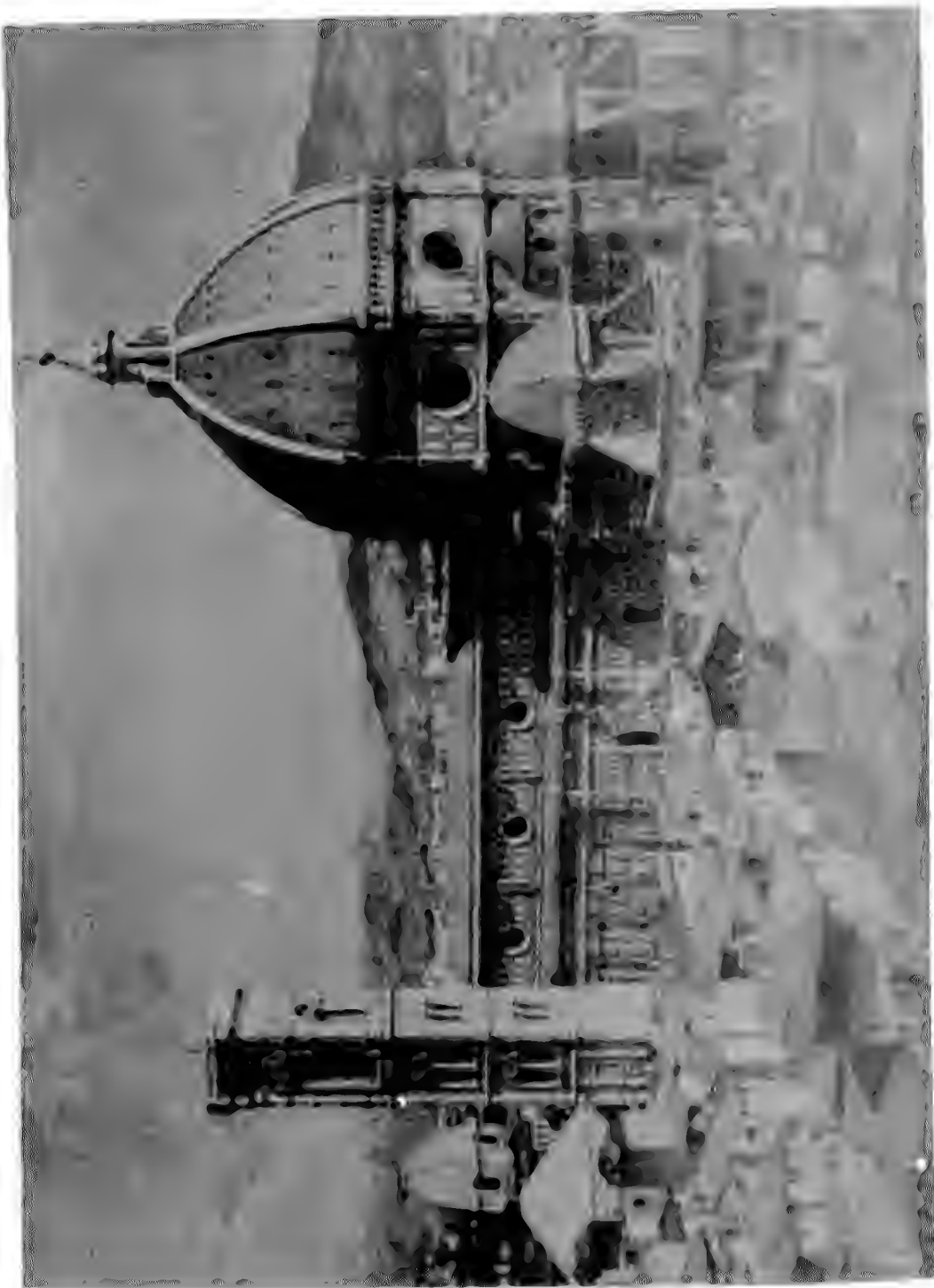
اللوحة ٤٤ - الحمراء في غرناطة (إسبانيا)



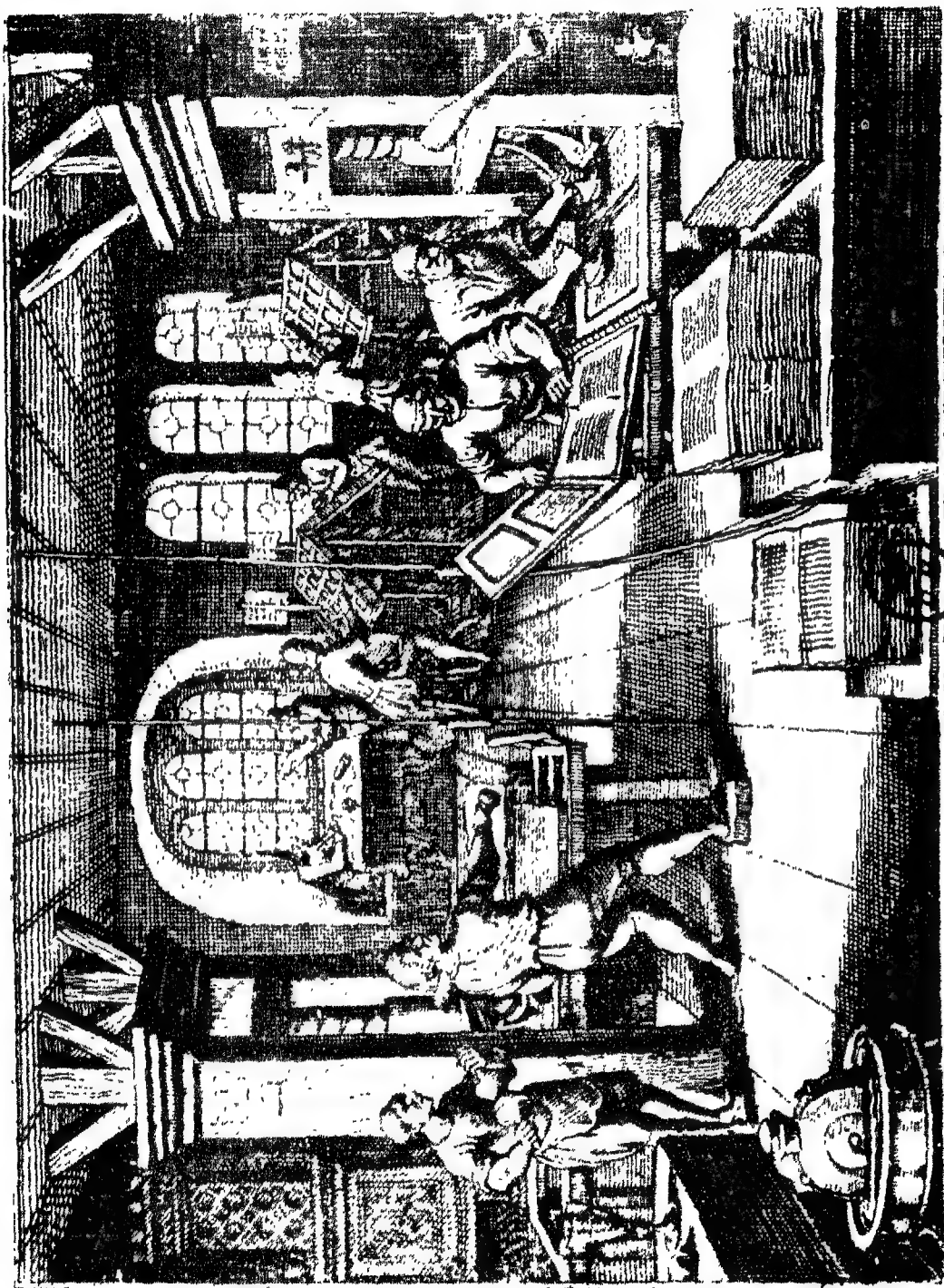
اللوحة ١٥ - أبو زيد والحارث يزوران مزرعة



اللوحة ٤٦ - الأمير هماي والأميرة هايون في حدائق امبراطور الصين



اللوحة ٤٧ - القبة والبرج في فلورنسا .



اللوحة ٨ - مطبعة

الفصل الثالث

فقدان النوازن السياسي في أوروبا

لقد شدّد التاريخ التقليدي على بعض الخطوط الكبرى للمنازعات السياسية التي أقامت بعض دول الغرب على بعضها الآخر أو افقدتها توازنها الداخلي : فكان القرن الرابع عشر ، بحسب هذا التاريخ ، قد شاهد في كل مكان زوال العالم الاقطاعي ، بينما كانت الملكيات تتلمس طريقها مترددة وتكد في امتحانها العسير لابتداع الانظمة والمؤسسات التي ستفضي الى الدولة العصرية الا ان هذا التبسيط غير مقبول اذا رأينا فيه صراعاً واعياً ودائماً بين مبدأين متناقضين ، احدهما ملك الماضي - الاقطاع - والثاني ملك المستقبل - الملكية . فان تحول الانظمة الاجتماعية كان بطيئاً وناقصاً ولم يشعر به المعاصرون ؛ وقد اكتفي زمناً طويلاً بالاطارات القديمة التي لم تطابق مقتضيات الحياة الجديدة كل المطابقة ؛ واذا ما زالت الدولة الناهضة تبحث عن مبادئها ودعائمه ووسائل عملها ، فلم تجد في النهاية مرتكزها وسلطانها الا في عياء الشعوب التائقة الى السلام . ولعل ابرز دليل على فقدان التوازن هذا ، الذي تفاقم بفعل مصاعب الحياة المادية ، هو تعدد الازمات السلافية التي افسح لها التاريخ محلاً مختاراً والتي تحدّد مراحل حياة الامم كما تزيد في عنف اهوائها السياسية .

علينا مع ذلك تجنب البحث 'باي ثمن عن التوافق بين المنازعات
مغزى المعاضل السلافية
السلافية ووقائع النظام الاجتماعي . فاوروبا مختلفة الاجزاء ؛ ومختلفة
من ثم اسباب نزاعاتها . بيد اننا نستطيع البحث عن بعض العلائق في ردود الفعل المتعاقبة التي
عينت ، في فرنسا ، ثم في انكلترا والممالك الاسبانية ، المراحل الرئيسية لحرب المئة سنة . كان
النزاع الفرنسي الانكليزي العظيم سلاباً في ما تذرعه به من اسباب وفي مرتكزه القانوني ، ولم
يتباد في الزمن الا بعد ثبوت استحالة حل الروابط التي اخضع لها العالم الاقطاعي تمايش امتين
وقفت احدهما الآن في وجه الاخرى وانتهت الى مساندة الملكيات بعد ان وعتا شيئاً فشيئاً
انهما امتان . وما كانت مبادهة البارونات الفرنسيين ، الذين نزعوا عن البنات ، في السنة ١٣١٦
والسنة ١٣٢٤ ، الحق في وراثة العرش ، ثم آثروا ، في السنة ١٣٢٨ ، فيليب دي فالوا ، الامير
« المولود في المملكة » ، على « ادوار الثالث » الشاب ، مع انه كان حفيداً ، لجهة امه ايزابيل ،

للملك « فيليب لوبيل » ، واقرب وريث ذكر للتاج ، لتؤدي وحدها الى نشوب النزاع . وما كانت مغامرات ادوارد الثالث ، على مانتقد ، لتعرف نجاحاً راهناً ، لو لم تقدم لها ، في داخل مملكة فرنسا ، بعض فئات اقطاعية عيّل صبرها من سلطة ملكية اسامت التصرف احياناً - بعض النبلاء النورمنديين وبعض ذوي الاخاذات البريطانيين ، و « الحزب النافاري » الذي ساند سلالة افرو ، والنبلاء الفسكونيون النشيط المتقلبون - مساندة اسلحتها ونجدتها : ففي بواتيه مثلاً (١٣٥٦) ، تقرر مصير المعركة عسكرياً على يد رؤساء الزمر الفسكونيين . اصف الى ذلك ان اختبار قيام اماره اكيثينية واسعة ، منفصلة تماماً عن مملكة فرنسا وخاضعة مباشرة للتاج الانكليزي ، لم يدم عشر سنوات . فان شارل الخامس قد تدرع ، بدوره ، بمعارضة النبلاء الفسكونيين لنقض الاتفاق واستند اليها لاستعادة سيطرته على الامارة كلها تقريباً . ثم حين تجدد النزاع بدافع من سلالة لنكستر ، في مستهل القرن الخامس عشر ، وحين ضربت معاهدة « طروا » عرض الحائط بمقررات السنة ١٣٢٨ وجعلت هنري الخامس ، في السنة ١٤٢٠ ، يتوقع صيرورة التاج اليه دونما التفات الى حقوق ولي العهد شارل ، لم يبد هذا الحل للنزاع السلاي مقبولا ممن انضموا اليه الا لان تمادي شغور السلطة الملكية وحدّة الحرب الاهلية قد جعلهم يأملون في اعادة النظام على يد ملك حازم عادل بلغ سن الرشد . ولكن هذه المحاولة قد اخفقت بدورها ايضاً : اذ ان هنري الخامس واخاه « بدفورد » اللذين اضطرا لمواصلة الحرب ضد ولي العهد ، ونظراً اليه نظرهما الى رئيس حزب ، قد عجزا عن اعادة النظام الى نصابه في بلاد عمها الخراب . وهو ولي العهد ، الذي امسى شارل السابع ، من استفاد في النهاية من ابتغاءات السلام والوحدة التي عبرت عن واقع قومي .

اما الثورات الانكليزية التي تصادمت فيها قوى اجتماعية مختلفة بعض الاختلاف ، فانها تنطوي مع ذلك على اوجه تشابه اكيدة مع الاضطرابات الفرنسية . فان الانقلاب الذي خلع به ادوارد الثالث ، في سن الثامنة عشرة ، نير وصاية امه عليه وقتل عشيقها مورتيمر (١٣٣٠) ، قد استند في الارجح الى بارونات معادين لكل عشيق ولتمسف اداري ربما رغبا في مقاسمته فوائده ؛ ولكنه عكس كذلك ردّ الفعل القومي على التخلّيات المسلم بها في سكوتلندا وأكيثين وفرنسا ، وكلها املاك واسعة سيوجه الملك الشاب اليها النشاط العسكري الذي تميز به هؤلاء النبلاء الوثابون . وهي هزائم الحرب الاولى ، التي عقببتها مرحلة طويلة الامد من الهدن ، ما سمح هؤلاء النبلاء انفسهم ، بعد مرور اربعين سنة ، بالانشغال مرّة اخرى بصراع الاحزاب انشغالا جعلهم يسلمون ، في السنة ١٣٩٩ ، باغتصاب هنري دي لنكستر ، وهو ملك دون حق وراثي ولكنه رمز البارونات الثائرين على « استبداد » ريشارد الثاني الذي اخذوا عليه ، بالاضافة الى ذلك ، تسليم برست وشزبورغ الى الفرنسيين والسعي لانهاء النزاع الطويل العهد والتزوج مرة ثانية من ايزابيل دي فرنسا . ولكن السلالة قد فقدت كل نفوذ وسلطة بعد زوال ولاية هنري الخامس القصيرة ، فاتيح للاحزاب ان تتبادى في عنفها وتبادى في سخطها ، ولا من حافز يحرّكها سوى

طموح رؤسائها - ريشارد دي يورك وابنه ادوارد - ومن ملاط يجمعها سوى التضامن بين العائلات وتكتل الزبن الاتباع . اما حرب الورود ، وقد كانت اضطراباً سطحياً ، فقد تذرعت باعذار سلالية : زواج هنري الرابع من فرنسية ، وتأخر ولادة وريثه ، وبلادة الملك ، والحشية من وصول سلالته « بوفور النفيلة » الى العرش . وسيان عند « صانمي الملوك » آنذاك كان مرشحهم فارساً لامعاً او مجنوناً حقيراً . اما الطبقات الاجتماعية الاخرى ، من بورجوازيين ودعاء ، وفلاحين وجلين ، وملاكين ريفيين حكام ، فما كانت لتنتظر سوى قيام سلطة حقيقية ونهاية الاضطرابات ، على غرار ما انتظرته مثيلاتها في فرنسا قبل زمن قصير .

ان الابناء الثائرين وابناء الزنى المغتصبين والاشقياء الاعداد ملأوا تاريخ الممالك الايبيرية آنذاك باحقادهم واحسادهم وجرائمهم . ومرد ذلك الى الخلافات بين الاحزاب في بعض الحالات ؛ والى انتفاضة قومية ضد سلاله اجنبية ، في حالات اخرى ؛ وفي غالب الاحيان ، كما جرى في بريطانيا وفي فرنسا نفسها ، الى تأثير النزاع الفرنسي - الانكليزي الكبير . فان البراز بين « بيير الطاغية » وبين اخيه من ابيه « هنري دي ترنستار » ، الذي فصل فيه لمصلحة الثاني عن طريق مأساة « مونتيل » (١٣٦٩) ، قد اثبت ان على قشتالة ان تبقي حليفة فرنسا ؛ واذا ساعد بورجوازيو ليسبوننا ، تساندهم كافة الطبقات الشعبية وطبقة صغار النبلاء ، على تغلب « جان دافيز » ، الامير النفل ، على المطالب القشتالي بالعرش (١٣٨٥) ، فقد بدا هذا النصر لانكلترا وكأنه وسيلة لضمان حليف جديد في شبه الجزيرة . اما اراغون ، فعلى الرغم من مرورها في مرحلة توسع مزدهرة ، لم تخل من الاضطرابات السلالية ؛ كما ان « نافار » الصغرى قد عرفت مثل هذه الاضطرابات بعد انقراض سلالته « افرو » (١٤٢٥) . وقد ارتدت تسوية « كاسب » (١٤١٢) ، التي اعطت اراغون لفرديناند قشتالة ، ثم زواج ابن هذا الاخير ، جان الثاني ، من « بلانش دي نافار » ، طابع الهشاشة نفسه الذي تتميز به التسويات السلالية . فقد جاء الواقع يناقضها : لان صهر اراغون وقشتالة ونافار في دولة واحدة كان سابقاً لاوانه . ولكن ما يلفت الانتباه ، في هذه المآسي ، حدث مميز هو موقف كاتالونيا من جان الثاني ما بين السنة ١٤٦٠ والسنة ١٤٧٢ : فان المطالبين بالعرش الذين استدعتهم ، سواء انتسبوا الى اراغون او النجو او البرتغال ، كانوا انصار صوالح ومشاعر السكان الكاتالونيين الثائرين لانقراض استقلالهم ، قبل ان يكونوا انصار قضية سلالية .

بين الدانوب والبحار السكندينية ، لم تخل مملكة واحدة من ممالك الشمال والشرق الاضطرابات السلالية التي ارتسمت من خلالها احياناً مداخلات شعبية قليلة الاهمية . لقد سيطرت الفوضى الشاملة ، في اوائل القرن الرابع عشر ، على البلدان الشمالية . فبينما اخضعت نروج واسوج بوحشية ، في اعقاب جريمة قتل مرعب ، لسيادة ملك فرد ، المحذرت الدانمرك ، في عهد خريستوف الثاني وفلدمار الثالث ، الى احط عهود تاريخها ؛ وقد ردّد احد الكهنة الدانمركيين مراراً آنذاك : « ايه داسيا الحزينة » ؛ وقد انتهى ملك فلدمار

الرابع المصلح نفسه (١٣٤٠ - ١٣٧٥) ، بسقوط كوبنهاغن على ايدي جيوش المدن الهانسية وبصلح « سترالسوند » (١٣٧٠) المذل . وعلى الرغم من ذلك ، فان زواج ابنته الوحيدة « مرغريت » من هاكون النرويجي ، وهزيمة مفتصب تاج اسوج المكلمبورغي (١٣٨٩) ، قد افضيا الى اتحاد الممالك الثلاث الذي وطدته جمعية « كلار » وتتويج اريك (١٣٩٧) . ولكن هذا الاتحاد قد زال ، بعد انقضاء اربعين سنة ، باقالة اريك نفسه . فانخذت الروح الحزبية في اسوج آنذاك شكلا قومياً وقدمت لها المنازعات السلالية غذاء حسياً .

يصعب علينا ان نكتشف معنى ابعاد عمقاً للتسويات التي قام بها ملوك اوربوا الوسطى ، ولا سيما « لويس الاكبر » ملك هنغاريا الانجوي الاصل ، الذي افضت محالفاته الزوجية مع آل هبسبورغ وآل لوكسمبورغ « والبياست » الاخير في بولونيا ، عن طريق مجموعة من الوراثة ، الى ايجاد اتحاد مؤقت بين المقاطعات القائمة بين سهل الدانوب والفيستول الاسفل . ثم تجددت المحاولة ، وتحققت جزئياً ، في القرن التالي ، على يد سلالة جاجلون البولونية الليتوانية . ولكن زواج وريثة عرش هنغاريا من سيجيسموند دي لوكسمبورغ ، في هذه الاثناء ، قد اجاز التفكير باطباع ماثلة لسلالة بوهيميا . فلا ريب ان هذه الاخيرة ، التي كان مؤسسها الحقيقي « شارل الرابع دي لوكسمبورغ » ، قد وعث كل الوعي دورها في اوربوا الوسطى . واذا ما حدث لهذا الملك ان ضحى بمصالح الامبراطورية لبوهيميا واهمل التقاليد الامبراطورية في ايطاليا وجعل من براغ عاصمة ومركزاً لجامعة جرمانية - سلافية ، فربما فعل ما فعل لانه نظر الى ابعاد من حدود الامبراطورية : وقد اظهرت قصور خلفائه وثورة بوهيميا الدينية تداعي مشاريع واهية في الارجح .

وفي نطاق اضيق الى حد بعيد ، تتميز ايطاليا بتعقيدات اكثر تشابكاً ايضاً لا
ايطاليا
يسعنا ان نستخلص منها سوى بعض الخطوط البسيطة . ففي الجنوب لا توجز مآسي جان الاول دي نابولي البيتيه اضطرابات مملكة نابولي ، التي سبق وانتزعت منها صقلية ، والتي تشابك فيها اطباع بلقانية عادمة السياق بجشع جموح نبلاء نصف نابوليين ونصف بروفنسيين . اضاف الى ذلك ان التنافس الشديد بين سلالتي انجو واراغون ، وانتصار هذه الاخيرة في السنة ١٤٣٥ ، لم يكونا مجرد منازعات بين الاشخاص او السلالات ؛ فبالنسبة لتاج اراغون ، بصورة خاصة ، كان امتلاك شبه الجزيرة الايطالية تلبية لسيطرة بحرية حقيقية تؤلف التجارة الكاتالونية مرتكزها الاقوى ؛ وان في اقامة جيوش اراغونية في كورسكا الجنوبية ، وسلب مرسميليا (١٤٢٢) اقتصاصاً من هذا المرفأ الكبير لانضمامه الى الانجويين ، لدليلاً على وحدة نادرة آنذاك في اوربوا بين الاطباع السياسية والمصالح التجارية .

وكانت ايطاليا الشالية والوسطى اشد تعقيداً ايضاً ؛ فقد تعاقبت فيها ، على غير ظاهر منطقي ، المنافسات بين العائلات وبين الاحزاب ، والحروب والاغتيالات . بيد اننا ندرک

المصير الجلي الذي استدفته الجمهورية البندقية ، تلك الدلة الاوليغارشية المركزية التي استعاضت عن خسائرها في ، ومانيا على ايدي الاتراك بمواقع انكفاء على شواطئ الادرياتيكى وعلى اليابسة : فان حرب قراري (١٣٠٨ - ١٣١٣) كانت الدليل الاول على سياسة اقليمية ستوسع توسعاً مطرداً في الاجيال اللاحقة . الا ان فلورنسا ، في مستهل القرن الخامس عشر ، قد اروت غليل احقادها على بيزا ، وغدت من ثم الدولة الوحيدة الهامة في توسكانا ، فوطدت ثروتها . وهكذا فان اطماع سياسة الدوجية والسيادة قد جعلت للمدينة التجارية ابعاد دولة اقليمية ، بينما اعدت اطماع المستبدن الجامعة ، في لومبارديا ورومانيا ، حصراً ثمناً للسلطات . فأخذ عهد الامراء شيئاً فشيئاً يخلف عهد التكتلات البلدية . ولنا عن الأولين مثل كلاسيكي في ميلانو ايام آل فسكونتي ، ولكنه مثل فقط ، فقد واصل « جيانغا لياو » (١٣٧٨ - ١٤٠٢) عمل « ماتيو » و « برنابو » واستطاع ان يترك لابنائه السيطرة على قرابة نصف ايطاليا الشمالية ، بين الالب والابنين ، بالإضافة الى اللقب الدوقي ، اما الوسائل التي امنت له ذلك فهي المصاهرات والمشتريات والوراثات التي تركت له او استولى عليها بالحيلة ، والسجن ، والاغتيال ، ودس السم ، وبلغ من رسوخ ومتانة هذه التقاليد الميلانية ان آل سلورزا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد ساروا على خطى اسلافهم آل فسكونتي . اما مصير جنوى فكان اشد اضطراباً بفعل شدة ما نالها من ظهور الممانيين المفاجيء ، في المضائق وبحر ايجه ، وانقسام احزابها وطمع الميسلانين بها . ولكنها اعطت المثال ، الذي سيقضى به ، باستنجاحها بالاجني ، اذ انها وضعت نفسها مرتين تحت كنف ملك فرنسا ، منذ السنة ١٣٩٦ حتى السنة ١٤٠٩ ، ومنذ السنة ١٤٥٨ حتى السنة ١٤٦٦ . وهكذا ارتسم خيال « امير » ما كيا في بشكل المستبدن ، كما ان اندفاع هؤلاء وراء الفتح والسيطرة قد مال الى تبسيط خريطة ايطاليا السياسية على غرار ممارسة السلطة . الا ان شبه الجزيرة ما زالت غارقة في الفوضى ، وامل الحياة فيها كانت اسهل من ان تشعر المدن ، على غرار المدن الالمانية او المقاطعات السويسرية ، بالحاجة للجوء الى حسنات رابطة الاتحادية .

في ظل اختلاف الاوضاع المحلية المدهش ، تراحت الممالك والامارات والمدن في كافة النحاء اوروبانية توسيع اراضيها . فوجدت الدولة من ثم امام اعباء جديدة املاها عليها في الوقت نفسه اصحاب النظريات السياسية ؛ ولا يخلو من المغزى ، في قرن « مارسيل دي بادوا » و« غليوم اوكهام » ويقولوا اورسم ، ان تتمثل سلالة آل فالوا وسلالة آل لوكسمبورغ ، وهما ارفع سلالات اوروباً قدراً ، « بملكين مكتبيين » ، شارل الخامس وشارل الرابع ، اللذين اندرجت ولايتهما بين ولايات اشد الامراء نزعة فروسية وهمية في ذلك العهد من امثال « جان له بون » و « شارل السادس » و « جان الامسى » وسيجيسموند . ان في ذلك لرمزاً الى مجتمع لمسا يتعود مفاهيم الدولة الجديدة ، ورمزاً ايضاً الى التفاوت بين ضخامة الاعباء الجديدة للمقااة على عاتق الملوك وهزال وسائلهم التقليدية .

يرد شمول ديمومة الاضطرابات والحروب ، في الدرجة الاولى ، الى عجز نقص موارد الدولة
السلطة او حزب من الاحزاب عن احراز الغلبة وفرض السيطرة . فان

ملوك فرنسا وانكلترا. انفسهم لم يجدوا آنذاك في موارد المناطق التابعة لهم الادوات اللازمة لتوسيع نشاطهم ، ولا سيما لمشاريعهم العسكرية . لقد سبق وتكلمنا عن ضعف القوى التي استخدمها اعظم الملوك قوة آنذاك ، كما سبق وتكلمنا عن الجهود التي بذلت في انكلترا أولاً ، ثم في فرنسا ، لرفع القوى العسكرية والبحرية الى مستوى المهام المسندة اليها ولتدريبها على فنون الحرب الجديدة . ولكنها جهود غير كافية لانها قامت على تنظيم اجتماعي ولى زمانه . فقد اسندت الخدمة الاقطاعية ، حق المأجورة منها - وهذا ما تحقق منذ اواخر القرن الثالث عشر - الى تسلسل الاخذات العقارية ، ولم تسمح من ثم بتجنيد جيوش هامة ولا بالانضباط الضروري في النزاعات الطويلة الامة . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، فقد عند الملوك والامراء في شراء خضوع الاسياد الوراثةيين ، والحوول دون تجزئة الاقطاعات او انتقالها الى البورجوازيين ورجال الدين ، وحتى في فرض الفروسية على كافة المستفيدين من دخل عقاري يتجاوز العشرين ليرة ، كما جرت محاولة ذلك في انكلترا . فالجتمعة العسكري ، في نظرهم ، لا يزال مرتكزاً الى تسلسل السيادة على الاراضي والى روابط التبعية الاقطاعية . ولكنهم ، بعد ان امست الحرب مهنة ، سمحوا بان تقوم حولهم روابط تبعية اخرى مبنية على المال لم يروا بعد بخلاء كل ما تنطوي عليه من محاذير : وهذا ما حدث للبارونات الانكليز الذين اضطروا ، في سبيل تقديم جنود مأجورين سيقودونهم الى اليايسة قلبية لكل مصادرة يطلبها ادوارد الثالث ، الى تمهد « فرقة » مأجورة يجندونها بالتعاقد ، تتقدم مهمتها على الواجبات الاقطاعية او تتعارض معها احياناً . ولكن افراد هذه الفرقة ، الذين يلتحقون بمن يؤمن لهم الاجر الافضل ، ينتقلون من معسكر الى آخر بمثل سهولة انتقال فرق ادلاء الطرق او زمر المرتزقة الايطاليين . ومع ذلك ، لم يكن هناك من وسيلة ، لتفادي تشوش النظام الاجتماعي ، سوى اللجوء الى المرتزقة ، بسبب عدم وجود الجيوش الدائمة ؛ ومن هنا صعوبة الجمع بين الجنود المأجورين وبين الفرق الاقطاعية التي اشتهرت باحتقارها « للمشاة الادنياء » ؛ ومن هنا ، بالتالي ، انعدام تلاحم الجيوش . ومهما كان من الامر ، فقد توجب الانفاق لمكافأة الخدمات ولتجهيز المرتزقة بالاقواس العادية والاقواس الفولاذية ، وتعزيز الحصون ، وبناء السفن وتموينها . ولكن عملية واحدة ، حتى ولو كانت محددة في المكان واخلوا من الكوارث ، وحتى من المارك ، كحملة ادوارد الثالث على هولندا في السنوات ١٣٣٨ - ١٣٤٠ ، كانت كافية لاستنزاف اموال خزينة . كما ان مجرد تعهد حامية مؤلفة من ١١٠٠ جندي في « تخوم » كاليه قد ابتلع ، في السنة ١٣٧١ ، خمس الدخول العادية للملكية الانكليزية . فكانت كل حملة ، من ثم ، تجدد معضلة صارخة كبرى : اذ ان مصير النزاعات كان يتوقف الى حد بعيد ، على توفر الاموال او فقدانها .

ان ما نعلمه عن المداخل العمومية بواسطة ما وصل الينا من محفوظات فرنسا المالية . وبواسطة المستندات الاسبانية الكثيرة ، وان لم تدرس بعد دراسة كافية ، وبواسطة الحسابات

العائدة لانكلترا والدول البورغونية والمتصلة الوقائع اتصالاً نادراً ، تظهر بوضوح ان مداخيل الاملاك التقليدية قد باتت غير كافية في كل مكان . فقبل حدوث كوارث الحرب الانكليزية الباهظة التكاليف ، ثبتت حسابات خزينة « فيليب له بيل » عجز الملك عن « العيش بما لديه » ؛ ولا تحتاج صعوبات « جان له بون » او صعوبات ملك بورج المفجعة الى أدلة حسابية ، مفقودة لسوء الحظ . اما حركة اموال الخزينة الانكليزية ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الحيل الحسابية التي تشوّه واقع التفاوت السنوي بين هبوطها وارتفاعها ، فتظهر ، ابتداء من السنة ١٣٣٦ ، مزيداً من التضخم في الحاجات ارتفعت معه الواردات ، التي لم تتجاوز ٣٠٠٠٠٠ ليرة حتى ذلك العهد ، فبلغت ٣٥٠٠٠٠ ليرة احياناً ، دون ان تقل قط ، طيلة ما تبقى من القرن ، عن ١٠٠٠٠٠ . ونعلم اخيراً ان الدوقين البورغونيين الاولين من سلالة فالوا قد اعتمدوا على خزانة فرنسا لسد عجز دائم ، بينما عرف فيليب له بون ، على الرغم من وضع افضل ، سنوات صعبة جداً ايضاً .

لعله يجدر بنا اظهار فروق الوقائع ونميز ما لم يميزه اهل ذلك العصر الذين تعيشوا كلهم بالكد اليومي بين مصاعب صندوق المال وبين عجز الموازنة . فان الاموال العمومية ، مهما بلغ من سوء ادارتها ، قد بقيت قادرة على تحمل نفقات مشاريع عظيمة : جهود انكلترا في اوروبا التي تجددت طوال خمسة اجيال ؛ توسع اراغون في المتوسط ؛ تمكن ملك فرنسا ، بعد كرسي ، من شراء مقاطعات « دوفينه » ، ودفع فدية الملك جان بعد بواتيه ، واعادة تنظيم الجيوش بعد شارل الخامس ، وبذل مجهود مائل في ايام شارل السابع ؛ وتمكنه كذلك من سد حاجات سلالة بورغونيا ؛ وقيام سلالة لو كسمبورغ اخيراً بعملية اعادة جمع الاملاك على نطاق واسع . ويبدو ان الممالك السكندنافية نفسها ، على الرغم من قلة مواردها البشرية والمالية ، قد استطاعت ، في حروبها الدائمة ، ان تعيش من املاكها مدة اطول من ممالك الغرب . ولكن ما لا ريب فيه هو ان المشاريع الكبرى ، سواء أسفرت عن نتائج دائمة او فشلت فشلاً ذريعاً ، قد ارهقت أبداً اموال القائمين بها . فان الموارد العادية ، حتى ولو احسن استثمارها ، أعجزت عن ان تفي بمحاجاتها .

تألفت املاك الملك ، في بلدان اوروبا المختلفة ، من عناصر مماثلة : اراضي استثمار زراعي ، احراج ، مناجم ، ملاحات ، رسوم مفروضة على اليهود (الذين اقصوا تدريجياً عن ممالك الغرب) ، عائدات الاسواق الدائمة والاسواق الدورية ، رسوم المرور ورسوم الجمارك ، النقود ، غرامات القضاء ، نصيب الملك من واردات الوظائف الكنسية . وكانت مداخيل الارض ذات أهمية رئيسية ، فأديرت من ثم خیر ادارة ؛ وكان لها شأن كبير في المانيا وفرنسا حيث الاملاك الملكية اعظم اتساعاً منها في البلدان الاخرى . ثم ان ادارة الاحراج ، التي أعارها ملوك انكلترا انتباههم منذ زمن بعيد ، قد كانت في فرنسا ، خلال القرن الرابع عشر ، موضوع اهتمام متزايد حدّده بدقة ، في السنة ١٣٧٦ ، اول تنظيم على نطاق واسع تناول المياه والاحراج . وكانت مناجم الفضة موارد كسب للعديد من الامراء الالمان وملك بوهيميا ؛ ووفرت الملاحات لدوقية

بريطانيا وبرغونيا ، وللعولك الاسبان ايضاً ، وارادات عظيمة . وأمنت الجمارك في انكلترا مكاسب دائمة تفوق الى حد بعيد مداخيل الاملاك العقارية . وتفسر أهمية مداخيل سك النقود ، وهي عظيمة في فرنسا وهولندا وإيطاليا واسبانيا والامبراطورية ، وأقل شأنًا في انكلترا حيث عرفت النقود الذهبية والفضية مزيداً من الاستقرار ، تأثير هبوط الحركة الاقتصادية وارتفاعها على السياسة .

لم تخضع طرائق ادارة الاموال ، في تطورها ، لحركة واحدة في كل مكان . الا ان كافة الملوك قد وجدوا أنفسهم امام واجب مشترك قضى عليهم بالحصول على المزيد من المال دوغماً رقابة . استفادت انكلترا من رصيد تقاليد متأصلة اشتهرت بها في ادارة مالية أثبتت التجارب حسناتها ؛ ولكن هذه الادارة تخرت في نسقها المطرد المتردد ، وحال ضيق الاملاك العقارية وعلة تزييم مداخيلها ، ببدل ثابت ، للمأموري الاحكام المدنية ، دون استثمار الحقوق الملكية استثماراً مجدياً . فوجب انتظار ولايسة سلاله لنكستر ، الذين ملكوا دون ان يحكموا ، حتى تلعب الاملاك الملكية ، وقد اتسمت بأملهم الخاصة ، دوراً اولياً مؤقتاً في تقويم اموالهم .

كانت الممالك الاخرى امام مهمة جديدة . فان الملكية القشتالية ، بعد ان بددت قسماً من أملاكها ، لم تقم لنفسها ادارة تشبه ادارة اراغون التي كانت أشد حرصاً على ان لا تفقد شيئاً من مداخيلها ؛ وما اعظم التبسين بين صلاحيات غامضة اعطيت المشرفين على الاملاك في قشتالة ودور محدد جداً اسند الى المشرفين على الملاحات الاراغونية ، وبين البلبلة التي سادت زمناً طويلاً ، هنا ، رقابة الاموال ونظارة دار الملك ، وتخصص بعض رجال قصر الملك هناك ، منذ أوائل القرن الرابع عشر ، في ادارة وارادات ونفقات الممالك الثلاث التي تؤلف تاجه . اما في فرنسا ، فان القضاة ، يعاونهم الجباة وضباط الاحراج والجمارك ، ويخضعون أنفسهم لرقابة غيرهم ، فقد كانوا رجال الملك حقاً . وقد تقدم عليهم صندوق الخزينة وديوان المحاسبة اللذان حددا تدريجياً مهامها المركزية . اجل ان ادارة المداخيل العادية ، التي حددتها أنظمة شارل الخامس والد « مرموزيه » ، قد قاست ما قاست ، في عهد لاحق ، مما اقدمت عليه الاحزاب من تبذير . ولكن اموالها ، على اهميتها ، لم تعد ، منذ زمن بعيد ، لتقارن بالواردات « غير الاعتيادية » .

والسبب في ذلك هو ان الامراء ، الذين حاولوا في كل مكان استثمار املاكهم الى أقصى حدود الاستثمار ، قد عملوا ، في كل مكان ايضاً ، في سبيل دثور هذه الاملاك نفسها . فقد انحسروا ، في معالجتهم بعض الحالات المستعجلة ، امام التماسات ذوي الخطوة ومطالب العظماء فتخلوا احياناً عن اجزاء هامة من هذه الثروة العقارية التي ما زالت تعتبر تراثاً خاصاً بهم . وليس المقصود هنا معاشات او اعطيات طارئة ، بل التخلي نهائياً عن مداخيل الارض ان لم يكن عن الارض نفسها احياناً . وبات الرهن آنذاك آفة ثروات الامراء . فبسببه تقطعت اوصال الاملاك القشتالية وصار اثرياف الامبراطورية الى الافلاس ؛ وهكذا فلم يبق لأمير براندبورغ ، في السنة ١٣٧٥ ، من حقوق قضائية ، الا في ٣١ قرية من اصل ٤٦٧ اشتملت عليها املاكه الواقعة

بين الالب والاوردر . حاول الامبراطور شارل الرابع المعصاء على هذه العادات السيئة رغبة منه في جمع ثروة آل لوكسمبورغ مرة اخرى ، ولكن الداء نفسه قد أضعف الممالك السكندينية وممالك أوروبا الوسطى أيضاً . وكانت الصراعات الحزبية بين ارمانياك وبورغونيين في فرنسا فرصة لتبدلات خطيرة في امتلاك الاراضي حاول واضعو النظام الكابوشي إيقاف تيارها . ولم تنج املاك سلالة لنكستر من هذه الآفة أيضاً في عهد هنري السادس . اما دوافع هذه الآفة المستعصية فجشع الافراد الذي ساعدته المصاعب المالية الدائمة التي تجبطلت فيها الحكومات . ولكن المستفيدين كانوا اولئك بالذات الذين وجب اللجوء اليهم لسد عجز الخزينة . وقد بلغ من ضعف مداخيل الاملاك ان الدولة قد اضطرت ، لتأمين موارد جديدة ، الى الاستعطاء والالحاح في التسوّل ، وبلغ من تكرار حاجاتها الاستثنائية ان موارد غير الاعتيادية أصبحت في النهاية عادية واتجهت نحو الاستمرار ، وتجاوزت الى حد بعيد موارد الاملاك الطبيعية .

الوارد الجديدة
كان من الجدير بنا ان نتوسع في دراسة القروض التي طالما اعتبرت سرّ الحيل المالية ، مع ان امراء ذلك العهد قد اعتمدها في معيشتهم اليومية بسبب اضطرارهم الى استباق موارد الاملاك او الموارد الجبائية التي لا تجمع الا في موعد متأخر . اما المقصود بهذه القروض فقروض قصيرة الاجل - ان اقرار الدخول ، مدى حياة أمير او أكثر ، بواسطة المدن او مجالس الدول ، لم يطبق الا في امارات هولندا - ترتفع فوائدها بارتفاع ديون الامير ، اذ ان المقرضين ، حتى المرغمين منهم ، يفرضون آنذاك فوائد باهظة ، ورهونات منقولة ، والتخلي عن بعض المداخيل . وتشكل هذه القروض ديوناً غير ثابتة هامة جداً احياناً ، وهذا هو وجه الخطر فيها ، على ان الادارات المالية تجمل قيمتها الصحيحة . ولكن سواء كان الدائنون رجال اموال ايطاليين استهوتهم هذه المضاربات الرابحة على ما تنطوي عليه من اخطار ، او دائنين لم تدفع لهم حقوقهم ، او مقرضين مرغمين ، او مدناً ملزمة باقراض اموال يزول دخلها بزوال صاحبها ، او ملتزمي املاك يسلفون فوائد جبائيتهم ، فلم يكن بدّ منهم للملوك كما لم يكن أثقل منهم على ادارة الخزانة ادارة حسنة . فمست الحاجة الى موارد ثابتة تأمنت في كل البلدان بتنمية المساعدة الاقطاعية : مساعدة واقتطاع في فرنسا ، مدد نقدي في انكلترا ، « خدمة » في قشتالة .

لقد سبق ورأينا كيف ان الملكية الفرنسية حذت حذو الملكية الانكليزية ، في منعطف القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وتوصلت الى ان تفرض على مجموع رعاياها ، في الظروف الهامة ، وخارج نطاق الاملاك والعلائق الاقطاعية ، مساعدات نقدية يستمضون بها عن الخدمة العسكرية . اما ان يكون كل فرد قد ألزم آنذاك ، حين دعت الحاجة ، بأن يسهم مالياً في الدفاع عن الدولة ، فهذه قاعدة قانونية جديدة عادت الى القرن الرابع عشر مهمة حمل الرأي العام الحرون على القبول بها . فألفت العقول تدريجياً ، ولو ببعض الصعوبة ، مبدأ شمول الضريبة ان لم يكن مبدأ استمرارها . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر يبدو ان الدائم تارك قد عرفت

استمرار فدية الخدمة البحرية المطلوبة من غير الاشراف . اما الجديد الذي أتت به الاجيال اللاحقة ، فهو جعل « غير الاعتيادي » اعتيادياً ، ليس في مبدئه فحسب بل في مطرحة وجبايته ايضاً . وقد استند في فرض الضريبة ، على الرغم من كفيات مختلفة ، الى الثروة المنقولة بوجه عام : المواشي ، الحبوب ، المزروعات ، الاحتياطي النقدي ، الديون . اما محاولات فرض الضريبة الشخصية التي جبيت ثلاث مرات في انكلترا بين السنة ١٣٧٧ والسنة ١٣٨١ ، فلم تسفر الا عن فشل وخيبة امل . وفي غالب الاحيان ، فرضت الضرائب على العائلات بالاستناد الى مقدار مواردها ، ولكن سرعان ما تحولت ضريبة الكمية النسبية الى ضريبة توزيع متساو ؛ وحدث احياناً في انكلترا وفرنسا مثلاً ، ان معدل الضريبة كان في المدن أعلى منه في الارياف ، لان تقدير ثروة سكان المدينة كان اصعب مبنياً ؛ واستندت الضريبة في بلدان اخرى ، كما في أراغون مثلاً ، الى دلالة ظاهرة من دلائل الثروة كزوج ثيران مثلاً . وفي كل مكان ايضاً ، كان الطرح والجباية من واجب ممثلي المكلفين انفسهم . ولكن الذين سبق لهم وقبلوا بتقديم مدد مالي قد طالبوا احياناً بالجباية والادارة والرقابة : فقد عين البرلمان الانكليزي تكررأ ، لا سيما في أيام هنري الرابع دي لنكستر ، « خزنة حروب » واخضع حساباتهم لرقابته ؛ وقام مجالس الطبقات الفرنسية ، في السنة ١٣٥٥ ، بمحاولة مماثلة ، وسريعة الزوال ايضاً ؛ ولكن محاولة الممثلين القشتاليين ، ثم محاولة الامارات الالمانية وامارات البلدان البورغونية ، في القرن الخامس عشر ، كانت اطول بقاء . وهذا ما يفسر قيام ثنوية شبه شاملة في الادارات المالية : فرع للاملاك وآخر للمداخيل غير الاعتيادية . وعرفت فرنسا هذه الثنوية ايضاً ؛ فان نظام المختارين و « قادة » المساعدات ، الذي اقرته مجالس الطبقات في السنة ١٣٥٥ ، قد دام حتى العهد المعاصر ؛ ولكنها تسمية خاطئة لان المقصود هؤلاء الموظفين ، منذ ولاية شارل الخامس ، ضباط ملكيون تعينهم السلطة ، ليس لمجالس الطبقات اي دور في اختيارهم . واذا كان شارل الخامس نفسه قد تأثر بتشكك ضيمره وهو مشرف على الموت فالقى « الاقتطاع » في السنة ١٣٨٠ ، واذا كان جان سان بور ؛ رغبة منه في استئالة الشعب ، قد ألغى المساعدات ، فقد استطاع شارل السادس ، بدون استشارة المجالس ، ثم شارل السابع من بعده ، بموافقة هذه المجالس ، اعادة « الاقتطاع » والمساعدات ؛ فجمعت الملكية الفرنسية آنذاك ، بصورة منتظمة ، ثلاث فئات من الضرائب « غير الاعتيادية » : الضريبة على الملح التي امتست شاملة منذ ولاية « فيليب دي فالوا » ؛ والمساعدات على المضائق ؛ والاقتطاع . ولم يكن ملك انكلترا قد توصل ، في الوقت نفسه ، الا الى توطيد رسوم الجمارك ، بينما بقيت المساعدات النقدية رهن استعداد المجالس .

كان ، بالنسبة للحكومات ، ارتفاقاً حقيقياً ان تدين بوسائلها النقدية لحسن استعداد المكلفين . الا ان ادعاءات هؤلاء لم تكن ثورية على وجه التأكيد اذ ان العرف الاقطاعي قد ترك للامير ولاتباعه او رعاياه مهمة الاتفاق فيما بينهم على معدل المساعدة . اما الجدة فهي الميل الى الخروج من دور المعاوين والمستشارين لاجل مراقبة الامير . ولكن متاعب الحكومات

السياسية والمالية لا تفسر وحدها محاولات فرض الوصاية هذه : فان تقلبات دول القرون الوسطى ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ترد الى تطورها الاجتماعي قبل اي شيء آخر .

ان السيادة التقليدية ، التي تشوشت رويداً رويداً تحت القوى الاجتماعية الجديدة :
ضغط الاحداث الاقتصادية ، قد امتست مرتكزاً غير كاف
للنظام الاجتماعي فطبقة الاشراف المعارين التي افتقرت
وُحرمت حق القيادة بفعل تقدم الدولة ، فقدت حتى استقلالها الشخصي . والروابط الاقتصادية
التي قامت على امتلاك اقطاع واقسام اليمين للسيد ، استبدلت تدريجياً بروابط جديدة تعاقدية ،
على اساس مالي ، افاد منها العظماء . اجل لقد كان تأسيس منظمات الفرسان ، في القرنين الرابع
عشر والخامس عشر ، ردّة فعل دفاعية تلبي الحاجة الى تشديد وفاءات مترددة وتركين اخلاصات
تعرض للفقدان . ولكنها ردة فعل باطلة ؛ فان ظاهرة مركزية سياسية واقتصادية قد حدثت
من عدد الاسياد العظماء وجعلتهم اوفر قوة ، اي اشد خطراً . ولدينا امثلة لا تحصى عن ابتلاع
السيادات الكبرى للسيادات الصغرى وعن تسلط كبار اصحاب الاخاذات على صغارهم . فان
الاقطاعيين الالمان قد خضعوا تدريجياً لسيطرة طبقة عظماء الاشراف ؛ وقد برز هذا التطور في
ولاية براندبورغ بصورة خاصة ؛ ولكننا نجد الواقع نفسه في امارتي فرنسا الجنوبية ، « فوا »
« وارمانياك » ، حيث انتقل ذاك السيد الفسكوني من سيادة الملك المباشرة عليه الى سيادة
الكونت ، ثم اعوز له المال فلم يبق له سوى حق تملك اراضيه ما دام حياً بانتظار فقدان هذا
الحق نهائياً . وهو المال ، في اطار الخضوع الاقطاعي الذي ابقى عليه هنا ، ما يربط البشر
بعضهم ببعض منذ اليوم : فان الشريف ، المدين لاميير يتقبل منه الخدمات اللطيفة والاعطيات
والمداخيل ، كان اشد تبعية له منه في الانظمة القديمة . وقد شكل مجموع هؤلاء الزبن فرق
العظماء وازلامهم ، او « محافظيهم » كما كان يقال في انكلترا ، لان الزبون كان ملزماً بـ « المحافظة »
على صوالح حاميه .

سار الامراء اخيراً على نهج الملوك بان احدثوا في دولهم مؤسسات ادارية ماثلة لمؤسساتهم
اختلفت اشكالها باختلاف الاخلاق القومية ووضع البلاد السياسي ودرجة الكمال التي بلغت المثل
الملكية المستوحاة . فكان هذا الشكل قليل الوضوح في اسبانيا مثلاً حيث لم يجد « الرجال
الاغنياء » في قشتالة واراغون ، فوقهم ، مثل الملكيات المركزية . بينما كان اعظم بروزاً في
السيادات الالمانية الكثيرة - وقد تجاوز عددها الـ ٣٠٠ آنذاك - التي كان لامرأها ، على نهجهم
النهج البطريكي القديم ، الى جانب مجلس الامارة الذي يضم فيه الفرسان آرائهم الى آراء ذوي
المناصب التقليدية الكبرى في كل بلاط ، ادارة محلية تضم حكام الحصون والقضاة والجبلة . اما
انكلترا حيث كان النظام السيدي اقل تجمعاً اقليمياً ، فلم تر تحرر العائلات الكبرى ، الا بعد

أحداث أقطاعات القرن الرابع عشر ، ولم تر ازدهارها الا خلال النزاعات الحزبية في القرن الخامس عشر . ولكن لعل مثل دوقية لوكسمبورغ اوضح مثل على الاطلاق : فان هذه الامارة قد جهزت منذ السنة ١٣٦٢ بديوان وبكافة الاجهزة اللازمة لادارة دولة ، كما تشهد بذلك محفوظاتها النفيسة جداً .

وربما كانت مملكة فرنسا المملكة التي ذهبت فيها الامارات الى ابعد حد في تقليد المؤسسات الملكية . فمنذ اوائل القرن الرابع عشر كان لكونتية من المرتبة الثانية ، ككونتية فوريز ، ديوانها وديوان محاسبتها ، وكان المجلس الكونتي يعقد جلسات قضائية على غرار « مجلس الملك » . ويمكن القول نفسه تقريباً عن الاقطاعات الكبرى كبريتانيا وبورغونيا وارمانياك وفوا ولا سيما فلاندر التي حرصت اكثر من اية مقاطعة اخرى ، بفعل مركزها الجغرافي البعيد عن المركز ، على اسناد سياستها الخاصة الى استقلال وسائل عملها والتخلص جهد الامكان من صلاحية البرلمان . وجاء التقليد ، كما هو طبيعي ، اكثر مطابقة وكلا ايضا في الاقطاعات التي سلخت آنذاك عن الاملاك العامة لمصلحة اشقاء ولي العهد الملكيين .

بدأت اقامة هذه الاقطاعات وكأنها تتنافى واتجاه الدولة نحو المركزية ، وغدت في الواقع خطراً كبيراً على الملكيات ، لا سيما في القرن الخامس عشر . خلفها الماضي ، اي المفهوم البطريكي والاقطاعي الذي استندت اليه التيجان في القرن الثالث عشر . وكانت الغاية من العهد بها الى اشقاء اولياء العهد ارساخ نفوذ الاسرة المالكة ، التي كان اقطاع املاكها ممكناً ، على الرغم من انها ممتنعة البيع أو الهبة مبدئياً ؛ وكانوا ينتظرون من هذه الفروع اخلاصاً اعظم ثباتاً من اخلاص ذوي الاقطاعات الكبرى الآخرين لانه قائم على روابط النسب . اما الجدة في القرن الرابع عشر فهي مدى هذه الانعامات التي كانت المضادة في فرنسا ، مثلاً ، كبيرة بينها وبين الاقطاعات الوضيعة التي أمنها القديس لويس وخلفاؤه الى اشقائهم : ارتوا ، افرو ، كليرمون ، برش . وفي ذاك العهد ايضا ، تقرر في فرنسا كذلك قانون عودة هذه الاقطاعات الى التاج في حال انقراض نسل الذكور في احد هذه الفروع . اصف الى ذلك ان هذا النظام قد شمل كافة انحاء اوروبا ؛ فمنذ النصف الاول من القرن الرابع عشر انعم لويس دي بافيير على ابنه لويس باقطاعة مزدوجة في « تيول » و « براندبورغ » . وفي فرنسا انعم جان له بورت بنورمنديا على ابنه البكر ، المنعم عليه بمقاطعة الدوفينه من قبل ، ثم على لويس بانجو و « ماين » وعلى جان بيري وبواتو واوفيرنيه ، بينما انعم شارل الخامس على ما عرف به من بصيرة وتحذر ، ببورغونيا على ابنه الثاني . وفي الوقت نفسه جعل ادوارد الثالث من ابنه البكر امير ويلز واكيتين ، ومن ابنه الثاني دوق لنكستر ، ومن الثالث دوق كلارنس ، بانتظار ان يجعل من ابنيه الصغيرين دوق يورك ودوق غلوسستر . وفي الوقت نفسه تقريباً ، جعل شارل الرابع ايضا ، بعد ان امن خلافته لابنه البكر فنسلاس ، من ممتلكاته في براندبورغ وسيايزيا اقطاعات لابنائيه الثلاثة الآخرين . وقد نهجت هذا النهج بولونيا النائية نفسها ، اذ ان لادسلاس الاول جاجلون قد استصوب ،

ارضاء لانتهاج ليتوانيا الخاص ولطموح ابن عمه فيتولد ، اقطاعه هذه البلاد .

ولكن صاحب الاقطاع ، في هذه الاراضي الشاسعة المسلوخة عن الاملاك العامة ، التي غالباً ما اضيفت اليها وراثت اخرى واقتناءات خاصة - ولتعد بالذاكرة هنا الى توسع سلالة بورغونيا المدهش - كان يحل محل الملك ويشرف وحده على الادارة المحلية ويحدث ، رغبة منه في مراقبتها وفي التملص من الرقابة الملكية ، اجهزة مركزية : مجلس وديوان وديوان محاسبة ، ومحاكم عليا احيانا . ثم جاء تخلي بعض الملوك الضعفاء عما تبقى من حقوق ملكية ، كالنظر في الدعاوى الاستثنائية ، او مداخيل الضرائب ، يكرس استقلال الامراء ويتيح لهم وضع يدهم على موارد التاج : هذا ما توصلت اليه ، في فرنسا ، فروع بورغونيا وبوربون وبري واورليان ، وفي انكلترا ، فروع بوفور وغلوستر وبورك . وسبب ذلك ان اصحاب هذه الاقطاعات ، لا يزالون ، بفعل نسبهم ، قادرين على اعتلاء العرش احتلالا ، وعلى ارشاد الحكومة وتوجيهها في اغلب الاحيان . وقد شهد ذاك العهد ، لاسيا في فرنسا وانكلترا ، تعاظم دور ممثلي هذه الفروع في فترات قصور الملوك الشرعي سنا او عقلا . وقد ظهرت الوكالة العامة في فرنسا في عهد الملوك الاخيرين من سلالة « كابيت » ، ثم في اثناء اسر الملك جان ، وفي السنوات الاخيرة من ولاية شارل السادس ؛ وهو احد امراء العائلة المالكة ، من اصحاب الاقطاعات ، من مارس في أغلب الاحيان وكالة مجدية ومستقلة في مجالس اللندوك ؛ وحدث اتفاقا ان تولى الحكم في آن واحد خلال قصور شارل السادس وريشار الثاني عم كل من هذين الملكين ، فكان ذلك مقدمة للخصومات التي قامت بين فيليب الجسور وجان سان بور وبين لويس دورليان في بلاط شارل السادس ، وبين بوفور وغلوستر في بلاط هنري السادس الذي اضطر ، بعد عشرين سنة ، الى القبول بحماية ريشارد دي يورك . وكان هذا العهد عهداً مباركاً للامراء الذين لم يميزوا بين مصلحة التاج ومصلحتهم الخاصة فتحولوا في آن واحد الى مدافعين عن « الملك العام » والى رؤساء احزاب . وهذا ما يفسر ، في فرنسا ، دكتاتورية آل ارمانيك ، وفوضى حكم جان سان بور ، وثورة سنة ١٤٤٠ التي انضم اليها ولي العهد لويس نفسه ، وقيام حزب « الملك العام » ، بعد ذلك ، و « الحرب الحمقاء » ؛ وفي انكلترا ، تراحم اعمام هنري السادس وحرب الورد . وهكذا فقد انفق الامراء ، بلبقاء منطقي لم يدر في خلد الملوك المقطعين ، وكبار الاسياد وادعوا بفرض وصايتهم على الملوك ، وهكذا آل انهيار النظام الاقطاعي الى قيام احزاب بقيادة النبلاء .

شكلت البورجوازية قوة اخرى وجب على مستلمي زمام السلطة
دور البورجوازية السياسي : ان يدخلوها في حسابهم ، لان دورها قد تعاظم باطراد في مجتمع لم يتمكن من تقدير غوها واستدراكه . فهي وحدها من امتلك المال بوفرة ، ذلك المال النقدي الذي عز تداوله والذي كانت الحكومات بحاجة ماسة اليه لتحمل الاعباء المتزايدة الملقاة على عواقها . ولكن البورجوازيين قد جمعوا ، اكثر فاكثرا ، الى خبرتهم التجارية ، قيمة فكرية اكيدة ؛ فان المدن ، التي كانت مراكز حياة ادبية ومجهزة بمدارس مستقلة ، قد وزعت

المعارف القانونية بوفور . وضم اشرف المدن الذين سبق الكلام عن اتجاهاتهم الاوليفارشية ، اجتماعات الوظائف البلدية الى احتكار المال والمعرفة . والفقت العقول تدريجياً مفهوم النظام التمثيلي في الجمعيات والمجالس التي تناقص عدد اعضائها تناقصاً متزايداً وفي مناصب القضاء التي تمسلاً بالانتخاب كل سنة من بين الاختصاصيين في أغلب الاحيان ، والتي اخذ تعيين الاعضاء فيها من قبل زملائهم انفسهم يحل تدريجياً محل نظام انتخاب معقد على عدة درجات ؛ وكان من شأن الاشتراك في الجمعيات ، كما كان من شأن ممارسة اعمال القضاء ، ان يعتمق نخبة اتقنت ادارة الشؤون العامة والاشراف على الأموال العمومية . وقد حدث موارد البورجوازيين الخاصة واهمية مركزهم المادي الجماعي وخبرتهم الطويلة ، بالامراء ، منذ أمد بعد ، الى ضمان مساعدتهم والى الدفع بهم أحياناً الى اعلى مراتب مجتمع كانت الحواجز فيه بين الطبقات اشد هشاشة مما يعتقد الناس : فان ميشال دي لابلول ، حفيد احد بورجوازيي هل ، قد ارتقى الى اعلى درجات السلم الاجتماعي وامسى كونت سوفولك في السنة ١٣٨٦ ؛ كما ان كبريات العائلات البرلمانية في القرن الرابع عشر ، كعائلة « اورجون » وعائلة « دورمن » ، وقد انتسبت كلها الى البورجوازية ، كانت حلقة اتصال بين طبقة التجار والارستوقراطية التي جمعتها بها روابط الزواج والمصاهرة . لذلك لم يقف الملوك عند حد الاستدانة من البورجوازيين ، بل اسندوا اليهم وظائف مالية وقضائية ، وما كان احد ليدش من ان يرى هؤلاء الموظفين الكبار في مجلس الملوك .

ألفت البورجوازية ، والحالة هذه ، بيئة ورأياً عاماً كان من الضروري اخذها بعين الاعتبار ابدأ واللجوء اليها او خشية معارضتها احياناً . اجل لم يتساو دور المجتمعات المدنية سياسياً في بلدان الغرب المختلفة . فاذا استطاعت مدن ايطاليا تحقيق نظام خليق بدولة حقيقية سياسياً واقليمياً ، واذا تحلت مدن هولندا بذهنية وحيوية اقتصادية استطاعت بواسطتها ، منفردة احياناً ، مقاومة اميرها ، ففي بلدان كثيرة وجدت المدن وسيلة دفاعها في التكتل : تكتل المدن الاسبانية ، وتكتل المدن « السوابية » ، وتكتل المدن التجارية ، مثلاً . اما في البلدان الاخرى فقد اسمعت صوتها بفضل اشتراكها في جمعيات الدول .

ان دخول البورجوازيات الحياة السياسية لم يرتد ، والحق يقال ، طابعا جمعيات الدول انقلابياً دون طابع دخول الاشراف ، ومن الخطل في الرأي ان نرى في نمو جمعيات الدول ، الذي يتميز به القرن الرابع عشر ، تجديداً لا سوابق له . فالعرف الاقطاعي قد جعل من « المشورة » خدمة كان من حق السيد ان يطلبها ومن واجب التابع ان يؤديها . وكان من المألوف ، من جهة ثانية ، ان يستطيع الامير دعوة من يتوسم فائدة في استشارته الى مجلسه . كانت جمعيات القرن الرابع عشر اجتماعات تضم البارونات والاحبار اولاً ، ولم تقر حضور البورجوازيين الا في عهد لاحق : ولما كان معظم هؤلاء خلائق الملك ، فان دورهم الطبيعي كان استشارياً او قضائياً محصوراً في قضية واحدة او عدة قضايا غالباً ما يكون موضوعها مالياً ؛ وكان الامير يجمعها حين يطيب له ذلك . وهو فقدان السلطة هنا وخطورة

الظروف هناك والاندفاع وراء شخصية فذة احياناً ما جعل بعض الجمعيات تخرج عن احترامها وترزنها الاولين . ويمكننا بصورة عامة ان نميز مرحلة تجديد وتعدد ، مسرحيين احياناً ، دامت حتى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ثم فترة أقل نشاطاً تردّ في الأرجح الى استقرار السلطة العامة بعض الاستقرار ؛ وكانت الصعوبات المادية والسياسية اخيراً ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، فرصة ثبتت فيه معظم الجمعيات اقدامها ؛ وفي الوقت الذي اخذت فيه النظرية الجمعية تتكون في الكنيسة ، كانت الروح السياسية قد تطورت تطوراً كافياً لان تدرك شكل الدولة التمثيلي .

يلاحظ في الواقع تطور تدريجي في نظام هذه الجمعيات الاجتماعي ونطاق نفوذها الجغرافي ، والدور المسند اليها . ففي مملكة واسعة الاطراف كفرنسا ، لم تعرف سوى جمعيات جزئية مختلفة حتى قيام « مجالس الطبقات » الاولى في السنة ١٤٨٤ ؛ ويمكن القول نفسه في هولندا البورغونية حيث تألفت مجالس الطبقات بإرادة الامير ، فارتسمت في مخيلة فيليب له بورت وحيزها شارل الجسور . ولم يجمع ملك اراغون يوماً مجالس تمثل مقاطعاته الاربع . اصف الى ذلك ان اشراك « العامة » لم يحدث الا تدريجياً في كافة البلدان ، وكان في البدء محدوداً ومتقطعاً تلمية الظروف ودور المدن . فان ايطاليا ، حيث بلغت الحياة المدنية نموها الاكمل ، لم تعرف عملياً جمعيات الدولة الا في الامارات ذات التقاليد الملكية : البيسون المتأثرة تأثراً بعيداً بالعادات الفرنسية ؛ ونابولي وسردينيا حيث افضى الوجود الاراغوني الى قيام جمعيات على مثال « الكورتيس » . ويرد هذا التنوع ايضاً الى الترددات التي ادت الى الجمعيات : فلم يخف مستشارو فيليب له بيل ارتباكهم في تنظيم الاستفتاءات القومية الاولى ، ويبدو ان تعيين الجمعيات الرسمية الاولى ، في عهد اولاده ، قد تميز بجو من الفوضى الشاملة ؛ وحتى اواسط القرن الرابع عشر ، ترك ملك انكلترا للأموري الاحكام المدنية امر تعيين المدن الواجب استدعاؤها الى المجالس . فحدث في فرنسا ، اثناء الاضطرابات ، ان عبر النبلاء ، بعد وفاة « فيليب له بيل » ، ثم البورجوازيون ، عشية هزيمة بواتييه ، عن تصميمهم على اسماع صوتهم . وجرت الامور بصورة مماثلة في اسبانيا والامبراطورية وبولونيا والبلدان السكندنافية . وكان قد سبق لانكلترا ان عرفت هذه التخلجات في القرن السابق ؛ ولكن قدم خبرتها التمثيلية قد ساعدها على ان تحدد تدريجياً طبيعة برلمانها ودوره : فجاء مثلاً « مجلس الملك » يتميز بالمعظمة ، ينضم فيه البارونات الملمانيون والكنسيون الى المستشارين الاعتياديين ، ولكن يدعى اليه عادةً ممثلوا اشراف ، الكونتيات والبورجوازية المدنية ايضاً ؛ فتحدد بذلك قبل آخر القرن الرابع عشر واقس وصلاحيات مجلسي اللوردات والعموم . الا ان الجمعيات لم تلتئم في اي بلد التماماً دورياً ، اذ كان للامير دون غيره حق الحكم في ملائمة اجتماعها .

ان طبيعة المعاضل التي بررت هذه الاستفتاءات تتيج تبين طابع الامة التدريجية الذي ارتدته الجمعيات التمثيلية . فقد قضى تقليد خدمة « المشورة » بان لا ينحصر بحث المسائل

الخطيرة في اطار المجلس الملكي المحدود نسبياً ، والخلافة في الملك من امها خطورة . وان اقالة ادوارد الثاني ملك انكلترا في السنة ١٣٢٧ ، الذي اقره حزب البارونات الثائرين ، قد اعتبر وكأنه عمل « ارفع البارونات مقاماً ومستشاري المدن الطيبة » : فقد اعلن احد الاساقفة آنذاك ان « صوت الشعب انما هو صوت الله » . وهي جمعية بارونات ايضاً ما وافقت في فرنسا على اعتلاء فيليب الخامس العرش في السنة ١٣١٦ ، وجمعية اخرى ما اعلنت حق فيليب السادس في استلام التاج ؛ وهو برلمان ما وافق في السنة ١٣٩٩ على اقالة ريشار الثاني واغتصاب هنري الرابع ؛ وبرلمان آخر ما التف حول ادوارد الرابع في السنة ١٤٦١ . وانما طلب ولي العهد شارل الى جمعية تمثل الاقاليم ، في السنة ١٣٥٩ ، نقض معاهدة لندن التي اقرها والده الاسير ، كما طلب الى الهيئات الكبرى التي تعتبر ممثلة للرأي العام - البرلمان ، الجامعات ، المدن الطيبة - ابرام معاهدة طروا في السنة ١٤٢٠ . وكذلك فان كبار الاسياد الاسبانيين الذين نادوا بالملوك خلال الحروب الاهلية ، لم يقدموا قط على ذلك بمفردهم ؛ فان الممثلين (الكورتيس) الذين درج الملك على دعوة ممثلي المدن الى اجتماعاتهم ، قد اقروا ، نزولاً عند رغبة ألفونس الماسر ، سقوط حق اشقاء ولي العهد في الملك في قشتالة . وهم الكورتيس ، في اراغون وكاتالونيا ، من ابرموا ، في السنة ١٤١٢ ، تسوية « كاسب » واستعانوا بعد ذلك على جان الثاني ، في برشلونا ، حيث كانت الكلمة الفصل لكبار التجار ، بمنافسين متعاقبين عديدين . وكان لكل من امارات الامبراطورية الـ ٣٥٠ جمعيتها التي تبدي رأياً اثناء ازمات خلافة الملك . والتأمت كذلك الجمعيات الهنغارية والبولونية حين قرر زواج بنات لويس دالنجو مصير البلاد . ودون ان نشدد اخيراً على دور الجمعيات الاسوجية الذي كان على جانب كبير من الاهمية في القرن الثالث عشر ، هل من حاجة بنا الى التذكير بان وحدة الممالك السكنديناوية الثلاث قد تمت بقرار اتخذ في كالمار ، في السنة ١٣٩٧ ، مندوبو المدن والاكليروس والاشراف مجتمعين ؟

وغالباً ايضاً ما سنحت الفرصة للبورجوازيين باسماع صوتهم في معرض المعاضل المالية ؛ فهذه كانت المبرر الاساسي لدعوة الجمعيات ولتدخل اعضائها المطرد في الشؤون الادارية والسياسية . ومتماثلة هي الطريقة التي حملت الدول تدريجياً الى اناطة اقرار الضرائب بحق مراقبة توزيعها وجبايتها ووجهة استعمالها ، ثم الى فرض الاصلاحات الادارية ، واحياناً الى مراقبة مجلس الامير ، واخيراً الى سن الشرائع في موضوع تنظيم الدولة نفسه . وقد أثار موقف البرلمانات الانكليزية مشكلة دائمة للبلات ، حتى في عهد اشد الملوك حزماً : فقد اضطر ادوارد الثالث في السنة ١٣٤٠ والسنة ١٣٧١ ، في سبيل الحصول على مساعدات نقدية ، الى التضحية بوزرائه والرضوخ في السنة ١٣٧٦ لمطالب « البرلمان الطيب » ، الا انه لم يبر بعد ذلك باي وعد من وعوده ، او انه حمل جمعية اسلس انقياداً الى ابطالها كلياً . وحين حصل ريشار الثاني المستبد ، في السنة ١٣٩٧ ، على مساعدات نقدية لمدة ثلاث سنوات ، لم يفت البعض ان يذكره بمبدأ القبول بالضريبة وبتخصيصها للحصري للنفقات العسكرية . وصادف هنري الخامس الصعوبات

نفسها في تمويل فتوحاته في فرنسا وآمر الاستغناء عن البرلمان منذ ان استطاع الى ذلك سبيلا، ما بين السنة ١٤١٧ والسنة ١٤٢٠ ؛ وقد حاول هؤلاء الملوك جميعهم ، توصلا الى اطلاق حريتهم في العمل ، الاستحصال على المساعدات بموافقة « مجالس لوردات كبرى » كانت استمالتها اقرب منالا . وهو البرلمان الذي كان الحكم بين الامراء المتقسمين على انفسهم في فترة قصور هنري السادس الشرعي ، مستقويا في موقفه بمحاجاتهم الدائمة الى المال . ونحدث الشيء نفسه ، باولى حجة ، في ايام ولاية هنري السادس الشخصية .

اما في فرنسا فهي خطيرة الهزائم العسكرية ما نقلت المجالس من الصعيد المالي الى الصعيد السياسي : وان في فشلها الاخير ، من جهة ثانية ، برهاناً ساطعاً على رسوخ التقاليد الملكية . فبعد كريسي خاطبت المجالس ملك فرنسا كما لم يسمح احد لنفسه بمخاطبته من قبل : « بشئ المشورة التي افقدتك كل شيء دون ان تكسبك شيئاً ... ان هذه المشورات قد اذلتك » اجل لقد حال الاخلاص للملك دون رفض المساعدة ، ولكن المساعدة خضعت لشروط . ففي السنة ١٣٥٥ ، نظمت المجالس الجباية بنفسها ، فحدثت جهاز « المختارين » وفرضت عقد جلسات منتظمة لتصفية الحسابات . وحدث ما هو اسوأ من ذلك بعد بواتيه ، اذ ان رأس الملكة آنذاك لم يكن سوى ولي عهد شاب في سن الثامنة عشرة لم تمتحن قوته بعد ولم يكن حوله سوى مستشارين عيب عليهم « استهتارهم واضاعتهم للوقت » . وعرفت فرنسا آنذاك ، في الوقت نفسه تقريباً الذي عرفت فيه روما « كولا دي رينزو » ، خطباء سياسيين قادرين على تهيج الجماهير : من امثال « روبر له كوك » اسقف لان ، وشارل « له موفيه » ملك نافار . وان « النظام الكبير » ، الذي اقر في اذار من السنة ١٣٥٧ والذي املته مجالس اللغدوك ، لم يستهدف تقويم التجاوزات الادارية فحسب ، بل فرض مجلس وصاية على ولي العهد وعقد جلسات دورية على المجالس . اجل ان الحركة التي استندت الى حماس فئة من البورجوازية الباريسية فقط ، فشلت امام ارادة ولي العهد الحازمة ، واسدل الستار عليها بمقتل اتيان مارسيل . ولكن التجربة ستكرر عند اول بادرة ضعف تصدر عن السلطة . فاضطر « اسياذ زهور الزنبق » الى اراقة الدماء في قمع اضطرابات السنة ١٣٨٢ ، وكانت الحرب الاهلية ، بعد مرور ثلاثين سنة ، حافزاً للحركة « الكابوشية » . انضمت هذه المرة ، الى نقابة الجزارين الباريسيين القوية ، الجامعة التي لم يقتصر نشاطها الاصلاحى على الكنيسة ، والتي ترقبت الخلاص من تقرب « جان سان بور » الى الشعب . ولكن البرنامج الذي تضمنه التنظيم الكابوشي قد اقتصر على اصلاح الادارة دونما تدخل المجالس في الشؤون السياسية : ويستلزم هذا الاصلاح احداث هرم من مجالس تنتخب اعضاؤها ، وتبسيط وسائل العمل ، وتقويم الوضع المالي ، فتمتدق بذلك ادارة سليمة للمصالح العامة ؛ واعتقد المصلحون بجمهورية من كبار الموظفين تنظم تنظيمياً منطقياً برئاسة الملك . وهذا ما سيتيح للملكية ، في نهاية المطاف ، اصلاح نفسها بنفسها دون التسليم باية رقابة .

اشتد كذلك ، على نطاق اضيق ، في البلدان الاخرى ، دور الجمعيات السياسي . فان المثليين القشتاليين قد طلبوا من الملك ، في السنة ١٣١٥ ، بياناً بموارده ، دون ان يظهروا له عداهم ؛ ثم ادعوا ، في السنة ١٣١٧ والسنة ١٣٢٢ ، امام تكرار طلب المساعدات ، بمراقبة جباية « الخدمات » . كما ان الجمعيات ، في اراغون وكاتالونيا و فالنسيا ، وهي اعظم تطوراً منها في قشتالة ، قد درجت على تبيان وتدوين مطالبها الادارية والسياسية الخاصة قبل اي بحث في طلبات المساعدة النقدية ؛ وكان على الامير ، في كاتالونيا ، ان يقسم باحترام التدابير المقررة ؛ ولولا التباين بين نزعات مقاطعات اراغون المختلفة ، لما تبقى للملك اراغون سوى امكانات ضئيلة للمناورة .

لم تكن مطالب جمعيات المقاطعات بينة الاختلاف عن مطالب الصناعيين الذين سبق ورأينا ان هيجانهم قد عكر بين آن وآخر مدن ايطاليا وهولندا . اجل ان الهيجان العالي ، وهو اجتماعي اكثر منه سياسي ، قد استهدف في الدرجة الاولى القضاء على استئثار الاشراف بإدارة الشؤون البلدية . الا ان اتجاهه العميق كان مشتركاً مع اتجاه المجالس : فهو قد استهدف توسيع النظام التمثيلي وخدمة مصلحة الناهضين به . وان في مثل لياج ومثل برابان ، من هذا القبيل ، لدلالة كبرى على ما نقدم ، اذا اننا نرى فيها ، في آن واحد ، الحرف رغم الاشراف على اشراكها في الشؤون البلدية ، و « البلاد » او الجمعيات تفرض على الامير الحد من سلطته ؛ ويترأى في الحالين حرص ، يتميز به هذا العهد ، على اعطاء الدولة شكلاً محدداً .

عرفت مدن الامبراطورية وسيادتها تطوراً مماثلاً ، في القرن الخامس عشر . فقد توصلت المجالس هنا ، وهي شبيهة من حيث تكوينها بمجالس فرنسا ، ليس الى ادارة الضرائب التي تفرها فحسب ، بل الى اقامة رقابة على مستشاري المدن والامير والموظفين المحليين . واتضح في الممالك الشرقية كذلك مفهوم تمثيل البلاد كلها . ومن الغريب ان يقال في بولونيا ببدءاً ، ولى زمانه في الظاهر ، ولكنه ينطبق اجمالاً على نزعات العهد ، اعني به مبدأ الشخصية القومية بالاضافة الى فكرة التمثيل وفكرة رقابة السلطة : ففي مجمع كونستانس دافع رئيس جامعة كراكوفيا ، « ضد التوتون » ، عن حق الشعوب ، حق الوثنية منها ، في استقلالها الاقليمي . وهكذا تم اللقاء بين الاراء الجديدة حول نظام الدولة وبين القوميات الناشئة .

تزعزعت اركان الدولة بتفكك الاطارات الاجتماعية التقليدية فاخذت الدولة تبحث عن نظام

تبحث عن قواعد جديدة ؛ وتوجب عليها ان تنظم بغيره توسيع رقعتها والقيام بالاعباء العديدة التي لم تكن هي مهياً لها . وكانت العقبات كثيرة في طريقها : عقبات تقنية - هزال الوسائل الادارية والعسكرية ونقصان الموارد - ؛ واجتماعية - المنافسة بين مصالح الاكليروس والمدن والنبلاء والامراء - واقتصادية وعسكرية . ففي سبيل تذليلها ، انبرى رجال القرن الرابع عشر ، في هذا النطاق كما في نطاقات اخرى كثيرة ، يمزنون كي يتمكنوا من التحديد ، ويحللون الناحية الخاصة كي يتمكنوا من اعداد العدة للمستقبل .

سار الاتجاه العام نحو جمع الاراضي ومركزية السلطة بخطوات تدريجية متعاقبة ، فحدث
اولا من عدد الاقطاعات التي استبدلت بدول صغيرة اقل عدداً : الامارات الاقطاعية المنشأ في
هولندا والمانيا ، واقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا وانكلترا ، وديمومة قيام الممالك
الايبيرية والشرقية ، وسيادات الامراء او المدن في ايطاليا ، والمقاطعات السويسرية . ويسدو
انهم لم يتصوروا سوى دولة وضعية الابعاد تنلام ووسائل المواصلات والعمل التي كان من شأنها
أنذالكثامين وحدة قيادة قوية . فكانت الدولة القشتالية او البرتغالية ، والامارات النيرلندية
على تنوعها ، والدوائر الانتخابية الالمانية تمثل خير وحدة سياسية يسهل حكمها . والى هذا يرد في
الارجح ان مملكة اراغون حافظت على هيكلها الرباعي وان ميلانو والبندقية ودول الكنيسة
ونابولي قد اعتدلت ، وان قيام اقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا ربما كان اكثر مطابقة
لاقتصاد لا يزال اقليمياً . ولكن الاتجاه الى المركزية ، في فرنسا وانكلترا على السواء ، مالمبت
ان تغلب على هذه الاتجاهات المختلفة ، فيما يبحث الدول الاخرى عن تلاحقها بوسائل قريبة جداً
من النظام الاتحادي : كمحاولات الوحدة الشخصية بين ممالك اوروبا الوسطى التي سبقت الاشارة
اليها ؛ ووحدة السكندنافيين التي عرفت البقاء ، وتبسيط الامارات الايطالية ، وتكتلات
المدن والمقاطعات .

ورافق الميل الى التبسيط ميل الى التوحيد : فبينما كان رجال القانون يجمعون العادات
والاعراف ، كان رجال السياسة يشترعون القوانين والانظمة ويضعون الدساتير ، ويحين لنا
استمرار عملهم ان نرى فيه واقعاً شاملاً . لم ير القرنان الرابع عشر والخامس عشر اقتضاح
الاطارات والاعراف الادارية في الملكية البابوية والملكيات الفرنسية والانكليزية والاسبانية
وبعض الامارات العظمى كبورغونيا ، فحسب . ولم يحققوا فقط عملاً تشريعياً ينطوي على كثير
من الاعادات على كل حال : قوانين ملوك فرنسا ونظم ملك انكلترا التي اقرها البرلمان . فان
مباديات جزئية او شاملة منبثقة من مطالب الجمعيات التمثيلية او من حسن استعداد الامراء قد
اخذت تجهز الدولة بنصوص نظامية . لقد سبق وتكلمنا عن فشل « النظام الكبير » (١٣٥٧)
او النظام الكابوشي (١٤١٣) في فرنسا ، ولكن مؤلف « حلم البستان » قد حاول ان يحدد ،
خدمة لشارل الخامس ، دور الملكية في الدفاع . عن « الخير العام » ، بيتا تغنت « طريقة انعقاد
المجلس » (التي تعود الى اواخر القرن الرابع عشر) ثم « محاسن شرائع انكلترا » و « حكم
انكلترا » للسر « جون فورتسكيو » بملكية انكلترا القوية التي تلطفها المؤسسة البرلمانية والحق
العام . اما كتاب « الاحزاب السبعة » حيث قدم الفكر السياسي القشتالي برنامجاً استبدادياً
ابوياً ، فقد اكمله « البحث في مجالس الكورتيس » حيث وصف « جيم كاليب » ملكية مطلقة
تتمتع على جمعية ايضاً . اجل لقد تخطت مجالس كورتيس القرن الخامس عشر الكاثالونية فكر
مؤلف القرن الرابع عشر ، وقد بحث المثل « الاتفاق » ، الذي طلع به الاشراف البرشلونيون ،
في اختبار القوة ، عن التوازن بين سلطة الامير وتدخل البورجوازية . ولكن انظمة كازيمير

الكبير (١٣٣٣ - ١٣٧٠) قد حددت القواعد الادارية والسياسية لمملكة بولونيا ، في الطرف الثاني من اوروبا .

لمثل هذا الانشغال باستقرار السلطة استجاب اعلان « البراءة الذهبية » في السنة ١٣٥٦ . لا ريب في انها كرّست عجز الامبراطور ، ولكن فضلها يقوم في انها حددت بملاء القوانين المرعية الاجراء . فقد عرف ، انطلاقاً منها ، من ينتخب ملك الرومان الذي يمارس وكالة الامبراطور في حال شغور مركزه ، واين متى وكيف يجري هذا الانتخاب . وعلى الرغم من ان ذلك لم يصبح تقليداً ، فقد عينت البراءة ايضاً للنتخبين واجب تقديم المشورة للامبراطور في جمعية سنوية . اجل لقد كان المجهود محدوداً ولكنه نم عن رغبة واضحة في تحديد الادوار . اما نص البراءة ، الذي وضعه امير مستنير هو شارل الرابع ، فقد وضع بالاتفاق مع الجمعية . ان الدساتير الاولى ، الخليفة بهذا الاسم ، قد تحققت في الواقع ، منذ القرن الرابع عشر ، في هولندا ، وطن كل مبتدع جديد . وتخفي اسماءها المختلفة ، مع بعض الفوارق ، وقائع متشابهة . ويبدو ان هذه البلاد قد نهضت ، بمدنها التي تميزت بروح بورجوازية متطورة جداً ، وباماراتها الاقطاعية التقليدية ، برسالة ايجاد حل لمعضلة توزيع السلطة . كان هذا الحل ، في جوهره ، اعترافاً ، يتعهد به الامير عند توليته ، بامتيازات جميعات المقاطعات في الحقلين السياسي والمالي ؛ وكان في الدرجة الثانية قبولاً برقابة الجمعية على المجلس والادارة . فان « دستور كورتنبرغ » (١٣١٢) و « المدخل البهيج » (١٣٥٦) في برابان ، و « اتفاق فكس » (١٣١٦) و « اتفاق المجلور » (١٣٤٣) في لياج ، هي اقدم النصوص واوفرها طابعاً مميزاً واطولها بقاء ايضاً ، حققها مجتمع متطور ، وبرهنت ، لاسيما في منطقة لياج ، عن وعي قومي بارز جداً . وان هذه النتائج التي احرزت في رقعة جغرافية ضيقة جداً ، تقع في مفترق اتجاهات متنوعة جداً ، تشرّف الفكر السياسي في ذلك العصر . اجل لقد تمكنت السلطة ، في البلدان الكبرى ، من التملص من القيود التي حاولوا تقييدها بها . ولكنها قد ارغمت في النتيجة على ان تثبت فيها دورها ووسائلها . انها لمرحلة هامة في تاريخ اوروبا تلك التي بحثت فيها الدولة ، في آخر القرون الوسطى ، على الرغم من العقبات ، وربما بسببها ، عن تحديد واقعها مرة اخرى .

الفصل الرابع

نشأة الدولة العثمانية

كان الغزو المغولي ، والفتح الداوي الساحق الذي ادى اليه ، فجوة في كل من تاريخ الشرق الاسلامي وتاريخ شعوب روسيا ، بدونها لا نستطيع ان نفهم فهماً صحيحاً التطور الذي اخذت به هذه البلدان ، بعد ان ارتفع عنها كابوس الفتح وانحسرت الغمة التي نزلت بها ، إن لم نتبين جلياً الرصيد الكامل لهذه العملية الضخمة . وقد جاء هذا الانقطاع منطقياً اتفق مع الحركة التجديدية والنهضة الاصلاحية التي قامت بها اليونان ، اذ ذاك ، تجاه اللاتين ، وازدهار الدول البلقانية ، في هذه المعطفة بالذات من تاريخ اوروبا الجنوبية الشرقية . انها لفجوة تضطربنا للعمدة ، قليلاً ، الى الوراء ، لان مدنيات الاجيال الوسطى المتعاطلة والمتراكبة بعضاً فوق البعض ، لم تعرف هذا التوافق الذي طبع الاحداث « العالمية » .

١ — الاسلام في عهد المغول

رأينا بآية سهولة استجاب العالم الاسلامي واليسر الذي استقبل به الغزو المغولي الفتح المغولي فاستسلم له بكلية . ويمكن ان نجد سر هذا ، في الهلع الذي استحوذ على السكان ، والخور الذي وقع فيه واستسلم له اسباب العالم الاسلامي عندما اطلت عليهم جحافل الغزاة . فما من شيء مشترك بين هذا الفتح والفتح الذي قام به الترك من قبل ، وهم اقوام اعتنقوا الاسلام ، وسبق للعالم الاسلامي ان عرفهم عن كثب ، واستعملهم مرتزقة في جيوشه . وراح بعض المؤرخين المحدثين ينزلون باللائمة على الشعوب اللاتينية ، لانها لم تحسن الاستفادة من تحالفها مع المغول ان لم يكن لحتى الاسلام ، فاقله لتقليم اظافره . وقد جهلوا او تجاهلوا ان المغول انما عنوا في نظر معاصريهم ، فناء وإفناء كل حضارة او مدنية وقعت في طريقهم ، وانهم في الوقت الذي راحوا فيه يستعملون نصارى الغرب للقضاء على الدول الاسلامية كانوا هم يقومون بمذابح اجماعية

هائلة بين شعوب أوروبا الوسطى . فلندع جانباً هذه الاماني الحرقاء ، ولنحاول جهدها ان نفهم جيداً ما الذي عناءه في الشرق الادنى إقامة النظام الجديد .

كوّنت البلاد الايرانية والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات مسيحية توابع : امثال كيليكيا وجيورجيا ، منذ اواسط القرن الثالث عشر ، تحت إشراف الخان الكبير ، في الصين ، الدولة الايلخانية المغولية التي سيطرت على الربوع الحصبة الواقعة الى الغرب الشبالي من ايران . فالكلل الذي استحوذ على الغزاة بعد الفتح ، والانشقاقات التي شجرت بينهم ، والمد الشاسع الذي بلغته موجة الغزو ، كل هذا وما اليه ، اتاح للجيش الذي انكفأ الى مصر ان يتنفس الصعداء وان يعيد تنظيمه ليسترد الشام . والحدود التي قامت بين العالم الاسلامي والعالم المغولي ، انطلاقاً من كيليكيا الارمنية ، كانت تتقاطع عند منتصفها مع الطرقات المؤدية الى الهلال الخصيب ، عند اعالي دجلة ونهر الفرات الاوسط . وكان من شدة الصدمة وعنفها ان اصبحت جميع بلدان الشرق الادنى الواقعة من كلا طرفي هذه التخوم ، بهزة زعزعت منها الاركان وصدعتها . وهكذا طلعت فجوة قامت سداً منيعاً بين العالم الايراني او العالم الواقع تحت النفوذ الايراني (آسيا الصغرى) والعالم العربي . فالعراق العربي الصميم الذي دخل ضمن الامبراطورية المغولية ، اصبحت ، منذ ذلك الحين ، فلاة باعدت بين قطبي العالم الاسلامي اذ ذاك : تبريز والقاهرة . وقد حمل الغزاة الفاتحون معهم الخراب ونشروا الدمار واسالوا انهرأ من الدماء اينما مروا ، بحيث كان « السلام المغولي » اعجز من ان يزيل معالم هذا الدمار الشامل . كم من الرعاة الرحل حلوا محل الفلاحين المزارعين . وقد قضى الفتح تماماً على فرقة الحشاشين التي كان نفوذها اخذ يميل الى الزوال ، كما أدت الى القضاء على الخلافة الاسلامية التي كانت بالرغم مما حملته في اركانها الفضاضة من ابهة وجلال ، ترمز الى الوحدة الاسلامية . فلم ير احد اية اهمية لتحويلها ، ولو صورياً ، الى اسيا مصر ، ولم يول احد هذا الامر اي اهتمام او اكتراث . كذلك ادى الى تحطيم قسم كبير من الارستوقراطية العسكرية واضطر القسم الآخر للهرب والنجاة بنفسه . كل هذا جاء حافزاً على تشجيع الاخذ بالنظام الاقطاعي في البلدان الواقعة تحت السيطرة المغولية ، هذا النظام الاجتماعي الذي اخذت بواذره تبرز للعيان في القرون السابقة .

حكم المماليك في مصر من مفارقات التاريخ العجيبة في هذا العصر ، هو ان مصر التي صار الامر فيها لحكام وسلاطين من انصاف البرابرة رجيء بهم من اسواق النخاسة والرق القائمة في الاقطار المجاورة للبحر الاسود ، اصبحت الآن مناسط الأمل ، والملاذ المرتجى ، والقبلة التي شغفت بها الميرون والابصار ، وقطب الدائرة في العالم العربي . فقد اقام فيها المماليك حكماً عسكرياً دكتاتورياً ، كثيراً ما تعرض للتمزق والاحن من جراء المشاحنات الداخلية بين الاحزاب المتطاحنة على السلطة ، تستثمر الى اقصى حدود الاستثمار سكان البلاد وترهمهم بالابتزاز والاعتصار . وهي دكتاتورية صانت وحدة مصر ووحدة الشام ، وامتدت الحكم بادارة حازمة ، وبالقوة والنظام مما افتقر الى مثله او الى بعضه ، الكثير من

البلدان المجاورة . ونقرأ خبر هذا كله بالتفصيل في هذه الموسوعات التي وضعها بعض علماء العصر وكتابه ، معظمهم من موظفي ديوان الانشاء كالقلمشندي الذي اعطانا في كتابه : « صبح الاعشى » وصفاً دقيقاً وصورة صادقة لهذا الوضع . فالجيش يعيش على الإقطاع يجبي رسومه وتجميع لصالح الجيش ، دون ان يقابلها ارض او املاك يستغلها لحسابه الخاص ، ودون ان يتسرب اي ضعف او وهن في اشراف الدولة عليه ، فقد كان الجيش صارماً على نفسه كما كان لا يعرف الشفقة او الرحمة مع الغير ، يسير على نظام دقيق آسر . ففي هذا العراك الذي اخذت مصر بتلابيبه مع الخطر المغولي ، لم تحتل على ابوابها احداً من هؤلاء المسيحيين الذين تركهم الايوبيون وشأنهم . فقد استأصلت شأفة الفرنجة من البلاد ، منذ القرن الثالث عشر ، وشأن الأرمن من كيليكيا ، في القرن الرابع عشر ، ولم يبق صامداً في وجهها غير قبرص ، هذا الحصن البحري النيسع الذي هزى بهجمات المسلمين عليه والذي كتب له ان يبقى شوكاً في جنبهم حتى القرن السادس عشر .

فإذا ما استطاعت دولة المماليك والنظام الذي اقامته في مصر ان تعمر وتعيش اكثر من ثلاثة قرون ، فبهذه الموارد الوفيرة التي امنتها التجارة الدولية للبلاد . ففي الوقت الذي ازدهرت فيه التجارة الايطالية في الشرق الأدنى ، عادت مصر تلعب ، بالرغم من الاخطار التي تعرضت لها من جراء الحروب الصليبية ، ومزاحمة الطرق التجارية الواقعة تحت رحمة المغول او اشرافهم عليها ، دوراً هاماً . صحيح انه كان من الصعب عليها جداً المحافظة على المقايضات التجارية مع الغرب . غير ان تحكمها المطلق بالحركة التجارية في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، جعل من التجار المصريين ، سماسرة افراء ، امنوا لدائرة المكوس ارباحاً طائلة ملأت خزينة الدولة بالمال وساعدت على ازدهار اسواق القاهرة ازدهاراً كبيراً وبعثت فيها نشاطاً بقي خبره حيناً في خواطر الناس يتذكرونه ابد الدهر . وليس المماليك مسؤولين وحدهم عن استنزاف موارد الذهب لديهم ، وانتقال ذهب السودان الى الايطاليين ، عن طريق المغرب ، فيبقى في اسواق مصر ، فقد من النحاس الاحمر راح يفقد قيمته ويخسر من قوته الشرائية ، يوماً بعد يوم . وليس من غلطتهم وحدهم ولا هم وحدهم مسؤولين عن هذا الخراب والدمار الذي نشره تيمورلنك ، في سوريا ، في منطف القرن الرابع عشر والخامس عشر ، وهذه الحروب المضنية التي شنوها ضده فارزحت مالية الدولة وافدحت بها بحيث راح السلطان برسباي يفرض احتكار الدولة لتجارة البلاد الخارجية ، ثم اضطر في نهاية الامر الى ان يتراجع عن تدابير التعسفية هذه امام احتجاجات التجار الصارخة . وليس من غلطتهم وحدهم اخيراً ، قيام جسر ، في اواخر القرن الخامس عشر ، للاتصالات المباشرة ، بين البرتغال من جهة ، والهند من جهة اخرى ، كان في اقامته ضربة قاصمة للاقتصاد المصري ، فجعل مصر هدفاً لاطمح الاتراك العثمانيين . ومع ان الفوضى فعلت فيهم فعلتها ، واتسمت ادارتهم بالخلل في نواح كثيرة ، فنظام المماليك لم يكن اسوأ من غيره من هذه الانظمة او الحكومات التي قامت اذذاك . فقد اضمحل وانهار

امام قوى فاقت اضعافاً ماتم له منها . واذا وجد نفسه وجهاً لوجه مع الدول الأوروبية التي كانت يومئذٍ في ابان تطورها وتكاملها ، وامام القوة العثمانية القاصمة النامية ، فأسقط في ايدي سلاطينه ولم يعرفوا كما لم يستطيعوا ان يجددوا من احوالهم واوضاعهم .

ومع ذلك ، فقد جعلوا من مصر مباءة للفنون والعلوم ، ومشعلاً عالياً للادب . فالاسلام السني في مظهره الفلسفي والفقهى يسيطر بلا منازع على البلاد ، والنظام الذي اعلنه الفقيه الحنبلي ابن تيمية والذي واهم فيه بين الجندي وبين « الكاتب » والذي تمثل على اتمه في هذا التطور الذي خضع له الوقف ، زاد من تعصب المسلمين ضد الاقباط وغيرهم من الاقليات المسيحية واثار الكراهية والبغض ضد التجار الاجانب ، مع اشتداد حاجتهم اليهم ، الذين كانوا يتصرفون احياناً كالفرصان . وقد عمّ النشاط الفكر في مجالات عديدة اخرى ، وهو نشاط تبلور عن ظهور مؤلفات موسوعية ، تعليمية ، اكثر منها خلقاً او تجديدياً ، اتجهت ، على الاكثر ، من جمهور القراء العطاش للمعرفة . وانصرف اذ ذاك ، علماء اللغة واصحاب المعاجم الى وضع عدد من القواميس العربية الواسعة المستفيضة ، لا تزال المعول عليها حتى يومنا هذا ، بينما نشط العمل في تصنيف المؤلفات التاريخية ، حول التاريخ القديم والمعاصر ، من الذهبي (القرن الرابع عشر) ، الى ابن اياس (مطلع القرن السادس عشر) ، الذي يوجد شبه كبير بين عمله هذا واليوميات التي وضعها معاصرون له من اهل البندقية . وبلغ هذا النشاط الذروة مع المقرئى ١٣٦٤ - ١٤٤٢ في كتابه « الخطط » الذي ذكر فيه ما يتعلق من الاخبار بمصر واحوالها المدنية والاجتماعية ، وقد برهن عن علم واسع ونشاط جم ، وحب اطلاع شامل تناول معه الكشف عن آثار البلاد وخطط القاهرة ، ومبانيها ، ووصف النقود المستعملة ، والابوثة والاقليات الدينية ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن اصحاب الموسوعات ، كالنويرى (القرن الرابع عشر) وجلال الدين السيوطي (القرن الخامس عشر) واميرحاه المؤرخ والجغرافى ابو الفداء (القرن الرابع عشر) . وفي مصر وضعت نهائياً في شكلها الحاضر القصص الشعبية المستمدة مادتها من جميع البلدان الاسلامية ولا سيما كتاب الف ليلة وليلة منها ، الذي ترجع منابعه الاولى ، الى بلاد فارس قبل الاسلام ، ثم زيدت عليه اضافات جديدة في بغداد .

برهن الاسلام ، في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى ، عن
 ايران المغولية
 نشاطات وحيويات متنوعة ، لم تقل قط عما تم له منها في دولة المماليك في مصر . فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الاديان ، في بدء امرهم ، اخذوا منذ اواخر القرن الثالث عشر ، يعتنقون الاسلام ، بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم ، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم ، اولى القبائل المغولية التي دخلت ايران . فقد برهنوا عن تساهل عظيم امام جميع الاديان والمعتقدات ، دون ان يفرقوا عند اعتناقهم الاسلام ، بين الشيعة والسنة . ولم يخل هذا الوضع بالذات ، من بعض الاثر

على الاسلام ، اذ فقد شيئاً كان يجعله في اعين الآخرين ، الدين المميز او المفضل . وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور ، بحيث أصبح التشيع ، بعد ذلك بقرنين ، المذهب الرسمي في ايران .

وعلى عكس الغزو التركي ، لم يتسبب غزو المغول عن اي تغيير يذكر في البلاد التي اخضعها لسيطرتهم ، من الوجهة الاثنوغرافية . فاذا ما حصل شيء من هذا ، فقد جاء من قبيل هذه المفارقات الغريبة لصالح الاتراك انفسهم . فقد دفع المغول امامهم ، عدداً من الاقوام والشعوب التركمانية لم يلبث ان ألف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية ، التي غطت بمدها العرم ، آسيا الصغرى وارحاء روسيا الجنوبية ، فأمدتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصبت فيها دماً جديداً . وبالنظر لنظام العيش الواحد ، استطاع التركمان ، اكثر من اية قومية من هذه القوميات التي وقعت تحت الفتح المغولي ، ان يؤثروا على المغول تأثيراً اكبر من اية تأثير تم لاي عنصر اثنوغرافي آخر ، وراحوا يمتصونهم ، ولم يبق على نقاء وصفاء عنصرهم ، بمزج عن عملية التتريك هذه ، سوى بعض الجوالي المنعزلة . انه وايم الحق ، لم يصير غريب تنتهي اليه هذه العملية الجبارة . وقد عرف هؤلاء الاقوام ، في جنوبي روسيا ، باسم التتر او التتار ، وهو اسم عنى اذ ذاك وأريد به المغول ، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغة وعرقاً ، ولهجة .

وليس من شك قط ان تنصل ، في مجالات الحكم والادارة ، بعض الخصائص والمميزات التي حملها المغول معهم من مواطنهم الاولى ، بينما تركت غيرها أثرها البارز حتى في مصر احيانا خلال عهد المماليك . علينا ان نتورع قبل أن ننسب او نرد لنظام المغول ، اي فضل في انشاء هذه الاتصالات البريدية ، ومصلحة المباحث والجاوسية التي أنشأوها . لم يكن في وسع هؤلاء الغزاة الضالعين الى ما فوق انوفهم في الهمجية والبربرية ، ان يقيموا مثل هذه المصالح . وهكذا لا نستطيع الى يومنا هذا ، ان نميز جيداً في النظام الذي وضعته الدولة الايلخانية ، ما هو من اصل ايراني ، وما هو من اصل مغولي او صيني ، وما هو من ابداع أصيل . وجل ما نستطيعه بهذا الشأن هو ان نتبين ، بعض ما استحدثوه ، في النظم القضائية والمالية .

فالادارة العامة بقيت في ايدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الاصليين ، ومن كل المذاهب كرشيد الدين الخطيب ، وهو يهودي اعتنق الاسلام ، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للالحان غازان ، عام ١٣٠٠ . اما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ، وبالقرارات السياسية الملزمة ، مستعيناً في عمله ، بإرشادات المجلس الاعلى للمغل ، وسار على قانون جنكيز خان . وقد لفت انظار الناس الى بعض الاشياء الخارجية التي استحدثها كالفرومان (يارلغ) والانواط المعدنية التي انعم بها على بعض القادة ، والخاتم الذي تميز به اوراق الديوان (الطرّة) والذي يشبه شهاباً كبيراً الطغراء عند السلجوقيين . وبعد ان رُسخ النظام واستقرت أسسه ، كان على الدولة ان تسير وفقاً لقتضيات الوضع الراهن . فالغرض الذي رمت اليه في الدرجة الاولى ، كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والارهاب ، حتى اذا ما حلّ الرعب في

قلوب السكان بعد ان افقرت البلاد وجف منها الضرع وصوَّح الزرع ، اخذت الحكومة المغولية بعد الانتهاء من عملية الفتح ، تتبع نهجاً ادارياً اكثر انتظاماً من قبل . وقد وفرت الفتوحات للدولة الايلخانية على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية ، املاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة . فاذا لم تجر الدولة تغييرات جذرية تقلب الاسس التي سارت عليها جباية الضرائب منذ عهد سحيق ، فالاصلاحات التي قامت بها ، وكلها مستوحاة من مفول الصين ، اي من المناهج الصينية ساعدت على وضع نظام مالي مبسط وفرت لها محصولاً اطيب من الواردات ، كل هذا لم يمنع قط الدولة الايلخانية من ان تجرد نفسها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، عرضة للمصاعب ذاتها التي تعرضت لها الحكومات السابقة ، بعد ان زادت فداحة الدمار الذي اصاب جانباً كبيراً من البلاد ، وتكالب الحكام والقواد العسكريون ، على ابتزاز السكان واغتصابهم باسوأ الاساليب . فامام تدهور النقد ، والعجز الذي منيت به الدولة ، فمنعها عن تأمين مرتبات الجند ، راحوا يروجون في العالم الاسلامي ، العملة الورقية التي نجح استعمالها في الصين ، وهي محاولة كتب لها الفشل ومنيت بالخيبة لقلّة درجّة القوم وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لها بصورة مرضية . وعهد السلطان محمود الغزنوي اذ ذاك الى ضرب عملة سليمة . ولكي يشجع الجند على استثمار الاراضي ، قرر ان يقطع الواحد منهم اراضي واسعة . وهكذا عاد العمل بالاقطاع من جديد . ومع ذلك لم يستطيعوا ان يحولوا دون تدهور النظام . وقد قام الى جانب الاراضي التي وقعت مباشرة تحت ادارة الدولة ، امارات عدة اعترفت لها بالولاء والتبعية ، ومع ذلك لم تطبق هذه الاصلاحات تطبيقاً كاملاً .

من الفوائد التي ادّت اليها الوحدة المغولية ، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع ارجاء آسيا . والتسامح الديني والسياسي الذي عرفت به هذه الدولة ، مكن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومنيكيين والفرنسيسكان ان يتوغلوا بعيداً في اواسط آسيا وان يقيموا لهم مراكز للتبشير وابراشيات ، تناثرت حباتها من شطآن البحر الاسود حتى مشارف بحر الصين ، حتى ان قوافل من التجار الايطاليين ، انضموا ، لأول مرة في التاريخ الى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب اقطار الهند والصين ، وتم تبادل الممثلين السياسيين ، بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب . وقد نتج عن هذا ، بنوع خاص اتساع الافق امام الاتصالات البشرية ، كما وضع كثيرون من الرّحالة الغربيين ، اوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها ارجلهم لأول مرة ، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء ، فظهرت لأول مرة في التاريخ كتب وصفية منها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، وهو كتاب أرخ فيه للفعل وملوكهم ، من جنكيز خان الى غازان ، وللفرس والخلفاء والملوك الصين وملوك الفرنجة .

لا بد من التنويه هنا الى ان هذه التجربة لم تعمّر طويلاً . فلم يمر ثلاثة ارباع القرن حتى عادت آسيا الى الانقسام ، وأوصدت ابوابها في وجه الغربيين . ففي عهد الوحدة لم تكن طرقها مأمونة المسالك ، اذ ان الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر .

كذلك من الصعب ان يكون المرء له فكرة ، ولو تقريبية ، عن الحركة التجارية التي ساهم بها بعض التجار الايطاليين . وما لا شك فيه ان الدولة الايلخانية شهدت هي نفسها حركة تجارية اقوى على الطرق التجارية القديمة الا انها عجزت عن ان تعيد الى نشاطها السابق ، الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد ان اخذت مصر تسيطر عليها اكثر فاكثروا . وقد استقر رأيا يوماً على ان تهاجم الاسطول المصري العامل من قواعده ، في المحيط الهندي ، وهي خطة لم ير النور ، وان كانت استخدمت لها بحارة إيطاليين من مدينة جنوى . وعادوا الى استعمال الطرق التجارية التقليدية : فالى جانب مرفأ طرابزون ، نشأ الآن على شاطئ البحر المتوسط ، مرفأ أياس *Amas* الواقع في ارمينيا الصغرى الخاضعة اذ ذاك للمغول . ومن بين الطرق التي فتحت ابوابها للتجارة جديداً ، مع انها سبق لها واستعملت بين حدود الصين ونهر الفولغا ، هذا الطريق الذي يصل بعد ان يحتاز شمالي بحر قزوين والتركستان ، بين البحر الاسود والصين ، ماراً بالاقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية . وكانت المنافسة بين هذه الطرق على اشدها ، كما كانت على مثل هذا الوضع ، بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها . وهذه المنافسة حالت دون حصول الممالك على ما يرغبون فيه من الرق ، من اسواق القوقاز . ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرةً بالبحر الاسود وما يقع حواليه من الاقطار ، عن طريق المضائق ، بالاتفاق مع بينظية ، وعلى اساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الايطالية المقيمة في جزيرة القرم .

فالفزو المغولي لم يلتحق مع ذلك ، اي خطر يذكر بالحركة الادبية . فالشاعر سعدي انتهى حياته المديدة في ظل ملوك شيراز الدين كانوا خاضعين للمغول . فاللغة العربية لم تبق اللغة الدارجة او المستعملة للتفاهم ، والمؤلفون ، كما في مصر ، كتبوا في كل شيء ، كنصير الدين الطوسي احد علماء الشيعة الاعلام ، في القرن الثالث عشر (١٢٠١ - ١٢٧٤) الذي اسس مرصداً فلجياً في مراغا بامر هولاكو ، وحمد الله المستوفي ، من رجال القرن الرابع عشر . وقد اثر اتساع افق العلوم الجغرافية تأثيراً بالغاً على المؤرخين . فقبل رشيد الدين ، رأينا علاء الدين عطاء الجويني ، وهو مؤرخ ووال من ولاية الفرس من اصحاب الثقافات العالية ، يضع تاريخاً موضوعياً لطائفة الحشاشين ، والمطران السرياني ابن العبري ، الذي عرف ان يوفّق في مؤلفاته ، بين التقاليد المسيحية والاسلامية ، وبين العربية والفارسية . وامام نواب هذا الزمن والمحن التي نزلت في الناس ، نرى الحياة الدينية ، تميل لدى السنة والشيعة ، على السواء ، نحو التصوف ليس على طريقة كبار المفكرين ، بل بالاحرى ، عن طريق تكاثر رجال الله والاولياء الذين راحت التقاليد والاساطير الشعبية ، تلنسب اليهم المعجزات والخوارق ، او عن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا ، باعمالهم وحركاتهم ، ان يتصلوا بالالهوية مباشرة . وقد كان هؤلاء الدراويش على جانب كبير من الجهل فيحاولون ، عن طريق الاستجداء او بوصفهم اعضاء في جمعيات الاولياء ان يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة ، فجمعوا كثيراً من الوقوفات والاعطيات . يجب الا نغفل هنا عن ذكر الجهود التي قام بها الفرس لنشر الاسلام في قلب آسيا ، بعد ان اعتنقه عدد كبير من المغول والصينيين ، ولا تزال ذرايرهم على هذه العقيدة ، حتى يومنا هذا .

والتقاليد الغنية التي عُرفت في عهد السلاجوقيين ؛ زادت غنى ؛ إثر الاقتباسات التي اخذتها عن طريق الاتصال بالماليك والمغول . الا ان هذه الاقتباسات قلما نراها تبرز ، في هذه المباني الهندسية الجميلة التي تم انشاؤها اذ ذاك كمدفن اليلخان اولجيتو في عاصمة سلطنته ، في اذربيجان ، وفي مسجد فيرامين الى الجنوب من طهران ، او مسجد يزد الذي شيدته احدى الامارات المحلية ، ورسوم الزينة والزركشة والتحلية التي اكثرت من استعمال الفن المقرنص على شكل نخاريب النحل ، او القاشاني الازرق ، الذي استعمل بلاطاً لغرض الجدران بما عليه من رسوم نباتية ، بعد ان جود صنع عمال مدينة قاشان في إيران الوسطى . اما التجديد ، فقد تناول على الاخص ، فن تزويق المخطوطات ، وذلك بفضل ما تم من اتصال بالفن الصيني . وقد عرف الفنانون الايرانيون ان يتفننوا كثيراً في هذه الصنعة فاكثروا من استعمال المناظر الطبيعية والصور البشرية على تنوع بديع في الألوان وتناسق جميل ، بحيث بز الايرانيون بهذا الفن ما عرف من مذاهب التزويق ليس في العالم الاسلامي فحسب ، بل ايضاً جميع ما بلغ اليه هذا الفن في الغرب خلال هذه الحقبة بالذات .

وكغيرها من الدول المغولية الاخرى - باستثناء القبيلة الذهبية التي سَمَّرت وقتاً اطول ، فلم تتجاوز الدولة اليلخانية ، القرن الرابع عشر . فالى جانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب هذه الدولة فغطت كل نشاط فيها وثلت كل حركة ، عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة ، بعد ان قلَّ عددها ، فعادت الى حباة البداوة القديمة . ولم يعد داع الفتح يدعومهم للاتحاد مع عناصر السكان الاخرى . وقد حال الرجوع الى حياة البداوة ، في بعض الولايات ، دون الابقاء على ادارة مالية صحيحة تؤمن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة ، واكسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به « الجيش النظامي » . فابنما جاء المغول اقل نسبة عددية ، برزت المطالب القومية في الولايات ، وقام ينفذها فريق من ذوي الأطماع . وهكذا لم تلبث الدولة اليلخانية ان توزعت الى دويلات وامارات ، صار قسم منها الى ابناء البلاد ، كما صار القسم الآخر الى امراء التركان او المغول . فقد سيطر التركان في الولايات الغربية ، واصبح شمالي العراق واذربيجان وارمينيا طوال قرن واكثر ، مسرحاً لمنافسات دامية بين الاتحادين المتخاصمين هما : « الخروف الاسود والخروف الابيض » ، فكان احدهما على المذهب الشيعي ، كما كان الآخر على المذهب السني - وهي منافسة احتدمت واستطالت ، فأثرت من بعض النواحي ، على تكوين الدولة العثمانية ، وعلى إنشاء إيران الحديثة . اما ما تبقى من إيران ، فقد بقي سائراً وفقاً للتقاليد التي عمل بها من قبل ، ولم يخرج عن الصدد الذي رسمته له الدولة اليلخانية الا في التقسيم السياسي الذي اصاب البلاد اذ ذاك .

كان الاسلام قد سيطر على دول اسلامية اخرى ، تقع الى ما
الدول المغولية الاسلامية الاخرى وراء تخوم الدولة اليلخانية ، امثال دولة جاجاتاني في

التركستان ، ودولة كيتشاك او القبيلة الذهبية في روسيا ، ولكن ليس كما هي الحال في ايران تحت تأثير سكان البلاد الاصليين الاكثر عدداً نسبياً ، ولا تحت تأثير الاتصال بالترك الرحّل ، اذ ان قبائل التركمان التي استوطنت هذه المناطق ، كان اعتناقها للاسلام لم يزل جزئياً ، وطري العود . ان انتشار الاسلام بين البدو الرحل في هذه الفلوات ، الذي كان ابتداءً منذ عهد بعبد استمر بعد الغزو المغولي ، واشتد على الاخص بين المغول ، اذ رأوا في هذا التضامن الديني الملاط الذي يؤلف الوحدة العضوية التي اتاحت لهم ان يتحكموا في روسيا ، وباقوام الروس الوطنيين ، الذين كان اعتناقهم للمسيحية سطحيًا . ومما يكن ، فان اعتناق سكان هذه القبائل للاسلام ، سجل في عهد المغول ، خطوات حاسمة لا تزال آثارها بادية لليوم ، في هذه المقاطعات الواقعة ضمن الاتحاد السوفياتي اليوم . فلم يتسبب عن هذا الارتداد ظهور مراكز قومية للثقافة الاسلامية ، ووحدة المعقّدة ، لم تعد شيئاً في حفظ الوحدة السياسية . ان مغول القبيلة الذهبية ، الذين اتخذوا عاصمة لهم مدينة سراي الواقعة على نهر الفولغا السفلى ، دانوا ببقائهم الى القرن السادس عشر ، لعدم قيام خصم قوي في وجههم . اما مملكة جاغاتاي ، فقد دُكت معالمها واستعالت رماداً منذ اواسط القرن الرابع عشر .

ترك الفتح المغولي أبرز آثاره وأعماها على الاطلاق، ولو بصورة غير مباشرة،
الهند الاسلامية
في بعض البلدان الواقعة وراء حدوده ، ولا سيما في الهند وآسيا الصغرى . استطاع خلفاء الدولة الغزنوية الذين دوّخوا المقاطعات الواقعة الى الشمال الغربي من الهند ، ان يضيفوا الى هذه الولايات، تبعاً ، منذ أواخر القرن الثاني عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر، حوض نهر الغانج والبنغال والقسم الاكبر من الدكن ، فكادوا يحققون بذلك وحدة الهند التي مزقتها المشاحنات الداخلية وعرضتها للانقسام . وهكذا ففي الوقت الذي توقف فيه الاسلام عن التوغل عمودياً ، راح يتسع افقياً بفتوحات جديدة . رأينا رد الفعل الذي قام به سكان البلاد الوطنيون ، امام هذا التوغل الديني البطيء، وكيف انهم انكفأوا على أنفسهم، واستمسكوا بضراوة ، بحضاراتهم القديمة المتحجرة . وقد فرض الاسلام على هذه الجماعات التي كانت أقل تطوراً سياسياً في أوضاعها ، ما كان له من تنظيم أسمى ، ونظامه العسكري القوي ، ومذاهبه الضرائبية التي كان اقتبسها من العالم الاسلامي ، في الغرب . وقد تمكن أتباعه في الهند ، بعد ان استقرت أوضاعهم ، ان ينشئوا مركزاً للاشعاع الحضاري ، لم يبق بدون تأثير على الهنود الذين ما لبثوا مستمسكين ، بجبل دينهم ، كما هو شأن من كان منهم في وادي الغانج او السواد الاعظم من سكان الدكن . فغزو المغول شجع هذه الحركة وبذلك نجحت الهند نهائياً من كابوس الفتح وان لم تنج من غزواتهم ، وأصبحت ملاذاً لليرانيين وملجأ لهم . ولذا جاءت الثقافة الاسلامية في الهند ثقافة فارسية الطابع ، ايرانية السمة ، على مذهب السنة ، اذ ان المغول في ايران كانوا حماة الشيعة . وقد طلعت علينا في هذا العهد مؤلفات مهمة ، منها تاريخ الدول ايرانية والاسلامية في الهند ، الذي وضعه الجوزجاني ، في القرن الثالث عشر ، والقصائد التي وصلت الينا من نظم

أمير خسرو . وعلى عكس ذلك فالفنانون الوطنيون الذين كانوا في خدمة سلاطين دهلي ، لم يقتبسوا من إيران سوى رسوم تزيينية ثانوية ، والمدافن والمساجد التي أنشأها جاءت كلها على طراز هندي .

قد كان للفتح المغولي ، تأثير بالغ على آسيا الصغرى ، اذ هيأ لها - ولو من آسيا الصغرى بعيد - الظروف المساعدة لبروز الدولة العثمانية وتطورها . فبعد ان نال المغول من سلجوقي بلاد الروم ، لم يعمدوا قط للقضاء على حكومتهم وتشكيلاتهم الادارية ، بل فرضوا عليهم الولاء والتابعة ، وألزمهم بتحمل القسم الادنى من أود جيشهم . وقد ساعد هذا النوع من الحماية التي أقاموها ، على شد أواصر العلاقات ، بين السلجوقيين وبين إيران ، كما ساعد ، من جهة ثانية ، على نشر الاشعاع الثقافي الايراني في ديارهم بعد ان اخذت بوادر هذا الاشعاع تبدو للعيان في أواخر عهد الدولة السلجوقية . وهكذا استبطاع جلال الدين الرومي ، في القصائد الصوفية التي وضعها ، وهي من أروع ما عرف الادب الفارسي من نظم ، ان ينشر عن طريق فرق المولوية ، النزعات الصوفية التي حملها معه من خراسان ، قبل ان يحقق المغول فتوحاتهم الداوية . وهكذا افترشت ارض آسيا الصغرى بالكثير من المساجد والمدارس التي شجع على بنائها وتشيدها الوزير فخر الدين علي ، فازدانت بها معالم كل من قونية وسيواس واماسيا ، ضاربين صفحاً هنا ، عن ذكر الاضرحة والحنانات العديدة . وقد أفادت بلاد الاناضول ، ولا سيما مدينة سيواس التي قامت على مفترق الطرق التجارية ، من هذه الحركة التجارية التي نشطت في المرافئ التي أفضت الى الدولة الايلخانية .

ومع ذلك ، فالمغول مسؤولون ، الى حد بعيد ، عن زوال تركيا الاولى ، من مسرح التاريخ . فالاندحار الذي لحق بهم ، والمشاحنات الداخلية التي قامت فيما بينهم ، والذهاب كعادتهم ، الى تبريز ، للظهور في بلاط سلاطينها ، كل ذلك بالغ في انهاك السلطنة وياهانها ، ففضى عليها وأزالها من الوجود ، في مستهل القرن الرابع عشر ، دونما ضجة او ضجيج . صحيح ان المغول حكموا البلاد حتى عام ١٢٧٧ ، بواسطة سلجوقي ارستوقراطي هو البرفانة الذي حاول ، بجميع الوسائل ، ان يحافظ على التقاليد التي سار عليها الحكم السابق . الا ان مقتضيات الدولة الايلخانية ومتطلباتها الضرائبية ، حرمت هذه السلطة من وسائل العمل ، ولا سيما من جيشها الذي لم تقدّم بديلاً عنه الا عندما كان الامر يتعلق بمصلحتها مباشرة . ولم يلبث البرفانة فخر الدين علي وغيره ان راحوا يقتسمون الولايات التي تألفت منها المملكة قديماً ، فيما بينهم . ومما أنكى من هذا كله وأهم هو ان التفسخ الذي صارت اليه السلطة ، أفادت منه المدن ومنظمات الفتوة التي بلغ من نفوذها في بعض مدن اناضوليا ، في القرن الرابع عشر ، ظهور منظمات شابهت من بعض الوجوه ، المنظمات التي قامت في الغرب تحت اسم Communes او بلديات ، والذي استفاد بالاكثر من هذا الوضع هم التركمان الذين كان أصبح من الصعب ردهم وكبح جماحهم في أواخر عهد الدولة السلجوقية . ففي الوقت الذي أمكن فيه السيطرة عليهم والحد من

شكيمتهم في الولايات القلبية او الوسطى ، تمكنوا من التحرر في الولايات الدائرية ، حيث كانوا بمنزل عن كل رقابة في جبالهم الوعرة المسالك والصعبة المنال، او كانوا يلوذون باللجوء الى داخل الاراضي البيزنطية . من بين هذه الامارات الاولى التي طلعت علينا هي امارة كرماني التي استمرت قائمة قرنين كاملين في جبال الطوروس . وقد قام التركمان بثورة عامة استطاعوا معها الاستيلاء على قونية ، اتسهم البرنامج بتدبيرها فحكم عليه بالموت حالاً فحدثت ردة فعل لدى المغول الذين تسلموا الادارة وأدخلوا على البلاد بعض نظمهم الخاصة . الا انهم لم يأخذوا اجراءات جذرية ضد التركمان القاطنين في الولايات الدائرية . وقبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، قام عدد من الامارات الاخرى ، بعضها على الحدود البيزنطية ، أسس احداها الامير عثمان ، المؤسس الحقيقي لدولة الاتراك العثمانيين .

ان تحرر التركمان واستقلالهم أدى الى نتائج مهمة جداً ، سواءاً في داخل آسيا الصغرى او في خارجها . فالنزعات الاجتماعية والصوفية التي برزت في الأوساط التركمانية ، ساعدت كثيراً على ظهور طرائق دينية لاقت رواجاً اكثر مما لاقتة المولوية ، منها مثلاً البكتاشية ، وهي طريقة لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العثماني . لم يكتثر أسياد اناضوليا الجدد كثيراً للثقافة الايرانية التي لم تكن في نظرهم لتعني شيئاً كبيراً ، مع العلم ان هذه الثقافة الفارسية بقيت ذات تأثير عميق في البلاد مدة عدة اجيال . وهكذا لم تلبث ان اصبحت اللهجة التركية هي اللغة التي استعملت في هذه القصائد الصوفية او في روايات البطولة التي راحت تمجد انتصارات التركمان . وهكذا كانت فترة الاحتضار الطويل التي مرت بها تركيا الاولى ، الفرصة المؤاتية للشعب التركي ليعي فيها نفسه ويستفيق فيه الشعور القومي ، ويتعرف الى ذاته ، ويفقه حقيقته ، وهي نقطة شعورية كانت لها أهمية كبرى .

وفي الوقت ذاته ، بحث تحرر الامارات التركمانية ، النشاط في قلب « الغزاة » وحلهم على الوقوف موقفاً خشناً من المسيحية البيزنطية . فأمام التخوم والحدود الخالية من كل دفاع يحميها ويقيها شر الغزوات ، راحت هذه الامارات الدائرية تقضم شيئاً فشيئاً من جنبات الامبراطورية البيزنطية ، يشد من ازرها عناصر تخلت عن مراكزها في قلب الاناضول الواقعة تحت سلطان المغول ، وأخذت تتجمع وتتراص ، ضامة بين صفوفها أنشط الوحدات التركية وأكثرها حيوية . وعندما انهارت الدولة الايلخانية ، لم يكن يوجد ، في المنطقة الواقعة بين الحروف الاسود وبين شواطئ بحر ايجه ، سوى جماعات تركمانية ، خشنة ، كانت في سبيل انشاء كيانات مختلفة كلياً عما كانت عليه الدولة السلجوقية .

الدولة التيمورية

قبل ان تميل شمس القرن الرابع عشر الى الغيب ، تعرض الشرق الاوسط لهزات جديدة عنيفة زعزعت أقطاره وتركته خراباً يباباً . فن مملكة ساجاغاي التي فقدت كل سماتها المغولية وأصبحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحلية في أواسط آسيا ، لم يبق سوى معالم دمار متراكم بعضاً فوق بعض . وهذه المدن الايرانية التي كانت ،

فما مضى ، فخر البلاد ومنازها . عانت اذ ذاك ، من الاحن والحن ما لم تتعرض لبعضه من قبل . ومقاطعة خراسان التي بلغت شأواً عالياً من الازدهار ، فيما مضى ، أصبحت اليوم قفراً بقلعاً بعد ان خربت فيها شبكات الاقنية الزراعية . والسكان بعد ان حصدتهم الفناء بالعشرات لشدة ما تعرضوا له من ضربات وويلات رزحوا تحت نير ثقيل من الاستثمار البشع والاستعمار الجشع ، على يد ارسوقراطية عسكرية تركية انشطرت شطرين متعارضين ، استمسك الاول بأعراف البدواة وتقاليدها ، كما حَبَذ الآخر الأخذ بأسباب حياة الحضرة . ومن هذه التربة ، طلع المغولي التركي تيمورلنك او تيمور الاعرج ، هذا الغول الختول الاكول ، المتعطش دوماً للدماء والحالم بالحرية والاستقلال ، الحشن الملمس والوحشي الطباع ، الا انه من أنبغ من أطلعهم التاريخ من رجال الحرب ، والذي عرف ان يجمع بين تقاليد جنكيزخان وفضائل الاسلام ، فجمع حوله جيشاً لجباً ، عرف ان يثير حماسه ويلهب خياله ، وراح على رأس هذا الجيش الجرار يزرع ، في اواخر القرن الرابع عشر ، هذه الرقعة من الارض الممتدة من أواسط روسيا الى شمال الهند ، ومن أقاصي حدود الصين حتى آسيا الصغرى والشام ، بالخراب والدمار ويسقيها بالدماء الحارة . وقد شعر هذا الفاتح المتبدي انه لن يتم له انشاء امبراطورية راسخة الاركان وطيدة الاسس والبنيان ، ما لم يجمعها على قواعد مدنية متينة ، وما لم يرتفع فيها للعلم والفكر والفن حرمة وقباب عاليات وسلطان ، فعاشت عاصمته سمرقند عهداً من الازدهار والاشعاع الفكري ، لم تعرف مثله من قبل ولا من بعد . وراح يدافع عن الدين الحنيف ويرسخ اركانه واتخذ منه 'نكأة' ليتابع فتوحاته ، واعتمد في اعماله الحربية على نظام النقشبندية ، فادهش العالم وخبله بصواعق انتصاراته الساحقة وفتوحاته المدوية ، فالذين ترجعوا له من الايرانيين ، اشادوا بذكوره كما اشادوا بالأماسي المظام والفتوحات العراض ، التي دوح فيها العالم كما ذكره بالتفصيل ، ابن خلدون الذي قابله بدمشق ، والكاتب الاسباني المسيحي كلافيغو وهذا الرجل الذي هزم امام انقره ، من لم يُهْزَم ، وأرغم في التراب انف السلطان العثماني بيازيد ، كان اعجز من ان يأتي عملاً يصح مقارنته بالعمل الذي قام به جنكيز خان . فقد انهك دولة الاتراك العثمانيين كما انهك دولة المماليك ودولة دهلي في الهند . حتى في ايران نفسها حيث استطاع خلفاؤه ان يقيموا لهم دولة ومثلاً في التركستان ، لم يستطع هو ان يقيم سلطة سياسية جديدة . وقد استمعهم التيموريون بعد موته بقليل (١٤٠٥) وعجزوا عن ان يجددوا اياً من المؤسسات التي عمل بها في الشرق الاوسط ، من قبل . وقد شاعت الصدق في الوقت الذي كادوا فيه يفقدون كل ممتلكاتهم ، ان تساعد احد خلفائهم على ان يؤسس في الهند ، خلال القرن السادس عشر ، الامبراطورية الموحدة التي عرفت بالمغول الكبير .

وقد اظهر تيمورلنك وخلفاؤه من بعده ، بذخاً كبيراً ، كما رعوا الآداب ، والفنون ، واتاحوا للفن الايراني ان يتطور ويتكامل ، وان يكمل الانجازات التي كان اخذ بها من قبل ، كهذه الابنية التي شيدت في سمرقند تخليداً لذكرى تيمور ، ولا سيما ضريحه : « غوري مير »

الذي تطله قبة ضخمة زرقاء . وهذه البلاطات الزاهية ، التي غصت بالفنانين والعلماء يقيمها شاه رح ، وحسين بيكره في هراة ، وأولغ بك في التركستان . وازدانت مدن ايران الكبرى : كتهريز وشيراز ، بالمساجد والضرائح الضخمة ، ومسجد مشهد ، وهذه القصور والصروح الفخمة - اذا ما اردنا ان نأخذ بأقوال الرحالة - التي شيدت في هذه العواصم التي اصبحت مثوى لحركة تجارية ناشطة . قامت هذه المباني وفقاً للطراز التقليدي وفرشت بأحسن زينة تعلوها القباب ، وهي من مستحدثات العهد . وجدير بالذكر هنا ما بلغه من زخرفة الكتب وتحليتها بالنقوش والرسوم . وقد اشتهرت مدرسة هراة الغنية في القرن الخامس عشر التي اطلعت الفنان بهزاد (١٤٥٠ - ١٥٣٦) الذي عُرف بالرسوم والصور التوضيحية الدقيقة التفاصيل . ومن المخطوطات التي زينها بريشته : « تيمورنامه » و « البستان » لسعدي . وقد عاصر عصر البعث الايطالي . وارتفع رسم المناظر والمشهد والصور الشخصية ، الى الارجح . وقصد ازدهر الادب الفارسي بالروائع التي ظهرت في هذا العهد ، في التاريخ مير خاوند (١٤٤٣ - ١٤٩٨) الذي وضع : « روضة الصفاء » وهو تاريخ عام ، ونور الدين جامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) وهو شاعر وفقه اسلامي . وهذه الجداول والزيغ الفلكية التي وضعها اولغ بك (او ألخ بك) تشهد عالياً على استمرار روح المعرفة . والجدير بالذكر هنا لدلالته هو ان الادب التركي اخذ في انطلاقه وثابة في مقاطعة جاغاتاي ، ولا يزال علي شيرنفاي ، يعتبر لليوم شاعراً وطنياً كبيراً ، في نظر تركان التركستان . وهي حيوية مدهشة برهنت دوماً عنها هذه الدولة الاسلامية التي عرفت ، على مدار التاريخ ، ان تجدد من شبابها ، بعد كل داهية دهماء تلم بها ، او تقوم بفتح جديد مظفر . غير ان هذه الظاهرة كانت في التركستان كأنما هي بيضة الديك . فزوال الدولة التيمورية ، في اواخر القرن السادس عشر ، كان نذيراً بتغلب روح البداوة من جديد ، على تلك البلاد ، في الوقت الذي اقفر فيه طرق التجارة ومساكنها في هذه المنطقة ، واصبحت لا شأن لها بعد تلك الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي جاءت في اخريات القرن الخامس عشر ، الامر الذي حمل معه نهاية المدن والحضارة التي كانت ازدهرت في هذه البقعة النائية على القارة الآسيوية .

والغروب الاسلامي الذي كادت تنقطع علاقاته مع مصر وبلدان الشرق الأدنى ، كان يعيش منكفئاً على نفسه ، مستمسكاً بمرى حضارة بقيت مزدهرة ، مشرقة ، في كثير من جنباتها ، بالرغم مما تناوب عليها من الحن والإحن وتراكم عليها من الخراب والدمار فأفل نجمها وخبا ضوءها ، ولو جزئياً . فمعد هذا العهد حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر ، نرى المغرب الأقصى منقسماً على نفسه ، الى ثلاث دول او ممالك : هي مملكة تلمسان ، في المغرب الاوسط ، التي صار الامر فيها الى قبائل بدوية رحل ، ضاربة في منطقة جبلية ، والدولة الحفصية (تونس وقسطنطينة) ، المستعربة ، والدولة المرينية (المغرب) قوامها البربر ، التي عرفت استقراراً اثبت وارسخ ، وبنيت لها حضارة جمعت بين طباع الريف والمدنية . اما مملكة غرناطة التي عرفت ان تحافظ على كيانها وقوامها حتى اواخر

القرن الخامس عشر (١٤٩٢) ، فقد اقامت لها علائق وطيدة مع دول افريقية اضفت عليها جميعاً ، كثيراً من التشابه والتجانس ، وكلها على المذهب المالكي الذي كان يدرس في المدارس القائمة في تلك البلدان . وقد ازدهرت في هذه الممالك جمعيات دينية ، صوفية حظيت بنفوذ عظيم بين السكان ، بعضها من اصل شرقي ، كانت تلتف حول زاويتها . . وقد ازدهرت التجارة في جميع ربوعها ، عمادها القوافل السودانية التي كانت تحمل معها الذهب . كما كانت تعتمد على التجارة البحرية التي كان معظمها بيد الاوروبيين ، فتمعرض من وقت لآخر لقرصنة الجزائريين والكتلونيين لها . وفي مثل هذا الوضع ظهرت بعض هذه الآثار الفنية تشهد عالياً على ما كانت عليه الحضارة الاسلامية في الاندلس .

في الطليعة من هذه الآثار ، يأتي قصر الحمراء ، في غرناطة ، عاصمة الدولة النصرية (القرن الرابع عشر) ، وقد فاق هذا القصر بحال هندسته وزخرفته ، ما شابه من المباني الهندسية الاخرى . وهو من هذه الآثار المعمارية النادرة التي وصلت الينا كاملة ، محفوظة ، تتمثل فيه ، الى جانب بعض العناصر الفنية المسيحية ، التقاليد الهندسية الاسلامية ، في ازوج ما بلغته من التناغم والتناسق والدقة ، مثلة على اتمها في هو الاسود . ويذكرنا هذا الاثر المجيد بهذه الانشاءات الهندسية المستوحاة من الفن الاسباني ، التي تمت على يد سلاطين الدولة المرينية ، في المغرب ، منها مثلاً المسجد الكبير ومدرسة العطارين ، في فاس . فبالقاشاني ذات اللعان والبريق المعدني وبهذه المهارة الصناعية المستمدة من الفن الايراني ، وبهذه الاسلحة المشهورة ، ولا سيما سيوف بوعبدل ، وبهذه الجلود ، استطاع الفن الاسباني المغربي ، ان يبرز في هذه الحقبة مع انه اقل تنوعاً من الفن الشرقي ، انما من ذوق ارفع وارسخ ، وان يبقى ويخلد بعد استعادة الاسبان لبلادهم . وقد راح فنانون مسلمون يعملون لحساب ملوك اسبانيا ، بينهم هذا الفريق الذي شارك في بناء « القصر » في اشبيلية وهذه الاساليب الفنية الاندلسية التي بقيت مرعية الاستعمال لدى المهندسين المسلمين ، بعد الفتح الاسباني ، عمل بها حتى نهاية القرن السادس عشر ، واستعملوها جنباً الى جنب مع الفن الفوطي او عصر الانبعاث ، وازداد شأنها . فالفن الاندلسي هو من هذه الآثار الخالدة التي طلعت بها العبقرية الانسانية والتي لا تزال اسبانيا تباهي بها لليوم .

بالرغم من ان النشاط الفكري جاء ، نوعاً ما ، اضعف بقليل من النشاط الفني ، فقد عرف الادب ، في القرن الرابع عشر ازدهاراً عظيماً ، تمثل في مملكة غرناطة بشخص لسان الدين الخطيب ، احد مشاهير ادباء الاندلس قبل خروج المسلمين منها ، وابن بطوطة وابن خلدون ، في المغرب . رأى ابن بطوطة النور في مدينة طنجة ، وهو احدث عهداً من ماركو بولو . فقد قام برحلة امتدت اقاصيها من تمبكتو ، في السودان ، الى مدينة كنتون في الصين ، وترك لناوصفاً في تنقلاته هذه لا يقل شأنها ولذة عما نجده عند زميله ورصيفه البندقي . اما ابن خلدون ، فهو من عائلة عربية هاجر اهلها من اسبانيا واستقروا في تونس ، وتوفي في القاهرة بعد حياة مديدة . مثل دوراً بارزاً في شتى الممالك الاسلامية ، في المغرب ، وكتابه : تاريخ البربر ، الذي جاء ضمن

موسوعته التاريخية الكبرى، ينم عن دقة متناهية، وقوة ملاحظة شديدة، وحصافة في الرأي. الا ان المعلومات الثمينة التي تضمنها هي ادنى منزلة عن « المقدمة » التي وطأ فيها لتاريخه المشهور. ولأول مرة في التاريخ، يطلع علينا مفكر بدراسة عميقة، محلة، فاحلة، للمجتمع البشري، وهي دراسة يستأنس بها، ويعول عليها علماء الاجتماع المحدثون، اليوم. فجاءت دراسته هذه بحثاً علمياً موضوعياً لاسس المجتمع ولنواميس تطوره. وقد امده هذا المجتمع المغربي الذي يعرفه معرفة اليقين، بنظريات دقيقة حول طبيعة حياة الحضرة والمدرة او البدو، كما جاءنا بنظريات صائبة حول العصبية القبلية او القومية التي بدونها لا يمكن ان تقوم قائمة لدولة تتطلع الى الاستقرار وتنشده. وهذا الاثر الادبي الذي تناسى الناس شأنه بعيد وفاة صاحبه يُعَدُّ اليوم احدى القيم التي بلغها الفكر الانساني في الاجيال الوسطى، فثاق كثيراً بسموه، من وجوه عدة، قوة التفكير التي برهن عنها توما الاكويني.

ازداد المغرب الاسلامي تقهقراً، خلال القرن الخامس عشر فراحت اسبانيا المسيحية تهاجم بعنف، مملكة غرناطة محاولة الاستيلاء عليها فتم لها ذلك عام ١٤٩٢ كما راحت من بعد تهاجم شمالي افريقية الذي طالما امدت بالنجدة واردف بالمعونة، مسلمي الجزيرة الاندلسية، واتخذ منه القراصنة المسلمون في المغرب قاعدة لهم وملأوا ينكفئون اليه لدى الاقتضاء فاحتلت عدداً من مرافقه التي طالما اتحدوا هؤلاء القراصنة فواعد لهم، بينا راح البرتغاليون يحتلون بعض المواقع على ساحل المغرب، استخدموها مراكز لهم في محاولاتهم الالتفاف حول القارة الافريقية. وامام هذا الخطر الاجنبي الذي لم يكن في مقدور امراء المغرب وسادته دفعه ومنهم من مالأوه وساندوه وتعاونوا معه و انكفأ الشعب على نفسه وراح يلتف حول بعض الاولياء في زواياهم بانتظار ان تسعف الظروف التي تمهأت في القرن السادس عشر في بروز الامبراطورية الشريفة في المغرب وظهور امارات وطنية في ما تبقى من اجزائه الاخرى، كانت ملاذاً للقراصنة لم تلبث ان اعترفت بولائها للامبراطورية العثمانية. وهؤلاء المسلمون واليهود الذين اخرجوا من اسبانيا افادوا المغرب افادة كبيرة بما تم لهم من تجربة وخبرة واسعة كسبوها من خلال مدنية كانت اسمى بكثير من مدنية البلاد التي لجأوا اليها. ففي الوقت الذي كان فيه الاسلام ينكفيء في البلدان الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط كانت يعطي برهاناً جديداً على ما فيه من قوة حيوية دافقة، في هذا الانتشار والتوسع السريع الذي حققه بين سكان افريقيا السوداء الاقل تطوراً.

وهذه الامبراطورية السوداء - امبراطورية غانا - التي قامت وانتشرت عند اعالي نهر النيجر والتي كان زعماءها الأول من البيض، قضى عليها سلاطين دولة المرابطين في القرن الحادي عشر. ولم يلبث السودان النيجيري ان حقق، هو الآخر استقلاله السياسي وساعد دخول الاسلام اليه، على يد المرابطين وتوغل في ارجائه بواسطة المبادلات التجارية عبر الصحراء التي دارت على اساس مقايضة الذهب بالملح. كذلك هيأ الظروف لتشكيل منظمات سياسية، ساعد الاسلام على تكوينها بقيادة زعمائهم المحليين. وقام بين السكان الملونين حيث بقي جانب منهم على الشرك وعبادة

الأوثان ، امبراطوريات اساسها المقاومة الوطنية ،تولى الامر فيها زعماء من الزوج المسلمين ،منها في القرن الرابع عشر ، امبراطورية مالي التي امتدت رقعتها من غابات افريقيا البكر الى هذه الواحات الواقعة الى الجنوب من الجزائر جاعلة من تمبكتو ، المركز التجاري الكبير فيها قاعدة للاشعاع ، حيث راح مهندسون اندلسيو الاصل ، ينشئون فناً هندسياً سودانياً بعد ان عرفوا ان يوائمو بين تقاليدهم وبين الاعراف الوطنية . من هذه الامبراطوريات التي قامت في القرن الخامس عشر امبراطورية غوا التي أخذت بعد انجاز محورها نحو الشرق ،تحيسى على حسابها امبراطورية مالي ، من الوجهتين الادارية والاقتصادية بمساهمة جهود اسبانيا والدعوة الدينية التي نهض بها مرشدون مغاربة . والاسلام الذي وصل الى هذه المنطقة عن طريق مصر وغوا ، بلغ منطقة بحيرة تشاد ، والتقى في نيجيريا بحضارة زنجية قديمة ، جديرة بكل تقدير واحترام بما حققته من انجازات في حقل الفن ، هذا الفن الذي يمكن رد اصوله الاولى ، الى مؤثرات جاءت من بلدن البحر المتوسط ، لم تعتم ان تغلغل بين القوم هناك ، فاقبلوا عليها يستلهمونها . وبعد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان على اثر العبث الذريع الذي احدث في تلك الارزاء تجار النخاسة والرق من الاوروبيين ، هذه الحركة التطورية التي بعثها الاسلام في تلك البلاد ، قبل ان تطأها اقدام البرتغاليين ، بزمن طويل .

٢ — أفول نجم الدول المسيحية في البلقان

اليونان واللاتين وجهاً على الحدود الغربية للعالم الاسلامي ، في هذا المركب الغريب من الدول لوجه في البلقان المسيحية المتناثرة على شواطئ البحر الابيض المتوسط الشرقية وعلى بحر ايجه والتي يتألف من مجموعها ما يعرف بالبلقان ، توارت عن الانظار بسرعة ، وزالت من الوجود ، هذه الامبراطورية اللاتينية ، التي قامت في القسطنطينية (١٣٠٤ - ١٢٦١) . فالضعف الذي كانت عليه في الداخل ، وهذه اللامبالاة التي بدا عليها كبار الاقطاعيين من امراء اللاتين واستهانتهم بكل شيء ، واستمرار الوجود اليوناني ممثلاً في دولة اليونان في آسيا الصغرى ، وكره السكان المكبوت لهذه الكنيسة الغربية التي حاولت بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية الوطنية ، وامتداد المد التركي العثماني واستفحال شأنه ، كل هذا ألف عوامل قوية كان باستطاعتها ان تقضي عليها باسرع مما قضت ، لو عرفت ان توقت معاً هجوماً على هذه الدولة التي عمرت نحواً من ستين سنة . وهذه المنافسة الشديدة التي مزقت صفوف اللاتين ، اتاحت اخيراً للامبرطور ميخائيل الثامن ، في نيقية ، والمؤسس الحقيقي للأسرة الامبراطورية بليولوج ، ان يسترجع القسطنطينية ويعيد اليها كرسي الامبراطورية ، عام ١٢٦١ ولكي يقضي تماماً على سيطرة البندقية واللاتين وليسد اشرافهم على المضائق ، راح يستميل الى جانبه جمهورية جنوى ، منافسة البندقية ومزاحمتها الخطرة على الاسواق التجارية في هذا الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، فشدت من ازرها ، وساندته في انجاح عملياته هذه ، وتحقيق اهدافه منها .

وهذه « الامبراطورية البيزنطية » الجديدة ، لم يكن بينها وبين سابقتها بالفعل ، شيء مشترك وهي الامبراطورية التي تولى الامر فيها سلالة آل كومنان ، فاعطتها ستة اباطرة من افرادها . ولم يكن بين سكانها عناصر غريبة كثيرة باستثناء بعض الجوالي اللاتينية ، ونوازل التجار المقيمين في القسطنطينية . وكانت ابعد من ان تضم تحت جناحيها ، كل المقاطعات اليونانية : فقد خرج من تحت سيطرتها وولايتها ، المقاطعات التي كان اقتطعها العرب والبلغار ، بينما تقاسمت امارات الفرنج ، شبه جزيرة اليونان وجزر الارخبيل . وقد تم فتح بيزنطية واستعادتها ، بعد القضاء على المقاومة ، على ايدي القوى المحلية ، بينما بعض المقاطعات الاخرى كآبيروس وتسالونيكى وبعد ذلك الموره التي تم استخلاصها من يد الفرنج ، وطرابزون الواقعة في الزاوية الشرقية من البحر الاسود ، كل هذه الامارات كانت تنعم باستقلالها الاداري ، وتنصرف لمناهضة بعضها البعض . وهذه الفسيفساء من الدويلات اليونانية ، لم يكن لها اي حظ قوي بالعيش الكريم ، وكلها تواجه اعداء وخصوماً ينظرون اليها شرراً ويتمنون الايقاع بها ، ويتمثلون على الاخص هؤلاء اللاتين والسلافيين ، ولا سيما الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى . غير ان اللاتين والسلافيين لم يكونوا هم ايضاً ليقولوا انقساماً ، عنهم في الداخل بحيث اصبح من العسير ، لابل من الاستحصال على المؤرخ ، ان يتتبع هذه الاحلاف والمعاهدات التي تعقد من فوق الحدود والتخوم لتتحل باسرع مما تعقد ، فاتحة المجال امام تعديلات وتغييرات في الحدود الفاصلة لا تنقطع . وهذه الكيانات السياسية ما كادت تقوم لتتوارى بسرعة ، وفي هذا ما فيه من تعبير صريح ودلالة واضحة على هذه الخصومة العنيفة والعداء الازرق الذي باعد بين الشرق اللاتيني والشرق البيزنطي .

والطابع المميز لهذه الدول البحرية ، سواء كانت لاتينية او يونانية ، ولا سيما لامبراطورية آل بليولوج ، هو اشتداد قبضة الاجنبي ، سيات جمهورية البندقية ام جمهورية جنوى ، على مرافق التجارة في هذه البلدان ، والتحكم باسواقها . وكان من بعض نتائج القمع المغولي والعاصفة الهوجاء التي سببها ، ان اتاح للايطاليين ان يستخلصوا ، من ايدي اليونان البقية الباقية من نشاطهم التجاري في المضائق وبحر ايجه ، وان يسيطروا كلياً ، على الحركة التجارية والملاحة في البحر الاسود . وبدلاً من ان تتخذ الامبراطورية البيزنطية الجديدة ، يداً من هذه المنافسة الشديدة التي اشتد أوارها ، اذ ذاك ، بين جنوى والبندقية ، فقد رأت نفسها تتورط في اشتباكات خرجت دوماً منها خاسرة : فقد حاولت عبثاً ، ان تسيطر على حي (او حارة) البنادقة القائم على مقربة من القسطنطينية القديمة ، وعلى الشاطيء الآخر للقرن الذهبي ، في المدينة الحديثة ، حيث يقوم مرفأً بيرا غلاطة ، وهو المعقل الحصين الذي يسيطر عليه تجار جنوى . وكانت كل المكاسب والمغانم التجارية ، تروج لهذه او لتلك من الدولتين المتنافستين ، دون ان تفيد دار المكس في القسطنطينية منها شيئاً على الاطلاق ، في وقت وظرف كان فيه فقدان الامبراطورية لبعض مقاطعاتها ، وتطور النظام الاقطاعي فيها ، يحمل للرسوم والعائدات التجارية ، اهمية متزايدة ، بالنسبة لدخل الدولة من الاراضي . صحيح ان مدينة القسطنطينية بالذات حققت بعض الفوائد

والمنافع من وجود هذه الوكالات التجارية على ارضها . ولكن كبار رجال المال والاعمال ، كانوا في هذه الحقبة بالذات ، كلهم من الاجانب ، كما كان هذا الوضع بالفعل وضع كل الاسكلة البحرية في الشرق الادنى ، بحيث نزلت الارستوقراطية الوطنية الى اسفل الدرك من البؤس والشقاء ، بينما كان على الانتاج الصناعى نفسه ان يراعى ، في الاكثر ، مطالب الزبُن الاجانب . وهو وضع لم ينفص بعد للآن ، كل نتائجه الكامنة .

وقد رافق هذا التطور ، حركة شديدة من الاخذ بالنظم الاقطاعية والتطبع بطابعها ، لفست المجتمع والكيان السياسى نفسه بتلابيبها . وقد ساعد على هذا ، الوضع الاجتماعى الذى كان عليه اللاتين اذ ذاك ، اما بنشرهم لهذا النظام والترسخ لاعرافه في بلاد اليونان اى في مثل هذا المجتمع المعقد التركيب ، اوباستبدالهم الارستوقراطية اليونانية بارستوقراطية اقطاعية ، واما لوجود الدويلات اليونانية نفسها مرغمة على التنازل لعظماء الدولة ولعلية القوم فيها ، عن قسم كبير من املاكها وما تبقى لها من حقوق باقيات ، لتتمكن من الاستمرار في محاربة اللاتين ، مع العلم ان توزيع الاراضى وتجزئتها على هذا النحو ، زاد من صعوبة الاحتفاظ بادارة مركزية . وهكذا وجدت البلاد نفسها في حلقة مفرغة ، لم يكن منها مخرج ، اذ ان تناقص الخراج وقذني رسوم الضرائب ، اجبر الدولة على مكافأة الخدمات التى تحصل عليها ، بتوزيع جديد للاراضى التى تملكها فتخسر بذلك ريعها ، وقد تولى الامر في الدولة ، اباطرة لم يكن يستطيعوا تصور الامور على وجه آخر ليتمكنوا من المحافظة على وحدة سرية العطب والزوال ، لهذه الاراضى التى لا تزال تسيطر عليها ، عن طريق توزيعها اقطاعات على شاكلة ما كان يجري في ممالك الغرب .

فليس من عجب ان ينبجم عن مثل هذا الوضع الذى كانت عليه الدول اليونانية والامارات اللاتينية المجاورة لها ، قوة عسكرية ضعيفة الجانب ، قليلة العدد والعُدَّة ثقلت في هذا الجيش الذى أمكن انشاؤه في مثل هذا النظام الاقطاعى ، وهو جيش لم يكن ليوحى جانبه بآية ثقة ولا يبعث اية طمأنينة فاضطرت هذه الدويلات للاستعانة بوحدات من المرتزقة . وقد سبق ونهنا من قبل ، بالحوادث التى سببتها الفرقة الكتلانية التى أرسلت لمحاربة الاتراك . ولما لم تدفع لافرادها مرتباتهم ، واذا رأت نفسها غير قادرة ان تعيش في مقاطعة جرى نهبا وسلبها من كل شيء ، راحت تميث فساداً في الولايات البلقانية وتنهبها ، وانتهى بها المطاف نهائياً ، الى اغتصاب دوقية اثينا من امراء الفرنج الذين كانوا يسيطرون عليها . وكثيراً ما رأى اباطرة آل بيلولوغ انفسهم محرومين من كل قوة ، فراحوا يخطبون ود بعض الامراء من لا تزال انفسهم تنبض لذكرى الاجداد القديمة ، او تتحمس لمصير ررما الجديدة ، ويطلبون مؤازرتهم ، امثال الامبراطور حنا الخامس مانويل ، كما راح غيره يستنجد بامراء الغرب ويستعطفهم مؤازرتهم .

كذلك كان من نتائج هذا الوضع ان ادت التطور الاقطاعى والمولوى في البلدان اليونانية واللاتينية الى القضاء قضاء تاماً ، على طبقة الفلاحين الاحرار ، ففي الحين الذى حققت فيه

الطبقات الريفية في الغرب تحررها ، وقعت هذه الطبقات نفسها ، في الشرق ، ولفترة امتدت بضعة قرون ، فريسة وضع لم يختلف كثيراً عن وضع الرق والاستعباد . وقد أصبح في شبه المستحيل ان يؤخذ من هذه الطبقات اية قوة عسكرية للدفاع عن البلاد ؛ كما لم يبق بينها اي اهتمام بالحفاظ على نظام سياسي ووضع اجتماعي لا يعود عليهم باي نفع قط .

وقد عاد انهيار السلطة المركزية بالتالي والمحلها ، بالفائدة على الارستوقراطية العقارية وعلى كبار الملاكين ، ومن ثم على المدن . ففي الوقت الذي قضت فيه البيروقراطية البيزنطية على كل استقلال داخلي للبلديات ، اخذنا اليوم نشاهد ظهور ادارات بلدية تنشيء لها حكومة كما فعلت مدينة تسالونيك ، مثلاً التي يمكن اعتبارها غير نموذج ، على ذلك ، فشابت الى حد بعيد ، المدن الايطالية في هذه الحقبة التاريخية . فعندما قامت السلطة البلدية ، في المدن الايطالية الآخذ شأناً بالازدياد كانت هذه المدن مرتبطة بسلطة الطبقة البورجوازية التي كان لها نفوذ تجاري بعيد المدى . لم يتم شيء من هذا تقريباً لمدينة تسالونيك ، اذ كانت الحركة التجارية فيها بيد الاجانب ، بينما اصحاب المال والاعمال من ابناء البلاد ، كانوا قلة لا يُعتد بها . فالمدينة الحكومة يتولى الامر فيها الارستوقراطية العقارية ، وهي تقيم في المدينة نفسها ، وهو الوضع الذي كانت عليه ايطاليا عند طلوع نظام الـ *Communes* . فهي التي تستفيد ، قبل غيرها ، من النشاط التجاري الذي يقوم على محاصيل الارض ، وغلاتها ، والانتاج الصناعي المحلي الذي كان في مقدورها وحدها ، ان تنظمه على الوجه المفيد ، وان توجه الوجهة المطلوبة . وفي وجه هذه الارستوقراطية العقارية تقوم معارضة البروليتاريا ، البائسة ، وهي معارضة تتجلى في هذه الفتن والاضطرابات التي تعمل على تنظيمها ، والتي يتفق حدوثها مع هذه القلاقل يقوم بها العمال الفلنك او العمال العاملون في مرافق الصناعة في فلورنسا . والنجاح الموقوت ، العابر ، الذي حققه هؤلاء العمال ، هم مدينون فيه لمؤازرة بعض العناصر الارستوقراطية لهم ، اذ ان البلياروغ وقفوا الى جانب « الروافض » في تسالونيك ، ضد الفريق الارستوقراطي الآخر الذي ناصر مزاحمهم على العرش : جان كنتكوزين ، حوالي عام ١٣٤٠ ، ومثلهم أبعدوا واندرسوا فزالوا ، عندما اتخذوا ضد م اجراءات جذرية كمصادرة املاكهم ، الامر الذي افضى الى الغاء هذا التحالف المعارض .

وهكذا قامت في البلدان البلقانية ، بصورة متفاوت وضوحاً وشعوراً ، اضطرابات اجتماعية وقومية . صحيح ان الحماسة الشعبية في القسطنطينية قد تكون اتجهت شطر العائلة المالكة التي عرفت ان تسيطر على القلوب بما حققت من امجاد ، او قد تكون آزرت ، في مقاطعتي الابيروس والمورة ، هذا او ذاك من القادة والزعماء المحليين . ولكن كان من الصعب جداً ، على الجماهير الشعبية ، ان ترى شيئاً « قومياً » في مسلك وتصرف هذه الاسر المالكة التي كانت تحاول عن طريق ألاعيبها السياسية والمصاهرات ، ان تنعم : تارة بمؤازرة اللاتين وطوراً بمناصرة السلافيين ، وآونة بعطف الاتراك انفسهم ، مع ان هذه المواقف السياسية التي طالما وقفوها ، في ذبذبة موصولة ، وتأرجح لم يقيم على وزن وقسطاس لم تؤد يوماً ، الى اي تحسين في اوضاع رعاياهم . والذي كان اكثر

ما يهتم له هذا الشعب، في الوقت الذي فتحت فيه على مصراعها قضية الخلافة في الامبراطورية البيزنطية ، هو استمرار هذا النمط من العيش الذي ألفوه واستكانوا اليه ، وبقاء هذه القيم الحضارية والثقافية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النمط ، أكثر من اهتمامهم لاستمرار وضع سياسي او كيان سياسي بعينه . ففي الوقت الذي اخذت تطل فيه علينا - في اليونان - بوادر روح قومية لا يشدها شيء الى بيزنطية البعيدة الشعبية ، واجه الشعب احتمال سقوط الامبراطورية وزوالها باهتمام كلي ، بعد ان عرف خصومها كيف يستثمرون الى الحد الاقصى ، الوهن الذي كانت تلتسكع فيه ، والضعف الذي تهاوت اليه .

ولا يقل الدور المخلخل ، المحلل للعالم الإيجي ، الذي لعبه اللاتين هنا ، عن الدور الذي مثلته الامارات اليونانية في هذا المجال . فالمدن التجارية لم تكن تؤازر سوى الامارات التي كانت تشغل في نظرها ، مركزاً هاماً ، في المجال الاقتصادي ، او انها تتمتع بمركز ستراتييجي لا تحصى اهميته ، بينما راحت تترك الاخرى وشأنها ، تمسالج مشاكلها كما ترغب وتشاء او بالتالي هي احسن ، وهذا الموقف بالذات ساعد اليونان على انشاء امارة مستقلة لهم في شبه جزيرة المورة . فحيث لم ينعم التجار الايطاليون بالنفوذ السياسي ، فقد كان عندهم سواء ان يكون صاحب الشأن او الامر لاتينياً او يونانياً ، سلافياً او تركياً ، اذا كان يضمن لهم ويحافظ على ما ينعمون به من امتيازات واعفاءات ، او يساعدهم على منافسيهم ومزاحمهم . فالجنويون والبنادقة كانوا يتزاحون على كسب رضى صاحب السلطان في هذه الدولة التركية الناشئة ، على امل ان لا يقيم المراقيل ، والا يثير الصعاب في وجه تجارتهم ، وهم لا يجهلون قط ان حرباً حامية يعلنونها ضدها تكلفهم غالباً .

والذين افادوا من هذه الاضطرابات هم السلافيون ، في الدرجة الاولى ، ثم الاتراك العثمانيون في الدرجة الثانية . فسقوط بيزنطية ارتبط الى حد بعيد ، بصعود هذه الشعوب وبروزها الى المعترك الدولي .

اتاحت أزمة الامبراطورية البيزنطية للبلغار ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، ان يستعيدوا بمناصرة الفلاخ *l'alagues* والرومانيين - وهم الممالك السلافية في البلقان - شعب جديد أطل على التاريخ - استقلالهم برئاسة ملوكهم من الاسرة الارسانية ، كما اتاحت ، لجيرانهم من الصرب ، بعد ان بقوا طويلاً تحت تابعيتهم ، ان يوسعوا من الرقعة التي يحتلونها تحت الشمس بحيث امتد سلطانهم من الدانوب شمالاً حتى سواحل البحر الادرياتيكي جنوباً ، فحققوا بذلك استقلالهم الناجز . وقد ساعد الضعف الذي عانت منه الامبراطورية اللاتينية ، هاتين الدولتين على ترسيخ السلطة فيها واقامتها على اصول وطيدة ، كما ان البابوية رعت منها الجانب ، املاً منها بتحقيق الوحدة الكنسية معها . والدولة البلغارية التي كانت ، في الداخل ، مثاراً للفتن ، وتعرضت ، منذ عام ١٢٦١ ، لنقمة البيزنطيين اكثر من تعرضها لهجمات مغول روسيا ،

تحالف على سياستها ، حتى القرن الرابع عشر ، هزات كثيرة بين رفع ودفع وخفض وطلوع ونزول . اما مملكة الصرب التي سارت في تطورها على خطى ابطاً واكثر انتظاماً ، فقد بلغت الأوج ، في منتصف القرن الرابع عشر ، في عهد مليكها اسطفانس دوزان . والعنصر السلافي في كلا الدولتين يؤلف غالبية الشعب ، مع العلم ان دخول اقوام الكومان الى بلغاريا - وهم من العرق التركي جاؤوا من جنوبي روسيا هرباً من الغزو المغولي - ووجود اقوام الفلاح من كلا جانبي الدانوب الاسفل ، عقّد التركيب الاثنوغرافي لهذه البلاد وجعله كثير التخالط والامتزاج . وعلى اثر ضم كلتا الدولتين عندما اشتد منها الساعد ، اراضي جديدة ومقاطعات معظم سكانها من الاغريق ، اتسم تنظيمها ، من جهة اخرى ، بميسم خاص وارثى طابعاً مختلطاً نصفه سلافي والنصف الثاني بيزنطي .

والمملكة ، هذا النظام المتوارث في الحكم الذي عرفه البلغار وساروا عليه طويلاً من قبل ، بينما برز لأول مرة لدى الصرب ، فقد قامت ، في كلا البلدين على اسس متشابهة . فالملك حل عندهما لقب « قيصر » ، وحذا في سبته وبلاطه ومراسم حياته الخاصة ، حذو الامبراطور في بيزنطية واخذ ، في اوقات سعوده عندما كان يبسم له القدر ، يتشوّف الى خلافته والحلول محله . وقد نقل عن بيزنطية الاساليب الادارية التي سارت عليها ، والتنظيم المالي والضرائبي الذي ارتضته سبيلا ، وقانون الحق العام الذي تمشت عليه ، وسلطة الدولة على رئاسة الكنيسة الوطنية المستقلة ، مع بقائها مرتبطة اشد الارتباط بالبطريركية ، المسكونية في القسطنطينية . وهذا الارتباط ساعد النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية على التغلغل عميقاً الى مكامن الحياة العامة لدى البلغار .

اما الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، فقد تلبس ، على عكس ذلك تماماً ، طابعاً ريفياً ، زراعياً ورعوبياً . فالمدن التي قامت على سواحل البحر الادرياتيكي كان معظمها بمنأى من سيطرة الصرب ، بينما المدن الوحيدة من بين مدن دوزان والبلغار التي كانت فعلاً خليفة هذه التسمية ، فكانت تلك المدن اليونانية التي تم ضمها الى جسم البلاد دون ان تندمج فيها دمجاً . صحيح ان فتح مناجم للتعدين ، في صربيا على الاخص وفي ترانسلفانيا ، استعين له بمهندسين فنيين من السكسون لادارتها ، ساعد على بمت حركة تجارية ضعيفة ، غير ان تجارة الرق ، ساعدت كثيراً هي الاخرى ، على انشاء سوق تجارية راجت كل الرواج في مقاطعة بوسنه ، حيث جرت العادة على اتخاذ الارقاء من بين افراد القبائل البوغوميل والباتارين والبابون بعد ان تعذر العيش والوصول الى صلح معها . ومع ذلك فقد لبثت الثروة العقارية هي الثروة الحقيقية ، في البلاد . فالملكية التي كانت من قبل بيد الاسر القروية الكبيرة ، اصبحت الآن تابعة للعرش او لطبقة النبلاء ، ذات النفوذ الواسع ، التي حاول الملك ان يخفف من غلوها بخلق طبقة ماثلة منافسة لها معظمها من كبار رجال الدولة والموظفين ، والاتباع ، تكون من حيث طبيعة تركيبها ، اكثر استسلاماً له ، وامثالاً لأوامره ونواهي . وبدون ان يستقر الملك في مقر معين

يتخذ منه داراً له ، كالكارولنجيين ، اعتاد الملك عندهم ان يجمع ، من وقت الى آخر ، وجوه البلاد وعظماء الدولة ، في هيئة عامة تقدم له النصيح في كل ما يتصل بإدارة البلاد توجيه الحكم فيها . واذ كان الملك يحرص دوماً على تقليد اظافر النبلاء والحفص من شكيمتهم ، والغض من شأنهم فكثيراً ما عمد ، لتلطيفاً منه لشرم وخطرهم ، الى توزيع الامارات والايالات التي تعود اليه بالفتح اقطاعات على المتنفيين بينهم . ويأتي بعد هذه النخبة الصاخبة التي كثيراً ما بعثت السجس وزرعت القلاقل ، في البلاد سواد الشعب القروي الذي لم يكن وضعه ليختلف كثيراً عن وضع الارقاء ، او الفلاحين المشدودين الى الارض ، في بيزنطية .

والكنيسة التي تمتعت بسلطة ونفوذ واسعين من جراء ما كانت عليه من ثروة عقارية ضخمة وغنى ، لعبت أدوارها الوافرة العدد ، دوراً أساسياً في حياة الريف وتطويره . وبالرغم من الطابع اليوناني الاصيل لثقافتها والتي تمثلت أحسن تمثيل في هذه المؤلفات التي وُضِعَ معظمها في اديار جبل آثوس ، فقد نقلت الى اللغة القومية ، مؤلفات دينية او تاريخية . وراحت الكنيسة الوطنية تحافظ على طابعها القومي ، وعلى استقلالها الذاتي ، عن طريق تطوير لهجتها السلافونية في طقوسها الليتورجية ، وهي اللهجة ذاتها التي استعملت في وضع التواريخ البلغارية وترجمة حياة القديس سافا الصربي ، كما تشددت في معارضتها العنيفة للنفوذ اللاتيني الذي وجد موطناً له على شواطئ دالماتيا والبانيا ، والذي بقيت له السيطرة في مقاطعة كرواتيا ، منذ ان ضُمَّت هذه المقاطعة للمجر . كذلك نجد مجموعات من الاناشيد والاقاصيص الشعبية ، تعود في الصيغة التي وصلتنا بها ، الى العهد التركي ، وهي أناشيد تنغني وأقاصيص تروي لنا امجاد الابطال الذين ساعدوا ، بالبطولات التي أوتوا ، على تكوين صربيا ، كما تنغني بأجساد وبطولات مستمدة من هذه الملاحم الموضوعة حتى ذلك العهد ، في الشرق والغرب ، على السواء .

أوسمى من هذا الادب الذي لا يزال ، مع ذلك ، في القمط ، الفن الذي يتنوّى بالعناصر والمؤثرات الاجنبية التي تفاعل بها . ففي هذه العماثر الدينية التي ارتفعت في صربيا ، نرى جنباً الى جنب ، الموحيات البيزنطية ، وهذه المؤثرات الارمنية الكرجية ، وقد انضمت اليها عناصر غربية جاءت من ايطاليا والمجر . وهذه الرسوم الجدارية التي تُرى في مدينة بوايانا من اعمال بلغاريا ، وفي فيزوكي دتشياني من اعمال صربيا ، عرفت جيداً ان توائم بين الموضوعات التقليدية التي عاجلتها الايقونوغرافيا اليونانية ، في تصويرها رسوم الاشخاص التاريخية ، وبين هذه المشاهد الحية ، الواقعية ، تحت تأثير نماذج غربية ، واخرى وطنية اصيلة .

وهكذا نرى بصورة قاطعة ، في القرن الرابع عشر ، ظهور امة بلغارية واخرى صربية ، بكل ما في كلمة امة من فعوى ومدلول . ولكن بما ان الوحدة التي حققتها هذه الامة لم تتعدّ بعد ، الطور الاقطاعي ، فالوحدة التي حققتها هاتان الدولتان ، تبقى سريعة المطب . « فامبراطورية » دوزان الكبيرة هذه التي لم تعمّر طويلاً بعد مؤسسها ، كانت حلاً في

الخاطر يدغدغ الخيال أكثر منها حقيقة واقعية متحيزة ، طالما ألهمت خيال القومية الصربية وألهمتها ، كما كانت فيما بعد ، بمثابة الملاط الذي شد بنيان الدولة السياسي . ومثل هذا الوضع يصح مقارنته ، ولو بصورة تحكيمية ، بالدور الذي مثلته التقاليد والاساطير الكارولنجية في أوروبا الاقطاعية . ومهما يكن من الامر ، فالامة الصربية بقيت واقعاً قائماً ، متحيزاً ، حتى بعد انهيارها السياسي ، اثر الضربات التي انهالت عليها من الاتراك في ساحة الوغى ، ولا سيما في ذلك الكارثة القاسية التي حلت بها في معركة كوسوفو ، عام ١٣٨٩ .

فهذا التاريخ هو بدء يقظة وتفتح على الحياة ، عند الدول التي قامت على مقربة منها . الالبانيون (الارناؤوط) ، احد . وع الشعب الايليري التي طمس التاريخ ذكرها واسمها الى لك الحين ، استطاعوا ان يحافظوا على استقلالهم ، وان يصونوا شخصيتهم المميزة بالرغم من الاصطدامات التي قامت بين الايطاليين والسلافيين ، او اليونان ، انتصروا فيها للفريق الاول ، بطلبهم المساعدة من الكنيسة اللاتينية . وهؤلاء السكاك الجيليون الذين تدرّبوا على اعمال الحرب ، في خدمة البنادقة او الانجفين (سكان مقاطعة الانجو) والصرب او في خدمة طغاة الابيروس او تسالونيكي ، سيصبحون ، في القرن الخامس عشر ، أعدى اعداء العثمانيين ، وأبطشهم . اما الرومانيون الذين جهلهم التاريخ لأكثر من عشرة قرون ، وتضاربت الآراء حول اصلهم وفصلهم ونشأتهم ، فراح من ردم الى ذراري الداسيين الرومانيين الذين وقعوا في لجج أمواج الغزوات التي تألبت عليهم دون ان تقتلهم او ان تحطمهم ، كما رأى غيرهم فيهم ، اقواماً من قبائل الفلاح استطاع بعض من تربطهم بهم وشائج الدم والقربى ، ان يحافظوا على كيانهم في وسط الغمر الصقلي والحيط السلافي ، فراحوا يشغلون من جديد ويستثمرون السهول المترامية على جانبي مجرى الدانوب الاسفل ، فأطوا ، من جديد ، في القرن الثالث عشر ، على التاريخ ، باحتلالهم سهول مولدافيا وفلاخيا القليلة السكان ، عندما لبوا نداء بعض الأمراء الذين استنجدوا بهم وطلبوا مساعدتهم ، في وقت لاحق لاحتلالهم مقاطعتي ترانسلفانيا والكرباث . وعندما اخذ الناس يشعرون بوجودهم ، نراهم موزعين بين هنغاريا على سفوح ومنحدرات جبال الكرباث الغربية ، وأحياناً ، وفقاً للصروف والظروف المتحركة بمصائر الناس ، بين بلغاريا وبولونيا وغيرهم من الامراء الذين سيطروا على السهل الروسي ، حتى بين المستعمرات التي أنشأتها لها جنوى ، على سواحل البحر الاسود الغربية . ولذا ، نرى هذه المنطقة تتعاضد بها عوامل نفوذ عديدة : هنا اللغة والايجدية السلافية ، بينما استخدمت الكنيسة الوطنية التي كانت على الارثوذكسية ، اللغة السلافونية في طقوسها الليتورجية . والمؤثرات الغربية التي تفاعلت بها وانفعلت ، كانت ترشح اليها عبر الرواق البلغاري السلافي ، فتتأزج بالفاعلات البيزنطية ، كما يبدو ذلك واضحاً من الكنائس الاولى التي ارتفعت هنالك ، حيث ارتدت الافاريز الخارجية حجباً خرج على المؤلف . فهذه الاقطار الرومانية لم تنعم الى هذا التاريخ ، يوماً بالوحدة ، ولا عرفت تجانساً عرقياً ، الى الوقت الذي لاحت لهم ناهزة مؤاتية ، تمثلت في حالة الضعف والوهن

التي آلت اليها ، الدول السلافية ، من جراء الزحف العثماني المتتابع ، فقامت فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، امارات واسعة تمتعت ، على اقدار متفاوتة ، باستقلالها الذاتي . واهم هذه الامارات طراً واحدها جميعاً ، هي الامارة التي قامت في مولدافيا والتي غمرتها ولو بصورة سطحية ، أقله في الشمال ، الموجة العثمانية .

امام هذه الخطوط الكبرى والصَوَى البارزة لهذا الشتات الذي
مسير الثقافة البيزنطية
ابتليت به دول البلقان : ففرق ديارها بديداً وسكانها شيعاً ، هل
بامكاننا التحدث هنا ، بعد الذي رأينا ، عن كنيسة واحدة وثقافة بلقانية واحدة ؟ فقد بلغ من
شدة حيوية هذه الكنيسة والثقافة المشتركة تجاه هذا الانحلال السياسي الذي صارت اليه هذه
البلدان ، ان كدنا نتبين عندهما ، معالم انبعاث ، فعلي ، ادبي وفني على السواء ، وهو انبعاث
جاء وفقاً لما هيأت له ظروف الحياة الجديدة ، التي جددت من مصادر الوحي والالهام ، وحملت
الناس على البحث عن وسائل جديدة للتعبير عن خملجات النفس البشرية . الا ان كتاب العصر
ومؤلفيه وفنانيه من اليونان لم يعودوا يعملون او ينتجون ، لأسياد وأرباب بيزنطيين لا غير .
فالقسطنطينية لم تكن اذ ذاك ، قطب كل شيء ، ومحور كل شيء . فالمؤثرات اللاتينية كان لها
اغراؤها هي الاخرى ، حتى على البلدان اليونانية ، ووضاعة الوسائل المادية التي كانت تحت
التصرف خففت كثيراً من قيمة الانجازات الادبية والفنية .

فالتربة للباطرة من اسرة بليولوج ، في القرن الرابع عشر هي اهم المواضيع التي يحوم
حولها مؤرخو العصر ، امثال : باخيمروس ، ونيقوفورس غريغوراس ، بينما راح حنا
كنتاكوزين ، هذا المفتصب للعرش الامبراطوري ، يضع اثر ازواجه في الدير وانقطاعه للعزلة ،
غيب تنازله عن العرش ، مذكراته المشهورة . وهذه النظريات الصوفية التي جاء بها هزيكازمس
التي حاكت من قريب ، تعاليم متصوفة الاسلام في ايران واناضوليا ، كانت لها قيمة رفيعة عند
مؤرخي الاخلاق ؛ وكذلك هذه المؤلفات في العلوم الفقهية التي كان لها تأثير عميق على علم الحقوق
الذي أطل على الدول الصقلية ، وهذا الشعر الحكمي والعلمي الذي وصل الينا من هذه الحقبة ،
كل هذا الانتاج الفكري جاء وفقاً للتقاليد المتوارثة . والروح الجديد الذي طلعت به علوم
البلاغة ، وهذه الرغبة الزاخرة المقرونة بالنظرة المحللة ، الناقدة ، تبدو على أتمها في دراسة
الآثار الكلاسيكية ، نشطت حركة احياء الآداب البيزنطية القديمة ، فراح يتولاها بتدبير :
تيودورس متوكيتيس ، وهي حركة تشبه من بعيد ، حركة احياء الآداب التي كانت اذ ذاك ،
في ابان ازدهارها في ايطاليا . فالحركتان تتضافران وتتكافآن وتتلاقحان ، اذ يقدم الى ايطاليا
بعض اساتذة اليونان ، بدعوة من هذا الفريق الذي تخرج على ايديهم ، ليلقنوا الايطاليين ،
بعض العلوم الهلينية التي يتعطشون جداً الى تلقفها . وهكذا نشاهد الفيلسوف الافلاطوني
الكبير : جيمشس بلايثون ، يصل ، بعد ان درس الفلسفة في مسترا ، الى ايطاليا ، ولم يلبث ان

اصبح فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، من اشهر الداعين الى تجديد الفلسفة الافلاطونية ، ومن ابرز رواد هذا البعث الفلسفي . والجديد ، حقاً ، في هذه الحركة الاحيائية ، وفي هذا التعاون الثقافي العلمي بين اليونان واللاتين ، هو هذه المساهمة الجديدة يقدمها الغرب في الدراسات البيزنطية فتجلت على وجه صحيح ، في هذا الجدل الديني ، وفي مشروع اتحاد الكنائس ، فأتاحت لكتاب ومؤلفين امثال ديمتريوس سيدونيس ، وبلانود ، الفرصة للتعرف الى الترجمات اليونانية التي وضعت لمؤلفات القديس اوغسطينس وللقديس توما الاكوييني . فقد ترجم الى اليونانية ، في شبه جزيرة الموره ، تاريخ لاتيني روعي في سرد حوادثه المتتابع الزمني . والقصائد الشعبية اليونانية ، تستوحى بدورها ، ابطال القصص والمسرحيات الدينية الفرنسية في الاجيال الوسطى ، بينما راح المؤرخ اليوناني مكاريوس ، يضع تاريخاً لقبرص ، يطري فيه اللاتين ، والكتاب اللاتيني جورج بسترس يؤلف ، هو الآخر باليونانية ، بينما راح الكتاب اليوناني سترامبا لدي ، يؤلف بدوره بالاطالية . وليس بغريب قط ولا بمستبعد ان يكون الانتاج العلمي اليوناني ، في الطب والفلك ، قد تداخله شيء من علوم العرب ، عن طريق الغرب ، الا ان يكون جاء هذا الاتصال عن طريق طرابزون ، حيث قامت «اكاديمية» أمنت للاغريق الشرقيين ، تجلياً علمياً بزم ما تم من امثاله لزملائهم ورصفائهم في البلقان الذين كانوا يحفلون ، بالاكث ، بالآداب .

اما الفن البيزنطي ، فقد صمد في وجه المؤثرات الغربية . فباستثناء قبرص حيث قامت كنائس على الطراز القوطي ، لم يترك الصليبيون لنا ، في هذه المباني الهامة التي اقاموها غير القلاع والحصون التي شيدوها . وقد حلا للبعض ان يرى في بعض الافاريز التي قامت في الاقطار اليونانية والسلافية خيوطاً دقيقة من الوشائج تشدها الى هؤلاء «البدايين» الايطاليين ، ولكن من يقدر ان يؤكد بان هذا الالتقاء هو من باب الصدفة الطارئة ومهما يكن ، وباستثناء كاريا جامي في القسطنطينية وهو من انشاءات ثيوذوروس ميتوكتيس ، لم تلبث الفسيفساء الباهظة التكاليف ، ان استبدلت واستعوض عنها بالرسوم والتصاوير الجدارية ، حيث نرى صور رجال الدنيا بادية الى جانب المشاهد الدينية وفي مظاهر الحياة الواقعية ، حيث يمكن ان نتمين اشياء تذكرنا بمشاهد ومركبات اسكندرانية . فتحلية المخطوطات وتزيينها وزخرفتها وصناعة الحلي من المجوهرات وانسجة الديباج الجميلة تمدنا بالكثير من غرالفن ودرره ، والكثير من الاعلاق الغوالي التي اسعدنا الحظ في الاحتفاظ بالكثير منها ، بينما بغل علينا بالزهر النزر من متقدماتها . ومن المحتمل كثيراً ان يكون فن التلوين اعطى اذ ذاك ، اجمل معطياته ، واحسن المجازاته على الاطلاق ، بعد ان عملت مدارس اقليمية عديدة ، على نشر هذا الفن في البلدان الصقلية ، وجبل آثوس ، ومسترا ، وجزيرة كريت وطرابزون . وهذا الانتشار الواسع ، ممكن الفن البيزنطي من ان ينقل ، دونما انقطاع ، نظرياته ومبادئه وتعاليمه الفنية لمن توارثوها ، سواء اكانوا تحت سيطرة الاتراك العثمانيين ام خارجها .

والكنيسة البيزنطية ، ظهرت عليها ، هي الاخرى ، بعض اعراض التطور ، فازدادت مكانة ،

وسميت مرتبة ، في قلب الدولة . ففي هذا الاستقرار الذي نعمت به بيننا التيجان من حولها تتدحرج تدحرج الأكر وفي هذا الغنى الذي ترفل فيه وتنعم ، بينما الملوك من حولها يهوون من عليائهم لينزلوا الى احط دركات الفقر الغم والموز يستعطفون ويستعطون لم تبلغ هذه الكنيسة يوماً ما بلغته ، اذ ذاك ، من قوة وشأن ، ولم تُظهر يوماً من اللامبالاة ما اظهرت من إعراض عن هذه الأسر الملكية التي تناوبت الحكم وتعاورته تبعاً . فهي متأسكة ، متضامة ، بالرغم من وجود هذه الكنائس المستقلة داخلياً ، تبسط نفوذها على العديد من هذه الممالك اليونانية والدول الصقلية ، دون ان تدافع عن هذه ضد تلك ، دوماً على اتم استعداد لتقبل النصح من اي جهة جاء : من موسكو او من القسطنطينية . ففي مواجهتها للعظماء من رجال الدنيا وللأمراء الدائرين في دوامة المحالفات السياسية ، حشدت حولها كل الشعوب ، وجل رجال الاكليروس ، للوقوف بعنف وكرامة ، بوجه النفوذ الروماني ، مدفوعة الى ذلك بمسلك هؤلاء الاباطرة الذين كانوا ، لاغراض دينوية ، يثيرون باستمرار قضية اتحاد الكنائس ويلوحون بها ، لغناء حصولهم ، من الغرب المسيحي ، على نجدة تنصرهم على الاثراك العثمانيين . وقد ادّت هذه المفاوضات التي اداروها ، الى الفشل التام ، امام إعراض الغرب وعدم مبالاة ، هذا الغرب الذي لم يقطع ، الا ما ندر ، عهداً بالمبادرة للمساعدة المرجوة ، لم يتعهد معه قاطعوه ، بسوى قوة حربية ضئيلة العدد والعُدَد ، بينما كانت جماهير الشعوب اليونانية والسلافية ، تشجب ، بشدة ، الاتفاقات التي يتوصل اليها اباطرة ، احياناً الى عقدها . فاثار العامل اللاتيني على الآداب اليونانية ، كالتشابك السياسي لهذه الكيانات الدولية ، يجب الا يخدع احداً . فقد قامت ، اذ ذاك ، هوة الانفصال الديني التي لم يشعروا كثير أبوطأتها ، في بدء الأمر ، الا انها اصبحت عقبة مستعصية الحل . وقلاع الفرنجة وحصونهم ، مهما قالوا فيها ، لم تكن لتوحي الثقة ولا لتبعث التفاهم بين الشعوب وهكذا انكفأ الشعور القومي وراء الكنيسة اكثر منه وراء مبادئها . وهذه اللامبالاة تفسر لنا جيداً السهولة واليسر الذي تم فيه الفتح الاجنبي . اجنبية بالطبع ، في نظر اليونان ، دولة الاثراك وسيادتهم . يجب الا يغرب عن البال قط ، ان اول بطريرك يوناني للاستانة التركية : سكو لاريوس جناديوس هو من اشهر رجال القرن وحملة الثقافة البيزنطية في هذا العصر ، وانه كان في البلاد السلافية عدد كبير من اليونان ، ومثل هذا العدد واكثر ، كانوا تحت الحكم العثماني ، في تركيا قبل ١٤٥٣ سنة سقوط القسطنطينية بيد الاثراك العثمانيين ، وكلهم تابعون لرئاسة الكنيسة الارثوذكسية ويخضعون لها ، ويحفظون لها الولاء ويعيشون ايمانهم بسلام وطمأنينة ، بالرغم من بعض التضييقات المفروضة عليهم . فبين الخطر التركي الذي يهدد الجسم دون الروح ، وبين الاستسلام للاتين والخضوع لكنيستهم وما يمثله هذا الخضوع من خطر على النفوس دون الاجسام ، رأوا من الافيد لهم ومن المصلحة عندهم ، ان كان لا بد لهم من الاختيار ، ان يقبلوا بالسيطرة التركية بالرغم مما فيها من خطر وما لها من كره . ففي هذا الوضع ما فيه من تعليل لتفهم المصير الفاشم الذي آلت اليه الامبراطورية بسقوط عاصمتها القسطنطينية .

٣ - الامبراطورية العثمانية

حان الوقت لتتطلع شطر الاتراك العثمانيين ولتتفرس فيهم ملياً ، بعد ان
ظهر العثمانيين كتب لهم ان يصبحوا وركّة بيزنطية الشرعيين .

مرّ معنا كيف تكونت ، في اواخر القرن الثالث عشر ، على تخوم بيزنطية الشرقية ، في آسيا الصغرى ، أشكال من امارات تركانية لم يستطع السلجوقيون كبح جماحها والحد من نزواتها . ففي الوقت الذي راح فيه روح المدوان يستفعل في صدر الاتراك ويتشوقون للتوسع ، اضطرت موجبات الدفاع عن اوروبا ، اصحاب الامر والشأن في بيزنطية ، لالغاء الاعفاءات المالية التي تمتعت بها وحدات الجنود المتمرين التي بواسطتها استطاعت امبراطورية نيقية ان تحافظ على بقائها وكيانها ، وبذلك دخل الحلل وتسربت اسباب التشويش الى نظام الدفاع عن بيزنطية من الشرق . ولذا فلم تتم كل المقاطعات الآسيوية تقريباً التي كانت يونانية بالاسم ، ان تصبح ، حوالي عام ١٣٠٠ ، تحت سيطرة زعماء التركان ، باستثناء طرابزون منها ، بالرغم من استمرار مقاومة بعض القلاع والمواقع الحصينة ، وبالرغم من رضوخ القرويين والفلاحين وتسليمهم بالامر الواقع . وقد تمكنت بعض الجماعات التركية من نشر سيطرتها على بعض الولايات اليونانية البحرية الواقعة على شواطئ بحر ايجه ، وعرفت ان تستخدم مهارات بعض سكان البلاد الاصليين ، او نهجت نهجهم في الحياة ، فراحت تهاجم جزر الارخبيل وتحمل القرية منها الى الشاطئ وتبسط سيطرتها عليها وعلى سواحل المقاطعات اليونانية ، مثله بامارة عابدين الواقعة على مقربة من ازمير ، او بامارة منتشيه مقابل جزيرة رودوس . فاضطربت خواطر الغربيين جداً ، في مطلع القرن الرابع عشر ، فتحركت بعض فرقهم وتمكنت الفرقة الكتلونيه من ان ترد هؤلاء الفزاة مؤقتاً ، على اعقابهم .

اما الفئة التركية التي كان يرئسها المدعو عثمان ، فقد كانت من رضة الشأن ما لم يكن احد يتوقع لها مثل هذا المصير الباهر الذي قبض لها ان تصير اليه . ولم يكن فيها ما يميزها عن تلك الفئات سوى ان الاقدار موزعة الخطوط هيأت للأمير عثمان ولخلفائه مباشرة ان يكونوا من الطراز الاول من قادة هذه الفئة او القبيلة الذين تولوا الامر باسمها . لاسيما وقد اسعفه الحظ فاقتطع مقاطعة تحتل جانباً من ساحل بحر مرمرة . وبفضل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، كثيراً ما سئحت له المناسبات للتدخل بين الاحزاب البيزنطية وتلبية نداء الاستغاثة الصادر عن اللاتين للتدخل في هذه الحروب التي نشبت بين آل بليولوغ ويوحنا كينتوكوزين ، واذا كان البحر عقبة تحد من رغبة الامارات الواقعة على سواحل بحر ايجه في التوسع ، فهذه الامطار القليلة من مياه البحر التي كانت تفصل العثمانيين عن سواحل اوروبا ، كانت تكن وراءها مجالات واسعة للتفج والتبسط والامتداد .

ليس في هذه المقدمات البسيطة ما يدل او يشير الى ان هذه الفئة ستطلع على العالم بامبراطورية ، ستضم ، عند اكتمال بدرها ، كل العالم العربي تقريباً ، والبلدان السلافية والبيزنطية ، من مشارف مدينة فيينا غرباً ، الى اقاصي حدود البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي شرقاً ، والتي ، بالرغم مما تضرست به ، خلال تاريخها المديد ، من صروف الدهر وصريفه ، لم تنهزم ولم تسقط الا في القرن العشرين . فلم يكن لها عند الانطلاق ، وهذا شيء يجب التشديد عليه ، سوى قوة بسيطة من بضعة آلاف من الجند كان في مقدور عدو مساو لهم من المحاربين ان يسمروهم مكانهم ويكبحوا من جماهم .

وقد سارت هذه الامبراطورية في تطورها وتكاملها المطرد على نهج سوي واصول من النظام والتنظيم ، ما عدا فترة وجيزة افل فيها نجم سعودها امام غزرة تيمورلنك الصاعقة الماحقة . ومن المؤسف حقاً ان الذين عاصروا نشأة هذه الدولة لم يكن في مقدورهم ان يتوقعوا لها مثل هذا المستقبل المجيد البسام ، فلم يذكروا لنا شيئاً ، ولو طفيفاً ، عن عهد هذه الجماعة الاول ، المتواضع ، بحيث لم يبق امامنا سوى التعويل على تحليل بعض القصص والمقولات التي طلعت او حيكت حول نشأتهم فيما بعد ، وامعان النظر ملياً في هذه المرويات لعل فيها ما يكشف لنا سر هذا الدور العظيم الذي قدّر لهم ان يلعبوه في حلبة البحر الابيض المتوسط والشرق الادنى . ويحلو لنا ان نرى في هذه المرويات ونتبين العزم الصادق والحزم العديد على تنظيم ما يقع اليهم بالفتح ، فلا يقومون بفتح جديد ما لم يحسنوا تنظيم السابق ، وما لم يوحدوا من الفريق التركاني ورصفه كالبنيان المرصوص يحمله عصبة متلاحمة متماسكة ، قوية ، فيضيفوا الى وحداتهم العسكرية ما امكن اضافته من وحدات اسلامية ، وغير اسلامية ، من أبناء البلاد الاصليين ، فيخضعون هذه العناصر كلها لتدريب عسكري آسر رصين ، تصبح معه قوة متراصة ، متماسكة الحلقات ، متآزرّة . فرسالة على هذا الشكل ، هي لعمري رسالة سامية ، حرية بكل تقدير ، لقي تحقيقها من الاحكام وعناية التصميم والتنفيذ ما يتفق وسمو المطلب .

فالى أى حد كانت هذه الوحدات التركانية البدائية ومعظمها من الرعاة وقطاع السبل ، تتألف من قبائل متراصة يتولى الامر فيها فرسان غزاة ! . لا يزال الامر يثير الجدل والنقاش بين المحققين من رجال التاريخ ، وليس من المستبعد ان يكون عميل فيها بالنظامين معاً في وقت واحد . ولما كان النجاح يدعو للنجاح وبهيء الاسباب للمزيد منه ، فقد راحت الامارات القريبة من الاتراك العثمانيين ، والاقول تحصيناً تقع تباعاً فريسة باردة في ايدي السلطان عثمان . وقد سبق هذه الحقبة ، عهد انضمت فيه الى هؤلاء الغزاة الفرسان ، الاحرار الذين اتخذوا من الحرب مهنة لهم في الحياة وحرقة يعتاشون منها ، عناصر اخرى من مشاة ونبالين ورماة القسي ، اضيف اليها ، فيما بعد حرس عسكري (العسكر الجديد) انكشارية ، اتخذت مادته الاولى ، واولى وحداته من اسرى الحرب الذين وقعوا بين يدي السلطان فيها وقع من موارد تم الاستيلاء عليها . وهو حرس ، شبيهه من جميع الوجوه بالحرس الذي كان يسهر على سلامة السلاطين في الدول الاسلامية .

والى جانب هذه الوحدات المعدّة للحرب ، والمدرية عليها احسن تدريب ، كان لابد من تشويق عناصر اخرى من السكان وحملها على مناصرة الدولة التي هي في سبيل التنظيم . فقد قام بهذه المهمة ، خير قيام ، علماء الدين ولا سيما فرقة الدراويش ، فراحوا يختلطون بافراد الجيش ويدعون لرصف صفوفه وتمتين منشآته ، بحيث لم نر قط ، في اي بلد من البلدان الاسلامية ، مثل هذا التعاون بين الجمعيات والهيئات الدينية وبين السلطات السياسية لشد الاواصر بين مختلف طبقات الشعب والحكومة . ولعل ما هو ابعد من ذلك اثرأ واقوى هو المدن الاسلامية ، حتى المسيحية منها ، التي دخلتها جاليات اسلامية بعد ان تم فتحها ، جاءت من اواسط اناضوليا ، قد خضعت لهذه الدعاية تقوم بها المنظمات الدينية ، فادّى ذلك الى تشكيل هيئات اجتماعية حل اعضاؤها اسم « اخ » . ولما كان الفاتحون العثمانيون هم ملوك مسلمون ، قبل كل شيء ، فقد راحوا يكثرّون من بناء المساجد ، وانشاء المدارس والاسواق والخانات . ومما هو جدير بالذكر والتنويه ، مع انه قد لا يكون مستغرباً ان يكون ظهر شيء منه في عهد السلجوقيين ، هو هذا النقص في الثقافة الدينية بين الطبقات الشعبية التركية ، وهذه المذاهب المتباينة التي ذهبت كل مذهب في تفسير المعتقدات الدينية ؛ كل ذلك حمل المنظمات والهيئات النصف الدينية ، على ان تقبل على السواء التعامل والطقوس السنية والشيعية والمسيحية والوثنية ، دون ان يقوم بينها من اختلاف مما يمزق شملها ويفرقها شيعاً . ففي القرن الرابع عشر ، في غمرة هذه الروح الحماسية التي قابل بها الناس الغزو المدوّي ، نرى النظام والوفاق والسلام يسود الشعب التركي ، بينما راحت الدول الاسلامية الاخرى تعاني الامرين من هذه الانقسامات والانشقاقات التي شجرت فيما بينها ، فلم تتسلح السلطة العثمانية بدكتاتورية متعصبة تأخذ الناس بالشدة ، كما هي الحال في عهد المماليك مثلاً ، اذ ذاك .

وليس من شك قط في ان السلاطين العثمانيين الأوّل عرّفوا ان يضمّنوا تعاون بعض العناصر الوطنية من ابناء البلاد الاصليين فيؤمنوا حياة الجميع . وليس بمستبعد قط ان تكون انظمة الحكم والقوانين التي عمل بها بعد الانتهاء من عملية الفتح ، اقل اعتباطاً وكيفاً من التدابير غير المسؤولة التي عمل بها في بيزنطية والامارات اللاتينية التي كانت الفوضى ضاربة اطنابها فيها . فالنظام الرتيب الذي ساد في الداخل مكن الناس من الانصراف للامال الزراعية ، كما اتاح لرجال الصناعة متابعة الانتاج وتقويته اشباعاً لمتطلبات ، وتلبية لرغائب زُين جدد حلوا محل الزين القدامى . كذلك ساعد الامن المسيطر على البلاد في تنشيط التجارة ، وحسن معاملة التجار الذين كانوا يعملون على تصريف وتنفيق الفائض من انتاج البلاد ومحاصيلها من سحج الشب والانسجة وغير ذلك من الاقمشة . ولم تقتصر الاستفادة على المسلمين وحدهم من هذا النظام ومن الامن الذي ساد البلاد . وككل مكان آخر في العالم الاسلامي ، ولربما اكثر من اي بلد آخر استقرت فيه الاوضاع وانتظمت الامور ، اصبح المسيحيون الخاضعون لسلطة الدولة الجديدة ، « محيين » . والكنيسة الارثوذكسية نفسها كانت ابعد من ان تتضرر من هذه التغييرات وبهذا

الوضع الجديد الذي أطل عليها ، فاستطاعت ان تفيد كثيراً فيما بعد ، من انبساط رقعة الفتح العثماني وامتداده فرحبت بالتالي نفوذها ، واتسع سلطانها بحيث دخل تحت سلطتها الدينية ، عدد كبير من السلافيين واللاتين . واذا كان من الغلو الظن بان كل الذين اشتركوا بإدارة الدولة الجديدة وتنظيماتها ، كانوا من ابناء البلاد الاصليين - بعض كبار الموظفين في الإدارة العامة اعتنقوا الاسلام ، بينما بقي البعض الآخر منهم على دينهم المسيحي - فمن الثابت الذي لا يناله الشك قط ان السكان في المناطق الواقعة على الحدود ، آثروا الاستسلام للعثمانيين والخضوع لهم ، بعد ان انقطع عندهم كل امل بوصول اي مدد او مساعدة مجدية عللوا النفس بها ، من الدولة البيزنطية . وبالفعل ، فالميزة التي طبعت الفتح العثماني ، تبدو لنا ، على الاخص ، في هذا العدد الصغير من الناس الذين راحوا ضحية الفتح ، كما تبدو جليلة واضحة بهذه النسبة الصغيرة من اعمال السلب والنهب التي تعرضت لها المدن المفتوحة ومن فيها من السكان . كل هذا يفسر لنا جيداً كيف ان الفتح العثماني سار سيرته الرتيبة الرضية .

لنستعرض بإيجاز ، المراحل التي تمت في هذا المجال . فقد تألفت الامارة فتح وتنظيم

العثمانية ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، من هذه المقاطعات والولايات الواقعة على سواحل بحر مرمر الجنوبية ، بما فيها : نيقية ، ونيقوميديا ، وبروسة التي كانت عاصمة الامارة ، والتي اصبحت ، منذ ذلك الحين ، مدينة مقدسة في نظر الامبراطورية العثمانية . وقد تم عبور مضيق الدردنيل ، عند منتصف القرن المذكور ، بالتواطؤ مع اليونانيين انفسهم ومعاونتهم ، وهكذا تمكن الاتراك العثمانيون من اتخاذ موطئ قدم لهم في غاليليولي ، ومنها انطلقت غزواتهم في اتجاه تراقية التي لم تتم ان تم فتحها ودخلت في حوزة السلطنة . وفي سنة ١٣٦٦ ، نقل السلطان مراد ، عاصمة ملكه الى مدينة أدرنة ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة في ان يكون ملكاً من ملوك اوربا . صحيح ان الوضع الذي كان عليه التسليح اذ ذاك من حيث الكم والنوع ، كان لا يسمح للاساطيل المسيحية بعبور مضائق الدردنيل وبفك الحصار الذي ضربه العثمانيون على القسطنطينية اذ لم يكن من الوسائل البحرية ما توفر منها لسادة الامارات الواقعة على سواحل بحر مرمر . وهكذا اخذت الحلقة تضيق تدريجياً حول القسطنطينية . فاصبحت أرباضها وضواحيها القريبة عرضة للغزو والسلب من قبل الكتائب العثمانية كما ان الطرق الموصلة اليها اصبحت غير مأمونة للنجدات التي كانت تحاول الوصول اليها ، واصبحت بالتالي وحدة الامبراطورية في خطر ماحق ، ومواردها عرضة للانقطاع والتوقف . فاذا لم تسقط القسطنطينية في قبضة العثمانيين ، فلان سقوطها واستيلاء الاتراك عليها لم يكن دخل بعد في خططهم العامة . ومثل هذا الامر لم يكن فيه اذ ذاك كبير فائدة لدولة جيشها دوماً في ساحة الحرب ، فلا مصلحة آنية لهم في احتلالها ولا في السيطرة عليها . وعلمية فرض الحصار عليها انما كانت عملية شاقة ، طويلة النفس والأمد لمناعة حصون القسطنطينية ، من جهة ، ولكثرة سكانها ، ولسهولة تموينها ببحراً ، وقد يؤدي ، من جهة ثانية ، الى تحالف بين اليونان واللاتين ، والى احداث رد فعل قوي في الغرب ، وكلها امور تؤذي في الصميم خطة دولة ناشئة ، طرية

المود بعد . وعلى عكس ذلك ، فكل شيء كان يساعد الأتراك على توسيع دائرة فتوحاتهم في البلقان ، حيث كان من الصعب على حواضر البلاد وقواعدها الكبرى ان تحتزن حاجتها من الميرة والعتاد فتضطر للاستسلام بسرعة وتقتنع فريسة بيد الغزاة الذين كانوا سينعمون بما ييسر لهم الفتح من ارزاق ومغانم وافرة ، بدلا من ان يضربوا حولها حصاراً قد يمتد طويلا لمناعة حصونها ومتانة قلاعها . فتمجاء هؤلاء الزعماء السلافيين المنقسمين على انفسهم ، الذين حاولوا ، متأخرين ، ان يؤلفوا فيما بينهم احلافاً هزيلة الجانب تصدى للزحف التركي ، تابع الأتراك العثمانيون زحفهم عبر تراقية ومقدونية البيزنطيتين ، فاستباحوا بلغاريا وصربيا ، وبذلك قضوا على ما مثله هاتان الامارتان من رأس جسر متقدم يتمتع ، اسماً ، بشيء من المهابة والسؤدد . ففي هذه المعركة الفاصلة التي وقعت في سهل كوسوفو ، عام ١٣٨٩ ، لقي السلطان مراد حتفه ، الا ان ابنه وخليفته السلطان بيازيد ، عرف ان يجمع شمل جيشه وتمكن من اسر الملك لعازر وقتله . وعلى اثر انهيار استقلال بلغاريا ، انهارت مملكة الصرب ، ففقدت حريتها لاكثر من اربعة قرون كاملة . ومع ذلك ، فقد ترك الأتراك الظافرون ، الامراء والعظماء ، في هذه الدول المغلوبة على امرها ، في وظائفهم ومناصبهم ، بعد ان اخذوا عليهم الموائيق بالولاء والتابعة لهم ، فراحوا يديرون شؤون ولاياتهم واقتضيتهم ، وفقاً للتقاليد المرمية . ونال بعضهم عطف اسيادهم الأتراك ومناصرتهم ، عندما راحوا يصفون ، مع بعضهم البعض ، حساباتهم الدائمة ، ويثأروا لانفسهم ، دونما رحمة من منافسيهم . صحيح انه حدث ، دونما شك في ذلك ، نقل بعض الاقوام من ديارهم ، واستبدلهم في المقاطعات السراتيجية ، بوحدات من الأتراك ، تركت لافرادها حرية التصرف بالاملاك التي جرت مصادرتها او اغتصابها من ايدي سكان البلاد الاصليين ، كما جرى نقل بعض الجماعات اليونانية والسلاقية الى آسيا الصغرى وهذه المناقلات بالجملة ، وحركة تبادل السكان ، كانت اموراً عادية اذ ذاك عرف التاريخ من امثاله الشيء الكثير ، فلم تكن لتلحق كبير اذى بالمثقلين ، اذ كانوا يحصلون من الاراضي الجديدة مسا يوازي بقيمتهم ويساوي ما تركوه وراءهم من الاراضي ، فيعملون تحت ادارة زعيم سلافي جديد في منطقة اناضولية . وهذه المناقلات السكانية جاءت بالطبع على نطاق ضيق ، باستثناء مقاطعة تراقية ، ولم تؤد قط الى تفريك البلاد وطبعا بالطابع التركي الصرف .

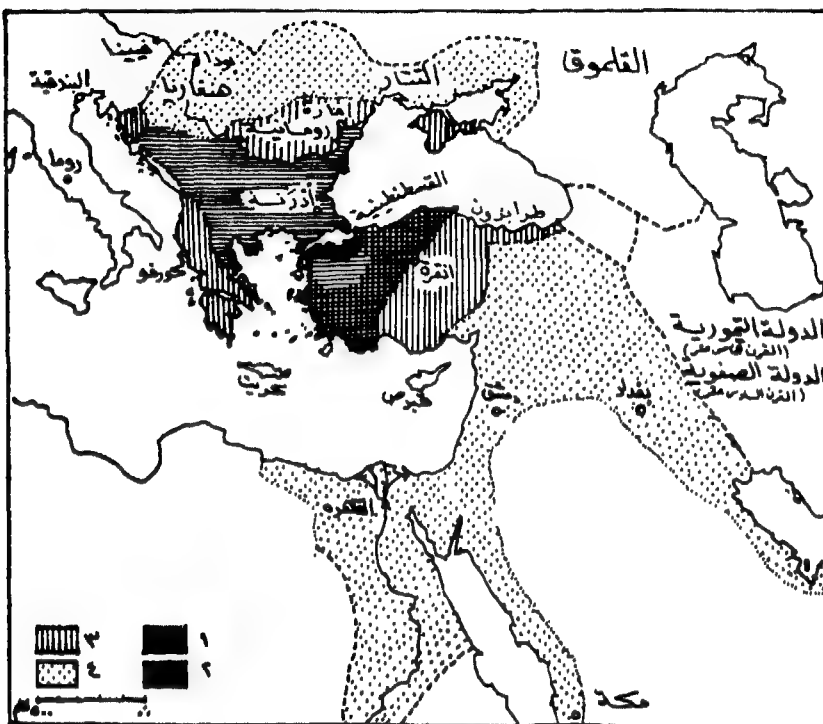
ومها بدت عملية استباحة البلقان عملية ناعمة هينة ، فقد اقتضى لها ، مع ذلك ، نقل عدد كاف من جنود الترك والسكان المسلمين ليساعدوا على سد حاجة الدولة ، من الأطر والملاكات العسكرية والادارية . وبالرغم من توافد عدد كبير من المتطوعة ، فلم يبق ما يكفي من الرجال بحاجة المقاطعة الاناضولية ، التي كانت التربة التي اطلعت الأتراك العثمانيين . ولذا كان لابد من تأمين شيء من التوازن بين ممتلكات العثمانيين في اوروبا وممتلكاتهم في آسيا الصغرى . وبعبارة اخرى ، فكلمنا التفت هذه ، 'وسعت تلك بالنسبة ذاتها . ولم تكن المهمة لتبدو يسيرة سهلة في آسيا ، بل على عكس ذلك ، فقد كانت عويصة واشق مما كانت عليه في اوروبا . فقد كانت الجماعات التركمانية مستمسكة باستقلالها لا ترضى عنه بديلاً ، ولم

تكن لتدرب او لتقبل بالذوبان ضمن دولة نشأت على غير ايديهم ، رأوا في توسعها وانتشار رقمتها واستبطار شأنها خطراً على تقاليدهم . ان تحالفاً يتكون من اماراتهم المختلفة ، يستطيع ، لدى الاقتضاء ، الاعتماد على مؤازرة المالك في مصر ، ومدته له بالرجال والمال ، من شأنه ان يكون خطراً على العثمانيين اذ يصبح في مكنته ان ينزل الى ساحة الحرب جيشاً يفوق بعدده وعدته ما للاتراك من جيوش . فاذا ما استطاع الاتراك العثمانيون ان يخضعوا النصف الغربي من اناضوليا لسلطانهم قبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، فالفضل كل الفضل في ذلك انما يعود للسلطان بيازيد ، وذلك للفتوحات العظيمة المدوية التي حققها في اوروبا : فراحت الدول البلقانية الموالية لهم تقدم ، حتى الامبراطورية البيزنطية نفسها ، بوحدات من الجيش ، وهي تحسب ان بعملها هذا انما تبعد الخطر عن القسطنطينية ، ويفك الحصار المضروب حولها . وقد تألفت هذه الوحدات من اسرى الحرب ، ومن العبيد الارقاء الذين اتى بهم من اسواق النخاسة في البلقان ، فتضاعفت بهم فرقة الانكشارية المدربة افرادها على القتال المضمونة الولاء لهم والتي كانت تتقن فن الحصار على القلاع المستعصية . وهكذا ففي الحين الذي فتح فيه الاتراك البلقان لحساب العثمانيين ، راح البلقانيون ، بدورهم ، يساعدون العثمانيين على فتح تركيا آسيا واستخلاصها من التركان . فكل حركة اهتزاز ، يسرة او مينة ، بين اوروبا وآسيا ، كانت تعود على العثمانيين بفتح جديد .

عنه الدولة العثمانية وفي هذا الوقت بالذات ، وقع المقدور وحتم القضاء وهوى السيف واعادة تنظيمها المصلت ممثلاً بغزوة تيمورلنك الماحقة ، حاملة معها القضاء الغاشم والموت الزوام لكل دولة وقعت امام سيلها الجارف . اما العثمانيون فلم تحمل اليهم هذه النازلة في مطاوعها ، سوى عاصفة ألوتهم دون ان تعصف بهم أو تتعلمهم . فقد غلب بيازيد شر غلبة ، في معركة انقره (١٤٠٢) وسحق جيشه ، واقتيد هو اسيراً ومات في الاسر . وللحال ، أخذ التركان في آسيا الصغرى ، بعد ان آزر عدد كبير منهم الغازي الفاتح ، يعيدون تنظيم اماراتهم بعد زوالها وتواربها . وهذه الوحدة التي ميزت الامبراطورية العثمانية ضاقت حلقها بعد التفسخ الذي اصيبت به السلطنة الناشئة وباتت في مهب الريح عندما راح اولاد السلطان بيازيد ، يتجاذبون بعنف وبقوة السلاح ، اطراف خلافة والدم ، كل لنفسه ، واعلنت ولاياتها في اوروبا القطيعة والانفصال عن شقيقاتها في آسيا . فلو كان هذا الوهن تصاب به الدولة ، أدى الى ردّة فعل من قبل المسيحيين ، لسكان اصبح مصير السلطنة العثمانية ، بعد معركة انقره على كف عفريت .

شيء من هذا لم يحدث قط ، اذ ان موت تيمورلنك المفاجيء والغباوة التي اتسم بها خلفاؤه من بعده ، تركا الامارات التركانية ، في آسيا الصغرى وشأنها ، تتخبط في مصيرها المجهول . وتمكن العثمانيون من التعويض عما ألمّ بهم من خسائر بانحياهم شطر مقاطعة قبادوقية وبتشيأون ، بتؤدة ، لاسترجاع فتوحات حققها بيازيد من قبل على عجل . وبما هو حري بالذكر والتنويه هنا ، هو ان مقاطعات البلقان لم تحرك ساكنها ، واوروبا المسيحية نفسها اخذت تهمل عالياً

وتصفق بحراوة لاختباء انقرة ، متومة ان الكابوس ارفع الى الابد عن صدرها وانها تستطيع ان تنفخ الصعداء . ولم يخطر في بال أحد ان يقف في وجه استعادة الاتراك العثمانيين لوحدهم ، عن طريق تغذية الانشقاقات والاضطرابات وزرع التفرقة التي ذرّ قمرها ، بين خلفاء بيازيد من ابنائه المتخاصمين . وموجز الكلام . ان جمود الصرب والبغار واليونانيين ، والرضوخ



(الشكل ١٧) تكوين الامبراطورية العثمانية

١ - في الربع الثاني من القرن الرابع عشر - ٢ في النصف الثاني من القرن الرابع عشر - ٣ في القرن الخامس عشر - ٤ في اوائل القرن السادس عشر .

لما قُسم لهم واستسلامهم لحالة الضعف التي ألت بهم فمجزوا عن زحزحة النير الثقيل الذي رزحوا تحته ، كل ذلك افاد كثيراً في انقاذ الاتراك من الوضع الخطر الذي احاط بهم . فالأزمة لم يتضرس بها ولم يكتو بنارها سوى اقوام التركان ، في آسيا الصغرى الذين سارعوا الى التفرخ ولا سباً من كان منهم في هذه الحاميات القائمة على الحدود التركية .

فسياسة السلام التي اضطر خلفاء السلطان بيازيد الى انتهاجها مع جيرانهم من الدول المسيحية ، وضعت فجأة افراد جيش الغزاة الذين 'حرموا من اسلاب الحرب ومكاسبها ، وجهاً لوجه مع موجبات التزاماتهم المالية والضرائبية التي كانت تتعارض وعاداتهم المألوفة ، فثاروا وتمردوا واخذت حركة العصيان التي قاموا بها طابعاً خطراً ، اذ راح الشيخ بسدر الدين ابن قاضي سيمونا يضيفي عليها من تعاليمه التي دعا فيها الى شيوعية انسانية عرفت الاجيال الوسطى

دعوات كثيرة شبيهة بها ، حشد فيها قيام اخوة بين كل من عضهم البؤس والشقاء بنابه ، من مسلمين ومسيحيين . وقد امكن قمع هذه الحركة بالدم والنار بفضل التعاون الذي قام بين النبلاء والموالين . وقد اقنعت هذه الحركة السلطان محمد الاول ، اكثر اولاد السلطان بيازيد تفهماً للامور ، وانشطهم على الاطلاق ، انه لاعادة الوحدة الى السلطنة العثمانية وللحفاظ على هذه الوحدة التي كانت تقوم أصلاً ، على سيطرة العنصر التركي ، لا بد من الرجوع ، باي ثمن ، ومهما كانت الاخطار ، الى سياسة الشدة والفتح التي كانت منظمة الغزاة تقول بها وتدعو اليها . ولذا راح يتخذ سياسة جديدة حيال اترك آسيا الصغرى حاول معها ان يحملهم على السير في مساقه ، بدلا من محاولته القضاء على الامارات التي بعثت من جديد . ومن جهة اخرى عرف ان يؤمن التفاف سكان البلقان حول النظام الجديد . ومن هذه الناحية يجب النظر ، لنفهم على الوجه الصحيح ، طلوع هذه المنظمة الجديدة التي طلعت علينا باسم « داشرمة » او تجنيد الاولاد . فاعتمدت الانكشارية اساساً في نظامها على الاسرى والايتم الذين يؤخذون في الحروب ، او على المسيحيين من سكان البلاد الاصليين ، فينشأون على مبادئ الدين الاسلامي ، ويُدرَّبون تدريباً عسكرياً شديداً ، فينقطعون للخدمة في معسكرات خاصة ، فيُرسَلون للخدمة عبيداً ارقاء في حاشية السلطان وبلاطه او يُلحقون بوظائف الجيش فيصبحون مادته الاولى وذخيرته المثلى .

يا لها من فظاظة بربرية ووحشية ، وأحطَ معاملة واشقاها على الاطلاق تنزل بأقوام المسيحيين المستعبدين ! . هذا هو الحكم يصدره على هذا الوضع ، هؤلاء المؤرخون الاوروبيون ، الذين ارتخوا اول من ارتخ ، للسلطنة العثمانية ، وهو حكم صدر ، ولا شك ، عن ردة الفعل التي طلعت عقب أجيال طويلة ، عندما راحت الشعوب البلقانية يستيقظ فيها الشعور القومي ، في ظل هذا النظام الهرم ، المهلهل الذي آلت اليه الدولة العثمانية فيما بعد ، فراحوا يشمرون بألم مض ، لتجنيد اولادهم ، بأعداد متزايدة . وقد راح بعض رجال الدين من الاجانب يشجعون بشدة منذ القرن الخامس عشر ، فرض اعتناق الدين الاسلامي بالقوة ، لاعتباره امراً لا يمكن تحمله ولا الصبر عليه . اما سواد السكان فقد اختلفت نظرتهنم اليها كل الاختلاف . فقد راح عدد كبير من سكان البلاد الاصليين ، بدافع من شعورهم الاجتماعي ضد الاكليروس المسيحي ، يمتنقون الاسلام زرافات ووحداثا ، كقبائل البوغوميل ، في البوسنة ، وبعض الالبانيين من سكان البانيا ، كما راحت جماعات بكاملها من المسيحيين الخاضعين للكنيسة اللاتينية ، التي لم تكن في نظرهم كنيسة وطنية ، يمتنقون الاسلام بالجملة هم ايضاً . ومع هذا فالبلدان السلافية كانت كلها تتعاطى تجارة الرق والنخاسة . والحال فالفتيان والاحداث الذين كان يقع عليهم اختيار العثمانيين ، كان يؤتى بهم من جميع الاوساط والمجتمعات ، شريطة ان تتوفر فيهم المؤهلات الصحية والبنية القوية ، فيعملون عبيداً في خدمة السلطان ، فيتخذون لهم ، من حياة الجندي ، مهنة اسمى بكثير وارفح بمكان مما كان عليه وضع هؤلاء الفلاحين « الاحرار » ، المشدودين دوماً الى الارض . فالانحطاط

الذي كانت تتسكع فيه الطبقات الريفية ، قبل الفتح العثماني ، ساعد كثيراً على ترويح هذه العادة والترسيخ لاصولها بين مشاعر القوم . ومع ذلك ، فهؤلاء الارقاء الذين كانوا يربون في حجر الاسلام ، ويعملون في خدمة الامبراطورية العثمانية ، لم يكونوا يفقدون ، لهذه الاسباب ، كل اتصال او علاقة لهم بذويهم ، اذ كثيراً ما عرفت الأسر التي ينتمون اليها ، ان تفيد كثيراً من يروز ابنائها وتحليلهم في ساحة الوعى او في خدمة الادارة .

وقد ادى هذا الامر الى احداث تغييرات جذرية في تشكيل الحكومة العثمانية اذ كانت تعمل في ادارتها ، حتى آنذاك ، على ابناء الارستوقراطية الاسلامية في آسيا الصغرى ، ولاسيما على اسرة جندرلي التركية التي طالما احتفظت بمنصب الوزارة والصدور العظام ، طوال القرن الرابع عشر حتى مطلع القرن الخامس عشر ، رأسها جندرلي قره خليل المعروف بخير الدين باشا . وكان اعتماد الدولة على خدمات رجال هذه الاسرة من اصحاب الاعمال الكثيرة ، فرموا لاجلها بالشعبوية - وهي تهمة طالما رجوم بها - لم يكن ليرضى السلطان ولا جواهر الشعب التركي عنها ، فبحري استبداهم بموظفين اداريين من طبقات اجتماعية متواضعة ، اكثر انقياداً للسلطان ، واكثر تهيؤاً للوظائف والمهام الموكولة اليهم ، فيتمتعون برضى اكبر ، لدى الشعب ، اقله في الدور الاول الذي تولوا فيه مهام الادارة . ومثل هذا الاستبدال تم في كثير من المهود ، خلال الاجيال الغابرة ولدى كل الشعوب ، وقد جاء عند الاتراك العثمانيين في اثر التطور النموذجي الذي عرفه الرق : فقد اصبحت الحكومة ، في مجموعها ، اذ ذاك ، ورشة ضخمة من الحشم والخدم في خدمة السلطان . انه لشرف عظيم ولمركز سام ان يكون المرء عبداً عند السلطان . ولعل اكبر واثمن صفة لهم ، انهم صورة مصغرة لسلطة السلطان ، في نظر اشد الاحرار بطشاً وارفهم شأنًا . ولا يسع المرء الا ان يتساءل كيف نهج الاتراك العثمانيون مثل هذا النهج ، وهم المسلمون الذين كانوا يتباهون بالاستمسك باهداب الدين الحنيف ، طالما ان الدين الاسلامي لم يكن ليسمح قط باستعباد المسيحيين ، وباخضاعهم بصورة منهجية للرق . فالجدل لا يزال قائماً حول الموضوع . وبقيت منظمة الداشرمة امراً واقمياً ، معمولاً به الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فلم يثر هذا النظام ، لدى المسيحيين ولا عند المسلمين ، اي احتجاج او اعتراض .

وبعد ان أعيد تشكيل الامبراطورية وتم تدعيمها على مثل هذا النحو الذي وصفنا انصرفنا الى تحقيق المزيد من الفتوحات الجديدة في اوروبا زادت رقعتها اتساعاً . فاحتلت مقاطعة البوسنة وفلاخيا ، وسحقت تحالفاً جاء متأخراً جداً ، تألف من بولونيا والمجر وفلاخيا ، وواقفت عند مدينة فارنا ، على ساحل البحر الاسود الغربي ، هجوماً قام به الحلف المذكور ، عام ١٤٤٤ ، وتوجت هذه المآتي باستيلائها عام ١٤٥٣ ، على القسطنطينية . وهكذا ، بعد مضي ثمانمائة سنة على اولى هجمات العرب المسلمين ضد هذه المدينة ، قُبِضَ للعاهل العثماني ، وريث الدعوة للجهاد ، والناهض بالحرب المقدسة ، ان تتم على يده هذه المعجزة المثلة باحتلال

بيزنطية. فكان هذا الاحتلال رمزاً لهذه الوحدة التي جمعت أوروبا وآسيا معاً ، فطبعت بطابعها المميز انبعاث امبراطورية « الروم » الجديدة ، الذي جاء لصالح الاسلام ، هذه الامبراطورية التي سبق وحلم بإنشائها وبعثها من جديد ، السلطان بيازيد ، عندما تقدم من الخليفة العباسي في القاهرة ، بطلب الاعتراف له بحمل لقب : « سلطان الروم » . فقد تم له من قوة جيشه ما اتاح له تحقيق هذا العمل العظيم ، بعد ان انشأ له فنيون مسيحيون ، مهرة ، اقوى مدفعية تم صنعها حتى ذاك . وبعد دفاع مستميت قام به السكان ذوداً عن حياضهم ، واستماتة الامبراطور قسطنطين الحادي عشر في رفع الحصار ودفع المقدور ، سقطت المدينة في يدي محمد « الفاتح » عام ١٤٥٣ ، فاسلمها للنهب والسلب واستباحها مدة ثلاثة ايام بلباليها . ولم يحتج لأكثر من بضع سنين حتى تهاوت بلاد اليونان كلها بقبضته ، باستثناء جزيرة رودس ، حيث استطاع الرهبان « فرسان الهيكل » ان يستقلوا بالامرفيها حتى مطلع القرن السادس عشر ، وباستثناء جزيرتي كريت وقبرص اللتين كانت اولاهما واستمرت تحت سيطرة البندقية ، حتى القرن السابع عشر ، بينما لم تسقط قبرص الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وبسقوط طرابزون بدورها زالت من الوجود آخر اماراة يونانية ، كما زالت وتوارت عن الوجود ايضاً ، الامارات السلافية الواقعة الى الجنوب من نهر الدانوب . والبانيا نفسها التي خلد اسمها بمآتي بطلها الوطني جورج كستريوتا المعروف باسكندر بك ، لم تستطع الاستمرار بالمقاومة لأكثر من بضع سنوات ، وبذلك اصبحت الامبراطورية العثمانية في أوروبا ، وحدة متجانسة ، لا ثغرة فيها ولا مفزع .

وهذه الدويلات اللاتينية التي حاول اسيادها عبثاً تفادي الخطر المدام الحيق بها ، بما حاكوا في هذا السبيل من دسائس ، ونصبوا من عراقيل ، وأتوا من صنوف الزلفى والوان الدلس ، لم تلبث ان حملها السيل الجارف وابتلعها الموجة المزجرة وغطاها اليم . فزالت من الوجود السياسي شبه الجزيرة اليونانية ، وجزر الارخبيل ، وهذه الوكالات التجارية التي اقامها الجنويون في غلاطة ، ومستعمرة « كفا » القائمة بميداً ، على سواحل البحر الاسود ، بعد ان كانت وقعت ضمن نطاق التجارة الروسية ، منذ زوال الامبراطورية المغولية ، والتي جرى تدميرها بمؤازرة « التتار » المحليين ، بعد ان ساروا في المدار العثماني . وفي تلك الاثناء كان الحرس من الجنود العثمانيين يقومون بالسهر على حراسة شواطئ البحر الادرياتيكي ، وعند اقاصي حدود هذه المنطقة من دلماتيا التابعة للبندقية ، ويقفون تجاه الجزر الايونية . كذلك حاولت الاحزاب السياسية القائمة في ايطاليا الافادة من خدمات الجند العثماني في سبيل تنفيذ سياستها الصغيرة . وفي سنة ١٤٨٠ ، رأينا العثمانيين ينزلون الى البر ، امام اوترانت . ولقيت فتوحاتهم ، في اتجاه أوروبا الوسطى ، السهولة ذاتها . فالاستقلال الداخلي الذي تمتعت به الامارات السلافية التي كانت ملعباً لدسائس المجر والاعبيهم ، قد الفته الدولة الجديدة ، عندما تهيأت لها اسباب تأمين الادارة بنفسها مباشرة ، محترمة ما امكن التقاليد والاعراف الوطنية الخاصة التي سار عليها سكان البلاد ، الامر الذي جعل الشعب يأنس لحكمهم ويركن لادارتهم . وعلى هذا النحو ، استطاع

العثمانيون ، خلال القرن السادس عشر ، ان يصفوا نهائياً وضع هنغاريا ، وان يدفعوا بجيوشهم وجعافهم الى الامام ، حتى بلغوا بها اسوار فيينا ، بصفتهم حلفاء الملك المسيحي البار فرنسوا الاول ، خصم شارل الخامس . وفي الوقت ذاته ، اصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية ، بعد ان خضع التتار ، في جنوبي روسيا ، والرومانيون من سكان رومانيا ، لسيادة امتازت بالمرونة ، وكانت اكثر السلطات التي قامت ، للآن ، احتراماً للاستقلالات الداخلية التي تمتع بها الاهلون .

اما جبهة آسيا ، فقد كانت ثير ، اذ ذاك ، من المتاعب والمشاكل الشائكة ما اثارته في وجه الاتراك العثمانيين من امثالها ، في القرن الماضي . صحيح انه لم يكن ثمة أية امارة بين الامارات التركية تستطيع ، مها اشد منها الساعد ، ان تقف في وجه العثمانيين ، حتى سلطنة الخروف الابيض منها في ارمينا ، التي حاولت البندقية ان توازر سلطانها حسن الطويل وتقف الى جانبته ضد محمد الثاني . فقد سبق لتركمان آسيا ان اظهروا ولاءهم ، ووقفوا الى جانب دولة نشأت بعيداً عنهم ، حيث لم يكن لهم مايطمعون او يحملون بامتلاكه . فقد كان بامكانهم ان يجدوا عوناً ، ويلقوا سندا في هذه الحركة الواسعة التي كان يتمخض بها هذا القسم الغربي من ايران ، حيث كان تركمان هذه المقاطعة ، ومعظمهم من جماعة الشيعة ، على سوء تقافم وتنابد مع ملوك الدولة التيمورية ، ومع سلاطين دولة الخروف الابيض السنيين . وقد نعم بنفوذ كبير بين سكان هذه المنطقة ، عدد كبير من الجمعيات والهيآت الدينية ولا سيما الصفوية منها . وقام في مدينة أردبيل من اعمال اذربيجان ، دولة من المولوية ، وهي دولة شيعية ، ورائية عرفت ان تجمع حولها ، خلال القرن الخامس عشر ، وحدات عسكرية معظم تشكيلاتها وكراديسها من من التركمان المتحمسين ، وجهتهم وجهة الجهاد المقدس ، ضد الكرج من غير المسلمين ، ثم ضد الخوارج في الداخل . والخوارج هنا كلمة عنت كل من ليسوا على المذهب الشيعي ، بعد ان عرفت الدولة الصفوية ان تنفخ في رعاياها ، المتوزعين ملأ ونحلاً ومذاهب مختلفة ، ميلاً شديداً ونزعة ملؤها الحماسة نحو الشيعة . وعرف اولو الامر فيها عن طريق دعاية ناشطة ، واعية ان يكسبوا لهم عدداً كبيراً من الانصار بين تركمان آسيا الصغرى الذين راحوا ، تمييزاً لهم عن الآخرين ، يعتمرون قبعات حمراء ، فعرفوا لهذا باسم كزلباخ (اي الرأس الاحمر) ، وهي فرقة لا تزال قائمة اليوم بين الاكراد وذلك تمييزاً لهم عن انصار العثمانيين الذين اعتمدوا اللون الابيض في قبعتهم . وقد توصل هؤلاء التركمان الى ان يؤسسوا لهم ، في ايران ، دولة موحدة ، هي الدولة الصفوية التي اضطلمت بالامر لمدة قرنين ، يمكن اعتبارها ، بالرغم من اصل مؤسسها ، اول دولة وطنية تقوم في ايران ، دخلت تحت حكمها كل الولايات الفارسية الاصل . اما الدولة التي قامت لهم في آسيا الصغرى ، فكان لا بد لها من الاصطدام بالعثمانيين لانها كانت تهدد رعاياهم بالذات . ففي الحين الذي راحت فيه الدولة العثمانية تتخذ تدابير زجرية دينية ، شديدة ، جملة الحكم ، اكثر من اي وقت مضى ، يتسم بصلابة العقيدة والتمسك بأهداف السنة ، قاموا بتجريدات عسكرية ضد الدولة الصفوية انتهت بضم العثمانيين ، لارمينيا الصغرى ، الى املاكهم

ثم راحوا يدفعون خصومهم شرقاً ، الى الورا ، فتمكنوا في مستهل القرن السادس عشر ، ان يحتلوا العراق ، مع انه لم يخطر لهم على البال يوماً ، ان يتوسعوا على حساب العرب لما يعرفون من صعوبة تمثلهم وأستمرائهم لهم .

ومع ذلك ، فقد توصلوا ، في بضع سنوات ، لاحتلال الجانب الاكبر من الاقطار العربية ، مبتدئين بمصر المماليك حيث كان التركمان يتمتعون بمعطف ظاهر بعد ان اعلنوا ولاءهم للمماليك . فالضنف الذي كان عليه المماليك ، اذ ذاك ، واقتنار جيشهم للمدفعية ، اتاح للعثمانيين ، احتلال سوريا ومصر ، ببضعة اسابيع ، باعثن في قلوب التجار ورجال الدين معاً ، الامل بان يتمكن اسيااد البلاد الجدد ، من وضع حد لسيطرة البرتغاليين ، على مرافق التجارة ، في البحر الهندي . وفي الوقت ذاته وقعت المدن المقدسة ، لدى الاسلام ، تحت سيطرة العثمانيين وحمايتهم . وعندما حمل العثمانيون معهم اسيراً من مصر آخر خليفة عباسي ونقلوه الى الاسطانة ، راح الشعب يلقب السلطان سليم الأول بلقب امير المؤمنين ، وهو لقب حمله خلفاؤه من بعد ، حتى سنة ١٩٣٤ . وبعد ذلك بقليل تولى فريق من العراضنة يعملون في خدمة الدولة العثمانية مباشرة ، فتح اقطار شمالي افريقيا ، واضعين هذه البلدان البعيدة تحت سيادة الشرق ، وسيطرته ، هذه السيطرة التي سبق لهم وتحرروا منها منذ سبعمائة سنة او ثمانمائة سنة . حملنا السير بسررد قصة الفتوح العثمانية على ان نتجاوز قليلاً نطاق الحدود المتعارف عليها للاجيال الوسطى ، فننتسبع تاريخ الفتوحات العثمانية ، التي لا تلتين ولا ترضخ للتقاسيم الكيفية المتفق عليها للازمنة التاريخية ، حتى سنة ١٥٣٠ - ١٥٤٠ . وهذه الامبراطورية الجديدة ، التي لم يبق لها سوى ان تمكن في الارض وترسل جذورها عميقاً فيها ، قد حققت وحدة الشرق الأدنى ، هذه الوحدة التي اذهبتها وعشت بها ، منذ اكثر من الف سنة ، هذه الدول التي دالت مع الماكرات السياسية التي عرفتها هذه البقعة من الارض . وفي هذا يصح ان تعتبر ذاتها الخليفة الشرعي والوريث القانوني لروما .

فرغت السلطنة الجديدة من وضع تنظيماتها الجديدة خلال القرن
النظم العثمانية
السادس عشر . وللقاريء الكريم اهم ما تميزت به الادارة التركية
منذ القرن الخامس عشر .

زعم الزاعمون انه لم يتم للعثمانيين اية فكرة صحيحة عن الدولة والتنظيمات التي يجب ان تقوم عليها ، اذ ان الاشخاص الذين اعتمدت عليهم في تحقيق هذا الامر انما كانوا من سكان البلاد الاصليين ، ورثة التقاليد البيزنطية . وفي مثل هذا الزعم ، لأكثر من دليل وشاهد على فقدان الذاكرة عند من يرددونه ، اذ ينسون او يتناسون ويغيم عن ابصارهم وبصائرهم ، الانحطاط الذي آلت اليه النظم التي عمل بها في الدولة البيزنطية ، كما جهلوا وتجاهلوا واقماً تاريخياً هو ان الامبراطورية العثمانية تم انشاؤها على يد اترك مسلمين ، وقدوا من غربي آسيا الصغرى . فاذا ما دخل الادارة موظفون من اصل بلقاني اعتنقوا الاسلام ودانوا به منذ عهد قريب ، وساهموا فيها على نطاق واسع ، وبلغوا معها مراتب عالية تتناسب وعددهم المتفوق ، فقد قاموا بذلك ،

بعد ان عملوا في نطاق ملاكات وقدرتوا على ايسد ماهرة ، وفقاً للتقاليد الادارية التركية البحتة . فلو لم يجر الامر على هذا النحو ، لما امكن لهذه النظم والمؤسسات والأطر الادارية البالية التي اتهموم باقتباسها ، ان تبقى صالحة للعمل وتستمر فعالة ، والا لكانت زالت من الوجود وبطل العمل بها . والذي نعرفه معرفة اليقين ان النظم التركية ، بقيت مرعية الاجراء ما بقيت الامبراطورية العثمانية نفسها .

والعثمانيون كغيرهم من الغزاة الفاتحين الذين ظلموا علينا في الاجيال الوسطى ، لم يفكروا يوماً ان يهدموا او ينسخوا العادات والاعراف التي سار عليها سكان البلاد الاصليون مما لا يتعارض العمل به مع سلطتهم وسلطانهم ، فكيف بالتي تؤيد هذه السلطة وتمكّن لها في الارض ، وترسخ لهبتها في القلوب . كذلك من الهال معاً ان تفرض دولة ما على رعاياها ، حقاً عاماً لا تشده اية آصرة او رابطة ، الى مختلف الطوائف والممل القائمة فيها . فالامور الادارية المحلية او الاقليمية الجاري الاخذ بها ، ولا سيما ما تعلقت منها بالاعراف المالية ، لم يكن ليصح ادخال اي تشويش او اضطراب عليها الا بنسبة التطور الذي قطعته الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في البلاد ، وهو شيء لا يجري ، اذا ما حدث ، الا بتودة وتمهل . ولماذا لا يستعمل او لا يقتبس العثمانيون السجلات العقارية التي وضعها البيزنطيون والسلافيون ، من قبل . ولماذا نريد ان نعجز من ان يقيموا او يضعوا نظماً مماثلة ، حيث تبدو الحاجة الى ذلك ؟

والحقيقة التي لا يمارى فيها هي انه ، هنا كما في كل الدول الاخرى ، يجب التمييز او التفريق ، بين المؤسسات المركزية ، او القلبية ، التي وضعها الفاتحون من انفسهم ، وبين المؤسسات والنظم الاساسية الاخرى التي جاءت استمراراً واستدامة للتقاليد الوطنية في البلاد . فالامبراطورية العثمانية ، هي قبل كل شيء دولة اسلامية . ولما قبض لها ان تشيل الاسلام وتنهض بمنائره على المشركين ، فقد سارت في ذلك ، وفقاً للشريعة الاسلامية . وكثيرها من الدول الاسلامية ابقت سدنة المساجد ومعلمي المدارس حتى والنضاة الذين تجري لهم الاوقاف والأعطيات والمرقات لقاء تطبيقهم احكام الشريعة الاسلامية وفرائضها ، بمنأى عن كل مراقبة حكومية ، ومن هنا تبرز في دولة كل من فيها جيش محارب مجاهد ، اهمية قاضي الجيش . ومن ثم راحوا يعولون على الفقهاء ويستفتونهم بعد ان جرى تنظيمهم بشكل جسم او هيئة يرأسها مفتي كبير ، تألف من مجموعهم شبه بمجلس اعلى ، يتولى الاشراف على تطبيق القانون .

كذلك ، اسوة بالدول الاسلامية الاخرى ، كان على الحكومة العثمانية ان تتخذ اجراءات سياسية وادارية تمت بصلة للشريعة الاسلامية ان لم تخالفها في بعض الاحيان . واعتمدت في تطبيق هذه القوانين ، هيئة من الموظفين ، من مدنيين وعسكريين كانوا عملاء المباشرين ، لا يتمتعون بحياها بالاستقلال الذي تم لرجال الدين والشريعة . فبينما نرى السواد الاكبر من الموظفين السياسيين والعسكريين ، في الدول الاخرى ، يأتون من طبقة العبيد والارقاء ، طلع موظفو

الادارة المدنية ، بعكس ذلك ، من الطبقة الثرية بين سكان البلاد الاصليين . اما في الامبراطورية العثمانية ، فقد انصهرت هذه الفئات معاً بسرعة كلية ، بنسبة ما امدت منظمة الداشرمة ، الجيش ببعض وحداته ، والادارة بمعظم الموظفين الذين تحتاج اليهم ، وبهذا العدد الكبير من الموظفين الذين كانوا يعملون في بطانة السلطان وحاشيته . فقد كانت هذه المنظمة عبارة عن ورشة ضخمة لتخريج ما يلزم من خدم وحشم للقطاع الرسمي ، خضعوا في مجموعهم ، قبل مباشرتهم العمل ، لتدريب مسلكي خاص ، ولتقوا احسن تلقين للقيام بواجباتهم ومسؤولياتهم نحو السلطان والدين الاسلامي ، بعد ان يتلقوا دروساً وتربية صالحة ، وفقاً لمتنـاج خاص كان يوضع لهم باشراف البلاط نفسه . وهكذا ، فقد كان الانكشارية ، منذ عهد السلطان محمد الثاني ، فرقة عسكرية ، كما كانوا ، من جهة اخرى ، نوعاً من رهيئة دينية محاربة على شاكلة فرسان الهيكل عند الصليبيين ، يعملون تحت امرة ضباط من منظمة البكتاشية كانوا يشرفون عليهم من الوجهة الخلقية والادبية .

ان ضخامة المسؤوليات الادارية واتساعها في هذه البلدان التي جرى فتحها وضمها الى السلطنة جعلت للقانون المدني ، في نظام الحكم العثماني ، اهمية فاقت كثيراً ما كان من امثاله في الدول التي تشكلت من قبل . فلأول مرة اصبح للقانون الذي ينظم الحياة الاقتصادية والمالية في البلاد هذا الشأن العظيم الذي تم له ، وهو قانون ساهمت في وضعه وصياغته وتكوينه ، عناصر اقتبست من القوانين البيزنطية ، واخرى استنبطها العثمانيون وجاؤوا بها من عندياتهم . وهذا القانون الخاص بالنظام العثماني يقوم على مبدأ اعتبار الدولة كلها ، مـلكاً خاصاً للسلطان وخلافاً لكثير من الانظمة التي عرفتها الاجيال الوسطى التي وقعت في الوهم ذاته ، فانزلت المصلحة العامة منزلة المصلحة الخاصة ، نرى على عكس ذلك تماماً ، المصلحة الخاصة ، في الدولة العثمانية ، تتضخم وتتسع بحيث تصبح دولة واسعة . وبالفعل ان سعود الحروب التي قام بها العثمانيون وما رافقها من توفيق في النتائج التي ادت اليها ، وهذه السياسة الصارمة التي ساروا عليها والتي رمت الى مصادرة كل الاملاك الخاصة ، جعلت املاك الدولة (الميري) تشمل كل الاملاك الخاصة ، فتتولى الدولة ادارتها رأساً او تؤجرها وفقاً لانظمة خاصة سنذكرها بالتفصيل بمد حين . وهذه التغييرات التي بدت سيان لدى الفلاح لانها لم تُدخل اي تعديل في الرسوم والضرائب المترتبة عليه ، وفُتـرت للدولة موارد طائلة ومرنة في آن واحد ، اذ اولتها على الناس ولا سيما على اصحاب الطبقة الارستوقراطية ، سلطة لم نرَ حكومة من الحكومات السالفة ، تمتعت بشيء منها .

ومع ذلك ، قام من ينعت النظام العقاري او التملكي الذي عمل به في الامبراطورية العثمانية ، بنظام « اقطاعي » . فاذا كانت فرقة الانكشارية التي ازدادت اهمية حربية بازياد الاسلحة النارية الجديدة ، بقيت تكاليفها على حساب السلطان الخاص ، فلم يكن الامر ، على مثل هذا النحو ، مع فرقة الحياالة او فرقة السباهيين التي حلت محل فرقة « الغزاة » ، اذ كان الفارس الحياال

يتناول لقاء خدمته « تياراً » . ويتميز التيار أو الاقطاع الحربي بأن تمنح الدولة أو السلطان ، أحداً من رعاياها إقطاعاً من الأرض يوازي بقيمته خراج قرية لا يدفع عنه ضرائب ، في نظير التزام صاحب التيار ، «القطاع» بتجنيد نفسه أو ابنائه أو أتباعه للخدمة في الجيش أو البحرية ، إذا ما دخلت الدولة في الحرب . ويكون عدد المهندسين مناسباً لدخل التيار . والكلمة فارسية الاشتقاق والاصل ، وهي ترادف كلمة *Pronoia* البيزنطية ، وتشبه من حيث مدلولها مدلول الاقطاع ، كما عرفه الاسلام ، وكما عمل به في مصر المماليك . وللدولة ان ترجع عن هذه المنحة إذا ما عجز صاحب التيار عن القيام بالتزامات المفروضة عليه . ولذا قلما انتقل التيار الى الابناء والورثة . فصاحب التيار يخضع لمراقبة الحكومة التي يمثلها في المقاطعة والى أو حاكم عام قابل للعزل والرفق . وكان يتعين على اصحاب التيارات من كبار ضباط الجيش ، ان يدربوا ، بالاكثَر ، ٢٠ فارساً ويدربوهم على استعمال السلاح . وهكذا بدت السلطنة العثمانية اكثر دول الاجيال الوسطى أخذاً بالسلطة المركزية . وهذا الوضع هو بالفعل الوضع الذي سارت عليه الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستينيانوس ، والدول العباسية نفسها في ابان مجدها .

وكغيرها من الدول صاحبة الشأن التي سبقتها ، اعتمدت السلطنة العثمانية في ادارتها على طبقة الموظفين . والسلطان ، كغيره من الملوك الذين سيطروا وسادوا ، بدا وكأنه سوبرمان ، من عجينة فوق البشر ، يعيش منزوياً عن الناس ، الا في ايام الحرب ، في قلب سراياه التي تؤلف لوحدها ، مدينة في قلب المدينة العاصمة ، يبلغ اليها بعد الكثير من المراسم والتشريفات . وقد عرفت الاسرة المالكة في الدولة العثمانية ان تصون العرش وتحافظ على التاج من كل عبث الطامعين اليه ، بطريقة مختصرة مبسطة للغاية ، وذلك بالقضاء على اخوة الوريث الشرعي ، بطرق ملتوية ، مشبوهة . وكان السلطان يتزوج ، في الاساس ، من اميرات تركيات او مسيحيات . ومنذ القرن الخامس عشر لم يعد عنده زوجة شرعية ، وما اولاده وبنوه الا ابناء بمض السراوى والمحظيات اللواتي لا يحصى لهن عدد ، ممن يهدين الى دار الحريم . ولم تكن البلاد بلغت بمعدل العهد الذي كان فيه السلطان لا يبارح دار الحريم قط ، ليصبح دمية بيد سراريه . فالفتاح والقائد المظفر الذي كانه محمد الثاني ، لم يعرف عنه مغامرات عاطفية .

وهذه الفظاظة ، وهذا الخداع الماكر ، وغيره مما قذفوا به هؤلاء السلاطين ، في عداد ما وجهوا اليهم من تهمة وتشنيع ، هل اختلف ذلك كله عما عُرف به معاصروهم من امراء ايطاليا في عهد مكيا في مثلاً ؟ فهذا العدد العديده من المسيحيين الذين أُتيح لهم الاقتراب من هؤلاء السلاطين ومخاطبتهم دونما حسيب أو رقيب ، لم يستطيعوا ان يتفادوا قط الوقوع تحت ما لهم من مهابة ووقار . فهم ابناء عصر واحد وزمن واحد . وبما لا بد من التنويه به عالياً ان هؤلاء السلاطين لم يظهروا اي تحرّج أو تعصب تجاه المسيحيين ، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفيتش يبطش بالناس بطشاً وينزل بهم الهلع باعتباره محكمة رسمية ، وقضاءً عالياً من اقضية الدولة ، وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون دونما رحمة أو شفقة ، من اسبانيا . فاذا ما رسفت الكنيسة الارثوذكسية ، في آسيا والارمن ، وهم اكثر عدداً ، منذ عهد بعيد ، في الذل والمهانة ،

فالبطريك المسكوني كان اظهر ولاءه دونها موارد ، للعثمانيين الذين لقي عندهم كل رعاية وحماية ، فصانوه من تعديلات اللاتين ومداخلتهم ، كما ان تقربه من اولي الامر ، زاده نفوذاً اكبر لدى الكنائس السلافية التي كانت فقدت ، اذ ذاك ، الشيء الكثير من الاستقلال الداخلي الذي تمتعت به من قبل . وبالرغم من نظام الداشرما ، واسكان عدد كبير من الجاليات الاسلامية في البلقان ، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الاسلام ، فلم يأت العثمانيون شيئاً مهماً ليمنعوا السواد الاكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم . وعلى نقبض ما حدث عند استفحال الفتح وبلوغ مده الزبي فالفتح السياسي العثماني لم يزدوج بفتح ديني .

فبعد ان أغلظ الاتراك العثمانيون معاملة الامارات اللاتينية وقلعوا اظافرهما معالم المدنية العثمانية بالحد من الامتيازات التي تمتعت بها ، تساهلوا كثيراً مع هؤلاء التجار غير المسلمين الذين انصرفوا لاعمالهم التجارية فيها بينهم ، بعد ان اخضعوا نشاطهم لمراقبة شديدة ، وفرضوا عليهم رسوماً وضرائب مقبنة . ولم يلبث رعايا فلورنسا ان استفلوا ما يتمتعون به من امتيازات واعفاءات ، بخلاف البندقية وجنوى اللتين سبق لهما ونهجنا سياسة عدائية ، نحو العثمانيين . وقد استطاع رعايا البندقية فيما بعد ، ان يسترجعوا جانباً مما خسروه في هذا المجال من نفوذ ومكانة وشأن . وهكذا يتضح لنا ان النشاط التجاري لم تحب جذوته في الامبراطورية العثمانية . وبفضل توافد العديد من الجوالي السلافية والاسلامية ، بانتظار وصول اليهود المطرودين من اسبانيا ، والأرمن القادمين من الشرق ، اصبحت العاصمة الاستانة وسراي الدولة ، اكبر زبائن لتجارة الككاليات ، فبزت ، في هذا المضمار ، ما كانه البلاط البيزنطي في أوج عزه وازدهاره . وتبين لنا من وصف الرحالة الغربيين والمسافرين ان الاستانة كانت تمور بالحركة وتموج بالنشاط ، بعد ان اخذت النقابات البيزنطية تستحيل ، دونما ضغط او اكراه ، نقابات اسلامية .

وبعد ان تناسى العثمانيون أصلهم البعيد ونشأتهم الحشنة الأولى ، راحوا يطلقون العنان ، لهذه الحضارات التي عرفوها في البلدان التي فتحوها ، فزهت تحت كنفهم وازدهرت . فقد أنس بليش العيش في القسطنطينية . واذا ما راح فرونتزيس ، ودوقاس ، وشاكوكونديلس يمارسون ويكتبون في المقاطعات التي هاجروا اليها مما يقع تحت سيطرة اللاتين : كجزيرة لسبوس وكورفو وكريت قصة صيرورة الامبراطورية « الرومانية » ، امبراطورية « الروم » ، فلم يتردد المؤرخ كريستوبولس ان يرفع الى السلطان محمد الثاني ، السيرة التي وضعها عن حياته . وقد رأينا فنانيين ايطاليين يعملون في خدمة السلطان ، امثال جنتلي بلسيني ، يرسمون لنا صور الكثير من الناس والاشياء في القسطنطينية الجديدة .

فها نحن امام مدينة عثمانية تحاول جهدها ان تفرغ في حضارة واحدة ، شق المدنات التي ازدهرت في اماره الكرمانيين ، اسيااد العاصمة القديمة قونية ، في عهد السلجوقيين ، وامارة

قسطوموني الى الشمال من انقرة ، وامارة الحروف الابيض. فهذه الحضارات لا تزال تحمل الكثير من معالم الثقافة العربية والارانية . ففي الوقت الذي راح فيه الفقهاء ورجال الدين يتابعون الكتابة بلغة القرآن ، ورجال التصوف والشعراء والكتاب من كل صنف ولون ، يستعملون كثيراً اللغة الفارسية ، اذ بالاتراك يقتصر معظم ادبائهم ، اذ ذلك ، على الترجمة والنقل . ويتناول هذا اللون من الادب مواضيع صوفية او بعض قصص البطولة الموضوعة بالارانية ، وأحياناً بالعربية ، بحيث اخذ الادباء الذين ينقطعون لهذا الادب يفكرون بالارانية ، ما يكتبونه بالعربية ، وان جهل السواد الاعظم من مواطنيهم اللغة التي يكتبون . فالادب التركي في هذه الحقبة ، حيران ، متردد ، يحاول شق طريقه ، مقتفياً اثر الآداب القريبة منه التي ازدهرت في آسيا الوسطى . وباستثناء هذه الترجمات والنقول العلمية العالية ، نرى معظم المؤلفات الشعرية ، بالعربية والتركية ، تلاقي ، منذ القرن الخامس عشر ، انتشاراً واسعاً ، وتحت تناول الشعب ، ان شئنا ان نضرب صفحاً عن ذكر الامراء الذين يحسنون التركية اكثر من احسانهم للفارسية . والى جانب الشعراء الكبارين: نظمي واحدي ، اللذين لمعا في القرن الرابع عشر ، يجب ان ننوه هنا بما بلغه الاهتمام بالتاريخ التركي ، في القرن الخامس عشر ، وذلك عن طريق هذه الترجمات لتاريخ إيران القديم ، ووضع تاريخ مفصل للعثمانيين بالتركية ، وهذه القصص الشعبية الوطنية وهذه الروايات الشعبية التي تشيد باجداد الأوغوز والتي كان ينشدها الشعراء ويتفننون بها ، منذ عهد بعيد . ولم يلبث مسرح خيال الظل الذي تضافرت على تكوينه عناصر جاءت من بلدان مختلفة بين بلدان الشرق ، مسيحية واسلامية على السواء ، ان ظهر بين الاتراك وبرز بشخصية كراكوز المثيرة للضحك .

كان الاتراك العثمانيون من كبار بناة المساجد والمدارس ، ومثلوا دوراً بارزاً في مضممار الهندسة ، اذ عملوا على تطوير المذهب الفني الذي ساد عهد السلجوقيين والفقول . فمذ القرن الخامس عشر ، رفعوا الفن منارة كبرى تمثلت بهذا المسجد المسمى بالمسجد الاخضر في بروسة ، للون القاشاني الاخضر الذي يزينه من الداخل . فالخزف هو من هذه العناصر التي ميزت فنهم الناشئ ، بينما راح كثيرون من رعاياهم ، بين يونانيين وارمن ، واتراك وعجم ، يضمنون لهم الطنافس ويحيكون السجاد على انواعه واشكاله ، لا يتمدى اقدم المحفوظ لدينا منها ، القرن الخامس عشر .

وبعد سقوط القسطنطينية ، اخذت الارادات الحسنة ووسائل التنفيذ تلتقي وتقوى ، والمؤثرات الاسيوية راحت تتمازج وتختلط بالتقاليد والاساليب الفنية التي اشتهر بها الفنانون من ابناء البلاد . فاليوناني كريستوبولس وضع نفسه بخدمة السلاطين واصبح الرائد الأول الذي اقتفى سنان ، اشتهر مهندسي الاتراك في القرن التالي على الاطلاق ، أثره وسار على منواله . بل ايضاً راح السلطان محمد الثاني وخلفاؤه من بعده وكبار الموظفين التابعين لهم ، يتنافسون بحماسة ونشاط ، ليجعلوا من الاستانة ، عاصمة تكسف ، بما بلغت من زهو وزينة وجمال ، ايجاد

القسطنطينية في أوج عزها البيزنطي . فلم يكفهم ان حولوا كنيسة آجيا صوفيا الى مسجد كبير وغطوا فسيفساءها الجدارية بالملاط ، فقد بنوا مساجد اخرى كبيرة ، تحاكيها من حيث الاتساع وال ضخامة ، معطين بذلك الدليل على ان عهد القباب لم يغيب بعد عن دنيا الفن ، فتذهب المآذن رافعة رؤوسها نحو السماء ، متحدين برشاقتها ويزخرفها هذه الكنائس المتواضعة المظهر ، القائمة بعد ، في اقطار الشرق . وهكذا فجامع الفاتح يهد الطريق لهذه الابنية الهندسية الضخمة التي تبدو من هذه الغلالة الندية التي تلف المدينة في الصباح الباكر ، فتبهر بمجمها هؤلاء المسافرين الذين ترسو سفنهم على مقربة من رصيف القرن الذهبي . ان عدم استجابة النفس التركية للفن ، وأخذها بالنظرية الاسلامية التي تتشدد بتحريم التصوير والرسم ، وهي تعاليم راجت في بعض الاقطار الاسلامية - مع انها لم تلق رواجها في ايران - جعل التصوير في حكم المدم ، في الفن العثماني ، كما لم نر العلم يغزو بعد الروح التركية . ومع ذلك ، فالأوروبيون الأوائل الذين تمكنوا في مهتل عصر الانبعاث من الدخول الى السلطنة العثمانية ، لم يشعروا قط انهم وطئوا عالما يختلف عن العالم الذي قدموا منه .

فال مؤرخون الغربيون الذين ألغت انظارهم رؤية هذا الانحطاط الذي تسكنت فيه الامبراطورية العثمانية ، طويلا في عهدها الأخير ، قلما قالوا كلمة حق في هذه الانجازات المهيمة التي حققتها الامبراطورية العثمانية ، في عهدها الاولى . فهذا الانحطاط الذي اخذت معالمه تظهر للعيان في جميع الدول الاسلامية منذ القرن السادس عشر ، واي نظام ليس بمسؤول عن عوامل الانحطاط التي تدب اليه - لا يُطلب منا هنا ان نبين منها الاسباب . ومع هذا ، فالامر يتعلق بالاحرى ، بالمعجز عن اللحاق بركب التقدم والتطور المدهش الذي قطعه الغرب ، اكثر منه بالسير القهقري الى الوراء . وهذا الركود والجمود ، يمكن رده ، من جهة ، لتحول طرق المواصلات التجارية ، اثر الاكتشافات الجغرافية العظيمة والعثور على طريق جديد في المحيط الاطلسي ، ومن جهة اخرى ، لهذا الحراب يتراكم في هذه القارة الأوروبية التي اخذت المبادرة للهجوم ، ولهذا اليأس والقنوط يسببهما هذا الهجوم بالذات ؛ وبعبارة اخرى ، لا شيء مما يحق لنا اعتبار العثمانيين مسؤولين عنه في الدرجة الاولى .

٤ - نشأة روسيا المسكوبية

في هذا الشرق الارثوذكسي كله لم تبق ، في اواخر القرن الخامس عشر ، دولة واحدة لم يغمرها المد العثماني ، باستثناء روسيا المسكوبية التي رافق ظهور نشأتها صعود من اليمن تبشر بمستقبل زاه مشرق .

وهذه الطامة المغولية الكبرى التي نزلت بروسيا فهزتها بعنف ارتج له كل من على الارض وما فيها ، اعافت التطور الذي كانت هذه البلاد اخذت باسبابه من قبل ، ووجهته وجهة اخرى . فقد جلبت معها نهاية روسيا الاوكرانية وعاصمتها كييف . ففي الوقت الذي راحت فيه المقاطعات الغربية من البلاد ، مثلا بولونيا وليتوانيا ، تدور في فلك الدول الكاثوليكية ،

او قد دخل المجال التجاري الاقتصادي الذي سيطر عليه الحلف الاقتصادي المعروف بالهائز، الذي شمل معظم مدن أوروبا الشمالية والوسطى ، اتجهت انظار معظم سكان البلاد الى المقاطعات التي تفشاه الغابات في قلب روسيا ، بعد ان كانت اخذت باحيائها واستثمارها ، وتطلعت بإبصارها الى مناطق الفولغا السفلى وآسيا اكثر مما رنت به الى بيزنطية ، التي انقطع معها كل اتصال مباشر .

ومع ان المفول فرضوا الجزية على البلاد ، فلم يكونوا ليتدخلوا بأمورها الداخلية الا في حال نشوب ثورات وقيام حركات تمرد وفتن ، بعد ان يتخذ العصاة والثائرون ، ملاذاً لهم ولاعمالهم الغابات الشاسعة ومستبقياتها الوخيمة التي كانت تختلف اختلافاً بينا عن مواطنهم . وهكذا نعمت الامارات الروسية بشيء من الاستقلال الداخلي دون ان يتنكر حكامها لماضيهم او يقاطعوا تقاليدهم الغابرة ، بخلاف ما وقع للمقاطعات الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي . وقد شبت بين هذه الامارات المختلفة منافسات حادة ، وشقاق اقامها بعضاً على بعض ، حمل بعضها على التماس النجدة : تارة من المفول ، وطوراً من البولونيين ، والليتوانيين . غير ان المفول ، خروجا ، ولولمة واحدة على خطتهم السياسية ، لم يشجعوا قط حركة الانقسام هذه ، فرأوا ، تبسيطاً للامور ، ان يقيموا من بين هذه الامارات واحدة تتولى فيها الصدارة وتبارس عليها السيطرة فتنتع بعطفهم ومؤازرتهم ، ويعهدون اليها بحماية الضرائب والرسوم المفروضة وتحصيل الجزية ، شريطة ان تصدق لهم الولاء ، لقاء الحماية التي يضمنونها لها . وقد أوتى امراء موسكو من اللباقة وحسن التصرف والسياسة والمهارة في السلوك والادارة ، ما اكسبهم عطف المفول فكانوا يمثلهم ، مع ان امارتهم لم تكن اكبر هذه الامارات ، ولا اقواها على الاطلاق ، حتى اذا ما اختلفت ميزان القوى وأنسوا في نصراتهم بادرة ضعف او ممكن وهن . . سارعوا لمناجزتهم ومحاربتهم بوسائل وموارد هي من بعض عوارفهم وافضالهم ، وهكذا تمت تدريجياً حركة تجميع الاراضي الروسية ، وتكتلها ، وهي حركة شابت ، الى حد بعيد ، الحركة التي تمت في فرنسا ، خلال عهد الدولة الكابيتية ، وهذا مثل جديد يضاف الى العديد من امثاله نرى معه كيف ان السيطرة الاجنبية على الروس حملتهم على خلق وحدتهم السياسية القومية ، هذه الوحدة التي كانوا يفتقرون اليها جيداً فتمت لصالح حكومة روسية هي حكومة امراء موسكو .

وراحت روسيا ، كغيرها من بلدان أوروبا الشرقية ، تتطور وتنكامل باتجاه نظام إقطاعي واقتصادي يقوم على رأسه ابناء الطبقة . الارستوقراطية وبدلاً من ان يسير هذا التطور في خط معاكس لتكامل السلطة المركزية ، نزاه يأتي ملازماً لها ، عاطفاً عليها ، ولذا كان خليفاً بهذه الحركة ان تتوقف هنية حياها ، وتنبين طبيعتها .

كان المجتمع الريفي قد اخذ منذ عهد بعيد ، بالتفتت والتفسخ عن طريق استهلاك الاراضي وطلوع طبقة من كبار الملاكين ، من رجال الدين والدنيا . وقد ساعد إحياء الاراضي الجديدة

وتعميرها للزراعة، وهي عملية لم تكن لتتم على ايدي افراد من الرواد، على تكوين النظام الضرائبي الذي عمل به الفول وتقويته . واخذ الفلاحون ، ببطء كلي انما باستمرار ، يقومون ، بدافع من توصياتهم او من انتقال الملكية ، تارة طوعاً واختياراً ، وطوراً غضباً وقسراً ، تحت سيطرة الاشراف او رؤساء الكنيسة . وراحت املاكهم تشغل وتستثمر، وفقاً لنظام حياتي لا يختلف كثيراً ، من حيث جوهره ، عن النظام الذي عمل به في عهد الاسرة الكارولنجية . فالحركة التجارية والحياة في المدن في روسيا القبلية ، كانت متأخرة جداً عما كان عليه مستوى الحياة في اقليم كييف ، اذ كانت الاراضي المملوكة تكاد لا تعطي منا يكفي بأود العيش . فتجارة الملح وحدها كانت تثير اهتمام سواد السكان الذين لم يكونوا ليستفيدوا منها شيئاً كبيراً اذ ان الضريبة التي كان المترتب عليهم دفعها للفول ، وهذه الفراء التي كانوا يبيعونها من التجار الاجانب ، كل هذا كانت فائدته تعود لكبار الملاكين . اما المدن فلم يكن يتألف معظمها الا من بعض اسواق ريفية او من بعض مواقع سياسية وسترراتيجية باستثناء مدينة نوفغورود التي كان لها بعض الشأن والتي لم يكن نفوذها التجاري ، في البحر البلطقي مع مدن حلف الهانز ، ليقل بشيء عن النفوذ الذي كان لمدينة كفا على البحر الاسود . فاذا ما بعثت هذه الحركة التجارية بعض النشاط في الصناعات والحرف المهنية ، ولا سيما في مجال التمدين في منطقة نوفغورود ، واثارت بعض المشاكل الاجتماعية التي ثار مثلها في المدن الاخرى ، في الغرب ، فقد رأينا انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة غربية شاذة ، صار الجانب الاكبر من نشاطها التجاري الى ايدي تجار المدن ، بينما لم تكن نرى لدى سكان البلاد الاصليين ، اي اثر لبورجوازية تجارية . فاذا ما قامت في مدينة نوفغورود حركات تمرد بين الصناع والعمال ، فقد انحجبت هذه الحركات بالاكثَر ضد كبار الملاكين اكثر منهم ضد النبلاء . فالروسيا ، كغيرها من البلدان الصقلية عانت كثيراً من هذا التأخر في تطورها الذي جعل الحركة التجارية في البلاد تقع بين ايدي تجار من الغرب سيطروا عليها سيطرة تامة بينما هنالك بورجوازية من ابناء البلاد ، لا تزال بعد في المهدة .

وبالاعتماد على هذا النظام الاقتصادي الذي كان كل قوامه الملكية العقارية ، راحت الملكية الموسكوبية تنشئ حولها مجتمعا روسياً نعتوه بالاقطاعي . وبفضل الاستملاكات العقارية الضخمة التي حققها النظام ، فقد اخذ يخضع لسلطته امارات تمتعت بالامس باستقلالها الاداري . وتشبهاً ، من جهة اخرى ، بالتجار العثماني وهو اقرب الانظمة ، في الزمان والمكان الذي راح الروس يحتذون حذوه ، اخذ امير موسكو يوزع على اتباعه وعماله ، حصصاً من املاكه الواسعة ، عرفت عندهم باسم *Promiestie* أولت مالكيها اعفاءات خاصة وحقوقاً ملكية حكومية ، وهي اقطاعات يمكن الغاؤها ، ولا يصح نقلها بالوراثة لذويهم ، كما ان حكام المدن الذين يتولون الامر فيها ويتمتعون بصلاحيات واسعة وبسلطات واسعة على السكان ، هم عملاء يبقون دوماً تحت سيطرته واشرافه . فالانتعاش الذي بلغته املاكهم ، ومساندة الفول لهم ، أقله في البدء ، وهذا التضامن والتكتل الذي ميز هذه الحروب التي اخذ امراء موسكو يشنونها ضدهم ، في القرن الخامس عشر ،

و ضد كبار الملاكين في نوفغورود الموالين للبولونيين ، ومساندة الشعب لهم ووقوفه الى جانبهم . كل هذا وما اليه ، يفسر لنا كيف ان النظام الملكي في موسكو ، اخذ بشكل ، من الموظفين والمملاء التابعين له ، طبقة ارسوقراطية ، تستطيع بما تم لها من نفوذ ، الحد من نفوذ كبار الملاكين ، بل لم تلبث ان نافستها وتغلبت عليها .

من هذه التغييرات والتعديلات والتطورات التي اخذت بها البلاد ، لم يفد الفلاح الروسي شيئاً يذكر ، اذ لم يكن الإقطاع الذي كان النظام الملكي في موسكو يُقطعه ، ليختلف شيئاً كبيراً عن الإقطاع يُقطعه كبار الملاكين . فامام افتقار البلاد للسكان وقلة عددهم ، كان هم السيد ، اياً كان ، ان يؤمن حاجته من اليد العاملة وتسهيل بقائها حيث هي . وبالرغم من هذه الرابطة ، التي كانت تشد المزارع اكثر فاكثراً الى سيد الارض ، فقد احتفظ الفلاح ، مع ذلك ، بوجه قانوني او بصورة عملية ، بإمكان انتقاله للعمل في ارض غير ارض سيده الاول . ومنذ ذلك الحين اخذ ارباب الارض يتضامنون فيما بينهم ليعرّموا الفلاح من هذا الحق وينموه من الانتقال للعمل في ارض اخرى . ثم ان اشتداد الروح المركزية وازدياد السلطة الملكية شأناً ورسوخاً ، ساعد كثيراً على شد الفلاح وربطه بالارض . وهذا المصير لم يبلغ غامه الا في القرن السابع عشر ، مع ان الاجراءات الاولى التي اتخذت بهذا الشأن ، تعود لواخر القرن الخامس عشر . وهكذا اخذ النظام السیادي او المولوي في روسيا ، يزداد متانة ورسوخاً كما ازداد التساج سلطة ونفوذاً ، فراح يظهر سيطرة طبقة اجتماعية سهلة الانقياد تعترف له بالولاء . والشبه قوي هنا بما كان يعمل به في النظام العثماني ، مع ان الدولة الروسية لم تكن اذ ذاك ، بلغت من القوة ، ما يساعدها على فرض مثل هذه المراقبة الشديدة . وهكذا فال حقوق التي تمتع بها صاحب اقطاع اميري في روسيا كانت اوسع بكثير من تلك التي اعترف بها لصاحب التیار في تركيا العثمانية . وقد فرضت بيزنطية ، هي الاخرى ، شيئاً شبيهاً بمثل هذا النظام الـ *Fromania* ، الا ان الضعف الذي نزل بالدولة ، والوهن الذي حل بها ، اساء الى هذا النظام كثيراً وافسده .

وقد وجد الدوق ايفان الثالث ، النشط والمهوب الجانب ، بعد الانتصارات التي حققها في اواسط القرن الخامس عشر ، على المغول والليتوانيين ، نفسه على رأس مملكة قوية البأس والشكيمة . فالى جانب الامير الذي يحمل لقب : امير الروس قاطبة ، قام في موسكو ، منذ القرن الرابع عشر ، بطريرك ، لم يعد للقسطنطينية عملياً اي سبيل او مشاركة في تعيينه ، والذي حرص كلما سمحت له بارقة او نهزت ناهزة ، ان يبرز « ارثوذكسياً حسن العبادة » ، كلما راحت الكنيسة البيزنطية ، لاسباب سياسية ، تدخل في مفاوضات مع الكنيسة اللاتينية ، ترمي للوحدة . واخذت دوقية موسكو تحاول انشاء علاقات لها مع العالم الخارجي ، بعد ان اتاخنت عليها سيطرة المغول بكلكلها الثقيل فارزحتها طويلاً وهوت بها الى البؤس والشقاء ، وحدثت كل رغبة فيها للتجلي والبروز ، باستثناء بعض كتابات دينية وبعض قصص تاريخية او

حماسية ، اقتصر عليها النشاط الفكري في البلاد ، اوحشها الاجماد التي عرفت البلاد ان تحققها ، بما ساعد على توعية الشعور الوطني في الناس وتحسبهم بحب الوطن والتمسك بأهله . ومنذ ذلك الحين اتخذ رحالة روس يقومون برحلات في اتجاهات مختلفة : نحو الهند (رحلة نيكيتين) ونحو القسطنطينية وإيطاليا . فقد رغب إيفان الثالث في ان يجعل عاصمته مدينة خليقة بقوته الناشئة . فاستقدم من إيطاليا الشالية التي اخذت انجازاتها الفنية تنتشر ويعلم ذكرها في كل من بولونيا والمجر وشبه جزيرة القرم ، عدداً من مهرة المهندسين المماريين ، وعهد اليهم بالاشراف على بناء ثلاث كنائس ضخمة ، وتشيد بلاطه الملكي الذي حصنه بقلمة الكرملين . وقد اوجب على هؤلاء الفنانين ان يراعوا في اعمالهم ، التقاليد المتوارثة ، محلية كانت ام بيزنطية ، مما لم يزل معمولاً به الى ذلك العهد ومرعي الجانب ، في البلاد ، كما ان الاعراف والتقاليد الوطنية اخذت تزدهر وتبرز على وجهها الصحيح في فن التصوير ورسم الايقونات المقدسة ، كما برز فن محمية المخطوطات الكنسية والعمالية وتزيينها بالنقوش الرائعة . كذلك برز في هذا الوقت بالذات الذي راح فيه فريق من علماء النهضة الفنية ، من يونان وإيطاليين يعنون بنقد النصوص بين بعض رجال الاكليروس ، ميل شديد لاعادة النظر في الترجمات القديمة للكتب المسيحية الى اللغة السلافية ، وتصحيحها . وبالرغم من الضجة التي احدثتها هذه الحركة ، فقد لقيت ، مع ذلك ، تشجيع الدوق إيفان الثالث ، وكتب لها ان تتم على الوجه الاكمل ، وان تؤتي اكملها الرطب ، في القرن السادس عشر .

وقد تبدى للكردينال بساريون ، اذ ذاك ، الدور المجيد العظيم الذي باستطاعة روسيا ان تلعبه ، بوصفها نصيرة المسيحية والمدافعة عنها ضد السلطنة العثمانية ، عندما راح يسمى لعقد قران « امير الروس قاطبة » وزواجه من وريثة اسرة بليولوغ ، اي من بيزنطية التي كان يطمح إيفان الثالث الى تركتها الادبية ويطمع في تراثها الأثيل . فبعد ان سقطت روما الثانية اخذت روما ثالثة تطلع مشرقة وتلمع ممثلة بموسكو . ولكي لا نستهم بمحاولة ابتسار سير التاريخ ، علينا ان نشير هنا انه لا بد من مرور قرنين بكاملهما ، قبل ان تصبح روسيا بالفعل ، دولة اوروبية كبرى . الا انها تمكنت منذ عهد إيفان الثالث ، ان تنهي الاسباب والعوامل التي تؤمن لها العظمة والسؤدد اللذين يخبئها لها المستقبل البسام الطالع .

ففي غرة ما اصطلح المؤرخون على تسميته « بالتاريخ الحديث » نرى المسيحية الشرقية ، وقد سمت زمناً طويلاً فوق المدينات الغربية ، تنهار أطرها السياسية وتنحل ، كما نرى شقيقتها الغربية تسبقها وتتقدمها بمرآح في جميع المجالات . ان مولد روسيا ونشأتها التي لا يساعدها تنظيمها الاجتماعي البالي على الماضي في هذه النجاحات التي حققها ، لا يمكن ان نأخذ بديلاً او اعتباره عوضاً عن هذا الانهيار تصاب به الكنائس الشرقية . فالعالم الاسلامي يبدو لنا ، اذ ذاك ، على وضع كثير التعقيد . فبينما هو يسير القهقري في الغرب ، نراه يحقق في روسيا الشرقية ،

انتصارات مدوية . وفي 'أريقت الذي نرى فيه الثقافة نصاب بأعراض الوهن والكلال نرى مع ذلك الاسلام يزداد انتشاراً في هذه البلدان التي هي في مستوى حضاري متدنٍ . فقد مضى وانقضى الوقت الذي تقتبس فيه أوروبا العلم عن الاسلام ، ولم تدق الساعة بعد مشيرة الى المهد الذي سيعتمد فيه الاسلام على أوروبا لتجديد شبابه ونشاطه . وهكذا قام بين هذين العالمين شيء من التوازن والتعادل كان من المتوقع له ان يفضي الى علاقات مثمرة وتبادل فكري خير بين الطرفين . ولم يطل بنا الامر لندرك على ضوء انوار المستقبل ، ان انقطاع هذا التوازن ، قبل اوانه ، أثمر لمدة اجيال ، قيام هذه الاتصالات المرجوة .

الفصل الخامس

أوروبا وتشكيلاتها السياسية الجديدة

يبدو ان القوم في أوروبا ، في أواخر القرون الوسطى ، وجدوا أخيراً الأجوبة التي طالما بحثوا عنها خلال الأزمنة الصعبة التي تمرّسوا بها وتضرسوا بويلاتها. ففي العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر ، نرى المدنية على أقوى ما تكون من التضامّ والوحدة والتماسك ، فتعین لكل عنصر من عناصرها الموقّمة ، المحل المحدد له ، وتنفذ بشاغب بصرها الى هذه الآفاق الرحبة من الثروة والازدهار اللذين ستبلغ اليهما . وهذه الدولة التي ترسخت اصولها ، وتوطدت أركانها ، اخذت تعي رسالتها ، والمجتمع البشري جدد أطره السياسية ، والحياة الاقتصادية نشطت وزخرت بعد ان انتظمت مرافقها واستقر الأمن في جميع أرجاء البلاد ورحبت آفاق الاسواق التجارية . واختراع الطباعة زود البشر الذين كانوا يبحثون عن وسائل اتصال جديدة ، بإمكانات وطاقت لا حد لها ولا حصر ، وبوسائل للاعلام لم يكن ليحلّوها بها او بمثلها . فبعد حقبة مديدة من القلق والاضطراب ، عمرت النفوس كما عمرت المجتمعات في الغرب بالثقة ، وبهذا الايمان القوي الرائق من فعالية الوسائل وأهلية الادوات التي استنبطها العقل البشري لتنتطلق بمضاء المزيمة ، نحو آفاق جديدة من الجمال والخير والحق .

فن الطبيعي والمعقول ممّا ألا تكون جميع بلدان أوروبا ، شعرت بنسبة واحدة ، وبدرجة سواء ، بهذه الأزمنة الصعبة والازمات التي ابتليت بها ، كما ان شمس الحرية لم تبزغ على هذه البلدان معاً في وقت واحد . فاذا لم يخامرنا أي شك بطلوع عهد الانبعاث الايطالي في وقت مبكر ، فليس من ينكر ، مع ذلك ، النهضة السريعة التي حققتها فرنسا بعد ان تخلصت من عقابيل حرب المائة سنة ونتائجها الوييلة ، يتبعها من قريب ، في هذا المضمار : انكلترا في عهد الملك ادوارد الرابع ، اول ملك من اسرة تيودور يتولى العرش في بريطانيا ، واسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، بينما بلدان أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية تصل بتمهل كلي وببطء الى الاستقرار والتوازن ، بعد ان وجدت نفسها مهددة بالتوسع العثماني . ففي كل مكان ، تطل المشكلات الواحدة ، والصعوبات ذاتها ، فتتلبس الحضارة في الغرب السمات ذاتها والمظاهر ذاتها . وهذه المسيحية المتقدمة العهد تلتسرب الى أوروبا الحديثة كلها ، وتقوص في ثناياها . فسواء مطّ البعض

نهاية الاجيال الوسطى الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، او جعل البعض الآخر بسوء العصر الحديث عند الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، يبقى ، مع ذلك شيء واحد ثابتاً هو ان كيانات ومجتمعات عصر الانبعاث وما فيها من نظم ومؤسات ، كانت قائمة قبل اكتشاف العالم الجديد .

١ - ظهور الدولة الحديثة

خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تتميز الدولة الملكية من بين نظم العالم السيادة ، بالتغلب على الصعوبات الرئاسية الثلاث التي كانت تُقْعِدُها فتزج بها الى الحضيض وتعتق سيرها الى الامام وتطورها الصاعد نحو الرقي ، ألا وهي : انقطاع او الغاء رابطة التبعية التقليدية ، وانقسام المسيحية وتوزعها شيعاً ، ومواجهة المسؤوليات الجديدة المتعددة بوسائل وأساليب معينة . ففي نطاق تنازع الدول البقاء وتنافسها على التجلي ، تنصرف الدولة لتوسيع وحدتها . فاذا كان عليها ان تجمع في قبضة يدها مقود الادارة واستعمال القوة ، فهي تنصرف بكليتها لتعشد بين يديها او لتستنبط الوسائل والذرائع التي تؤمن لها ملء السلطة وجماعها . فهي تجد ، بعد هذا ، في الانحلال السياسي والاقتصادي ينزل بالأطر والملاكات الاجتماعية القديمة ، وفي مؤازرة البورجوازيات وطبقة النبلاء الجديدين ، الوسائل التي تساعدها على ترويض اجهزة البنيان الاجتماعي واخضاعها لطاعتها فتجعل منها عوامل تمتثل لأوامرها ولنواهيها .

فهذه النزعة القوية نحو الوحدة التي طالما استقرت وراء المنافسات المركزية الادارة السلاية ، أتت اكلها وأعطت أطيب نتائجها عندما هدأت هذه المنازعات العاصفة وركد ريجها . ومهما كانت الشوايب التي اعتورتها ولازمتها ، فقد أمكن الوصول بهذه الوحدة الى ما يشبه هذا الاستقرار الذي رست قواعده على مثل هذا التوازن الايطالي الذي تم بمقد صلح لودي ، عام ١٤٥٤ ، فأدى الى انشاء الحلف الايطالي *Ligue Italique* الذي قام في السنة التالية ، أي عام ١٤٥٥ ؛ وذلك التوازن الذي تم على حساب ، الامارات الايطالية الصغرى ، كان من نتائجها ان وطد ، من جهة كيان دوقية ميلانو وجمهورية البندقية الكلية الاحترام ، كما وطد ، من جهة اخرى ، مملكة نابولي ، وذلك باقامته نطاقاً حول جمهورية فلورنسا وجمهورية سينا ودولة الكرسي الرسولي . وقد تألف من هذا كله حلف غير متناك وغير مستقر ، لا رأس له ولا رئيس ، قام واستمر بقوة الامر الواقع أكثر من قوة ارادة الناس ، أتاح في الداخل ، لكل دولة تركب منها ، ولا سيما للدولتين الاوليين ، السير نحو الاستقلال الذاتي ، والوقوف حيناً وجهاً لوجه ضد الدولة المجاورة لها ، وحيناً في صفها ومساندتها . من ذلك مثلاً المعون المالي الذي قدمته فلورنسا لكتلة آل سفورزا العسكرية . من الشواهد على هذا الوضع ، الكتاب الذي وضعه بين ١٤٤٨ - ١٤٥٣ ، فلافيو بيونديو بعنوان :

« إيطاليا المصورة » الذي يعطينا لأول مرة ، صورة عن الوضع الجغرافي في شبه الجزيرة الإيطالية بكاملها .

فهذه الوحدة الجغرافية المتأسكة التي افتقرت اليها إيطاليا كل افتقار والتي حاول شارل الجسور عبثاً إقامتها وتحييزها بين نهري السوم والرين ، بتوسيع دوقيته الى حدود نهر الجدر وذلك بضم كولونيا والقسم الاعلى من الازراس ، او محاولته ضم المقاطعات الواقعة « من هذا الجانب » الى المقاطعات الواقعة « من الجانب الآخر » من ولاية اللورين ، مثل هذه الوحدة توصلت الى تحقيقها كل من فرنسا واسبانيا وانكلترا ، وذلك بعد ان تمكنت كل منها من ترسيخ « دعائم النظام الملكي فيها » عن طريق اتفاقات شخصية او مصاهرات أمنت لها ضم اقطاعات قديمة الى ممتلكاتهم العائلية ، بحيث أصبحت الاملاك الاميرية والدولة شيئاً واحداً ، او كلمتين مترادفتين . ان زواج ايزابيل ده قشتالة من فردينان داراغون ، اقام رباطاً شخصياً بين الملكتين الرئيسيتين في شبه الجزيرة الايبيرية ، كما ادى ، من جهة اخرى ، الى الاخلال بالتوازن القائم فيها لصالح قشتالة . فعندما صارت الاملاك الواسعة التي كانت ملكاً للمنظمات العسكرية في مدن شنتياغو وكالاتاغا والقنطرة ، الى العرش الاسباني ، حقق بذلك السيطرة على املاك شاسعة . وعندما عرف هذا العرش ان يستقل حالة الضعف التي آلت اليها مملكة كتلونيا ، تمكن من وضع الاسس الركنية لوحدة مملكة قشتالة التي تم تكوينها نهائياً بالاستيلاء على مملكة غرناطة عام ١٤٩٢ .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت بريطانيا وجدت القاعدة التي ركزت عليها السلطة الملكية . ان وصول هنري ثيودور الى كرسي الملك وضع حداً لهذه الانقسامات السياسية وهذه المشاحنات الداخلية الدامية التي كانت مزقت البلاد خلال حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) ، وبذلك هياً حلاً للمشكلة الغاليتة ، كما هياً الاسباب لقرار الاتحاد الذي صدر عام ١٥٣٥ ، ومهد السبل لضم المقاطعات المعروفة بالمقاطعات البلاتينية كمقاطعة دور هام مثلاً ، فتمت بذلك القوة للمملكة .

وهذه المقارنة المتوازية تبدو على اتمها في هذا الاتحاد الشخصي الذي وقع بين دوقية برتانية وصاحب العرش في فرنسا ، وذلك عن طريق زواج الدوقة حنة من الملك شارل الثامن (١٤٩١) ممهداً بذلك السبيل امام قرار الاتحاد الذي اتخذ عام ١٥٣٤ فاذا ما تخلى الملك قبل مباشرته تجريداته العسكرية على إيطاليا ، عن مقاطعات الاروتى ، وفرانش كونتيه والروسيون فلا يضير تنازله هذا بشيء ولم يمنع من ان تكون مملكته ، اذ ذاك ، الدولة الوحيدة الكبرى الحليفة بهذه التسمية ، فبين الاقطاعات التي تنعم بالاستقلال لم يبق سوى الاقطاع الخاص بآل بوربون ، وهو لمعري إقطاع له شأن كبير ، وإقطاعي : اورليان وأنغوليم القريين جداً من ممتلكات التاج ، بحيث لم تمر عشرون سنة حتى جرت تصفيتهما وضمها الى املاك العرش .

فعلى درجات تباينت تبين البلدان واختلاف الممالك القائمة ، نرى السلطة المركزية السياسية : الملكية اكثر ثقة بالنفس واكثر وعياً لمسؤولياتها ، فهي تعتمد كل الاعتماد

على نظم اشد تماسكاً وانسجاماً ، وتمارس سلطتها من اعلى الى اسفل ، بواسطة اداة اداة ادارية اكفاً ، تتشعب وتتضخم اكثر مع الوقت استجابة للظروف العارضة . ففي وقوفها بوجه القوى والعوامل التي تحاول ايهانها وتفتيتها وتجريدها من وسائل العمل ، رأينا الدولة تنشيء لها الادوات التي تساعد على العمل المجدي واقعاها على اصول راسخة . وهنا ايضا نرى فرنسا واسبانيا وانكلترا ترسم الطريق وتمهد السبل . فالاعتقاد الشائع ان سلطة الملك هي من حق الهي ، اضيف على ملوك فرنسا ، منذ تكريس الملك شارل السابع ، شيئاً من الوفاق والهيبة زادها ابهة وجلالاً حفلة التكريس التي اضفت بدورها مسحة من القدسية على الدولة ، بينما اسم روما كان يذكر دوماً باجماد الامراء من نصراء العلم والادب . ففي كل دولة لعب المجلس الاستشاري للملك دوراً كبيراً ازداد اهمية مع الزمن ، اذ ساعد على تأمين السداد والرشد في اعمال الحكومة وجعل مجال العمل واسعاً كلما اخذت الدولة بالامتداد وانشاء المصالح المتخصصة لتتمكن من القيام بالاعباء المترتبة عليها ، على الوجه الامثل . وهذا المجلس الاستشاري الذي كان يضم نحواً من ٥٠ شخصاً ، في فرنسا ، استحال في اواخر القرن الى المجلس الاعلى الوحيد المكلف النظر في هذا العدد العديد من القضايا التي تحال الى محكمة الملك الخاصة . والملك ادوارد السابع ، في انكلترا ، اضطر لأن يضاعف هو الآخر عدد اعضاء مجلسه الاستشاري ، اذ كان بعض اعضائه يرافقون الملك دوماً في حله وترحاله ، بينما يستمر الآخرون في الجلوس للقضاء في «القاعة ذات النجوم» ، من قصر وستمنستر . وعلى هذا النحو كان الامر في اسبانيا ، ولا سيما في قشتالة ، فالرسوم الملكي الذي صدر عام ١٤٨٠ بعنوان *Ordenamiento Del Consejo Real* يوضح تماماً اختصاص هذا المجلس وصلاحياته ، فحدد عقد جلساته في خمس قاعات خاصة ، وفقاً لطبيعة القضايا التي هي قيد النظر . وديوان الاختتام يستحيل محكمة عليا تحمل اسم مجلس الملك ، وهو مجلس قام مثله في مقاطعة فلاندر . والادارة في حكومة بورغونيا تنحوي هي الاخرى ، هذا النحو الذي سارت عليه الدول الكبرى ، بارادة سنية من شارل الجسور . ففي كل مكان نرى تصريف شؤون الدولة يسير على الوتيرة ذاتها ويتلبس الاسماء ذاتها . فموظفو السر لدى ملك فرنسا ، وموظفو ديوان الاختتام الملكي في انكلترا ، هم موظفون يجري انتقاؤهم بكل دقة . وملوك اسبانيا الكاثوليك كانوا يعملون على مثل هؤلاء الموظفين تعويلهم على الوزراء انفسهم .

مر معنا كيف ان موجبات الحرب ومقتضياتها حملت كلاً من شارل السابع وشارل الجسور على انشاء جيش ملكي . ونهج لويس الحادي عشر النهج ذاته معزراً جيشه بفرقة من المدفعية . والجيش الاسباني الذي تم على يده فتح عرناطة ، اقتبس تشكيلاته واستمد تنظيماته من نظام التعبئة في الجيش الفرنسي الى الشمال من جبال البرانس . وفي الوقت ذاته اخذت الدولة تعتمد ، في الملأ الصعبة ، على الوسائل غير العادية ، فذهبت هذه عادة في القوم . وراحت الدولة تستثمر الى اقصى حد ، امكانات الاملاك الاميرية التابعة لها . فقد اعيد ، مثلاً تنظيم املاك التاج ، في انكلترا ، بعد الانتهاء من الحروب الاهلية (حرب الوردتين) . كذلك خضعت املاك

العرش في اسبانيا لاصلاح جذري ارتفع معه الفيه العام من ٨٨٥٠٠٠٠ مرافيديس عام ١٤٧٤ ، الى ١٢٠٧١١٠٠٠ مرافيديس بعد ذلك بثنائي سنوات ، اي في عام ١٤٨٢ . اما في فرنسا حيث كان التاج ينعم باملاك واسعة ، وحيث كان مدراء بيت المال في الولايات والاقتضية ملزمين بان يقدموا ، في كل سنة ، كشفاً لبيت المال ، بالتقديرات المالية العامة ، وآخر بالواردات المحصلة ، مع العلم ان املاك التاج لم تكن لتعطي سنة ١٤٦١ ، مثلاً سوى ١/٣٦ تقريباً من مجموع واردات الدولة . فقد كانت فرنسا اول دولة ملكية أقعدت نظامها الضرائبي على قواعد ثابتة بعد ان اخذت ترعى مواردها المالية بيد قوية . فقد كان ديوان المحاسبة ومجلس ممثلي الشعب يحددان كل سنة ، ميزانية الدولة ، وبلاستناد الى هذا التحديد كان يجري توزيع الضرائب ، وفقاً لآبواب الواردات الاربعة فتوزع على الاقتضية والنواحي والاحياء والمكلفين . اما ضريبة الملح فقد كانت في الوقت ذاته ضريبة غير مباشرة ، وضريبة نسبية يراعى في تحديدها وضع المكلف المالي ، اذ ان سعر البيع تحدده السلطة ، وعلى كل مكلف ان يشتري منه اقله الحد الأدنى . كذلك هنالك رسوم اخرى تفرض على عمليات البيع وشراء البضائع ونقلها وهي رسوم 'عرفت عندهم عادة باسم ' ضرائب *Aides* . ومن هذه كلها كانت تتألف اهم موارد الدولة ، مع العلم ان ضريبة الاعناق كانت تعطي ثلاثة ارباع الموازنة . وكانت هذه الرسوم والضرائب ، على اختلافها ، يجرى في كل من فرنسا واسبانيا ، بطريقة التلزم ، وتخضع لتفتيش دقيق من قبل مراقبين يعينهم الملك . وفي هذا الوقت برزت صلاحيات مجلس الضرائب الذي قام منه هيئة في كل من العاصمة باريس ، وروان ومونبلييه ، كما برزت صلاحيات مجلس الخزينة ، الذي كان يعنى على الاخص ، باملاك الدولة . وكان مدققو الحسابات في ديوان المحاسبة يطلبون من كل الجباة ومديري بيت المال حساباً دقيقاً . وهكذا فان اختلاف طرق تحديد الضرائب والرسوم والجباة ، واذا كان النظام المالي الذي سارت عليه ولاية اللانفدوق يختلف عنه في ولاية بروفانس مثلاً ، وهذه عن ولاية الدوفينييه ، فالكل كانوا يدفعون كما كانت الكل يخضع للتفتيش المالي . وكان الناس ، اينما وجدوا ، يشعرون بقبضة الدولة الشديدة ، ولا سيما في المناطق القريبة من باريس حيث كانت المراقبة المالية في الاقتضية والنواحي تخضع لتفتيش أشد من قبل مأموري العرش .

ويد الدولة هي ايضاً يد العدالة . فمداخلات ممثلي الملك تبرز في كل مكان ، واكثر فاكثراً ، وان لم تؤد الى تغييرات محسوسة . وفي سبيل ايصال العدالة الى المتقاضين ، نرى القضاة يعقدون باستمرار جلساتهم للمحاكمة ، ولكي تبسط الاعمال امامهم ، راحت الدولة توحد من التشريعات المعمول بها والاجراءات الرسمية . فهنري السابع لم يحدد شيئاً في انكلترا ، بل جرب ان ينفذ عن النظم المعمول بها ما تراكم عليها من غبار النسيان . اما في فرنسا ، فالقانون الذي صدر عام ١٤٥٤ ، اي بعد انتهاء حرب المائة سنة ، بعام واحد وهو القانون المعروف بـ *Montilz-lès-Tours* والذي يعتبر بحق ، اول اجراء او اول بناء في التنظيم المعصري للقضاء ، كان في وقت واحد : قانوناً ادارياً وقانوناً للموجبات . وبعد ذلك اخذوا بتحرير ما يعرف بـ : « عادات واعراف بورغونيا ١٤٥٩ » ثم راحوا يحررون الاعراف المعمول بها محلياً ، وتوسيع نطاق الاعراف

التقليدية المتبعة في باريس . وبذلك رسموا ، من بعيد صورة لتوحيد القضاء الذي طالما راود خيال الملك لويس الحادي عشر . وقد انبثق عن مجلس باريس التمثيلي الذي انبثق بدوره عن المجلس الخاص للملك هذه المجالس التمثيلية التي تشكلت من عهد قريب في كل من مدن : تولوز ، وغرينوبل وبوردو ، وديجون ، مع استمرار ديوان محاسبة روان وأكس . كل ذلك أكمل النظام المحكم الذي اقامته الدولة للتسييج حول رعاياها . وسلكت الطريق ذاته اسبانيا ، في عهد ملوكها الكاثوليك وذلك بانشاء محكمة فالادوليد واولتها صلاحيات تملو على صلاحيات القضاء المحليين كما انشأت الدولة محكمة اخرى عليا في المناطق الجنوبية مركزها *Ciudad Real* . وبعد انشاء ديوان التفتيش في البلاد ، بين ١٤٧٨ - ١٤٨٧ أصبح في البلاد شيء من وحدة القضاء ، بحيث اخذت الدولة تعد منذ عام ١٤٨٠ قانوناً موحداً وبأشتر بإصداره تبعاً .

وهكذا استطاعت الدولة فرض سيطرتها وهيبتها على كل طبقات الدولة والبنيان الاجتماعي المجتمع وارغامها على قبولها والرضوخ لها . وهذه السيطرة فرضتها ، قبل كل شيء ، على طبقة النبلاء الاقطاعيين القديمة ، فسمرت خوفها في قلوب الاشراف بعد ان أخنى عليهم الدهر من جراء العوامل الاقتصادية الجديدة التي طلعت على البلاد . فعرب الوردتين ، في انكلترا ، أدت بالنبل الى الخراب والاضمحلال . اما في فرنسا ، فالعدالة نزلت دونما رحمة ودون اي اعتبار ما للمرتبة الاجتماعية ، بدوق دالنسوت ، عام ١٤٥٥ ، وبكونت أرمنياك ، سنة ١٤٦٠ ، وبكونت سان بول ، عام ١٤٧٥ . بين التنازلات التي اضطر لويس الحادي عشر للتسليم بها ، عام ١٤٦٥ ، بعد اتفاقات وضعها وقفاً للاصول المرعية ، لصالح « عصابة المصلحة العامة » وانفراط ما يعرف بالحرب الجنوبية ، بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، سجلت السلطة الملكية تقدماً ظاهراً . اما في اسبانيا ، فقد انصرفت جهود الملوك الكاثوليك فيها بسرعة كلية الى كبح جماح نبله اسبانيا المشاغبين ، وارغتهم على خفض جانبهم وأصواتهم ، وذلك عن طريق اسناد بعض الوظائف في القصر ، الى فريق منهم . وشعوراً منهم بالسلطة الملكية التي كانوا ينعمون برعايتها ، راح الموظفون الملكيون انفسهم يعملون جاهدين ، على اخضاع النبلاء وترويضهم . فقد عرف ممثلو الملك ان يقفوا بنجاح ، بوجه الامراء المشاغبين الذين كانوا احياناً يلوثون بانهم : « امراء بنعمة الله » مدللين بذلك ، على حسبهم ونسبهم ومحتد هم المجيد ، كما عرفوا كيف يدخلون الى قطاعات هؤلاء الامراء ويسيرون فيها حدود الملك والعرش . ونائب الملك العام الذي امر بوضع الحجز على املاك كبير رجال المال والاعمال ، اذذاك ، جاك كور ومصادرتها فيما بعد ، عرف ان يقف عند الاقتضاء ، في وجه دوق ده بوربون ، وفي وجه الملك رينيه ، وهو السيد المطلق في مقاطعة بروفانس . وبعد عهد الملك الفونس الخامس الذي تميز بالاضطراب والقلق ، شعرت طبقة النبلاء في البرتغال ، بوطأة الملك يوحنا الثاني ، اذلقى القبض على دوق براجانس ونفذ فيه حكم الاعدام ، بعد ان احتل جنود الملك قصره وعيشوا به وبمن فيه . وفي اجتماع مثلي الشعب في ايفورا (١٤٨١) شجع سكان المدن ، الملك على اعادة النظر في شرعية الالقب التي يحملها النبلاء ، وانزال جنوده في املاك الامراء .

والاكليروس نفسه بعد ان تم إخضاعه وترويضه ، أصبح أداة بيد الملك في ترسيخ سلطته .. فالملك يوحنا الثاني تدخل بين البابا واحباره . والملوك الكاثوليك ، لم يقتصروا ، في اسبانيا على جعل ديوان التفتيش الجديد ، أداة سياسية بيدهم ، بل استطاعوا حل البابا التسليم لهم بحق تعيين الاساقفة وترشيحهم للرايب الكنيسة . فقد كان سبقهم الى هذا ابن الكنيسة البكر (اي ملك فرنسا) . فمع استمرار اعضاء مجلس باريس التمثيلي (بارلمان) على القول بان المبادئ الفالكانية التي نصت عليها معاهدة بروج ، هي احد الاسس التي يقوم عليها النظام الملكي في فرنسا ، واستمرار الكرسي الرسولي ، من جهة اخرى ، على شجب نصوص هذه المعاهدة والتنكر لها فقد سلم البابا سلتسوس الرابع ، للملك لويس الحادي عشر ، سنة ١٤٧٢ بحق ترشيح بعض رجال الكنيسة ، لبعض المراكز الكنسية العليا . ففي خلال وصاية الملكة حنة ده بوجو ، اثناء انعقاد مجمع سانس ، عام ١٤٨٥ ، اخذ الملك بيده ، قضية القيام باصلاح شامل في كنيسة فرنسا . وفي الوقت ذاته ، تابع مساعيه لتميين سفير للبابا يكون بالقفل بثابة ، نائب للبابا يخضع للسلطة الزمنية . ان رجلاً كالكردينال بالو سولت له النفس ، عام ١٤٨٣ ، ان يكون له من النفوذ في فرنسا ، ما كان للكردينال خيمس سيسنروس ، في اسبانيا .

لم يكن بإمكان السلطة الملكية ان تحقق ما حققت من نجاحات سرية ، لو لم تعرف كيف تفرض هيبتها على المدن ذات الامتيازات والاعفاءات ولو لم تقم عليها وصايتها بمؤازرة الطبقة البورجوازية فيها . فحركة اضمحلال هذه الاستقلالات الادارية التي نعمت به بعض المدن ، لم تبلغ يوماً من الظهور ما بلغته في البلاد الواطية التابعة لبورغونيا . فبعد الحوادث الدامية التي طبعت ، في مدينة لياج ، عهد فيليب الصالح وفيليب الجسور ، قام مكسيميليان عاهل النمسا والوصي على ورثتهم وخليفته فيليب الجليل ، بحطيم بغضف ، عن طريق صلح كاذب (١٤٩٢) الحركات الثورية والفن التي نشبت في مدينتي غانت وبروج ، والاشراف الدقيق على الامور الادارية منها . والملوك الكاثوليك في اسبانيا لم يكونوا أقل غلظة تجاه المدن الاسبانية حتى ما كان منها غيوراً على امتيازاتها ، متحمساً لحرياتهما ، حريصاً على حياتهما ، والحفاظ عليها ، كمدينة برشلونة مثلاً ، اذ راح يمثلو الملك فيها *corregidores* يشددون على مراقبة الامور المالية في البلديات ويجرون عليها تفتيشاً صارماً ، كما كانوا يوجهون لها الارشاد والنصح في تعيين القضاة المحليين . والبورجوازية المحلية ، اذ قدرت راضية مرضية ، الانعامات التي نالتها منها غلامها الثمن ، والجهود التي بذلتها السلطة الملكية في الحفاظ على النظام ، والسهر على الامن في البلاد تركت الامور تجري على اعنتها . فن صفوف هذه البورجوازية ، استمد الملوك اكثر علائهم ولاءً واوفرهم طاعة وامتثالاً . فقد وجد الملك ادوار الرابع خير نصرائه بين ما يعرف عندهم بـ *Merchant Adventurers* . والملك فرديناند الكاثوليكي لم يبخس قط مؤازرة البورجوازية الكتلانية حقها وفضلها عليه . وملك فرنسا ، كان بإمكانه ان يعتمد الاعتماد كله على خدمات رجال المال والاعمال له ، في المنطقة المفضلة لديه : وادي نهر اللوار ، انطلاقاً من جاك كور ،

وغليوم فاري ومروراً بآل تورانجو وانتهاء في اواخر القرن ، بآل توسن وبوهيه ، وآل بون وآل بريسونيه الذين بلغوا الذروة. فمجلس شوري الملك شارل السابع ، عام ١٤٥٥ ، تألف ثلثا اعضائه من رجال الإكليروس ، ومن ممثلي البورجوازية . وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، اي في سنة ١٤٨٤ ، عند التثام اول اجتماع عام لممثلي البلاد في مدينة بلوى ، لعب ممثلو المدن ونوابها الى الاجتماع المذكور ، دوراً بارزاً .

وعلى اساس من هذا الاتفاق العام الذي شد النظم الملكية الى البورجوازية ، قام التوازن بين السلطة وبين المنظمات الاجتماعية التي ظهرت حديثاً .. فقد امكن لانكلترا ، كما يزعم فورسكيو ، احد رجال الفقه والقانون اذ ذاك ، في كتابه الموسوم : « حكومة انكلترا » ، ان الاتحاد بين السلطة والحرية ، تحقق تماماً عن طريق ضم السلطة السياسية الى السلطة الملكية ، هذه السلطة التي راحت ، كما لاح له ان تشيل وتستبد في فرنسا. ان سلطة ملك فرنسا اذ ذاك كانت ولا شك اكثر السلطات سيطرة وسيادة واكثرها فعالية ونفوذاً ، وتمتعت بحرية تصرف اكثر مما تم للسلطة الملكية في انكلترا . ومع هذا كله ، فقد كانت تحتاج للكثير ، لتصبح ، في فرنسا كما في اسبانيا ، مستبدة ، مطلقة . فقد كانت سلطة الملك ، في القارة ، تبرز للعيان بما له من هيبة ووقار ، وباعتراف الجميع لسلطانه وسيادته اكثر مما كانت تبرز عن طريق الاكراه والقسر والضغط . والاصوات التي كانت ترتفع اثناء اجتماع ممثلي الامة في تور منادية بمبادئ شبيهة بتلك التي نادى بها ميرابو عالياً ، فيما بعد ، حول السيادة ، سبقت بقليل الاماديح والتفاريط التي رُفعت الى الملك لويس الثاني عشر جاعلة منه : « ابا الشعب » و « ابا الملكية الفرنسية الكبرى » . ومن جهة اخرى ، فالملك فردينان داراغون الذي احترم التقليد المشروع الذي خلفه يوحنا الثاني ، لم يظهر : لا في مدينة سرغطة ولا في مدينة فالنس او برشلونة ، الملك المطلق الذي يحاول بعضهم احياناً ان يصفوه به . اما في ايطاليا ، « فالطاغية » هو الذي كان الشعب ، على طريقة القدامى ، يعيش ويحييه وينادي به عالياً ، بعد ان يكون عرف كيف يحقق مطالب هذا الشعب ويولي امانيه . فالحكم المطلق الحديث لم تكن الاحداث نقشت بعد ، اسمه على الشفاء ، وكان على « الامير » ان يراوغ ويخاثل ويناور ، قبل ان يأتي مكيا فيلي ويرسم لنا الصورة التي رسمها عنه .

٢ — انعكاس الاوضاع وانقلاب الاحوال

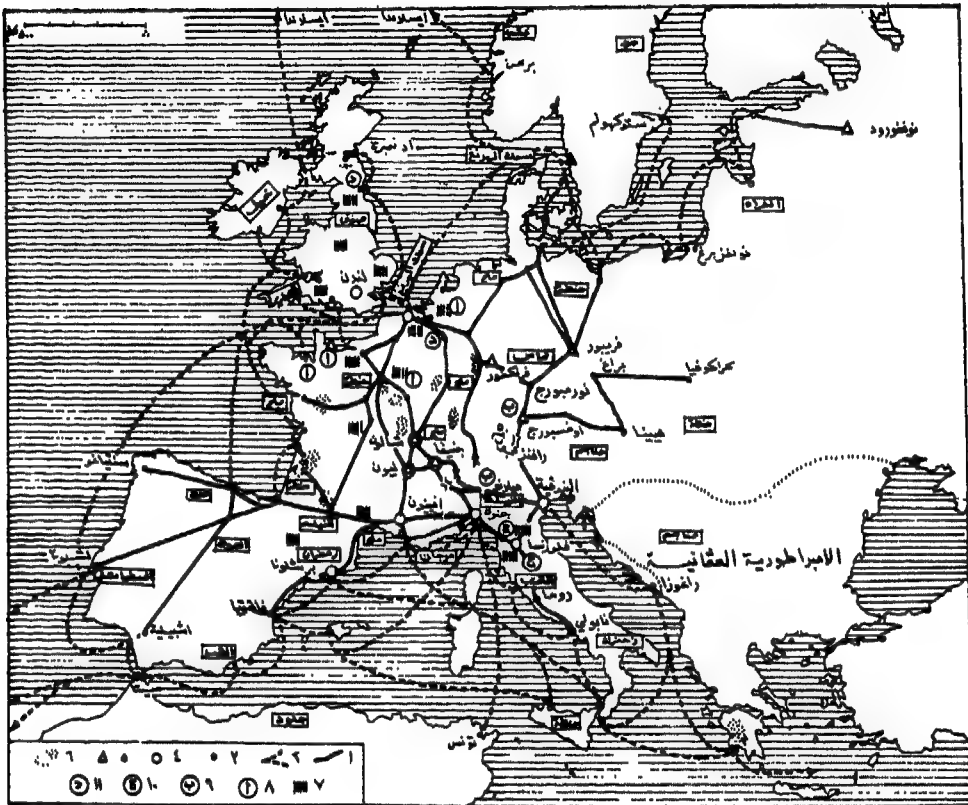
اذ كان من الخطئ بمكان ان نطلق على عهد يفتقر الافتقار كله ، الى المصادر الاحصائية الخاصة ، الالفاظ التي يجري اليوم استعمالها على لسان علماء الاقتصاد الحديثين ، فلا بد من التسليم مع ذلك ، من ان اوروبا دخلت بمجموعها ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عهداً من التطور الديموغرافي والنمو الاقتصادي والتحول الاجتماعي ، يختلف كل الاختلاف ويتميز كلاً عن الركود او الجمود الذي طبع الاجيال الماضية .

وعلى نسبة ما نستطيع ان نتبين الاشياء ، ونبدي فيها رأياً مطلقاً ، نرى عدد السكان آخذاً بالازدياد والنمو باستمرار ، اذ ان نتائج هذا التكاثر لم تصبح ملوثة والتحقق منها ممكناً الا في اواخر القرن المذكور . ويؤكد كلود سايسل في عهد الملك لويس الثاني عشر ان : « منذ نحو ٣٠ سنة تقريباً ، هنالك مقاطعات فرنسية عديدة ، كانت من قبل بوراً وارضها مواتاً اصبحت الآن عامرة ، مزروعة تقوم عليها الدساكر والمنازل ، وان المدن تفتقر للاماكن التي تصلح للبناء ، وان عدد السكان قد ازداد على العموم بفضل السلام الطويل الذي ينعم الجميع بظله . هذا الكلام لعمرى فيه الكثير ولا شك من الزلفى والتدليس ، الا انه لا يخلو من بعض الحقيقة . ان الاتساع الذي بلغه توزيع التراكات عن طريق الارث ، يشير هو الآخر ، الى ازدياد عدد المواليد ، وهذه الموجات الجديدة من النازحين عن مقاطعات بريطانيا وبيكارديا ، ومن ايطاليا تحاول سد الفراغ في كل من مقاطعات نورمانديا والاكيستان وبروفانس ، هذا الفراغ الذي سببته الازمنة الصعبة . فقد كانت فرنسا ، في اواخر ذلك القرن ، تعتبر اكثر دول أوروبا الغربية سكاناً .

وهل من المعقول بشيء ان تستطيع كل من اسبانيا والبرتغال الاستمرار في حركة التوسع والتمدد والانتشار التي استمرت فيها اكثر من قرن ، والتي لم نر لها مثيلاً ولا شبيهاً من قبل ، لو لم ينموا اصلاً بمثل هذا النمو والازدياد الديموغرافي؟ ومهما يكن ، فما هي ايطاليا الشمالية والوسطى تشهد في القرن الخامس عشر ، مثل هذا النمو ، بين سكان الريف الذين نراهم ينتقلون الى القرى الجديدة التي تطلع في ارجائها . والذي نعرفه من اطوار النمو الديموغرافي ، في كل من سويسرا والمقاطعات الالمانية يجعلنا نشعر جيداً بهذا التوسع الديموغرافي فيها ، والتي تميز باقبال ظاهري من المراهقين على الزواج وبتطور محسوس في المدن .

اما الاراضي الواطية ، فالوضع يختلف فيها بعض الشيء : فساكن الريف يزداد عددهم ببطء ان لم يتناقص لصالح مدن الشمال ، كمدينة امستردام مثلاً ، اما في الجنوب فالمدن الصناعية القديمة الواقعة في الداخل كانت تعاني اعراض الشيخوخة ، اذا ما قارناها بهذه المراكز الجديدة امثال هندشوت ، والمراكز المتوسطة امثال كورتريه التي اخذت تتقهقر امام الموانئ الجديدة التي تطلع كمدينة بروك مثلاً وهي ستبرز بعد عام ١٤٨٠ . اما في انكلترا ، فالتطور الديموغرافي بدأ ببطء كلي خلال الاضطرابات التي عمت البلاد ثم اخذت الحركة تنشط وتشتد بعد ان وضعت الحرب (حرب الوردتين) أوزارها ، وانقطع بالتالي دابر الاضطرابات ، ليزداد بسرعة عندما خيم السلام على البلاد . وهكذا نرى ازدياداً مطرداً بين العمال والمستهلكين على السواء . ومع ازدياد عدد السكان ، وازدادت ، كما يؤكد كلود سايس ، مقتنياتهم وامتعتهم كما ازدادوا دخلاً وغنى وثروة . وبين الخصائص التي ميزت الوضع الاقتصادي ، في القرن السادس عشر ، ازدياد الانتاج ، واتساع حركة المقايضات ، وهذه النزعة الجديدة نحو الاقتصاد القومي ، التي يشوبها - وهو شيء من غريب المفارقات - ميل للتوسع في الاسواق الخارجية . فاذا ما عاق عدم كفاء

النقد والقدرة على التسليف ، سير التطور ، فالاقتصاد الذي التزم حتى ذلك التاريخ الحدود الاقليمية والمكانية الخاصة ، اخذ نطاقه بالاتساع والانفراج تدريجياً،والضغط المرح الذي تمثل في هذه الاحداث السياسية العارضة ، اخذ يطبع انشاء الوحدة الاوروبية بعد ان سيطرت عليه وتحكمت به العوامل الاقتصادية .



(الشكل ١٨) الاقتصاد الأوروبي في أواخر القرن الخامس عشر

- ١ الطرق البرية ٢ - الطرق البحرية ٣ - مراكز التجارة ٤ - المراكز المالية ٥ - مراكز الاسواق الموسمية
- ٦ - زراعة الكرم ٧ - صناعة الاجواخ ٨ - صناعة الاقمشة ٩ - صناعة النسيج
- ١٠ - صناعة الحرائر ١١ - مناجم الفحم

فان لم نستطع الاخذ بتأكيدات سايس حرفياً ، عندما يقول ان ثلث مساحة الارض في فرنسا تم احياؤها واخذوا بتشغيلها واستثمارها ، في الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، فلا بد من ان نلاحظ مع ذلك الشوط الذي قطعتة عملية احياء الارض وعزقها ، وتجديد عقود فرق بينها اكثر اراضي الزراعية ، مع زيادة رسوم الايجارات وارتفاع اسعار الارض الزراعية ورجعان

الطلب على العرض والتحسين الذي طرأ على مردود الارض ، وازدياد محصول الضرائب والزيادة في الانتاج يرافها عادة زيادة في جودة الصنع والصنف ، فاستبدلت زراعة الجادور بزراعة القمح في الاراضي الكلسية التربة التي تألفت منها سهول مقاطعة البري ومرد ذلك الى ان كثيراً ما كان اصحاب الاراضي ومالكوها من اغنياء التجار ، فقد همهم جداً ان يحسنوا من وضع اراضيهم ويزيدوا من غلاتها ومدخولها ، فراحوا يشرفون على استثمارها بكل دعاية وعناية . فهؤلاء البورجوازيون في كل من باريس وروان ، وتور وليون وتولوز ، ليسوا بالوحيدين الذي يحسنون الافادة من املاكهم الى الحد الاقصى . ويجري الامر على هذا الشكل ايضاً في سهول لومبارديا واميليا وتوسكانا ، بينما تجار الاصواف يشجعون تربية الاغنام ويفضلونها على زراعة الحبوب . كل هذا يتم دون تسجيل اي تطور محسوس في الاساليب التقنية ، باستثناء وسائل وادوات استثمار الارض لدى اكثرهم تطوراً من السكان في ضاحية باريس ، بفضل ازدهار صناعة الحديد ، وبفضل استعمال الحارث « المتخذة كلها من الحديد » .

والرغبة في البيع والتنفيق في الاسواق ، نشط التقدم التقني مما ادى بالتالي الى تطوير الانتاج الصناعي بشكل ابرع ، كما ان اقبال الناس على الانسجة الناعمة ، السهلة الصنع والقليلة الكلفة ، ضمن النجاح لمعامل انشئت في الاوساط الريفية ، تقع في السهل الفلامنكي ، وكانت عاملاً ادى الى ازدهار مصانع الانسجة والحياكة في المانيا ، وبذلك تهيأ السبيل امام تكديس البضائع وتوفير رؤوس الاموال ، عماد الحركة التجارية الكبرى التي ستنتشط عبر المحيط الاطلسي .

والطريف المدهش ، بعد هذا كله ، هو الازدهار غير المتوقع الذي عرفته صناعة التعدين ، منذ عام ١٤٦٠ ، ولا سيما في اوروبا الوسطى . فقد بلغ التقدم التقني ، درجة العلم بفن واصول ، كما ان اكتشاف احسن السبل وامثل الاساليب الصناعية لحفر الارض وتصريف المياه ، وتأمين وسائل التهوية ، كل ذلك ساعد على استثمار المناجم الغنية في كل من سكسونيا وبوهيميا وهنغاريا والنزول الى عمق ٦٠٠ قدم في بطن الارض . والتمويل اكثر فاكثراً ، على القوى المائية المحركة زاد في طاقة المنتج كما اعطى المطارق قدرات اكبر بحيث امكن نقل معامل صهر الحديد وتحويلها من المناطق الجبلية نحو المنخفضات . ان انشاء مصاهر للحديد بملو عشرة اقدم ضعاف ثلاث مرات القدرة على الطاقة الانتاجية في معامل صهرها . وليس من المستبعد قط ان يكون انتاج المعادن قد بلغ في اوروبا الوسطى ، بين الفترة الواقعة بين ١٤٦٠ - ١٥٣٠ ، خمسة اضعاف ما كان عليه من قبل . واكثر ماسعوا الى توفيره وتأمين المزيد منه ، معدن الفضة الذي كانت الممول الاول عليه لدى الحكومات كما كان عماد الاقتصاد وقوامه اذ ذاك ، وهو معدن حاول جاك كور ، ان يكتشف بعض عروقه في مقاطعة ليون . وكان يخالط معدن الفضة ، الزئبق ، الا انهم كانوا توصلوا في مقاطعة السكس ، حوالي عام ١٤٥٠ الى اكتشاف طريقة لفصل الواحد عن الآخر . واخذت انلكترا تنشط استخراج الفحم الحجري ، من هذه المنطقة الواقعة على مقربة من نيوكاسل وتصدر منه مقادير مهمة الى القارة . واشتد في كل مكان الطلب على

الحديد بعد ان كثرت وجوه استعماله ولا سيما في اعداد اعددة الجيش ومهامه الحربية . فلا عجب من ان تصبح مقاطعة ستيريا في النمسا ومقاطعة كنتبريا ، في اسبانيا من المناطق التي اشتدت فيها ونشطت صناعة التعدين .

والى القطاع الاقتصادي يجب ان يضيف استثمار معادن الشب الغنية في مدينة تولفا الواقعة في ممتلكات الكرسي الرسولي ، فجاء اكتشافها في الوقت المناسب ، عندما فقد الجنويون سيطرتهم على مناجم الشب التي كانوا يستثمرونها ، في آسيا الصغرى ، فوقعت تحت سيطرة الاتراك العثمانيين . وقد حاول الكرسي الرسولي ان يقيم مناصفة مع آل مديشي ، نظام احتكار ، لتجارة الشب المستخرج من ممتلكاته ، في اوروبا كلها . وهذا الحادث بعينه يبرز لنا المحاولة المتزايدة ، يشترك بها كل من الدولة ورأس المال للسيطرة على استثمار هذا المرفق الجديد من مرافق الاقتصاد في اوروبا . ففي كل دولة يحاول الملك اثبات حقوقه الملكية على المناجم فيصدر بشأنها التشريعات التي تؤيد هذه الحقوق ، كما حدث ذلك بالفعل في الامارات الالمانية ، وفي مناجم القصدير ، في انكلترا ، وفي دولة الكرسي الرسولي ، وفي فرنسا حيث نشر لويس الحادي عشر اول مرسوم يتعلق باستثمار المعادن ، عام ١٤٧١ . فان لم ترتسم ، حتى ذاك العهد ، للدولة ، سياسة واضحة في المجال الاقتصادي ، فقد اخذت أقله تشمر بوضوح ، بما يمثله العامل الاقتصادي في البلاد من قوة وما يوفره لها من غني . وخير مثل على ذلك ، امارة فلورنسا الضيقة الرقعة ، في عهد آل مديشي ، وعلى نطاق اكبر ، مملكة انكلترا التي عولت في معاشها ، الى حد بعيد ، على الرسوم التي اخذت تستوفيها دوائر المكس عن هذه المادة . ولويس الحادي عشر الذي تلتد ، ولو من بعيد على نيقولا اورسم بين ١٣٣٠ - ١٣٨٢ (اسقف ليزيو ورئيس كلية نافار ، واحد كبار العلماء في الاجيال الوسطى المتأخرة) . والرائد الذي اخذ عنه بدوره كولبير ، اصدر عدداً من القوانين والتشريعات التي حاول فيها تنظيم صناعة نسيج الاصواف واستثمار المعادن ، فجعل من هذا كله اداة طيبة لبسط سيطرته . ويبدو انه حلول في المبرج الاول ، تحرير المملكة من الروابط الاقتصادية والتجارية التي شدتها الى الخارج ، ولا سيما عندما ادخل صناعة الحرير الى البلاد . وقد كان المبدأ الذي عمل به اذ ذاك ، هو ان غني دولة ما يقاس بنسبة ما لها من نقد . وبعبارة اخرى فاي مجتمع يفتقر للذهب ترى الحكومة نفسها عرضة معه للتأفيس المالي وتحمت وطأة المنظمات المالية .

وسياسة الاصلاح المالي التي دشنها في فرنسا الملك شارل السابع بلغ منها الذروة عندما اصدر الملك لويس الحادي عشر ، عملة ذهبية قوية ، تتمثل بالريال الذهب ذي الشمس المشرقة (١٤٧٥) الذي يمكن مقارنته بالعملة القوية الانكليزية . ففي الوقت الذي حافظت فيه العملات الذهبية في ايطاليا ، على سعرها العالي ، راح الملوك الكاثوليك ، في اسبانيا ، يوجهون دولهم عن طريق سلسلة من التدابير التمهيدية ، لوحدة النقد ، فسكوا عام ١٤٩٧ ، النقد المعروف باسم *Excelente de Cranada* . وبعد حقبة طويلة من التضخم المالي مرت بها اوروبا خلال الازمة الاقتصادية التي عرفتها ، وقبيل

اكتشافها المعادن الثمينة في اميركا صحت الازدهار الاقتصادي بالتخفيف من مسؤولية النقد في التداول ، مما جعل الحاجة اشد الى اعمال التسليف .

وهكذا اخذ رأس المال يغزو الانتاج الزراعي ، عن طريق المضاربات بالحصائل الزراعية التي يمكن الاتجار بها على نطاق واسع ، كالحبوب على اختلافها والقمح ، ومواد الرسم والتلوين والصوف والزعفران . وقد برزت هذه الحركة على اشدّها في الصناعات النسيجية ، ولا سيما في صناعة الحرير والخامات الاولى الضرورية لها كالشرب ، واخيراً في صناعة التعدين . ان كلفة العتاد الميكانيكي ، واهمية الاعداد والتوضيحات اللازمة ، وتخصص اليد العاملة ، واكتساب المهارات ، كل ذلك كان يقتضي له رؤوس اموال جسيمة ، لا يستطيع مواجهتها والمجازفة بتوفيرها وتقديمها سوى كبار الاثرياء من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة او الشركات الكبرى ذات المشاريع الجبارة الجريئة التي قام بها جاك كور ، في فرنسا ، وهذه الشركة الضخمة التي جرى انشاؤها وتنظيمها تحت رعاية فرنسيسكو درابيرو من سكان جنوى ، لتتولى استثمار مناجم الشب في فوجيا وتصريفه ، والحفاظ على مستوى اسعاره ، والمساعي التي قام بها آل مديشي فأدت بالتالي الى تأسيس وكالة تولفا الاستثمارية التي تحكمت بالاسعار وحددت كما تريد مغلّسة وراءها مستثمري مناجم ايشيا التي كانت دون الاولى اهمية بكثير .

ومؤسسة آل مديشي التجارية التي بلغت القدر المعلن ، حوالي عام ١٤٦٠ يمكن اعتبارها مثالا لا نظير له ولا كفاء ، لهذه الرأسمالية المتحركة الطاغية السابقة لاوانها . وقد نوهنا ، فيما مضى الى تنظيمها وتكوينها ، وكيف انها تألفت اصلاً ، من شركات مستقلة ادارياً ، يملك آل مديشي في كل منها ٥١ ٪ من اسهمها . فكانت بذلك سابقة احتذتها وسارت على منوالها الشركة المعروفة بـ *Holding Company* ، اذ كانت تتعاطى اعمال الصرافة ، وصناعة الحرير والاجواخ والاصناف العامة التي لا بد فيها من استثمار الشب . وقامت لها فروع شبيهة بفروع شركتنا الحديثة اليوم ، في كل من ميلانو ، وروما والبندقية وأفنيون وجنوى ، ثم ليون ، واخيراً بروج ولندن . وقد استمر البنادقة يسلكون الطرقات الألبية التي كانت تفضي بهم عبر مرتفعات المانيا ، الى اسواق فرانكفورت ، بينما راح الجنوبيون يستثمرون ويشغلون الكثير من اموالهم في اعمال ومتاجر لهم في لشبونة واشبيلية .

وهذه المضاربات المالية والتجارية الدولية التي اضطلع الايطاليون القيام بها منذ عهد بعيد ، عرفت ان تجتذب اليها عدداً متزايداً من رجال المال والاعمال في البلدان الاخرى . فمن قطر الى قطر ، ومن محيط آخر ارتبطت المصالح الخاصة بالمصالح الوطنية او باواصر الدم والقربى واخذت تقنية الاعمال تفرض طرائقها الفنية وتلشر مناهجها ، وتنشئ لها جماعة خاصة تشبه الى حد بعيد ، الجماعة التي تشكلت على صعيد الفكر والثقافة ، فشدت علماء النهضة بعضاً الى بعض ، اذ كثيراً ما كان هؤلاء واولئك من اسرة واحدة . وبفضل هذا التقدم التقني الذي عرفته السفانة اوهندسة السفن ، والتطور الذي طرأ على شكل السفن وحجمها ، وزيادة حجم الشحن والوسق ، والتغيير

الذي طرأ على صواري السفن وانتشار القلوع الكبيرة ، اخذت السفن تمخر عباب الم ، متقلبة من مرافىء البحر المتوسط الى مرافىء بروج ولندن في شمال الاطلسي ، في رحلات موسمية . وما كادت شمس القرن الخامس عشر تيميل نحو المغرب ، حتى رأينا الانكليز والاسبانيين ، يصبحون سادة البحار . ومنذ ذلك الحين ، اخذت الخطوط البحرية تتسع وتتمدد وترحب ، فراح رجال البحر العاملون في المحيط الاطلسي يحسرون على تجاوز مضائق الدانمارك ومعابر البحر البلطقي ، او يمربون مضيق جبل طارق نحو اسكلة الشرق الادنى ، هازئين بما كان ينتظرهم او يتوقعون من تعديات قرصان الانراك . وهكذا دخل المحيط الاطلسي في سباق مع البحر الابيض المتوسط محاولاً انتزاع الاولوية في التجارة البحرية الدولية ، هذه الاولوية التي لم تعرف بحراً استطاع حتى الآن ان ينازع البحر الابيض المتوسط عليها .

وعلى هذه الطرقات القارية او البرية التي حرصت الدول أشد الحرص على صيانتها والحفاظة عليها ، اخذت تتسابق الآن قوافل لا تنتهي من عربات النقل ، تابعة لجنسيات وقوميات وبلدان مختلفة ، وهي تنافس بسرعتها بريد الملوكة والتجار . فالخبر الطارىء الجديد اصبح له في المجال التجاري كما له في المجال السياسي ، من يتم له ويشعر اكثر فاكثر باهميته ونتائجه وصداه . وعلى هذه الطرقات نفسها ، انتقلت بين مدينة واخرى ، ومن سوق مالية الى اخرى اوراق اعتماد ؛ وسفائح واستحقاقات واسهم مالية تقيم دنيا الاعمال وتقعدها . فاذا بمعاملات التجبير تبرز للوجود قبل عام ١٥١٩ . فالتعامل بالمقود الكتابية والصكوك المكتوبة اخذ يحل محل سيولة النقد بين الناس . كذلك اخذ التأمين البحري يعم المرافىء والموانئ الواقعة على شواطئ البحر المتوسط لينتقل سريعاً الى الغرب ويصل الى مدينة بروج حيث يعمل ممثلون وكلاء للدول المتوسطة بعد ان تبين لهم اهمية مثل هذا التدبير . واخذت ادارة الاعمال التجارية ، تنتظم وتنسقي وتتوحد دور ان تصدم مع ذلك ، بعنف ، العادات الجارية العمل بها من قبل كما اخذت تنتظم الشعور بالتضامن والمسؤولية في هذه المقاطعات والمعاملات التجارية والمصالح المشتركة . وما عثم ان قام في الغرب اقتصاد اوروبي واحد تعالى فوق الروح الاقتصادية القومية وارفع الى ما فوق الحدود السياسية الضيقة ، كما اخذ هذا الغرب ينحس عميقاً طلوع مدينة جديدة .

٣ — بين الرغائب والاماني

في شرحه لسفر التكوين والتعليق عليه ، يضع بيك دو لاميراندول ، في خاتمة بحثه المكثود حول قهر المرء نفسه ، هذه العبارة على لسان الله سبحانه وتعالى يخاطب بها آدم : «أفمكت عند محور الارض لترى بعينيك ما يقع عليها . فانت لست بالهي ولا بأرضي ، كما لست بمأنت ولا بخالد ، بحيث تستطيع ، على شاكلة الله الذي برأك وابدعك ، ان تكون نفسك كما تشاء . باستطاعتك ان

تهوي الى ادنى دركات البهيمية، وان تسمو الى مصاف الالهيين حسباً تفتي في الامر انت بنفسك». وهل ابلغ من هذا الكلام للتعبير عن هذه الحقيقة الخالدة ، وهي ان الانسان هو المعيار الصحيح والمقياس الاساسي للحضارة البشرية ، لانه وجد في مطلبه المثلث الامثل : الجمال والخير والحق ، ما فيه قناعته وسر عطائه .

بهجة العين وحلية العيش : المهندس
وهذه التطورات السيكلولوجية التي يُعبر عنها جزئياً هذا التجديد المادي في مباهج الحياة : السعي الموصول وراء السكن الرفيه ، وتذوق ما فيه قوام الحلية والزينة ، والبنيان الحضاري او التمدين تم كلها عن التمتع بلذة العيش . ففي ايطاليا ، تظهر قبل غيرها من بلاد الناس ، لذة الاستمتاع بالفراغ . فعند القرن الخامس عشر ، عرف اسلاف ليون باقتنا البرقي (١٤٧٢) ان يستمتعوا بمباهج صروحهم المنعمة تحيط بها الرياض التوسكانية ، بينما يروح حفيدهم فيصف لنا في كتابه : « الاسرة » المنزل الافضل والامثل في المدينة . فالقصر الفلورنسي تخلص نهائياً ، من هذه الابراج الشاحنة الكثيفة الظل ، التي كانت تعملو مشمخة ، قصر تريشنتو بعد ان عرف ان يحافظ على مظهره الارستوقراطي والريفي معاً ، ويجعل منه طوداً لا اثر فيه لاي نشاط مهني ، يخفي عن أعين الناس ، وراء جدرانـه العاتية وشعريات الطابق السفلي ، هذا الهدوء الهيم على غرفه الرحبة في الداخل . اما هناك وراء الجبال الشاهقة في فرنسا ، بعد ان هدأ منها الروح ، وفي هذه المدن الثرية من المانيا الجبلية والبلاد الواطية فقد اخذ المنزل العائلي في المدينة ، ينعم بالمزيد من الرفاه ، كما راح الصرح في الريف يتخفف تدريجياً من مناظره الحربية التي طالما سمرت الخوف في سويداء القلوب .

وارتفعت في فلورنسا صروح وقصور آل مديشي وألبرقي ، ورتشلاي وبيتي وستروزي . وفي البندقية قصر *la D'Oru* ، وفي روما ، الى جانب قصر البندقية قصور دوريا وكبرانيكا تنطق عالياً بالجديد المستطرف والمستطرف من المساكن والمنازل البديعة التي اطلت علينا في القرن الخامس عشر . وينطق قصر آل سفورزا ، في ميلانو عالياً باستعلاء القوة العسكرية في المدينة واستبطارها . وتزدان نورمبرج واوغسبورج بهذه المنازل الثرية يملكها جماعة من سراة القوم وتجارهم الاغنياء . اما في مدن : فنت وبروج وبروكسيل ولوفان . وانقرس ، فالمنازل والمساكن ازدادت ترفاً وطرافة بينما امتدت من مدينة ميهون سور يافر حتى مدينة فانز ، سلسلة متصلة الحلقات من هذه القصور الملكية او الاميرية وقد افترت نوافذ جدرانها عن بسمه رضى وارتياح انمكست على هذه الصالات والاياء والقاعات الرحاب تضفي عليها غلالات من الظلال الوارفة ، وقد استحال بعضها شرفات ضاحكة يفيض بشراً وحبوراً ، وتطل على حدائق غناء وقد تحلق في زواياها زمـر تطفو على شفاهم بسمه العيش الرضي ، بينما راح الناس في كل مدن باريس وروان ، وتور وليون وطروى يستبدلون منازلهم الخشبية بأخرى من الحجر المقصوب او القرميد الاحمر ، وقد اكلوا ، في الداخل من قاعات الاستقبال ، حلوها بالكريم من النقوش والزخارف . وهكذا ، اخذ يستبد بالناس طراز جديد من العيش الهادي الرخي ، الناعم .

وهذا الحلم من العيش الرفيه ، لم يراود بعد جبهة الشعب الذي لم يزل مستمسكاً بعاداته الشعبية قانماً بأزقته الضيقة وبساحاته المعزولة. والأخذ بتجميل المدن *Urbanisme* ، سياسة لا تزال بعد في القمط حتى في روما نفسها ، حيث اخذ البابا نيقولا الخامس وسيكتس الرابع يشرفان على مشاريع تجميل المدينة الخالدة ، وضعها رواد في التجديد الهندسي ، استهدفت تجديد الكنائس الكبرى فيها ، وإصلاح الفاتيكان وتوسيعه بإنشاء الكنيسة السكستينية ، وديوان الاختام وقصر الامناء . وقد استلهموا في هذه الترميمات والاصلاحات المبادئ الهندسية الجديدة التي قال بها فيتروف ، وراح ألبرتي في كتابه : « فن البناء » الذي جاء في عشرة اجزاء ، يكشف لنا عن اسرار التاريخ القديم في هذا المجال. وكان لا بد من الانتظار والتريث زهاء نصف قرن ، وتعديل الخطط القديمة ، ليأخذوا ببناء كنيسة القديس بطرس على مثل هذه الضخامة والفخامة التي نراها عليها اليوم . فالنفوس في الاجيال الوسطى ، في تطلعيها الى حياة افضل ، قبعت راضية مرضية بما استقر في خلدتها من صور خيالية لهذه المباني التي تأقت الى تجميعها كما قنعت بهذه المرميمات الصورية التي استبدت بأذهان القوم حتى ذلك العهد . صحيح ان التصميم الجريء الذي وضعه فيليب برونسلي (١٣٧٧-١٤٤٦) ، لبناء قبة كنيسة سنتا ماريا دا فيوري ، التي تم عن تمخض هندسي جديد ، يبشر بطولوع التصاميم الهندسية الفخمة في المستقبل القريب . الا انه كان يترتب على المهندس ، قبل كل شيء آخر ان يحل مشكلة فنية عارضة ، ولم يكن هنالك ما يشير من قريب او بعيد الى ان الحل الذي وقفوا عنده كان من شأنه ان يجر تطورات لم تخطر قط على بال المهندس ، ولا على بال من يأتي بعده . فقد قيل بهذا الصدد ان المهندسين ساروا هنا على ما سار عليه الرسامون الذين عرفوا كيف يحيزون خصائص المدينة المثل .

فبينما كان المهندس برونسلي يحاول صادقاً ان يضيف ، اكثر فأكثر ، فن التصوير الاباطي على حياة الانسان اليومية إطاراً وفقاً لمقاييسه هو ، فقد انجز بعد اقامته قبة فلورنسا ، كنيسة بازلي . وفي الوقت ذاته راح مهندسو الفن الغوطي المطفطف ينزلون فن البناء الى مقاييس أكثر انسانية ، كما عرف المصورون والرسامون ان يمازجوا بنجاح بين الصورة الذهنية والواقع المحيز ويعطوها مقاييس الانسان ذاته . ان مراعاة نسبة الابعاد والمسافات ، والتقييد بالمذهب الطبيعي في الفن ، واكتشاف وسائل تقنية جديدة في التلوين روعي فيها القدرة القصوى على التعبير والافصاح ، كل هذا وما اليه ، هو من هذه الخصائص التي تمجدد ، على احسن وجه ، الانسانية الفنية في الحركة الاحيائية العلمية في ايطاليا .

والرسام فرا المجليكو الذي توفي عام ١٤٥٥ ، بعد ان نقل الى منتصف القرن الخامس عشر التقاليد الرمزية التي تميز النهضة الايطالية ، نراه يهتم ، اكثر فأكثر ، بالواقع المتحيز ، كما يبدو لنا ذلك من صورته المشهورة « ازال جسد السيد المسيح عن الصليب » المحفوظة في متحف القديس مرقس ، في البندقية ، وفي الصورة الاخرى التي وضعها عن حياة القديس اسطفانس

وحياة القديس لورنتيوس الموجودتين ، في الفاتيكان ، اللتين تتميزان بما فيها من حيوية عارمة ، وبطبيعية الوقفة والمنظر . فقد كتب للمدرسة الفلورنسية ان تجدد ، بعد ان تنوسيت الاساليب الفنية التي كان عليها المغوّل في عهد الرسام جيوتو . وقد توصل مازاتشيو ، بعد حياة قصيرة انما خصبة ، وذلك في الصورة التي وضعها : « ضريبة مار بطرس » الى تمييز المحجوم ، وجعل المواقف اكثر طبيعية ، واتقان التعبير عن مظاهر الحياة ، لمهد بذلك السبيل امام قوة الملاحظة وفن توزيع الاحجام والرغبة في جعل موضوع الصورة محور الفن ، بعد درس المبادئ التي يقوم عليها علم المناظر والاصح الرأية ، والحركة ، كل ذلك جعل الممارك التي رسمها لنا باولو أوتشالو (١٣٩٧ - ١٤٧٥) روائع فنية ، تمور بالعلم والفن والحياة . وعندما توفي غيبرتي في السنة نفسها التي قضى فيها فرا المجليكو (١٤٥٥+) كان انجز وانتهى من النقوش التي تزدان بها صورة « باب الفردوس » في جرن العماد ، في فلورنسا كاشفاً لنا عن عجيبة الحياة في الرسم الومسي للفضاء . وبعد ذلك ، تمكن النقاش دونا تلو من الكشف عما اوتي من علم ومعرفة لطبيعة الجسم البشري الذي استطاع لأول مرة في تاريخ الفن ، ان يصوره عارياً في الصورة التي وضعها لداود الملك . وفن التصوير كفن النقش ، اتجه هو الآخر ، نحو رسم الاشخاص . فالنقاش لوقا دلا روبا (١٤٠٠ - ١٤٨٢) قدّم من المرمر ، صورة الاسقف فيدريجي كما رسم صورة اولاده في رسمه المعروف كوتتوريا والفنان فيروكيو الذي جمع بين الرسم والنقش ، جعل في التمثال الذي وضعه للقائد برتو لوميو كولونيه ، متمطياً صهوة جواده ، تبرز على اتمها ، شخصية هذا الزعيم ، كما انه برهن عن علم ومعرفة كاملين لنواميس الحركة ، كما يبدو ذلك في الصورة التي وضعها لجيرالاندانو والمواقف الصحيحة والتعبير الصادق عن القيم الادبية أضفت على الافاريز التي نقشها في كنيسة سنتا ماريا الجديدة كأنها ستائر من اللون الذي يبرز في صورة « الشيخ والولد » الموجودة في متحف اللوفر ، حيث استطاع ان يصور لنا الدمامة مع بساطة القلب . وهكذا نرى كيف ان الفنان اخذ يهتم بالانسان بصفته انساناً .

فاذا كانت مقدرة القصاص التي تمت لبنزو غزّولى سارت باتجاه التكنيك الذي ترسمه فن التزييق ، في الاجيال الوسطى ، فقد استطاعت المدرسة الأومبرية ان تجدد شبابها بعد ان جرى تلقيحها بالعلم والنشاط ودقة التعبير وغير ذلك من الصفات التي ميزت بيرو دلا فرنسيسكا ، استاذ علم المناظر كما كان استاذ الاضواء والظلال بعد ان عرف كيف يتلاعب بها فيكيفها كيفما شاء في صورته : « حلم قسطنطين » وذلك بمقدرة تكاد تداني فن ليونارد دي فنشي في الـ *Sfumato* فبعد ان تم تبسيط فلسفة علم المناظر والابعاد على ضوء الواقع ، اكتسب فن التصوير الايطالي بالفعل في النصف الثاني من عصر الانبعاث القدرة على التلاعب بالالوان . واخذ الفن من ذلك الحين يتلبس صفات الفردية بعد ان رسخت اصول رسم الصور الشخصية ، فقد راحوا يعملون على القماش في التصوير ، وسعوا وراء الاطار المستدير ، والاساليب التقنية لفن الرسم الزيتي مما ساعد على تأثير فعل اللون .

هذا الفن الذي ازدهر فوق شبه الجزيرة الايطالية والذي اخذوا في الخارج ينشدونه ويحتذون
 حذوة استوحى ما في الانسانية من مثل ، نعم برعاية نصراء الادب من الاغنياء . فاذا استطاعت
 الوثنية القديمة ان تجدد منه الرموز ، فقد هدف هو ، الى تمجيد نصيره وراعي حماه او الشخص
 المسك بيده . فالواهب الجواد ، بعد ان تخلى عن الموقف المحتشم الخاشع الذي وقفه ، كما يبدو
 من خلال الرسوم التي خلفتها لنا الاجيال الوسطى ، نراه اليوم يبرز بمجمله الفاخرة ، ويحتل في
 هذه الرسوم محل اولياء الله وقديسيه . فقد صرف بنوز و غزولي همه وفنه في تمجيد آل
 مدبشي ، وراح بنتور تشيو يشيد بآثر شخصية اينيا سلفيو اكثر من شخصية البابا بيوس
 الثاني الذي حمل هذا الاسم قبل ان ارتقى الى السدة الرسولية ، وذلك في رسومه
 الجدرانية الموجودة في مدينة سينتا ، وصورة « المسيح المائت » وهي بريشة مونتانيا تبعث في
 النفس هزة وشعوراً يمتطى الضلوع امام ما نتبينه فيها من تناسب وتناغم بين اعضاء الجسم البشري .
 ومع أنطونلو المسيني ، وصورة جنتيلي بليني وهذه الروائع الغوالي التي هي من ريشته في
 البندقية ، يحتل الانسان فيها محور الفكرة ، والنقطة من الدائرة ، في زهو الالوان وما لها
 من مدلول تعبيري . والى فلورنسا يجب ان نعود بالفكر لنجد اشهر الفنانين لمعت اسمائهم
 وبمعدت شهرتهم في اواخر الاجيال الوسطى . فقد عرف بوتيتشي بما حقق من تناغم الالوان
 وانسجام الخطوط ان يعبر في رسومه عن العزم وتناسق قسبات الشكل في ادق معانيه .
 أوليست صورة بريما فيرا التي رسمها ، رمزاً لهذا الانبعاث الفني الايطالي ؟ وناغمة الفن ليوناردو
 ده فنشي ذو النبوغ الخلاق والمواهب الموسوعية ، تتم للفنان والعالم والمهندس الكبير الذي كانه
 في وقت واحد ، فجمع في شخصيته الفذة : الثقافة الحضارية لعصره ، فكان في تجواله وتنقلاته
 واقامته في فرنسا صورة صحيحة لهذا الاشعاع الايطالي . لقد كانت الصورة عنده ، تعبيراً صادقاً
 عن دواخل النفس البشرية ، ولذا كانت ظلاله وانواره غلالات تفرور بالرمزية .

الفن الفرنسي الفلمنكي
 فاذا ما استطاعت ايطاليا ، بفضل ما لها من مزاج خاص ، ومن تراث
 قديم مهيّب ، ورعاية نصراء العلم فيها للفن والفنانين ، ان تعبر عن
 هذا الجمال الصوري بمثل هذه اللباقة والمقدرة والكفاءة ، وتحمل الى الشعوب المجاورة لها اسرار
 هذا الفن ، فقد عرف هؤلاء بدورهم ان يقابلوا النعمة باختها ، ويميدوا الفضل الى ذويه ، وان
 يُغنّوا المؤلفات التي تفاعلوها ، بما في تقاليدهم القومية الخاصة من فراء فني ، عندما دب في جنباتهم
 ريسيس الرغشة الفنية الايطالية . فقد كانت العلاقات ابدأ على اوثق ما يمكن ان تكون بين
 ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية ، بفضل عطف نصراء العلم وحدهم على الفن ورعايتهم لرجاله
 والعمل على ترسيخ اسبابه ونشرها بين الملأ . صحيح ان الهندسة المعيارية لم تتأثر كثيراً
 قبل القرن السادس عشر في شعائرها الزخرفية ، بنفوذ شبه الجزيرة الايطالية ، بينما كانت ،
 قبلة رجال الرسم والنقش ومثوالم الافضل ومحط رحالهم . فقد عرف جان فوكيه ايطاليا

عن كسب . والفنانون الذين اشتهروا بفن الحفر والنقش ، في وادي اللوار ، والذين ورثوا المدرسة الواقعية عن الاجيال الوسطى ، عرفوا ان يضيفوا ، في اواخر القرن ، مع ميشال كولب ، عنصر الحركة التي كانت استبدت ، منذ عهد بعيد ، بالمدرسة المعروفة بالمدرسة البورغونسية ، هذه المدرسة التي خلفها وراءه كلوس سلوتر (١٤٠٥) . اما الفلمنكيون الذين كانوا على علاقة متصلة مع الايطاليين بعد ان اُلف اغنياؤهم وسرايتهم زيارتهم والاقامة بين ظهرانيتهم ، فقد رأيناهم ينتقلون ويحبون أرجاء شبه الجزيرة الايطالية بكل سهولة ، دون ان يفقدوا شيئاً من شخصيتهم . على يد من يا ترى ، وكيف تم استعمال الزيت في التصوير ؟ نسب بعضهم هذا الفن للاخوة فان أيلك . والذي يبدو لنا ان هؤلاء الاخوة توصلوا للكشف عن اسرار مزج الازرق السمنجوني بزيت النفط المستورد من الشرق . ومها يكن ، فقد اتجهت كل المدارس الفنية الاتجاه ذاته دون ان تتجاوز او تتخالط . وما مثل جوست ده غنت الذي تلتين وقطيع بطباع الايطاليين في خدمة دوق اوربين تحت تأثير بييرو دلا فرنسيسكو وملوزو ده فوري . وكان لا بد من انتظار الجيل التالي وامثال : مملنج وجيرارد دافيد ، وكونتن متزي ، لنرى كيف تغفل الاثر الايطالي في تلك البلاد . ومع ذلك ، فلم المناظر والابعاد ، والواقعية في تصوير الطبيعة ، وفن مزج الألوان وخلطها والمكانة التي احتلها الفرد في التصوير والرسم كل هذه العناصر المتميزة تتوفر على اتمها في رسوم فان أيلك ، بينما التعبير الديني يبدو على واقعيته ، تحت ريشة روجيه ده لا بستور .

طلع هذا الرسام من مقاطعة الهينو ، وهو مواطن لهذا الفريق من الموسيقيين الذي سبق لنا ونوهنا بفضلهم ، والذين استمروا في علمهم الفني في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى المتعددة الانغام الايطالية آخذة بالهبوط بحيث لم نعد نرى سوى موسيقيين هولنديين في كل كنائس اوروبا . كذلك خلقت بنا ان نلاحظ هنا ، بالمقابل ، اي حد بلغت عملية وثنية الموسيقى المتعددة الانغام من الزيادة التي لحقتها على يد الهولنديين ، بعد ان تأثرت بالموسيقى الايطالية . وما نحن نرى تبرز عند جوسكين دو بريه نزعة قوية ، لتأمين التناغم والانسجام بين النوبة والكلمات ، والعواطف والمشاعر ، بحيث تطل علينا الحقيقة ، كما هي ، وكثيرها من الفنون الاخرى ، نرى الموسيقى تستوحي رؤى اكثر حساسية وافر انسانية ، من ذي قبل .

في نظر رجال عصر الاحياء في ايطاليا ، كان الجمال الامثل يتجلى في الاحياء الثقافي الايطالي هذا الانسجام في التعبير عن الحساسية والحقيقة ، فقياس سطو الجمال ليس فقط ما يستطيع الانسان تحسسه ، بل ايضاً ما يستطيع تفهمه . فشعور الانسان وفهمه هما الحدان اللذان يقف عندهما مسلك الانسان . وبهذا المفهوم وجدت تصرفات الانسان السوابق والمبررات التي اعتمدها في التاريخ القديم ، والتي اليها اتجهت الانظار والابصار . فقد راحت منذ الآن فصاعداً تفسح مجالاً اكبر فأكبر ، للمقل والنقد .

فبعد ان تجاوز القرن الخامس عشر بمراحل ، المفهوم الادبي للحركة الاحيائية هذه وتعدى

هواية الفرر الفنية التي ميزت الأجيال السابقة ، اتجه للنقد الذاتي والخارجي للنصوص ، مظهرًا الاهتمام ذاته بتحول نظريات القدامى وتعاليمهم ومحاوالت التعبير عنها تعبيراً جليلاً . فعسى ان يتمكن من اجراء التأليف والتوفيق بين الفكر القديم والفكر المسيحي . ولذا راح نيقولا ده كوس (١٤٠١ - ١٤٦٤) ، اشهر رجال الحركة الاحيائية والنهضة الفكرية في المانيا يلاحظ قائلاً : « اينما تطلعنا وجدنا اذهان الناس وخواطرهم تنصرف اكثر فاكثراً ، لدراسة الفنون الجميلة ، وتتجه بشيء من التوق لا بل من النهم ، نحو التاريخ الكلاسيكي القديم الذي فيه الشعب كل الشعب ، فكأننا على ابواب انقلاب عارم قريب ، .

وقد عرفت ايطاليا ان تحافظ ، في هذا المجال ايضاً على سبق الآخرين والسير منهم في الطليعة ، دون ان تأخذ ، مع ذلك ، جامعاتها المبادرة بهذا الحقل . فاذا ما خرجت جامعة بادوا ده كوس ، واذا ما خضعت جامعة الحكمة (*Sapiens*) في روما ، وهي التي كانت تدرس اليونانية وآدابها منذ عام ١٤٠٦ ، لاصلاح شامل في عهد البابا يوجين الرابع ، عام ١٤٣١ ، عرفت جامعة بولونيا بدورها ، عهداً من الانحطاط لازمها الى ان قام بساريون باصلاح جذري فيها ، عام ١٤٥٠ . وعلى مثل هذا الوضع كانت جامعتا بيزا وفلورنسا . فمواطن هذه النهضة الاحيائية ومشاعلها الكبرى ، كانت بالاحرى في جوار حاة العلم ونصراء الفن ، وفي الندوات الادبية . حري بنا ان نلاحظ هنا ظهور الاكاديمية الرومانية في وقت واحد تقريباً ، اي بين ١٤٦٣ - ١٤٦٤ ، وفيها قام بمبونيوليتو الذي لقب بكبير الاخبار يجي ، بشيء من الفرور والادعاء الفارغ ، المناهج والاساليب الوثنية والاكاديمية الافلاطونية ، التي قامت في دارة كاريجي التي كان يملكها لورنتيوس العظيم ، والذي لم يستخف قط بالاسهام بنشاطاتها ، وتأسيس المكتبة الفاتيكانية على يد البابا نيقولا الخامس وجعلها في متناول العامة ، في عهد البابا سيكستوس الرابع ؛ واخيراً هذه الاتصالات التي تمت بين بعض كبار حملة الثقافة من رجال الكنيسة اليونانية ، بفضل الاتحاد الذي تم في فلورنسا ، والهجرة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية بين ايدي الاتراك العثمانيين ، وكان من جراء ذلك ان اصبح بساريون كردينال الكنيسة الرومانية فأسس في مدينة البندقية المكتبة المرقسية .

ان بعث الأدب القديم من سباته ، وانحطاط التربية السكولستنيكية ساعداً كثيراً على رواج اساليب النقد . فقد كان لورنتيوس فالّا رائداً في هذا المجال بزّ فيه جميع معاصريه امثال فيلافو وبوجيو . فلم يُرضه قط ان يقضى قضاءً مبرماً على الدعوة القائلة بـ « هبة قسطنطين » او وقفيتها التي تقول بان املاك الكرسي الرسولي قامت أصلاً على هبة أقطعها البابا املاكاً اصبحت فيما بعد نواة للمملكة البابوية وهو ادعاء باطل . فقد كان المؤسس الأول لعلم الفيلولوجيا الحديث كما كان الواضع الاول لعلم التفسير الاحيائي او الانساني ، ولعلم النقد التاريخي . فكتابه : الأجرومية ، وكتابه الآخر في الإنشاء العالي بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » اصبح المرشد لفن الإنشاء ودليل الكتابة العالية في عهد ايراسموس . فدرس دراسة شارح مدقق النصوص الاولى المتعلقة

بنشأة المسيحية ، وراح بعد ان هام بعملية التأليف ينتقد مجرّحاً كل المذاهب محاولاً استبدالها بمذهبه الخاص . وهكذا حمل ابناء عصره على اعادة النظر بما كانوا عليه من مواقف معينة . ومذهبه التشكك هذا يتصل اتصالاً وثيقاً بالروح النقدية ، الذي امتاز به اوكهام الا انه فوق اوكهام دقة علمية ، واكثر منه سخرية لاذعة وتهكاً . ومع انه عمل سكرتيراً للإدارة الرومانية فقد عُرف بروحه الماجنة وبدعوته للتحلل الخلقي في كثير من كتبه ومؤلفاته الجريئة ، ودعى للاستمتاع ببهاج الحياة ولذا اذنها واطايبها ، وراح يستعرض في بعضها : « الحياة الرهبانية » ، وفي كتابه الآخر « حول اللذة » امكانية التوصل الى التوفيق بين المسيحية والرواقية .

وعملت الاكاديمية الرومانية في الاتجاه الذي اختطه لها فلا ، حتى ان احدهم هو بمبوتازي اشتط كثيراً وذهب بعيداً عن التقاليد المعمول بها في كتابه الموسوم : « حول خلود النفس » حيث وقع في مقالة العقليين ومذهبهم . وراح بعض المفكرين في فلورنسا المدينية يحاول الوصول الى شيء من التأليف . فها هو مارسل فتشن ، يحاول ، بالرغم من الاحترام العميق الذي كنهه للعقيدة المسيحية ، ان يضع مذهباً خاصاً قوامه الفلسفة اليونانية وتعاليم الحكمة ، ويوحى بديانة طبيعية متحررة من كابوس الخطيئة ، تولي النفس الطمأنينة وتجعل محللاً ضيقاً لعملية الفداء . ثم نرى نابغة العصر وصانجته : بيك ده لا ميراندول ، يندفع بكل ما أوتي من عزم الشباب وزخم المزيمة وثقافة موسوعية باحثاً عن امكانية التوفيق بين المسيحية والمذاهب الدينية الاخرى ، بين يهودية ووثنية ، مما ظهر قبل النصرانية . انها لمغامرات جريئة ، متناقضة ، حملت البابا اينوشنتيوس الثاني على القول : « هذا شاب يتوق لنهاية شريرة . فهو يرغب بان يصير امره يوماً الى الحريق » . فبعد ان بلغ الذروة في حياة داخلية شخصية ، سؤل له الغرور ان باستطاعته ان يشيد عليها ديانة فردية . ولم يلبث ان توارى مبكراً عن المسرح واستسلم لحياة نسكية تقشفية . انها محاولة حرية بكل اعجاب ، هذه التي رمت الى تعجيد الشخصية الانسانية والارتفاع بها الى السمات ، فجاءت تعبيراً صحيحاً عن هذه النزعات الروحية التي اضطربت بها نفوس ذلك العصر ، ادت بتجربته التأليفية هذه الى الفشل الذريع .

علماء عصر الانبيات من
فرنسيين والمان
وفكرة التأليف الديني هذه التي طلع بها رجال القرن الخامس عشر لم يقتصر رواجها على ايطاليا وحدها ، فالحاولات الهادفة لتحقيق الطمأنينة للنفس ، التي قام بها ليوناردو ده فنشى والتي كانت تبتر النتائج التي ستفضي اليها معظم العلوم في المستقبل ، جاءت خاتمة حسنة لعصر جاش ابناءؤه بروح موسوعية ونفوس طمّنة ظمأى للمعرفة . لا بد هنا من التنويه عالياً باسم ليون باتيستنا ألبرتي ، (١٤٧٢) وبهذا النابغة الجبار الذي كان من اكبر رجال هذا العصر عقلاً وثقافة وعلماً ، نقولاده كوس (١٤٠١ — ١٤٦٤) ، والذي بفضل امكن ، الى حد ما ، تحقيق هذه المحاولات الايطالية للتأليف . فقد عاصر البابا بيوس الثاني ، وشدته اليه وشائج من الود الخالص (عاشاً معاً الى عام ١٤٦٤) ، فلم يفته شيء من علوم العصر . لا من العلوم الكتابية ، ولا من تاريخ الاقدمين ، او من تاريخ آباء

الكنيسة الاولين ، ولا من متصوفة الاجيال الوسطى ومذاهبهم ، حتى ولا من محاولة الاتصال بالارواح والدخول في مخاطبتها . وقد زين له علمه المستبحر ان باستطاعته إفراغ جميع العقائد وصباها معاً في بوتقة واحدة في انسجام وتناغم كلي ، وتوحيد الجهود التي بذلت في هذا الامر ، خلال القرن الرابع عشر . فقد رذل القول بان الارض محور الكون ، ونقطة الثقل فيه ، وبنى نظره على التجربة والاختبار ، وعلى معطيات علم الهيئة الحديث ، هذا العلم الذي ينهض به الى الأوج : تلميذه وخدينه ريجيومونتانوس .

ومع ان مواقف العدائية من توما الاكويني معروفة فقد وقف في وجه او كهام وعارض بشدة مذهبه وتعاليمه . ومع ذلك فلم يستطع ان يتفادى الدوار الذي يصيب رأس من ينظر في هذه الماهاري السحيفة ، ولا سيما من يتعرض لمذهبي الأدورية والحلولية . الا انه بنى على العلوم الرياضية نظاماً للكون توفرت له الوحدة وتوصل الى معرفة الله معرفة صوفية ، راسماً بالقياس العلمي الطريق الذي يفضي من اللامتناهي الرياضي الى اللامتناهي المتناهي المتيقن ، قالى اشراق النعمة وتجليها .

وعلى هذه الخطى والصوى سارت حركة الاحياء الالمانية التي تميزت اكثر من غيرها من حركات الانبعاث هذه ، بالطابع العلمي . فقد عرفت المدن الجنوبية في المانيا كمدينة اوغسبورغ ونورمبرغ ان تجتذب اليها رهطاً جليلاً من العلماء ، وذلك بفضل هذا الفريق من رجال الاعمال والتجارة ممن اخذوا بنصرة العلم والادب ، كما كانت الثانية من هذه المدن ، قد اصبحت ، مع ريجيومونتانوس ومارتين بهاييم ، مركزاً علمياً ازدهر فيه علم الهيئة الذي مثله احسن تمثيل بوننجر ، كما ازدهر فيه علم الجغرافيا . ولا بد من التنويه هنا بفضل اللغويين : جان ده تريتنهايم وجان روتشلن ، ورودولف هوسمان احد تلاميذه كوس الذي تأثر ، الى حد بعيد بتعاليم فالانظر نظرياته ، والمدرسة الهولندية ، وبتعاليم واخوة الحياة المشتركة ، الذين تخرج عليهم ايراسموس بين سنة ١٤٧٥ - ١٤٨٥ .

وحركة الاحياء العلمية في فرنسا ، كان لها جذور اعماق واقدم ، طالما رأينا بترارك (١٣٠٧ - ١٣٧٤) يقف في وجه المطالب الفرنسية التي رغبت في نقل مركز العلم الى افينيون بعد ان انتقل اليها ، في عهده ، مركز البابوية . وفي اواسط القرن الخامس عشر تركزت هذه الحركة في كلية الآداب اكثر منها في كلية اللاهوت او في جامعة السوربون القديمة . وقد وجدت هذه الحركة خير من يمثلها ، بين اوساط الجامعيين المتخرجين من كلية نافار وكلية الكردينال لوموان ، بينهم غليوم فيشه ، وروبرت غاكن . وكلما اقتربنا من نهاية القرن ، اشتدت الحركة وتفاقم امرها . والبلاط الملكي الذي وجهه لويس الحادي عشر وجهة امور الفكر والمعرفة ، انشأ له مكاتب على السواء في كل من بلوى وفي فونتنبلو . ورحلات الفرنسيين الى ايطاليا كانت تجري باستمرار ، فقد سافر اليها فيشه ، عام ١٤٧٠ ، والتقى فيها بالكردينال بساربون .

كذلك تواترت رحلات الايطاليين الى فرنسا ، منهم بيروالدو ، عام ١٤٧٥ ، وبالي عام ١٤٩١ ، كما قام بين الفترتين ، اي في عام ١٤٨٥ - ١٤٨٦ ، بيك ده لاميراندول ، برحلة الى باريس ، وراح بعض من قصد منهم الى انكلترا يزرع حب الدراسات الكلاسيكية في جامعات انكلترا القديمة ، وعن طريق هذه الرحلات حقق الفرنسيون بعض الكشوف ، وان لم تكن بالفعل جديدة . فقد كان لبتاراك ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، نفوذ عظيم في فرنسا ، وخيل للبعض انهم سيجدون عنده جواباً لبعض المشكلات التي لم يكن من الممكن ان يجد هو لها حلاً . وبسبب ما وضع له بتاراك في مقدمات الترجمات الفرنسية ، لكتابه الموسوم : « حول الحياة النسكية » التي تمت اولاً عام ١٤٧٨ ، والثانية عام ١٥٠٣ ، فنعته : « بالكاتب النحرير العَلم » في الترجمة الاولى ، و « بالشاعر المفلح اللبق » في الترجمة الثانية ، يمكن ان نستخلص ان النظرة اليه اختلفت جداً في الفترة الواقعة بين تاريخ الترجمتين ، كما انتقل تقدير الناس له من المؤلف الاخلاقي الذي كانه الى الاديب الذي استقر عليه رأيهم . ومها يكن بالفعل تقدير القوم للمسيحي الحقيقي الذي كانه بتاراك ، وللاثر والنفوذ البعدين اللذين امتدا حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فالاذهان والخواطر كانت تبحث عن مطالب اخرى . فالوقوف على الآداب اليونانية والفلسفة الافلاطونية كان آخذاً بالانتشار في الوقت الذي كان فيه لوفيفرديتابل يتلقى تحصيله في كلية لوموان . ولما كانت كتب النصوص المستعملة اذذاك ، والبرامج المعتمدة لا تسمح كثيراً بتقدير المؤلفين الكلاسيكيين التقدير الكافي ، ولا تمكن لهذا الامر أيضاً المؤلفات التي وضعها المؤلفون الايطاليون المحدثون ، فلم تتوفر للدارسين الاصول اللازمة والادوات المطلوبة لدراسة النصوص القديمة ، وفقاً لمتطلبات النقد الصحيح . ولذا فقد كان هم فيشه ان يوفر للجامعيين في باريس وان تؤمن لهم المطابع العدد الكافي من النسخ للكتاب الذي كان سبق لغالافوزعه بعنوان : « منقبات اللغة اللاتينية » . وهكذا بعد ان كانت الحركة الاحيائية في ايطاليا مشجعةً لمثل هذه الحركة في فرنسا ، اذ بها تمد الحركة الادبية الفرنسية بمنهجية جديدة في الفيلولوجيا وفن الانشاء العالي . ومنذ ذلك الحين تابع الفرنسيون سيرهم دون اي مساعدة من الجانب الايطالي ، عملاً بتقاليدهم في القرون الوسطى ، دون ان يسلوا الى متعمهم الادبية ، وذلك في مجالات التفسير الكتابي والدراسات اللاهوتية .

لا يمكن ان تستقيم فينا صورة صحيحة ، دقيقة لهذه الحركة الاحيائية التي الدين والتصوف قامت في كل من ايطاليا وفرنسا والمانيا ما لم نعطف هنا بكلمة عابرة حول ما كان الناس يشعرون به من هواجس ووساوس ، وهموم وقلق في امور الدين . فبعد ان طخوا اجيالامن القلق والاضطراب النفسي يتأكل جوارح النفس راحوا يبحثون عن الدوافع التي سببت بمثل هذه التغيرات الجذرية في جسم العالم ، كما تأق الجميع ورغبوا بشوق شديد لو ان يتم اخيراً هذا الاصلاح الذي طالما لوتخوا به والذي كان يتأجل وقوعه ويسوقون به باستمرار . وسواء اجاء هذا الشوق للاصلاح استجابة فيهم لمطلب الحقيقة التي يبحثون عنها او للخير الذي يطمعون فيه ،

فجعل ما مهم من هذا كله رجوع النظام الى الكنيسة وسيطرته على الافكار والمجتمع .

وهذا البطء المميت الذي استوجبه القضاء على الانفصال الذي طال امده وذلك بفضل مجمع كونستانس عام ١٤١٧ ، وزوال الانفصال الآخر الذي نجم عن مجمع بال ، وذلك باستقالة البابا الدخيل فليكس الخامس ، عام ١٤٤٩ ، لا يختلف كثيراً عن هذه الرغبة الشديدة في اصلاح الكنيسة ، في رأسها وأعضائها وهي رغبة جاشت في صدور الناس في كل مكان . اما البطء فرده كما هو معروف ؛ الى هذا الوهن الذي دب الى سلطة الكنيسة التعليمية ، هذه السلطة التي نازعها اياها وانكرها عليها القائلون بسلطة المجمع المسكوني الذي له وحده في نظرهم الحق بالتشريع وبإدارة الكنيسة ، كما يعود الى مداخلات الدولة ومطالبها الملحة بعد ان مكنت اصولها ورسخت اركانها بحيث اضطرت السلطة الدينية للصناعة والدخول معها في مفاوضات ، والوصول الى اتفاقات عن طريق عهود ومواثيق توصل الى عقدها بين الطرفين ، للبت بأمور الامتيازات والاعفاءات والرسوم التي كانت الكنيسة تتمتع بها وتجبها ، كذلك هذه الظروف السيكلوجية العامة التي ادت اليها الحركة الاحيائية ، وهي ظروف عملت على الحد من كل الجهود المبذولة في هذا السبيل ، حتى ومن المساعي التي قام بها البابوات الذين جندوا انفسهم لهذه الحركة امثال نيقولا الخامس وببوس الثاني وسيكتس الرابع . صحيح ان وجود بابا على شاكلة اسكندر السادس بورجيا على رأس الكنيسة في اواخر القرن الخامس عشر لم يكن من شأنه ان يشجع الاخذ بهذا الاصلاح . وهكذا ، فالرغبة التي جاشت بها النفوس والاحلاف الذي رافق المطالبة بالاخذ بهذا الاصلاح ، هي احدى النزعات العميقة التي استبدت بالنفوس في هذا القرن ، وهي رغبة ليس انها لم تتعارض مع روح الحركة الاحيائية العامة فحسب بل توافقت معها وانسجمت بها الى أقصى حد ، فتعددت وجوه المطالبة بها بتعدد الاتجاهات الدينية في العصور الفاهرة .

فمن قبيل مثل واحد نضربه هنا هو ان الحاجة الى التأليف والتوفيق التي شعر بها نيقولا ده كوس ، اتفقت مع الرغبة في اعادة الوحدة التي ذهب بها النقد المخلخل الذي قام به او كهام . فقد اضاف الى اهتماماته كقاصد رسولي عهد اليه الكرسي الرسولي القيام في كل من المانيا والبلاد الواطية بما قام به من عمل اصلاحي ، في فرنسا ، الكردينال دستونفيل وفي اوروبا الوسطى ، جان دي كابستران (١٣٨٥ - ١٤٦٥) ، وفي ايطاليا علم من اعلام هذه الحركة الشاملة ، هو الكردينال بساريون . والى هذا عندما راح ده كوس والبابا ببوس الثاني ، الذي لا يزال يذكر عنه انه كان عمل بوصفه إينسيا سلفيو ، سكرتيراً للامبراطور ، يعملان معاً على اتحاد الملوك المسيحيين ، وبذلك جمعاً بين الحلم المرسوم الذي تبدى لدانتى ، والوحدة التقليدية التي عرفتها الكنيسة المسيحية ، في الاجيال الوسطى ، الى المثل العليا التي وضعتها الحركة الاحيائية نصب اعينها . واخيراً لما افضى ده كوس وبعده بـ ١٠٠ سنة ، بئك ده لاميراندول ، بشكل آخر بابحاثهم النظرية وتجريداتهم اللاهوتية ، الى ما افضوا اليه من المطالب الصوفية ، فقد عبرا عن الرغائب التي جاشت

بها كثيرون من ابناء عصرهم . والقلق الذي استحوذ على بليك، بعد ان أخذ بمواعظ سافونا رولا
اللاهبة ، شعر به بوتيشلي نفسه .

ففي هذه النزعة الصوفية القوية التي تملكته النفوس ، يجب ان نبحت عن المهرج الاول
والموثر الاكبر والدافع الاقوى للإصلاح الديني في القرن الخامس عشر ، كما انه يجب الانهمل ،
من جهة اخرى ، الجهود التي بذلها الاكليروس العلماني ولا المحاولات التي قامت بها السلطات
المدنية ، في كل من فرنسا ، في عهد شارلمان الثاني ، وفي اسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ،
والمشروع الاصلاحى الذي وضع خطوطه الكبرى المجلس العام لممثلي الشعب ، سنة ١٤٨٤ ،
وجمع سانس عام ١٤٨٥ ، واللجنة الكنسية التي التأمت ، في تور ، عام ١٤٩٨ ، وكلها
خطوات ومساعدات السبيل امام العمل الذي تولى ادارته رسمياً ممثل البابا الكردينال جورج
دامبواز . وقد قامت الرهبانيات باكبر جهد ونصيب في هذا المضمار ، ولا سيما تلك التي تنقطع
منها للتأمل والتجريد ، والرهبانيات المستعطية ، والرهبانيات والاديار البندكتية كدير برسفيد
الواقع ضمن الامبراطورية ، ودير القديسة جوستين ، في ايطاليا ، ودير كلوني برئاسة الاب ده
يوربون ، ودير شيزال - بنوا برئاسة الاب دوماس ، والرهبانيات الحبيس او المنعزلة : كدير
فونتفرولت . كل هذه الرهبانيات والاديار كانت مراكز مثالية للانضباط الرهباني والتقييد
بالفرائض الرهبانية . ونرى مثل هذه الحركة تقوم ايضا في اديار الكرمل التي راح رئيسها العام
الاب جان سوريث النورمندي الاصل ، يؤسس فرعاً نساءياً لهذه الرهبة هو دير الكرمليات ،
وهي اديار اجتذبت اليها النفوس الكبيرة العطشى الى طمأنينة النفس والتأمل . فاذا ما تخلى
الكرسي الرسولي عن مشروعه الرامي لتوحيد مختلف فروع الرهبانيات التي تنتسب للقديس
فرنسيس الاسيزي ، فقد عرف هؤلاء ، مع ذلك ان يؤمنوا بنجاح اكبر وحظ اوفر ، الانسجام
في عملهم الاجتماعي وان يلائموا ، اكثر فاكثراً ، بين المبادئ التي اوصى بها كتاب والتقوى
العصرية ، الذي لاقت تعاليمه نجاحاً كبيراً كما كانت معينا لا ينضب من الخشوع . وفي تلك الحقبة
اسس فرنسيس دي بول رهبة « المينيم » او المنسحقين (١٤٦٠) وقد عادت الرهبة الدومنيكية
بعد طول جهد وجهاد الى ما عرفت به من التمسك بالقانون والتقييد بالفرائض الرهبانية ، لا سيما
في البلاد الواطية الجنوبية ، حيث اسس جان فان ويتنهوف ، عام ١٤٦٤ ، الرهبة الهولندية ،
التي انشأت لها فروعاً في بريطانيا ومقاطعة سافوى .

هذه الارض « المختارة » ، وهو النمت الذي اطلق على البلاد الواطية ، عرفت دوماً ان
تشع وترسل بانوارها بعيداً . فمن تربتها الخيرة طلع ستاندوك ، هذا الرئيس المتشدد في زهده ،
الذي تولى رئاسة كلية مونتايغو ، في باريس ، فكان له فضل عيم في نشر هذه الصوفية التي عمل
على ترويحها والدعوة لها واسماً بين الناس : « اخوة الحياة المشتركة » ، وسعوا لنشرها على
الاخص بين الاوساط العلمية والادبية التي اخذت بحركة الاحياء ، والتي بلغ من شدة مغالطاتها

ما فضح هذا التراخي الذي عم الجميع ، فاثارت تهكم وسخرية مواطنيه : إيراسموس . ان التقاء هذين الاسمين بازاء المفارقات التي ميزت فلورنسا في عهد سافونارولا يثير هذا التنوع وهذا التباين في عصر 'عرف بالروحانيات كما فاض باعمال الفكر . هل نحن امام نوعين من الناس قام الواحد تجاه الآخر ؟ هل يمثل ستاندوك الماضي وايراسموس المستقبل الطالع ؟ وهذا الانسان الحديث هل يختلف الى مثل هذا الحد عن الانسان القديم ؟ ففي هذا القلق الداخلي الذي اعترى الناس في الازمنة الصعبة ، لم يُعَمِّم الاول منها على تواضع النفس وحده وعلى تطلعه نحو المسيح المتألم والعذراء مريم ام الاوجاع والآلام . وباستثناء هؤلاء المتصوفة المخلصين ، فقد بنى لذته على الاسترسال في إنعام النظر في ما انتابه من قلق . وهذه الذاتية المركزية كانت بالفعل صورة من صور هذه الحركة الاحيائية . وهكذا اخذ يتجه نحو الانسانية الاخرى الحققة ، انسانية الانسان الفرد ، هذا البطل الذي خرج منتصراً على الازمة بمجرد ارادته . فسواءً اكان مستبجراً في العلم او عالماً عادياً او زعيم حزب او اميراً او تاجراً ، او متمولاً او لاهوتياً ، فالرجل الحديث يعتقد من الصميم انه عن طريق ابراز شخصيته وتجليها يستطيع الوصول الى ما يرغب فيه . « فالجاهدة تغلب الحظ » هذه العبارة التي جاءت على لسان البرتي فذهبت مثلاً واصبحت منهجاً سارت عليه الاجيال الطالعة التي اخذت تشعر انها تستطيع بعزم صادق ان تحقق كل رغائبها وتفوز بالني . فقد تفتحت امكانات جديدة وتفتحت طاقات جديدة للنشر والفكر والعمل الاجتماعي امام الرسل والعلماء ورجال السياسة والمغامرين ، ورجال المال والاعمال ؛ فآفاق جديدة اُطلت عليهم لا حد لها ولا حصر ، وانفجرت امامهم مجالات رحاب للمغامرات والفتح والكسب .

٤ - انتشار الفكر والمعرفة في العالم

جاء اختراع الطباعة كغيره من هذه الكشوف التقنية التي حلقتها الانسان تنفيساً عن حاجة ملحة للمدنية ، وتحقيقاً لرغائب وآمال طالما تمطت بين ضلوع الانسان ، ونهاية مطاف مكثود جهيد .

فازدى عدد الجامعات ، ونزعة الانسان للكتاب وجمعه وتخزينه وحرصه اختراع الطباعة الشديد على الاحتفاظ به ، ومطلب النقد العلمي عند الانسانيين كل هذا وما اليه زاد كثيراً ، في منتصف القرن الخامس من شدة إقبال الانسان على الكتاب وطلبه له اينما وجد او توفر ، والثابت ان الكتاب المخطوط يكلف غالباً بالنظر لمادته الاولى ، والبطء الذي تتم معه كتابة الكتب او استنساخها على شيء من الزينة والتعليق ، وامتلاكه ترف ولو بعدد ضئيل . ان ثمن بضعة عشرين كتاباً تألفت من مجموعها مكتبة احد اطباء مدينة بافي ، في اواخر القرن الرابع عشر ، كان يسكنني لأود عيش رجل من عامة الشعب . باستطاعة الطلاب

الحصول على ما يحتاجون اليه منها او يرغبون فيه وهم على ما هم عليه من ظروف معاشية وضعية. اما الاغنياء ولا سيما رجال الاعمال منهم ، فجمعهم للكتاب المخطوط كان ، اذ ذاك ضرباً من ضروب الاستثمار والاستغلال ، بينه وبين الحرص على جميع الجواهرات والحلى والصحاف الكريمة اكثر من شبه . فلا عجب لو رأينا كثيراً من المخطوطات تذكر في قوائم البيع والجرد .

وبدا للمعنيين بهذا الامر ، حوالي ١٤٤٠ ، ان يستعملوا في تضعيف الكتب وتكثيرها ، طريقة نقش امهات الحروف على الحجر ، بعد ان كانت ظهرت ، من عهد قريب ، الطباعة الخشبية *Silographie* . فقد تبدى لبعضهم ، منذ اواخر القرن الخامس عشر ، ان ينقشوا حروفاً بارزة في مكعبات من الخشب والحصول منها بعد تحبيرها والكبس عليها ، على عدد من النسخ . وقد جاء هذا الاختراع تقريباً في الوقت الذي اكتشف فيه ورق اللعب ، بعد انقضاء نحو قرن على استعمال ورق النقد الصيني في الغرب .

وهذا الكشف الذي تم في الغرب ، لم تبد قيمته للعين الا في اليوم الذي استطاع معه الانسان ان يزيل بطء العمل وان يتلافى العطل السريع الذي يلحق بادوات الطباعة لسرعة عطبها . وقد جاء التوفيق يوطد النجاح ويقضي على الامرين معاً : اذ توصل الانسان الى اختراع احرف معدنية متداخلة وصحائف نقالة هي الاخرى تتيح طبع الصفحة على الوجهين معاً . فبعد ان استعملوا في بادىء الامر ، حروفاً بارزة ، توصلوا الى حفرها في امهات يصبون عليها مركباً من الرصاص والاند ، وهكذا جاء اختراع الطباعة حلقة في سلسلة تطوير الاختراعات المعدنية .

لا يهمننا كثيراً هنا ، ان نعرف من هو صاحب الفضل الاول في هذا الاختراع العجيب ، بعد ان تضاربت الآراء حول الموضوع وذهب المؤرخون فيه مذاهب شتى . ويكفي ان نعرف هنا ان اسم لوران كوستر من مدينة هارلم يأتي في طليعة من يعزى اليهم هذا الفضل في اختراع الحروف النقالة ، كما يعزونه ايضاً الى يوحنا غوتنبرغ الذي مع مساعده ومعاونه بيير شيفر ، تلقى علومه في مدينة ستراسبورغ ؛ واستطاع ان يطبع في مدينة ماينس ، اول كتاب كامل اخرجته المطابع ، سنة ١٤٥٥ ، كان من اليمن وحسن الطالع ان يكون التوراة ، الصفحة منه بحجم قطع ورقة كاملة *In - folio* وهي التوراة المعروفة بذاة الـ ٤٢ سطراً للصفحة الواحدة ، او التوراة المازرينية وذلك لامتلاك الكردينال مازرين نسخة منها .

وقد جاء انتشار الاختراع التقني الجديد يشبع الى حد بعيد ، حاجات المجتمع ، بحيث انه ما كاد يمضي ١٥ سنة على ظهور اول كتاب مطبوع حتى راح احد سكان روما يصرح عالياً : ان الكتاب الذي كان ثمنه من قبل ١٠٠ دوكة او ١٠٠ ريال ، تستطيع شراؤه اليوم بشترين وبذلك اصبح في مقدور ادنى الناس وضعاً اجتماعياً ومالياً ان يكون له مكتبة . فتمن الكتاب اليوم هو اقل من كلفة تجليده من قبل ٢٠ سنة ، وبالفعل ، فبأقل من ٣٠ سنة ، انتشر فن الطباعة الناشئ حديثاً الى كل ارجاء اوربا . فامتد من ماينس الى ستراسبورغ ، ومنها انتقل فن الطباعة الى مدينة بال في سويسرا ، والى نورمبرغ في المانيا ليلعب ايطاليا ويدخل مدينة سوبياكو عام ١٤٦٤

وروما عام ١٤٧٠ ، ثم فلورنسا والبندقية ، ووقت لباريس مطابعها عام ١٤٧٠ ، ثم راحت مدينة ليون في فرنسا تبرز في الطليعة بنشاطها الطباعي ، ثم جاءت روان وتولوز ، ومعظم المدن الجامعية في فرنسا . وكانت مدينة فالنس وسرغطة اولى المدن الاسبانية التي دخلها فن الطباعة . وتم للندن مطابعها قبل نهاية القرن .

استعمل غوتنبرغ ، اول من استعمل في الطباعة ، الحرف الفوطي الجاري استعماله في المخطوطات اللتورجية . وفي عام ١٤٦١ ، حاول بفيستران يقلد المخطوطات المنمنمة ، باستبدال التراويق ، في عملية طباعية قام بها في بامبرج ، برسوم منقوشة على الخشب . وبهذا التقليد تحرر الكتاب اذ اتخذ في الطباعة حرفاً خاصاً هو الحرف « الروماني » المطبوع الذي عرف بالحرف القديم *Littera Antiqua* الذي ظهر في سوبياكو ، عام ١٤٦٤ ، ثم أضيف الى هذه الطريقة ، عام ١٥٠١ ، في البندقية نوع من الحرف الايطالي *Italique* . وكان العاملون في الطباعة قد توصلوا ، اذ ذاك ، الى افراغ قوالب للايحية اليونانية ، استعملت في مدينة ماينس عام ١٤٦٥ ، واستعملت عام ١٤٧٦ في طبع كتاب يوناني بكامله . واذ كانت فلورنسا مركز الحركة الاحيائية الهلينية ، فقد احتلت ، قبل البندقية وليون ، الاولوية في الطباعة اليونانية . وهكذا صاغت الطباعة ادواتها وعدتها الخاصة وتفننت باستنباطها الاشكال التعبيرية ، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التعبير بالذات تتحرر من القيود المقيدة لها . واقبل الانسانيون *Humanistes* يستعملون الحرف الطباعي المعروف بالحرف الكارلوني *Caroline* للآداب القديمة وهو الحرف الذي تطور فيما بعد الى الحرف « الروماني » المعروف اليوم ، بينما راحت اشكال الحروف الاخرى تتطور الى ما عرف بالحرف الدارج *courantes* ، مؤيدة فردية المرء وحرية .

وقد رحبت الكنيسة ترحيباً حاراً باختراع الطباعة واعتبرته عربوناً للتحرر الفكري . فاسمع ما كتبه بهذا الصدد ، اسقف اوغسبورغ ، اذ يقول ، عام ١٤٨٧ ، « كانت الطباعة نوراً لهذا العصر . فالكنيسة مدينة لها الى اقصى حد ، اذ امدتها بعدد من الكتب تفيض بالعلم الالهي » . وينطق عالياً بهذه المنة السابقة ما نرى من انتشار الكتاب المقدس بعدد كبير من اللغات اما بنصه الكامل المعروف او بالشكل المسمى : *Torاة الفقراء La Bible des Pauvres* وانتشار كتب العبادة او الكتب التقوية العديدة التي عنوا بطبعها ونشرها اكثر مما عنوا بنشر النصوص القديمة ، وذبوع قصص الابطال الفرسان التي بقي اهتمام الناس بها والاقبال عليها على اشده ، ولا سيما نشر كتاب « الاقتداء بالمسيح » ، وكتاب « *Arx Moriendi* » . الا ان مساوىء هذا الفن العديدة لم تلبث ان ظهرت للناس . ومنذ سنة ١٤٨٧ ، اهتم البابا اينوشيتوس الثاني بمراقبة ثمار الطباعة . وفي ١٥٠١ ، قرر البابا اسكندر السادس وجوب اخضاع كل كتاب يتعرض لامور الدين بمراقبته فيعطى اذنًا بطبعه *Imprimatur* ان لم يأت فيه ما يعارض التعاليم الدينية . وقد رأى احد الالمان من رجال هذا العصر في الطباعة « سلاحاً ذا حدين

يسير على قدر واحد في ركاب الحقيقة والكذب ، . وهكذا أطلّ على الناس سلاح حاد طالما استعمله رجال الاصلاح الديني وخصومهم على السواء .

الكتشافات الجغرافية ساعدت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي توفرت اسبابها ، اذ ذاك ، على ترحيب وتوسيع آفاق المعلومات الجغرافية لدى الانسان . فقد شعر العالم الغربي بحاجة ملحة للتوسع والامتداد ، وعرف ان يهيء لهذا الامر ، في الوقت المناسب ، الاسباب ويعد له العدة الكفيلة بتحقيقه بعد ان صقلت منه الاذواق واستهواه الوقوف على مكتونات الكون وعجائب الخلوقات ، وشغف بالدقة العلمية والكشف التجريبي بالمشاهدة المباشرة وتحرك فيه الفضول العلمي وجاش فيه حب المغامرة . وهذه الروح الجديدة التي استأثرت بمشكلات العصر واخذت تحاول الوصول الى حلها ، ليس ما يمثلها خير تمثيل غير الأمير هنري ده بورتغال الذي لقب جزافاً واعتباطاً : بالملاح او البحري ، اذ لم يعرف عنه انه ركب البحر في سبيل الكشف الجغرافي .

وهذه الاسفار البحرية في المحيط الاطلسي التي غامروا بها ، في مطلع القرن الرابع عشر ، باءت كلها بالفشل التام لأنها لم تقترن بالوسائل التي تؤمن لها النجاح . فبعد السفينتين التابعتين للاخوة فيفالدي ، والتي استأجرهما جاكوبو دوربا ، احد رجال الاعمال من سكان جنوى راح بحارون يقومون بمغامرات بحرية محاولين الايفال ، اكثر فأكثر ، باتجاه الغرب ، عبر مضيق جبل طارق ، وذلك بين ١٣١٠ - ١٣٣٠ ، واستطاع احد البحارة الجنوبيين هو : لانزرتو مالوشالو من الوصول الى الجزر الخالدات . وفي سنة ١٣٣١ عادت بعثة جديدة الى لشبونة بعد ان بلغت بعمارتها جزيرة ماديرا والجزر الخالدات . وبعد ذلك بخمس سنوات ، راح جيمي فراير ، يتوغل بجرأ بعد ان غادر مرفأ برشلونة ، بحثاً عن « نهر الذهب » ويحاول الوصول اليه . ثم انقطعت اخبار هذه المغامرات البحرية وخيم السميت على كل نشاط من هذا القبيل ، اذ لا يستطيع المرء ان يأخذ بهذه الاقاويل التي حملت البحارة النورمنديين الى مشارق الفينيخ حوالي عام ١٣٧٠ ؛ كذلك لا يمكن الاخذ ، لضعفها ، بالرواية التي تقول بوصول المغامر التولوزي إيسليغيه ، الى السودان ، في اواخر القرن المذكور . ومع ذلك نعرف معرفة اليقين ان قبل هذا التاريخ ، وصل احد الرواد المغامرين من جنوى الى مدينة سجلماسة الواقعة الى الجنوب من الغرب الأقصى ، عند اطراف الصحراء ، وان الرحالة ابن بطوطة المغربي الاصل قام بين ١٣٥٣ - ١٣٥٤ برحلة استكشاف بلغ فيها بعض مجاهل نهر النيجر ان بقي خبر ذلك مجهولاً تماماً في الغرب . وكانت في نية هؤلاء الرواد ومعظمهم من الجنوبيين ، الوصول الى ذهب السودان . وهكذا برزت الحاجة القوية للمعادن الثمينة التي شعرت بها اوروبا المسيحية ، ورغبة المدن الايطالية الكشف عن اسواق جديدة لها في افريقيا ، بعد ان سدت في وجهها طرق آسيا الوسطى التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر . ومع ان هذه المغامرات لم تستمر ، فقد

ساعدت مع ذلك على تطوير فن رسم الخرائط الجغرافية لا سيما في مركزين عرفنا بهذا الفن هما مدينة جنوى ووركا في جزر البليار. فالخريطة البحرية *Portulan* التي وضعت عام ١٣٥١، احتفظت بها المكتبة اللورنتية. وقد جاء الاطلس « الكتلاني » المعروف باطلس شارل الخامس (١٣٧٥) دليلاً ساطعاً على التقدم والتطور الذي طرأ على العلوم الجغرافية ، والعلوم الكونية بحيث فاقت كثيراً وتجاوزت بعيداً ما عُرف منها في الاجيال السابقة .

و اول رحلة بحرية طلعت علينا اعتباطاً في مطلع القرن الخامس عشر جاءت في اعقاب هذه الاسفار التي لا يزال شيء من خبرها يتردد في الخاطر. ففي سنة ١٤٠٢ قام النورمندي جان ده بتنكور الذي قام بصحبة غاديفر ده لاسال من مقاطعة سانتونج ، يحاول استثمار الجزر الخالدات وهي محاولة غريبة جاءت نذيراً بما سيقوم به ، بعد ذلك بقرنين ، معمرون نورمنديون في اصقاع كندا حيث حملوا اليها النظم والعادات والادوات الزراعية التي كانت قيد الاستعمال في الوطن الام ، وقد انتهت محاولاتهم هذه بالفشل التام : فتخلى بتنكور عن حقوق استثماره للملك قشتالة . وهكذا اصبح من حق ملوك شبه الجزيرة الايبيرية ان ياخذوا تحت رعايتهم الاشراف على هذه الرحلات البحرية الكبيرة عندما امكن توفير اسباب التطور التقني وتفهم أصح لهذه المشكلات المعقدة التي تواجهها الملاحة في المحيط الاطلسي .

فالازدهار الذي نعمت به الموانئ البحرية الواقعة على ساحل المحيط الاطلسي لم يكن قط وليد الصدفة والارتجال . فقد عرفت هذه الموانئ الواناً من النشاطات البحرية طيلة بضعة اجيال كانت بمثابة اعداد نفساني اسكان المرافئ الواقعة على خليج بسكاي وغيبوزكو الواقع بين البرتغال والاندلس هيأهم للقيام والاسهام بهذه الرحلات البحرية البعيدة المدى . وكانت سواحل كنتبريا مجالاً لنشاط عارم تجلى باعمال الصيد والمبادلات التجارية ، التي اخذت تزداد ، اكثر فاكثراً ، مع سكان اوربا الشمالية الغربية . اما اسبانيا التي كانت قليلة السكان نسبياً بينهم عدد من المسلمين ، فلم تتمخض ، قبل القرن السادس عشر ، بآية حاجة لاختزان الحبوب بقصد التموين . اما في البرتغال ، فالوضع كان على عكس ذلك تماماً اذ لم يكن يتوفر للسكان هنالك اي اختيار بين امكانيات عارضة متنوعة ، فوجدوا انفسهم خاضعين لاجتذاب البحر وسحره . وامام حاجة الاهلين للقمح ، راحوا يتلمسون الحصول عليه في المغرب وجزر مديرا ، كما ان حاجة سكان لشبونة للسكر اضطررتهم للعناية بزراعة قصب السكر في مقاطعة الفارف احدى المقاطعات الجنوبية في البرتغال ، كما حاولوا ادخال زراعته ، خلال هذا القرن في بعض ارجيبيالات الاطلسي . ثم ان حراجة الوضع النقدي ارغمت البعض ، ولا سيما الاشراف ، على اقتناء عقارات واملاك لهم في اجواء اخرى ، كما ارغمت فريقاً اخر معظمهم من التجار على تأمين موارد اوفر واوسع من مادة الذهب . ويجب الا ننفل هنا عن ذكر اسباب اخرى اعتادوا الاتيان على ذكرها ، اثرت كثيراً على عقلية سكان لشبونة . ان انتشار البرتغاليين عبر البحار وضربهم في آفاقها البعيدة كان يعوض عليهم ما كانت عليه بلادهم من ضعف المساحة

وأرضهم من خسة الرزق وضنافة العطلة ، اذا ما قيسست بمملكة قشتالة ؛ والفتح عندهم كان معروفاً بفكرة صليبية ، ولذا راودت اذهان هؤلاء القوم دوماً احلام بالفتوحات . فلكي يقوموا بحركة الالتفاف حول الدولة المغربية ، وتأميناً لاتصالهم بمملكة الراهب يؤرخنا الاسطورية اخذوا بتحقيق الرحلة حول افريقيا . وبالإضافة الى هذا كله ، شجع ، ان لم نقل نظم امراء اسرة افيز الممالك ، امثال الامير هنري الملاح واخيه بيير ، الوصي على العرش ، البرتغاليين على القيام بهذه الاسفار . والبرتغال الذي اخذ منذ عام ١٤١٨ بحركة الاكتشافات الجغرافية هو ابدأ مدين لهذين الأخين ، بهذا النشاط العارم الذي تجلى على اتمه منذ عام ١٤٣٢ .

وبدون خطة واضحة سابقة راحوا يهشون ، على شيء من التنظيم ، الاجهزة اللازمة ويتبينون الخطى والصوى التي كان عليهم ان يسيروا عليها . ان احتلال البرتغاليين لمدينة سبينا المقابلة لجبل طارق على الشاطئ الافريقي ، عام ١٤١٥ حلهم على السكنى في مجمل المدن الساحلية الواقعة على ساحل الاوقيانوس الاطلسي . وفي الوقت ذاته اخذوا يترددون على الجزر الخالدات في الحين الذي كان يختلف اليها القشتاليون ، ثم استقروا في بورتوسانتو وفي جزيرة مديرا ، حوالي عام ١٤٢٠ ، واستكشفوا جزر الازور ، عام ١٤٢٧ وتقدموا من بحر سرتغاس ، وتابعوا استكشافهم للساحل الاطلسي فوصلوا الى بوغادور عام ١٤٣٤ ، والى الرأس الاخضر ، عام ١٤٤٤ ، واستقر البرتغاليون في نهاية الامر في جون أرغين ، عام ١٤٤٣ حيث كانت تنتهي مرحلة القوافل التي تصل الى تمبكتو في اربعة او ستة اسابيع .

وقد كان لهذا الحادث وقع كبير كما ظهر بعد ذلك بقليل . فقد كانت مدينة تمبكتو آنذاك مركزاً هاماً للحركة التجارية في افريقية ، اذ كانت سوقاً لمقايضة ملح الصحراء مع العبيد وذهب السودان ، الذي كان يصل منذ عدة اجيال عن طريق القوافل التجارية الى مرافئ الغرب ، ومنها ينتشر في كل مرافئ البحر المتوسط . وقد راح البرتغاليون يحاولون تحويل هذا التيار التجاري نحو بلادهم . والجنويون الذين كانوا يموتون مشاريع البرتغاليين واسفارهم البحرية ، لم يهتموا قط بالاهتمام بالطرق التقليدية للتجارة في افريقية . وهكذا سافر احدهم هو انطونيو مالفانت ، من سبيلاسة ، عام ١٤٤٧ واتجه نحو مقاطعة التوات ، متتبعا مسالك الصحراء ، ولممكن من جمع معلومات وفوائد دقيقة عنها شبيهة بتلك التي جمعها عنها ابن بطوطة ، قبل ذلك بنحو قرن من الزمن ، وهي معلومات تتعلق بالدول الاسلامية القائمة بين بحيرة تشاد وبين المحيط الاطلسي . وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة ، اي في عام ١٤٧٠ ، ادعى احدهم هو بنديتو ذابي الفلورنسي يعمل في خدمة اسرة بورتيناري انه بلغ مدينة تمبكتو بواسطة الطرقات البرية . ومهما يكن ، فقد عرف البرتغاليون ان يفيدوا كثيراً من هذا السبق الذي حققوه . فبعد ان بلغوا مشارف نهر غمبيا وجزر الرأس الاخضر ، حوالي عام ١٤٥٥ ، كما يشهد على ذلك قصة رحالة من البندقية ، اسمه سادا موستو ، عرفوا ان ينالوا بواسطة مرسوم بابوي ، ليس الاراضي الواقعة في عرض البحر من سواحل افريقية التي سبق واعترف بمقهم عليها البابا يوجين الرابع

فحسب ، بل ايضاً الأرائسي التي سيكتشفونها في طريقهم الى الهند . وبعد ذلك بخمس سنوات ، نراهم على شواطئ خليج الفين ، في هذا الموضع بالذات الذي انشأوا لهم فيه ، عام ١٤٨٢ ، وكالة تجارية وحصنهم المعروف بحصن سان جورج ده مينا .

وهذا التوسع الجغرافي لم يستطيعوا تحقيقه إلا بفضل التطورات العلمية والتقدم التقني الذي ساعد على النهوض به وتحقيقه على مثل هذا الوجه ، عوامل فكرية وظروف اقتصادية مؤاتية للغاية . فالأثر الحاسم الذي تركه ، في هذا المجال الأمير هنري لم يكن قط اثر بجائته عالم بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . فالنشاط العلمي البرتغالي الذي كان بالاحرى نشاطاً ذا طابع عملي ، تجريبي ، بقي بعض الشيء معزولاً او غربياً لا يتصل بسبب متين ، بنشاط مدرسة نورمبرج التي اشتهت بالكثير من صفات العلم وامتازت بالنظريات العلمية الدقيقة . فقبل وفاة الأمير هنري بكثير ، كان تم وضع خرائط جغرافية دقيقة على الطريقة المتبعة في مايوركا ، كما كانوا حسناً كثيراً من فعالية دائرة الريح *Rose des Vents* . وكل شيء يدل على انهم استفادوا كثيراً من الاسطرلاب ومن ربع محيط الدائرة ، لتحقيق هذه الاسفار الجغرافية البحرية التي ادت الى اكتشاف جزر مديرا ، كما ان الارصاد الفلكية تمت بدقة اكبر ، اذ ان البرتغاليين ، تبينوا ، بشهادة ساداموستو ، برج صليب الجنوب ، في حزيران ١٤٥٥ ، عند مضب نهر الفمي ، وعند الدرجة ١٣ من خط العرض الشمالي . ولا تقل اهمية عن هذا الحادث ، التطورات التي طرأت على الوسائل العلمية في هذه الرحلات التي تجاوزت رأس بوغادور بحيث استطاعوا بناء سفينة جديدة باسم الكرافيل كانت اكثر مرونة واسرع سيراً ولها قلوب اكبر واكثر فعالية .

وهذه الاختبارات والتجارب الفعلية الجديدة لعبت الدور الاكبر في هذه التطورات المستمرة التي ساعدت ، من رحلة الى اخرى ، على معرفة مهاب الريح والتعرف الى مسالك المحيط الاطلسي . وهكذا لم يلبثوا ان تبينوا ان السفر البحري باتجاه الجنوب كان ايسر بكثير من السير بجزر على مقربة من السواحل الافريقية او بازائها ، اذ كان المسافر يتعرض وهو في طريق عودته ، للرياح المضادة والتيارات المعاكسة . ولذا توجب عليهم الابتعاد عن القارة السوداء حتى جزر الازور لمصادفة ارياح مؤاتية .

واذ ذاك فقط امكن الجمع بين الخبرة القائمة على التجربة والعلم التجريدي او النظري . ففي عام ١٤٥٩ جرت ، على ما يقال ، بين السفير البرتغالي وتوسكانلي مقابلة اثناء مؤتمر مننوا ، تخلله حديث طويل . وكان على هذا الاخير ان يرسل ، عام ١٤٧٥ ، الى كاهن برتغالي رسالة مهمة يتحدث فيها عن طريق يؤدي نحو الغرب ، قد يمكن للمؤرخ ان يحسب لهذا الحديث حساباً في ظهور هذه الفكرة عند كولمبوس وتجليها له بوضوح . فاذا كان الملك الفونس الخامس لزم جانب المتحفظ تجاه هذه الفكرة لعدم توفر المال لديه ، فقد عرف خلفه الملك يوحنا الثاني المشهور ،

كما يؤكد الرحالة جيروم مونزر ، بطلبه للعلم وحرصه على جمعه له ، كما عُرف بمقدرته على البحث وامعان النظر في امور الرصد الجوي ساعات بطوالها فجمع حوله مجلساً من العلماء ودعا اليه مارتين بيهايم الذي حل معه من مدينة نورمبرغ المعلومات العلمية المتوفرة لديها ، ولا سيما الازياج التي وضعها ريجيومونتانوس لسير السفن . وبواسطة عمليات حسابية سهلة الاخذ نسبياً تساعد على تحديد ارتفاع الشمس في السميت عند الظهيرة ، جعلت من الامور المسورة ، التجول في البحار الجنوبية . واذ ذاك فقط ، امكن اجتياز المراحل الحاسمة . وبعد ان تجاوزوا نقطة الخطر عام ١٤٧١ كما يرجحون ، قام هذا الفريق من البحارة : جان ده سنتاريم وبير اسكوبار ودياغوكام يذرعون معاً سواحل القارة الافريقية ، تاركين اينما مروا معالم ظاهرة تشير الى تقدم البرتغاليين التدريجي في هذه الارحاء القصية . وفي سنة ١٤٨٥ حمل كام معه من خط العرض ٢٢ الى الجنوب ، بعض ابناء البلاد الاصليين الذين بعد ان يتم تنصيرهم وتعليمهم امور الديانة المسيحية كانوا سيرسلون مبشرين في بلادهم الاصلية . ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى استطاع برثلمي دياز ، بعد ان عرف كيف يستفيد من المعلومات والفوائد العلمية السابقة ، ان يجتاز رأس « العواصف » مهدداً السبيل امامه نحو الهند . فنذ نحو ٣٠ سنة والفرييون يبحثون عن طريق لهم تفضي بهم الى بلاد الافاويه وبالتالي تمكن من الاستدارة حول القارة الافريقية . وحوالي ١٤٩٠ راح بيير ده كوفلهام يتجه على بركة الرحمن نحو الدروب المؤدية الى الحبشة التي بقيت صورتها دوماً تراود خيال البرتغاليين ، فبرهن لخير ملكهم ومنفعته ان الطريق التي اتبعها دياز انما كانت بالفعل خير هذه الطرق واسلمها وآمنها . فليس من عجب بعد هذا ، ان يصموا في لشبونة الآذان لمروض وخطط يتعمد بتحقيقها بحار جنوي ، لا خبرة شخصية له ، ولا تجربة بحرية او مغامرة له في المحيط الاطلسي ، بالبحث عن طريق غربي لم يعد احد يشعر الآن ، بحاجة اليه بعد ان تم اكتشاف الطريق الشرقي الى الهند . وبعد صدمة الحيبة التي لقيها في البرتغال وجد هذا المغامر ترحيباً حاراً لدى بلاط اشبيلية التي لم تكن مشاريعها وخططها للكشف البحري بلغت بعد التوسع الذي تم للبرتغال . فقد حل معه المعلومات التي جمعها من البحارة البرتغاليين . والذهب الجنوبي الذي كان يلعب دوراً بارزاً في المرافء الاسبانية والذي كان متيقظاً يبحث دوماً عن ظروف مؤاتية للمغامرات البحرية ، تدخل فجأة في الامر وساعد على النجاح الحطة المعروضة . والسفن الثلاث التي اقلعت كاملة العدة والتجهيز ، من مرفأ بالوس في ٣٠ آب ١٤٩٢ بقيادة خريستوف كولمبوس ، كانت خاتمة المطاف في سلسلة هذه المغامرات التي ادت اليها مجموعة من التجارب العملية كانت بالفعل نتيجة هذه اليقظة وهذا التفتح على الكون تخطى جيلاً كاملاً من هذه البشرية المتطلعة الى الانتشار والتوسع كما كان الاطار الذي راح فيه النشاط الاوروبي يندفع بزخم . فمع كولمبوس شمعت المدينة الغربية عن ساعديها لفتح العالم وبسط سيادتها وسيطرتها عليه .

المراجع

ان المراجع التي نشير اليها فيما يلي لا تعطي سوى فكرة موجزة عن الانتاج الادبي الضخم الذي تناول موضوع حضارات القرون الوسطى . وقد اخترناها بالتفضيل بين المؤلفات الموضوعة باللغة الفرنسية (المراجع العربية من اعداد هيئة الترجمة) .

١ - المؤلفات العامة

- J. CALMETTE, **Le monde féodal**, t. IV de la collection «Clio» (Paris, P.U.E. 1951).
- J. CALMETTE, **L'élaboration du monde moderne**, t. V. de la collection «Clio» (Paris, P.U.F., 1949, 3^e éd.).
- Collection « **Peuples et Civilisations, Histoire générale** », fondée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC (Paris, P.U.F.)
- t. V, L. HALPHEN, **Les barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XI^e siècle** (5^e éd., 1948).
 - t. VI, L. HALPHEN, **L'essor de l'Europe, XI^e-XIII^e siècle** (3^e éd., 1948).
 - t. VII, H. PIRENNE, A. RENAUDET, E. PERROY, M. HANDELSMAN et L. HALPHEN, **La fin du Moyen Age** (2 vol. 1931).
- Collection « **Histoire Générale** », fondée par G. GLOTZ, dont l'**Histoire du Moyen Age** en 10 tomes (Paris, P.U.F.) demeure inachevée :
- t. I, F. LOT, CHR. PFISTER et F.L. GANSHOF, **Les destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888** (2 vol., 2^e éd., 1941).
 - t. II, A. FLICHE, **L'Europe Occidentale de 888 à 1125** (1930).
 - t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, **Le monde oriental de 396 à 1081** (1936).
 - t. IV, 1, E. JORDAN, **L'Allemagne et l'Italie aux XII^e et XIII^e siècles** (1939).
 - t. IV, 2, CH. PETIT-DUTAILLIS ET P. GUINARD, **L'Essor des Etats d'Occident : France, Angleterre et Péninsule Ibérique** (1937).
 - t. VI, R. FAWTIER et A. COVILLE, **L'Europe Occidentale de 1270 à 1380** (2 vol. 1940-1941).
 - t. VII, J. CALMETTE et E. DÉPREZ, **L'Europe Occidentale de la fin du XIV^e siècle aux guerres d'Italie** (2 vol. 1937-1939).
 - t. VIII, H. PIRENNE, G. COHEN et H. FOCILLON, **La civilisation occidentale au Moyen Age du XI^e au milieu du XV^e siècle** (1933).
 - t. IX, 1, CH. DIEHL, L. GECONOMOS, R. GUILLAND et R. GROUSSET, **L'Europe Orientale de 1081 à 1453** (1945).
 - t. X, 1, R. GROUSSET, J. AUBOYER et J. BUHOT, **L'Asie Orientale des origines au XV^e siècle : les Empires** (1941).
- Histoire de l'Eglise depuis les origines jusqu'à nos jours**, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay), encore incomplète pour le Moyen Age.

- t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY, L. BRÉHIER et G. DE PLINVAL, **De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand** (1937).
- t. V, L. BRÉHIER et R. ALGRAIN, **Grégoire le Grand, les Etats barbares et la conquête arabe (590-757)** (1937).
- t. VI, E. AMANN, **L'époque carolingienne** (1937).
- t. VII, E. AMANN et A. DUMAS, **L'Eglise au pouvoir des laïques (888-1057)** (1940).
- t. IX, A. FLICHE, **La réforme grégorienne et la conquête chrétienne (1057-1125)** (1940).
- t. IX, A. FLICHE, R. FOREVILLE et J. ROUSSET, **Du premier concile de Latran à l'avènement d'Innocent III** (2 vol., 1944-1945).
- t. X, A. FLICHE, **La chrétienté romaine, 1198-1274** (1950).
- t. XIII, A. FOREST, F. VANSTEBERGEN et M. de GANDILLAC, **Le mouvement doctrinal du XI^e au XIV^e siècle** (1951).
- t. XV, R. AUBENAS et R. RICARD, **L'Eglise et la Renaissance (1449-1517)** (1951).

Histoire des relations internationales, publiée sous la direction de P. RENOUVIN (Paris, Hachette).

- t. I, F. L. GANSHOF, **Le Moyen Age** (1953).
- H. HEATON, **Histoire économique de l'Europe**, trad. franç. t., I. (Paris, Colin, 1951).
- The Cambridge Economic History of Europe**, fondée par J. CLAPHAM et E. POWER (Cambridge, University Press).
- t. I, **The Agrarian Life of the Middle Ages** (2^e éd., 1953).
 - t. II, **Trade and Industry in the Middle Ages** (1952).

٢ - الغرب

- L. GENICOT, **Les lignes de faite du Moyen Age** (Tournai et Paris, Casterman, 1951).
- F. VAN DER MEER, **Atlas de la civilisation occidentale** (Bruxelles et Amsterdam, Elsevier, 1952).
- P. ZUNTHOR, **Histoire littéraire de la France médiévale, VI^e - XIV^e siècles** (Paris, P.U.F. 1954).
- J. CHAILLEY, **Histoire musicale du Moyen Age** (Paris, P.U.F., 1950).
- R. GRAND et R. DELATOUCHE, **L'Agriculture au Moyen Age de la fin de l'Empire romain au XVI^e siècle** (Paris, E. de Boccard, 1950).
- L. HALPHEN et R. DOUCET, **Histoire de la société française**, t. I (Paris, Nathan, 1953).
- CHR. DAWSON, **Les origines de l'Europe et de la civilisation européenne**, trad. franç. (Paris, Rieder, 1934).
- F. LOT, **La fin du monde antique et le début du Moyen-Age** (Paris, A. Michel, 1949).
- H. PIRENNE, **Mahomet et Charlemagne** (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouv. Soc. d'Editions, 1937).
- R. LATOUCHE, **Les grandes invasions et la crise de l'Occident au V^e siècle** (Paris, Aubier, 1947).
- P. COURCELLE, **Histoire littéraire des grandes invasions** (Paris, Hachette, 1948).
- E. SALIN, **La civilisation mérovingienne**, t. I et II seuls parus (Paris, Picard, 1950-1952).
- CHR. COURTOIS, **Les Vandales et l'Afrique** (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1955).
- F. M. STENTON, **Anglo-Saxon England** (Oxford, Clarendon Press, 1943).
- J. DHONDT, **Etude sur la naissance des principautés territoriales en France (IV^e -**

- X^e siècle (Bruges, de Tempel, 1948).
- J. HUBERT, *L'art préroman en France du V^e au X^e siècle* (Paris, Editions d'art et d'histoire, 2^e éd., 1939).
- R. LANTIER et J. HUBERT, *Les origines de l'art français des temps préhistoriques à l'époque carolingienne* (Paris, G. Le Prat, 1947).
- M. BLOCH, *Les caractères originaux de l'histoire rurale française* (Paris, Colin, 2^e éd., 1952).
- M. BLOCH, *La société féodale* (Paris, A. Michel, 2 vol., 1939-1940).
- F.L. GANSHOF, *Qu'est-ce que la féodalité ?* (Bruxelles, Office de Publicité, et Neuchâtel, La Baconnière, 2^e éd., 1947).
- L. VERRIEST, *Institution médiévales*, t. I seul paru (Mons et Frameries, Union des Imprimeries, 1947).
- D. M. STENTON, *English Society in the Early Middle Ages, 1066-1307* (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).
- A. DÉLÉAGE, *La vie rurale en Bourgogne jusqu'au début du XI^e siècle* (Mâcon, Protat, 2 vol., 1941).
- CH.-E. PERRIN, *Recherches sur la seigneurie rurale en Lorraine d'après les plus anciens censiers, IX^e - XII^e siècles* (Paris, Les Belles-Lettres, 1935).
- G. DUBY, *La société aux XI^e et XII^e siècles dans la région mâconnaise* (Paris, Colin, 1953).
- R. DOEHAERD, *L'expansion économique rurales en Bavière depuis la fin de l'époque carolingienne jusqu'au milieu du XIII^e siècle* (Paris, Les Belles-Lettres, 1949).
- H. PIRENNE, *Les villes et les institutions urbaines* (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouvelle Société d'Éditions, 2 vol., 1939).
- F. L. GANSHOF, *Étude sur le développement des villes entre Loire et Rhin au Moyen Âge* (Paris, P.U.F., et Bruxelles, Librairie encyclopédique, 1943).
- R. DOECHAERD, *L'expansion économique belge au Moyen Âge* (Bruxelles, Renaissance du Livre, 1946).
- Y. RENOARD, *Les hommes d'affaires italiens au Moyen Âge* (Paris, Colin, 1949).
- Y. LESTOCQUOY, *Les villes de Flandre et d'Italie sous le gouvernement des patri-ciens (XI^e - XV^e siècles)* (Paris, P.U.F., 1952).
- Recueils de la Société JEAN BODIN (Bruxelles, Librairie encyclopédique).
- t. II, *Le servage* (1937).
 - t. III *La tenure* (1938).
 - t. IV, *Le domaine* (1949).
 - t. V, *La foire* (1953).
 - t. VI, 1, *Les Villes* (1954)
- CH. PETIT-DUTAILLIS, *La monarchie féodale en France et en Angleterre, X^e - XIII^e siècles* (Paris, A. Michel, 1933).
- CH. PETIT-DUTAILLIS, *Les communes françaises, caractère et évolution des origines au XVIII^e siècle* (Paris, A. Michel, 1947).
- R. FOLZ, *L'idée d'Empire en Occident du V^e au XIV^e siècle* (Paris, Aubier, 1953).
- J. E. A. JOLLIFFE, *Angevin Kingship* (Londres, A. et Ch. Black, 1955).
- R. FAWTIER, *Les Capétiens et la France, leur rôle dans sa construction* (Paris, P.U.F., 1942).
- F. OLIVIER-MARTIN, *Précis d'histoire du droit français* (Paris, Dalloz, 4^e éd., 1945).
- A. FLICHE, *La querelle des investitures* (Paris, Aubier, 1946).
- E. GILSON, *La philosophie du Moyen Âge* (Paris, Payot, 1945).
- G. PARÉ, A. BRUNET et P. TREMBLAY, *La Renaissance du XII^e siècle. Les écoles et l'enseignement*. (Paris, Vrin, 1933).
- J. DUPONT et C. GNUDI, *La peinture gotyenne* (Paris, P.U.E., 1950).
- G. DE LAGARDE, *La naissance de l'esprit laïque au déclin du Moyen Âge* (Saint-Paul — Trois — Châteaux, Éditions Béatrice, et Paris, E. Droz, 6 vol., 1933-1946).

- R. REY, *L'Art roman et ses origines. Archéologie préromane et romane* (Toulouse, Privat, et Paris, Didier, 1945).
- É. MALE, *L'art religieux du XII^e siècle en France. Etude sur l'origine de l'iconographie du Moyen Age* (Paris, Colin, 5^e éd., 1947).
- É. MALE, *L'art religieux du XIII^e siècle en France. Etude sur l'iconographie du Moyen Age et ses sources d'inspiration* (Paris, Colin, 3^e éd., 1910).
- E. BERTHAT (E. LAMBERT), *Le style gothique* (Paris, Larousse, 1943).
- P. DESCHAMPS et M. THIBOUT, *La peinture murale en France. Le haut Moyen Age et l'époque romane* (Paris, Plon, 1951).
- M. AUBERT, *La sculpture française au Moyen Age* (Paris, Flammarion, 1946).
- L. RÉAU, *L'art religieux du Moyen Age. La sculpture* (Paris, Nathan, 1946).
- J. DUPONT et C. ANNDI, *La peinture gothique* (Paris, Skira, 1954).
- T. S. R. BOASE, *English Art, 1100-1216* (Oxford, Clarendon Press, 1953).
- E. PERROY, *La guerre de Cent ans* (Paris, Gallinard, 1945).
- A. R. MYERS, *England in the Late Middle Ages* (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).
- H. PIRENNE, *Histoire de Belgique* (Bruxelles, Lamertin), les t. I (5^e éd., 1932) et II (3^e éd., 1932).
- P. BONENFANT, *Philippe le Bon* (Bruxelles, Renaissance du Livre, 2^e éd., 1955).
- J. BARTIER, *Charles le Téméraire* (Bruxelles, Dessart, 1944).
- P. CHAMPION, LOUIS XI, t. II, *Le roi* (Paris, E. Champion, 2 vol., 1927).
- H. HEJMPPEL, *Deutschland in spateren Mittelalter* (Potsdam, 1940).
- L. MUSSET, *Les peuples scandinaves au Moyen Age* (Paris, P.U.E., 1951).
- F. SOLDEVILLA, *Historia de Espana*, t. I et II (Barcelone, Ed. Ariel, 1953).
- H. DA GAMA - BARROS, *Historia de administração publica em Pôrtugal* (Lisbonne, Sâ da Costa, 2^e éd., 1945).
- N. VALERI, *L'Italia nell'età dei principati dal 1343 al 1516* (Vérone, Mondadori, 1949).
- E. G. LEONARD, *Les Angevins de Naples* (Paris, P.U.F., 1954).
- G. MOLLAT, *Les papes d'Avignon* (Paris, Letouzey, 9^e éd., 1949).
- V. MARTIN, *Les origines du gallicanisme* (Paris, Bloud et Gay, 2 vol. 1939).
- N. VALOIS, *La France et le grand schisme d'Occident* (Paris, A. Picard, 4 vol., 1896-1902).
- E. PERROY, *L'Angleterre et le grand schisme d'Occident* (Paris, J. Monnier, 1933).
- K. B. Mc FARLANE, *John Wicliffe and the beginnings of English Nonconformity* (Londres, English Universities Press, 1952).
- N. VALOIS, *La crise religieuse du XV^e siècle. Le Pape et le concile, 1418-1450* (Paris, A. Picard, 2 vol., 1909).
- P. IMBART DE LA TOUR, *Les origines de la Réforme* (Paris, Librairies d'Argences), les t. I et II (2^e éd., 1946-1948).
- A. RENAUDET, *Préforme et humanisme à Paris pendant les premières guerres d'Italie, 1494-1507* (Paris, Libr. d'Argences, 2^e éd., 1953).
- J. HUIZINGA, *Le déclin du Moyen Age*, trad. franç. (Paris, Payot, 2^e éd. 1948).
- M. DEFOURNEAUX, *La vie quotidienne en France au temps de Jeanne d'Arc* (Paris, Hachette, 1953).
- A. TENNENTI, *La vie et la mort à travers l'art du XV^e siècle* (Paris, Colin, 1952).
- R. DION, *Les frontières de la France* (Paris, Hachette, 1947).
- J. LEJEUNE, *Liège et son pays. Naissance d'une patrie* (Liège, Faculté de Philosophie et Lettres, 1948).
- C. CIPOLLA, J. DHONDT, M. M. POSTAN et PH. WOLF, *Démographie, Moyen*

- Age, dans IX^e Congrès international des Sciences historiques. Rapports (Paris, Colin, 1950).
- J. C. RUSSELL, *British Medieval Population* (Albuquerque, University of New Mexico Press, 1948).
- R. BOUTRUCHE, *La crise d'une société. Seigneurs et paysans du Bordelais à la fin de la guerre de Cent ans* (Paris, Les Belles Lettres, 1947).
- E. POWER, *The Wool-Trade in English Medieval History* (Oxford, University Press, 1941).
- E. CARUS-WILSON, *Medieval Merchant Venturers* (Londres, Methuen, 1955).
- J. SCHNEIDER, *La ville de Metz aux XIII^e et XIV^e siècles* (Nancy, Impr. Georges Thomas, 1950).
- H. VAN WERVEKE, *Bruges et Anvers, huit siècles de commerce flamand* (Bruxelles, Librairie encyclopédique 1944).
- M. MOLLAT, *Le commerce maritime normand à la fin du Moyen Âge* (Paris, Plon, 1952).
- PH. WOLF, *Commerces et marchand de Toulouse, vers 1350 — vers 1450* (Paris, Plon, 1954).
- E. BARATIER et F. REYNAUD, t. II de « *Histoire du commerce de Marseille* », de 1291 à 1480 (Paris, Plon, 1951).
- S. L. THRUPP, *The Merchant Class of Medieval London, 1300-1500* (Chicago, University Press, 1948).
- R. PAGEL, *Die Hanse* (Oldenburg, 1942).
- CH. DIEHL, *Une république patricienne, Venise* (Paris, Flammarion, 4^e éd. 1938).
- A. SAPORI, *Le marchand italien au Moyen Âge, conférences et bibliographie* (Paris, Colin, 1952).
- Y. RENOUARD, *Les relations des papes d'Avignon et les compagnies commerciales et bancaires de 1316 à 1378* (Paris, E. de Boccard, 1941).
- R. DE ROOVER, *Money Banking and Credit in Medieval Bruges. Italian Merchant-Bankers, Lombards and Money-Changers, a study in the Origins of Banking* (Cambridge, Mass., The Medieval Academy of America, 1948).
- R. DE ROOVER, *The Medici Bank, its organisation, management, operations and decline* (New-York, Business History-Series, 1948).
- R. DE ROOVER, *L'évolution de la lettre de change, XIV^e - XVIII^e siècles* (Paris Colin, 1953).
- S. d'IRSAY, *Histoire des Universités françaises et étrangères, t. I, Moyen Âge et Renaissance* (Paris, A. Picard, 1933).
- L. FEBVRE et collaborateurs, *Leonard de Vinci et l'expérience scientifique au XVI^e siècle* (Paris, P.U.F., 1953).
- Commandant LEFEBVRE DES NOETTES, *De la marine antique à la marine moderne. La révolution du gouvernail* (Paris, Masson, 1935).
- J. SOTTAS, *Les messageries maritimes à Venise aux XIV^e et XV^e siècles* (Paris, Société d'Éditions géographiques, 1938).
- F. LOT, *L'art militaire et les armées au Moyen Âge* (Paris, Payot, 2 vol., 1946).
- P. PIÉRI, *Il Rinascimento et la crisi militare italiana* (Turin, Einaudi, 1952).
- J. ALAZARD, *L'art italien, t. II, le Quattrocento* (Paris, Laurens, 1951).
- F. ANTAL, *Florentine Painting and its social Background. The Bourgeois Republic before Cosimo de Medici's advent to power, XIV and early XV centuries* (Londres, Kegan Paul, 1948).
- G. PAPARELLI, *Enea Silvio Piccolomini (Pio II)* (Bari, Laterza, 1950).
- PH. MONNIER, *Le Quattrocento, essai sur l'histoire littéraire du XV^e siècle italien* (Paris, Perrin, 2 vol., 1901).

- E. GARIN, *Il Rinascimento, Significato e limiti* (Florence, 1953).
 A. CHASTEL, *L'art florentin et l'humanisme platonicien* (Paris, E. Droz, 1954).
 A. RENAUDET, *Laurent le Magnifique*, dans *Hommes d'Etat*, t. II (Paris, Desclée de Brouwer, 1936).
 P. FIERENS, *Histoire de la peinture flamande* (Paris, Van Oest, 3 vol., 1927-1930).
 O. CARTELLIER, *La cour des ducs de Bourgogne*, trad. franç. (Paris, Payot, 1946).
 C. R. BEAZLEY, *The Dawn of Modern Geography. A History of Exploration and Geographical Science* (New York, Murray, 2^e éd., 3 vol., 1949).
 L.R. NOUGIER, J. BEAUJEU et M. MOLLAT, *Histoire universelle des explorations*, t. I, *De la préhistoire à la fin du Moyen Age* (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1955).
 CH. DE LA RONCIERE, *La découverte de l'Afrique au Moyen Age. Cartographes et explorateurs* (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol. 1925-1927).

٣ - الشرق الادنى

- Histoire Générale des religions**, publiée sous la direction de M. GORCE et R. MORTIER (Paris, Quillet, 5 vol., 1944-1951).
Histoire générale des arts (Paris, Quillet, 2 vol., 1950).
 A. R. LEWIS, *Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100* (Oxford, University Press, 1951).
 R. GHIRSHMAN, *L'Iran des origines à l'Islam* (Paris, Payot, 1951).
 A. CHRISTENSEN, *L'Iran sous les Sassanides* (Paris, Geuthner, 2^e éd., 1944).
 E. STEIN, *Histoire du Bas-Empire*, t. II, *De la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien*, trad. franç. (Paris, et Bruxelles, Desclée de Brouwer, 1940).
 L. BRÉHIER, *Le monde byzantin* (Paris, A. Michel, 3 vol., 1947-1950).
 G. OSTROGORSKY, *Geschichte des byzantinischen Staates* (Munich, Beck, 2^e éd. 1952).
 A. A. VASILIEV, *Histoire de l'Empire byzantin*, trad. franç. (Paris, A. Picard, 2 vol., 1932).
 G. BRATIANU, *Etudes byzantines d'histoire économique et sociale* (Paris, Geuthner, 1938).
 G. OSTROGORSKY, *Pour l'histoire de la féodalité byzantine*, trad. franç. (Bruxelles, Institut de Philologie et d'histoire orientales et slaves, 1954).
 G. ROUILLARD, *La vie rurale dans l'Empire byzantin* (Paris, A. Maisounenne, 1953).
 S. RUNCIMAN, *La civilisation byzantine, 330-1453*, trad. franç. (Paris Payot, 1934).
 S. RUNCIMAN, *Le manichéisme médiéval*, trad. franç. (Paris, Payot, 1949).
 CH. DIEHL, *Manuel d'art byzantin* (Paris, A. Picard, 2^e éd., 1925). **L'Histoire de l'art byzantin**, publiée sous la direction de CH. DIEHL :
 — t. I, CH. DIEHL, *La peinture byzantine* (Paris, Edition d'art et d'histoire, 1933).
 — t. II, CH. EBERSOLT, *Monuments d'architecture byzantine* (1943).
 — t. III, L. BRÉHIER, *La sculpture et les arts mineurs byzantins* (1936).
 P. LEMERLE, *Le style byzantin* (Paris, Larousse, 1943).
 A. GRABAR, *La peinture byzantine. Etude historique et critique* (Genève Skira, 1953).
 A. BON, *Le Péloponèse byzantins jusqu'en 1204* (Paris, P.U.F., 1951).
 O. TAFRALI, *Thessalonique au XIV^e siècle* (Paris, Geuthner, 1913).
 R. GROUSSET, *Histoire de l'Arménie jusqu'en 1071* (Paris, Payot, 1947).
 H. PASDERMADJIAN, *Histoire de l'Arménie depuis les origines jusqu'au traité de Lausanne* (Paris, H. Samuelian, 1949).

- S. DER NERCESSIAN, *Armenia and the Byzantine Empire, A brief study of Armenian art and civilisation* (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1947).
- J. BALTRUSAITIS, *Etudes sur l'art médiéval en Géorgie et en Arménie* (Paris, E. Leroux, 1929).
- A. MANVALISHVILI, *Histoire de Géorgie* (Paris, Toison d'Or, 1951).
- J. LASSUS, *Sanctuaires chrétiens de Syrie. Essai sur la genèse, la forme et l'usage liturgique des édifices du culte chrétien en Syrie du III^e siècle à la conquête musulmane* (Paris Geuthner, 1944).
- A. KAMMERER, *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Essai d'histoire et de géographie historique* (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol., 1935).
- J. M. COUBLEAUX, *Histoire politique et religieuse de l'Abyssinie depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'avènement de Ménélík II* (Paris, Geuthner, 1929).
- C. ROTH, *Histoire du peuple juif*, trad. franç. (Paris Payot, 1948).
- G. VAJDA, *Introduction à la pensée juive du Moyen Age* (Paris, Vrin, 1947).
- G. G. SCHOLEM, *Les grands courants de la mystique juive : la Gnose, la Kabbale, le Zohar, le Sabbatianisme, le Hassidisme*, trad. franç. (Paris, Payot, 1950).
- L. NIEDERLÉ, *Manuel de l'Antiquité Slave* (Paris, Champion, 2 vol., 1923-1926).
- F. DVORNICK, *Les Slaves, Byzance et Rome au IX^e siècle* (Paris, Champion, 1926).
- J. JIRICECK, *La civilisation serbe au Moyen Age*, trad. franç., (Paris Bossard, 1920).
- S. RUNCIMAN, *A History of the first Bulgarian Empire* (Londres, Bell, 1930).
- A. GRABAR, *Recherches sur les influences orientales dans l'art balkanique* (Paris, Les Belles-Lettres, 1928).
- R. GROUSSET, *Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem* (Paris, Plon, 3 vol., 1934-1936).
- S. RUNCIMAN, *A History of the Crusades* (Cambridge, University Press, 3 vol., 1951-1954).
- J. RICHARD, *Le royaume latin de Jérusalem* (Paris, P.U.F., 1953).
- J. LONGNON, *L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée* (Paris, Payot, 1949).
- P. MILIOUKOV, CH. SEIGNOBOS et L. EISENMANN, *Histoire de Russie*, t. I (Paris, E. Leroux, 1935).
- C. STAHLIN, *La Russie des origines à la naissance de Pierre le Grand*, trad. franç. (Paris, Payot, 1946).
- G. VERNADSKY et M. KARPOVICH, *A History of Russia* (3 vol. parus (Oxford, University Press, 1946-1953).
- P. L. LYASCHENKO, *History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution* (New York, Macmillan, 1949).
- A. ECK, *Le Moyen Age russe* (Paris, Maison du Livre étranger, 1933).
- L. RÉAU, *L'art russe, t. I. Des origines à Pierre le Grand* (Paris, Laurens, 1921).
- G. HARDY, *Vue générale de l'histoire d'Afrique* (Paris, Colin, 5^e éd., 1948).
- L. FROBENIUS, *Histoire de la civilisation africaine*, trad. franç., (Paris, Gallimard, 1952).

٤ - الاسلام

- J. SAUVAGET, *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, éléments de bibliographie* (Paris, Maisonneuve, 2^e éd., 1946).
- M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES et S. PLATONOV, *Le monde musulman et by-*

- zantin jusqu'aux Croisades (Paris, É. de Boccard, 1931).
- C. BROCKELMANN, *Histoire des peuples et des États islamiques depuis les origines jusqu'à nos jours*, trad. franç. (Paris, Payot, 1949).
- PH. K. HITTI, *History of the Arabs* (Londres, Macmillan, 4^e éd., 1949).
- Encyclopédie de l'Islam* (Leyde, Brill, et Paris, Picard, 4 vol. et 1 supplément, 1913-1935 ; 2^e éd., 4 fasc. parus (lettre A), 1954-1955).
- G. RYCKMANS, *Les religions arabes préislamiques* (Louvain, Publications Universitaires, 1951).
- H. LAMMENS, *L'Arabie occidentale avant l'Hégire*, t. I seul paru (Rome, Institut biblique, 1914).
- TOR ANDRAE, *Mahomet, sa vie et sa doctrine*, trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).
- É. DERMINGEM, *La vie de Mahomet* (Paris, Plon, 6^e éd., 1950).
- R. BLACHÈRE, *Le problème de Mahomet* (Paris, P.U.F., 1952).
- A. WIET, *L'Égypte arabe. De la conquête arabe à la conquête ottomane, 642-1517 de l'ère chrétienne*, formant, le t. IV de l'*Histoire de la nation égyptienne* dirigée par G. HANOTAUX (Paris, Plon, 1937).
- H. LAMMENS, *La Syrie, précis historique* (Beyrouth, Imprimerie Catholique, 2 vol., 1921).
- PH. K. HITTI, *History of Syria, including Lebanon and Palestine* (Londres, Macmillan, 1951).
- M. CANARD, *Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazirâ et de Syrie*, t. I seul paru (Alger, la Typo-Litho, 1951).
- G. MARÇAIS, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age* (Paris, Aubier, 1946).
- CH.-A. JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord*, t. II, 2^e éd. revue par R. LE TOURNEAU (Paris, Payot, 1951).
- H. TERRASSE, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français* (Casablanca, Editions Atlantides, 2 vol., 1949-1950).
- R. BRUNSCHVIG, *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV^e siècle* (Paris, Maisonneuve, 2 vol., 1940-1947).
- E. LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne musulmane* (Paris, Maisonneuve, 3 vol. parus, 1944-1953).
- A. GONZALEZ -PALENCIA, *Historia de la Espana musulmana* (Barcelone, éd. Labor, 3^e éd., 1932).
- B. SPULER, *Iran in früh — islamischer Zeit. Politik, Kultur, Verwaltung, und öffentliches Leben zwischen der arabischen und der seldschukischen Eroberung* (Weisbaden, Steiner, 1952).
- Du même, *Die Mongolen in Iran* (Leipzig, Heinrichs, 1939).
- W. BARTHOLD, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, trad. anglaise (Oxford, University Press, 2^e éd., 1928).
- Du même, *Histoire des Turcs d'Asie centrale*, trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).
- L. BOUVAT, *L'Empire mongol, 2^e phase*, formant le t. VIII, 3, de l'*Histoire du monde* dirigée par E. CAVAIGNAC (Paris, A. de Boccard, 1927).
- F. KOPRULU, *Les origines de l'Empire Ottoman*, vol. 3 des *Études orientales* publ. par l'Institut français d'archéologie de Stamboul (Paris, É. de Boccard, 1935).
- F. BABINGER, *Mahomet II le Conquérant et son temps*, trad. franç. (Paris, Payot, 1954).
- A. MEZ, *Die Renaissance der Islam* (Heidelberg, 1922).
- M. GAUDEFRY-DÉMOMBYNES, *Les institutions musulmanes* (Paris, Flammarion, 5^e éd., 1950).
- J. SCHACHT, *Esquisse d'une histoire du droit musulman* (Paris, 1952).
- L. GARDET, *La cité musulmane, vie sociale et politique* (Paris, Vrin, 1954).

- ALI MAHAZERI, *La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age* (Paris, Hachette, 1950).
- J. SAUVAGET, *Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^e siècle* (Paris, Geuthner, 1941).
- R. LE TOURNEAU, *Fès avant le protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Rabat, Institut des Hautes Etudes marocaines, 1949).
- E. S. TRITTON, *The Caliphs and their non-muslim subjects* (Oxford, University Press, 1930).
- MOHSEN AZIZI, *La domination arabe et l'épanouissement du sentiment national en Iran* (Paris, Presses modernes, 1938).
- A. LAMBTON, *Landlord and Peasant in Persia, a study of land tenure and land revenue administration* (Oxford University Press, 1953).
- H. MASSÉ, *L'Islam* (Paris, Colin, 2^e éd., 1948).
- L. GOLDZIEHER, *Le dogme et la loi de l'Islam*, trad. franç. (Paris, 1921).
- Du même, *Etudes sur la tradition islamique*, trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1952).
- L. GARDET et ANAWATI, *Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparée* (Paris, Vrin, 1948).
- A. J. ARBERRY, *Le soufisme, introduction à la mystique musulmane* (Paris, Cahiers du Sud, 1952).
- T. W. ARNOLD, *The Preaching of Islam* (Oxford, University Press, 1951).
- A. MIELI, *La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale* (Leyde, E. J. Brill, 1938).
- DE LACY O'HEARY, *How Greek Science passed to the Arabs* (Oxford, University Press, 1951).
- G. QUADRI, *La philosophie arabe dans l'Europe médiévale des origines à Averroès*, trad. franç. (Paris, Payot, 1947).
- R. BLACHÈRE, *Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle*, t. I seul paru (Paris, Maisonneuve, 1952).
- C. NALLINO, *La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie Umayyade* (Paris, Maisonneuve, 1950).
- J. M. ABD EL-JALIL, *Brève histoire de la littérature arabe* (Paris, Maisonneuve, 1943).
- H. PERES, *La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle, ses aspects généraux et sa valeur documentaire* (Paris, Maisonneuve, 2^e éd., 1953).
- G. MARÇAIS, *L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile* (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1954).
- CRESWELL, *Early Muslim Architecture* (Oxford, University Press, 2 vol., 1932-1940).
- Du même, *Muslim Architecture of Egypt* (Oxford, University Press, 1952).
- L. HAUTECŒUR et G. WIET, *Les mosquées du Caire* (Paris, Leroux, 2 vol. 1932).
- H. TERRASSE, *L'art hispano-mauresque des origines au XIII^e siècle* (Paris, Van Oest, 1932).
- A. U. POPE, *A Survey of Persian Art from préhistoric times to the present* (Oxford, University Press, 7 vol. 1938-1939).
- A. GABRIEL, *Monuments turcs d'Anatolie* (Paris, 2 vol., 1931-1934).

٥ - آسيا الشرقية

- G. FERRAND, *Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks* (Paris, Leroux, 1913).
- R. GROUSSET, *Sur les traces de Bouddha* (Paris, Plon, 1929).
- WATTERS, *On Yuan-Chwang's Travels in India*, 2 vol. (Londres, 1904-1905).

- Y. TAKAKUSU, *A Record of the Buddhist Religion as practised in India and Malay Archipelgo* by I-tsing (Oxford 1896).
- I - TSING, *Mémoire composé à l'époque de la grande dynastie des T'ang sur les religieux éminents qui allèrent chercher la loi dans les pays d'Occident*, trad. ED. CHAVANNES (Paris, Leroux, 1894).
- L. RENDU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, *L'Inde classique*, t. I. (Paris, Payot, 1947-49).
- L. RENDU et Y. FILLIOZAT, *L'Inde classique*, t. II (Paris-Hanoi, 1953).
- L. DE LA VALLÉE-POUSSIN, *Dynasties ethistoire de l'Inde depuis Kanushka jusqu'aux invasions musulmanes*, t. VI, 2, de l'Histoire du monde, dir. CAVAGNAC (Paris, E. de Boccard, 1935).
- R. MOOKERJI, *Harsha* (Calcutta-Oxford, 1925-1926).
- J. PRASAD, *L'Inde du VII^e au XVI^e siècle*, t. VIII de l'Histoire du monde, dir. CAVAGNAC (Paris, E. de Boccard, 1930).
- L. RENDU, *La civilisation de l'Inde ancienne* (Paris, Flammarion, 1950).
- J. CHANDRA JAIN, *Life in Ancient India as depicted in the Jain Canons* (Bombay, 1947).
- B. S. UPADHYAYA, *India in Kālidāsa* (Allahabad, 1947).
- P. SENGUPTA, *Everyday Life in Ancient India* (Oxford, Univ. Press, 1950).
- P. MASSON-OURSSEL, *Esquisse d'une histoire de la philosophie indienne* (Paris, Geuthner, 1932).
- R. GROUSSET, *Les philosophies indiennes, Les systèmes*, 2 vol., (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).
- VASUBANDHU, *Abhidharma*, trad. L. DE LA VALLÉE-POUSSIN (Paris, Geuthner, 1931).
- L. DE LA VALLÉE-POUSSIN, *Vasubandhu et Yaçomitra* (Londres, 1914-1918).
- S. LÉVI, *Le théâtre indien* (Paris, É. Bouillon, 1890).
- S. HARI CHAND, *Kālidāsa et l'art poétique de l'Inde* (Paris, Champion, 1917).
- A. COOMARASWAMY, *A History of Indian and Indonesian Art*, 2^e éd., (Londres 1950).
- J. AUBOYER, *Arts et Styles de l'Inde* (Paris, Larousse, 1951).
- S. KRAMRISCH, *The Hindu Temple*, 2 vol. (Univ. de Calcutta, 1946).
- R. D. BAUERJI, *Eastern Indian School of Mediaeval Sculpture* (Delhi, 1933).
- H. MASPERO, *Études historiques* (Paris S.A.E.P., 1950).
- R. WILHELM, *Histoire de la civilisation chinoise* (Paris, Payot, 1931).
- C. BINGHAM, *The Founding of the T'ang Dynasty* (Baltimore, 1942).
- M. P. FITZGERALD, *Li Che-min* (Paris, Payot, 1935).
- R. DES ROTOURS, *Traité des Examens* (Nouvelle histoire des T'ang) Paris, Leroux, 1932).
- Du même, *Traité des fonctionnaires et Traité de l'armée* (Nouvelle histoire des T'ang) (Leyde, Brill, 1947-48).
- TCHÉOU HOAN, *Le prêt sur récolte et Wang Ngan-che* (Paris, 1930).
- H. MASPERO, *Les religions chinoises* (Paris, S.A.E.P., 1950).
- Du même, *Le Taoïsme* (Paris, S.A.E.P., 1950).
- MARGOULIES, *Le Kou-win* (Paris, Geuthner, 1926).
- Du même, *Anthologie raisonnée de la littérature chinoise* (Paris, Payot, 1948).
- R. GROUSSET, *La Chine et son art* (Paris, Plon, 1951).
- M. PAUL-DAVID, *Arts et styles de la Chine* (Paris, Larousse, 1951).
- P. PELLJOT, *La Haute Asie* (s.l.n.d., 1931).
- A. FOUCHER, *La vieille route de l'Inde ; De Bactres à Taxila*, 2 vol. (Paris, Ed. d'Art et d'Hist. 1942-47).

- A. GODARD, Y. GODARD et J. HACKIN, *Les antiquités bouddhiques de Bâmyân* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1925).
- MURDOCH, *History of Japan*, 3 vol. (Londres 1925-26)
- J. HACKIN et J. CARL, *Nouvelle recherches archéologiques à Bâmyân* (Paris, Van Oest, 1933).
- MURDOCH, *History of Japan*, 3 vol. (Londres, 1925-26).
- G. B. SANSOM, *Le Japon* (Paris, Payot, 1938).
- R. K. REISCHAUER, *Early Japanese History (ca B.C. 40 — A.D. 1167)*, (Princeton, Univ. Press, 1937).
- R. TSUNADA et L. CARRINGTON GOODRICH, *Japan in the Chinese Dynastic Histories* (South Pasadena, 1951).
- W. G. ASTON, *Littérature Japonaise*, trad. H.-D. DAVRAY (Paris, Colin, 1902).
- J. BUHOT, *Histoire des arts du Japon*, t. I (Paris, Van Oest, 1949).
- A. ECKARDT, *A History of Korean Art* (Londres-Leipzig, 1929).
- G. GOEDES, *Les Etats hindonisés d'Indochine et d'Indonésie*, t. VIII, 2 de l'*Histoire du monde*, dir. CAVAINAC (Paris, E. de Boccard).
- G. GROSLIER, *Recherches sur les Cambodgiens* (Paris, 1921).
- G. COEDES, *Pour mieux comprendre Angkor* (Paris, Maisonneuve 1947).
- G. DE CORAL REMUSAT, *L'art Khmer, Les grandes étapes de son évolution* (Paris, Ed. d'Art et d'Hist., 1940).
- G. MASPERO, *Le royaume de Champa* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
- PH. STERN, *L'art du Champa et son évolution* (Toulouse, Douladoure, 1942).
- R. S. LE MAY, *Buddhist in Siam* (Cambridge Univ. Press, 1938).
- R. GROUSSET, *L'Empire des steppes* (Paris, Payot, 1939).
- Du même, *L'Empire mongol (Première phase)*, t. VIII, 3, de l'*Histoire du monde*, dir. CAVAINAC (Paris, E. de Boccard, 1941).
- W. BARTHOLO, *Turkestan down to the Mongol Invasion* (Oxford University Press, 1928).
- B. VLADIMIRTSOV, *Le régime social des Mongols*, trad. M. CARROW, (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
- L. HAMBIS, *Les fiefs attribués aux membres de la famille impériale...* (Leyde, Brill, 1954).
- F. GRECARD, *Gengis-Khan* (Paris, 1935).
- B. VLADIMIRTSOV, *Gengis Khan*, trad. M. CARROW (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
- Recueil de voyages et mémoires de la Société de Géographie de Paris*, éd. d'Avezac (1838-39).
- SIR HENRY YULE et H. CORDIER, *Cathay and the Way thither*, 4 vol. (Londres, 1915-16).
- Des mêmes, *Description of the World*, 2 vol. (Londres, 1938).
- L. HAMBIS, *Marco Polo, La description du monde, texte intégral*, (Paris, Klincksieck 1955).
- W. W. ROCKHILL, *The Journey of William of Rubruck* (Londres, 1900).
- Les voyages en Asie au XIV^e siècle du Bienheureux Frère Odoric de Pordenone*, éd. H. CORDIER (Paris, Leroux, 1891).
- A. C. MOULE, *Christians in China before the Year 1550* (Londres, 1930).

مراجع عربية

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية ، وتتمه للبحث ، وأت « دار منشورات عويدات » في بيروت ، هنا أيضاً ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات والخير العالمي بالبيبلوغرافيا الشرقية من عربية وإسلامية ، واحد المترجمين هذه الموسوعة التاريخية اعداد قائمة ببيبلوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بام مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ القرون الوسطى . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا ونزل عند رغبتنا فاعد هذه القائمة ، خدمة منه للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللباحثين في عالم الضاد من يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الذي يمتد من أواخر القرن الرابع للميلاد ، في نظر البعض ، او من عام ٤٧٦ : تاريخ سقوط روما في يد ادراسر ، ملك الهيرول ، في نظر البعض الآخر ، الى عام ١٤٥٣ تاريخ سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين في رأي بعض المؤرخين ، او الى عام ١٤٩٢ تاريخ اكتشاف العالم الجديد وسقوط غرناطة بيد الاسبان ، في رأي فريق آخر . فمضى ان يحسد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتعميش .

الشرق الاوسط

اولاً - الروم

اسدرستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، جزآت بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

حبيب الزيات : الروم الملكيون في الاسلام - حريصا ، لبنان ، المطبعة البوليسية ١٩٥٣ جزء ١ محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ص ١١٤ .

عمر فروخ : العرب والاسلام في الحوض الفري من البحر الابيض المتوسط - بيروت ، المكتب التجاري ١٩٥٩ ص ٢٠٦ .

ثانياً - الدولة الساسانية

ارمر كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ صفحة ١ - ط ٥٩١ .

استارجيان ، ل : تاريخ الامة الارمنية . وقائع من الشرقين الادنى والوسط في ادوار الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والفارسية والعربية والعثمانية والروسية ، من القرن السابع قبل الميلاد الى نهاية الربع الاول من القرن العشرين من الميلاد - الموصل ، مطبعة الاتحاد الجديد ، ١٩٥١ ص ٤٠٤ .

الهند - المغول

- احمد محمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم . جزآن . القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٩ .
- رشيد الدين فضل الله الهمداني : جامع التواريخ . المجلد الثاني . الجزء الاول - تاريخ المغول اليلخانيين ، تاريخ هولاكوه مع مقدمة رشيد الدين . ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداي وفؤاد عبد المعطي الصياد . القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ - س + ٣٨٣ .
- فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ : من جنكيز خان إلى هولاكوه خان - القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ - س + ٢٧٩ .
- عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند - القاهرة ، مكتبة دار العروبة ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ - ل + ٤٨١ .
- الرمزي ، م . م : تليق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار - الطبعة الاولى ، اورنبورغ ، المطبعة الكريمة ١٩٠٨ ، جزآن .
- محمد سعيد اسماعيل : بلاد الامام البخاري (تركستان) ماضيها وحاضرها - القاهرة ، دار الزيني للطباعة والنشر ١٩٥٨ ص ١١٢ .

العصور الوسطى

- كوبلاند ، ج . و . وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غربي اوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، طبعة ٣ - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ١ - ع + ١٤٠ .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح : اوروبا العصور الوسطى ، ج ١ التاريخ السياسي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١ ح ٦٩٩ ؛ ج ٢ النظم والحضارة ، ١٩٥٨ ص ٣١٦ .
- ديفيز ، هـ . و : اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود - الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٥٨ ص ٢٨٤ .
- فيشر ، هـ . ا . ل : تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، جزآن ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العربي وابراهيم احمد العدوي ، طبعة ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٤ و ٢٦٧ - ٥٠٦ .
- طرخان - ابراهيم عني : دولة القوط الغربيين - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ١ - هـ ١٨٩ ، خرائط .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح ومحمد انيس : النهضة الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ ص ٢٩٢ ، طبعة ٢ ، ١٩٦٠ ص ٤٠٤ .

شكري ، محمد فؤاد : الصراع بين البورجوازية والاقطاع ، جزآن - القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ .
 خدوري ، مجيد : الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان - بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ، ١٩٣٩ ، ص ٦١ .
 محمود خليفة : تحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلمان - بولات ، ١٢٦ ، ٣ أجزاء .

الجزيرة العربية

الدباغ ، مصطفى : جزيرة العرب ، موطن العرب ومهد الاسلام - بيروت ، دار الطليعة ١٩٦٣ ج ٢ .
 عزام ، عبد الوهاب : مهد العرب - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ص ١٣٧ .
 العقيلي ، محمد بن احمد : الخلاف السلياني او الجنوب العربي في التاريخ ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٥ ، ج ٢ - صور وخرائط .
 وهبه ، حافظ : خسون عاماً في جزيرة العرب - القاهرة ، الباني ١٩٦٥ ص ٣٠٧ .
 حمزة ، فؤاد : قلب جزيرة العرب - القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٩٣٣ ص ٤٦٣ .
 الريحاني ، امين : ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية اقسام مزينة بالخرائط والرسوم - طبعة ثانية - بيروت المطبعة العلمية ١٩٢٩ جزآن .
 كعالة ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب - دمشق ، مطبعة التري ١٩٤٥ ص ٥٩٧ .
 الهمداني ابو محمد الحسن : صفة جزيرة العرب - لندن ، بريل ١٨٨٤ - ١٨٩١ جزآن في ١ .

العرب قبل الاسلام

الالوسي ، السيد محمود : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٣ أجزاء ، شرح محمد بهجة الاثري ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ١٩٥٩ .
 صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ، طبعة ٢ - القاهرة ، مصطفى الباني الحلبي ، ١٩٥٦ ص ١٤٨ .
 نيلسن ، دتليف وفرتزهومل وغيرهما : التاريخ العربي القديم ، ترجمه واستكماله فؤاد حسنين علي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩ .
 تقي الدين ، محمد بن احمد بن علي الحافظ : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن - القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثة ١٩٥٧ .
 محمد عبد الغني حسن : صراع العرب خلال العصور - القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٧ .

- رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد البوافلي - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ص ١٦٠ .
- جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس - القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٨ ص ٢٨٦ .
- جورج فضل حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في المصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١ - ح ٤١٥ .
- علي مظهر : العصبية عند العرب في الجاهلية والاسلام حتى زوال دولة بني امية من المشرق القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٣ ص ٨٣ .
- الجميل ، مكي : البداوة والبدو في البلاد العربية . دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطئهم - سرس اللبان ، مركز تنمية المجتمع ، ١٩٦١ ص ٨٣ .

تاريخ الحضارة الاسلامية

- هنري ماسيه : الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان - منشورات عويدات بيروت ١٩٦٠ ص ٢٨٨ .
- الفرد جيوم : الاسلام ، ترجمة محمد مصطفى هدارة وشوقي الباني السكري - القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١٩٥١ .
- حامد عبد القادر : الاسلام : ظهوره وانتشاره في العالم - القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ ص ٣٢٢ .
- جمال الدين الرمادي : الاسلام في المشرق والمغرب - القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠ ص ١٢٠ .
- محمد عبد الغني حسن : ابو مسلم الخراساني - القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨ ص ٨٥ .
- محمد احمد حسونة : اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية - القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
- الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود : الاخبار الطوال ، تحقيق عبيد المنعم عامر - القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ ، ص ١ - ذ ٤٦٧ .
- الدينوري : الامامة والسياسة - القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٧ ، ص ١ ك ٢٢٠ و ٢٩٠ .
- س. ا. ف. حسيني : الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوي - القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٩ ، ص ١ - غ ٤٧٥ .
- حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ - هـ ٤٨٩ .
- محمد خلف احمد : الاسلام والحضارة - القاهرة ، وزارة الارشاد القومي ، ١٩٥٦ ص ١٤٩ .
- فتحى عثمان : اضاء على التاريخ الاسلامي - القاهرة ، دار المروبة ، ١٩٥٦ صفحة ٢٠٣ .

- حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربها - القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ ، ص ١٧٩ .
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
- ج ١ - الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والاندلس - القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٥٩ ص ١ - ل ٥٨١
- ج ٢ - العصر العباسي الاول في الشرق ومصر والمغرب والاندلس - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ١ - ي ٤٩١ .
- ج ٣ - العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والاندلس - طبعة ٤ - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ١ - ع ٤٩٧ .
- احمد شلي - التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، جزآن - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ - ل ٢٧٦ و ٢٧٢ (عن الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها) .
- جرجي زيدان - تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ - ٥ ، مراجعة حسين مؤنس - القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ .
- ف . بارقول : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، طبعة ٣ - القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨ ص ١٥٨ .
- يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية - ترجمة محمد عبد الهادي ابوريده - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ .
- صفحة ١ - ط ٥٩٦ .
- عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية : عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٧٢ .
- محمد لطفي جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ١٠٧٠
- غوستاف جرونوبوم : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٥٦ ، ص ٥٠٩ .
- غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة - عيسى البابي الحلبي طبعة ٣ ، ٩٥٧ ص ٦٥٦ .
- ي . جل : الحضارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوي - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ . صفحة ١ - ل ٣ ١٥٧ .
- عبد المجيد ابراهيم هندي : حكومة عمر المثالية - القاهرة ، مكتبة العالم العربي ١٩٥٨ ص ١٤٢
- محمد جمال الدين سرور - الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة - القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٠ ، ص ٣٧٠ .

محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج في الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثالث الهجري او
« التاريخ المالي للدولة الاسلامية » مع مقدمة عن دولتي الروم والفرس - القاهرة مكتبة
نهضة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠٨ .

محمد شيت خطاب : قادة فتح العراق والجزيرة - القاهرة ، دار العلم ، ١٩٦٤ ، ص ٥٠٠
يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام ، ترجمة
عبد الرحمن بدوي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، صفحة ١ ل ٢٧٨ .

توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام . بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية ، ترجمة وتعليق
حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين واسماعيل الخراوي - القاهرة ، مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ٥١٥ .

احمد عطية الله : طارق بن زياد - القاهرة ، مكتبة دار التأليف ، ١٩٦٠ ، ص ٣١ .

عبد الخبير الخولي : طارق بن زياد - القاهرة ، دار التأليف ، ١٩٥٦ ، ص ٥٦ .

احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ - ٣ - القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ (الجزء الثالث
يبعث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج) .

ظهر الاسلام ٤ اجزاء - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الجزء الثالث يبحث في الحياة العقلية
في الاندلس من فتح العرب لها الى خروجهم منها ويتكلم في الحركات الدينية ، واللغوية
والنحوية والادبية والفلسفية والتاريخية ، والفنية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ،
صفحة ١ - ٣٣٥ .

فجر الاسلام : القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، عدة طبعات ، صفحة ١ - ع ٣٣٢ .

يوم الاسلام : القاهرة ، مؤسسة الخانجي ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤٦ .

احسان عباس : العرب في صقلية : دراسة في التاريخ والادب - القاهرة ، دار المعارف
١٩٥٩ ، ص ٣٣١ .

رو ، جون بول : الاسلام في الغرب . ترجمة نجدة هاجر وسعيد الفز - بيروت ، المكتب
التجاري ، ١٩٦٠ ، ص ٣٢١ .

طه حسين : علي وبنوه - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ، ص ٣٠٢ .

طه حسين : الفتنة الكبرى ، ج ١ - عمان - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ٢٢٩ .

طه حسين : مرآة الاسلام - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ٣١١ .

احمد عز الدين عبد الله خلف الله : غزوة أحد - طنطا ، المكتبة التجارية الاسلامية ، ١٩٥٩ ،
صفحة ٢٢٢ .

محمد حميد الله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، طبعة ٢ -
القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ ، صفحة ٥٤٩ .

محمد احمد برانف : محمد واليهود - القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٢ .

- السيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه - القاهرة ، مكتبة
الانجلو المصرية ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
- محمد عبد الغني حسن : موسى بن نصير ، فاتح الاندلس - القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٧ ص ٨٤ .
- محمد عبد الغني حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، طبعة ٢ - القاهرة ، مكتبة النهضة
المصرية ١٩٥٩ ص أ - ن ٢٩٤ .
- البیهقي ، ابو الفضل : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت - القاهرة ، مكتبة
الانجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، صفحة ٨١٢ .
- عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في المصور الوسطى - القاهرة ، مكتبة الانجلو
المصرية ١٩٦٤ صفحة ٧٥ .
- علي محمد راضي : عصر الاسلام الذهبي : المأمون العباسي - القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤
صفحة ١٥٤ .
- محمد حلمي محمود : ابو بكر والوحدة - القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤ صفحة ٩٤ .
- محمد طه محمود : دروس في التاريخ الاسلامي وبجمل شؤون الدولة العربية - القاهرة ، المكتبة
التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .

ج ١ - سيرة الرسول ، صفحة ٩٦ .

ج ٢ - تاريخ الخلفاء الراشدين ، صفحة ١٢٢ .

ج ٣ - تاريخ دولة بني امية ، صفحة ١٢٨ .

ج ٤ - تاريخ العباسيين صفحة ٢٠٨ .

الخلفاء

- ابن الطقطقي ، محمد بن علي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية - القاهرة ،
مكتبة العرب ١٣٣٩ صفحة ٢٥١ .
- ابن سوزم ، ابو محمد علي بن احمد : جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق احسان عباس
وناصر الدين الاسد - القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢ صفحة .
- ابن دحية ، ابو الخطاب : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، صححه وعلق عليه عباس
العزاوي ، بغداد ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ١٩٤٦ صفحة ج - ت ٣٠٥ .
- الخضري ، محمد : اقام الوفاء في سيرة الخلفاء - طبعة ٧ - القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى
١٩٦٠ صفحة ٣٦٢ .
- الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد : دول الاسلام - حيدرآباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف
النظامية ١٣٣٧ ، جزآن .

- الروحي ، ابو الحسن : بلغة الطرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء - القاهرة ، صالح شكري ١٩٠٩
صفحة ٨٦ .
- السيوطي ، جلال الدين : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين الفاتحين بأمر الامة من عهد ابي بكر
الصديق الى عهد المؤلف سنة ٩١١ - القاهرة ، ١٣٥١ صفحة ٣٥١ .
- السيد ، احمد : مفتاح الذهب ، تاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب - القاهرة ، مطبعة المعارف
١٩١٠ صفحة ج - ج ١٣٥ .
- الفيضي ، ابو البركات احمد فخر الدين : ارشاد العباد الى الفوز والجهاد - القاهرة ، المطبعة
العامة ١٣٣٦ صفحة ٢٥٠ .
- الكلاعي ، ابو الربيع سليمان : الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء ، اعتنى بتصحيحه
هنري ماسيه - الجزائر ، كربونل ١٩٣١ .
- النبهاني ، تقي الدين : الخلافة ، ابحاث من كتاب الشخصية الاسلامية لحزب التحرير . لا . ت .
صفحة ١٧٢ .

١ - الخلفاء الراشدون

- ابن العربي ، ابو بكر محمد : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ...
حققه وعلق حواشيه بحب الدين الخطيب - القاهرة ، لجنة الشباب المسلم ١٣٧١ ص ٢٩٥ .
- ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة - القاهرة مكتبة
التجارية الكبرى ، جزآن في مجلد واحد .
- بخت ، عبد الحميد : عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ ص ٣٣٤ .
- بخت ، عبد الحميد : عصر الراشدين - القسم الاول - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ،
ص ٣٣٥ .
- الصمدي ، عبد المتعال : السياسة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين - القاهرة ، دار الفكر
العربي ١٩٦٢ ص ٣٧٤ .
- العظم ، رفيق : اشهر مشاهير الاسلام في الحروب السياسية - طبعة ٢ - القاهرة ، مطبعة
هندي ١٩٥٥ جزآن .
- النجار ، عبد الوهاب : الخلفاء الراشدون - القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٤٨ ص ٥٠٤ .
- الاربلي ، عبد الرحمن شنبط : خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك - طبعة اولى -
بيروت ، مطبعة القديس جوارجيوس ١٨٨٥ ص ٢٣٨ - طبعة ثانية ، بغداد ، مكتبة
الثنى ١٩٦٤ صفحة ٣٢٣ .

الأمويون

- ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم : الامامة والسياسة - القاهرة ، مطبعة الفتوح الادبية .
١٣٣١ هـ - جزآن في مجلد واحد .
- ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة - القاهرة ، المكتبة التجارية ، جزآن في مجلد واحد .
- ابو النصر ، عمر : الايام الاخيرة للدولة الاموية - بيروت المكتبة الاهلية ١٩٦٢ .
- جعفر ، نوري : الصراع بين الامويين ومبادئ الاسلام - بغداد ، مطبعة الزهراء ، ١٩٥٦
صفحة ١٦٣ .
- الخربوطلي : تاريخ المراق في ظل الحكم الأموي ، السياسى ، الاجتماعى ، الاقتصادى - القاهرة
دار المعارف ، ١٩٥٩ صفحة ٤٤٩ .
- المقرئى ، ابو العباس احمد : النزاع والتخاضم فيما بين امية وهاشم - لندن ، بريل ، ١٨٨٨ ص ٧٢ .
- المهاينى ، رفيق - تاريخ الخلافة الاموية والعباسية والدول الاسلامية والمصور الوسطى في
أوروبا - دمشق ، دار البقطة العربية ، ١٩٤٦ صفحة ٣٥١ - خرائط .
- النصولى ، انيس زكريا : الدولة الاموية في الشام - بغداد ، مطبعة دار السلام ١٩٢٧ ص ٣٦٠ .
- صايغ ، انيس : الاسطول الاموي في البحر الابيض المتوسط - بيروت ، ١٩٥٦ ص ١٤٦ .
- العدوي ، ابراهيم احمد : الامويون والبيزنطيون ، البحر الابيض المتوسط بحيرة اسلامية - القاهرة
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٣ صفحة ٢٨٤ - خرائط .
- عبد السلام رستم : نظرات في التاريخ الاموي - القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٤ ص ٩٠ .

العباسيون

- اسحق ، رفايل بابو : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية - بغداد ، مطبعة شفيق ،
١٩٦٠ صفحة ٢٨٣ .
- الجومرد ، عبد الجبار : داهية العرب ابو جعفر المنصور ، مؤسس دولة بني العباس - بيروت
دار الطليعة ١٩٦٣ صفحة ٤٦٢ .
- الدوري ، عبد العزيز : دراسات في العصور العباسية المتأخرة - بغداد ، شركة الرابطة ، ١٩٤٥
ص ٣٠٦ .
- الدوري ، عبد العزيز : العصر العباسي الاول . دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي
بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ١٩٤٥ ص ٣٠٤ .
- الشبيبي ، محمد رضا : مؤرخ العراق ابن القوطي . بحث في ادوار التاريخ العراقي من مستهل العصر
العباسي الى أواخر العصر المأموني - بغداد ، مطبعة التفيض ١٩٥٠ - ١٩٥٨ (١٣٧٠ -

١٣٧٨) جزآن .

- الصولي ، ابو بكر محمد : اخبار الرازي المتقي بالله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ - ٣٢٣ من كتاب الاوراق . عني بنشرة هيورت دن - القاهرة ، مطبعة الصاوي ١٩٣٥ من ٣٠٨ .
- مصطفى ، شاكرك : في التاريخ العباسي - دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ ج ١ .
- الجومرد ، عبد الجبار : الاصمعي - حياته وآثاره - بيروت ، دار الكشف ١٩٥٥ ص ٣٥٢ .
- الجومرد ، عبد الجبار : عزة العرب من شيبان بن يزيد بن مزيد القائد الاعلى للدولة هارون الرشيد ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦١ ص ٣٤٦ - خريطة .
- الجومرد ، عبد الجبار : هارون الرشيد - دراسة تاريخية اجتماعية سياسية - بيروت المكتبة العمومية ١٩٥٦ ، جزآن ٦٢٨ ص .
- الرفاعي احمد فريد : عصر المأمون ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ، ٣ أجزاء .

الدولة الفاطمية

- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ٢ - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ - ص ٧٤١ .
- محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعة ٢ ، ١٩٥٩ ص ٤٢٢ .
- حسن سليمان محمود الجهمي : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن - القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٠٢ .
- جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة) القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٨ ، صفحة ٤٩٢ .
- محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ١ - م ٢٥١ .
- يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ١٢ جزء - القاهرة ، دار الكتب المصرية .
- محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة - القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٧ ص ١٦٠ .
- علي ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي ، قائد الممزن لدين الله الفاطمي ، طبعة ٢ - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ ص ١٥٢ .

الاندلس

- ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في اخبار غرناطة ، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان -

- القاهرة دار المعارف (١٩٥٥ - ذخائر العرب ١٤) .
- ابن الخطيب ، لسان الدين : الملحمة البدرية في الدولة النصرية ، صححه ووضع فهرسه ناشره .
- محب الدين الخطيب - القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٧ ص ١٥٢ - مع صور وخريطة مطوية .
- ابن الخطيب ، لسان الدين : تاريخ اسبانيا الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام في من يوبع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال - الطبعة الثانية - بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ص ١ - ل - ٣٧٠ .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس - مصر ، مطبعة التوفيق .
- ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب - نشر وتحقيق ج. س كولان وليفي - بروفنسال ، لندن ، بريل ١٩٤٨ - ١٩٥١ ، ٣ أجزاء .
- ارسلان ، الامير شكيب : الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية - طبعة اولى - المطبعة الرحمانية ١٩٣٦ ، جزآن .
- البرقوقي : حضارة العرب في الاندلس - القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٣ ص ٢٠٠ .
- حمودة علي محمد : تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي - القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٩٥٧ ص ٣٢٢ .
- دوزي ، راينهارد : ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني - القاهرة ، البابي ، ١٩٣٣ ص ٤٤٦ .
- المعبادي ، عبد الحميد : المحمل في تاريخ الاندلس - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢١٦ .
- عبد البديع ، لطفي : الاسلام في اسبانيا - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٣٠٧ .
- عنان ، محمد عبد الله : دولة الاسلام في الاندلس - القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ - ١٩٦٠ ، ٤ اجزاء في ٥ مجلدات .
- كرد علي ، محمد : غابر الاندلس وحاضرها - مصر ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣ ص ١٩٠ .
- لين بول ، ستانلي : قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي جارم - القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها ١٩٤٤ ص ٢٢٣ .
- ماك كيب ، جوزيف : مدينة العرب في الاندلس ، ترجمة تقي الدين الهلالي - بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٠ ص ٨٢ ، مع صور .
- المراكشي ، ابو محمد عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى آخر عصر الموحدين ، مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من اخبار الشعراء ، صححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العالمي - القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٩ ص ٤٢٠ .
- مؤنس ، حسين : فجر الاندلس . دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية (٧١١ - ٧٥٦ هـ) القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ ص ٧٣٦ .
- النصولي ، انيس : الدولة الاموية في قرطبة - بغداد ، المطبعة المصرية ١٩٢٦ ج ١ .
- ادهم ، علي : صقر قريش . دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل ، مؤسس الدولة

الاموية بالاندلس - القاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣٨ ص ١٣٠ .
 اشباح ، يوسف : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان - القاهرة
 الخانجي ١٩٥٨ ص ٥٢٢
 ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط - بيروت ، دار مكتبة
 الحياة ، لا . ت . ١٤٥ ص .
 ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس . ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين
 حدي - القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ .
 ليفي بروفنسال : الشرق الاسلامي والحضارة العربية في الاندلس - تطوان ، دار الطباعة
 المغربية ١٩٥١ ص ٣٩ .
 ابراهيم انيس : المنصور الاندلسي - صفحات مجيدة من تاريخ اجدادنا العرب الابطاح - القاهرة ،
 مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٩ .
 العدوي ، ابراهيم احمد : الاسلام في غرب البحر المتوسط - القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٦٠ ص ٣١١ .

الشيعة

آل ابراهيم ، حبيب : الحقائق في الجوامع والفوارق . كتاب يؤلف بين الشيعة والسنة على اساس
 التفاهم وضوء الدليل - صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٨/٩٣٩ جزآن في واحد .
 آل كاشف الغطاء ، محمد الحسني : اصل الشيعة واصولها ، الطبعة الثامنة - النجف ، المطبعة
 الحيدرية ١٩٥٥ ص ١٥١ .
 الآملي ، السيد حيدر بن علي : الكشكول فيما جرى على آل الرسول - النجف ، المطبعة
 الحيدرية ١٣٧٢ ص ٢٠٢ .
 احمد امين : المهدي والمهديه - مصر ، دار المعارف ١٩٥١ صفحة ١٢٦ (سلسلة اقرأ) .
 الحر ، محمد بن الحسن : وسائل الشيعة ومستدركاها ، وهو الجامع لكتاب وسائل الشيعة في
 احكام الشريعة - القاهرة ، مطبعة النجاح ١٩٥٧/٩٦١ ، ٥ اجزاء .
 حسن ، سعد محمد ، المهدي في الاسلام منذ اقدم العصور حتى اليوم : دراسة وافية لتاريخها
 العقائدي والسياسي والادبي - القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ صفحة ٣٠٤ .
 الحسني ، عبد الرزاق : تعريف الشيعة - صيدا ، مطبعة العرفان ، ١٩٣٣ صفحة ٨٠ .
 الحسني ، هاشم معروف : المبادئ العامة للفقه الجعفري - بيروت ، دار النشر للجامعيين ص ٤٢٤ .
 الحسني ، هبة الدين : نهضة الحسين - النجف ، مطبعة النعمان ١٩٥٨ ص ١٤٣ .
 الحلي ، ابو القاسم جعفر : شرائع الاسلام في الفقه الجعفري ، تحقيق محمد جواد مغنية ، بيروت ،
 دار مكتبة الحياة . لا . ت . جزء واحد .
 حميد ، عبد الحسيب طه : ادب الشيعة الى نهايته القرن الثاني الهجري - القاهرة ، مطبعة

- السعادة ١٩٥٦ ص ٣٦٨ .
- الحنيزي ، ابو الحسن علي : الدعوة الاسلامية الى وحدة اهل السنة والامامية - بيروت ، دار الفكر ١٩٥٦ .
- دو نلدسن ، دوايت : عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الاسلام في ايران والمراق تعريب ع . م - القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٤٦ ص ٣٩٨
- السبيتي ، عبد الله : تحت راية الحق . في الرد على الجزء الاول من فجر الاسلام - طهران ١٩٤٥ ص ١٦٦ .
- شبر ، عبد الله : حق اليقين في معرفة اصول الدين - النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٦ جزآن .
- شرف الدين ، عبد الحسين : الى المجمع العلمي العربي بدمشق - صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٥٠ ص ١٢٨ .
- شرف الدين ، عبد الحسين : الفصول المهمة في تأليف الامة . ويلها الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء - طبعة ٣ النجف ، مكتبة النجاشي ١٣٧٥ ص ٢٥٤ .
- شرف الدين ، عبد الحسين : المراجعات - بغداد ، مكتبة الجامعة ١٩٤٦ ص ٣٧٣ .
- الشيبي ، كامل مصطفى : الصلة بين التصوف والتشيع (رسالة جامعية) - بغداد مطبعة الزهراء ١٩٦٣/١٩٦٤ ، جزآن ص ٢٤١ و ٢٦٥ .
- الطبري ، ابو جعفر محمد : بشارة المصطفى لشيعة المرتضى - النجف ، المطبعة الحيدرية ١٣٦٩ هـ ص ٣٦٩ .
- الطوسي ، ابو جعفر محمد : امالي شيخ الطائفة ورئيس الفرقة الناجية - محمد بن الحسن الطويل جزآن في واحد .
- الطويل ، محمد امين : تاريخ العلويين - اللاذقية ، مطبعة الترقى ١٩٢٤ ص ٤٧٨ .
- عبد المال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين واثرم في الحياة الاجتماعية والادبية لمدن العراق ابان العصر العباسي الاول - القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٤ ص ٣٧١ .
- فلهاوزن ، يوليوس : احزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاسلام : الحوارج والشيعة . ترجمه عن الالمانية عبد الرحمن بدوي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢٧٦ .
- فلوتن ، غيرلوف ، فان : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم - القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٣٤ ص ١٦٧ .
- المظفر ، محمد الحسين : تاريخ الشيعة - النجف ، مطبعة الزهراء ١٣٥٢ ص ٢٧٩ .
- المظفر ، محمد الحسين : الشيعة والامامة - الطبعة ٢ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥١ ص ٧١ .
- المظفر ، محمد الحسين : عقائد الشيعة - النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٤ ص ١١٩ .
- مغنية ، محمد جواد : اهل البيت : منزلتهم ومبادئهم - بيروت ، مكتبة الاندلس ١٩٥٦ ص ١٧٥ .
- مغنية ، محمد جواد : الشيعة والحاكمون - بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦١ ص ٢٢٣ .

مغنية ، محمد جواد : فضائل الامام علي : علمه ، جوده ، شجاعته ، صلاته ، بلاغته ، حروبه وغير ذلك - بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٢ ص ٢٥٥ .
 مغنية ، محمد جواد : مع بطة كربلاء - بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦٢ ص ١٥٠ .
 مهدي ، محمود احمد : ما الفوارق بين السنة والشيعة - بيروت ، حمد ١٩٦٣ ص ٢٨٦ .
 نعمة ، عبد الله : فلاسفة الشيعة : حياتهم ، آراؤهم - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، لا . ت
 ص ٦٣١ .
 محفوظ ، حسين علي : تاريخ الشيعة - بغداد ، النجاح ١٩٥٨ ص ٩٢ .

الخوارج

ابو النصر ، عمر : الخوارج في الاسلام - بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٤٦ ص ١٢٦ .
 سليم ، محمد شريف : ملخص تاريخ الخوارج منذ ظهورهم الى ان شئت المهلب شملهم - القاهرة ، دار التقدم ١٩٢٤ ص ٢٧٩ .
 عباس ، حسن رشيد : شعر الخوارج - بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٢ ص ٢١٨ .
 القلماوي ، سهر : ادب الخوارج في الشعر الاموي - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ صفحة ١٥٢ .
 تامر ، عارف : القرامطة : اصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم - بيروت ، دار الكاتب العربي صفحة ٢٩٢ .
 الهاشمي ، الخطيب علي بن الحسين : وقعة النهروان والخوارج - طهران ، مطبعة الحيدري ١٣٧٢ صفحة ٢٠٦ .
 ابن ابي الفضائل ، محمد : كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة . تقديم محمد زاهد الكوثري . نشره عزت البيطار - القاهرة ، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ١٩٣٩ ص ٤٤ .

الحروب الصليبية

دار الكتب المصرية : نشرة بمراجع عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ومعركة المنصورة - دار الكتب القاهرة ، ١٩٦٠ صفحة ١٥ ١٧ .
 حسن حبشي ، مترجم : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ صفحة ١٣٣ .
 حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، طبعة ٢ - دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، صفحة ٢٣٠ .
 باركر ، ارنست : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريفي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ صفحة ١ - ي ٢٨٠ .

اوهين جون ديفيز : فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، ترجمة زكي شنودة - القاهرة ، حلي مراد ١٩٥٧ ص ٦٢ .

يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ - ١٢٥٤ قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦ ص ٤١٢ .

شميس ، عبد المنعم : معركة المنصورة (٦٤٧ - ٦٤٨ هـ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م) - القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ ص ٤٠ .

عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية ، مطبعة رويال ١٩٥٨ ص ١ ذ ٢٢١ .
يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل - القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠ ص ١٢٧ .

سميد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ج ١ - ٢ - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٥٩٢ و ٨٣٠ .

السيد الباز العربي : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ج ١ - القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ١٠٤٨ .

الحمدانيون

كياي ، سامي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين - حلب ، المطبعة الحديثة ١٩٣٩ ص ٢٣٥ .
الجندي ، درويش : الشعر في ظل سيف الدولة - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٣٣٦ .
الشكعة ، مصطفى محمد : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ٥٦٢ .

الطولونية ، الدولة

حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية : العصر الطولوني - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ - و ٢٧٦ .
سيده اسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ٢٦١ .

الاخشيدون

كاشف ، سيده اسماعيل : مصر في عصر الاخشيدين - القاهرة ، جامعة فؤاد الاول ، كلية الآداب ١٩٥٠ ص ٤١٨ .

كاشف ، سيدة اسماعيل : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ٣٠٦ .

السلجوقية

ابن البيبي ، ناصر الدين يحيى : تواريخ آل سلجوق - ليدن ١٩٠٢ صفحة ٣٥٨ .
ابن النظام ، محمد بن محمد : العراضة في الحكاية السلجوقية - ليدن ، بريل ١٩٠٩ صفحة ١٧٨ (بالفارسية) :
حسنين ، عبد النعم محمد : سلاجقة ايران والمراق - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ٢١٦ .

الدولة الايوبية

نظير حسان سعداوي : جيش مصر في ايام صلاح الدين - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ صفحة ١٢١ .
ابو الشامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين : الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمي احمد - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ، صفحة ٣٢٦ .
السيد الباز العربي : مصر في عصر الايوبيين - القاهرة ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠ ، ص ١ - ج ٢٩٥ .
محمد سامي الدهان : الناصر صلاح الدين الايوبي - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ ص ١٥١ .
محمد عبد العزيز مرزوق : العصر البيوتاني والروماني والعصر الاسلامي ، ج ٨ ، مج ٢ : الحياة الفنية في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى الفتح التركي - القاهرة ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ صفحة ٨٠ .
محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الاسلامي في العصر الايوبي - القاهرة ، دار القلم .

دولة المماليك

ابن اياس ، محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق وتقديم وفهرسة محمد مصطفى - القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٠ ، صفحة ١٢ + ٤٩٢ .
فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي - القاهرة ، الدار المصرية للكتب ١٩٥٨ ، صفحة ٣٧٠ .

- محمد رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ٣ اجزاء في ٥ مجلدات - القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٦ .
- سميد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ٢٤٧ .
- ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ صفحة ١ - ع ٣٧٥ .

الأتراك

- عبد المنعم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ صفحة ٢١٦
- بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة السعيد سليمان - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ صفحة ٢٦٤ .
- سالم الرشيدى ، محمد الفاتح : القاهرة ، مصطفى الباي الحلي ١٩٥٦ صفحة ٣٠٧ .
- محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ صفحة ٢٠٤ .

جدول زميني مقارن

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٣٨٥ - ٣٧٩		
٣٨٦		
٣٩٨ - ٣٩٦		
٣٩٨	مرسوم هونوريوس واركاديوس	حول الضيافة
٣٩٩		
٤٠٤ - ٤٢٤		
٤٠٥		
٤٠٦	الفنڊال والسويڤ ييتازرون الرين	
٤٠٧	الحاميات الرومانية تجلو عن بريثانيا	
٤١٠	سقوط روما في أيدي « الاريك »	
٤١٢ - ٤٢٦	القديس ارغسطينوس يولف « مدينة الله »	
٤١٤		
٤٢٠		
٤٢٤ - ٤٥٣		
٤٢٩	الفنڊال يلتقلون الى افريقيا الشمالية	
٤٣١		
٤٣٤		
حوالي ٤٣٥	تبشير ايرلندا بالانجيل	
٤٣٩		قانون ثيودوسيوس
٤٤٥		
٤٤٥ - ٥١٠		
٤٤٦		

التواريخ	آسيا الشرقية
٣٧٩ - ٣٨٥	الهند : ولاية شاندرابوتنا الثاني . انطلاقة الادب (قاليداسا) . فتوحات اقليمية : كوجورات ، كاتيارار
٣٨٦	اليابان : فتح كوريا الجنوبية .
٣٩٦ - ٣٩٨	الصين الشمالية : الاتراك الطابغاتش او طو - با يؤسسون مملكة « رت »
٣٩٨	
٣٩٩	سفر الحاج البوذي « فا - هيان » الى الهند
٤٠٤ - ٤٢٤	رحلة الحاج « تشي - مونغ » .
٤٠٥	اليابان : كاتب كوري يعم الاحرف الصينية في البلاط
٤٠٦	
٤٠٧ - ٤١٠	الصين الشمالية : وفاة « فر - كيان »
٤١٠	الصين : « التسن » يحققون فتوحات سريعة الزوال في منغوليا
٤١٢ - ٤٢٦	
٤١٤	الصين : عودة الحاج فا - هيان . تأسيس المعابد البوذية الاولى في يون - فانغ . - الهند : ولاية قومارا كوتنا الاولى
٤٢٠	الصين : تأسيس مملكة السونغ الاولى . برذابادرا ينقل الى الصينية لصوصاً هندي .
٤٢٤ - ٤٥٣	رحلة الحاج « طا - بر » .
٤٢٩	
٤٣١	نهب « بنشان » على ايدي « الشام »
٤٣٤	فر - فان : ولاية قونديليا الاولى
حوالي ٤٣٥	
٤٣٩	
٤٤٥	الطو - با يستولون على لوب - نور
٤٤٥ - ٥١٠	دكن : المملوك فالالافا يهيئون المغاور في اجانتا
٤٤٦	نهب عاصمة « الشام » على ايدي الصينيين .

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
حوالي ٤٥٠		
٤٥١	غارة الهون على غاليا	مجمع خليقيدونيا يصدر حكمه على القائلين بالطبيعة الواحدة
٤٥٣	موت « أنيلا »	
٤٥٥		
٤٨٤ - ٤٥٥		الهون المقتالون في مرو وهيرات
٤٦٧ - ٤٦٩		
٤٧٠		
٤٧٥ - ٥٠٠		
٤٧٦	نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية	
٤٧٨		
٤٧٩		
٤٨٠		
٤٨٤		
٤٨٦	كلوفيس يهزم سياغوريوس ويقتله في سواسون	
حوالي ٤٩٠		
٤٩٣	تيردوريك ، ملك الالسترونوط ، سيد إيطاليا	
٤٩٤		
٤٩٥ - ٥٠٦	تنصر كوفيس	
حوالي ٥٠٠		حركة مزدية في ايران
٥٠٢ - ٥٣٠		
٥٠٦	نشر مجموعة قوانين الارليك	
٥٠٧	كلوفيس يسحق الفيزيغوط في « فوية »	

التواريخ	آسيا الشرقية
حوالي ٤٥٠	اليابان : اعتماد أبجدية مستوحاة من الصين ، بقطة فكرية - اليو - تشي في كابول وبختيار وبشارو . امبراطور الطو - با يحمي البوذية ويعتنقها . اجل مغاور يون - قانغ .
٤٥١	
٤٥٣	
٤٥٥	الهند : ولاية سكندا كوتتا الذي يصعد الهون الهفتاليين .
٤٥٥ - ٤٨٤	
٤٦٧ - ٤٦٩	الهند : تأسيس مدينة نالندا السلالية والجامعية . ولاية تومارا كوتتا الثاني .
٤٧٠	الهند : تجزئة الامبراطورية الكوبتية .
٤٧٥ - ٥٠٠	طورامانا الهوني ، المقيم في غندمارا ، يضطهد البوذية - الفيداريون ينكفئون نحو بامير (جلجيت)
٤٧٦	
٤٧٨	فونان : الملك فوندينيا (جايا فرمان) يدفع الجزية للصين - « تهنيذ » البلاد
٤٧٩	الصين الجنوبية : سقوط السونغ الارلين ؛ ولاية التسي .
٤٨٠	لن - يي : سيطرة العبادة الشيفارية . فو - نان : الراهب ناغاسينا يصل الى البلاط .
٤٨٤	فو - نان : جايا فرمان يستقبل ناغاسينا ويرفده الى كانتون .
٤٨٦	
حوالي ٤٩٠	الهند : تأسيس مملكة فالابهي (قاتياوار وسراشترا)
٤٩٣	
٤٩٤	الصين : امبراطور الطو - با يؤسس (؟) لونغ - من .
٤٩٥ - ٥٠٦	
حوالي ٥٠٠	الهون الهفتاليون في افغانستان والهند ؛ هدم الاديرة والابنية . - الهند : الشاوكيا
٥٠٢ - ٥٣٠	شامبا : وفود الى الصين . - الهند : الهوني الهفتالي ميهراكولا يتقدم حتى حوض الفالنج . - الصين : سلالة ليانغ ؛ ولاية ليانغ وو تي .
٥٠٦	فو - نان : ليانغ وو - تي يستدعي الراهب سنفا بالا لترجمة الكتب المقدسة البوذية
٥٠٧	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
٥١٠		
٥١١	جمع اورليان - وفاة كلوفيس	
٥١٤		
٥١٥ - ٥٢٨		
٥١٦		
٥١٨ - ٥٢٢		
٥٢٣		
٥٢٤	تيودوريك يعدم « بريس »	
حوالي ٥٢٥	تأسيس الجمعية البندكتية في جبل كسينو	
٥٢٦	وفاة تيودوريك - تشييد كنيسة القديس فيتال في رافنا (حتى ٥٤٦)	
٥٢٧		ولاية جوستيليانوس
٥٢٩ - ٥٣٣		جمع قانون جوستيليانوس والمجموعة
٥٣٠		
٥٣٠ - ٥٣٧	الفرجة يستولون على بروفلسا والتورنج والمملكة البورغندية	
٥٣٢		تمرد ليكا في القسطنطينية
٥٣٣		جيوش جوستيليانوس تستعيد افريقيا
٥٣٤		
٥٣٥		البيزنطيون يباشرون استعادة ايطاليا
٥٤٠		
٥٤٧	وفاة القديس بندكتوس	
٥٤٨		
٥٥٠		
٥٥٢		

التواريخ	آسيا الشرقية
٥١٠	الهند : تشييد معابد وأديرة في باداني ، اجانتا ، إلخ . تأييد « الساتي في « أران »
٥١١	
٥١٤	فو - نان : وفاة جايافرمان . ولاية رودرافرمان
٥١٥ - ٥٢٨	الصين الشمالية : الامبراطورة « هو » تحمي البوذية وتزين لونغ - من
٥١٦	اليابان تهاجم كوريا دون جدوى
٥١٨ - ٥٢٢	الامبراطورة « هو » توفد الحاج سونغ بن « الى الهند
٥٢٣	الصين : تشييد معبد « سونغ - يو - سو » في هو - نان
٥٢٤	
حوالي ٥٢٥	
٥٢٦	
٥٢٧	
٥٢٩ - ٥٣٣	
٥٣٠	شامبا : الملك يتقبل التولية من الصين
٥٣٠ - ٥٣٧	
٥٣٢	
٥٣٣	
٥٣٤	الصين الشمالية : انقسام الـ « فاي » . - الهند : ميهيراكولا ينسحب الى كشمير بعد انت هزمه ملك « مالفا »
٥٣٥	الصين الشمالية : تجهيز المفارة الوسطى في لونغ - من
٥٤٠	كوريا تهزم اليابان مرة ثانية
٥٤٧	
٤٤٨	الراهب الهندي بارمارتا يأتي الى نانكين لترجمة نصوص هندية
٥٥٠	الصين الشمالية : سقوط « الفاي » في هو - نان (باي - نسي) . - الـ « تو - كيو » يصدر دوت الجوان - جوان وهون تركستان الهفتاليين
٥٥٢	بمئة كورية تنقل تشالاً لبوذا الى اليابان

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
٥٥٦		
٥٥٨		
٥٦٥		وفاة جوستينيانوس
٥٦٨ - ٥٧٢	اقامة الليباردين في ايطاليا	
حوالي ٥٧٠		اقامة « الآغار » في بانوليا
٥٧٣ - ٥٩٣	غريغوريوس اسقف تور	
٥٧٤		
٥٨١		
حوالي ٥٨٥		
٥٨٩	ملك الفيزيغوط ، بيكاريد يترك الارويسية	
٥٩٠	ولاية غريغوريوس الكبير . - ظهور الرهبان الايرلنديين في غاليا	
٥٩٣		
٥٩٦	مهمة ارغسطينوس في بريطانيا العظمى	
٥٩٨		
آخر القرن السادس		
حوالي ٦٠٠		
٦٠٠ - ٦٥٠		اقامة البلفار والسلاف في البلقان
٦٠٥ - ٦١٨		
٦٠٦		
٦٠٧		
٦٠٩		
٦١٠	القديس كولبانوس يؤسس دير « لوكسوي »	ولاية هيراكليوس
٦١٤		الساسانيون يستولون على اورشليم

التواريخ	آسيا الشرقية
٥٥٦	الصين الجنوبية : سقوط الليانغ وولاية التشن
٥٥٨	الصين الشمالية : سقوط الناي في شن - سي (باي تشيو)
٥٦٥	
٥٦٨ - ٥٧٢	
حوالي ٥٧٠	
٥٧٣ - ٥٩٣	
٥٧٤	الصين : اضطهاد البوذية
٥٨١	الصين : يانغ كيان يؤسس سلالة السوي في سي - نغان - فو
حوالي ٥٨٥	الهند : وفاء آخر كوشا . - الفاردهانا يدافعون عن الحدود ضد الهون
٥٨٩	
٥٩٠	الصين : السوي يعمدون الوحدة السياسية . نهاية عهد السلالات
٥٩٣	اليابان : ولاية الامبراطورة سويكو ؛ عظمة السوغا ؛ حكومة شوتو كو - تايشي
٥٩٦	
٥٩٨	فو - نان وتشن - لا تتحدان تحت سلطة الملك هافافرمان
آخر القرن السادس	الهند : تجهيز مغارة الفتا
حوالي ٦٠٠	الهند : سلالة فاردهانا في تانشفار تحارب الهون
٦٠٠ - ٦٥٠	
٦٠٥ - ٦١٨	الصين : ولاية يانغ - تي (سوي) . - رحلة الحاج واي - تسي . - تجميل لو - يانغ . - انشاء القنافة الكبرى بين يانغ - تشيو ولو - يانغ
٦٠٦	الهند : ولاية هارشا . توسع مملكة البالا في الجنوب ؛ تشييد مافاليبورام
٦٠٧	اليابان : تأسيس دير هوروجي . انطلاق العلوم والفنون الصينية
٦٠٩	دكن : ولاية بولاكشين الثاني ، مؤسس الامبراطورية الشاوكيا
٦١٠	الصين : جرد انجاز الكتب المقدسة
٦١٤	

الشرق الادنى	الغرب	التواريخ
		٦١٦
		٦١٨
		٦٢٢
الهجرة		٦٢٦
	تنصر « ادوين » ملك نورثمبريا	٦٢٧
	ولاية داغوبير	٦٢٩
		٦٣٠
		٦٨٢ - ٦٣٠
وفاة محمد		٦٣٢
استيلاء العرب على سوريا ومصر		٦٣٤ - ٦٥٠
وما بين النهرين وايران		٦٣٥
	وفاة ايزيديروس الاشيلي	٦٣٦
		٦٤٣
غزوات العرب الاولى في افريقيا الشمالية		٦٤٧
		٦٥٠
	تنصر اللباردين	٦٥٣
بداية الخلافة الاموية		٦٦٠
		٦٦٥
		٦٦٨
	ثيودوروس ، اسقف كنتربري	٦٦٩
		٦٧٥ - ٦٨٥
		٦٧٧ - ٦٨١
	بيبين دي هرتال يصبح وزيراً في اوستراسيا	٦٨٠
العرب يحتلون بلاد البربر		٦٨٠ - ٧٠٠
		٦٨٤
	ويليبرورد ييشر بلاد الفريز بالانجيل	٦٩٠ - ٧٣٤
		٧٠٧ - ٧٨١
العرب والبربر يحتلون اسبانيا		٧١١ - ٧١٣
		٧١٢
	لوتبراند ، ملك اللباردين	٧١٣

التواريخ	آسيا الشرقية
٦١٦	تشن - لا : وفد الى الصين
٦١٨	الصين : ولاية التانغ . ضم الممالك الهندو - اوروبية في آسيا الوسطى
٦٢٢	
٦٢٦	الصين : ولاية فاي - تسونغ . توسع اقليمي
٦٢٧	تشن - لا : ولاية ايشانا فرمان
٦٢٩	
٦٣٠	ضم منغوليا الى صين التانغ . بدء رحلة الحاج هيوان - تسانغ
٦٣٠ - ٦٨٢	الصين تطرد الاتراك الى منغوليا وتخضعهم
٦٣٢	
٦٣٤ - ٦٥٠	
٦٣٥	كاهن نسطوري ايراني يشيد كنيسة في تشانغ - فغان . الاتراك الشاميون المقيمون في قابيشا
٦٣٦	رغندهارا يحمون البوذية
٦٤٣	
٦٤٧	فاي - تسونغ يرسل وفداً الى هارشا
٦٥٠	التبت : ولاية « سرونغ - بسان - سنام - بو » وهو زوج اميرة ملكية سيلية واميرة نيبالية.
٦٥٣	الصين : تجهيز مغاور عديدة في لونغ - من
٦٦٠	
٦٦٥	صراع الصين ضد التبت واتراك آسيا
٦٦٨	الصين تحتل كوريا
٦٦٩	
٦٧٥ - ٦٨٥	رحلة يي - تسنغ
٦٧٧ - ٦٨١	توحيد كوريا تحت ادارة مملكة سيللا
٦٨٠	
٦٨٠ - ٧٠٠	
٦٨٤	الصين : تجهيز مغاور عديدة في تيان لونغ - شان
٦٩٠ - ٧٣٤	
٧٠٧ - ٧٨١	اليابان : عهد تارا . انطلاق الاداب والفنون
٧١١ - ٧١٣	
٧١٢	الصين : ولاية هيوان - تسونغ . عصر الاداب الذهبي : انطلاق تشانغ - فغان
٧١٣	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٧١٩ - ٧١٤	شارل مارتل يستولي على السلطة في شمالي غاليا	العرب يحاصرون القسطنطينية
٧١٨ - ٧١٧	بونيفاسيوس يبشر منطقة مينس وتودنج بالانجيل	مرة اخرى
٧١٩		المسلمون يحتاحون الهند
٧٢٠		
٧٢١		
٧٢٢	بونيفاسيوس اسقف جرمانيا	
٧٢٤	تأسيس دير ريشنان	
٧٢٦		بروز مشادة الايقونات
٧٢٩		
٧٣٠		
٧٣٢	شارل مارتل يصد غارة اسلامية في بوانو	
٧٣٣		
٧٣٥	وفاة « بيد » المحترم	
٧٣٧		
٧٤١	وفاة شارل مارتل	
٧٤٢	بونيفاسيوس يتولى اصلاح الكنيسة الفرنسية	
٧٤٤		
٧٤٦		
٧٤٧	« بيبين له بريف » وزير اوحده	
٧٥٠		ولاية المباسيين
٧٥١	« بيبين له بريف » ملك الفرنجة في سواسون	رافا تسقط في ايدي اللبارديين
٧٥٤	بيبين ، الذي كرسه اسطفانوس الثاني ، يقود حملة على اللبارديين في ايطاليا وفاة القديس بونيفاسيوس	
٧٥٧	ولاية « ارفا » ملك مرسيا (توفي ٧٩٦)	
٧٦٠		
٧٦٢		تأسيس بغداد
٧٧٠ - ٧٦٤		
حوالي ٧٦٥ - ٧٧٠		
٧٦٨	وفاة « بيبين له بريف »	
٧٧٠		
٧٧١	شارلمان ملك الفرنجة	

التواريخ	آسيا الشرقية
٧١٤ - ٨١٩	
٧١٧ - ٧١٨	
٧١٩	
٧٢٠	قومية ملوك كشمير وكايشا تأييدهم من الصين
٧٢١	الصين تمقد الصلح مع الاتراك وتفرض حمايتها على آسيا الوسطى
٧٢٢	
٧٢٤	
٧٢٦	
٧٢٩	الصينيون يصطدمون بالعرب في بخارى وسمرقند
٧٣٠	الهند : آل « برتيهارا » يميّدون انشاء امبراطورية « قانوج »
٧٣٢	
٧٣٣	الصين تلتصم لكشمير على العرب
٧٣٥	
٧٣٧	الصين : الانتصار الاول على التبت
٧٤١	
٧٤٢	
٧٤٤	تأسيس امبراطورية الديكور (اتراك) في آسيا العليا
٧٤٦	الصين : الانتصار الثاني على التبت
٧٤٧	
٧٥٠	الصين : بداية انحطاط التانغ، الهند : امبراطورية راشتراكوتا، تشييد « كلاسا الورا » في عهد كرشنا الاول (٧٥٨ - ٧٧٢ ؟)، طرد التبتيين من بامير، جارا الوسطى : تشييد بارابودور
٧٥١	العرب ، حلفاء التبتيين يسحقون الصينيين ؛ آسيا الوسطى كلها في قبضة المسلمين، آل « لو - لو » في نان - تشاو يسحقون الصينيين
٧٥٤	
٧٥٧	
٧٦٠	جارا الوسطى : ثبوت عبادة ال « لنفا » الملكية، الصين : انتصارات على البرابرة
٧٦٢	الصين : اعادة سلطة التانغ، التخلي عن التوسع الاقليمي، وفاة الشاعر « لي تاي - بو »
٧٦٤ - ٧٧٠	اليابان : طبع النصوص البوذية
حوالي ٧٦٥ - ٧٧٠	الهند : ولاية آل « بالا »، البنغال تغدو ملجأ البوذية
٧٦٨	
٧٧٠	الصين : وفاة الشاعر « توفو »
٧٧١	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
٧٧٣ - ٨١٩	شارلمان ملك المباردين	
٧٧٤		المرب يستولون على كابيشا
٧٧٥ - ٨٠٩	هزيمة رونسفو	
٧٧٨		
٧٨١		
٧٨٢	الكوينوس في غاليا	
٧٨٣ - ٧٨٥	شارلمان يفتح الساكس	
٧٩٣	الغارات السكندنافية الاولى على انكلترا	
٧٩٤	الحكم على هرطقة التبي في مجمع فرنكفورت	
٧٩٦	شارلمان يخضع الافار	
٧٩٦ - ٨٠٥	تشيد كنيسة اكس	
٨٠٠	شارلمان يتوج امبراطوراً في روما	تنظيم الامارة الاغلبية في افريقيا ادريس الثاني يؤسس فاس
٨٠١	الفرجة يستولون على برشونا	
٨٠٢		
٨٠٦		غارة الاسماهيليين على كورسكا
٨٠٨		
٨٠٩		وفاة هارون الرشيد
حوالي ٨١٢		
٨١٣		انتصار البلغار على بيزنطية
٨١٤	وفاة شارلمان	
حوالي ٨٢٠	الغارات النورماندية على غاليا	وفاة الشافعي
حوالي ٨٢١	اسجهارد يضع « حياة شارل »	
٨٢٢		
٨٣٠ - ٨٣١		المرب يستولون على بالمو
٨٣٣	اقالة « لويس الثاني »	
٨٣٦ - ٨٤٠		
٨٤٠	وفاة « لويس الثاني »	المرب يستولون « على « هاري »
٨٤٣	مقاسمات فردان	العودة نهائياً الى تكريم الايقونات في بيزنطة
٨٤٥	هتكبار اسقف « رمس »	
٨٤٦		هجوم اسماعيلي مفاجيء على روما

التواريخ	آسيا الشرقية
٧٧٣ - ٨١٩	الصين : الكاتب لياو تسانغ - يوان
٧٧٤	
٧٧٥ - ٨٠٩	
٧٧٨	جاوا الوسطى : تكريس الشندي « كالاسان »
٧٨١	اليابان : عهد الـ « ملان » الاول (حتى ٩٦٧) . نفوذ الـ « فوجيوارا » ،
٧٨٢	تقدم فكري وفني في كيوتو
٧٨٣ - ٧٨٥	
٧٩٣	
٧٩٤	
٧٩٦	
٧٩٦ - ٨٠٥	
٨٠٠	
٨٠١	
٨٠٢	كمبوديا : جايا فرمان يؤسس الامبراطورية الخيرية وعبادة الاله الملك . تشييد معبد « كولن »
٨٠٦	
٨٠٨	الصين : استيلاء الاتراك الـ « ش - تو » على الشمال الغربي
٨٠٩	
حوالي ٨١٢	الهند : سقوط الـ « بلافا »
٨١٣	
٨١٤	
حوالي ٨٢٠	
حوالي ٨٢١	
٨٢٢	الصين : تمعد الصلح مع التبت
٨٣٠ - ٨٣١	
٨٣٣	
٨٣٦ - ٨٤٠	الصين : نصوص الكلاسيكيين الكونفوشيوسيين تحفر على الحجر
٨٤٠	آسيا العليا : الاتراك الـ « كرخيز » يستولون على عاصمة الويكور قربلفاسوم ويملكوم في منفوايا
٨٤٣	
٨٤٥	الصين : اضطهاد البوذية والنسطورية
٨٤٦	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
حوالي ٨٥٠		ذروة حركة المعتزلة - تأسيس اماره كيبف
٨٥٨	ولاية نقولا الاول	بدء كرازة كيرلس ومتوديس في مورافيا
٨٦٤		تنصر البلغار
٨٦٧	السكندنافيون يستقرون في يورك	انشقاق فوتيوس - اوائل السلالة المقدونية
٨٦٨		وفاة الجاحظ. اوائل عهد الطولونيين في مصر
٨٧١	انكلترا : ولاية الفرد الكبير	ايران : اوائل عهد السامانيين
حوالي ٨٧٤		
٨٧٥		
٨٧٧		العراق : اندلاع ثورة الزنج
٨٧٨	تنصر ملوك الدانمرك	
٨٨٠		
٨٨٢		
٨٨٤		
٨٨٥	النورمنديون يحاصرون هاريس . الفرد يحرق لندن	جيورجيا : اعلان الملكية البغرافية
٨٨٧	اقالة « شارل البدين »	
٨٨٨ - ٨٩٠		
٨٩٠		اندلاع ثورة القرامطة
٨٩٣		ولاية القيصر البلغاري سمعان
٩٠٠	غارات هنغارية على بافاريا	استيطان الهنغارين في بانوفيا. الاسماعيليون يستقرون في برفنسا
٩٠٢ - ٩٦٥		
٩٠٧		
٩٠٨		عهد الامراء في بغداد
٩٠٩		الفاطميون يفتشون افريقيا الشمالية
٩١٠	تأسيس دير كلوني	
٩١١	معاهدة سان سير (على نهر الالب) تمترف بتوطن النورمنديين في حوض السين الاسفل	
حوالي ٩٢٠		
٩٢٢		وفاة الطبري . اعدام الحلاج
٩٢٩		اعلان خلافة قرطبة

التواريخ	آسيا الشرقية
حوالي ٨٥٠	
٨٥٨	
٨٦٤	
٨٦٧	
٨٦٨	الصين : طبع مؤلف بوذي
٨٧١	
حوالي ٨٧٤	
٨٧٥	الصين : ثورة فلاحي هوانغ تشار
٨٧٧	
٨٧٨	
٨٨٠	الصين : هوانغ تشار يستولي على لو - يانغ
٨٨٢	الصينيون يستنجدون بالأتراك
٨٨٤	الصين : انتحار هوانغ تشار
٨٨٥	
٨٨٧	
٨٨٨ - ٨٩٠	الهند : الشولا يجهزون على البلافا . الامبراطورية الحيرية : ولاية ياشوفرمان . تأسيس مدينة انفكور
٨٩٠	
٨٩٣	
٩٠٠	
٩٠٢ - ٩٦٥	تجزئة الصين : السلالات الخمس
٩٠٧	الصين : زرال نفوذ التانغ . الهند : ولاية سلالة راجبوت في مالفا . الشولا يزهون البانديا
٩٠٨	
٩٠٩	
٩١٠	
٩١١	
حوالي ٩٢٠	الصين : الكيتات المغوليون يحملون محل الكرغيز الأتراك في الشمال
٩٢٢	
٩٢٩	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
٩٣٢		وفاة الاشعري
٩٣٥		
٩٣٦	ولاية اوتون الكبير	
٩٣٧	غارات هنغارية على « بري » وروما	
٩٤٥		اقامة النظام البويهي في بغداد
٩٤٧		
٩٤٨	مبورغ « عاصمة » البلدان السكندنافية	
٩٥٥	اوتون الكبير ينتصر على الهنغارين في بافاريا	
٩٦٠		
٩٦٢	اوتون الكبير يتوج امبراطوراً . احداث مركز اساقفة في مغدنبورغ	
٩٦٧		
٩٦٩		فتح الفاطميين لمصر . تأسيس القاهرة
٩٧٢	اوائل تعليم جريير في « رمس » . تأسيس اسقفية براغ	طرد الاسماعيليين من بروفنا
٩٧٢ — ١٠٠٨	ازدهار مدرسة لياج الاسقفية في عهد الاسقف نونجر	
٩٧٣	وفاة اوتون الكبير	
٩٧٤		
حوالي ٩٧٥	تزيين كنيسة اثلولد في وستمنستر	اندلاع الحروب الكبرى الاولى بين البيزنطيين والحمدانيين
٩٧٦		ولاية باسيلوس الثاني
٩٧٩		
٩٨٥	تصوير اسطفانوس ملك هنغاريا	
٩٨٧	انتخاب هونغ كابت ملكاً على فرنسا	
٩٨٩	اوائل حركة سلم الرب في الاكيتين	اهتداء فلاديمير امير كييف الى المسيحية
٩٩١	غزوة الدانمركيين الكبرى لانكلترا	
٩٩٩	انتخاب جريير حبر اعظم (سيلستروس الثاني) . اوتون الثالث يختار روما عاصمة له	
١٠٠٢		اسبانيا : وفاة ابن ابي عامر المنصور
١٠٠٥		
١٠١٩ — ١٠٠٦	تشيد نارتكس كنيسة سان فيليبير في تورفوس	
١٠٢١ — ١٠٠٨		
١٠٠٩	بدء نشاط المغاربة النورمانيين في ايطاليا الجنوبية	

التواريخ	آسيا الشرقية
٩٣٢	الصين : طبع المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشيوسية
٩٣٥	
٩٣٦	الكينيات يستولون على بكين
٩٣٧	
٩٤٥	
٩٤٧	الصين : تجزئة اقليمية
٩٤٨	
٩٥٥	
٩٦٠	الصين : ولاية السونغ . استعادة الاراضي السليبة . انطلاق الفنون والآداب . توسع الطباعة
٩٦٢	
٩٦٧	اليابان : عهد هيلان الثاني (حتى ١١٦٧) . افول شمس الـ « فوجيوارا »
٩٦٩	
٩٧٢	
٩٧٢ - ١٠٠٨	
٩٧٣	الهند : آل « شالوكيا » (كالياني) يحلون محل آل « واشتراكوتا » في مهاراشترا
٩٧٤	الهند : ولاية آل « سولانكي » (سلالة هندية) في قاتياوار
حوالي ٩٧٥	الهند : تجزئة امبراطورية كالوج
٩٧٦	
٩٧٩	الصين : امبراطورية السونغ (باستثناء بكين) تبلغ الذروة
٩٨٥	الهند : الامبراطورية الشولية تبلغ الذروة
٩٨٧	
٩٨٩	
٩٩١	الهند : سقوط بشاور في ايدي الاتراك الفزنويين
٩٩٩	
١٠٠٢	الامبراطورية الخيرية : سوريافرمان الاول . توسع اقليمي في « سيام »
١٠٠٥	تحالف امبراطورية كريفيجايا (سوماترا وجارا) والهند الجنوبية
١٠١٩ - ١٠٠٦	
١٠٢١ - ١٠٠٨	الهند : فتوحات محمود الفزنوي في الشمال
١٠٠٩	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٠١٠		ايران : الفردوسي ينجز الشاهنامه
١٠١٢ - ١٠١٧		
١٠١٤ - ١٠١٨		باسيليوس الثاني يفتح بلغاريا
١٠١٥ - ١٠٣٥	امبراطورية كنوت الكبير الدانمركية	
١٠١٨ - ١٠٣٢	تشيد دير ريبولي	
١٠٢١		
قبل ١٠٢٥		بيزنطية تضم ارمينيا اليها
١٠٢٥ - ١٠٣٠		
١٠٢٧ - ١٠٢٨		
١٠٣٠	البوادر الاولى لحركة التكتل القروي في إيطاليا	
١٠٣٣	تكريس كنيسة سان ميشال في هيلدشم	
حوالي ١٠٣٣ - ١٠٤٢		
١٠٣٦ - ١٠٦٨		
١٠٣٧		موت ابن سينا
١٠٤٠		انتصار السلجوقيين في دندخان
حوالي ١٠٤٢		
١٠٤٤		
١٠٤٤ - ١٠٧٧		
١٠٥١		غزوة هلالية في افريقيا الشمالية
١٠٥٤		انشقاق ميخائيل كيرولاوريوس
١٠٥٥		دخول طفري بك الى بغداد
١٠٥٩	اقرار حرية انتخاب البابا برسوم	
١٠٦٠	روبر جيسكار يبدأ فتح صقليا	
١٠٦٢ - ١٠٦٦	تشيد دير السيدات في كان	
١٠٦٣	حملة عسكرية مسيحية الى وادي الايبر	
١٠٦٤ - ١٠٦٥	غارات فردينان الاول على كوامبر وفالنس	
حوالي ١٠٦٥ - ١١٠٠	« انشودة رولان »	
١٠٦٦	غليوم النورمندي يفتح انكلترا	
١٠٦٨		

التواريخ	آسيا الشرقية
١٠١٠	
١٠١٢ - ١٠١٧	الهند : امبراطور شولا ، راجندرا ، يحتل سيلان ويهرم آل « كاييلندرا » (جافا) في مضيق مالاكافا وفي سومطرا
١٠١٤ - ١٠١٨	
١٠١٥ - ١٠٣٥	
١٠١٨ - ١٠٣٢	
١٠٢١	الصين : صراع المثقفين
١٠٢٥ قبل	
١٠٣٠ - ١٠٢٥	جاوا : خوض الحرب ضد الشولا
١٠٢٧ - ١٠٢٨	اليابان : وفاة فوجيوارا ميشيناغا . سامي البرذية . نشوب الصراع بين آل « ميناموتو » و آل « فوجيوارا »
١٠٣٠	شعبا : تحالف والامبراطورية الخيرية
١٠٣٣	امبراطور الشولا يرسل وفداً الى بلاد الصين
١٠٣٣ - ١٠٤٢ حوالي	جاوا : ولاية لنغا « البالي » الاصل . توحيد جاوا الشرقية . نمو البراهمانية
١٠٣٦ - ١٠٦٨	اليابان : صدور الاوامر تكراراً بمنع احداث « شون جديدة »
١٠٣٧	
١٠٤٠	
١٠٤٢ حوالي	جاوا : تقسيم جاوا الشرقية بين قاديري وسورامايا
١٠٤٤	آل « داي كوفيات » تبني فيجايا ، عاصمة « الشاميين » ، للسلب
١٠٤٤ - ١٠٧٧	بورما : ملك انارودا في باغان . اصلاحات سياسية ودينية . انشاء معابد كثيرة . فتوحات اقليمية
١٠٥١	اليابان : بدء حرب « السنوات التسع » بين ميناموتو وفوجيوارا
١٠٥٤	
١٠٥٥	
١٠٥٩	
١٠٦٠	
١٠٦٢ - ١٠٦٦	
١٠٦٣	
١٠٦٤ - ١٠٦٥	
١٠٦٥ - ١١٠٠ حوالي	
١٠٦٦	
١٠٦٨	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٠٧٠	لانفرانك رئيس اساقفة كنقري : اصلاح الكنيسة الانكليزية . البوادر الاولى للتكتل القروي في شمالي الكوار (له مان)	سحق الجيش البيزنطي في «منزيركوت»
١٠٧١	غريغوريوس السابع يعطي السيدة البابوية	
١٠٧٣	براءة الحكم على التولية العلمانية	
١٠٧٥	مقابلة غريغوريوس السابع والامبراطور هنري الرابع في	
١٠٧٧	كانوسا القديس انطوس رئيس دير بك	
١٠٧٨		تنظيم شعبة الحشاشين
حوالي ١٠٨٠		ولاية الكسيوس كومنينوس
١٠٨١		الكسيوس كومنينوس يمنح البندقيين امتيازاً
١٠٨٢	تأسيس دير « الشارروز الكبير »	
١٠٨٤	الفونس السادس ملك قشتالة يستولي على طليطلة . وفاة غريغوريوس السابع	
١٠٨٥		انتصار المرابطين على مسيحي اسبانيا
١٠٨٦		
١٠٨٧		
١٠٨٨	بدء تعليم ارنبروس في بولونيا . القديس هوج يشرع في تشييد دير كلوني الكبير	
١٠٩٢		موت ملك شاه
١٠٩٤	تشيد كنيسة القديس مرقس في البندقية	
١٠٩٥	اوربانوس الثاني يدعو في كليرمون الى الحملة الصليبية الاولى	
١٠٩٥ - ١١٣٧	نشاط ادبي يديه غليوم دوق اكييتين	
١٠٩٨	تأسيس دير سينو	
١٠٩٩		استيلاء الصليبيين على اورشليم
١١٠٠		
١١٠١	تأسيس دير النساء في مونتفور	
١١٠٣	غليوم دي شامبو ، مدير مدرسة باريس الاسقفية	
١١٠٨	رينيه دي هوي يصب جرن العماد في كنيسة سان برتلي في لياج	
١١١٢		وفاة الغزالي
١١١٥	القديس برناردوس رئيس دير كليرفو	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٠٧٠	الصين : البدو التبتيون « سي - هيا » يخضعون الشمال الغربي
١٠٧١	
١٠٧٣	
١٠٧٥	
١٠٧٧	الصين : وفاة الفيلسوف شار يونغ
١٠٧٨	
حوالي ١٠٨٠	
١٠٨١	
١٠٨٢	
١٠٨٤	
١٠٨٥	
١٠٨٦	شعبا تمردا صلحا مع الصين .. بورما : المفتسب كينزيتا يتولى الحكم. انطلاقة جديدة في الفن البوذي
١٠٨٧	اليابان : تجدد الاعمان العدائية بين فوجيوارا وميناموتو
١٠٨٨	
١٠٩٢	
١٠٩٤	
١٠٩٥	
١٠٩٥-١١٢٧	
١٠٩٨	
١٠٩٩	
١١٠٠	الهند : مملكة الـ « هويسالا » تتحرر من سيطرة الـ « شاتوكيا » - الصين : ولاية هواي تسونغ. انطلاقة الادب والفن (هانغ - تشيو) . عقد تحالف مع الجورثات ضد الحكيمات .
١١٠١	
١١٠٣	
١١٠٨	
١١١٢	الامبراطورية الخيرية : ولاية سوريا فرمان الثاني باني انفكورات . امتداد النفوذ الخيري الى سلام الوسطى وشعبا واثام .
١١١٥	

الشرق الأدنى	الغرب	التواريخ
	تزيين بوابة ماساك بالنقوش	١١١٥ - ١١٢٠
	حملة روجيه الثاني ملك صقليا على تونس	١١١٨
سقوط تفليس في ايدي الجيورجيين		١١٢١
	اتفاقية وورمس بين البابا والامبراطور. نهاية صراع التوليات.	١١٢٢
		١١٢٥ - ١١٢٦
زنكي في الموصل	المدن الفلنكية تحصل على بعض الاعفاءات.	١١٢٧
	اقرار نظام فرسان المعبد .	١١٢٨
وفاة المهدي الموحد ابن طومرت		١١٣٠
	الاب الرئيس سوجر يعيد بناء القسم الامامي والخورس في كنيسة سان دنيس .	والي ١١٣٥ - ١١٤٤
	براءة غوثيانوس	حوالي ١١٤٠
	جمع سنس يصدر حكمه على ابيلاز	١١٤٠
	القرابطاط يحتلون ما وراء النهر	١١٤١
	تأسيس لوبك	١١٤٣
استيلاء زنكي على الرها		١١٤٤
نور الدين يتولى الحكم في حلب	مدخل شارتر الملكي	حوالي ١١٤٥
		١١٤٦
	القديس برناردوس يدعو للحملة الصليبية الثانية	١١٤٧
اخفاق الحملة الصليبية الثانية امام دمشق		١١٤٨
		حوالي ١١٥٠
غزو الاوغوز لخراسان	ولاية فردريك بربروس	١١٥٢
	وفاة القديس برناردوس	١١٥٣
	جمية رونكاليا ، فردريك بربروس يبغي استعادة الحقوق الملكية في ايطاليا الشمالية - ولاية هنري بلانتاجنه الثاني ملك انكلترا .	١١٥٤
		١١٦٠
	نشاط « كريتيان دي طورا » الادبي	١١٦٢ - ١١٨٢
	تشيد كنيسة السيدة (نوردام) في باريس .	١١٦٣ - ١١٩٦
		١١٦٧
	اغتيال توماس بكيت	١١٧٠

التواريخ	آسيا الشرقية
١١٢٠ - ١١١٥	
١١١٨	الهند : الاتراك الفزنونون في البنجاب
١١٢١	
١١٢٢	
١١٢٦ - ١١٢٥	الصين : الكيتات يزومون السونغ
١١٢٧	الصين : السونغ يتغلون عن الشمال ويملكون في نانكين
١١٢٨	
١١٣٠	الصين : الفيلسوف تشومي . تأليف الكونفوشيوسية الحديثة . انقسام المثقفين .
حوالي ١١٣٥ - ١١٤٤	
حوالي ١١٤٠	
١١٤٠	
١١٤١	
١١٤٣	
١١٤٤	
حوالي ١١٤٥	
١١٤٦	
١١٤٧	منغوليا : « الملك » المغولي الاول ينتصر على الكين (الصين الشمالية الشرقية) .
١١٤٨	
حوالي ١١٥٠	الصين : تجزئة سياسية
١١٥٢	
١١٥٣	
١١٥٤	
١١٦٠	اليابان : اضطرابات سياسية حتى السنة ١١٨١
١١٨٢ - ١١٦٢	
١١٦٦ - ١١٦٣	
١١٦٧	منغوليا : مولد تامودجين (جنگيز خان)
١١٧٠	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
١١٧١		صلاح الدين يلغي الخلافة الفاطمية - تقتيل الفاطميين في القسطنطينية .
١١٧٦	نشأة الشيعة الفالدية في ليون	انهزام البيزنطيين امام الاتراك في ميسكيفالون
١١٨٥	ولاية فيليب ارغست ملك فرنسا	وفاة مانويل كومنينوس .
١١٨١		
١١٨٥		
١١٨٦		
١١٨٧		سقوط القدس في ايدي صلاح الدين
١١٩٥	وفاة فردريك بربروس	الحملة الصليبية الثالثة ؛ الصليبيون يحتلون قبرص
١١٩٢	اصدار نقد الجلة في البندقية	انتصار الخوارزميين في ايران
١١٩٣		
١١٩٦		
١١٩٧		لاون الال، ملك ارمينيا - كيليكيا
١١٩٨	ولاية انوشنتيوس الثالث. (توفي في السنة ١٢١٦)	وفاة ابن رشد
١٢٠٢	بلاط ملك فرنسا يقر مصادرة اقطاعات « جان سان تير »	
١٢٠٤	استيلاء اللاتين على القسطنطينية	«فتوة» الخليفة الناصر - وفاة الميمون.
١٢٠٦	اسطفان لنتون رئيس اسقف كنتربري . - القديس دومنيك يدعو في تولوز الى مناهضة هرطقة الاطهار .	
١٢٠٧		
١٢٠٨	بدء الحملة الصليبية على الالبيين	
١٢٠٩	تأسيس الاخوية الفرنسيسكانية الاولى .	
١٢١٠	خطر شرح فلسفة ارسطو الطبيعية في المدارس الباريسية	
١٢١٢	مباشرة تشييد كاتدرائية « رمس »	معركة لاس نافاس دي لا تولوزا
١٢١٤	معركة برفين	
١٢١٥	انكسار : الالفية الكبرى . - فردريك الثاني يفرض نفسه في المانيا . - مجمع لاتران الرابع . - انظمة جامعة باريس .	
١٢١٨		
١٢٢٥	فردريك الثاني يضع اول تشريع ضد المهرطقة .	
١٢٢١		

التواريخ	آسيا الشرقية
١١٧١	
١١٧٦	
١١٨٠	
١١٨١	الامبراطورية الخيرية : ولاية جايافرمان السابع تشييد « البايون » و « انفكور نوم »
١١٨٥	اليابان : اصلاح الميناموتو والسياسي، ناسبس كاماكورا، ادخال «الشوغون». دخول زراعة الشاي
١١٨٦	محمد الفوري يضم البنجاب اليه
١١٨٧	
١١٩٠	الهند : تقسيم ماهارا شيرا
١١٩٢	
١١٩٣	الهند : محمد الفوري يضم سلطنة دلهي
١١٩٦	منغوليا : تاموجين يحمل اسم شنكيزخان
١١٩٧	الهند : سقرط « البالا » في البنغال ، ولاية « السينا » .
١١٩٨	
١٢٠٢	الهند : انهيار السينا ، السلاطين البوذيين الآخرين ، في البنغال ، انتصار الجيوش الاسلامية
١٢٠٤	منغوليا : جنكيزخان يخضع النيان ويستخدم كاتباً تركياً يتكلم الويكور ويكتبها .
١٢٠٦	الهند : وفاة محمد الفوري ، سلطنة دلهي تنتقل الى الممالك الاثرالك .
١٢٠٧	منغوليا : جنكيزخان يرحد قبائل الاويرات والماركيث والكركيث
١٢٠٨	
١٢٠٩	الصين : جنكيزخان يهاجم « سي - هيا »
١٢١٠	
١٢١٢	
١٢١٤	
١٢١٥	
١٢١٨	جنكيزخان يهاجم القراخيطة
١٢٢٠	جنكيزخان يهاجم خوارزم
١٢٢١	جنكيزخان يهزم الكيشاك

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
١٢٢٢		
١٢٢٤ - ١٢٣٥	روبير غروستات مستشار جامعة اركسفورد	
٢٢٦	ولاية القديس لويس	
١٢٢٧		
١٢٢٩		عقد معاهدة بين فردريك الثاني والكامل الايوبي
١٢٣١	شرائع ملقي تعيد تنظيم ادارة مملكة صقليا	وفاة شاه خوارزم جلال الدين
١٢٣٢		
حوالي ١٢٣٦	الجزء الاول من « قصة الورد » لفلوم دي لوريس	
١٢٣٦ - ١٢٤٢		المغول يفزون روسيا وبنغاليا
١٢٤١		
١٢٤٣	الشروع ببناء « السانت شاييل »	المغول يسحقون سلاجقة آسيا الصغرى
١٢٤٤		معركة غزة
١٢٤٥	جمع ليون . اقالة فردريك الثاني	
١٢٤٥ - ١٢٤٨	البير الكبير يلقي الدروس في باريس	
١٢٤٦		
١٢٤٨		حملة القديس لويس على مصر
١٢٤٨ - ١٢٥٥	القديس بونا فنتورا يلقي الدروس في باريس	ولاية المماليك في مصر
١٢٤٩		
١٢٥٠	وفاة فردريك الثاني . بدء « فترة خلو كرسي الملك »	
١٢٥١		
١٢٥٢	اصدار الفلورين الذهبي في فلورنسا	
١٢٥٢ - ١٢٥٧	الاساتذة العلمانيون يحاولون الحد من مراكز « المتسولين » في جامعة باريس	
١٢٥٣		
١٢٥٦	تزاويق كتاب المزامير للقديس لويس	المغول يقضون على الحشاشين
١٢٥٨	انكلترا : استيلاء البارونات على السلطة	المغول يقضون على الخلافة في بغداد
١٢٥٩	معاهدة باريس بين لويس وهنري الثالث ملك انكلترا .	
١٢٦٠	نيقولا بيزانو يزين جرن العماد في بيزا - باب العذراء في كنيسة السيدة في باريس	هزيمة المغول في عين جالوت في سوريا . - ولاية بيبرس في مصر .

التواريخ	آسيا الشرقية
١٢٢٢	جنكيز خان يستدعي الراهب الطاوي كسبو تشانغ . تشيو - اليابان : مولد الفيلسوف نيشين
١٢٢٤ - ١٢٣٥	
١٢٢٦	جنكيز خان ينتصر على السي - هيا . - الهند : تشيد قطب المنار في دلهي
١٢٢٧	وفاة جنكيز خان .
١٢٢٩	ولاية اوغوداي . بي - ليو تشو تساي ينظم الامبراطورية المنغولية على الطريقة الصينية . تأسيس قرا كوروم . انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا
١٢٣١	انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا .
١٢٣٢	الهند : سقوط « سرلانكي » في قاتيارار .
حوالي ١٢٣٦	
١٢٣٦ - ١٢٤٢	الصين : اوغوداي يصدر للمرة الاولى النقد الورقي .
١٢٤١	منغوليا : ولاية غويوك
١٢٤٣	
١٢٤٤	
١٢٤٥	
١٢٤٥ - ١٢٤٨	
١٢٤٦	الفرنسيكان « جان دي بيان كريينو » في البلاط المغولي
١٢٤٨	وفاة غويوك
١٢٤٨ - ١٢٥٥	
١٢٤٩	
١٢٥٠	القديس لويس يوفد ثلاثة اخوة متسولين الى البلاط المغولي
١٢٥١	منغوليا : ولاية مونكا
١٢٥٢	
١٢٥٢ - ١٢٥٧	
١٢٥٣	الفرنسيكان غليوم دي روبروك في البلاط المغولي
١٢٥٦	ولاية هولكو . جمع بودي في قرا كوروم
١٢٥٨	
١٢٥٩	
١٢٦٠	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
١٢٦١		ميشال بالبولوغ يستعيد القسطنطينية من اللاتين
١٢٦٣		
١٢٦٥	القديس توما يشرع في وضع « الخلاصة اللاهوتية »	
١٢٦٦	روجيه بيكون يحرر « العمل الأكبر » - شارل دالمجو يتولى فتح صقلية	
١٢٦٧	نظام مارلبرو يعين حدود السلطة الملكية في انكلترا	
١٢٧٠	صدور الحكم الاول على ثالمين سيجر دي براهان	وفاة القديس لويس اثناء الحملة الصليبية على تونس
١٢٧١		
١٢٧٢	ولاية ادوارد الاول ملك انكلترا	
١٢٧٣		
١٢٧٤	مجمع ليون ؛ وحدة سريعة الزوال بين الكينيسين الشرقية والغربية	
١٢٧٥	الجزء الثاني من « قصة الوردة » لجان دي مونج	
١٢٧٦ - ١٢٧٩		
١٢٧٨ - ١٢٧٩		وصول الراهبين النسطوريين الشرقيين الى بلاد ما بين النهرين
١٢٨١		
١٢٨٢	مجزرة الفبرسين في صقلية	
١٢٨٤	معركة ميلوريا ، خراب بيزا على يد جنوى .	
١٢٨٥	ولاية فيليب له بيل	
١٢٨٨		
١٢٨٩		
١٢٩٠		
١٢٩١	اتحاد طوائف سويسرا الوسطى	سقوط عكا - وفاة السمدي
١٢٩٣		
١٢٩٤	الحرب الفرنسية الانكليزية لاجل غويان . - ولاية بونيفاسيوس الثامن	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٢٦١	
١٢٦٣	النسطوري السوري ، عيسى ، يعين مديراً لمكتب الاحوال الفلكية لدى كوبيلاي .
١٢٦٥	وفاة هولاكو
١٢٦٦	اقامة الـ « بولو » الاولى في بكين
١٢٦٧	
١٢٧٠	
١٢٧١	الـ « بولو » يسافرون مرة ثانية من البندقية الى الصين
١٢٧٢	
١٢٧٣	الصين : المغول يستولون على سيانغ - يانغ بعد حصار دام خمس سنوات
١٢٧٤	
١٢٧٥	احداث مركز رئاسة اساقفة نسطورية في بكين . الـ « بولو » في الصين
١٢٧٩ - ١٢٧٦	سقوط السونغ . كوبيلاي يؤسس سلالة يوان
١٢٧٩ - ١٢٧٨	الصين : منع الدعاة الاسلامية . - الهند : الكتابات الشولية الاخيرة
١٢٨١	كوبيلاي يخفق في مهاجمة اليابان
١٢٨٢	
١٢٨٤	
١٢٨٥	
١٢٨٨	ماركو بولو في البلدان الجنوبية الشرقية
١٢٨٩	كوبيلاي يحدث مكتباً يسند اليه شؤون العبادة المسيحية
١٢٩٠	الهند : انتقال سلطة دهي الى الامراك (فيروز)
١٢٩١	ماركو بولو يعود الى اوروبا
١٢٩٣	كوبيلاي يخفق في مهاجمة جاوا . - جاوا الشرقية : تأسيس امبراطورية ماجا باهيت
١٢٩٤	الصين : امتداء النسطوري الارنفوت الامير جورج ، على يد جان دي مونتيكورفينو ، الى المتقد الكاثوليكي الروماني . - ولاية تيمور . - الهند : المسلمون يسيطرون على المهاراشترا .
	خاتمة السلاسل الاقليمية في الميزور

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
١٢٩٦		
١٢٩٧		
١٢٩٨		
قبل ١٣٠٠		تكون الامارات التركانية في آسيا الصغرى
١٣٠١ - ١٣٠٢		
١٣٠٢	فيليب له بيل يستشير ممثلي المملكة في باريس . - هزيمة الفرسان الفرنسيين في كورتريه	
١٣٠٣	اعتداء أثناسي . - وفاة بونيفاسيوس الثامن	السكانالونيون في الشرق
١٣٠٤ - ١٣٠٨	دولس سكوت يلقي الدروس في باريس	
بعد ١٣٠٦	رسوم « الارينا دي بادرا » الجدرانية لجيو تو	
١٣٠٧	بروز قضية فرسان المعبد . - وفاة ادوارد الاول	
١٣١٢	اتفاق كورتنبيرغ في برابان	
١٣١٢ - ١٣١٤	دانتي يكتب « جهنم »	
١٣١٤	الساعة العامة الاولى في فرنسا ، في كان . - وفاة فيليب له بيل واكليمنضوس الخامس	
١٣١٥	بدء ازمة حبوب وأوبئة في كافة أنحاء اوروبا . - احلاف اقطاعية في فرنسا . - دوتشيو يرسم لوحة « الجلال » في سينا .	
١٣١٦	صلح فكس في لياج - الشروع ببناء قصر الباباوات في افينيون	
١٣١٧	كتاب « الملكية » لدانتي	
١٣١٨ - ١٣٢٤	غليوم اوكهام يلقي الدروس في اوكسفورد	
١٣٢٢	براءة يوحنا الثاني والعشرين حول « الفن الجديد » . - ثورة الفلاحين في فلاندر البحرية	
١٣٢٣		
١٣٢٤	« حامي السلام » لمارسيل البادواني	
١٣٢٥	جامعة بارولس تعود عن حكمها على تعليم توما الاكوييني	
١٣٢٧	اقالة ادوارد الثاني ؛ ولاية ادوارد الثالث	
١٣٢٨	ولاية فيليب السادس دي فالوا . - تتوج لويس دي بافيير في روما	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٢٩٦	تشو تا - كوان في البلدان الجنوبية الشرقية
١٢٩٧	الهند : سلطان دهي يضم اليه قاتياوار
١٢٩٨	معاملة الصينيين كالغول سياسياً
قبل ١٣٠٠	
١٣٠١ - ١٣٠٢	الصين : اعادة النظر في القوانين لمصلحة البلدين
١٣٠٢	
١٣٠٣	
١٣٠٤ - ١٣٠٨	
بعد ١٣٠٦	
١٣٠٧	وفاة تيمور . - جان دي مونتيكورفينو يعين رئيس اساقفة بكين
١٣١٢	
١٣١٢ - ١٣١٤	
١٣١٤	الفرنسيسكاني اودريك دي بوردينون يبدأ رحلة الى آسيا الشرقية
١٣١٥	
١٣١٦	
١٣١٧	وفاة الارنكوت مرقص ، بطريك بغداد النسطوري
١٣١٨ - ١٣٢٤	
١٣٢٢	
١٣٢٣	الصين : ولاية يسون
١٣٢٤	
١٣٢٥	
١٣٢٧	
١٣٢٨	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٣٣٠	« الاعراس الروحية » لجان ري ووبسبروك . - « رينار المقلد »	
١٣٣٣		
١٣٣٥		زوال الامبراطورية المغولية في بلاد فارس
١٣٣٧	وفاة جيوتو . - القطيعة بين فيليب السادس وادوارد الثالث	
١٣٣٨		
١٣٤١	بقرارك يكلل بالفار في الكابيتول	ولاية يوحنا كنتاكردين
١٣٤٦	افلاس آل ياردي . - معركة كريسي	
١٣٤٧	تأسيس جامعة براغ . - دكتاتورية كولادي وينزو في روما . - برادر الطاعون الاسود . - استيلاء ادزارد الثالث على كاليه	
١٣٤٨	جان بوريدان على رأس جامعة باريس للمرة الثانية . - اكليمنضوس السادس يتنازع افينيون من الملكة « جان دي نابولي »	
١٣٤٩	وفاة غليوم اركهام . - حركة الجلادين	
١٣٥٠	ولاية جان له بون	
١٣٥١	كتاب المعلومات البحرية في المكتبة اللورنسية . - انكلترا : انظمة « الفلاحين » و « الرعاة »	
١٣٥٢	ولاية افوشلتيس السادس	
١٣٥٣	« الايام العشرة » لبروكاس	
١٣٥٤	« حياة المذلة » لبرفارك	المائثيون في غاليبولي
١٣٥٥		وفاة القيصر المصري اسطفان دوسان
١٣٥٦	معركة بواتيه . - الامبراطور شارل الرابع يذيع البراءة الذهبية	
١٣٥٧	الولايات الجنوبية تفرض « النظام الاكبر » على ولي العهد شارل	
١٣٥٨	اخفاق ثورة اتيان مرسيل في باريس . - ثورة الفلاحين . - ايفاد الكردينال البورنوز مرة اخرى الى ايطاليا	
١٣٦٠	مقدمات بريتينيني ومعاهدة كاليه . - فرق الادلاء في فرنسا	
١٣٦٢	النزاع بين الهانس والدانرك	السلطان مراد يستولي على اندرينوبولس

التواريخ	آسيا الشرقية
١٣٣٠	
١٣٣٣	الصين : كنيسة كان - تشيو النمطورية تؤدي عبادة لوالدة كوبيلاي
١٣٣٥	
١٣٣٧	
١٣٣٨	الجنوبي اندالودي سافيليانو يعين سفيراً للصين في اوروبا . - بعض الألين من الحرس الامبراطوري في الصين يمتنعون الدين الكاثوليكي الروماني .
١٣٤١	
١٣٤٦	
١٣٤٧	
١٣٤٨	
١٣٤٩	
١٣٥٠	
١٣٥١	
١٣٥٢	الصين : ثورة الجنوب على اليوان
١٣٥٣	
١٣٥٤	
١٣٥٥	
١٣٥٦	
١٣٥٧	
١٣٥٨	
١٣٦٠	
١٣٦٢	

التواريخ	الغرب	الشرق الأدنى
١٣٦٤	تأسيس جامعة كراكوفيا . - فرنسا : ولاية شارل الخامس	الحملة القبرصية على الاسكندرية
١٣٦٥	تأسيس جامعة فينا	
١٣٦٧	عودة اوديبوس الخامس الى روما . - معركة ناجيرا	
١٣٦٨	تأسيس الفرنسيكان المحافظين	
١٣٦٩	زواج فيليب الجسور من وريثة الفلاندر . - تجدد الحرب الفرنسية الانكليزية . - هنري دي تراسمار يفتال بيب القاسي في مونتيا	
١٣٧٠	صلح سترالسوند بين الهانس والداغرك	
١٣٧٣	الكتاب الاول من « يوميات » فرواسار	
١٣٧٤	وفاة بتاراك	
١٣٧٦	انكلترا : البرلمان الجديد . « السيادة المدنية » لويكيلف	
١٣٧٧	عودة غريغوريوس الحادي عشر الى روما . - « حلم الروضة » . - وفاة ادوارد الثالث	
١٣٧٨	انتخاب اوربانوس السادس واكليمنضوس السابع وبدا الانشقاق الكبير . - ثورة « الشيومي » في فلورنسا . - وفاة الامبراطور شارل الرابع .	الغرب
١٣٧٩	تشيد مبنى بلدية بروج وصحن كاتدرائية كنتربري . - انتفاضات ثورية في بعض مدن الفلاندر	
١٣٨٠	وفاة القديسة « كاترين دي سيان » ودوغسكلين وشارل الخامس	
١٣٨١	انكلترا : ثورة الفلاحين ؛ اولى وثائق الملاحه	
١٣٨٢	وفاة نقولا اورسم والملكة « جان دي نابولي » . - ولاية لادسلاس جاجلون في بولونيا . ثورات في بعض مدن فرنسا ، - معركة روسبك	
١٣٨٤	وفاة ويكيلف رجيرار دي كروت مؤسس اخوة الحياة المشتركة . فيليب الجسور ، كونت الفلاندر	
١٣٨٥	انتصار البرتغاليين على القشتاليين في (الجوباروتا)	
١٣٨٦	تأسيس جامعة هيدلبرغ . - انكلترا : البارونات يفرضون الوصاية على ريشار الثاني (قصص كنتربري) لشوسر	
١٣٨٧		
١٣٨٩		
١٣٩٢	جنون شارل السادس وسقوط حكومة (المرموزيد)	الغرب
١٣٩٥	كلوس سلوتر يشرع في تأليف (بشر موسى)	
١٣٩٦	اجتماع ريشار الثاني وشارل السادس في آردير . - جنوى تنضم الى فرنسا تلقائيا .	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٣٦٤	الصين : تشيو يوان - تشانغ يستولي على بكين ويؤسس سلالة المنغ
١٣٦٥	
١٣٦٧	
١٣٦٨	
١٣٦٩	
١٣٧٠	البابا يعين رئيس اساقفة في بكين
١٣٧٣	
١٣٧٤	
١٣٧٦	
١٣٧٧	
التواريخ	الشرق الادنى
١٣٧٨	انتصار ديثري دونسكوي ، دوق موسكو ، على المغول
١٣٧٩	
١٣٨٠	
١٣٨١	
١٣٨٢	
١٣٨٤	انتصار بايزيد الاول على الصرب في كوسوفو
١٣٨٥	
١٣٨٦	
١٣٨٧	
١٣٨٩	
١٣٩٢	كارثة هزيمة الصليبيين امام العثمانيين في نيكوبوليس
١٣٩٥	
١٣٩٦	

التواريخ	الغرب
١٣٩٧	وحدة « كلار » بين الممالك السكندنافية . - « استبداد » وشار الثاني
١٣٩٨	فرنسا : رفض الخوض لبابا افيلينون ؛ بدء الغاليسانية
١٣٩٩	انكلترا : هنري الرابع دي لنكستر يقبل وشار الثاني
١٤٠٢	جان هوس عميد جامعة براغ . - « بحث في خراب الكنيسة » لنغولا دي كلامانج . - استعمار جزر « الكافاري » على يد جان دي بيتنكور
١٤٠٣	غيرتي يبدأ تحت نقوش جرن العماد في فلورنسا
١٤٠٥	
١٤٠٦	ادخال الاستفراق الى جامعة « المعرفة » . - بيزا تقع تحت سيادة فلورنسا
١٤٠٧	اغتيال « لويس دورليان » بإيعاز من « جان سان بور »
١٤٠٨	« ساعات الدوق دي بري المشرقة جداً » لبول دي لمبورغ . - تأسيس « بيت القديس جورج » في جنوى
١٤٠٩	مجمع بيزا ؛ الانشقاق المثلث الروس
١٤١٠	البولونيون يسحقون الفرسان في فاننبرغ
١٤١٣	النظام الكابوشي . - ولاية هنري الخامس دي لنكستر
١٤١٤	افتتاح مجمع كونستانس
١٤١٥	ممركة ازنكور . - تعذيب جان هوس
١٤١٦	« القديس جورج » لدوناتو . - ولاية الفونس الخامس العظيم في اراغون
١٤١٨	دخول البورغونيين الى باريس . - هنري الخامس يحتل فورمنديا .
١٤١٩	احداث اسواق ليون الدورية . - وفاة القديس فنسان فيرييه . - اغتيال جان سان بور
١٤٢٠	كتاب « الاقتداء بيسوع المسيح » . - معاهدة طروا لجمال هنري الخامس يترقب تاج فرنسا . - ذروة الازمة النقدية في فرنسا
١٤٢١	برونسكلي يشرع في تنفيذ قبة فلورنسا
١٤٢٢	وفاة هنري الخامس وشارل السادس . وصاية بدفورد في فرنسا
١٤٢٤	هزيمة جيوش شارل السابع في فونوي
١٤٢٥	تأسيس جامعة لوفان . - لوحة « الحمل السري » لجان فان ايك . - « رقص الاموات » في مقبرة الابرياء في باريس
١٤٢٨	غليوم دوقاي عضو في « الحاشية » البابوية
١٤٢٩	مسيرة جان دارك وتكريس شارل السابع . - وفاة جان جرسون
١٤٣١	تعذيب جان دارك . افتتاح مجمع بال . - البرتغاليون في جزر الأسود
١٤٣٤	كوزمادي مديشي يستلم السلطة في فلورنسا . - البرتغاليون يدورون حول رأس بوجادور . - سحق الطاهورين في بومبيا
١٤٣٥	معاهدة أراس بين شارل السابع وفيليب له بون

التواريخ	الشرق الادنى
١٣٩٧	
١٣٩٨	
١٣٩٩	مانويل باليوبوغ يبحث عن المساعدات في الغرب
١٤٠٢	تيمورلنك يسحق بايزيد الاول في انكرا
١٤٠٣	
١٤٠٥	وفاة تيمورلنك
١٤٠٦	وفاة ابن خلدون
١٤٠٧	
١٤٠٨	
١٤٠٩	
١٤١٠	
١٤١٣	
١٤١٤	
١٤١٥	البرتغاليون يحتلون سبته
١٤١٦	
١٤١٨	
١٤١٩	
١٤٢٠	
١٤٢١	
١٤٢٢	
١٤٢٤	
١٤٢٥	
١٤٢٨	
١٤٢٩	
١٤٣١	
١٤٣٤	
١٤٣٥	

التواريخ	الغرب
١٤٣٧	الشروع ببناء كنيسة « سان ماكلو » في روان . - « العائلة » لألبرتي
١٤٣٨	قرار الملك والجلس في بوج
١٤٤٠	برونسكي يشرع في بناء قصر بيتي ، وميشلوني في بناء قصر مديشي في فلورنسا
١٤٤٤	« اللغة اللاتينية اللينة » للوران فاللا . - البرتغاليون في الرأس الاخضر . هدنة تور بين الانكليز والفرنسيين
١٤٤٥	شارل السابع يحدث فرق النظام
١٤٤٧	وفاة ارجانيوس الرابع ؛ انتخاب نقولا الخامس
١٤٤٨	اتفاقية فينا مع البابا حول البلدان الألمانية
١٤٤٩	نهاية انشقاق بال . - شارل السابع يبدأ حرب استعادة نورمنديا
١٤٥٠	تنظيم دار الكتب الفاتيكانية . - « سر الآلام » لارنولد غريبان . - كتاب ساعات اتيان شفاليه لجان فوكيه . معركة فورمينيبي
١٤٥٢	البير يتولى اعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما . - مولد ليوناردو دي فنشي . - اصلاح جامعة باريس على يد الكوردينال دستونفيل . - آخر تكريس لامبراطور (فردريك الثالث) على يد البابا
١٤٥٣	معركة كستيلون . - الحكم على جاك كور
١٤٥٤	معاهدة لودي تميد السلام الى الامارات الايطالية
١٤٥٥	غوتنبرغ يطبع « التوراة المازارينية » . - روسلينو يشيد قصر البندقية في روما . - وفاة الاخ انجليكو بيزانزو وغيرتي ونقولا الخامس
١٤٥٦	« الانظمة الافلاطونية » لمارسيل فيسين . - « الوصية الصغرى » لفيون
١٤٥٨	اينيا سيلفيو ينتخب حبراً اعظم (بيوس الثاني)
١٤٥٩	وفاة بوجيو والقديس انطونيوس البادواني . - مؤتمر مانتو . حرب إلمية في انكلترا
١٤٦٠	اوائل عهد بورصة انفرس . ثورة كاتالونيا على يوحنا الثاني
١٤٦١	فرنسا ؛ ولاية لويس الحادي عشر . - انكلترا ؛ ولاية ادوارد الرابع دي يورك
١٤٦٢	
١٤٦٣	تأسيس الاكاديمية الرومانية
١٤٦٤	تأسيس الاكاديمية الافلاطونية . - وفاة روجيه دي لباستور ونقولا دي كويبيوس الثاني
١٤٦٥	طبع « فن الموت » في كولونيا . - جان اوكجهم رئيس خورس لدى لويس الحادي عشر . - حلف الصالح العام
١٤٦٦	تدريس اللغة اليونانية في جامعة باريس ، - مولد ايراسم
١٤٦٧	« تنوير العذراء » لفيليبولبي . - لقاء لويس الحادي عشر وشارل الجسور في بيرون . - ثورة لياج
١٤٦٨	رسوم « كهوسانتو » في بيزا بريشة بنوزو جوزولي
١٤٦٩	« اللاهوت الافلاطوني » لمارسيل فيسين . - ولاية لوران وجولييان دي مديشي . - زواج فردينان الاراغوني من ايزابيلا القشتالية . - ماتياس كورفين ملك هنغاريا

التواريخ	الشرق الأدنى
١٤٣٧	
١٤٣٨	اتحاد الكنائس في مجمع قراري
١٤٤٠	
١٤٤٤	هزيمة الهنغارين والبولونيين في فارنا
١٤٤٥	
١٤٤٧	رحلة انطونيو ملفنتي الجنوبي الى طوات
١٤٤٨	
١٤٤٩	
١٤٥٠	
١٤٥٢	
١٤٥٣	محمد الثاني يستولي على القسطنطينية
١٤٥٤	
١٤٥٥	
١٤٥٦	
١٤٥٨	
١٤٥٩	
١٤٦٠	
١٤٦١	
١٤٦٢	سقوط ترازون
١٤٦٣	
١٤٦٤	
١٤٦٥	
١٤٦٦	
١٤٦٧	
١٤٦٨	وفاة اسكندر بك ونهاية المقاومة الالبانية في وجه العثمانيين
١٤٦٩	

التواريخ	الغرب
١٤٧٠	غليوم فيشييه يقيم مطبعة في جامعة باريس . - جبهة « سانتا ماريا نوفلا » في فلورنسا (البرتي)
١٤٧١	البرتغاليون يتخطون خط الاستواء
١٤٧٢	وفاة الكردينال بسايون . - توقيع اتفاقية بين سكستوس الرابع ولويس الحادي عشر .
١٤٧٣	لقاءات تريف بين شارل الجسور وفردريك الثالث دي هابسبورغ
١٤٧٤	« يوميات » رجيومونتافوس
١٤٧٥	فتح دار الكتب الفاتيكانية للعموم . - مولد ميكال انجلو . - (داود) لفركيو . - معاهدة بيكينمي بين لويس الحادي عشر وادوارد الرابع . - لويس الحادي عشر يصدر (الدينار الشمسي)
١٤٧٦	انتصارات السويسريين على شارل الجسور في غوانسون ومورا
١٤٧٧	طبع اول كتاب باللغة الفرنسية . - تأسيس جامعة اربسال . - مؤامرة (البازي) في فلورنسا . - وفاة شارل الجسور على مقربة من نانسى
١٤٧٩	« زواج القديسة كاترين السري » لملمنغ
١٤٨٠	وفاة الملك رينه دالمجو
١٤٨١	وفاة جان فوكيه . - ولاية جان الثاني البرتغالي
١٤٨٢	دياجو كام يكتشف مصب الكونفو . - معاهدة أراس بين لويس الحادي عشر ومكسيميليان النمساوي
١٤٨٣	مولد لوثر رافائيل وغيثاردن . - وفاة لويس الحادي عشر وادوارد الرابع
١٤٨٤	اجتماع ممثلي الطبقات في تور . - انتخاب افوشنتيوس الثامن
١٤٨٥	بيك دي لاميرندول في باريس . - الحرب الجنوبية في فرنسا . - ولاية هنري السابع تودور
١٤٨٨	برتلي دياز يدور حول رأس العواصف (الزجاج الصالح) . - مكسيميليان ينقل الى انفرس امتيازات التجار الاجانب في بروج . - « مذخرة القديسة اورسولا » لملمنغ
١٤٨٩	كومين يشرع في وضع مذكراته
١٤٩٠	تشيد بالافا . - « المدخل الى فلسفة ارسطو الميتافيزيقية » للفيفر ديتابل . - سافونارول وويس دير القديس مرقس في فلورنسا .
١٤٩١	(الزيارة) لفيرلنداجو . - مولد اغناطيوس دي لويولا . - زواج شارل الثامن من آنا البريطانية
١٤٩٢	وفاة لوران العظيم . - انتخاب الكسندروس السادس بورجيا . - كريستوف كولومبوس يكتشف العالم الجديد

التواريخ	الشرق الادنى
١٤٧٠	
١٤٧١	ايفان الثالث يضم نوفغورود
١٤٧٢	ايفان الثالث يتزوج من زويي باليولوغ
١٤٧٣	
١٤٧٤	ايفان الثالث يكل الى بعض الايطاليين تشييد الكرملين
١٤٧٥	سقوط كلغا في ايدي المغانين
١٤٧٦	
١٤٧٧	
١٤٧٩	
١٤٨٠	
١٤٨١	وفاة محمد الثاني
١٤٨٢	
١٤٨٣	
١٤٨٤	
١٤٨٥	
١٤٨٨	
١٤٨٩	
١٤٩٠	بيير دي كوفيلهام في الحبشة
١٤٩١	
١٤٩٢	الملاك السكاوليك يستولون على غرناطة

جدول الاعلام

- ١ -

عام ٥٠٧، ص ٢٧	الانتيك ٤٤٢، ٤٩٨
الالين ١٩، ٣٦٠، ٣٨٦	اثوس، اديار جبل ٢١٤، ٥٧٠، ٥٧٣
الان دي ليل، مؤلف الانتيكلوديانوس ٤٢٧	اجيا صوفيا اوكنيصة الحكمة ٤٩، ٥٩٢
الامر الفاطمي ٢١٣	ادم دي سان فكتور ٤٢٧
امو - داريا، نهر ٣٥٨	ادم دي لاهال ٤٢٩
اني، عاصمة ارمينيا قديما ٢١٦، ٢٣٥	ارال، بحر. ن: بحر ارال
الابر - نهر، ن: العبر، نهر	ارل، مدينة ١٧، ١٧٤، ٣٣٢، ٤٣٠
ابردين ٤٦٧	ارل مملكة ٤٤٩
الابروز - جبال ٥٢٠	الاروسية ١٨، ٢٧، ٣٤، ٤٨، ٥٣
ابقراط ١٣٥، ٣٢٥	ارنغا ٦٨، ٧٠، ٨٦
ابلس ١٩٠	ازوف، بحر. ن: بحر ازوف
ابليس ٤٧٨	اسوكا ٧١
ابن ابي اصيبعة ٣٤٤	اسيا، ٧، ٨، ٩، ٤٣، ٤٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩
ابن الانير ٣٤٤	١٠٩، ١٣٩، ١٩٠، ٢١١، ٢٢٣، ٢٢٧
ابن باجة ٣٣٤	٢٣٤، ٣٧٨، ٣٩٨، ٥٥٤، ٥٨٤
ابن ايباس ٥٥٢	- الاسلامية ٣٣٦
ابن بعلوطة ٥٦٢، ٦٢٦	- العليا ٣٨٧
ابن باكوري، بهيا ٢٣١	- المغولية ٣٥٣
ابن البيطار ٣٣٤	- الصفري ٥٤، ٦٢، ١٠٩، ١١٣، ١٢١
ابن تومرت ٣٣٤	١٣٨، ١٩٢، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
ابن تيمية ٥٥٢	٢٢٨، ٢٣٣، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٤
ابن حزم ٢٣٠، ٢٣١	٣٤٤، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٩٨
ابن جبير ٣٣٤	٤٩٨، ٥٠١، ٥١٩، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٧
ابن جرداذبه ١٩٢	٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ١٦٤١، ٥٧٥، ٥٧٩
ابن خلدون ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٣	٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٥، ٦٠٩
ابن رشد ٣٣٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٥، ٤٥٩	- الوسطى ٤٨، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٩٨
٤٧١، ٤٧٤	١٠٣، ١١٣، ١١٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٩
ابن زهر ٣٣٤	٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٣٧، ٣٤٣، ٣٤٦
ابن سينا ١١٠، ٢٢٩، ٢٣٠	٥٩١
ابن طفيل ٣٣٤	- الجنوبية الشرقية ٨٧، ٥٨٨، ٢٥٣، ٢٦٥
ابن طولون ٢٠٩ - مسجده: ٢٣٥	الافار، شمس ٥٣، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ١٠٢
ابن عبد ربه ٢٢٥	١٠٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٨، ٢١٨، ٣٥٦
ابن العبري ٣٤٧، ٥٥٥	الافير، سلالة ٥١
ابن العربي ٣٣٦، ٣٤٥	الارباق ١٩، ٢١، ٢٧ - فتحه مدينة روما
ابن العميد ٣٤٧	١٩ - فتحه غاليا الجنوبية ١٩ -
ابن العوام ٣٣٤	اندحاره في معركة فوييه ضد كلوفيس

ادوارد الثاني ٥٤٤
 ادوارد الثالث ٤٤٦، ٤٤١٥، ٤٨٢، ٥٢٤
 ٥٣٤، ٥٣٠، ٥٢٩
 ادوارد الرابع ٥٩٨، ٦٠٤
 ادوارد السابع ٦٠١
 اذواكر او اذواسر ٢٣، ١٤٧
 الاديار الهندوكية والبوذية ٢٤٩ - ٢٥١
 اذربيجان ١٣١، ٣٤٧، ٣٤٥، ٣٦٠، ٥٥٦
 ٥٨٥
 اذرع ١١١
 اراس ، مدينة ١٥٠، ٣٩٤، ٤٢٩
 - مجمع ٤٩٦، ٥١٨، ٥٢٦
 - صلح (١٤٣٥) ٤٩٨
 الاراضي المقدسة ٢١٣، ٣١٣، ٣١٤
 الاراغون ٣١١، ٣١٢، ٤٣٤، ٤٤٢، ٤٤٥
 ٤٤٩، ٤٥٤، ٤٦٧، ٤٧٥، ٤٩٦، ٤٩٨
 ٥٠٣، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٢، ٥٣١، ٥٣٢
 ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٤٦
 اراكس ، نهر ٢١٦، ٣٤٧
 اران ٨١
 ارباد ، سلاله ٢١٨
 الارباديون ٤٥١
 ارثوى ، مقاطعة ٣٤، ٣٠٣، ٤٠٠، ٥٤٠
 ٦٠٠
 ارثور ٤٢٨
 الارخبيل ، جزر ٥٧٢، ٥٨٤
 ارخميدس ٤٧٣
 اربيل ، مدينة ٥٨٥
 ابون ده فلوري ، الراهب ١٧٩، ١٨٣
 ابو نواس ١٣٧
 ابيروس ٣٤٨، ٣٦٧، ٥٧١
 الابيض المتوسط - بحر ، ن : البحر
 الابيض المتوسط
 ابيلار ، بئر ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧
 ابيون ، اسره ٤٣
 اتابكة ٣٤٠
 اتاليات ، ميخائيل ٢٣٣
 الاتراك ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٠
 ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٥٥٧
 - المغوليون ٣٥٨
 - الشماليون ٨، ٩، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٥٦
 ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨
 ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧
 ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٥
 ٥٨٦، ٥٨٨، ٥٩٠، ٥٩١، ٦٠٩، ٦١٧
 الاتفاق القانوني للامة الانكليزية ١٧٩
 ارستفاس لسديفرد ٢٣٤
 ارستطو ٥٤، ١٣٥، ٣٣٤، ٤١٣، ٤١٨، ٤٢٣

ابن الفارض ٣٤٥
 ابن الفرات ٢١٠
 ابن فضلان ٢٩١، ٢٢٦
 ابن قتيبة ١٣٦، ٢٢٥
 ابن قدامة ٢٢٧
 ابن قزمان ٣٣٤
 ابن القفطي ٣٤٤
 ابن القلانسي ٣٤٤
 ابن مرة ٢٣٠
 ابن مسكويه ٢٢٦
 ابن المعتز ١٣٧
 ابن المقفع ١٣٥
 ابن ميمون ٣٣٥
 ابن وهيب ، فهرسه ٢٢٤
 ابن وحشية ٢٣٠
 الابنين ، جبال ٢٧، ١٨٦، ٣١١، ٥٣٣
 ابو بكر ، الخليفة ١١٣
 ابو تمام ١٣٦
 ابو حنيفة ، المذهب الحنفي ١٣٢، ١٣٣
 ابو عبد الله ، الداعي الفاطمي ٢١٠
 ابو الفداء ، المؤرخ ٥٥٢
 ابو مسلم الخراساني ١٢٦، ١٣٠، ١٣٤
 ٢١٠، ١٨٣
 ابو يوسف ٢٢٦
 اتوغان او ايتوغان ، اله الارض ٣٨٠
 اتيان مارسيل ٥٤٥
 اتيلا ١٩، ٦٣، ٦٩، ١٠٥، ١٠٧، ٣٥٦ -
 سيف الله المصلت ١٠٦
 اتيلا الصين (هيونغ - نوليونان) ٩٢
 اغانستان ، الملك الانكليزي ١٧٩
 اثينا ٤١ - دوقية ٥٦٦
 احمدي ، الشاعر التركي ٥٩١
 الاحمر - بحر ، ن : البحر الاحمر
 اخترناخ ٣٣٠
 الاخشيدي ، الدولة ٢١٠
 الاخل ١٢١
 الاخمينية ، الدولة ٥٦، ٦٠، ٧١
 اخوان الصفا ٢٠٨
 اخوة الحياة المشتركة ٦٢٢
 الادارسة ٢٠٩
 الادب الشعبي : ظهوره ٢٢٧ - ٢٢٨
 الادب الملحمي ٢٢٧
 ادبتيا ، الاله ٢٥١
 ادجنهارد ١٦٥
 الادرياتيكي - البحر ، ن : البحر الادرياتيكي
 الادريسي ، الشريف ٣٣٥
 ادونة ٥٧٨
 ادوارد الاول - ملك انكلترا ٤١٣

اسطفانس المجري ، الملك ١٨٦ ، ٢٢٠
الاسطورة الذهبية ، ليعقوب دي فورامين
٤٧٥
استكتلاندا ١٧٤ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، ٥٣٠
اسكندر السادس يورجيا ، البابا ٦٢١
الاسكندر المقدوني ٢٢٥
اسكندر بك لقب جورج كستوريونسا ٤٤٨
٥٨٤
اسكندر السادس ، البابا ٦٢٥
اسكندر اغويتا ٧٢
الاسكندرية ٤٦ ، ٤٩ ، ١٢٤ ، ١٤٣ ، ٢٢٤
٢٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٩٨
— مدرسته ٤٩ ، ٢٣٢
الاسكو ، نهر ٣٥ ، ١٧٣ ، ٣٩٤
اسكويار ، پير ٦٣٠
الاسلام ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١١٢ ، ١١٧
داركانه الخمسة ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٩٦
١٩٨
اسفاغوزا ، الشاهر الهندي ٩٨
اسلاندا ٩
اسماعيل بن الصادق ٢٠٨
الانسماعيلية ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٣٣٤
٣٤٢ ، ٣٣٩
اسوج ، اسوجيون ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٥٠٥ ، ٥٣١
الاسود — البحر ، ن : البحر الاسود
اسيل ، كنيستها ٤٣٦
اسيزي ، فرنسيس ، ن : فرنسيس الاسيزي
اشبيلية ، مدينة ٣٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٩٢ ، ٥٢٤
٥٦٢ ، ٦١٠ ، ٦٣٠
الاشعري ٢٣٠ ، ٢٣١
الاشعرية ٣٣٩
الاصهباني ، صاحب الاثاني ٢٢٤
اصدقاء الرب ٤٧٦
اصفهان : مسجدها ٢٣٥ ، ٣٤٦
الاصلاح الغريغوري ٣١٧ ، ٣١٩
اضفورة الزهرة (كتاب) ٩٨
الاطلس ، جبال ١٨٩ ، ١٩٢
الاهراس الروحية ، لروبسبروك ٤٧٧
الاهالية او الدولة الاغلبية ٢١١
الاهاني ، كتاب ٢٢٤
الاهاني ، البابا ٤٠
اغويار ده ليون ١٦٥ ، ١٦٧
الافاوية (التوابل) : الاتجار بها ١٩٢
افراج الزواج الخمسة عشر ٤٨٤
افريقيا ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٤٢
٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٠٩ ، ١١٣
١٩٢ (تونس) ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤
٥٦٣ ، ٥٦٤

٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٣
٤٨٩ ، ٤٧٤
— ارسطو الجديد (كتاب) ٤٢٠ ، ٤٢٥
ارفورت ٤٦٦ ، ٤٨٨
اركوسيا ١٠١
ارلندا ٣٧ ، ٤١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٤٦٥
ارمانيك ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ — كونت
٦٠٣
ارمن ٥٢ ، ١١٩ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٣٤٨ ، ٥٥١
ارمنيا ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ٢١٦
٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٨٥ ، ٥٥٦ ، ٥٨٥
ارمنيا الصغرى ٥٥٥ ، ٥٨٥
الارمنية اللغة ١٠٣ — الثقافة ٣٤٧ ، ٣٤٨
الارموريك ، شبه جزيرة ١٩ ، ٢٠ ، ٣٧
ارمولد الاسود المعروف باسم نيشارد ١٦٥
ارنو دي برلشيا ٣٢٠
ارنيربوس ٣٢٥
الارواح : تناسخها وتقمصها ٨٦ ، ٩٩
اريتريا ٨
اريجينا ، جون ١٦٥
ازمير ، مدينة ٥٧٥
ازنكور ، موقعة ٥٦
الازهر ٢١١ ، ٢٣٥ ، ٣٣٩
الزور ، جزر ٦٢٨
ازوف — بحر ، ن : بحر ازوف
اسام ، مقاطعة ٢٤٤
اسامة بن منقلا ٣٤٤ ، ٣٤٤
اسبانيا ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢
٤٤ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٣٥
١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٣
٢١٣ ، ٢١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣
٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٤١٢
٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣
٤٦٩ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩
٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٤٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٨٩
٥٩٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤
٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦٢٢ ، ٦٢٧
اشبروخ ٦٥
استانبول ٤٩
الاستانة ٥٩٠ ، ٥٩١
استوريا ١٦٩ ، ١٨٤
استي ، مدينة ٣٩٩
الاسطرلاب ٢٢٩
اسطفان مرسيل ٤٤٧
اسطفانس طارون ٢٣٤
اسطفان دي مورية ٣٢٢

الالبان او الالبانيون ٠٦٦ ٠٥٧١ ٠٥٨٢
البانيا ٠٥٧، ٠٥٨٢، ٠٨٤
البرتي ، اسرة ١٧٣، - ليون باتيست
٦١٢، ٦١٣، ٦١٨، ٦٢٢
البورنور ، الكردينال ٩٦
البي ، مدينة ٤٤٥، ٤٨٧، ٥٢٠
الالبيجيون او الالبيون ، هرطقتهم ٥٨ ٢٢
٤٣٣
البير اللب ، حاكم مغدبورغ ٣٩٢
البير دي ساكس ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٣
البير الكولوني او الكبير ٤٣٤
التي او الطاي ، جبال ١٠٤، ٣٣٧، ٣٥٤
٣٨٥
اللتالمية : الاسرة اللغوية ٣٥٥
الاسراس ٦٠٠
الف ليلة وليلة (كتاب) ١١٠، ١٩٣، ٢٢٨
٥٥٢
الفونس الخامس ، الملك ٦٠٣، ٦٢٩
الفونس العاشر ، ملك فستالة ٥٤٤
الله اباد ، مدينة ٢٥٠
الالمان ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٧
الفرد الكبير ، الملك ١٧٩
الكونيس ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٨، ١٨٧
البريكون ، معاطمه ٥٠، ٦٥، ١٠٦، ٥٧١
المانيا ٣١٤، ٣٥١، ٣٨٤، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦
٤١٥، ٤٣٤، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦٩
٤٧٣، ٤٨٧، ٥٠٦، ٥١٣، ٥١٦، ٥٢٠
٥٢٨، ٥٤٧، ٦٠٨، ٦١٢، ٦١٩، ٦٢١
اليانور ٣٢٨
- داكيتين ٥٢٨
اليوان ، سلاله ٣٨٧
امات دولرون ٣١٨
اماراغي ، مدرسة ٩١
امارو ٨٦
الماريا ١٩٢
الورا ، مدينة ٢٥١
امارات البحر ٥٠٢
اماسيا ٥٥٨
امالفي ، مدينة ١٩١، ٢٢٣، ٣١١
اماند ، القديس ٣٥
امباكاى ٣٥٩
الامبراطورية او المدينة البيزنطية ٤٣، ٤٢٦
٤٢٧، ٤٥٠، ٥١٠، ٥٢٠، ٥٥٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٨
١٢١، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢
١٤٥، ١٤٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٨
٢٠٥، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٣، ٣٣٨
٣٤٨، ٣٥٧، ٣٥٩، ٥٦٥، ٥٦٨
٥٧٨، ٥٨٠، ٥٨٦

افسس ، مجمع ٥٣
الافستية ، النصوص ٥٨، ١٣٥
الافشين ١٣١
افغانستان ٦٩، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤
٢٠٨، ٢١٠، ٢٤٦، ٢٦٣، ٣٣٧، ٣٦٠
افلاطون ٤٧٤
الافلاطونية الحديثة او الجديدة ١٧، ٥٤
١٣٥، ١٣٥، ٢٣٣، ٢٣٠
- الصوفية ٤٢٦
افيت ، المطران ٢٧
افير ، اسرة ٦٢٨
افينيون ، مدينة ٣٢، ٣٩٩، ٤٢٥، ٤٣٧
٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٦
٤٦٨، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٨٨، ٥٠٣
٥٢٣، ٦١٠، ٦١٩
اقباط ٥٢، ١١٩، ١٢٢، ٣٤٧، ٥٥٢
اقباط الادب القبطي ٥٤
الاقتداء بالمسيح ، كتاب ٤٧٧، ٦٢٥
اقرطش ، جزيرة ، ن كريت
اقطاع او اخاذة ١٥٦، ٢٨٩، ٢٩٥
اقليدس ١٣٥
الاكتشافات الجغرافية الكبرى ٧، ٦٢٦
٦٢٨
الاكراد ١٣٠، ٣٤١، ٣٤٢
اكس ، مدينة ١٦٦، ١٦٧ (جامعتها)
اكس لاشابل ١٦٦، ١٧٣، ١٨٤، ١٨٤، ٤٧٤
اكستيسر ٤٩١
اكسفورد ٤٢٢، ٤٣٤، ٤٦٥، ٤٧٩، ٤٩١
- جامعة ٤٢٢، ٤٦٩، ٤٧٢
اكسوم ، مملكة ٦٠
اكليمندوس الخامس ، البابا ٣٨٦، ٤٥٨
اكليمندوس السادس ، ٤٥٧، ٤٦٦، ٥٠٦
اكليمندوس السابع ٤٦٢، ٤٦٨
اكهار ده سان غال ٢٨٧
اكهارت ٤٥٠
- جان ٤٧٦، ٤٧٧
الاكويثان او الاكيتين ، مقاطعة ٢٢، ٣٥، ٣٢
١٨٤، ١٧٥، ١٧٢، ١٦٨، ١٥٨، ١٤٦
٢٩٠، ٣٢٧، ٣٣٠، ٤٢٧، ٤٥٢، ٤٩٥
٥٢٠، ٥٣٠، ٦٠٦
الالسان ٣٥٧
الالب ، جبال ٢٠، ٢٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣
٣٩٩، ٤١٥، ٤١٦، ٤٣٤، ٥٠٤، ٥٣٣
الالب الشرقية ٦٤
الالب النمساوية ٦٥
الالب ، نهر ٦٤، ١٦٧، ١٧٦، ٢١٧، ٣٠٠
٣٩٣، ٣٩٧، ٥١٣، ٥٣٧
الب ارسلان ٣٣٨، ٣٣٩

٢٢٥، ٢٣٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٤
٦٢٧، ٥٦١
اندونيسيا ١٩٣، ٢٤٠، ٢٤٤، ٣٩٨
انستاس، الامبراطور ٢٣
انستاسيوس، الامبراطور ٢٧
انسلموس ٣٢٦
انسلموس دي لان ٣٢٦
الانسولند ٦٨، ٤٩٠، ٢٥٨
انطاكية ٤٦، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٦، ٣٠٤، ٣١٣
انطونلو المسيني ٦١٥
الانطونية، الاسرة ١٤
انكورفات، معبد ٣٥٤
انفوليم، مقاطعة ٦٠٠
انفرس، مدينة ٥١٨، ٢٥٢٢، ٦١٢
انقرة ٥٦٠، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٩١
انفكور، هيكل ٢٤٠، ٢٥٤، ٢٥٧
انفكور - كات، هيكل ٢٥٥
الانكشارية ٥٧٦، ٥٨٠، ٥٨٢، ٥٨٨
انكلترا ٧، ٤٠، ١٤٠، ١٤٤، ١٦٩، ١٧٤
١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٦
١٩٧، ٣٠٣، ٣١٠، ٣١٤، ٣٨٥
٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٦، ٤١٢
٤٢٥، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧٩
٤٨٧، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٦، ٥٠٨
٥٠٩، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٨
٥٢١، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦
٥٣٧، ٥٣٨، ٥٩٨، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٣
٦٠٥، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦٢٠
انكلترا السكسونية ١٧٨
انكلترا النورمندية ٣٠٤
الانكلوسكسون ٤٠
انوشروان الملك ٥٦، ٥٧
انوشتيوس الثالث، البابا ٤١٦، ٤٤٣، ٤٥١، ٤١٢، ٤٥١
انوشتيوس الرابع، البابا ٣٨٤
انوشتيوس السادس، البابا ٤٦٢
انس السارترى ٤٧٨
اهل البيت ١١٥
اهل الكتاب ١١٦
اوان، القديس ٣٥
اوبالديني، جيوفاني دلي ٥٠٠
اوبرزيل ١٨٧
اويسال ٤٦٧
الاويثة الفتاة ٥٠٤، ٥٠٨
اوترات، مدينة ٥٨٤
اوترخت ١٦٧، ١٨٧
- مزامير ١٦٧
اوتون او اوتين، مدينة ١٤٥، ٣٣١

الامبراطورية الرومانية : ٢٢، ٢٧، ٣١، ٤٣، ٤٥، ٥١، ٥٨، ٦٠، ١٠٥، ١٤٧
(اعادتها الى الوجود)
الامبراطورية الرومانية الشرقية ٤٣، ٤٤
الامبراطورية الشريفة ٥٦٣
الامبراطورية العثمانية ٥٧٨، ٥٨٠
٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩
٥٩٢، ٥٩٠
الامبراطورية الكارولنجية ١٤٦، ١٦٢، ١٦٧
الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية
٣٥، ٣٥١، ٤١٨، ٥٦٨
الامبراطورية المغولية ٣٥٨، ١٦١ (نشأتها)
٣٥٨ مميزات ٣٦١، ٥١٠، ٥٥٠، ٥٨٤
امبراطورية يقية ٣٥١، ٥٧٥
امبروسيوس ١٧، ١٦٨
امرؤ القيس ١١٠
امستردام ٦٠٦
الامويون، الدولة الاموية ١١٤، ١٢٢، ١٢٣
١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦
الامويون في الاندلس ٢٠٩
اميان، المؤرخ ١٠٥
اميان، مدينة ٣٩٤، ٤٣١
اميدا ٢٧٩
الامير، كتاب ٥٣٣
امير خسرو ٥٥٨
امير الروس، لقب ٥٩٥
اميركا ٦١٠
اميليا، مقاطعة ايطالية ٦٠٨
الامين ١٠٢
انام ٣٦١، ٣٥٤، ٣٦٧، ٣٥٨، ٣٤٠
الاناضول او الانضول ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧
٣٥٠، ٣٥٨، ٥٥٩، ٥٥٢، ٥٥٧، ٥٥٩
٥٨٠
انا ندا، الامير ٣٨٧
انتلامي، بندتو ٤٣٦
الانتيكلوديانوس، لالين ده ليل ٤٢٧
انثيموث الترابي ٤٩
انجو، مملكة (ايطاليا) ٤٠٠، ٤٣٤، ٥٣٢
انجو، سلالة ٤٥١، ٤٩٦
انجو، مقاطعة في فرنسا ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٩٢
٥٣١
انجولستات، جامعة ٤٦٧
انجيل غودسكال ١٦٦
انجيه، مدينة ٣٢٣
اندالودي سافينيانو ٣٨٥
اندراه، مملكة في الهند ٧٠، ٢٥١
اندريه دي لونجومو ٣٨٤
الاندلس ٢٥، ١٤٤، ١٩٢، ١٩٩، ٢١٣، ٢١٤

الاستروغوط - كتاب للمؤرخ بروكوبوس
٥.

الاوغر - قبائل ٣٥٧، ٣٣٧، ٢٢١
اوغسطينوس، القديس ٤، ١٠، ١٧، ٢١
اوغزبورغ ٥١٦، ٦١٢، ٦١٩، ٦٢٥
اوغسطينوس، الراهب ٤٠
١٧٩، ٣٢١، ٣٢٦، ٤٢١، ٤٢٦، ٥٧٣
- ترجمة كتابه الى الانكليزية ١٧٩
اوغوراي - بن جنكيز خان ٣٦٠، ٣٦١، ٣٧٦
٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٢
اوبا، ملك انكلترا ١٦٩
اوفيه ٣٢٤، ٤٢٨
الاوغري، مقاطعة ١٨٣، ٣٣١، ٥١٩
اوكاسين ونيكوليت، قصة ٤٢٩
اوكرانيا ١٩٢، ٣٦١
اوكرس، مدينة ٥٢٠
الاوكسوس، نهر ١٠١، ٣٤٣
اولجيتو، الابلخان ٥٥٦
اولغ بك او الخ بك ٥٦١
اولغا - ملك بولونيا ٢١٨
اوكمام، غليوم ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٧، ٦٢١، ٦١٩، ٦٢١
- اوكمامية ٥٣٣
اولاف، الملك ١٧٨
اولوس ٣٦٨، ٣٧٧
اولسم ٥١٦
اوليرون، جزيرة ٣٩٧، ٤٠٣
اوليخ، ملك بولونيا ٢١٨
اوماي، اله الاطفال ٣٨٠
اومايادو سوغا ٢٧٠
الاونكوت، قبائل ٣٨٢، ٣٨٥
الاونون، نهر ٣٥٩
اويد ده منز ١٦٦، ١٨٧
الاويرات ٣٥٩، ٣٦٠
ايباس، مرفأ ٥٥٥
ايبير، مدينة ٣٩٤
ايتلود ١٧٩
ايجيه - بحر، ن: بحر ايجيه
ايراسموس ٦١٧، ٦١٩، ٦٢٣
ايران ٥٥٥، ٥٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٩، ٦٩، ٧١، ٨٤، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١٢٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٦، ١٤٤، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٥٢، ٢٦٧، ٢٦٨، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٧٩، ٣٧٨، ٥٥٣، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٧٢، ٥٨٥، ٥٩٢
ايرونيوموس ١٤، ١٥، ٣١، ٤١، ١٦٣

اوتون الكبير، الامبراطور ٤٣، ١٨٤، ١٨٥
١٨٧

اوتون الثاني (ابنه) ١٨٥
اوتون الثالث ١٨٥، ١٨٦، ٣١٧
الوتونية، الاسرة ٢١٧
اوتشللو، باولو ٦١٤
اوتون دي فريسغ (يومياته) ٤٢٧
اوجانيوس الرابع، البابا، ٤٦٧، ٤٩٦
اودوريك دي بوردينون ٣٨٦
اودون ١٨٣
الاودير، نهر ٦٥، ٣٩٢، ٥٣٧
اوراسيا ٣٥٥
الاورال، جبال ١٠٥، ١٩٨، ٢١٨
اوربانوس الثاني، البابا ٣١٢، ٣١٨
اوربانوس الخامس، البابا ٤٥٧، ٤٦٦، ٤٨٦
اوربانوس الرابع ٤٦٢
اوربانوس، كنيسة القديس في طروا ٤٨٧
الاوردوس ٣٥٧، ٣٨١
اورسم تقولا ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨٩، ٥٣٣، ٦٠٩
اورشليم، ن: القدس
اورفيانو كاتدرائية ٤٣٦، ٤٨٧
الاوركايد، جزر ١٧٤
اورليان، مدينة ٢٨، ١٠٦، ١٦٤، ١٨٢
اورليان اقطاع ٦٠٠
اوروبا ٨، ٩، ١٠، ٦٧، ١١٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٧، ١٩٢، ٢٨٣، ٢٩٦، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٧٥، ٣٩٠، ٤١٦، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٨٦، ٥٢١، ٥٧٩، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٩٨، ٦٠٩
اوروبا الاقطاعية ٣٩٠
اوروبا الشرقية ٦٣، ٦٤، ١٩١، ٥٩٣، ٥٩٨
اوروبا الغربية ١٩، ٣٥، ٦٠، ٦٧، ١٠٩، ١٢٠، ١٧٧، ١٩١، ١٩٣، ٢١٧، ٣٩١
٣٩٤
اوروبا الوسطى ١٩٢، ١٩٢، ٢٢٠، ٣٨٤، ٣٩٣، ٤٠١، ٥٣٢، ٥٥٠، ٥٩٨، ٦٠٨
اوروز ٢١، ١٧٩
اوربول، بيبير ٤٧٢
اوزوالد ١٧٩
اوستاش دي بالفي ٤٦٩
اوستاش دي شان ٤٩١، ٤٨٢، ٤٨٦
اوستراسيا ٣٠، ٣٦، ٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٥١، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧
اوستاخوس التسالونيكي ٣٤٩
اوستروغوط ١٣، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٣٤

الباون ، قبائل ٥٦٩
 بابن أو بابين ١٤٦ ، ١٤٧ : ١٦٣ ، ١٧٠
 - القصير ١٦٠
 بابيان ١٠٣
 الباتارين ، قبائل ٥٦٩
 باتريك ٣٧
 باخيمروس ، المؤرخ ٥٧٢
 باد ، الطوباوي ٤١ ، ٤٤
 بادامي ، مدينة ٣٥١
 بادوا ٤٤٥
 بادوا ، جامعة ٤٢٢ ، ٤٦٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
 بادابودور ، هيكل ٢٤٠ ، ٢٥٣
 بادامارثا ، الراهب البوذي ٩٨
 بار - سور - اوب ٤٠٠
 باديفول ، سيجين ٥٠٣
 باردي ، ال ٤٣٦
 بازي ، مدينة ١٩١ ، ٣١١
 باريوس ، مدينة ٤٥٢
 باريوس ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤١٨ ، ٤١٨٢
 ٣٢٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥
 ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦
 ٤٥٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩
 ٤٨٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥
 - جامعة ٣٩٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٥٧
 ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢
 ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٦ ، ٥١٧
 ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٦٢٠
 - مجلس ٤٥٤
 بارم ، مدينة ٤٣٦
 بازي ، كنيستها ٦١٣
 الباسك ٤٥٥
 باسوفرمان ، الملك ٢٥٧
 باسوفرمان السابع ٢٥٧
 ٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢٣٥
 باسيل الثاني الامبراطور ٢٠٦ ، ٢١٦ ، ٢٢١
 ٢٢٢ ، ٣٥٧
 الباسيلية ، القوانين ٢١٥
 باسيلوس ، القديس ٥٢
 بافاريا ، بافارون ٢٠ ، ٦٤ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٧٢
 بافي ، مدينة ٦٢٣
 بافيا ، مدينة ١٤٧ ، ٤٦٧
 بافير ، جبال ٢٦٠
 الباكستان ٣٣٧
 باكو ، مصد ٢٥٧
 بال ، مدينة ٤٧٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧
 بال ، مجمع ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، ٦٢١
 بال ، جامعة ٤٦٧
 بالاسينا ، دولة ٢٤٦ ، ٢٤٧

ابزائيل ده قشتاله ٦٠٠
 ابزائيل ده فرانس ٥٢٩ ، ٥٣٠
 اليزودورية المجموعة القانونية ٣١٧
 ايزيدوروس الاشيلي ٣٤
 ايزيدوروس الملي ٤٩
 ايشونهب الثالث ، البطريك ١١٩
 ايشيا ، مدينة ٦١٠
 الابصورية ، الاسرة الامبراطورية ١٣٩
 ايطاليا ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٨
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٠٦
 ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٩٢
 ١٩٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣
 ٣٣٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٤
 ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٥
 ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٥
 ٤٧٨ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٩
 ٥٢٦ ، ٥٣٦ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٢
 ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٩ ، ٥٦٠ ، ٦٢٠
 اباطيا الشمالية ١٩ ، ٢٦ ، ٤٩
 اباطيا الجنوبية ١٤٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣١
 ٣١١
 اغفور ، ملك بولونيا ٢١٨ ، ٣٥٢
 ايف دي شارتر ٣١٩
 ايفان الثاني ٥٢١
 ايفان الثالث ، ٥٩٥ ، ٥٩٦
 ايفوار ، مدينة في البرتغال ٦٠٣
 الايقونات المقدسة : تحطيمها ١٤١ ، ١٤٢
 انكوسيا ٣٧
 الابكونوغرافيا ٤٩
 الايلخانية ، الدولة ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
 ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
 ايل ده فرانس ٣٦ ، ٣٣٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧
 ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ٥١٤ ، ٥٢٧
 ايلوي ، القديس ٣٥ ، ٣٦
 ايلويز ٣٢٥
 ايمارد ١٨٣
 الايميل ، مقاطعة ٣٨٤
 ب
 البابا ، اسقف روما - البابوية ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢
 ٤٨ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢١٤
 ٢٢٣ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٨٥
 ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤
 ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧
 ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥
 ٥٦٨
 بابا اسحاق ٣٤٤
 بابك الخرمي ١٣١ ، ١٣٦
 بابن ده هرستال ١٤٤ ، ١٤٦

البحر البريطاني او المانش ٤٥٣
البحر التيراني ٣١١، ١٦٨
البحر الجنوبي ٢٤٣، ٢٤١، ٧١
بحر الشمال او البحر الشمالي ١٩٩، ٣٤، ١٩٩
١٨٢، ١٧٨، ١٧٥، ١٧٣، ١٦٩، ١٥٠
٠٤٠٠، ٣٩٦، ٣٩٤، ٣١٤، ٣٠٠، ٢٨٤
٥٠٤، ٥٠٣، ٤٤٣
بحر الصين ٥٥٤، ٣٩٨
بحر العرب ١٢٣
بحر قزوين ٢١٠، ٢٠٧، ١٩١، ١٣١، ١٣٠
٥٥٥، ٣٥٥، ٢١٨
بحر مرمرا ٥٧٨، ٥٧٥
البحر الميت ١١١
البحر الهندي ١١١، ١٢١، ١٢٧، ١٩٠
٥٥١، ٣٩٨، ٢٦٠، ٢٤٣، ١٩٣، ١٩١
٥٥٦، ٥٥٥
البحرين ٢٠٩
بخاري ٢٦٠
البختيارى ٣٥٧
بختيشوع، اسرة ٢٢٨
بدر الجمالي ٣٤٦، ٢١٣
بدر الدين، الشيخ ٥٨١
بدفورد، شقيق هنري الخامس ٥٣٠
البدو ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ٦٩، ٦٨
٢٥٥، ٢٠٠
البرابرة ٦٥، ٦٢، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٢٣، ٢١
برابان، مقاطعة ٥٤٦، ٥١٩، ٥١٨، ٣٩٦
٥٤٨
برابانتش ٤٨٩
براجانس دوق ده ٦٠٣
براغ، ١٩١، ٤٦٥، ٤٨٠
براغ، جامعة... تاسيسها على يد شاول
الرابع ٤٤٦، ٤٤٨
براكسيدس، كنيسة القديسة ١٦٨
البرامكة ١٢٧
براندبورغ، مدينة ٥٤٠، ٥٣٩، ٥٣٦، ٣٩٧
البراهمانية ٢٤٧، ٦١، ٨٥، ٨٠، ٧٩، ٦٨
٢٥٤
برباد وسركاك ٦٠
البربر ٥٦١، ٣٣٦، ٣٣٤، ٣٣٣
برينيان: جامعتها ٤٦٧، ٤٦٨
البرغال ٤٥٤، ٤٥٣، ٤٤٩، ٤٣٥، ٤٣٠
٥٥١، ٥٣١، ٥٢٠، ٥١٩، ٤٩٢، ٤٨٧
٦٣٠، ٦٢٧، ٦٠٦، ٦٠٣
برتولد ٤٨٩
البرجين، قبيلة ٣٥٩
البردي ٢٢٤
برسباي، السلطان ٥٥١

٤٨٧، ٤٧٣، ٤٨٧
بانو، الكرينل ٦٠٤
بالوس، مرفا ٦٣٠
بالبي ٦٢٠
باليرمو ٣١١، ٢٢٤
بامير، جبال ٧٠
باميان، احدى مقاطعات افغانستان ٩٨
بانو ليوترا، اقليم ٧٠، ٧١
باندبار، ال ٢٤٧
بانو كجورن، كارثة ٤٤٧
بانونيا ١٩٠، ١٤٥، ١٠٦، ١٧٥
باي - نسي ١٠٧
باي - تشابو ١٠٧
بابون، مدينة ٥٢٢
بتراء ١١١
البتاني ٢٢٩
بتراءك ٤٧١، ٤٦٩، ٤٥٨، ٤٥٧، ٤٤٩، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٨٣، ٤٨٦، ٦٢٠، ٦١٩
بتشينا ١٩٢
البتسنيك، قبائل ٣٤٨، ٢٢١، ٢١٨، ٦٣
٣٥٧
بتيك، مقاطعة ٢٥
بتنكور، جان ده ٦٢٧
بتنس، نهر وهو نهر الوادي الكبير ٢٥
البحري ١٣٦
بحر آدال ٣٣٧، ٣٢٩، ١١٣، ١٠٥، ٥٦
٣٥٨، ٣٥٦
بحر الابيض المتوسط ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢١، ٣١، ٣٤، ٤٥، ٤٦، ٦٣، ٦٥، ١٧٤، ١٤٨، ١٤٠، ١٣٤، ١٢٧، ١٢١، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٦، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢١، ٢٣٧، ٣٥٠، ٣٩٦، ٤٤٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٥٦٤، ٥٦٦، ٥٧٦، ٦١١
بحر ازوف ٣٩٨، ٣٥٦
البحر الاحمر ٤٥، ٦٠، ٦٣، ١١١، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٢، ٥٧٦، ٥٥١
البحر الادرياتيكي ١٩٠، ١٤٩، ١٤٠، ٥٦، ٢٢٠، ٣١١، ٣٦١، ٤٥٣، ٥٣٣، ٥٦٨
٥٨٤، ٥٦٩
البحر الاسود ٣٩٨، ٢١٩، ٢١٨، ١٩٢، ٦٢، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٨٣
٥٩٤، ٥٨٥، ٥٨٤
بحر ايجيه ٣٤٨، ٣٣٨، ١٩١، ١٣٨، ٦٥، ٥٣٣، ٥٥٩، ٥٦٤، ٥٦٥، ٧٧٥
البحر الابوي ٢٢٣
البحر البلطقي ١٩١، ١٤٩، ٦٥، ٦٤، ٤٥، ٢٢٨، ٢١٩، ٣٩٤، ٣٩٦
٦١١، ٥٩٤، ٥٢١، ٥١١، ٤٦٥، ٤٣٣

بساويون ، الكردينال ٦١٧ ، ٦١٩ ، ٦٢١
 بسالك ٢٥٢
 البستان ، كتاب لسعدي ٥٦١
 بسترس ، جورج ٥٧٣
 بسكاسيوس ، روبرتوس ١٦٥
 بسكوب ، بندكتوس ٤١
 بسكوف ، مدينة ٣٥٢
 بسيلوس ٢٣٣ ، ٢٤٩
 الشق ٢٠ ، ٢٨
 البصرة ١١٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٩
 بطرس البيزي ١٦٤
 بطرس المحترم ٣٢٥
 البطريركية المسكونية ٥٦٩ ، ٥٩٠
 بطريركية القسطنطينية ٤٨
 بطريق الرومان ، لقب ملك فرنسا ١٤٧
 بطليموس ٥٤ ، ١٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٤٧٣
 بغداد ، ١٤٦ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
 ٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٣٣٨
 ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٨٢
 بفيستر ٦٢٥
 البعراتية ، الدولة ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
 البكتاشية ٥٥٩ ، ٥٨٨
 البكتريا او بكتريا ١٠١ ، ١٠٣
 بكين ، مدينة ٢٦٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨
 بلاشيرين ، قصر ٣٤٩
 بلانتاجنيه ، اسرة ٤١٣ ، ٤٢٨
 بلانش دي نافار ٥٣١
 بلخ ، مدينة ٢٦٠
 البلطقي البحر ، ن البحر البلطقي
 - بلغار ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢٨ ، ١٩١ ، ٢١٤
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٥٠
 ٥٨١ ، ٥٦٨
 - بلغاريا ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٥٧٠
 ٥٧٩ ، ٥٧١
 - البلقان ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٣٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٥
 ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢
 ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٩٠
 بلقيس الملكة ١١١
 البلاذري . صاحب - فتوح البلدان ٢٣٥
 بلاغا ، ال ٢٤٧ ، ٢٥٧
 بلانود ٥٧٣
 بلايئون ، جيمنس ٥٧٢
 بلوى ، مدينة ٦٠٥ ، ٦١٩
 بليشن ٥٩٠
 البليار او البليار ، جزر ١٧٤ ، ١٩١ ، ٣١١

بريست ٥٣٠
 برسفيلد ، دير ٦٢٢
 برش ٥٤٠
 برشلونا ، مدينة ١٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٨٧
 ٥٠٣ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
 ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٤٤ ، ٦٠٤
 ٦٠٥
 برزويه ٦٠
 برغن ، مدينة ٣٩٤ ، ٥٢١
 البرفانة ٥٥٨ ، ٥٥٩
 بركلي ٥١٤
 برلغام ويوشافاط ، قصة ٢٩ ، ٢٣٣
 برناردوس القديس ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢
 ٤١٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٧
 برناردين دي سينا ، القديس ٤٧٥
 بروج ، مدينة ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١
 ٤٤٣ ، ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢١
 ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦
 ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢
 برودانس ١٣
 بروسيير الاكويتاني ٢١
 بروسة ، مدينة ٥٧٨ ، ٥٩١
 بروسيا ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٥١٩
 البروفانس ، مقاطعة ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧
 ١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٣١١ ، ٣٣١
 ٣٣٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٤٩ ، ٦٠٢
 ٦٠٣ ، ٦٠٦
 بروكسل ، مدينة ٤٠٠
 بروكسل ٤٥٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٧ ، ٥١٨
 ٦١٢
 بروكوبس ، المؤرخ ٥٠
 برونسلي ، فيليب ٦١٣
 برونسلي ، المهندس ٦١٣
 برونو ، القديس ٣٢٢
 بري ، مقاطعة ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٦٠٨
 بريتانيا ، مقاطعة او دوقية ٤٠٩ ، ٥٤٠ ، ٦٠٠
 ٦٠٦
 بريتين ، صلح (١٣٦٠) ٤٩٨
 بريجيت السويدية ٤٥٨
 بريستول ، مدينة ٤٨٨ ، ٥١٨
 بريسونة ، ال ٦٠٥
 بريسيانوس ١٦٤
 بريطانيا ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٥٨ ، ٣١٠ ، ٤٩٥
 بريمن ، مدينة ٣٩٧
 بريمونترية ٣٢١
 بريمونترين ٣٢١
 البرينر او البرنر ، ممر ٤٤٣ ، ٥١٩
 برينيه ٤٩٨

تريستان ، قصة ٤٢٨
 تريف ، مدينة ، ٢٣ ، ١٨٧ ، ٣٣٠ ، ٤٦٧
 تريفيوم ١٦٤
 نزيمنيس ، الامبراطور يوحنا ٢١٦
 تسالونيكى ، مدينة ٢١٩ ، ٥٦٧ ، ٥٧١
 تسن ، سلالة صينية ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠١
 تسيوان - تشيو ٣٧٩ ، ٣٨٦
 تشاد ، بحيرة ٥٦٤ ، ٦٢٩
 تشاد - يونغ ٢٧٠
 تشالوكيا ، دولة ٢٥١
 تشام ٧٠
 تشامبا او شمبا ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨
 ٣٥٤ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
 تشان - لا اسرة ٨٩ ، ٢٥٢
 تشان - لا البرية ٢٥٣
 تشان - لا المائية ٢٥٣
 تشانغ - نغان ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٦٦
 تشن سى ٩٣
 نشنكاى الكرا بيتي ٣٨٢
 تشولا - ال ٢٤٧
 تشونغ - تشانغ - تونغ ٩٢
 تشو - هي ٢٧٠
 تشوبوان - تشانغ - مؤسس دولة المنغ
 ٣٨٨
 التشيك ٦٥ ، ٢١٧ ، ٢٨٣ ، ٤٤٩
 تشيكوسلوفاكيا ١٩١
 التشيلوس ، جبل ٤٠
 تشيو - كاكوان ٢٥٨
 تشي - مونغ ٧٠
 التصوف الاسلامي ١٣٦ ، ٣٤٠
 تلفو ، لغة ٢٥١
 تلمسان ، مدينة ٥٦١
 التلمود البابلي ٥٩ ، ٥٥ ، ٢٣١
 تمبكتو ، مدينة ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٦٢٨
 تمرا ، جزيرة ٢٧٢
 التنوخي ٢٢٥
 توان - هوانغ ٩٨ ، ١٠٣ ، ٣٧٨
 توبا ، اسرة تركية ٩٥ ، ١٠٤
 التوات ٦٢٨
 توينجن ، مدينة ٤٦٧
 التوتونيون ، الفرسان ٣١٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
 ٤٤٨ ، ٤٩٦ ، ٥٤٦
 تورانج ، مقاطعة ٢٨ ، ٤٦ ، ١٤٦ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
 توراة الفقراء ٦٢٥
 التوراة المازرنية ٦٢٤
 تورس ، مدينة ٢٧ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٣٢٣
 ٣٢٩ ، ٤٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦
 تورس ، هدنة ٠٠٠ (١٤٤٤) ٤٩٨

التاميز ، نهر ٥٠٢
 تان - لوان ١٠٩
 تانبرغ ، معركة (١٤١٠) ٤٤٨
 تانغ ، دولة صينية ٩٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٨٨
 تانغري ، الة السماء ٣٨٠
 التانكوت ، قبائل ٣٨٢
 تاونغ - يوان ٢٥٦
 التاوية ، الديانة ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩
 تاي - تسونغ ، الملك ٢٥٩
 التايرة ، قبائل ٢٧٨
 التابشوت ٣٦٠
 تباريت ، مقاطعة في المغرب ٢٠٧
 تبريز ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٥٥٠ ، ٥٥٨ ، ٥٦١
 التبعة : حفلة تكريما ١٥٦ ، ١٥٨
 تيفاتش اونوبا (اترك) ٦٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٤
 التتر او التتار ٩١ ، ١١٣ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٩
 ٥٥٣ ، ٥٨٥
 تجارب الامم ، لابن مسكوبة ٢٢٦
 تراستمار ، هنري دى ٤٨٢ ، ٥٠٣
 تراف ، نهر ٣٩٧
 ترافيا ٦٥ ، ١٣٨ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٣٤٨ ، ٥٧٨
 ٥٧٩
 ترانسلفانيا ٣٩٣ ، ٥٦٩
 ترايانوس ، الامبراطور ٦٦
 الترجمة العامة للعهد الجديد ٤٢٤
 الترك ٦٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 - وبغور ٢٤٦
 - الاغزليون او القراخانيون ٣٥٧
 - غزواتهم ٣٣٦
 التركستان الروسى ١٠٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
 ٣٨٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦١
 التركستان الصيني ٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
 التركمان ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٦
 التركية - المغولية ، الشعوب ٣٥٤ ، ٣٥٥
 تركيا ٣٤٤ ، ٥٨٠ ، ٥٩٥ - تركيا الاولى ٥٥٩ ، ٥٥٨
 - انظر كذلك : الاتراك العثمانيون
 تروى او طروا ، مدينة ١٠٦ ، ٤٠٠
 تريتهام ، جان ٦١٩

جنيكيز خان ١٠٦، ٢٤٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٦٠، ٣٦٠، جنيكيز خان لقبه كاهان
جنوى، مدينة ٣١١، ٣٥٠، ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٤١، ٤٧٣، ٥٠٣، ٥٠٨، ٥٢٣، ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٥٥، ٥٦٥، ٥٧١، ٥٩٠، ٦١٠، ٦٢٦، ٦٢٧
الجنيذ ٢٣٠
جنيذ ٤٤٣، ٤٤٦، ٥٢٢
جوان - جوان، قبائل ١٠٢، ٣٥٦، ٣٥٨
جوانفيل، المؤرخ ٤٨٩
الجوياروتا، معركة ٤٤٩
جويان ٢١٩
الجورا، جبال ٤١٤، ٥١٤، ٥٢٢
جورج، الامير، اعتناقه الايمان الروماني ٢٨٦
الجورنشقات ٣٥٣، ٣٥٨
الجورجاني ٥٥٧
جوستين، دير القديسة ٦٢٢
جوغ، مدينة ٥٢٢
جوفروا الباريسي ٥٩٩
جول اوجيل الرومي ٤١٦
جوليان لنورويشبة ٤٧٦
جون بول ٥٢٥
جون بورنوف، مدينة ٣٩٧
جون دونز السكوتلاندي ٤٢٦، ٤٣٥
جون ارغون ٦٢٨
جوناس الاورلياني ١٦٥
جوهر الصقلي ٢١١
جوير، كنيسة ٣٦
الجويني، عطاء الدين ٥٥٥
جي - نان، مملكة ٩٠
جيرار ده بروني ١٨٦
جيرار دي كريمون ٤٧٣
جيرار دورليان ٤٨٩
جيرار كروت ٤٦٢
جيرلانداخو ٦١٤
جيروم دي سراغ ٤٨٠
جيرونا ٤٨٧
الجيش في الاسلام ٢٠٢ - ٢٠٣
جيل لو بوفيه ٤٤٧
الجيلاني، عبد القادر ٣٤٠
جيلبير دي لا بورية ٣٢٧

٥٤٥
جان - سان - تير، الملك ٤٥١
جان دي لوكسمبورغ ٤٥١
جان لوبون ٤٨١، ٤٨٩، ٥٣٥، ٥٤٠
جان دي مونغ ٤٢٩، ٤٧٤، ٤٨٤، ٤٩١
جان دي كاركون ٣٩٤
جان دي مونتيكور فينو، المبشر ٣٨٤
جان له بل ٤٤٧، ٤٨٩
جان - ملكة نابولي ٤٤٢
جاندين، جان دي ٤٧١، ٤٧٢
جانكين ٤٩٠
جايا فارمان ٨٨، ٨٩، ٢٥٧
جايا فارمان السابع ٣٥٤
الجبالي الهياكل ٩٠
جبرائيل الملقب ٢٣١
جبل طارق ٢٠، ٣٩٨، ٦٢٦، ٦٢٨
جربير ٣٢٥
جرسون ٣٥٨، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٢
الجرمان ١٨، ١٩، ٣٤، ٤٤، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٣٩٢، ٤٤٩
جرمانيا ٣٧، ٩٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٧، ١٧٧، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ٢٨٥، ٢٨٩، ٤١٤
جرميني، كنيسة ١٦٦
جرير ١٢١
الجزائر - بلاد ٢٠٧، ٣٣٣
الجزر الخالدات ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨
الجزيرة العربية ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٥، ١٢٩، ١٣٣، ٢٠٨
الجزيرة (اسبانيا) ٤٤٢
جلال الدين الرومي ٣٤٥، ٥٥٨
جلجيت ٢٦٠
الجلدر، نهر ٦٠٠
جلنهوسن، كونراد دي ٤٦٢
جينايدوس، البطريك سكولاريوس ٥٧٤
جنتيان، بنوا ٤٦٩
جندرلي، قره خليل الملقب بخير الدين
باشا، اسرة ٥٨٣
جنديسابور ٥٤، ٢٢٨
جنسريق ١٩، ٢٠
جنيف، جبل القديسة ٣٢٤

حول اللغة ، كتاب ، لغلا ٦١٨
حول النظام الملكي ، كتاب ١٦٢
حي بن يقظان - كتاب لابن طفيل ٣٣٤
الحياة الرهبانية ، كتاب لغلا ٦١٨
الحيرة ٦١ ، ١١١
حيفا ٤٤٥

خ

الخان الاعظم ٣٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٥٥٠
خان الصين ٣٨٥
خان فارس ٣٨٦
خان - فو ١٩٠
خراسان ٥٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٢ ، ٢١٠
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢
٢٨٥ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠
الخرمية ، فرقة ١٣١
الخروف الاسود ٥٥٦ ، ٥٥٩
الخروف الابيض ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٩١
خريستوف الثاني ٥٣١
الخرز ٦١ ، ١٦٢ ، ٣٥٧
خسداي بن شبروط ٢١٣
خسرو الثاني وشهرين ، قصة ٦٠
الخطط ، للمقريزي ، كتاب ٥٥٢
الخلفاء الراشدون ١١٤
خلفيدونيا ، مجمع ٥٣
الخلافة العباسية ، ن: العباسيون
خليج بسكاي ٦٢٧
الخليج الفارسي ٤٥ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٣
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٥٧٦
الخمير ٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥
الخمير ، امبراطورية ٨٩
خو - نان ، مملكة ١٠٢
الخوارج ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩
خوارزم ٥٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
٣٧٨ ، ٣٧٩
الخوارزمي ٢٢٩
الخوري يوحنا ، اسطورة ٣٤٣ ، ٣٨٥
خوجند ٣٥٨
خونياتوس ، ميخائيل ٣٤٩
خيال الظل ، مسرح ٥٩١
خير الدين باشا ٥٨٣
الخيطات ٣٥٨
خيمنس سيستروس ، الكردينال ٦٠٤

د

دا اوزانو ٥٢٠
دائرة الارياب ٦٢٩

جينا غوبتا ١٠٨
جيهمول ، مقاطعة ٣٥٤
جيتو ، الرسام ٤٣٦ ، ٦١٤
جيورجيا ، بلاد ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٣٥٨
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٥٠

ح

الحادسية ٣٣٥
الحاكم بامر الله الفاطمي ٢١١
حاملي السيوف ، جمعية ٣٩٢
الحب العلوي ٢٢٥
الحبشة ٦٠ ، ١٠٩ ، ١٩١ ، ٦٣٠
الحجا ، نهر يصب في الفانج ٢٥٠
الحجر الاسود ٢٠٩
حديثه الورد ، ديوان سملي ٣٤٥
حران ١٣٥ ، ٢٢٩
الحرب الحمقاء او الجنوبية ٥٤١ ، ٦٠٣
حرب المائة سنة ٤٤١ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٦٠٢
حرب الوردتين ٥٣١ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٣
٦٠٦
الحروب الصليبية ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣
٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠
٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٤١٦
٤٤٢ ، ٥٥١
حروب الفرس - كتاب للمؤرخ بروكوبوس ٥٠
الحرير ، دخوله سوريا ٦١
الحريرى : مقاماته ٣٤٤
الحسن البصري ١٣٦
حسن الطويل ، سلطان الخروف الابيض ٥٨٥
حسين بيكره ٥٦١
الحشاشين ، فرقة ٣٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥
الحفصية ، الدولة ٥٦١
حكومة انكلترا ، كتاب ٦٠٥
حلب ٢٣٠ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٤٢
الحلف الايطالي ٥٩٩
حلم قسطنطين ، صورة ٦١٤
الحلاج ٢٣٠
حلم الروضة ، كتاب ٤٥٤
الحمدانية - الدولة ٢١٠ ، ٢٢٤
الحمراء ، قصر ٥٦١
حنا الخامس مانويل ، الامبراطور ٥٦٦
حنبل - المذهب الحنبلي ١٣٣
حنة ده بوجو ٦٠٤
حنين بن اسحاق ١٣٥
حول الحياة النسيكية ، لبتراك ، كتاب ٦٢٠
حول خاود النفس لميونازي ٦١٨

دوران دي سان بورسين ٤٧٢
 دورهام ٦٠٠
 دورهام ، كاتدرائية ٣٣٢
 دوريا : قصورهم ٦١٢
 دوريا جاكوبو ٥٢٦
 دورياك ، جربت البابا سلفستر الثاني
 ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٧
 دوزان ، الملك اسطفانس ٥٦٩ ، ٥٧٠
 دوسان ، اسطفان ٤٤٨
 دوغكلين ٤٩٩ ، ٥٠٤
 دوفيس ، مقاطعة ٤٧٥ ، ٥٣٥ ، ٦٠٣
 دوقاس ٥٩٠
 الدوقة حنة : زواجها من الملك شارل الثامن
 ٦٠٠
 دوماس ، الاب ٦٢٢
 دومنيك (عبد الاحد) القديس ٤٢١
 الدومنيكان ٣٤٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥
 ٦٢٣ ، ٥٥٤
 الدون ، نهر ٣٥٦ ، ٣٧٩
 الدونا ، نهر ٦٤
 دوناتلو ، النقاش ٦١٤
 دوناتوس ١٦٤
 دونستان ، القديس ١٧٩
 دياز ، برنلي ٦٣٠
 ديتابل ، لوفيفر ٦٢٠
 ديجون ، مدينة ٦٠٣
 دي دفنتر ٤٧٧
 ديديه الكاهوري ٣٢
 دي غرال ٤٢٨
 دي غين ، الكونت ٤٢٨
 دي لاثور ، لاندي ٤٨٤ ، ٤٨٦
 دياب ، مدينة ٥٠٨
 دير القديس سابا ٥٢ ، ١١٨
 ديفريفي ، مدينة ٣٤٦
 الديلم ٢٠٨ ، ٢١٠
 الدينوري ، ابو حنيفه ٢٢٥
 ديوان التفتيش ٦٠٣ ، ٦٠٤
 ديوان المظالم ١٢٨
 ديونيسيوس التلمحري ١٣٥
 ذ
 الذبيحة الفيدية ٧٥
 - ذبيحة الحصان ٧٢
 الذهبي ٥٥٢
 ر
 الراس الاخضر ٦٢٨
 راس العواصف (راس الرجاء الصالح) ٦٣٠
 رابان صوما ٣٨٥

دابلج ، جاك ٤٨٩
 دادمون ، انجلبرت ٥٩٤
 دار سلنجن ، الدوق ورنر ٥٠٠
 الداسيون ٥٧١
 داشمة ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠
 داغويسر ٣٠ ، ٣٥
 دافولينو ، جنتيلي ٥٠٦
 دالتسون ، دوق ٦٠٣
 دامبواز ، جورج ٦٢٢
 داميانوس ، بطرس ٣٢١
 دانتلي ٤٣٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٤٩١
 ٦٢١
 دانشمند ٣٤٣
 الدانوب ١٩ ، ٢٠ ، ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٠٥
 ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠
 ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٨٩
 ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٨٤
 دانيان - بنوا ٣٢١
 الدانيمارك او الدانمارك ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٧٧
 ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٤٩٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٧ ، ٦١١
 دبرودجا ١٠٦
 دجلة ٥٦ ، ١٦٣ ، ٢١٠ ، ٣٤٢ ، ٥٥٠
 درابرو ، فرنسيسكو ٦١١
 الدراف ، نهر ٦٥
 الدرافيدية ، الاسرة ٢٥١
 الدراويش الدوارون ، فرقة ٣٤٥ ، ٥٧٧
 الدرديش ٧٤ ، ٥٧٨
 الدروز ٢١١
 دستوتفيل ، الكردينال ٤٧٠ ، ٦٢١
 الدكن ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٣٥٣ ، ٥٥٧
 دلتا النيل ٣٤٢
 دلماتيا ٦٥ ، ٦٦ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٥٧٠ ، ٥٨٤
 دليل الارض الطاهرة ، كتاب ٩٨
 دمشق ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٣٧ ، ٣١٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٥٦٠
 الدمشقي ، يوحنا ١١٨ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 دمياط ٣٩٨
 دنيبر ، نهر ٦٤
 دليستر ، نهر ٣٥١ ، ٣٥٦
 ده فنشي - ليوناردو ٦١٥ ، ٦١٨
 دهلي ٥٥٨ ، ٥٦٠
 دوائر المعارف ٣٩٠
 الدوار ١٥١ ، ١٥٣
 دواي ، مدينة ٣٩٤ ، ٥١٨
 دويلين ، جامعة ٤٦٧
 دوتشيو ٤٨٨
 دورازو ، مدينة ٣١١

اللفظة (٣٩٢)
 الروس ، امير الروس ٥٩٥
 روستوك ٤٦٧
 روسكيا برافدا او مجموعة القوانين
 الروسية ٣٥١
 روسيا ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٠٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٤ ، ٢٢٦ ، ٣١٩ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٥٠٧ ، ٥١٨ ، ٥٤٩ ،
 ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥
 روسيا الاوكرانية ٥٩٢
 الروسيون ، مقاطعة ١٤٥ ، ٤٣٣ ، ٦٠٠
 روضة الصفا (تاريخ) ٥٦١
 الروكوهارا ، دولة يابانية ٢٧٨
 رولان ، أغنية ٣٢٧
 الروم ٦٢ ، ١١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥
 - انظر كذلك : الامبراطورية البيزنطية
 روما ٨ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ،
 ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٧٠ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ (غزو
 المسلمين لها) ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢١٤ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤ ، ٥٢٧ ، ٦١٢ ،
 ٦١٣ ، ٦١٧ ، ٦٢٥
 روما ، سقوطها بيد البرابرة ٢١
 روما ، جامعتها ٤٢٢
 الرومان ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ١٩٨
 رومانوس ، الشاعر ٥٠
 رومانوس ديوجينيس ٣٣٨
 رومانوس ليكابينوس ، الامبراطور ٣٥٧
 رومانيا ٥٣٣ ، ٥٨٥ - الرومانيون ٦٦ ،
 ٥٨٥
 رومولد ، القديس ١٨٦ ، ٣٢١
 الرون ، نهر ١٤٥ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ٤٥٢ ، ٤٩٨
 رونكال ، مدينة ٤٥٢
 الرؤيا ، كتاب ، للقديس يوحنا الرسول
 ٢٨٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
 رويسبروك ، جان ٤٧٧
 الري ، مدينة ٢٢٩
 ريتشار الثاني ، ملك انكلترا ٤٥٠ ، ٤٥١ ،
 ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٤٤
 ريشارد ده يورك ٥٣١
 ريفا ، مدينة ٣٩٣
 ريفال ، مدينة ٣٩٣
 ريكاردوس قلب الاسد ٤١٣
 ريكاريد الملك ٣٤
 ريمس ، مدينة ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣

رايزبون ، مدينة ١٨٧
 راجا ومهراجا ٧٣
 رافنسبورغ ، مدينة ٥٢٣
 رافينا ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ١٨٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ،
 الراهب يوحنا ، اسطورة ٦٢٨
 راينخنو ، دير ١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٨٧
 الرازي ٢٢٩
 راوول له غلابر ٣٢٨
 الرباعة ١٥١
 الربانية ، الطبقة (عند اليهود) ٥٥
 ريتشلاي ٦١٢
 رنشيو ، بنتو ٦١٥
 رجل الحمار ٢٠٧
 الرسالة الراعونة ، للبابا غريغوريس الكبير
 ١٧٩
 رسالة في المباني (كتاب) للمؤرخ بروكوبوس
 ٥٠
 رستم ، ال ٢٠٧ ، ٢١١
 الرشيد ، هارون ١٢٧ ، ١٢٨
 رتيد الدين ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢
 رشيد الدين الخطيب ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
 الرقوق الجلدية ٢٢٤
 ريزو ، كولادي ٥٠٠
 الرها ، مدينة (مدرستها) ٥٤ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ،
 ٣١٤
 الرهينة الهولندية ٦٢٢
 روان ، مدينة ٣٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ،
 ٥٢٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦٢٥
 روبرخت الاول دي وبتلسبرغ ٤٦٧
 روبيا ، لوقادلا ٦١٤
 روبير داربريسيل ٣٢٧
 روبير دي كلاري ٤٢٩
 روبير له كوك ، اسقف مدينة لان ٥٤٥
 روبير دي مولسم ٣٢٢
 روبير غيسكار ٣١١
 روتبوف ٤٢٤ ، ٤٢٩
 روتيلوس ، نمانيوس ١٣ ، ٢١
 روثيه ده لويس ١٨٦
 روجيه الثاني ٣٣٥
 الروح القدس ، انبشاقه ٢١٥
 رودير افارمان ٩٨
 رودوس ، جزيرة ٥٨٤ ، ٥٧٥ ، ٥٨٤
 فرسان ٥٠٠ ، ٥٨٤
 رونشلي ، جان ٦١٩
 روديك ٢١٨
 الروس ، نهر ٤٠١
 الروس ، شعب ٢١٧ ، ٢١٨ (اصل

سافونا رولا ٦٢٢
سافوي ، مقاطعة ١٩ ، ٢٢ ، ٤٥٠ ، ٦٢٢
السال ، نهر ٢١٧
سالسبوري ، مدينة ٤٣٣
ساليرن ، مدرسة ٢٢٥ ، ٤٢٥
السامانية ، الدولة ٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٣٣٠
٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩
سامراء ١٣٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨
سامو ٦٥
سامو دراغوبتا ٧٢
سان برنار ، مجاز او معر ٤٤٣
سان بيير الكبير ، دير ١٧٩
سانتومير ٥١٢ ، ٥١٨
سانتوني ، مقاطعة ٣١١ ، ٥٢١ ، ٦٢٧
سان - جاك ٥٠٢
سان - جاك دي كومبوستيل ٤٣٣
سان - جرمين اوكسير ، كنيسة ١٦٦
سان دنيس ٣٤ ، ١٦٦ ، ٣٢٢ ، ٤٣١
سان روف ، مدينة ٣٢١
سان ريكيه انجلبرت ١٦٤
سان غال ، دير ٣٧ ، ١٦٨ ، ١٨٧
سان غالفانو ٤٣٣
سان غوتار ٤٠١ ، ٤٤٣
سان فكتور ، ريشارد ٤٤٧
سان فكتور ، دير ٣٧ ، ٣٢١
سان - فكتور ، مدرسة ٤٢٣
سان - لازار ، كاتدرائية ٣٣١
سان فيلبرت ١٧٥
سان مرسيل ده ليموج دير ١٨٣
سانت اومير ، مدينة ٣٩٤
سانت اندريه ، جامعة ٤٦٧
سانت - بارب ، مدرسة ٤٦٥
سانت سيسيل ٤٣٦
سانت ماري دي ترانستيفر ٤٣٦
سانس او سيس ، مجمع ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٦٠٤
٦٢٢
سان - سير ٤٩٨
ساهاك ، الكاهن الارمني ٥٤
ساو - ما ، مؤسسة اسرة او دولة تسن ٩١
سايس ، كلود ٦٠٦ ، ٦٠٧
ساي شو ناغون ، الادبية اليابانية ٢٧٧
سايلاندرا ، مدينة ٢٥٣ ، ٢٥٤
سبارتاكوس ٢٠١
السبايين ، فرقة ٥٨٨
سبته ٣٣٥ ، ٦٢٨
سبتيمانيا ، مقاطعة ٢٨
سبيوس مؤرخ ارمني ١٢٢
الستاجيري (ارسطو) ٤١٨ ، ٤٧١

٤٣٣ ، ٤٣١ ، ٣٢٧ ، ١٧٩
ريمس ، مدرستها ١٨٣
الرين ، نهر ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ١٠٥ ، ١٤٨
١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩
٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤٤٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢
٦٠٠
رينانيا ٢٠ ، ٣٤ ، ١٨٠ ، ٣٣٦ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥
٤٧٦
رينيه ، الملك ٦٠٣
رينيه دي هوي ٣٣٠
ز
زادا ، مدينة ٣٩٧
الزادشتية ٥٨ ، ٥٩ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٣٠
١٣٥
الزاب ، مقاطعة في المغرب ٢٧
زدروغا ٢١٨
الزخمشري ٣٤٥
الزن ، مذهب او ديانة في اليابان ٢٦٧ ، ٢٧٩
٣٣٥
الزنج ، ثورة ٢٠١ ، ٢٠٩
زنبار ٢٠٨
الزندقه ١٣٦
زنكي ، السلطان ٣٤٢
زنوبيا ١١١
الزوج الباريسي ٤٨٤
زوريخ ، مدينة ٤٤٦
زوناراس ٣٤٩
الزيدية ، فرقة ١٣٠ ، ٢٠٩
الزيرية ، الدولة (تونس) ٢١١
زيلندا ٤٧٣

س

سابا ، القديس (دير) ٥٢
سابينا ، كنيسة القديسة ٢١
ساداموستو ، الرحالة ٦٢٨ ، ٦٢٩
سادن ، القصر (في الدولة الميروفنجية)
راجع سدنة القصر
سارافوسا ، مدينة ٣١٢
ساديا ، الكاهن اليهودي ٢٣١
الساسانيون ، الساسانية الدولة ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٢٩
٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، ٣٥٦
ساسوفراتو ، برتولودي ٤٥٣
الساف ، نهر ٦٤ ، ٦٥
سافا ، القديس الصربي ٥٧٠

سلفيان التريفي ٢٠
 سامنكا ، جامعتها ٤٦٦
 السلوفاك ٦٥
 السلوفين ٢١٧ ، ٦٥
 السلاف او الفندز ٦٥
 السلافية ، اللغة ١٠٣
 سلام الرب ٣١٨ ، ٣٠٦ ، ٢٨٥
 سليم الاول ، السلطان العثماني ٥٨٦
 سليمان ، الرحالة ٢٢٦ ، ١٩٠
 السملون (معبر او معر في جبال الالب)
 ٥٢٢
 سمرقند ٥٦٠ ، ٣٧٩ ، ٢٦٠ ، ٢٢٤ ، ١٠٤
 سمنان العمودي ، القديس ٥٥ ، ٥٢
 سن - فان - قو ١٠٨
 سنان ، المهندس التركي ٥٩١
 سنترام ، جان ده ٦٣٠
 سنترى ، جان ده ٤٩١
 سنجر ، السلطان السلجوقي ٣٤٩ ، ٣٤٣ -
 ضريحه في مدينة مرو ٣٤٦
 السنديك البحرية ١٩٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
 السنغال ١١٣ ، ١٠٩
 السنة ١١٧
 سيني ٤٧٣
 السهروردي ٣٤٥
 سواسوات ، مدينة ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣١
 سواي ، اسرة ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨
 ٢٥٨ ، ٢٤٣
 سويباكو ٦٢٥ ، ٦٢٤
 سو - تشيو ٣٧٨
 سوثختون ٥٠٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٧
 سوجر دي سان دني ٣٣٢
 السودان ، ٨ ، ٦٣ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٣٣٣
 ٥٦٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨
 السودان النيجيري ٣٣٦
 سورابايا (جاوا شرقية) مملكة ٣٥٤
 السوربون ، ٤٦٥ ، ٤٧٠
 سورا ، مدينة في العراق ٥٥
 سوريا ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،
 ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٤ ، ٣٨٤ ، ٤٣٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ، ٥٨٦
 سوريان ، فرنسوا دي ٤٩٩
 سوريق ، الاب جان ٦٢٢
 سوز ، هنري ٤٧٧
 سوغا ، اسرة ٢٧٠
 سوليس ، القديس ٢٥

ستاندوك ، الاب ٦٢٢
 ستراسبورغ ، مدينة ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٧٦
 ٤٨٧ ، ٥٢٦ ، ٦٢٤
 سترالسوند صلح ٥٣٢
 سترامبالدي ٥٧٣
 ستروزي ٦١٢
 ستروما ، الفلمنكي ٤٥٣
 ستيريا ، مقاطعة ٢٠٩
 سجلماصة ١٩٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨
 سد مارب ١١١
 سدنة القصر (في الدولة الميروفنجية) ٣٠ ،
 ٣٦ ، ٤٢ ، ١٤٦ ، ٢١٤
 سدوان ، ابولينير ٢٢
 سراي ، مدينة (عاصمة القبيلة الذهبية)
 ٥٥
 سردينيا : جزيرة ١٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٤٢ ، ٥٤٣
 سرفاس ، بحر ٦٢٨
 سرفوسطة ٦٠٥ ، ٦٢٥
 سركاك وبرباد ٦٠
 سري اندرا فارمان ٨٨
 سريستا فارمان ٨٨
 سريفييا ، ملوك ٢٥٨
 سعدي ٣٤٥ ، ٥٥٥ ، ٥٦١
 سفورزا ، ال ٥٣٣ ، ٥٩٩ ، ٦١٢
 سفورزا ، فرنسيسكو ٥٠٠
 سكانيا ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٥٢١
 سكتلندا ٤١٤
 السكس او الساكس ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٤٠١
 السكسون - سكسونيا ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٦٥
 ١٤٥ ، ١٦٨ ، ٦٠٨
 السكسون ، غزواتهم ١٩
 سكليروس ٢٠٦
 سكندنافيا ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣
 ٥٠٦ ، ٤٩٦ ، ٤٤٥ ، ٤٠١
 سكوت ، دونز ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
 ٤٧٨
 سكوط ، او سكوت ، سيدوليوس ١٦٥ ،
 ٣٢٦
 سكيلتريس ٢٣٣
 السلاخين ، فرقة ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
 السلجوقية ، الدولة ٢٠٥ ، ٢٢٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ،
 ٣٥٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٧٥ ،
 ٥٧٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩١
 سلتوس الرابع ، البابا ٦٠٤
 سلطان الروم ، لقب ٥٨٤
 سلطنة الروم السلجوقية ٣٤٤
 سلفستر الثاني (هو جريوت دورباك) ١٨٥

سيلفستر يود ٥٠٠
 سيلفيو ، انكا ٤٦٩
 سيليزيا ٣٩٢ ، ٣٩٣
 سيلان ، جزيرة ٧٠ ، ٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥
 ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥
 سيمون دي مرتيني ٤٣٦
 سيمون دي مونفور ٤١٦
 سيمونا ٥٨١
 السيمونية ٣١٦
 السين ، نهر ٣٤ ، ٣٦ ، ١٥٠ ، ١٧٥ ، ١٧٨
 ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٥٢٢
 سينا ، مدينة ٣٩٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٤٩
 ٤٨٨ ، ٤٩٦ ، ٥٢٣
 سينا ، جامعة ٤٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٩٩
 سينكا ، الفيلسوف الروماني ٣٢٤ ، ٣٢٦
 ٤٧٤
 سواس ، مدينة ٣٤٦ ، ٥٥٨
 السيوطي ، جلال الدين ٥٥٢

ش

شا - تو ٣٥٦
 شاتوفيلين ، دي ٥٠٤
 شارتر ، مدينة ٢٩٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦
 شارتر ، كاتدرائية ٤٣١ ، ٤٧٣
 الشارترين ، رهبة ٤٧٦
 شارل ، الاصلع ١٧٠
 شارل دانجو ٣٩٩
 شارل دورليان ٥٠٤
 شارل مارتل ١١٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٠
 شارل الجسور ٥٠٠ ، ٥٢٤ ، ٥٤٣ ، ٦٠٠
 ٦٠١
 شارل الرابع ، ملك بوهيميا ٤٥٠
 شارل الرابع امبراطور المانيا ٤٦٠
 شارل الخامس ، ملك فرنسا ٤٥٤ ، ٤٥٥
 ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥
 ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٦٧
 شارل اطلس شارل الخامس ٦٢٧
 شارل السادس ٤٧٥ ، ٥٣٨
 شارل السابع ، ملك فرنسا ٤٤٨ ، ٤٦٧
 ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨ ، ٦٠١
 ٦٠٥ ، ٦٠٩
 شارل الثامن ٦٠٠

سولاي ، ملوك ٢٦٠
 السوم ، نهر ٢٧ ، ٦٠٠
 السوند ، جزر ٢٤٢ ، ٥٢١
 سونغ ، ملوك ٨٨ ، ٩٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩
 ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨
 سونغ - تشان ٩٨
 سونغ - يان ٩٦
 سونغ - يو سو ، معبد ٩٩
 سويسرا ٤١٥
 سوية ، اسرة ٩٠
 السويغ ١٩
 سي - بنغ ، نهر ٣٥٩
 سي - هيا ، قبائل ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٨
 سيغريوس ٢٧
 سيام ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣٥٤
 سيانغ - يانغ ٣٧٥
 سيويه ١٣٢
 سيبريا ٨
 سيتو ، دير ٣٢٢
 سيجر دي بربان ٤٢٦ ، ٤٧٢
 سيجسموند ، ملك البوغونيين ٢٣
 سيجسموند ده لوكسمبورج ٤٥٠ ، ٥٢٢
 سيجسمون ، الامبراطور ٤٦٤
 السيد ، ملحمة ٤٣٠
 سيد بطل غازي ، الملحمة ٢٢٨
 سيدونيس ، ديمتريوس ٥٧٣
 سيراف ، مرفأ ١٩٠ ، ٢٠٩
 سيراقيان بورورج ١٩٠
 سيرداريا ، نهر ١٠٩
 سيزينا ، ميشال دي ٤٥٩ ، ٤٧٥
 سيستان ٣٥٧
 السيستريون ، الرهبان ٣٢٢ ، ٣٩٢
 ٤٣٣
 سيفوفيا - كاتدرائية ٤٣٣
 سيف الدولة الحمداني ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٥
 سيف ، عبادته ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣
 سيف ، اله الاخصاب ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧
 سيف ، قضيب ٢٥٧ ، ٢٥٨
 سيفيدال ده فريول ١٦٨
 السيفين ، جبال ١٧٣
 سيكستن الرابع ، البابا ٦١٣ ، ٦٢١

شارل له موفيه ، ملكه النافار ٥٤٥
 شارلمان ٤٣، ١٠٢، ١٤٧، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠،
 ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨،
 ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٨٢،
 ١٨٦، ٤١٤ (اعلان قداسته)
 شارلمان اوكارلوس الكبير ١٤٧
 شارو ، مجمع (٩٨٩) ٢٨٤
 شالون على - الصون ١٦٨، ٥٢٢
 الشافعي ، والمذهب الشافعي ١٣٣، ١٣٢
 الشام ١١٥، ١٢١، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٢، ١٩١
 ٢٢٦، ٥٥٠، ٥٦٠
 الشامانية ، الديانة ٣٨٠، ٣٨١
 الشامر ٩٠
 شانغ - تو ٣٧٢، ٣٨٥
 شاندراف غوبتا الاول والثاني ٧٢
 شانسي ٩٤
 شاه رخ ٥٦١
 الشاهنامة ٥٧، ٢٢٧
 شا - هو الملعب بالبحية الزرقاء ٩٥
 الشاي : دخول زراعته اليابان ٢٧٩
 الشب : مناجمه ٥١٩
 شتلاند ، جرد ١٧٤
 شربورغ ٥٣٠
 شرف الدولة البويهى ٢٢٩
 الشرق الادنى ٨، ٢٦، ٣١، ٤٥، ٥٥، ١٤٠،
 ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ٢٢١، ٢٤٠، ٢٦٠،
 ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٥٨، ٣٧٥، ٣٨٩،
 ٥٥٠، ٥٥١، ٥٦١، ٥٦٥، ٥٧٦
 الشرق الاقصى ٤٥، ١٩٢، ٢٧٠، ٣٧٩،
 ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٨
 الشرق الاوسط ٤٥، ١١٤، ٥٥٩
 الشرق البيزنطي ٩
 الشرق اليوناني ١٤
 شريفيايا ، مملكة ٢٥٣
 شط العرب ٢٠١
 الشطرنج ٦٠
 شلدريق ، ملك ٤٧، ٣٦
 شلسفيغ ، مقاطعة ٣٩٦
 الشمبا ، سلالة ٩٠
 شمبانيا ٣٨٢، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٠، ٤٠١،
 ٤٠٢، ٤٢٧، ٤٣٤، ٤٤٣، ٥١٤، ٥١٧
 ٥٢٢

الشننو ، ديانة ٢٧٩، ٢٧٤
 شنتياغو ، مدينة ٦٠٠
 شوارين ٣٩٢
 شوتوكو نايشي ٢٧٠
 شودراكا ، مؤلف : عربية الفخار ٨٦
 شوربا فارمان الثاني الملك ٣٥٤
 شوسر ٤٨٣، ٤٨٠، ٤٩٠
 الشوغون ، الشوغونات ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٥٥
 شولا ، مملكة ٣٥٤
 شولياك ، غي دي ٥٠٦
 شيترا سينا ٨٩
 شيراز ٥٥٥، ٥٦١
 شيرنفاي ، على ٥٦١
 شيزال - بنوا ، دير ٦٢٢
 شيزينا ٥٠٠
 شيشرون ٣٢٤، ٤٧٤
 الشيعة ١١٥، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٣،
 ١٣٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١، ٥٥٢، ٥٥٣
 ٥٨٥
 شيفر ، بيير ٦٢٤
 شيلندرا ، مملكة ٣٥٤
 شيما بوي ٤٣٦
 ص
 الصابىء ، هلال ٢٢٦
 الصابئة ١١٦
 الصباح ، حسن ٣٤٠
 صحاح الحديث ١٣٢ - صحيح مسلم
 ١٣٢ - صحيح البخاري ١٣٢
 الصحراء الكبرى ٩، ٦٣، ٢٠٧، ٣٣٣، ٦٢٨
 الصرب ٦٥، ٢١٧، ٢١٩، ٣٤٨، ٣٥٠،
 ٥٨١، ٥٦٩
 صربيا ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٩
 الصفد او الصفديان ٥٦، ١٠١، ١٠٤، ٢١٠
 الصفوية الدولة ٥٨٥
 الصقالبة ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ١٣٨، ١٥٨،
 ١٨٥، ١٩٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٧، ٢٢٩
 ٢٣٨، ٣٩٩
 صلاح الدين ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٦
 - تاريخ ... لعباد الدين الاصفهانى ٣٤٤
 - بناء قلعة المعظم في القاهرة ٣٤٦
 صقلية او صقليا ١٠٩، ١١٣، ١٣٨، ١٧٤،
 ١٩١، ٢١١، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٦،
 ٢٣٧، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٣، ٣٣٥، ٤٠٢

طشقند ٢٧٩، ٢٦٠
 طغري بك ٣٣٩، ٣٣٨، ٣٣٧
 طغرل ٣٥٩
 طليطلة، مدينة ٣١٢، ٣١٣، ٤٣٣، ٤٨٧
 طنجة، مدينة ٥٦٢
 طهران ٥٥٦
 الطوائف، ملوك ٢١٤
 طورامانا ١٠٥
 الطوخاريون ٦٩
 الطوخارية، اللغة ١٠٣
 الطوراني، العرق ٨
 الطوروس، جبال ٢١٦، ٥٥٩
 طورعابدين ٥٨
 طورمانين ٥٥
 الطوسي، نصير الدين ٥٥٥
 طوق الحمامة، لابن حزم ٢٢٥
 الطولونية، الدولة ٢٠٩، ٢١٠
 طيسفون ٥٦٦، ٥٦٧، ٦١١، ١٢٦

ع

عابدين، إمارة ٥٧٥
 العالم الاسلامي ٨، ١٥٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣
 ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٤
 ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣١، ٣٣٣، ٥٤٩، ٥٥٠
 ٥٦٤، ٥٥٧

العباس

العباسيون، أو الدولة العباسية - الخلافة
 العباسية ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢
 ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٠
 ٢١١، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٦، ٣٣٨، ٥٨٩

عبد الرحمن الثالث

عبد الرحمن الفافقي ١١٣، ١٤٥، ١٤٦
 عبد المؤمن ٣٣٤
 عبد الملك بن مروان ١٢٢، ١٢٦
 العبر، نهر (اسبانيا) ١٨٩، ٣٣٤
 عبيد الله الفاطمي ٢١٠
 العبيدية، الدولة ١٩١
 عثمان بن عفان ١١٤
 عثمان، الأمير مؤسس الدولة العثمانية
 ٥٥٩، ٥٧٥، ٥٧٦

العثمانيون، الانراك، ن: الانراك العثمانيون
 العراق ٥٤، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢١، ١٢٦
 ١٣٥، ١٣٧، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠١

٤١٢، ٤١٥، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٤٢، ٤٩٦
 ٥٢٠، ٥٢٢
 الصليبيون ٣١٣، ٣٤٢ - انظر كذلك:
 الحروب الصليبية صموئيل ملك البلغار ٢٢١
 الصوائف ١٣٨
 الصواب أو السواب، مقاطعة ١٨٧، ٣٢٣
 الصوداب، قبائل ٢١٧
 الصولي ٢٢٦
 صومطرا ٧٠، ٩١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٣
 الصون، نهر ١٧٥
 الصين ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٦٢، ٦٨، ٦٩
 ٧٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣
 ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣
 ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٥
 ١١٩، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧
 ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢
 ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧
 ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
 ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
 ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢
 ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧
 ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢
 ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
 ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
 ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧
 ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢
 ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧
 ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢
 ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧
 ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢
 ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧
 ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢
 ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
 ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢
 ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
 ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢
 ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧
 ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢
 ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧
 ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢
 ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
 ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢
 ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧
 ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢
 ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧
 ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢
 ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧
 ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢
 ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧
 ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢
 ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧
 ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢
 ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧
 ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢
 ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧
 ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢
 ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧
 ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢
 ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧
 ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢
 ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧
 ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢
 ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧
 ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢
 ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧
 ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢
 ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧
 ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢
 ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧
 ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢
 ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧
 ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢
 ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧
 ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢
 ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧
 ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢
 ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧
 ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢
 ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧
 ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢
 ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧
 ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢
 ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧
 ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢
 ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧
 ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢
 ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧
 ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢
 ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧
 ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢
 ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧
 ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢
 ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧
 ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢
 ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧
 ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢
 ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧
 ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢
 ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧
 ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢
 ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧
 ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢
 ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧
 ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢
 ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧
 ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢
 ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧
 ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢
 ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧
 ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢
 ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧
 ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢
 ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧
 ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢
 ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧
 ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢
 ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧
 ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢
 ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧
 ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢
 ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧
 ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢
 ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧
 ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢
 ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧
 ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢
 ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧
 ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢
 ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧
 ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢
 ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧
 ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢
 ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧
 ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢
 ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧
 ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢
 ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧
 ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢
 ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧
 ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢
 ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧
 ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢
 ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧
 ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢
 ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧
 ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢
 ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧
 ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢
 ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧
 ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢
 ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧
 ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢
 ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧
 ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢
 ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧
 ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢
 ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧
 ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢
 ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧
 ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢
 ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧
 ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢
 ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧
 ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢
 ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧
 ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢
 ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧
 ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢
 ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧
 ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢
 ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧
 ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢
 ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧
 ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢
 ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧
 ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢
 ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧
 ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢
 ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧
 ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢
 ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧
 ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢
 ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧
 ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢
 ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧
 ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢
 ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧
 ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢
 ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧
 ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢
 ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧
 ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢
 ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧
 ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢
 ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧
 ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢
 ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧
 ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢
 ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧
 ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢
 ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧
 ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢
 ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧
 ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢
 ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧
 ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢
 ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧
 ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢
 ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧
 ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢
 ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧
 ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢
 ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧
 ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢
 ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧
 ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢
 ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧
 ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢
 ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧
 ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢
 ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧
 ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢
 ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧
 ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢
 ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧
 ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢
 ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧
 ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢
 ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧
 ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢
 ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧
 ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢
 ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧
 ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢
 ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧
 ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢
 ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧
 ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢
 ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧
 ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢
 ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧
 ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢
 ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧
 ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢
 ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧
 ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢
 ١٢٨٣، ١٢

غاوون ٥٥
 غراتيانوس ٣٢٦
 الغرال ، اسطورة ٤٢٠
 غرانسون ٥٠٢
 غرائيمون ٣٢٢
 غرناطة ، مملكة ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٩٦
 ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٦٠١
 الغرناطي ، ابو حميد ٣٣٤
 غروت ، جيرار ٤٧٧
 غرسار ، يرنه ٤٩٩
 غروستات ، روبر ٤٢٦
 غروسيه ٦٩ ، ٩٥ ، ١٠٥
 غريبان ، ارنو ٣٩٤
 غريغوريوس التورسي ، القديس ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢
 غريغوريوس الكبير ، البابا ٣٩ ، ١٧٩
 غريغوريوس الثاني ، البابا ١٤٧
 غريغوريوس السابع ، البابا ٣١٨
 غريغوريوس التاسع ، البابا ٤٢١
 غريغوريوس الحادي عشر ، البابا ٤٦٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠٨
 غريغوريوس الثاني عشر ، البابا ٥٧٤
 غريفسولد ، مدينة ٤٦٦ ، ٤٦٧
 غرينوبل ٦٠٣
 الغز ٦٩ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣
 الغزالي ٣٣٤ ، ٣٤٤
 غزنة ، مدينة ٢١٠ ، ٢٢٤ ، ٣٥٩
 الغزنوية ، الدولة ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٥٥٧
 الغزنوي ، السلطان محمود ٢٢٧ ، ٥٥٤
 الغزوات الكبرى او الغزوات البرابرة
 او الجرمانية ٧ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢١ ، ١٦٩
 غزولي ، بنو ٦١٤ ، ٦١٥
 الغساسنة ، او آل هسان ١١١
 فسكونيا ٥٢١ ، ٥٣٠
 فلاتونيري ، دير ١٧٩
 فلاسكو ، جامعتها ٤٦٧ ، ٤٦٨
 فلاملة ٥٨٤
 فلوسستر ، ٤٨٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤١
 الفليكانية ، الحريات ٤٥٢ ، ٤٦١
 فليوم الاكويثاني ١٨٣

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٣٤١
 ٥٥٦ ، ٥٥٦ ، ٥٨٦
 العرب ٥٣ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٤ ، ٢١٦
 ٢٤٢ ، ٢٤٢
 مسال ، آل ٣٤٧
 عصبية المصلحة العامة ٦٠٣
 العطار ، فريد الدين ٣٤٥
 العقيدة الاسلامية ١١٧
 مكا ، مدينة ٤٣٤
 العلوم الدخيلة ١٢٢ ، ١٢٤
 علي بن ابي طالب ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٢٠٧
 ٢١١ ، ٢٠٨
 علي بن عيسى ، الوزير ٢١٠
 عماد الدين الاصفهاني ٣٤٤
 عمان ١٢٩
 عمر بن الخطاب الفاروق ١١٣
 عمر بن عبد العزيز ، الخليفة ١٢٦
 عمر الخيام ، رباعياته ٣٤٥
 عمرو بن العاص ١٢٢ - مسجده ١٢٣
 عنتره بن شداد ، قصة ٢٢٨
 العيارون ٢١٠
 عيسى النسطوري ٣٨٤
 غ
 غاديفر ده لاسال ٦٢٧
 غازان ، الايلخان ٥٥٣
 غاكن ، روبرت ٦١٩
 غالوكيا ، آل ٢٤٧
 غارون ، نهر ٣٠٠ ، ٣٩١ ، ٥٢٢
 غالبا ١٥ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥
 ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٥
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧
 ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢
 ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣٣٠
 غالبا الجنوبية ١٩ ، ٢٨٤ ، ٣٢١ ، ٤٣٣
 غاليبولي ، مدينة ٥٧٨
 غانا ، امبراطورية ٥٦٣
 الفانج ، نهر ٦٩ ، ٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٥٥٧
 غانية ، بنو ٣٣٦

فوسانوف ٤٣٣
 فوكاس، ال ٢٠٦
 فوكلوز، مقاطعة ٤٧٤
 فوكيه، جان ٦١٥
 فو - كيان، مقاطعة ٩٥، ٩٨، ٢٤٣، ٣٧٩
 فوليسر ٣٢٤
 الفولفا، نهر ٦١، ٦٣، ١٠٦، ١٤٠، ١٩١
 ٢١٨، ٣٣٧، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦١، ٥٥٥
 ٥٩٣
 فونتانا ٤٧٣
 فونفرو ٣٢٧، ٦٢٢
 فونتبيلو ٦١٩
 فو - نان (كمبوديا) ٧٠، ٨٨، ٨٩، ٢٥٢
 ٢٥٣
 فونغ، مدينة او ناكين ٣٥٤
 فونك، الاسقف ١٨٣
 فو - نيان، الامبراطور ٩٧
 فوييه، موقعة ٢٧
 فيتروف ٤٨٩، ٦١٣
 فيتوكتند ١٨٧
 فيجيس ٤٨٩، ٥٠١
 الفيدانتا، نظرية ٨٧
 فيدرجي، الاسقف ٦١٤
 فيرامين، مدينة ٥٥٦
 فيرمان ١٤٦
 فيروز، الملك ١٠٤
 فيزلاي، دير ٣٣٠، ٣٣١
 فيزوكي دشاني ٥٧٠
 فيروكيو ٦١٤
 الفيزير، نهر ٣٠٠، ٣٩٢
 الفيزيوط ١٩، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٤٢
 ٦٧، ١٤٥، ١٦٩ - انكسارهم في موقعة
 فوييه ضد الملك كلوفيس عام ٥٠٧
 فيسييه، مدينة في جزيرة غوتلاند كانت
 عاصمة الهانس ٤٥٧
 فيشا كادتا ٨٦
 فيشنو ٣٥٤
 فيشه، غليوم ٦١٩، ٦٢٠
 فيغاروم، مدينة ٤١
 فيغالدي، الاخوة ٥٢٦
 فيك، مدينة ٤٣٣
 الفيكنغ، قبائل ١٧٩، ٣١٠
 فيلراندو، رودريغ دي ٤٩٩
 فيلافو ٦١٧
 فيلاني الفلورنسي ٤٥٨، ٤٨٥، ٥١٩
 فيلهردوين ٤٢٩
 فيليب اوغست، الملك ٢٥٧، ٤٠٩

فيليب الاول، ملك فرنسا ٣١٦
 فيليب ده فالوا ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٩٨، ٥٢٩
 ٥٣٨
 فيليب دي بومانوار ٤٨٩، ٥٢٥
 فيليب دي ميزير ٤٨٤
 فيليب فان ارتفلد ٤٨٥
 فيليب الخامس، ملك فرنسا ٥٤٤
 فيليب السادس ٥٤٤
 فيليب له بيل، الملك ٤٠٠، ٤٠٢، ٤١٣
 ٤٢٥، ٤٣٥، ٤٥١، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٦٢
 ٤٩٨، ٥٣٠، ٥٣٥، ٥٤٣، ٦٠٤
 فيليب له بون او الصالح ٤٤٨، ٤٦٧، ٤٨٢
 ٥١١، ٥٤٣، ٦٠٤
 فيليب الجسور ٦٠٤
 فينايا، كتاب ٩٨
 فيون ٣٤٩، ٤٧٠
 فيليرود ١٤٦
 فيينا ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٩٢، ٥٧٦، ٥٨٥
 فيينا، مدينة في فرنسا ٢٧، ٤٠
 ق
 قاديري، مملكة ٣٥٤
 قاشان، مدينة ٥٥٦
 القانون، كتاب لابن سينا ٢٤٩
 القانون اليهودي ٤٦
 القانون اليوستيني ٤٦، ٥٠
 القانون الفرنسي ٤٧٥، ٤٧٦
 قانون الرودوسيين ١٣٩
 القاهرة ٢١١، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٣٨، ٣٤٢، ٣٤٦
 ٣٩٨، ٥٠٠، ٥٦٢، ٥٨٤
 قايدو ٣٨٧، ٣٥٩
 قبادوقية ٢٣٧، ٥٨٠
 قبر المسيح ٣١٢
 قبرص ١٢١، ٣١٤، ٤٢٨، ٤٣٥، ٤٤٢
 ٥٥١، ٥٧٣، ٥٨٤
 القبيلة الذهبية او دولة كتشاك ٥٥٥، ٥٥٦
 القدرية ٣٤٠
 القدس ٥٥، ١١٨، ٢١١، ٢٣١، ٣٠٢، ٣١٣
 ٣١٤، ٣٤٢
 القرآن ١١٧، ١٣٢، ١٣٣، ٢٣٨ - القول
 بخلقه ١٣٣
 القراخيون، الاتراك ٣٣٧، ٣٥٧
 القرائين، فرقة ١٣٥
 القراخيطاط ٣٤٣، ٣٥٨، ٣٦٠
 قراشهر ٣٥٦
 القرامطة ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢٢٣، ٢٣٠
 القربان المقدس: عبادته ٤٧٨
 قريطاجة ٢٦

قيصرية ، مدينة ٣٤٦
القيصرية البابوية ٤٠، ٤٨، ٤٧٤
قيم العصر ، ن : سدة القصر
ك

كاتب ، روبرتيان ، او كاتبة ، الاسرة ١٨٢،
١٨٥، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١، ٤٢٥، ٤٣٣،
٤٣٤، ٤٣٥، ٥٩٣
كابستران ، جان ده ٤٧٥، ٦٣١
الكابيتول ٥٩
الكابوشية ، الحركة ٥٤٥، ٥٤٧
كابول ٢٦٠، ٣٥٨
كابول ، حفيد قايدو ٣٥٩
كابيتسا ، مقاطعة ١٠١
كاترين دي سينا ٤٤٩، ٤٥٩، ٤٦٢، ٤٧٧
كاترين الاسوجية ٦٢
كاثياوار ، مدينة ٢٥٢
كاداك النسطوري ٣٨٢
كادزنت ، صلح (١٤٩٢) ٦٠٤
كارلومان ١٦٠

كارمي ، شركة ٣٤٢
الكارولنجيون ، الكارولنجية ، الدولة
١٤٨، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩
١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٧، ١٨١
١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ٢١٧
٢١٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٨، ٣٢١، ٣٢٣
٣٣، ٤٢٧، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٩٤

الكنيسة ١٦٠...
كاريا جامي ٥٥٣
كاريجي ٦١٧
كازيمير الكبير ٤٦٧، ٤٥٥
كاسب ، تسوية ٥٤٤...
كاستل - سبريو ، كنيسة ٢٦
الكاهن أو الورق ، ١٩٦، ٢٢٤
كافا ، مدينة ٣٩٨
كافاليني ، الرسام ٤٣٦
كالابريا ٣١١، ٣١٣
كالانرا ، مقاطعة ٦٠٠
المار ٥٣٢، ٥٤٤
كاليداسا ، الشاعر الهندي ٨٥، ٨٦
كالييس ، جيم ٥٤٧
كاليه ، مدينة ٤٤٨، ٥١٨، ٥١٩، ٥٣٤
كام ، ديافو ٦٣٠
كاماكورا ، مدينة ٢٧٨
كامالدول ، رهينة ١٨٦
الكامل ، السلطان ٣٨٢
كان - تشيو ٣٨٢
كان ، جامعتها ٤٦٧

قرطبة ١١٠، ١٨٤، ٢١٣، ٢٢٤، ٢٣٧
قرطبة ، مسجدها ٢٣٥
القرم ، بلاد ٦٣، ١٣٥، ٣٨٦، ٣٩٨، ٥٥٥
٥٩٦

القرن الذهبي ٤٩، ٣٤٩، ٥٦٥، ٥٩٢
قره بلغاسون ، عاصمة الويفور ٣٥٦
قره كوروم ، مدينة ٣٧٩، ٣٨٤، ٣٨٦
قريش ١١١، ١١٢، ١٢٥
قرل ١٠٣

قروين ، بحر ، ن : بحر قروين
قسطموني ، اماره ٥٩١
قسطمطين الكبير ، الامبراطور ١٤، ٢١، ٤٨
١٨٥

قسطمطين ، هته المرومة للكرسي
الرسولي ٤٥٩، ٦١٧
قسطمطين المتدثر بالارجوان ٢١٥، ٢٣٣
قسطمطين الحادي عشر ، الامبراطور ٥٨٤
قسطمطين مونوماخس ٢٢٣
قسطمطينة ٥٦١

القسطمطينية ٤٨، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٤٤٦، ٥٠
٥٣، ٥٨، ٦٢، ١٠٦، ١٠٩، ١١٣، ١٢١
١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٧، ١٩٣، ١٩٧
١٩٨، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢
٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٣١١
٣١٢، ٣١٤، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١
٣٨٥، ٣٩٧، ٤٢٩، ٤٢٤، ٥١٩، ٥٦٤
٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٢، ٥٨٠، ٥٨٣
٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦١٧

القسطمطينية : جامعتها ٤٩، ٢١٤، ٢٣٢
بطريكية ١١٨...
قشتالة ٣١١، ٣١٢، ٣١٥، ٤١٢، ٤٣٤
٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٤
٤٩٨، ٥٠٨، ٥١٢، ٥٣١، ٥٣٦، ٥٣٧
٥٤٦، ٥٤٧، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٢٧، ٦٢٨

قشغاريا ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٨٥
قصر المشتى في الاردن ١٢٢
قصص من كثربري ، كتاب ٤٨٣
قصة الثعالب ٤٥٠
قصة الوردة ٤٧٤، ٤٨٤
القلشندي ، صاحب كتاب صبح الاعشى
٥٥١

قواد ، الملك ٥٦
القوقاس ، ٦٢، ٥٥٥
قونية ، مدينة ٣٤٦، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٩٠
القويق ، نهر ٣٨٤
قبالغ ٣٨٥
القيروان ١١٤، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٥

٢٢٣، ٤٤٢، ٥٧٣، ٥٨٤، ٥٩٠
 كريتيان دي طروا ٤٢٨
 كريستيان الرابع، ملك الدانيمارك ٤٦٧
 كريستوبولس، المؤرخ ٥٩٠، ٥٩١
 كريستين دي بيزان ٤٨٤
 كرسي، موقعة ... (١٣٤٦) ٥٣٥، ٥٤٠
 ٥٤٥
 كريفيجيا ٣٥٤
 كريمونا، مدينة ٥١٩
 كزلباخ، اي الرأس الاحمر ٥٨٥
 كريمنيس، يوحنا ٢٠٦
 كستريوتا، جورج، المعروف باسكندر بك
 ٥٨٤
 كسينو، جبل ٣٢٣، ٣٨
 كسيودوروس ٤١، ٤٤
 كشجار، مقاطعة ٩٧
 كشير ٩٧، ٩٨، ٢٦٠
 كفا، مدينة ٥٨٤
 كراك، إحدى مقاطعات افغانستان ٩٨
 ١٠٣
 كلايريا ٤١
 كلايفو ٥٦٠
 الكلتيون ٩٠
 الكلتي، اللغة ١٠٣
 كلوديانوس ١٣، ١٤
 كلوتير الثالث ٣١
 كلوفيس ٢٧، ٢٨، ٢٩، ١٤٧
 كلوني، دير ٣١٧، ١٨٣، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٨
 ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٦٢٢
 كليز ٤٧٦
 كليرفو، دير ٢٢٣، ٣٢٥، ٣٣٢
 كليرمون ٤٦٥، ٥٤٠
 كليرمون، مجمعها ٣١٨
 كليلة ودمنة ٦٠، ١٣٥
 كمبانيا ١٧٤
 كمباي، مقاطعة ٢٤٥
 كمبردج، جامعة ٤٦٥، ٤٩٢
 كمبريه، مدينة ٣٥، ٣٠٧، ٣٩٤
 كمبو ياسو ٥٠٠
 كمبوديا (فو - فان) ٧٠، ٢٤٤، ٢٤٥
 ٣٥٤، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥١
 كنتاي، جبل ٢٧٣
 كنتيريا ٢٠، ٦٠٩، ٦٢٧
 كنتوزين، جان ٥٦٧، ٥٧٢، ٥٧٥
 كنتوربري ٤٠، ٤٢، ٣٢٦، ٤٨٨
 كنتونيك، مرفأ ٣٤
 كنتون او كانتون، مدينة ٨٨، ١٩٠، ٢٤٣

كانيا - كوبجا او كانان، مدينة في الهند ٢٤٨
 كانيشكا ٨٨
 كاهان (خان اعظم) وهو لقب جنكيزخان
 كاهور، مدينة ٣٩٩، ٤٤٨
 كبرانكا ٦١٢
 الكشال ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٧٩، ٣٨٤، ٣٨٥
 كتاب الرئيس (المحتسب) ١٩٦
 - تاريخ مصابي، لا بيلار ٣٢٥
 - تكتيكون ٢١٥
 كتاب الحاكم، لجان دي ساليزبوري ٣٢٥
 كتاب الحيوان، للجاحظ ١٣٦
 كتاب الخراج لابي يوسف الانصاري ١٢٧
 كتاب الصداقة، لشيشرون ٣٢٤
 كتاب الولاة ٢١٥
 كتب الطبقات: ظهورها ٢٢٦
 كتشاك او القبيلة الذهبية ٥٥٧
 كتلونيا او كاتالونيا، مقاطعة ١٧٦، ٢٢٣
 ٣١١، ٣٢٥، ٤٣٠، ٤٣٣، ٥٢٧، ٥٤٤
 ٥٤٦، ٦٠٠
 - الفرقة الكتالونية ٤٩٨، ٥٦٦، ٥٧٥
 كدريوس ٢٣٣
 كراهه، اسرة ٤٦٧
 كراكور ٥٩١
 كراكوفيا، مدينة ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٤٦
 الكرايت ٣٥٩، ٣٦٠
 الكريات، جبال ٦٢، ٦٦، ١٠٥، ٥٧١
 كربلاء ١١٥
 الكروتوزين او الشارتريون، الرهبان ٣٢٢
 الكرج ٥٤٤، ٥٥٥، ٥٨٥
 الكرد او الاكراد ٣٣٩، ٥٥٦
 كردستان ٢٣٤
 الكرسي الرسولي ٣٧، ٣٨، ٤٠، ١٤٥، ١٤٦
 ١٤٧، ١٧٣، ١٨٣، ١٨٥، ٣١٧، ٤٢٠
 ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٩٦
 ٥٩٩، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦١٧، ٦٢١، ٦٢٢
 الكرغيز، الاتراك ٣٥٦، ٣٥٩
 كركسون ٤٨٧
 كرمان، امارة ٥٥٩، ٥٩٠
 الكرمليات، رهنة ٦٢٢
 الكروات ٦٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣
 كرواتيا ٣٦١، ٤٤٢، ٥٧٠
 كروغانغ، الاسقف ١٦٢
 كروكار ٤٨٥
 كروم، القيصر البلغاري ٢١٧
 كروميرز، ملك دي ٤٨٠
 كرونواغرافيا ٢٣٣
 كريت او اقريطش، جزيرة ١٩١، ٢١٦

٣٥٨ ، ١٠٣ ، ٩٨
 كولا دي ريتز ، ٤٥٩ ، ٥٢٧ ، ٤٥٥
 كولبير ٦٠٩
 كولمان ، القديس ٣٧
 كولبوس ، ٦٢٩ ، ٦٣٠
 كولونيا ، مدينة ١٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ - ٤٥٣ ، ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٧ ، ٦٠٠
 كولوني ، برتو لوميو ٥٠٠
 كولونيا ، جامعة ٤٦٩ ، ٤٧٢
 كوليت دي كوربي ٤٧٦ ، ٤٧٧
 كولين ، جبل ٢٥٤
 كوماراجيفا ، الراهب البوذي ٩٧ ، ٩٨
 كوماراغوبتا الاول ٥٢
 كومارشيو ١٦٨
 الكومان ، قبائل ١٢١ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٥٦٩
 كومبوستيل ، دير القديس يعقوب دي ٣٠٣
 ٣٢٩
 كومينوس ، ال ٢٠٦
 كومينوس مانويل ٣٤٨ ، ٣٥٠
 — آنا ٣٤٩ ...
 — الكسيوس ٣٤٩ ...
 — اندرونيكوس ٣٥٠ ...
 — يوحنا ٣٥٧ ...
 كومورين ، رأس ٩١
 الكوميز ٣٨٠
 كومين ٤٤٦
 كونت ، لقب ٢٢
 الكونتس ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨
 الكونجيرات ٣٥٩
 كوندليس ، شاكو ٥٩٠
 كوندنبا ٨٨
 كونستانس ، مجمع ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٤
 ٤٦٩ ، ٤٨٠ ، ٥٢٣ ، ٥٤٦ ، ٦٢١
 كونستانس ، بحيرة ١٤٦
 كونفسبرغ ٥٠٨
 كونفوشيوس ، الكونفوشسية ٩٨ ، ٩٩
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٥٨ ، ٣٨١
 ٣٨٨ ، ٣٨٩
 كونك ، دير ١٨٣
 كونتك ، بير دي ٥٢٧
 كوو - لي - كي - سو او كورغو ٣٨٤
 كويوك ٣٧٠
 كيتات ، مملكة ٣٣٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩
 ٣٦٠ ، ٣٧٩
 كيداح (شبه جزيرة الملايو) ٢٤٣ ، ٢٤٤
 ٢٤٥

٥٦٢ ، ٣٨٩
 كندا ٦٢٧
 الكندي ٢٣٠
 الكنيسة الارثوذكسية ٢١٤
 كنيسة دفنة ٢٣٧
 كنيسة القديس مرقص بالبندقية ٢٣٨ ، ٢٣٦
 كنيسة القيامة ٢١١
 كنيسة القديس بطرس ١٤٧ ، ٦١٣
 كنيسة ماريا داي فيوري ٦١٣
 كنيسة القديس بولس خارج الاسوار
 (في روما) ٣٠٣
 كنيسة القديس ميخائيل ٣٠٤
 كوادريفيوم ١٦٤
 كوامبر ، مدينة ٣١٢
 كوبرات ، الملك البلغاري ٦٥
 كوبرنيك ٤٧٣
 الكوبري ، دولة من عرق بلغاري ٦٣٢
 كوبنهاغن ، جامعتها ٤٧٨ ، ٥٣٢
 كوبيلاي ٣٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
 ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
 ٣٨٧
 كونايس ، عاصمة جيورجيا قديما ٢٣٥
 كونولا ٣٥٩
 كودانكو بيليك (ملخص الحكمة الاسلامية)
 ٣٤٥
 كوربارا ، بير دي (البابا الدخيل او المزيف)
 ٤٥٩
 كوربي ، دير ٣١ ، ١٦٦
 كورتوبه ، مدينة ٦٠٦
 كورتنبيرغ ، دستور ٥٤٨
 الكورتيس ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧
 كورسكا ، جزيرة ١٧٤ ، ١٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٧٥
 ٥٣٢
 كورغوزا او كوو - لي - كي - سو ٣٨٤
 كورفاي - دير ١٨٧
 كورفو ، جزيرة ٣١١ ، ٥٩٠
 كورلاند ٣٩٢
 كوربا ٦٨ ، ١٠١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢
 ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦١
 كوزماتي ، ال ٤٣٦
 كوزموس ودميانوس ، القديسان ٢٦
 كوستر ، لوران ٦٢٤
 كوسوفو ، مدينة ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٩
 كوشانا ، امبراطورية ٧٠ ، ٧٨
 كوفلهام ، بير ٦٣٠
 الكوفة ١١٤ ، ١١٥
 كوكا ، مقاطعة او واحات ٦٩ ، ٩٧

لبرغ ، مدينة ٣٩٣ ، ٤٣٢
لوان ، مدرسة ٤٦٥
لن - لي ٨٨ ، ٩٠
لن - بي ، مملكة ٢٥٣ ، ٢٧٢
لندسفرن ٤٠ ، ٤٢
لندن ٣٤ ، ١٩٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦
٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٦١٠ ، ٦١١
٦٢٥
لندن ، معاهدة ٥٤٤ ...
لنغ - فو - تي ٩٤
لنغ - من ، مقاطعة ١٠١
اللنغا الملكية ٩٠
لنفلاند ، الشاعر ٤٨٣ ، ٤٥٠
لنكستر ، سلالة ٥٣٠ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧
- هنري دي ٥٣٠ ...
لنكولن ، مقاطعة ٣١
الوار ، نهر ٣٢ ، ٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٦
١٦٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣٣٢ ، ٥٠٥
٦٠٤
لوانغ ٨٨ ، ٨٩
لوبك ، مدينة ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٦
٥٠٨ ، ٥٢١
لوميز دي ابالا ٤٩٠
لوتوس الايمان القديم ، كتاب ٩٨
لوب - تور ٣٨٥
لوبوري ، مملكة (سيام الوسطى) ٣٥٤
لوثر ، الملك ١٦٦
لوترنجيا ، مقاطعة ١٨٥
لودي ، صلح (١٤٥٤) ٤٩٦ ، ٥٩٩
لور ، عشيقه بيترايك ٤٧٤ ، ٤٨٢
لوران فيالا ٤٤٩
لوران دي بريمينكت ٤٧٥
اللوردات ، مجلس ٥٤٣
لورنتيوس ، القديس ٦١٤
لورنتيوس العظيم ٦١٧
اللورين ٣٥ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ٣١٧ ، ٤٥٢ ، ٦٠٠
لوپ ، فردينان ٧ ، ٤٤٤
لوغو - كاتدرائية ٤٣٣
لوفان ، جامعتها ٤٦٧ ، ٥١٩
اللوفر ، متحف ٦١٤
لوقيانوس ٢٣٣
لوكسمبورج ، سلالة ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧
٥٤٠
لوكسويل ، دير ٣٧
لوكين ٣٢٤
لول ، ريمون ، الراهب ٤٢٦ ، ٤٧٥
لولار ٤٧٦

كيرغز او الكرفيز ، ترك ٢٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠
كيرلس الاسكندري ٥٢
كيرلس ، رسول الالف ٢١٩ ، ٢٢٠
كيرولاريوس ، البطريك ميخائيل ٢١٥ ، ٢٢٣
كيكومانوس ٢٣٣
كيليكيا ، مقاطعة ٦١ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ، ٣٤٧
٣٤٨ ، ٣٨٥ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
كيوتو ، مدينة ٢٧٧
كيوتشانغ - تشوني ٣٦٤ ، ٣٨١
كين ، دولة صينية ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧
كيناموس ، مؤرخ بيزنطي ٣٤٩
كييري ، مدينة ٣٩٩
كييف ، مدينة ٦٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٧ ، ٣٥١
٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٨٤ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤
كييف ، مملكة ... ٢٢١ ، ٣٥١
ل
اللاتين ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧
٥٦٨ ، ٥٧٨
لاروس ، الين دي ٤٧٨
لاروشيل ، مدينة ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، ٥٠٢ ، ٥٢٠
لافونتين ١٣٤
لارينس ، دير ٣٧
لاما التيب ٣٨٦ ، ٣٨٧
لان ، مدينة ٣٠٧ ، ٣٢٥ ، ٤٣١
لانسيلو ٤٢٩
اللانفدوق او اللنفدوك ١٤٥ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ٤٧٥ ، ٤٩٨
٥٠٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٦٠٢
لانكشير ١٧٤
لانيي ، مدينة ٤٠٠
اللاوس ٢٥٣
لاون السادس ٢٣٣
لاون التاسع الامبراطور البيزنطي ٢١٥
لاون ده فرساي ١٨٦
لبنان ، جبل ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٠١
لتوانيا ٦٤ ، ٤٤٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥
لتونيا ٣٩٦
لريدا ، جامعتها ٤٦٧
اللخميون ٦١ ، ١١١
لسان الدين بن الخطيب ٥٦٢
لسيوس ، جزيرة ٥٩٠
لعازر ، ملك الصرب ٥٧٩
اللمبارديون ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٦٠٨
لمبارديا ٣٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٩٧ ، ٢٣٠ ، ٥١٨
٥٣٣

ماجورك او مايورك ٤٥٤
 ماديرا ، جزيرة ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
 مارتزا ، نهر ٢١٧
 مارتينوس الخامس ٤٦٥
 مارتيني ٤٨٨
 مارسيل البادواني او دي بادوا ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٥٣٣
 مارسيل منتشين ٦١٨
 مارسيل دنجن ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
 الماركيت ، بلاد ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣
 مارموتيه ، دير ٢٩٨
 ماره ، جان ده ٤٨٩
 مارشييه ، ايمريغو ٥٠٢
 مارون ، مار ١١٨
 المارونية ، الكنيسة ١١٨ ، ١٢٣
 ماري دي فرانس ٤٢٨
 ماري الكبرى ، كنيسة ٢١
 ماريانو ٤٧٣
 مارينو فاليارو ٥٢٧
 ماراتشيو ٦١٤
 مازوفيا ، دوق ٣٩٢
 ماسكو ، اللوق البولوني ١٨٦
 ماشو ، غليوم دي ٤٩٠ ، ٤٩١
 ماغادها ، مدينة ٧٠
 ماغاهي ، مملكة ٧١ ، ٨٣
 مافاليبودام ٢٥١
 ماكون ، مدينة ٥٠٣
 ماكيافلي او مكيافلي ٥٠١ ، ٥٣٣ ، ٥٨٩ ، ٦٠٥
 مالغانت ، انطونيو ٦٢٨
 مالك ، المذهب المالكي ١٢٣ ، ١٣٣ ، ٢١٤ ، ٣٣٤
 مالي ، امبراطورية ٥٦٤
 مالو شالو ، لانزوتو ٦٢٦
 مالينس ، مدينة ٥٠٨
 مالينوس ٢٠٦
 المان ، مدينة ٢٠٧ ، ٣٢٤
 المانش ، خليج او بحر ١٩ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ١٥٠
 ١٦٩ ، ١٧٥ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٣
 مانزيكارت ، موقعة (١٠٧١) ٣٣٨
 مانويل ، جوان ٤٩٠
 المانوية ٥٣ ، ٥٨ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٢٣ ، ٣٥٨ ، ٤١٩ ، ٣٨١
 الماوردي ٣٣٨
 مابستريخت ، مدينة ٥١٨
 ماينس ٤٦٧ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥
 مايورا ٢٤٧

لونج - من ، مقاطعة ٩٨
 لونج - ين ، مغاور ٢٦٦
 لو - يانغ ٩١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٨
 لويس الورع ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٦
 ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٧
 لويس السادس ، ملك فرنسا ٢٨٤
 لويس السابع ٣٢٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٨
 لويس الثامن ٤٠٩
 لويس التاسع او القديس لويس ملك فرنسا ٣٤٦ ، ٣٨٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥
 لويس العاشر ٤٥٢
 لويس الحادي عشر ٤٩٩ ، ٥٢٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٣
 ٦٠٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٩
 لويس الثاني عشر ٦٠٥ ، ٦٠٦
 لويس دي بافير ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧٢ ، ٥٤٠
 لويس الاكبر ، ملك هنغاريا ٥٣٢
 لويس دورليان ٤٦٩ ، ٤٨٤
 لي - تايو ، الشاعر الصيني ٢٦٨
 لي - شي - مين ٢٥٨
 لياج ، مدينة ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٤٨٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٤٦
 لياو - يانغ ، مدينة ٣٥٤
 ليزيغ ٤٦٧ ، ٥٢٢
 ليتو ، بمبوينو ٦١٧
 الليتورجيا الغريغورية ١٦٣
 الليخ ، نهر ١٧٧
 ليزو ، مدينة ٤٤٤ ، ٦٠٩ - جامعها ٤٦٥
 ليشونا او لشبونة ٦١٠ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٠
 ليلج ، مدينة ٣٩٤ ، ٥٢٦
 ليموج ، مدينة ٣٢٩
 ليو - بو ٩٣ ، ٩٤
 ليوتيراند الكريموني ١٨٦
 ليون ، مدينة ٤١٨ ، ٤٣٣ ، ٥٠٣ ، ٥٢٢
 ٥٢٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦٢٥
 ليون الثالث الابصوري ١٤١
 ليون الكبير ، الارمني ٣٤٧
 ليونار ، عصر ٤٧٣
 ليونين ٤٣٠
 المأمون ، الخليفة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٢٩
 ما بين النهرين ، بلاد ٤٦ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٢٢٣
 ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٨٢
 الماتريدي ٢٣٠
 ماجا باهيت ، امبراطورية ٣٦١
 ماجستروس ، غريغوريوس ٢٣٤

الموحدون ، دولة ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
 مودينا ، مدينة ٤٢٢ ، ٤٤٥ ، جامعها ٤٢٢
 مورا ٥٠٢
 الموراف ، ٢١٩
 المورافا ، نهر ٢١٧
 مورافيا ، مقاطعة ٢١٧ ، ٣٦١
 مورتور ، انظمة ٣٩١
 مورتيمر ٥٣٠
 المورس ، جبال ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٩١
 الموريا او الموره ٧١ ، ٧٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢
 ٤٤٢ ، ٤٩٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣
 موربالي ، الاخ ٤٩٩
 الموز ، نهر ٣٤ ، ٣٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٣
 ١٨٢ ، ٣٣٠
 الموزيل ، نهر ١٦٧ ، ١٨٧ ، ٥٢٠
 موسى ١١٢
 موسى الكاظم ٢٠٨
 موسكوفيا ٣٥٢
 موسكو ٥٧٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٩٥٥
 الموشحات الاندلسية ٣٣٤
 الموصل ٥٨ ، ٢١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦
 موفدو الملك او رسله ١٥٧ ، ١٥٨
 مولدافيا ٥٧١ ، ٥٧٢
 مولداكومارا ٨٥
 المولوية ، فرق ٥٥٨ ، ٥٥٩
 المولوية ، دولة ٥٨٥
 مليون ، نقل ٤٩٨ ، ٤٩٩
 موليير ٢٢٩
 مونبليه ، مدينة ٣٢٥ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ، ٤٤٥ ، ٥٢٣ ، ٦٠٢
 مونتانوس ، ريجيو ٦١٩ ، ٦٣١
 مونتانيا ٦١٥
 مونتبال ٥٣١
 مونتيغو ، مدرسة ٤٦٥ ، ٤٧٠
 مونزر ، جيروم ٦٣٠
 مونكا ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
 المونونولية ، الهرطقة او القول بمشيئة
 واحدة في السيد المسيح ١١٨
 المونوفيزية ، الهرطقة او القول بطبيعة
 واحدة في السيد المسيح ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٤١ ، ٢٢٢
 مونوماكوس ، قسطنطين ٣٥٢
 ميتريا ٣٨٨
 ميثوديوس ، رسول السلاف ٢١٩ ، ٢٢٠
 ميخائيل السوري ، البطريك ٣٤٧
 ميرو ، جبل ٢٥٤
 ميخائيل الثامن ، الامبراطور ٥٦٤

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٥٤٩
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦
 ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
 — امبراطورية الغول ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١
 ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩
 — الكينات ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 — الكبير ٥٦٠
 المقامة ، فن ٢٢٥
 المقدسي ، الجغرافي العربي ٢٢٦
 مقدونيا ٦٦ ، ٢١٩ ، ٥٧٩
 المقدونية ، الاسرة ٢١٥
 القريري ، ٥٥٢
 المقطم (بناء قلعة) ٣٤٦
 مكاربوس ، المؤرخ اليوناني ٥٧٧
 مكسيموس المحترف ٥٣
 المكتبة المرقسية في البندقية ٦١٧
 المكتبة اللورنتية ٦٢٧
 مكسيميليان ، ملك النمسا ٦٠٤
 مكلمبورغ ٣٩٢
 مكة ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ٢٠٩
 ملك الملوك ٢١٦
 الملكية ، الكنيسة ١١٨
 ملك شاه ٣٣٩ ، ٣٤١
 الملل والنحل ، لابن حزم ٢٣١
 ملاطية ، مدينة ٢١٦
 الملايو ، شه جزيرة ١٣٣ ، ١٩٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨
 الماليك في مصر : حكمهم ٣٤٣ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢
 ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩
 المملكة اللاتينية في القدس ٢٥٧
 منتشية ، اماره ٥٧٥
 منتوا ، مؤتمر ٦٢٩
 منتي ، الامبراطور ٩٢
 منشوريا ٩٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
 المنصور ، (ملوك الطوائف) ٢١٤
 منفوليا او مغوليا ١٠١ ، ١٠٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨
 ٣٨٧
 المنغ ، سلالة صينية ٣٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩
 مهران ، شعب ٢٥١
 المهزلة الالهية ، لدانتى ٤٣٥ ، ٤٧١
 مو — جونج ، مملكة ٩٥
 الموارنة ١١٨ ، ١١٩ ، ٣٤٨
 مواساك ، مدينة ٣٣٠
 الموبدان ٥٨
 الموت ، قلعة ٣٤٠

٣٨٦، ٣٨٥، ٣٨٢، ٣٨٠، ٣٥٩
 — يوميات نسطور ٣٥٤
 النصرية، الدولة ٥٦١
 نصيبين ٥٤، ٤٤
 النصيرية أو العلوية (فرقة) ٢١١
 نظامي ٣٤٥
 النظامية، المدرسة ٣٣٩
 نظام الملك ٣٣٩، ٣٤٠
 النظم، كتاب لكسيودوروس ٤١
 نظمي، الشاعر التركي ٥٩
 النقشبندية ٥٦
 نقولا دي كوس ٤٧٣، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩
 ٦٢١
 نقولا الرابع، البابا ٣٨٦
 نقولا دي كلامانج ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٧٠، ٤٧٥
 ٤٧٨
 النقولاوية ٣١٦
 النساء ١٠٦
 نهر الذهب ٦٢٦
 نوبيسا ١٩٣
 لوتجر ده لبيج ١٨٦
 نوتردام (باريس) ١١٠
 النوربرتيون ٣٩٢
 نوربير، القديس ٣٢١
 نور الدين ٣٤٢
 نورلميتون، معاهدة ٤٤٧
 نورالبنجيا ٣٩٢
 نورمبرغ، مدينة ٤٤٦، ٤٥٤، ٥١٦، ٦١٢
 ٦٣٠، ٦٢٩، ٦١٩
 النورمنديون — نورمنديا ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨
 ١٩١، ٢١٧، ٢٢٢، ٣١٠، ٣١١، ٣٢٣
 ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٤٠٢، ٤٠٩
 ٤٣٣، ٥١١، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦، ٥٢٠
 ٥٤٠
 نوستريا ٣٠، ٤٦، ١٥١، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٧
 نولاري ٣٩٩
 نوفغورود، مدينة ٦٧، ٢١٨، ٢٢١، ٣٥٢
 ٣٩٦، ٥٢١، ٥٩٤، ٥٩٥
 نومبرغ، كاتدرائية ٢٣
 نوميديا، مقاطعة ٢٢
 النوبيري ٥٥٢
 نوبون، مدينة ٣٥، ٤٣١
 النيجر، نهر ٥٦٣، ٦٢٦
 نيجيريا ٥٦٤
 نيس، مدينة ١٧٤
 نيقوفورس الاول، الامبراطور ١٤٢، ٢٠٥
 نيقوفورس فوكاس، الامبراطور ٢١٥، ٢٠٦

ميرابو ٦٠٥
 ميرخاوند ٥٦١
 الميروفنجيون، او الدولة الميروفنجية ٢٨
 ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤٦، ١٤٨، ١٤٩
 ١٦٠، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٥، ١٥٢، ١٤٩
 ميرو كيغالون، موقعة (١١٧٦) ٣٥٠
 ميريا ١٠٦
 ميشال دي لاندو ٥٢٧
 ميشال دي لا بول ٥٤٢
 الميكونغ، نهر ٢٥٣
 ميلانو، مدينة ٢٣، ٢٦، ١٦٨، ٣٩٩، ٤٠٣
 ٤٢١، ٤٤٥، ٤٩٢، ٤٩٦، ٥٢٢، ٥٣٣
 ٥٩٩، ٦١٠، ٦١٢
 ميلوديا، موقعة ٣٩٧
 ميليا بورا ٣٨٦
 مينام، نهر ٢٥٨
 المينا، موتو، قبائل ٢٧٨
 المينيم، رهبة ٦٢٢
 ميهون — سور — يافر، مدينة ٦١٢
 ميهيراكولا ٦٩، ١٠٥، ٣٥٦

ن

نا — بروهم، معبد ٢٥٧
 نابولي ٢٦، ٤٣٤، ٤٧٤، ٥٣٢، ٥٤٣، ٥٩٩
 نا — تنغ، مدينة ٣٥٤
 نارا، عاصمة اليابان قديما ٢٤٧، ٢٧٥
 ناراند دياساس ١٠٨
 ناربونا، مدينة ٤٨٩
 ناري، الملك ٢٧٣
 ناريك، هريغوريوس ٢٣٤
 ناغازينا ٨٨
 ناغار ١٧٥، ٤٦٥، ٥٠٣، ٥٠٨، ٥١١، ٥٣١
 ٥٤٥
 — النافارية: الفترة ٤٩٨
 نافارين، مدينة ٤٩٨
 نالاندا، مدينة ٢٤٨
 — جامعة ٢٥٣
 نانت، مدينة ٤٦٧، ٤٩٢، ٦١٢
 نانغ، اكبر شاعر هنالي صيني ٩٩
 نانكين ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ١٠٧
 ناو — بوان — منغ، اكبر شاعر هنالي صيني
 قبل نانغ ٩٩
 نبطيون او انباط، مملكتهم ١١١
 النرويج ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ٣٩٦، ٥٣١
 نزار، الامير الفاطمي ٢١٣، ٣٤٠
 نزول رافو ٨٥
 نسطورة ٥١، ٥٢، ٥٤، ١١٩، ٢٥٢، ٢٦٦
 نسطوريوس — النسطورية ٥١، ٥٢، ٣٥١

هيدلبرغ ، جامعة ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢
الهيول ، قبائل ١٤٧
الهيكلين ، فرسان ٤٢٥
هينو ، مقاطعة ٣٩٦ ، ٥١٨
هيوان - تسونغ ، الامبراطور ٢٦٠
هيوانفستان ٨٥
هيوانغ - تسانغ ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
٢٦٧
هيو ب تسن ٩٣
هيونغ - نو ٩٤
هيونغ - نولبونان ، الملعب اتيلا الصين ٩٢

و

انواز ، نهر ٣٠٣ ، ٣٩٤ ، ٥٢٣
الواسطة او الوسيلة الكبرى ٨٦ ، ٢٥٣
الواسطة او الوسيلة الصغرى ٨٦ ، ٩٨
- ترجمتها الى الصينية ٩٨
والتردي هنلي ، واضع كتاب زراعة الكرمة
ونريبتها ٤٠٣
واي - تسي ٧٠
واي ، دولة ٦٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠
١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧
واي ، انشطارها على نفسها ٩٦
واي كوفيت (انام) ٣٥٤
الوردة ، قصة ٤٢٩
الورية ، المسبحة ٤٧٨
وستمنستر ، قصر ٦٠١
وسكس ، مملكة ١٧٩
الوقف : اصله ٢٠٥
ولسكنهام ، وليم ٤٤٧
ولهلم ٩٦
ونشستر ، مجمع ١٧٩ ، ٤٣٣
ونشستر ، انظمة ٣٩١
الوهايون ١٢٣
وهران ٢٠٧
وورمس ، معاهد (١١٢٢) ٣١٩
ولفرام فون اشنبانغ ٤٣٠
ويرماوث ، دير ٤١
الويغور ، قبائل تركية ١٠٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٦
٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨
ويكليف ، جون ٤٥٠ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥
٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠
الويلز ، مقاطعة ٤١٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٥١٦
ي
اليابان ٦٨ ، ٨٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٦٧
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١

هنري ، الدوق ١٨٤
هنگاريا - هنگاريون ٦٣ ، ١٠٥ ، ١٧٧ ، ٣٦١ ، ٣٨٥ ، ٣٥٣ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٥٣٢
٥٧٢ ، ٥٧١ ، ٥٨٥ ، ٦٠٩
هنگمار ، رئيس اساقفة ريمس ١٧٣
هو ، الامبراطورة ٩٥ ، ٩٦
هو - باي ، ولاية ٢٦٢
هو - بي ٣٨١
هوان - تسانغ ٢٤٥
هوانغ - هو ، نهر ٩٦
هواي ، نهر ٢٤٣
هواي - تسونغ ، الامبراطور ٢٦٩ ، ٣٥٧
٣٥٨
هواي - شانغ ٩٦
هونغفور ، مدينة ١٦٦
هو - فان ٩٩
هوراس ٣٢٤
هوريجي ، هيكل ٢٧٢
هوس ، جان ٤٤٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨٠
هوسمان ، رودولف ٦١٩
هوغ دي ديه ٣١٨
هوغ دي سان فكتور ٣٢٦
هوغ دي كلوني ٣٣٢
هوفولين ، الكردينال ٤٢١
هوكودو ، جون ٥٠٢ ، ٥٠٠
هولكو ٣٦١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٧ ، ٥٥٥
هولندا ٣٠٣ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥١١ ، ٥١٧
٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦
٥٤٨ ، ٥٤٧
هوبير دي موبانموتيه ٣١٧
الهونز ١٩ ، ٧٢ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٩١
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢١٨
٣٥٦ ، ٣٥٧
الهونز الهفتالية او البيض ٦٩ ، ٧٢ ، ١٠٢
١٠٤ ، ١٠٦ ، ٣٥٦
الهونز الاوروبيون ٣٥٦
هونغ ، الامبراطور ٩٧
هونغ - وو ، مؤسس سلالة المنغ ٣٨٨
هونباد ٤٤٨
هوبسكايا ، مدينة ٤٤٥ - جامعة ٤٦٧
هوية ، مقاطعة ٩٠
هيو قرانيس ٥٤
هيشوم الاول ، ملك ارمينيا ٢٨٥

يهوذا حلاوي ٣٣٥
 يواكيم دي فلورا ٤١٥، ٤٧٥
 اليواكيمية، النظرية ٤٢٤
 يوان، سلالة ٣٦١
 يوجين الرابع، البابا ٦١٧، ٦٢٨
 يوحنا الافسسي ٥٤
 يوحنا الايطالي ٣٤٩
 يوحنا الثاني، ملك البرتغال ٦٠٣، ٦٠٤
 ٦٢٩ ٦٠٥
 يوحنا الثاني عشر، البابا ١٨٥
 يوحنا الثاني والعشرين، البابا ٤٣٧، ٤٥٧
 ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٢، ٤٨٠
 يوحنا نيكيو ١٢٢
 يورك ٣٤، ٤١، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٨
 ٤٨٨، ٥٤٠، ٥٤١
 يوركشير ٥١٨
 يوستنيانوس، الامبراطور ٢٥، ٢٦، ٢٨
 ٣٨، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣
 ١٠٦، ١٣٩، ٥٨٩
 - القانون اليوستنياني ٢١٥
 يوستنيانوس الثاني ٦٢
 يوغوسلاف، يوغوسلافيا ٢١٩
 يو - نان ٢٥٩، ٢٦٠
 اليونان ٨، ٦١، ١٣٨، ٥٢٣، ٥٦٤، ٥٦٥
 ٥٨٤، ٥٦٨
 - شعب ١٢٢، ٥٤٩، ٥٧٨، ٥٨١
 يونان، الاورلياني ١٦٢
 يونغ - كانغ، مقاطعة ٩٨
 يي - تسانغ ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠
 يي - ليو - تشو - تساني ٣٧٦

يازو، دير ٤١
 ياروسلاف، ٢١٨، ١٢١
 باسوغاي، ابو جنكيز خان ٣٥٩
 ياقوت الحموي ٣٤٤
 يانغ - تسو، نهر ٣٧٩
 يانغ - تي ١٠٨، ٢٤٣
 يانغ - تشابو ١٠٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٥٧، ٣٧٨
 يانغ - كيان ١٠٧
 اليانية ٢٥٢
 يشرب او المدينة ١١١، ١١٢
 يحيى الانطاكي ٢٢٦
 يزيد الثاني ١٤١
 يزد، مسجد ٥٥٦
 يسوع المسيح ٥١، ١١٢، ١٤١، ٢٣٠
 يسون، الامبراطور ٣٨٧
 يشوع العمودي ٥٤
 اليعاقبة او الكنيسة اليعقوبية ٥٣، ١١٩
 ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٧
 يعقوب البرادمي ٥٣
 يعقوب، القديس ٣٠٢
 يعقوب الرهاوي ١١٩
 اليعقوبي ٢٢٥
 يفيل، هنري ٤٨٨
 اليمن ٦١، ٦٢، ١١١، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٠٩
 ٢١٣، ٣٤٣
 اليمنيون ١١٠
 ينايشابي، نهر ٣٥٨
 اليهود ٥٤، ٥٥، ٥٩٠
 اليهود، فلاسفتهم في اسبانيا ٣٣٥

فهرست الخرائط والنصاميم

ص

- ١ - المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع ٣٩
- ٢ - الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس ٥٧
- ٣ - آسيا في القرنين الرابع والخامس ٧١
- ٤ - الهند في عهد الغوبتا ٧٧
- ٥ - العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع ١٢٩
- ٦ - اوربوا الغربية في القسم الاول من القرن التاسع ١٧١
- ٧ - الشرق الادنى حوالي عام الف ٢١١
- ٨ - الهند في عصر الملك هارشا ده كلوجا (٦٠٦ - ٦٤٧) ٢٤٩
- ٩ - آسيا المسيحية عام ٧٥٠ ٢٥٩
- ١٠ - الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠) ٢٧١
- ١١ - الفن في الغرب (١٠٧٥ - ١٢٠٠) ٣٦٧
- ١٢ - الشرق الادنى واروبوا الشرقية في اوائل القرن الثالث عشر ٣٦٩
- ١٣ - آسيا في عهد جنكيزخان ٣٧١
- ١٤ - آسيا المغولية في عهد كوبيلاي ٣٨٣
- ١٥ - الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الثالث عشر ٣٩٥
- ١٦ - العالم المسيحي الغربي في عهد الانشقاق الكبير ٤٦٣
- ١٧ - تكوين الامبراطورية العثمانية ٥٨١
- ١٨ - الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الخامس عشر ٦٠٧

فهرست الصّور

- ١ - الامبراطورة تيودورا ووصيفاتها .
- ٢ - كنيسة آجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .
- ٣ - شاهد مدفني من حجر يمثل شهيدتين مصلوبين (القرن الثامن)
- ٤ - الملك شارل الاصلع
- ٥ - حديث صوفي بين بوذيين . نصب بروئزي مذهب يرتقي الى السنة ٥١٨
- ٦ - محاربون يشتركون في حرب الاديان
- ٧ - لاعبة الصنوج رسم جدراني . اجنتا (الهند) القرن السادس
- ٨ - فارس وخادمه .
- ٩ - كيلاسا في أُلورا (الهند) .
- ١٠ - المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ، القرن الثامن - القرن العاشر
- ١١ - الد « ياكوشيجي » في نارا (اليابان) . عمارة من خشب (القرن الثامن)
- ١٢ - معبد يهوفانشفارا (الهند) ، القرن العاشر
- ١٣ - موت هارولد
- ١٤ - جوفروا بلانتاجنيه
- ١٥ - البرج الكبير في حصن سان - جان في « نوجان - لو - روترو » (القرن الحادي عشر) .
- ١٦ - المسايقة بالرمح على الطريقة الجديدة . اعلى القناطر في كاتدرائية انغوليم (القرن الثاني عشر)
- ١٧ - المسيح في جلاله . جبهة الفارتكس في كنيسة المجدلية في فيزلاي (القرن الثاني عشر)
- ١٨ - الباب الملكي في كاتدرائية شارتر (القرن الثاني عشر)
- ١٩ - رواق دير تورونيه (القرن الثاني عشر)
- ٢٠ - قلعة الفرسان (حصن الاكراد) ، قلعة صليبية في سوريا (القرن الثاني عشر)
- ٢١ - قلعة حلب (سوريا) ، القرن الثاني عشر
- ٢٢ - رأس بوذا خيربي . انفكور (كمبوديا) . عهد البايون (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)

- ٢٣ - فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً
 ٢٤ - الاحصنة في المشرب .
 ٢٥ - اعمال الحقول
 ٢٦ - سوق لنديث . تزويق يزين كتاب الطقوس في سنس (فرنسا ، اواخر القرن الرابع عشر)
 ٢٧ - قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر
 ٢٨ - مدينة ايطالية في القرون الوسطى
 ٢٩ - مدينة كركسون . منظر الاسوار
 ٣٠ - كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)
 ٣١ - ملاك بواسي . نقش على حجر مصدره كنيسة دير بواسي (حوالي ١٣٠٠)
 ٣٢ - فارس شاكي السلاح
 ٣٣ - مباراة عسكرية
 ٣٤ - تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بروج)
 ٣٥ - سفينة (يونان يبتلمه الحوت)
 ٣٦ - تجار وزن .
 ٣٧ - دعوى دوق ألانسون
 ٣٨ - درس لاهوت في السربون
 ٣٩ - مشهد عرس
 ٤٠ - القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر)
 ٤١ - ضريح فيليب بوق وزير المدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر)
 ٤٢ - قصر رؤساء الجمهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر)
 ٤٣ - الباب الضخم لجامعة سلفكا (اسبانيا) ، اوائل القرن السادس عشر
 ٤٤ - الحمراء في غرناطة (اسبانيا) . وهو الاسود (القرن الرابع عشر)
 ٤٥ - ابو زيد والحارث يزوران مزرعة
 ٤٦ - الامير ماي و الاميرة هياون في حدائق امپراطور الصين
 ٤٧ - القبة والبرج في فلورنسا
 ٤٨ - مطبعة .

فهرست عام

التقسيم الأول

ص

٧

مدخل

تفوق الحضارة الشرقية

(من القرن الخامس الى القرن العاشر)

١٣ الفصل الاول . - انهيار العالم الروماني (من القرن الخامس الى السابع)

المحطات الامبراطورية الرومانية - تداعي الحضارة وانهيارها - الموجات الجرمانية - التشكيلات الجديدة - بلدان البحر المتوسط - غاليا الفرنجية - المجتمع الميروفنجي - بوادر بقعة تلوح في الافق - الرهبان وعمل المبشرين الرسولي .

٤٣ الفصل الثاني . - انهيار العالم الروماني : الشرق

الامبراطورية الرومانية الشرقية - تفوق الشرق اقتصادياً واجتماعياً - يوستينيانوس - المطالبة والنزعات الاخلاقية - المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي - المدنات القومية - الدولة الساسانية - الادب والفنون في عهد الدولة الساسانية - بيزنطية وآسيا - برابرة افريقيا واسبانيا - انتشار الصقالبة وتوسيعهم .

٦٨ الفصل الثالث . - بين البدو والحضر في آسيا (من القرن الرابع حتى السابع)

١ - الهند تبلغ اوجها في عهد دولة الغوبتا

٧٠ شخصية الامباطور - الدولة والادارة - مرافق البلاد ومصادرها - الحالة الاقتصادية - الوضع الاجتماعي - قانون الجزاء - الحياة العامة والخاصة - الحياة الدينية والفكرية والفنية .

٢ - اقطار آسيا الجنوبية الفكرية

٨٧ مقاطعة فونان - سلالة الشامبا - شبه جزيرة الملايو والانسولاند .

٣ - الامبراطورية الصينية في اعقاب ازمة القرن الثالث

٩١ الصين الجنوبية - الصين الشمالية - استمرار العمل الحضاري في الصين - الحياة الاجتماعية .

٤ - آسيا العليا وانتشار الهونز

١٠١ ٥ - الصين في عهد دولة سوي

١٠٩ الفصل الرابع . - فجر الاسلام (من القرن السابع الى القرن التاسع)

الجزيرة العربية قبل الاسلام - عهد - الفتوحات العربية - الدولة الاموية - العقيدة الاسلامية - سكان البلاد الوطنيون - حضارات متقاربة - اقبال سكان البلاد الاصليين على اعتناق الاسلام - ثورة بني العباس وانقلاب الحكم - استمرار الاضطرابات - الفكرة الدينية - الثقافة القديمة والنزعات الدينية - الاداب والفنون - الحياة القلقة في بيزنطية - تكرم الايقونات المقدسة وتحطيمها بقم بيزنطية وبعدها .

١٤٤ الفصل الخامس . - أوروبا في عزلة وانزواء (القرن ٨ - ١٠)

تفتتها السياسي - ظهور الامبراطورية الكارولنجية - ضعف الوضع الاقتصادي ووهنه - الاقتصاد العقاري : الاملاك - المجتمع الريفي - وسائل الحكم - ملكية وتبعية - الكنيسة الكارولنجية - ازدهار الآداب - نهضة الفنون - وحدة الحضارة في الغرب - انقسام الامبراطورية الكارولنجية - العرب والنورمنديون والمجر - نتائج الغزو الجديدة - انكلترا السكسونية - فرنكيا الغربية - الآمال المعقودة على مجتمع قوامه النظام الاقطاعي - جرمانيا وامبراطورية اوتون .

١٨٩ الفصل السادس . - الشرق الادنى : ازدهاره وأزماته (القرنان التاسع والعاشر)

التجارة - التقنية التجارية - الحرب والمهن - المدن - حياة الريف في البلاد الاسلامية - الجيش في البلاد الاسلامية - الاقطاع والوقف - المجتمع البيزنطي - الممسل والنحل الاسلامية - انقسام العالم الاسلامي - الفاطميون في مصر والايوبيون في الاندلس - النهضة السيامية في بيزنطية - البلدان الصقلية - التبشير بالمسيحية بين الصقالبة - الشرق الادنى ومتابعيه العديدة - وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها - العلم والفلسفة - الادب المسيحي واليهودي - الادب البيزنطي - فنون الشرق الادنى .

٢٤٠ الفصل السابع . - الحضارات الآسيوية في الاوج (من القرن السابع حتى الثاني عشر)

انتشار البوذية - نشاط الحوكة التجارية - الاخطار الخارجية - مصائب الهند وريلاها - امبراطورية الخمير - الصين في عهد سلالة تانغ - الاطر الادارية والعسكرية - تطور المجتمع - الحياة العقلية والدينية - الحميات الصينية في عهد دولة تانغ - الصين في عهد سلالة سونغ - دخول اليابان الحلبة - النظام الاقطاعي في اليابان - طلوع عهد الشوغوات .

القسم الثاني

عصور أوروبا الاقطاعية

والاسلام التركي وآسيا المغولية

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

٢٨٣ الفصل الاول . - تحول أوروبا (القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

٢٨٣ ١ - المجتمع الاقطاعي السلطات الجديدة - الفرسية - الاقطاع - الاخلاص والقسم والنسب - الفلاحون .

٢٩٦ ٢ - النمو الاقتصادي التحسينات التقنية - الانتاج والسكان - احياء الاراضي - انتقال الممتلكات والسكان - التجار - نهضة الحياة المدنية - حركة التكتل البورجوازي .

٣٠٩ ٣ - التوسع العسكري تقنيات الحرب - نورمنديو انكلترا وايطاليا - الحرب الاستردادية والحرب الصليبية .

٣١٦ ٤ - النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

- فساد الاخلاق والاتجار بالقدسيات - الاصلاح الغريغوري - مشادة التولييات - الابتغاءات الدينية -
الجمعيات الرهبانية الجديدة .
- ٣٢٣ ٥ - النهضة الروحية : الحركة الفكرية .
المدارس - العلوم واللاهوت والفلسفة - الشعراء المتجولون والاغاني الايمائية .
- ٣٢٨ ٦ النهضة الروحية : الازدهار الفني .
هندسة العمارة « الرومانية » - الزخرفة - المواضيع التصويرية .
- الفصل الثاني . - انكفاءات الاسلام وبيزنطية وصراعاتها (القرن الحادي عشر -
٣٣٣ القرن الثاني عشر)
المرابطون والموحدون - الحضارة الاندلسية - الغزوات التركية - الشرق الادنى السلجوقي -
تجزئة الاسلام التركي - ثبات الحضارة الاسلامية - الطوائف المسيحية الشرقية - غسق
بيزنطية - روسيا قبيل الفتح المغولي .
- ٣٥٣ الفصل الثالث . - آسيا المغولية (القرنان الثالث عشر والرابع عشر)
آسيا قبيل التوسع المغولي - ماضي عالم البدر - تكون الامبراطورية المغولية - مميزات الحضارة
المغولية - المجتمع المغولي - النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية - النظام الاجتماعي في ظل
الامبراطورية - الخان الاعظم - الجيش والحرب - التنظيم الداخلي - التجارة والعلاقات
الخارجية - الشامانية - الديانات الغريبة - المغول والمسيحية الرومانية - تصدع آسيا والمحطاطها
في اواخر القرون الوسطى .
- ٣٩٠ الفصل الرابع . - تفتح اوربا الاقتصادية (حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)
٣٩١ ١ - الاقتصاد الاوروبي
استقرار الاقتصاد الزراعي - الاستثمار المالي في الشرق - اجواخ «فلاندر» والتجارة الداخلية
المشتركة - رجال الاعمال الايطاليون - أسواق شيمانيا الدورية - النقد - تكييف الاقتصاد
الريفي - التبدلات الاجتماعية .
- ٤٠٨ ٢ - رسوخ اركان الملكيات
الملكية الفرنسية - انكلترا - مناطق الامبراطورية .
- ٤١٧ ٣ - تعرض وحدة الكنيسة للاخطار
القوى المعادية - رد الفعل البابوي - جميات التسول - الجامعات - نمو الروح العلمانية - العلم والعقيدة .
- ٤٢٦ ٤ - اشعاع الحضارة الفرنسية
تقدم التدريس - الادب - الفن القوطي - ضعف التأثير الفرنسي - تبشير النهضة الايطالية .

القسم الثالث

الايام العvisية

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

- ٤٤١ الفصل الاول . - وعي مصاعب اوربا
٤٤١ ١ - ابعاد الحضارة الغربية

- الرقعة الجغرافية - عدد السكان - ولادة الامم - اللغات القومية - السلالات والكنائس القومية - الحدود البرية والبحرية - فقدان السلطة المنظمة .
- ٢ - هبوط السلطة الروحية ١٥٦
- الانتقادات الموجبة الى البابوية - النظريات الامبراطورية الجديدة - الكنائس القومية - المذهب الجمعي .
- ٣ - وهن السلطة الفكرية ١٦٥
- تعدد الجامعات - تأخر الدروس - جمود المناهج .
- ٤ - اختار الافكار والقلق الديني ١٧٠
- زخات العصر - أركهام والنشاط العلمي - دراسة الادب القديم الارلى - الصوفية - التقوى - البرطقات الجديدة .
- ٥ - التصنع في التعبير الادبي والجمالي ١٨١
- مناقضات الحياة الادبية - الفرنسية وأدب الجماعة - البذخ والذرق - مصائر الفن القوطي - الأثران والتمايز الادبية - الفن اللببي - تحريك الدواطف والواقعية .
- الفصل الثاني . - متاعب أوروبا المادية ١٩٥
- ١ - الحرب ١٩٥
- هجز الدبلوماسية - أدلاء الطرق وفرق المرافقة - الفرقة الايطالية - الفن العسكري - الحرب البحرية - مكاسب الحرب .
- ٢ - البلى العامة الكبرى ٥٠٤
- ٣ - فقدان التوازن الاقتصادي ٥٠٨
- انجاعات الاقتصاد - النقود والاسعار والاجور - مصر الاراضي - صناعة النسيج - تجارة المواد الغذائية - اسواق التجارة وطرقاتها - تقنية الاعمال .
- ٤ - الاضطرابات الاجتماعية ٥٢٥
- التدسينات الاجتماعية - الاضطرابات في المدن - الاضطرابات الريفية .
- الفصل الثالث . - فقدان التوازن السياسي في أوروبا ٥٢٩
- مغزى المعاضل السلافية - ممالك الشمال والشرق - ايطاليا - نقص موارد الدولة - الموارد الجديدة - القوى الاجتماعية الجديدة : الامراء - دور البروجوازية السياسي - جمعيات الدول - الدولة تبحث عن نظام .
- الفصل الرابع . - نشأة الدولة العثمانية ٥٤٩
- ١ - الاسلام في عهد المغول ٥٤٩
- الفتح المغولي - حكم المالك في مصر - ايران المغولية - الدول المغولية الاسلامية الاخرى - الهند الاسلامية - آسيا الصغرى - الدولة التيمورية - الغرب الاسلامي .
- ٢ - اقوال نجم الدول المسيحية في البلقان ٥٦١
- اليونان واللاتين وجها لوجه في البلقان - الممالك السلافية في البلقان - مصر الثغالة البيزنطية .
- ٣ - الامبراطورية العثمانية ٥٧٥
- ظهور المشائين - فتح وتنظيم - محنة الدولة العثمانية وإعادة تنظيمها - التنظيم العثمانية - مالم المدنية العثمانية .

٥٩٢	١ - نشأة روسيا المسكوبية
٥٩٨	الفصل الخامس - أوروبا وتشكيلاتها السياسية الجديدة
٥٩٩	١ - ظهور الدولة الحديثة
	المركزية الادارية - المركزية السياسية - الدولة والبنيان الاجتماعي
٦٠٥	٢ - انعكاس الاوضاع وانقلاب الاحوال
٦١١	٣ - بين الرغائب والاماني
	بهجة العين وحلية العيش : الهندسة - فن التصوير الايطالي - الفن الفرنسي الفلمني - الاحياء الثقافية الايطالي - علماء عصر الانبعاث من فرنسين وألمان - الدين والتصوف
٦٢٣	٤ - انتشار الفكر والمعرفة في العالم
	اختراع الطباعة - الاكتشافات الجغرافية
٦٣١	المراجع
٦٤٣	مراجع عربية
٦٦١	جدول زمني مقارن
٧٠٥	جدول الاعلام
٧٤٣	فهرست الخرائط والتصاميم
٧٤٥	فهرست الصور
٧٤٧	فهرست عام

انتهى المجلد الثالث ، ويليه المجلد الرابع
القرنان السادس عشر والسابع عشر

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME III

LE MOYEN AGE **L'EXPANSION DE L'ORIENT** **ET LA NAISSANCE** **DE LA CIVILISATION OCCIDENTALE**

TROISIÈME ÉDITION

par

Édouard PERROY

Professeur à la Sorbonne

avec la collaboration de

Jeannine AUBOYER
*Conservateur
au Musée Guimet*

Claude CAHEN
*Professeur
à la Sorbonne*

Georges DUBY
*Professeur
à la Faculté des Lettres
d'Alz*

Michel MOLLAT
*Professeur
à la Sorbonne*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

